أحمد حسن الزيات

وحي الرسالة

فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع والقصص

نال هذا الكتاب جائزة الدولة للأدب

أحمد حسن الزيات

وحي الرسالة

فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع

نال هذا الكتاب جائزة الدولة للأدب لسنة ١٩٥٣

المجلد الأول - الطبعة السابعة

١٣٨١ - ١٩٦٢

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر بالفجالة
١٨ شارع كامل صدقي

مطبعة الرسالة
شارع كرودة الفضل ٣ قاهرة

إلى روحك اللطيفة العزيزة يا ولدي رجاء أقدم هذا الكتاب :

فلولاك ما أنشأت الرسالة ، ولولا الرسالة ما أنشأت هذه الفصول .

والدك الحزين إلى يوم يلقاك

أحمد حسن الزيات

الفهرس

	صفحة
فى الجمال	١
فى الربيع	١٤
فى العيد	١٧
فى المرآة	٢٠
ساعة مع الأستاذ لطفى السيد	٢٣
ذكرى المولد (١)	٣٠
بين النيل والأكروبول	٣٣
على الشاطىء	٣٧
لماذا ترجمت آلام فرتر	٤٢
الملك الشهيد	٤٥
فرعونيون وعرب	٤٩
حديقة	٥٣
القرية أمس واليوم	٥٧
نهضة الشباب	٦١
حجاج ودوس	٦٥
فلسطين	٦٨
رمضان	٧٢
لطفية النادى	٧٧
فى الأقصر	٨١
زمزم	٩٥
شهرنا الخالد	٩٩
عيد الأضحى	١٠٢
كاظم باشا الحسينى	١٠٦
فى الحال الحاضرة	١٠٨
العام الهجرى (١)	١١٢
يوم الجمعة	١١٦
قطع العقدة أسهل من حلها	١١٩
الامتيازات والأدب	١٢٣
تأمل ساعة	١٢٦
الامتيازات والدين	١٢٩
ذكرى المولد (٢)	١٣٣

	صفحة
فى الموقف الأدبى الحاضر	١٣٧
أحمد زكى باشا	١٤١
بين السياسة والأدب	١٤٥
على الشاطىء الغريق	١٤٩
ياهادى الطريق جرت	١٥٣
داء الوظيفة	١٥٧
عهد وأى عهد !	١٦١
دار تبلى	١٦٥
إلى القرية يا بك	١٦٩
الراديو والشاعر	١٧٣
أسبوع حافل	١٧٦
الحج	١٨٠
الثقافة المذبذبة	١٨٤
الملك على	١٨٨
الأزهر بين الماضى والحاضر	١٩٢
مصر وأخواتها	١٩٥
إلى أين يساق الأتراك	١٩٩
الفردية علتنا الأصيلة	٢٠٣
على ذكر كتاب	٢٠٧
العام الهجرى (٢)	٢١٠
جمعية نهضة القرى	٢١٤
أعياد الحياة والحرية	٢١٨
بنك مصر	٢٢٢
إلى بعض الكبراء	٢٢٩
ذكرى المولد (٣)	٢٣٣
صيف الأديب	٢٣٧
مثل من الشباب الصالح	٢٤٠
كلكم حواريون فمن يهوذا ؟	٢٤٣
الشيخ محمد عبده	٢٤٧
محمد حافظ إبراهيم	٢٥٤
مصر والشرق الإسلامى	٢٦١

	صفحة
سعد زغلول باشا	٢٦٥
أحمد شوقى	٢٧٢
١٧ رمضان	٢٧٦
أبو الطيب المتنبى	٢٨٠
من أحاديث النيروز	٢٨٧
ملك وشاعر	٢٩١
تاريخ يثور	٢٩٥
شباب العراق فى مصر	٢٩٩
ولدى	٣٠٣
محمد الوالد	٣٠٧
بين أسلوبين	٣١١
النقد المزيف	٣١٥
أروع أيام سعد	٣١٩
إلى صاحب السعادة المحافظ	٣٢٣
الحلقة	٣٢٨
بعد المعاهدة	٣٣٢
استقلال اللغة	٣٣٦
بين سلطان وسلطان	٣٤٠
ذكرى ميلاد	٣٤٤
الدفاع المقدس	٣٤٨
لو كنا نقرأ	٣٥١
جيل صدق الزهاوى	٣٥٥
العام الهجرى (٣)	٣٦٥
منطق الواقع	٣٦٩
حول الديمقراطية	٣٧٣
الطربوش والقبعة	٣٧٧
أدب السندوتش	٣٨١
مصطفى لطفى المنفلوطى	٣٨٥
أى زمان هذا !	٣٩١
الخريف فى الريف	٣٩٥
محمد فريد	٣٩٩
الصيام بين عهدين	٤٠٣
ثورة على الأخلاق	٤٠٧
رجل سعيد	٤١١
من أحاديث العيد	٤١٥
فى حفلة أدبية	٤١٨
سارة للأستاذ العقاد	٤٢١
العام الهجرى (٤)	٤٢٥
كامنة فى أوانها	٤٢٨
شم النسيم	٤٣١
مصطفى عبد الرازق بك	٤٣٥
مصطفى صادق الرافعى	٤٣٨
ليالى الحصاد	٤٤٤
من الذكريات الجميلة	٤٤٨
يا لله لفلسطين !	٤٥٢
أسبوع محموم	٤٥٥
شيطان	٤٥٩
الغازى أتاتورك	٤٦٢
ليت للأوقاف عيناً !	٤٦٦
بل ليت للأوقاف قلباً	٤٧٠
يا إنسان ! أين الإحسان !	٤٧٤
تنظيم الإحسان	٤٧٧
فتون وجنون	٤٨١
التبشير عدو السلام	٤٨٥
آراء الكتاب فى هذا الكتاب	٤٨٩

وحي الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

قارئى العزيز :

اخترت لك هذه الفصول مما كتبته للرسالة فى ست سنين . وكان من عادتى أن أكتب الفصل منها فى أصيل يوم السبت من كل أسبوع ، ثم لا أكتبه طوعا لتأثير قراءة أو تحرير فكرة أو تخمير رأى ، إنما كان أثراً لوحى ساعته ، أو حديث يومه ، أو صدى أسبوعه . فالزمن جزء منه متمم لمعناه : يبين ملابسته الحادث ، ويعين مناسبته للتاريخ . لذلك أعقبت كل فصل بذكر اليوم الذى كتب فيه ليتضح موضوعه بفعله وحاله وظرفه .

رجعت النظر فى هذه الفصول ساعة هيأتها للطبع فلم أجد فيها ما أنكره ؛ لأنها وإن كتبت عفو الخاطر ومجاراة المناسبة تتسم بالصدق . والصدق فى الفن جوهر بلاغته وسر دوامه . وهو فى البيان وضع اللفظ فى موضعه ، ووصف الشىء بصفته ، ومطابقة الكلام لمقامه . وأكذب ما يكون البيان إذا ترادف لفظ ولفظ ، وتشابه معنى ومعنى ، وتناقض رأى ورأى ، وتعارض وجه ووجه . ولعلك لا تجد فيما تقرأ من هذه المقالات لفظاً يجافيه المعنى ، ولا معنى يجانبه الحق .

وأسلوب الكتاب الإيجاز . والإيجاز ملاكه الأناة والفطنة . فإذا قرأته قراءة العجلان ، لا تظفر منه إلا بقبس العجلان . والله أدعو أن يجعل انتفاعك بقراءته كفاء ما بذلت من الجهد والإخلاص فى كتابته .

القاهرة فى أول يناير سنة ١٩٤٠

أحمد حسن الزيات

في الجمال

- ١ -

ما الجميل ؟ الجميل في إجماع الناس هو ما ينشىء في الذهن فكرة سامية عن الشيء في الطبيعة أو عن الموضوع في الفن ، فيبعث في نفسك عاطفة السرور منه والإعجاب به . ولكن ما هي على وجه التحديد الصفات التي تبعث السرور وتثير الإعجاب في بدائع الفن أو في روائع الطبيعة ؟ ذلك ما سنحاول شرحه في شيء من الإفاضة .

الطبيعة والفن إنما يحدثان أثرهما في النفس إما بالفكرة وإما بالعاطفة وإما بالشعور الصادر عن آلات الحس . ومن ذلك تنوع الجمال فكان عقلياً وأدبياً ومادياً ما في ذلك شك . ففي أي الجهات إذن تتعرف النفس والعاطفة والحواس وجوه الجمال ؟ إن الخصائص المميزة للجمال هي القوة ، والوفرة[1] ، والذكاء . والمراد بالقوة شدة العمل وحدّته ، وبالوفرة كثرة الوسائل وخصوبتها ، وبالذكاء الطريقة الرشيدة المفيدة لتطبيق هذه الوسائل . ولا جدال في أن الحواس ليست كلها أهلاً لنقل هذه الخصائص الجمالية الثلاث ، وإنما ينفرد منها السمع والبصر بنقل أحاسيسهما نقلاً قوياً يثير الدهش والإعجاب واللذة . أما الانفعال الذي يأتيك عن طريق الشم والذوق واللمس فلا ينشأ عنه فكرة ولا عاطفة ؛ لأن الطعوم والروائح ، والملوسة والخشونة ، والصلابة واللدونة ، والحرارة والبرودة ، أحاسيس بسيطة عقيمة ، قد توقظ في النفس ذكرى خابية ، أو عاطفة غافية ، ولكنها لا تنتج واحدة منهما وإذا كان البصر آلة الجمال الحسي أو المادي ، والسمع آلة الجمال العقلي والخلقي ، فإن في هاتين الحاستين الدليل على خصائص

(١) الوفرة : مصدر وفر الشيء إذا كثر واتسع وتم وكمل .

الجمال الثلاث . ذلك لأن أجمل ما يؤثر فى العين والأذن هو ما بلغ من القوة والوفرة والذكاء أسمى غاية . وجمال الأشياء إنما يتفاضل فيها بمقدار ما يشتمل عليه من هذه العناصر . وكلما غاب عنصر منها أو قل ، ضعف فينا الشعور بالجمال على نسبته . ما الذى يجمل لعملى النفس وهما الفكر والإرادة هذه الصفة التى تملك اللب فى العبقرية والفضيلة ؟ لا شىء غير القوة والوفرة والذكاء ، سواء أكان ماتعجب به براعة الصنع أم كان مهارة الصانع . إن الطيبة فى ذاتها فضيلة ؛ ولكنها لا تكون جميلة إلا إذا اقترنت بالقوة . فسقراط فى الحكماء ، وعمر فى الخلفاء ، مثلان سائران فى جمال الخلق ؛ ولكنك إذا جردت أخلاقهما مما ينبىء عن القوة وخواصها من الصدق والصبر والشجاعة والسمو ، ذهب الجمال وبقيت الطيبة . إذا صنعت المعروف فى صديقك وعدوك كان فعلك كريماً فى الحالين ؛ ولكنه فى الصديق عادى لأنه بسيط سهل ، وهو فى العدو ممتاز لأنه عظيم شاق وفى هذه القوة التى تقتضيها تلك المشقة كان جماله . إن وفاء السموءل بدروع امرىء القيس فضيلة ؛ ولكن اقترانه بالقوة على تضحيته بابنه جعله آية فى جمال الوفاء . إن تنفيذ بروتوس[1] عقوبة الموت فى أحد المجرمين عادة مألوفة ؛ ولكن تنفيذه إياها فى بنيه الذين ائتمروا بروما مثل نادر لجمال البطولة . وموقف هكطور[2] مع أندروماك ، وموقف أسماء بنت أبى بكر مع ابن الزبير ، لا يقلان جمالا عن ذينك الموقفين . وسر الجمال فى كل أولئك إنما هو تلك القوة الخارقة فى تغليب فكرة الواجب على عاطفة البنوة .

كذلك الحال فى أعمال الذهن ، فحل معضلة فى الهندسة ، وكشف عظيم فى الطبيعة ، واختراع عجيب فى الميكانيكا ، ونظام محكم الوضع فى التشريع ،

(١) بروتوس امبراطور رومانى حكم من سنة ٢٧٦ إلى سنة ٢٨٢ م .
(٢) موقف هكطور مع زوجته أندروماك وهى تخزله عن الحرب ليعيش لولده ، من المواقف البليغة المؤثرة فى الإلياذة .

وقطعة قوية التفكير والتصوير فى الأدب ، كلها أعمال جميلة ، لأنها تستلزم نصيباً موفوراً من الذكاء ، وقوة عظيمة فى التفكير . وشعور المرء بالجمال فيها موقوف على إدراك القوة التى تقتضيها . فالعامى أمام الأحرف الهجائية ، والتلميذ أمام منطق أرسطو ، لايجدان فيهما من الجمال ما يجده الفيلسوف ، لأنه يدرك ما اقتضياه وتضمناه من الذكاء والقوة .

أما فى البلاغة والشعر فأبين خصائص الجمال الذكاء والوفرة . فتزاحم العواطف ، وتكاثر الصور ، وتوافر الأفكار ، ثم اتساع الخواطر بالذهن النير الذى يحييها و يقويها ويستولدها ، وغزارة اللغة وخصوبتها وقدرتها على أن تعبر عن العلاقات الجديدة للحياة ، أو على أن تفيض من الحرارة والقوة على الحركات المختلفة للنفس ، كل أولئك يملأ شعاب القلب بالإعجاب ، وذلك الإعجاب الذى نحسه هو عاطفة الجمال .

* * *

وشأن الجمال فى المادة لا يختلف عن شأنه فى الفكر والعاطفة ، فإنك إذا ذهبت تبحث فى الطبيعة عن الصفة العامة للجمال لم تجدها غير القوة أو الوفرة أو الذكاء . ففى الحيوان تجد هذه الصفات الثلاث مجتمعة ومتفرقة ؛ ففى جمال الأسد القوة ، وفى جمال الطاووس الوفرة ، وفى جمال الإنسان الذكاء . ولا أقصد ذكاء الإنسان فى نفسه ، إنما أقصد ذكاء الطبيعة[1] فى تهيئته وتثقيفه . وذكاء الطبيعة معناه مطابقة طرائقها لصورها ، وملاءمة وسائلها لغاياتها ؛ فغايتها من الرجل غير غايتها من المرأة ، ولذلك اختلفت الوسائل فى الزوجين ، وتباين مقياس الجمال فى الجنسين . أرادت الطبيعة من الرجل أن يعمل ويقاتل ويحمى زوجه ويعول أسرته ، فزودته بما يحقق هذا المراد ويمضى تلك الإرادة :

(١) نريد بالطبيعة ما يقابل الفن . والفن صنع الإنسان ، كما أن الطبيعة صنع الله .

تركيب وثيق محكم تنم ملامحه على السرعة والمهارة والقوة والشجاعة ، وجسم متجاوب الأعضاء متناظر الشكول متوازن الأوضاع يصلح لكل عمل ويقدر على كل حركة ويستقيم على أى صورة ، وسمات من الشهامة والجرأة والحنان والحساسية تفيض من العيون وتنتشر على الوجوه وتختلج على الشفاه ، وجملة من الصفات الخلقية والجسمية تؤلف فى الإنسان مزايا الجمال المذكر

فإذا قلت رجل جميل كان معنى ذلك أن الطبيعة وهى تكوّنه عرفت ما تفعل وفعلت ما تريد .

— ٢ —

لعل جمال المرأة أبرع مثل للجمال الطبيعى لو تدبرته . وسر الإعجاب فيه هو سر الإعجاب فى جمال الرجل : أعنى الذكاء . والذكاء كما قلت إبداع الوسائل الملائمة للغاية ، ثم تطبيق هذه الوسائل على غايتها فى نظام دقيق محكم فأنت لا تستطيع أن تفقه جمال المرأة إلا إذا وقفت على حكمة الله فيها وغرض الطبيعة منها ، وأدركت ما بين طبيعة خلقها وعلة وجودها من المواءمة التى تسترق الأفئدة وتدق على أفهام البشر .

فالعلة الغائية لخلق المرأة هى أن تكون زوجة وأماً : وسبيلها أن تروض الرجل وتدمث خلقه وترقق طبعه ليسكن إليها ويشبل(١) عليها بالمعونة والنجدة . وسكون الزوج إلى زوجه تدبير إلهى يقوم عليه بناء المجتمع وبقاء النوع ، لأن المرأة وهى زوج تحمل أو أم ترضع ، لا تملك لنفسها ولا لأولادها غذاء ولا حماية . فادام الولد فى حاجة إلى أمه فالأم فى حاجة إلى أبيه . ولكن غريزة الاستقرار والاستمرار فى الرجل ضعيفة ، فلا بد لهذا الوحشى الشريد من صلة أخرى غير صلة الدم تحبسه على زوجه وتعطفه على بنيه . والحب وحده هو الذى مكن

(١) أشبل عليه : عطف .

الطبيعة من هذه البغية : فبفضل الجاذبية سكن النافر ، وبسحر الجمال ثبت العزوف (١) وللحب خصيصتان قويتان : الرغبة والحشمة . ومن ذلك كان جمال المرأة داعي الرغبة خافض الجناح حيي الطبع . والرجل مزهو على المرأة ، يدل بحيازته لها ، ويعتز بقيامه عليها . فهو يريدها « ريحانة لا قهرمانة » ، وحبيبة لا جليبة(٢) . لها سلطان ولكنه رقيق ، وفيها إباء ولكنه رقيق . ومن ثم كان جمالها مزيجاً من الوداعة والعزة ، وخليطاً من الضعف والدلال ، وطباقاً من الهيبة والنبل .

وجمال المرأة يحتفظ بدوامه وسحره ما دام له روح من العاطفة تشع في نظراتها ، وتنسم في بسماتها ، وتشيع في قسماتها ، وتنشر أضواءها السحرية على أعصاب الرجل — وهو بطبعه ولوع — فيتمتع بنعمة اختياره ولذة إيثاره ويجد في الضعف الذي يستسلم ويستكين ، الحبَّ الذي يطول ويحكم .

إن شبهة الخداع والتصنع تودي بكل شيء . لذلك كان في مخايل الطيبة التي تحسن وهي تجهل ، وفي سمات الظرف الغرير الذي يتراءى وهو يختفي ، وفي أسرار الهوى المكتوم الذي تفضحه البسمة الحنون من شفة مطبقة ، وتعلنه الومضة الخاطفة من نظرة حيية ، وفي دلائل الملامح المعبرة في الوجوه التي تقول وهي تنصت ، وتريد وهي ترفض ، كان في كل أولئك بلاغة الجمال . فإذا أصيب الحب بالفتور ابتلي الجمال بالخرس .

وسلطان المرأة القوى على قلب الرجل إنما يأتيها من ذلك الذكاء المستتر ترعاه معه وفيه على غير علمه فكان من مزايا جمالها أيضاً أن تلوح هذه البصيرة الدقيقة على أسرَّة وجهها ، وتشرق على الأخص في تلك النظرة الوديعة

---

(١) العزوف . المنصرف عن الشيء الزاهد فيه .

(٢) القهرمانة . الخادمة ، والجليبة : الجارية المجلوبة .

التى تتغلغل فى طوايا القلب فتنسخ ظلال الفتور وتبدد ظلام الكآبة وتشعل خمود الحب .

ومن خصائص جمال المرأة الاحتفاظ بالقلب الذى تصباه وسباه ووسيلته أن يطرد السأم عنه ويجدد الشوق فيه ، فيعير العادة المملة ألوان الجدّة ، ويقبس الحياة الرتيبة حرارة التنوع وذلك هو السر العجيب الذى وضعه الله فى الجمال النسوى ، فيتكرر ولا يُمل ، ويستعلن ولا يُفهم ، ويتجدد ولا يتناهى ، ويتنوع ولا يختلف ، ويتولد ولا يبيد !

* * *

إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وإن فى تجميع النهر ، وتكوين الجبل ، وتصريف الريح ، وإثارة البحر ، لجمالا رائعاً يجرى فى كل شعور ، ويستولى على كل قلب ، لأنه يعلن القوة الخارقة ، والقوة أروع خصائص الجمال وأشدها أخذاً بمدارك الحس . كذلك تجد فى صغار الأشياء مفاتن للجمال الطبيعى تهز النفس وتصبى المشاعر : فورقة الزهرة ، وجناح الفراشة ، يبعثان فى قلبك من الإعجاب ما يبعثه الطود المتوج بالثلج والمحيط الملفف بالعاصفة . ولكن خصيصة الجمال فى الزهرة والفراشة هى وفرة الألوان ونصاعة الأصباغ وتعدد الصور : وخصيصة الوفرة أضعف من خصيصة القوة لتأثرها بالذوق وخمودها بالإلف والعادة .

ولعل خصيصة الذكاء أخفى الخصائص الجمالية جميعاً ، لأن مرجعها إلى التأمل والفهم . وهذان لا يتيسران فى كل وقت ولا لكل أحد . فالبركان والإعصار يروعان القلب بالقوة المجردة ، ولكن الجمال إذا قام على خصيصة الذكاء وحده وهى الترتيب والمواءمة والانتظام ، خبا أثره فى الناس ما لم يكن

محسوساً شديد الغرابة . أليس في الواقع أن براعة القدرة وسر الإبداع سواء في العظاية[1] والأسد ، وفي القصبة والدوحة ، ولكنك تعجب بالأسد والدوحة ولا تكاد تأبه للعظاية والقصبة ؛ لأن سلطان القوة غالب وسحر العظمة عجيب .

فاجتماع الخصائص الثلاث إذن ضروري لحصول الجمال الصحيح في مشاهد الطبيعة وروائع الوجود .

— ٣ —

إذا عرفت الجوهر الذي يتحقق به الجمال الطبيعي سهل عليك أن تعرف الجوهر الذي يقوم عليه الجمال الصناعي ، لأنه إما وحيه وإما نموذجه . فالجمال الصناعي يتعلق بالفكرة التي يوحيها إليك الفن عن الفنان ، ثم عن الفن نفسه إذا كان ابتكارياً ، وبالفكرة التي يوحيها إليك الفن عن الفن نفسه وعن الفنان ثم عن الطبيعة إذا كان تقليدياً . ولننظر بادىء الأمر فيما تنشأ منه عاطفة الجمال في الفن الابتكاري كفن العمارة مثلا فني أي بَنيَّة من البنايا تجد الوحدة والتنوع والترتيب والتناظر[2] والتناسب والتوافق تؤلف كلا منتظما ما في ذلك شك . ولكنك لا تجد في ذلك الكل جمالا إذا لم يكن من العظمة أو الوفرة أو الذكاء على درجة تثير في نفسك الإعجاب والدهش . وهل تجد في العمارة البسيطة مهما يتسق بناؤها وتتفق أجزاؤها ما تجد في معابد الفراعين من الجمال والجلال والروعة ؟ خذ بنظرك قصراً من قصور القاهرة الحديثة شيد على قدر عادي من العناصر الجمالية الثلاثة ، ثم أطل الوقوف أمامه ما شئت ، تجد الفن فيه نازلاً على حكم القواعد الموضوعة ، ولكنه عيي صامت لا يحدثك عن نفسه ولا عن صانعه ثم قف تلك الوقفة أمام معبد الكرنك

---

(١) العظاية دويبة ملساء تشبه سام أبرص (السحلية) . والقصبة كل نبات يكون ساقه أنابيب وكعوبا كقصب السكر . والدوحة الشجرة العظيمة المتسقة من أي نوع .

(٢) السيمترية .

أو هيكل الأقصر أو هرم الجيزة ، تجد نفسك المسبوهة المشدوهة موزعة بين سمو الفن فى ذاته وعظمة الفنان فى حقيقته . لا جرم أن هذه الأبنية الضخمة الفخمة أقل اتساقاً واتفاقاً من تلك ؛ ولكن القوة التى أقامت هذه الأعمدة ورفعت تلك الصخور ونصبت هذه التماثيل وصنعت تلك المحاريب ، والوفرة التى تراها فى الشكول المختلفة والصور الناطقة والرسوم الدقيقة والكتابة الرمزية والأصباغ الحية وللمادة العجيبة ، والذكاء الذى يروعك فى ابتكار الوسائل الميكانيكية لنقل هذه الأجرام الماثلة من مناحتها فى الجبل إلى مثابتها فى الجو لتصارع الفناء الذى لا يفتر ، وتضارع الدهر الذى لا يبيد ، هى التى حققت فيها ذلك الجمال وألقت عليها هذه الروعة ، وربطت فى ذهنك بين فكرتك عن الصنيع وفكرتك عن الصانع . ولو كانت نسبة الذكاء فيها على مقدار نسبة القوة ، لبلغت ما لم تبلغه نواطح السحاب الأمريكية من الغاية التى ينقطع دونها الدرك !

على أن الجمال الطبيعى قد يقوم فى بعض مظاهره على القوة والوفرة دون الذكاء كما ترى فى العواصف والبراكين ؛ ولكن الذكاء إذا أعوز فى الفن الصناعى ذهبت عاطفة الجمال فيه بدداً بين التنافر والغرابة ، إذ الطبيعة مجهولة الأسرار محجوبة المقاصد . وقد استراحت عقولنا منذ النشأة إلى أن تلتمس لجهالتها العلل ، وتفترض لسفاهتها الحكمة . وليس كذلك الفنان ، فإنه مسئول أمام العقل عن العلة التى أجهد من أجلها قوته ، وعن الغاية التى بدد فى سبيلها ثروته وحسبه من الذكاء ما ينفى عنه العبث . فإذا تيسرت له عظمة القوة فى ظاهر من النظام كفاه ذلك فى إنشاء الإعجاب واتقاء النقد ، لأن القوة والوفرة هما المصدران الأولان لنشأة الجمال فى الفن .

على أن فكرة القوة تختلف اختلافاً شديداً عن فكرة الجهد . فكلما

قلت الدلائل على هذه ، كثرت الدلائل على تلك . فالخفة والطرافة والأناقة والصراح من صفات الجمال ، لأنها تظهر من القوة أكثر مما تظهر من الجهد . ولكن إنشاء مقامة من الحروف المعجمة أو الحروف المهملة كما صنع الحريرى ، أو كتابة سورة من القرآن على حبة من الرز كما صنع خطاط سورى ، عمل لا يحدث فى النفس شعور الجمال لأنه يدل على الجهد أكثر مما يدل على القوة ، ويدعو إلى الرثاء أكثر مما يدعو إلى الدهش . وفى التفصيل المحكم من كلام الله ، وفى السهل الممتنع من كلام الناس ، كل الفروق بين القوة والجهد .

كذلك لا يستعجم الفرق بين الوفرة الصّناع ، وبين الزخرف الأخرق فإن سر الإبداع فى الوفرة أنها تضع اللون فى مظهره ، والحسن فى جوهره ، والمعنى فى لفظه ، والشىء فى مكانه . أما الزخرق الأخرق فسرف لا ينبىء عن غنى ، ورهق لا يسفر عن قدرة ، وجلب لا يبلغك من ورائه نغم ! هو كل ما يملك الصانع من ثروة نثرها أمام عينيك فى غير لباقة ولا تحفظ ، ليخفى بالرياء حقيقة العجز ، ويدفع بالزور تهمة العوز وفى فن الحريرى والقاضى الفاضل ومن لف لفهما المثال على ذلك .

* * *

إن ما قلته فى فن العمارة ينطبق على الخطابة والموسيقى وسائر الفنون الابتكارية التى تفصح عن قوى كبيرة ووسائل وفيرة . فالخطيب الذى يبلبل الآراء بقوة كلامه ، ويسترقّ الأهواء بسحر بيانه ، ويملك على الشعب نوازع القلوب فيرسله على رأيه ويصرّفه على إرادته ، قد أوتى من القوة فى الفن والعبقرية ما يحمل النفوس على الإعجاب بقدرته والانقياد لأمره كذلك الموسيقار الذى يصبى المشاعر بسحر أنغامه ، والشاعر الذى يسبى العقول بقوة أسلوبه وسمو إلهامه ، كلاهما يعلن الجمال فى قوة الفن التى يفرضها ، وفى وفرة

الوسائل التى يعرضها ، وفى ذكاء الروح الذى يفيض على عمله النظام والانسجام والمناسبة . والقوة والوفرة هما كذلك روح هذا الجمال وسره . فإذا كان الانفعال الذى ينشئه الصوت أو القصيدة لطيفاً يحدث اللذة ولكنه ضعيف لا يحدث الطرب ، مدحت قريحة الفنان وأطريت عذوبة الفن ؛ ولكن الإطراء شىء آخر غير هتاف الإعجاب الذى يبعثه سمو العبقرية وقوة الإلهام فى روائع الموسيقار وبدائع الشاعر .

— ٤ —

ذلك إجمال القول فى الفن الصناعى المرتجل . أما الفن الصناعى المنقول فالسر فيه أن يبعث فى ذهنك فكرتين : فكرة عن الطبيعة المقلَّدة ، وفكرة عن الفنان المقلِّد . فتماثيل فدياس [١] وصور رفائيل [٢] تجمع بين الجمالين : جمال المثال فى أصله وجمال الفن فى تقليده . كذلك وصف مغرب الشمس لابن الرومى [٣] تجد فيه الإعجاب الناشىء عن القوة والوفرة والذكاء موزعاً بين الصورة الناطقة التى أبدعتها الطبيعة ، وبين المحاكاة الصادقة التى أخرجتها القريحة .

* * *

إن روعة الجمال الطبيعى آتية من ناحية الحرية فى الطبيعة وحرية الطبيعة هى قانونها العام ، لا تقوم عظمتها إلا به ، ولا تتجلى فخامتها إلا فيه . فالغيضة اللَّفاء أجل مظهراً فى النفس من الحديقة المنمنمة ، وشلالات النيل أجمل منظراً فى العين من النوافير المنظمة ؛ لأن الجمال المطلق يملأ خيالك بالتأمل الحالم ،

---

(١) فدياس أشهر المثالين الإغريق فى العهد القديم . ولد بأثينا حوالى ٥٠٠ وتوفى عام ٤٣١ ق . م

(٢) رفائيل سانزيو أشهر مصورى الرومان وأقوى عبقرية نبغت فى عصر الإحياء . ولد بأربينو سنه ١٤٨٣ م وتوفى سنة ١٥٢٠ م .

(٣) أوله قوله : وقد رنقت شمس الأصيل ونفضت على الأفق الغربى ورساً مزعزعاً

وذهنك بالتفكير الرفيع ، وشعورك بالطرب الباسط . ومظنة العبودية فى الحى أو فى الجماد تضيف إليه معنى من الحقارة والقبح يحطه و يشوهه . ولكن الجمال الصناعى لا بد أن يتقيد بالقواعد ويتحدد بالأصول . فإذا لم يكن الفنان من البراعة بحيث يخفى تلك القيود ويحجب هذه الحدود ويظهر السمة الدالة على الطبع المرسل والإلهام الحر ، همدت فى فنه الحياة ، وخبا فى جماله السحر ، وضاقت فى عمله الفكرة .

ليس الجمال فى الفن المعنوى أو الحسى أن تحاكى الطبيعة محاكاة الصدى ، وتمثلها تمثيل المرآة ، وتنقلها نقل الآلة . تلك هى التبعية التى تنفى الذكاء ، والعبودية التى تسلب القوة ، إنما عظمة الفن أن يفوق الطبيعة وإنما براعة الفنان أن يزيد فى ترتيب صورها بالذكاء ، وفى تنويع تفاصيلها بالوفرة ، وفى توجيه مقاصدها بالعظمة ، وفى بيان تعبيرها بالحياة ، وفى سلطان تأثيرها بالقوة ، وفى حقيقة وقائعها بالسحر الموهم والوشى الخادع .

أنظر إلى تعاجيب الطبيعة وتهاويل الفلك من العواصف والصواعق والبراكين ، تجدها فى ذاتها جليلة رائعة ، ولكنك تجدها فى فن الشعراء والمصورين والمثالين أجل وأروع . لقد وضعوا فيها شهوات النفوس ، وسلطوا عليها تصادم الأهواء ، وصوروها للأذهان فى عالم من الآلهة الكاملة فى قواها المختلفة ، تتنافس فى المجانب ، وتتصارع بالأهوال ، وتتفانى على اللذة . وسحر الفن الإغريقى فى صمته وفى نطقه قائم على تجميل الظواهر المروعة فى الطبيعة بالنوازع المتضاربة فى النفس .

ومن المعلوم فى بدائه العقل أن يكون ما يقلده الفنان فى الطبيعة حقيقاً بالتقليد حتى يمكن الجمع بين جمال الشىء فى أصله ، و بين جماله فى نقله . فالمصور الذى يرسم وضعاً من أوضاع الرأس ، أو معنى من معانى الوجه ، أو لوناً من ألوان الحياة ، يكون أسمى فى الفن من المصور الذى يتحامل على براعته ليصور

أرنباً يكاد رائيها من دقة التقليد يلحظ وثبتها ويَعُدُّ وبرها . والشاعر الذى يصف عاطفة من عواطف القلب ، أو ظاهرة من ظواهر الكون ، يكون أبلغ فى فنه من الشاعر الذى يجهد قريحته فى وصف حادثة من هنوات الحوادث لا تقوم فى ذاتها على فائدة ولا لذة .

قد يكون الشىء المنقول فى حقيقته قبيحاً ، ولكن صدق التعبير عنه ، ودقة التصوير فيه ، والتماس المنفعة منه ، تجعل تقليده جميلاً ، كالوجه الدميم يرسمه المصور المبدع بريشته ، وكالخلق الذميم يصوره الشاعر الفلق بقلمه . والملهاة المسرحية موضوعها رذائل الناس ونقائص المجتمع ، ولكنها ارتفعت إلى أوج الفن الجميـــــل بتحليلها العميق وتصويرها الدقيق وغايتها النبيلة . كذلك الحوادث المؤلمة والمناظر المحزنة والمواقف المؤثرة ليس فيها من الجمال شىء ، ولكن استبطان الفنان لمخيلة الناس ، وتصويره الفاجعة ماثلة مثول الواقع ، وإعانته الحقيقة على التأثير بالجمل النفاذة والصور الأخاذة والظلال الرهيبة ، يجعل تقليدها من أجمل الأشياء ، ويضع للمأساة من الفن موضع الواسطة من العقد .

فأنت ترى أن التقليد لا يثير الإعجاب فى نفسك ، ولا يشيع اللذة فى شعورك ، إلا باعتماده على الفن والفن لا يتحقق جماله إلا بالعظمة فى عمله ، والسعة فى وسائله ، والحكمة فى غايته . فإذا قلدت أصوات الطبيعة من غير تأليف ولا تنسيق ولا معنى ، وأقمت شلالا من الماء والحجر تضارع به شلال أسوان ، وسردت بالكلام الموزون حادثة عادية من حوادث اليوم ، أخطأك الفن وانزوى عنك الجمال ، لأنك صغرت الطبيعة ، وحقرت الواقع ، وتعلقت بالتافه ، واستعنت بالمادة من غير قوة ولا وفرة ولا علة . ولو أنك ذهبت تستقرى مفاتن الجمال فى الطبيعة أو فى الفن ، أو فى الأثر الذى ينشأ من ائتلاف الطبيعة والفن ، لما وجدتها فى غير ما يعلن القوة والوفرة والذكاء مجتمعة أو متفرقة

ولعلك واجد ما يدعم هذه الفكرة عن الجمال فى قول (شيشرون) : « إن الطبيعة أبدعت الأشياء على صورة تجعل ما يكون منها جمّ المنفعة يكون كذلك جليل المكانة موفور الجمال . إن جلالة هذا المعبد نتيجة لازمة لمنفعته . فلو أنك تخيلت (الكابتول)[١] قائماً فى السماء على هام السحب ، لما وجدت له جلالا فى نفسك ما لم يكن قيامه هناك علة لسقوط المطر » .

وهل المنفعة التى أرادها شيشرون فى صنع الطبيعة وفى نتاج الفن إلا الذكاء الذى أردناه فى الجمال وقصدنا به حكمة الغرض وانتظام الخطة ؟

(١) الكابتول . معبد وقلعة أقيما على هضبة من هضاب روما السبع .

في الربيع

(أول أبريل سنة ١٩٣٣)

منذ أيام تيقظت الطبيعة من رقادها الطويل ، وأخذت تنضح جفنها الوسنان بأنداء الربيع وتبحث عن حللها وحلاها فى خزائن الأرض . وتأهب كل حى ليحتفل بشبابها العائد وجمالها المبعوث فالحياة الهامدة تنتعش فى الغصون الذابلة ، والطيور النازحة تعود إلى الأعشاش المقفرة ، والأفنان السليبة تتفطر[1] بالأوراق الغضة ، وبارضُ النبت[2] يحوك على أديم الثرى أفواف[3] الوشى ، والنسيم الفاتر يروض أجنحته ليحمل إلى الناس رسالة الزهور ، وسر الحياة يستعلن فى الأحياء فتنتشى وتمرح ، وطيوف الهوى تمس القلوب فتهفو وتختلج ، والعالم كله يسبح فى فيض سماوى من الجمال والنشوة والغبطة ! ما عدا الإنسان !

فقد حاول بادعائه وكبريائه أن يكون عالماً بذاته ، فكان نشوزاً فى نغم الكون ، ونفوراً فى نظام العالم فلو أنه اقتصد فى تصنعه وائتلف كما كان بالطبيعة لا تحد الآن مع الربيع ، فشعر بتدفق الحياة فى جسمه ، وإشراق الصفاء فى نفسه ، وانبثاق الحب فى قلبه ؛ وأحس أنه هو فى وقت واحد زهرة تفوح ، وخضرة تروق ، وطائر يشدو ، وطلاقة تفيض على ما حولها البشر والبهجة !

لا يكاد يقبل على أوربا الربيع حتى تختلط أناشيد الشعراء وأغاريد البلابل فى تمجيده وإعلانه ، لأنه يفد إليهم فيرد عليهم النور والدفء والزهر والجمال والحركة .

---

(١) الأفنان : الغصون . وتفطرت : انشقت من الورق .
(٢) البارض : أول ما تخرج الأرض من النبت .
(٣) الأفواف جمع فوف ، وهو نوع من برود اليمن كانت تشبه به الزهور فى اختلاف ألوانه

أما نحن فلا نكاد نفطن لحلوله ولا لرحيله ، لأن العالم كله على ضفاف الوادي يوم من أيام الربيع : فجره الندئ يناير ، وضحاه الزاهر أبريل ، وظهره الساطع يوليو ، وأصيله الرخي أكتوبر !

فليس للربيع المصري على سائر الفصول فضل إلا بذلك السر الإلهي الذي تنشق عنه الأرض فيسري في العود ، ويشيع في الجو ، ويدب في الأجسام ، وينشأ عنه هذا البعث الصغير !

ففي الربيع يشتد الشعور بالجمال وبالحاجة إلى التجميل ، فترى الشباب بجنسيه يستعير ألوان الرياض وعبير الخمائل ومرح الطيور ، ويحتشد في دور الملاهي وصدور الشوارع ، فيخلع على الوجود وضاءة الحسن ، وعلى الحياة رونق السعادة !

وأجمل شيء في ربيع القاهرة أصائله وأماسيه !

ففي هذين الوقتين تزدهر شوارع القاهرة الحديثة بزهرات شتى الألوان من بنات الإنسان ، فتملأ الجو عطراً والعيون سحراً والقلوب فتنة !

وهنالك على أفاريز الطرق ومشارف القهوات ، تقف أبصار الكهول والشيوخ حائرة مبهورة تلسع بالنظر الرغيب هذا الحسن المصون ، وبين النظرة والنظرة عبرة جافة تصعّد أسى على شباب ذاهب لا يرجع ، وجمال رائع لا يُنال !

وفي الربيع تتقد حمية العروبة في العرب فتسمع اليوم في فلسطين والشام أبناء الشعب الخالد ، ووراث المجد التالد ، يصرخون صراخ الأسد في راقد العدل أن يستيقظ وفي غائب الحق أن يثوب !

وترى في العراق حطام السياسة البالية تكسحه الريح كسحها للهشيم ،

ثم تقوم على هذا الطلل المقسوف حكومة فيها حيوية الربيع ، ولـكن ، ليس لها شبابه !

والشباب فى العراق كالشباب فى مصر منذ سنين : يحاول القائمون على أمره أن يربوه تربية الدجاج ينقنق دائراً بين الحب والماء ، ويبحث فى الأرض ليذهل عن السماء ، ويأبى الشباب إلا أن يكون طيراً يحتقر القفص ويقتحم الجو ويسمو إلى الغاية ! والغد على كل حال يومه !

في العيد

(١٥ إبريل سنة ١٩٣٣)

في ذات مساء اشتد به الصراع بين بواكر الربيع وأواخر الشتاء ، ارتفع من بين ضجيج القاهرة ولغط النهار الراحل طلقات ضعيفة من مدفع عتيق . وتألقت في شرفات المآذن الشم مصابيح الكهرباء بغتة ... فعلم الناس بمقتضى التقاليد ، أن غداً هو يوم العيد ... !

راح قوم يقضون ليلهم بين وحشة القبور ورهبة الموت في غير ادّكار ولا اعتبار ولا خشية ! وبات آخرون يتعهدون كباش الأضاحي بالعلف ، ويشحذون لصباحها الأحمر السكاكين والسواطير .

وأصبحت القاهرة دامية البيوت حامية المطابخ شديدة الجلبة ؛ وبيوت الله التي نزل فيها العيد من السماء ، تقفر المؤمنين للصلاة والدعاء ، فلم يغشها إلا فئات من العمال والبوابين والخدم !

أما السراة والأوساط فقد خرجوا في هندام الأمس واهتمام اليوم ، يستقبلون العيد في القهوات والحانات ، بين لعبة النرد الصاخبة ، وأحاديث الدواوين المعادة ! فإذا تلاقى في الطريق صديقان ، أو تراءى في القهوة قريبان ، تبادلا بفتور تحية العيد ومضى كل منهما لشأنه .

* * *

ذلك هو العيد أو ما يقاربه في مصر وفي سائر البلاد العربية . فلولا مرح طافر يقوم به الأطفال في هذا اليوم لعطلة المدارس وجدّة الملابس وسحر النقود وفتنة اللعب لمر كسائر الأيام حائل اللون تافه الطعم بادي الكآبة !

فليت شعرى ماذا حاق بنا من الأحداث والغِيَر حتى غاضت ينابيع المسرة فى القلوب ، وماتت أحاسيس البهجة فى النفوس ، وتحللت أواصر المودة بين الناس ، وآل أمر العيدين — وهما كل ما بقى فى أيدينا من مظاهر الوحدة الدينية والعزة القومية — إلى هذه الصورة الطامسة والحال البائسة ؟ !

لا نستطيع أن نتهم حسرة الحزن على الماضى وذلة الضعف فى الحاضر ، فإن أعياد اليهود وإن فقدت بذلك مظهرها الاجتماعى ، لم تفقد روعة الدين فى الكنيس ولا متعة الأنس فى البيت ولا جمال الذكرى فى الخاطر وأعياد إخواننا فى الوطن والجنس والجد والأسى من نصارى الشرق لا يُعوزها الرواء ولا الإخاء ولا اللذة .

كذلك لا نستطيع أن نتهم المادية والمدنية ، فإنهما — وإن جنتا على بعض الأخلاق الكريمة كالإخاء والإخلاص والمروءة والرحمة — لم تجنيا على نزعات السرور فى النفوس ، ولم تقضيا على غرائز اللهو فى الطباع ، بل ازداد الناس بهما فى ذلك شراسة وحدة .

والأعياد الأجنبية التى تشهدها مصر فى ذكرى عيد الميلاد ورأس السنة غاية فى نعيم الروح والجسم ، وآية فى سلامة الذوق والطبع ، وفرصة ترى فيها القاهرة — وهى متفرجة — كيف تفيض الكنائس بالجلال ، وتزخر الفنادق بالجمال ، وتشرق المنازل بالأنس ، وتمسى الشوارع و بيوت التجارة ودور اللهو مسرحاً للحسن ومعرضاً للفن ومهبطاً للسرور ؛ وتصبح أعياد القلة القليلة مظهراً للفرح العام ، ومصدراً للابتهاج المشترك !

وهذه الأعياد من وراء ذلك كله من أقوى العوامل فى توثيق العلاقة بين الله والإنسان بالصدقات ، و بين الأصدقاء والأقارب بالهدايا ، و بين الكبار والصغار باللُّعَب ، وبين الإنسان والإنسان بالمودة .

* * *

إذن ماهى الأسباب الصحيحة التى مسخت حياتنا هـذا المسخ ، وشوهت أعيادنا هـذا التشويه ، فجعلت أظهر المظاهر فيها خروفاً يذبح ولا يضحّى ، ومدافع تساعد المـآذن ولا تجاب ، وأياماً كنقاهة المريض كل ما فيهـا همود ونوم وأ كل !!؟

الحق أن لذلك أسباباً مختلفة ، ولـكنها عند الروية والتأمل ترجع إلى سبب رئيسى واحد . هو غيبة المرأة عن المجتمع الإسلامى . . . ذلك السبب هو علة ما نـكابده من جفاء فى الطبع وجفاف فى العيش وجهومة فى البيت وسآمة فى العمل وفوضى فى الاجتماع

كرهنا الدور لاحتجاب المرأة ، وهجرنا الأندية لغياب المرأة ، وسئمنا الملاهى لبعد المرأة ، وأصبحنا كالسمك فى الماء ، أو كالهباء فى الهواء ، نحيا حياة الهيام والتشرد ، فلا نطمئن إلى مجلس ولا نستأنس لحديث !

فإذا لم تصبح المرأة فى البهو عطر المجلس ، وعلى الطعام زهر المائدة ، وفى الندىّ روح الحديث ، وفى الحفل مجمع الأفئدة ، فهيهات أن يكون لنا عيد صحيح ومجتمع مهذب وحياة طيبة وأسرة سعيدة !

في المرأة

(١٥ مايو سنة ١٩٣٣)

كتبنا كلمة عن العيد جاء فيها أن غياب المرأة عن المجتمع الإنساني جر عليه غماجر الجفاء والجفاف والسآمة والفوضى ، فوقع هذا القول من الجنسين البارز والمستتر موقع التسليم والرضا . ولكن قليلا من صالحي الإخوان لا يزالون يرون إقصاء المرأة عن الحياة العامة أمراً من أوامر الدين وقاعدة من قواعد الخلق ، فكتبوا إلينا وإلى بعض الصحف يفندون هذا الرأى بحجج انتزعوها من أحاديث الظنون وهواجس الخوف ومواضعات العرف .

أما صلة الحجاب بالدين فقد فرغ من توهينها العلماء من أمد . وبل وشديد على العقل أن يسلم بأن البدويات والقرويات ومعظم الحضريات — ومجموعهن يربى على تسعين في كل مائة من جميع المسلمات — قد تعدين بسفورهن حدود الله منذ ظهر الإسلام ، ولم يأخذ على أيديهن إمام ولا حاكم حتى اليوم ! .

وأما الاعتقاد بأن احتجاب المرأة هو الضمان الوحيد لحصانتها وعفتها فذلك إفلاس التربية وسوء ظن بالدين وإلقاء بالنفس إلى الرذيلة ! !

فلو أن الفتاة وهي صغيرة فتحت عينها على القدوة الحسنة ، وأذنها لصوت الواجب ، وقلبها لنور الله ، لوجدت من روحها القوى وضميرها النقى وَزَراً من الفتنة وعصمة من الغواية .

فالتربية الصحيحة إذن هي الضمان الذي لا يضر معه سفور ، ولا ينفع بدونه حجاب . وهي وحدها السبيل المأمونة إلى الغاية التي قصدناها من تلك الكلمة وما زلنا نعتقد اعتقاداً لا ظل عليه للريب أن غاية الكمال الاجتماعي

أن يكون الرجل فى كفة والمرأة فى كفة من ميزان المجتمع . وتلك هى السنة التى فطرنا عليها الله ، والنظام الذى فرضته علينا الطبيعة ، والواجب الذى يتطلبه منا العدل أما المجتمع الأعرج الأشل البليد الخشن فغير جدير بالسباق ولا باللحاق فى هذا العصر الطموح الطائر . ومجتمعنا بغير المرأة هو ذلك المجتمع : فهو أعرج لأنه يمشى على رجل واحدة ، أشل لأنه يعمل بيد واحدة ، بليد لحرمانه حدة العواطف ، خشن لفقدانه لطافة الأنوثة

لاحظ مجلساً من مجالسنا احتشدت فيه الرجال شباباً وشيباً ، فماذا تجد ؟ تجد الحركات العنيفة ، والأصوات الناشزة ، والمناقشات الفجة ، والأحاديث الجريئة ، والكلمات المندية[1] والذوق العامى ، والإحساس البطىء !

ثم لاحظ هذا المجلس نفسه وقد حضرته امرأة — امرأة واحدة لا غير — تجد الحركات تتزن ، والأصوات ترق ، والمناقشات تنتج ، والأحاديث تحتشم ، والكلمات تنتقى ، والذوق يسمو ، والإحساس يدق ! ذلك لأن الرجل حريص بطبعه على أن يجمل سَمْته[2] فى عين المرأة ، ويحسن صوته فى أذن المرأة ، ويسوغ رأيه فى عقل المرأة . والأخلاق المكتسبة تبتدىء بالتطبع وتنتهى إلى الطبع .

جهل الأولون وظيفة المرأة فلم يعرفوها إلا متاعاً وزينة . لذلك اشتد تنافسهم فيها ، وتنازعهم عليها ، واستئثارهم بها ، حتى ضربوا دونها الحجب ، وأحصوا عليها الأنفاس ، وبثوا حولها العيون ، فجعلوها بذلك قنية لا شريكة ، ومملوكة لا مليكة . وكان من جريرة ذلك عليها أن وهن جسمها لقلة العمل ، وساء خلقها لفقد الحرية ، وضعف تفكيرها لترك التدبير ، وغفل ضميرها لعدم المسئولية ، فلم تفكر إلا فى حللها وحليها ، ومدافعة الضرائر والجوارى عن نصيبها من زوجها

---

(١) المندية : المخجلة . (١) السمت : هيئة أهل الخير .

لقد كان للأسلاف ولا شك عذر فى إقصاء المرأة عن مكانها من المجتمع ، وخير أعذارهم أنهم كانوا ينظرون إلى المرأة نظرهم إلى الكنز الثمين . وكان من عاداتهم فى الكنوز أن يدفنوها فى الأرض أو يحفظوها فى الخزائن . ذلك إلى أن عمرانهم لم يكن من السعة والتعقد بحيث يطالب نشاط الجنسين جميعاً ، فحمل الرجال وحدهم أعباءه وقالوا :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

أما نحن ، فبأى عذر نعتذر ، وعلى أى حجة نعتمد ؟ إن الأمم الراقية التى نعاصرها و نصارعها لم تزل تنظر إلى المرأة نظر الأسلاف إليها ، ولكنها عرفت كيف تحتفظ بالكنوز وتستفيد منها ، فهى تعرضها اليوم فى المتاحف أداة علم ومتعة ، وفى المصارف رأس مال وقوة . وعمراننا قد زخر واستبحر حتى اعتدى فيه العمل على الراحة ، والتنافس على العدل ، والقوة على الحق ، وتسلح الغربى فى جهاده الحياة بقوى الطبيعة فى السماء والأرض ، ونحن ما زال نصفنا اللطيف قاعداً عن الإنتاج عاطلا من العمل !

أنا لا أريد أن ندفع بفتاتنا فى أتون الحياة المستعر فتحمل الفأس وترفع المطرقة وتقعد للبيع وتجلس للحكم ، إنما أريد أن تعطى حريتها الطبيعية فى حدود عملها الطبيعى ، وأن تعلم كيف تساهم فى شركة الزوجية : فتربى الولد ، وتدبر البيت ، وتدير الأسرة ، وتعدل ميزانية الرجل ، وتشعر أنها تعمل متضامنة مع بنات جنسها وبنى قومها لتكوين أمة متماسكة الأجزاء ، وثيقة البناء ، لا ينال من وحدتها شهوة من هوى ولا نزوة من جهل .

ذلك ما قصدنا إليه فى تلك الكلمة الموجزة بسطناه اليوم بعض البسط لعل فيه جلاء لما اختلج فى بعض النفوس من هذا الموضوع .

ساعة مع الأستاذ لطفى السيد

كانت نسائم الأصيل فى (مصر الجديدة) قد أخـذت تنفح جوها المحرور بالطراوة المنعشة حين غمزنا الجرس مستأذنين على الأستاذ الجليل أحمد لطفى السيد . وكانت دارته (١) الأنيقة غريقة فى سكون فلسفى حالم ، وحديقتها البهيجة ترف على جوانبها الأربعة بالجمال والعطر ، فتذهب عن صمتها الانقباض، وعن سكونها الوحشة وكان كل شىء يقع عليه طرفك فى الحديقة والدار يعلن عما وراءه من مزاج حكيم وذوق فنان ونفس شاعرة .

كان الأستاذ على عادته يـتربض مع أرسطو فى كتابه (الطبيعة) ؛ وهو السفر الثالث الذى يخرجه للناس من آثار المعلم الأول . وفى رأيه أنه أجل كتب أرسطو وأدلها على سمو عبقريته وسر نبوغه . لقينا فى البهو لقاء ذوى البيوتات الكريمة والأبهاء القديمة ، فسلم فى أريحية وحيا فى هشاشة . ثم خيرنا بين مجلس الدار ومجلس الحديقة فاخترنا هذا . وجلس ثلاثتنا (٢) على كراسى قصيرة القواعد وثيرة المقاعد حول منضدة مستديرة فوقها مظلة صيفية على طراز ما يستعمله المصطافون على شواطىء البحار وفى فنادق الجبال . وجلس الأستاذ الحكيم قبالتنا على كرسى له ظلة كالعلبة المستطيلة تقى الجالس فيه وهج الشمس . أما كلبه الضخم الجميل فقد ذهب يتهادى فى الماشى المزهرة ، ومن حين إلى حين كان يعود ليداعب السامرين على قدر مايفهم من الدعابة .

أخذ الأستاذ يطارحنا الحديث على نحو ما كان يتحـــدث إلى تلاميذه صديقه أرسطو زعيم المشائين فى مماشيه المظللة ، بصوته النقى العذب ، وجرسه العربى الواضح ، وأدائه المتئد الموزون ، ولهجته (الشرقاوية) التى ينثرها عمداً

---

(١) الدارة أنسب الألفاظ الترجمة : الفيلا

(٢) الأستاذان أحمد أمين وأحمد زكى وأنا

في خلال الحديث فتكسبه ظرفاً ورقة . ولطفي السيد مسامر حلو النغمة ، فكه اللسان ، متفنن الحديث ، متخير اللفظ . فلو ذهبت تكتب ما يقول لكان قريب الشبه مما تكتب . وبراعة الحديث صفة امتازت بها طبقته التي تأثر بها وأثر فيها من أمثال محمد عبده ، وسعد زغلول ، وإبراهيم الملباوى . فأنت في حضرتهم لا تشتهي الكلام لأن لذتك في أن تسمع ، ولا تثير الجدال لأن همك في أن تستفيد . ومجلس لطفي السيد يصدق الصورة التي رسمتها له في ذهنك قبل أن تلقاه من شهرته المستفيضة وأعماله المنشورة . فبديهته حاضرة وفكره نفاذ وبيانه أخاذ واطلاعه شامل ومنطقه مستقيم . وهو يتوخى في حديثه الإفادة واللذة ، فسامعه لا ينفك راضي العقل ريان العاطفة

وقصارى ما تقوله فيه أنه خلاصة الجيل الماضي بأسره ، وتطبيق صحيح لمدرسة الأفغاني وعصره وأوضح مظهر لهذا التطبيق كان في نزعته السياسية وطريقته الكتابية . ففي (الجريدة)[1] نهج للناس سياسة مصرية خالصة لا تتصل بالدعوة العثمانية ولا بالجامعة الإسلامية . وفي (الجريدة) ابتكر للكتاب أسلوباً لفظه قدر لمعناه ، ووصفه طبق على موصوفه ، وسبيله قصد إلى غايته فكان مذهباً جديداً جرى عليه الصحفيون إلى اليوم وأصدق الأمثلة عليه أسلوب الأستاذ عبد القادر حمزة صاحب جريدة (البلاغ) .

ولطفي بك بارع في سلسلة الحديث سريع إلى اقتناص المناسبة ، فلا تخشى على الحديث في مجلسه أن يبوخ[2] ، ولا على الصموت في محضره أن يحرج .

قال حينما استقر بنا الجلوس يعيد التحية ويفتتح السمر

أنا أقرأ ما تكتبون في (الرسالة) بشوق ولذة . ويسرني أن الكتابة في مصر قد بلغت من الكمال الفني حد الاعجاب فأصبحت للالفاظ دلالتها

---

(١) الجريدة اسم الصحيفة اليومية السياسية التي كانت لساناً لحزب الأمة وكان هو رئيس تحريرها .

(٢) باخ الحديث : فتر نشاطه .

الدقيقة ، وللأوصاف بيانها المقصود أما الكتابة فى (أيامنا) فكانت بالتقريب ، فمعانى الكاتب تقريبية ، وألفاظها الدالة عليها تقريبية ، والأثر الذى تتركه فى نفس القارىء — إن كان — مبهم أو تقريبى . فقال له أحدنا :

— ولكن سواد القراء يقرأون اليوم بالتقريب ، فقال :

— طبيعى ! فالكاتب أيام كان يكتب بالتقريب كان القارىء لا يقرأ ، وإذا قرأ لا يفهم . فلما ارتقى الكاتب إلى التدقيق ارتقى القارىء إلى التقريب .

ولقد تصرف كتاب العصر فى فنون الكتابة فعالجوا بها شتى الأغراض فى براعة وحذق ولذلك لا أوافق الدكتور طه حسين على جعله النثر لسان العقل والشعر لسان العاطفة ، فان من النثر مايكون شعراً .

ثم تشاجن الحديث وتشقق بعضه من بعض ، فتناول المويلحيين والخضرى وشوقى وأبا النصر والأفغانى والطويل ، حتى أدى إلى علاقته بالشيخ محمد عبده فقال :

— تخرجت فى مدرسة الحقوق وأنا فى الثانية والعشرين من عمرى فرغبت العائلة فى زواجى ، وأوعز أبى إلى أمى أن تكلمنى فى ذلك فأبيته . ولم يشأ والدى أن يفاوضنى بنفسه فى ذلك الأمر ، فلجأ إلى الشيخ عبده ، وكانت المعرفة قد اتصلت بينهما بسببى ، فدعانى الشيخ إلى داره . فقال أحدنا :

— لقد كان حسنا من الإمام أن يجمع قلوب الشباب حوله ويتدخل بالنصح فى أمورهم الخاصة . فقال الأستاذ :

— لم يكن الأمر فى التعميم والاطلاق على ما فهمت . فقد كان الشيخ فى علاقته بالناس على انقباض وتحفظ . والشباب أنفسهم هم الذين سعوا إليه والتفوا حواليه ، لأنه كان بطبعه رجل ثورة ، ولأن اتصاله بصالون نازلى هانم ومصطفى فهمى وكرومر أوهن أسبابه بالقصر وأيبس ما بينه وبين الخديو ،

ولأنه كان يدعو إلى الاصلاح والتجديد ، ولأنه كان ينتدب فى كل عام لامتحان طلاب الحقوق المنتهين وقد اتصلت به معرفتى بسبب ذلك الامتحان نفسه ...

ششت !!

فكف الكلب المطيع عن النباح وكان ينبح شيئاً أو شخصاً خارج السور

— Viens ici

فجاء الكلب الوديع حتى دنا من سيده .

— Couches toi

فانتبذ الكلب مكانا قريباً ونام .

ثم عاد الأستاذ إلى حديثه يقول : اقترحوا علينا فى امتحان الانشاء أن نكتب فى هذا الموضوع :

« كيف كان للحكومة حق عقاب المجرم ؟ » وجعلوا زمن الإجابة أربع ساعات على ما أظن . فكتبت المذاهب الأربعة التى قررها العلماء فى هذه المسألة ، ثم عقبت عليها ففندتها ونفيت أن يكون للحكومة على أى شكل من أشكالها (حق) عقاب المجرم ، لأنها قائمة على القوة لا على الحق . وأسرفت فى التدليل على ذلك حتى ملأت الكراسة . ثم خرجت فذكرت لرفاقى ما أجبت به فاضطربوا واكتأبوا وقرروا جميعاً أنى لا محالة راسب . ثم اشتد من جانبهم اللوم والتقريع حتى ذهب من نفسى كل أمل فى النجاح فلما كان يوم الامتحان الشفهى وقف الشيخ فقرظ موضوعى وكان قد وضع له الدرجة القصوى ، ولكنه نصح لى أن أقتصد الآن فى هذه الآراء إشفاقاً علىّ وكم للشباب من شطط فى الآراء !

زرت الشيخ بعد ذلك فى جهة من شارع الشيخ عبد الله نائباً عن فريق من الطلبة ألتمس منه أن يقرأ لنا درساً فى التفسير بمسجد الفتح على مقربة

من مدرسة الحقوق . فأجاب الملتمس ، وانضم إلينا طلبة من دار العلوم فكنا بين الثلاثين والأربعين . وهنالك قويت الصلة بيني وبين الشيخ حتى بلغت حد الألفة

وفى سنة ١٨٩٧ سافرت فى الشتاء إلى جنيف لغرض سياسى ، فانتهزت هذه الفرصة وانتسبت إلى جامعتها فى دروس من الأدب والفلسفة أقامتها فى الصيف خاصة للحاصلين على درجة علمية . واتفق أن جاء الشيخ هو وسعد بك زغلول وقاسم بك أمين مصطافين . وكان المرحوم قاسم بك يشتغل فى كتاب تحرير المرأة وكان يقرأ لنا غالباً بعد الظهر فى كتاب الذكاء (ntelligence) للفيلسوف الفرنسى (تين) . ومن العجيب أنه كلما التوى علينا فهم عبارة كان الشيخ وهو أقلنا علماً باللغة الفرنسية يجلو لنا غامضها .

سافر سعد بك وقاسم بك وبقى الشيخ عبده فانتسب معى إلى دروس الأدب وأقبل عليها بجد ومثابرة وأذكر أن أستاذ الأدب كان قد قرر علينا فيما قرر رواية (روى بلاس) لفكتور هوجو نقرأها وندرسها ثم نناقشها وننقدها فى الدرس أمامه . فلما جاء يوم المناقشة أدلى كل طالب برأيه ، والأستاذ يعقب على الآراء فيخطىء ويصوّب ويصحح حتى يخرج آخر الأمر بطائفة صالحة من الآراء الصائبة . وخرج الشيخ شديد الإعجاب بما رأى وسمع : وقال هكذا يكون التعليم ! نحن فى بلادنا لا نعلم . واعتزم أن يدخل هذه الطريقة فى الأزهر

كان مراحنا ومغدانا قبل الدرس وبعده إلى حلوانية تجاه الكلية تدعى (إكسلين) ، وكان الشيخ رحمه الله يأبى إلا أن يدعوها (إخصلين) على الرغم من وسامتها الظاهرة . وكان زيه وعمامته قيد الأبصار وموضع التساؤل ومستجر الحديث فى كل مكان نحله وهنا ذكر الأستاذ بعض الطرف التى تدل على ظرف الشيخ ولطف روحه ورقة شمائله ، ثم قال : وكان من عادتنا أن المقدم

هنا ينتظر المتأخر عند هذه الحلوانية حتى نذهب إلى الدرس معاً ، فنى ذات يوم جئت قبله فانتظرته ، ثم انتظرته حتى مضى الوقت الذى كان يصل فيه عادة إذا تأخر . وكانت الجامعة قد استقدمت أحد العلماء الطبيعيين ليحاضر فى استحضار الأرواح والدخول عام والزحام لابد شديد فلما أزف موعد المحاضرة ولم يبق إلا دقائق قلت للفتاة : إذا جاء الشيخ فأخبريه أنى انتظرته إلى قبيل المحاضرة . ثم مضيت فدخلت مدرج المحاضرات من بابه الأعلى وأخذت مجلسى بين الحضور . ولشد ما كانت دهشتى حين وثبت إلى عينى عمامة الشيخ فى الصفوف الأمامية بين سيدتين جميلتين ، يميل على هذه مرة وعلى تلك أخرى ! فداخلنى من أمر الامام مالم أكن أعهده . ثم خيل إلى أن الزمن يبطىء والدرس يثقل ، لأن رغبتى كانت تلح فى الوقوف على جلية الخبر فلما انتهت المحاضرة أسرعت فى النزول إليه وفى عينى دهشة وعلى وجهى تعجب وبين شفتى كلام . وتبين الشيخ ذلك فى هيئتى من بعيد فصاح قبل أن أحدثه :

— تعال يالطفى أقدمك إلى البرنسيس !

وقدمنى إلى الأميرتين نازلى وخديجة ! وكان ذلك أول معرفتى بالأميرتين المصريتين فدعتانا إلى الشاى فى الفندق الفخم الذى تنزلانه .

وفى سنة ١٨٩٨ رغب الشيخ أن يقضى معى أياما بالبلد ، فاعلم بمقدمه رجال الإدارة والقضاء بالمنصورة حتى توافدوا إلى لقائه ، وفيهم المرحوم حشمت باشا ، وحفل المجلس بالناس على اختلافهم ودار الحديث ، فقال الشيخ فيما قال إن السيد جمال الدين كان يقول : إذا أردت أن تحكم على أخلاق أمة فاجلس فى قهوة من قهوات الفقراء ، فما انطبع فى نفسك من انفعالات فاحكم به على هذه الأمة من غير تحرج ، فأخذت أنقض هذا الحكم وأفنده ، والشيخ يدافع عنه ويؤيده فاستحييت أن ألج فى معارضة الشيخ فى المجلس فأمسكت .

وفى العصر ركبنا جوادين وخرجنا نرتاض فى المزارع والحقول فعدت إلى ذلك الموضوع . فقال الشيخ : لا أدرى لماذا لاتصدق هذا ؟ أليست قهوة الفقراء تجمع الفقير الذى سيبقى فقيراً ، والفقير الذى سيصير غنياً ، والغنى الذى صار فقيراً ؟

وفى سنة ١٩٠٥ أذكر أن الشيخ كان قادماً من الوجه القبلى وأظنه كان فى السودان فنزل عندى بالمنيا وكنت يومئذ نائباً بها . وحضر للسلام عليه رجال القضاء الأهلى والشرعى ووجوه البلد . فلما احتشد المجلس بالجمع قال أحد العلماء من رجال المحكمة الشرعية : إن كثيراً من النصارى يدخلون فى الإسلام فتضاعف بذلك عملنا . فقال له الإمام : فيم تعمل أيها الشيخ ؟ فقال : أعلمهم أركان الدين ! فقال له يكفى أن تقول للرجل منهم : صلِّ وصم وزك وحج . فقال ولا بد أن نعلمه الوضوء . قال : قل له اغسل وجهك ويديك إلى مرفقيك ، وامسح رأسك واغسل رجليك . فقال : ذلك لايكفى ، ولا بد أن نعلمه حدود الوجه من أين يبتدىء وإلى أين ينتهى ! فقال الشيخ بصوته الجهير فى شىء من الحدة .

سبحان الله ياسى الشيخ ! قل له يغسل وجهه ! كل إنسان يعرف حدود وجه من غير حاجة إلى مساح !

وهنا استأذنا الأستاذ الجليل فى الانصراف على نية العودة إليه من حين إلى حين لنستزيد من طرائف هذه الأحاديث .

ذكرى المولد

(أول ديسمبر سنة ١٩٣٣)

فى مثل هذا الأسبوع من مثل هذا الشهر لسنة ثلاث وخمسين قبل الهجرة أعلن الله كلمته من جديد، فى استهلال هذا العربى الوليد.

وكانت قافلة الحياة يومئذ جائرة [١] السبيل حائرة الدليل خائرة العزيمة، والعالم الإنسانى يكابد فى هيكله المنحل عوامل البلى من وثنية توبق [٢] الروح، وجاهلية توثق العقل، ومادية ترهق الجسد. وكانت الولاية على الدنيا فى ذلك الحين لأعقاب من الروم شفهم [٣] الفسوق والترف، وأخلاف من الفرس هدم الغلول [٤] والطمع، والناس عدا هؤلاء وأولئك أوزاع وهمج. اللهم إلا شعباً نبيل الفطرة اعتصم بالصحراء من هذا الفساد الشامل، فما عبث بضميره سلطان، ولا عدا على خلقه طاغية... نشأته الطبيعة على سجاياها المرسلة، وراضته على نظمها المحتومة، وصفاه «الانتخاب الطبيعى» بالغزو المتلاحق والدفاع المتصل، فأودى بضعيفه وأبقى على قويه، حتى لم يدم على أديم الجزيرة إلا سيف صارم وفرس جواد ودارع بطل! ثم تنخل من هذه الصفوة الباقية فى القرن السادس أمة وسطاً تحمل المثل الأعلى للانسان الأعلى (سوبرمان) فى قوة الحيوية وكمال الرجولة وصفاء الحس.

تلك هى الأمة العربية التى اختارها الله لقيادة شعوبه الحائرة، واختار منها محمداً لتبليغ رسالته الأخيرة.

بين إيوان كسرى وبلاط القيصر اهتز مهد العربى اليتيم فى أرض مكة! فتصدع لهزته الإيوان، وتطامن لهيبته القصر! وكأنما هتف بالعاهلين المظيمين من جانب الغيب هاتف: «اليوم ينتهى تاريخ ويبتدىء تاريخ! ليس بعد

(١) الجائر: المائل عن القصد.
(٢) توبق: تهلك.
(٣) شفه الهم. هزله وأوهنه.
(٤) الغلول الخيانة.

اليوم ملك ولا كاهن وَلا سيد ! إنما العبادة لله ، والقيادة للرسول ، والسيادة للدين ، والحكومة للعرب ، والدنيا للجميع ! »

* * *

وبين عرش القيصر وعرش كسرى انتصب منبر النبي الكريم في سماء المدينة . فتضاءل لجلاله عرش وتقوض لدعائه عرش ! ثم انبثق نوره القدسي في مجاهل البدو ومعالم الحضر ، كما يبتسم الأمل في قطوب اليأس ، وتومض المنارة في ظلام المحيط .

هنالك ظهرت الوحدانية على الوثنية ، والغيرية على الأنانية ، والإنسانية على العصبية ، والإسلامية على الجاهلية . ثم عرف الإنسان قدر الإنسان ، وأدركت النفوس جمال الإحسان ، ووجدت قافلة الحياة طريقها القاصد [1]

* * *

كان العالم يقاسي حين ولد محمد بن عبد الله تفكك الخلق ، وتحلل الرجولة وضياع المثل الأعلى ، فكان أكمل ما في حياة (الأمين) هذه الصفات النوادر : خلق عظيم شهد به الله ، ورجولة كاملة خضع لها الناس ، ودين يجمع إلى سعادة الدنيا سعادة الآخرة . ورسالات الرسل إنما تعالج بظهورها الفساد الذي استشرى في العالم ، والداء الذي استفحل في الناس . فإذا كانت معجزة الرسول في القرآن فإن مجده في الخلق وفوزه بالرجولة . والشعوب المختلفة التي صهرتها شخصية العرب وطبعتها ثقافة العرب ، لم تصل إلى الإخاء والوحدة إلا على منهاجه وهديه !

* * *

ظهر رسول الله والعرب أشتات من غير جامع ، وهمل من غير رابط ، وأحياء من غير غرض . فاضت في نفوسهم الحياة ، وزخرت في صدورهم القوة ، فصرفوا هذا النشاط العجيب إلى نزاع لاينقطع وصراع لايفتر. فحمل إليهم وحده رسالة الله لايسنده سلطان ، ولا يؤيده جيش ، ولا يمهد له مال ، فنفروا منها

(١) الطريق القاصد : المستوى وهو خلاف الجائر .

نفور الوحش المروع ! ثم رأوا فيها سيادة لأسرة ، وخضوعاً لقانون ، وخروجاً على عرف ، فقابلوها بالعناد ، وعارضوها بالحجاج ، ودافعوها بالكيد . آذوا الرسول فى أهله وفى صحبه وفى نفسه ، فما وهن عزمه ولا لانت قناته ، وإنما قابل الأذى بالصبر ، والسفه بالحلم ، والفظاظة بالرقة ، وهذا هو الخلق .

ثم قارع الجدال بالتحدى والمكابرة بالسيف ، وهذه هى الرجولة وبذلك الخلق وهذه الرجولة انتصر محمد وحده على العرب ! وبذلك الخلق وبهذه الرجولة انتصر العرب بعده على العالم !

* * *

فلينظر اليوم شعب محمد وأتباع محمد ماذا فى نفوسهم من دينه ، وماذا فى أخلاقهم من خلقه ، وماذا فى أيديهم من تراثه ؟ فإن وجدوا أن دينهم أصبح رسماً محيلا فى نفوس الخاصة ، وأثراً مشوهاً ضئيلا فى نفوس العامة ، وأن أخلاقهم فقدوها يوم فقدوا الحرية ، وأضاعوها يوم أضاعوا الملك ، وأن تراثهم أصبح نهباً مقسما بين شذاذ الشعوب وذؤبان الأمم ، فليفيقوا من النوم ، وليخففوا عن القدر اللوم ، فإن الله لايظلم الناس مثقال ذرة . ومن عاند طبيعة الحياة فقتل فى نفسه الطموح ، وفى فكره التجدد ، وفى عمله الابتكار ، ورضى أن يكون فى الدنيا كالأثر فى المتحف يدل على ملك باد وشعب انقرض ، كان يسيراً عليه أن يدع دينه للمبشرين ووطنه للمستعمرين ، ثم يقعد مقعد الخوالف يتحسر على المجد المفقود ، ويتعلل بالأمانى الكواذب ! !

إن ذكرى مولد الرسول ذكرى انطلاق الإنسانية من أسر الأوهام وطغيان الحكام وسلطان القوة وتحكم الجهالة فما أجدر النفوس الذاكرة الحرة على اختلاف منازعها أن تخشع إجلالا لذكرى رسول التوحيد والوحدة ، ونبى الحرية والديمقراطية ، وداعية السلام والوئام والمحبة ! !

وما أخلق الزعماء الذين يحاولون اليوم توحيد العرب من جديد ، أن يتخذوا منهاجه سبيلا إلى هذا العمل المجيد . . . !!

بين النيل والأكروبول

(١٥ أغسطس سنة ١٩٣٣)

رحلت إلى بعض بلاد الغرب وإلى بعض أمم الشرق، فلم أجد شعبا كهذا الشعب هان وجوده على نفسه، وانطمس تاريخه فى ذهنه. فأعطى الضيم عن يد وهو صابر!

أسرف فى اللين حتى رمى بالجبن، وأمعن فى التسامح حتى وصف بالبلادة، وأفرط فى التواضع حتى نسى الأنفة، وبالغ فى إكرام الغريب حتى أصبح فى وطنه هو الغريب!!

فليت شعرى يا ابن العرب. ويا سليل الفراعين من أين داهمتك هذه القلة؟ نسب يزحم النجوم، وحسب يطول الدهر، وماض كالشمس نفذ إلى كل أرض وسطع فى كل أفق، وواد كرفرف الخلد زخر بالغنى وفاض بالنعيم! فكيف لا يرفع رأسك هذا النسب، ولا ينصب صدرك هذا الماضى؟!

مالك تمشى فى أرضك خافت الصوت، خافض الجناح، ضارع الجنب، كأن النيل يجرى لغيرك، وكأنما الآثار تتحدث إلى سواك!

لقد أصبحت فى بلدك المنكود تحيا حياة الجسم كما يحيا الأجير والخادم، أما حياة الروح التى ينبض فيها القلب بعزة القومية وصلف الوطنية، فقد أماتها فيك الوباء الوافد من كل مكان!

إن إخوانك فى لبنان لا يحبون الغريب إلا ضيفا، وإن إخوانك فى العراق لا يكرمون الأجنبى إلا ضيفا، أما الدود الذى يمتص الدم ويقذى العيون ويغثى

النفوس فلا يجد مغذاه ومرواه إلا على النيل !

وليت الذى قاسمنا أنعم الوادى الحبيب يذكر فضيلة الإحسان ، ويشكر عطف الإنسان على الإنسان ! إنما يتمتع بخيرنا تمتع الغازى الفاتح ، فى يمناه سيفه ، وفى يسراه قانونه ، فإذا عاملناه احتقرنا ، وإذا عاتبناه انتهرنا ، وإذا ضج المغبون أو صاح المسروق أو صرخ الجائع ضربه (الخواجه) ضربته ، ثم استعدى عليه دولته !

فى أى بلد من بلاد العالم اليوم يأتى محام أجنبى ليدافع عن مجرم من جنسه أجرم على هذا البلد ، فيجد له قضاء فى قلب قضاء هذا البلد ، وقانونا بجانب قانون هذا البلد ، وقوة فوق قوة هذا البلد ، ثم يقوم بين يدى قضاة من جنسه فيقول فى بلاغة ديمستين وحماسة من ، لا أدرى .

« أظهروا أيها السادة أنكم قضاة تنشقون هواء الأكروبول[1] ، وأنكم لا تخوضون فى ماء النيل العكر ! »

معك الحق كله يامتر (بابا كوس !) لقد تركت أثينا فى اليونان ثم عبرت البحر فوجدت أثينا فى مصر ! فالفنادق للروم ، والمطاعم للروم ، والمقاهى للروم ، والمواخير للروم ، ودور السينما للروم ، وقاضيك من الروم ، وجانيك من الروم ، وبقالك من الروم ، وحلاقك من الروم ! وخادمك من الروم ! وإذا طلبت الماء ، أو أردت الكهرباء ، أو ركبت الترام ، أو دخلت البنك ، أو قصدت المتجر ، وجدت كل ذلك فى أيدى أقوام سحنتهم غير مصرية ، ولغتهم غير عربية ! فإذا سألت (خالى) عن المصريين قال لك : إنهم أجراء عند (خريمى) فى المزرعة ، أو سكارى عند (ينى) فى البار !

---

[1] الأكروبول قلعة فى أثينا القديمة ، وقد بنيت على صخرة علوها ١٥٠ قدما ، وعلى ذروتها قامت الهياكل والمعابد .

معك الحق كله يامتر باباكوس أن تهين شعباً يسمع إهانته فى كل يوم وفى كل مكان فيغضى ثم يمضى ! وأى إهانة آلم وأشنع من (الامتيازات) وهى طعن فى إنسانيته وقدح فى كفايته وتجريح لعدله ! ولكن الحق يبرأ منك حين تقول وأنت وريث أرسطو ومدره أثينا إنك لم تقصد بهذه الجملة إهانة مصر وإنما هى عبارة من عبارات البلاغة التى يستعملها المتكلم عادة ، فلسنا من البلاهة بحيث تخدعنا عن جد الجريمة هزل الاعتذار !

رحم الله أستاذنا الشيخ المهدى ! لقدكان يرى الرجل المتمدن يرمى الرجل المتمدن بالكلمة العوراء[1] يندى لها جبينه ويغلى منها دمه . فما هو إلا أن يقول الشاتم المتمدن المشتوم المتمدن : (سحبتها) حتى يجف عرق الجبين ، ويكف غليان الدم ! فيقول الأستاذ بلهجته العربية .

« عجيب ! كلمة قيلت كيف تسحب ؟ ولطمة أصابت كيف تسترد ؟ »

لا نريد من شبابنا أن يدفعوا البغى بالبغى ؛ وإنما نريد منهم أن يفهموا الواغلين أن كدر النيل ليس من أهله ، وأن الطريق الذى يسفى عليه الغبار والأقذار هو الطريق الذى فتحه لهم اقتصاد المستعمر ، فإذا ملكناه ونظفناه عادت إلى نيلنا نقاوته ، وإلى شعبنا كرامته .

ليس على الأجنبى من حرج أن يزاحم فى بلدك ، فإنما جهاد الدنيا رحمة ليس فيها رحمة ، وهو حين ينافسك ينافسك فى حدود الطبيعة ، ولكن الحرج كله عليك إذا ظللت تشترى وهو يبيع ، وتغرم وهو يغنم !

نضر الله وجوه الشباب العاملين ! لقد أخذوا يجلون عن وجه مصر الجميل غبرة القرون وذلة الأحداث وإهانة الدخيل ! نزلوا ميدان الاقتصاد جنوداً متطوعين وعمالا متواضعين ، فعرفوا أين تكون المعركة الفاصلة بين الاستعباد

---

(١) الكلمة العوراء هى ما تنفيها الاذن .

والحرية ، وبين الاستعمار والحق ، وشقوا الطريق القاصد إلى إنقاذ مصر من احتلال دولى شديد الخطر قبيح الأثر ، لا تكائه على العدل واعتماده على القانون .

إن (عيد الوطن الإقتصادى) و (مشروع القرى) و (تعاون الشباب) و (تعاون الطلبة) و (جماعة تمصير مصر) وشركات الدخان والألبان والإعلان والجزارة والمقاهى ، فتح مبين فى جهاد مصر الفتاة . وإن تحلل الشباب المثقفين من ربقة التقاليد وإسار العرف ، فلا يرون غضاضة فى أن يقيموا المشارب والقهوات فى مولد النبى ومولد الحسين ، يكونون فيها الطهاة والباعة والندل والمديرين ، لهو تحلل الحاضر الطموح الناهض ، من قيود الماضى القنوع العاجز وليس على أولئك الشيوخ الذين مكنوا بجمودهم وقعودهم للأجنبى فطغى بيده وبغى بلسانه ، إلا أن يطووا معهم هذه الصفحة المخزية من تاريخ مصر ، ويتركوا الشباب يجدد ما بلى ، ويدعم ما وهى ، ويسد ما خل .

إن شطط المبشرين بالمسيحية قد انقلب إلى تبشير بالإسلام ودعاية إلى المؤسسات الخيرية ، فهل تنقلب سفاهة (المتازين) إلى إعزاز القومية المصرية وتحقيق الأمانى الوطنية ؟

على الشاطئ

١٥ أغسطس سنة ١٩٣٣

الشاطئ شاطئ استانلى[1] واليوم يوم الأحد ، والطرقات الجميلة الصاعدة إلى هذا الخليج البهيج تصب فيه أنماطاً من الناس ، فى أنماط من اللباس ، وكلهم فى سن أهل الجنة ! وكنت فى هذا التيار الحار المتدفق كأننى السمكة الغريبة تفقد الاختيار وتخشى كل شىء !

هبطت مع الهابطين إلى هذا الشاطىء على سلم من سلالمه ، ثم أرسلت فيه عينى فإذا هو مستدير على صدر الماء ، استدارة الهلال البازغ على صدر السماء ، وإذا النجوم الزواهر من الإنس تختلج فى هذا الهلال اختلاج العواطف الرقيقة تماس فى رفق ، ثم تنفرج فى سهولة !

أخذت أخطو وئيداً بين العذارى المتجردات على استحياء وارتباك ! فلما لم أجد فيهن حتى من تتقى النظر باليد ، كما فعلت « متجردة النابغة » حين سقط نصيفها ولم ترد إسقاطه ، أرسلت نفسى على طبيعتها فى هذا الحى المباح وذكرت الأستاذ الثعالبى وهو يقول لى بالأمس فى لهجة جازعة « إذهب بربك إلى (استانلى) ثم صف ما تراه » .

هاتان عيناى ياصديقى مفتوحتين ، وهاتان أذناى مرهفتين ، فماذا أرى وماذا أسمع ؟

أكشاك أنيقة الصنع والوضع ، تدرجت طبقاتها الثلاث على حضن

---

(١) استانلى علم على شاطىء من شواطىء البحر فى رمل الاسكندرية فيه مسبح مشهور بحريته

الشاطىء ، ومظلات شتى الألوان قد ركزت هنا وهناك فى منحدر الساحل ، وجمع حاشد عاركسوق الرقيق فى ألف ليلة وليلة قد يعثر أمام الأكشاك ، وتحت المظلات ، وفوق الرمال ، وبين المياه . . . وصراع لذيذ عنيف بين أفواج البر ، وأمواج البحر ، تتخلله صيحات وضحكات كرنين الفضة المصفاة ، وأحاديث كهمس الأوتار ، تطير من بين الشفاه البواسم ، كما تطير أنفاس الصبى الحالم : ولكنها لاتصعد إلى حيث يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح ! وبيئة أجنبية ناسها غير ناسنا ، وإحساسها غير إحساسنا ، ولغتها لغة فرنسا لالغة مصر ، وسمرتها سمرة الشمس لا سمرة الجنس . . !

فعلام إذن هذا الجزع الباكى ، والقوم إنما يجـــــرون على أعراقهم ، ويعملون على مقتضى أخلاقهم ، وبين فتياتنا وفتياتهم من العرف الإسلامى حجاب . ومن الحياء الطبيعى وازع ؟

كنت ألقى على نفسى هذا السؤال حين جرجر البحر إحدى موجاته الضخام إلى أعلى الساحل ، فجريت إلى فوق أتقى هــــذا المد المفاجىء ، فإذا بى واقف إزاء مظلة جميلة منعزلة قد انبطحت تحتها فتاة ناهد لم تقع العين منذ الصباح على أكمل منها صورة . وكان ذعر السائرين من هجمة البحر قد لفتها لتنظر . فلما وقع بصرها علىَّ نهضت نهضة الظبى الفزع تحيى بالعربية أستاذها القديم ! .

— أوه ! فلانه ؟

— نعم ! ويسرنى أن أراك يا أستاذى بعد خمس سنين

— هل أنت وحدك هنا ؟

— كلا ، بل معى أخى . . . وقد أتعبه صراع الأمواج الثائرة فذهب إلى (الكابين) .

— وكيف حال البك الوالد ؟

— الحمد لله حاله خير حال ! وما أكثر سؤاله عنك وأشد شوقه إليك ! لقد كان جالساً بالكازينو ثم انصرف إلى البيت منذ قليل .

قالت ذلك تلميذتى الأرستقراطية المدللة وهى تنصب كرسياً طويلا من القماش دعتنى إلى الجلوس عليه . ثم جلست هى على كرسى آخر وكانت كأمها حواء لا يستر جسمها العارى إلا « ورقتان » خصفتهما عليه من أمام ومن خلف ، فسرعان ما ذكرت ذلك المكتب الفخم الذى كانت تجلس قبالتى عليه لتستعد لامتحان البكالوريا وهى ملفقة بثوبها الأزرق الأنيق المسبل ، وعيناها الساجيتان لاتفارقان الصفحة حياء وخفرا ، وثغرها الحيى الدقيق لايرسل سهل الكلام إلا فى تلعثم وبطء !

لم تدعنى الآنسة فى ذكراى إلا ريثما ردت التحية على فتاة فى مثل حالها وجمالها كانت تسير فى رفقة شاب شديد السمرة ، غطى كتفيه شعر كثيف كصوف الخروف .

— هذه ابنة فلان وهذا الذى معها أخوها . وهذه ابنة فلان وهـــذا ابن عمها . وهذه المضطجعة فى الشمس بنت فلان ومحادثها صديق من أصدقاء أخيها . . . فقلت :

— لولا علمك ياعقيلة لحسبت هؤلاء جميعاً أجانب !

— وما الذى يحملك على هذا الحسبان ؟

— هيف القد واكتناز اللحم واتساع الحرية .

— ذلك من أثر الرقص والرياضة . ستكتب ولا شك عن استانلى شيئاً فى الرسالة

— وهل قرأت ما كتب الكتاب عنه ؟

— قرأته ولم أسغه ، لأنه شديد المبالغة سطحي النظر . وأى بأس فى أن تمتع المصرية جسمها كله بأشعة الشمس وماء البحر كالغربية !

— لا بأس . ولكني أظنهـــا تدرك ذلك كله في شاطىء خاص وفى لباس مناسب .

— إن شمس الشواطىء كما تعلم إنما تقصد لخصائص أشعتها . وكلما تعرض أكثر الجسم لها كان أكثر انتفاعاً بها : والأمر في الشواطىء كالأمر في المراقص والمرابض ، يهيمن على الحياة فيها روح رياضية عالية تغنى كل إنسان بشأنه عن شأن غيره . فالراقص لايفكر إلا فى الرقص ، والمرتاض لايفكر إلا في الحركة والمستحم كذلك لايفكر إلا فى الأمواج والأشعة .

— إبدئى بالمثال قبل القاعدة يا آنسة . أين تجدين الروح الرياضية في هذه المرأة التي علت صدر هذا الرجل لتتعلم فوقه السباحة ؟ وأين تجدين الروح الرياضية فى هذين الجسمين الراقدين على الرمل يتلامسان بشهوة ، ويتناجيان بنشوة ، وقد انمحى من حولهما البحر والشاطىء والناس ؟

أرى يا آنسة أن المرأة تسيء إلى نفسها بهذا التبذل ؛ حتى من الجهة النسوية الخالصة ، فإنها متى فقدت سحر المحجوب وجاذبية المجهول أصبحت كسائر الإناث من سائر الحيوان .

عفواً يا آنسة إذا اتخذت فى خطابك لهجة الأستاذية ، فإنها لاتزال أقوى الصلات التى أمت بها إليك .

ألا تلاحظين أننا فى الجد نتطور ببطء مؤنس ، وفى الهزل نتطور بسرعة

جامحة ؟ لقد كنا بالأمس نتجادل فى السفور ، وها نحن أولاء اليوم نتجادل فى العُرْى !

أستودعك الله يا آنستى ، وأسلم على أبيك وأخيك . ثم أخذت طريق على الشاطىء الشهوان وفى نفسى كلام حبسته .

على أن من الظلم الموروث أن الرجل يشارك المرأة فى الذنب ثم يفردها بالعقوبة !

فالأب يقود ابنته عارية إلى الشاطىء ، والزوج يجلس مع زوجته عارية على المقصف ، والأخ يتعرى مع أخته فى الكشك وفى البحر ، ثم يندلع لسان النقد على المرأة وحدها فيتهمها بخنق الفضيلة ، ويرميها بذبح الخلق !

ياقوم ! لقد فتشتم فى الشواطىء كثيراً عن حياء المرأة ؛ ففتشوا فيها ولو قليلا عن نخوة الرجل !!

لماذا ترجمت آلام فرتر

إلى صديق رفائيل بطى الذى سألنى هذا السؤال وهو طليق الحرية في بغداد، فأجبته وهو سجين الاستبداد فى كركوك :

تسألنى لماذا ترجمت فرتر . . والجواب عن هذا السؤال حديث ، والحديث غداً سيكون قصة ، وليس يعنيك اليوم منها إلا ما نجم عنها :

قال (جيته) يوماً لصديقه (أكيرمان) : « كل امرىء يأتى عليه حين من دهره يظن فيه أن فرتر) إنما كتبت له خاصة »

وأنا فى سنة ١٩١٩ كنت أجتاز هذا الحين : شباب طرير حصره الحياء والانقباض والدرس ونمط التربية وطبيعة المجتمع فى حس مشبوب يتوقد شعوراً بالجمال ، وقلب رغيب يتحرق ظمأ إلى الحب ، ونوازع طامحة ما تنفك تجيش ، وعواطف سيالة ما تكاد تتماسك . فالطبيعة فى خيالى شعر ، وحركات الدهر نغم ، وقواعد الحياة فلسفة وكان فهمى لكل شىء وحكمى على كل شخص يصدران عن منطق أفسد أقيسته الخيال ، وزوّر نتائجه المثل الأعلى . ثم غمر هذه الحال التى وصفتُ هوى دخيل هادىء ولكنه مُلِح ، فسبحت منه فى فيض سماوى من النشوة واللذة ، وأحسست أن وجودى الخالى قد امتلأ ، وقلبى الصادى قد ارتوى ، وحسى القائر قد سكن ؛ وتخيلت أن حياتى الحائرة قد أخذت تسير فى طريق لاحب تنتثر على مدارجه نواضر الورود ، وترف على جوانبه نوافح الريحان ، وتزهو على حواشيه ألوان عبقر ، وترقص على حفافيه عرائس الحور . وذهبت أسلك هذا الطريق السحرى محمولا على جناح الهوى كأننى (فوست) على جناحى (ميفستوفاليس) حتى ذكرنى الزمان الغافل

فأقام فيه عقبة اصطدم عندها الخيال بالواقع والحبيب بالخاطب والعاطفة بالمنفعة !

على أننى بقيت على رغم الصدمة حياً ، ولا بد للحى أن يسير

تطلعت وراء العقبة أنظر الطريق فإذا الأرض قفر والورد عوسج والريحان حمض والعرائس وحوش . . .

فشعرت حينئذ بالحاجة إلى الرفيق المؤنس . . . ولكن أين أنشد ما أبغى وحولى من الفراغ نطاق مخيف ، وأمامى على أسنة الصخور أشلاء وجثث ؟ هذه أشباح صرعى الهوى تتراءى لعينى ، وهذه أرواح قتلاه تتهافت على ، وهذه سجلات مصارعهم بين يدى . فلم لا أحدو بأناشيدهم رواحلى ، وأقطع بمناجاتهم مراحلى ، وألتمس فى مواجعهم لهواى عزاء وسلوة ؟

قرأت : هيلويز الجديدة ، ورينيه ، وأتالا ، وأودلف ، ودومينيك ، وماريون دلورم ، ومانون ليسكو ، وذات الكميليا ، وجرازيلا ، ورفائيل ، وجان دكريف .. وتوثقت بأشخاصها صلاتى ، وتصعدت فى زفراتهم زفراتى ، وتمثلت فى نهايتهم المحزنة نهايتى ، ولكنهم كانوا جميعاً غيرى ! تتفق فى الموضوع وتفترق فى الوضع ، كالنساء النوادب فى مناحة ، تندب كل واحدة منهن فقيدها وموضوع الأسى للجميع واحد : هو الموت !

فلما قرأت « آلام فرتر » سمعت نواحاً غير ذلك النواح ، ورأيت روحاً غير هاتيك الأرواح ، وأحسست حالا غير تلك الحال !

كنت أقرأ ولا أقرأ فى الحادثة سواى ، وأشعر ولا أشعر إلا بهواى ، وأندب ولا أندب إلا بلواى . فهل كنت أقرأ فى خيالى أم أنظر فى قلبى ، أم هو الصدق فى نقل الشعور ، والحذق فى تصوير العاطفة ، يظهر قلوب الناس جميعاً على لون واحد .. ؟ !

كنا يومئذ فى مايو ، والطبيعة تعلن عن حبها بالألوان والألحان والعطر ، ونفسى تحاول أن تعلن عن هواها بالدموع والشعر ؛ فآلامى تجيش فى عينى ، وعواطفى تتعزى على لسانى ، و بلابلى تتوثب فى خاطرى ، وكلها تطلب السبيل إلى العلانية . والشكوى فى الحب كالطفح فى الحمى كلاهما عرض ملازم . فلما قرأت « فرتر » تنفس جواى المكظوم ، لأننى لو كنت صببت مهجتى على قرطاس لما كانت غير « فرتر » . وهل فرتر إلا قصة الشباب فى كل جيل ؟ رجل شديد الحس قوى العاطفة يتقسم الخيال « والإيديال » نواحى نفسه ؛ ورجل آخر بارد الطبع على الفكر يعرف دائماً كيف يجر النار إلى قرصه ؛ وامرأة بينهما يجذبها إلى الأول طبعها الغزلى وقلبها الشاعر ؛ ويربطها بالآخر عقلها المادى ووعدها المأخوذ .. هذا هو موضوع آلام فرتر ، وهو بعينه موضوع آلامى فلم لا أنقله إذن إلى لغتى لينطق عن لسانى ، كما ترجم صادقاً عن ضميرى ؟

فنيت فى « جيته » وقادنى إلهامه وروحه ، وأهبت بلغة القرآن والوحى أن تتسع لهذه النفحات القدسية ، فأسعفتنى ببيانها الذى يتجدد على الدهر ويزهو على طول القرون ثم أصبح فرتر بعد ذلك لنفسى صلاة حب ونشيد عزاء ورقية هم ! كأنما كان « جيته يناديها من وراء الغيب حين يقول فى تقدمته لفرتر « وأنت أيتها النفس إذا أشجاك ما أشجاه من غصة الهم وحرقة الجوى فاستمدى الصبر والعزاء من آلامه ، وتلمسى البرء والشفاء فى أسقامه ، واتخذى هذا الكتاب صاحباً وصديقاً إذا أبى عليك دهرك أو خطئوك أن تجدى من الأصدقاء من هو أقرب إليك وأحى عليك ؟ »

الملك الشهيد

(١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٣)

فى ليل يوم الجمعة الماضى سكت (فى برن) قلب الملك فيصل ؟ وما كان فى حسبان أحد من دنياه أن هذا القلب الذى يجيش بالحياة ، وينبض بالأطماع ، ويستخف بالأمور الجسام ، يسكت فى وحدة الغريب ووحشة الليل الرهيب هذه السكتة الفاجئة !

فلما نعاه البرق إلى الآفاق فزع الناس إلى الشك يدفعون به هول الخطب ، ورجم بعضهم بالظنون يعللون بها بغتة الحادث ، وتعذر على العقل أن يفهم الموت مقروناً إلى فيصل (صقر قريش) ، وقد كان إلى أمس يقطع بعزمه الجبار أجواء الشرق والغرب حاملا فى يمناه العراق ، وفى يسراه سورية ، وفى قلبه « دولة العرب » ؟ ثم انجلى الشك وانجابت الظنون فإذا سورية ، وإذا العرب أمام الفاجعة التى روعت النفوس ، وضرمت الأنفاس ، وقوضت حصون الأمل .

لم يجزع العرب حين نعى إليهم فيصل على نفس كسائر النفوس تغوص

فى لجج العدم ، وإنما جزعوا هذا الجزع الهالع على آمال أمة وجهود نهضة ومستقبل فكرة ؛ لأن ملك العراق كان مناط هذه الآمال ، ومبعث هذه الجهود ، وعدة هذا المستقبل .

ومن العجيب أن يكون مصدر هذا الجزع كثرة الزعماء الأكفاء لا قلتهم فإن هذه الكثرة كانت دائماً وبالا على وحدة العرب إذا لم يقم على رأسها زعيم يعتمد فى قيادتها على سلطان الدين وشرف النسب . وقد اجتمع الملك فيصل مع هاتين عقل كيس ، وخلق نبيل ، ونفس طموح ، وجاذبية قوية ، فلا جرم كان رجل الساعة لهذه الأمة الناهضة يجمع كلمتها حول رأيه ، ويوحد وجهتها وراء خطاه .

* * *

عرفت جلالة ملك العراق أثناء مقامى ببغداد معرفة وثوق وخبرة وكانت حال البلاد فى ذلك الحين محنة ابليت بها كفاية الملك النابغ : فالانتداب البريطانى كان قبل الملكية يعمل فى العلن ويحمل التبعة ، فأصبح بعدها يعمل فى السر ولا تبعة عليه . والحكومة العراقية كانت يومئذ بادية البلى ممزقة الجوانب لا تستطيع بخروقها أن تستر العرش . فالملك بحكم الوضع كان يستر الإنجليز ، ولكن الوزارة بحكم الضعف كانت تكشفه . فكانت أوزار أولئك وأخطاء هؤلاء تحمل فى رأى المعارضة و الشعب على الملك . وكانت الحاشية بعبثها تنفض ظلالة على جد البلاط ووقاره شيئاً من العبث ، والشعب العراقى على اختلاف منازعه وعقائده وأجناسه ناقد متمرد طموح ، لا يصبر على نقص ، ولا يغفل عن خطأ فقدر فى نفسك كيف كان مصير الملك لو كان غير فيصل .

اضطلع الملك فيصل وحده بأعباء الملك والحكم والزعامة فى هذه الحال

المضطربة ، فـكفكف بحكمته من شرة الانتداب ، وخفف بحنكته من عسف الوزارة ، ولطف بحلمه من غضب الشعب ، وصرف شئون الدولة على قدر ما يسلم الرأى الحصيف من خبث الاستشارة وضعف الوزارة . ثم سهل حجابه لأمراء العشائر ورؤساء الطوائف وزعماء الأحزاب ، فاستل ما فى صدورهم بالقول اللين والعتاب الهين والشخصية الجذابة ، حتى كان الرجل منهم يدخل قصره وهو عليه ، فلا يخرج منه إلا وهو له ! ثم نظر خارج العراق فرأى على حدوده دولا ينزى فى صدورها حقد الماضى وطمع الحاضر ؛ فزار تركيا وفرنسا وإيران فأحال عداءها إلى صداقة وجفاءها إلى مودة ! ثم اجتمع بملك الحجاز ، وأوفد إلى إمام اليمن ، فأحكم أواخى المودة بينهما و بينه . ثم هداه تفكيره العملى المرن إلى أن يعالج الانتداب البريطانى بالمصانعة والموادعة حتى انتهى به إلى نوع من الاستقلال يحفظ الكرامة ويعين على النهوض

دخل الملك فيصل العراق دخول الإمام الحسين : لا مال أمامه ولا جند خلفه ! ولكن الحسين جرى على سياسة على فهلك ، وجرى فيصل على سياسة معاوية فملك . ثم اعتمد فى تأثيل ملكه و إنهاض شعبه على الإخلاص العامل والجد النزيه وتحامل فى ذلك على دمه وعصبه وروحه ، حتى ذهب فيصل شهيد الواجب كما ذهب الحسين شهيد الحق .

كان للملك فيصل الأول ملكا من طراز خاص ولعله كان أقرب إلى خلفاء الصدر الأول منه إلى ملوك اليوم : كان ناصع الظرف ، جم التواضع ، رحب الأناة ، ظاهر الموادعة ، زاهداً فى أبهة الملك ، عازفاً عن مظاهر السلطان ، فلا يخدج[1] بتحية ، ولا يمشى فى حرس ، ولا يتشدد فى حجاب .

---

(١) أخدج التحية : أداها ناقصة كما يفعل المتكبرون .

وكان من أجمل مظاهر ديمقراطيته الأصيلة أن تراه غالباً فى شارع الرشيد أو فى طريق الصالحية يقود سيارته بيده ، ويشق طريقه بنفسه ، دون ربيئة من خلفه ، ولا طليعة بين يديه ، فيسبقه أى سابق ، ويزاحمه أى سائق .

وقد تبكر ذات صباح إلى مدرستك أو ديوانك فتراه فى ذرور الشمس قد طلع عليك بوجهه العربى المسنون ، وقده السمهرى الممشوق ، ورشاقته الرياضية البارعة ، فيسلم عليك ثم يتعهد المكان ويتعرف العمل ويودعك بابتسامته الرقيقة وملحوظته الدقيقة .

دعا مرة مؤتمر المعلمين العراقيين إلى الشاى فى حديقة قصره ، فكان يجلس إلى كل منضدة من المناضد الكثيرة جلسة يفاكه أهلها بحلو الحديث ، ويناقشهم فى وجوه الإصلاح ثم خطبهم فى شئون التعليم خطبة جامعة تمنى فى سياقها أن يكون معلماً مع المعلمين يؤدى إلى الأمة هذا الواجب المقدس . وفى صباح أحد الأيام غدا على المدرسة المأمونية الابتدائية فقضى ردحا من الزمن فيها ، ثم سجل اسمه فى ثبت مدرسيها .

كان الملك فيصل فى العراق ملك دولة ، ورئيس حكومة ، وزعيم أمة . وهو فى الأقطار العربية مؤسس نهضة ، وممثل فكرة ، ورسول وحدة ، وداعية سلام ، ومعقد أمل . فإذا هفت النفوس جزعا لفقده ، واستولى على العرب الوجوم والحيرة من بعده ، فإن فى منطق الحوادث وطبيعة الأمور ما يسوغ هذا الجزع ويعلل هذه الحيرة .

ألهم الله الأمة العربية على جلالة ملكها فيصل أجمل الصبر ، وجعل لها فى جلالة ملكها غازى خير العوض . . .

فرعونيون وعرب

(أول أكتوبر سنة ١٩٣٣)

عفا الله عن كتابنا الصحفيين ! ما أقدرهم على أن يثيروا عاصفة من غير ريح ، ويبعثوا حرباً من غير جند !

حلا لبعضهم ذات يوم أن يكون بيزنطيا يجادل فى الدجاجة والبيضة أيتهما أصل الأخرى ؟ فقال على هذا القياس : أفرعونيون نحن أم عرب ؟ أنقيم ثقافتنا على الفرعونية أم نقيمها على العربية ؟

نعم قالوا ذلك القول وجادلوا فيه جدال من أعطى أزمّة النفوس وأعنة الأهواء يقول لها كونى فرعونية فتكون ، أو كونى عربية فتكون ! ثم اشتهر بالرأى الفرعونى اثنان أو ثلاثة من رجال الجدل وساسة الكلام ، فبسطوه فى المقالات ، وأيدوه بالمناظرات ، ورددوه فى المحادثات ، حتى خال بنو الأعمام فى العراق والشام أن الأمر جد ، وأن الفكرة عقيدة ، وأن ثلاثة من الكتاب أمة ، وأن مصر رأس البلاد العربية قد جعلت المآذن مِسَلّات ، والمساجد معابد ، والكنائس هياكل ، والعلماء كهنة !

مهلاً بنى قومنا لاتعتدوا بشهوة الجدل على الحق ! ورويداً بنى عمنا لا تسيئوا بقسوة الظن إلى القرابة ! إن الأصول والأنساب عرضة للزمن والطبيعة: تواشج بينها القرون وتفعل فيها الأجواء حتى يصبح تحليلها وتمييزها وراء العلم وفوق الطاقة فإذا قلنا فلان عربى أو فرنسى أو تركى فإنما نعنى بهذه النسبة انطباعه بالخصائص الثقافية والاجتماعية لهذا الشعب ، كاللغة والأدب والأخلاق والهوى والدين : فمهيار عربى وأصله فارسى ، وروسو فرنسى وأصله سويسرى ،

والأمير فلان مصرى وأصله تركى ، لأن كلا من هؤلاء الثلاثة أصبح جزءاً من شعبه ، ينطق بلسانه ويفكر بعقله ويشعر بقلبه

فبأى شىء من هذا يتمارى إخواننا الجدليون وهم لو كشفوا فى أنفسهم عن مصادر الفكر ومنابع الشعور ومواقع الإلهام لرأوا الروح العربية تشرق فى قلوبهم ديناً ، وتسرى فى دمائهم أدباً ، وتجرى على ألسنتهم لغة ، وتفيض فى عواطفهم كرامة . . ؟

لا نريد أن نحاجّهم بما قرره العلماء المحدثون من أن المصرية الجاهلية تنزع بعرق إلى العربية الجاهلية ، فإن هذا الحجاج ينقطع فيه النفَس ولا ينقطع به الجدل . . . وكفى بالواقع المشهود دليلا وحجة . هذه مصر الحاضرة تقوم على ثلاثة عشر قرناً وثلثاً من التاريخ العربى نسخت ماقبلها كما تنسخ الشمس الضاحية سوابغ الظلال . وذلك ماضى مصر الحى الذى يصبح فى الدم ، ويثور فى الأعصاب ، ويدفع بالحاضر إلى مستقبل ثابت الأس شامخ الذرى عزيز الدعائم

أزهقوا إن استطعتم هذه الروح ، وامحوا ولو بالفرض هذا الماضى ، ثم انظروا مايبقى فى يد الزمان من مصر هل يبقى غير أشلاء[1] من بقايا السوط ، وأنضاء[2] من ضحايا الجور ، وأشباح طائفة ترتل « كتاب الأموات » ، وجباه ضارعة تسجد للصخور وتعنو للعجماوات ، وقبور ذهبية الأحشاء ابتلعت الدور حتى زحمت بانتفاخها الأرض ، وفنون خرافية شغلها الموت حتى أغفلت الدنيا وأنكرت الحياة ؟ وهل ذلك إلا الماضى الأبعد الذى تريدون أن يكون قاعدة لمصر الحديثة ، تصور بألوانه وتشدو بألحانه وتحيا أخيراً بروحه ؟ ولكن أين

---

(١) الأشلاء جمع شلو وهو العضو بعد البلى والتفرق (٢) الأنضاء جمع نضو وهو المهزول .

تحسون بالله هذه الروح ؟ إن أرواح الشعوب لاتنتقل إلى الأعقاب إلا فى نتاج العقول والقرائح . فهل كشفتم بجانب الهيا كل الموحشة والقبور الصم مكتبة واحدة تحدثكم عن فلسفة كفلسفة اليونان ، وتشريع كتشريع الرومان ، وشعر كشعر العرب ؟ أم الحق أن مصر القديمة دفين فنيت روحه مع الآلهة ، وصحائف موت ذهب سرها مع الكهنة ، والخامد لايبعث حياة ، والجامد لا يلد حركة ؟

لا تستطيع مصر الإسلامية إلا أن تكون فصلا من كتاب المجد العربى ، لأنها لاتجد مدداً لحيويتها ، ولا سنداً لقوتها ، ولا أساسا لثقافتها ، إلا فى رسالة العرب . أما أن يكون لأدبها طابعه ولفنها لونه ، فذلك قانون الطبيعة ولا شأن (لمينا) ولا (ليعرب) فيه ؛ لأن الآداب والفنون ملاكها الخيال ، والخيال غذاؤه الحس ، والحس موضوعه البيئة ، والبيئة عمل من أعمال الطبيعة يختلف باختلافها فى كل قطر . فإذا لم يوفق الفنان بين عمله وعمل الطبيعة ، ويؤلف بين روحه وروح البيئة ، فاتته الصبغة المحلية وهى شرط جوهرى لصدق الأسلوب وسلامة الصورة وقديماً كان لون الأدب فى الحجاز غيره فى نجد ، وفى العراق غيره فى الشام ، وفى مصر غيره فى الأندلس ، دون أن يسبق هذا التغاير دعوة ولا أن يلحق به أثر ؟

انشروا ماضمنت القبور من رفات الفراعين ، واستقروا من الصخور الصلاب أخبار الهالكين ، وغالبوا البلى على ما بقى فى يده من أكفان الماضى الرميم ، ثم تحدثوا وأطيلوا الحديث عن ضخامة الآثار وعظمة النيل وجمال الوادى وحال الشعب ، ولكن اذكروا دائماً أن الروح التى تنفخونها فى مومياء فرعون هى روح عمرو ، وأن اللسان الذى تنشرون به مجد مصر هو لسان مضر ، وأن القيثار الذى توقعون عليه ألحان النيل هو قيثار امرىء القيس ، وأن آثار

العرب المعنوية التى لا تزال تعمر الصدور وتملأ السطور وتغذى العالم ، هى أدعى إلى الفخر وأبقى على الدهر وأجدى على الناس من صفائح الذهب وجنادل الحجارة .

إنما تتفاضل الأمم بما قدمت للخليقة من خير ، وتتفاوت الأعمال بما أجدت على الإنسان من نفع . أليس (الخزان) خيراً من الكرنك ، والأزهر أفضل من الأهرام ، ودار الكتب أنفس من دار الآثار ؟ .

وبعد فإن ثقافتنا الحديثة إنما تقوم فى روحها على الإسلام والمسيحية ، وفى أدبها على الآداب العربية والغربية ، وفى علمها على القرائح الأوربية الخالصة . أما ثقافة (البردى) فليس يربطها بعصر العربية رباط ، لا بالمسلمين ولا بالأقباط .

حديقة

من ذكريات بغداد :

كان ألذ ما أتذوقه من جمال بغداد وقفة فى حديقة (النادى العسكرى) كل صباح ! فكنت ترانى أحرص عليها حرص العابد المتحنث على أداء صلاته ، أو العاشق المتوجد على لقاء فتاته . كنت أغشى كل يوم هذا المجتلى الساحر فى رونق الضحى أو فى مُتوع النهار ، فأجد الشمس قد لألأت ذوائب النخل وغوارب النهر ، وأخذت ترشق بأشعتها الظلال الندية من خلال الشجر ؛ وبنات الهديل[1] يبحثن كعادتهن فى عساليج[2] التين وأغصان التوت بأرجلهن ومناقيرهن وهن يرجِّعن على التعاقب ألحان الخريف ؛ وأرى الحديقة مطلولة النبات منضورة الزهر تتنفس بالفاغية[3] تنفس الطفل الحالم ؛ وأشعر بالسكون مرهوبَ الجلال أنيس الوحشة ، يعمق ثم يعمق حتى تكاد تسمع النبات وهو ينبت ؛ وأجد النادىَ خلواً من أهله فلا تجد إلا بستانيا يعمل فى صمت ، وغلاماً يكنس فى هدوء ، وطفلين جميلين يجيئان أحياناً فيجلسان فى الشرفة أو يمشيان فى الحديقة ، فلولا نشوز خادمهما الكهل ، ومنظر هندامه الزرى الشكل ، لحسبتهما زهرتين من زهورها ، أو عصفورين بين طيورها ، فأسير فى الروضة متئد الخطى مرسَل النفس مرهف الحس ، تارة بين مماشيها ، وتارة فوق حواشيها ، فأقف عند كل شجرة ، وأحيِّى كل زهرة ، وأسأل النبتة الوليدة بالأمس ما حظها اليوم من سحر الحياة ونعمة الوجود . ثم أصعد درجة إلى الشرفة ، وأنعم ساعة بتلك الوقفة ، أتنسم هواء النهر ملء رئتىّ ، وآخذ جملة المنظر بمجامع عينىّ . وأى منظر يسحر الطرف ويملك اللب كهذا المنظر الفاتن ؟ ! الحديقة من ورائى

---

(١) بنات الهديل : كناية عن الحمام . (٢) العساليج جمع عسلوج وهو ما لان واخضر من قضبان الشجر أول ما ينبت . (٣) الفاغية كل زهر له رائحة طيبة

تضوع بالنسيم الأريج ، وتروق بالرواء البهيج ، وتروع بالسكون الملهم ! ودجلة الخالد من أمامى تتجاوب أصداء الأمم خافتة في لجاجه ، وتتهادى خفاف القوارب راقصة بين أمواجه ، وأنا بين الشجر والماء ، كالطائر بين الأرض والسماء ، يسبح خاطرى فى أجواء الماضى القريب والبعيد صاعداً إلى فكرة ، أوهابطاً على ذكرة ، أوحائماً حول منظر كهذا المنظر ، تدفق به قلب فى قلب ، وامتزجت فيه نفس بنفس ، وتجمعت الأحلام والأمانى كلها فوق رقعة صغيرة من أرضه ، وتحت سرحة فينانة من روضه .

* * *

لا تظنن هذه الحديقة فيحاء قد تأنقت فيهـا يد الطبيعة وتألق بها فن الإنسان ، إنما هى مربع من الأرض على قدر مايتسع له فناء كبير فى منزل فخم ، يشقها مشيان معروشان قد تعارضا على شكل صليب فقسماها إلى أربعة أقسام سواء ، وفى هذه الأقسام وما ألحق بها قام دوح السّدر ، وبسق سرح الكافور ، وانتظمت على جوانب مماشيها أشجار النارنج ، وانتثرت على معظم أرضها ألوان قليلة من النّور الجميل والورد العطر . فسماؤها كما ترى للشجر ، وأرضها للزهر ، وجوها للعطر ، وهى كلها لنوع من الجاذبيـة يجعلها على بساطتها فتنة الفنان وجنة المفكر .

ليت شعرى ما مصدر هذا السحر الذى يشع فى عينى ويشيع فى نفسى كلما دخلت هذا المكان ؟ أهو ذاك البناء المتآكل الذى يقوم فى جنوبيه كأنه المعقل البالى أو الدير المهجور ؟ أم هو ذلك النهر الجميل الذى يجرى فى غربيه كأنه الزمن الدافق أوالكتاب المنشور ؟ أم هو ذلك المزيج العجيب من جلال القدم فى المكان ، وجمال الطبيعة فى البستان ، وعظمة الحياة الماثلة فى النهر ؟

ليس للروح العسكرى فى هذا المكان الشعرى مظهر ولا أثر فما تعهده من الخشونة فى السكنات والعنف فى الحركات والقسوة فى النظرات والكلمات يحول هنا إلى ذوق فنان ورقة شاعر وهدوء فيلسوف !

كادت هذه الخواطر الجريئة الملحة تذهلنى عن حديقتى واليوم عيد من أعياد الطبيعة برزت فيه عارية من الحُلل غانية عن الحلى . والخريف فى العراق هو الربيع احترقت غلائله الوردية فى لظى تموز . فهو على تجرد أرضه من الأنوار والأزهار ، وتحجّب سمائه أحيانا بالغيم وأحيانا بالغبار ، جميل البسمات عليل النسمات رقاق الأديم فها نحن أولاء بين أعقاب الخريف وطلائع الشتاء والشمس لا تزال فى ثغر السماء ابتسامة حلوة . تضاحك النهر الحبيب فتزيده طلاقة ، وتداعب الزهر الكئيب فتكسبه أناقة ، وتطالع الجو المقرور فتقبسه حرارة ، وتصارع برد الموت فى أوراق النارنج وأطراف التوت فتطيل بقاءها فترة أخرى من الزمن ، وهذه اليمامات السواجع مازلن يأوين إلى أعالى الشجر ، ويمرحن فى الضوء وينعمن بالدفء ويهتفن بالأهازيج كأنهن فى أمنة من حلول يناير وهو منهن على ليال قلائل وهذا دجلة السعيد يتنفس موجه بالنسيم ، ويطفح غرينه بالذهب ، ويقذف تياره بالغثاء والزبد ، بعد ما نخره القيظ فنشّ حتى انكشف ضميره ، وانقطع خريره ، وكاد يزحف الشبوط[1] والزورق فيه على القاع . فالبواخر تصعد صافرات فى سرعة ، والأطواف[2] تنحدر صامتات فى بطء ، والقفف[3] تعبر موقرات فى هوادة ، وقوارب الصيادين وزوارق للملاحين تتعارض وتتحاذى فى عباب النهر كأنها الخواطر

(١) الشبوط نوع من السمك يشبه البورى .

(٢) الأطواف كالأرمات أعواد من الخشب توضع فوق قرب منفوخة يحمل عليها فى الماء .

(٣) القفة : نوع مستدير الشكل من السفن العراقية الأثرية يرجع تاريخه إلى الكلدان .

الحائرة فى الفكر العميق ، والطيور الصائدة تحوم على وجوه الماء بأجنحتها الشهب حومان الآمال على ستر الغيب الصفيق ، والبجعة[1] الملكية تطعن فى صدور الموج بمنقارها الطويل العريض وهى تسبح آمنة فى حمى البيت العتيق ، وأنفاس دجلة اللاهث من عبء القرون تتصاعد إلىّ حاملة أنين الأمواج وخفق المجاديف وغماغم (الكرخ) فتختلط بتجاوب اليمام على الشجر ، وتناوح الرياح بين الغصون ، وحشرجة الأوراق الذاوية على الأرض ، فتتألف من هذه الأصوات الخافتة موسيقى روحية شجية تبعث رواقد الأحلام وتثير كوامن الآلام وتقطع بين النفس ووجودها الحاضر

إيه يادجلة ، ياسجل الأمم وراوية العصور ! لشد ما فنيت فى خريرك ضحكات، وامتزجت بنميرك دموع ، وخفيت فى ضميرك أسرار ! لقد رأيتك بالأمس ضارعاً قد لصق خدك بالأرض حتى هم بخوضك الخائض ، وهمدت حياتك حتى أوشك أن يسكن عرقها النابض ثم رأيتك اليوم وقد غاثك الغيث فجاشت ينابيعك الثرة بالنماء والثراء والقوة ، ثم أقبلت كدأبك منذ آلاف السنين مدوِّىَ الدارات صخاب اللج تعرض هذا النعيم ملحاً على بنيك فيعرضون عنه إعراض البطر ، ويؤثرون على فيضك الميمون وذق المطر ، ثم يهينون كبرياءك يا أبا الحضارات فيجعلون مبلغ همك حمل الأرماث ونقل القفف ! فهل يعجبون إذا ثار غضبك فجرفت السدود وجاوزت الحدود وأصبتهم بالغرق ؟ !

---

(١) هذه البجعة كانت تعيش فى قصر الملك فيصل الأول رحمه الله ، وقد كان واقعاً على النهر شمالى هذه الحديقة وكانت تقضى أكثر نهارها على الماء

القرية أمس واليوم

(١٥ أكتوبر سنة ١٩٣٣)

كان أكتوبر في الزمن السعيد يقبل على القرية إقبال الربيع : يفتق لوز القطن في الحقول ، ويشقق ورد الصبا في الخدود ، ويفتح نوار المنى في القلوب ؛ ثم يمر بيده الذهبية على تعب الفلاح فيزول ، وعلى هم المدين فينفرج ، وعلى غمرة المكروب فتنجلي ؛ ويرسل الخصب مدراراً على المنازل الجديبة فيرتاش المقل ، وينعم البائس ، ويتزوج الأعزب !

كنتَ في أكتوبر شهر الغنى والزواج ترى مزارع القطن رفافة الوجوه بسامة الصور ؛ تنساب بين خطوطها البيض أسراب الغيد يجنين الثمرة الغالية وهن يغنين الأغاني الجميلة ، ويحلمن الأحلام اللذيذة ، ويتخيلن هذا القطن الذي يجمعنه الآن بأناملهن ، ويضممنه في أحضانهن ، وقد أصبح الثوبَ الزاهي الذي اشتهينه ، والقرط الذهبي الذي ابتغينه ، والزوج الحبيب الذي تمنينه . فإذا جئت القرية وجدتها زخارة بالحياة ، موارة بالحركة ؛ تمرح بحماسة الشباب ، وتموج بأطياف الحب ، وتهزج بأناشيد الأعراس ، وتتلقى جزاءها الأوفى على جهادها الصابر طول العام من فلاحة الأرض وخدمة المالك وإعانة الحكومة .

فالطرق الآتية إليها من الغيط تسيل بالعذارى الأوانس يصفقن بالأكف المخضوبة ، ويحدون بالأصوات الندية ؛ (والخواجات[1]) يخرجون متعاقبين من بيت إلى بيت ، يساومون على (المحصول) بالأثمان المغرية ؛ والشباب المرحون يسمرون إلى موهن من الليل على الرباب والأرغول في بيوت الأفراح

---

(١) كان أغلب تجار القطن من الجالية اليونانية وهم الخواجات في عرف الفلاحين .

القريبة ، وأشعة الخريف الفاترة تبعث فى قلوب هؤلاء الخليين طلاقة العيش وجمال الوجود ، فلا يشغلون بالهم بالزروع التى تذبل ، ولا بالأوراق التى تسقط ، ولا بالطبيعة التى تموت !

* * *

ذلك حديث القرية المصرية بالأمس ، فهل أتاك حديثها اليوم ؟ لم يعد وا أسفاه للقطن تلك القوى السحرية التى كانت ترد البؤس نعيما ، وتجعل النار جنة ! ولم تعد الطرق السالكة إليه شادية بالغناء ، ولا الأنامل التى تجنيه مخضوبة بالحناء ، ولا الدور التى تحويه ألاقة بالذهب فقد القطن ولواحقه من سائر الغلات معنى الرخاء ، فأصبح علاجها عناء خالصاً لا روح فيه ، وسعياً باطلا لا رجع منه . وكان الفلاح قد أقام بيته وأدار حياته على هذا الحاصل فكان يأكل حبوب الأرض ، ثم يرصده وحده لقضاء الدين ، وأداء الضريبة ، ووفاء القسط ، وسداد المهر ، ونفقة السنة . فلما بخست قيمته الظروف القاسية ، تزعزع البيت ، واضطربت الحياة ، وانتشرت الحال ، واستحكمت الأزمة ، فألح الدائن فى الطلب ، وأعنف الجابى فى التحصيل ، وأسرف البنك فى الحجز ، حتى انتقص لهم الفلاح من قوته ، واقتطع لهم من ثوبه ، ونزل لهم عن جهده ، ولم يغن كل ذلك شيئا عن بيع ملكه[1] .

تبدلت القرية غير القرية ، فلا ليلى تطمع فى زينة ، ولا أخوها يطمح إلى زواج ، ولا أبوها يفكر فى حج . وأصبح الطريق الذاهب إلى المدينة يجىء بالمرابى والجابى والمحضر ، بعد أن كان يجىء بالشاعر والزامر والمغنى وغاضت بشاشة العيش فى وجوه الشباب فعادت القرية جديبة كالقفر ، كئيبة كالقبر ، لا يعقد فيها اجتماع لأنس ، ولا يقام بها احتفال لعرس وما أبعد هاتين

---

(١) كانت أثمان القطن قد انخفضت انخفاضاً شديداً فى هذا العام الذى كتبت فيه هذه الكلمة .

الكامتين اليوم عن قوم ندر عندهم الكبريت (الأصفر[1]) حتى اتخذوا الزناد، وغلا عليهم الدخان حتى اشترك ثلاثة فى سيكارة !

* * *

لا تزال القرية كما كانت فى القرون الخوالى أكواخاً متلاصقة غرقى فى المناقع والدِّمَن[2]، لا تبصر الشمس، ولا تنشق الهواء، ولا تعرف النظافة. تكومت فى قاعها أرواث البهائم وزرق الدجاج ؛ وتراكم على سطحها حطب الوقود وعلف الماشية ؛ وتقاسم الإنسان والحيوان المضاجع فى هذه الحظائر المشتركة ثم راض الفلاح نفسه مرغما على الطعام الوخيم والشراب الكدر والملبس الرث والقناعة المزرية حتى مات فى حسه إدراك الجمال، وتفه فى ذوقه طعم الوجود.

ذلك والعواصم المصرية تعيش فى القرن العشرين، تأخذ بمدنيته، وتقبس من نوره، وتنعم برفاهه، كأن الصلة التى بين القرية والمدينة هى الصلة التى كانت بين العبد والسيد، يملك ولكن ملكه لمولاه، وينتج ولكن إنتاجه لسواه.

تغلغلت المدنية فى الأمم الأوربية حتى انتظمت[3] قمم الجبال وبطون الأودية وأطراف السهوب وسوت بين بنيها فى متع العيش وحقوق الإنسان ؛ ثم تشوفت إلى الآفاق النائمة فى الشرق تريد أن تهديها طريق الحضارة، ونحن لا نزال قاصرين عن إنقاذ قرانا من الجهل والمرض والفقر، وهى مصادر القوة وموارد الإنتاج تمول الموظفين بالضرائب، وتغذى الجيش بالجنود، وتمد الحواضر بالأرزاق، وتعين الأحزاب بالمال، وتقيم (الحفلات[4]) بالتبرع.

---

(١) إشارة إلى ارتفاع أثمان الكبريت والدخان يومئذ.

(٢) المناقع جمع منقع وهو المستنقع، والدمن جمع دمنة وهى المزبلة.

(٣) انتظمت : شملت.

(٤) كان الفلاحون يجبرون على إقامة الحفلات لرجال الحكم باسم التكريم.

إن الفلاح المسكين الساذج يسمع بالوزارات تسقط وتقوم ، وبالأحزاب تختصم وتحتكم ، وبالمجالس تنتثر وتنتظم ، وبالدواوين تفتح وتغلق ، وبالأموال تجبي وتنفق ، فيسائل نفسه سؤال الجاهل : إلى من هذه الأعمال والأموال إذا لم يكن لى من ثمارها نصيب ؟

لقد اشترينا بأقوات الريف أبهة العاصمة ، وبنينا بأنقاض القرية قصور المدينة ، وغسلنا بعرق الفلاح أقدام المترفين ، فكنا كمن حفر الجداول ، وخطط الحقول ، ونثر البذور ، وشيد الأهراء[1] ، ثم طمّ فى سبيل ذلك فوهة الينبوع .

---

(١) الأهراء جمع هرى وهو مخزن القمح .

نهضة الشباب

نهضة الشباب اليوم إحدى الظواهر المميزة لهذا الجيل وهى أجلى ما تكون فى الأمم المظلومة أو المهددة بالظلم ، كأنما أخفق فى سياستها (رأى) الشيوخ فصمد إلى قيادتها (عزم) الشباب . والواقع أن هذه النخوة القدسية التى تعصف برءوس الفتيان فى إيطاليا وألمانيا وسورية ومصر ، إنما هى القارعة التى تصم ، والظاهرة التى تخيف ، لأن الشباب إذا كان لهم الصف الأول فى الحرب فإن لهم الصف الأخير فى السلم . فإذا ألجأهم تقلب الصروف إلى تقدم الصفوف ، دل ذلك على سياسة عاجزة أو سلم مريبة أو خطر محدق . وعجز السياسة اتهام لحنكة السن ، ورياء السلم إيذان بصراحة الحرب ، وتفارس الأهواء إعلان بنزول الفاشية .

فالفاشية ، والنازية ، وعصبة العمل القومى ، وعيد الوطن الاقتصادى ، وغيرها من حركات الشباب وثبات دفاعية بعثتها الإنسانية المهددة بالتفكك والفوضى والهوان والاستعباد والجشع . ولئن كان لكل دولة من هذه الدول علة أو أكثر من هذه العلل ، فإن مصر البائسة تكابد هذه النكبات جميعاً . فأخلاقها تفككها الحزبية الأثرة ، وآراؤها تشتتها المطامع الخسيسة ، وكرامتها تهينها (الامتيازات) الباغية ، وقوميتها توهنها الأجنبية الموغلة ، وحريتها تقيدها القوة المحتلة ، وأرزاقها تسلبها (الضيافة[1]) الثقيلة ، وأبناؤها (الكرماء) القانعون الخانعون قد ألفوا مضاجع الهون ، فلا تؤذيهم الفضاضة ، ولا تؤلمهم الخصاصة ، ولا يبغون حولا عن هذه الحال .

---

(١) إشارة إلى القولة المعروفة (أحرار فى بلادنا ، كرماء لضيوفنا)

ولكن الشباب — وإن أعدم هـذا الحاضر الذليل — قد أعانتهم خصائص الفتوة وغرائز الفطرة على أن يدركوا ما نحن فيه من ضراعة الجانب ووضاعة الشأن وضيق المضطرب ، فهبوا يُعزّون النفوس الذليلة ، ويمنعون الحوزة المباحة ، ويستردون الثروة المضاعة ، ويمهدون لهذا البلد العانى طريق الاستقلال الخالص السعيد . . .

ومَن أحقّ بحماية الوطن وإعزازه من الشباب ؟

إنهم يعيشون للغد وآباؤهم يعيشون لليوم . فهم يحرصون على المستقبل ويجعلون الحاضر رأس مال ، وأولئك يحرصون على الحاضر ويعدون المستقبل تركة . وشتان بين من يعمل لنفسه عن حاجة ، وبين من يعمل لغيره عن عاطفة .

* * *

لقد كان شبابنا وما زالوا أغرودة الأمل الباسم فى فم وادينا الجميل ، وسرّ النشاط الدافق فى زوح نهضتنا المرجوة . حملوا وما زالوا لواء الغضبة المقدسة[1] فى وجه الدخيل العادى ، وغسلوا وما زالوا يغسلون أدران الماضى بالعرق الطهور والدم الغالى . ثم رأوا أن مصر المنكودة إنما يقف فى طريق حياتها الطبيعية احتلالان لا احتلال واحد : احتلال سياسى يحتل الثكنات ويخادع الحكومة ، ويغل الحرية ، ويهين الحق ، ويؤذى الكرامة ، واحتلال اقتصادى يحتل المدائن ، ويغزو القرى ، ويأكل الأرض ، ويشرب النيل ، ويحتكر التجارة ، ويجلب الخمور ، ويهرب المخدرات ، ويكتسب بالمنكرات ، ويفتك بالجيوب ، ويلغ فى الأعراض ويعبث بالدين ، ويحلّ على الجملة فى سبيل المغنم ما حرمته

---

(١) ثورة سنة ١٩١٩

الشرائع والضمائر والعرف ، ثم يتبجح بعد ذلك كله بأنه القيم على المدنية والحرية والعدالة ، يبذرها فى طريقه ، وينشرها فى مجلسه ، ويمثلها فى نفسه . فإذا قلت فى رقة المغازل لهذا الضيف المدلل : إن ما تفعله يناقض ما تقوله ، تجهمت (امتيازات) الدول ، وتزغمت[1] (تحفظات[2]) الإنجليز .

رأى شبابنا أن جهاد هذين الاحتلالين أمر لا يتحقق خلاصنا بدونه ، وأن قصر الجهود على أحد الميدانين يمكن المحتلين من حشد كل القوى فى ذلك الميدان ، فأرهفوا النشاط وأرصدوا الأهبة ولاقوا الواغل فى كل طريق .

ليس بسبيلنا اليوم أن نعرض فيالق الشباب فى مختلف الميادين ، فقد أشرنا إلى ذلك فى كلمة سابقة ، إنما نريد أن نسجل فى ثبت المجاهدين فيلقاً جديداً جاء يؤكد مرة أخرى أن هذه الأمة الكريمة قد قطعت عزمها على أن تعيش فى أرضها حرة وفى ملكها سيدة : ذلك الفيلق هو جماعة (عيد الوطن الاقتصادى) وهم فريق من الطلاب العاملين المخلصين البررة ، حمّلوا نفوسهم الرقيقة فوق تكاليف الدرس أعباء الدعاية للتجارة المصرية والمنتجات الوطنية ، فهمُ يعرضون عن مطالب الصِّبا ، وَيصدفون عن مباهج العيش ، ويعقلون جهودهم وميولهم فى مكاتب العَمل من نادى اتحاد الجامعة : يعلنون بالوسائل المختلفة عن المشروع الذى يعُدونه ، ويدعون إخوانهم إلى التطوع فى الجيش الذى يحشدونه ، ويتصلون بالتجار ليقنعوهم بالاشتراك فى الدليل الذى يصدرونه ، ويجمعون الأهَب للمهرجان الفخم الذى يهيئونه ، ويزورون المصانع والمتاجر ليحققوا الوجه الذى يقصدونه ، ويعانون فى سبيل أولئك رهقاً شديداً فى النفس والمال والكرامة .

---

(١) تزغم الرجل : تكلم فى غضب . وأصله من تزغم الجمل وهو أن يردد رغاءه فى لهازمه .

(٢) من تحفظات الإنجليز التى ألحقوها بتصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ حماية الأقليات الأجنبية .

أجل ، أقول والـكرامة ، لأن كثيراً من تجارنا لا يزالون يتعاطون التجارة على منهج دارس ونظام لبك[1] ، فهم يتهمون الناصح ، ويستغشون المشير ، وينـكرون التطور ، ويجهلون الإعلان ، ويعتمدون فى جلب الحرفاء ورواج السلع على التمائم والأدعية .

* * *

سيكون عيد الوطن الاقتصادى يوم دعاية وإعلان وعرض ، وسيقدم للمارين الأدلة التى تصك الأسماع وتطرف العيون على أن مصر الناهضة تسير فى سبيل مأمونة إلى غاية مضمونة .

فـاهمة الشباب فيه بالتطوع ، وانضواء التجار إليه بالاشتراك ، وعطف الجمهور عليه بالتأييد ، ضمان للنصر المبين فى إحدى المعارك الفاصلة .

إن القبعات فى الطرقات أكثر وأخطرمنها فى الثـكنات واليوم الذى لا ترى فيه على الرءوس غير الطربوش ، ولا تقرأ على جباه الحوانيت إلا العربية ، ولا تسمع فى مختلف المعامل إلا اللهجة المصرية ، هو اليوم الذى تقول فيه وأنت صادق : لقد صفا النيل وملك الأصيل واستقلت مصر .

---

(١) اللبك : المختلط .

حجاج ودوس

(٤ ديسمبر سنة ١٩٣٣)

حلقا في السماء النائية البعيدة والأمل الطلق يبسم لهما خلال السحاب ، والمستقبل الوضاء يشرق عليهما بين الضباب ، والاستقبال المنتظر ينثر الأحلام على جناحي الطائرة . فالنسر الحديدي يزفّ في الهواء الندي زفيف الكوكب ، والطيار الشاب وصاحبه يسبقانه بالخيال العجيب إلى أرض الوطن ، فيريان البشر الفخور يفيض على جنبات الوادي ، والمجدَ الأثيل ينبعث لهفان من غيابات الماضي ، والشعب النبيل يتقاطر مزهواً إلى المطار الحاشد ، والأعلام الخضر تخفق بالتحيات خفوق القلوب بالإكبار والحب ، والطوائر العشر يهبطن على الثرى الحبيب هبوط المخيلة والعُجب ، والهتاف الحماسي الهاتف يغمر السرب الأول بالترحاب والإعجاب والشكر ، وأكاليل الغار تتوج الجباه المجلية في ميدان البطولة والنصر ...

كل أولئك كان يتمثله (فؤاد) ويتخيله (شهدى) حين غفا الحظ تلك الغفوة المشئومة فإذا بالقدر الراصد يثب من بين أطباق الضباب فيصرع الأمل الناهض ، ثم يجعل النسر الطائر حطام حريق ، والمستقبل الزاهر ساعة هول وضيق ، والاستقبال الباهر مناحة أمة ، وأكاليل الغار أكاليل نعش !

* * *

اللهم لا رادَّ لقضائك ولا معقب لحكمك . جعلت الشهادة روح الجهاد ، والتضحية طريق المجد ، والفداء عبادة للمثل الأعلى . ومصر ذات التاريخ الأزلي

(*) فؤاد حجاج وشهدى دوس طياران مصريان احترقا على أرض فرنسا وهما عائدان في السرب المصري من انجلترا إلى أرض الوطن .

والتراث الخالد قد كتبت هذا التاريخ بدماء شهدائها ، وأثلث هذا التراث بجهاد أبنائها ، وعرفت السماء قبل أن يعرف غيرها الأرض ، فلا يشتد جزعها لهذا الحكم ، ولا يرفضُ صبرها لهذا البلاء . وما حجاج ودوس إلا شهيدان كتبت لهما السعادة أن يكونا فى أول سجل من نوع جديد .

إن شهداءنا الأبرار الذين قضوا فى سبيل الوطن والحرية والعلم والطيران هم القوة الملهمة للشباب العاملين ، والحجة المفحمة على النشء الخاملين ، والدلالة البينة على أن مصر لا تزال تعرف كيف تموت لتحيا ، وكيف تشقى لتسعد .
وإن الذين شهدوا أبناءنا يوم جنازة الشهيدين يتسعرون بالحماسة ، ويتفجرون بالوطنية ، ويهتفون بالتضحية ، ليوقنون أن هذه النفوس الحرة التى تظاهرت على كبتها وإذلالها شتى العوامل تأبى أن تتكشف للخطوب إلا عن جوهر خالص وفطرة نقية

إن الوادىَ يوم ضم إلى أحشائه بقايا ولديه الصريعين قد قوى فى صدره نبض الحياة ، ودب فى جسمه دبيب الفتوة ، لأن الوطن تميته الدموع وتحييه الدماء . فكلما كثرت القرابين على مذبحه ، وفاضت النفوس على ثراه ، ازداد قداسة واتقد حماسة واشتد قوة . وتقريب الفداء المختار نكبة لأسرة ، ولكنه حياة لأمة ومجد لوطن .

* * *

التضحية بالنفس أو بالمال هى الوطنية الصادقة والزعامة الحق ، لأنها أثر الإيمان الصحيح ودليل الجهاد المخلص . ومتى بلغت النفوس حد الإيثار أعيَتْ على الظلم ونَبَتْ على المذلة ، فلا تجد حاكماً يجور ، ولا عالماً يداجى ، ولا صائماً يخاتل ، ولا قائداً يهن ، ولا غنياً يشح ، ولا وطناً يشقى .

فهل لسادتنا وكبرائنا أن يكفكفوا شرَّة الحرص فى نفوسهم بالتضحية ؟

ومعاذ الله أن أقصد التضحية بالدم ، فليست من طبع الكهولة ؛ إنما أقصد التضحية بالتهالك على الرياسة ، والتهافت على المنصب ، والتكالب على المال ، ليصح الخلق المريض ، ويأتلف الأمر الشتيت ، ويعود الجائر إلى قصد السبيل .

* * *

برد الله بالرضوان ثراكما يا شهيدى الواجب ! لقد هززتما للمعالى هِمماً توشك أن تهمد ، وذكرتما بالمجد نفوساً تكاد أن تنسى ، وأضفتما اسم مصر إلى أسماء الأمم التى روت بدمائها أصول الخير المشترك ! ولئن كان مصرعكما عثرة أليمة فى أول الطريق الجديد ، فإنه حرى أن يسدد خطانا فيه ، ويظهر قوانا عليه ، بحسن الاقتداء بالبطولة ، وصدق الاعتبار بالخطأ . وما مات من رجالك من أحياك ، ولا ذهب من مالك ما علمك .

طأطئوا الرءوس يا قوم إجلالا لمصرع البطولة !

إن شهيدينا قُتلا فى السماء ، وغُسلا بالنار لا بالماء ، ودُرجا فى علَم لا فى كفن ، وحملا على مدفع لا على نعش ، وكتبا فى سجل الخلد لا فى دفتر (الصحة) ؛ فهل هذه الموتة العظمى تفتُّ فى الأعضاد وتفل من غرب العزيمة ؟

إن الأمة التى لم تكد تأخذ بأسباب الطيران حتى يبادر إلى خوض أهواله فتاة من فتياتها ، ويسبق إلى الشهادة فى سبيله فتيان من فتيانها ، لا يستطيع أن يكسر من ذرعها حادث ، ولا أن يتكاءدها فى طريقها إليه عقبة .

سلام الله على أشبالنا فى الجهاد ، وعلى أبطالنا فى الاستشهاد ، وعلى شهدائنا فى قدس الخلود !

فلسطين

(١١ ديسمبر سنة ١٩٤٣)

بين حديد (الانتداب[1]) الذى يأكل الأجسام ، وذهب الصهيونية الذى يأكل الأرض ، يعيش العربى فى فلسطين عيش المحكوم عليه بالقتل أو النفى ، إذا سلم له بدنه لا يسلم له وطنه . وما هذه الصرخة التى صرخها فصكت المسامع الصم ، وبلغت الضمائر الغُلف ، إلا العارض المنذر فى الحى بالضر يلوعه ، أو بالخطر يرُوعه ، أو بالظالم يحيق به !

وإن الصرخة للحياة تسلب ، أو للديار تغصب ، لهى الصرخة التى يدوى فيها صوت الحق ، ويمتزج بها أنين العدل ، ويضطرب فيها احتجاج الإنسانية على قوم اتخذوا المدنية حبالة لاستعمار الأوطان ، ووسيلة لاستعباد الأمم .

* * *

كانت البربرية فى العهود الخوالى تغزو سافرة الوجه ، وتنهب ظاهرة اليد ، وتقول صريحة اللسان ، وتعمل واضحة الغاية ؛ فجاءت مدنية اليوم فوضعت اليد الحمراء فى القفاز الأبيض ، وسترت الوجه الكاشر بالنقاب الخادع ، ووفقت بين الناب والفريسة بمعاهدات الصداقة ومؤتمرات السلم ، وصاغت معانى القوة والتعصب فى ألفاظ القانون ومصطلحات العلم ، وأشفقت على شعور الإنسانية فسمت الاسترقاق تمدينا ، والاغتصاب انتدابا ، والحماية وصاية . وعمّقت أغوار

---

(١) انتداب انجلترا على فلسطين وهو مصطلح جديد من مصطلحات الاستعمار ابتكرته (عصبة الأمم) .

القلوب السياسية فلا ندرى لماذا حرمت بيع إنسان لإنسان ، وحللت بيع شعب لشعب !

هذه أمة من أسبق الأمم قدماً فى المدنية ، وأعرق الشعوب نسباً فى الحرية ، تسير على دستور رفيع الدعائم أثيل المنبت ، ولم يمنعها عرفها الموروث ولا شرعها القائم أن تبيع فلسطين العربية جهراً لنفايات اليهود ، وليس العرب من مماليكها ولا فلسطين من أملاكها ، ثم تسخر لضمان هذا البيع الباطل قوة الحكومة وسلطان الدستور ، وتمثل تحت العلم البريطانى وعلى موطن المسيح أروع مآسى النذالة !

سلطوا على البلاد الجوع وأرسلوا من ورائه الذهب ! فكأنهم قالوا للعربى البائس : إما الوطن ولا حياة ، وإما الحياة ولا وطن ! فأما الذين قهرهم الفقر وغرهم المال فقد باعوا أنفسهم وأهليهم بيع الغبن للدخيل . وأما بقايا السيوف وحفدة الفاتحين فآثروا أن يدفنوا أعزة فى ثراها العزيز ، على أن يتركوها أذلة لليهود والإنجليز . فدافعوا الأزمة بالصبر ، والانتداب بالعزم ، والصهيونية بالمقاطعة ، وأروا هذه القوى الثلاث التى حالف بينها الباطل أن العربى الذى غزا العالم ولا يمسك رمقه إلا قبضة من سويق وشُفافة من ماء ، لا يخذل من قلة ولا يفشل من جوع !

لك الله يافلسطين ! لشد ماتكابدين من عسف القوى وكيد الغنى وقسوة الظالم . . .

إن دموعك منذ الفاجعة لم ترقأ ، وإن جروحك منذ الواقعة لم تندمل ، وإن صوتك الجازع المكروب لا يزال يجلجل فى أعماق الشرق وآفاق العروبة مستغيثاً من الخطب اليهودى الذى ناء بألمانيا وأنقض ظهر الدول ! ولكن بنيك

البواسلين بفلسطين يتنافسون فى مجد الموت وشرف التضحية ! فهل تخشين أن يعيث فى أديمك المقدس عائث ، وأنت ترين شبابك الميامين يخوضون غمرة الهول وراء زعيمهم الشيخ (١) ، وصدره الواهن مشبوب بعزم آبائه ، وشعره الأبيض مخضوب بدم أبنائه ؟

* * *

الوطن العربى اليوم فى البلاء سواء ، لأنه فقد الروح الفتية التى كانت تعمره ، والحيوية القوية التى كانت تغمره ، وأصبح هيكلا متهدم الجرف لا يملك بعضه بعضاً .

على أن فزعته الاجماعية لمظلمة فلسطين تبعث الأمل فى عودة تلك الروح ورجعة هذه الحيوية : ولعلها فزعة المغيث للمسعف لافزعة النادب الآسف ؛ فأن مصاب فلسطين لاينفع فيه البكاء ولا يدفع منه الحزن .

إن فاجعة (وادى الحوارث) صورة لمصير فلسطين إذااستنام أهلها للوعود ، وبيعت أرضها لليهود ، وقبض العرب أيديهم عن معونة إخوانهم على دفع الخطب وإن دول الأرض جمعاء لتعجز عن إيفاء وعد (بلفور) مادامت الأرض فى يد العرب ، فإذا ما استنزلوا عنها بإغلاء الثمن وإغواء الذهب شتتهم القانون وحده تحت كل كوكب . فإن اليهودى إنما جاء فلسطين ليشترى وطنا يستعمره لا حقلا يستثمره . فكل شبر من الأرض يخرج من يد العربى يدخل إلى الأبد فى الوطن اليهودى ، ويومئذ لايرده إلى أهله احتجاج ولاتظاهر ، وما الا حتجاج والتظاهر إلا إعلان لحق لادفاع عنه . والدفاع المنتج عن فلسطين أقواه وسيلتان :

---

(١) كاظم باشا الحسينى .

١ — أن يأخذ الزعماء والعلماء موثقاً من الشعب ألا يبيع المضطر أرضه لغير العربى مهما تخدعه المطامع ويُدَلِّه الطامع بغرور .

٢ — أن يقوموا بدعاية منظمة قوية فى الأقطار العربية وعلى الأخص فى مصر إلى تأليف الشركات العقارية لاستعمار فلسطين .

والعرب الذين فطروا على نُصرة الأخ ونجدة الصريخ ومعونة الضعيف ، لا يعرضون عن يد فلسطين التى تمتد ولا عن صوتها الذى يهيب :

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل   وإلا فأدركنى ولما أمزّق

رمضان ...

(٢٥ ديسمبر سنة ١٩٣٣)

نعم رمضان ! ولا بد من رمضان بعد أحد عشر شهراً قضاها المرء فى جهاد العيش مستكلب النفس مستأسد الهوى متنمر الشهوة ، ليوقظ رواقد الخير فى قلبه ، ويرهف أحاسيس البر فى شعوره ، ويرجع روحه إلى منبعها الأزلى الأقدس فتبرأ من أوزار الحياة ، وتطهر من أوضار المادة ، وتتزود من قوى الجمال والحق والخير ما يمسكها العام كله على فتنة الدنيا ومحنة الناس .

فرمضان رياضة للنفس بالتجرد ، وثقافة للروح بالتأمل ، وتوثيق لما وهى بين القلب والدين ، وتقريب لما بعد بين الرقه والمسكين . وتأليف لما نفر من الشمل الجميع ، وتغذية لما يبس من الرحم القريبة : ونفحة من نفحات السماء تغمر دنيا المسلمين بعبير الخلد وأنفاس الملائكة !

ورمضان ثلاثون عيـــداً من أعياد القلب والروح ، تفيض أيامها بالسرور ، وتشرق لياليها بالنور ، وتفتر مجالسها بالأنس ، فنى المدن يغمر الصائمين فيض من الشعور الدينى اللطيف ، يحملهم بين صحوة القلب ونشوة الجسد فى حال استغراق فى الله . يتأملون أكثر مما يعملون ، ويستمعون أكثر مما يتكلمون فإذا أمسى المساء وفرغوا من الطعام والصلاة انتشروا فى المدينة بالبهجة والزينة ؛ فالرجال يحضرون محافل القرآن فى البيوت ، أو مجالس السمر فى المنتديات ؛ والنساء يوزعن الوداد على منازل القريبات والصديقات ؛ والأطفال يُفرحون بأناشيدهم ومصابيحهم الميادين والطرقات ،

والدور الباقية على العهد تتقرب إلى الله بالذكر والصدقات ، والمساجد المقفرة طول العام تعج بالوعظ والصلوات ، والمآذن الحالية بالمصابيح ، الشادية بالتسابيح ، ترسل فى أعماق الأبد نور الله وكلمته .

ورمضان مظهر قومى رائع ، يعيد إلى القاهرة عز القرون المواضى ، فيصبغ لونها الأوربى الحائل بصبغة الشرق الجميلة ، ويرفع صوتها الخافت بشعائر الصوم الجليلة ، ويبرز شخصيتها الضائعة فى زحمة الأجانب بالمظاهر الرسمية للحكومة ، والتقاليد العرفية للشعب وما أروع القاهرة فى سكتتها عند الإفطار وجلبتها عند السحور وهزتها ساعة انطلاق المدفع !

ورمضان بعد ذلك كله رباط اجتماعى وثيق . يؤكد أسباب المودة بين أعضاء الأسرة بالتواصل والتعاطف ، وبين أفراد الأمة بالتزاور والتآلف ، وبين أهل الملة بذلك الشعور السامى الذى يغمرهم فى جميع بقاع الأرض بأنهم يسيرون إلى غاية الوجود قافلة واحدة ممتزجة الروح ، متحدة العقيدة ، متفقة الفكرة ، متشابهة النظام ، متماثلة المعيشة .

أما إذا كان فى دنيا الإسلام من يستقبل رمضان بالوجه الكالح والصدر الضيق واللسان الطويل والغيظ الحانق فهم ثلاثة : الخمار الرومى ، والشيطان الغوى ، والمسلم المزيف .

فالرومى صاحب القهوة أو الحان يستقبل فى رمضان الكساد المحزن ، لأن القهوة فى النهار يكثر فيها الجلوس ويقل الطلب ، والحان فى الليل تهجره الكئوس ويفارقه الطرب ورمضان هو المسئول ، لأن السكير فى رمضان لا يشرب ، والمقامر فى رمضان لا يلعب وصاحب القهوة مضطر بحكم الصنعة أن يقدم إلى الصائمين أدوات التسلية بالمجان حتى المغرب ،

وأن يقدم إلى المفطرين أكواب الماء المثلوج طول السهرة حتى السحَر .

والشيطان يستقبل فى رمضان حصناً من الخير لا يدخله الشر ولا تفتحه الرذيلة . فإذا حاول إبليس أن يدنو منه رده الذكر بالنهار ، وصده القرآن بالليل ، فيظل كما يعتقد القرويون مصفداً بالأغلال مقيداً بالسلاسل حتى ينطلق من إساره فى آخر يوم من أيام رمضان .

والمسلم المزيف يجد فى رمضان فطاماً لشهواته ، ولجاماً لغرائزه ، وقيداً لحريته ؛ فهو يرميه بما يرميه به الأوربيون من قلة الإنتاج ، وكثرة الإهلاك ، وشل الحركة ، وقتل الصحة ، فيشيح بوجهه عنه ، ويتخذ لنفسه رمضان آخر رقيق الدين خفيف الظل باريسى الشمائل ، يبيح النظرة الآثمة والكلمة العارية والأكلة الدسمة والكأس الدهاق والسيكار الغليظ . ولا يكلفه إلا أن يجعل عشاءه من باب المجاملة عند الغروب وبعد طلقة المدفع . وإذا كان فى بيوت المحافظين قارىء يقرأ القرآن ، وذاكر يذكر الله ، وساق يقدم المرطبات ، فليكن فى بيوت هذا الصنف من المسلمين مذياع يرجع أصوات الغناء وحاكٍ يردد أهازيج الرقص .

وهكذا تجدُّ الليالى ونحن نلعب . كأنما كتب علينا أن نأخذ الحياة من جانبها الفضولى العابث فنتأثر بها ولا نؤثر فيها وكأنما همنا أن نعيش صعاليك على تقاليد الأمم دون أن تميزنا خصيصة من قومية ، ولا شعيرة من عقيدة . وكأنما الشعائر التلمودية القاسية عاقت اليهود عن المغامرة والنبوغ والتقدم !

أما رمضان القرية فلا يزال يحل من أهله محل النور من العين والبهجة من القلب . تجسمت فى خواطرهم صورته حتى جعلوه رجلاً له حياته وعمره وأجله .. يذكرونه على شهرين من مقدمه فيحسبون حسابه ، ويهيئون أسبابه . حتى

إذا دب إليهم من غيوب الآباد دبيب الهرم سلسلت الشياطين ، وأرسلت الأملاك ، وهبطت الأرواح ، ودرّت أخلاف الخير ، واغدودقت أصول النعم ! هنالك يملك القرية شعور تقى هادىء خاشع ، فلا تعود تسمع لغواً فى حديث ، ولا عنفاً فى جدل ، ولا بغياً فى خصومة . فإذا أذهل أحدهم الغضب فرفع صوته ندم عجلان واستغفر ثم قال : اللهم إنى صائم ! ذلك لأن رمضان يُرجع الفلاح نقياً كقطرة المزن ، طاهراً كفطرة الوليد ، فلا يقتل ولا يسرق ولا يشهد الزور ولا يقول الهجْر ولا يأتى المنكر . وما أجمل أن ترى فاتك الأمس ناسك اليوم يمشى من البيت إلى المسجد فى ثوبه النظيف ، وئيد الخطو غضيض الطرف لا تترك السبحة يده ، ولا يفتر عن التسبيح لسانه . فإذا قابل القروية الجميلة وعلى رأسها الجرة اتحد جمالها فى نظره بجمال الخير فى نفسه ؛ فأمعن فى التسبيح واستغرق فى الله ، لأن إبليس فى رمضان سجين وباب الغواية مغلق !

يقضون صدر النهار فى تصريف أمور العيش ثم يجلسون على المصاطب فى أشعة الأصيل الفاترة يستمعون القصص أو الوعظ ؛ حتى إذا تضيفت الشمس [١] جلسوا فى الطريق أمام بيوتهم ، فمدوا الموائد على الأرض ودعوا إليها عابرى السبيل وطالبى الصدقة ، ثم لا يلبث الإخاء المحض أن يجعل الموائد المتعددة مائدة واحدة يصيب منها من يشاء ما يشاء !

أما ليلهم فاستماع للقرآن واستقبال للإخوان ومسامرة مشتركة ساذجة تجمع أفناناً شتى من شهى الحديث . وكلما انقضى نهار من رمضان تغضّن سرار من وجوه القوم حتى إذا لم يبق إلا رُبعه الأخير ، تمثلوه محتضراً يكابد غصص المـــوت فندبوه فى البيوت والمساجد ، ورثوه على السطوح

---

(١) تضيفت الشمس : حالت للمغيب .

والمآذن ، وبكوه يوم (الجمعة اليتيمة) أحر بكاء !

فاذا كان المغرب الأخير ولم يبق من رمضان إلا بقية روح ، خامرهم الخوف من انطلاق الشياطين السجينة . فيجلس الصبيان على أبواب الحجرات يكررون البسملة ويضربون حديداً بحديد ، ليحفظوا البيت من دخول شيطان مريد !

ذلك رمضان كما تدركه الفطر السليمة والقلوب المؤمنة . وهو وحده الباقي لفلاحنا من غفلات العيش ولحظات السعادة . ولكن وا أسفاه ! لقد أفسدت الأزمة رمضان القرية ، كما أفسدت المدنية رمضان المدينة .

لطفية النادى

(١٥ فبراير سنة ١٩٣٣)

منذ أسابيع استشهد فى ميدان الطيران حجاج ودوس ، فتقاطرت فى هذا المكان من الرسالة عبرات الأسى سوداً من هذا القلم ، وتصاعدت زفرات الأسف حراراً من هذه الصحيفة ، وقلنا إن الأمة التى لم تكد تأخذ بأسباب الطيران حتى يسبق إلى الشهادة فى سبيله فتيان من فتيانها ، ويبادر إلى خوض أهواله فتاة من فتياتها ، لا يستطيع أن يكسر من ذرعها حادث ، ولا أن يتكاءدها فى طريقها إليه عقبة .

كنا نقول ذلك والقدر الذى فتح لهذين الفتيين فى السماء باب الخلود ، كان يشق لهذه الفتاة فى الأرض طريق المجد ، فما كاد يعثر بنا الحظ فى الجو الدُّضْب[1] الغريب حتى نهض عجلان فى جونا الضحيان العجيب . وكان يوم نهوضه الأغر يحلق فى سماء مصر الجديدة ثمانية وعشرون نَسراً من نسور أوربا القشاعم ، يستعدون للسباق فى سمائنا المشرقة الطليقة ، وَيستنُّون للرهان استنان الجياد العتيقة ، ويظنون أن مصر التى فكرت فى الطيران آخر الأمم لا يمكن أن تكون إلا مطاراً لكل طائر ، ومائدة لكل زائر . أما أن تكون قِرناً يغالب ، وموتوراً يطالب ، فذلك ما لم يقع فى وهم ولم يدُر فى خَلد ، ولكن مجدنا الذى تحدى القرون وغبّر فى وجه الفلك ، لا يزال جياش الغضب على غدرة الجو بشهيديه فى فرنسا ، فهو يُدمث لنسوره مثوى الضيافة ، ويعقد غيب ضميره على الثأر ، ولا يثأر إلا بطريقة تليق بماضيه وتزكو بأصله ، نفث فى روع

(١) الجو الدضب : ذو الضباب وضده الضحيان .

حمامة من حمائم الوادى أن تسابق هذه النسور فى حلبة الهواء إلى الأمد ، فبسطت الحمامة المصرية فى الجو جناحها الهش وريشها الناعم ؛ ثم نظرت نظرة التحدى إلى النسور المحومة ، فتوقدت صدور الكواسر غضبا من هذه الجرأة ، وشق على ملوك الهواء وجبابرة السماء أن يشعروا بهذه الحمامة وقالوا ممتعضين : ريشة تواثب الريح ، وناموسة تعاجز الثور ، ونملة تناجز القدر ؛ وقال « ضيوفنا » الأعزة أصحاب النشرة البذيئة[1] ، والفخر المتعصب يثنى أعناقهم ، والزهو الساخر يلوى أشداقهم :

« يا لغرور أبناء العرب » متى دخلت « الحمير » مضامير السباق ؟ ومتى طاولت وحوش « البهائم » سوابح الطير ! . ألم تكفهم فضيحة « الجنديين القذرين » : حجاج ودوس ؟

وكانت عيون مصر حينئذ تشخص إلى السماء مغرورقة بالأمل ، ومحركات الطوائر الدولية تهزم فى الجو الصافى هزيم الرعود ، والأجنحة المعدنية تضرب فى الهواء الساكن إلى الإسكندرية ، و (لطفية النادى) تتقدم بطائرتها الصغيرة السرب المتعاقب المثار إلى قصبات السبق ! ثم غابت الأصوات فى مطاوى الفضاء ، واستولى على المطار الحجب سكون وصمت حتى إذا أزف موعد الرجوع سرحت العيون فى الجو ، وسبحت النفوس فى الخيال ، وتجاذبت أمم أوربا حبل الأمل فى الظفر ! هل هى فرنسا ؟ هل هى انجلترا ؟ هل هى ألمانيا ؟ ولم يقل أحد لا منا ولا منهم : هل هى مصر ؟ ولكن القدر

(١) هى نشرة نشرها سفهاء الأجانب على الدواوين والصحف ، قذفوا المصريين فيها بالكلمات التى بين الأقواس .

على غير علم من هؤلاء جميعاً قاطبا ! وكان الجواب الحاسم عند لطفية النادى !

من كان يخطر بباله منا — ولا أقول منهم — أن الآنسة لطفية بنت الخدر العربى ، وذات الخفر المصرى ، تبارى أساطين الطيران ذوى الماضى البعيد والمرانة الطويلة والخبرة الواسعة وهى لم تقض فى علاج هذا الفن غير ستة أشهر ؟ فكيف يقع فى الظن أن تسبق سابقهم وتهبط الأرض قبله بدقيقة كاملة !

هنالك طفر المصريون من الفرح ، وماد الأجانب من الذهول ، وأقبل المحكمون على الطيارة المجلية (١) يعصرون يدها من الإعجاب والدهش ، ويقولون والعرق البارد يتألق فوق الجباه الزهر كما يتألق رشح الرطوبة فوق الرخام الأبيض يا آنسة ، قبلنا سبقك موضوعاً ورفضناه شكلا ، لان هناك على ساحل البحر (خيمة) أخرى لم تدورى حولها والخطأ خطأ المنظمين لأنهم لم يضعوها فى مكانها ! ثم منحوا المصلى الفرنسى جائزة المال ومنحوا السابقة المصرية جائزة الشرف ! وهل تبغى مصر غير هذا ؟

ليقل لنا أصحاب (النشرة البذيئة) ما رأيهم فى هذا الشعب ؟ ألا يرون أنهم جحدوا فضله كما غمطوا حقه ؟ ألا يجدر بربائب المدنية والعلم أن يفهموا أن عجز القيادة وتردد السياسة وطغيان الدخيل إنما تخمد الشعور إلى حين ، وتضعف الأخلاق إلى حد ، وأن الأمم الحرة بطبيعتها لاتلبث أن تنفى الزغل عن حقيقتها فتظهر مجلوة الصفحة نقية الأديم ؟ أفلا ينظرون إلى المصرى

---

(١) المجلى : السابق من خيل السباق والمصلى الذى يليه

فى الميادين الحرة كيف سبقت قدمه وعلت يده ؟ ألسنا فى الرياضة والسباحة والغناء والأدب أبطالا عالميين أو شبه عالميين ؟

إن أسوأ الآراء الأوربية فى مصر ربما كان عن المرأة . فانتصار البطلة (الطفية) فى هذا الميدان الخطير يصحح الخطأ فى العقول المنصفة ، ويقر الحق فى النفوس الكريمة .

افتحوا لنا ياقوم طريق الحياة وافسحوا لنشئنا مجال العمل ، وخلوا بين نفوسنا وبين طريق الحرية ، ثم انظروا بعد ذلك ماذا يفعل الفتى ، كما رأيتم بعيونكم ماذا فعلت الفتاة !

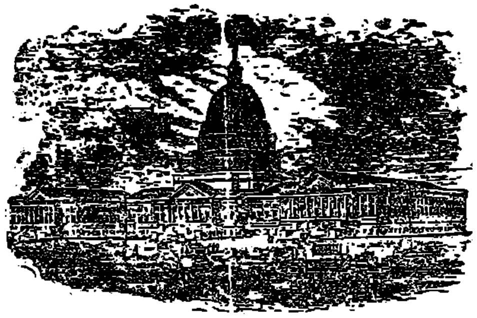

في الأقصُر

– ١ –

كان لا بد للاغب أن يستجم وللصائم أن يعيِّد وللمجادل في مجد الفراعين أن يزور الأقصر (١) .

وكان (قطار الآثار) (٢) قد جرأ الجيوب الهزيلة على أن تبارى الجيوب الأمريكية في (وادي الملوك !) وقطار الآثار كقطار البحر فكرة سديدة تنفذها إدارة رشيدة . . .

ولكن حرف (لكن) لا يزال وا أسفاه أكثر أخوات (إن) استعمالا وأشدها بحياتنا اتصالا ! فأنا مضطر إلى أن أقول : ولكن هذا القطار لا يصلح إلا لأقوياء البنية أشداء العصب ممن يستريحون على الوقوف ، وينامون على الرفوف (٣) ويغمضون على ضيق المكان وكظة الديوان وحرج الأسرة أما أخو الجسد المهدود والعصب المجهود فلا مناص من أن يقضي ليله كما قضيت مقسم النفس بين القلق والأرق ، لا يجد نفسه ولا يملك قلبه !

سار بنا القطار المثقل في منتصف الساعة التاسعة من مساء يوم الإثنين أول أمس العيد ، وكان المفروض على راكبه أن يبيت قائماً في الممشى أو نائماً على (الرف) ، أما الجلوس إذا أراد فلا سبيل إليه إذ لا محل له ! وكان من الميسور تلطيف هذا المقدور بشيء من لهو الحديث لو جمعنا الحظ العنيد برفقة

---

(١) إشارة إلى مقالي السابق (فرعونيون وعرب) (٢) هو قطار خاص تسيره في الشتاء إدارة السكة الحديد بين القاهرة والأقصر بأجرة مخفضة لتسهل للناس رؤية الآثار كما تسير في الصيف كذلك قطار البحر إلى الأسكندرية .

(٣) المراد بالرفوف أسرة ضيقة مشدودة إلى حائط العربة بعضها فوق بعض :

من أهل الأنس ؛ ولكننى كنت أنا وصديقى بين أربعة لا يصل أحدهم بالآخر سبب من جنس أولغة ، فحملونا مكرهين إلى الفراش النابى والوساد القلق . . . ولا أريد أن أثقل عليك وعلى إدارة القطار بذكر ما أعقب ذلك من أزمة الصدر وضمة القبر وإزعاج الصحب وإغاثة الإسعاف وقضاء الليل الطويل قابعا أمام الباب لا يخدع فى عينى نعاس ، ولا ينفس عن صدرى فرج . وكان علاج ذلك كله إعداد عربة للجلوس يتنفس فيها الساهد المكروب باللهو والسمر

* * *

القطار الجاهد يخوض فى أحشاء الليل المظلم ، والهواء البارد يسفى غبار الطريق الخانق ، والركب المترجح يغط فى النوم غطيط الخلى ، والكرى الجائر قد غلبنى على أخوى فأوى بهما إلى المضجع ! وأنا وحدى فى هذا القفص الطائر أرعى نجوم الكهرباء فى سمائه المحصورة الرفيعة ، وأقول فى آخر ليلة من ليالى رمضان المحتضر : متى يا إله الناس يصبح هذا الليل ؟ !

وأخيراً أخذ نور المصابيح الزاهر يشحب قليلا قليلا ، وستر الظلام الصفيق يرق على جوانب القطار شيئاً فشيئاً ، وأنفاس الفجر الندية تخلص إلى من خلال النوافذ . وكنا حينئذ نمر على الجسر الحديدى « بنجع حمادى » ، ففتحت الشباك القريب وأرسلت طرفى الكليل فى شمال الوادى ، فرأيت رءوس الشجر الرفيفة (١) وذوائب النخل الرفيعة طافية فى سيل من الضوء المشوب المبهم ، وتبينت القرى الجاثمة على الضفاف الخضر تستيقظ مطلولة الجنبات مع الطبيعة ، والصبح الوليد يهتك عن مهده الوردى كلة (٢) السحر الداكنة ، وأبصرت من وراء (قنا) خطا من ذائب المرجان قد ارتسم على قمم الجبال

---

(١) الرفيف من الشجر ما يقطر بالندى

(٢) الكلة هى الناموسية التى تضرب على قوائم السرير لتقى النائم لذع البعوض وغيره ؟

الوبية ، ثم أخذ ينتشر رويداً على الظلال المتخلفة من بقايا الليل حتى غمر الوادي ، فاستبانت فى سهوله الخصيبة حقول القمح والفول والعدس يكللها الطل ويهفو فوقها رقيق الضباب .

* * *

أشرقت الشمس علينا كما كانت تشرق منذ آلاف السنين على سيتى ورمسيس ، فهى وحدها المخلوق الذى شهد ضخامة الماضى ويشهد الآن ضآلة الحاضر ! فليت شعرى ماذا تقول ذُكاء[1] فى هؤلاء الأقزام الذين يحجون اليوم (طيبة) مختالين على مركب ليس لهم فى صنعه قسط من حديد ولا خشب ؟ ماذا تقول ذكاء وقد رأت ملوكنا العماليق وهم فى طفولة البشرية ينقلون قطع الجبال من أدنى الشمال إلى أقصى الشلال على عجلات وآلات من خلق عقولهم وصنع أيديهم ، ثم ترانا معشر الأعقاب نلوك الفخر أمام الغربيين بعظمة الأقدمين ، ونتبجح أمام الأقدمين بعبقرية الغربيين ، فنحن كخِلْفة الدوحة العتيقة تنبت رخوة على جوانب الجذر الثابت ، ثم يقعد بها الوهن عن مطاولة الجذع ، فلا هى فى رسوخ الأصل وقوته ، ولا هى فى سموق الفرع وإشرافه .

* * *

لا يكاد الصعيد يختلف اليوم عما عهده الفراعين منذ أربعة آلاف سنة ! فالشمس المعبودة هى الشمس ، والنيل المقدس هو النيل ، والقمح الذى خزنه يوسف (ع) هو القمح ، وجوارح الطير التى تحوِّم فوق ساحل النهر هى بأنواعها وأشكالها وألوانها التى كانت تحلق فى أجواء « طيبة » ؛ لأن الحيوان والنبات

---

(١) الشمس .

قلما ينالهما التغيير . أما الذى نال منه الحدثان وغير من حاله الزمان فهو هذا الإنسان المسكين ! فإنسان النيل لم يعد ذلك الذى قارع الدهر وصارع البلى وحاول الخلود وقدسّ القوة وأخضع العراق والشام وفلسطين والسودان والحبشة ، وإنما أصبح من فعل القرون وإلحاح الجور شيئاً من المتاع تابعاً للأرض يُملَك ولا يملِك ، وينتج ولا يُهلك ؟

على أن القبس الإلهى العربى الذى بعث الضوء فى شبابه الكادى[1] والحرارة فى جسمه المنحل ، لا يزال قديراً على إحيائه جديراً برفعه .

وإذا كان البحر يتعاوره الجزْر والمد ، والشمس يتعاقبها الغروب والشروق ، والطبيعة يتناوبها الخريف والربيع ، فإن مصر الناهضة تشارف بثروتها المد ، وتطالع بقادتها الشروق ، وتستقبل بشبابها الربيع !

ضَحَت الشمس واستطاع النظر القصير أن يجمع الوادى فى نظرة . وهيهات لابن (الدلتا) الفسيحة أن يفهم معنى الوادى إلا فى أعالى الصعيد ، فهنالك تتقارب السلسلتان بما وراءهما من موات وجدب ، وينساب بينهما النهر العظيم بما يحمل من حياة وخصب ، ويشعر المصرى المسافر الذى يرى هذا المنظر أول مرة فيجد واديه كله فى عينه وفى قلبه بنوع من الغبطة لم يحسه من قبل ، ويستغرق فى نشوة من الذكريات والأمانى لا يخرجه منها إلا وقوف القطار على محطة الأقصر .

— ٢ —

وقف القطار ضحى على محطة الأقصر . وأخذ الحجيج المدنى يخطو على

---

(١) من قولهم كدت الأرض : أبطأ نباتها وساء .

وصيفها ذابل الأجفان خائر الأبدان من تكسير السهاد أو تفتير الوسن . وكان قوم يستقبلون زوار الآثار ، وقوم يستقبلون أعضاء المؤتمر الطبى ، فتدفق الركب المتجمع لدى الباب فى وجهتين مختلفتين . وذهب بنا أولياء القطار إلى موائد الإفطار فأصاب منها من شاء على قدر شهوته ، ثم قسمونا قسمين : قسماً يزور (طيبة الأحياء) فى الشرق ، وقسماً يزور (طيبة الأموات) فى الغرب . وهل بقى لعمرى فى طيبة اليوم أحياء أو أموات ؟ لقد ذهب الموت منذ بعيد بأحيائها إلى القبر ، وذهبت الحياة منذ قريب بأمواتها إلى المتحف ؛ فلم يبق منها على عدوتى الوادى غير أنقاض طفت على وجه القرون ، وأبعاض بينها وبين الفناء صراع لا يفتر !

الأقصر مدينة رقيقة الحال تقوم على أطلال طيبة كما تقوم أعشاش الطيور على شم الصخور تسير فى شوارعها القروية وبين منازلها المتنافرة فلا يستبى طرفك منظر فاتن ، ولا يزدهى لبك مظهر غريب . فإذا استثنيت فندق (ونتربالاس) وما تألق من الفن فى فنائه وأبهائه ، ومرفأ النهر وما ترقرق من الحسن فى ظله ومائه ، وشارعَ السلطان حسين وما تنسق على حفافيه من نخله وكهربائه ، والجوَّ القار وما شاع من القوة فى شمسه والحياة فى هوائه ، وجدتَ بلداً كأحقر بلاد الناس يعيش حاضره على ماضيه ، وتذهب عينه على آثاره ، ولكن وَلِّ ظهرك حضارة الأحداث ، وتعال نسر وراء العم (ضاوى[1]) فى طريق الكرنك وبين الأقصر والكرنك مدى من الزمان والمكان يتسع فيه الخيال ويسبح فى أعماقه الخاطر ومن الذى يستطيع أن يجول فى مسارح الجبارين دون أن يتمثل هذا الفصل الذى افتتح به الأزل رواية العالم ؟

---

(١) رجل من عوام الأقصر كان دليلنا فى هذه الزيارة .

فهنا منذ بضعة آلاف سنة نبتت فى ظلال هذه الجبال إنسانية باكرة ترسل النظر الثقيل البطىء فى هدوء واستقامة وبعد، ويصور لها عقلها الطفل ألوان التعاجيب والتهاويل من قوى الطبيعة الخفية، فتنحت الجبال قبوراً، وتبتنى الصخور قصوراً، وتقيم لآلهتها الغلاظ من صم الجلاميد تماثيل ومحاريب يتضاءل أمامها الفن الحديث.

وهنا منذ أربعة آلاف سنة كان الفكر الإنسانى يقطع مرحلته الأولى بينما كان الرقاد الأزلى يغشى سائر الأرض، ويطبق متثاقلا عن جفون يونان وأشور.

وهنا سجل الزمن الواعى على مُلس الغرانيت أولى صحائف الفكر، فألهمت اليهود والإغريق ما ألهمت فى الدين والفن والجمال فى شتى ضروبه وصوره.

وهنا كانت لبنى الإنسان بداية حسنة لولا أن طغيان الفرد المتحكم وسلطان الدين المتعسف قد جعلا لهذه البداية نهاية من الجور والإرهاق محزنة. فها نحن أولاء بين صفين من الكباش المسيخة الجاثية أمام معبد أمون. ومعبد أمون يتلو عليك وحده إن شئت نبأ القوم! فهو أكداس هائلة من ضخام الصخر تنافس فى نقلها وركمها الجبابرة فى خمسة عشرة قرناً منذ سبق الأول! منها أبواب وحُجَر، ومنها محاريب وتماثيل، ومنها مسلات وعَمَد. ومن أولئك كله ما هو قائم يتحدى بطوله السماء، وما هو نائم يفدح بثقله الأرض.

أنظر إلى هذه الغابة الكثيفة المخيفة من الأعمدة! أتظن الشمس منذ أوقدها الله أشرقت على مثلها فى الضخامة والبساطة؟ ألا يذكرك هذا العمود الذى تتفتح فوق هامته زهرة اللوتس العجيبة على علو خمسة وعشرين متراً، بصرح (تيتان) الخرافى وإخوته[1].

(١) تزعم الأساطير أن تيتان وإخوته هم الطبقة الأولى من نسل الآلهة نسلوا من أبوين هما السماء والأرض، ثم تمردوا على الآلهة فجعلوا الجبال طبقات بعضها فوق بعض ليعرجوا عليها إلى السماء فصعقهم زحل وذلك أشبه بصرح نمروذ.

من الذى قطع هذه الأطواد ، ووضع هذه الأوتاد ، وشاد هذه الأروقة ، ونحت من الصوان هذه الآلهة البكم ، وخلد للملوك على هذه الحجارة الصم ؟ هو شعب النيل الذليل البائس ! بناها وبنى سواها على قفار الخبز وألهوب السوط ونزع الروح . ولا تستطيع أن تصدق وأنت ترى هذه المعجزات أن مصر كانت فى مدى ثلاثين قرناً تعمل عملا آخر غير ذلك !

استعبدت فكرة الخلود عقول الفراعنة فاستعبدوا فى سبيلها جسوم الشعب وملكهم حب الآخرة فسخروا له حب الدنيا ، وفتنهم متاع السماء فأرصدوا له متاع الأرض ، وغالوا فى إعزاز النفس وإيثار الحياة وتقديس العظمة فأنكروا حرمة العامة ، وجحدوا قدرة الموت ، وجهلوا معنى الضعة ، وخلفوا لأجيال الأبد من أعقابهم من يطمح كالملوك ويطمع كالكهنة ويخضع كالسوقة . .

لقد كنا نتجمع حول دليلنا الهاذى فى أروقة هذا المعبد المحطم ، نطن فى أجوافه طنين البعوض بالحون المختلفة . نذكر أوائلنا الذين ارتجلوا للناس لفظ المجد ، واقتحموا على الدهر باب الخلد ، فنزهى ونصلف ؛ ونذكر أسلافنا الذين قامت على أشلائهم هياكل أمون ، وفاضت بدمائهم بحيرة أوزيريس(١) فنأسى ونأسف . ونذكر أمام ذلك الماضى الخالد حاجز الكرنيش(٢) وحائط المحكمة المختلطة فنمضى ونضحك . .

— ٣ —

كان (ترجماننا) الأمى (ضاوى) يشرح للأساتذة الجامعيين والثانويين حديث تحتمس الثالث مع أخته العاشقة ، ووجوه التماثيل الواجمة غرقى فى

---

(١) هذه البحيرة لا تزال فى المعبد فوارة العين إلى اليوم .

(٢) الكرنيش شارع البحر فى الاسكندرية ، وبناء المحكمة المختلطة فى القاهرة ، أنفق عليهما مئات الألوف من الجنيهات ؛ ثم اعتراها الانحلال والتصدع بعد قليل .

صمتها الناطق ، تتراكم على قسماتها أنظار الخليقة ، وتجثم على شفاهها أسرار القرون ، ورءوس الأعمدة القائمة نائئة فى أشعة الشمس كالمزولة الهائلة ، ترسم بظلالها الوريفة تعاقب الساعات منذ آلاف السنين ! وكانت عيناى الحالمتان قد وقفتا على تمثال من تماثيل رمسيس الأكبر يخطو إلى الأمام خطى المصمم الواثق ، وبإحـــــدى يديه مفتاح الحياة يجتاز به مـوت الساعـة إلى خلود الأبد .

والخلود حـلم الفراعنة الدائم وهو همهم الملح . أخطره ببالهم قبـل الناس ما متعوا به من فيض الحيوية وخفض العيش ، ونفوذ السلطان واكتمال اللذة فلو أنهم عاشوا على جدب من الإقليم وحرب مع الطبيعة وهوان على الدهر ، لاستشرفت نفوسهم للبلى ، واستهلكت عقولهم للعدم .

خلد الله الروح وحاول الفراعين تخليد الجسد . وما يدريك لعلهم كانوا يظفرون بهذا الخلود لوخلى الناس بينهم وبين الزمن . لقد قهروا الفساد والدهر ، وقهرهم اللص والفاتح ! فمنذ خمسة وعشرين قرناً ما برحت يد الإنسان تعبث بهذى الجسوم والجروم ! جرب القدر عليها حقد قمبيز ، وعبث الإسكندر والقيصر ، وورع تيودوسيوس وعمرو ، وزهو المأمون ونابليون ، وعلم مسبيرو وكارتر ! فقطع بعض الرقاب وقوض بعض الأنصاب ونبش بعض القبور ؛ ولـكن بسمة رمسيس لا تزال كما أراها تناجز الفناء وتعاجز القدر ! وأى سبيل بعد ذلك إلى بلاها ومسلاتها فى العواصم الأوربية ومخلفاتهم فى المتاحف الأثرية باقية ما بقيت الأرض ؟ !

صعد بنا الدليل باب المعبـــــد فى سلم جانبى حديث يقوم عن شماله . ولو قلت لك البرج بدل الباب لقربت إليك وصفه ! فهـــــو سطح عريض

من ضخام الجلاميد تـكدس بعضها فوق بعض كما ترى فى الهرم ، أشرف من شرقيه على ما بقى من صخور السقف فوق الأساطين ، وما تراءى من النصبُ خلال الأواوين ، وما طعن فى السماء من أسنة المسلات . وأشرف من غربيه على طريق بين صفين متوازيين من الـكباش الرابضة فى حجم البقر ، يسايره النظر والفـكر إلى مرفأ كان ولا شك ينتهى عنده قبل أن يأخذ النهر من الساحل الغربى ألف متر ، ويدع الســـــاحل الشرقى مثلها ألف متر .

فى هذا الطريق كانت تخرج الجنائز للملكية من المعبد إلى نهر الحياة فتعبره إلى مراقدها الصخرية الأبدية فى جوف الجبل وفى هذا الطريق كان يسير موكب أمون السنوى إلى النهر ، أمامه زمر المهرجين والمشعوذين يدورون على الأرجل ويمشون على الأيدى ، بين أخلاط من باعة الفاكهة وشواة الأوز والبط ثم يلى هؤلاء فِرَق الموسيقى تصدح بالأهازيج ، وطبقات الـكهنوت تعج بالأناشيد ، وحاملو الأصنام والبنود يسيرون بها وئيداً فى خشوع ورهبة حتى إذا بلغوا المرفأ تقدموا بأمون فجملوه فى فلـكه الذهبى ، وبالآلهة الأخر فوضعوا كل إله وكل إلهة فى زورق خاص . ثم يسير الفلك بالإله الأكبر متنزهاً على النهر ، تتهادى من ورائه زوارق الآلهة على الماء ، وتهلل من حوله جموع الناس على الشاطىء ؟

* * *

من العسير على النفس الشاعرة أن تعيش فى حاضرها بين هذه الأخيلة والصور ؟ فحيثما أرسلت طرفك أو نقلت خطاك وجدت حجراً يكلمك أو أثراً يلهمك ؟ التمثال الذى تراه أمامك ، أندرى كم مرة طلعت عليه الشمس ، وكم نظرة نظرت إليه الناس ، وكم وقفة وقفها عليه أقوام من قبلك بعضها للتقديس وبعضها للعبرة ؟ .

إنك لتغرق فى هذا الماضى الحاضر فى فيض من التأمل العميق الهادىء يقطعك عن الدليل ويفردك من الجمع ، فلا تجد — متى عدت لحظة إلى نفسك — الدليل الذى كان يخطب ، ولا الحشد الذى كان يسمع ، ولا العربة التى كانت تنتظر .(١) ؟

خرجت فيمن تخلف فى المعبد من الأصدقاء الشعراء ، وأخذنا نسير الهوينى فى الطريق المرمل حتى أدركتنا فى بعضه عربة أقلتنا إلى الفندق .

وفى الأصيل المونق من هذا النهار المشرق خرجنا نشهد وداع الشمس الغاربة لأطلال معبد الأقصر .

ومعبد الاقصر كذلك أجمة من العمدان الباسقة المتشاجنة نتأت على سيف(٢) النهر فى طول ثلثمائة متر بمشيئة آل أمينوفيس ورمسيس الاكبر ؟

وأول ما يملك عليك عقلك وقلبك فيه منظر يجمع تاريخ الوادى ويختصر أطوار العقيدة : ذلك منظر المسلة فى المعبد ، والبرج فى الكنيسة ، والمأذنة فى المسجد ؟

تجاورت هذه الثلاثة فى المكان منذ قرون تجاور الخصوم اللُّدّ ، لا يسفر بينها سلام ولا تقطع حروبها هدنة ؟

ومن الغريب المعجز أن تثبت هذه الأوثان لهجمات المسيحية والإسلام ، ثباتها العجيب لعاديات الليالى والأيام .

— ٤ —

لا تجد فى معبد الاقصر ما تجد فى معبد الكرنك من ذلك الاستغراق

---

(١) تلك كانت حالى حين ذهب القوم وبقيت . (٢) سيف النهر : ساحله .

الذهنى الذى يمحو الوجود من ناظرك ، ويعفو الحاضر من خاطرك ، ويحييك مع امينوفيس ورمسيس فى دهر واحد ! فان هـذا المعبد يقع فى جبهة المدينة ونزهة الناس فلا تنفك وأنت فيه بين نظرة خادعة من مفاتن النهر ، وزفرة صادعة من بواخر (كوك) ، ولغطة صاخبة من لغط المارة . ولن تستطيع وعيناك تضطربان بين الهيكل والكنيسة والمسجد وقصر السلطان وفندق (ونتربالاس) أن تحصر ذهنك فى موضع ، ولا أن تقصر فكرك على موضوع . فكل صورة من هذه الصور الموائل يمثل فكرة ويسجل نهضة ويؤرخ حقبة أما معبد الكرنك فقد ظل بنجوة من تيار الزمن الجارف ينعم بسكونه الشعرى فى اعتزاله ويتمتع فى جوه الفرعونى باستقلاله .

* * *

فتننا سحر الأصيل عن شعر المعبد ، فذهبنا فى طريق السلطان حسين نشهد أروع مجالى الجمال فى الطبيعة . ومن حدثك أن بلداً من بلاد الله غير مصر يتمتع فى يناير بدفء يستجيش العرق والبهر ، وضوء يغمر القلب والنظر ، وصحو يدوم النهار والليل ، فهو لا ريب لم ير الأقصر ! وأى منظر تألقت به قدرة الله وتأنقت فيه يد الطبيعة كمنظر الغروب فى طيبة ؟ فالشمس المصرية تغرب فى جلال وراء الجبل وأشعتها الفاترة قد تجمعت حولها من سهول الوادى فلم يبق منها إلا غرر تلمع فى أجنحة الطير وسعف النخل ورءوس الهضاب ، وإلا شفقها الوهاج قد شب فى أطراف السلسلة اللوبية حريقا بارد اللهب إيذاناً بالمغيب ، والمشتون من سراة أوربا وأمريكا يطالعون فى شرفات الفندق أجمل ما خطته يد البارىء المصور فى صفحة الوجود ، وأنا وأصدقائى الثلاثة نسير الهوينى على الشاطىء الضاحك ، يشيع فى دمائنا مجد هذا الماضى ، وفى أعصابنا

عظمة هذا الوادى ، وفى أخلاقنا صراحة هذا الجو ، وفى مشاعرنا جمال هـذه الطبيعة : فنكاد من فرط الزهو نقول لمن نلقى من السائحين الغربيين نحن تاية هذا المجد ، وصنيعة هذه الشمس ، وصورة هذا الجمال ، فهلا تروننا أخلص الناس جوهراً وأصدقهم مظهراً وأزكاهم أرومة ؟

وكان حديثنا فى هذه الساعة الجليلة نغمة منسجمة فى هذا اللحن السماوى الذى تنشده الكائنات كل يوم عند الغروب ! وما ظنك بحديث نقى الحواشى يشققه أستاذ فى كلية الآداب ، وأستاذ فى كلية العلوم ، وأستاذ فى كلية الحقوق[1] وكاتب صغير من كتاب الرسالة ؟

* * *

وكان صباح يوم العيد موعد (المقابلة الملكية)[2] فعبرنا النهر فى رهط من أعضاء المؤتمر الطبى ، ووقفنا بالضفة الأخرى نتحسس الآثار الهوالك ، فلم نجد أمامنا غير الحقول الزمردية تكسو السهل ، والجبال الوردية تسد الأفق. وكانت هذه الضفة الخلاء فى دهرها الغابر حياً من أحياء طيبة يسكنه محنطو الجثث وصناع المومياء ، فما كان يومئذ يموت إنسان أو ينفق حيوان إلا أتوابه هذا الحى فيمضى فيه أهله (عملية) الخلود !

انطلقت بنا السيارات بين الزروع الخضر أرتالا يسفى بعضها الغبار فى وجوه بعض ، فمررنا بالقرية وقد خرج أهلها فى زينتهم يعيدون فوق المقبرة . وأكبر الظن أنهم بقايا ذلك الحى البائد ، فهم يسكنون الجحور كبنات آوى

(١) الأساتذة الثلاثة هم . أحمد أمين ، أحمد زكى ، وعبد الرازق السنهورى .

(٢) المراد بها زيارة قبر الملك المصرى الشاب توت عنخ آمون فى وادى الملوك .

وينبشون القبور كلصوص الموتى ، وينحتون التماثيل كصانعي الآلهة ، ويخدعون بالتمائم كدهاة الكهنة[١]

وقفت بنا الحقول فجأة ، ثم أسلمتنا إلى قفر من الأرض بعضه مرمل وبعضه مُتْرِب ، فسرنا فيه بين أعلام من الحجارة المنضودة ، حتى دفعنا إلى شِعب فى الجبل تكثر على جانبيه النيران الموحشة والفجوات العميقة . فتحسبها بادىء ذى بدء من أثر الوحوش الحافرة ، ولكنك تدرك بعد هنيهة أنها من أثر الإنسان الذى نكبت به هذه الأرض منذ أربعة آلاف سنة فلم يرفع معوله عنها إلى اليوم ؟ شقها فدفن بها الملوك ، ثم شقها فسلب فيها الملوك ، ثم هو يشقها اليوم دائباً ليخرج منها الملوك ؟

أخذت طراءة النسيم تتخلف عنا رويداً رويداً حتى انقطعت . وهب يناوحنا من فجاج الوادى الملكى جو ثقيل كجو مايو ، وأصبحت سلسلة الجبال فوقنا بعد أن كانت أمامنا ، ثم انعطف الطريق الصاعد بغتة فإذا السيارة أمام باب من الخشب ، وبواب من الناس ، وقائل يقول : هنا جبل الخلود وحرم الملوك ومثوى توت عنخ أمون ؟

الجبل من أعلاه إلى أسفله قطعة واحدة من الحجر الجيرى الصلد لا تجد فيه صدعاً ولا فرجة ؟ نقرت يد الإنسان القديم فى أصله فتحة مربعة دخل منها الدليل ودخلنا عَلَى أثره ، فإذا سُلّم حادر يهبط بك قليلا أو كثيراً إلى بئر عميقـــــة تضلل اللصوص ثم يعود فيهبط إلى قاعة فسيحة تجمع أشتات المتاع ثم يعود فيهبط إلى حجرة تضم جثمان الملك ! وسقوف الحجر محلاة بصور من جماعات الكواكب ، وجدران الأنفاق مغشاة بسورَ من كتاب

---

(١) ينبشون القبور ليبحثوا عن الآثار الصغيرة ، وينحتون التماثيل ويوهمون الناس أنها قديمة .

الموتى : فالبرزخ الفاصل بين الحياة الفانية والحياة الباقية مصور كله فى وضوح ودقة ! فهنا الميزان ، وهناك الصراط ، وهنالك المطهر ، وفيما بين ذلك عقبات هائلة وحيات قاتلة لا يفلت منها إلا من حمل جواز الأمان وعرف كلمة السر ؟

وقفنا حيال فرعون ، وهو راقد فى أكفانه الذهبية رقدة الضراعة والهون ؟ يشمت به الفناء ، ويسخر منه البقاء ، ويصيح فى أذنيه القدرُ :

لقد علوت يا فرعون فى الأرض ، وغلوت فى الجبروت ، وسخرت الزمان لتخليدك ، والإنسان لتمجيدك ، ثم كانت عاقبتك يا فرعون هذه العاقبة المضحكة ؟ فصاحب أذنك خادم حقير ، وكبير أمنائك (ترجمان) أجير ، وشعبك العابث يحضر (التشريفة الكبرى) يوم العيد فى حلة غير رسمية ولا هيئة جدية ، وجلالتك الإلهية كلها لم تقو إلا على الدود ، ولم تحظ إلا ببسمة ساخرة من ثغر الخلود ؟

زمزم

(٥ مارس سنة ١٩٣٤)

كان المصرى إذا ذكر بالأمس زمزم ذكر البيت الذى تتهافت على ضوئه أمانيه وأحلامه ، والنبع الذى تسكن على برده لواعجه وآلامه . أما اليوم فيذكره فيجد فى نفسه بجانب شعوره الدينى اللطيف شعوراً آخر له كذلك لطفه وقداسته ؛ ذلك هو شعوره الوطنى بالمستقبل المشرق والكرامة العزيزة والحياة المستقلة ؟ لأن زمزم لم يعد فى ذهنه لفظاً مقصور الدلالة على البئر المقدسة ، وإنما أصبح يدل أيضاً على الحجر الأساسى لمجده البحرى ، والمظهر الحقيقى لوجوده الدولى ، والسفينة الأولى من أسطوله المدنى الأول !

والأسطول المصرى كلمة نسيتها مصر منذ أودت بأسطولها الدول الغوادر فى أمواه (نافارين) ؛ فشواطىء رمسيس وكليوبطرة ، وموانىء المعز وصلاح الدين ، ظلت بعد البطل إبراهيم حمى مباحاً للسفائن الأجنبية ترمى علينا بالذل والقهر ، أو بالغلاء والفقر ، أو بالسم والرذيلة ؟ ثم لا تجد بين حذايا المرفأ الرءوم باخرة مصرية واحدة تشعرها ذل الغربة وتذكرها واجب الدخالة ، فكانت مياهنا كما كانت أرضونا مرتعاً غريض الكلأ تخور فيه السوائم الغريبة خُوار الكفر والبذاء ، لا خوار الشكر والثناء ، ونحن أصحاب البلد لا نجد فى هذا الطغيان سيادة المالك ولا عزة الوطنى ولا سلطان الدولة .

فلما تكشفت جهودنا القومية المنتجة عن بنك مصر ، صمد هذا الناشىء

الجبار بحزم الكهول وعزم الشباب إلى الميادين المالية الأجنبية فاقتحم حصونها المنيعة ، وسرى فى هيكل هذا البلد العليل الواهن سريان البرء يحرك كل عضو من أعضائه بشركة من شركاته فصاول فى (حى المال)[١] بنوك الدول ، وطاول فى (ألماظة) مطار الإنجليز ، ونازل فى (المحلة) مناسج (لنكشير) ، وزاحم فى كل سوق نتائج كل شعب ، ومشت أعراض السلامة من الصدر إلى (الثغر)[٢] فقامت شركة مصر للملاحة تعيد سلطاننا على البحر ، وتعلن استقلالنا إلى الخارج ، فأنشأت الباخرة (زمزم) وأخواتها الثلاث على أحكم ما يقوم الإنشاء ، وأضخم ما يمكن الابتداء ، وأفخم ما يكون التأثيل .

* * *

وكان الأسبوع الماضى (مظاهرة كبرى) للاستقلال الأكبر .

نزل طلعت حرب وصحبه العاملون يغزون الماء بعد ما غزوا الأرض والسماء فخفقت الأعلام الخضر على سوارى زمزم ؛ وتهللت الجباه الغر على سواحل مصر ، وشعرت الموانى الثلاثة المحتلة أن فى أحضانها اليوم وليداً من أهلها صريح النسب ، تضطرم فى أحنائه رجايا الشعب ، وتسفر على وجهه مخايل الأمل ، وتبسم فى طريقه مضاحك الفوز ! واختلفت الظنون الفواجر على خواطر السفن الغريبة فتساءلت : ألا يكون هذا المشروع الجديد كألف مشروع قديم لمعت كلمع الشرار ثم خبت سراعا إلى الأبد ؟ ألا تكون زمزم هذه التى تختال على الماء فى صلف وكبرياء نواة من النوى العجاف لا يرسخ لها أصل ولا يسمق لها فرع ، أيستطيع الأسطول المدنى المزعوم أن يجوب

---

(١) شارع عماد الدين .

(٢) الصدر . القاهرة ؛ والثغر : مدينة الاسكندرية .

مسارب البحار وليس من ورائه أسطول حربي يرصد طريقه ويمنع جانبه ؟

وكانت هذه الأسئلة المتشائمة تفيض صاغرة خجلى عن جوانب الباشا وهو على ظهر زمزم في عبوسه الرهيب وسكونه المهيب ونظرته النافذة ، يحيل المتسائل المتشكك على الماضي المجيب والواقع المقنع ، فيرى بعينيه الفلك الدائر الذي يدبره الباشا برأيه ويسيره بيده ، شمسه بنك مصر ، وتوابعها شركاته الميمونة

هنالك الجواب الذي يبكم الحاسد ويفحم الشامت ويقوم حجة بتراء(١) على رشد النهضة الاقتصادية في مصر

إن شركات بنك مصر وهي وحدها الجانب الجدي في حياتنا الهازلة ، لأنها تقوم على الحاجة الداعية ، والكفاية الفنية ، والإرادة القوية ، والإدارة الحازمة ، والغاية النزيهة ، والإيمان الصادق ، والخير العام . وهذه الأساس الثوابت أكثر مما يلزم لقيام العمل ، فكيف يقع في البال أن يتحكك بها الفشل أو ينال منها الكيد أو تطير في جنباتها الشبه ؟

إن أرجل الجنود الإنجليزية جعلت ثكناتنا أجنبية ، ولكن رءوس الأموال الأوربية جعلت مصرنا غير مصرية . وإن أساطيل بنك مصر الآلية والهوائية والمائية هي التي ستردُّ مصر إلى أهلها من غير حرب ولا عنف ولا خصومة .

* * *

لقد كانت الوحدة الأولى من أسطول الشعب هي زمزم ، وكانت الوجهة الأولى لزمزم هي جُدة ، وكان أمس الأول موعد إبحارها من السويس بالحجيج الأول ! فليت شعري أي نوع من الشعور يشيع في نفس المصري المسافر على زمزم حين يرى قطعة من أرض مصر تسير به على الماء حتى شاطىء جدة ، يعلن

(١) حجة بتراء : ماضية نافذة .

المؤذن فوق منارتها كلمة الله ، وينشر العَلم فوق ساريتها مجد الوطن ، ويجد المصرى على ظهرها قومه ولغته ودينه وكرامته وراحته وأنسه !

ذلك شعور لايتصوره ولا يصوره إلا شاعر كتبت له السعادة أن يتذوقه . فلعل فى الحجيج من يسعفه الإلهام فينفح قومه وأدبه بهذه النفحة السماوية ، تمجيداً لأول نهضة مصرية زكت فى الأرض ، وأول باخرة مصرية جرت فى البحر ، وأول حجة (مصرية) صعدت إلى السماء !

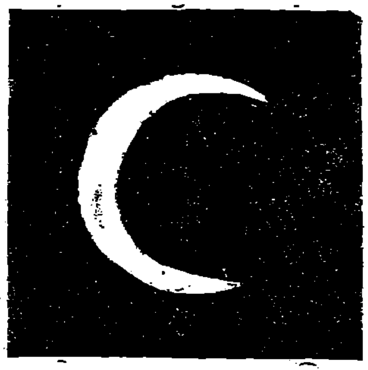

شهرنا الخالد ....

(١٩ مارس سنه ١٩٣٤)

شهرنا الخالد في تقويم الدهر هو مارس !

فيه كما يقولون ألغيت الحماية وأعلن الاستقلال وصدر الدستور !

وفيه كما نقول استيقظ أبو الهول ، وشبت ثورة النهضة ، وتنافس في الجهاد النساء والرجال ، وتعانق على الوداد الصليب والهلال ، وتسابق إلى الخلود الشيوخ والأطفال ، وسالت أنفس الشباب ضحايا على مذبح الحرية !

وفيه كما تقول الطبيعة تتجدد الحياة ، وتهتز الأرض ، ويورق الشجر السليب ، ويمرع الوادي الجديب ، وينشد الربيع الباكر أناشيد الجمال والحب والأمل !

* * *

ولكن خمسة عشر عاماً طوالاً أتت على مارسنا الأول فجعلت ما قالوه كلمات ميتة ، وما نقوله ذكريات خافتة ، وما تقوله الطبيعة حديثاً معاداً !

فالحكومة تدفع الحكومة ، والذكرى تتبع الذكرى ، والربيع يعقب الربيع ، ونحن لانزال في الموقف الأول ، يتدفق علينا الزمن ، وتغبّر(١) في وجوهنا الشعوب ، كأننا خرجنا عن مدارج القافلة ، أو رمى بنا التيار في حواشي الوجود !

من الذي نضح القبس بالماء ، وشغل المسامع عن نداء الشهداء ، وحول

---

(١) غبر في جهه: سبقه وهو من باب الكناية .

وجه النهضة إلى الوراء ، واعترض مجرى الحياة المصرية طول هذه الحقبة ؟ ستقول خدعة السياسة وشهوة الحكم وفتنة المال ونكسة المرض ؛ ولكنك لو عبرت عن ذلك كله باختلال الخلق لكان أجمع لأسباب الأمر وأبلغ فى إجمال الحقيقة فإن التكالب على سلطان الحياة وزهرة الدنيا يصدر فى الغالب عن حمية ورجولة ؛ ولكن ما نحن فيه اليوم من تحكيم الهوى وتغليب الأثرة وهوان الغرض وفساد الضمير وفجور الخصومة لا يوائم فطرة الله ولا يلائم طبيعة التقدم .

* * *

على أن السفينة التى يصارعها الموج فتضطرب ، ويعصف بها النوء فتجور ، سيظل لها (مارس) مناراً فى مرفأ السلام يرسل الهدى للحائر ، ويلقى السكينة فى المضطرب .

ستذكر دائماً مارس من عام ١٩١٩ حين عصفت فى الرءوس نخوة العزة ، ونزت فى القلوب ثورة الحفيظة ، وأعلنت مصر مرة أخرى بعد (عرابى) أن لها مثلا تتبعه ، وماضياً تعيده ، ومستقبلا تعده ، وأمراً فى أرضها تدبره ، وحكماً فى سياستها تصدره . ويومئذ كان للربيع معنى الربيع ! يومئذ هبت رياح آذار فألوت بحطام الشتاء والخريف ، وسرت فى البلاد نسائم الروح الخالق والسر البديع ؛ وجرت على الثرى المقدس دماء الضحايا الأول فتفطر[1] بالنبات البهيج ؛ وبدت على الوجود المصرى مظاهر الشباب من الرونق والصفاء والجدة والقوة ، وتمردت على الطغيان المسلح نفوس شيعها[2] الإيمان بالحق ، وحطمت أسلاك البرق ودمرت طرق الحديد لتقطع ما بينها وبين جنود الذل ؛ وأجبرت الغاصب الغاضب على أن يحترم رأيها ممثلا فى الشيخوخة الأسيرة[3] ، وعزمها ممثلا فى الشبيبة

---

(١) تفطرت الأرض بالنبات : تشققت عنه .

(٢) شيعها : شجعها وقواها .

(٣) المراد بالشيخوخة الأسيرة : سعد باشا وصحبه وهم منفيون فى مالطة .

الثائرة ، واتسع نطاق الأفق للقلوب التي حصروها بالكبت ، وانكشف رقيع[1] السماء للأبصار التي عقدوها بالأرض ، وفتح التاريخ للشعب المجيد كتاب العهد الجديد ، وكادت تتوالى صفحاته لولا أننا من الحلفاء وكالحلفاء[2] : ربحنا الحرب وخسرنا الصلح !

يعود مارس فيعود العقل العازب ، وينتبه الضمير الغافل ، ويستطيع كل امرىء أن ينظر إلى الوراء فيرى ماذا ترك ، وإلى الأمام فيرى ماذا قدم ؛ ثم يجيب أطياف الشهداء وهي تطوف ساحة الوجوه أمام الأزهر ، وحول ابن طولون ، وخلال المقبرة الموحشة ، تسائل كل عابر : ماذا صنع الأحياء بعهود الموتى ؟ وكيف حال المعيدين على لحوم الضحايا ؟ !

* * *

يعود مارس فيودع في أوائله الشتاء ، ويستقبل في أواخره الربيع ؛ ونحن وإن تلكأ بنا الحظ البليد خمسة عشر عاما لابد موفون على ربيع النهضة ! وإن هبة الشباب من غفوتهم المريبة ، ومعالجتهم الأمور من جهاتها المنتجة ، واضطرام الشعور القومي في ذكرى مارس ، وإطباق الرأي العام على وخامة الحال ، لبشيراً بتوافي النفوس على الخير ، وتواطئها على الجد ، وتعاونها على الإصلاح .

ليس من منطق الأشياء ولا من سنة الوجود أن يجتمع لمصر ما لم يجتمع لغيرها من أسباب الطموح ووسائل الصعود ، ثم تظل في ساقة الركب الأممي تمشي ظلعاء إلى أمدها المرسوم وغايتها المرجوة . إنما هي عوائق تقيمها الذئاب ليفردوا بها الحمل الغافل عن القطيع ! وإن في هذه الذكريات العزيزة الطيبة حافزاً للهمم الوانية ، وموقظاً للضمائر الغافية ، ومهيباً بشوارد الأنفس إلى سواء السبيل .

---

(١) الرقيع : هو هيئة السماء الدنيا بنجومها وكواكبها .

(٢) الحلفاء : هم الدول التي تحالفت في الحرب العالمية الأولى على ألمانيا وحلفائها ، وهي فرنسا وبلجيكا وإنجلترا وأمريكا

عيد الأضحى

(٢٦ مارس سنة ١٩٣٤)

. . . وفى مارس أيضاً يقبل عيد الأضحى أو يوم الله ، بعد ما أقبل عيد الضحايا أو يوم الوطن ! والإيمان بالله والوطن أسمى مشاعر النفس . والتضحية لله وللوطن أصدق شعائر الإيمان . والاحتفال بيوم الله ويوم الوطن أقدس مظاهر الإنسان . وعيد الأضحى أجل أعياد المسلمين خطراً ، وأبلغها فى حياتهم أثراً ، وأبلجها فى نفوسهم دلالة . تجمعت فيه مبادىء الإسلام وغاياته ، كما تتجمع صور الوجود فى العين ، ومحاسن الربيع فى الزهرة . فهو موجة من النور الهادىء الهادى فى خضم الزمان المضطرب ، وفترة من السلام الإلهى بين خطوب الجهاد المضطرم ، ونفحة من النعيم السماوى تندى لها القلوب اليابسة بالوداد المحض والبر الخالص ، وسبب من الروح المؤاخى يصل بين الغنى والفقير بالإحسان ، وبين القوى والضعيف بالرحمة ، وبين القريب والبعيد بالمودة ، وبين الله والإنسان بالصلاة ، وبين المسلم والمسلم بالحج !

* * *

الأعياد الدينية واحات فى صحراء الحياة ، يستريح إلى نبعها الحرّان واللاغب ، ويطمئن إلى ظلها الهيمان والشارد ، ويجد الكاسف المعمود فى نسيمها الندىّ برد السرور ونشوة العافية ، ويذهل السائر المجهود برهة من العمر عن مخاطر الطريق ومكايد الرفاق ومساوىء القافلة ، ويذكر أن له عواطف صالحة طغت عليها المنافع ، وقرابة واشجة قطعت بينها المطامع ، وصلات شابكة أوهنتها الجفوة ،

وتبعات واجبة أعجزه عن حملها كلال الضمير ، وغاية إلى الخير المطلق أضله عن سبيلها غرور الحياة .

* * *

عيد الأضحى هو عيد الأسرة والأمة والملة . يُفيض المسرة والبهجة على البيت ، ويجدد المودة والألفة فى الوطن ، ويسفر بالتعارف بين وجوه الإخوة فى عرفات .

فإذا رده اليوم فساد العيش فى المدينة إلى مانعرف من خروف يذبح ولا يُضَحَّى ، ومساجد تؤذن بالمدافع[1] والمآذن ولا تجاب ، وبيوت تفتح للتهانى ولا تزار وأيام كنقاهة المريض كلها خمود ونوم وأكل ، فإن له فى القرية صورة لاتزال منذ الطفولة فى ذهنى ، فتانة الجمال ، أخاذة السحر ، شديدة الروعة .

لايكاد القرويون يفرغون من صلاة المغرب ليلة العيد حتى ترى طريق المقبرة يسيل بالفوانيس الشاحبة الخافتة ، ثم تنتشر آخر الأمر على وجوه القبور انتشار الحباحب[2] ، وتنتقل القرية الحية إلى القرية الميتة فتقضى موهناً من الليل فى الاستعبار والاستذكار والقراءة ، ثم يعودون وقد كفاهم (الفقهاء)[3] مئونة ماحملوا من الكعك والفاكهة ، فيقطعون الهزيع الثانى من الليل فى طسوت الحمام أو فى دار المزين ! والاغتسال بالماء الساخن لايعرفه الفلاحون إلا ليلة العيد وليلة الزواج ويوم الموت . ثم يُعِدُّون زينة العيد فيكوِّرون العمائم ويصبغون الأحذية ومن لا يحسن لوث العمامة ، أولا يملك

---

(١) إشارة إلى إنطلاق المدافع أيام العيد فى أوقات الصلوات .

(٢) الحباحب : ذباب يطير بالليل له شعاع فى ذنبه كالسراج .

(٣) الفقية لقب يطلقه الناس على قارىء القرآن .

علبة (الورنيش) ؛ ذهب بطربوشه أو بحذائه إلى قريبه أو جاره . والقرية كلها أسرة واحـــدة يـكمل بعضها نقص بعض . فإذا فرغوا من ذلك ناموا على هدهدة الأحـــلام ومناغاة الدنى ، وتركوا النساء أمام الكوانين ينضجن الخبز ويطهون اللحم ، ويصنعن الحلو حتى الصباح !

تشرق شمس العيد على القرية فى غير وجهها المألوف ، فلا النور كان باهراً كهذا النور ، ولا الشعاع كان ساحراً كهذا الشعاع ! وتستقبلها القرية فى غـــير زيها المعروف ، فلا الوجوه كانت ضاحكة كهذه الوجوه ، ولا الجلابيب كانت ناصعة كهذه الجلابيب ، ولا العمائم كانت زهراً كهذه العمائم ، ولا الأزقة كانت مطرزة بألوان الربيع كما هى اليوم ![1]

لايتخلف عن صلاة العيد من أهل القرية غير النساء ! أما الرجال فهم صفوف وراء الإمام يؤدون الصلاة وأما الأطفال فهم وقوف على الأبواب يشهدون الخطبة ! ثم تقضى الصـــلاة فيقبلون الإمام جميعاً ويقبل بعضهم بعضاً ثم يذهبون رتلا جميل النسق إلى المقبرة ويرجعون من طريق آخر إلى الحارات المكنوسة المفروشة ، فيجلسون أمام المنازل إلى الطعام الشهى الفاخر يتبادلون الألوان ويتهـادون الصحاف ويتركون على موائدهم محلا رحيباً للفقير !

ترفع (الصوانى) وتوضع القهوة ، ثم يقوم العمدة فى أهل حارته فيزورون الحارة الأولى ، فيهنئون ويجلسون ريثما تدار القرفة وتوزع السكائر ثم يقومون جميعاً إلى الحارة الثانية فالثالثة فالرابعة وهلم جراً إلى آخر البلد ، وكلما مروا بحارة صحبهم أهلها إلى الأخرى ، حتى تجتمع القرية كلها آخر

(١) ألوان الربيع مستعارة لجلاليب الأطفال الجديدة المختلفة الألوان

المطاف لدى العمدة فيقضون فى مجلسه أكثر اليوم .

ذلك أمر الكهول والشيوخ . أما الشباب والأيفاع فيطوفون زمراً بالبيوت يهنئون الصبايا وأيديهن لا تزال فى الطعام ، فيطبعن بالقبلات الحلية على الخدود البرنزية خاتماً رقيقاً من (الصلصة) ، ويرسمن بالأنامل المخضبة على الثياب البيض طغراء جميلة من الدسم . ثم ينصرف بعد ذلك الشباب إلى لعب الكرة فى ساحة الجرن ، ويذهب الأطفال إلى الأراجيح على أشجار الترعة .

تلك كانت صورة العيد فى القرية رسمتها بغير ألوانها الزاهية ، وجلوتها فى غير إطارها المذهب . فبالله ربك ! أهى على علاتها أخلق بالإنسان وأقرب إلى الدين وأشبه بالخلق ، أم هذه الصورة التى تراها اليوم فى شوارع المدينة وجوامع المدينة وقصور المدينة ؟

نسأل الله مخلصين أن يعيد هذا العيد على الأمة المصرية والدول العربية والممالك الإسلامية ونحن وهم على حال خير من هذه الحال !

كاظم باشا الحسيني

(٢٦ مارس سنة ١٩٣٤)

حنانيك يارب ! أفي الساعة التي يضطرب فيها البحر و يحار المركب ويبعد المرفأ ، يموت الربان ويختفي القطب ؟ أفي الساعة التي يستحر فيها النضال بين حق العرب وباطل اليهود ، وبين إيمان فلسطين وطغيان الإنجليز ، يسقط القائد ويهبط العلم ؟ أفي كل يوم تتجاوب أصداء الأسى في أقطار العروبة على بطولة تودى ، أو زعامة تخلو ، أو نبوغ ينطفىء ، أو ألفة تفترق ، أو وحدة تشتت ؟

لابأس بالألم يجمع شتى القلوب على الإحساس المتحد ، وبالخطب يروض رخو المغامز على المقاومة الشديدة ، وبالموت يبعث ضارع النفوس إلى الحياة العزيزة ، أما المدامع التي تجدب المشاعر ، والشدائد التي توهن العزائم ، والمنايا التي تقبر الأماني ، فأرزاء من الشر المحض والعذاب الخالص كابدتها الأمة العربية وأسفاه في مصارع سعد وفيصل وكاظم !

* * *

روّع العربَ في عيد التضحية والتلبية مصاب فلسطين في حياة نهضتها وسر وحدتها وروح ثورتها المغفور له موسى كاظم الحسيني ، فضجت المآذن بالنعي ، وفاضت الصحف بالرثاء ، واضطربت الألسن بالأسف ، ونال الناس من الجزع الطبيعي ماينالهم حين يرون الركن يميل أو النظام (١) ينقطع أو الدليل يغيب ، وتساءلوا عن مصير فلسطين المعذبة

---

(١) النظام هو الخيط الذي يجمع حبات العقد

بعد شيخها الذى أخلصت جوهره السنون ، وأحكمت رأيه السن ، وشيمت قلبه العقيدة ، وأعلت صوته النزاهة ، وقدست شخصه التضحية ، فجهل الحزبية ، وأنكر الطائفية ، وسل أحقاد الصدور ، وأذهب تنافس الأمر ، وعبأ الأمة المغزوّة فى دار أمنها ، ثم قادها زهاء خمسة عشر عاماً فى المفاوضات بلندن ، وفى المظاهرات والمؤتمرات بفلسطين ، لايقطعه يأس ولا يردعه وعيد ولا يخذله طمع ولا يقعد به عبء السنين التسعين عن قيادة الشباب إلى صراع حام دام بين حق أعزل وباطل مسلح !

لو كانت قضية فلسطين قضية رياسة وسيادة وَغلَب لكان فى كل مكان سبيل إلى الخلاف ودليل إلى الفرقة ، ولكنها قضية الحياة والموت ، والحياة سبيل تهدى إليها الفطرة ، وقافلة تدل عليها الطبيعة . فالأمر من هذه الناحية مختلف وبين فلسطين وبين العراق ومصر

ولا ريب أن المستقبل الذى يتمثل لشباب فلسطين فى أبشع صوره سيذهلهم عن نُعرة العصبية ، ويلهيهم عن شهوة الخصومة ، فلا يرون إلا عدوا واحداً هو الواغل المقتحم ، ولا يستمعون إلا قولا واحدا هو قول زعيمهم الخالد وهو يجود بنفسه :

« . . . قضية العرب فى فلسطين أمانة فى ذمتكم فجاهدوا فى سبيلها ، فإن فعلتم أرحتمونى فى قبرى » .

عزى الله الأمة العربية أجمل العزاء عن فقيدها الغالى ، وأحيا فى خواطر أبنائها النبلاء مثله العالى ، وجعل رضوانه عليه ثواب ما بذل فى سبيلها من ماله وجهده ونفسه .

في الحال الحاضرة

(٩ أبريل سنة ١٩٣٤)

« في الحال الحاضرة » عنوان عزيز على وعلى أخوىّ طه حسين ومحمود زناتى . نذكره في مقام الأنس وساعة التنادر ، فينفجر الضحك من صدورنا المكظومة ، ويرجع بنا مقتحماً تيار الزمن الدافق إلى العهود النفاحة النضيرة من شبابنا الأول . يرجع بنا إلى بقعة من بقاع الأزهر العتيق خفتت فيها الدوى الهادر قليلا ، وتهادنت بها أرواح العلماء ، فلا تشتجر في لفظة ، ولا تختصم في (قولة) ، ولا تزدحم على اعتراض ، وإنما تسكن إلى هؤلاء الأيفاع الثلاثة ومن أخذ أخذهم سكون الطير المروعة إلى سلام الأيكة المنعزلة ، لأنهم كانوا قليلا ما يرغبون في إثارة القلاقل وتهييج الفناقل[1] على هذه الأرواح الآمنة البرة . إنما كان وكدهم أن يجتزئوا من علوم الفقه بقسمة القدر ، ثم ينصبوا لعلوم اللسان فيدرسوا الأدب ويقرضوا الشعر ويحاولوا الكتابة ، ويتعرفوا إلى العلم الحديث في دور الكتب ، ويطلوا على العصر الجديد من نوافذ الصحف ، ويقفوا على البرزخ الممدود بين دنيا الأزهر ودنيا الناس ، ينزعون إلى الحياة الحاضرة المتجددة نزوع أسماك البحيرة الآسنة إلى البحر الزاخر المزبد .

كان أستاذنا سيد بن على المرصفى يطبعنا في النظم على غرار (الحماسة) وفي النثر على غرار (الكامل) ، ويزين لنا أن ننظم معلقة كطرفة ، أو ننشىء خبراً كأبي عبيدة ، ولكننا كنا نجلس على ذلك البرزخ بعيداً عن هتاف الأشباح ، نراقب سير المدنية ، ونرامق حياة (الأفندية) ، ونحاول العبور ، فيسألني رفيقاى .

---

(١) كلمة نحتها أستاذنا المرصفى من قول الأزهريين عند توجيه الاعتراض : فإن قيل كذا قلنا كذا »

— فيم ننظم ؟

— فى مدح الخديو !

— وفيم نكتب ؟

— فى الحالى الحاضرة ؟!

ونكرر كل يوم هذين السؤالين وهذين الجوابين ، حتى استطعنا أن نجد كلاماً فى مدح الخديو فقلناه ونشرناه .

أما هذه « الحال الحاضرة » فكانت معاياة لم نجد لأمرها مُطّلعاً ولم نقف فى وصفها على حيلة ! لأن مدلولها يومئذ كان غامضاً فى أذهاننا غموض الجبر ! فالقرويون يعيشون على نمط الفراعين، والأزهريون يعيشون فى عهد الأيوبيين، والقاهريون يعيشون على حال المماليك ، وهذا الذى نسميه الحال الحاضرة ما كان يذكر إلا فى مكاتب الصحف ، ولا يعرف إلا فى بعض دواوين الحكومة !

عبرنا البرزخ ، وتعاقبت الأعوام على ذلك العهد تعاقب الموج على الساحل ، فبعضها هادىء وبعضها مضطرب . فأما محمود فظل على حدود الماضى ، وأما طه فطفر إلى آماد المستقبل ، وأما أنا فبقيت فى الحاضر بين الصديقين . وسأحاول أن أقضى عنهما هذا الدين فأكتب اليوم فى هذا الموضوع الذى وسمنا بالعجز عنه طوال ربع قرن !

* * *

حالنا الحاضرة محنة من محن الانتقال ، وخدعة من خدع الاستقلال ، وفتنة من فتن الباطل ! فهى راكدة ركود العفن ، واقفة وقوف الحيرة ، لانستطيع أن نجد لها فى لغة التطور اسماً ولا صفة ! فلا هى سبيل نهضة ، ولا هى دليل يقظة ، ولا هى مظهر امتعاض . وكأنما تقطعت وشائج الاجتماع

بين الطبقات والجماعات والأسر ، فتناكر الناس وتدابر الأهل ، ودار كل امرىء على نفسه !

فالفلاح كما كان منذ أجيال : يكاد لاينزع يده من الأرض، ولا يرفع طرفه إلى السماء ، ولا يتبين وجهة الدنيا ، ولا يتصور غاية الحكم ، ثم يحول عليه الحول فلا يجد نقوداً فى جيبه ، ولا سروراً فى قلبه !

والعامل على أسوأ مما كان : يقاسى العطلة ويعانى الفاقة ويشكو الأمية ويستغله الأجنبى بما دون القوت ، ثم لايجد فى بلده العين التى تكلؤه، ولا اليد التى تحميه ، ولا النور الذى يهديه ، ولا الروح الذى يسيره !

والشاب فى لبس من أمره! يتعلم ولا يعرف لأى عمل ، ويتقدم ولا يدرى إلى أى غاية . ويقولون له كن عزيزاً فى بلدك ، سيداً فى دارك ، متصرفاً فى أمرك، ثم يخضعونه للامتيازات فتكسر من نخوته فى المجتمع ، وتغض من كرامته فى القضاء ، وتهجم على ثروته فى التجارة ، ويفور شبابه الحين بعد الحين فيكفه الهوان الغالب والقيادة المترددة .

والأدب يعتمد فى سلطانه على الدعوى والوقيعة ، وينقل فى أحكامه عن النكران والحقد ، ويتفرق شيعاً وطوائف ، لا ليعدد مذاهب القول ويجدد طرائق البيان ، ولكن ليخلق الخصومة بين الكهول والشباب ، ويورث العداوة بين الشعراء والكتاب !

والسياسة تتراشق بالتهم وتتقاذف بالعيوب، وتحتكم إلى الخصم ، وتحول مجرى الجهاد ، وتزهق روح النهضة ، وتشوه آمال الأمة بالمطامع السود والأهواء الأثيمة .

والحكومة تنبعث من أدراج مكاتبها العليا (١) روائح كريهة تسور فى

(١) إشارة إلى ما كان يشاع يومئذ من استغلال النفوذ فى الاختلاس والرشوة .

الأنوف وتأخذ بالأنفاس وتفسد الجو على هذه الأمة المسكينة !

* * *

هذه هى العناوين الصغيرة لهذا العنوان الكبير ، والعناصر الأولية لهذا الموضوع الخطير ، أجملناها فى رأسه قبل ان ينزل بنا التفصيل إلى ذيله ، على نحو مايصنع المعلمون من الكتاب ، أو الناشئون من الطلاب ، جمعاً لشتيت الرأى وتصويراً لهيكل الفكرة .

فليت شعرى ياهداة الأمة ماذا كنا نقول لو قُدِّر لنا أن نكتب هـذا الموضوع حين اقترحناه منذ خمس وعشرين سنة ؟!

العام الهجري

(٢٣ ابريل سنة ١٩٣٤)

منذ أسبوع قلب الدهر المسجل صفحة ثلاث وخمسين وثلثمائة وألف من تاريخنا المجيد للشرق . قلبها هذه المرة وهو حافل حاشد يرصد فلك الإسلام ، ويرقب حركة العرب ، ويجمع الأهبة لتسجيل ما يتوقع من أحداث الأمة المبعوثة والبطولة الموروثة والعروبة الناهضة !

وكان منذ تفجرت فى وجوهنا الأهوال ، واغبرت فى عيوننا الآمال ، وأخلد إلى الجمام سلطاننا الجاهد ، يقلب الصفحة بعد الصفحة فلا يجد ما يسجل غير أنات العانى ونشجات الباكى وخلجات الجناح المهيض ؛ حتى أوشكت حياتنا الخالفة أن تكون لحناً من البؤس والهون لكتاب آبائنا الجليل المحكم ! ولكن الأمة العربية التى تمتد جذورها فى أعماق الأزل لابد لها من الربيع وإن طال الخريف !

فالحياة المتجمعة فى الأصل الثابت أخذت تشيع فى الجذع وتنتشر فى الفروع ، والظلال الحاسرة فى العهد الجديد جعلت تمتد إلى القفر وتنبسط فى الربوع ، وأشبال الفاتحين الذين غيروا وجه الأرض وحرروا موازين العدل ، قد هبوا ينفضون عن المعدن الكريم غبار الزمن ، ويمسحون عن الجوهر الحر عبث العوادى ، ويعودون إلى مكانهم من رأس القيادة وصدر العالم .

ففى مصر تضرب الحياة الجديدة فى البراعم النابتة ، و تضطرم نوازى الكمال فى النفوس الهامدة ، ويفيض نبل الإحساس فى صدور الناس فيكفكفه وأسفاه طغيان الغاصب ، وتكدره واحسرتاه بقايا العهد الذليل !

وفى فلسطين تدافع العروبة جراد أوربا الماحق ، وتصارع الإستعمار المسلح الخاتل ، وتطالب عز الحياة بعز الممات وشرف التضحية .

وفى سورية يقظة عاملة فطنة تداور خصمها[١] بالصبر ، وتواثب جشعه بالحزم ، وتقابل نفعه بالحذر ، وتصارع هوَجه بالنخوة ، وتتجهز للمستقبل الباسم القريب بجهازه .

وفى العراق « أمة تنشىء الحياة » وتبنى الملك ، وتلحق الزمن ، وتصل ما انقطع بين ماض ضخم ، وحاضر نزوع ، وتنبض بالحيوية العربية المتجددة بضان القلب الفتىّ الطموح .

وفى الجزيرة موطن الأسرار ومهبط الوحى ومشرق الدين ومنبت العبقرية تخطر العروبة فى مطارف العز بين سرير الإمام وعرش الملك ! وإذا نزت بين الأخوين نوازى الخلاف فذلك حفاظ ينتهى إلى السلم ، وحمية تموه إلى السلامة . وإن فى إصاختهما إلى دعوة الداعين إلى الصلح فى أقطار العرب لدليلا على اتجاه الميول إلى الوحدة ، وإصغاء القلوب إلى الجماعة[٢]

وفى الجزائر وتونس ومراكش قلوب تذوب من حرارة الظلم ، ورءوس تدور من خدَر السياسة ، وشهداء فى سبيل الوطن والدين يخطون لأبنائهم بدمائهم وصية المستقبل !

وسائر المسلمين فى تركية وإيران وأفغانستان والهند والصين وإندونيسيا ، وروسيا ويوغوسلافيا يشعرون بالتطور الجديد ، وينظرون إلى الأفق البعيد ،

(١) المراد بالخصم هنا فرنسا وكانت منتدبة يومئذ عليها وعلى لبنان .

(٢) إشارة إلى ما حدث فى ذلك العام من الخلاف بين إمام اليمن وملك الحجاز

ويتمنون أن يعود الإسلام كما بدأ مرفوع الراية مجموع الرأى مسموع الكلمة !

والأمر فى الجملة يدل على نور ينبثق من جديد فى أمة محمد ، وروح ينبعث فى مملكة الرشيد ، وشعور يأتلف من هذه الروح وذلك النور فيجمع قلوب الإخوة المتفرقين على هوى واحد !

حسبُنا مطلع العام الهجرى موقظاً للشعور وحافزاً للهمم وهادياً إلى شرف الغاية . يستقبله المسلم الذاكر فتعاوده ذكريان تجددان دينه وتثبتان يقينه وتقوِّمان خلقه : ذكرى هجرة الرسول فى سبيل الدين ، وذكرى مقتل الحسين فى سبيل الحق ! فأما هجرة الرسول فقصيدة من قصائد البطولة القدسية لا يفتُر عن إنشادها الدهر ! استمدت وحيها من روح الله ، ونسجَها من خلق الرسول ، وصيرتْها من صدق العرب ؛ واستقرت فى مسامع الأجيال مثلا مضروباً لقواد الإنسانية ، يلهمهم الصبر على مكاره الرأى ، والاستمساك فى مزالق الفتنة ، والاستبسال فى مواقف المحنة ، والاستشهاد فى سبيل المبدأ ، والاعتقاد الصادق بفوز الفكرة .

بلّغ الرسول ما أنزل إليه من ربه وقد تألبت عليه جهالة العصبية ، وحماقة الشرك ، وسفاهة الحسد ، وعداوة المنافسة ، وحرمان الفقر ، وخذلان القلة ، فما استكان ولا وهن ثم نبت[1] قفار مكة بالغراس الإلهى فهاجر به تحت عين الله إلى (طيبة) .

وهنالك بالصبر والصدق والإيمان والرجولة أثمر غرس الدعوة ، وتم نور الله ، وأصبحت القلة ملة ، وصارت كل قرية من القرى الثلاث قارة[2] .

---

(١) نبا بفلان منزله : لم يوافقه .

(٢) القرى الثلاث هى مكة والطائف والمدينة ومنها ابتدأت الدعوة ، والقارات الثلاث هى آسيا وأفريقيا وأوربة ، وإليها انتهى الإسلام .

وأما مقتل الحسين فلا يزال صكا دامياً فى سجل التاريخ يثبت أن العربى الحر لا تلهيه عن نداء الواجب زهرة الحياة ، ولا تردّه عن طلب الحق كشرة الموت .

فإذا انتفع العرب والمسلمون بهاتين الذكريين ، وجعلوهما كما هما فى رأس العام رمزين على الجهاد الواصب فى سبيل العقيدة ، والاستشهاد المروّع فى سبيل الحق ، عاد أمرهم يجرى مع الشمس ويسرى مع الروح ويتغلب أخيراً مع الحق !

يوم الجمعة

(٧ مايو سنة ١٩٣٤)

كان أمس يوم الأحد، ومن قبله كان يوم السبت؛ ومن قبلهما كان يوم الجمعة! ثلاثة أيام تتعاقب فى مدار الأسبوع تعاقب الجياد فى مضمار السبق! يحمل كل منها فى رأسه علَم دولته، وعلى صدره عنوان ملته، ويشرق على قومه فى المسجد أو فى الكنيس أو فى الكنيسة إشراق الحب فى الفؤاد القرير، أو الإيمان فى النفس الرضية، فيؤلف ما نفر من القلوب بالمودة، ويعود بما شرد من النفوس إلى الجماعة، ثم يكون فى البيت مصدر أنس وبهجة، وفى المدينة مظهر استقلال وعزة. ولقد كان فيما سلف من مؤاتاة الدهر شأن يومنا فى الأيام، كشأن قومنا فى الأقوام: صدارة يكنفها جلال ملك، وإمارة يسندها سلطان دين، وعيد يأتلق جماله فى كل مكان وفى كل نفس، وفترة تحدد للناس مواقيت العيش ومراحل الزمن. وكان له فى أدب الدين قواعد مقررة كالاغتسال والتطيب واتخاذ الزينة وشهود الجماعة ومودة القربى وصلة المساكين، وترفيه البدن بالراحة، وتطهير النفس بالعبادة، وإعلان مجد الله بإعزاز دينه، وسلطان الشعب بإعلاء أمره. ولم يكن السبت والأحد يومئذ إلا شعاعاً لضوئه واتساعاً لمداه!

ثم غيرنا فغير الله، فإذا بالتابع يأخذ المهلة [1] على المتبوع، وإذا يوم الجمعة يصبح طرفاً فى ذيل الأسبوع، فلا تحتشم له أسواق العالم كيوم السبت، ولا تسكن له حركة الدنيا كيوم الأحد، ولا يبقى له من الرعاية عند أهله إلا إغلاق دور الحكومة فى وجهه!

---

(١) أخذ عليه المهلة: سبقه.

استعرض هذه الأيام الثلاثة بالاعتبار والموازنة تجد كلا منها صادق الدلالة على حال أهله ! فيومنا يجيء كما ترى خافض الجناح خافت الصوت حائل اللون مخضود الشوكة مغموط الحق ، لا يدخل فى حساب الناس ، ولا يقدم ولا يؤخر فى حياة المجتمع !

فمنظره الدينى تضاءل حتى صار صلاة عادية لا يقيمها إلا القرويون الطارئون على المدينة ، والحضريون الفارغون من العمل !

ومظهره المدنى انحصر كما قلنا فى عطلة الحكومة . ومن المؤونة [1] المعجزة أن تطلب العطلة وما يتبعها عند غير الحكومة ؛ فإن جمهور الشعب إما تاجر يتبع فى نظامه البنوك الأوربية ، وإما عامل يخضع فى عمله لرءوس الأموال الأجنبية ، فلم يبق إلا الموظفون الرسميون وهم وحدهم الذين يستطيعون بما تهيأ لهم من اليسر والفراغ إجلال هذا المظهر وإعلان هذه الشعيرة . فتعال ننظر كيف ينقضى هذا العيد فى بيت الموظف !

فى البيت الذى ألهمنى هذا المقال أسرة مسلمة عميدها موظف كبير ، وأسرة يهودية كاسبها تاجر صغير ، وأسرة مسيحية عائلها مستخدم وسط .

فنى يوم السبت ينبعث فى المسكن اليهودى تاريخ إسرائيل بأساطيره وتقاليده وعقائده ، فالتوراة تتلى ، والصلوات تقضى ، والذكريات تستيقظ ، والمجارى الروحية تنحدر من الأجداد إلى الحفدة فتوثق الروابط وتجدد القوى وتهون العظائم ؛ ثم تخرج الأسرة بأسرها فى زينتها وبشرها فتتناول عشاءها فى مطعم سامر ، وتقضى أمسيتها فى ملهى ساهر :

* * *

وفى يوم الأحد يحول المسكن المسيحى إلى عرس أنيق مترف : فالأسرة

---

(١) المؤونة . الثقل والشدة والتعب .

تعود من القداس فى ألوان الزهر وأفواف الوشى ، والغرف تضحك من طلاقة النفوس واتساق الأثاث ، وللمائدة للزهرة تحفل بأفانين الشراب السائغ والطعام المنيء ، والبيان الفخم تحت الأنامل الطفلة يقطر بالنغم العذب واللحن البهيج ، والفنغراف يدور بأناشيد الرقص فيمسى البهو بالزائرين والزائرات أشبه بأعشاش الربيع كله مناغاة وهديل وهزج !

* * *

وفى يوم الجمعة يصبح المسكن الإسلامى عابساً كالكهف ، ساكتا كالمقبرة ! (فالبك) قضى لياه سهران فهو نائم نومة الضحى ! فلا تسمع حساً ولا حركة إلا صوتاً شديد الخفوت يستعين بالإشارة على أن يهمس الحين بعد الحين فى أذن الطفل :

— هُسس ! خفّض من صوتك ! خفف من مشيك ! لا تلعب بهذا ، لا تعبث بذاك . أبوك نائم !

(والبك) يأخذ حمامه الأسبوعى الحار فيشغل الحمام ساعتين ! فتمضى الظهيرة والفتاة لا تستحم والعجوز لا تتوضأ !

(والبك) مدعو إلى العشاء عند بعض الأصدقاء ، فالمطبخ بارد هادىء ، وطعام اليوم بقية طعام الأمس !

(والبك) يتهيأ للخروج ، فالأسرة كلها فى خدمته : هذه تنظف البدلة ، وتلك تمسح الطربوش ، وهذا يذهب برباط الرقبة إلى المكواه ؛ وذلك يستعجل الخادم بالحذاء . وأخيراً يخرج البك ؛ فيتنفس البيت الصعداء ؛ ويستروح المكروب نسيم الرخاء !

وهكذا يمر عيد الأسبوع على هؤلاء القوم وهم يقولون :

يا لله ! ما أثقل روح هذا اليوم !

قطع العقـــدة أسهل من حلها

(١٤ مايو سنة ١٩٣٤)

كان المورث[1] غفر الله له منهوك العصب ، أرعن اليد ، ألكن اللسان ، أخرق السياسة ، فابتلاه الله بالحرب حتى قل ، وبالدين حتى ذل ، وبالرشوة حتى فشل ثم عصفت به ريح المنون فحطمت جذعه وأذرت هشيمه ، وتبدد في مهب العوادي تراثه المشتهى ، واستقرت على أعناق أبنائه وأوليائه أثقاله وأغلاله وديونه .

فأما الترك الخلص البواسل فبتروا من خلفهم ذلك الذيل الطويل ، ثم انطلقوا خفافاً إلى المجد وراء (كمال) . وأما العرب الأقحاح الميامين فألقوا من فوقهم ذلك الحمل الثقيل ، ثم مضوا سراعاً إلى الملك وراء (فيصل) . وأما نحن — وقرابتنا إلى المرحوم وما ترك قرابة كلالة[2] — فقد نالنا من عهوده (الجزية)[3] ومن قيوده (الامتيازات) . ثم رأينا في نصوص القوانين ما يثبت القلوب المنخوبة[4] على الحق ، وفي سوابق الدول ما يشجع النفوس الهيوبة على الإقدام ، وفي سوانح الفرص ما يذكر الرقاب المغلولة بالعتق ، ولكن الشعب الذي قسا عليه القدر فمحا من ذهنه الفروق بين التواضع والضعة ، وبين الوداعة والذل ، وبين المجاملة والملق ، وبين الكرامة والتساهل ، وبين الضيافة

---

(١) المورث : تركية القديمة أو (الرجل المريض) كما كانت تسمى .

(٢) الكلالة : القرابة البعيدة .

(٣) الجزية : ما كانت مصر تدفعه إلى تركيا كل عام من المال .

(٤) فلان منخوب القلب : جبان .

والاحتلال ، لايستطيع أن يفهم من القانون إلا نص الواجب ، ولا من (السابقة) إلا معنى الجرأة ، ولا من الفرصة إلا خلاف الحزم .

حررت الأمم رقاب العبيد ، واحترم السادة إرادة الخدم ، ومنحت الدول طغام الشعوب كرامة الوطن ، وبرىء الأسود والأبيض من معرة التفريق ووصمة التمييز ، اللهم إلا نحن فى مصر ، وإلا الزنوج فى أمريكا !

وما الفرق بالله بين الزنجى والمصرى إذا كان كلاهما قد حرم الإخاء فى المجتمع والمساواة فى القانون والحرية فى الوطن ؟ وهل الامتيازات إلا حكم قائم بانحطاطنا عن الأمم التى ميزناها فى الجنسية والعقلية والمدنية والتربية ! فالأوربى إذا اعتقد أنك دونه فى القدر والحق والخلق فتمزى [1] عليك وانتفى منك ، كان واضح العذر ما دمت تعترف بهذا النظام الذى يجعل قضاءه أعلى من قضائك ، ولغته أفضل من لغتك ، وشأنه أرفع من شأنك .

إنه يعرف أن لك على الأقل أن تلغى المحاكم المختلطة من ذات نفسك ، فلا ترى بعدها من يظلم قضاتك على منصة العدل ، ويحتقر لغتك تحت راية الدولة ، ويهين رجالك فى دست الحكومة ، ولكنه يراك تهمل حقك حتى يموت ، وتغفل واجبك حتى يفوت ، وتنفق من كرامتك على المجاملة واللطف حتى تنفد ، فجعل نزولك عن مقامه تقليداً لاينهض فى وجهه أدب ، وعرفاً لايقوم بسبيله قانون .

* * *

(١) يتمزى : يرى لنفسه المزية .

إن الامتيازات الأجنبية شر ما منيت به هذه الأمة من علل الفساد وأسباب الوهن ، فإن وجودها يوهم الأوربي أنه فاضل بالحق ، ويشعر المصري أنه مفضول بالطبيعة ، فيمعن هذا في هضم نفسه وبذل مقادته ، بقدر ما يمعن ذلك في تصعير خده وتجاوز حده . ويجري الأمر بين الرجلين مجرى الطبع والعادة ؛ فلا يندم الأول على إساءة ، ولا يألم الثاني من غضاضة !

وما تجره على الأمة هذه الآفة من قتل الرجولة في النفوس ، وكسر النخوة في الرؤوس ، لا يدفعه إلهاب العواطف بعظمة الآباء وحماسة الشعراء وطموح المدرسة ، فما ظنك إذا خلا التاريخ من روح الوطنية ، والشعر من أدب القومية ، والمدرسة من رفع الخلق ؟

إن أخبث الأدواء ما خامر الجسم فسلبه القدرة على الفكر فيه وبه الخلاص منه .

ولقد جنت الامتيازات على أخلاقنا جناية العبودية على أخلاق العبيد ! فنحن نجبن أمام الإهانة ، ونكذب أمام الخوف ، ونخنع أمام القوة ، ويقعد بنا اتهام الكفاية عن المنافسة ، حتى خلت ميادين العمل للأجانب فتحكموا تحكم الأرباب ، وتصرفوا تصرف السادة ، وعاشوا بالشر على خير هذا البلد ، وأنضجوا شواءهم في حريق أهله .

كل أولئك ونحن نضرع للسفيه أن يحلم ، وللخصم أن يحكم ، وللقوي أن يستكين ، ثم نحاول أن نتحاكم إلى المعاهدات ، ونتفاهم بالمفاوضات كأنما انقلبت حملة الغرب على الشرق دعوة إلى سبيل المدنية وتقدم الإنسانية على هدى السلام والعدل !

كلا يا سادة ! إن علاج المسموم بالرُّقى مزاح مع الداء لا تؤمن عاقبته . وإن قتل الحية أهون من ترويضها ، وإن قطع العقدة أسهل من حلها ، وإن المتنبي ما كان يجهل الناس حين قال :

إنما أنفس الأنيس سباع ... يتفارسن جهرة واغتيالا
من أطاق التماس شيء غلاباً ... واقتساراً لم يلتمسه سؤالا

الامتيازات والأدب

(٢٨ مايو سنه ١٩٣٤)

الأدب عبير الروح وشعاع النفس ونضح العواطف ، يتأثر حتما بما ينال أولئك من تطور الحياة وتغير الناس وتقلب الزمن . فهو يطيب أو يخبث ، ويضطرم أو يخبو ، ويمر أو يحلو ، تبعا لما يعرض للروح والنفس والعاطفة من أحوال الضعف أو القوة ، والفساد أو الصلاح ، والانحطاط أو السمو .

فالأدب العربي كان صادقاً حين فاض بالبطولة وزخر بالحماسة وجاش بالعزة في عهوده الأولى ، أيام كان يمده العرب من قوتهم بالروح ، ومن سلطانهم بالنبل ، ومن حريتهم بالكرامة .

والأدب العربي كان صادقاً حين لج في الضراعة ، وضج بالشكوى ، وأن من الألم ، وتحدث عن فسوق الخلق المنحل ، وإيمان القلب المستذل ، وضلال النفس المريضة في مذاهب القحة ، في عهوده الأخيرة أيام وهنت عزائم الملوك ، ووهت دعائم الملك ، وتخلت يد العرب عن زمام الدنيا ، فوقعت الفوضى وحدث الخلل ، ولجأ الناس بعضهم إلى الله وراء شيوخ الطرق ، و بعضهم إلى الشيطان وراء قطاع الطريق !

والأدب العربي صادق اليوم في الإبانة عن هذا الشك المخامر في قدرتنا على التفكير الأصيل ، واضطلاعنا بالأمر الجليل ، واستقلالنا بتبعات الرأي وتكاليف الحياة ؛ فإن اعتقادنا الإيحائي المزمن بتفوق الأوربي وامتيازه سلب من نفوسنا الثقة ، ومن قلوبنا الإيمان ، ومن عقولنا الأصالة ، ومن شعورنا السمو ، وتركنا

كالعبد المملوك لا يقدر على شيء وهو كَلٌّ عَلَى مولاه ، ينقل فيما يقول عن لسانه ، ويصدر فيما يعتقد عن قلبه .

فأديبنا يجهل اللغة العربية كل الجهل ، ويعلم اللغة الأوربية كل العلم ، لأنه إذا تكلم بها أو كتب فيها شعر بذلك الامتياز الذى يلازم أهلها فى بلاد الشرق . وأديبنا يقرأ الأدب الأجنبى ويغفل الأدب العربى ، لأن هذا أدب قوم كانوا يلبسون العمائم ويأكلون بالأيدى ويجلسون عَلَى الوسائد ويقولون له : نحن أجدادك ! وذلك أدب قوم يلبسون البرانيط ويأكلون بالشوك ويجلسون على الكراسى ويقولون له : نحن أسيادك ! وأديبنا يعمى عن مناظر بلده ومحاسن طبيعته ومفاخر قومه ومآثر شرقه ، ثم يفتح عينيه بكلتا يديه ليستشف من خلال السطور السود قناطر (السين) وشعاف (الألب) وخمائل (التيرول) لان هذه ذكرها جيته ولا مرتين وبيرون ، وتلك إنما ذكرها البحترى والرضى وشوقى !

زارنى ذات يوم شاعر من شعراء الشباب وفى يده قصيدة يريد نشرها بالرسالة ، وكان موضوع القصيدة كما يقول : تصوير منظر قروى فى ريف مصر : مشرق الشمس فى القرية أو مغربها لا أذكر . فلما نظرت إلى الصورة — وأنا قروى — أنكرت ما رسم فيها من الخطوط ووضع بها من الألوان وحشد إليها من الطبيعة . فقلت له : يغلب على شعورى أنك ترجمت . فقال وهو يعقد من التيه عنقه : ثق أنها من وحى خاطرى وفيض لسانى . فقلت له : إذن ما هذه النواقيس التى ترن فى الأبراج ؟ أفى قريتكم كنيسة ؟ فقال : كلا ، وإنما آثرت رنين الناقوس على أذان المؤذن ، لانى أجد للأجراس والأبراج من الروعة والشاعرية مالا أجده المأذنة والمسجد . فألطفت للفتى فى الاعتراض و الاعتذار مخافة أن يرمينى فى سره بالجمود والتأخر !

كذلك قدم إلى كاتب من ناشئة الكتاب قصة مصرية سمى أشخاصها :

جان وألبير ولورا وهيلين ، لأنه يجد هذه الأسماء فى الحوار أرق وأعذب من على وإسماعيل وسعاد وفاطمة !

فالأدب المصرى الحديث كالمجتمع المصرى الحديث ، يقوم على موت الشخصية وفناء الذات ونسيان التاريخ ونكران الأصل ، فهو يستلهم المطابع الأوربية ، ويخضع قريحته للقرائح الأوربية ، ويعقد لسانه بالألسن المرهوبة مهما فيحكى ما تقول فى لثغة نكراء من أثر العقدة ، وهو لو وضع عن كاهله نير الامتياز ، وفهم هذه الكلمة الخزية على المجاز ، فأخذ عن طبعه وترجم عن طبيعته ، لفجىء الغرب بأدب قدسى الإلهام سحرى الأنغام شرقى الروح مصرى الطابع ، يحل أهله من أدب العالم ما أحل أدب الهند إقبالا وطاغور !

إن الطبيعة المصرية أولى أن تلهم الشاعر تأمل الصحراء ، وأحلام النخيل ، وابتسام الصحو ، لا أن تلهمه ما تلهم الطبيعة الإنجليزية من أمثال (الملاح التائه) و (الزورق الحالم) و (وراء الغمام)[1] ! فإن الفن لا يخضع خضوع العلم للعقل المشترك والوطن العام ، وإنما يخضع قبل كل شىء لطبائع الإقليم وخصائص البيئة ومنازع الشخص . فإذا استنزل شعراؤنا الشباب على خواطرهم هذا الوحى الغريب ، فذلك أثر ما نشكوه من هذه العبودية العقلية التى ضربت على الآذان وغلبت على الأذهان وجعلتنا للأجانب فى كل شىء تبعاً .

فتى يعلم المصرى أن له مجداً يجب أن يعود ، ووطناً ينبغى أن يسود ، وصوتاً يحق أن يسمع ، وأدباً يصح أن يحتذى ، وتاريخاً يليق أن ينشر ، وحقاً على أرضه تؤيده الطبيعة ويقره القانون ولا ينكره عليه إلا جبنه وذله ؟ !

---

(١) هذه عناوين دواوين الشعراء الشباب .

تأمل ساعة

(كتبت فى ٢٦ فبراير سنة ١٩٢٩ على أثر قدومى إلى بغداد)

فى الشرفة الوسيعة من فندق (كارلتون)، جلست أطالع فى صفحة دجلة ما خطته يد القرون. وكانت شمس الأصيل تنفض تبرها على أمواج النهر وسطوح الكرخ وحواشى الأفق، والطبيعة الأنيقة تنعم بالصفاء والبهاء والدفء، بعدما أجهدها رعد الأمس وبرقه، وأغصها وابل الغمام وودقه؛ فالسماء مصرية الأديم، والجو عبهرى النسيم[1]، والأفق الغربى مزدان بقزعات[2] من السحاب الأبيض الرقيق، والماء قد استحال لجينه نضاراً من طول ما حمل إليه السيل من كنوز الجبل[3].

أخذت أصوب النظر وأصعِّده فى النهر والجسر والشاطىء، فأرى أنماطاً من الناس، وأخلاطاً من الأجناس، وصوراً من الأشياء، تنكرها العين ويعرفها القلب، لأنها شرقية، ولأنها عربية، ولأنها مظلومة!...

ذكرتنى هذه المناظر مناظر غابت فى سويداء القلب ولفائفه: ذكرنى تقابل الرصافة والكرخ على دجلة، تقابل القاهرة والجيزة على النيل الأعلى، وتقابل المنصورة وطلخا على النيل الأسفل. وفى هذه الأماكن الحبيبة كان مدرج طفولتى وشبابى، وملتقى أحبتى وصحابى، فهاجت شجونى وسالت شؤونى[4]، فوضعت جبهتى المضطرمة على سياج الشرفة البارد وعدت بالذاكرة وشيكا إلى بغداد. ثم انطويت على نفسى وأخذت أتفكر وأتذكر وأعمَهُ فى غيابة الماضى حتى انقطع ما بينى وبين الحاضر، وامحى من حوالىَّ العالم بأسره.

---

(١) العبهر: الياسمين (٢) القزعة: قطع من السحاب متفرقة صغار.
(٣) المراد بها: الغرين (٤) الشؤون: المدامع.

وحينئذ انبعث من جانب الكرخ صوت شادٍ يرجع بالنغم العربى الشجى نخيل إلى أننى أرى دجلة (الأمين) وجسر (ابن الجهم) وكرخ المجان والخلعاء من أهل بغداد المترفة ، ووقع فى سمعى أن هذا الشادى يقول :

سقى الله باب الكرخ من متنزه   إلى قصر وضاح فبركة زلزل

مساحب أذيال القيان ومسرح الـ   ـحسان ومثوى كل خِرق معذل (١)

رصور لى أننى أسمع غناء الملاحين فى الزلالات (٢) ، وأبصر (الدلفين) و (العقاب) (٣) يمخران العباب بالخليفة الأمين وحسانه وقيانه وندماه ! . . . وراءت لى على الشاطىء الشرقى قصور البرامكة الحزينة ، يقابلها على الشاطىء الغربى قصور الخلفاء والأمراء تعج بالجوارى والغلمان ، وتضج بالشعراء والندمان ، وتموج بالسادة والقادة والجند ، وتفيض بالنعيم والجلال والعظمة . وتمثلت فى خاطرى بغداد الأمس كباريس اليوم فى عدد سكانها ، وفخامة بنيانها ، واتساع رقعتها ، وإزدهار مدنيتها ، وانبعاث الحضارة من مجامعها ومنابرها ، وانبثاق الهداية من جوامعها (٤) ومنائرها ، إلا أن باريس تشع فى أجواء مشرقة ، تسطع فيها شموس أخرى تضارعها وتصارعها ، أما بغداد التى عنت لها وجوه القياصرة ، وكان من جندها أبناء الدهاقين والأكاسرة ، فكانت شمساً واحدة ترسل الضوء والحرارة والحياة فى القارات الثلاث ، فتبدد ماغشيها من ظلام وخمود ونوم .

---

(١) الخرق : الفتى الحسن الكريم الخلية . والمعذل من يعذل لإفراط جوده :

(٢) الزلالات : واحدها الزلال . الزوارق .

(٣) الدلفين والعقاب مركبان بحريان من مراكب الخليفة الأمين

(٤) جوامع : جمع جامعة

لا أدرى متى كنت أصحو من نشوة هذه الذكريات الحلوة المرة ، لو لم يُعدنى إلى وجودى صوت منكر من أصوات الحضارة الحديثة ، وقد انطلق من جوف مركب بخارى عظيم كان يشق بحيزومه صدر دجلة ، فسرحت طرفى فى الأفق ، فإذا شمس الشرق تجاهد ظلام الغرب ، وإذا القزعات قد ارتد بياضها سواداً ضربت فى حواشيه حمرة الشفق فصارت كأجنحة الغربان الدامية ، أو كقطع من الفحم علقت بأطرافها نار حامية . ثم نظرت شمالا فإذا المكان الذى سجدت فيه رسل (شارلمان) أمام الرشيد يخفق فوقه علم غريب [1] لا هو أسود ولا أبيض ولا أخضر [2] ، وإذا قطع من السحائب السود قد انعقدت فوقه ، ملبدة هنا مبددة هناك . . . فقلت فى نفسى : ليت شعرى أهذه بقايا أعلام الرشيد والمأمون ، أم هذه أثواب الحداد لبستها سماء العراق على السعدون [3] ؟ !

(١) هو العلم الإنجليزى على دار المعتمد البريطانى فى الكرخ .
(٢) هى ألوان أعلام العرب الثلاثة فى القارات الثلاث : آسيا وأفريقية وأوربا .
(٣) كانت العراق يومئذ لا تزال مروعة بانتحار زعيمها الكبير عبد المحسن السعدون

الامتيازات والدّين

حق على حَرم الدين وموئل علومه ، ومعقل آدابه ، تعتدى الامتيازات الأجنبية المشئومة ! فقد حدثنى من لايجهل ولا يكذب أن طالباً من جنوب أفريقية يطلب العلم فى أحد المعاهد الدينية دهمه الامتحان وهو فى سكرة النعيم المصرى الخالص منِ الأذى والمن ، فلم يجد فى رأسه غير وساوس الشباب وغمائم الهوى ، ففزع إلى الكتاب ينقل منه نص الجواب فأخذته عين المراقب ! ثم كان مايقتضيه القانون والخلق والنظام فى مثل هذه الحال من طرد التلميذ وإلغاء امتحانه .

ولكن جنوب أفريقية — وأرجو أن تتذكر — له على شمالها امتيازات بالواسطة [1] ، يُدِل بها على مصر إدلال الخادم بسطوة سيده ، ويصول بسيفها صولة العبد بسيف مولاه ! حمل هذه الامتيازات أبو الغلام على ظهره عشية الحادث ، ومضى يهدج بها فى فناء الدار [2] المشرفة على النيل وعلى أمة النيل ، فاهتزت الدار لشكواه حِفاظاً وأنفة ، وأقبلت حجرات الحراس على حجرات الخدم يتساءلن : أين إذن الامتياز إذا تساوى الأجنبى والوطنى فى قانون عام ؟ وأين إذن الامتياز إذا جرى المحمىُّ والمصرى فى الأمر على منهاج واحد ؟

وفى الصباح الباكر كان الشيخ مدير المعهد جالساً إلى مكتبه يذكر الله على إيقاع المسبحة ، وذكر الله تطمئن به القلوب وتشجع به الأنفس ، ولكن

---

(١) اكتسب جنوب أفريقية امتيازاته فى مصر بواسطة تبعيته لانجلترا .

(٢) دار المندوب السامى الإنجليزى يومئذ :

جرس التليفون كان اليوم على ماخيل إلى المدير أحدّ رنيناً وأشد صلصلة ، فزعزع القلب المطمئن وضعضع النفس القوية !

— ألو ! ألوا ؟ من ؟

— إدارة الأزهر العليا ، أعــــد إلى الإمتحان الطالب الذى أخرجته منه الأمس .

— كيف يامولانا وقد غش فى الإجابة ، وضبطت معه أداة الغش ، وضاع من أيام امتحانه يوم ، وذهبت من هذا النهار حصة ، وأعلن إلى الملأ طرده ؟

— أعد هذا الطالب من غير مناقشة

وكانت اللهجة حاسمة والإجابة مفحمة ، فخرس التليفون وخشع المدير وتقاصر المكتب وخزى القانون وبهت الخلق وعجب المدرسون والطلاب إذ رأوا التلميذ الذى طرد بالأمس يعود إلى مكانه اليوم وهو أضخم مما كان جثة وأنضر طلعة وأطول رقبة !

تخالست العيون نظرات العجب ، وتبادلت الشفاه بسمات السؤال ، ولكن المكاتب الرسمية ظلت واجمة ، والأسباب السحرية الرهيبة بقيت محجوبة : حتى أذن الله لها أن تظهر ، فسكنت طبيعة المعهد ، وركدت ريح الفناء ، وثقلت حرارة الجو ، وأخذ الدار ما يأخــــذ الأرض قبل هبوب العاصفة

وهنالك اقتحم الدار ذلك الإفريقى المحمى الذى رأيناه بالأمس يقرع الباب الأحمر [1] والامتيازات تجأر بالشكوى على ظهره ، ثم أثار من حلقه

(١) باب دار المندوب الإنجليزى .

عاصفة هوجاء ترمى بالسباب والسفه ، فلم تدع كرامة على منصة ولا مهابة على مكتب ولا جلالة فى إدارة حتى تناولتها بالعيب والزراية .

من الذى يجرؤ على أن يطرد ابنى يا . . . ، أين ذهبت أوامركم بالأمس ؟ ماحال قوانينكم اليوم ؟ كيف ترفعون رءوسكم غداً ؟ ثم تربد وجه الرجل وزبد فوه ، فأرسل على القوم من فحش البذاء ما نحمد الله على الجهل برسمه حتى نكتبه

* * *

برح الخفاء واستعلن السر ، فسكن القوم سكون الطير فى ثورة الطبيعة ! فلما هدأت زمجرة الأسود (الممتاز) وانصرف عنهم انصراف الليل المرعد عن الصباح الوديع ، أفاقت الطير من دوار الزوبعة ، وفزعت إلى الإدارة العليا تستصرخها الكرامة ، وتستعديها على الرجل ، وتسألها أن تعارض شكاية بشكاية ، وتقول فى حرارة الموتور ومرارة النادم : لقد قال الرجل فأسرف ، وسكتنا فأسرفنا !

وتشاء المصادفات العجيبة أن يكون بين يدى الإدارة آنئذ دلو من الماء النمير البارد فتلقيه على ثورة الغضاب فتقر ! ثم قالت لهم بتلك اللهجة الحاسمة والإشارة الحازمة :

نعما فعلتم ! الحلم سيد الأخلاق !

* * *

كان رجال الدين فى العهود العزيزة مفزع الفضيلة المروعة ، وملجأ الفضل المضطهد . يبغى الحاكم ، ويجحف السلطان ، ويطغى المستبد ، حتى إذا بلغوهم شدوا الشكيمة ، وردوا الجماح ، واستقاموا على الطريقة . ثم كانوا فى حضرتهم يستكينون لسلطان الدين ، وسيطرة الضمير ، وعزة القناعة ، وصراحة الخلق ،

وشجاعة القلب ، وإعلان الحق فى وجه الباطل وإن ذهبت عليه الدنيا وأريقت فى سبيله النفس .

وكان من ورع رجال الدين فى الأزمان الصالحة ، سياج على حمى الشريعة ، يرد عنها خبائث الطمع ونقائص المادة ، فلا تُسخر للظلم ، ولا تُستخدم للحكم ، ولا تُستغل للهوى . وكانت كلمة العالم هى كلمة الله ، يقولها فتعنو الجباه وتجمد لها الشفاه ويستقيم بها ميزان العدل .

فلما ابتلى المؤمنون بنفاق الحياة ، وفتن المتقون بزهرة الدنيا ، وذل العلماء لشهوة الترف ، فرغبوا فى وجاهة المظهر ، وفراهة المركب ، ورفاهة العيش ، سلبهم الله ميراث النبوة ، وحرمهم جلال الدين ، فأصبحوا كسائر الناس ، يجرى عليهم ما يجرى على غيرهم من ذل الامتيازات ، وغل الحزازات ، وعنت السياسة .

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه فى النفوس لعظما

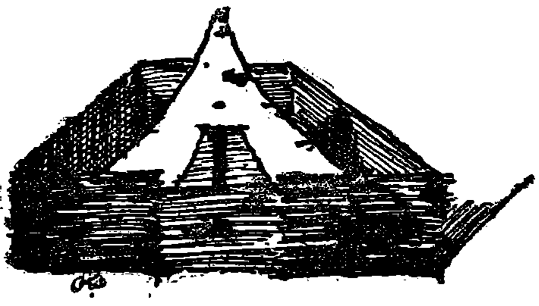

ذكرى المولد

(٢٥ يونيه سنة ١٩٣٤)

كان الناس فى إبريل من عام ٥٧١ ، وكانت الطبيعة المشفوفة [١] تنتظر انبثاق الروح المبدع ، وانبعاث الربيع المرع ، وانتعاش الحياة الجديدة فى الأرض الهامدة . وكانت الخليقة المئوفة [٢] ترسل النظر الحائر فى الآفاق الغائمة ، ترتقب لمعة النور من الشرق ، ونفحة القوة من الحق ، وكلمة الهدى من الله . وكانت الجزيرة المجهودة تصهرها الشدائد ، وتطهرها الدماء ، وتهيئها الأقدار ليهبط فوقها الوحى ، ويتجلى لها الخالق ، وتتصل عندها السموات بالأرض ، وكانت الهواتف الطائفة تعلن فى رءوس الجبال ، وسفوح الأودية ، ومدارج السبل ، وسوابيط [٣] المعابد ، وأواوين القصور ، بشرى الرسالة الأخيرة ، وظهور الرسول المنتظر . وكانت الشياطين الآلهة تئن فى أجواف الأصنام المنكسة أنين الخيبة والهيبة واليأس ، وأجنحة الأملاك تخفق من وراء البصر [٤] فى جو مكة القائظ المغبّر ، فتنفض عليه النور والسرور والصفاء والدعة وكانت أرواح الأنبياء من حول الكعبة تضوع بالحمد والدعاء احتفالا بختام النبوة ، وقيام الدعوة مرة أخرى فى بيت إبراهيم ، ثم كانت ومضات من روح القدس وأشعة الخلد تنعقد هالات مشرقات على « شِعب بنى هاشم » وفوق دار آمنة ، والنبى الوليد الذى خنس لمولده الشيطان ، واعتدل

---

(١) المشفوفة : الهزيلة الواهنة . (٢) المئوف : من أصابته الآفة .

(٣) الساباط : سقيفة بين جدارين تحتها طريق . (٤) من وراء البصر : أى لا ترى .

بقدمه الزمان ، وخشع لذكره الكاهن والموبذان [(١)] وتصدع من خشيته الدست والإيوان [(٢)] يفتح عينيه للوجود فى بيت العُدم [(٣)] ويلقى أرواقه [(٤)] الكريمة على مهاد اليتم ، ولا يظفر بمرضع إلا لأنها لم تظفر آخر الأمر بغيره !

* * *

تبارك الله ما أبلغ حكمه وأجل شأنه ! شاء لنوره وبرهانه أن يشرقا فى هذا المنزل المتواضع ، ولمجده وسلطانه أن يظهرا فى هذا اليتيم الوداع ، ولعلمه وقرآنه أن ينزلا على هذا الأمى الحيى ، لتكون آيته أبهر للعيون ، ودعوته أبرع فى العقول ، وكلمته أنوط بالأفئدة . ولو اتخذ رسله من الملوك العواهل لاتهمت المعجزة ، والتبس على الناس فضل القدرة .

كان محمد بن عبد الله مثل الله الأعلى للإنسان الكامل . صوره خلقا سويا ليرسم الأخلاق بالمثل ، ويعلم الدين بالعمل ، وينظم الحياة بالقدوة . وإلا فكيف اجتمع فيه ما تفرق فى جميع الناس من خصائل الرجولة ، وخلال البطولة ، وخلائق النبل ، وبيئته لا تملك من بعض ذلك ما تعطيه ؟

رعى على بعض أهله ، وسعى لبعض قومه ، واتجر بمال زوجه ، فكان فى جليل الأمر كما كان فى ضئيله صادق العزم ، كريم العهد ، وثيق الذمة ، راجح الحلم ، شاهد اللب ، لين العطف ، حلو المعاشرة ، « يحمل الكل ، ويكسب المعدوم ، ويعين على نوائب الحق » .

ثم اصطنعه الله لحقه ، وحمله الرسالة إلى خلقه ، فكان فى غار حراء ،

---

(١) الموبذان : فقيه الفرس كقاضى القضاة عندنا والإيوان : إيوان كسرى . (٢) الدست : صدر البيت . (٣) العدم : الفقر . (٤) الأرواق : جماعة الجسم .

وفى دار الأرقم ، وفى جبل ثور ، وفى دار أبى أيوب ، وفى المسجد الجامع ، ثم فى الرفيق الأعلى ، مظهراً صحيحاً لروح الله ، وإعلاناً صريحاً لسر الدين ، ومثالاً عالياً لصدق الجهاد ، واحتمالاً ساميا لمكاره الدعوة ، وأسوة حسنة لجميع الناس !

جهر الرسول بالدعوة بعد أن خافت بها فى قريش ثلاث سنين ، فضلل الأقوام وسفه الأحلام وهاجم الشرك فى معقله ، وليس وراء ظهره إلا عمه ، فتألبت عليه عناصر الشر جمعاء فما أفكته عن عزمه [١] ، ولا حلحته عن همه . ثم تجلت فيه مواهب الكمال الإنسانى ، فحشد للخصومة قوى النفس وقوى الحس ، فجاهد بالصدق ، وجالد بالصبر ، وجادل بالمنطق ، وصاول بالرأى ، وأثر باللسان ، وقهر باليد ، وتلك مزيته الظاهرة على النبيين والرسل . فكل نبى أو كل رسول إنما بان شأوه على قومه فى بعض المزايا ، إلا الرسول العربى فقد تم فيه ما نقص فى غيره من معجزات الرجولة ، فكان رسولا فى الدين ، وعلماً فى البلاغة ، ودستوراً فى السياسة ، وإماماً فى التشريع ، وقائداً فى الحرب .

* * *

إن حياة الرسول قانون إلهى خالد لصاحب الدين وصاحب الدنيا وإن وسائل الجهاد التى جدد بها أسلوب العيش وأقام بها ميزان المجتمع لاتزال مدوين ضخمة فى صفحات العلم والسياسة والخلق وإن من أساس الإسلام أن نطيع الله فى كتابه ، ونطيع الرسول فى سننه وآدابه . فليت شعرى أكان فى حدود الإمكان أن يرتطم العرب والمسلمون فى مراغة الخمول ، فيرضوا

---

(١) أفكه عن عزمه : صرفه وقلب رأيه .

بالهون ، ويقنعوا بالدون ، و يتخلوا عن مكانهم من صدر الوجود ، لو أنهم اتخذوا من أحكام ربهم منهاجاً ، ومن كلام رسولهم علاجاً ، ومن حياة السابقين الأولين من رجالهم قوة وقدوة ؟

أليس من خذلان الله لنشئنا الجُدُد أن يلوكوا جاهدين أسماء فلان وفلان ممن رأى رأياً أو أنشأ قصيدة أو ألف كتاباً ، ثم يتركوا عامدين اسم محمد الذى جمع العرب من شتات ، وأيقظ العالم من سبات ، وأقام للسماء ديناً فى الأرض ، وأسس للأرض دنيا فى السماء ؟

في الموقف الأدبي الحاضر

(٢ يوليه سنة ١٩٣٤)

كان ظهور (الملاح التائه) و (وراء الغمام) ،وصدور (الوادى[1])فى لونها الجديد سبباً قريباً فى حدوث هذه الضجة الأدبية القائمة ، لأن الديوانين على رغم ماقيل فيهما نتاج من الطراز الأول يستحق العناية ويستوجب النقد ويستدعى الخلاف ؛ ولأن الشاعرين — وإن كانا بحكم ثقافتهما غريبين عن العالم الأدبي — قد جذبا إليهما الأبصار وعطفا عليهما الأنصار بالطبع الموهوب والذوق الناقد فلكل منهما فى كل قهوة رقيب ورفيق ، وفى كل صحيفة عدو وصديق ، وفى كل ناد مكبر ومنافس ؛ ولأن (الوادى) قد أخذت منذ حين تفتح لأدب الشباب (محضراً) فى كل أسبوع ، وقد تطوع الشهادة له وعليه أساتذة النقد فى صحيفتى الجهاد والبلاغ وكانت الحملة عنيفة على صاحبي الديوانين لحظهما الوافر من الإجادة ومحلهما الرفيع من الفن ، فكابد الشاعر الطبيب مبضع العقاد ، وقاسى الشاعر المهندس معول المازنى . وكان الدفاع عنهما ألكن الحجة أرعن الدليل لصرفه الجهد فى رد المآخذ ؛ ولو عنى بتبيين المحاسن كما عنى بتحسين المساوىء لأخفى ما ظهر تحت مجهر النقد من ضئال العيوب فى بهر الجمال وروعة الصنعة ولكل عمل من أعمال الناس جهة المدح وجهة الذم لاتتشابهان على ناظر والنقد صناعة دقيقة لا يحسنها فى الغالب إلا شيوخ الأدب . لأنهم استكملوا عُدّتها واكتسبوا مَلَكَتها بإدمان الدرس

---

(١) الملاح التائه : ديوان الشاعر المهندس على محمود طه ، ووراء الغمام : ديوان الشاعر الطبيب إبراهيم ناجى ، والوادى جريدة كان يحررها حيناً من الدهر الدكتور طه حسين .

وطول المرانة وكثرة التجربة ، فردّ مآخذهم إذا برئت من الشطط والاعتساف يكون فى الكثير الغالب من وراء القدرة الشابة .

وكان أسلوب النقد ولا شك مشوباً بصلف الأستاذية ، وعنت الحزازة وعبث التهكم . وحجة النقاد أنهم بالطبيعة أولياء الفن وأمناء هيكله وأصحاب إذنه ، فلا يجمل بهم أن يُدخلوا فيه من لايثبت معدنه على شدة السبك ، ويخلص جوهره على تقصى النظر ، وأن الادب أعسر من أن يُنال بالدعوى العريضة والدعاية المريضة والأساليب الملفقة .

كان طبيعيًا أن يأنف الشباب من هذه اللهجة ، ويألموا من هذه الشدة ، ويزعموا أن هناك ائتماراً بهم وإنكاراً لأدبهم ، فيسوء ظنهم بالنقد ، وتفيض مجالسهم بالشكوى ، ويقابلون الأستاذية بالتمرد ، والحزازة بالعناد ، والتهكم بالحق ، ويبسطوا الأمر على أنه نزاع بين أدبين : قديم يشتهيه الموت ، وجديد تبتغيه الحياة وتنفرج الحال أخيراً بين جيلين مقامُ الأول من الثانى مقام المدرب المشفق والمرشد الناصح والدليل المجرب .

* * *

إن شيوخ الأدب وشبابه إنما يتخذون أدوات واحدة ، ويعالجون موضوعات متقاربة ، وينتجون نتائج متشابهة فتاريخ الأدب يوم يكتب عن هذه الفترة لايجد للشباب أسلوباً خاصاً يسجله ، ولا مذهباً جديداً يحلله ، ولا أثراً مستقلا يشرحه ويعلله . إنما هى مطامح الفتوة إلى المثل الذى توحيه الطبيعة وتقتضيه الفطرة ويلهمه الاطلاع ، تحاول همتهم الوثابة أن تدنيهم منه فيقعد بهم عجز الوسيلة ونقص العدة .

وليس يسوغ فى العقل أن يُعدّ التسامح فى اللغة والتساهل فى الأسلوب

والتجاوز عن القواعد ميزة ، فإن بأس الشباب لم ينكسر أمام عزم الشيوخ إلا فى هذه الناحية .

والحق أن المسارعة إلى الإنتاج العام قبل استكمال وسائله الأولى غميزة[1] بينة فى أدب الجيل الحديث . فإن الإلمام باللغات الأجنبية ، والوقوف على قواعد الفن الأوربية ، لايجعلان المرء كاتباً فى العربية مالم يدرس هذه اللغة دراسة قوية تردها طيعة لقلمه لينة على لسانه . والاعتماد فى اكتساب الأدب على محاكاة النماذج وتقليد المثل لايقوم عليه فن ثابت ، ولا ينهض به فنان معدود . وما كان المثل ليغنى عن القاعدة وهو لايضيء إلا ناحية من الطريق والقريحة نفسها وهى غريزة الأدب والفن فى الإنسان ، ليست من الكمال اليوم بحيث تجزى عن القواعد كذلك الذوق وهو أداة الجمال كما أن العقل أداة الحق ، لايمكن أن يكون طريقاً مأمونة إلى عمل صحيح ، فإنه موهبة طبيعية تختلف فى الناس وفى الأجناس ، وتحتاج إلى المرانة بالدرس والعادة . وليس لها ما للعقل من سلطان واطمئنان وثبوت وإنك لتجد عقلا مطلقاً مستقلا لايختلف ولا يتغير ، لأن هناك حقيقة مستقلة تتميز بالوضوح والجلاء ؛ ولكنك لاتجد مهما تستقر وتستقص ذلك الذوق المطلق المستقل الذى لايختلف باختلاف الألوان والأزمان والأمكنة أما القواعد فهى نتيجة التجارب وخلاصة الملاحظات على طول القرون ، وضعتها القرائح المنطقية المتعاقبة بعد أن فقهت أصول الأشياء ، ودرست علائق هذه الأصول ، واستخلصت نتائج هذه العلائق ، ثم صاغت هذه النتائج قواعد وقالت لك إنها أمثل الطرق لإحسان العمل دون أن تخضع عبقريتك لها ، ولا أن تسمح لهواك بالخروج عليها ، فإن بين الاستبداد والفوضى نظاماً أحق أن يؤثر ويتبع .

---

(١) الغميزة : المطعن .

وبعد ، فإن الفنان والناقد إنما يتعاونان على فهم الجمال ، كما يتعاون القاضي والمحامي على فهم العـدل . فليس من الخير لأحدهما أن يكون مع الآخر على خلاف . وإن الأدب الشيخ والأدب الشـاب ليتعاونان على قيادة النفس ، كما يتعاون البصر والجناحان على قيادة الطائر ، فليس من خير أحدهما أن يكون من الآخر على قطيعة .

والأدب الرفيع من بعد ذلك كله صلة المرء بربه ؛ ينفي الأذى عن لسانه ويذهب الغل عن قلبه .

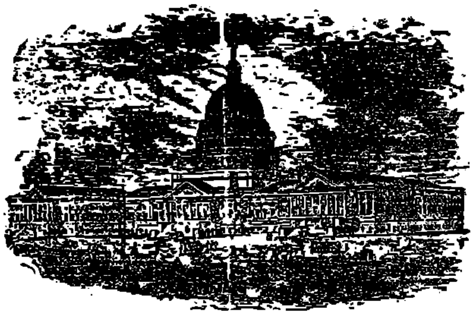

أحمد زكي باشا

(٢٦ يولية سنة ١٩٣٤)*

رحم الله زكى باشا ورضى عنه ! لقد كان علماً من أعلام هذا العصر ، ورسولا من رسل هذه النهضة ! وأعلام هذا العصر ورسل هذه النهضة معلومون معدودون ، لا تزيد فيهم المجاملة ، ولا تنقص منهم المجافاة . ولكل واحد منهم ناحية من نواحى الإصلاح أشرقت فيها نفسه ، وانتشر فى جوانبها سناه . وهم يمتازون من النابغين والنابهين بأن لهم عقيدة فطرية قوامها الإيمان والعصبية ، ورسالة روحيـة بلاغها الجهاد والتضحية . فحمد عبده فى الناحية الدينية ، ومصطفى كامل فى الناحية الوطنية ، وقاسم أمين فى الناحية الاجتماعية ، وسعد زغلول فى الناحية السياسية ، وأحمد زكى فى الناحية القومية ، قد تلقوا جميعاً رسالات الفطرة على نحو ما بلغ المرسلون رسالات الوحى . نزلت على قلوبهم منذ الشباب الأول فجعلت عقولهم وميولهم ومواهبهم وقفاً عليها ودواعى إليها ووسائل لها ، ثم لازمتهم فى أطوار العمر وحلت من نفوسهم محل الغرض من السعى والغاية من الحياة .

فزكى باشا منـذ بلغ سن التـكليف تمثل لعينه مثله ، واستجابت فى ذهنه رسالته : رأى العروبة لفظاً تدير مدلوله فى الناس ، وجنساً تنكرت معالمه فى الأجناس ، ولساناً فشا فيه الدخيل ، وديناً تقول عليه الباطل ، وأثراً عبث به الجهل ، وتاريخاً تطرق إليه النسيان ، وحضارة غض منها التعصب ، وحقاً تجهم له البغى ، وإرثاً تخطفته الغزاة ، ووحدة مزقتها العوادى ، فنهض لإصلاح ذلك كله نهوض المصلح الملهم والمؤمن الواثق . وكان أول ما عانى من وسائل

العيش معالجة الترجمة فى الديوان، ثم تعليمها فى المدرسة، فصرف جهده فى تنقيح التراكيب الديوانية، وتصحيح الأعلام العربية، وتصويب الأخطاء التاريخية، ونقل مايعلن محامد الإسلام إلى اللغة الفرنسية، ثم كان لا يسمع بمكرمة تروى لأمة إلا التمس الاولية فيها للعرب. فالصحف الفرنسية تذكر أن وفود المهنئين دخلوا على الرئيس (بوانكاريه) يهنئونه برياسة الجمهورية فما شكر أحداً بما شكر به الآخر، فيكتب فى تلك الصحف نفسها أن الوزير ابن زيدون قد سبقه إلى ذلك فى موقف حرج من مواقف العزاء. وتتبجح أوربا باختراع الطائرة فيثبت لها أن ابن فرناس أسبق من طار فى الجو وأول من مات فى سبيل الطيران. وتشيد أمريكا بعبقرية (كولمب) فى كشف الدنيا الجديدة، فيقول لها إن العرب أولى من فطن إلى وجودها وسعى لكشفها

ثم اتسع أمامه أفق الجهاد فاستشرفت نفسه إلى إحياء ثقافة العرب ونشر حضارة الإسلام، فحج الأندلس وزار العواصم الأوربية، ينقب عن نوادر المخطوطات ونفائس المطبوعات ينسخها أو يصورها أو يشتريها لا يدخر فى سبيل ذلك جهداً ولا ثروة. ثم لابس المستشرقين دهراً مليا، يفيدهم ويفيد منهم حتى ثقف مناهج البحث، وحذق أصول التحقيق، ومهر طرائق النشر، وأصبح لهم مرجعاً وفيهم حجة.

فلما اعتزل المنصب الحكومى تسايرت قواه وهواه إلى خدمة الأمة العربية، فوفد على ملوكها، وسفر بينهم بالصدق والألفة، حتى أذهب الموجدة، ومهد لتوحيد الكلمة.

ثم جرد لاستقراء الدقائق واستجلاء الحقائق نشاط الصبا وعزم الشباب وصبر الرجولة، فشغل الصحف بالمقالات والمناظرات، وغمر الأندية بالخطب والمحاضرات، وأحيا المجالس بالملح والمحاورات، وفى كل يوم يعتكف الساعات

الطوال فى مكتبته الجامعة يحرر مسألة أو يحضر إجابة أو يحبر مقالة أو يصحح تجربة ، حتى إذا فرغ من ذلك كله رجع إلى بيته ، فوجد ناديه قد حفل بزواره وسماره من رجالات العرب والمسلمين الطارئين على مصر ، فينشر عليه الأنس ، ويفيض فيه الكرم ، ويبث خلاله المعرفة ، فكانت حضرته كحضرة الصاحب ابن عباد ، مصدر العوارف والمعارف ، ومثابة القصاد والوراد من كل قطر وطبقة .

ثم أسلم وجهه إلى الله فى عهده الأخير ، فجعل همه وعزمه حبساً على إنشاء مسجده وبناء قبره ، فكنت تراه لايفكر إلا فى المسجد ، ولا يعمل إلا له ، ولا يتحدث إلا عنه ، ولاينفق إلا عليه ، ولايبرد البُرُد ويرسل الرسل إلا فى شأنه . فلو لم يعجله الموت عنه لتركه قطعة خالدة من الفن العربى .

* * *

ثقافة زكى باشا ثقافة الأديب ، فهو محيط بكل شىء ، ولكنه غير راسخ فى شىء . وذوقه ذوق الفنان ، فهو أنيق فى ملبسه ، أنيق فى مأكله ، أنيق فى مسكنه ، أنيق فى أسلوبه ، أنيق فى نشر مقاله ، أنيق فى طبع كتابه . وخلقه خلق العالم ، فهو متطامن النفس ، عذب الروح ، حلو الفكاهة ، سليم الصدر ، يذهب فى السذاجة إلى حد العجب ، ويخرج من تقدير مجهوده فى العلم إلى التفاخر به .

وكان تصوره وتصويره عربيين خالصين على رغم تضلعه من الفرنسية ، وإلمامه بالآداب الأوربية : فتفكيره استطرادى لا يُعنى بالوحدة ، ولا يحفل كثيراً بالتناسق : وأسلوبه أندلسى يتصيد السجع ، ويتلمس ألوان البديع . ومرجع ذلك إلى اعتقاده بعربيته ، واعتداده بشرقيته ، واعتماده فى تكوين نفسه على أدب أمته .

إن رسالة الفقيد الكريم كانت ضرورة من ضرورات الإصلاح فى عصر قضى الله أن يبعث فيه مجد العرب ليحيا من حيّ عن بينة ، فإن نهوض الأمة على تاريخ طامس ، وأثر دارس ، ولغة معجمة ، وهيكل منحل ، يكون أشبه بنهوض الكسيح لايقوم إلا ليقع .

وقد لخص الفقيد رسالته أجمل تلخيص فى ثلاثة أبيات من الشعر أنشأها ثم جعلها زخرف داره وصورة شعاره ومرجع حديثه . وهى :

وقفت على إحياء قومى يراعتى … وقلبى ؛ وهل إلا اليراعة والقلب

ولى كل يوم موقف ومقالة … أنادى ليوث العرب ويحكمو هبوا

فإما حياة تبعث الشرق ناهضاً … وإما فناء وهو مايرقب الغرب

رحمه الله رحمة واسعة ، وعوض العروبة والعربية والإسلام من فقده خير العوض .

بين السياسة والأدب

(٢٢ يوليه سنة ١٩٣٤)

ينظر الأدب المصرى اليوم إلى السياسة نظر المغيظ المحنق لطغيان جلالها على جلاله ، وعدوان سلطانها على استقلاله ، وعبث أهلها بأقدار أهله عبث الهوى المتحكم بقوانين العدالة !

شهد الأدب فى هذه الأيام جنازة سياسية لمرقص حنا باشا ، وجنازة أدبية لأحمد زكى باشا ؛ وسمع بذكرى سياسية لسينوت حنا بك ، وذكرى أدبية لحافظ إبراهيم بك . فأما الجنازة السياسية والذكرى السياسية فكانتا مظهرين من مظاهر الوطنية الرائعة ، ومظاهرتين من مظاهرات القومية المتحدة ، شملت البلاد وشغلت الصحف وأرهفت الشعور وأرهبت الحكومة ونفست عن العاطفة العامة المكروبة . وأما الجنازة الأدبية والذكرى الأدبية فكانتا دليلين على هذا التواضع المسكين الذى يصاحب العلم ، وأثرين لهذا البؤس المهين الذى يلازم الأدب ، فشيع الأولى بعض الأصدقاء وبعض الخاصة ، ونسى الأخرى كل الأصدقاء وكل الخاصة ثم تهامست بين الناس الشكاوى ، وتعلقت من الأنصار المعاذير ، وتجاوبت فى الأقطار الشقيقة أصداء الأسف ؛ ونعى كاتب سورية الكبير صاحب (فتى العرب) على مصر عقوق الأدباء وجحود العباقرة.

وليس الأمر فى نظرنا مما يبعث الشكوى من السياسة ، ويثير السخط على الجمهور ، ويستوجب الملامة على مصر ، فإن السياسة تقوم بواجبها ، ولا تحول بين أحد وبين واجبه

السياسة عقيدة ، والعقيدة تحييها الشعائر ، وتنميها المظاهر ، ويقويها الحشد ، وينشرها الإعلان ، ويديمها التذكير ، وتجددها الدعاية .

والسياسة مبدأ ، وهذا المبدأ نفسه يريد أن يكرّم في ذكرى الميت كما كان يكرّم في وجود الحي ، وما حالات السياسي إلا مناسبات يُهتف فيها بفكرته لا بصورته .

والسياسة جهاد ، والجهاد يدعو إلى البطولة بتكريم البطولة ، وإلى التضحية بتعظيم التضحية .

والسياسة حكومة وخصومة ، ومن حق السياسة المكظومة أن تتلمس الحرية في كل فرصة ، وتتنشق الراحة من كل فرجة .

والسياسة جاه وقوة ، ومن طبيعة النفوس أن تشايع الجاه وتبايع القوة ابتغاء لمنفعة أو اتقاء لمضرة .

والسياسة بعد ذلك كله الشعب ، فرجالها زعماؤه ، وضحاياها شهداؤه ، ومواقفها مواقفه .

أما الأدب فلا نصيب له من بعض ذلك . ليس عقيدة للعامة ، ولا فكرة للأمة ، ولا ساحة للنفوس المجاهدة ، ولا مطمعة للعيون الرغيبة ، إنما هو فن الخاصة وبغية الرجل المثقف . فإذا لم يحفل أهله بأهله ، ويبنوه جمهوره بفضله ، ذهب أثر رجاله من الدنيا كما تذهب أنغام موسيقى الجيش بعد المعركة ، ثم لا يبقى الفخر والذكر إلا للجند والقادة .

* * *

الأدباء هم الملومون على هذا العقوق ، والصحفيون هم المسئولون عن هذا

الإهمال وشهوة المنافسة وعداوة الحرفة هما اللتان تفسران البواعث على هذا والدوافع إلى ذاك . والأديب الذى ينفس على أخيه محنة الوجود ، يجد من الأولى أن ينفس عليه نعمة الخلود . والأدب فى الحياة وفى الممات شر على صاحبه ، فإنا لانزال نشهد كل يوم معارك الأهواء بين الأدباء الأحياء تقطع وشائج الصداقة ، وتخفى دلائل النبوغ ، وتزيف حقائق الفضل ، ثم لاتترك منهم للتاريخ إلا أشلاء منكرة من الأدب والفن والخلق . ولا نزال نسمع من يذكر المنفلوطى بالسوء لأنه اصطنع الأدب الباكى ، كأن الكاتب يداً فى تركيب مزاجه وتكوين بيئته وتأليف ظروفه وتثقيف ملكاته ! كذلك لانزال نسمع من يشدد النكير على شوقى لأنه عالج فى بعض عمره شعر المديح ، كأنه نشأ فى ظل الدستور وعهد الديمقراطية وعصر الجماعة ! وكأنه كان يمدح عباساً لأن المتنبى كان يمدح سيف الدولة !

* * *

نعم كان أمس ذكرى حافظ ، وكان أول أمس ذكرى سينوت ! فهل رأيت بعينيك وفاء السياسة وجحود الأدب ؟ إن حافظاً رحمه الله مايزال يقتضى أصدقاءه الخلص حفلة التأبين وتأليف الكتاب الذى وعدوا الناس به ، فهل من المعقول أن نطلب من شعبه المغلول إحياء الذكرى وإقامة التمثال !

ولقد كان من جرائر نحسه الذى ظل بعد موته حياً يعيث ، أن مواهبه السامية فى الشعر والبلاغة قد أخذ ينالها النسيان وتشوهها الغفلة ، فما يذكره الناس حين يذكرونه إلا بحلاوة النادرة وبراعة (النكتة) وحسن الحديث ، حتى خشينا أن يصبح فى الخاصة ما أصبح أبو نواس فى العامة !

فمن مبلغ حافظاً الصديق أن المودة بعده أصبحت لاتبقى على المحن ،

ولا تقوى على الأهواء ، ولاتثبت للظروف ، ولاتتجاوز كذب الحياة إلى صدق الموت . . . !

ومَن مبلغ حافظاً الأديب أن الأدب بعده أصبح داء كداء الضرائر يهيمن عليه المنافسة الكاذبة ، وتغض منه المحاسدة اللئيمة ، وتتحكم فيه الأغراض الحقيرة ؟

ومن مبلغ حافظاً الفنان أن فنه الجميل سيبقى على لؤم الإنسان وظلم الزمان رائعاً ماراع الجمال ، ساطعاً ما سطعت الشمس ، خالداً مادام الخلود .

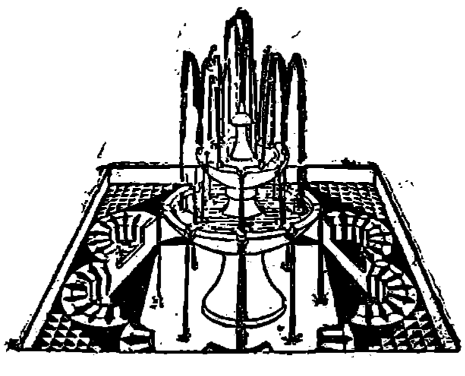

على الشاطئ الغريق

(٢٤ سبتمبر سنه ١٩٣٤)

هكذا الطغيان يانيل ! يجعل مصدر الحياة مورد هلكة ، ومنبع الخيرات حضيض بركة ، وأصل العمارة غاية دمار وخسر !

هذه شواطئك الخضر يانيل كانت بالأمس تتنفس بالنعيم ، وتتدفق بالخير ، وتترقرق بالجمال ، فأصبحت اليوم تختنق بالأخطار ، وتلتطم بالمخاوف ، وتهدد الحقول الغنية الخصيبة بالفاقة والجدب . وهذه مدنك البيض وقراك السُّمر كانت تتفيأ على ضفافك ظلال الخفض ، وترمق من خلال النخل أمواجك المرسلة المسلسلة وهي توقع بين القصب الأنِّ ألحان الثراء والغبطة فتهتز بك وتقدس لك ، فأصبحت تحشد في وجهك الجنود ، وتقيم بينها وبينك السدود ، وتضرع إلى الله أن يصرف عنها طغيانك وجورك ! وهؤلاء أبناؤك الوادعون كانوا يتعهدون بالعمل الدائب غرسك الزكي وثمرك العالي ، فيدفعون الحشرات عن القطن ، ويدرأون الطفيليات عن الذرة ، ويسلسلون في الحقول نضارك الذائب ، ويستقبلون بالشوق الآمل موسمك الآئب ، فأصبحوا وهم من هولك قائمون على رِجل لايستقر لهم جنان من الروع ، ولايطمئن بهم مجلس من الجزع . ثم أمسوا وهم محشودون بقوة السلطان على جانبيك ، من أسوان إلى مصبّيك ، يدافعونك مدافعة العدو ، ويكافحونك مكافحة الوباء ، ويكابدون في صد غارتك الجهد والجوع و (السخرة) ! ذلك والقرويات ينتظرون بالقلق الجازع الغرق المخشيّ ، ويرصدون الأهبة للهجرة المتوقعة ؛ فهن يجمعن المتاع ويشددن الغرائر ويلقين النظر الحزين على القطن المكتهل على أعواده ، والذرة الناشيء عَلَى سُوقه ! وهكذا الطغيان يانيل يروع السكينة في القلب ،

ويفزع العدالة فى الدولة ، ويجعل سلام الأرض وسلامة الناس لمشيئة فرد !

* * *

وقفت منذ أيام على شاطىء من شطئانك المنكوبة أرسل طرفى السائم فى تيارك الجارف ، ودواراتك المدومة ، ولججك الفائرة ، ثم أرده إلى السواحل النصانة والمزارع الغرقى وفكرى بين هنا وهناك يستقبل الذكريات القديمة ، ويستخرج المشابهات الأليمة ، فذكرت بهذا المنظر الحزن ترة[1] بينى وبينك موروثة ! فقد طغيت فى عام ١٨٧٨ على قريتى الصغيرة فاحتملتها هى ومئات من أمثالها كما يحتمل السيل الدافع أكوام الهشيم ! وكان قومى قد سمعوا بانفجارك فى (ميت بدر حـــــلاوة) على مقربة من سمنود وبيننا وبينها عشرات من الأميال ، ولكن ماءك الطاغى بحر هذا الفيض حتى انحدر فيه مجراك كله ، فلم يكن بين السماع والرؤية إلا ريثما حزموا المتاع وشدوا المطايا . ثم أدركهم فيضانك قبل الرحيل ، فتركوا الأرزاق وطلبوا النجاة . فحمل الكبار الصغار ، والطوال القصار ، والنساء الأطفال ، ومضوا يتحسسون الطرق تحت الماء ويتلمسون المصاعد فوق الأرض ، حتى بلغوا — وما كادوا يبلغون — ساحل (نهر شبين) وهو على بضع دقائق من القرية . وهنالك وقف المهاجرون على الشاطىء العالى بين البحرين[2] يودعون بالنظر العَبْران[3] قريتهم الهالكة ، والماء يغيب الدور ويبتلع الشجر حتى لم يبق ظاهرا منها إلا شرفات بيت الله وغرفات[4] بيت العمدة ثم تمزقوا فى البلاد يطلبون المأوى عند ذوى القربى أو عند أولى المودة حتى انحسر الماء فعادوا واستأنفوا عمـــــارة القرية فعادت !

---

(١) الترة : الثأر (٢) ماء الفيضان وماء النهر (٣) العبران : الباكى .
(٤) الغرفات : جمع غرفة وهى الحجرات العليا من البيت .

ثم لايزالون يؤرخون الحوادث بهذه (الغرقة) ، ويهوّلون فى أحداث تلك الهجرة ، ويستعدون كل عام لطغيان النهر ، قبل أن يئون أوانه بشهر ! وهكذا الطغيان يانيل يفرق الألاف ويشتت الوحـدة ، ويوهن بين الأوداء أسباب المودة !

* * *

يطغى الحـكم كما طغيت يانيل فيجرف السدود ويتعدى الحدود ويتخطى الحواجز ثم يدور بالتجسس ، ويفور بالإرهاب ، ويقذف بالتهم ، ويسخر قوى الدولة وموارد الأمة ومرافق الناس لسلطان أمره وطماح نفسه ونفاذ حكمه . وأصل الطاغية كان مثلك يانيل ، فياض اليد تقدسه الناس ، جارف التيار فاتبعه الشعب ، ثم ناصرته شهوة الخاصة ، وساعدته غفلة العامة ، فرد أهواء النفوس إلى هواه ، وشورى العقول إلى رأيه ، وحدود القوانين إلى إرادته ، وسطوة الجماعة إلى يده . ثم تفيض هذه القوى المتجمعة عن طاقة الفرد فيطغى ، ويزيد السلطان المفرط على غرور الإنسان فيتأله ! ويومئذ لاتسأل عن حدود الله كيف تُطمس ، ولا عن رسوم العدل كيف تُدرس ، ولا عن حقوق الناس كيف تُستَقَه ، ولا عن نظام الأمر كيف يتهدد ، ولا عن جموح الأثرة كيف يبغى ويتحكم !

وهكذا الطغيان يانيل يعطل منابع الخير ، ويبدل طبائع الفطرة ، ويقتل مواهب العقل ، ويغمر بالظلام آثار العلم ودلائل العقل وشواهد الـكفاية .

* * *

ويطغى الأدب كما طغيت يانيل فـــــلا يكترث للقواعد ، ولا يَعُوج بالأصول ، ولا يحفل بالمنطق ، ولا يأبه للخلق . ثم يرغى بالبذاء ، ويُزْبِد بالمراء ،

ويطفح باللغو . وكان الأدب الطاغى مثلك يانيل عذب الشمائل ، سهل الشريعة ، فروى الناس من نبعه ، وبَرَدَت أكبادهم على نداه . ثم انعكس المجتمع ، وانقلبت الأوضاع ، وفسدت المقاييس ، واستفاضت الدعوى ، تبجح الغرور ، واستهم الأمر ، فرأى سلاطة اللسان أجدى عليه من براعة الذهن ، والتواء الفكر أنفع له من سلامة القياس ، ولؤم الوقيعة أشد لسلطانه من كرم النفس ، وشهوة الجدل أقرب إلى قلبه من حب الحقيقة . وفى العهود التى تسطو فيها اليد ويستخذى القانون ، يَتَسلَّط فيها اللسان ويستكين المنطق ! ثم يكن لمثل هذا الطغيان تتكرم الأدباء عن مقام المسافهة ، ضناً بأخلاقهم على الغمز ، حساسهم ويإعلى المضاضة . وفى التاريخ السياسى والأدبى يانيل أمثال وأشباه ! ولكنها تنحسر كلها عن جوهر الحق ومحض الخير ولباب الجمال ، كما تنحسر أنت عن هذه السواحل والجزر والقرى بحكم الطبيعة ومشيئة الله .

يا هادي الطريق جُرت

(٥ نوفبر سنة ١٩٣٤)

ذلك هتاف الأمة الحيرى يتجلجل فى صدرها المكظوم كلما بهرتها الشدائد، وأجهدتها المفاوز، وفدحتها الضحايا، ووقف بها اللغوب، ودارت ببصرها فى معامى الفضاء فلا تتبين نَسَماً لطريق، ولا تتعرف وجهاً لغاية.

يا هادى الطريق جُرت!

ذلك صراخ القافلة المكروبة تخبط منذ طويل فى مجاهل الأرض وخوادع السبل وأدلاؤها الغواة يلتهمون زادها مع الوحش، ويقتسمون ما لها مع الغير، ويغتنمون ضلالها مع الحوادث، حتى قطعوها عن ركب الإنسانية وتركوها فى مطاوى التِّيه، تنفق جهدها على غير طائل، وتنشد قصدها من غير أمل

يا هادى الطريق جُرت!!

ومن يستطيع اليوم أن يعرف هذا الهادى بالنداء، أو يخصصه بالوصف، أو يأخذه بالتبعة؟ لقد تعدد الهداة فى هذه القافلة، واختلفت الشياطين بين هؤلاء الهداة، فتنازعوا الزعامة، وتجاذبوا الأزِمَّة، فأخرجنا هذا من مذهب إلى مذهب، وصرفنا ذاك عن مطلب إلى مطاب، حتى إذا انكشفت عن عيوننا أغطية الغفلة، وجدنا أنفسنا بعد الجهد الجاهد ندور حول الموقف الذى كنا فيه، أو نرجع إلى الموضع الذى فصلنا[1] منه!

على هذه القيادة المتضاربة الأفينة رجعنا القهقرى زهاء ثمانين سنة! رجعنا

---

(١) فصل من البلد فصولا: خرج منه.

إلى العهد الذى كنا نهدهد الدستور فيه على هوى السلطان المطلق ، وندرب القانون على مصارعة العرف الغالب ؟ ونعلم الشعب الأجير معنى الأمة المالكة ؟ وليتنا عدنا إلى ذلك العهد بأخلاقه ورجولته ! فقد كنا على قلتنا أعزة ، وعلى فاقتنا أعفّة ، وعلى جهالتنا أعلم بالخير وأفهم لمعنى المجتمع كنا نتواصى بالصبر ، ونتعاون على البر ، ونتهادى صنائع المعروف ، ونحفظ وحدة الأسرة بالحب ، وسلطان الدولة بالطاعة ، وحقوق الله بالورع فما كان منا من يخون الأمانة ، و يسرق الأمة ، ويتكىء على النقيصة ، ويتحمل على الخبث ، ويتجر بالدين ، ويتخذ عـــــدو وطنه ولياً ، ويعتقد خطة غاصبه شريعة !

ولكنا ، وا أسفاه ، بعد هبة مصطفى ، ونهضة سعد ، وجهاد خمسة عشر عاماً ، تمكن فيها السلطان ، واستبحر العمران ، وازدهر العلم ، وتولد النبوغ ، وتوحد الشعب ، وتكوّن الرأى ، نصاب بهذه النكسة الشديدة فنعود ناقضين ما أبرم ، خاسرين ما غنم ! ؟

* * *

اللهم إن النيل لا يزال يفيض ، وإن الوادى لا يزال ينبت ، وإن الشمس التى أنضجت أذهان الفراعين لا تزال تشع ، وإن الأيدى التى غرست أولى الحضارات على العدوتين[1] لا تزال تعمل ، فما بالنا اليوم يتقدم الناس ونتأخر ، وتتحرر الشعوب الضعيفة ونحن لا نتحرر ! ؟

دع عنك ما يقال من كلـ — قد الاستقلال وتجنى الدول ،

(١) العدوتان : شاطئا الوادى .

فإن ذلك كله عرض من أعراض العلة الدخيلة الوبيلة وهى انحلال الخلق . وانحلال الخلق فى دهرنا الحديث داء جرثومته أننا عنينا بالتعليم قبل التربية ، وبتعليم الابن قبل تعليم البنت فكان لنا من ذلك الوضع للقلوب رجال يجرون فى عِنان مع علماء الغرب[1] ، بل ربما طاولوهم فى حذق اللغات وتلون المعرفة ، ولكن كثيراً منهم يخلون من أخلاق الرجولة خلو البيت من الأم الصالحة ، والمدرسة من المربى القادر ، فتخونهم الكفاية عند التطبيق ، وتخذلهم الشجاعة عند العمل ، ويفارقهم الضمير عند الواجب ، فلا يبقى إلا الغرائز الحيوانية التى تثب على أموال الناس ، وتعتدى على حقوق الشعب ، وتستخدم السلطان العام فى مساعدة الصديق ومكايدة العدو ومناوأة الخصيم ؟

وليت غريزة الحياة بقيت فينا على حال الفطرة ! إذن لعلمنا ما تعلم النمل من قوام العمل ، وفهمنا ما تفهم النحل من نظام الجماعة ، وسرنا على نور الله لا نعمه فى ظلام ولا نسدر فى غواية .

* * *

إن بعض الأمم الإسلامية أقل منا عدداً وأرق ثروة وأضيق ثقافة وأحدث مدنية ما فى ذلك شك ، ولكن غرائزها الأصيلة لم يزيفها ذل الرق السياسى ، وخلائقها النبيلة لم يفسدها زور المدنية الوافدة ، فتمردت على الضيم ونمنعت على الأحداث ، وقلمت الأظفار الناشبة فى استغلالها ، وقطعت الأيدى الطامعة فى استغلالها ، ومشى أبناؤها الأباة على هدى ماضيهم المشرق لا يستكينون لمشورة حايفة ، ولا يستنيمون لمعونة أجنبى ، ولا يستجيبون

---

(١) جرى معه فى عنان ساواه .

لو ساوس الأطماع فى مرافق الأمة ومناصب الدولة ، حتى انخزلت عنهم التهم ، وغفلت عنهم الفتن ، واستوثق لهم الأمر أو كاد .

ذلك ياقوم ما يهدى له منطق الطبع وصوت التاريخ وعبقرية الجنس . أما هذا الذى نحن عليه فلا يمكن أن يؤدى إلا إلى ما نحن فيه . فتداركوا إفلاس المدرسة وفشل السياسة وفوضى الحكم ، بإيقاظ الضمائر الغافلة ، واستخدام الكفايات المعطلة ، واستلهام هذا الشعب المجيد الذى عودته عناية الله أن يسوّق ولا يضل ، وأن يعذب ولا يذل ، وأن يحارِب ولا يستكين .

داء الوظيفة

(١٢ نوفبر سنة ١٩٣٤)

قال وهو يقلب كفيه من الهم ويعض على يديه من الغضب

سقط الوزير سقوط الورقة الجافة قبل أن يمضى القرار بالوظيفة ، فهل رأيت مثل هذا الحظ المتخاذل والقدر العابث ؟ . . .

فقلت له : هون عليك يا بنى ولا تسلط على نفسك أساك . إن معك الشباب القادر ، والأمل الطموح ، والثروة المساعدة ، ودبلوم الزراعة التى تفتح لك كنوز الأرض ، وتدر عليك أخلاف السماء ، وفى القرية متسع لأمثالك ممن يحيون مواتها ، ويجددون حياتها ، ويُفيضون على أهلها نعمة العلم وخير المدنية ونعيم الحضارة . فلم لا تستأجر مزرعة فى بعض دوائر الأمراء تجرب فى استغلالها كفايتك وإرادتك وحظك ؟ إنك إن فعلت عصمت نفسك من رق الوظيفة ، وخلقك من فتنة الحكومة ، وعلمك من آلية العمل ، ورزقك من تحديده بالمرتب ، وقدرك من قياسه بالدرجة .

فأجاب وفى عينيه سهوم العجب من هذا الرأى : مالى أدفع بنفسى فى هذه المغامرة المجهولة ، والوظيفة تضمن حاضرى بالمرتب ، وتؤمّن مستقبلى بالمعاش ؟ والقليل المتصل خير من الكثير المتقطع ، والموضع المتطامن المتماسك أصلح للقرار من الرفيع المترجح ؟ !

فقلت له : ذلك كلام لاكته الألسن حتى تفه ، وتقبلته الآذان حتى سمج . ولقد كان له مساغه وبلاغه يوم كانت المدارس لتخريج الكتبة والحسبة للحكومة . فأما اليوم وقد امتد أفق التعليم ، واتسع نطاق المنهج ، وانفسح مجـــال

العمل ، وتحققت الحرية للفرد ، وتيسر الارتجال للشباب ، وحان الحين ليسترد المصريون جماعات ووحداناً مرافق بلادهم وموارد أرزاقهم من الأجانب ، فإن الإخلاد إلى المقاعد الحكومية إخلاد إلى العجز واطمئنان إلى الهون وانخزال عن تحرير الوطن .

قال : ولكن فريقا من الشباب ارتجلوا بعض الأماني الاقتصادية الجماعية في الزراعة والتجارة والملاهي ، فوردوا عن خسارة وصدروا عن فشل .

فقلت إن هؤلاء ثاروا عن حرارة وقتية ، وثاروا عن ريح عابرة ، فاعتسفوا الأمر قبل أن يخبروه ، وزاولوه دون أن يفرغوا له ، وأخطأوا تقدير المنافسة الأجنبية فأخطأهم التوفيق . ومالك تقيس أمرك بهذا المقياس المختل وأمامك المقاييس العليا تتواثب إلى عينيك من كل مكان ! ألم تر إلى اليونانى أو الطليانى كيف يفد عليك من غير رأس مال ولا شهادة جامعة ولا توصية وزير ولا تعضيد جمهور ولا تحميس صحافة ، فيحترف وضائع الحرف ، ويحتمل مكاره الفوز ، ويتفرع معالى الأمور فى روية وصبر ، حتى يبلغ به نشاطه أن يدير عمارة المدينة ، ويصرف تجارة القرية ، وينتج زراعة العزبة ، فيبيع عليك غلة أرضك ، ويتعبدك بربا مالك ، وأنت جالس جلسة الأجير على مكتبك الحقير فى دار الحكومة تكنس لنعليه الطرق ، وتشق لعينيه الحدائق ، وتكفل لمتاجره الأمن ، وتدبر لمزارعه الماء ، وتتقبل على كل ذلك دغل الصدر وقسوة اللسان وقحة النظر !

* * *

رأى صديقى الفتى أن لهجتى لا تلائم همه الغالب ، وأن منطقى لا يساير منطقه اليائس فتولى عنى غير راض ولا مقتنع ، وتركنى أحدث نفسى ،

وأقارن بين يومى وأمسى ، فأجدنى بين عملى المقيد الذى انصرفت عنه ، وبين عملى الحر الذى انصرفت إليه ، أشبه بالسجين المغلول يعمل برأى غيره ولحساب غيره . يتحرك ولا يسكن إلا بأمر ، ويسير ولا يقف إلا فى نظام . وهو يأكل حين لا يشتهى ، وينام حين لا يريد ، ويستيقظ حين لا يحب ، وتتعطل ملكاته حتى يصبح كالإنسان الصناعى : قوة محركة وآلة . ثم يدرك السجين لطف الله فتتفكك عنه السلاسل ، وتتفتح له الأبواب ، فيجد عقله فى النور ، وخاطره فى الطبيعة ، وحريته فى الجو ، ووجوده فى المجتمع ! فينبت الريش الناسل ، ويخفق الجناح المهيض ، وتتكشف الآفاق الجديدة !

* * *

إن أولى الناس بالرثاء لأولئك الذين سُلبوا جوهرة الحياة وحرية العيش ، وعاشوا فى ظلام الوجود مكبين على مكاتبهم ، مغلولين عن الحركة ، مكمومين عن الشكوى ، يستقطرون الرزق من شق القلم ولا يصيبون من أجورهم سداداً من عوز ولا غنى من فاقة

يدخل الموظف الديوان وهو ابن عشرين ، فيودع عاماً ويستقبل عاما حتى يأخذ بمخنق الستين وكأن لم يحدث فى العالم شىء ! يختلف الليل والنهار ، وتتبدل الأحوال والأطوار ، وهو على مكتبه الضيق فى غرفته المظلمة ، يعمل ساعة ويجترّ أخرى ، دون أن يشعر بدوران الفلك ، ولا أن يفطن إلى حركات العالم ! يدخل الديوان وهو طرير الشارب ، أثيث الجمة ، ريان من الشباب والقوة والأمل ، ثم يودعه وهو مخدد الوجه ، أشيب الشعر ، متداعى الجسم ، فقير من المنى والذكريات والمال ، لا يصلح إلا أن يكون عموداً فى مسجد أو منضدة فى قهوة ورُبما أقصدته[1] المنون لانقطاعه بغتة عما ألف من عادة

(١) أقصدته المنون : رمته فلا تخطئه .

شديدة وحياة رتيبة وأعمال واحدة ، فى ساعات لا تختلف ولا تتبدل .

* * *

أيها الموظفون ! إن لابتغاء الرزق موارد غير هذا المورد الناضب ، وإن لخدمة الأمة مواقف غير هذا الموقف الكاذب . فتجافوا بأنفسكم عن هذه المقاعد ، فإنها مواطن الذل والملق ، ومساكن الفقر والجهل ، ومكامن الخمول والموت . واقرأوا على أبوابها ما كتبه « دانتى » على أحد أبواب الجحيم :

« قوضوا حصون آمالكم ، وأضمروا اليأس من مآلكم ، أيها الداخلون ! »

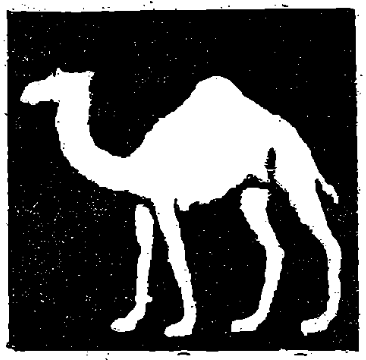

عهدٌ وأيّ عهدٍ!

(٢٦ نوفمبر سنة ١٩٣٤)

كان عهداً كرعدة الحمى أو كرجفة الزلزال، أخذ هذا البلد المسكين زهاء أربع سنين فكدّر من طبعه، وغيّر من وضعه، وبدد من نظامه!

هل تخيلتَ الجنة وقد اتسق فى ظلالها الخفض، واطّرد فى مياهها النعيم، وانبلج فى أجوائها الأنس، وانبسط على أرجائها السلام، يقتحمها شياطين الجحيم عَنوة، فيجعلون ظلها حَروراً، وماءها مُهلا، وأنسها وحشة، وسلامها فتنةً؟ ذلك مثل النيل وواديه قبل هذا العهد الذميم وبعده!

كانت البلاد تسير مع الزمن إلى الأمام، وتتدرج مع الطبيعة فى النمو، وتتوثب مع الحق على العدو، فنجم فيها ناجم[1] من الشر اعترض طريقها اعتراض اللص، ثم أثار فى وجوهها الرعب فانكفأت إلى الخلف، وامتحن قلوبها بالبطش ففزعت إلى الصبر، وسلط على مُترفيها المنى فقرّوا علَى الرّيب؛ وراح الذئب المقنّع[2] أو الطاغية الكاذب يعيث فى كل ديوان، ويفتك فى كل مكان، ويختل فى كل جماعة، حتى عطّل سلطة الأمة، وأبطل سطوة القانون، وقوض ركن الفضيلة.

* * *

تناصرت أبالسة الظلم والظلام على مشاعر هذه الأمة فتركوها من الدسائس

---

(١) رئيس الحكومة فى ذلك العهد.

(٢) ناظر الخاصة الملكية يومئذ وقد كان يضع إصبعه فى كل عمل من أعمال الدولة من غير حق.

والهواجس والأوهام في مثل الدجى الحالك . تقتل نفوسها ويقولون إنها تجاهد ، وتركب رءوسها(١) ويعلنون أنها تسير ، وتضطرب في شقائها اضطراب الذبيح ويوهمون أنها تحيا ثم رصدوا خزانة الدولة وجنودها وشُرَطها وموظفيها لإقرار الشعب على الضيم ورياضته على الاستكانة ، فنسى الجندي أنه حُشد لمدافعة العداة ، والشُّرطي أنه رُصد لمراقبة الجناة ، والموظف أنه أعدّ لتصريف الأمور ؛ ووقفوا جهودهم على قطع هذا الشارع فلا يعبره عابر ، وحصر هذا البيت فلا يزوره زائر ، وتعهدِ هذا المخالف فلا تُخلفة بر ، وتعقُّب ذاك المخالف فلا يفلته أذى !

ثم انتشر الوعيد والوعد في جنبات النفوس يستنزلانها عن الخلق ، ويفتنانها عن العقيدة ، ويغريانها بالعداة ، ويحرضانها على الصداقة ، حتى اشتبه الوفاء ، واتهم القضاء ، ومرضت الأهواء ، وانقطعت الأسباب بين المرء وصاحبه ، وانفرجت الحال بين الرجل وواجبه وكل ذلك لتثرى جماعة ويتسلط فرد !

* * *

لا لله ولا للوطن كانت هذه المحنة ! إنما كانت نزوة رعناء من بغي الإنسان على الإنسان ! والناس لا يزالون كما كانوا في الدهر الأول يسرقون ليأكلوا ، ويقتلون ليعيشوا ، ويستعبدون ليسودوا ، ويستبدون ليحكموا . لا يحمى الفردَ من الفرد قانون ، ولا يعصم الأمة من الأمة معاهدة ! أما الدين والمدنية والعلم والأدب والفن والأنظمة فغطاء ذهبي على الناب ، وطلاء وردى على المخلب !

---

(١) ركب فلان رأسه : اعتسف الطريق فضل .

على أن ضعف الشعوب خدّاع ، لأنه قُوًى متفرقة في نفوس متفرقة ، فإذا ما تجمعت ذات مرة حول القوة الزعيمة الملهمة ، كانت هي الرجفة التي تهز الأرض من حين إلى حين ، وتنقل التاريخ من فصل إلى فصل !

ولكن ابن آدم سهوان . يُذهله حب السلطان عن صوت العبرة كما يذهله غرور الحياة عن يقين الموت ! فلا يفيق من سكرة الدنيا إلا بوكزة الداء ، ولا من سَوْرة الحكم إلا بسقطة الوزارة !

* * *

سيتحرّج التاريخ من تسجيل هذا العهد وإن كان قد سجل كثيراً من أمثاله ، لأن المظنون أن العالم يتقدم ولا يتأخر ، ويترقى ولا ينحط ؛ فكيف يجد للمعاذير لقطعة من الأرض يعزلها سارقوها عن الوجود الحاضر ، ثم يحاولون أن يضربوا الأسداد بينها وبين الحرية والديمقراطية ، فلا ترى سيادة هذه ولا تسمع أناشيد تلك ؟ ولكن التاريخ لاينسى — وإن نسى الناس — أن النظام العالمي جاذبية تجذب المتخلف ، والعدل الإلهي صيحة تسمع الأصم ، وللشعب الوديع حيوية يقظى تعود بالمبطل صاغراً إلى الحق ، وتنوء بالحق السليب موفوراً إلى أهله !

* * *

حنانيك يارب ! لقد تألمنا حتى أشفق الألم ، وصبرنا حتى جزع الصبر ، وضحينا حتى أصبحنا كلنا ضحايا ! فعسى أن يشاء عدلك

وتريد رحمتك أن نقاسي مثل هذا العهد ، وألا نعاني مثل هذه التجربة ، وألا نكابد مثل هذا البلاء !

* * *

الآن أصبح الليل ، وانجلت الغمة ، وتهتكت سدول الظلام عن السماء الواعدة والضياء الهادي والأفق الممتد والطريق القاصد ! [1] فهل ترتد الشياطين إلى قماقم سليمان ، وترجع الخفافيش إلى حوالك الغيران [2] ، ويستقيم القوم على عمود رأيهم حتى يلحقوا الناس ويدركوا الغاية ؟

(١) اشارة إلى انقضاء هذا العهد بتغير الوزارة .
(٢) الغيران : جمع غار .

دارُ تبلى

(٣ ديسمبر سنة ١٩٣٤)

دارٌ تبلى ، وكانت إلى الأمس القريب دار الأمة ، عليها نزل وحى الوطنية ، ومنها انبعث صوت الحرية ، وفيها انبثق فجر النهضة ، وبها ولد معنى الاستقلال .

كانت ملجأ الخلافة فى الآستانة ، ومفزع الخديوية فى القاهرة ، ومخافة الاستعمار فى لندن ، ومثابة الإسلام فى العالم كله . تجمعت فيها للأمة رغائب ، ونشأت بها للشباب آمال ، وخفقت عليها للجهاد (ألوية)[1] وسمعت مصر فى أفنيتها للمرة الأولى أصوات بنيها الخُلَّص يهتفون باسمها ، ويهزجون بمجدها ، ويزفرون من الحفيظة لاستعبادها ، ويستنجزون الغاصب المحتل وعده المطول وعدله الفاجر ، ثم كانت (عكاظا) للبلاغة الخطابية ، و (فورَم)[2] للمساجلة السياسية ، و (كعبة) يتجه إليها أبرياء الصدر من مخامرة الوطن ، وأنقياء الصحيفة من ممالأة العدو .

تلك هى دار اللواء ، ونادى مصطفى كامل ،

تمر اليوم بمكانها من شارع (الدواوين) ، فتجد هذا الأثر الضخم والتاريخ الحافل تعفّيه الأحداث والنوازل ! كأنها لم تكن فى عهدها الدانى قلب مصر النابض ، وعزم نشئها الناهض ، ومنارة أمرها المادية ، أتى عليها أتِىُّ البِلى فنكرت أعلامها وأخفتَ صداها ، كأنها لم تنفض عن الوادى غبار

---

(١) الألوية : ثلاث جرائد كان يصدرها مصطفى كامل بالعربية والفرنسية والإنجليزية .

(٢) الفورم Le Forum ساحة فى روما كان يجتمع فيها الشعب للمناقشة فى المسائل العامة .

الخمول ، ولم تمسح عن الأجفان فتور الوسن ، وكأن مصطفى لم يعجل على أركانها أول صيحة بالجلاء ، وأول رغبة فى الدستور ، وأول غضبة للحرية .

ولكن الزمن الدوار القهار يحطم كل ما برأ الله وصور الناس من شخص وشىء ، فلا يقوى على بأسه إلا الفكرة ، ولا يخلد على رغمه إلا العقيدة .

* * *

ألا فاسلمى على رغم هذا البلى يادار ، فإن لك فى كل قلب آية مسطورة ، وفى كل تاريخ صفحة منشورة ، وفى كل جيل نشيداً يعطف القلوب إلى الحق ، ويلفت العيون إلى النور ، ويهدى النفوس الشاردة إلى الغرض الأسمى والسبيل القصد

ومن الذى ينسى ومضة الروح الإلهى التى تركت ذلك الجسد الضارع يفور فورة الجبارين ، ويثبت ثبات الرسل ، ويقوم فى وحدة النبى وإيمان الشهيد ليجاهد الإشراك بمصر والكفران بالأمة ، ويقارع بالحجج الثائرة الملزمة طغيان إنجلترا وهى يومئذ علة العلل ودولة الدول ؟

أم من الذى ينسى خفقة التضحية القدسية التى جملت ذلك الشباب العليل يحرك ساكن قومه بوجيب قلبه ، ويضىء ظلام يومه بوميض روحه ، ويذكى خمود عزمه بحرارة دمه ، ثم يزهد فى المال والجاه والحكم زهادة الحكيم فيحيا للمبدأ والفكرة ، ويموت للقدوة والعبرة ؟

* * *

« على إخلاص مصطفى وإيثار فريد وصدق سعد تسير اليوم هذه القافلة ».

حتى إذا كذب الرائد ، ومكر الدليل ، وخامر الحادى ، انبلج فى جوانب الطريق شعاع من هذه الأرواح البرَّة ، فيجلو العمى ، ويكشف الضلال ، ويفضح المكيدة !

وقد ماتوا رضوان الله عليهم ميتة الأنبياء ، لا (عمائر)(١) تحجب سماء المدن ، ولا (دوائر) تشغل أرض القرى ! لقد ملكوا وما تركوا ! إنما ورثونا حفظ الكرامة وإن أرهقنا الظلم ، وطلبَ الحرية وإن أجهدنا الطغيان ، ورعاية الحق وإن خدَعنا الباطل !

كانت قافلتنا تسير باسم الله يادار ! تسير على ضوء من مبادىء الزعماء لا تخبو ولا ينكسر ، فأصبحنا ذات يوم وإذا سيرها يثقل ونظامها يضطرب ، فالتفتنا فإذا عصبة منا تسربلوا بالنار وتدرعوا بالحديد ، ثم ولوا وجوههم إلى الخلف ، وأخذوا بمؤخر القافلة جذباً وجراً حتى لتكاد عواتقهم تهى ، ومفاصلهم تنسرق . وانبثَّ فى الركب دعاة الرجعية وسماسرة الطغيان ، يُلَبِّسون عليه الأمر ، ويوهمونه أن هؤلاء هم القادة ، وأن هذه هى الوجهة ، وعلى تلك الحال الأليمة لبثنا أربع سنين يتجاذبنا الوراء والأمام ، ويتنازعنا النور والظلام ، حتى ضعضع الصبرُ الأبىّ وثاقة الطاغية فخرّ صريعاً ليديه وفمه(٢) ،

* * *

تقوض صرح الظلام والظلم أول أمس يادار ، فانتشر ما كان يُحجب من نور ، وسرى ما كان يُصد من نسيم ، وعدنا إلى مهج الحياة شامتين بمن هوَوا من أعاليه وثووا تحت أنقاضه ؟

(١) العمائر جمع عمارة وهى الدار ذات الطبقات الكثيرة تبنى لتؤجر والدوائر جمع دائرة وهى ديوان المالك الكبير يدير فيها أمور أطيانه وعقاره .

(٢) إشارة إلى سقوط ذلك العهد الذى وصفناه فى المقال السابق .

لقد أبلاه عدل الحوادث كما أبلاك ظلمها يادار ، وستبقى على الأبد آثارك المعنوية وأثاره ، فأما آثارك فتبقى بركة على الناس ، وحجة على البغى ، وتفسيراً لمعنى البطولة ؛ وأما آثاره فستبقى لعنة فى فم الدهر ، ودمامة فى وجه التاريخ ، ووضاعة فى كبر الإنسانية !

ألا فاسلمى على رغم هذا البلى يادار ، فإن لك فى كل ذهن صورة ، وفى كل نفس ذكرى ، وفى كل غمرة من غمرات الجهاد روحاً تمسك القوى ، وتلهم الصبر ، وتعين على مخاوف الطريق ،

إلى القرية يا أبك

أهلاً وسهلاً بعلى بك ، كيف حالك ؟ آنست هنا
وأوحشت هناك ، منذ كم سنة لم أرك ؟ نعم أكثر من ست
سنين ، . . .

وكان هذا اللقاء المفاجىء فى ميدان إبراهيم باشا أمام قهوة (النيوبار) ، فمال بنا الشيخ فى حماسة الشوق ودهشة المفاجأة إلى مجلس من مجالس هذه القهوة الحاشدة ، ثم أخذ يسألنى عن أمرى حتى نقع نفسه ونضح وده . فلما طال بنا نفَسُ الحديث عطفته مترفقاً إلى عمره المفقود ، فذاكرته عهود القرية أيام الشمل جامع والحبل واصل والدار نادية[1] ، فكانت أرسال[2] هذه الذكَر — وأسفاه ، — ترتد عن شعوره الأصم ارتدادَ الأمواج عن صخور الساحل . لقد خفَت الماضى فى ذاكرته خفوت المحتضر ؛ فرجعُه البعيد لايكاد يبين إلا فى نظرة قصيرة من عينه المتفخة ، أو نفثة طويلة من رجيلته المكركرة .

لشدَّ ماصنعت المدينة بهذا الرجل ! كان مكتنز اللحم فترهل ، ومشبوب اللون فانكفأ ، وخفيف الحركة فثقلته الأمـــــلاح ، وطليق المشية فقيدته العلل . ثم كان يعقد مجلسه فى القرية فيكون المجلس فى جلالته ديوان عرش ، وفى مهابته جلسة محكمة ، يلقى النظرة متقلة بالدلال فتأخذها العيون وعداً

---

(١) ندا القوم ندوا : اجتمعوا والإسناد إلى الدار مجاز ،
٢) أرسال : جمع رسل بالتحريك وهو الجماعة .

لايخاف ، أو وعيداً لايشفق ، أو عاطفة لاتكذب ويرسل الكلمة موقرة بالمعانى فتلقفها الآذان أمراً لا يرد ، وقانوناً لايخالف ، ورأياً لاينقض ، فأصبح فى زحمة القاهرة قطعة من الوجود المتطفل ، يتسكع فى الطريق ، أو يتقمّع[1] فى القهوة ، أو يتمطى فى البيت ، وليس له رأى فى أمور الناس ، ولا أثر فى جهاد العيش ، ولا شأن فى طبقات المجتمع وكان بليل اللسان حافل الخاطر إذا تحدث إلى الفلاحين فى شؤون الفلاحة ، فلما حاول مناقلة المدنيين أحاديث السياسة والأدب والاجتماع ، قعد به الجهل عن مجاراتهم ، فغلب الوجوم على نفسه وختم العى على فمه ،

* * *

تخاذل حديث (البك) واسترخى حتى انقلب إلى أنة موجعة وشكوى أليمة ، قال وهو يطلب من الغلام جمرة ترسل النار فى الترجيلة الخامدة : منذ حبّب إلىّ أبنائى وهم فى المدارس كما تعلم أن أنقل البيت من القرية إلى الحاضرة ، انقلب وجودى رأساً على عقب ، فأنا أحيا كالغريب ، وأعمه كالشريد ، وأمشى كالتائه نقصت غلة الأرض لاتكالى فى زرعها على الناس ؛ وزادت كلف العيش لاعتمادى فى الوجاهة على السرف ، وفدحتنى أعباء الدين فأنا من شواغله فى غصة لاتساغ وكربة لا تنسل ؛ وفسدت علىّ سياسة الأسرة فالبنون لايريدون العمل فى غير الحكومة ، والبنات لايرغبن الزواج فى غير المدينة ، والزوجة تأبى إلا أن تكون كزوجة فلان باشا : لها فى كل يوم ملهى ، وفى كل أسبوع وليمة ، وفى كل شهر « مودة » ، وفى كل عام مصيف . فأنا ياصديقى

---

(١) يتقمع : يطرد الذباب من فراغه وبطالته .

مذبذب العيش بين هنا وهناك لم أستفد مزايا الحضر من اتساق الأمر واطراد الحياة ، ولم أستمد محامد الريف من سعادة النفس وبساطة العيش وخلوص الفطرة وصحة الدين وسلامة المروءة فهل تطمئن على هذه الحال نفس ؟ وهل تشرق فى هذا الوجود سعادة ؟

فقلت له وقد تمثل فى خاطرى ما دهى القرية وأصاب الأمة من أمثال هذا الرجل : لو أن سراة الريف استقبلوا من أمرهم ما استدبروا لما كانوا على أنفسهم شراً وعلى قراهم جناية فإنك لو بقيت فى قريتك ، وقمت كما كنت تقوم على تدبير ثروتك ، وعاد بنوك من الجامعة إلى القرية فاستثمروا علمهم فيها ، ونشروا مدنيتهم وثقافتهم بين ربوعها وأهليها ، ورجع بناتك من المدرسة فبثثن فى نسائها النظام والتدبير والذوق بالإرشاد والقدوة ، ثم فعل غيرك ما فعلت ، إذن لوَفُر فيها الرزق ، ورف عليها الأمن ، وانتقل إليها العلم ، وتذوّق أهلها المساكين طعم الحضارة ونعيم الصحة ولذة المعرفة ، وشعرت أنت فى هذه البيئة شعور الغبطة والرضا ، لأنك أعنت فريقاً من ضعاف الناس على أن ينعموا بحياتهم ويقوموا بواجباتهم على الوجه الأكمل .

ولكن أكثر القرويين متى ارتجع[1] كثيراً من المال ، أو شدا قليلا من العلم ، أغلق (المضيفة) وخرّب (الدوّار) ، وخلّف القريةَ للفاقة والجهالة والمرض .

فلولا أشعة من نور الأزهر الخالد تنتشر فى هذه القرى فتدعو إلى الله

(١) ارتجع : ربح .

وتهدى إلى الحق ، اظل الريف وساكنوه على الحال التى عثر فيها التاريخ بطلائع الإنسان .

* * *

أنت يا سيدى لا تزال عميد أسرة مجيدة لها فى سياسة الأمة صحائف مشرقة ، وفى ثروة البلاد جهود موفقة ، فافزع إلى ماضيك ، واستصرخ عزيمة الجنس فيك ، واستعد سلطانك عَلَى أهلك وبنيك ، ثم عد إلى مسقط رأسك ومهبط نفسك ومنبت عواطفك ومنشأ هواك ومرتع صباك وموطن مجدك ومدفن جدودك ! عد إلى القرية يا بك ! !

الراديو و "الشاعر"

(٣٠ ديسمبر سنة ١٩٣٤)

ألفت منذ سنين أن أزور شهر رمضان فى ربوعه الأصيلة ومغانيه الباقية ومن لم يشهد رمضان فى حى الحسين ، أو فى حى الحسينية ، أو فى أمثالها من الأحياء القديمة لم يشهده فى قداسته المهيبة وجلالته الباهرة !°

كنت فى إحدى لياليه الزهر أخرج متى استيقظت المشاعر من فترة الصيام وسكرة الطعام ، فأعبر القرون العشرة التى تفصل بين قاهرة الملك فؤاد وقاهرة الخليفة المعز ، فأجد رمضان العظيم قد نشر بنوده وأعلن وجوده فى كل شارع وفى كل منزل ! فهو خير يتدفق فى البيوت ، وبشر يتهلل فى الوجوه ، وأنس يتطلق فى المجانس ، وذكر يتضوع فى المساجد ، ونور يتألق فى المآذن ، وسمر يتنقل فى الأندية ، ونفحات من الفردوس ترطب القلوب وتلين الأكباد وترف على ما ذوى من العواطف .

فالحوانيت سامرة وإن لم تبع ، والمصانع ساهرة وإن لم تنتج ، والأبهاء عاطرة بحديث الأحبة حتى نصف الليل ، والأفنية عامرة بذكر الله حتى أول السحر . أما كثرة الناس فقد أخذوا مجالسهم من قهوات الحى وباتوا ينضحون « مزاجهم » الظامىء بالفناجيل الروية ، ويشققون أحاديثهم الطلية بالنكات المصرية ، ثم يستمعون فى خشوع العابد وسكون العاشق ولهفة الطفل إلى القصاص أو الشاعر ، وقد طوفت به أشباح القرون ، وغممت

في صوته أصداء الزمن . يتربع في صدر المكان منصة عالية من الخشب العتيق وهو في سمته وهندامه ، ولهجة كلامه وطريقة سلامه نموذج العامي الأديب ، ومثال الحضري المثقف حفظ كثيراً من الأشعار فاكتسب ظرف الأدب ، وروى صدراً من الأمثال فاكتسى وقار الحكمة ، ووعى طائفة من الأخبار فاتسم برقة المنادمة . وهو إلى ذلك بارع النادرة ، دقيق الفطنة ، عذب المفاكهة ، حاضر الجواب ، يؤدي إلى هذا الجمهور الغرير الساذج دعوة الواعظ وأمانة المعلم ورسالة الأديب .

ها هو ذا قد فرغ من احتساء القهوة ، وجباية النقوط ، ومبادلة السامع المعتاد جميل التحية ، ومسارقة الزائر الممتاز رغيب النظر ثم أخذ يحتفل بالقصص أو الإنشاد ، فاحتبست قهقهة (النكتة) ، وانقطعت كركرة (الجوزة) ، وانتشرت سكينة الجد في القهوة ، واتجهت عيون الجمع إلى المنصة ثم رن في سكون القوم ذلك الصوت العريض المتزن يرسل الكلام والأنغام في ترجيع مؤثر وتقطيع معبر وتنويع مطرب فهو يفخم ويرقق ، ويقسو ويلين ، ويأنف ويستكين ، ويثور ويهدأ ، ويسخط ويرضى ، ويتدلل ويتذلل ، ويتحمس ويتغزل ، كأنه في تعاقب أولئك كله على لهجته وهيئته الأوتار الطيعة تحت الأنامل اللينة البارعة ، فيملأ الآذان بالنغم ، والأذهان بالفكر ، والقلوب بالشوق ، والمشاعر باللذة .

* * *

ذهبت ليلة أمس على عادتي أرود المعاهد وأجوس الديار وأستنشي ما بقي على أطراف الزمن من عبير الفاطميين ، فوجدت القاهرة الشرقية لا تزال تتحدى القاهرة الغربية بمساجدها ومدارسها ومستشفياتها وحماماتها وأسواقها ، وتعلن بشهادة هذه الآثار أن حضارتها العربية الخالصة إنما كانت تقوم

على الدين والعلم والمدنية والإنسانـــــية والعمل ، وتزعم بأدلة الاختبار أن هـذا المظهر الحسى القوى الرائع الذى يميز حضارة الشرق إنما يرجع إلى أن هذه تقوم على الروح ، وتلك تقوم على الآلة ، وهذه تصدر عن العاطفة والإيثار ، وتلك تصدر عن المنفعة والأثرة والميزة التى ينبغى أن تكون لحضارة على حضارة إنما هى ضمان السعادة للناس وتحقيق السلام للعالم

ولـكن أين صديقى الشاعر وأين أخوه القصاص ؟ هذا هو الحى ، وهذه هى القهوة ، وهؤلاء هم الناس ، ولـكنى وجدت فى مكان الأريكة المنجدة والحلة المفوفة والعمامة الفردة صندوقاً من الخشب دقيق الصنع أنيق الشكل ، قد علق بالحائط فأغنى غناء القصاص وأبلى بلاء الشاعر !

تركت هذه القهوة ومضيت أتحسس فى زاوايا الحى وحنايا السوامر ذلك الصوت الذى كان ينبعث من جوف الماضى السحيق شادياً بالمجد والنبل والبطولة فلم أجد له — وا أسفاه — جرساً ولا صدى !

لقد هزم الراديو الشاعر فى كل قهوة كما هزمت الآلة الإنسان فى كل عمل ففى كل قهوة من هذه القهوات (البلدية) آلة من هذا الاختراع العجيب تغرى الأذواق العامية بالفن ، وتروض الآذان العصية على الموسيقى ، وتنبه العقول الغافلة إلى العلم ، وتحبب النفوس المستهترة فى الأدب فهى تقرأ القرآن وترسل الألحان وتذيع العلم وتشيع اللهو وتنشر البهجة ! ولـكنى مع ذلك كله عظيم الأسف على موت القصاص ، شديد الأسى على فقد الشاعر !

ذلك لأن مخاطر الشهامة (لأبى زيد) ، ومواقع البطولة (لعنترة) ، ومواقف النبل (لسيف بن ذى يزن) ، أصلح لتهذيب العامة فيما أظن مما يبثه المذياع كل يوم من النوادر الوضيعة ، والأناشيد الخليعة ، والألحان الرخوة !

أسبوع حافل

(١٤ يناير سنة ١٩٣٥)

أسبوع حافل ! إبتدأ بعيد الدين وانتهى بعيد الدنيا ! فأوله (عيد الفطر) وآخره (عيد الوطن) . وفيما بينهما كان عيد الميلاد ومؤتمر البلاد ومهرجان (القرش) .

أسبوع حافل ! كان فيه للدين سبب ممدود وشمل جامع ، وللحرية يوم مشهود ومنظر رائع ، وللوطنيـة لواء معقود ومجتلى فخم ، وللسياسة شعب محشود وأمر ضخم ، وللقومية أمل منشود وعمل صالح !

جرى كل أولئك على أروع ما يقع فى الذهن ويتمثل فى الخاطر ، لشعور الناس بشمول الأمن ، ويقظة العدل ، وقيام القانون ، وفوز الديمقراطية ، واتساق الأمر بين الفرد والجماعة ، واتفاق الرأى بين الحكومة والأمة . وكانت النفوس فى عهد المحنة قد تغشاها من الدخائل السود قتام وسحب ، فلا تكاد ترى على حواشى الأفق الضيق المحدود إلا جنود الرهبة وقيود الذلة وسجون القهر . ثم تنفس بها الزمن البطىء على هـذه الحال الأليمة حتى قنعت بالدون ورضيت بالهون وذهلت عما وراء الأفق . فلما تهتكت الحجب عن وجه الحق ، وتفككت الأغلال عن حرية الشعب ، فسعى غير مقيـد ، وعمل غير مراقَب ، وقال غير متهم ، عاد الناس فوجدوا شعور الكرامة ، وسورة الاستقلال ، وأنفة الحى المريد ، وعزة المتصرف المطلق ، فزهاهم النصر ، واستطارهم الفرح ، وتقلبوا سبعة أيام فى الدعة ، يتبسطون على الأنس ، ويتعالون على الدهر ، ويتدللون على الحكومة ،

ويوازن بين حالهم الأمس وحالهم اليوم ، فيعجبون كيف زاغت القلوب وفسدت الطباع وسفهت الأحلام ، وغارت هذه المباهج والمرائى والمظاهر كلها فى قرارة قلب فارغ .

* * *

إن القلوب لأضيق فى هذا الأسبوع من أن تسع هذا الفيض الذى يتدفق فيها من كل جانب : ففى (مدينة رمسيس [(١)]) وجوه البلاد ونواب الشعب وزعماء الأمة يعرضون مناهج السياسة على المشورة ، ويُقلبون أنظمة الإصلاح على الرأى ، ويعلنون الخادع والمخدوع أن مصر الخالدة لاتزال متماسكة على مضض المحن ، سليمة على عنت الجور ، مؤتلفة على عبث الإغراء ، تعوَّق ولكن لاتضل ، وتعذَّب ولكن لاتذل ، وتحارَب ولكن لاتستكين .

كانت الآلاف الأربعون فى سرادق المؤتمر الوطنى أشبه بالأسراء فك أغلالهم النصر ، أو بالسجناء كسر أقفالهم الثورة . فهم يتعانقون على السلامة بعد البلاء ، ويتصافقون على الجماعة بعد الفرقة ، ويتنادرون بجلادى العهد الماضى وسجانه وقد أصبحوا اليوم رواد المنى وحراس العدالة . أليس هذا شرطى الأمس الذى كان ينظر بالنار ، ويتكلم بالحديد ، ويتجنى على الناس الذنوب ، ويتمنى على الأحداث الجرائم ؟ مابا له اليوم وديعاً كالعدل ، نزيهاً كالقانون . رفيقاً كالدولة ، رفيقاً كالمواطن ؟ تباركت يا ألله ! أهكذا تتبدل الأوضاع وتتغير الطباع فى مر يوم وليلة ؟ .

* * *

وفى معرض الجزيرة جماعة (عيد الوطن الاقتصادى) يُفيضون من نشاط

---

(١) كانت داراً للملاهى على مقربة من مدينة إمبابة أقيم فيها المؤتمر الوطنى .

الصبا وطموح الشباب على الناحية الضعيفة المخوفة من نواحى الوطن : تلك هى الناحية الاقتصادية التى اقتحمها المستعمرون تحت لواء العلم والمال فاحتلوا المدن ، واستغلوا القرى ، وامتهنوا القومية ، وامتحنوا الأخلاق ، وحولوا مجارى الثروة المصرية إلى السفن الأجنبية والمصارف الأوربية وخلفوا أهلها يكابدون الدين ويعانون الفقر ويشكون العطلة ويقاسون الذلة فطن هؤلاء الشباب الأطهار إلى هذا الخطر الوبيل والداء الدخيل فبرزوا له فى ميدانه المشتبه الواسع ، واستنفروا القاعدين من أصحاب الأموال والجامدين من أرباب التجارة ، ونشروا الدعاية بمختلف الوسائل للانتاج الوطنى ، وضحوا بجهودهم الكثيرة ونقودهم القليلة وأوقاتهم الباقية من الدرس على رصد الأهبة وتنظيم العمل وتدبير المال وضمان الفوز ، حتى توجوا هذا الجهد الجاهد بهذا المهرجان الذى أقاموه ، وذلك المعرض الذى نظموه ، فكان للمهرجان عيداً للعيد ، والمعرض حجة للأمل ، والعمل كله فخراً لأهله .

* * *

وفى حديقة الأزبكية عيد (جمعية القرش) يجاهد فى الإنشاء جهاد عيد الوطن فى الدعاية وقد نفضت هذه الجمعية ـ كتلك ـ على بلى النفوس جدة الربيع ونقاء الفطرة وجمال الحداثة ، فانتشر متطوعوها الأبرار فى المدينة يجمعون القروش بالتوسل والتذلل والإلحاف ليفتدوا به حرية الوطن الأسير !

فجماعة الوطن وجمعية القرش ومؤتمر الشعب ائتلاف منسجم من عناصر البلاد ومناهج الجهاد ومناحى الغرض : فالشباب بجانب الكهولة ، والاقتصاد بجانب السياسة ، واللذة بجانب المنفعة ، والحكومة بجانب الأمة وكل هذه

الصور الرائعة إنما تتألق وتتراءى فى إطار روحى شعرى تألف من عيد الفطر للمسلمين ، وعيد الميلاد للأقباط !

أسبوع حافل ! كان فيه للدين سبب ممدود وشمل جامع ، وللحرية يوم مشهود ومظهر رائع ، وللوطنية لواء معقود ومجتلىً نخم ، وللسياسة شعب محشود وأمر ضخم ، وللقومية أمل منشود وعمل صالح !

وإن عاماً يكون عنوانه هذا الانقلاب وطالعه هذا اليمن واستهلاله هذا النشيد ، لآية من الله على انجلاء الغمة واهتداء الغرائز وارعواء الغى وانكشاف الطريق .

الحجّ

(٢١ يناير سنة ١٩٣٥)

الحج والزكاة هما الركنان الاجتماعيان من أركان الدين يقوم عليهما الأمر بين الفرد والفرد، وبين الفرد والجماعة، كما يقوم على ثلاثة الأركان الأخر الأمر بين المرء وربه، وبين المرء ونفسه فالزكاة تقيم نظام المجتمع على التعاطف والرحمة، والحج يقيمها على التعارف والألفة؛ فيحقق الأول معنى الإخاء بنفي التفوق، ويحقق الآخر معنى المساواة بمحو الفروق. والإخاء والمساواة شعار الإسلام وقاعدة السلام وملاك الحرية، ومعنى المدنية الحق، وروح الديمقراطية الصحيحة.

كان الحج ولا يزال مَطهرَ الدنيا. ترخص فيه النفوس عن جوهرها أوزار الشهوات وأوضار المادة. وكان الحج ولا يزال ينبوع السلامة، تبردُ عليه الأكباد الصادية، وترفه لديه الأعصاب الوانية وكان الحج ولا يزال مثابة الأمن، تأنس فيه الروح إلى موضع الإلهام، ويسكن الوجدان إلى منشأ العقيدة، وينبسط الشعور بذلك الإشراق الإلهي في هذه الارض السماوية وكان الحج ولا يزال موعد المسلمين في أقطار الأرض على (عرفات): يتصافقون على الوداد، ويتآلفون على الجهاد، ويقفون سواسية أمام الله حاسري الرءوس، خاشعي النفوس، يرفعون إليه دعوات واحدة في كلمات واحدة، تصعّد بها الأنفاس المضطرمة المؤمنة تصعّد البخور من مجامر الطيب، أو العطور من نوافح الروض! هنالك يقف المسلمون

في هذا الحشر الدنيوى حيث وقف صاحب الرسالة ، وحواريو النبوة ، وخلفاء الدعوة ، وأمراء العرب ، وملوك الإسلام ، وملايين الحجيج من مختلف الألوان والألسن ، فيمزجون الذكرى بالذكر ، ويصلون النظر بالفكر ، ويذكرون فى هذه البقعة المحدودة ، وفى هذه الساعة الموعودة ، كيف اتصلت هنا السماء بالأرض ، ونزل الدين على الدنيا ، وتجلى الله للإنسان ، ونبتت من هذه الصحراء الجديبة جنات الشرق والغرب ، وثمراته العقل والقلب ، وبينات الهدى والسكينة .

* * *

الحج مؤتمر الإسلام العام ، يجدد فيه حبله ، ويتعهد به أهله ، ويؤلف بين القلوب فى ذات الله ، ويؤاخى بين الشعوب فى أصل الحق ، ويستعرض علائق الناس كل عام فيوشجها بالإحسان ويوثقها بالتضامن ، وينضح من منابعه الأولى على الآمال الذاوية فتنضر ، وعلى العزائم الخابية فتذكو . ثم يجمع الشكاوى المختلفة من شفاه المنكوبين بالسياسة المادية ، والمدنية الآلية ، والمطامع الغربية ، فيؤلف منها دعاء واحداً تجأر به النفوس المظلومة جؤاراً تردده الصحراء والسماء .

وما أحوج المسلمين اليوم إلى شهود هذا المؤتمر ! لقد حصرهم المستعمرون فى أوطانهم المغصوبة ، ثم قطعوا بينهم الأسباب ، وحرموا عليهم التواصل ، وفصلوا حاضرهم عن الماضى الملهم والمستقبل الواعد ، بطمس التاريخ ، وقتل اللغة ، وإطفاء الدين ، فلم يبق لهم جمعة إلا فى هذا الموسم .

* * *

إن فى كل بقعة من بقاع الحجاز أثراً للفداء ورمزاً للبطولة . فالحج

إليها إيحاء بالعزة ، وحفز إلى السمو ، وحث على التحرر : هنا غار (حراء) مهبط الوحى ، وهنا (دار الأرقم) رمز التضحية وهنا (جبل ثور) منشأ المجد ، وهذا هو البيت الذى احتبى بفنائه أبو بكر وعمر وعلى وعمرو وسعد وخالد وهذا الشعب وذاك مجر أذيال الغطاريف من بنى هاشم وبنى أمية . وتلك هى البطحاء التى درج عَلَى رمالها قواد العالم وهداة الخليقة .

* * *

« ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » . أما شرط الاستطاعة فقد بطل اليوم ، وأصبح الحج فريضة عين لا تحول عن أدائها عقبة ، ولا يسوغ فى تركها معذرة فأنت تستطيع بالمال اليسير وفى الزمن القصير أن تحج عَلَى الباخرة أو السيارة أو الطائرة ، دون أن تعرض حياتك للموت ، وثروتك للنهب ، وصحتك للمرض .

وهذه (شركة مصر الملاحة البحرية) ، تتعهد لك (بزمزم) و (الكوثر) أن تكفلك وتحملك وتظلك وتغذيك وتأويك وتحميك فى البحر والبر تحت علم دولتك ، ورعاية مواطنيك ، فلا تكابد وعث الصحراء وعبث الأشقياء ، ولا تقاسى بعد الشقة وطول الغربة .

* * *

لقد كان الحج لرهقه الشديد وجهاده الجاهد يكاد يكون مقصوراً على الطبقات الخشنة من الزراع والصناع والعملة . أما الناعمون المترفون من أولى الأمر وذوى الرأى وأصحاب الزعامة ، فما كانوا يقدمون عليه ، ولا يفكرون فيه ، فظل جداه على المسلمين ضئيلا ، لا يتعدى الحدود الخاصة من قضاء المناسك وأداء الزيارة . فماذا يمنع الكبراء والزعماء اليوم أن يتوافوا

على ميعاد الله ، ما دامت هذه الشركة المصرية المخلصة قد تحملت عنهم أعباء السفر ، وضمنت لهم وسائل العيش ، ووفرت عليهم أسباب الرفاهية ، حتى ليكتفى المسافر بحقيبة ثيابه ؟

* * *

إن فى حج سراة العرب والمسلمين إعلاء لشأن الملة ، وإغراء بأداء الفريضة ، وسعياً لجمع الكلمة ، وسبيلا إلى الوحدة المرجوة وإن مقام إبراهيم الذى انبثق منه النور ، ونزل فيه الفرقان ، وانتظم عليه الشمل ، لايزال مناراً للأمة ومثاراً للهمة ومشرق الأمل الباسم بالعصر الجديد .

الثقافة المذبذبة

(٢٨ يناير سنة ١٩٣٤)

كتب إلى صديقى الأستاذ محمد فريد أبو حديد يقول :

« أنا معلم كما تعلم . ولكننى معلم لا أعتقد فيما تعتقد فيه الكثرة من المعلمين سواى . وذلك أننى لا أؤمن كثيراً بأوربا ، ولا بما جاء من أوربا ، إلا أن يكون ذلك شيئاً نجنيه من نفع مادى أو كشف علمى . أما فيما يتعلق بالرأى والنفس ، وفيما يتصل بالعقـــــل والقلب ، فأنا شرقى ولا أحب إلا الشرق ، ومصرى ولا أحب إلا مصر ولقد كان مما يؤلمنى دائماً أن أرى الابن الناشىء قد عاد من انجلترة أو من فرنسا ، فلا يكاد يظهر للأعين إلا فى هيئة نابية ، يزعم أنها دليل المدنية التى اكتسبها من الغرب ، فيمتدح فرنسا أو انجلترة وما فيها من مناهج ومظاهر ومعاهد ، وهو فى الحق إنما يريد أن يقول : إنه أثر من آثار تلك المدنية السامية التى يمتدحها ، فهو يصل إلى الزهو من طريق غير مباشرة ، ولا يقصد إلا الفخر والإعجاب بالنفس . دع ذلك ، فلو كان هذا وحده هو الأثر لهان الأمر ، أما أن يتعدى الأمر ما وراء ذلك فهو البلية والنكبة . وذلك أن هؤلاء الأبناء قد وصلوا بتلك النعرة الجوفاء إلى أن يخدعوا بعض الشيوخ ، أو بعض الجوف من الشيوخ ، بأنهم دعاة العلم والمدنية ، فألقيت إليهم مقاليد الأمور فى بعض النواحى ، وكان من سوء حظ مصر أن بلغ هذا الخداع حده فى مسائل التعليم . وإليك مثلا من ذلك : إن برامج التعليم الأدبية — وهى أداة الثقافة والقومية ـ لا نرى فيها أثراً للشخصية المصرية فواضع برامج التاريخ

هو بعض الجوف ممن تعلموا تاريخ أوربا ، فنقلوا من هذا ماظنوه خيراً وجعلوه منهاجاً لتلاميذ المدارس الثانوية المصرية ، فكانت النتيجة أنك إذا نظرت فى برامج القسم الأدبى فى التاريخ خيل إليك أنك تنظر فى بعض برامج فرنسا أو إنجلترة ، أو خليطاً من هذا وذاك وأما مصر ، فلا شأن لها فى ذلك واحسرتاه وكذلك الحال فى سائر المواد الأدبية ، حتى لقد حسبت وأنا معلم أننا إنما نسعى لإعداد أبنائنا ليكونوا أجانب فى عواطفهم وعقليتهم وثقافتهم ..

أليس هذا من العبث ياسيدى الأستاذ . أرجو أن تتناول هذا المعنى بقلمك القوى ، ولك من أبناء البلاد الثناء الجميل » . .

* * *

وصديقى الأستاذ بخبرته الطويلة وعقيدته النبيلة أولى بمعالجة هذا الموضوع ، ولكنه اختار له هذا الأسلوب الصحفى لتتناوله الأقلام المختلفة بالبحث والجدل فيكون الرأى أجمع والحكم أقطع والبلاغ أعم .

شكاة الأستاذ شكاة الشرق الإسلامى كله ، فإنه منذ غفا غفوته الثقيلة الطويلة فانقطع عن صدر الزمن ، لم يرد أن يبصر بعينيه ، ولا أن يسير على قدميه ، ولا أن يعلم أن له تاريخاً ممتازاً ،ووجوداً مستقلا ، وطابعاً خاصاً ، ووحدة كاملة ، ومدنية أصيلة ، وإنما ذهب يتحسس من طريقه على نداء الصائد ، ويتوكأ فى سيره على عمود الشرك ، ويطمس على شخصه بالفناء فى الغرب ، كأن أهله لم يكفهم أن يكونوا عبيداً لأوربا بالجسم عن قوة وقهر ، فرضوا أن يكونوا عبيداً لها بالروح عن رضاً وطواعية فهم يتكلمون بلغتها ، ويتأدبون بأدبها ، ويتسمون بسمتها ويتخلقون بخلقها ، ويطبعون أذواقهم بالكره على غرار ذوقها ، ويغالطون طباعهم

فى أصل الفطرة ، فيزعمون لمقولهم أن النفس للمدنة لايلائمها إلا ما يلائم الأوربى من أدبه ورقصه وغنائه وموسيقاه ، كأن المسافة بين الشرق والغرب لاتحدث فرقاً ولا تغير خلقاً ولا تبدل طبيعة .

إن الاستعباد المادى دهمنا أمس على يد الآباء ، وإن الاستعباد الأدبى يدهمنا اليوم على يد الأبناء . وشتان بين استعباد كان عن اضطرار وجهل ، واستعباد يكون عن اختيار وعلم . والعبودية العقلية أشد خطراً وأسوأ أثراً من العبودية الجسيمة ، لان هذه لاتتعدى الأجسام والحطام والعرض ، ومثلها مثل الجسم يرجى شفاؤه متى عرف داؤه ؛ أما تلك فحكمها حكم العقل إذا ذهب ، والروح إذا زهق وهيهات أن يرجى لمخبول شفاء ، أو ينتظر لمقتول رجعة ؛

إن أكثر نشئنا الذين وردوا مناهل الثقافة العلمية فى أوربا إنما ذهبوا إليها وشخصياتهم هلاهل من تمزق الأسرة ، وتفكك البيئة ، وفساد التعليم ، وضعف التربية ، فكونوا عقولهم على منطق الإعجاب ، وميولهم على هوى التبعية ، ثم عادوا وفى حوافظهم تاريخ غير تاريخ مصر ، وعلى ألسنتهم أدب غير أدب العرب ، وفوق غرائزهم خلق غير خلق الشرق ، فتصرفوا تصرف المقلد ، وتعسفوا تعسف الحائر ، فلم يستطيعوا أن يكونوا غربيين لعصيان الطبيعة وإباء الفطرة ، ولم يريدوا أن يعودوا شرقيين لقوة الفتنة وضعف الإرادة .

إن العلم لا وطن له ، لانه يتعلق باستخدام القوى واستثمار المادة فى العالم كله لخير الناس كلـه أما الآداب والفنون والأذواق والأخلاق والتقاليد ، فهى قوام الأمم ، ولا تنزل أمة عنها إلا إذا نزلت عن ذاتها وزلت عن مستواها . فخضوع الثقافة القومية للانجليز فى مصر وفلسطين ،

وللفرنسية فى سورية والمغرب ، وللأمريكية فى العراق والمهجر ، بلاء على هذه الأمم لاتسلم عليه وحدة ولا يستقل معه وطن .

أما عبث هذه الثقافة المذبذبة بالبرامج فعلته أن التعليم عندنا ليست له سياسة مرسومة ولا غاية معينة قل لواضع البرنامج مهما يكن : أريد أن أصل بالتعليم إلى هذه الغاية تجد الغاية نفسها هى التى تعين السبيل وتحدد الوجهة. أما إذا كانت سياستنا فى التعليم أن ننشىء المدارس ونهيىء المدرسين ونقيم الامتحانات ، فإن جماع الأمر فى وزارة المعارف إذن أن تكون حقولا للتجارب فيها لكل سياسة أثر ، ولكل ثقافة ثمرة ، ولكل أمة غير أمتها نصيب .

الملك علي ....

(١٨ فبراير سنة ١٩٣٥)

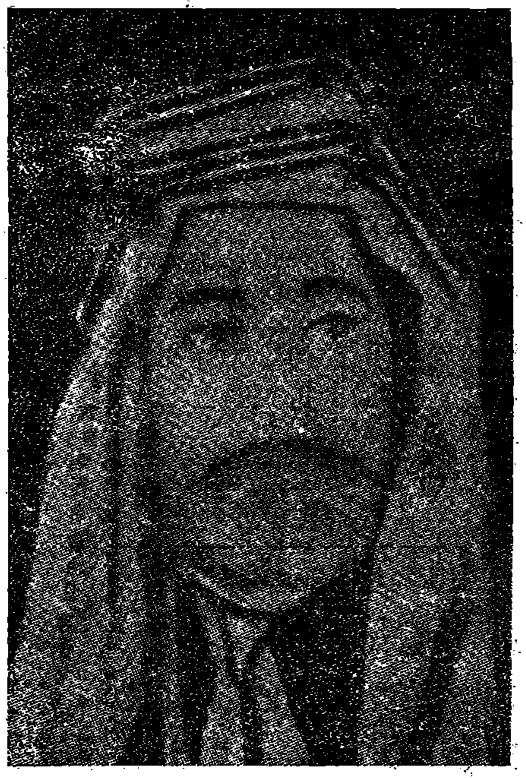

تلقيت نعي الملك النبيل علي بن الحسين كما أتلقى نعي قريب! فقد كان رضوان الله عليه مثال الفطرة العربية النقية : يقبل على زائره بأنسه ، ويسكن لجليسه من نفسه ، ويزيل الفوارق بين محدثه وبين شخصه ، حتى يصدر عنه الوارد عليه وفي ذهنه صورة من جلاله لا تحول ، وفي قلبه عاطفة من حبه لاتزول ، وفي نفسه أثر من ذاته لايعفو .

لا يُلقي في روعك حين تلقاه طموح الزعيم ولاجفاء القائد ولادهاء السياسي ولا سورة الملك ، وإنما تجد في خلائقه فوحة المجد ، وتقرأ في ملامحه عنوان الطيبة ، وتعرف في حديثه لهجة السيادة ، وتذكر في نبرات صوته ولحظات عينه ولفتات ذهنه ذلك الروح القوي الذي انبث في موات الوجود من بني هاشم

نعى الناعي فيصلا فقال الناس بطل من أبطال العالم قضى ونعى الناعي

علياً فقبل العرب سيد من سادات العروبة خلا [١] لأن فيصلا حكم في شروق مُلك عائد ، فكان عزمة لاتسعها قدرة ، وفكرة لايحصرها أفق ، وطموحاً لا يحده غاية ؛ ولأن علياً حكم في غروب ملك بائد ، فكان أمراً لا يمضيه سلاح ، وأملا لا يُنهضه جناح ، وصلاحاً لاتواتيه فرصة . ثم كان مصير الرجلين مصير خُلقين مختلفين : خلق اتسع لخدع السياسة وشُبه الحكم وأهواء النفوس ؛ وخلق انحصر بين حدود الشرف الموروث ، وسنن الدين المتبع ، وتقاليد العرب المحتومة .

* * *

كان الملك على وهو أمير المدينة أو ولى العهد أو خليفة الحسين ، مثل السيد الكريم والأمير السمح والملك المؤمَّل ؟ ولكن موجة (الإخوان) [٢] كانت قد دفعت بحطام الحسين إلى شواطىء جُدة ، فلم يستطع الملك الجديد أن يستمسك به في مهب الرياح الهوج ومضطرب الموج الثائر ، فانتزع من تاجه المقدس مفاتيح الحرمين ثم وضعها في يد الفاتح ونجا على (الرقمتين) [٣] في ضباب من اليأس لايشع في جنباته أمل .

نزل الملك الغريب سواد العراق نزول الكريم على الكريم ، فتلقاه بوده ، وصفق له من ورده ، وبوأه من زعامته المكان الأول بعد فيصل فكان في السياسة العراقية برهان الله في يقظة الشهوة [٤] ، وصوت العدل في طغيان الهوى ، وهدى المشورة في ضلال الرأى ، ورسول الخير في أزمة الحاجة . وكان قصره القائم بالكرادة على الشاطىء الأيمن من دجلة بلاطا للجلالة الحائرة بين الحجاز والعراق وسورية ، تُقضى بين أبهائه الأمور الجسام ، وترف على

---

(١) خلا الرجل : مات .

(٢) جنود الملك عبد العزيز آل سعود (٣) اسم الباخرة التى أقلته من جدة .

(٤) إشارة إلى برهان الله الذى صرف عن يوسف السو

أفنائه الأمال الباسمة . ولكن حياة بغداد الدافقة بالنعيم الغارقة فى اللذة ، لم تستطع أن تنسى الملك الحزين عرشه الصخرى فى الوادى الجديب ! فكان لايفتأ يحن إلى مُلكه المغصوب حنيناً شجرياً صامتاً يذيب الكلى ويستوقد الجوانح . إلا أن أثره كان لايبين تحت سمة الملك إلا لمن دخل فى أمره ووقف على سره .

كنت كثيراً ماأقضى أصائل الأيام فى حضرته . وكان (مفتى بغداد) يومئذ لاينقطع عن مجلسه فى هذا الوقت وكان للملك رحمه الله عطف علىّ منشؤه فيما أظن حبه للأدب وميله إلى مصر وأنسه بالغريب . فهو يحب أن يناقلنى الحديث ، ولكن (المفتى) سامحه الله رجل يرى من حقه أن يقول فى كل شىء ، وأن يجيب عن كل شىء وهو لاينطق إلا ببيت من الشعر أو أثر من الحديث أوآية من القرآن . أما ارتباط مايقول بما يسمع ، فذلك ما كنا نعجز دائما عن فهمه . كان الملك يبدأ الكلام فلا يكاد يمضى فيه حتى يقطعه المفتى بحكاية عرضية أو مسألة فقهية ! فأرفع طرفى إلى الملك لعلى أرى عزة الملك تشع فى عينه أو تثور فى وجهه ، فلا أجده إلا باسماً للمتكلم ، صاغياً كالمتعلم ، هادئا كالشعاع الشاحب فى شفق الخريف ! على أنه كان يصحح ما يَقمِّش الشيخ من الشعر وينتف من الأمثال ، ويتخذ ذلك مادة للحديث وموضوعاً للمشاركة فيسفر قوله عن ذوق صاف وبصيرة نافذة . ولا أزال أذكر استشهاده فى بعض الكلام على قلب الميم باء فى قول العرب : بكة فى مكة ، بالمثل المعروف : (تمخض الجبل فولد فأراً) مرجحاً أن الجبل هو الجمل فى لحن هذه القبيلة .

كذلك لا أزال أذكر أن المفتى قرأ يوماً قول الله تعالى : « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا » فسأله الملك : الآن علم ؟ كأن الله جل شأنه

كان يجهل قبل ذلك ، فلم يحر الشيخ جوابا .

لذلك كان إذا شاء الحديث صفواً من المقاطعة واللغو ، أمرنى فمثلت بين يديه فى ساعة بعينها ، فيفضى إلىّ بطرف من ماضى حياته ، أو يملى علىّ بعضاً من مذكراته . وقد لايكون من المناسب اليوم — وأنا فى موقف الرثاء والعزاء والأسى — أن أثبت فى هذا المقام شيئاً من ذلك .

ولـكنه كان يلهج دائما بمصر ، ويرصد كوكب آماله فى مصر ويحاول أن يقنع المصريين الذين خاصموه فى سبيل الترك أن ثورة العرب على الخلافة كانت بالحق وللحق ، وأن أباه لم يأل الترك نصحاً ألا يغمزوا نخوة العرب ، وأن يعدلوا عن سياسة الجهل ، ويكفوا عن جرائم القتل ، فاستغشوا الناصح وذهبوا بأنفسهم ممعنين فى الضلالة .

وللفقيد العظيم آراء حصيفة فى رجال الثورة وساسة العراق ووحدة العرب ، أرجو أن تتاح لتسجيلها المناسبة إنصافاً لهذا الرجل الذى أخرج من دياره عنوة ، وكابد تكاليف الملك من غير ثروة ، حتى عاد كالطائر المهيض أو الملاك الهابط ، يختنق فى جسمه وبصره فى الفضاء ، ويلتصق بالأرض وروحه فى السماء ،

الأزهر بين الماضي والحاضر

(٢٥ فبراير سنة ١٩٣٥)

ويل للأزهر من أهله ! كان منيعاً بالدين فابتذلوه بالدنيا ، وعزيزاً بالعلم فأذلوه بالمال ، ومستقلا فى حمى الله فأخضعوه لهوى الحكم . وكان سُنَّة واضحة لهدى الشريعة استقام الناس بها منذ ألف عام عَلَى عمود واحد ، فشبَّهوا وجوهها بالأنظمة الفجّة ، ولبَّسوا صورها بالأعلام المستعارة ، ثم وقفوا لدى المفترَق المبهم الذى أحدثوه يديرون أعينهم فى الفضاء ، ويردونها من الأمام إلى الوراء ، فلا يرون أقدامهم على أثر ، ولا يجدون وجوههم على سبيل .

كان للأزهر على عهدنا القريب جلالة تغشى العيون وقداسة تملأ الصدور لأنه للمعقل الوحيد الذى ثبت لحملات الغِيَر فانتهت إليه أمانة الرسول ، واستقرت به وديعة السلف ، واستعصمت فيه لغة القرآن ، واستأمنت إليه آداب العرب . فأرضه حرم لا يُنتَهك ، وأهله حمى لا يستباح ، وأمره قَدَرٌ لا يُرد . وكان لعلمائه مكانة فى القلوب ومهابة فى النفوس ، لأنهم دعاة الله وورّاث النبي وهداة المحجّة ، ينطق على ألسنتهم الكتاب ، وتتمثل فى أفعالهم السنه ، فمحبتهم عقيدة وطاعتهم فريضة وإشارتهم نافذة .

وكان لطلابه كاف به لا يُتّهم ، وثقة برجاله لا تُحد ، وانقطاع إلى جواره لايبغون من ورائه غير فقه الدين وتحصيل المعرفة وتجديد حبل الدعوة ؛ فهم عاكفون على معاناةالدرس ، قانعون بميسور العيش ، لا ينصرفون عن حلقات التعلم بالقاهرة إلا إلى حلقات التعليم فى الريف .

* * *

كانت صلة العلماء بالحكومة صلة دينية ، تقوم على حسم المشكلات بالقضاء وحل المسائل بالفتوى ، وكانت صلتهم بالأمة صلة روحية ، يجلون صدأ القلوب بالذكر ، ويكفكفون سفه الجوارح بالموعظة ، ويشفون غل الجوانح بالمؤاخاة ، فكانوا لذلك موضع الإجلال أنى حلوا كنا نرى العالم إذا نزل مدينة أو قرية كان يوم نزوله تاريخاً لا ينسى : يأخذ الناس فيها حال من الشعور الصوفى يدفعهم إلى رؤيته ، فيهرعون إليه كما يهرعون اليوم إلى زعيم الأمة أو إلى رئيس الحكومة ، فيتوسمون فى أساريره نور الرسالة ، ويتنسمون من أعطافه أريج النبوة ، ويتخففون على يديه من أوزار العيش وتبعات الجهـــالة . وطلاب الأزهر القديم لايزالون يذكرون ما كان فى نفوسهم لشيوخهم من الحب والتجلة . كانوا يتحلقون حول كرسى الشيخ من غير نظام ولا ضابط فيكون لهم على السبق إلى الأمام عراك دام وصخب مصم ، حتى إذا ما أقبل خشعت الأصوات ، وسكنت الحركات كأن شيئاً علق الأنفاس فلا تنسم ، وعقد الشفاه فلا تنبس وربما نزا اللجاج على لسان أحدهم فى أثناء المناقشة فيغضب الشيخ فلا يكون أنكى فى عقابه من الإشارة إليه بالخروج من الدرس ، أو الدعاء عليه بالقطيعة عن الأزهر ! والقطيعة عن الأزهر أقصى مايتصوره الأزهرى من شقاء الحياة ! فإذا انقضى الدرس وقال الشيخ : (والله أعلم) تضـــامّت أطراف الحلقة عليه ، وأنحى الطلاب بالقبل على يديه وردنيه ، فما يشق طريقه بينهم إلا بعد لأى .

* * *

تدبر ذلك فى نفسك على إجماله وعمومه ، ثم اقرنه إلى ما تسمع اليوم أو تقرأ من خبر الأزهر وحال علمائه وأبنائه ، فهل تجد المعهد هو المعهد ، والناس هم الناس ؟ إن الأزهر البائد على فوضاه المنظمة كان أجدى على الدين

وأعوّد على الثقافة من هذا الخلق المسيخ الذى وقف بين الماضى والحاضر ، وبين الدين والسياسة ، موقفاً يُندى الجبين الصَّلب ويوجع الفؤاد المصْمَت !

تقلب بعض زعمائه على فُرش الديباج ، وخبُّوا فى أفواف الشاهى ، وتأنقوا فى ألوان الطعام ، وتنبلوا بالمظاهر الفخمة ، وسردوا أعداد الدنانير على المسابح المعطرة . وكان أسلافهم طيب الله ثراهم كما طيب ذكراهم يتسترون بمرقعات القطن ، ويتبلغون بقشور البطيخ ، ويستروحون النسيم على شرفات المآذن !

ثم شايعوا أهواء الناس وصانعوا أهل النفوذ ، وجروا فى تسكين أمورهم وترفيه نفوسهم على الضراعة والملق . من أجل ذلك فقدوا خطرهم فى الخاصة وأثرهم فى العامة وجرُّوا معهم كرامة الدين إلى هذا المنحدر .

* * *

إن فى بقية السلف من أعلام الأزهر مفزعاً من هذه الحال الأليمة . فليعملوا مخلصين لردّ هذا المعهد الكريم إلى نظامه : فإن شديداً على النفس أن يضطرب فيه الأمر ويشرى به الفساد ، حتى يُطرد طلابه وتغلق أبوابه .

لقد قرأت بالأمس فصلا عن الإسلام فى مجلة شهرية فرنسية يقول كاتبه فيه « لقد انحسر الإسلام عن بلاده أو كاد ، فلم يبق مدوياً متوثباً إلا فى الأزهر » فماذا عسى أن يقول هذا المأفون إذا ماقيل له غداً إن هذا الدوى قد سكن ، وإن هذا التوثب قد قر ؟

لاجرم أن المخلصين من علماء الأزهر وأبنائه أقدر على درء هذه الكارثة متى أنضجوا الرأى وأجمعوا الكلمة والحكومة القائمة أربأ بعهدها عن هذا الحدث ، وأضنُّ بتاريخها على هذه الصفحة . وليس فى مصر ولا فى غير مصر ضمير نزيه يرضيه أن تعبث الشهوات الرُّعن بهذا المعقل الدينى الذى عصم القرآن ولغته وعلومه من طغيان الأحداث والفتن عشرة قرون .

مصر وأخواتها

(٤ مارس سنة ١٩٣٥)

كأنما كان السؤال عن الناس كسؤال الناس[1] لايتفق مع الرخاء ولايكون مع الغنى! فإن مصر والعراق يكادان من سعة العيش لا يذكران مَن وراء الحدود. والوحدة العربية فى البلدين على الرأى الأغلب حديث خُرافة أو حديث مجاملة! فلولا الأدب الذى يجمع الفؤاد بالفؤاد، ويربط البلاد بالبلاد، ويصل الحفدة بالأجداد، لظلت منابت العروبة ومواطن الإسلام أغفالاً لا تُعرف، وأرحاماً لا توصل.

يزور المصرى قطراً من أقطار العرب، فيكون أول مايرد على سمعه عتب المحبين على الهجر، ولوم الأقربين على القطيعة، وعذل الجيرة على التخاذل؛ فيُلقى الملوم المُحْرج معاذيره فى منطق عَيّ ودفاع غير ناهض ثم يزداد حرجه وتتخاذل حججه كلما رأى قلوبهم تزخر بعواطفه، وصدورهم تجيش بأمانيه، وألسنتهم تضطرب بأخباره، ونهضتهم تسترشد بنهضته، ووجهتهم تسير مع وجهته. فصحفه تقرأ، وكتبه تدرس، وسياسته تحتذى، وزعامته تتبع؛ ثم خصومته هى لهم خصومة، وحكومته هى عليهم حكومة، وقومه لقومهم أهل، وبلده لبلادهم قبلة حينئذ يقول لنفسه والخجل والعجب يتعاقبان على وجهه: إن وطنى مترامى الحدود فلماذا أحده على الضيق؟ وقومى ضخام العديد فلماذا أحصرهم على القلة؟ وجيرانى كرام يصفون المودة ويصدقون العطف ويولون المعونة، فلماذا أجهل بينى وبينهم

---

(١) سؤال الناس: استجداؤهم.

سداً من الإهمال والنفقة ؟ إن الأمم القوية الناضجة لترخص الأموال والأنفس في التمكين لأدبها ونفوذها وعروضها في الشرق ، فكيف نعرض نحن عن ذلك وهو يأتينا عفواً عن طريق القرابة في البلد والنسب ، والوحدة في اللغة والأدب، والمشابهة في الحظ والحالة ؟

دع ما ترشد إليه الغريزة من تعاطف الأهل وتناصر الضعاف وتعاون الجيرة ، وانظر في الأمر من جهة الفائدة : أليست سورية منفذ العراق إلى البحر للتمدن ، والسودان طريق مصر إلى منابع النهر الحيي ! ومع ذلك فالعراق مصروف الهم عن سورية ، ومصر قليلة العلم بالسودان ، فلا تعرف عنه إلا أنه جزء من سياستها ! أما أنه قطعة من جسمها وكلمة من اسمها فذلك ما لم تعلمه إلا بالسماع ، ولم تفهمه إلا في المدرسة !

* * *

يزور دار « الرسالة » الحين بعد الحين أخ من السودان أديب أو طالب ، فلا تسمعه يقول أول ما يقول إلا هذا المعنى الواحد في صيغه المتعددة : إنا لنعلم عنكم كل شيء ، وإنكم لتجهلون عنا كل شيء ! فسياستكم لا تعرف السودان إلا في المفـــــاوضات ، وأدبكم يقف بالوادي عند الشلالات ، وصحافتكم لا تدرى أفي الأرض نحن أم في السموات ، فهل عُنى سياسي بتعرف بلادنا ، أو تفرغ أديب لتصوير حياتنا ، أو توفر صحفي على درس أحوالنا ؟ ولعمري إذا فرقتنا السياسة ولم يجمع شملنا الأدب ، فعلى أي صورة نلتقي وعلى أي حال نتحد ؟

ذلك ما يشكوه السـوداني المخلص ، ويأسى على حدوثه المصري المخلص ، وبين الأسى والشكوى ناشئة من الأمل المسفر ، وعزيمة من العمل المثمر ، تتجليان في العاملين الصادقين من شباب الوادي وكهوله

فالعمل الجليل الذى هُدِيَتْ إليه ووُفقت فيه (البعثة الاقتصادية المصرية)[١] من الرحلة إلى السودان والاختلاط بأهله والاتصال برجاله والاطلاع على أحواله والتحدث إلى حكامه فاتحة فصل جديد من تاريخ النيل الحديث سيسجل فيه رجال الأعمال والأموال تصافق البلدين الشقيقين على المودة ، وتواصلهما على المنفعة ، وتآلفهما على التعاون .

فتحت هـذه البعثة الميمونة أبواب السودان الحصينة للنشاط الاقتصادى المصرى ، وهيأت الأسباب إلى اجتماع الأيدى التى يسقيها النيل ويطعمها النيل على استغلال خصبه فى عمران أرضه ، واستثمار خيره لسكان حوضه .

فإذا أضفنا إلى ذلك عناية الأدب والصحافة بتوحيد الهوى و الثقافة ، فقد ألفنا من أغاريد الوادى أعاليه وأسافله نشيداً واحداً تردده الشفاه البيض والسمر ، وتتجاوبه سلاسل الجبال الخالدة .

* * *

إن الاقتصاد والأدب يُـكونان الجسم والروح ، فلا بد منهما أولاً لإنشاء الأمة وإذكاء النهضة وإحكام الصلة وما غزا الغربيون ممالك الشرق إلا بالتعليم والتجارة . أما السياسة فلا تأتى إلا آخر الأمر ، فتؤيد الواقع وتثبت الحالة وتنظم العلاقة وتحمى المنفعة .

من أجل ذلك كان احتفال المصريين بوداع (البعثة المصرية) ولقائها ، واحتفاء السودانيين بفكرتها وأعضائها ، هزات من العواطف الصادقة والحماسة الدافقة والشعور الواثق المطمئن بإسفار المستقبل عن وجوه الفوز ، فيتصل الحبل

---

(١) بعثة تألفت من أعضاء الجمعية الزراعية الملكية وأعضاء الغرفة التجارية المصرية ومن بعض كبار الزراع والصحفيين ثم سافرت إلى السودان فى شهر فبراير سنة ١٩٣٥ لتوثيق العلائق الاقتصادية بينه وبين مصر بدرس مشروع شركة من المصريين والسودانيين لشراء الأرض الزراعية واستثمارها ، وإنشاء فرع للجمعية الزراعية بالخرطوم ، ودعوة بنك مصر لإنشاء فرع له فى عاصمة السودان ، فنجحت فى رحلتها نجاحاً عظيما .

وينتظم الشمل وتقوم الوحدة بين الشعبين الأخوين على أساس صحيح .

* * *

إن من وراء حدودنا البرية يا قوم آدابا لاتقل عن آدابنا يحسن أن تعرف ، وأنسابا تتصل بأنسابنا يجب أن تؤلف ، وأسواقا تفتقر إلى إنتاجنا ينبغى أن تكشف .

أما حصر النظر فى حدودنا البحرية فإدمان يفرّق البصر(١) ويجمع الخطر ويهجم بقوميتنا وأمانينا على الغرق !

(١) يبدده ويوزعه .

إلى أين يساق الأتراك

(١١ مارس سنة ١٩٣٥)

مَن السائرون فى شحوب الأصيل على حدود المغرب يسرعون الخطى كأنهم هاربون من النهار، ولا يلتفتون إلى الخلف كأنهم ناجون من سَدُوم[1] ؟

مَن السائرون بين النور والظلام عَلىَ الدرب الخادع المبهم[2]، يخفقون كأطياف المساء على حواشى الشَّفَق، ويطمسون الطريق من الوراء حتى لا يرجعوا إلى الأهل ؟ إنها أمة من صميم الشرق، نشأت فى نوره وطبعت على شعوره وتنفست فى عطوره، ألقت زمامها الأقدار الغالبة فى يد عصبة من أبنائها، رُبُّوا فى غير أحضانها، فنشأوا على غير منشئها، وجروا على خلاف مبدئها، فقطعوها بالكره عن مشرق الشمس ومبعث الروح ومنبت العاطفة ومنشأ الدين، وخرجوا بها معتسفين إلى طريق مشتبهة وغاية مريبة ودنيا مجهولة، ثم قالوا لأنفسها انسلخى عن شرقيتك بأمر القانون، ولقلوبها اعتقدى غير عقيدتك بحكم القوة، ولألسنتها انطقى غير لهجتك بإرادة الحاكم، ولحاضرها انقطع عن ماضيك بسطوة الجمهورية، ولأرضها وبيئتها وطبيعتها انفصلن عن آسية بإذن الحكومة ! كأنما الأمم تصاغ بالقوانين، والطبائع تتغير به (الأوامر !)

مهلاً ساقة الظعن وهُداة القافلة ! سترحلون عن وطن إلى غربة،

(١) سدوم : قرية قوم لوط وقصتها معروفة .
(٢) الدرب الخادع : الذى يبين مرة ويخفى أخرى .

وعن ولاء إلى عداوة ، وعن إخوة إلى سادة ماذا تقدم من الشرق مهد الإنسان ومهبط الأديان ومنبع الإلهام ومسرح الأحلام ومبدأ النشأة ! ألم يخلق الشرق اليابان اليوم ، كما خلق الصين والهند وبابل والفرس والعبران والعرب بالأمس !

إن شمس المدنية أرسلت علينا أول أشعتها فى صبح الوجود . ثم متع ضحاها[1] فغمرتنا بالنور والشعور والقوة ثم انحدرت إلى المغيب فى بلاد الغرب حتى بانت خيوطها أطراف الشفق ! إنها ستغرب لا محالة وإنها ستشرق لا محالة . وإن غروبها لا يكون إلا هناك ، وإن شروقها لا يكون إلا هنا فلم لا تنتظرون معنا يابنى العم طلوعها الجديد القريب على موطنها الأول !

لقد ذرّ منها كما ترون على اليابان أشعة ، وبصّ منها الساعة على مهاد العروبة وبلاد الإسلام شعاع ! وعما قليـــــل يسطع فى أقصى الشرق وفى أدناه وهجُها وسناها فتهتز الأرض من جديد وتربو ، ثم تنشق عن العبقريات التى ارتجلت الحكمة واكتشفت المعرفة وسنت الأخلاق ودفعت مدنية الإنسان إلى مداها البعيد .

قالوا لتركى الأناضـول : مالك وللشرق ، ومالك وللعرب ، ومالك وللإسلام ! تعال نبحث عن أجدادك فى الأولمب ، وعن قومك فى الفورَم ، وعن مدنيتك فى اللوفر . ثم ألزموه أن يلبس القبعة ، وأرغموه أن يكتب من الشمال ، وفصلوا الدين عن الحكومة ، وانتزعوا العربية من التركية ، وحرموا الشعب المتدين تقاليد الإسلام ، وحرموا عليه أخلاق الشرق ،

---

(١) متع الضحى : بلغ آخر غايته وهو عند الضحى الأكبر .

ثم ألغوا العيدين ، واستبدلوا بعيد الجمعة عيد الأحد ، ثم نقلوا الأمة المروعة المشدوهة على المدرّعات إلى الشاطىء الأوربى ثم أحرقوا من ورائها سفائن طارق !

على أن التركى الأصيل الذى استضاء بهدى الإسلام ، وتثقف بعلم العرب ، وأسهم فى مجد الفتوح ، لم يَصْغَ قلبه لهذا التغيير المفروض ، فظل فؤاده حيث طبعه محمد الرسول ، وبقى جسمهُ حيث وضعه محمد الفاتح !

أما موضع الخطر فأولئك النشء الذين قست عليهم الحروب ، وبلغت عليهم السلم ، فحصروا عللِ أخطائهم وأسباب أرزائهم فى معنى الخلافة فنفوها من الأرض ! ثم أفرط عليهم العداء فتحيفوا ما يلابسها من شرقية وعروبة ودين . أولئك سيزهقون فى حاضرهم روح الماضى ، ويقطعون عن ضمائرهم صوت التاريخ ، ويبنون قوميتهم على أسس مستعارة ، ويجددون شخصيتهم على تقليد طائش ، ويخضعون عقليتهم لعبودية قاتلة ثم يتدّخون بالصوت الرفيع المدلّل قائلين إن تركية للترك ! فيقول لهم الدهر الساخر : نعم ، وإن الترك لأوربا !

* * *

فخامةَ الغازى العظيم أتاتورك[1] ! لقد جبرت الجناح المهيض ، وأحييت « الرجل المريض[2] » ، وأنقذت من براثن العوادى السود تركية الفتاة ، مافى ذلك شك فاسمك العزيز عنوان تاريخها الحديث ، وعزمك الجبار قوام دستورها القائم ، وروحك الوثّاب سناد مستقبلها الطارف ؛

(١) أتاتورك لقب جديد للغازى مصطفى كمال معناه الأب التركى أى أبو الترك

(٢) لقب أطلقه ساسة أوربا على تركية القديمة .

ولـكنك ظلمت تاريخك الخاص بمخالفة الطبيعة فى التجديد ومجابهة للمنطق فى الإصلاح أخشى أن يسجل الرقيب الذى لايغفل أنك أحييت دولة وأمتّ أمة ، و بنيت دستوراً وهدمت عقيدة ، وبعثت لغة و دفنت ثقافة ؟

ماجريرة العرب على الترك وقد استخلفوهم على الدين واستأمنوهم على الرسالة ؟ وما جريرة الإسلام على الترك وقد نعشهم من الخمـول وأخرجهم من الجهالة ؟ وماذا يبقى من الترك ولغة الترك وثقافة الترك إذا محوت أثر العروبة ودينها من كل أولئك ؟

إن العرب ليسوا أقل شأناً من الطليان والجرمان ، وإن الإسلام ليس أضعف أثراً فى رفع الشعوب من وثنية اليابان ، ولـكنها موجة من المادية الطاغية غشّت على الأبصار وطغت على البصائر ، ستنحسر غمرتها عن مجالى الفضيلة والحق ولو بعد حين !

الفردية علتنا الأصيلة

(أول إبريل سنة ١٩٣٥)

لاتزال الفردية أبين الصفات المميزة للعرب ولا تزال هذه الصفة أجلى ماتكون فى مصر ! فإن المرء ليغالى فى فرديته حتى ليوشك أن يكون أمة وحده !

غلبت هذه الشيمة على العرب الأولين لقلة المرافق المشتركة ، وأثر الطبيعة الشحيحة ، ووحدة الحياة الرتيبة ، واستقلال النفس القوية فالرجل منهم كان يحصر الدنيا فى خيمته ، ويجمع العالم فى قبيلته . ثم يختصر القبيلة فى نفسه فيجعلها قاعدة لتمثاله وإطاراً لصورته ! فهو لا يحيا حياة بهائم الأنعام تحمى ضعفها بالاجتماع ، وإنما يعيش عيش سباع الطير والوحش لا تُشْبِل على أفراخها و أجرائها إلا ريثما ترتاش وتضرى فلما اختيروا للدعوة الكبرى استجابوا لقوة القوى ، واطمأنوا الألفة الروح ، واستَجرُّوا لحكم الجماعة ، حتى بلغوا رسالة الله . ثم تحرك فيهم الهوى الموروث وتيقظ الطبع الأثِر ، فهبّت الفردية تحلل العقدة ، وتشتت الوحـــدة ، حتى قسّمت الوطن بلاداً ، ومزقت الشعب أفراداً ، خضعوا لسلطان المغير ودانوا لقوة الغاصب !

* *

لاتزال هذه الفـــردية القبيحة وتوابعها من شهوة الرياسة وحب الاستئثار ودناءة الحرص ، تُقَطّع أوشاج المجتمع فى أقطار العرب ، فتفسد

كل موضوع وتبطل كل مشروع وتُشَتِّت كل ألفة وفى مصر أحد تلك الأقطار تستطيع أن تعرض جملة أمرها على رأيك فتجد المثال الذى لا يبعد والحال التى لا تختلف . فالسياسة هنا وهناك لا تكاد أحزابها تقوم على فكرة جامعة ومبدأ متحد . إنما هى فرد يَذْبُه فى الخير أو ينبغ فى الشر ، فتأتلف عليه الأفراد المختلفون فيكون منهم مكان النظام[1] من العِقد يمسكه مادام حيًّا قويًّا ، فإذا انقطع ذهب الحب أبَاديد والاقتصاد هنا وهناك جهود فردية تخشى المنافسة وتتعجل الربح وترضى بالنصيب الأخس ؛ لأن الفردية قتلت فينا الثقة فلا نساهم فى رأس مال ، وأضعفت شعورنا بالخير العام فلا نشارك فى مشروع ، ونشرت بيننا داء الحسد فلا نستقيم على رأى جميع . وما النهضة الاقتصادية الحديثة إلا نبوغ فرد أنِس الناس بناحيته واطمأنوا إلى كفايته ، فأخلدوا إليه بالثقة وألقوا فى يده المقاليد . والأدب هنا وهناك لاتزال دوافعه فردية ومراميه خاصة ؛ فالقصيدة عواطف الشاعر لا تكاد تخرج عن دخائل نفسه ومدارج حسه ؛ والمقالة خواطر الكاتب لا تكاد ترمى إلى غرض محدود ولا تجرى فى مذهب معين ؛ والأغنية لواعج المغنى فلا تعبر عن المعانى العامة ولا تهتف بالأمانى المشتركة . أما الملاحم القومية والقصص الاجتماعية والأناشيد الشعبية فتلك أغراض لاتزال منابعها ناضبة ودوافعها دخيلة .

يأخذ الفرد حال من الوجد أو الشوق أو الطرب فيجد من القصائد والأناشيد مايترجم عن هذه الحال فيدندن ويتغنى وتكون الجماعة منا فى مجمع من المجامع أو ملهى من الملاهى أو موكب من المواكب ،

---

(١) النظام : الخيط الذى ينظم به اللؤلؤ ونحوه .

فيأخذها انفعال مشترك من ابتهاج أو احتجاج أو افتخار أو تحمس ، فتريد أن تعبر عن ذلك بقول واحد وصوت واحد ونغم واحد ، فلا تجد إلا خلجات تتوقد ، ونظرات تتردد ، ثم سكوناً بارداً كعرق المبهوت الخجل ! حتى السلام الوطني[1] نعرفه نغماً ولا نعرفه كلماً ، كأنما وضعوه لأمة بكماء !

كذلك الفن هنا وهناك لا يجد من حرج الفردية مكاناً للتنوع ولا مجالاً للتقدم . فالتصوير كالشعر قلما يتعدى صورة الفرد وعاطفته والرقص حتى من الرجال لا يكون إلا من فرد ، ولا يظهر من هذا الفرد إلا متعاقباً على أجزاء خاصة من جسمه كالعجز والبطن والثديين والعنق ! فهو حركات متقطعة مستقلة كأبيات القصيدة في العصور الخالية لا تربطها علاقة ولا تجمعها وحدة . والغناء والموسيقى يقعان دائماً على أصوات مفردة ، وتقاسيم مرددة ، وفرديات (مونولوجات) متشابهة ، ومعان متكررة ! فليس لنا — حتى ولا للقرويين — غناء جماعي ولا رقص جماعي يعبران عن شعور الجماعة ساعة الطرب أو الغضب أو النصر بكلمات موقعة وحركات موزونة ! ولكل أمة من أمم الأرض أفنان شتى من ذلك حتى الزوج !

إن الفردية تعلوا فتكون الاستبداد ، وتسفل فتكون الأنانية وإن الجمعية[1] ترتفع فتكون الإنسانية ، وتنخفض فتكون العصبية وإن بين الإنسانية والعصبية شعباً يعز وأمة ترقى وذكراً يبقى وأثراً يخلد ولكن بين الاستبداد والأنانية تحكم الهوى وشقاء العيش وذل الأبد فإذا رأيت الأحزاب تتناقض وتنحل ، ومشروعات الشباب تضعف وتعتل ،

---

(١) نشيدنا قبل الثورة

(١) الجمعية : مصدر صناعي يقابل الفردية .

وإدارة الحكومة تسوء وتختل ؛ فأرجع علل ذلك — غير مخطىء — إلى هذه الفردية حين تتعلى فتستبد ، أو حين تتدلى فتستأثر ؛ فلولا هذا الطبع الأصيل الذى طغى على الشعور وبنى على الفطرة لتنبه فينا الضمير الاجتماعى فأخلصنا للأمة كما نخلص للأسرة ، وعملنا فى الديوان كما نعمل فى البيت ، وأحببنا لعامة الناس ما نحب لخاصة النفس ؛ ولكن الفردية داء دخيل لا يحسمه إلا الدين الذى حسمه عن نفوس العرب حين اتبعوه . فهل إلى رجوع إليه من سبيل ؟

على ذكر كتاب

(٨ أبريل سنة ١٩٣٥)

فى مصر من الباشوات المثقفين فئة كثيرة تميزوا عن الأشباه لأنهم مهروا فى أداء العمل ، أو وقعوا فى طريق الفرص ، أو رقوا فى معارج السياسة ؛ ثم تهيأت لهم بالمدارسة والممارسة أسباب العلم والخبرة ، فخبروا أسرار الأمور ، وسبروا أغوار المشكلات ، وصرّفوا شؤون الدولة على نحو من الحكرة المفروضة فهم لا يبرحون معسكرين فى الميدان الحكومى فرقة فرقة ، يتقاذفون الإدارة ويتنازعون الوزارة ويتداولون الأمر ، حتى أسرفوا عَلَى خير الأمة وافتاتوا عَلَى رأى الجماعة ، فقصروا كفايتهم على الخصومة ، وحددوا غايتهم بالحكومة . فهم إذا وثبوا إلى الحكم استفرغوا الوسع فى البقاء فيه ، وإذا انقلبوا عنه استنفدوا الوسائل فى الرجوع إليه أما تسجيل التجربة بالتأليف ، ونشر المعرفة بالصحافة ، وتأييد العدالة بالمحاماة ، فعمل لا يدخل فى حساب الجهد ولا يخطر فى مرام النية ! كأن العودة إلى ملابسة الشعب ومداخلة العامة ومزاولة الحرفة أصبحت لا تتفق مع نباهة الاسم ، ولا تتسق مع جلالة اللقب ، ولا تجرى على تقاليد المنصب !

فى البلاد التى نطيل إليها النظر ونزعم لها الكمال ونحصر فيها القدرة ، نجد رئيس الحكومة إذا تعطل من الحكم ، ورئيس الجمهورية إذا فرغ من الرياسة ، عاد كل منهما إلى الموضع الذى صعد منه إلى الديون أو انتخب فيه إلى القصر ، فيستأنف الجهاد اليومى فى سبيل الأسرة والأمة والحكومة بنشاط البادىء ونفسية التابع ورجاء الطموح ، فهو يدور مع الطبيعة دورة

العام : يبدأ لينتهى ، وينتهى ليبدأ . وفى كل طور من أطواره المتعاقبة تراه يندمج فى البيئة ، ويأتلف مع النظام ، ويرى عن الواجب ، فينشر المذكرات ويحرر المقالات ويحضر المرافعات ، ويكابد فى خلال ذلك طمع الناشر وعنت الناقد ومنافسة الحرفة ؛ ولكنه على الرغم من رَهق الحياة الجافلة وكلال السن العالية ، يؤدى إلى وطنه المنعم زكاة النبوغ وضريبة المجد ، يؤديهما عملاً لا يتأبّه ، وإحساناً لا يَمُنّ ، وإخلاصاً لا يَبِن .

* * *

ذلك هناك والكفاية موفورة والحجّة واضحة والأمر متسق . أما هنا ورجالات الرأى قلال ، وتبعات العمل ثقال ، وميادين الجهاد عُزْل ، ترى النابه منا متى بلغ الوزارة من أى طريق وفى أية سن ، ختم حياته العاملة فاختزل الماضى ، واعتزل الشعب . وازدرى العمل ، وغفا على رخاء معاشه . فهو وزير ما دامت وزارته ، فإذا سقط انقلب إلى مداره العالى يُزَجِّى فراغه للملول بالتردد بين أبهاء المستوزرين ونادى الحزب أو نادى (محمد على) يتشمم الريح ، ويتسقط الأخبار ، ويتربص بالحكومة القائمة الدوائر !

هو وزير أو منتظر فالك تكلفه أن يكتب فى صحيفة حزبه ، أو يساهم بالجد فى نهضة شعبه ؟ تلك تكاليف العيش لمن لم يدرك الثروة ، وأزواد الطريق لمن لم يبلغ الغاية ، والوزارة غاية الأمل فى الثراء والعظمة ، فإذا أدركها لا يسعه بعدها كرسى فى مكتب ، ولا يجزيه سهم فى شركة والظفر بها ولو مرة حق مكتسب يسلكه فى سلسلة المتعاطين حرفة الحكم ، فيضع نفسه ولقبه فى صندوق ذهبى ، ثم يعلقه فى خيوط المنى ، ثم يدع النسيم يهدهده بين باب القصر ونافذة المندوب[1] ، حتى إذا عصفت بالوزارة

---

(١) المندوب السامى وهو عميد السياسية الإنجليزية فى مصر قبل المعاهدة المصرية الإنجليزية

أزمة ، أو شغر فى مجلسها محل ، رفع برأسه الغطاء العسجدى وقال على طريقة ديكارت : أنا أشْرَئبّ ! إذن أنا موجود !

* * *

على أن القاعدة المتيدة أخذت تحمل فى طواياها بعض الشواذ ، فقد رضى الوزير والسفير حافظ عفيفى أن ينزل إلى صفوف الباحثين والمؤلفين فأصدر كتابه القيم « الإنجليز فى بلادهم » عن استقراء دقيق واطلاع شامل ، فكان تعريضاً أليماً بذلك الذكاء المتعطل الذى يستفيد ولا يفيد ، وذلك النبوغ الفاجر الذى يدخل الحكم ليعسف ويخرج منه ليكيد !

العام الهجرى

(١٥ أبريل سنة ١٩٣٥)

ها هو ذا العام الجديد يهل ، فأين السجل ؟ تعال نقرأ ماخطه التاريخ فى صفحته التى طواها الدهر أمس ! هل انفرجت خوانق الأغلال قليلا عن الرقاب العانية ؟ هل انجابت غواشى الغفلة عن العيون السادرة ؟ هل انجاب قتام الذل عن النفوس العزيزة ؟ هل ائتلفت على عوادى الخطوب هذه القلوب الشتيتة ؟ هل اقتنع المعتدون والمستبدون أننا ماض ينبعث ، ومجد يستيقظ ، وأمة تريد أن تستأنف بلاءها فى جهاد الناس ، وتستعيد مكانها من صدر الوجود ؟

رويدك لاتطل النظر فلن تجد فيه واأسفاه إلا عُبر عينيك[1] ! لقد طويت هذه الصفحة كما طويت قبلها تلك الصفحات على غير بياض ناصع ! وإن تاريخنا لايزال يكتب عَرضاً فى تاريخ الدول أو لَحَقاً فى تاريخ انجلترا ! فليس له فى التقويم العربى حساب جار ، ولا فى سفر العالم فصل مستقل !

لو كنا نسير إلى الوراء لعثرنا يوماً بمجد المصريين والعرب ، ولو كنا نسير إلى الأمام لظفرنا يوماً بمجد الفرنسيين والإنجليز ، ولكننا سقطنا من الونى والوهن فى طريق الإنسانية يخطو فوقنا الركب ويدور علينا الفلك ، حتى رن فى أسماعنا صوت الأجداد يُهيب صارخاً بالرقود ، فنهضتنا نهضة المَنْبَت

---

(١) العبر بالضم : سخنه العين حين تبكى ورأى عبر عينه رأى ما يكرهه ويبكى منه .

الحاً نستلهم الأعراق ونستنبىء الدلائل ونتملق الأحداث ونستحث القادة . ثم انقضى على هذه النهضة المتلكئة قرن ولا نزال شملا يتجمع وأملا يتطلع وعزماً يشب .

متى السير إذن يا هادى المحجة ؟ لقد مللنا قرع الطبول ودق البشائر ، وقتلنا الزمن فى تأييد رأى وتفنيد رأى ، وأضعنا الجهد فى عقد لواء وحل لواء ، وخجلنا من هذا الموقف السلبي الذى يرصد الأشهب فى الخيال ، ويصور الخطط بالشعر ، و يطلب النصر فى أحلام المنى .

* * *

انطوت صفحة هذا العام المنصرم ولم تسجل فى أوطان العروبة غير الأسى والألم : سجلت فى مصر كما سجلت من قبل أهواء تتصارع ، وأطماعاً تتعارض ، وفردية تطغى ، وأثرة تُسف ، وخصومة تكيد ، وشعباً يكابد داء الضرائر[1] فى زعمائه ، ويكاد يستجير بعدوه من أوليائه ، وينظر فيرى فى يده العتاد وفى طبعه الاستعداد ثم لايزال برغم ذلك وضيع الشأن فى الحياة ، مسلوب الإرادة فى الحكم ، مبذول المقادة للغاصب !

وفى العراق سجلت أحداثا تُرمض القلوب وتثير دفائن الهم ، من دبيب العقارب بين الجيرة ، وسعى النمائم بين الإخوة ، وتمكين الطائفية للنفوذ الدخيل !

وفى الشام سجلت تفريق الكلمة بالوعود ، وتمزيق الجسم بالحيلة ، وتسكين الألم بالمرقد . كذلك سجلت فى المغرب دموعاً يمسحها اللاطم بكفه ،

---

(١) داء الضرائر : الحسد .

ووشائج يقطعها الظالم بسيفه ، ونفوساً ينزو بها الحِفاظ للجنس والدين فتركض في القيد ، وتضطرب اضطراب المهيض في القفص .

ثم سجلت في شبه الجزيرة فعل الفقر البئيس في دار الهجرة وملاذ الدعوة ومُطمأَنّ الضريح المقدس .

أما السطور الحمر التي سجلتها لفلسطين البائسة ، فمن صبيب دمائها كان المداد ، ومن نشيج بكائها كان الكلم : هي إعلان بيعها القهري في سوق السياسة ، يتزايد فيه أهلها العرب بالحق والحق رأى واجتهاد ، وباقانون والقانون ورق ومداد ؛ ثم يهود العالم كله بالذهب والذهب إله وشيطان ، وبانجلترا وانجلترا أسطول وبرلمان ! فالعرب في فلسطين مقضى عليهم بالقتل والتشريد ، وإخوانهم في الأوطان الأخرى ينظرون إليهم نظر العواد إلى المريض المشفى ، يسعفونه بالدعاء ، ويواسونه بالبكاء ، والدعاء لايرفع الواقع ، والبكاء لايدفع الموت !

* * *

هذه عناوين الصفحة المطوية ليس بينها عنوان جميل ! فليت شعرى ماذا تخط أقلام القدر في صفحة العام الجديد ؟ !

لو كنا ننتفع بالذكريات ونستفيد من العظات لما بددنا الجهود في التجارب ، وأفسدنا الأمور بالتردد . إن لنا تاريخاً إنسانياً حافلا ، فيه لكل عظيمة ذكرى ، ولكل ملة تجربة . وإن لنا دستوراً إلهياً كاملا ، فيه لكل مضلة هدى ، ولكل قضية بينة . فإذا التمسنا دليلنا من روح السلف ، واقتبسنا هدانا من وحى الله ، استقمنا على الطريقة التي نهجها الرسول فتوافينا معاً على الغاية ، وانتهينا جميعاً عندها إلى الوحدة .

إن الرسالة العربية التى هاجرت مغلوبة من مكة إلى المدينة ، سافرت غالبة من الشرق إلى الغرب ، بفضل مبدئها الإلهى الذى قامت عليه ودعت إليه وفازت به ، وهو توحيد الله ، وتوحيد الكلمة ، وتوحيد القوى ، وتوحيد الغاية .

وقد استوثق الأمر لأهلها ما استمسكوا به . فلما تراخت العرى بينهم وبينه تقاذفتهم السبل ، وتقاسمتهم الأطماع ، وصار بهم التخاذل والتواكل إلى ما هم عليه اليوم !

جمعية نهضة القرى

(٢٢ أبريل سنه ١٩٣٠)

احتفلت هذه الجمعية البرّة منذ يومين بانقضاء عامين من جهادها النبيل فى إنهاض القرية المصرية . وهذه الجمعية هى أيضاً من أعمال الشباب ولعلها أقرب أعمالهم الجليلة إلى الخير المحض ؛ فإن ما ركبوه إلى اليوم من قحَم السياسة ، وما عالجوه من خطط الاقتصاد ، إنما كان مبعثه الغرور القومى ، أو الشعور الوطنى ، أو هما معاً . أما هذا العمل فمبعثه الخالص عاطفة البر فى الإنسان بأخيه الإنسان . وهذه العاطفة إنما غرستها فى القلوب يد القدرة ، وأنمتها قوة الفطرة ، وفرضتها طبيعة الحياة ، ليحصل بها التئام شمل الناس ، وانتظام عقد المجتمع ، واتجاه وجهة الإنسانية بالتعاون والتضامن إلى الكمال البشرى الممكن .

راع الشبابَ — وهم موضع الحس المرهف من الأمة — ماجرّه تفشى الأمية على القرى المصرية من انقطاع السير ، وانخزال الحركة ، وانتشار العلل ، وانفجار الأحداث ، واغبرار العيش ، والقرية هى مصدر القوة للشعب ، ومورد الثروة للوطن ، فحشدوا جنودهم فى هذا الميدان وسددوا جهودهم إلى هذا الغرض ، وراحوا يهاجمون الجهل والفقر والمرض فى تلك الحظائر أو المقابر التى ضَمنت أجوافُها السود أربعة أخماس الأمة ، ثم دأبوا يقرعون الآذان بالخطابة ، ويَخزون الضمائر بالكتابة ، ويهيبون بالحكومة والقادة أن يأخذوا من تجميل المدينة لتأثيل القرية ، ومن ترف الباشا لحاجة الفلاح ، ومن فلسفة الخاصة لأمية العامة ، حتى ارتفعت حجب الأسماع ، وانكشفت أغطية القلوب ، فعطف على قضية القرويين رجالات البلد من أولى الحكم وأهل العلم وذوى

المثالة ، وألفوا من قدرة الشبيبة وخبرة الكهولة دستور العمل المنتج لإنجاد الفلاح وإسعاد القرية . . .

* * *

لعل أنطق الأدلة بخطورة العمل الذى تقوم به هذه الجمعية الجليلة ، أن أصف لك قرية أعرف بيوتها كما أعرف بيتى ، وآلف أهلها كما آلف أهلى . وستجد حين توازن بين قريتى وقريتك أنى وصفت على الجملة قرى مصر جميعاً :

كومة من سباخ الأرض قام عليها أكواخ متلاصقة من اللِبن [1] ، سقفوها بالخشب والقصب ، وحلوها بالعلف والحطب ، وجلّلوها بشرفات من الروث اليابس ، ثم جعلوا ظهرها مراحيض للحاجة ، وبطونها مسرحاً عجاجاً لشتى الأوالف والدواجن من الكلاب والقطاط والعجول والدجاج والبط ؛ ثم جمعوا بين قاعة الإنسان وزريبة الحيوان فى فناء واحد ؛ فالحديث يمتزج بالخُوار ، والمضغ يشتبه بالاجترار ، والرجل والثور ، والمرأة والبقرة ، والطفل والعجل ، يعيشون سواسية فى شيوعية عجز عن تحقيق حلمها (الرو ' لا يؤديك إلى هذه الدويرات العُمْى مسلك واسع ولا طريق مشروع ؛ إنما هى طوائف طوائف ، تفتحت كل طائفة منها على زقاق ضيق غير نافذ . ولن تستطيع الدخول فى هذا الزقاق إلا من الطريق الدائر حول القرية ! . بلى قد يشق البلدة منفذ صاعد هابط متحدر متعرج وعر ، ولكنه بين الفجوات والحفر ، يكون أشبه بصراط الحق بين مزالق الفتنة .

يركبها من الشمال مستنقع ومن الجنوب مستنقع ، ثم يحيط بها ويتخللها

اللبن : الطوب الذى لم يحرق .

تلال من السرجين [١] والسماد منها الرطب ومنها اليابس ، وفى أحضان هذه التلال وعلى حواف هذه المناقع ، قامت مجالس القوم ، يجلسون فيها تحت الجدران وفوق المصاطب يستجمّون حيناً من العمل الدائب والعناء المرهق ، لا يألمون لسع البعوض ، ولا ينكرون ريح الوحل . ثم لا يجرى بينهم إلا الحديث القابض للنفس كتضاعُف الدَّين على الحقـــل ، وتحكم المالك فى الريع ، وفتك الآفات بالزرع ، وإلحاح الكساد على القطن ، وما تدخله تلك الحال على النفس الجاهلة من وساوس الأطماع وسخائم الحقد وغوائل الحسد !

اصطلحت على دمائهم الفقيرة جراثيم الملاريا والبلهارسيا والأنكلستوما ، فغدوا كواسفَ الوجوه خواسفَ الجسوم خوائر القوى ، يعالجون المرض بالصبر ، ويخنقون الألم بالتسليم ، ويدافعون الموت بالتعاويذ ، ويسيئون الظن بالمستشفيات التى لا تقبلهم إلا بالشفاعة ، ولا تعاملهم إلا بالفظاظة ، ولا تحسن علاجهم إلا بالمال فى العيادات الخاصة . . . وأين المال من رجل كل ما يملكه أجرة يومه لقوت يومه ؟ وليت هذا القوت كان من الأقوات التى تصلح الجسم وتدفع السُّقم وترد العافية ! إنما هو فى الغالب رُغفان من الذرة والشعير مأدومة ببعض أحرار البقول [٢] والمش .

استغل المُلاك ضعفهم والمرابون جهلهم ، فوضعوا أيديهم على أختامهم يطبعونها على العقود والصكوك فى غير رحمة ولا ذمة . حتى إذا انقضى الحول ، وآل كدح الأسرة الناصبة وجهد الماشية اللاغبة وشقاء الفلاح المسكين ، إلى الثمرة المرجوة ، عـــدا عليها الدائن اللص ، أو المالك الظالم ، فجباها لجيبه ، أو جناها لمخزنه . .

---

(١) السرجين : الزبل .

(٢) أحرار البقول : ما يؤكل منها غير مطبوخ كالسريس والفجل والخس .

ذلك على الإجمال وصف القرية ، فهل تجد فرقاً بينها وبين أخصاص الهمج فى نشأة الحياة وطفولة الزمن ؟ وتلك هى على التقريب حال الفلاح ، فهل تجد فرقاً بينه وبين البهيم الذى لا يصطنع العلم ولا يدعى المدنية ولا يزعم لنوعه الرقى ؟

فإذا استطاعت هذه الجمعية الشابة أن تجعل من هذه الأقذار المركومة مسكناً يجمل فى العين ويجدى على الصحة ، و من هـذا الـكائن المهمل رجلا يشعر بالحيـــاة ويسير مع الأمة ، فقدر فى نفسك أى واجب تؤدى وأى خير تفيد !

أعيادُ الحياة والحرّية

تخرج الرسالة اليوم إلى الناس فى (شم النسيم) وشم النسيم فى مصر عيد اكتمال الربيع ، يخرج الناس من دورهم فيه إلى الطبيعة السافرة المجلوة فى العراء الكاسى بأفنان الزهر ، وفى الهواء الناسم بأنفاس الرياحين ، يشهدون افتضاح سر الحياة فى الأرض ، وانفتاح باب الجنة على الروض ، وانتشار جمال الله فى الكون ، وافترار الدهر العابس عن بسمات البشر تفيض فى العيون والصدور ، وتشرق على الحقول والدور ، وتهيء القرب بين الله والإنسان والطبيعة .

أشدَّ ماتفعل بالنفوس مشاهد الحياة وذكرى الحرية !

فى هذا اليوم يحتفل المصريون فى (شم النسيم) بعودة الروح إلى الدنيا ، وهبّة الطبيعة من مرقد الموت . وبالأمس كان عيد الفصح المسيحى ، احتفل فيه نصارى الشرق كما احتفل فى مثله من قبله نصارى الغرب ، برجعة الناسوت وقيامة يسوع . ومنذ أيام كان عيد الفصح اليهودى ، احتفل فيه بنو إسرائيل بخروجهم من ظلم الفراعين وعودة الحرية بهم إلى أرض فلسطين ! فلِله هذا الفصل الجميل كيف يعود فيه الخلق ، ويرجع معه الشباب ، وتحيا به الحرية ، ويسبح منه الوجود فى فيض من الشعور القدسى يدرك فيه الإنسان أنه حى ، ويدرك الحى ، أنه حر ، ويدرك الحر أنه جميل ، ويدرك الجميل أنه صالح ، ويدرك الصالح ، أنه خليق بملكوت الله وخلافة الأرض !

تباركت يامبدع الربيع ومصور الجمال ومعيـــد الخلق ! هذا النيل يتنفس بالحياة ماؤه فما لأنفسنا تموت ؟ وهذا الوادى يتفجر بالخصب ثراه فما لآمالنا تذوى ! وهذا الربيع يرف بالحسن نسيمه فما لأخلاقنا تسوء ؟ ألسنا جزءاً من الطبيعة نتجدد كما تتجدد ، وندور على قطب الحياة كما تدور ، ونجرى على سنن السكون كما تجرى ؟ إذن فلماذا يعود أبريل فى كل عام فيردُّ إلى الشجر حُلاه ، وإلى البلبل أغاريده ، وإلى العش زياطه ، وإلى الحيوان نشاطه ، وإلى العالم كله بهاءه ورونقه ، ونلقاه نحن فى كل موعد إبان وروده ، فلا نجد عنده وا أسفاه ريشة لجناح ، ولا نفحة لأمل ، ولا جِدَّة لدارس !

* * *

هكذا قضى الله أن يكون الربيع مستأنف القوة والفتوة والرجاء لكل حى ، ومسترجَع الذِّكَرَ الممضة والأطياف الحزينة لابن آدم وحده ! فهذه الشجرة التى أراها فينانة الأفرع ريَّا الأماليد (١) ، كانت فى عهد من العهود عشاً لطائرين بسط الشباب لهما فى الجناح ، وفسح الحب لهما فى الجو ، فيطيران ما شاء الهوى أن يطيرا ، ثم يأويان إليها ويغردان عليها ، حتى تقوَّض العش ونَسل الجناح ويبست الحنجرة ! وها هى ذى الشجرة نفسها قد عرَّاها الخريف عشرين مرة ، وكساها الربيع عشرين مرة ، ولكن ذاوى الشبية لن ينضر وماضى الحبيبة لن يعود !

وهذا المرج الذى أراه مُوَشّى البرود منضور الجنبات ، كان فى عام من الأعوام مسرحاً لمشهد من مشاهد الصبابة ، انتظمت به عقود الحب ،

---

(١) الأماليد : جمع أملود وهو الغصن الناعم اللين

وانتثرت فيه حبات القلب ، وتبددت عليه خطوات السعادة .

ثم تصوّح المرج وعاد فاخضوضر وأزهر ، ولكن مضاجع الهوى لن تُمهّد ، وذواهب الخُطى لن تؤوب !

وهذا الجدول الرقراق الذى أسمع هسيسه فوق الحصى وتحت الصفصاف ، كان فى ربيع من الأربعة مرآة لوجهين حبيبين قرءا سرّيهما فى صفائه ، ومزجا حديثيهما بخرير مائه ؛ ثم جف مجراه وما لبث أن فاض ، وانقطع حديثه ثم عاد فاستفاض ؛ ولكن الوجهين لن يعود بينهما لقاء ، والحديثين لن يكون لانتهائهما ابتداء !

وهكذا يجد الإنسان أنه وحده فى كل منظر من مناظر الأرض ، وفى كل مظهر من مظاهر الربيع ، أثر بعد عين ، وذُواء بعد نشوة ، وبِلًى بعد جِدّة ، وذكرى بعد أمل !

* * *

على أن للربيع يداً على النهضة المصرية لا تكفرها له القلوب ماتجدد على الدهر عيده : تلك هى رجعة الروح فيه إلى حياتنا الاقتصادية . وما هذه الروح الراجعة إلا بنك مصر ، بثها الله فى نفحات الخلد من أوائل مايو ، فنضّرت من حياتنا ما ذوى ، وأقامت من بنائنا ما هوى ، واتحدت بطبيعة الزمن الموزون وحركة الفلك المنتظم ، فهى تتقدم ولا تتأخر ، وتجرى ولا تتعثر ، وتطلب الغاية ولا تحيد .

لذلك يعود الربيع كل عام فيفتح للناس هوة للماضى ، ويفتح لبنك مصر وحده باب المستقبل ، فينمو نمو النبات بَرَكة على بَرَكة ، ويتضاعف تضاعف الحياة شركة بعد شركة ، ويجذب الوجود المصرى

معه إلى السبيل التى يأمن فيها الفناء ويخرج منها إلى العافية !

بعد ثمانية أيام يحتفل المصريون بمرور خمسة عشر ربيعاً على مولد بنك مصر ، وسيكون هذا الاحتفال المترقب حجة لمصر أو حجة عليها ! فإذا أجمعت على أن سيكون احتفالها بعيده احتفالاً بنهضتها به وحياتها فيه ، دلت الناس على جدارتها بفضله ، وعرفانها بجميل أهله ، واطرادها مع الكفاية والجد فى سبيله ، وإلا كان احتفالها بهذا العيد العظيم كاحتفال اليوم بشم النسيم : يحتفل فيه بالفسيخ والزبيب والتمر ، ثم لا تعبأ بجمال الطبيعة فى جنة ولا بهر !

بنك مصر

(١٣ مايو سنة ١٩٢٥)

— ١ —

غداً فى الساعة الخامسة يبدأ الاحتفال القومى بمرور خمسة عشر عاماً على مولد بنك مصر . والاحتفال بعيد هذا البنك النامى الخصيب إحتفالٌ بالنصر المؤزر فى جهاد الأمة لاستقلالها الحق ؛ فإن مصر منذ انحسر عن الأرض ذلك الطوفان الدموى الذى غمرها أربع سنين (١) هبت تقر فى الدول وجودها الطبيعى الحر ، فما صغت لها أذن ، ولا نهضت بحجتها عدالة ذلك لأن أوربا الجائعة المجهودة تريد أن تسد فجوات القنابل وحفائر الخنادق وأخاديد القبور مما بقى على الأحداث من أقوات الشرق والشرق — كما نعلم يستطيل بالكرم ويعتز بالجاه ؛ فما دمت تحله الصدر وتبوئه الوظيفة ، فلا عليه بعد ذلك أن يكون كرسيه بالاستعارة ومأكله بالدين ومسكنه بالأجرة !

---

(١) أريد الحرب العالمية الكبرى التى شبت نارها من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٨

حل المنتجون العجاف من أهل أوربا ثمر نشاطهم الصناعى إلى أسواقنا القاصرة المستهلكة ، وقاموا على أرزاقنا مقام القيم يبضون لنا منها بما لا يكاد يستر الجسم ويمسك الرمق ، ثم يحولونها عمراناً فى خرائب باريس وسلطاناً فى حكومة لندن ؛ ويسمعوننا نثور فى المحابر ، ونصيح على المنابر ، فيقولون : اكتبوا ما واتى المداد القلم ، واخطبوا ما أسعف الريق اللسان ، فلن ينزع العلق خراطيمه الماصة من الجلد ، ما دامت جنودكم مقبورة فى الثكنات ، وأموالكم مطمورة فى الخزائن حينئذ قال رجل الساعة محمد طلعت حرب . رويدكم ! سنرسلها شعواء بالذهب لا بالحديد !

☆

كانت مصر فى العهد الذى أسس فيه بنك مصر فى مأزق من مآزق الحياة المشتبهة الخادعة تنعم فى رخـــاء كاذب وأمن مريب ، ووراءها أوزار حرب ضروس ، وأمامها لوائح أزمة طاحنة ؛ وشباب البلاد تعصف فى رءوسهم نخوة الوطنية والحرية والكرامة ، فلا يفكرون إلا فى الاحتلال ولا يعملون إلا للسياسة ؛ وأغنياء الأمة جاثمون على أموالهم المكدسة جثوم الدجاجة المرخم (١) على بيضها العقيم ، لا يثمرونه بأنفسهم لنقص الكفاية ، ولا يكلون استثماره لغيرهم لفقد الثقة ؛ ورجال الدولة مشغولون بجباية الخراج وتحضير الميزانية ، واستئناف المفاوضات ، وتحرير مشروعات المعاهدة فلا يملكون حماية التجارة لقيود الجمرك ، ولا يستطيعون إنشاء الصناعة لمناوأة المحتل ؛ والأجانب عاكفون على منابع الوادى يستنزفونها بالربا ويكدرونها بالسفه ، ثم لا يسمحون للظمآن أن يألم ولا للمهان أن يغضب

وكانت عناية الله التى ألهمت سعد زغلول أن يخرج شعبه من رق الاحتلال

(١) أرخمت الدجاجة على بيضها : حضنته ، فهى مرخم .

السياسى ، هى التى ألهمت فى الوقت نفسه طلعت حرب أن يخرج قومه من رق الاحتلال الاقتصادى : وكلا الرجلين منذ نشأ ميسر لما قام له : فسعد باشا بطبعه رجل كفاح وخصومة ، وزعيم برلمان وحكومة ، ورسول من رسل الوطنية الروحية له عظمته وجاذبيته وإيمانه . وطلعت باشا رجل إنشاء وعمل ، وصاحب تدبير وخطة ، ورسول من رسل الوطنية المادية ، يهذب النفس برفاهة الجسم ، ويرفع العمران بوفرة الإنتاج ، ويضمن الاستقلال بقوة الثروة ، وله كذلك عبقريته ونزاهته وإخلاصه .

وثق الناس بالزعيمين الخطيرين ، فجادوا للأول بالأنفس فشاد بيت الأمة ، وكون الرأى العام ، وألف الوفد وجادوا للآخر بالأموال فشاد بنك مصر ، وأنشأ شركات مصر ، وكون ثروة مصر وربى سعد باشا لوطنه شباب جهاد وتضحية ، كانوا منه مكان القلب الشاعر ، والحس المدرك ، والروح الملهم . وربى طلعت باشا لشعبه شباب اقتصاد وروية ، كانوا منه مكان البصيرة الحازمة ، واليد العاملة ، والعقل المنظم . ثم كان من هؤلاء وهؤلاء دليل ناهض على يقظة هذه الأمة ، وشعور بإرادتها لما تفعل ، وسيادتها على ما تملك ، وحريتها فيما تريد .

ولا أستطيع بهذا القلم الموجز فى هذا المكان المحدود أن أجمل ما أضفاه بنك مصر وشركاته ومنشآته من النعمة على الأمة . وإن فى تقرير مجلس الإدارة الذى نشر منذ أيام عن السنة الخامسة عشرة من حياة البنك ، والخطبة الخطيرة التى سيلقيها المدير الجليل فى احتفال الغد عن حياة البنك ، لبلاغا لمن لم يسمع إلى اليوم ذلك اللحن القوى القدسى الذى يتألف من صريف الأموال المصرية فى البنك ، وهدير البواخر المصرية فى البحر ، وأزيز الطوائر المصرية فى الجو ، ودوى المصانع المصرية فى (المحلة) .

إن نجاح بنك مصر وشركاته هو وحده الحجة الناهضة على نضج هذا الشعب ، لأنه نسقٌ من الضرورة والقدرة والنظام والثقة لايقوم على الهوى ، ولا ينتظم على الطيش ، ولا يدوم على الفساد ، ولا يتقدم على العجز ، ولا يبلغ شيئاً وراء الزعامة الرخوة . فبينما نجــــد النهضة السياسية تنتكس فترجع إلى الموت ، والحالة الأخلاقية تنحلُّ فتعود إلى المهانة ، والحركة الأدبية تضطرب فتنقلب إلى الفوضى ، نجد هـذا البنك ينمو نمو النبات بركة على بركة ، ويتضاعف تضاعف الحيـاة شركة بعد شركة ، ويجذب الوجودَ للمصرى معه إلى السبيل التى يأمن فيها الفناء ويخرج منها إلى العافية !

— ٢ —

نعود إلى الحديث عن بنك مصر مغتبطين كما يعود الطرب إلى تكرار لحنه والمؤمن إلى ترديد صلاته ! وهل كان بنك مصر وعيدُه فى الأسبوع المنصرم إلا لحناً شدا به كل لسان ، ودعاء صعد من كل قلب ؟ لقد جاء هذا العيد القومى كما توقعنا دليلا على رشد هـذه الأمة الكريمة : رحض عن سمعتها الأذى ، ودحض عن كفايتها التهم ، وجلا عن نهضتها الشكوك ، وبدد عن مستقبلها السحب ، وأعلن — فى شاى (الحديقة) ، وعشاء (الكونتننتال) ، ومهرجان القاهرة ، ورحلات الأقاليم ، بلسان طلعت حرب مدير البنك ، وأحمد عبد الوهاب وزير المالية ، والسّر إدوار كوك عميد سياسة الاقتصاد الإنجليزية ، والمسيو هنرى نوس ممثل رءوس الأموال الأجنبية — أن مصر التى غلها العجز الاجتماعى حيناً من الدهر عن استغلال حقها واستغلال خيرها واستثمار غناها ، قد أتاح لها بنك مصر وشركاته أن تشعر

بالقوة التى كنت فيها ، وتفطن إلى القدرة التى ذهلت عنها ، وتخرج من ذلة اليتم والعدم والقصور إلى عزة الرشد والوُجْدُ والأهلية .

نعم كانت الأيام الثلاثة التى حفلت بعيـد بنك مصر مظاهرة قومية موفقة ، شارك فيها قصر الملك ودار المندوب وجميع الأحزاب وكل الطبقات وعامة الشعب فى الساعة التى رجعت فيها السياسة المصرية إلى ذبذبتها الأولى : تتحرك ولا تسير ، وتتردد ولا تستقر ، وتتصرف ولا تملك . وكان ابتهاج الأمة بها ابتهاجاً بحقها الذى يتخلص من الباطل ، وفوزها الذى يتميز من الفشل ، و نصرها الذى يتبرأ من الهزيمة !

* * *

نستطيع أن تناقش وتعارض وتستريب إن زعم لك زاعم أن يقظتنا للعلم والأدب والحرية والسياسة بلغت الحس العالى المرهف ؛ ولـكنك أمام الأرقام التى قدمها إليك بالقول طلعت حرب ، والمنتجات التى وضعها بين يديك بالفعل طلعت حرب ، والمؤسسات التى عرضها عليك بالسينما طلعت حرب ، تعتقد اعتقاداً رياضياً أن نهضتنا الاقتصادية يقين لا يخامره شك ، وواقع لاتزخرفه مبالغة وإن فى تسميتنا هـذه النهضة التى نهضها بنك مصر فخلت عن الأمة حبوة العجز بالنهضة الاقتصادية ، تسمية لها بالوصف الأشهر والأثر الأغلب ، أما الواقع فإنها انتظمت مرافق البلد من كل نوع ، وتناولت أمور الناس من كل جهة : أجْدَت على العلم ففتحت له أبواب العمل ، وعلى التعليم فمهدت له سبل التطبيق ، وعلى الأدب فاستعملت اللغة فى أعمال المال ونشرت الثقافة بتسهيل الطباعة ؛ وعلى الأخلاق فأحيت فى الرجال الثقة وقوت فى الشباب الرجولة ؛ وعلى الاجتماع فوقت الأمة شر العطلة المجرمة والأزمة المستحكمة ، باستخدامها الألوف من الموظفين والصناع

والعمال فى شركات البنك وفروعه ؛ وعلى القومية فخلقت الروح الجماعية بإنشائها الأعمال التى تقوم على رءوس المال وتوزع العمل وتساند القوى وتضامن الجماعة ؛ وعلى السياسة فكفكفت عنها شِرّة النفوذ المالى الأجنبى بمنازلتها الجريئة له فى ميادينه القوية الحصينة ؛ وعلى الإسلام فساعدت على إقامة ركن من أركانه [1] وكشف الضر عن منزل وحيه وقرآنه ؛ وعلى وحدة العرب فوصلتها بأسباب التعاون ووثقتها بسلاسل من الذهب والاقتصاد اليوم وقبل اليوم كان دستور الحياة ، وعلة السعى لها ، وغاية الجهاد فيها ؛ فلا بدع إذا أثر فى كل شىء ، وعمل فى كل حركة ، وهاج فى كل ثورة ، وصاح فى كل نهضة .

* * *

شهدت كثيراً من المؤتمرات والمظاهرات والاحتفالات فى أغراض شتى ، فكان شعورى الذى أجده فيها شعور الحالم الذى يتوهم الحقيقة ، والفاقد الذى ينشد الوجدان ، والآمل الذى يرجو الظفر ؛ ولكنى شهدت هذه المرة احتفالات قومى بعيد بنك مصر ، فكان الشعور الذى ملكنى وملك الناس شعور العالم الذى اطمأن إلى التجربة ، والواجد الذى اغتبط بالحصول ، والظافر الذى انتشى بالنصر ، والحى الذى استعز بالكرامة .

وكنا نلحظ البشر الذى يجول فى المحيا الذى لا ينبسط ، والابتسام الذى يجرى على الشفة التى لا تفترّ ، فنتخيل فى وجه طلعت حرب وهو يشع بالإخلاص الساذج مستقبل بلادنا الذى يتهلل ، وأمل شبابنا الذى يبتسم .

نضر الله بالرضا والغبطة وجوه أولئك الأبرار المخلصين الذين شغفهم حب

---

(١) أريد تسهيل الحج بإنشاء شركة مصر للملاحة .

الخير ففكروا وأملوا ، ثم آمنوا وعملوا ، ثم استمسكوا بروح الله وقوة الشعب على عصف الخطوب وإلحاح المكايد ، حتى استقر بهم الإيمان على الفوز ، واستقام بهم الإخلاص على الطريقة ، فكانوا مثلا للجهاد الصابر المثابر الذى يتلمس القوة من جوانب الضعف ، ويتطلب الكثرة من أشتات القلة ، ويخلق النجاح اليقين من أحاديث المنى ، ويرفع فى معترك الشبه والظنون هذا الصرح الباذخ فيكون قاعدة للمصلح البانى ، ومنارة للمتخلف الوانى ، ومثابة للمتنكب الشريد !

إلى بعض الكبراء

(٢٧ مايو سنة ١٩٣٥)

عندكم يا سادتى المال ، ولكم الجاه ، وكان فيكم الحكم ، فلماذا تأبون أن يكون معكم المجد أيضاً ؟ رفعناكم واتضعنا ، وحكمناكم وأطعنا ، ثم صغنا مجدنا ألقاباً لعظمتكم ، وحشدنا أبناءنا جنداً لسطوتكم ، وجعلنا أموالنا مدداً لثروتكم ، وقلنا أفراد تقويهم روح الجماعة ، ورموز تلبسهم فكرة الوطن ، وألوية ترفعهم سواعد الأمة ، فإذا ضعفكم ينوء بقوة الحكومة ، وإسفافكم يهبط بسمو المنصب ، وارتفاعكم كارتفاع الأسهم النارية : فرقعة ولألاء ، ثم سقوط وفناء !

يزعم أرباب الشعر وأصحاب الخيال أن الإنسان ملكٌ مُرَنَّق الجناح(١) هبط من سمائه ولم يصعد ، فهو لا ينفك ما عاش نزوعاً إلى موطنه ! وهم يعنون بذلك أن الإنسان بالجزء الإلهى الذى فيه مسوق إلى الكمال ، مشوق إلى الرفعة ، فهو يفرغ من مطالب الجسد ليخلص إلى رغائب الروح ، ويبتدىء بالأثرة فى ضيق الأنانية لينتهى إلى الإيثار فى سعة الغيرية ، وينشأ على هوى الطبيعة معنى جزئياً ليعود بحكم التطور فكرة إنسانية ! فما الذى قتل فيكم هذا النزوع السماوى ، وصرف عنكم هذا الطموح المقدس ، فقيدتكم جاذبية المادة ، وعقلتكم شهوة الغرض ، وأبيتم — على نداء البطولة واستحثاث الرجولة — إلا أن تكونوا ناساً كأقل الناس ، لكم كروش لا تكتفى ، ونفوس لا تشتفى ، وأطماع لا تحد . . .

---

(١) رنق جناح الطائر : انكسر برمية أو داء .

ربما علل النفسيون هذا الميل الشاذ فى بعض كبراء اليوم ، بأنهم من فقد الخلق الصالح فى قصور ذاتى معنوى لا ينفك ؛ فهم يرتفعون قذفاً فى السماء ، ثم يسقطون جذباً إلى الأرض ، ولا يشعرون إلا كما يشعر الحجر بأن القاذف المجهول [1] رمى بهم أمامى فوق ، وسحق بهم أناسى تحت !

كذلك من يتعلم ولا يتربى ، ومن يتربى ولا يتدين ، ومن يتحرك ولا يقصد ، ومن يتصرف ولا يريد ! أولئك يحدون دنياهم بالأفق ، ويختمون حياتهم بالموت [2] ويزنون سعادتهم بالمادة ، ويضخمون على أقوات الشعب ضخامة الفيلة المروضة ليكونوا مركباً للملوك وفرجة للناس وغذاء للأرض ! وهؤلاء أنماط من الخلق كانوا صُبابة العهد القديم ، رسبت فيها أكداره وشوائبه ، ثم كانوا بحكم تخلفهم جسراً محطم الأركان مهدم القواعد ، لابد للجيل الجديد من اجتيازه لينتقل من عالم إلى عالم ، ويخرج من عصر إلى عصر . فهو يحملنا على اضطراب وخال ونحن نعبره على احتراس ومهل . وفى هذا الاحتراس وذلك الاضطراب سر ما نرى فى خُطانا من قِصر ، وفى نهضتنا من بطء .

ماعلة هذه الهزيمة فى مصر ، وما سبب هذا الخلاف فى فلسطين ، وما باعث هذه الثورة فى العراق ؟ لا تلتمس دواعى ذلك كله فى كيد الدخيل وخداع العدو ، فإن الغاصب يستطيع إن شاء أن يسلبك مالك بالحيلة ، أو استقلالك بالغيلة ؛ ولكنه لا يستطيع أن يفتنك عن شرفك وخلقك وضميرك وأنت رجل ! إنما يدفع هذه الفيلة الأهلية الغُلف بخراطيمها الماحقة ، وأخفافها الساحقة ، وإهابها الصفيق ، فتسوى أمامه

---

(١) نريد بالقاذف المجهول السلطان الإنجليزى المحتل (٢) أى لايكون لهم بعد الحياة الأولى ذكر ، والذكر هو الحياة الثانية .

الأرض ، وتمهد له الطريق ، وتحمل له فوق ظهورها العرش ؟

* * *

إن مشكلة الدستور ، وقضية (نزاهة الحكم) ، برهانان صارخان على أننا أتينا يوم أتينا من ناحية الخلق ؟ وتلك ناحية لا يحصنها وا أسفاه شهادة تعطى وخطبة تلقى ومقالة تكتب ؛ إنما يحصنها الله بدينه ، والمعلم بتهذيبه ، والأب بسيرته ، والزمن بطوله وهل فى سادتنا وكبرائنا الذين أضلونا السبيل من لم يشدُ شيئاً من العلم فى المدارس ، ولم يدرك ذرواً من الأخلاق فى الكتب ؟ ولكن علم هؤلاء بالحلال والحرام كعلم القاتل واللص ، لا يعصم النفس ولا يوقظ الضمير ولا ينفى الجهل ولا يمس الحياة العملية فنحن كما ترى مقضىء على نهضتنا بالتثاقل ، وعلى أمتنا بالتخاذل ، حتى يصبح الدين قائماً ، والضمير حاكما ، والعمل عقيدة ، والإحسان طبيعة ، والواجب مرعياً ، والتبعة مفروضة . وحينئذا ينتظم وضعنا الشاذ ، ويتسق وجودنا النافر ، وتنفق ، من السُّلال مطايا الرجعية الذميمة .

* * *

قل لأولئك الذين أحرقوا رومة وما زالوا يعزفون أناشيد الجحيم على أوتار نيرون ؟ ماذا جنى هذا الشعب الكريم حتى سفهوا حقه فى الحياة ، وأضاعوا نصيبه من الحرية ؟ كان فى يديه دستور فأين ذهب ؟ وكان فى طريقه استقلال فأين اختفى ؟ وكان فى تاريخه ستة عشر عاماً حامية بالجهاد دامية بالضحايا فأين قطوفها المشتهاة وحصائدها المرجوة ؟

تصرفتم فى حقوقه تصرف السفيه فى المال المتروك ، واتخذتم من مرافقه وسائل للكيد الأحمق وموارد للربح الخاص ، وجعلتم من أفـــــراده

المتخذين أولياء لا يعدوهم الإحسان ، وخصماء لا تغبهم الإساءة ، ونصبتم أن في البلد احتلالا يقظ الرأى كاوه العين يحصى عليكم الأنفاس ويتربص بكم الدوائر .

كان هذا الاحتلال يقظان وكنتم غارّين فدلف إلينا من جهتكم ، واحتج علينا بخطئكم ، ثم ذبكم عن الحكم ذب البعوض ، وقبض بيديه العاريتين على سياسة البلاد ، ووقف الأمة المنكودة بين الحيرة والشك في عواقب هذا الفساد ؟

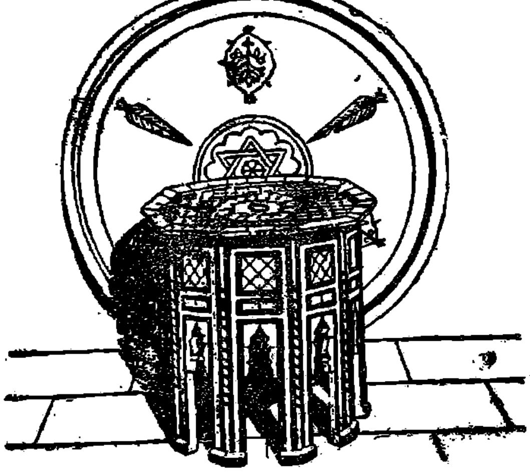

ذكرى المولد

(١٠ يونيه سنة ١٩٣٥)

ذكرى مولد الرسول هي ذكرى قيامة الروح . وولادة الحرية ونشور الخلق فكأن مولده كان البعث الأول الذي طهر النفس وعمر الدنيا وقرر الحق للانسان ، كما أن البعث الأخير سيخلص الروح ويبتدىء الآخرة ويعلن الملك لله

كان العالم يومئذ يضطرب في رق المادة وعبودية الشهوة وسلطان القوة ، فلم يكن للمثل الأعلى وجود في ذهنه ، ولا للغرض النبيل أثر في سعيه ، ولا للشعور الإنساني مجرى في حسه ، ولا للسمو الإلهي معنى في نفسه ؛ إنما كان حيواناً شهوته الغلب ، مادياً غايته اللذة ، أنانياً شريعته الهوى ، ثم أسرف في البهيمية حتى جعل كل أنثى مباحة لكل ذكر ، وفي المادية حتى اتخذ إلهه من خشب أو حجر ، وفي الأنانية حتى قتل أولاده خشية الإملاق والضرر . فلما أتى النبي العربي فتح في غار حراء باباً إلى السماء تنزلت منه الملائكة والروح على هذا الهيكل المنحل والجسد المعتل ، فنفخت فيه سر الحياة ومعنى الخلود وحقيقة الله وحينئذ شعر سليل الأرض أن له أسباباً إلى السموات رثت على طول غفلاته ، وأن له حياة خيراً من هذه الحياة استسر علمها في جهالته ؛ تتشوف إلى الأفق البعيد ، واستشرف إلى السمت العالي ، وأرسل نظره وراء النظر النبوي من فوق الجبل ، في صمت حراء الموحى ، وفي سكون الوادي الملهم ، وفي غيابة الفضاء الرهيب ، يفكر في الملكوت الدائم ، ويسبح الجلال القائم ، ويفنى في الوجود المطلق .

كانت العقيدة قبل محمد أن تموت الروح أو يموت الجسم[1] . وأن يحكم الله أو يحكم الإنسان ، وأن يظهر الدين أو تظهر الدنيا ؛ أما تقرير الصلة بين المعنى والذات ، وبين المصباح والمشكاة ، و بين الحياة الأولى والحياة الآخرة ، وبين الإرادة السفلى والإرادة العليا ، فذلك هو القصد الإلهى من رسالة محمد ، والتنفيذ المحمدى لإرادة الله

* * *

وكان العالم قبل يوم محمد يرسف فى عبودية عقلية تقتل التفكير ، وعبودية جسمية تعقل التصرف ؛ فلم يكن للأسرة نظام ، ولا للقبيلة قانون ، ولا للأمة دستور ، ولا للعقيدة شريعة ، إنما هو طغيان عاسف يتحكم فى الفرد ويسيطر على الجماعة : فالأب يملك على بنيه الموت والحياة بحكم الطبيعة ، والشيخ يفرض على عشيرته الأمر والنهى بمقتضى العرف ، والملك يخضع نفوس الشعب باسم الدين ، والكاهن ينسخ العقول بقوة الجهل ، والناس أجمعون عدا هؤلاء الأربعة أتباعٌ وأوراعٌ وهمل .

فلما بُعث الرسول الكريم رحمة للعالمين بعث الحرية من قبرها ، وأطلق العقول من أسرها ، وجعل التنافس فى الخير ، والتعاون على البر ، والتفاضل بالتقوى ثم وصل بين القلوب بالمؤاخاة ، وعدل بين الحقوق بالمساواة ، ودخل بين النفوس بالمحبة ، حتى شعر الضعيف أن جند الله قوّته ، وأدرك الفقير أن بيت المال ثروته ، وأيقن الوحيد أن المؤمنين جميعاً إخوته . ثم محا الفروق بين أجناس الإنسان ، وأزال الحدود بين مختلف الأوطان ، فأصبحت الأرض كلها وطناً مشاعاً ، والعالم كله أسرة متحدة ، لا يهيمن على علائقها

---

(١) أعنى موت الروح فى اليهودية وموت الجسد فى المسيحية .

إلا بالحب ، ولا يقوم على مرافقها إلا الإنصاف ، وليس بين المرء وخليفته حجاب ، ولا بين العبد وربه وساطة .

يارعى الله ذكراك المقدسة ياغار ثور ! لقد كنت مبعث الحرية كما كان غار حراء مبعث الروح ! فأنت فى جبل الخلاص ، وهو فى جبل التجلى .

* * *

وكان العالم قبل مولد محمد يعانى تفكك الخلق وتحلل الرجولة وتغلب الأثرة وتحكم السفاهة ، فسطوة اليد تسرف على العدل ، وعصبية الدم تبغى على الحق ، وسلطان المال يجنى على الإنسانية ، وسورة الترف تعتدى على المروءة ؛ فالتجارة بخس وتطفيف ، والعهود نقض وتسويف ، والناس يعيشون عيش الوحش : تنافر وتدابر واحتيال واغتيال وشهوة ! فلما ظهر البطل العظيم والإنسان الكامل ، كانت شمائله وأفعاله رسالة أخرى فى الخلق : كان تطبيقاً لقوانين الدين بالمثل ، وتعليماً لآداب النفس بالعمل ، وتنظيما لغرائز الحياة بالقدوة . ثم فعلت شخصيته ودعوته فى نفوس رويت بالدماء ونغلت بالعداء وعاشت على الفرقة ، فألفهم على المودة ، وجمعهم على الوحدة ، ثم جعل لهم من كتاب الله نوراً ، ومن سنته دستوراً ، ورمى بهم فساد الدنيا فأصلحوا الأرض ومدنوا العالم وهذبوا الناس .

* * *

ذلك ماتلقيه ذكرى مولد الرسول فى روح المؤمن المقول الذاكر ! فليت شعرى ماذا يجد المسلم اليوم فى نفسه وفى قومه من روح محمد وحرية محمد وخلق محمد ! أما يعيش المسلمون اليوم صوراً كقطع الشطرنج ، وأتباعاً

كعبيد الأرض ، وهمجا كهمج الجاهلية ؟ وهل كان ذلك يكون لو أنهم اتخذوا من أحكام الله منهاجاً ، ومن كلام رسوله علاجاً ، ومن حياة السابقين الأولين قدوة ؟

إن ذكرى مولد الرسول ذكرى انطلاق الإنسانية من أسر الأوهام وطغيان الحكام وسلطان الجهالة . فما أجْدَرَ القلوب الواعية الحرة على اختلاف منازعها ومشارعها أن تخشع إجلالا لذكرى رسول التوحيد والوحدة ، ونبي الحرية والديمقراطية ، وداعية السلام والوئام والمحبة ! .

صيف الأديب

(١٧ يونيو سنة ١٩٣٥)

زفرت جهنم زفرتها السنوية كما تزعم الأساطير ، فعقدت على وجه (الوادى) غشاء من سَموم ودخَن . فالطبيعة فى غلافها النارى مكبوتة ، و الأرض من حُمّاها الصالب مسبوتة[1] ، والناس من إلحاح القيظ متبلدون هامدون يقابلون لفحه بجلد المضطر ، ويعالجون بَرْحه بصبر الشهيد ، ولكن الجلد يماع فهو عَرق يتقطر ، والصبر يرفَضّ فهو بخار يتصعد ، و بين هذا التقطير وذلك التصعيد نفس تذوب وجسم يذبل وعزم ينسرق و فكر يضمحل . فليت شعرى ماذا عسى أن يعمل من اضطر أن يعمل ؟ هذا مكتب الأديب الصحفى يُشع الوهَج كأتون الفرن ، وينفث الضيق كحجرة السجن ، ويبعث القلق كغرفة الانتظار ! والأديب مع ذلك مقضىٌ عليه أن يفكر ويعبرّ ويرتب ويهذب ويقابل ويجادل ، حتى يهن عصبه وينقطع سببه ، فيعود إلى منزله المطلق فى الجو الأغبر على زحمة الشارع وضوضاء العامة ، يطلب الهدوء فلا يجده ، ويلتمس النوم فلا يناله !

ليس له وا أسفاه قصر يبسم بالنعيم ، وينسم بالعطر ، ويشرق بالجمال ، ويموج بالزهر ويتطرّى بالماء ، ويتمطى فى الظل ، ويتبسط فى السعة ، ويسجو فى الخفض ، ويغرق فى السكون ، ويضرب حواليه نطاقاً سحرياً من الأحلام واللذة ، فيعوذ به من وقدة الجو ، ويلوذ به من مشقة العمل .

وليس، له وا أسفاه مال يعبر عليه ثبج البحر ويرِد به مدن الماء ، ويبلغ

---

(١) الحمى الصالب : الشديد الحرارة التى معها رعدة والمسبوتة : المغشى عليها .

فوقه قرى الجبل ، فيسرّي عن نفسه بعض عناء العام وبلاء الأيام بما يرى من مفاتن الطبيعة على الربى ، ومجالى الفردوس فوق السهول ، ومباهج المدنية على الشاطىء .

وليس له وا أسفاه ما للأديب الموظف من المؤتمرات العلمية ، والسياحات التعليمية ، يغشاها فى منازه أوربا أو خمائل لبنان ، فينال من زهرة الدنيا ومتعة العيش على حساب الدولة وعلى حب العلم

* * *

الطالب يعود فى العطلة إلى الريف ، والموظف الصغير يذهب فى الإجازة إلى المصيف ، والموظف الكبير يجد فى مرتبه فضلاً يشترى به السياحة والراحة والبهجة ، والموظف الأكبر يجشم نفسه الكبرى (خدمـــــة) الحكومة فى (الخارج) فيؤديها على أتمها نائماً فوق صدور الأمانى ، حالماً على هدهدة الأغانى ، هائماً وراء الخدمة المنشودة فى أودية الشعر والسحر ! ثم لا يكلف الخزانة العامرة إلا بضع مئات من الجنيهات لمكافأته ، وبضع كلمات من المجاملات لشكره ! والكبراء الذين يعيشون علينا ولا ينتسبون إلينا يجمعون دم الفلاح الغالى فى حقاق من ذهب ، ويلفون لحمه اللذيذ فى حقائب من حرير ، ثم يرحلون بهما إلى أسواق إبليس ، فى مونت كارلو و نيس ، فيشترون بها أبهة أشهر وعربدة أسابيع ومخازى عُمُر !

إذن لا يبقى لسعير الصيف إلا الطبقة التى تنسج لهؤلاء جميعاً بُرد السعادة : طبقة العمل الذى لا تأخذه سِنة ولا نوم ، ولا يجدى على أهله إلا قوت يوم بيوم . هى طبقة الموظف الأصغر ، والصانع المتذَل ، والعامل المستغَل ، والفلاح المهمل ، والتاجر المدين ، والأديب المسكين ! فهم يعملون فى عطلة الناس — وأجرهم على الله — حتى لا تسكن الدنيا وحتى لا يقف الفلك !

أنشأت الأمة مصايف لأطفال الفقراء ، وأعدت الدولة قطار (البحر) وقطار (النزهة) لأنصاف الأغنياء ، فماذا أنشأت الأمة أو أعدت الدولة لمساكين الأدباء ؟ أليسوا رسل الحق والخير والجمال والمعرفة إلى من زهتهم السطوة فلجوا فى الباطل ، وأعمتهم الشهوة فتدفقوا فى الشر ، ولوثهم الطمع فاطمأنوا إلى القبح ، وركبهم الغرور فجنحوا الجهالة ؟ أليسوا أحرياء بأن تقيم لهم الحكومة (جبل البَرْناس) على بقعة من ضفاف النيل أو على رقعة من شواطىء البحر ، يستجمون عليه من الإعياء ، ويتصلون فيه بالسماء ، وينشدون الأمة من روائع الوحى أجمل ممـــا أنشدته (الموز) التسع آلهات الآداب والفنون على قيثارة إله الشعر والبلاغة (أبولون) ؟

ولـكن رويدك يا أشعب ! إن الحكومة التى لا تشترك فى مجلة الصحفى إلا بعد طلب ورجاء ، ولا تشترى نسخاً من كتاب الأديب إلا بعد أخذ وعطاء ، يشق عليها أن تقيم جبل البرناس ، على مثل هذا الأساس !

على أن الخيال عالم والحقيقة عالم آخر والأديب حريص على ألا يسبح فى عالمه غيره ، فلماذا يمد عينيه الرغيبتين إلى عالم الناس !

إن فى ليالى القاهرة الساحرة الرخيصة لرضا للنفس الشاعرة : سماء كصفحة الأمل المشرق تألق بالأنوار ، وفضاء كغيب الله يموج بالأفكار والأسرار ، ونسيم كأجنحة الأملاك يذهب عن الأجسام رهق النهار ، وجنات الجزيرة ، وخلوات الجيزة وسمرات الجسر ومسارح النيل تخلق فى الذهن الخصيب والشعور الفنان ، مالا تخلقه جنات سويسرا ولا رياض لبنان ؟

مثل من الشباب الصالح

(٢٤ يونيو سنة ١٩٣٥)

عرفت منذ أيام فتى غريض الشباب رقيق الإهاب وضيء الطلعة . يتكلم فيشع عقله فى معانيه ، ويشيع ذكاؤه فى مراميه ، ويسيل شعوره على ألفاظه ، وهو لا يتكلم إلا عن العمل ، ولا يناقش إلا فى الواقع ، ولا يرى إلا إلى غرض . طموح النفس فلا يحصر أفقه يأس ، ولا يحدّ غايته مطلب . بعيد الهمة فلا يضله شارد الخيال ولا يغره خادع الأمل . رفيع الهوى فلا يشوب غرضه سوء ولا يفسد طموحه أثرة ، نبت فى أكرم المنابت من إقليم الغربية ، فأبوه عميد أسرته وزعيم بلدته وسَرِى نابه من سراة إقليمه رباه فى مهد النعيم ونشأه فى ظلال الغنى وقلبه فى أحضان الترف ، فكان خليقاً أن يمسه الغباء وهو داء الغنى ، وأن يصيبه الخمول وهو بلية الترف ، ولكنه لقوة الطبع واستعداد القدرة شب ذكى الفؤاد إلى درجة الحكمة ، مشبوب العزم إلى حد المغـــامرة ، يذهب بنفسه غالباً إلى الاعتداد الواثق ، ويميل بحيائه أحياناً إلى الجرأة المؤدبة ، وينظر إلى غاية الحياة — وهو لا يزال فى بدايتها — نظرة الكيِّس اللبيب المجرب ، فيهاجم السياسيين من ناحية استحقاقهم بالخلق ، وللموظفين من جهة استهانتهم بالواجب ، والفلاحين من حيث اعتمادهم فى الإنتاج على القديم الرث ، وفى العلاج على القدَر والمصادفة . عَلَى أنه أمام أبيه — وهو قرة عينه — مثال البر ورمز الطاعة فلا ينقد له رأياً ، ولا يعصى له أمراً ولا يخالف له نصيحة .

تخرج منذ أسبوع فى كلية الزراعة ، وكان الثانى فى ترتيب الناجحين ، وإن شئت فقل الأول ، لأن الفرق بينه وبين سابقه لا يقـــدّم لضآلته

ولا يؤخر . فالوظيفة بحكم أوليته فى النجاح ومعونة أسرته بالنفوذ تنتظره فى كل مكان وتطلبه فى كل وزارة . ولـكنه زارنى منذ يومين فوجدته على غير عادته ، مشغول القلب منقبض الصدر مشترك الخاطر ، لا أثر عليه لنشوة الفوز ولا لذة الراحة ولا لفرحة المنصب ، كأنما هو آخـــــر الدبلوم أو فقير متقدم من غير وسيلة !

— مالك ساهم الوجه مكروب النفس يا أحمد ؟ هنيئاً لك الدبلوم والأولية !
فقال والأسى يبين فى صوته ولهجته : ليتنى لم أنل هذا الدبلوم ولم أحُز خطر هـذا السبق ! فقد كان فى لذة المدارسة وشهوة المنافـسة وترقب النجاح وانتظار الحرية رضـا لنفسى الطامحـة ، وكفاية لقلبى الرغيب أما الآن فالفراغ يثقل حتى يقتل نفسى ، والوقت يطول حتى يملّ روحى ، والأمل يضيق حتى يُظلم حياتى ! أريد أن أعمل فيمنعنى أبى ، لأنه يضمن بصحتى على مخاطر الفلاحة ، وبراحتى على متاعب الفلاحين ، وبسعادتى على هموم المسئولية

— إذن ماذا يريد أبوك ؟

— يريد لى الوظيفة . والوظيفة سجن لنفسى الطليقة ، وتعطيل لملـكاتى الموهوبة ، ومحو لمعارفى المـكسوبة ، وقتل لآمالى الناشئة ، وتوجيه لميولى الطبيعية إلى الرض الذى لا أحب ، وإلى القصد الذى لا أريد .

إن فى مزارعنا الواسعة مجالا فسيحاً لنشاطى ، ومَراداً بعيداً لعلمى ، ومختبراً صالحاً لتجاربى ، ومغرساً كريماً لآمالى . فأنا أوثر أن أحمل عبء العمل عن والدى ، وأستقل على وعمـــــلى فى تحقيق مقاصدى ، فأحافظ بالاستقلال الذاتى على خلقى وحريتى ، وأساهم بالعمل المنتج فى نفع أمتى وإسعاد أسرتى
ماذا تجدى علىّ الوظيفة ؟ عشرة جنيهات فى الشهر ؟ لقد كان أبى ينفق على خمسة وعشرين وأنا طالب ، فـكم جنيهاً سينفقها علىّ وأنا موظف ؟ إذن سينفق

عليّ أضعاف مرتبي لأخدم غيره وأفارق بيته ، وأظل السنين الطوال موظفاً وضيع المكانة ، مسلوب الإرادة ، محدود الرزق ، خامل الحياة !

إن شهادتي في فن الزراعة ، والوظيفة الفنية كالوظيفة العلمية لا تصلح طريقاً إلى السلطان ولا وسيلة للجاه ولا أداة للثروة . إنما الفن مجده في استقلاله ، وخيره في حريته على أن وظائف الحكومة — بعد أن خفضوا أجرها ، وأخسّوا قدرها ، وحفوا طريقها بالمكاره ، وهددوا معاشها بالنقص ، وزعزعوا ضمانها بالكيد ، وروعوا أمنها بالسياسة — أصبحت مطلباً لقصار الآمال ، ومذهباً لصغار النفوس ، وملجأ لضعاف الحيلة . فأما الذي يجد في نفسه شعور القدرة ، وفي بيته رأس المال ، وفي أرضه مكان العمل ، ثم يتشوف إلى قيد الوظيفة وذل التبعية ، فـــلا أدري بم أعتذر له أمام النُّبل والرجولة ؟

فقلت له وأنا موزع النفس بين الإعجاب به والرثاء له والإشفاق عليه : كلامك هذا يابني عنوان عقلك وبرهان فضلك ودليل دعواك . وليت شعري ماحجة أبيك الكريم أمام هذا الخلق العظيم والمنطق الواضح ! لعله من أولئك الذين يعتقدون أن الولد إذا دخل المدرسة ثم خرج بالشهادة ثم لم يوظف ، كان ما أنفقه خسارة لا تعوض ، وما تعلمه عبثاً لا يفيد !

فقال : كلا إن أبي من أرجح الناس عقلا وأسدهم رأياً وأعلمهم بمزايا العمل الحر ، ولكنها التقاليد الموروثة ، والعواطف الغالبة . وسأنتهي آخر الأمر على رغم هواي ومناي إلى رأيه . فقلت له : إذن دعني على الأقل أنقل عنك هذا الحديث ليكون خطاباً إلى أبيك ودرساً لإخوانك وموضوعاً للرسالة !

كلكم حواريون فمن هو ذا ؟

(أول يوليو سنة ١٩٣٥)

لا تسمع من أى إنسان فى أى مكان إلا تذمراً على حال المجتمع ، وتضجراً من نظام العيش ، وتضوراً من فساد الحكم ، وتحسراً على أخلاق الناس ! فما من سياسى تلقاه إلا رأيته لهيف الجوانح ذاهب القلب ، لا يملك عينه من الدمع ، ولا قلبه من الوجد ، ولا لسانه من هذ الشكاة : أضاعوا استقلال البلاد ، ووأدوا دستور الأمة ، ونشروا بخطئهم على الشعب سوء النبأ ! فقد كان لنا بجانب « الاحتلال » مكان ، ومع « دار الاستشارة » رأى ، وقبل نفاذ الأمور كلمة ، وفوق كل اعتبار كرامة وكان لهذا كله على ضآلته وهزاله ثمن فادح مرهق ، أديناه ضحايا برة من أرواح الشباب فى ساحة الجهاد ، وملايين تسعة من أقوات الأمة فى « قانون التضمينات » [(١)] ثم أصبحنا وإذا المكان خلاء ، والإشارة أمر ، والكلمة رجاء ، والكرامة ضراعة !

أجل ! يقول كل سياسى هذا الكلام ، ويلوم هذا الملام ، حتى أولئك الذين قتلوا بأيديهم الدستور أمس ، يبكون عليه اليوم بأربعة آماق ، لأن الإنجليز أكرموه فدفنوه !

* * *

وما من موظف تراه إلا حدثك والهم يعتلج فى صدره ، والأسى يتلظى على وجهه كيف تحكمت المحاباة فى دوائر الحكم ، وفشا التوا كل فى دواوين الحكومة ! « فالشهادة العالية » فى التعيين زور مع التوصية ،

(١) قانون وضع لإخراج الانجليز من وظائف الدولة بالتعويض

والكفاية البارعة فى الترقية خُرق مع الهوى ، وحسن العمل فى سبيل الحظوة جناية مع سوء الحظ . ثم ترى « الأقلام » غاصة بالكتبة ، والمكاتب مكتظة بالملفات ، والوزارات مزدحمــــة بالسائلين والمستعجلين ، والأوراق الحائرة تنتقل من يد إلى يد ، وتخرج من مكتب إلى مكتب ، وترحل من بلد إلى بلد ، لأن « التواكل » الماهر قضى على كل كاتب أو حاسب أن يزيح همها عن نفسه ، ويخرج حكمها من اختصاصه ، فتلبث على هذه الحال بين الحل والترحال شهوراً وسنين ، وهى مع الجد لا تستغرق تفكير لحظة وعمل ساعة !

يقول كل موظف هذا الكلام ، ويتهم هذا الاتهام ، حتى أولئك الطفيليون الذين عينوا لقبض المرتب ، وظــــلوا على الشيوع من غير عمل ولا مكتب !

* * *

وما من أديب تخلو إليه إلا نثر عليك دموع الخنساء ، ونظم فى مسمعيك تشاؤم أبى العلاء ، وسألك وهو متبلد من الحيرة ، متلدد من الدهشة : متى كان البذاء من الأدب ، والهجاء من النقد ، والادعاء من الفن ، والتقليد البهيم من العبقرية ، والكيد اللئيم من الصحافة ؟

كان الأدب سبيلا بين الله والنفس ، وسلاماً بين الروح والجسم ، ولساناً بين الجمال والحس ، ودليلاً بين الهوى والخير ، ونسباً بين القرابة والبعد ، فأصبح كما ترى سبباً من أسباب العداوة ، وسبيلا من سبل الفرقة ، وبوقاً من أبواق الفتنة ، ومظهراً من مظاهر الجهالة .

يقول كل أديب هذا الكلام ، ويلقى عليك هذا الاستفهام ، حتى

أولئك السفهاء الذين يلبسون خلقاً مسوح الأدب، ثم يلتمسون الظهور بالوقيعة في كل من كتب!

* * *

وما من رجل من رجال الدين تجلس إليه إلا قال لك ودموع الحسنين (١) تنهلُّ على رُدنه المريض انهلال القَطر: لم يبق للدين في هذه الدنيا سلطان، ولا للخلق في هذه الفوضى مكان، ولا للفضيلة في هذه المادية قيمة. ولقد استشرى فساد العصر حتى نال من تقوى العلماء فأصبحوا يأنفون من الورع، وينفرون من البساطة، ويتأبّهون على العامة، ويمدون أعينهم إلى شهوة الحياة، ويُذهبون أنفسهم على فتنة الحكم، ويتخلون عن الدعوة إلى سبيل الله إلى الدعوة إلى أهواء الفرد!

يقول كل عالم هذا الكلام، ويهتم هذا الاهتمام، حتى أولئك الضعفاء الذين اشتروا بآيات الله ثمناً قليلا، وجعلوا من نفوسهم إلى الباطل سبيلا ودليلا!

* * *

وما من تاجر تعامله، أو صانع تقاوله، إلا ابتدرك بالزراية على الذين نفقوا على الغش، وأثروا على الخداع، وسلبوا ثقة الشعب باسم الأخوة، وسرقوا مال الجمهور باسم الوطن، حتى جعلوا التجارة والصناعة فيما بينهم وبين الناس معنى من معاني النهب، وحيلة من حيل الشطارة. فأنت تدخل المتجر أو المصنع وفي حسك لا محالة أنك مغبون في السعر، أو مخدوع في النوع، أو مظلوم في التقدير!

يقول ذلك كل تاجر وكل صانع حتى أولئك الذين قضى عليهم موت الضمير

---

(١) الحسن البصري والحسن بن سيرين.

أن يصدُقوك فى البيع ويكذبوك فى التسليم ، ويعاهدوك على نوع فيغيروه ولا يزيد ربحهم من غشه على مليم !

* * *

وهكذا تسمع هذا السخط الحاقد والنقد اللاذع والتعريض الممض والزراية الساخرة من كل لسان فى أى طبقة ، وفى كل حديث فى أى مجلس ، فتقف موقف المشدوه بين العجب والغضب وتسأل :

إذا كنتم ياقوم جميعاً حوَاريِّين ، فمن يهوذا الذى خان الوطن بدوانقه الثلاثين[1] ؟ كلكم يلوم فمن الملوم ؟ وكلكم يتهم فمن المجرم ؟ . . .

وعظ مالك بن دينار عظة تقاطرتْ عليها دموع أصحابه ، ثم افتقد مصحفه فلم يجده ! فنظر إليهم وكلهم من أثر كلامه لا يملك دمعه وقال :

ويحكم ! كلكم يبكى ، فمن سرق المصحف ؟

(١) ذلك هو مقدار المبلغ الذى أخذه يهوذا الإسخريوطى ليخون السيد المسيح .

الشيخ محمد عبده

(١٥ يوليو سنه ١٩٣٥)

— ١ —

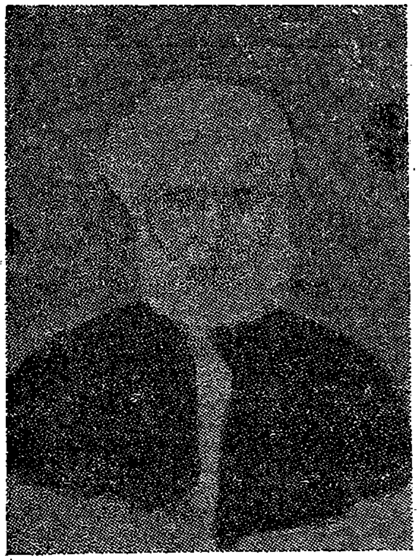

« عجب عجيب ! شيخ يلبس جبة مقطوعة الكم ، ضيقة الردن ، مبنقة الجيب (١) ، ويعتم على طربوش كطرابيش الأفندية ، وينتعل حذاء كأحذية الفرنجة ، ثم يتكلم الفرنسية ، ويصاحب الخواجات ، ويغشى بلاد الكفر ، ويترجم كتب أوربا ، ويأخذ عن جمال الدين ، ويدرس المنطق على رغم ابن الصلاح (٢) ، ويريد أن يدخل فى الأزهر علوم المدارس ، ويشتغل بالأدب ، وينشىء المقالات للصحف ؛ ثم يحرم « الدوسة » ، وينكر الوسيلة ، ويحل الموقوذة ، ويسوغ لبس القبعة ، ويجيز الربا فى صناديق التوفير ، ويحاول الاجتهاد ، ويفسر القرآن على غير طريق السلف . !

نعوذ بالله من هذه المحنة ، وعواقب هذه الفتنة ، ونسأله أن يقبضها على منهج السنة وعقيدة الجماعة . . »

---

(١) بنق القميص : جعل له بنيقة يافة :

(٢) ابن الصلاح أحد الذين حرموا تعلم المنطق

فابن الصلاح والنواوى حرما وقال قوم ينبغى أن يعلما

هكذا كان يقول جمهور « العلماء » فى صحن الأزهر حين انبلج نور الإصلاح من جبين محمد عبده ، كما كان يقول مشركو قريش فى فناء الكعبة حين انبثق نور الهدى من غرة محمد رسول الله ! ذلك لأن دعوة الدين فاجأت الكعبة على دنيا مقلوبة الأوضاع فى الأخلاق والطباع ، فقال الناس حين رأوا رجلا رأسه فى السماء ورءوسهم فى الأرض انظروا كيف يريد أن يبدل نظام الكون ويغير خلق الله ! وكذلك دعوة الإصلاح باغتت الأزهر على سكون كذهول البله ، وخمود كغشية الموت ، واستغراق كخدر الأفيون ، من طول ماتنكرت له الأحداث ، وطغت عليه البدع ، وعاثت فيه الجهالة ، فارتد إلى مثل تكايا الصوفية أو صوامع الرهبان ، يقطع أهله عن الناس ، ويجرى بهم إلى الخلف ، ويعيش معهم فى الماضى ، ويجعل المثل الأعلى لرجل الدين أن يتوفر علَى مسائل الفقه ، ويتقيد بآراء السلف ، ويتعبد بألفاظ الموتى . فلما نبههم الإمام محمد عبده إلى أن الدين للدنيا وأن العلم للعمل ، والعلماء إنما يخلفون الأنبياء ليظل أثر الدعوة شديداً وحبل الدين جديداً وخلافة الله قائمة ، فتحوا أعينهم على رجل يخالف سمته سمت البيئة ، ويباين زيه زى القوم ، ويناقض رأيه رأى الحلْقة ، فاستوحشوا من ناحيته وأنكروه ، ثم قالوا : معتزلى مبتدع !

* * *

قال الأستاذ الإمام وهو ينفض باسماً ما حشوه على عطفيه من الظنون والتهم لا صلاح للدين إلا بصلاح الأزهر ولا قيامة للدنيا إلا بقيامة أهله ! ثم استعان على خصومه بالإحسان والنصيحة والصبر حتى آمن من آمن وهادن من هادن ، فوضع يمناه فى أيديهم ، ويسراه فى أيدى أولئك الذين فتنهم الغرب فأنفضوا رءوسهم إلى مدنية الإسلام ، وزووا وجوههم عن

ثقافة الغرب ، يحاول أن يصل بين الثقافتين ، ويوفق بين العقليتين ، ويجعل من هؤلاء وهؤلاء وحدة متسقة الفكر ، متفقة الهوى ، متحدة الغرض ، تؤلف بين الدين والعلم ، وتقرب بين الشرق والغرب ، وتصل بين الماضى والحاضر فنجح على قدر ما ينجح الأنبياء والمصلحون فى إبان الدعوة ، يهيئون الأرض فى رجف من الخصومة ، ويبذرون البذر فى عصف من المعارضة ، ثم ينفثون فى أشياعهم القليلين المخلصين أرواحهم الخالقة وقوام الخارقة ، ليكونوا من بعدهم أوصياء على الغراس وشهداء على الناس وأدلاء على المحجة .

* * *

لا ريب أن الإمام محمداً كان من أولئك الأعلام المصطفين الذين يوضح الله بهم طريق الإنسانية من قرن إلى قرن . وأخص ما تميزهم به الطبيعة متانة الخلق ، وصلابة الرجولة ، وشدة الأسر ، وقوة الحيوية ، وحدة الذهن ، وصفاء الملكة ورث عن أبيه وثاقة التركيب وشجاعة القلب ، وشب نابياً عن الضعف ، آبياً على السكون . يريد أبوه أن يكون تلميذاً كلِداته فى المكتب ، فيأبى هو إلا أن يكون زارعاً كإخوته فى الحقل ! ويرسله أبوه إلى المعهد الأحمدى يطلب العلم ، فيفر منه إلى مدارج السبل يطلب الفلاحة ! لأن حفظة القرآن وحملة الفقه كانوا موضع العطف من القلوب لقلة الكسب وضعف الحيلة ، وحيويته تأنف الخمود ، وحريته تأبى القيود ، ورجولته تعاف الشفقة

ثم لجأ إلى الشيخ درويش خال أبيه ، وهو صوفى عالم من أهل البحيرة سار فى الأرض حتى بلغ طرابلس الغرب ، فأخذ الشريعة والطريقة على السيد محمد المدنى . والتصوف فى الغرب يقوم على ذكر الله بالاستحضار ، وتلاوة

القرآن بالاستذكار ، ورياضة النفس بالتأمل فأخذ يروض جموح طبعه بالصلاة ، ويلطف حُمَيّا شبابه بالذكر ، ويطفىء غليل قلبه بالدرس ، حتى فتح السبيل بين نفسه وبين الوجود الأبدى والكمال المطلق .

ثم اتصل بالسيد جمال الدين الأفغانى فتولى عقله يثقفه بالمنطق ويكمله بالحكمة ويقويه بالملاحظة ، فكان لهؤلاء الثلاثة : أبيه مربى جسمه ، وشيخه مربى روحه ، وأستاذه مربى عقله ، أبلغ الأثر فى تكوين صفاته وتوجيه حياته وتبليغ رسالته

— ٢ —

تولدت حيوية الإمام القوية من جبلة أبيه الحرة فى « محلة نصر » وتكونت نفسيته الدينية من صوفية خاله النقية فى « كنيسة أورين » ، وتفتحت عقليته العلمية فى شمس جمال الدين المشرقة بالقاهرة فكان سر الوراثة يجريه فى الاعتقاد على الإخلاص ؛ وفى العزم على المضاء ، وفى القول على الصراحة ، وفى العمل على الجرأة ، وفى الحياة على التمرد . فالقلق المقدس الذى يشبه فى الحكماء الإرهاص فى الأنبياء ؛ كان لا يفتأ منذ حداثة الشيخ يساوره فى كل هم يحاوله وعمل يزاوله وموضع يستقر فيه وذلك القلق مبعثه فى المصلح صفاء النفس ولطف الحس وحدة الفطنة ؛ فهو وحده يدرك النقص فيروم الكمال ، ويلحظ الخطأ فيطلب الصواب ، ويسأم الركود فيبتغى التحول . ولذلك كان الإمام لا يكره طبعه على حال ، ولا يلبس سمعه على رأى ، ولا يملك لسانه عن نقد ، ولا يكف عزمه عن تغيير ، ولا يخزل جهده عن إصلاح

دخل المعهد الأحمدى فبرم بالتعلم لفساد الطريقة وسوء الكتاب ، فكان وكدُه طول عمره أن ينعش الدين من هذا الخمود ، ويخرج الأزهر من هذه

الفوضى ، وينقذ الطلاب من هذا العنت . وظهرت مقالاته فى (الأهرام) وهو لا يزال فى صدر الطلب تحمل دعوة هذا العقل المتجدد المتمرد إلى العلوم العقلية والمعارف العصرية والأدب المنتج . ثم تولى رآسة المطبوعات وتحرير الجريدة الرسمية فثار على الأساليب الكتابية فى الدواوين ، والتقاليد الإدارية فى الحكم ، والبدع الفاشية فى الدين ، والعادات المنكرة فى المجتمع وكانت مقالاته (فى الوقائع المصرية) دستوراً للغة ونظاماً للكتابة ومنهجا للفضيلة ، قام على نفاذها سلطان من شجاعتـــــــه وقوة من نفوذه .

ثم شايع العرابيين فى النهضة المصرية الأولى مشايعة البصير الحازم ، فأعقبته النفى إلى سورية . وهناك ذله ذلك الشعور النبوى فيه على ما جره سوء سياسة السلطان العثمانى من انفراج الحال بين الأديان ، وجفاف الثرى بين الإخوان ، فوضع دستوراً لإصلاح التعليم الدينى قدمه إلى شيخ الإسلام ، ومشروعا لإصلاح القطر السورى قدمه إلى والى بيروت ولو أخذت بهما الحكومة العثمانية لكان شأنها غير ذلك الشأن ، وعاقبتهـــــا غير هـذه العاقبة .

ثم اتسع أفق تفكيره ، وانفسح مدى نظره ، فراعه حال المسلمين من قناعتهم بالدون ، واستنامتهم إلى الهون ، وقعودهم عن مسايرة التمدن ، فوافى السيد الأفغانى إلى باريس ، ودعا فى مجلة (العروة الوثـــــقى) أشتات الأمة إلى الوحدة ، وأموات الجهالة إلى البعث ، وأسرى العبودية إلى التحرر .

ثم ولوه بعد العفو عنه القضاء ، فلاءم بين الاحكام المدنية والدينية

وساوى فى النظام بين المحاكم الأهلية والشرعية ، وارتجل لهذه من الإصلاح ما حقق من وجودها النفع ، وجدد فى قضاتها الثقة ، وضمن لقضائها التنفيذ !

ثم عاد فحصر إصلاحه الداخلى والخارجى والدينى والمدنى فى إصلاح الأزهر لأنه منشأ الدعاة والهداة والقضاة والمعلمين فى مصر وفى غير مصر فإذا قلبه على الوضع الذى يريد فقد وضع المكواة على أصل العلة ، واختصر الطريق إلى بلوغ الغاية ولكن أبا لهب وأشياعه فى الازهر وفى قصر الخديوى أرادوا وا أسفاه أن يطفئوا بأفواههم نور الله ، فأطفأوا بكيدهم سراج حياته !

* *

ذلك سر الوراثة الجسدية عن أبيه القروى الفقير الباسل : أما سر الوراثة الروحية عن خاله التقى العارف فهو رجوعه إلى مشارع الدين الصافية وعقائد القرآن الأولى قال ذات يوم لخاله ما طريقتكم ؟ ، قال : الإسلام قال : وما وردكم ؟ ، قال : القرآن فلم يتبع منذ يومئذ غير سبيل المؤمنين ومنهاج الأئمة أيقظ همه للإسلام فقرب عقائده من الأفهام ، وقطع عنه ألسنة المبشرين والمستعمرين بالأدلة النواهض والحجج الملزمة ، وجعل عزمه القرآن ففاز منه برياض مونقة وأعلام بينة ، فبراهين قضاياه من قواعده ، وبينات دعاواه من شواهده ، ومضامين عبقرياته من هديه ، وأفانين بلاغاته من وحيه ، وعناوين مقالاته من آيه ؛ فكأنه رسول الرسول ظهر فى عصر العلم الشاك والمدنية الملحدة ليكشف عما غيب الله من نور الكتاب وسره ؟

أما سر الوراثة العقلية عن أستاذه الحكيم الثائر ، فهو ذلك النفوذ البعيد

فى علوم الفقه ، والبصر الشديد بضروب المعرفة ، والإلمام المحيط بثقافة العصر ، والعلم الواسع بقواعد العمران وتاريخ الأديان وطبائع الشعوب وأخبار الأمم وسر النتاج فى هذه الوراثات الثلاث : طبع ذكى ، ونبوغ فطرى ، ونفحة من روح الله ليعيد كلمته على لسانه ، ويبعث شريعته على قلبه .

* * *

كان الإمام محمد عبقرية ثائرة ناقدة ، لا تعرف القيود ولا الحدود ولا السطحية ، ولكنها انحصرت بحكم الظروف فى الإصلاح الدينى ، فوقفت بين الدين الذى تأخر والعلم الذى تقدم ، موقف ابن رشد وابن سينا من قبل : تحاول التأليف بين القلب والعقل ، والتوفيق بين الرأى والنقل ، فذهب أكثر جهده باطلا بين الجامدين الذين يرون فى تجديد الدين بالعلم بدعة ، وبين المسرفين الذين يرون فى تقييد العلم بالدين رجعية ؟ فلو أنه عالج الإصلاح الاجتماعى من طريق العلم ، أو السياسى من طريق الحكم ، لدفع الأمة إلى الأمام قرنا على الأقل .

وبعد ، فإن فى ساحة الأزهر الجديد موضع التمثال العتيد لمجدد الإسلام ومصلح الأزهر ، ولو كنا اقترحنا هذا الاقتراح فى عهد (الفلان) وأشباهه ، لاستغفرنا الجهل سبعين مرة ، ولكننا نقترحه اليوم فى عهد المراغى تلميذ الإمام وخليفته . فهل يتحقق الظن ويصدق الأمل ؛

محمد حافظ ابراهيم

(٢٩ يوليو سنة ١٩٣٥)

— ١ —

كان الجيل الماضي بمصر لا يزال يعيش على بقايا تخلفت من تقاليدنا الجميلة في الجماعات والأسر فالناس يجرون على أثر من خلال الفتوة يرتاحون للندى ، ويتنافسون في العرف ، ويهتزون للبطولة ، ويطربون للبيان ، ويجيزون على الشعر و (مناظر) الدور وأبهاء القصور تأخذ في كل مساء زخرفها من أهل الأدب ورجال السياسة وأصحاب الجاه وأرباب الحكم ، وكان مدار الحديث فيها على النكتة البارعة ، والخبر الطريف ، والمسألة الدقيقة ، والبلاغة المأثورة ، يتساقطها السامرون على محض المودة ووثوق الألفة ، فتفتق الذهن وتصقل الذوق وتوجه الميل وتنيل الحظوة وكانت المواهب والملكات تتفتح في جوانب هذه الأندية ، فتدل على نفسها أهلَ النفوذ فيقبلون عليها حتى تزهر وتثمر . وكانت النهضة الأدبية والحركات الفكرية يومئذ في طور الانتعاش ، تتحركان للنمو والسمو على نفحات المرصفي والبارودي والأفغاني ومحمد عبده

وسلمان وحمزة والشنقيطى واليازجى والمويلحى ونديم وسعد وفتحى ومصطفى وقاسم ؛ فالمجالس تشيع حر الكلام ، والصحف تذيع بارع النقد ، والخديويون يتخذون من الأدباء ندامى ومن الشعراء بطانة ؛ حتى قرّ فى نفس حافظ وأنداده من ناشئ الشباب الطامحين أن الأدب كان سبيل الثراء (للبيثى) ، وسبب المجد (للبارودى) ، ووسيلة الزلفى (لشوقى) ، فتجهز لهذه الغاية بجهاز هذه البيئة ، فروى رقائق الشعر ، وجمع مقطعات الحديث ، وراض نفسه على معاناة القريض .

* * *

كان عمر حافظ سنتين حين توفى أبوه فقيراً فى (ديروط) ، فنشأ فى مهد اليتم والعدم لا يجد حانياً غير أمه ولا كافياً غير خاله ، فجاز مرحلة التعليم الابتدائى فى ضيق وشدة . ثم قضى بضع سنين فى طنطا متبطلا يزجى فراغه بالقراءة ويدفع ملاله بالقريض ولم يستطع خاله لسبب ما أن يجلو عنه غمة البائس وذلة اليتيم ، فكان لا يفتأ متبرماً بالعيش ، متأففاً من الناس ، متجنياً على القدر ، لا ينشىء الشعر إلا فى ذاك ثم دفعته الحاجة إلى مكاتب المحامين — وكانت يومئذ مفتحة الأبواب لكل داخل — فتبلغ[1] بالعمل فيها حيناً ، حتى أسعفته الفرص فدخل المدرسة الحربية ، وهى مطمح بصره وحديث أمانيه . ثم خرج منها ضابطاً إلى السودان ليشهد صلف الإنجليز وضراعة المصريين ، فيثور مع إخوانه الضباط على جور المحتل وفضول الدخيل ، فينفى فيمن نفى من السودان والجيش .

عاد حافظ كما كان يضطرب فى الحياة النابية المبهمة ، لا يستريض لعمل ولا يستقر على أمر ولا يتشوف إلى غاية ؛ لأن طفولته الشاردة المهملة

(١) تبلغ بالعمل : عاش فيه عيشة الكفاف .

طبعته على الكسل والملل والتشاؤم والوحشة ، ولأن عقيدته التقليدية الخاطئة بأن الشعر وحده يشغل الحياة ويبسط الرزق ويكسب الحقوق ، أحيته على نمط مسلم بن الوليد وأبى نواس وأضرابهما ممن عاشوا صنائع الملوك وحائل على الجوائز ووسائل اللهو ؛ فأبى الوظيفة وهى على حبل ذراعه ، وآثر أن يعيش فى ظلال الإمام محمد عبده ينتفع بجاهه ، ويفىء إلى رفده ، ويغشى مع ذلك أبهاء النعمة يسامر أهلها بعذب حديثه ، وينادمهم برقيق شعره ، ثم يتطلع الحين بعد الحين إلى صلات القصر فيحجبه عنها شوقى شاعر الأمير بحوله وطوله .

ومن دأب الشعراء المتكسبين بالشعر أن يبذروا إلى حد السفه إذا عاشوا للحاضر كصريع الغوانى وابن هانىء ، وأن يقتروا إلى حد الكزازة إذا عاشوا للمستقبل كأبى العتاهية والبحترى ، ومن الأولين كان حافظ .

تمتلىء يداه بالمال اليوم فتعتريه حال من البرم والقلق لا تنفك عنه حتى يتلفه كله قبل الغد على إخوانه الكثيرين من طرائد البؤس وصرعى الأدب ، ثم يطارحهم بعد ذلك على مقاعد القهوة الشعر الباكى فى لؤم الزمان وظلم الإنسان وشقاء الأديب !

قطع حافظ مراحل عمره على هذا المنهج البوهيمى لا يدخل فى نظام ، ولا يصبر على جهد ، ولا يرغب فى عمل ، ولا يطمئن إلى تبعة ، وإنما يضطرب نهاره من قهوة إلى قهوة ، ويتقلب ليله من مجلس إلى مجلس . وأينما يكن يكن الأنس الشامل والظرف الناصع والأدب الغض والحديث المشقق الذى يمتزج بالروح ويغمر بالنشوة جوانب النفس .

تقوضت أسرة حافظ وهو فى المهد ، فشب وحشى الطباع مَعَرِّىَّ الغريزة لا يتضح فى نفسه معنى المنزل ، ولا يجرى فى حسه شعور الأسرة . ثم

وقفت به قناعته الشاعرة عند الحد القريب من معالجة الأدب ، فقصر جهده على صوغ الشعر فى المناسبات ، وجمع النوادر للسمر ، حتى بلغ من ذلك مكاناً لا يتعلق به درك ؛ ولكنه حين أريد على ترجمة البؤساء وكتاب الأخلاق ووكالة دار الكتب ، أدركته علة النشأة فقعدت به عن التمام وخزلته عن الإجادة وشلته عن العمل .

(٢)

كان حافظ فى ميعة شبابه يطلب الثروة على قدر طموحه ، والحظوة على قدر نبوغه . ولكنه طلبهما من طريق الحق الذى يدعيه كل شاعر على الناس ، لا من طريق الواجب الذى يؤديه كل إنسان إلى المجتمع . فلما أخفق بالطبع لم يرد أن يعيش كما يعيش سائر الناس على العمل الميسور ، وإنما ارتد ارتداد الأنوف المحتج إلى الفلاكة الشاعرة الصابرة ، يحمل بؤسه على « حرفة الأدب » كما يحمل المؤمن رزءه على حكمة القدر ثم عاش عيش الطائر الغرد : عمره ساعته ، ودنياه روضته ، وشريعته طبيعته ، ودأبه أن يطير فى الغيم والصحو ، ويشدو فى الطرب والشجو ، ثم يسقط على الحب أينما انتثر !

ولقد كان من جريرة هذه الحياة النابية المقيمة التى حييها حافظ أن قتلت فيه الطموح فلم ينشط إلى سعى ، وأذهلته عن الغاية فلم يسر على مبدأ ، ووقفته على الشاطىء فلم يتعمق فى فلسفة ، وشغلته عن الدرس فلم يتكمل بثقافة . كان مبدؤه الأدبى مبدأ اليوم ، كما كانت حياته المادية حياة الساعة : رأى الآمال تتهافت حيناً من الدهر على أريكة الخديوية فى مصر وعرش الخلافة فى الآستانة ، فجرى لسانه بالشعر المطبوع فى مدح الخديو

عباس وتمجيد الخليفة عبد الحميد . ثم اتصل بالإمام محمد عبده وشيعته من سراة البلاد وشيوخ الأمة ، ولهم يومئذ فى الإنجليز رجاء موصول وظن حسن ، فصدرت عنه فى هذه الفترة قصيدة فى رثاء الملكة فيكتوريا ، وقصيدة فى تتويج الملك إدوار السابع ، وقصيدتان فى وداع اللورد كرومر عبر بهما عن الرأى السياسى الأرستقراطى فى ذلك الحين . ثم خلص الشعب ، فلابس دهماءه وخالط زعماءه ، واندفع بقوة الوطنية الدافقة الشابة إلى لواء مصطفى كامل ، فمزج شكواه بشكوى البلاد ، وضرب على أوتار القلوب أناشيد الجهاد ، ونظم أمانىّ الشباب من حبات قلبه ، وترجم أحاديث النفوس ببيان شعره . ثم عطف عليه الوزير الأديب حشمت باشا فأكرمه بالعمل فى (دار الكتب) ، وأجزل له الوظيفة طمعاً فى مواهبه وثواباً على فضله . ولكن الشاعر حل الوظيفة على باب المكافأة المفروضة ، فاستراح للخفض ، واستنام للدعة ، وفتر عن قول الشعر إلا مدفوعاً إليه من فترة إلى فترة فلما خرج على المعاش انضوى إلى أعلام (الوفد) ، واتصل بالزعيم سعد اتصال النديم ، وحاول أن يبعث فى نفسه الشعر الوطنى ولكنه كان قد أصفى [1]

* * *

كان شعر حافظ فيض الشعور وعفو البديهة ، ينشأ فى الكثير الغالب من آراء المجالس وأقوال الصحف ومخزون الحافظة ، فلم تمُنه حياته على التروية ، ولم يدعه اضطرابه إلى التأمل ، ولم تطلقه قيوده إلى الطبيعة ، وإنما ظل صنيعة لوحى البيئة وإلهام الفطرة وتوجيه المناسبة ، فهو فى قصائده

---

(١) أصفى الشاعر : انقطع شعره .

الإمام يذكر تعلق الناس بالأباطيل ، وتهالكهم على عبادة الموتى ، ولا يزيد فى ذلك على نقد الإمام ونعيه . وفى قصائده لقاسم أمين يذكر الحجاب والسفور بما لا يخرج عن مذهبه ورأيه وفى قصيدته التى أنشدها فى احتفال مدرسة البنات ببور سعيد يتكلم فى تعليم الأم وسفور المرأة وعيوب الجماعة لا جديد فيه . وفى قصائده التى نظمها فى مشروعات الجامعة المصرية الأهلية وافتتاحها يجمل ما فصلت الصحف من الموازنة بين الإكثار من الكتاتيب وإنشاء الجامعة . وفى رثائه لتولستوى يذكر السلم والحرب والخير والشر والغنى والفقر بما لا يبعد عن متناول الناس ولا يرتفع عن مستوى الجمهور من أجل ذلك كان فكره مستقيما لا ينحرف ، وواضحاً لا يلتبس ، وسديداً لا يطيش . والسر فيه اعتماده على قوة الإجماع ، لا على غرابة الإبداع …

* * *

وكانت ثقافة حافظ ثقافة الشاعر العربى الأول : يتزود لمجالس الملوك بالأخبار والطرف ، ولمحافل الأدباء بالأشعار واللغة ، ويستعين على ذلك بسلامة الذوق ، وصفاء الطبع ، وقوة الحافظة ، وكثرة الاطلاع ، وجودة الاستماع ، وإلحاح الحاجة وحافظ فى كل أولئك موضع منفرد ومكان بارز !

عكف منذ شب على دواوين الشعراء وأجزاء (الأغانى) يتنخلها ويتمثلها ويعاود النظر فيها ، ويستكمل الحظ منها ، حتى بلغ من مختار الرواية ومصطفى الكلام ما لا غاية بعده . ثم قنع من فروع الثقافة الأخرى بنتف من المسائل الأولية ، ينقلها عن السماع ويأخذها عن الصحف إذا ظن أنها

تدخل بوجه من الوجوه فيما يعنيه من ابتكار الأسمار وصوغ القريض ؛ حتى لغته الفرنسية ظلت بكماء فلم يتقنها ولم يستفد منها ، لا بالقراءة ولا بالترجمة !! وثقافة الشاعر المدنى المجد ثقافة محيطة شاملة ، تشارك فى ضروب المعرفة مشاركة بصيرة ، وتتابع تقدم الفكر متابعة حرة .

* * *

أما صياغة حافظ فهى موهبته الأولى ومزيته الظاهرة وهو فى ذلك ثانى الخمسة[1] الذين تيقظت على دعوتهم نهضة الشعر ، وتجددت على صنعتهم بلاغة القصيد . ولعله انفرد عن هؤلاء جميعاً بالصدق فى تعبيره عن هموم قلبه ، وتفسيره لأمانى شعبه ، وتصويره لمساوىء عصره ...

(١) البارودى وحافظ وشوقى وصبرى ومطران .

مصر والشرق الإسلامي

(١٢ أغسطس سنة ١٩٣٥)

إذا قلت إنا أمة من غير منهج ودولة من غير سياسة لا تبعد عن الصدق ! فإن التبعية الثلاثة التي ضربتها علينا الأقدار الخصيمة في السياسة والاقتصاد والأدب قتلت في عقولنا الرأي الأصيل ، وفي نفوسنا العـــــزم المستقل ، وفي مواهبنا العمل المرتجل . فنحن في مجموع الناس أتباع وأوزاع ننظر إلى الأمم تعمل وإلى العالم يسير بعين بلهاء لا يجاوز بصرها مدى العجب ! وعلتنا أن ساستنا وقادتنا كلهم من رجال القول لا من رجال الفعل ، ومن أرباب القلم لا من أرباب السيف ، ومن جنود القانون لا من جنود (الأوامر) . رُبُّوا على مقاعد المدارس ، وثُقِّفُوا على مباحث الكتب ، ودرِّبوا على مكاتب الدواوين ، وحرموا التربية العسكرية وهي وحدها القائمة على الخطة والنظام والأمر والتنفيذ والشرف ؛ فكانت سياستهم سياسة الترقب والتردد والخوف ، لا يُصدرون ولا يوردون إلا عن فتوى فقيه أو تقرير خبير أو إشارة (مندوب) أو رغبة سلطان أو إرادة حزب . وذلك هو الفرق بين ساسة مصر وفلسطين وسورية ، وبين ساسة العراق وإيران وتركية فبينما تجد الأولين وهم رجال قانون مشغولين بالمفاوضات والمعاهدات والاحتجاجات والشكوى ، تجد الآخرين وهم رجال حرب لا يتبعون غير قانون الطبيعة ، ولا يفهمون غير سطور الجيش ، ولا يعبأون إلا بالواقع ، ولا يمضون إلا على العزم ، ولا يأوون إلى إلى الأمة .

ففي مجلس من مجالس الحكم أو في ناد من أندية السمر ، تجول

فى خواطرهم الفكرة، أو تجرى فى نفوسهم الأمنية ، فما هى إلا صيحة القائد حتى تصبح قانوناً مرسوماً كالخطة ، ماضياً كالنظام ، شاملا كالتعبئة — والعسكرى لا يتردد ولا يتلكأ ، وإنما ينطلق ماضى الصريمة قدُماً إلى وجهه : مبدؤه الأمر وطريقته المعركة وغايته النصر !

تدبر ذلك ووازن بين هذه السياسة الدبلوماسية التى تضطرب ولا تستقر ، وتدور ولا تتقدم ، وتناقش ولا تنتج ، وبين تلك السياسة العسكرية التى تهجم ولا تضطرب ، وتقدُم ولا تتقهقر ، وتعمل ولا تناقش ، فلعلك واجد فى الموازنة تعليل هذا الشذوذ الذى نحن فيه ! أمة لا تقل عن أكثر الأمم رجالا ولا مالاً ولا قوة ، يدفعها ماض مجيد ، ويحفزها حاضر مُلحّ ، ويغريها مستقبل واعد ، ثم موقعها من أعظم المواقع ، ومغرسها من أكرم المغارس ، وعدتها الممكنة من خير العدد ، وتراها مع ذلك لا تزال صاغرة تعطى بالقهر ، وقاصرة لا تملك التصرف !

هل تجد بربك علة خمـــودها ووناها فى غير قيادتها الرخوة وسياستها المستكينة وإرادتها المعطلة ؟ ما منهج سياستنا فى الغرب ؟ متابعة إنجلترا على هوى الاحتلال ، ومصانعة الدول على حكم الامتيازات ، وإطفاء هذه البقعة المشرقة فى وجه إفريقية بهذا المظهر الكاسف . وما منهاج سياستنا فى الشرق ؟ إن كنت تسمى الإغفال سياسة والقطيعة خطة ، فأثرها ما ترى بيننا وبين الحجاز من تناكر لا يسوغه عرف ولا تقتضيه طبيعة ولا تجره منفعة ، وما تشهد بيننا وبين جاراتنا الأخوات من تدابر لا يسلم عليه تضامن ولا يجرى معه تعاون ولا تنتظم به وحدة ، ثم ما تسمع بيننا وبين الشرق الإسلامى من

تناضب على التمثيل السياسي ، وهو أقل ما توجبه الروابط الدينية والتاريخية والجنسية من التواصل والتعاطف والمجاملة

سخونا إلى حد السرف على تمثيلنا الخارجي فى أوربا ، حتى فى العواصم التى لا تصلنا بها سياسة ولا تجارة ولا جالية . فلما نبهنا إخواننا فى آسية إلى أنهم أمم كأولئك الأمم لهم ما ليس لنا من استقلال صحيح وسيادة كاملة ، فضلا عما بيننا من أواصر التاريخ ووشائج القربى ، مثلنا أنفسنا هناك فى الغالب بمن تنفيهم الأهواء لا بمن تدعوهم الحالة ، وجعلنا العراق وإيران وأفغانستان سفيراً واحداً يقيم فى طهران !

مَسَّ ذلك من كبرياء الأمتين الأختين فتثاقلت العراق عن تعيين سفيرها فى القاهرة ، ونقلت الأفغان وزيرها إلى مكة ، ذلك والغرب يتحلب فوه إلى ازدراد الشرق ، فهو يستعين عليه (بالعصبة) ويحتال له بالتجارة ويتدسس إليه بالعلم ويدور من ورائه بالمعاهدات ؛ ثم يرى أن العـــرب صُلبه والإسلام روحه فيهجم عليهما بالمودة ويتسابق إليهما بالخديعة ، ولكن الإسلام والعرب يريدان أن يظل الشرق مطلع النور ومصدر الحرية ومنبت العزة ؛ وتحقيق هذه الإرادة موكول إلى اجتماع الكلمة واتحاد الوجهة وتساير الهوى فى الأمم الإسلامية التى ألفت بين قلوبها العقيدة ، وفرقت بين جسومها المطامع .

ومَن أحق من مصر إذا استقلت إرادتها وتقررت سياستها وتحركت كفايتها بجمع هذه القلوب الخالصة على جهاد الاستعمار ، وقيادة هذه النفوس المؤمنة إلى نصرة الحق .

إن وطننا ياقوم مترامى الحـــدود فلماذا تحدُّونه على الضيق وإن

قومنا ضخام العديد فلماذا يحصرونهم على القلة ، وإن إخواننا كرام يصفون المودة و يولون المعونة فلماذا تجعلون بيننا وبينهم سدا من الإهمال والغفلة ؟ إن الأمم القوية الناضجة لترخص الأموال والأنفس فى التمكين لأدبها ونفوذها وتجارتها فى الشرق ، فكيف نعرض نحن عن ذلك وهو يأتينا عفواً عن طريق القرابة فى البلد والنسب ، والوحدة فى اللغة والأدب ، والمشابهة فى الخط والحالة .

سعد باشا زغلول

(٢٩ أغسطس سنة ١٩٣٥)

— ١ —

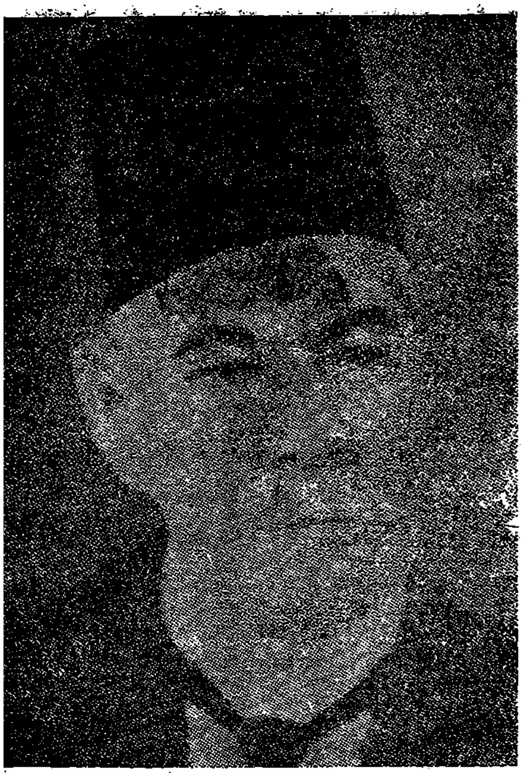

كان سعد رحمه الله كالبحر لا تطالعه من أى جهاته إلا غمر نفسك بجلال العظيم ، وشغل رأسك بخيال الشاعر ، وأخذ حسك بروعة المجهول ، ولم يكن إنساناً كسائر الناس عظمته موضع الشذوذ فى بشريته ، وعبقريته بعض الكمال فى نقصه ، وقوته عرض منتقل فى ضعفه ؛ إنما كانت العظامة أصلا فى طبعه ، والعبقرية فطرة فى خَلقه ، والقوة جوهراً فى إرادته . وإذا كان النبوغ قوة فى مَلَكة على حساب ملكات ، وارتفاعاً فى جهة بانخفاض جهات ، فإن نبوغ سعد باشا كان نظاماً عدلا فى نوعه . ظهر فى كل موهبة من مواهبه بمقدار واحد ، وبهر فى كل أثر من آثاره بشعاع ممتاز . فهو فى صرامة المنطق مثله فى لطافة الشعر ، وفى جرأة القلب مثله فى رقة الشعور ، وفى

بلاغة اللسان مثله فى براعة الذهن ، وفى كيد الخصومة نفسه فى شرف الرجولة ، وفى قيادة الجمعية التشريعية عينه فى قيادة الأمة المصرية .

سعد زغلول ومحمد عبده هما الآية الشاهدة على سمو الجنسية المصرية الخالصة ، والحجة القائمة على فضل الثقافة العربية الصحيحة . نشأ كلاهما قرويين لم يَشُب دماءهما عنصر دخيل ، أزهريين لم يشلّ تفكيرهما تقليد عاجز ، ثم مضيا على إلهام الجنس ورسم التاريخ وهدى العقيدة ، يدعو أحدهما إلى إصلاح الدين ويدعو الآخر إلى إصلاح الدنيا ، برجولة الخلق وفحولة التفكير وبطولة التضحية ، حتى كان من أثر جهادهما المباشر ما نحن والشرق فيه من انتباه العقل وانتعاش الوجدان وثورة الحمية .

كانت معجزة الرجلين فى رسالتهما الإنسانية من نوع معجـــــزة الرسول فى رسالته الإلهية . رجولة قاهرة ، وفصاحة ساحرة ، وخلق عظيم . وتلك هى عناصر الشخصية الجبارة التى تأمرك وكأنها تستشيرك ، وتقودك وكأنها تتابعك ، وتتطامن إليك وأنت منهـــــا كما تكون من البحر أو الجبل أو العاصفة .

* * *

إذا شئت أن تختصر رسالة سعد فى كلمة فهى (الدفاع عن الحق) . تطاوع له منذ شب بدافع من غريزته الحاكمة وطبيعته الناقدة ، فكان فى كل مرحلة من مراحل حياته يذود عنه طغيان القوة وسلطان الهوى وعدوان الرذيلة . عين بعـــــد خروجه من الأزهر محرراً فى الوقائع المصرية مع أستاذه الإمام ، فكان يكتب فى الاستبداد والشورى والأخلاق ، وينتقد الأحكام التى كانت تصدرها يومئذ (المجالس الملغاة) ثم عين

ناظراً لقــــلم قضايا الجيزة وكان حكمه حـكم القاضى الجزئى ، فنزل الحق من عدله وعقله فى حمى أمين . ثم أصغى لصرخة الحق فى النضبة العرابية فقصل من وظيفتـه ، فزاول المحاماة وهى يومئذ حيلة الباطل وخصيمة العدل وآفة الخلق ، فأنقذها من هذه المراغة ، وطهرها من ذلك الرجس ، وردّها إلى طبيعتها مجلوة الصدر عفيفة الأديم تساعد القانون وتؤيد الحق .

وكان سعد أفندى زغلول أول محام أقرته المحاكم الأهلية فى مصر ، فجعل دستور هذه الحرفة النبيلة هذا الجواب الجامع الذى أجاب به ممتحنه وقد سأله عن واجبات المحامى فقال :

« درس القضية ، والدفاع عن الحق ، واحترام القضاء »

ثم اختير نائب قاض فى محـكمة الاستئناف ، ويومئذ درس الفرنسية ونال إجازة الحقوق ، فبرع القضاة الأوربيين بالذهن الغواص ، والدرس المحيط ، والتوجيه النزيه ، والاستدلال الصحيح ، والاستنباط الدقيق ، والحـكم الموفق ثم انتقل من القضاء إلى وزارة المعارف ، وكان للمستشار الإنجليزى دنلوب فيها استبداد الطاغية ، وفساد المستعمر ، وعناد القدَر وكان لهذا الفاجر صرعى كثيرون أولهم اللغة العربية والـكرامة المصرية فطأطأ سعد بسطوة الحق علو المستشار ، وأعز جانب العربية فى وطنها فجعلها لغة الثقافة ، ووضع الأقدار فى مواضعها فرفع بذلك من قدر الـكفاية !

ثم انتخبته الأمة نائباً عنها فى « الجمعية التشريعية » فـكان بشخصيته الغلابة ولهجته الخلابة وحججه الملزمة وأجوبته المفحمة رهبة الوزراء ودهشة النواب ومتعة الأفئدة . وكان منهجه فيها قوله المأثور :

الحق فوق القوة ، والأمة فوق الحـكومة » !

ثم أعلنت الهدنة ووضعت الحرب العامة قضية العالم كله على مكاتب الغالبين فى (فرساى) ، فدوى فى سمعه صوت الحق الصريع ، وعصفت فى رأسه نخوة الشعب المستذَل ، فنهض للناصب المزهوّ نهضته المعروفة ، فخيس بها أنف الجبار العنيد ، وفتح بفصلها الدامى تاريخ مصر الجديد .

* * *

وهكذا اصطفى الله سعداً لرسالة الحق فى أمة سفهته فى نفسها فلا تأخذه ولا تعطيه ، ثم ركبه على الصورة التى أرادها لتبليغ هذه الرسالة ، ثم هدى به قافلة قومه إلى طريق السلامة ، وجعل الذين اتبعوه بالحق فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة .

— ٢ —

كانت رسالة سعد كما رأيت (الدفاع عن الحـــق) فى عهد خذل الحق فانتهى فيه الحكم إلى الأثرة ، وشعب جهل الحق فجرى به الأمر على الباطل وكانت عدة هـذا المحامى الِمدْره لتلك الدفاع البلاغةَ والمنطق والقانون فالبلاغة للجمهور ، والمنطق للخصـوم ، والقانون للحكومة ، ولست أرمى بذلك إلى تقسيم كلام سعد إلى التأثير المحض والإقناع المطلق والتطبيق المجرد ، فإن خطبته فى كل موضع وفى أى موضوع لا تخلو من هـــذه العناصر الثلاثة ، وإنما يظهر بعضها على بعض حين يقتضى المقام ذلك الظهور ، فهو يوجه التأثير بالفكرة إلى الذهن إذا هاجم الإنكار والجهل ، ويوجهه بالعاطفة إلى النفس إذا عالج الخمود والغفلة ، ثم يوجهه بالنصوص إلى الذاكرة إذا عارض القوة والسلطة ولم ير التاريخ المصرى بل الشرق قبل سعد خطيباً بليلَ اللسان ، ندىَّ الصوت ، طلق البديهة ، دامغ الحجة ، حافل الخاطر ، رائع البيان ، أنيق اللهجة ، حسن

السمت يزاوج بين المنطق والشعر ، ويعاقب بين الإقناع والإمتاع ، ويراوح بين الجد والهزل ، ويتصرف في فنون القول تصرف الشاعر برقة الأسلوب ، والفيلسوف بدقة الفكر ، والموسيقي بجمال الإيقاع ، كل أولئك في هالة من الشخصية المهيمنة الجذابة ، تساعد بلاغة اللسان والعين واليد بشعاع إلهي باهر ينفذ إلى النفوس المتكبرة فتتضع ، وإلى الأذهان المكابرة فتقتنع ، وإلى القلوب القاسية فتلين .

كان سعد رجل جلاد وجدل تمرس منذ الحداثة بشدائد الحياة ومكاره العمل ، وراض نفسه منذ الدراسة على أدبي اللسان والقلم ، وتنفس به العمر في ميادين الجهاد في الحق فتكملت عبقريته الموهوبة بالمرة ، وتثقفت بالتجربة ، وتقوت بالمرانة ، حتى كان منه ذلك الخطيب المرتجل الذي يهضب[1] بالكلام أربع ساعات متواليات لايتلكأ ولا يتلجلج ولا يتكثر باللغو ، ولا يستعين بالتكرار ، ولا يطرد نشاط السامع وكأنما كانت الخطابة لطول مازاولها تصدر عنه كما يصدر الفعل عن الطبع الملازم والعادة المستحكمة : فالفكر عميق من غير إعنات ، والأسلوب رشيق من غير تكلف ، واللفظ متخير من غير قصد ، والمعاني متساوية تختلف باختلاف العقول والميول والحال ، فتقع من قلوب سامعيها المشرين ألفاً موقع الأنداء من جفاف الأرض ، هذا بالصورة الأخاذة ، وذاك بالفكرة النافذة ، وذلك بالحجة الوثيقة ، وأولئك جميعاً بالبيان الملهم والأداء العجيب !

أكثر ما في خطب الخطباء حنجرة وإلقاء وحركة فإذا قرأت بعد ذلك ماسمعت تبينت فيه الكلام الزائف والرأي المجازف والأسلوب المهوش . أما سعد فتسمعه وتقرأه فلا تجد بين الحالين إلا الفرق بين الخطيب الماثل بشخصه

(١) يقال فلان يهضب بالشعر أو بالخطب : يسح بهما سحا .

والكاتب الماثل بروحه . ذلك لأنه يخطب كما يكتب ، ويكتب كما يخطب ، متوخياً فى الأمرين براعة التفكير وبلاغة الأداء وجمال الأخيلة وصحة الأقيسة وقوة الأدلة . !

* * *

كان سعد برد الله ثراه وخلد ذكراه يحب الكلام كما يحب العمل ، وينشط بالجلاد كما ينشط بالجدل ، ويطرب للفتة الذهن كما يطرب لقهر الخصوم ، ويقدس المنطق حتى ليأخذ به من نفسه لعدوه ، ويقوى بالكفاح حتى ليركبه المرض والوهن إذا ما استحكم .

دخلت ذات يوم (بيت الأمة) [1] فى وفد من قومى نجدد الثقة بالرئيس حين انصدع من حوله الوفد ، وائتمرت به الحكومة ، وتخشن عليه الإنجليز ، ودس له المراءون الغدر فى الملق ، ولم يبق معه إلا اعتداده بنفسه ، واعتقاده بحقه ، وثقة الشعب الأعزل به . وكان فى ذلك اليوم عليلا لا يخرج إلى أحد ولا يدخل عليه أحد ، ولكن الوفد المسافر المشوق يأبى فى إلحاح وإصرار إلا أن يرى رئيسه وإن لم ينزل ، ويسمعه رأيه وإن لم يتكلم . فنزل الزعيم النبيل مدثراً بلفائف المرض يتحامل على نفسه ويتهالك على مقعده . وكان فناء الدار وشارع الدار وحجرات الدار قد انفجرت انفجار عرفات بالدعاء والتفدية حين لاح وجهه الشاحب من العلة .

قدم وفدنا إلى الرئيس عرائض الثقة فى غلاف حريرى جميل ، ثم تعاقبت الخطب على الأسماع ما بين سمين وهزيل ، والخطيب المعجز جالس إلى مكتبه يصغى إلى كل خطيب ويصفق لكل خطبة ، حتى انتهى القوم ووقف هو يقول كلمة الشكر ، فبدأها بصوت خافت متهافت ، ثم ما لبث أن شبا وجهه

(١) لقب أطلق على بيت سعد الخاص .

واستقام عوده وارتفع صوته ، وتنوعت لهجته بالنبرات المؤثرة ، وتحركت يده بالإشارات المبينة ، ثم تدفق تدفق السيل الهادر ساعة كاملة هتك فيها أستار الغلول والخديعة عن سياسة الحكومة والخصوم ، فسمع الناس كاليوم خطيباً ينطق عن الوحي ، وأسلوباً يتسامى للإعجاز ، وصوتاً يمتزج رنينه الفضي بأجزاء النفس ، وخطبة لا يظفر بمثلها البيانيون نموذجاً كاملا للفن .

تلك صورة جانبية لناحية من نواحي فن الزعيم ، جلوناها على قدر هذه الصفحة . ولعلنا نعود يوماً إلى هذا الإجمال فنفصله ، وإلى هذا التركيب فنحلله .

أحمد شوقي

(٣١ أكتوبر سنة ١٩٣٥)

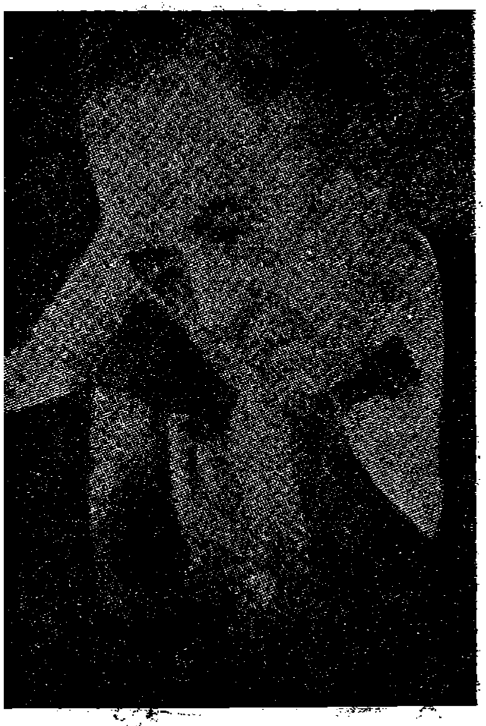

اجتمع رأي المعاصرين — ماعدا الشعراء — على أن شوقي طيب الله ذكره ، كان تعويضاً عادلا عن عشرة قرون خلت من تاريخ العرب لم يظهر فيها شاعر موهوب يصل ما انقطع من وحي الشعر ، ويجدد ما اندرس من نهج الأدب ، ويحفظ للبيان العربي قسطه المأثور من التعبير الملهم عن كلمة الله المثبتة في الكون ، وأسرار الجمال المضمرة في الطبيعة ، ومعاني الخير الغامضة في الحياة . وأجمعوا على أن فقده كان فقداً للوجدان الفني في الشعب الذي علمه كيف يتذوق الأدب ويستسيغ الشعر وينضج عواطفه الجافة بفيض هذه القريحة النابغة الثرة فالأعوام تعقب الأعوام ، والذكرى تخلف الذكرى ، والأسى لا يزال يرمض الجوانح لامتناع الصبر عليه وإعواز العوض منه . وسيبقى شوقي كما وضعه القدر كمالا في نقص كان ، وهيهات أن يصير نقصاً في كمال سيكون . وسيدور الفلك ويدور ، ويقصد النقد ويجور ، ويتطور الذوق ويسمو ، وشعر شوقي ثابت ما ثبت الحق ، خالد ماخلد القرآن ، مقروء ما بقي العرب .

ذلك لأن الطبيعة اختارته لرسالة الشعر بعد فترة موئسة من الرسل ، ثم آثرته بالنصيب الأوفى من الفكر والخيال والعاطفة ، وهن الملكات الثلاث التي ترفد القريحة وتمد الطبع وعلى تفاوتها في القوة والضعف يتفاوت الفنان في السبق والتخلف ثم زودته بالأذن الموسيقية والقريحة السخية والأداة الطيعة ، فشب عبقرياً بالفطرة لا شأن للبيئة في تنشئته ولا للمدرسة في إعداده ولا للفرصة في توجيهه . وهل كان أثر البيئة وقفاً عليه ، وتعليم المدرسة خاصاً به ، ومواتاة الفرص امتيازاً له ؟ إنما كان مثله في رسالة الشعر كمثل الأنبياء في رسالة الدين ، يختارهم الله من الضعفاء والفقراء والأميين ليكون جلاله عليهم أبهر ، ومعجزته فيهم أظهر ، وحجته منهم أبلغ .

وشوقي رجل روحه أقوى من فنه ، وشعره أوسع من علمه ، وحكمته أمتن من خلقه ، وقدرته أكبر من استعداده . فلا يشك قارئه في أنه وسيط لروح خفية تقوده ، ورسول لقوة إلهية تلهمه . وما اكتسب من القراءة والأسفار إلا إرهاف الذوق وتحصيل المادة وتوسيع الخبرة . والذوق في الفن كالعقل في العلم إنما يحصلان بالدرس والتجربة والسن . والطبيعة تصنع صاحب العبقرية ، ولكنها تبدأ صاحب الذوق .

* * *

الشاعر المطبوع رجل يتأثر خياله بقوة ، وينفعل قلبه بسرعة ، ثم يكون بين خياله وقلبه تجاوب سريع مستمر . له أذن مرهفة الحس تفطن للايقاع وتطرب للنغم ، وذوق سليم الإدراك يعرف جمال الشعر ويعلم مواقع الكلم ، ونفس ترى للمُثل الروائع فتحمى وتتحمس . ثم يدفعها السمو الفنى فيها إلى المنافسة الحرة والمعارضة النبيلة . وإذا تناول الفكرة الأساسية الأولية لموضوع ما ، لا يلبث أن يراها في دخيلة نفسه تنمو وتتسع وتتركب وتتشعب

وتتلون ، ثم تغدو ولوداً خصبة ثم لا ينفك شاعراً بالحاجة الملحة إلى الإنتاج الناشيء عن غزارة الفيض وحرارة العاطفة ثم يدرك في يسر ما بين المعانى المجردة والمواد المحسة من علاقة ، فيتخذ من هذه ألواناً لتلك ، بحيث تولد هذه الأفكار في الذهن مكسوة بهذه الصور تتمثل في خاطره المواد من ذات نفسها على الوجه الأنسب للتصوير ، والوضع الأجمل في النظم فإذا كان الموضوع مؤثراً انثالت عليه العواطف معجلة تريد أن تظهر ، مزدحمة تحاول أن تفيض .

ذلك هو الشاعر المطبوع وذلك هو شوقى علمناه بالدرس وعرفناه بالصحبة فما انخزل يوماً فى تحليقه وإسفانه عن مواقف العبقرية . وإذا كان فى شعر شبابه مأسور الفكر محصور الخيال محدود النظر ، لا يعبر إلا عن رأى القصر ، ولا يصور إلا بألوان البيئة ، فقد كانت هذه الحقبة الرسمية غيبة للشاعر عن نفسه ، وذهولا منه عن وجوده وقديماً كانت صلات الشعراء بالملوك والخلفاء عاهة الشعر وآفة للعبقرية . فلما أعتقته الحرب الكبرى من رق الوظيفة ، وأطلقته إنجلترا بالنفى إلى الأندلس ، تيقظ فيه الرسول الشاعر والحكيم المصلح ، فحلق بخياله فى كل جو ، وسطع بعقله فى كل أفق ، وشدا بالإسلام والعروبة والمصرية شدواً ردده كل لسان واهتزله كل قلب . ثم زاد فى القيثارة العربية الأوتار الناقصة ، فأضاف الشعر القصصى والشعر التمثيلى إلى شعرنا الغنائى ، فكان بذلك وحده الشاعر الكامل !

شوقى كان كله من صنع الطبيعة . ولد منشداً كما ولد البلبل مغرداً . فالحكم على شعره بقوانين النقد الوضعية ، وآراء الناقدين الشخصية ، لا يضعه فى مكانه ولا يزنه بميزانه اقرأه ثم راجع فيه نفسك ، واستشر فى أثره

خيك حسك . فإذا وجدت ذهنك يشتغل ، وشعورك يشتمل ، وروحك تتصل بروحه ، وذوقك يرتاح لذوقه ، فتثق أنك بإزاء شاعر علت مزاياه على النقد ، وسخرت مواهبه بالقيود . . .

* * *

إن شوقي سيظل على رغم الهتاف به مغموط الحق مادام الشعر العربي للخاصة ، لأن الخواص أكثرهم لا ينصفونه ، والعوام كلهم لا يفهمونه . فمتى زالت معرة الأمية عن الأمة العربية أصبح لشعره يومئذ شأن وأي شأن !

١٧ رمضان

(١٦ ديسمبر سنة ١٩٣٥)

كان الإسلام للمهاجر من مكة الجاهلية لا يزال خافض الجناح في يثرب . وكان السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار لا يزالون تحت البلاء : يمتحن الله صبرهم بالألم ، ويختبر إيمانهم بالفتنة ، ليمحص الذين يجتبيهم لنشر الدعوة ، ويعلم الذين يصطفيهم لجهاد الرسالة . فالقرشيون يؤلبون عليهم القبائل . واليهود ينصبون لهم الحبائل ، والمنافقون يدسون لهم الغدر في الملق . فلما أذن الله لدينه أن يعود ولمجده أن يسود ولنوره أن يتم ، أرسل جنوده الثلثمائة إلى وادي بدر ، يتعاقبون على سبعين نضواً من أباعر المدينة ، ويستعينون بصبر المجاهد على القلة ، وبعزة المؤمن على الذلة ، وبعفة الزاهد على الفاقة ؛ ويسهرون في استغراق الصوفي إلى ما وعدهم الله من إحدى الطائفتين : العير أو النفير[1] ، وإحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة . ولكن العير الذي يفهق بالثراء الضخم نجا به أبو سفيان على الساحل ، فلم يبق إلا مكة الغاضبة أثروتها وسطوتها ودينها قد نزلت بالعدوة القصوى من الوادي مع أبي جهل في تسعمائة وخمسين من فلذات أكبادها أرسلتهم في الخيل والحديد يجيشون على محمد بالقتل ، ويفورون على صحبه بالحفيظة ، ويرون الإسلام في هذا العدد القليل والمظهر المزيل فيحسبون أنه أمكنهم من نفسه ودلهم على مصرعه .

---

(١) العير قافلة التجارة التي كان يقوم بها أبو سفيان من الشام . والنفير القوة التي قام بها أبو جهل من مكة لنجدة العير . ولقد اجتمع في الطائفتين فرسان قريش ورجالاتها ، فمن لم يكن فيهما كان من الحقراء الذين لا غناء فيهم . ومن هنا سار المثل المشهور : فلان لا في العير ولا في النفير .

التقى الجمعان فى صبيحة اليوم السابع عشر من شهر رمضان ، وكان المسلمون على فقرهم وضرهم ثلث المشركين ، وكان المشركون على كثرتهم وعدتهم صفوة قريش فوقف الإسلام من الشرك كان يومئذ موقف محنة . كان بين العدوتين فى بدر مفرق الطريق ؛ فإما أن يقود محمد زمام البشرية فى سبيل الله فتنجو ، وإما أن يردها أبو جهل إلى مجاهل التيه والضلال فتهلك . وقفت مدنية الإنسان بأديانها وعلومها وراء محمد على القليب [1] ، ووقفت همجية الحيوان بأصنامها وأوهامها وراء أبى جهل على الكثيب فكان طريق وعقبة ، ونور وظلمة ، وإله وشيطان ! فإما أن يتمزق تراث الإنسانية على هذا الصخر ، ويتبدد نور الله فى هذا القفر ؛ وإما أن تتم المعجزة فتفيض الحياة على الناس من هذه البئر ، ويتصل الماضى بالمستقبل من هذا الطريق ، ويبدأ التاريخ عهده الجديد بهذه الموقعة !

« اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك ! اللهم فنصرك الذى وعدتنى ! اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض ! » .

ذلك كان دعاء الرسول أمام العريش ووجهه إلى القبلة ، ويداه إلى السماء ، ورداؤه من الذهول فى الله يسقط عن منكبيه فيرده الصديق ويقول : بعض هذا يانبى الله ، فإن ربك منجز وعده ! وما هى إلا خفقة من خفقات الوحى حتى نزل الوعد بالنصر ، وجاءت البشرى بالجنة ، فغاب المسلمون فى إشراق عجيب من الإيمان ، لا يرسم فى أخيلتهم إلا الحور ، ولا يصور فى أعينهم إلا الملائكة وقذف الله فى قلوب المشركين الرعب فانهار السد الغليظ أمام النبع النابض من صخور بدر ، وانجاب القتم الكثيف عن النور الوامض

---

(١) القليب : البئر

من ربوع يثرب ، وانكشفت المعجزة الإلهيـــة عن انتصار ثلثمائة على قرابة ألف !

موقعة بدر الكبرى لا تذكر بخطتها وعدتها ونفقتها وعديدها فى تاريخ الحرب ، فلعلها فى كل أولئك لا تزيد على معركة بين حيين فى مدينة ؛ إنما تذكر بنتائجها وآثارها فى تاريخ السلم ، لأنها كانت حكماً قاطعاً من أحكام القدر غير مجرى التاريخ ، وعـــدل وجهة الدنيا ، ومكن للعرب فى دورهم أن يبلغوا رسالة الله ، ويؤدوا أمانة الحضارة ، ويصلوا ما انقطع من سلسلة العلم .

لم يكن النصر فيها ثمرة من ثمار السلاح والكثرة ، ولكنه كان ثمرة من ثمار الإيمان والصدق . والإيمان الصادق قوة من الله فيها الملائكة والروح ، وفيها الأمل والمثل ، وفيهـا الحب والإيثار ، فلا تبالى العدد ، ولا ترهب السلاح ، ولا تعرف الخطر !

بهذا الإيمان الصادق خلق الله من الضعف قوة فى بدر والقادسية واليرموك . وبهذا الإيمان الصادق جعل الله من البادية الجديبة والعروبة الشتيتة عمراناً طبق الأرض بالخير ، ومُلْكا تظم الدنيا بالعدل ، وديناً ألف القلوب بالرحمة .

* * *

بهذا الشعور القدسى الذى يحس وينهض ويقود ، وبهذا اليقين النفسى الذى يجاهد وينتصر ويسود ، وقف الشباب المصرى الباسل من دخلاء الجيش ، موقف البدريين من كفار قريش ، يشقون بهتافهم أذن الأمم ، ويقرعون باحتجاجهم ضمير المصير ، ويجدعون بثباتهم أنف المتكبر ! لا ينكلون أمام الرصاص ، ولا يرهبون وحشة السجن ، ولا يجزعون عند الفاجعة وعاطفة الوطنية كعقيدة الدين : فناء فى الغيرية ، واندماج فى الجمعية ، وتوجيه

الأمل الطموح إلى المقصد الأعلى . وأجمل ما فى وطنية الشباب المصرى اليوم هو أجمل ما كان فى عقيدة الشباب العربى أمس : اتحاد قائم على الألفة ، وتضامن مبنى على الوحدة ، ومزاج مركب من الشعور الدافق والإيمان الصادق والتفكير المنظم .

إن اليوم السابع عشر من شهر رمضان سيظل يوماً مشهوداً فى تاريخ الأمة العربية بنزول القرآن وغلبة الحق ، وفى تاريخ الأمة المصرية بنصرة الشباب ووحدة الأحزاب وعودة الدستور .

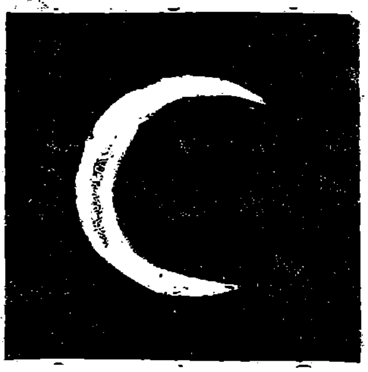

أبو الطيب المتنبى

(٣ ديسمبر سنة ١٩٣٥)

— ١ —

(المتنبي كما تخيله جبران)

فى مثل هـذا الأسبوع من سنة أربع وخمسين وثلثمائة للهجرة طُلَّ فى سواد بغداد دم الرجل الطموح والبطل الشاعر أبى الطيب أحمد بن الحسين المتنبى ، فهمدت بهموده نفس دائبة الشبوب ، وعزيمة دائمة الوثوب ، وهمة رفيعة المصعد وكان المأمول أن يكون هذا العدد من الرسالة ديوانا لما يلقيه أساتذة الجامعـــة المصرية من المحاضرات فى (أسبوع المتنبى) ، ولـكن العواطف الموج التى ثارت بالبلاد فروعت قلوب النـاس وزعزعت ســلام الجامعة حالت من دون هذا الأمل . وأبو الطيب الذى رزق السعادة فى شعره ، وأوتى النباهة الخالدة فى ذكره ، لايزال حظه العاثر لعبة الأيام وألهية القدر هذا العراق الذى ولد به ودفن فيه قد أعرض بسمعه عن ذكراه وهو المثل الذى يرتجيه لشبابه ، والروح الذى

يبتغيه لنهضته ! وهذه حلب التي جعلها نشيداً في فم الزمن قد قسم الهوى رأيها على ذكراه فجاءت بما لا يتفق مع قدره ولا يسمو إلى جلاله ! وهذه مصر التي كان أول من أخذها بالخضوع الضارع[1] ، وعابها بالزهد الوضيع[2] : ونبه عيها الوسنى إلى فساد الحكم[3] قد دفنت ذكراه بين وعد من (رابطة الأدب العربي) عفّى عليه النسيان ، ونية من الجامعة المصرية ثبطت عنها الحوادث ؛ فلم يظفر شاعر القوة وشهيد المجد إلا بحفلتين جديرتين بفضله : حفلة قومية أقامها شباب العرب الأبرار في (سان باولو) ، وحفلة رسمية سيقيمها رجال الأدب الأخيار في (دمشق) ! وسان باولو لم تخلق في دنياه ، ودمشق لم تذكر إلا مرة واحدة في شعره .

كان أول عهدي بالمتنبي أن والدي — سقى الله ثراه — أهدى إلي في يوم من الأيام ديوانه ، وكنت لا أزال غلاما يافعاً قد ارتفع قليلا عن سن الحداثة ، فأنا أقرأ القصص وأحفظ المتون ، وأتلقى الدروس الأولية في الأزهر ، وأكثر من نظم الشعر في المناسبات المختلفة على معان سقيمة وقوالب مشوشة ؛ فأراد أبي أن أستعين بالنظر في هذا الديوان على تقويم ملكتي وتهذيب طبعي فأقبلت عليه إقبال المنهوم المحروم ، لأنه الكتاب الوحيد الذي أملك ، والغذاء الشهي الذي أحب ، والحنان الأبوي الذي أقدس كنت أقرأه فأدرك موسيقاه بشعوري وإن كنت لا أدرك معناه بعقلي ، وأحس أن شعاعاً سحرياً ينبثق عن سطوره فيغمر

---

(١) فمن قوله في ذلك :

سادات كل أناس من نفوسهم ... وسادة المسلمين الأعبد القزم

(٢) ومن قوله :

أغاية الدين أن تحفوا شواربكم ... يا أمة ضحكت من جهلها الأمم

(٣) ومن قوله :

نامت نواطير مصر عن ثعالبها ... حتى بشمن وما تفنى العناقيد

القلب بالنشوة ، ويرفع النفس بالحماسة ، كاللحن القوى ينساب فى الأذن الأمية نغماً من غير معنى ، وجمالا من غير تحديد ، ووحياً من غير بيان ، ولذة من غير وعى .

ازداد على الدرس والأيام فهمى للمتنبى ، فصار الذوق الساذج حجة من الفن ، والحب الذى صادف خلاء من القلب قوة من المنطق وكان أستاذنا المرصفى — تغمده الله بالرحمة — لا يصح فى رأيه أحد من الشعراء المولدين وبخاصة أبو الطيب ، فدس فى أذواق تلاميذه الكراهة له والنفور من شعره وتأثر بذلك الإيحاء رفيقاى طه حسين ومحمود زناتى ، وقاومه فى نفسى تلك العوامل الأولى فلم أر رأيهما فيه ، ولم أمالىء تعصبهما عليه . وما أكثر ما كنا نمارى فى أدبه و نتهاجى بسببه ! وما زلنا نتذكر تلك المداعبات الأدبية الأخوية فنستروح منها شميم الصبا النريض ، ونسيم العيش الأبله ، ونفح الولاء الخالص .

إن أبلغ ما أثر فى نفسى من حياة المتنبى منذ عرفته هى هذه النفسية المعذبة بين الطموح والعجز ، وتلك الشخصية المذبذبة بين الوسيلة والغاية سمت نفسه منذ أيفع إلى معالى الأمور ولم يجد معيناً عليها غير المال والقوة . أما القوة فقد التمسها فى قيادة الأعراب باسم الدين أو باسم العدالة فأخفق . وأما المال فاحتال عليه بوحى العبقرية وقوة الشاعرية فأصاب وكان الشاعر المغامر من هذه الوسيلة الأرضية ومن تلك الغاية السماوية بين عاملين مختلفين : عامل يرفعه فيُدل على الملوك ويتأبه على السوقة ويتجافى عن الهون ويقول لبعض الأمراء :

وفؤادى من الملوك وإن كا ن لسانى يُرى من الشعراء

وعامل يضمه ، فيهش للهبة هشاشة السائل ، ويحرص على المال حرص الشحيح ، ويصفر خدُّه الأصعر فى البحث عن درهم ، ويقول لبعض الأغنياء :

جلل قبل تسليمى عليه وألقى ماله قبل الوساد

ولكنه فى كلتا الحالتين كان طالب مُلك وعاشق مجد وخاطب دولة .

— ٢ —

ولدُ أبو الطيب فى ذرور القرن الرابع الهجرى عظيما بالاستعداد ، قويا بالنشأة ، طموحاً بالفطرة . فلا تحاول أن ترجع هذه الصفات فيه إلى أحوال داعية وأسباب موجبة ؛ فإن إعجاز القدرة أن يولد الملك فى حجر السوقة ويدرج العبقرى فى عش القدم(1) ، ويظهر النبى فى بيت المشرك . إنما العظمة خِلْقة فى العظيم ، تقويها عوامل وتضعفها عوامل . فولادة المتنبى بالكوفة ، وتجوله فى البادية ، وتنقله فى القبائل ، وكدحه الدائب أربعا وثلاثين سنة وراء الرزق الشرود ، يضرب من أفق إلى أفق ، ويخرج من هول إلى هول ، نمّت فيه أخلاق الجرأة والصراحة والصدق والصبر والمغامرة والأَنَف . وإن اتصاله بسيف الدولة الأديب الشجاع السمح هذب فيه الشعرية والفروسية ، وهما غريزتا البداوة وخصيصتا العروبة ؛ ثم ظهوره فى العصر الذى تحللت فيه روابط الخلافة ، وتعددت حواضر الأدب ، وتطاولت كفايات السيف والقلم إلى العروش العظيمة والمناصب الفخمة ، وأثمر تداخل الثقافات المختلفة ما أثمر من شمول العلم ونضج العقل واعتراض الشكوك وتعدد الفرق ؛ كل أولئك وسع فى ذهنه أفق المعرفة ، وقوى

(1) القدم : الغنى

فى نفسه الطموحَ إلى الرياسة ، وهيج فى رأسه الثورة على القدر ، وأراه فى بغداد كاتبا من الكتاب يصل بالأدب إلى الوزارة ، وفى مصر عبدا من العبيد يصل بالحيلة إلى الإمارة ، فطوّع له رأيه فى نفسه أن يبايع لها بالملك ، ثم أخذها بسمت الملوك ، وألزمها شارة الخاصة ، وعاشر الدهماء معاشرة الأنوف المكرَه ، وساير الرؤساء مسايرة الغريم الحاقد ، وسخر قوته وعبقريته فى طلب هذا (الحق)[1] وتحقيق هذا المطلب حتى ملأ الدنيا بذكره ، وشغل الناس بأمره .

* * *

للمتنبى فى كتاب الأدب العربى فصل قائم بذاته ؛ لأن حياته التى اختلفت عليها العوامل ، وازدحمت فيها الأحداث ، واعتركت بها الآمال ، وفاضت منها التجارب ، أمكنته من نوع جديد فى الشعر يتسم بالتفكير الحى والابتداع الجرىء والأداء الحر ، فأقبل عليه عشاق الأدب وطلاب الشهرة من ذوى السلطان فى خراسان والعراق والشام ومصر ، يتسابقون إلى وده ، ويتنافسون فى رضاه . وقد توسل بعضهم بالشفاعة ليحطبه فى حبله ، وجلس أحدهم بين يديه ليسمع مدحه فيه ! وكان يتصوّن عن مدح السوقة ، ويتكرم عن موقف الشاعر ، فسعى إليه الرؤساء المحرومون بالعداوة ، واجتمع عليه الشعراء المغمورون بالحسد ، وتعاون هؤلاء وأولئك على تعقب سقطاته وجحود فضله ، فكان من أثر الكتب التى أثيرت من حوله ، والحركة الذهنية التى نشأت من شعره ، أن سار ذكره مسير الشمس ، وصار شعره سجل الخلود ، وغدا مدحه مطمح الملوك ، وأصبح أدبه وما اتصل به من النقود والشروح مكتبة !

* * *

عقلية المتنبى عقلية بدوية خالصة . تتعلق بالحس أكثر مما تتعلق بالمعنى ،

---

(١) قال فى قصيدة له.

سأطلب حقى بالقنا ومشايخ كأنهمو من طول ما التثموا مرد

وتعتد بالواقع أكثر مما تعتد بالخيال ، وتعتمد على القوة أكثر مما تعتمد على الحيلة. لذلك كان ذهول الصوفية نابياً فى عقله ، وشعور الجمال خابياً فى قلبه ، وأثر الدين ضعيفاً فى حياته . ثم كانت فلسفته حاجة الدنيا ، وخطته سنة الطبيعة ، وفكرته صورة الواقع ، وغايته غاية الرجل الطماح ، فشخصيته تبغى الظهور ، وشهوته ترغب المال ، وحيويته تطلب الغلب ، وعظمته تريد الحكم . ومن ثَمَّ كان أخص ما يميزه بروز شخصه فى شعره ، وصدق إيمانه برأيه ، وقوة اعتداده بنفسه ، وصحة تعبيره عن طبائع النفس ومشاغل الناس وأغراض الحياة .

* * *

عبقرية أبى الطيب سبّاحة الجناح لماحة الطرف مبسوطة الأفق ، ولكنه قيدها بالمادة وحصرها فيما تدور عليه من كاذب المدح ولاذع الهجاء ، فقرت قرار الطائر الحبيس تخافت بالأغاريد المزورة على طبيعتها ، وتكايد الشوق الملح إلى الهواء والسماء والروض . ثم تفلت أحياناً من ربقة القيد فتحلق فى سماء الإلهام ، وتهتف بالمعجز من قلائد الحِكم وشوارد الأمثال وطرائف الذهن ، حتى فى الأغراض المبتذلة والمواقف الوضعية .

وهكذا كانت قوى المتنبى ومواهبه مقهورة معذبة . ولذلك كان أقسى ما يكون على قريحته وعبقريته فقد أرادها على الإبداع فى مدح لا يعتقده ، ووصف لا يحسه ، فجاءت معانيه فى أمثال هذه الأغراض توليداً من عقله لا نقلا عن شعوره . ولهذا كثر فيها الإغراق لقيامها على الدعاوى المرسلة ، والغموض لانتزاعها من الخوالج المبهمة ، والتناقض لتعبيرها عن غير كائن ، والتشابه لتفصيلها على غير معين .

أما فيما يشعر به كالهجاء والعتاب والنقد والفخر والشكوى ، فسبيل

لا يحجزه سد ، وبحر لا يحصره ساحل وحاله فى تدفق الأسلوب وبعد الفور وسعة الأفق ، كحاله فى بطء الحركة واختلاج الأداء وضيق الفكرة : شخصية مفروضة على الذهن ، وروح شمّاعة على الإحساس ، وزفيف فى الارتفاع والإسفاف يذكر بجناح النّسر .

والحق أن المتنبى شاعر القوة ، شاعر الحرب ، شاعر المغامرة ، شاعر المجد ؟ فلو كان سياسياً لكان مكيافيلى ، أو قائداً لكان نابليون ، أو فيلسوفاً لكان نيتشه ؟

من أحاديث النيروز

(١٣ يناير سنة ١٩٣٦)

كنا ليلة النيروز المسيحي[1] نسمر في دار صديق . ولهذا الصديق زوجة من (لوزان) دقيقة الفهم رقيقة الشمائل لطيفة التكوين أغرمت بمصر وأخلاق أهلها إغراقا شديدا ، فهي تحاول أن تتكلم العربية ، وتؤثر أن تعيش على الأوضاع المصرية ، وتتابع بالنظر العطوف نهضتنا الجاهدة ، وتدافع بالحجة القارعة ما تفتريه علينا الألسن الأوربية الجاحدة ، وتحب كلما حضرت أن تناقلني الحديث من مصر والعرب والإسلام والشرق وهي في كل أولئك واسعة الاطلاع من طول ما تسافر ومن كثرة ما تقرأ .

كان زوجها وفريق من المدعوين يلعبون الورق على المائدة اليهودية المغربية وكان فريق آخر يستمع إلى (الراديو) وهو يذيع الأناشيد الكنسية المهللة . وكنت أنا وهي على كرسيين متقابلين أمام المدفأة ، نتجاذب على عادتنا أطراف الحديث المشقق ، ونتصفح على طريقتنا أوجه الرأي المختلف ، فأجد في حديثها الشهي الممتع ما يجده ذلك الذي يلعب ، وذاك الذي يشرب ، وهذا الذي يسمع ؟

* * *

وتناهزت النفوس المتحابة لذة الصفو في الساعات المودعة[2] ، وتجاوبت في البيع القريبة أصوات النواقيس المرنة ، وتلاقت الحياة والموت في قلب

---

(١) النيروز هو اليوم الأول من السنة الشمسية .
(٢) الساعات الأخيرة من السنة المنصرمة .

الليلة المخضرمة[1] ، وتهتكت سدول المهد المحجب عن العام الوليد ، فقالت لى ساعتئذ والرفاق يتبادلون المودة بالعيون ، ويتناقلون التهنئة بالشفاه :

أنظر كيف يولد العام المسيحى فى بقاع الأرض : إنه يولد كما يولد الأمل المعسول فى النفوس المرحة النضة فالكنائس تعج بالصلوات المستبشرة ، والمنازل تفيض بالمسرات المتجددة ، والعالم الغربى كله لا يذكر فى هذه اللحظة عاماً دفن مع الأمس ذوت فيه بواضر المنى وذهب معه بعض العمر ، وإنما يذكر عاماً يولد مع اليوم يستأنف نشاطه فيه ، ويستمد رجاءه منه ، ويستقبل حدثان الغد بالثغر الباسم والعزم الصارم والنظر الرغيب . وما أدرى — وقد نشأت فى ربوع الغرب وطوفت فى بعض أنحاء الشرق — لماذا كان للمسلمين وحدهم اليوم رماد للوقد المضطرم : يتحرك بهم الفلك وهم ساكنون ، وتتفجر عليهم الأحداث وهم غافلون ، ويلقون فى مراغة الذل وهم راضون ، وتؤكل بهم أرزاق الأرض وهم قانعون ، ويجادل عنهم خصومهم وهم ساكتون . أيرجع ذلك إلى العقيدة أم إلى الطبيعة .

فأجبتها والخجل يكسر من طرفى ويعقد من لسانى ؟

ربما كان مرجعه إلى الاثنتين معاً .

وكانت تنظر إلى لهب النار يرقص وارياً بين وقود المدفأة ، فحولت فى دهشة وسرعة وجهها إلى وثبتت نظرها فى ، وقالت .

كيف ؟ ألم تكن عقيدتهم اليوم هى العقيدة التى ألفت من شتات البدو دولة ، وبعثت من جوف الصحراء حضارة ، ونفخت من روح الله فى قلوب الصعاليك فطمحوا إلى ملك كسرى وهم جياع ، وسموا إلى عرش قيصروهم عراة ، وصمدوا إلى حكم العالم وهم سذج

---

(١) مخضرمة لأنها أخذت شطرها الأول من العام الماضى وشطرها الآخر من العام الجديد .

ألم تكن طبيعتهم اليوم هي الطبيعة التي تكرمت عن الدون ، وتجالّت عن الهون ، وتسامت إلى القدر الخطير ، وتمردت على الطغيان المستبد ، وجعلتهم يضعون أنفسهم في كفة والعالم كله في كفة ، فسمّوا — كما علمت منك — من عداهم بالعجم كما سمى الرومان مَن عداهم بالبربر !

فقلت لها : كلا وا أسفاه ! ليست العقيدة اليوم هي تلك العقيدة ، ولا الطبيعة هي تلك الطبيعة ! كانت عقيدتهم كما قلت سامية تبعث الطموح ، صافية تكسب الخلوص ، بسيطة تنتج الوفاق ، جامعة توجب الوحدة توفق بين الدين والدنيا من غير كلفة ، وتصل بين الله والإنسان من غير وساطة ، فاختلط بها في القرون الأخيرة شعوذة الهنود ، وأساطير اليهود ، وصوفية الفرس ، ولاهوتية اليونان ، فأصيبت بالخدر الذاهل ، والتواضع الجبان ، والزهد الكسول ، والاتكال المخلف ، والجدل العقيم ، والاختلاف المفرّق . ثم تبخر من هذا الخليط المشوه إكسير الحياة فلم يبق إلا الرواسب الغريبة ، وتصعّد منه عبير الروح فلم يبق إلا الأوراق الجفيفة . فالدين اليوم شعارٌ من غير شعور ، وتقليد من غير فهم ، واعتقاد من غير تطبيق ، وشعوذة من غير حقيقة ، وأحكام من غير حكم .

* * *

وكانت طبيعتهم كما قلت أبية تأنف الضراعة ، طامحة تكره القناعة ، وثابة تحاول التفوق ، طلاعة تحب المغامرة ، فامتزجت بها من بعد الفتوح دماء الأجناس المملوكة ، وأدواء الأمم المنهوكة ، وأوباء الأقاليم القصية ثم قرت فيها صبابة الأحقاب ، وانتهت إليها نفاية الأعقاب ، وناءت بها أعباء التقاليد فالعقلية الإسلامية اليوم مشوبة غير صريحة ، معقدة غير واضحة . وهي من عبث الأحداث متنافرة لا تلتئم ، متخاذلة لا تقاوم .

وإنما العقيدة الخالصة والطبيعة السليمة لاتزال فى بوادى الحجاز وهضبات نجد . ولكن الفرق بين عرب الجزيرة اليوم وبينهم بالأمس أن العالم غير العالم ، والوسيلة غير الوسيلة ، والغاية غير الغاية !

فإذا لم نجل عن عقيدتنا هذا الصدأ العارض ، وننف عن ثقافتنا هذا الهراء الغث ، ونجذ من خلفنا ذيل التقاليد الفاسدة ، ظل سيرنا ياسيدتى بطيئاً لا يلحق ، وجهدنا باطلا لا يفيد .

* * *

وكانت فورة الحب والطرب قد قرت فى نفوس القوم ، فخلت المائدة ، وسكت المذياع ، وفتر الحديث ، وتهيأ السامرون للخروج ، فلم تستطع السيدة الفاضلة أن تعقب على هذا الكلام .

ملك وشاعر

(٢٧ يناير سنة ١٩٣٦)

حل أصدق المواعيد [1] فى يومين متعاقبين بالملك جورج الخامس وبالشاعر رديارد كبلنج ، فارفض لخطبهما الصبر الانجليزى الذى يتماسك بطبعه على مض النوازل ، وتجاوبت بأصداء الأسى الوقور أقطار الملك البريطانى الشامل ، وشعر القلب الإمبراطورى برجفة صماء لموت الملك ، وأحس اللسان الاستعمارى بعقدة بكماء لموت الشاعر . ذلك لأن صاحب الجلالة كان يمثل شعبه فى نبله وديمقراطيته ، وصاحب العبقرية كان يمثله فى طموحه ووطنيته . فالأول كان رمز السمو الخلق فى طبع السياسة ، والآخر كان لحن الغرور القومى فى معنى الأدب ؟

* * *

كان الملك جورج الخامس معنى جديداً من معانى الملكية الجديدة وفق بين غطرفة الملك وتواضع الديمقراطية ، وألف بين قيود الحكم ونوازع الحرية ، وصالح بين حفاظ التقاليد وطبيعة التطور ، ولاءم بين إرادة العاهل وسلطة الدستور ، ووءام بين سياسة الدولة ورغبة الأمة ، واستبدل بالسلطة الزمنية التى أماتها فيه الزمان وحملها عنه البرلمان ، سلطة روحية أحلته من شعبه محل القداسة ، ورفعته فى أفقه مكان العلم ، وجعلته فى حكمه سلام الحزبية إذا احتدمت ، وقرار السياسة إذا اضطربت ، وصلة

---

(١) كناية عن الموت .

الامبراطورية إذا تقاطعت ، ومواساة للرضى من برح الألم ، وتعزية البؤس[1] من مس الحاجة . ثم تكرم عن أثرة الملوك وتميز السادة فكان فى الحرب يأكل ما يأكل الناس ، وفى الأزمة ينفق ما ينفق الأوساط ، وفى المحنة يكابد ما يكابد الشعب ، وفى الرخاء يكاد الإحسان العام لا يترك فى يديه من مخصصاته النصف مليون جنيه إلا قرابة الألفين .

كانت ملكية الملك جورج الخامس كما رأيت لفظاً معناه الحب والخير والواجب ، ومن هنا وجدت الأحزاب على اختلافها مضامينها فيه ؛ فهى تثور فيما بينها وتسكن إليه ، وتختلف فى رأيها وتتفق عليه ، وتفترق فى طرقها وتلتقى عنده ، حتى قال زعيم من زعماء الأحرار وهو مستر أسكويث : « إن العروش تتهاوى حولنا ؛ لأن بعضها قائم على أساس من الظلم ، وبعضها مرفوع على غثاء من التقاليد ؛ ولكن عرش هذه البلاد محمول على مشيئة الشعب البريطانى ، فهو مستقر لا يتزعزع وراسخ لا يميد » ، وحتى قال زعيم من زعماء العمال وهو مستر استافورد : « إن الملكية الدستورية ستظل طويلا فى هذه الأمة خير أداة لاختيار رأس الدولة » .

من أجل هذا الخلق الأقوم كان حزن الإنكليز على مليكهم خالصاً من الرياء الرسمى ، صادراً عن الشعور الصادق بالحب لرجل غلّب الأبوة على الملك ، واستغنى بالطيبة عن البراعة ، وسد بكمال الخلق نقص القدرة ...

* * *

---

(١) البؤس جمع بائس قال الشاعر :

« حتى غدوت من البؤس المساكين »

وكان الشاعر كبلنج مفتوناً بعظمة الأمبراطورية . صاغ من نسبها النضار شعره ، وألف من لجبها المتناسق أغاريده . ثم شدا بالمجد الطواف على أثباج الماء ، وهتف بالنصر الرفاف على وجوه الأرض ، وجعل من شعره الجوّاب نشيداً قومياً تردده الآفاق البريطانية كما تردد نشيد الملك !

ولد كبلنج فى بلاد قال فيها « إنها أعجب بلاد خضعت للمخلوق وفتحت للخالق » ولد فى الهند بمدينة بمباى كما يولد الهنود ، ولكنه وعى فوجد نفسه سيداً ، ووجد الهندى الذى ولد معه عبداً يعيش على كده وهو ناعم بين سكيه وحصانه ، ويرق على ظهره إذا هم بركوب حصانه . الخلقة هى الخلقة ، والبيئة هى البيئة ، والطبقة هى الطبقة ؛ ولكن كبلنج رأى بشرته ودمه من لون العلم الخفاق ، ورأى بشرة الهندى ودمه من لون الأرض المستغلة ، فأدرك علة الامتياز وسر التفوق . وعرف أن البريطانى بحكم الجنس قد يدعى ذكياً وهو فدم ، وكيّسا وهو أخرق ، وكافيا وهو عاجز ، وسابقاً وهو متخلف ؛ فاستهام بهذه القوة التى تشع مع الشمس فى كل أفق ، وتنتشر مع الحياة فى كل قطر ، وتنبسط على حواشى البر والبحر أمناً وحماية فحبس على إعلان مفاخرها ولسانه ، ووقف على تسويغ عدوانها عقله ؛ فموه حجج الاستعمار بالشعر ، وألهب سعار العصبية بالحماسة ، وشوه جمال الوطنية بالأثرة ، وجعل الأدب وهو شعاع الروح دليلا لبغى القوى ولؤمه ، ومهد لأساطيل الطغيان استعباد الإنسان للانسان بقوله : « إن الشرق شرق والغرب غرب فلا يلتقيان » إلا على شر ، ولا يفترقان إلا على ثأر !

من أجل ذلك الإخلاص الملهم كان مرض كبلنج تحت الرعاية الملكية ، وكانت جنازة كبلنج جنازة « شبه رسمية » !

إن فى مثل سياسة الملك جورج الخامس لأمانا من طغيان الرءوس ، وثوران النفوس ، وقيام الدعوات الباطلة ، وشيوع المذاهب الجريئة ، وانقلاب الحكم فى الدولة ، واضطراب السلم فى الأمة ، واغبرار العيش فى أوجه العامة وإن فى مثل أدب الشاعر كبلنج لروحاً مزهوة تختلج بالشعور الوطنى ، وتختلج بالغرور القومى ، وتدفع بالهمم الوانية إلى اللحاق ، وتنزع بالنفوس الضارعة عن المذلة ، وتكشف القلوب المنخوبة عن معانى الرجولة !

إن فى كل حادث ذكرى ! وإن فى كل حديث بلاغاً !

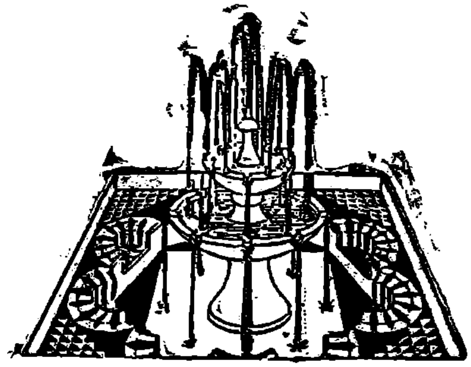

تاريخ يثور

(١٠ فبراير سنة ١٩٣٦)

على ضفاف الوادى ، وهضاب فلسطين ، ورياض سورية ، يثور تاريخ ويغضب مجد ويستغيث مظلوم . !

على الوطن الذى ورفت على نيله أول حضارة[(١)] ، وفوق البلد الذى هبط على طُوره أول دين[(٢)] ، وفى القطر الذى انبثقت من ساحله أَول ثقافة[(٣)] ، تمحن الحرية بمن فرضوا على الملك أول دستور[(٤)] ، وتمتهن العدالة ممن حملوا لله أول كتاب[(٥)] ، وتبتلى الإنسانية بمن أعلنوا للانسان أول حق[(٦)] !

على هذه الأقطار الثلاثة التى شع منها السلام والإسلام والخير ، يستكلب الطمع ويشتجر الهوى وينفجر البغى ؛ فالمفاوضات وعيد ، والاحتجاجات حديد ، والمواعيد مراوغة ، كأنما عىَّ المنطق من طول ما مارس العلم ! ومات الضمير من كثرة ما دارس الخُلق ! وزهق العدل من شدة ما زاول القانون !

فى القاهرة وأورشليم ودمشق شباب يحمى على لذع البنادق ، ودم يفور على مس الأسنة ، وأمل يشرق فى الوجوه الوضيئة ، وطموح يومض فى العيون الرغيبة ، وماض تميز فى إبهام الدهر يتمثل فى الأذهان الصافية ، ومجدٌ تأثّل فى أربعة عشر قرناً يعصف بالنفوس الفتية ، فماذا

---

(١) مصر (٢) فلسطين (٣) سورية (٤) الانجليز (٥) اليهود (٦) الفرنسيون .

تصنع مدية اللص فى قلب تدرع بالإيمان ؟ وماذا تبلغ سطوة الباطل من حق تسجل فى لوح الزمان ؟ !

* * *

يالله ! ألم يأن لدعاة المدنية وحماة الحرية ورسل العلم أن يروضوا عقولهم على الحقيقة ، ويفتحوا عيونهم على الواقع ؟ إن هذا الشعب الذى تتحلب أفواههم قرماً لأكله لا يزال يعيش فى ملك آبائه الفاتحين ، ولا يزال مطوى الحنايا على العزيمة التى قبض بها من قبل على زمام الدنيا ، وشارك فى تصريف الأقدار ، وأملى إرادته على سجل الزمن ! إن حلمه لثقيل ، ولكن غضبته مفزعة . وإن نومه لطويل ، ولكن يقظته مروعه ! إنه على اختلاف أقطاره لا يزال يحمل فى نفسه سر (الجزيرة) التى يعيش فيها الجمل الوقور الصابر ، والأسد المصور المتوثب .

إن فى كبد أوربا جمرة من العرب منذ غزتها بالدين والمدنية والعلم سفائن طارق ! ولقد انطفأت البراكين ولما تنطفىء هذه الجمرة ! أجلت العرب عن أرضها بالبربرية الهوجاء والتعصب الحاقد والقسوة الجامحة . ثم كتبت الكتائب المتحالفة وغزتهم فى عقر بلادهم باسم الدين المظلوم فى عهد (صلاح الدين) ، ثم بالعلم المسموم فى عصر (عبد الحميد) ، ثم بالمدنية المغشوشة فى عهد (عصبة الأمم) ! فما كان الدين والعلم والتمدن إلا ألفاظاً حملت بالكره على معانى الثأر والاستعمار والنصب ! ثم أغروا بنا الجهالة والمجاعة والفوضى . ومضوا فى ظلال الأمن يعقدون [1] من دمائنا الذهب ، ويتخذون من لحومنا القوت ، حاسبين أننا مخدرون بالأباطيل

---

(١) مجاز من قولهم : أعقد العسل وعقده بالتشديد أغلاه حتى غلظ .

فلا نفيق ، مُثقلون بالتقاليد فلا ننهض ؛ ولكن المعدنْ يا غُلف القلوب كريم ، وهذا الذى يعلوه غبار لا صدأ ! وها هى ذى سياسة الإرهاب والاغتصاب تجلوه عن شباب عرفوا كيف يموتون أكثر مما عرفوا كيف يعيشون ! وها هم أولاء يمشون على ما يلى من هيا كل الشيوخ ، كما يمشى المرحون على ما جف من سفير[1] الشجر . إنهم يسرعون الخطى إلى الربيع الباسم والجو الطليق ، وفى أسماعهم المرهفة دوى لا ينقطع بهذا الهتاف : لقد فتح آباؤكم ثلاث قارات فى ربع قرن ، أفتعجزون عن تحرير ثلاثة بلاد فى نصف قرن .

* * *

إن شبـــــاب العرب مصريين وسوريين قد أخذوا موثقهم من الدم الشهيد أن يعيشوا أعزة أو يموتوا كراماً . فلا تتحدّوا بالعذاب السفيه جنساً برمته وتاريخاً بأسره . ولا تعبثوا بالمعجمات التى تعب فيها اللغويون والمجامع فتسموا النهب تنظيما والقتل تعليما والغزو صداقة جربوا الصداقة بمعناها اللغوى الصحيح توفروا المال والرجال والسمعة ؛ فإن هذا الشعب الذى وقعتم فى صفوه ، وتعبتم من غزوه ، ويئستم من خداعه ، كان له فى السياسة العالمية شأن ، وفى اللغة الدولية اصطلاح ، وفى قيادة الإنسانية محل ، ومن إصلاح المجتمع نصيب فهو يفهم الصداقة ويقدر المعاونة ويكبر التضامن ويعقد صلاته بالناس على ضوء شريعته وقرآنه .

إن سلام الشرق منوط بسلام العرب . وإن السلام والإسلام لفظان

---

(١) السفير : ما سقط من ورق الشجر وتحات ، لأن الريح تسفره أى تكنسه .
(٢) أى كدرتموه كما يقع القذى فى صفو الماء

مترادفان على معنى واحد وليس من معانى السلام المهانة ، ولا من دلالات الإسلام الاستكانة ، إنما هما الحياة القائمة على الحرية والإخاء والمساواة ، وهى الأقانيم الثلاثة التى رسمتها الثورة على علمكم المثلث .(١)

بغير هذا لا يرضى العرب ، وبدون هذا لا يحيا العرب فراجعوا فى سياستكم العقل السالم من الهوى ، والضمير الخالص من الريبة . وحكموا بينكم وبينهم مبادىء الناس ، فإنهم كما تحسون وتلمسون من الناس .

---

(١) الخطاب لفرنسا .

شبابُ العراق في مصر

(٣ مارس سنة ١٩٣٦)

قل لأولئك الذين زعموا أن مصر نبَتْ على العروبة فقطعت الأسباب الموصولة ، وأيبست الأرحام الندية : تعالوا فانظروا كيف بَشَّت بالعراق بشاشة الألفة ، ورفت لبنيه رفيف القرابة ، وأشبلت عليهم إشبال الأمومة !

قل لهم : تعالوا فاسألوا شباب الفراتين : هل كانوا على ضفاف النيل في أرض غير أرضهم ، وبين قوم غير قومهم ، وفي بيئة غير بيئتهم ؟ لقد كان إقبالهم على محطة القاهرة كإقبال الربيع ، واستقبالهم فيها كاستقبال العافية ! نزلوا من القطار على أكتاف البهاليل من شباب النيل ، وحلوا في قلوب الميامين من رجال الوادي ، وهتفت الجموع الحاشدة باسمي فؤاد وفازي ، وجرت الألسن الخاطبة بلفظي القرابة والوحدة ، وتلاقت العواطف الظامئة على وِرْدي الإخاء والمودة ، ودخل الطلاب العراقيون في غمار الألوف المتهللة ، فتجاذبت الدماء ، وتمازجت القلوب ، وتعاطفت الذكريات ، وتجاوبت الأماني ، وترجمت اللغة ! ثم كانوا طوال الأسبوع المنصرم غبطة القاهرة وبهجة الأندية وحديث الصحف . يظلون من مطلع النهار إلى مقطع الليل غرقى في احتفاء المدينة بين ترحيب يومض في العيون ، وتسليم يفترُّ في الشفاه ، وإعجاب يدوِّي في الأكف ، وكرم يفيض على الموائد ، لا يسمعون كل مشوق لسعة الحركة ، ولا يجيبون كل داع لضيق المدة .

والحق أن الشباب العراقيين كانوا كما قال الدكتور محجوب ثابت :

طاقة من شتيت الزهر النضير قدمتها بغداد إلى القاهرة في العيد . مثلوا

العراق فى الرجولة والعزة ، ومثله كبيرهم الأستاذ القاضى فى الوقار والنبل ، فكانوا بهذا المظهر الجميل دليل اليقين لمن يطيع فى أمتهم الشك ، وشاهد الاطمئنان لمن يعقد على نهضتهم الأمل !

* * *

كان مبعث الجفاء بين أقطار العروبة انقطاع الأسباب وبعد الشقة . ثم غشيت كل سماء من سماواتها الزُّهر غمةٌ من أطماع الغرب حجبت عن العيون الضياء ، وعن النفوس الصفاء ، وعن العقول المعرفة ؛ فذهب القوم أشتاتاً يتلمس كل امرئ فى الظلام طريقه ! حتى إذا استيقظ فى الوجدان شعور العروبة ، وعاد فأشرق فى الأذهان نور الدين ، أبصرنا فإذا بيننا من بغى الإنسان على الإنسان حواجز تتقاصر عندها الخطى ، وتتناكر عندها المعارف !

أزيلوا قائم الحدود وجددوا دارس الطريق تتلاق الوجوه وتتعارف الإخوة . واعملوا مايعمل فى العراق رسول الوحدة ياسين ، وفى مصر أمثال الوزير محمد على والزعيم طلعت حرب ، تجدوا الاتحاد العربى جارفاً كدعوة محمد ، سريعاً كفتوح أمية ، خصيباً كحضارة العباس !

هذه هى مصر الصحيحة ياشباب الرافدين ! لايزال دينها دينكم ، ولغتها لغتكم ، وهواها هواكم إنها لم تركم ولم تروها لأنها فى جوف الحوت[1] وها أنتم أولاء تسمعون حشرجتها الأليمة فى حلقه وستجيش بين معدته وأضراسه جيَشان السم الزعاف حتى يلفظها حية سليمة كيونس[2] حينئذ تتجه (ابنة الشمس) إلى مطلع الشمس ! وهناك يكون مجد العرب

(١) المراد به الاحتلال .

(٢) يونس بن متى (ع) وقصته مع الحوت معروفة .

اليوم كما كان مجدهم بالأمس ! وليس الشرق موطنُ الديانات والمدنيات بضيق ولا جديب .

إن الأرض لتزلزل فى كل مكان بالدخيل يابنى الهلال الخصيب[٢] ! وإن تاريخ الجدود لينبجس فواراً حاراً من صحون المساجد الجامعة ! هل تذكرون ثورة بغداد فى جامع الحيدرخانة ؟ هل رأيتم غضبة دمشق فى الجامع الأموى ؟ هل سمعتم صرخة القدس فى الجامع الأقصى ؟ هل علمتم وثبة القاهرة من الجامع الأزهر ؟ إن لذلك معنى عجيباً لايندُّ عن خاطر ولا يلتوى على ذهن : ذلك أن المنارة التى يذكر عليها اسم الله لاتزال هى المكان الذى يرتفع فيه صوت الحرية ، وأن المحراب الذى يقوم فيه الدين لايزال هو الركن الذى يأوى إليه الحق ، وأن الإسلام الذى ألف شتيت البدو فى الأول هو النظام الذى يجمع شمل العرب فى الآخر !

* * *

لقد كانت زيارة الطلاب العراقيين فرصة ميمونة لتوثيق الصلات التاريخية المقدسة . صافحونا بالأيدى ، وخاطبونا بالألسن ، وسمعونا بالآذان ، فانمحت الفوارق العارضة ، وانجابت الحجب الكثيفة ، واستبان للناس أن الخيال جان على الحقيقة ، وأن السماع كاذب على العيان ، وأن الوحدة المستحيلة أمر من الواقع !

نعى البرق شاعر العراق الزهاوى والمصريون والعراقيون فى حفلة اتحاد الجامعة ، فكان وقع المصاب فى نفوس الفريقين واحداً لايختلف . وقام كبير الأدباء فأبن كبير الشعراء بكلمة تلقاها الإخوان بعاطفة واحدة وشعور مشترك ؛ لأن الزهاوى كان يهزج بأغاريد الفجر على ضفاف دجلة ، فتردد أصداؤها

(١) مصر (٢) العراق

الموقظة فى ربوات بَرَدى وخمائل النيل وسواحل المغرب ! وأدب الزهاوى وأمثاله هو الذى وصل القلوب العربية فى مجاهل القرون السود بخيوط إلهية غير منظورة ، ولولاها لما تهيأ للعراق هذه الزورة ! وبهذه الزورة وأمثالها نتعارف ونتآلف ونتحد . فتعالوا يا أخلاف المجد الفقيد وأسلاف المجد الوليد نتعاون على دفع الأذى عن العزة المهانة ! تعالوا نقرّ فى سمع الزمان أن أمة الرسالة تريد أن تؤدى الأمانة ! ولكن قبل ذلك كله :

تعالوا نجدد دارس العهد بيننا   كلانا على هذا الجفاء ملوم

ولدي!

(٦ أبريل سنة ١٩٣٦)

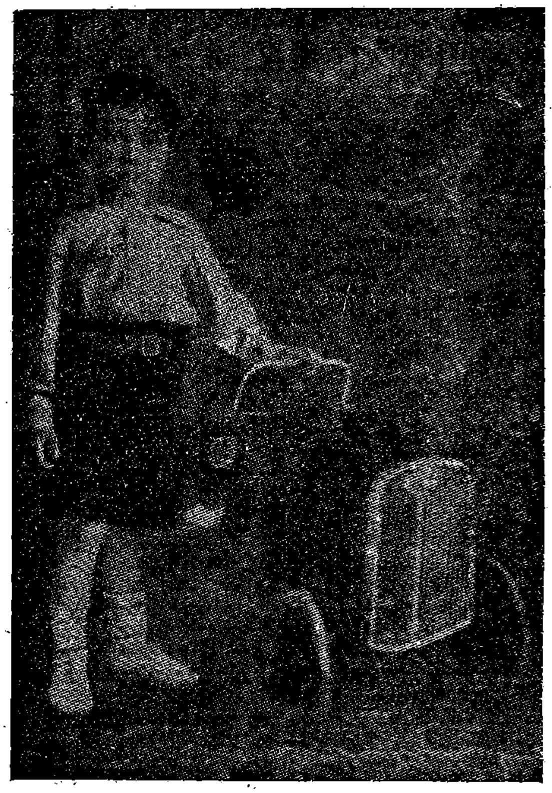

ياقارئى أنت صديقى فدعنى أرقْ على يديك هذه العبرات الباقية ! هذا ولدى كما ترى ، رزُقته على حال عابسة كاليأس ، وكهولة يائسة كالهرم ، وحياة باردة كالموت ، فأشرق فى نفسى إشراق الأمل ، وأورق فى عودى إيراق الربيع ، وولد فى حياتى العقيمة معانى الجدّة والاستمرار والخلود !

كنت فى طريق الحياة كالشارد الهيمان ، أنشد الراحة ولا أجد الظل ، وأفيض المحبة ولا أجد الحبيب ، وألبس الناس ولا أجد الأنس ، وأكسب المال ولا أجد السعادة ، وأعالج العيش ولا أدرك الغاية . كنت كالصوت الأصم لا يُرجعه صدى ، وكالروح الحائر لايقرُّه هدى ، وكالمعنى المبهم لايحدده خاطر . كنت كالآلة نتجتها آلة واستهلكها عمل ، فهى تخدم غيرها بالتسخير ، وتميت نفسها بالدءوب ، ولا تحفظ نوعها بالولادة . فكان يصلنى بالماضى أبى ، ويمسكنى بالحاضر أجلى ، ثم لايربطنى بالمستقبل رابط من أمل أو ولد . فلما جاء

(رجاء) وجدتنى أولد فيه من جديد فأنا أنظر إلى الدنيا بعين الخيال ، وأبسم إلى الوجود بثغر الأطفال ، وأضطرب فى الحياة اضطراب الحى الكامل ، يدفعه من ورائه طمع ، ويجذبه من أمامه طموح ! شعرت بالدم الحار يتدفق نشيطاً فى جسمى ، وبالأمل القوى ينبعث جديداً فى نفسى ، وبالمرح الفتىّ يضج لاهياً فى حياتى ، وبالعيش الكثيب تتراقص على حواشيه الخضر عرائس المنى ! فأنا ألعب مع رجاء بلعبه ، وأتحدث إلى رجاء بلغته ، وأتبع عقلى هوى رجاء فأدخل معه فى كل ملهى دخول البراءة ، وأطير به فى كل روض طيران الفراشة ثم لم يعد العمل الذى أعمله جديراً بعزمى ، ولا الجهد الذى أبذله كفاء لطاقتى ، فضاعفت السعى ، وتجاهلت النصب ، وتناسيت المرض ، وطلبت النجاح فى كل وجه ! ذلك لأن الصبى الذكى الجميل أطال حياتى بحياته ، ووسّع وجودى بوجوده ، فكان عمرى يغوص فى طوايا العدم قليلا قليلا ليمد عمره بالبقاء ، كما يغوص أصل الشجرة فى الأرض ليمد فروعها بالغذاء .

شغل رجاء فراغى كله ، وملأ وجودى كله ، حتى أصبح هو شغلى ووجودى ! فهو صغيراً أنا ، وأنا كبيراً هو يأكل فأشبع ، ويشرب فأرتوى ، وينام فأستريح ، ويحلم فتسبح روحى وروحه فى إشراق سماوى من الغبطة لا يوصف ولا يحد .

ما هذا الضياء الذى يشع فى نظراتى ؟ ما هذا الرجاء الذى يشيع فى بسماتى ؟ ما هذا الرضا الذى يغمر نفسى ؟ ما هذا النعيم الذى يملأ شعورى ؟ ذلك كله انعكاس حياة على حياة ، وتدفق روح فى روح ، وتأثير ولد فى والد ؟

ثم انقضت تلك السنون الأربع ، فصوّحت الواحة وأوحش القفر ،

وانطفأت الومضة وأغطش الليل ، وتبدد الحلم وتجهم الواقع ، وأخفق الطب ومات رجاء !

ياجبار السموات والأرض رُحماك ! أفى مثل خفقة الوسنان تُبدّل الدنيا غير الدنيا ، فيعود النعيم شقاء والملاء خلاء والأمل ذكرى ؟ أفى مثل تحية العجلان يصمت الروض الغرِّد ، ويسكن البيت اللاعب ، ويقبح الوجود الجميل ؟

حنانيك يا لطيف ! ما هذا اللهيب الغريب الذى يهب على غشاء الصدر ومراق البطن فيرمض الحشا ويذيب لفائف القلب ؟ اللهم هذا القضاء فأين اللطف ؟ وهذا البلاء فأين الصبر ؟ وهذا العدل فأين الرحمة ؟

إن قلبى ينزف من عينى عبرات بعضها صامت وبعضها معوِل ! فهل لبيان الدمع ترجمان ، ولعويل الثاكل ألحان ؟ إن اللغة كون محدود فهل تترجم اللانهاية ! وإن الآلة عصب مكدود فهل تعزف الضرم الوارى ؟ إن من يعرف حالى قبل رجاء وحالى معه يعرف حالى بعده ! أشهد لقد جزعت عليه جزعاً لم يغن فيه عزاء ولا عظة ! كنت أنفر ممن يعزينى عنه لأنه يهينه ، وأسكن إلى من يباكينى عليه لأنه يُكْبِرُه ، وأستريح إلى النادبات يندبن القلب الذى مات والأمل الذى فات والملك الذى رُفع ؟

لم يكن رجاء طفلا عادياً حتى أملك الصبر عنه وأطيع السلوان فيه . إنما كان صورة الخيال الشاعر ورغبة القلب المشوق ! كان وهو فى سنه التى تراها فى صورته يعرف أوضاع الأدب ، ويدرك أسرار الجمال ، ويفهم شؤون الأسرة ، ويؤلف لى (الحواديت) كلما ضمنى وإياه مجلس السمر ! كان يجعل نفسه دائماً بطل (الحدوتة) فهو يصرع الأسود التى هاجمت الناس من حديقة الحيوانات ، ويدفع (العساكر) عن التلاميذ فى أيام المظاهرات ، ويجمع

مساكين الحى فى فناء الدار ليوزع عليهم ما صاده ببندقيته الصغيرة من مختلف الطير !

والهف نفسى عليه يوم تسلل إليه الحمام الراصد فى وعكة قال الطبيب الغفلان إنها (البرد) ، وقال القدر اليقظان بعد ثلاثة أيام إنها (الدفتريا) ! لقد عبث الداء الوبيل بجسمه النضر كما تعبث الريح السّموم بالزهرة الغضة ! ولكن ذكاءه وجماله ولطفه لم تبرح قوية ناصعة ، تصارع العدم بحيوية الطفولة ، وتُماحُ القدر فى حكمة الحياة والموت !

والهف نفسى عليه ساعة أخذته غصة الموت ، وأدركته شهقة الروح ، فصاح بملء فمه الجميل : (بابا ! بابا !) كأنما ظن أباه يدفع عنه مالا يدفع عن نفسه !

لنا الله من قبلك ومن بعدك يا رجاء ، وللذين تطولوا بالمواساة فيك السلامة والبقاء !

محمد الوالد

إن فى حزن القوى عزاء لجزع الضعيف
(٢٠ أبريل سنة ١٩٣٥)

تخطفت المنايا السود فلذات الرسول بنات بعد بنين ، فلم يبق إلا فاطمة قرة لعينه وعزاء لنفسه وكانت جراحات القلب العظيم لا تجد لمسها للمض فراغاً بين آلام الرسالة فتندمل فى سكوت وصمت . فلما عنت سورة الشرك فى مكة ، وعلت كلمة الله فى الجزيرة ، وتحققت وحدة العرب فى الوجود ، وأخذت نفحات السلام الإلهى تنضح الجو المشتعل بالنار ، وتطهر الثرى المخضوب بالدم ، تنبهت فى الإنسان الأعلى مشاعر الطبيعة وتجددت فى العربى الرسول عواطف الأبوة ، وحز فى نفس محمد أن يرى أمهات المؤمنين يعقمن عشرة أعوام متتابعة ، فبيوتهن التسعة حول المسجد الآهل الذاكر غرقى فى السكون الرهيب والصمت الموحش ، لا يؤنس حجراتها غناء المهد ، ولا يبهج أفنيتها مرح الطفولة .

لا ريب أن أسرة محمد الرسول شملت جزيرة العرب كلها ، وستشمل عالم الإسلام أجمع ، ولكن أسرة محمد الرجل لا تزال لنقصها ألما من آلام العبقرية ، ومحنة من محن البطولة .

تدرع باسم الله وبرز وحده لشياطين الأرض فجاهد الوثنية حتى أقر الحق ، وعالج الإنسانية حتى أعلن الخير ، وشذب الطبيعة حتى أنمى الجمال ، وبلغ الرسالة حتى لم يبق لرضا الله غاية لم تدرك ، ولا لصلاح الناس سبيل لم تشرع ؛ ولكنه هدف الستين فى جهاد الشرك والجهل

والهوى ، ولا يزال يجد فى جوانب نفسه الكبيرة عاطفة لم تُرض وحاجة لم تقض ورسالة لم تتم ! تلك هى عاطفة القلب للولد ، وحاجة النفس إلى التجدد ، ورسالة الحياة إلى الحياة .

* * *

بين ظلال النخل والكرم ، وفى بيته المصرى على العالية من ضواحى المدينة ، أتم الله نعمته على رسوله فوهب له على الكبر إبراهيم ! يومئذ تنفس الصبح بأنفاس الفردوس ، وضاحكت الشمس خمائل يثرب من خلال الأجنحة النيرة[1] ، ومست يد الربيع المخصبة دوحة النبوة ، وغرقت نفوس المؤمنين فى مثل صفاء الخلد ، وأقبل المهاجرون والأنصار على المسجد المستبشر يهنئون النبى بالخليفة الوليد والأمل الجديد والعوض المبارك ونهض الرسول الوالد إلى بيت مارية القبطية ليرى نعمة ربه وبضعة كبده ، فوجد فى طلعة إبراهيم الأنس الذى يعوزه ، والرضا الذى يرجوه ، والخلف الذى يتمناه ، ففاضت غبطته لله حمداً وعلى المؤمنين بركة وفى الفقراء صدقة . رفع أمه إلى مقام أزواجه ، ونفح مرضعته بسبع من المعزى سمان يحلبن عليها وعليه . ثم عق له بكبشين أملحين ، وتصدق بزنة شعره فضة ، وتعود كل صباح أن يزور أم ولده فيحمله منها ليضمه ويشمه ويتذوق طعم السعادة الأرضية فى ريحه ، ويطالع نفسه العائدة فى نفسه ثم يدخل به على الأمهات اللائى ولدن جميع المؤمنين ولم يلدن له فيباهى بحسنه ، ويغتبط بنموه ، ويحتمل راضياً فى سبيل ذلك كله غيرة جيرانه[2] وكيد نسائه .

* * *

---

(١) الملائكة (٢) أم المؤمنين عائشة .

ولكن أنبياء الله موضع بلائه وسر حكمته ! دعوتهم الحق والحق ثقيل ، وعدتهم الصبر والصبر كليل ، وبرهانهم الألم والألم قاتل ! غرباء في الأرض لأنهم من السماء ، وأغراض لسهام القدر لأنهم ضحايا ، وأمثلة البؤس العيش لأنهم عِبرَ ! هذا إبراهيم حبة قلب أبيه وسواد عين أمه مسبوتاً على فراش المرض تحت النخيل ! تذوى نضارته على وهج الحى ، وتذوب حشاشته على عرك الموت ، وأمه وخالته قائمتان على سريره تشهدان منظراً يهون في جانبه على الوالدين الجنون والكفر والعدم ! وهذا أبو إبراهيم يضعضعه النبأ المروع فيتحامل على عبد الرحمن بن عوف ، ويمشى ثقيل الخطى لهيف الفؤاد إلى الصغير المحتضر !

لو كان لمتاع العيش غَناء لتقلب فيه المؤمن ولو كان لقانون الموت استثناء لأفلت منه المصلح . ولو كان في قلب الثاكل المحزون شبهة لجلاها عنه الله لرسوله !

أخذ النبي إبراهيم من حجر أمه فوضعه في حجره ثم نظر من خلال الدمع إلى قسماته المشرقة تغشاها ظلال الموت ، وقال بصوت متهدج وفؤاد متأجج واستسلام مطمئن : « إنا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئاً » .

يا لله لقلوب الوالدين ! إن النبي الذى ولد في مهد اليتم ، ودرج في حجر العُدم ، وتقسمت عمره عوادى الخطوب ، فكابد أذى قريش وحقد المنافقين وكيد اليهود ، وعالج مكاره الدعوة من القلة والذلة والهزيمة والفتنة ، قد احتمل كل أولئك بصبر المجاهد ويقين المؤمن وعزم الرسول ، ثم يصيبه الله في إبراهيم وهو رضيع فيرفضُّ عنه الصبر ويتملكه الجزع ، ويقف من الثكل الأليم موقف كل والد يرى جزءه الجديد يبلى ، ورجاءه الناشىء يخيب ، ثم يقول : « إن العين لتدمع ، وإن القلب ليجزع ،

و إنا بعدك يا إبراهيم لمحزونون . أما والله لولا أنه أمرٌ حق ووعد صدق وأن آخرنا سيلحق بأولنا ، لحزنا عليك بأشد من هذا ! » . ويقال من الصحابة حزن الرسول فيتقدمون إليه يذكرونه مانهى عنه فيقول « ما عن الحزن نهيت ، و إنما نهيت عن العويل . وإن ما ترون بي أثر ما بالقلب من محبة ورحمة ومن لم يبد الرحمة لا يبد غيره عليه الرحمة » .

على أن حزن الرسل لا يكون إلا بمقدار ما فيهم من ضعف الإنسان . لذلك لم يلبث الرسول أن عاد إلى نفسه فصلى على ولده ، وسوى عليه القبر بيده ، ثم رش فوقه الماء وأعلم عليه علامة ، وقال : « إنها لا تضر ولا تنفع ، ولكنها تقر عين الحي و إن العبد إذا عمل عملا أحب الله أن يتقنه » .

* * *

تعزيت يا رسول الله لأن الألم سبيل من سبل دعوتك والعزاء أصل من أصول دينك ، والأرض وما عليها أهون من دمعك ، والسماء وما فيها ثواب لصبرك ، ولكن ماذا يصنع اليائس المحزون إذا فقد الرجاء ، وليس له في يومه صبر ولا في غده عزاء[1] ؟

---

(١) كتبت هذه المقالة وعهدي قريب بفقد ولدي رجاء .

بين أسلوبين

(٩ يوليو سنة ١٩٣٦)

بين الإطناب الذي تؤثره (الوادي[1]) ، وبين الإيجاز الذي تحبه (الرسالة) كادت تضيع صداقة رسخت قواعدها على الإكبار والحب ، وتأكدت أسبابها على الخفض والشدة ، وتمكنت ألفتها على ربع قرن من الزمان المضطرب تغيرت فيه مودّات الأخوة ، وتنكرت قلوب الجماعات ، وتحللت روابط الأمم .

وجملة الأمر أن صديقي طه حسين قد بنى قصة من الأدب الجميل على رسالتين خاصتين أرسلهما إليه توفيق الحكيم ، ثم نشرها ونشرها في الوادي ؛ فلما أصبح كل ذلك للجمهور وللتاريخ جاءت الرسالة فنشرته ، لأنها كانت مسرحاً لهذه الرواية فمن حق قرائها أن يشهدوا فصلها الأخير ، ولأنها سجلٌّ لألوان الأدب الحديث فمن حق الأدب أن نسجل في تاريخه ما يقع بين رجاله من الخلاف الجدي فيه كاملاً غير منقوص . وإن بقى لأصحاب الظنون والفروض سبب ثالث فلن يكون غير تعصب الصديق للصديق وكان توفيق الحكيم فيما بين ذلك قد نشر بيانه الذي نقلناه عن الوادي بعنوان (خصومة) ، فلم يُتَحْ لي الاطلاع عليه لحالة خاصة صرفتني عن قراءة الصحف ذلك اليوم ولو كنت قرأته وقرأت بجانبه تعريض الدكتور بالأستاذ في مقاله (أخلاق الأدباء) لشق

---

(١) جريدة يومية كان يتولى تحريرها يومئذ طه حسين وفيها كتب الفصل الذي رددنا عليه بهذا المقال .

على فهمى أن يستنتج من المقالين عودة الصفاء وزوال الجفوة .

تصافى الصديقان إذن على غير علم من الوادى ولا من الرسالة . فلما رأى توفيق الحكيم عودة المقالة فى الرسالة خالجته فى الصفاء ريبة . وأراد صديق الدكتور أن يجلو شبهة الأمر ، ويخرج من تبعه النشر ، ويترضى الغاضب المرتاب ، فأرسل إلىّ كلمته العاتبة تنشر على صفحة الوادى .

كان المألوف فى مثل هذه الحال أن يقف العتاب عند الترضى والتنصل ، ولكن الأسلوب المطنب الذى يؤثره صديقى من خصائصه التدفق ، والتدفق لا يخلو من كدورة ، فأخذ يولد من العتاب ويفرع فيه حتى خرج به إلى التلويح والتجريح والاستعداء ، لأننى نشرت ما نشرت بغير إذنه . علقت على هذا (العتاب) الموجز بأن صديقى طه استغل حيائى منه ووفائى له فى إرضاء الحكيم وإنصاف الوادى ، لأنه يعتقد أنى إذا عاتب واشتد لا أجيب ، وإن أجبت لا أعيب . ولكن الأسلوب الموجز الذى اصطنعته كان على ما يظهر أقرب إلى الإخلال والغموض ، لأن صديقى لم يفهم (الاستغلال) على الصورة التى اقتضاها المقام وبالمعنى الذى قصدته ، وإنما فهمه بمعناه الشنيع الذى لا يكون بين أخوين . ثم رتب على هذا الفهم فى رده على تعليقى ما رتب مما لا أعده موجهاً إلىّ مادام قائماً على هذا الأساس !

فأنت ترى أن أكثر ما حدث إنما نشأ من أسلوبين استعمل كل منهما فى غير موضعه ، وأن الأمر كله ما كان ليقع لولا حرفة الصحافة التى تغرى بالنشر كما يغرى على القتل حمل المسدس ! فإن أكثر من هذا يقع كل يوم بين الأصدقاء والإخوة فتزيله كلمة فى التليفون أو تحية عند اللقاء .

قال الذين وقفوا على ملابسات هذا الأمر إنى إذا كنت أخطأت فى نشر

المقالة وهى عامة ، فإن صديقى أخطأ فى نشر رسائل الحكيم وهى خاصة وما يسوِّغ موقفه من الحكيم يسوغ موقفى منه ؛ ولكنى لا أقول هذا القول ولا أستعين به ، فإن الواقع أن الذى صرفنى عن الاستئذان فى النشر إنما هو اعتقادى بارتفاع الكلفة بين طه والزيات ، وبين الوادى والرسالة .

* * *

أما بعد ، فإذا جاز لهبة الريح أن تزعزع الجبل ، أو لحبة الرمل أن تكدر البحر ، جاز لنشر مقال أدبى من غير إذن أن ينال من صداقة رفيقى الصبا وخدينى الشباب ، فينتزع المحبة من خلال النفس ، ويقتلع العلاقة من صميم القلب ، ويقتطع الماضى من حساب الزمن ، بالسهولة التى تنشر بها كلمة فى صحيفة !

وما كان ليقع فى الوهم أن قلبين ألفت بينهما براءة النشأة وطول الصحبة ووحدة الهوى وطبيعة الثقافة ، يجرى بينهما من سوء التفاهم ما يجرى بين القلوب المتناكرة والصلات الحديثة !

كذلك ما كان ليسبق إلى الظن أن صديقى الذى لم تكشف الحوادث والأيام منه إلا شعوراً سليما وخلقاً كريما وذكاء متقدا وضميراً يقظاً ونفسا طيبة، يخضع لأثر الحر وثقل العمل وعنت الظروف فيقول فى صديقه مالا يحب ، ويرميه بما لا يعتقد !

أخى طه !

إن بينى وبينك ماضياً جليلاً لاتمحوه طوارىء الحاضر الحقير ، وصداقة خالصة لاتكدرها شوائب الظن السوء ، وذمة وثيقة لا تخفرها بوادر الكلام السريع ، وإخوة كراماً جزعوا لهذا الخلاف ويبرم أن ينقضى .

وإذا أمكنك أن تجد فى ذا كرتك القوية غميزة فى خلق أخيك على طول عهدك به ، كنت خليقاً أن تطيع فيه نوازى الغضب ، وتقبل عليه شواهد الظن ، وتسلكه فى ذوى الخلق المعوج والطبع اللئيم !.

أما إذا كان من طبيعة الصحافة أن تعبث بكل ما بقى بيننا وهو الود ، وتعتدى على كل ما بقى لنا وهو الخلق ، وتمتد إلى رأس ما لنا الوحيد وهو الشرف ، فادع الله لى ولك أن يخرجنا منها ، وأن يغنينا عنها ، وأن يحفظ البقية من عمرنا الكادح فى كنف رعايته وفضله .

النقد المزيف

(١٨ مايو سنة ١٩٣٦)

كاد الأدباء الناشئون فى مصر وفى غـــير مصر ينصرفون عن الإنشاء إلى النقد . وأريد بالنقد هنا معناه العامى أو مدلوله الأعم ، فإن النقد المنطقى بمعناه الأخص إنما هو ملـــكة فنية أصيلة ، وتربية أدبية طويلة ، وثقافة علمية شاملة . والناقد بهذا الاعتبار يشارك المشرع فى صدق التمييز ، والفيلسوف فى دقة الملاحظة ، والقاضى فى قوة الحكم . ومن ثم كان نوابغ النقـــد فى العالم أندر من نوابغ الشعر والكتابة . وهذا الذى تقرأه فى الصحف العربية من حين إلى حين لا يدخل فى هذا الباب إلا كما يدخل المجون فى نطاق الجد ، أو العبث فى سياق المنطق ، كالرجل يقعد به العجز عن اللحاق بالقادرين فيقف نفسه موقف القائد الحصيف ، يلمز هذا ويتنادر على ذاك ، ويزعم أنه وحده المسيطر على ثمرات الذهن ، فيحكم بذوقه الخاص على هذه بالقبح وعلى تلك بالفجاجة . وأمره كله لا يخرج عن مألوف الطباع الساخرة الفكهة : تصور الحق بألوان الباطل لتضحك ، وتبرز الجمـــيل فى مظهر القبيح لتسىء . وعيب الناس طبيعة فى بعض الناس لا يكلفهم إلا تحريك اللسان إذا لقوا سامعاً ، أو تجرير القلم إذا وجدوا صحيفة .

هذا طالب فى ثانويات القاهرة يملى خطة فى الكتابة على الجامعة ! وذاك معلم فى ابتدائيات بيروت يلقى درساً فى الصحافة على القاهرة ! وذاك صحفى فى مطارح الهجرة يقضى بالموت على الأدب العربى كله !

علام اعتمدت يا بنى فى إنشاء خطتك ؟ وإلام رجعت يا أخى فى إعداد درسك ؟ ومم اتخذت يا زميلى أسباب حكمك ! وهل تظفر من هؤلاء بجواب ما دمت فى الزمن الذى ترى فيه الناظم ينظم ولا يعلم العروض ، والكاتب يكتب ولا يدرس النحو ، والجادل يجادل ولا يفقه الأصول ؟ إنها فوضى تتولد فى عصور الانتقال وتفشو فى ابتداء اليقظة ، فلا يسكن أمر إلى قرار ، ولا يطمئن نظام على وجه ، ولا يخلص رأى من حيرة ، ولا يصدر حكم عن اختصاص !

* * *

إن هذا الضرب من النقد إما أن ينبعث عن مكامن الحقد فيرمى إلى التجريح ، وإما أن ينطلق من مواضع الغرور فيسعى إلى الهدم : كان الناقد منذ قريب يعمد إلى الكتاب القيم فى الفلسفة أو التاريخ أو القانون قد ألفه مؤلفه من دمه وعصبه وعقله وعمره وماله ، فيقف منه موقف الحاسد الأحمق ينقد فى بعض صفحاته فعلا عُدى بغير حرفه ، أو اسماً جمع على غير قياسه . — وقد يكون لكل منهما وجه — ثم يحكم على الكتاب كله بأنه سخيف لايقرأ ، وضعيف لايعيش ! ثم أصبح اليوم يعرض للموضوع فيقول : هذا قديم لأنه يدور على بحث فى تاريخ الشرق ، أو على معنى من معانى الدين ، أو على أثر من آثار البلاغة . وهذا جديد لأنه يقوم على حادثة من حوادث الغرب ، أو على رجل من رجال الأكاديمية ، أو على غانية من غوانى المسرح . وهذا مقلد لأن أسلوبه شريف ممتنع . وهذا مجدد لأن أسلوبه مبتذل ممكن ! ثم تعصف بأقلامهم اللينة نخوة الحفاظ وحماسة القوة فيصيحون :

أميتوا أدب العاطفة وأحيوا أدب القوة !

أبيدوا أدب الخاصة وأوجدوا أدب الشعب

أنبذوا أدب المقالة والزموا أدب القصة

صيحة قرارها حق ومقامها باطل ! فإن إجماع الناس واقع على أن خلو الأدب الحديث من أدب القوة وأدب الشعب وأدب القصة خلل لابد أن يسد ، ونقص لابد أن يكمل . ولكن من الذى يقول ويعنى ما يقول : إن وجود هذه الأنواع يقتضى عدم الأخرى ؟ إن لكل فن من الأدب طبقة من الناس تتذوقه ، فإذا منعتها إياه طلبته . والناقص لايكمل برفع نقص ووضع نقص . والبناء لايتم بهدم ركن وإقامة ركن .

أرأيتك[1] إذا كان الأدب كله قوياً يخشن الصدور ، وحماسياً يورث الحفائظ ، أفما كنت تقول : أين الأدب الذى يصور ألوان الحياة المريرة ، ويترجم أشجان القلوب الكسيرة ، ويرقق حواشى الأنفس الجافية ؟

أرأيتك إذا كان الأدب كله شعبياً يعبر بألسنة السوقة وينقل عن عواطف العامة ، أفما كنت تقول : أين الأدب الذى يرضى أذواق الخاصة فيجمع بين سمو الفكرة ونبل العاطفة وقوة الأسلوب فى صورة من الفن الرفيع تسمو بالنفوس إلى المثل الأعلى وتغمر الشعور بالجمال الخالد ؟

الأدب صورة النفس فلا بد أن ترتسم فيه مشاعر الفرد . والأدب مرآة الحياة فلا بد أن تنعكس فيه ألوان المجتمع . وما دام فى الناس الحساس والبليد والخوار والجليد ، وفى الدنيا التفاوت الذى يوجد التمايز ، والألم الذى يفجر الدموع ، واللذة التى تبعث المسرة ، والمدنية التى تخلق التنوع ، فلابد أن يكون الأدب الصحيح صدى لكل أولئك .

ليست وظيفة النقد أن يهدم أو يميت أو يشرع . تلك وظيفة الطبيعة التى تطور كل شىء ، وتغير كل نظام ، وتسد كل عوز ، وفق قانون ثابت :

---

(١) أرأيتك بمعنى أخبرنى .

إنما وظيفة الناقد أن ينظم الموجود وينبه الأذهان إلى المفقود . أما أن يحاول تغيير الطباع بقانون ، وقلب الأوضاع بمقالة ، ومحو الثابت بنكتة ، فذلك عبث لايخلق بكرامة إنسان ، وتهريج لايزكو بضمير فنان .

* * *

أما بعد فلعل فى هذا الإجمال يا صديقى (نجيب) بعض الجواب عن مقالك (فوضى النقد) . ولعلك تكتفى منى بذكره عن نشره ، فإنك سميت أشخاصاً وعينت كتباً وحددت حوادث ، وفى بعض ما قلت مشابه مما يقول هؤلاء . ومن خلق الرسالة كما تعلم أن تكتفى بالتلميح ، وتتأبه عن التجريح ، وتعوذ بفطنة قرائها من شر ذلك .

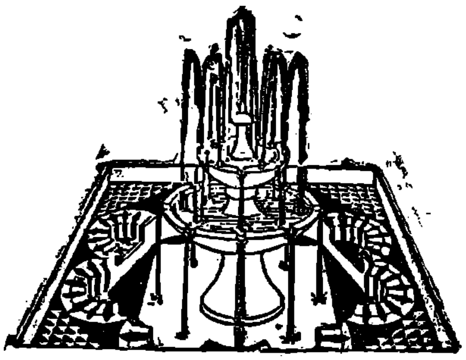

أروع أيام سعد

(٢٩ يونيو سنة ١٩٣٦)

لعل يوم الجمعة التاسع عشر من شهر يونية كان أروع أيام سعد ! إنتصر فيه وهو رفات وفكرة وذكرى على الحقد الذى طالما نبح المجد ، وعلى السلطان الذى طالما قهر الزعامة كانت روعة أيامه الغر التى أسفرت عنها ليالى مالطة وسيشيل وجبل طارق آتية من شخصيته التى طاولت العروش ، وعزيمته التى صاولت الجيوش ، وبلاغته التى عاجزت القدر أما يوم نقل رفاته إلى الضريح الرسمى فكانت روعته آتية من الفكرة التى ثبتت على الاضطهاد ، وغلبت على الاستبداد ، وظهرت على الإفك ظهور الدين على الشرك بالإيمان والإخلاص والتضحية . وسر الجلالة العظمى فى سعد أنه كان وهو حى يمثل كبرياء الشعب ، ثم أصبح وهو ميت يمثل سلطان الأمة كان يمثل كبرياء الشعب لأنه خرج منه ونبغ فيه ، فكان حجة له على كبرائه الذين كانوا يتأبهون عنه ويلمزونه بالضعة وينبزونه بالفلاحة ثم عاد يمثل سلطان الأمة لأن جهاده الباسل بها ولها جعل اسمه رمزاً للاستقلال وعلماً على الدستور وعنواناً على الديمقراطية فظاهر الفرح المستطير أو الحزن المرمض أو العزة المستطيلة التى أعلنها الشعب يوم خرج من معتقله أو رجع من منفاه ، ويوم الاحتفال بوفاته أو بنقل رفاته ، كانت مظاهر صادقة لعواطفه المتحدة ، صدرت عنه بدافع من نفسه وباعث من شعوره ، لأن سعداً لم يعد رجلا محدود الوجود بذاته ومميزاته ورغائبه ، وإنما أصبح معنى مقدساً من معانى الشمول يختصر فى نفسه خصائص جنسه ، ويجمع فى قلبه

أمانىّ شعبه فهو علم يخفق بالأمل ، ومنارة تشع بالهداية ، ورسول من رسل القيادة الذين يبعثهم الله إلى الناس فى متاهة السُبل وضلالة النفوس فيكونون رمزاً لرجاء الإنسان فى الله ، ومثالا لرحمة الله بالإنسان

كانت النفس المصرية فى ذلك اليوم المشهود على حال عجيبة من شتى الأحاسيس ومختلف العواطف : سرور مَزْهُوّ بفوز الإرادة القومية واستطاعتها بعد تسع سنين أن تصحح خطأ فادحاً من أخطاء الغرور الجاهل ، وحزنٌ دخيل هادىء لاحتجاب الشعاع وقد غام الأفق واستعجم المسلك ، ثم شماتة حانقة تصيح بالجبابرة الضعاف من أفواه الطرق ومنافذ البيوت وعلى أطورة الشوارع وسوح الميادين قائلة : أنا الأمة ! أنا الإرادة الأولى ! أنا الكلمة الأخيرة !

وكان فى موكب الرفات المنتصر قوم يمشون ، وجوههم إلى الأرض ، وأفكارهم إلى الوراء ، يقولون فى أنفسهم : استعنا على كبت هذا المجد الثائر بقوة السلطان وضجة البرلمان وثروة الخزانة فإذا كل أولئك معناه هوَج العاصفة ورهج الغبار وسرف المطر ؛ وإذا الشمس من فوق أولئك لا تزال ساطعة الشعاع دائبة الارتفاع لا يرقى إليها سحب ولا يعلق بها قتم ! إن الموت نفسه قد انخزلت قواه عن سعد فلم يستطع طمسه فى عين الوجود ولا محوه من سمع الزمن . لايزال ملء الحاضر وعدة المستقبل . ومن العناء الباطل أن يحاول الجبروت مهما يطغ أن يدخله فى الماضى . هؤلاء هم الجند الذين طالما أكرهوهم على أن يطاردوه فى الأقاليم ، ويحاصروه فى العواصم ، ويصادروه فى الأندية ، ويضايقوه فى المنازل ، ويحولوا بينه وبين الشعب ، قد انقلبوا — بأى معجزة لاندرى — فصاروا زينة لمجده وقوة لوفده وحراساً لمبدئه ! »

وكان بإزاء واحد من هؤلاء الباشوات المفكرين طالب صادق الحدس ألمعى الفراسة ، لايزال على وجهه الأبلج أثر من عصِىّ الشرطة وبنادق الجند ، فرأى بين الحى المستذل الضارع ، وبين الميت المتجبر الشامخ ، عبرة من عبر الدهر وحكمة من حكَم القدر ، فهب يصوغ من هذا المعنى هتافاً له ولرفاقه ؛ ولكنه تذكر أن الوطنى لايحقد ولا يشمت ولا ينتقم . فا كتفى بأن يقول لهذا الزعيم الرجيم فى نفسه : لقد أدركت بعد الأوان أن المجد خير من الحطام ، وأن الشعب أبقى من الحكومة ! لقد بلغت كل عال غير المجد ، وربحت كل نفيس غير الشرف

ذلك سعد مثال الزعامة الحق يا نواب الأمة ! كان فى مماته كما كان فى حياته موضع القداسة منها وموطن الرجاء فيها ، لأنه أول مصرى حكمها بأمرها ، وساسها برأيها ، ونقلها من نظام القطيع إلى نظام الشورى ، وحوّل خزائنها من المتاع الخاص إلى المتاع المشترك ، وجعل العلاقة بين الأمة والحكومة كما قال : « علاقة الجندى بالقائد ، لاعلاقة الطائر بالصائد » .

كان سعد من الشعب وظل طول عمره مع الشعب تجبر ولكن على طغيان الثروة ، وتكبر ولكن على صلف المحتد . أما علينا وعلى أمثالنا من سواد الناس فكان الأخ العطوف والوالد الحدِب .

بهذه السيرة المجيدة فى الحياة يجب أن يقتدى أصحابه البررة وبهذه العقلية السليمة فى الحكم ينبغى أن يسير أتباعه إلى الفوز وبهذه الصفحة المشرقة فى التاريخ يضع سعد للخاصة دستور الزعامة ، ويضرب

العامة مثل البطولة وبهذه المنزلة الفريدة التى نزلها من شعبه يتولد فى النفوس الشابة الرغيبة طموح العظمة فيسعون لها بالحق ، ويتنافسون فيها بالكفاية

هاتان سبيلان واضحتا المعالم بينتا الحدود فى سياسة الأمة . أدت أولاهما بسعد إلى حياة الموت ، وأسرعت أخراهما بفلان إلى موت الحياة ! فهل لأكياس الناس بينهما خيار !

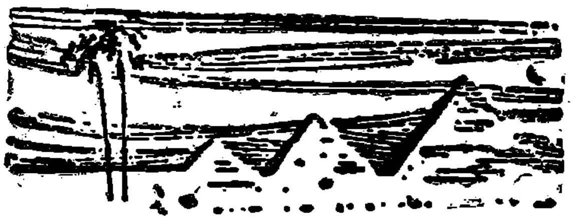

الحاجب السعادة المحافظ

(٢٠ يوليو سنة ١٩٣٦)

أمين أفندى الحاوي (كاتب عمومى) له فى هذه الصناعة القدم الأولى والمكان المنفرد. حفظ فى صدر أيامه كتابَىْ (إنشاء العطار ، للمحبين والتجار) ، و (أبدع الأساليب ، فى العرائض والمكاتيب) ، وهما كتابان يجمعان أعاجيب شتّى مما يخطر للبُكم من أهل الهوى ، ويعرض للجهال من ذوى الحاجة ثم دخل الجندية فى قرعة الخديو عباس ، وهى القرعة التذكارية التى طلب فيها لداته (للجهادية) ؛ فكان يكتب لرفاقه الجنود رسائل الشوق والعشق والسلام كل رسالة بنصف قرش . فلما خرج من الجيش العامل إلى (الرديف) سلك نفسه فى نظام (البوليس) تسع سنين كوامل ، ازداد فيها علماً بطرائق النظام وطوائف الحكام وأحوال المجتمع . وكان من الممكن أن يتقلب فى نعيم الشرطة مدة أطول ، لولا أن خيرها المتدفق فى يديه من الشوارع والحوانيت قد فاض على جسمه ، فتراكب لحمه وتدلى بطنه واستفاض فيه الشحم حتى كاد ينقطع قيامه فلم يكن بد من الحكم عليه بهذه الحجة القائمة على طِماح عينه وطول يده وقعود همته . فخرج إلى حياة (التحرير) ، وهى منذ شب حديث عبقريته ومطمح أمانيه واتخذ له مكتباً تحت السماء أمام سراى (المحافظة) ، وألقى حبله للوهوبة والمكسوبة فى غمرة الحياة وزحمة العيش ، فعادت له بالشهرة الرائحة فى دنيا القضايا والشكايا والسمسرة . فكانت العريضة أو الرسالة أو (الكمبيالة) التى يحررها الحاوى أملاً لحرفائه فى ضمان الفوز ، ومثلاً

لزملائه فى فن الكتابة ثم تدخّل فى زوايا البيوت ، وتغلغل فى طوايا السرائر ، وتبسط على موائد الأنس ، وتفنن فى أساليب الوساطة ، فكان دليل « الخاطب » ونديم الشارب وسلوة المحزون وسمسار المشترى ووكيل المدعى وسفير الخصوم ورسول الأحبة . تراه أكثر النهار على مقعده الخشبى الضيق فى جلباب فضفاض من الكستور المخطط ، ومعطف رقيق من النسيج المهلهل ، ورغائب الناس تنثال عليه انثيال النحل العاسلة على الخلية الضخمة : هذا صاحب مظلمة يريد عرض حال ، وذاك طالب مصلحة يتلمس طريق المسعى ، وتلك زوجة هاجر أو عشيقة فاجر تطلب المعونة من قلمه أو لسانه ، وهذا رافع دعوى يريد توكيل محام ، وذلك زميل عجلان يطلب كلمة لغوية أو جملة نحوية يزين بها رسالته الغالية الثمن (لزبونته) الرفيعة القدر ، وأمين الأريب فى يده قلم ، وفوق أذنه قلم ، وعلى شفته بسمات تتعاقب مختلفاتٍ فى السعة واللون والدلالة ، يتلقى كل طالب برغبته وكل سائل بجوابه . وهو بعد ذلك لكثرة ما يغشى بيوت الناس عارف بأحاديث الأسر ، عالم بأحداث المجتمع ، خبير بألوان المطاعم ، فعنده قصة كل زوجين ، وخبر كل صديقين ، وخصيصة كل صحفة من صحاف المائدة ؛ فالقرع شفاء من كل داء . والرز نصيب الأرض من حقول السماء وفى الكبد خروق لا يسدها إلا الملوخية وفى الجسم عروق لا يُنبضها إلا الكنافة !

* **

من عادة أمين أفندى أن يزورنا كما يزور غيرنا حيناً بعد حين ، فيمتعنا ساعة بأخباره وأسراره ونوادره ؛ ثم ينصرف وتحت إبطه رزمة مما تكدّس

عندنا من المجلات المقروءة دخل علينا أمس جاداً على غير عادته ، وقوراً على خلاف طبعه ولم يكد يلقى التحية حتى ألقى إلىّ فى شىء من الزهو صحيفة مسطورة من ورق (العرائض) وفى رأسها بقلم الثلث : (إلى صاحب السعادة المحافظ) ، وفى ذيلها بقلم الرقعة : (أمين الحاوى) : وقال :

ذلك كتاب مفتوح إلى سعادة المحافظ أرسله إليه عن طريق الرسالة . أتنشره أم تطويه ؟ فقلت له : وماذا تريد من سعادة المحافظ يا أمين أفندى ؟

فقال : قرأت فى الصحف أنه ألغى (مصايف الأطفال [1]) فهزنى الخبر وملكتنى شهوة الكلام ، فكتبت إليه هذا الكتاب أريد منه أن يضيف نقطة من بحر كرمه إلى (**مصايف**) ، تصبح بفضله (**مضايف**) والكتاب بين يديك فاقرأ

قرأت الكتاب فى غمر من أحاسيس شتى تتلون تباعاً بالإعجاب والإنكار ، والحزن والضحك ، والانفعال والتبلد ثم قلت له إنى أقبل كتابك موضوعاً وأرفضه شكلا ، لأنك عرفت كيف تفكر ، ولكنك لم تعرف كيف تعبر ولغة الدواوين وأسلوب (العرائض) لا يدخلان من أبواب (الرسالة) .

فقال وقد طغى فى وجهه الدم ، ونزا فى رأسه الغضب ، وانتشر على شفتيه شاربه الأزرق كيف ! لقد حفظت الكفراوى ، ولزمت الشيخ

---

(١) مصايف الأطفال كانت خياماً أو أكشاكا تقيمها المحافظة كل صيف للاطفال الفقراء برمل الاسكندرية .

عليش ، وصحبت الشيخ رشيد ، وجادلت الأستاذ وجدى ، وقضيت فى التحرير أربعين عاماً ! أفتجابهنى بعد ذلك بأننى لا أعرف كيف أكتب ؟ فقلت له : هون عليك ! سأكتب لك هذا الكتاب بلغة المجلات ، فإن أعجبك أمضيته . ثم شرعت أكتب :

صاحب السعادة محافظ القاهرة :

« يتقدم إليك بهذه الكلمة والد فقير كابد من نصب العيش وعنت البؤس وتربية الأولاد ما جعله مثلا صحيحاً لآلام طبقته إنك ألغيت (مصايف الأطفال) فألغيت حقاً كسبه الفقير من الغنى ، وأخذته العامة من الخاصة . كان هذا الحق لنقصه وقصوره كنظارة أهل النار إلى أهل الجنة ، فضاعف ألم الحرمان وجسم شقاء البؤس ، ولكنه على أية حال كان ترضية لكرامة الشعب .

ولقد كان فى نفسى أن أطلب إلى وزارة الأمة أن تجعل المصايف مضايف تؤوى شرداء الطفولة وطرداء الفاقة ، فتنقلها بذلك من الخصوص إلى العموم ، وتحولها من تملق الكمال إلى معالجة الضرورة فأفاريز الشوارع وأفواه الطرق وزوايا الأبنية مغطاة فى الليل القارس القاسى بجسوم اليتامى والهمل من أطفال القاهرة ، تترعرع فى أحضانهم القذرة أغراس الرذيلة ، وتتكاثر على روائحهم الكريهة جراثيم المنكر والملاجىء وحدها علاج هذه الحال الأليمة . فإذا كان هذا الإلغاء لسد هذا الخلل وإصلاح هذا الفساد فما عدوت الصواب ولا أخطأت الحزم . وأما إن كان لقلة المال أو ضعف الرغبة ، فقد قضيت على فكرة جميلة ، واعتديت على حق مقدس . . . » . .

وكان أمين أفندى قد سكت عنه الغضب ، فنظر فيما أكتب ثم قال منفعلاً : ما هـذا ؟ أين الديباجة ؟ وأين ما يجب لمثل هـذا العظيم من عبارات التفخيم ؟ أرجو ألا تـكمل ! سآخذ كتابى وأسلمه إلى الباشا يداً بيد ! فقلت له : أرحتنى أراحك الله ! وسلمته الـكتاب يداً بيد ، ثم صافحته يداً بيد وخرج الحاوى وأنا أرجح أنى كسبت عدواً جديداً من جرّاء النشر فى الرسالة !

الحلقة ...

ذلك اسم كان[1] يطلقه زعيم العراق (ياسين الهاشمى) على ستة من الإخوان جمعهم تشابه الذوق ، وألف بينهم تجانس الهوى ، فتساهموا الصفاء ، وتقاسموا المودة ، وخلطوا حياتهم بحياة بعض ، فما كانوا يفترقون أصائل الأيام ولا عشايا الليالى . كانوا يتخذون سامرهم كل ليلة فى دار أحدهم ، فيتحلقون على مائدة الشاى السخية ، أو يتقابلون أمام المدفأة الواهجة ، ثم يديرون بينهم سِقاط الحديث على أروع ما تُشققه الأذهان الخصيبة من براعة الفكرة وملاحة النكتة وطلاوة الخبر وسلامة النقد وصحة الحكم ، فلا يدعون شأناً من شئون الحياة ، ولا وجهاً من وجوه السياسة ، ولا أمراً من أمور البلد ، إلا تناولوه باللسان المرهف والفؤاد اليقظ والنظر المستقل . فهم معارضون ولا لسان لهم فى حزب ، ومصلحون ولا يد لهم فى زعامة .

كانوا يمثلون نواحى النشاط الفكرى فى العراق أصدق التمثيل . ففيهم رجل الجيش ، ورجل التعليم ، ورجل القانون ، ورجل الطب ، ورجل المال ، ورجل الشعب . ذلك إلى امتياز كل منهم بسمة من سمات الطبع ، وصفة من صفات الخلق . فطه الهاشمى[2] عذب الروح ، مرىء الأخلاق ، وقور النفس ، مصروف الهم إلى القراءة المنتجة والتأليف المحكم فيما يتصل

---

(١) كان ذلك فى سنة ١٩٣٢ وأنا أحاضر فى الأدب العربى وتاريخه فى دار المعلمين العليا ببغداد :

(٢) رئيس أركان حرب الجيش العراقى يومئذ .

بالتاريخ والحرب . ولو تُركَ إلى نفسه لما خرج من مكتبته ولا قام عن مكتبه . وناجى الأصيل [1] نبيل العاطفة ، حلو الفكاهة ، سمح للقادة ، أفلاطونى النزعة ، يعيش فى السماء ويحلم دائماً بالمدينة الفاضلة ويوسف عز الدين [2] متئد اللسان ، حصين الصدر ، سريع الفطنة ، يتبسط فى هزل الكلام ويتحوط فى جده . وهو لا ينفكُّ لإخوانه موضع السر ومرجع المشورة . وكامل الجادرجى [3] متوقد الذكاء ، متمرد الطبع ، متوثب العزيمة ، دائب الحركة ، صليب الرأى . يدين بالديمقراطية ، ويميل إلى الاشتراكية ، ويرفرف بجناحيه على الفلاح والعامل والمتعطل وموفق الألوسى [4] طموح القلب ، سريع البادرة ، بارز الشخصية ، يعتد برأيه إلى حد العناد ، ويعتز بنفسه إلى حد المخاطرة . وشوكت الزهاوى [5] واسع البال ، ضيق الأفق ، رصين العقل ، قد قصر جهده على عمله فلا يكاد يطمع فى شىء ، ولا يشارك فى رأى ، ولا يحفل بحادث . وأولئك كانوا لما اجتمع لهم من ضروب الثقافة وشتى الخلال صورة مصغرة للأمة . يعيشون منعزلين وهم فيها ، ويفكرون مستقلين وهم معها ، كأنهم كانوا لآمالها رموزاً تتميز بتميز العنوان ، وتنفرد انفراد العَلم . كانوا جميعاً فى زبقة الحكومة إلا كاملا ، فكان للجماعة الكلمة الحرة والفكرة الطليقة . وقف على السياسة الصريحة قواه ، وأيقظ لأطوارها المختلفة رأيه ، فكان يناصر الحزب مادام معارضاً ، فإذا قبِلَ الحكم تركه إلى غيره ، حتى انفرد هو ذات يوم بالمعارضة . كان اليد اليمنى لياسين الهاشمى فى حزب الإخاء الوطنى . وياسين أمل البلاد المرجو وزعيمها المنتظر . فلما رآه يقصد الحكم عن طريق المياسرة والمصايرة

(١) مدير دار المعلمين العالية .

(٢) مراقب للميزانية .

(٣) من سراة بغداد .

(٤) مدير كلية الحقوق .

(٥) طبيب بوزارة الصحة .

خالفه ومعه مقاعد البرلمان ووظائف الديوان ومزايا السلطة ، وخرج مُغاضباً إلى الجهاد بالنفس والمال ، فزاول المحاماة وعالج الصحافة ، ولقى فى سبيل ذلك مايلقى المعارضون المتزمتون من الضيق والعنت .

* * *

كان لى فى هـذه (الحلقة) كرسى وثير دائم . يحيطه الإخوان بالعطف ويخصونه بالكرامة . وكنت أجد لهم فى نفسى من الأنس بهم والطمأنينة إليهم مالا أجده لجماعة أخرى . فكنت أناقلهم شجون الحديث فأعلم منهم مالا أقرأه فى الصحف ولا أسمعه من الناس ولا أرله فى الحكومة . كانوا يحملون فى نفوسهم آمال العراق الناشىء ، وفى رءوسهم ثورة الشباب الجديد : سياستهم الجماعة قبل الفرد ، والعامة قبل الخاصة ، والعراق قبل العروبة ولكن آراءهم كانت فى رأيى أشبه بأحلام الفلاسفة تحت رواق المعبد ، لأنك إذا استثنيت (كاملا) لا تجد فيهم من يفكر فى انقلاب أو يجهر بمعارضة .

تركتُ العراق وفيصل ونورى وجعفر قد مكّنوا لدولته بالمرونة اللبقة والسياسة التجارية التى تعطى لتأخذ وكان شباب العراق قد سئموا سياسة الأمر الواقع وبَرموا بالإدارة المطلقة ، فتمنوا حكومة زعيمهم المحبوب ياسين . وتسلم ياسين مقاليد الأمور وانضوى إليه رفيقاه ، وآل إليهم سلطان البلاط بالفعل ، ونفوذ (دار الاعتماد)[1] بالقانون . وسارت السفينة آمنة من الألغام والصخور كما يرى البعيد . ثم تفرقت السبل بعدئذ برجال الحلقة .

* * *

طخ ! طخ ! طخ ! ثلاث قنابل ألقتها ثلاث طائرات على مرأى

(١) دار المعتمد البريطانى .

الحكومة ، فروعت الموظفين وأفزعت الأهلين فأخلوا السراى وأغلقوا المدينة ! ماذا ؟ الجيش الثائر يحاصر بغداد ويطلب إلى المليك إقالة الوزارة ! وبكر صدق الفاتك الطماح يقترح للوزارة الجديدة حكمة سليمان ! وحكمة سليمان يُدخل فى وزارته الحلقة ماعدا طرفيها ! لقد كان حكمة صديق الحلقة ، وكان فى معارضته من طراز (كامل) لايحفل الثراء ولا يبالى المنصب ، حتى رووا أنه ضاق يوماً بمرتب سائق سيارته فذهب به إلى قائد الشرطة يرجو منه أن يجد له عملا يعيش عليه !

بعد المعاهدة

(٣٠ نوفبر سنة ١٩٣٦)

بعد ليل غاشي الجوانب تراكمت على (الوادى) همومه ، وطريق داجى المسالك تشابهت على الدليل رسومه ، انجلى الغيهب الكثيف عن وضح الفجر ، وانتهى الطريق المخيف إلى أمان الغاية ، وحمدنا السُّرَى عند الصباح ، ورضينا الغنيمة بعد المعركة ، وهدهدنا الأمانىّ على نشيد الفوز .

كنا مقيدين لا نملك مع القيد مجال العمل ، ومحجورين لا نجد مع الحجر سبيل التصرف ، ومستذلين لا ندرك مع (الامتيازات) معنى الكرامة ، ومستقادين لا نعرف مع (الاحتلال) عبء التبعة . فإذا كانت مصر الأمس قد مشت عرجاء فى طريق التقدم ، وجاهدت عزلاء فى ميدان العيش ، فإنما كان وِزْر ذلك على الغاصب الذى سلط قوته على الحق ومنفعته على العدل ، فحجز البلاد عن وجهتها الحرة حقبة من الدهر أوفت على نصف قرن . أما اليوم وقد انكسر القيد ، وارتفع الحَجْر ، وتقلص الاحتلال ، وتصاغر الامتياز ، وقال لك القوى الغالب : لقد رشدت فتصرف فى أمرك ، وشببت فدافع عن حَوزتك ، واستقللت فاحكم فى بلدك ، فلا يسعك فى تقصير عذر ، ولا يسعفك فى دفاعٍ حجة .

هذه ثروةُ النيل التليدةُ والطريفة عبثت بها أهواء القيم المفروض بالباطل ، فنقص النامى وبَلُد الحساس وفسد الصالح واعوج المستقيم وتنافر المنسجم ؛ فكل شىء فيها معتل يفتقر إلى علاج ، أو منتشر يحتاج إلى ضبط . فإذا

قصرنا الجهد أو أكثره على تنفيذ المعاهدة من إنشاء الجيش وبناء الثكنات وشق الطرق، ظل حالنا على ما كان من بؤس العيش، ونقص الكفاية، وعجز القدرة. وهل يكون الأمر حينئذ إلا حبس قوى الأمة على الاستقلال في السعي إليه أو في المحافظة عليه؟ وهل يزيد الاستقلال على أن يكون استرداداً للحرية المسلوبة، تنعم الأمة في ظله وهي آمنة، وتعمل في حماه وهي حرة، وتحكم على مقتضاه وهي سيدة؟

إن إعداد الأمة لحمل نصيبها من أمانة الحياة ورسالة الحضارة وعهد الخلافة، يقتضي أن تتظاهر ملكاتها الموحّدة وكفاياتها المدبرة وقواها المنفذة على طرد الجهل منها، ودفع الفقر عنها، ومعالجة المرض فيها. وهذه العلل الثلاث هي جُمّاع العلل، لا تجد عاهة من عاهات الجسم ولا آفة من آفات الروح في الفرد أو في الجماعة إلا ضاربةً فيها بعِرْق، أو واصلة إليها بسبب. والأمة كلها خَلْق سَوِيٌّ كامل لا تستطيع أن تقويه وترقيه إذا عُنيت بعضو دون عضو، وشغلت بملكة دون ملكة.

كل ما فينا فارغ يبغي العمل، وباطل يريد التغيير، ورَثٌّ يطلب التجدد. وتلك مخلفات العهود السود وتركات الأجيال المريضة، عمت فينا نمو الجراثيم يزرعها ويغذيها المحتل الذي لا يرحم، والحاكم الذي لا يعدل، والواغل الذي لا يعف.

كان من جرائر فقد الاستقلال في الحكم أن فقدناه في كل شيء حتى في الذات. فنحن نفكر تابعين، ونعمل مقلدين، ونعيش متواكلين، ونسعى على غير اطمئنان ولا ثقة. وقد ظهرت هذه التبعة واضحة في الآداب والعادات، وهي أدخل الأشياء في بناء الشخصية وأبعدها عن التراث المشترك بين الأمم كالعلم والحضارة.

ولعل أقبح آثاره ما نجده فى الشباب من رخاوة العود وطراوة الخلق ، وفى الكهول من ضراعة النفس وضعف الإرادة ؛ فإن ترك الدفاع عن أنفسنا لغيرنا كسبنا طباع العيش الأبله من الوداعة والإغضاء والرضا فلا ترى فى الجملة من يغضب للإهانة ويثور للعدوان ويتحمس للخصومة . وإن استبداد الأجنبي بأمرنا من دوننا قتل فينا التفكير ، وأنام فينا الضمير ، ودهانا بطائفة من طبائع الاستبداد كالملق والنفاق والتواضع والأثرة ؛ فالأمة مستنيمة لهوى الحكومة ، والحكومة مستكينة لإرادة المحتل ، وبين طبقات الشعب ودواوين الحكم منافع مصورة لا ترتوى ، ومحاباة مهتوكة لا تستحى ، وتواكل غفلان لا يفيق .

نعم كل أولئك كان نتيجة لفقد الاستقلال ما فى ذلك ريب . ومن الممكن أن يكون وجوده علة فى عدم هذه النقائص على التدريج مسايرة لفعل الزمن . ولكن الوقت ضيق والفرصة عجلى والضرورة حافزة ، فلا بد لأولياء العهد الجديد أن يغسلوا أدران العهد القديم بالسموم ، ويحسموا أدواء الماضى بالكى ، ويجعلوا بين العهدين سداً من النار والحديد لا ينفذ منه إلا مصهور أو مطهر .

نريد أن ندخل العهد الجديد فى لباس الإحرام صدورنا نقية من أحقاد الحزبية ، ونفوسنا بريئة من شهوات العصبية ، وميولنا نزيهة عن خسيس المطامع .

كنا نعيش كما يعيش السوام فى البر أو السمك فى البحر ، لا تجمعنا وحدة شاملة ، ولا توجهنا غاية معينة . وكان ذلك أثراً محتوما للسلطات التى كانت تتنازع الحكم ، والتيارات التى كانت تتوزع الثقافة ، والامتيازات التى كانت تمزق المجتمع .

أما اليوم فنريد أن نعيش كما يعيش الناس فى كل أمة وطن صريح الاستقلال قوى الشوكة لا سلطان لقوة خارجية عليه ، ولا سيادة لفئة أجنبية فيه ، ولا استبداد لشركة أوروبية به ؛ وحرية مهذبة الأطراف مأمونة السفه ، ينعم الفرد فيها بنفسه ، ويأمن بها على رأيه ، ومجتمع راقى الطبقات مثقف النواحى ، يؤلف نافره الخلق ، ويجمع شتيته الحب ، ويرفه حياته التعاون ، ويؤويه إلى كنفه إله وعلم ودستور ذلك ما نتجه فى الحياة الجديدة ، وذلك ما نبتغيه من الحكومة الرشيدة .

استقلال اللغة

(٣ ديسمبر سنة ١٩٣٦)

استقلال اللغة مظهر استقلال الذات ، ووحدة اللسان جزء من معنى الأمة ، واتحاد البيان سبيل إلى توحيد الرأى والهوى والثقافة ، فإذا سمعت أمرأ يتكلم غير لغته من غير ضرورة ، أو يلهج غير لهجته من غير مناسبة ، فلا يخامرك شك أنه كذلك فى خليقته وعقيدته ونمط تفكيره وأسلوب عمله . وإذا رأيت أمة تدير فى أفواهها ألسنة الأمم ، وتستعير فى أعمالها دلالات الناس ، فلا تتردد فى الحكم عليها بالتبعية المدنية والعبودية الأدبية والوجود الملفق وإذا شق عليك أن ترى فى الأرض هذه الأمة ، أو تسمع فى الأمة ذلك الإنسان فتحامل على شعورك وجل جولة فى إحدى عواصم مصر فهنا أو هناك تجد فى معارض التجارة ودور الصناعة وبيوت المال وأماكن اللهو ، خليطاً من الناس كجيش الدُمُستق[١] .

تجمع فيه كل لِسْن وأمــــة فما يُفهم الحدّاثَ إلا التراجم

تدخل متجراً من المتاجر ، أو مصرفاً من المصارف ، أو مقصفاً من المقاصف ، أو شركة من الشركات ، فلا تقرأ فى الإعلانات والمستندات إلا كتابة أجنبية ، ولا تسمع فى المحادثات والمفاوضات إلا لغة أجنبية . فإذا حرصت على أن تتفاهم بالعربية لاعتزازك بها أو لجهلك بغيرها ، تضاءلت فى رأى مخاطبك فينظر إليك بشطر عينه ، ويكلمك ببعض شفته ؛ وربما

---

(١) الدمستق لقب لقائد جيش الروم . والبيتَ للمتنبي فى وصف معركة (الحدث) وكانت بين سيف الدولة وبين الروم .

صفرت وصغرت حتى ينسرّ عليه مرآك فلا يحفلك وتغشى قصراً من قصور الأمراء أو داراً من دور الكبراء ، فتسمع النادين[1] يتطارحون الحديث بالفرنسية أو التركية ، فإذا شاركتهم فيه بلغتك وقرُوا آذانهم عن سماعك ، لأنك نقلت الحديث الخطير إلى لغة السوقة ، وأنزلت البهو الوثير إلى مجلس العامة . وتلقى أبناء (الذوات) فى المشارب والملاعب والأندية فتسمعهم يتراطنون بلغة مشوهة التأليف مدخولة الوضع بغيضة اللهجة ، من نحو قولهم . داشيء (mon cher يا Incroyable) أو : (je ne peux pas أطلع l'escalier) .

ولو وجدت فى هذا الخلط تظرفاً من أولئك الأيفاع المدللين الذين نشأتهم المهود الأرستقراطية وثقفتهم المدارس الأجنبية ، فإنك لا تجد غير حمى الروح إذا تكلفه من درج فى البيئات الشعبية ، وخرج من المعاهد الدينية . فقد حدثوا أن شيخاً من شيوخ اللغة ومعلميها أوفدته وزارة المعارف إلى انجلترا ليلم بطرائق التعليم ومذاهب التربية ؛ فمكث تحت ضباب لندن عاماً أو عامين ثم عاد فاذا لسانه قد اعوج وسمته قد تبدل ! يكلمك فتسمع من وراء (البيبة) كلاماً عربى الحروف سكسونى المخارج ! فاذا تمضمض بالجملة أو الجملتين فى المعنى المألوف توقف وتأفف ، ثم ذهب يزاوج فى الفقرة الواحدة بين العربية والإنجليزية ، لأن العربية أصبحت أمام الخاطر الدقاق والخيال السباق والمعانى الجديدة أعجز من أن تسعف اللسان وتجارى البيان وتجدد الفكرة !

كل ذلك كنا نراه فنشعر بالغربة وسط الدار ، وبالذلة بين الأهل ، وبالتبعية تحت العلم وكل ذلك كنا نسمعه فنحمل الأذان على مكروهه ،

(١) ندا القوم : اجمعوا أو حضروا النادى .

وروض الأنفس على أذاه ، لأن أمورنا كانت فى كل ناحية من نواحى الحياة شذوذاً لا يستقيم فى عقل ، ونشوزاً لا يتسق فى شعور فلما أذن الله لوجودنا أن يتميز ، ولا ستقلالنا أن يتم ، كان من المحتوم على أولياء العهد الجديد أن يعالجوا الضعف الذى يوهن وثبات العزة ، ويزيلوا النقص الذى يعوق خطوات الكمال .

تريد اللغة العربية من أولياء العهد الجديد أن يطردوا الاحتلال اللغوى من الشركات كما طردته تركيا ، فيمدوا لها أسباب السيادة ، ويهيئوا للمتعطلين وسائل العمل ، ويضمنوا للأهلين صحة التعامل ، ويعمروا هذه البيوت (١) التى تطاول الحكومة فى النفوذ ، وتجابه الأمة بالعجز ، ويشتمل كل منها على دولة وسفارة وامتياز !

تريد العربية أن تكون لسان العلم فى المدارس الأجنبية ، وفى كليات الجامعة المصرية ؛ فان التعليم باللغة الأوربية ينقل بعض الأفراد إلى العلم ، ولكن التعليم باللغة الوطنية ينقل كل العلم إلى الأمة . وما دام للغة مجمع لغوى قوى يساعد على النمو فلن يخشى عليها فى الطريق قصور ولا فشل .

تريد العربية أن تأخذ مكانها الشرعى فى المحاكم المختلطة ريثما تدك قواعدها المعاهدة ؛ فان من أعجب الأمور أن يضيع القانون بين قوم يعيشون بالقانون ، ويزهق العدل فى دار أقيمت للعدل وقد كان الإغضاء على ذلك يحمل على مصانعة القوة ومخادعة السياسة ، ولكنه اليوم لا يحمل إلا على تفريط العجز وترويض الاستكانة

كذلك تريد العربية أن تطهر من شوائب التركية فى الدواوين والقوانين والمدارس والجيش ، فلا تحب أن يدخلها بعد اليوم (باشكاتب

---

(١) كل ذلك قد حدث الآن بفضل ثورة الجيش

وبوبتجى وبوصنجى وقلفة وطابور وبكخانة ويوزباشى وصاغ وأميرالاى) الخ . ولنا فيا يعمل الترك والفرس بالعربية مثل ماثل وداقم محرض .

ذلك ما تريده اللغة من الحكومة . أما ماتريده من الأمة فذلك شيء تلهمه العزة وتمليه الكرامة ، فان لغة المرء تاريخه وذاته . فالغض منها غض منه ، والتفضيل عليها تفضيل عليه ولا يرضى لنفسه الضعة والصغار إلا مهين أو عاجز .

بين سلطان وسلطان

(٤ ديسمبر سنة ١٩٣٦)

يا كافرين بالشعر والأحلام والحب ! أتريدون بعد حادث اليوم معجزة ؟ هذا ملك الغرب ، وإمبراطور المشرق ، وإله البحر ، وصاحب العرش المحمول على أعناق الشعوب ، ووارث التاج المتألق على جباه القرون ، وخليفة المجد المحفوف بالجلال الباهر والسؤدد العريق والسنة المقدسة ، وسليل الدم الثرى الذى يتدفق بالحياة فى هدوء ويجيش بالنشاط فى ثبات ، وربيب البيئة التى تعظم القوانين وتقدس التقاليد وتعبد الإمبراطورية ! هاهو ذا يعزل عن العرش ، ويلقى التاج ، وينبذ اللقب ، ويهجر الوطن ، ويلحق بحبيبته أميراً لا يميزه شعار ، وإنساناً لا تحدوه أبهة ، وفرداً لا تصحبه حاشية !

* * *

ياجاحدين لسلام الروح وراحة القلب ورضا العاطفة ! أتمارون بعد اليوم فى هذه الآية ؟

زعمتم أن الأرض بدلت غير الأرض ، والدنيا أصبحت غير الدنيا ، فقدرتم سعادة الحياة بالوزن والكيل والمساحة ، وقلتم أودى منطق العقل بإلهام القلب ، وأزرت مادية العلم بروحية الأدب ، وغلبت أثرة المنفعة على إيثار التضحية ؛ وذهبتم تتجهزون بما صنع العلم من صواعق وزلازل وبراكين ، لتنسفوا ما قام من المدنية ، وتقتلوا ما بقى من الإنسانية ،

وتقروا فى ملكوت الله نظاماً لا يعيش فيه جمال ولا خير ولا حق ؛ مقام أكبر ملك فى العالم ، على أظهر مكان فى الأرض ، يعلن أن عظمة الملك لا تضمن سعادة النفس ، وأن سلطان العرش لا يعوض حرية الإرادة ، وأن جواهر التاج لا تساوى بسمة الحبيب !

سبحانك يابديع الحياة والحب ! ماهذا الذى تضعه فى العيون فنسميه سحراً ، وتجريه على الشفاه فندعوه جاذبية ، وترسله فى الأعضاء فيكون رشاقة ؟ ما هذا الذى تودعه هذا الجسم الرقيق الناعم فيقهر سطوة الجبار ، ويسوّى أخدع المتكبر ، ويطأطىء إشراف الملك ؟ أهو إعجاز القدرة التى تغلب بالأضعف ؟ أم سر الحكمة التى تمكر بالأقوى ؟ أم روح القدس الذى ينفذ قانون الحياة فى هذا الكوكب ؟

بين سُورة الملك وأمانة التاج ، وبين فتنة الجمال ومحنة الهوى ، وقف العاهل إدوار الثامن ملك انجلترا وإمبراطور الهند يتحسس فى مطاوى الغيب مشيئة القدر ! أيعيش فى نفسه ولنفسه ، أم يعيش فى جنسه وللناس ؟ أيظل رمزاً لأمته يخفق فوق رءوسها كالعلم ، ويتغلغل فى قلوبها كالإيمان ، ويتردد على ألسنتها كالصلاة ، ثم لا يكون له ما للعامل الفقير من وجود مستقل وإرادة مختارة ؛ أم يرتد إلى طبيعة الإنسان فيضرب بنفسه فى الزحام ، ويبحث عن نصيبه فى الرغام ، ويضطلع بعبئه ككل فرد ؟ أيبقى أسير التقاليد التى نسجتها عناكب الماضى البعيد على نوافذ البلاط والبرلمان ، فلا يفكر إلا بإيحاء ، ولا يتحرك إلا بمقدار ، ولا يتكلم إلا بمقدار ، ولا يعمل إلا بإشارة ؛ أم يتمرد تمرد الحى المريد ، فيدفع من أمامه ذلك الحاجز الصفيق الثقيل ، ويجذ من ورائه ذلك الذيل العتيق الطويل ،

ثم ينطلق فى جواء الله انطلاق الطائر المرح ، يقع فى كل روضة ، ويهبط على كل غدير ، ويتملى أليفه فوق عروش الزهور وعلى بُسُط المروج وبين أفنان الخمائل ؟ !

كانت هـذه الآراء الحائرة تعصف نـكباء فوق رأس الملك ، بينما كان فى (لنـدن) الواجبُ المرير الخشن يتمثل فى وجه (بلدوين) الحازم الجبـار ، ومن خلفه برلمان متحد يؤيد دستوره ، وملـكوت واسـع يريد امبراطوره ، وشعب مخلص يحب ملـكه ؛ وفى مـدينة (كان) حب عنيف مُلح يشرق فى قسمات (مسز سمبسون) الفاتنة ، ومن ورائه إنسان يطلب حريته وقلب ينشد سعادته وحى يبتغى حظه من الحياة .

وهنا يتدخل القدر الذى يحكم وحده على الملوك فيحل عقدة الرواية التى يشهدها العالم كله على غير ما يحلها به الروائيون الخياليون ، فينصر تجديد الطبيعة على تقاليد العرف ، ويُغلب سلطان الحب على سلطان الواجب ، ويرفع سرير العائلة على عرش الأمة !

* * *

يا كافرين بالشعر والأحلام والحب ! أتريدون بعد حادث اليوم معجزة ؟ أيها الناسون ما صنعت حواء بأبيكم آدم ! لا تحسبوا أن الماسونية والجاسوسية والشيوعية والصهيونية والفاشية والنازية هى التى تقلب فى السر أو فى العلن أو ضاع المجتمع . فتشوا فى زوايا كل أولئك عن المرأة ! وإذا كانت مأساة البرنس إدوار تذكرنا بمأساة البطل أنطون ، فليست كليو بطره أول النساء ، ولا مسز سمبسون آخرهن . وسيظل هـذا الجنس

القوى الخفى الغامض سلطان الكون المطلق ؛ فهو محور الطموح والمنافسة ، ومصدر الخير والشر ، ومنبع السرور والألم . ولئن خضع له اليوم إدوار فمن قبله خضع نابليون ، ومن قبل نابليون خضع الرشيد وقال فيما حدث الرواة :

ملك الثلاث الآنسات عنانى وحللن من قلبى بكل مكان
مالى تطاوعنى البرية كلها وأطيعهن وهن فى عصيانى
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى — وبه قوين — أعز من سلطانى

ذكرى ميلاد

(١١ يناير سنة ١٩٣٧)

فى مثل هذا الأسبوع من عام ١٩٣٢ وأنا فى دار السلام ، هبط على برق الأثير هبوط الملك البشير على زكريا الواهن اليائس بشرنى بأن اسمى قد اشترك ، ووجودى قد ازدوج ، وعمرى قد امتد ، وأصلى قد تفرع ! فأخذنى شعور لا عهد لى بمثله لا أصفه لأنه أعمق من الإدراك ، ولا أنساه لأنه أوسع من الذاكرة هو شعور خليط مبهم : لا هو حماسة ولا هو نشوة ، ولا هو جذل ولا هو غبطة ، وإنما هو كل أولئك وشىء آخر لا أدريه لون مشاهد الطبيعة بألوان الأمل ، وعطر نسائم (دجلة) بروائح الجنة ، وزين مغانى الكرخ بأوشية السحر ، فخرجت إلى بساتين (الصالحية) وفى إهابى المشبوب رجل آخر ، يحيا لأنه يحب الحياة ، ويعمل لأنه يريد العمل ، ويزهى لأنه يسعى لأسرة مررت بالأطفال الذين كنت أراهم كل يوم ، فبدت لى فى قسماتهم وبسماتهم معان جديدة لم يعودوا شقاء الوالدين وهم الحياة كما كنت أشعر ، وإنما أصبحوا كطفلى بهجة الوجود وراحة المكدود ورجاء

المستقبل ثم وجدتُنى آنس بكل أب ، وأسكن إلى كل أم ، وأشعر كما يشعر كل والد يحمل رخيٍ رضيٍّ يثقل رويداً رويداً على البال المطمئن الوادع !

* * *

عدت إلى مصر فرأيتنى أرسخ فى الوطنية لأنى غدوت أصلا من أصولها ، وأعزّ فى القرابة لأنى صرتُ فصلا من فصولها . ثم تجددت الأفراح ، وتسابقت التهانى ، وتنافست الهدايا ، وتعاقبت المآدب ، وغرقت الدار السكنية فى فيض من البهجة ، ورقصت الروضة الموحشة على ألحان البلبل ، ورفرفت السعادة الهشة على مهد الوليد .

وكان عشنا الآمن القارّ يعلن فى كل رابع عشر من شهر يناير ذكره النعمة وشكره لله ، فيرفُّ للأصدقاء بالأنس ، ويخف للفقراء بالصدقة ، وتتفتح مصاريعه الضاحكة لتهنئات الصحاب ودعوات الأحبة ، ويخرج المرموق المشوق صاحب العيد فى زينته وبهجته كالسوسنة النضة ، يقابل مهنئيه ويتقبل هداياه ، ويستعرض لعبه ، ويشع على الحفل البهيج من روحه الجذاب وحسنه الفاتن وذكائه الباكر ، إشعاعاً من وراء المعلوم لا يدركه إلا الأب الحنون وإلا الأعزب الشاعر . .

حنانيك يارباه ! أكل أولئك أصبح اليوم ذكرى ؟ أغاية السعادة فى الأرض أن تنقلب وحشة فى النفس وظلمة فى العين وحسرة فى الفؤاد ؟ لا يزال صوته الصافى الجميل يرن فى شعورى كله : فأنا أسمعه يقول ويده الصغيرة تجذب يدى « يالله نشترى خروف عيدى يا بابا عاوز أتمبيل أحمر زى أتومبيل الملك يا بابا » ، فأخرج معه كما يخرج الصديقان

الأليفان لأمر مشترك ، فينتقي ثيابه بذوقه ، ويختار لعبه بنفسه ، ويقترح عليّ أن نذهب إلى (حديقة الأندلس) ، فيمشي بين أفواف الزهر أو عَلَى زخرف الممشى ، فلا أدرى أجمال الروض زها فيه حتى فتن ، أم جماله هو فاض على الروض فزها حتى بهر ! ثم يتفرق بصره المبهور بين التماثيل والتصاوير والورد ، فيذهل عن طريقه فيخوض في الماء فجأة ، فيخلع حذاءه وينزع جوربه ثم يدعهما للشمس ويقعد هو تحت المظلة أو فوق العشب يرسل على أبيه السعيد سيلا من الأسئلة لا ينقطع ، وفيضاً من المسرة لا ينضب ثم يعود إلى بيته المزدان المرح ، فيستقبل في المساء أعمامه : أحمد أمين وزكى وخلاف والعبادى وعوض وزناتى ويونس وسائر محبيه ومحبى أبيه ، فينقلهم بإشراق نفسه وانطلاق طبعه من عالم النـــاس إلى عالم الملائكة !

* * *

ثم دار الفلك وتجرّم العام ، وعاد اليوم الرابع عشر من شهر يناير ! ولكنه واحسرتاه يعود هذه المرة على بيت غير البيت ، ودنيا غير الدنيا ! فلا العش مرحٌ بفرخه ، ولا الروض شادٍ ببلبله ، ولا (الأتمبيل) حال براكبه !

يعود على ثياب مطوية ، ولُعَب مخفية ، وصور مستورة ، وعيون مقروحة ، وقلوب محطمة ، وآمال مهيضة ! فلا بساط الأنس ممدود يارفاق ، ولا حفلة العيد ساهرة يا أحبة !

* * *

أجل يعود اليوم الرابع عشر من شهر يناير ! ولكنه والهفتاه يعود على قبر

جنى الأزاهير بين حقول القرية البعيدة ؛ تسهر عليه الشجرة الصغيرة وترعاه من قرب عيون الأهل !

فيامن دعوت نفسك الرءوف الرحيم ؟ أين أجد رأفتك فيخف أساى ، وأصيب رحمتك فيندمل جرحى ؟ !

ويا شاعر العروبة وحكيم الدهر وطريد الغير ، متى أجد مصداق بيتك المعزّى الخالد :

متأنف فقدان الذى قد فقدته كإلفك وجدان الذى أنت واجد !

الدفاع المقدس

(١٨ يناير سنة ١٩٣٧)

قانون الحياة مادتان : هجوم على القوت ، ودفاع عن الذات وما كلمات النباهة والمجد والخلود إلا طعوم مغريات فى يد الطبيعة ، تتذرع بها إلى ضمان الحياة بالوفرة ، كما تتذرع بالجمال والشهوة واللذة إلى بقاء النوع بالولادة . فالحى الخليق بالبقاء تتوفر فيه ولا ريب قوة السعى لنفسه ، وقوة الوقوف لغيره ، فإذا فقد هاتين القوتين أو إحداهما كان طفيلياً على مائدة الحياة ، وفضولياً فى ملكوت الطبيعة . وليست العزة التى تملك القاصر حين يرشد أو التابع حين يستقل ، إلا يقظة الأنانية فى طبعه ، وثورة الحيوية فى دمه وهذا الذى نشهده اليوم فى مصر المستقلة من التسابق إلى إعداد القوة ، والتنافس فى إنشاء الدفاع ، إنما هو استكمال لإحدى وسيلتى العيش ، واستشعار لأرق طبيعتى الوجود . فقد كانت مصر قبل عهدها الجديد تجرى على قدر مجهول فى الغيب . وتعيش على خطر معلوم من العدو ؛ ثم لا تجد فى واديها ولا فى أيديها ما يدفع الغارة ويمنع الحوزة . فهى كالمرأة حمايتها على الزوج ، وكالقاصر تبعته على الوصى لذلك خشعت نفوسها أمام القوى الساطية خشوع الوحش المروض إذا حطم نابه وقلم ظفره ، فلا تدخل فى شر ، ولا تشارك فى مراء ، ولا تملك من دون وليها المحتل نفعاً ولا ضراً كان ذلك وأكثر الدول السيدة الأيدة كالبلجيك واليونان والترك لا يطولها أصلا ، ولا يكثرها نفراً ، ولا يفوقها ثروة وكان ذلك والقوة هى الدستور النافذ فى الأرض ؛ فالتسليح خطة السياسة ، والحرب عماد السلام ، والمنفعة حجة القانون ، وعصبة الأمم والمعاهدات

تدريم [1] لمخلب الأسد ولكن الاحتلال الذى غل اليد وشل الإرادة قد سلبنا فيما سلب الثقة بالمقدرة ، والاعتماد عَلَى النفس ، فكنا فقراء مع الغنى ، أذلاء عَلَى الكثرة ، لا ندرى على اليقين قيمة ما نملك ولا مدى ما نطيق .

أما اليوم وقد تحطمت حلقات القيود على ضغط الجهاد المُلح والقيادة المخلصة ، فهاهى ذى مصر طليقة على سجيتها ، سافرة عن طويتها ، وقد عصفت فى رأسها النخوة ، وتمرد فى نفسها التاريخ ، فهى تتأهب لإعلان قوتها وإعزاز كلمتها وتحصين عزتها فى ميادين الحرب الثلاثة ! وهاهم أولاء أبناؤها الميامين البررة يتدفقون فى التبرع السخى لمشروع الدفاع الوطنى تدفق الدماء الحية فى قلوبهم الحرة ! وسيدهش العالم لهبتهم العاصفة كما دهش من قبل لغفوتهم الثقيلة ، فإن مصر فى كل شىء فريدة عجيبة !

لقد هبوا أول الجهاد فسخوا لها بالأنفس . وهم يهبون اليوم أول النصر ليسخوا لها بالأموال . وعلى قدر الإخلاص والتضحية فى الهبة الأولى ، سيكون البذل والإيثار ولا ريب فى الهبة الثانية

صحيح أن تلك النهضة بدأت من الشعب وانتهت إلى الحكومة ، وأن هذه النهضة ابتدأت من الحكومة وستنتهى إلى الشعب ، ولكن ذلك لا يقدح فى حقيقتها ، ولا يشكك فى نتيجتها ، فإن حكومة اليوم هى شعب الأمس ، والذين أبوا الأنفس على ذل الاحتلال ، هم أنفسهم الذين يحسون الأشدة لعز الاستقلال .

* * *

(١) التدريم تجميل الأظفار بالقص والصقل والصبغ (Manicure) .

افتتح التبرعَ للدفاع المقدس الوزراء فتبعهم الموظفون ، فهل يفتتحه من الجانب الآخر الأمراء و الأغنياء ليتبعهم الأهلون ؟

يريد الوطن الضعيف الأعزل من أولئك الذين ربّبهم على دلال السرَف ، وقلبهم فى أعطاف النعيم ، فحشا جلودهم بخيره ، وأفعم خزائنهم بذهبه ، وبسط ملكهم على أكثر أرضه ، ومد نفوذهم على معظم بنيه ، أن يعززوه ليُفيء عليهم ، ويسلحوه ليدافع عنهم ، ويبروه ليدوم لهم بره وظله .

ما الذى يحبس هذا الأمير المترف أن ينفق على سلاح وطنه مثل ما ينفق على سلاح صيده ، ويبذل فى سبيل أمته بعض ما يبذل فى سبيل شهوته ؟

وما لهذا الباشا البطين صاحب الهيْل و الهيلمان[1] ، ومالك الثيران والأطيان ، ورب النفوذ والسلطان ، يصمّ أذنيه عن نداء وطنه ، وإنما عظمته من فضله ، وعزته من أهله ، وثروته من ثراه ! أيتلكأ الباشا ويتبطأ الأمير حتى تنشأ عُدة الدفاع مما يرضخ[2] به الفقير والأجير والعامل ؟ وهل ترك هذا أو ذاك لأحد من هؤلاء شيئا يعطيه ؟ وهل من المروءة أن يدعا الفقير أو الأجير يتبرع من قوته وهو لا يكفيه ؟

* * *

سادتى أصحاب السمو وأرباب السعادة ! إن الفقير يغذيكم طيلة العمر بعرقه ، وسيدافع عنكم يوم الفزع بدمه . ولن يكلفكم هذا الصابر المسكين إلا أن تشتروا له الفأس وتقدموا إليه السلاح ، فهل هذا كثير .

---

(١) المال الكثير

(٢) رضخ له بالمال : أعطاه قليلا منه

لو كنا نقرأ

(٨ فبراير سنة ١٩٣٧)

فى مصر تسعمائة وتسعون فى كل ألف لا يقرأون ، وتسعة من هذه العشرة الباقية يلتقفون الأخبار من الصحف اليومية ، ويقطفون النكت من المجلات الخفيفة ؛ وواحد فى الألف هو الذى يقرأ الكتاب المثقف ويطالع المجلة المهذبة . وهذا الواحد الأحد يدركه فى أكثر العام فتور الطبع أو عدوى البيئة أو فوضى النظام ، فيعاف الكتاب ، ويجتوى الصحيفة ، ثم يقعد فى مشارب القهوة يتقمع [1] ، أو يسير فى مجالى الطبيعة يتأمل ، أو يضطجع فى مراقد السكينة يستجم . ذلك تقدير مقارب نهجم به على (مصلحة الإحصاء) وفى أيدينا استقرار متتبع لا يتهيأ لغير من قضى أكثر العمر فى التعليم والتأليف والصحافة . وتقدير المؤلفين والكتاب فى هذا الباب هو الكاشف الحق عن مكان الأمة من التربية القويمة والثقافة الأصيلة والرقى الصحيح . أما قياس درجة الرقى على نسبة القارئين بالقوة لا بالفعل ، فذلك عمل كل ما يدل عليه أنه خانة فى سجل التعداد . ماذا يعود على العقلية المصرية إذا بلغ (فكاكو الخط) فينا مائة فى المائة ، مادام فك الخط لا يطلق عقلا أسيراً ولا يجلو بصراً حسيراً ولا يذكى قريحة كابية ؟ أوافق مصلحة الإحصاء على أن فى الخمسة عشر مليون نفس أكثر من مليونى قارىء ، وأن فى هذين المليونين ألوفا من ذوى الشهادات المدرسية والدرجات الجامعية يستطيعون أن يكشفوا للعقل آفاق المعرفة ، وينهجوا

---

(١) يتقمع أى يطرد الذباب من فراغه ، من قولهم : تقمع الحمار إذا حرك رأسه ليطرد القمع بالتحريك وهو ذباب أزرق يدخل فى أنفه .

للنفس طرائق الكمال ، ولكنك إذا وازنت بين عدد المتعلمين وعدد ما يطبع من الكتاب وما يوزع من الصحيفة خامرك الشك فى إحصاء المصلحة ، أو فى تعليم المدرسة ، أو فى عقلك أنت ! ينشر فى العام كله بضعة من الكتب يتراوح ما يطبع من كل واحد منها بين الألف والثلاثة الآلاف ، ثم تساق إلى قراءته بالطبل والزمر مصر جمعاء وفى معونتها العالم العربى أجمع . ومع ذلك لا تنفد طبعته المباركة بعد الإغراء والإهداء قبل خمس سنين !

أليس معنى ذلك أن هذا الشعب أمى وإن عرف حروف الهجاء ، وعامى وإن تلقب بألقاب العلماء ؟ تتبع الطالب من يوم دخوله روضة الأطفال إلى يوم خروجه من الجامعة ، فهل تراه يقرأ — إن قرأ — إلا كتب المدرسة أو ملخصات العلم أو فكاهات الصحف ؟ إنك تراه ساعة الدرس وأذنه إلى فم الأستاذ ، ويده على القلم ، وعينه فى الكراسة ، يختصر ما اختصر ، ويقتصر على ما اقتصر . ثم تراه ساعة الفراغ يحاول أن ينقشه بالتكرار على صفحة ذهنه ، فيصدع رأسه بترديد ما لا يفهمه ، ويغثى نفسه بإساغة ما لا يهضمه . حتى إذا خرج من المدرسة خرج مكروبا لا يتقارُّ من الكلال والسأم ، فينفس عن نفسه بالفكاهة الرخيصة أو القراءة السهلة ! فاذا نال الشهادة بالحفظ تبعه هذا النفور إلى ديوانه إذا كان عبد الوظيفة ، أو إلى مكتبه إن كان حر العمل ، فيكره الأدب لأنه يتذكرَ دروس (المحفوظات) ، ويعاف القراءة لأنه لم ينس درس (المطالعة) . وعمله وأمله لا يقتضيانه التعمق ولا المزيد ، فيعود كما بدأه الله أميا يعمل بالإرشاد ، وفطريا يهتدى بالغريزة . والمعلم الذى يخرِّج التلميذ اليوم كان هذا التلميذ نفسه بالأمس أرسل إلىّ مدرس الجغرافيا فى كلية الآداب كتابا يسألنى فيه أن أقطع عنه (الرسالة) لأنه لا يجد وقتا لقراءتها ، وهو لا يلقاك إلا حدثك بما قالته المجلة الفلانية عن الفتاة ، فلانة وما تهزأت به المجلة الأخرى من

الأستاذ فلان . ثم سأله أحد طلابه يوما عن مدينة (واسط) فقال له : أحسبها مكاناً فى طريق (القصير) ! قرأت هذا الكتاب فمذرت وكيل المعرض الزارعى الصناعى وقد دخل عليه مندوب « الرسالة » يطلب منه « تصريحاً صحفياً » بدخول المعرض ، فقال له وأمارات التعجب الساخر تتخايل على جبينه العريض ؛ ولكننى لم أر هذه (الرسالة) قط ! فلم يجبه مندوبنا وإنما أجابه حاجبه هو بقوله : لأ ، يابك ! هذه مجلة صفتها كيت وكيت ؛ وأنا وابنتى نقرأها كل أسبوع ، ونجلدها كل سنة ! سمعت هذا الخبر فعذرت ذلك الباشا القاورنى الذى أهديت إليه « الرسالة » لصلة بين أسرتى وبينه ، فردها على وقد كتب على غلافها الأبيض بالقلم الغليظ (مرفود) ! فوقع فى نفسى أن الباشا يتشبه بالملوك والخلفاء ، فى رفد المعوزين من الأدباء والشعراء ؛ فهممت أن أكتب إليه أشكره وأستعفيه لولا أن نبهنى صديق ممن أوتى منطق الناس أن (مرفود) معناها (مرفوض) ولا أريد الترسل فى هذا الحديث ، ففى ذاكرة كل صحافى من بابه طرائف وأعاجيب !

الحق أننا أمة أمية تنظر إلى الكتاب نظر المتعظم الخائف ، أو المتقنع العازف وما دمنا لا نرى الكتاب ضرورة الروح ، كما نرى الرغيف ضرورة البدن ، فنحن مع الخليقة الدنيا على هامش العيش أو على سطح الوجود .

تتطور المذاهب والآراء ، كما تتطور الحلى والأزياء . فإذا لم تتقصَّ بالقراءة المتجددة أخبار هذا التطور من أطراف الأرض عشت فى عصرك غريب العقل أجنبى الشعور وحشى الثقافة ، كالذى يلبس فى الناس زياً مضى بدل زى حضر

إن من وظائف المدرسة أن تعودك القـراءة وتعلمك كيف تقرأ . وإن من وظائفك أن تقرأ وأن تعرف ماذا تقرأ . فإذا لم تفعل هي فقد قصرت عن رسالة ، وإن لم تفعل أنت فقد فرطت في واجب .

ليت الذين يطلبون من الأدباء أن ينتجوا ويجيدوا الإنتـاج ، يطلبون من القراء أن يقرأوا ويحسنوا القراءة فلو كنا نقرأ لخلقنا الـكاتب والـكتاب . ولو كنا نقرأ لأخصبنا حقول المعرفة فازدهرت في كل مكان وأثمرت في كل نفس . ولو كنا نقرأ لما كان بيننا هذا التفاوت الغريب الذى تتذبذب فيه الأفـكار بين عقلية بدائية وعقلية نهائية . ولو كان العالم العربى يقرأ لنشر من الـكتاب زهاء مائة الألف ، ووزع من الصحيفة قرابة المليون . وإذن تستطيع أنت أن تتصور كيف تزدهر الثقافة وتنتشر الصحافة ويتنوع الأدب ويرقى الأديب !

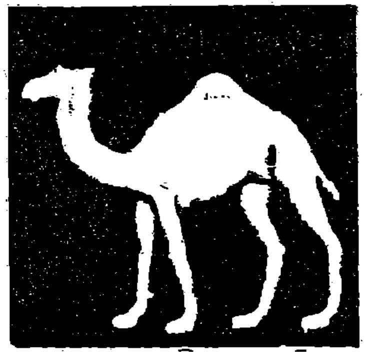

جميل صدقي الزهاوي

(٢٧ مارس سنة ١٩٣٢)

(١)

من حق الزهاوى على (الرسالة) وهى ديوان العرب وسجل الأدب أن تقف على ذكراه العظيمة الأليمة وقفة الذاكر للجميل ، تُحَيي بنثير الورد خلود مجده ، وتحيي بنثير الدمع مصاب فقده . فلقد ساعد على إنهاض العرب بوثوب فكره ، وعلى إحياء الأدب بوميض روحه ، وعلى إنعاش (الرسالة) بعيون شعره ومن حق الزهاوى على صاحب الرسالة أن يقوم فى هذه المناسبة فيفرغ فى سمع الزمان الواعى هذا الحديث الذى يتسم على ما أظن بخبرة الصديق وثقة المطلع ونزاهة المؤرخ فإنى ماذكرت العراق إلا ذكرت فى أول أشيائه فندق (كارلتون) ، وفى أول أشخاصه شخص الزهاوى ذلك أن أول مكان لقيت فيه العراق هو هذا الفندق ، وأول إنسان سمعت منه العراق هو هذا الرجل !

* * *

كنت جالساً فى بهو هذا الفندق صباح اليوم الثانى لقدومى بغداد ، أروض قلبي على روعة الفراق ، وأذنى على لهجة العراق ، وعينى على غرابة الصور ، وإذا بأحد النُّدُل يلقى إلىّ بطاقة كتب عليها (جميل صدقى الزهاوى) . ولم تكد تلوح فى مخيلتى صورة الشاعر التى صورها السماع والقراءة حتى رأيت على باب البهو شيخاً فى حدود الثمانين قد انخرع متنه وثقلت رجله ورعشت يده فلا يحمل بعضه بعضاً إلا بجهد .

أقبلَ عليٌّ يتخلع على ذراع غلامه وقد انبسطت أسارير جبينه العريض ، وانفرجت شفتاه الذابلتان عن ابتسامة نضرة عذبة ، ثم سلم عليَّ تسليم البشاشة بيد مرتجفة ، ورحب بي ترحيب الكرم بصوت متهدج ، ثم انطلق يشكو جحود الأمة ، وإغفال الدولة ، وكيد الخصوم ، وإلحاح المرض . وتطرق إلى خصومته عامئذ مع الأستاذ العقاد فذكر — والأسف المريكسبه لهجة المظلوم وهيئة الشهيد — كيف استغلها في العراق من سدد هو خطاه في الشعر ، وأرجف بها من تولاه هو بالرعاية ، وحمد الله على أنني جئت بغداد بدل العقاد فقد كان وجوده — كما كان يظن — ألبياً متصلا على فضله ، وإزعاجاً مستمراً لسكينته .

لم يدع لي الزائر الكريم فرجة بين كلامه الدافق أدخل عليه منها بالتخفيف والتسرية ؛ فإن الزهاوي — كما علمت بعد — ديدنه أن يتكلم ، كالبلبل خاصته أن يغرد ، وكالزهر طبيعته أن يفوح . فهو في مجلس الصداقة شاك أو شاكر ، وفي مجلس الأدب محاضر أو شاعر ، وفي مجلس الأنس مفاكه أو محدث .

كان الشيخ يتكلم أو ينشد ونبراته المؤثرة ، وقسماته المعبرة ، ولحيته الخفيفة المرسلة ، ووجهه المسنون الأعجف ، وشاربه النائم على فمه الأهرت (١) ، وعينه البراقة ترأرىء (٢) من خلف المنظار ، وشعره الأشمط يتهدل على نتوء الصدغ ، كل أولئك كان يخيل إلى أن طيفاً من أطياف الجدود ، أو نبياً من أنبياء اليهود ، قد انشق عنه حجاب الزمن فجأة في هذا المكان الصامت والنور القاتم والجو الغريب . ولكن الحيوية التي تفيض في

---

(١) الوسع .

(٢) رأرأ : حرك كلتا عينيه وأدارهما .

كلماته ، والعزيمة التى تضطرم فى نظراته ، كانت تطرد هذا الخيال وتجعلنى وجهاً لوجه أمام (كتلة) من الأعصاب القوية المشدودة ، تتكلم وتتألم ، وتثور وتهدأ ، وتسخط وترضى ، وموضوع مقالها وانفعالها لايخرج أبداً عن (الأنا) إذا صح هذا التعبير .

* * *

دأبت عربانة[1] الشيخ بعد ذلك على أن تقف أمام منزلى صباح يوم الجمعة من كل أسبوع ؛ فكنت أستقبله استقبال العابد للتحدث الكاهن الملهم ؛ ثم نقضى ضحوة النهار معاً يحدثنى فأعجب ، أو ينشدنى فأطرب . وقد تكون أذنى إلى فمه وليس معنا ثالث ولكنه يجهر بالإلقاء ، ويصور المعنى بالصوت والإيماء ، حتى يدهش المنزل وينصت الشارع وهو بين الفترة والفترة يعود إلى شكاته وشكواه ، وأظل أنا أمام هذا الجيشان الروحى ساهماً حالماً أفكر فى الذهن الذى لايكل ، واللسان الذى لايفتر ، والزهو الذى لايتطامن ، والطموح الذى لايتقاصر ، والقلق الذى لايسكن ، والتمرد الذى لايهن ، والشباب الذى يلبس رداء الشيخوخة ، والحياة التى تتخذ هيئة الموت !

كنت ألقاه فى خلال الأسبوع مع الناس فى منتداه بشارع الرشيد أو على ضفة دجلة جالساً على الدكة الخشبية ينشد الأبيات الرائعة ، أو يرسل النكتة البارعة ، أو يروى الخبر الطريف فى بشاشة جذابة وقهقهة ساذجة ، ويده المرتعشة لاتنفك تعبث بسبحته الصغيرة ، أو تصعد وتهبط بسيكارته العراقية ،

---

(١) العربانة : العربة بلغة بغداد

أو تمد « بالآنة »[1] إلى غلام القهوة كما طلب الشاى إلى صديق .

وكنت أزوره « بالصابونجية » فأراه فى مباذله قاعداً يشكو الوصب لأنه قضى الليل ساهداً يقرأ ، أو ذاهلا ينظم ؛ فالقصص والمجلات منثورة على سريره وعلى مقعده ؛ والمسودات مدسوسة تحت مخدته أوفى ثيابه ، فلا يتمالك حين يرانى أن يصيح : أنظر كيف أذيب عمرى فى شعرى والأمة تقذفنى بالبهتان ، والحكومة تخرجنى من مجلس الأعيان ، والملك يستكثر علىّ أن أكون شاعر البلاط ! « إنى سأذهب وستبقى أشعارى معبرة عن شعورى وناطقة بآلامى . فهى دموع ذرفتها على الطرس ، وهى خليقة أن تبعث من عيون قارئها دمعة هى كل جزائى عن نظمها »

(٢)

ولد الزهاوى[2] فى يوم الأربعاء من شهر يونيو سنة ١٨٦٣ ببغداد لأبوين كرديين كريمين تميزت أسرتهما بالدين والفقه والأدب . فقد كان أبوه محمد فيضى الزهاوى مفتياً لدار السلام وأخوه فقيهاً من فقهائها ، فنشأ جميل بين أبيه وأخيه يرتاض عقله ليتثقف ، ويرتاش خياله ليطير ، ولكن أخاه كما حدثنى الزهاوى ، كان حَتِر اللسان[3] لايتذوق الأدب فكان يذوده عن رواية الشعر ، ويصده عن دراسة اللغة ، ويأبى عناده هو وتسامح أبيه إلا أن يديم النظر فى الأدب ، ويروض القريحة على القريض . كان هم أخيه وأمل أبيه أن يستقيم على عمود

---

(١) الآنة : عملة هنديه تساوى $\frac{1}{16}$ من الروبية .

(٢) الزهاوى نسبة إلى زهاو وهى بلدة من أعمال كرمان شاه الفارسية كانت موطن جدته لأبيه .

(٣) لسان حتر . لايجد طعم الطعام .

أسرته فيكون صاحب قضاء وفقه ، ولكنه استقام على محتوم طريقته فكان صاحب دعوة وفلسفة . والاستعداد الموهوب فى الطبع هو مشيئة الخالق فى الخلق . جعل من الزهاوى أبا العلاء وقد كان أهله يريدونه أبا حنيفة ، وجعل من الرصافى أبا نواس وقد كان الألوسى رحمه الله يريد أن يبعث فى معروف الرصافة معروف الكرخ !

كان العراق أيام نشأ الزهاوى تركى السلطان سُنى الحكومة فالتعليم المدنى فيه كان تابعاً فى لغته وطريقته وغايته لسياسة الأجنبى وهواه ، فلم يخرج إلا رجال جيش يخضعون للنظام ، أو رجال إدارة يذعنون للحكم . أما التعليم الدينى فقد ظل فى صحون الجوامع على ماعهده الناس ، يربى اللسان حر النزعة طليق الفكرة مستقل الغاية ، وطبيعة هذا النوع من التعليم الجدلى المطلق أن يخلق الجاهل الشعور البليد فيضل ، ويكشف الآفاق للفكر النافذ فيبلغ ، ويساعد الجبلة فى الإنسان على حسب الاستعداد فتعلو أو تهبط . فهو يساعد الهمة القاعدة على السقوط ، والنفس القانعة على القنوط ، والذهن المبطىء على التخلف ، كما يساعد العقل الحائر على التزندق ، والطبع القلق على التمرد ، والإرادة المستقلة على التزعم . ورجال الثورة والإصلاح فى تاريخنا الحديث كانوا جميعاً من أهل هذه الثقافة ، كالأفغانى ، وعرابى ، ونديم ، ومحمد عبده ، وسعد زغلول ، والكواكبى ، والزهراوى ، والزهاوى ، ومن إليهم و النابهون من أهل هذه الثقافة لاينفكون دائبين على القراءة والتتبع والمشاركة ليدفعوا عن أنفسهم معرة القدم . وهم عصبيون إذا جددوا أن يسرفوا فى التجديد كذى العاهة يدفعه النفور من ذلة الضعف إلى الإفراط فى العسف والتجبر .

— فالزهاوى الجرىء بطبعه ، الطموح باستعداده ، تثقف بهذه الثقافة ، ثم تنفست على أعصابه الشاعرة أمواج العروبة ترسلها على بغداد الصحارى الملهمة . ثم نزعه عرق الم والخال من الكردية لجاهد وجالد وغامر ، والكرد كالعرب إن لم يكونوا من العرب. ثم ابتلى وهو فى الخامسة والعشرين من عمره بداء فى النخاع الشوكى لازمه بقية حياته . ورمى بعد ذلك بالشلل فى رجله فبرم واكتأب وتشاءم . ثم منى من أهل عصره بفساد السلطان واستطالة الجهل وانحلال الخلق ، فدفعته هذه العوامل كلها إلى موقف المصلحين القائم على الانذار والنصيحة .

رأى وهو فى الأستانة عبد الحميد يلقى الأحرار مغلولين فى غيابة السجن أو فى قاع البحر ، فأرسل إليه مع رسبوتينه أبى الهدى قصيدة منها :

أيأمر ظل الله فى أرضه بما ... نهى الله عنه والرسول المبجل
فيفقر ذا مال وينفى مبرأ ... ويسجن مظلوماً ويسبى ويقتل
تمهل قليلا لاتغظ أمة إذا ... تحرك فيها الغيظ لاتتمهل
وأيديك إن طالت فلا تغترربها ... فإن يد الأيام منهن أطول

فسجنه حيناً ثم نفاه

وسمع وهو عضو فى مجلس (المبعوثان) عن بغداد مقرر الميزانية يذكر فى وزارة الحربية مبلغاً ضخما من المال جعلوه لقراءة البخارى فى الأسطول للتبرك فقال : أنا أفهم أن يكون هذا المبلغ فى ميزانية الأوقاف ، أما أن يكون فى ميزانية الحربية فلا أفهمه ، لأن الأسطول يمشى بالبخار لا بالبخارى . فثار عليه المجلس وشغب عليه العامة

ورأى ماتعانيه المرأة من عنت الاستعباد والاستبداد والجهل ، فهب

لإيقاظها ونصرتها ، حتى كتب فى جريدة (المؤيد) مقاله المشهور : « المرأة والدفاع عنها » فزلزل الناس فى بغداد وفى غير بغداد، فسعوا به إلى ولاة الأمر ليعزلوه ، وحرشوا عليه دهماء الشعب ليقتلوه ، فاضطر إلى لزوم داره :

ونظم فى أعقاب عمره (ثورة فى الجحيم) ففزع المتزمتون من شرها إلى الملك فيصل الأول . فلما كلمه فى ذلك قال : ماذا أصنع يامولاى ؟ عجزت عن إضرام الثورة فى الأرض فأضرمتها فى السماء !

لم يخلد الزهاوى إلى التبطل ، ولم يعش على مروءات الناس كما كثر أهل الشعر ، وإنما غامر فى خطير الأمور ، وطمح إلى بعيد المدارك ، فملأ حياته بالأمـــل الدافع والعمل المثمر : عين فى بغداد عضواً فى مجلس المعارف ، ثم مديراً لمطبعة الحكومة ، ثم محرراً للجريدة الرسمية ، ثم انتخب عضواً فى محكمة الاستئناف . ودعاه الخليفة حين نبه ذكره إلى الأستانة فحرك فيها لسان النقد وأقض بها مضاجع الجاسوسية ، فانتقض أمره وساء مقامه ولما أعلن الدستور عين أستاذاً للفلسفة الإسلامية فى « المكتب الملكى » ثم مدرساً للآداب العربية فى « دار الفنون » . ثم عاد إلى بغداد فعين أستاذاً للشريعة فى مدرسة الحقوق ، ثم انتخب نائباً عن العراق فى مجلس المبعوثان . وهو فى خلال ذلك كله حركة ذهنية دائرة ، وجملة عصبية ثائرة ، لا يفتر ليله عن الشعر أو القراءة ، ولا يكل نهاره عن الحديث أو الكتابة ، حتى غُلب الترك وأديل منهم فى بغداد للعرب فكان الشأن لأصحاب الجيش وأقطاب السياسة . أما الزهاوى وأمثاله من رجال الفكر والشعر فاتخذوا طريقهم على الهامش . وكان الشاعر قد ألقى للمجد معاذيره من انسراق القوى واستحكام العلل فبات يرسل الأقباس والأضواء من جسمه المتهدم وقلبه المتضرم حتى خمد .

(٣)

كأنما تفتح عقل الزهاوى قبل أن يتيقظ هواه ، وحلق فكره قبل أن ينهض خياله ، وأدرك علمه قبل أن يولد شعره ؟ فلقد كان يهدف الثلاثين من عمره وليس له من (أولمب) الشعر وحى ، ولا فى (برناس) الشعراء محل ، إنما كان فى صدر شبابه ينظر فى العلوم الفلسفية والطبيعية وسبيله إلى ذلك ماترجم من المقالات فى الكتب والمجلات ، لأنه لم يعرف من اللغات غير العربية والفارسية والتركية والكردية ، وكلها لاتصل فكر الإنسان بالتطور ، ولا تنقع غلة الظمآن إلى المعرفة ومع ذلك استبطن الزهاوى دخائل هذه العلوم بعقله النافذ حتى ألف كتاب (الكائنات) فى الفلسفة ، وكتاب (الجاذبية وتعليلها) فى الفيزياء ، ذهب فيهما مذهباً خاصاً خالف به أقطاب العلم وجهابذة النظر كقوله : إن علة الجاذبية ليست جذب المادة للمادة ، وإنما هى دفعها لها بسبب ما تشعه من الألكترونات وسواء أنهض دليله أم دحض فإنه يدل على النظر الثاقب والفكر المستقل . ورجاحة عقله هى التى حملته وهو فى ربيع العمر على أن يشرف على ظواهر الكون وحقائق الوجود من سماء فكره لا من سماء خياله والمعهود فى عامة الشعراء أن يكونوا على النقيض من ذلك فلما هيأته الأقدار الجليلة لرسالة الشعر كان فكره أقوى من خياله وأسمى من عاطفته والفكر والخيال والعاطفة هن ملكات النفس الأدبية الثلاث ، يصدر عنهن فيض القريحة ، ويرد إليهن إلهام العبقرية ، ولكن الشعر لا يهيمن عليه إلا الخيال والعاطفة ، أما حاجته إلى الفكر فمحدودة بمقدار ما يضىء الطريق للخيال والعاطفة حتى يأمنا الضلالة . فالفكر للعبقرية بمثابة العين ، والخيال والعاطفة لها بمثابة الجناحين ، فإذا تغلبا عليه كان الشرود والزيغ ، وإن تغلب عليهما كان

الجفاف والعقم . ومن هنا جردوا أكثر ما قال أبو العلاء وأقل ما نظم أبو الطيب من الشاعرية . والزهاوى شاعر من شعراء الفكرة ، له البصيرة الناقدة والفطنة النافذة ، وليس له الأذن التي « تموسق[1] » ولا القريحة التي تصنع فاللفظ قد لايختار ، والوزن قد لايتسق ، والأسلوب قد لاينسجم ، ولكن الفكرة الحية الجريئة تعج بين الأبواب المتخاذلة عجيج الأمواج المزبدة بين الشواطىء المنهارة .

الزهاوى عقلية أفاقة وحيوية دفاقة وطبيعة ساخرة . وهذا التوثب الحماسى فيه هو الذى جعله يؤثر النظم فى تقييد خواطره . وهذه الحماسة قد تنفك أحياناً عن الفكرة لكلالها أو ابتذالها فيذهب الشاعر ولا يبقى الفيلسوف . ويكون الزهاوى معك كالآلة تدور مليئة متزنة ما دامت على شىء ، فإذا نفدت مادتها فجأة انطلقت تدور على الفارغ سريعة مضطربة وذلك لأن الفكرة الفلسفية هى المادة الأصيلة فى شعر الزهاوى . وليس الشعر كله فكرة وإنما هو فضلا عنها صورة يرسمها الخيال وشعور تبعثه العاطفة . على أن فكرة الفيلسوف واضحة وجمالها فى هذا الوضوح ، وفكرة الشاعر خفية وسحرها فى هذا الخفاء . إما أن تدرس الطبيعة لتعرفها وتشرحها فتكون صاحب فلسفة ، و إما أن تدرسها لتقلدها وتصورها فتكون صاحب شعر . أما الخلط بين الفلسفة والشعر لأن الشاعر يدرس ظواهر الكون ، فكالخلط بين التصوير والتشريح لأن المصور يدرس بواطن الجسم .

كان الزهاوى كشوقى حريصاً على متابعة العصر ومسايرة التطور . ومنشأ هذا الحرص فيهما طبع مرن يطلب التجدد ، وحس مرهف يأنف التخلف . ويزيد الزهاوى أن الفخر يزهاه ، وأن التيه يذهب به ، فيحب الثناء و يبغض النقد فهو لفرَقه من صفة القدم يسبق الشباب إلى التجديد ، ولنفوره من

(١) لامانع فيما أظن من أن أشتق هذا الفعل من الموسيقى .

معرّة الجمود يذهب بالرأى إلى التطرف ، ولطمعه فى نباهة الذكر بجارى ميول الخاصة ويعارض هوى العامة . ومن ثم كان أكثر شعره تشنيعاً على الاستبداد بمهاجمة أهل الحكم ، وزراية على الجمود بمحاربة أهل الدين ، وتحقيراً للتأخر بمصادمة مألوف الأمة .

والزهاوى بعد هذا وقبل هذا كان رسولا من رسل الفكرة الإنسانية ، وبطلا من أبطال النهضة العربية . كان يهزج بأغاريد الفجر على ضفاف دجلة فتتردد أصداؤها الموقظة على ربوات بردى وخمائل النيل وسواحل المغرب . وأدب الزهاوى وأمثاله هو الذى وصل القلوب العربية فى مجاهل القرون السود بخيوط إلهية غير منظورة ، حتى استطاعت اليوم أن تتعارف وتتآلف وتتحالف ، ثم تسعى لتعود أمة كما كانت ، وتقوى لتصبح دولة كما يجب أن تكون .

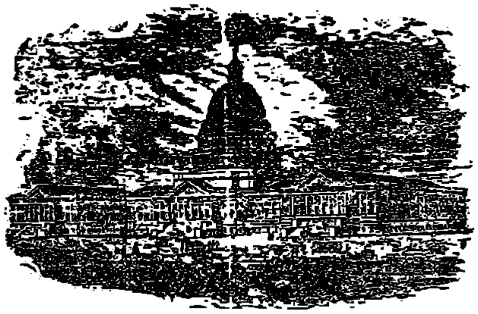

العام الهجري

(٥ أبريل سنة ١٩٣٢)

هكذا تتعاقب أمواج السنين على ساحل الحياة ، فتنفى الخبث وتطرح الغثاء وتركم الأحداث ، وتزيد فى سجل التاريخ صفحة بعد صفحة ؛ وابن آدم الفانى محمول على عواربها الرُّعْن ، تقذف بعضه مع الرمل والزبد ، وترجع بعضه إلى العباب واللج ! ومن يرجع فسوف يعود ، ومن يعدْ فسوف لايرجع !

هكذا يتحرك الفلك الدوار حركة الطاحون الثقيلة الساحقة فيلفظ القشر ويحفظ اللباب ، ويصفى أكدار الوجود بالعدم ، ويعفى حطام الصيف برياح الخريف ، ويجدد مارثّ من ديباجة العيش بأفواف الربيع ، وابن آدم فى يد القدر المصرّف محراث ومنجل ؛ بعضه يزرع الأمان والعمران والخير ، وبعضه يقطع السلام والوئام والحب ، وبين هاتين القوتين المتكافئتين يسير هذا الكوكب المظلم فلا يقف ، ويتدفق هذا الدهر الأتىّ فلا يركد ، ثم لاينسحق بينهما إلا هذا الغبى الذى سلط نفسه على نفسه .

* * *

لله الحمد ولنا المجد ! لم تكن أمتنا من شيعة الظلام ولا عصبة الخصام ولا فرقة الهدم . إنما كانت خير أمة أخرجت للناس ، أمرت بالمعروف ، ونهت عن المنكر ، وأعلنت كلمة الله ، وبلغت رسالة الحق ، وحملت

أمانة العلم هـذا تاريخنا تتألق أيامه الغر فى ظلام الماضى ، كما تتألق الكواكب الزهر فى حلك الليل . أرشدنا الضال فاهتدى ، وحمينا الذليل فاعتز ، وعلمنا الجاهل فتعلم ، ثم مكنا فى أرضنا الفسيحة ودنيانا العريضة لعناصر الجمال والخير فقويت فى كل نفس ، وازدهرت فى كل جنس ، وانبعثت فى كل دين ، وانتشرت فى كل أفق ، وحققنا لهذا الإنسان طريد العدوان وعبد الطغيان أحاديث أحلامه وهواجس أمانيه : من الأخوة التى يعم بها النعيم ، والمساواة التى يقوم عليها العدل ، والحرية التى تخصب فيها المدارك ؛ لأن رسالتنا لم يوحها الجوع ولا الطمع ، وإنما أوحاها الذى خلق الموت والحياة ، وجعل الظلام والنور ، وأوجد الفساد والصلاح ، ليدرأ قوة بقوة ، وينقذ إنساناً بإنسان .

فلما أدركنا ضعفُ المخلوق ونقص البشر ، فقدحتنا تكاليف الرسالة وأعباء المجد ، أغفينا حقبة لنسترفه ونستجم ثم صحونا اليوم نمسح الكرى عن الجفون ، وننفض الغبار عن الأوجه ، فاذا العالم يعصف به سعار من الجشع المسلح والطمع الباغى ، وإذا الدين الشرقى يقلبه المزاج الغربى إلى كَلَب وغلَب ؛ فعبقرية موسى ربا ودسيسة ، وروحية عيسى خصومة وحرب ؛ وإذا رجل[1] لم تنبته صحراء العروبة ولم تنفحه عطور الشرق يطغيه الحديد ويبطره العديد ، فيقول وهو يحطم الصليب فى الحبشة : أنا حامى الإسلام !

واذلّ الإسلام إذا لم يعزه أهله ! لا يا سيدى ! إن الإسلام قوته فيه ودفاعه منه ، ولا يزال كتابه فى أيدينا يعمر القلوب بالقوة ، ويغمر النفوس

---

(١) هو السنيور موسولينى زعيم الأمة الإيطالية الفاشية

بالحياة . والقوة قوة الإيمان ، والحياة حياة الروح . أما قوة الأساطيل على الماء وفى الهواء فعمرها يوم وليلة ، ثم لاتكون إلا دخاناً فى السماء ، وحطاما على الأرض !

* * *

لا يكون الغرب بغير الشرق إلا كما يكون الجسم بغير الروح . فلا بد من تآلف العقليتين وتحالف القوتين لإقرار النظام فى الدنيا والسلام فى العالم . والإسلام — دستور الديمقراطية الصحيحة والاشتراكية المنظمة والأخوة الشاملة — يبسط يده لكل يد تدفع الإنسانية إلى التقدم ، وترفع المدنية إلى السمو وهؤلاء المستعمرون الجياع الذين هالهم سره وراعهم معناه ، حاولوا أن يطفئوه فى مشرق نوره ، ويخنقوه فى مصدر صوته ، ليسرقوا الضمائر فى الظلام ، ويسلبوا الذخائر فى الغفلة ، قد أخطأوا فهمه وجهلوا قواه ؛ فإن نوره من الله ، وسيسطع ما سطعت الشمس وإن صوته من السماء ، وسيرتفع ما ارتفع الحق وإن سلطانه من العدل ، وسيبقى ما بقى الكون فإذا انشقت الأرض وانفطرت السماء وانكدرت الشمس عاد إلى مصدره الأزلى باهراً كما صدر عنه ، طاهراً كما انبثق منه ؟

لقد أصابوا أخيراً فخطبوا وده وطلبوا حلفه . ذلك عهد جديد بين الشرق والغرب ، أو بين السلم والحرب ، سيقف فيه الحق الصريح أمام الباطل الخداع وجهاً لوجه ، وسيعلم الإنجليز الذين حالفوا العراق ومصر ، والفرنسيون الذين عاهدوا سورية ولبنان ، أن الإسلام أصدق وعداً ، وأن العرب أوفى ذمة ولعل هذه التجربة القريبة تكشف حجب الظنون

عن القلوب والعيون فيعيش أولئك أصدقاء فى فلسطين ، ويعيش هؤلاء حلفاء فى المغرب .

إن الإسلام روح فهو حياة ، وعقيدة فهو قوة ، وشريعة فهو دستور ، ومحبة فهو سلم . فعاملوه على ذلك تكسبوا عطفه وتغنموا رفده ! أما الخداع والرياء ، أو الشدة والجفاء ، فتلك أسلحة مفلولة إن قطعت قبل الأمس فلن تقطع بعد اليوم .

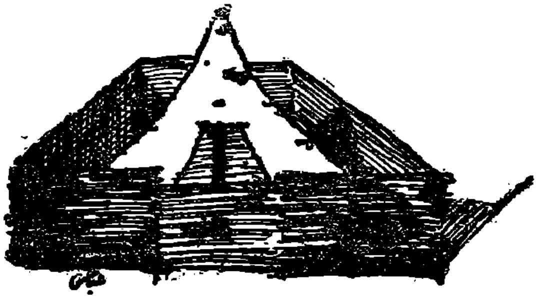

منطق الواقع

(أبريل سنة ١٩٣٧)

مصر الآن أمام اثنتى عشرة دولة فى (مونترو)[1] تزيف الادعاء بالقانون ، وتكفكف الغُلواء بالحزم ، وتكشف المغالطة بالحجة ، وتقول للذين ظلموها وظلموا العدل : هأنذى أمامكم وجهاً لوجه ، وعقلاً لعقل ، ولساناً للسان ؟ أخاطبكم بلغاتكم كأننى منكم ، وأجادلكم بعلومكم كأننى فيكم ! فهل تجدوننى أقل منكم فقهاً لفلسفة التشريع ، أو علماً بمدنية العدل ، أو فهماً لسياسة الحكم ؟ ها هم أولاء بعض أبنائى أوفدتهم إليكم يحملون كلمتى ويمثلون إرادتى . فهل رأيتم أروع خطاباً من مكرم ، أو أبرع برهاناً من بدوى ، أو أقطع بياناً من ماهر ؟ أليسوا هم حجتى العليا على أنكم تدافعون عن نظام لا يجد مساغاً من طبيعة الناس ، ولا مساكاً من منطق الأشياء ؟ .

لماذا تخشون أن يكون أمثال هؤلاء قضاة فى ديارهم بين مجرميكم ، وهم يجرون مع أخياركم فى عِنان ، ولا يتخلفون عن أقطابكم فى ميدان !

لماذا تأبون أن يتساوى الوطنى والأجنبى فى الحق والواجب ، وأنتم ترون هذا النهر المبارك يضفى عليكم النعمة ، ويميزكم على أبنائه فى القسمة !

* * *

ذلك ما تقوله مصر لخصومها (للمتازين) الذين احتشدوا فى مونترو يفاوضونها فى تنظيم العدوان ، ويعارضونها فى محو الإهانة . وهذا القول

(١) اجتمعت هذه الدول فى مونترو للبحث فى إلغاء الامتيازات الأجنبية فى مصر .

لا عيب فيه إلا اعتماده على الحق الذى زهق فى دول أوربا ، وإلا استناده إلى المنطق الذى اختنق فى كتب الفلاسفة . فلو أنه قيل على أسلوب الزمن الحاضر ، وجرى على منهاج المنطق الحديث ، لما قابله المكابرون إلا بالتصفيق . والمنطق الحديث منطق الفعل لا منطق القول . وإذا كان مدار المنطق الكلامى على القياس ، فإن مدار المنطق العملى على الواقع . والواقع فى قانون الطبيعة له سلطان الأمر الموجود وقوة الشىء المحكوم به . والمفاوضة فيه تختلف عن المفاوضة فى النية المكتوبة والفكرة المقترحة .

كان بيننا وبين جيراننا فى المزرعة حد جرى عليه الخلاف فلم يتم ، فاختلط الحق بالحق ، ودخل من ملكنا فى ملك الجار مقدار كبير . وفى الأسبوع الماضى مديت الحكومة مهندساً يبين الحق المشتبه ويعين الحد المجهول ، فمسح الأرض ورد المأخوذ ودق الحديدة وحرر المحضر ، ووقع عليه الجيران وفيهم العمدة . وكان الحد بين مزرعتين ، ولكن الخلاف كان بين قريتين . فاتفقنا نحن وهم على أن نقيم الحد فى اليوم التالى ونجعله مصفى ومروى بينهما طريق . ولكننا علمنا فى الليل أنهم طمعوا فيما تحت أيديهم ، فلا يودون أن يزلوا عنه . وتعليل هذا التحول يسير على من عرف غرائز الناس وخبر طبائع الريف . وفى الصباح الباكر كانت قريتنا فريقين . فريق الفأس والعمل وقد ذهب إلى المزرعة ، وفريق المنطق والكلام وقد ذهب إلى القرية العنيدة وانعقد مجلس الفريقين فى دار العمدة . ثم انطلقت الألسنة البليغة تتجاوب بالعواطف الشاعرة تجاوب البلابل فى أعشاش الربيع . وكانت قوافى الأغاريد ترن موسيقاها بألفاظ الصداقة والود والمصاهرة والمجاورة والقانون والحق ، فتطرب الآذان وتهتز القلوب وتشرق الأوجه !

فلما انتهينا إلى أن هناك حداً يجب أن يقام ، وحقاً يجب أن يُعطى ،

تتكشر الوجه الضاحك ، وتتنكر الصوت الرخيم ، وانتفخت لغاديد الشر ، فتهور بالكلام وتهدد بالمعارضة . وكان فيهم رجل رشيد ، فكان يملأ الدلو من حين إلى حين ويفرغه عَلَى القوم فتقر الفورة ويهدأ الحديث وفى فترة من تلك الفترات الساكنة ، اقترح أن نجعل لجيراننا الطامعين أجلا متى حل وجب عليهم أن يردوا الحق من غير اعتراض ولا مطل . وارتاح القوم لهذا الحل لأنه يترك لهم العين ويأخذ منهم الأثر ، ورضينا به نحن لأنه يحسم النزاع بين الفريقين ويذهب عن النفس المسالمة شعور الهزيمة .

وكان الخلاف أشد ما كان عَلَى مدة الأجل ، فبدأت بشهر وانتهت بخمسة : وكان الذين وضعوا أيديهم على الحق بالباطل أبسط لساناً فى الرفض ، وأصلب عوداً فى القبول ، أما نحن والقانون والحكومة فكان ارتكازنا على خلاء .

كتبنا الاتفاق وأمضوه بعد وقفات طويلة على كل نص من نصوصه ، ثم أخذنا نستعد لإنشاد نشيد الختام فى تمجيد الوئام والسلام لولا أن أقبل رسول من المزرعة يعلن أن رجال الفأس والكريك لم ينتظروا نتيجة المؤتمر فحفروا المصفى وشقوا المروى وأقاموا الطريق ، وحرثوا الأرض وأنجزوا فى ساعتين مالا يُنجز فى يومين !

كان هذا الخبر أضخم الدلاء التى صُبت على المؤتمر ، فدهشنا نحن ، وخجلوا هم ، وتذكر الجيران الأعزة حينئذ عواطف المصاهرة والمجاورة فقالوا هذا هو الحق ! ذلك ملككم وما ينبغى لأحد أن ينازعكم فيه !

* * *

كان فى قدرة مصر أن تتخذ سياسة الأمر الواقع ، فتلقى بإرادتها المطلقة الامتيازات الأجنبية التى ورثتها عن الترك كما يورث الزهرى الأفرنجى عن الأب

للريض . ولو أنها آثرت هذه الخطة لوجدت حجتها فى القانون لا فى القوة ، ولكن مصر الكريمة للضيافة لا تزال تجرى على أعراق أبنائها الميامين ، فلا ترفع اليد ما دام يغنيها اللسان !

على أن قوة الحق المصرى ، وقدرة المفاوض المصرى ، جعلتا القانون الأعزل أرفع صوتاً من المدافع ، وأبعد نفوذاً من القنابل وأعجب العجب أن الأمم اللاتينية التى سايرت نهضتنا وعاشرت أمتنا قرنا وثلث قرن ، كانت هى وحدها التى تجهل أن مصر دولة من دول البحر الأبيض ، وأن لها ديناً سماوياً يهدى إلى الحق ، وتشريعاً مدنيا يرمى إلى الخير ، وخلقا شرقيا يدعو إلى المحبة ، وأن رعاياها كانوا قبل الامتيازات وبعدها يتقلبون فى خيرات النيل ، ولا وزر لهم إلا أخلاق هذا الشعب النبيل .

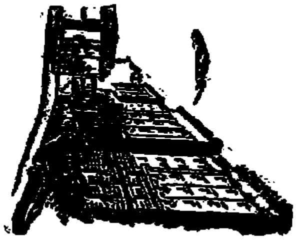

حول الديمقراطية

(٢٦ أبريل سنة ١٩٣٧)

— لا يا عزيزى ! أنا لا أتابعك على هذا التفسير . إن رأى الإمام محمد عبده جلى صريح ، وكلمة (ينهض) فى قوله المأثور : « لا ينهض الشرق إلا بمستبد عادل » أساس فكرته وعمود رأيه . فإن النهوض لا يكون إلا من القعود . والأمة القاعدة أو الراقدة لا يبعثها إلا القرع الشديد والهتاف القوى . ولا يمكن أن يكون هذا القارع الهاتف رأيها العام لأنه مفقود ، ولا ضميرها الاجتماعى لأنه ميت ، إنما يكون رسالة من الله على لسان نبى ، أو هداية من الطبيعة على يد مصلح وتنفيذ الرسالة الإلهية ، أو الدعوة الإصلاحية ، يرجع إلى خليفة يحكم بأمر الله ، أو إلى طاغية يحكم بأمر نفسه . فإذا كانت الأمة قد نهضت بالفعل كان الاستبداد بأمورها كفاً لنزعاتها عن الطموح ، وحبساً لملكاتها عن العمل لأن النهضة معناها غافل أحس وجوده ، وخامل فهم نفسه ، وجاهل عرف حقه ، وضال وجد سبيله والحياة التى تسرى فى أفراد الشعب الناهض ، هى بعينها الحياة التى تجرى فى أعواد الربيع المنبعث : تتحرك فى الأمة على صوت النذير فى الغفلة ، كما تتحرك الطبيعة على هزيم الرعد فى الشتاء ، ومتى نفخ الله من روحه فى خمود الحى ، سيَّره على سنة الوجـود وبصره بغاية الحياة . وهنا يكون المستبد مهما يعدل سحاباً يحجب النور الذى انبثق ، وسَموماً يصوح الزهر الذى تفتح :

فقـال صاحبى الشاب وقد ألقى باله لما قلت ففــــترت حماسته بعض الفتور

ولكن المستبد برأيه أو الحاكم بأمره يختصر الآراء فى رأيه ، ويجمع الاهواء على هواه ، فنأمن التشرد الذى يضل ، والتردد الذى يعوق ، والتوا كل الذى يضعف ، والتساهل الذى يحابى . فقلت له :

ذلك يصح والشعب لا يزال قطيعاً من الحيوان الأبله ، لابد له حينئذ من الراعى وعصاه ، أما إذا أصبح هذ القطيع أمة لكل فرد من أفرادها كرامة وأرادة ورأى ومصلحة ، فبأى منطق تلغى هذه العقول الملايين التى جعلت لتفكر ، وتنسخ هذه النفوس الملايين التى خلقت لتريد ، لتجعل مكانها نفساً واحدة تغصب قوة الشعب لتقوده ، وتسرق ثروته لتسوده ، ثم يسرف عليها سلطانها فتتخذ الناس عبيداً والبلاد ضيعة ؟

— أنا أفهم المرء يقهر فيخضع ، ويؤسَر فيُسترق ؛ لأن الأمر فى ذلك لا يخرج عن قانون الطبيعة من تغلب الأقوى وسيادة الأصلح ؛ ولكنى لا أستطيع أن أفهم كيف يستكين شعب بأسره لواحد منه ، فيلقى بزمامه إليه ، ويعول فى جميع أموره عليه والشعب مهما يصغر لا يقل عن شعب ، والفرد مهما يكبر لا يزيد على فرد ! والقوة والثروة والسلطان هى فى ذلك الجمع الذى فيه الجندى والفلاح والعامل ، لا فى ذلك المفرد الذى فيه السرف والترف والهنى

لقد مات ذلك الإنسان المغفل الذى كان يجعل إلهه حيواناً يربيه ثم يعبده ، أو جماداً يصنعه ثم يعبده .

إن الديمقراطية يا صديقى أخلق النظم بكرامة الإنسان وسلامة العالم هبط وحيها على الإنسان المفكر الحر فى أثينا ، ثم أصابها ما أصاب رسالات الخير فى الأرض من شيوع الجهالة وبلادة الحس وأزمة الهوى وطغيان الحكم ،

فصارت عروسا من عرائس الخيال كالحق والعدل والحرية ، تتمثل فى الأحلام وتتراءى فى المنى ، وتقتل فى سبيلها الأنفس الكريمة ؛ حتى ظفر بها الأوربى الحديث بطول جهاده وكثرة ضحاياه ووفرة علمه وقوة شعوره ؛ فأصبح كل فرد بمقتضاها صاحب حق فى الوطن ، وصاحب رأى فى التشريع ، وصاحب صوت فى الحكم ، وصار العامل الفقير والصانع الأجير والفلاح المتواضع قادرين على أن يلغوا الوظيفة التى لاتفيد ، ويسقطوا الحكومة التى لاتعدل .

الديمقراطية هى المساواة فى الحق والواجب ، والمشاركة فى الغنم والغرم . وهى الميدان الحر للكفايات الممتازة لا يعوقها عن بلوغ الأمد فيه عائق من نسب أو لقب أو ثروة . فكيف يجرى فى ذهنك هذا الخاطر وأنت من أصفى الشباب حساً وأنبلهم نفساً وأكثرهم ثقافة ؟

* * *

لم يجد الشاب مايقوله ، لأن الواقع فى ذهنه إنما هو اضطراب الحيرة لا اختمار الفكرة ، فعبر عن كل مابقى فى خاطره بهذا السؤال :

— وماذا تقول فى موسولينى وهتلر ؟

— أقول إنهما مظهر حاد من مظاهر الديمقراطية . كلا الرجلين يعمل بالشعب وللشعب . كلاهما يمثل قوة الأمة وينفذ إرادة الأمة ، وكلاهما يعتقد أن اليد التى استطاعت أن ترفع تستطيع أن تضع

* * *

ولباب الأمر أن تعترف للأمة بالسلطان ثم تظهره بعد ذلك فى أى رجل شئت وتحت أى عنوان أردت .

فابتسم صديق الشاب ابتسامة المقتنع ، وحيا تحية المسلم ، ثم قال وهو يضع يده فى يدى : إنّ جهودنا معشر الشباب كانت مسددة إلى غرض واحد فى استقلال الوطن ؛ فلما أسفر الجهاد عن وجوه الفوز اضطربت الجهود وتشعبت الآراء واحتجنا فى هذا العهد الجديد إلى توجيه جديد . فقلت له : ذلك منهاج الكتاب والأحزاب والنواب منذ اليوم ، فعسى أن يهديهم الله إياه فينهجوه ؟

الطربوش والقبعة

(٧ يونيو سنة ١٩٣٧)

كان الطربوش امتياز على العمامة أيام كان الأمر للترك والأرناءود ، لأنه كان يومئذ تاج السلطان وشعار الحكم ولباس الجيش ورمز البطش وعلامة الخطر ، فكان يكفى أن يكون فى الحى أو فى الناحية جندى[1] واحد لتخشع النفوس وتخضع الرءوس ويحيى القانون وتتنفى الحكومة ، فلا يمر أحد وهو واقف ، ولا يشتجر اثنان وهو موجود ، ولا يعرف الناس من وراء بيته شرطة فى قسم ولا قضاة فى محكمة :

وكان للقبعة امتياز على الطربوش أيام كان الشأن لاحتلال الإنجليز وامتياز الدول ، لأنها كانت حينئذ شارة الغلبة وبراءة الإجرام وصك النصب وجواز المرور وإشارة الثراء وأمارة التفوق ، فكان يكفى أن ترى (الخواجه) لترى الغانم الذى لايغرم ، والمتصرف الذى لايحاسب ، والضارب الذى لاتقدر أن تشل يديه ، والسفيه الذى لاتستطيع أن ترد عليه ، والمدير الذى يملك المصارف والمصانع والمتاجر والشركات والحانات والقهوات والملاهى والفنادق ، ومن ورائه المحكمة المخصوصة ، والمحاكم المختلطة ، والتبجح الأشر ، والدعوى العريضة ، والبأو السليط . فكان الطربوش عنواناً على ذلك الإنسان الذى أفسدت فيه العبودية والجهالة مزايا الإنسانية فجعلتاه حياً تعافه الحياة ، ووطنياً ينكره الوطن ، ووريثاً يأنف منه التراث ، وخلفاً يعرض عنه التاريخ . وكانت القبعة سمة على ذلك الأجنبى المتقدم بقوته

---

(١) اسم كان يطلق يومئذ على لابسى الطربوش .

عَلَى الضَعف ، و بقدرته على العجز ، وبصحوته على الغفلة . فالتمايز فى واقع الأمر كان بين ناس وناس ، لا بين لباس ولباس . فإنك إذا وضعت الطربوش على جبهة الأسد كان مفخرة ، وإذا وضعته على رأس القرد انقلب مسخرة ، وهل تصنع القبعة فى الرأس الذليل إلا أن تجعلَ منه زنجياً فى أمريكا ، أو حبشياً فى أفريقا ، أو صعلوكا فى كل قارة ؟

* * *

أما نحن اليوم فخلق جديد فى دنيا جديدة : تنبهت فينا ملكات الجنس فثرنا على الخسف ، وتمردنا على الأذى ، وزاحمنا الناس بالمناكب العريضة على مكاننا الخالى منذ قرون فى صدارة الأمم ، فانفتح الطريق البشرى من خلفنا على المجد الأول ، ومن أمامنا على النصر الأخير وأصبح فى وضع الطربوش على جباهنا مواحٍ من سمو الشمس وشموخ الهرم ، وفى حمرته معان من أشعة الشروق ودماء التضحية وأوراد الربيع وأضواء اللهب فالتبرم به اليوم لايجد له فيما أظن مساغاً من العقل ما دام الرأس الذى يحمله قد ارتفع وامتلأ واتزن .

لا أريد أن أدخل بين الطربوش والقبعة ، ولا أن أدعو إلى ذاك أو إلى تلك ، وإنما أريد أن أقول إن ضعفنا هو الذى ظلم الطربوش كما ظلم اللغة والعَلَم . فإذا سوغ المنطق أن نترك الطربوش لأنه لايطول القبعة ، سوغ كذلك أن نهجر العربية لأنها لاتنتشر فى كل أرض ، وأن نخرج على العَلَم لأنه لايخفق فى كل سماء ولن نجد أهون على الناس من رجل يأنس فى نفسه الضعة فيحتال على العظمة بارتداء ثوب العظيم

ماذا يضرك الطربوش إذا كان لك طوائر تئز فى السحاب ، وبواخر

تمخر فى العباب ، ومدافع ترعد فى البر ، وغازات تسطع فى الجو ، ومجلس ظاهر فى العصبة[1] ، وقول نافذ فى السياسة ، ورأى مسموع فى العلم ، ومذهب متبوع فى الأدب ، ووطن يدبره حكمك ويستثمره علمك ويستقل بخيره وميره بنوه ؟

وماذا تنفعك القبعة إذا قنعت من استقلالك بالإقرار به ، ومن وطنك بالقرار فيه ، ورضيت أن تعيش حميلة على قوة الخليفة ، وصنيعة على رحمة الدول ، واكتفيت بمظاهر التمدن من اللباس والرياش والترف واللهو ، وظللت على الغرائز الجافية والحس البليد تكذب لتمرح ، وتغش لتربح ، وتناقش فيفرط عليك صوتك ولسانك ويدك . وتحضر مجلس السماع فتجعله من التأوه والأنين والصخب والعربدة ماخوراً فى مستشفى وتسير فى الطريق مرحاً أو ذاهلا فتصدم المار فيلتفت إليك التفاتة العاتب ترضيه ابتسامة عاذرة ، فتهجم أنت عليه بالنظرة الشزراء والكلمة الفاحشة . وتصعد الترام فتخطو بنعليك على أقدام الراكبين حتى تبلغ محلك فتنحط فيه كاشر الوجه غير ملتفت ، أو ضاحك السن غير مكترث وتمر بك الآنسة الخفرة أو السيدة الحاصن فتخز حسها بالنظر الفاجر ، وتؤذى سمعها بالمنطق الخطل ، ولا ينبهك ضميرك الأغلف إلى أن للأسرة حرمة وللمجتمع كرامة ؟

طهر رأسك يا سيدى من درن هذه الخلال ثم ضع عليه طاقية أو لبدة أو أى غطاء شئت ، ترتفع منزلتك فى كل عين ، وتقر هيبتك فى كل صدر ، فإن قيمة الغطاء هى فى الرأس الذى يحمله ، والشعب الذى يمثله ،

---

(١) عصبة الأمم .

لا فى أصله ولا فى شكله ولا فى لونه والثوب كما يقول الفرنسيون لايصنع الراهب .

أى شرف أرفع للرأس ، واى فخر أملأ للفم ، من أن تذهب اليوم بشرقيتك ومصريتك وطربوشك فتقول للذين غمطوك بالأمس أرأيتم إلى الجوهر الحر والمعدن الكريم كيف طمرته القرون وصهرته الأحداث وتناهبته الأطماع ثم خرج من عَرَك العبودية ومعركة الحرية باهر اللون ، متميز الشكل ، كامل الخصائص ، حر الوجود ، لاهو ماسة فى خاتم ولادرة فى تاج ،

أدب السندوتش

(١٤ يونيو سنة ١٩٣٧)

لعلك تقول لنفسك سائلاً أو هازلاً: ماعلاقة الأدب بالسندوتش ؟

ولو كنت أريد الأدب الذى تعارفه أولو الجد من الناس لأعيا نفسك وأعيانى أن ندلك على هذه العلاقة ؛ ولكننى أريد الأدب الذى تتأدبه ناشئة اليوم. والسندوتش أو الشطيرتان بينهما الكامخ كما قالها بعضهم متندرا على مجمع اللغة، لقيمات تشتريها وأنت واقف فى المطعم، وتأكلها وأنت ماش فى الطريق، وتهضمها وأنت قاعد فى المكتب ؛ فلا تجد لها بين ذهول العجلة وتفكير العمل هناءة فى ذوقك ولا مراءة فى جوفك. وهذا الضرب من الطعام القائم على القطف والخطف جنى على الأسرة فحرمها لذة المؤاكلة ومتعة المنادمة وأنس العشرة. وجنى على المائدة فسلبها فنها الطاهى وذوقها المنظم وجلستها البهيجة. وجنى على الصحة فأضعف الشهوة وأفسد الهضم ونقص العافية. والثقافة الأدبية اليوم لاتختلف فى سرعتها وتفاهتها وفسادها عن هذا النوع الجديد من الأكل. فهى نتفات من الكتب، ولقفات من الصحف، وخطفات من الأحاديث، ومطالعات فى القهوة أو فى الترام أو فى السرير يلقط الكلمَ فيها النظرُ الخاطف، كما يلتقط الحبَّ الطائر الفزع ؛ ثم نتاج مختضَر(١) معتسر كجنين الحامل أسقط قبل التمام ؛ وصراخ مزعج فى أذنى هذا السَّقط ليستهل(٢) وهو مضغة من اللحم للمسيخ لاتشعر

(١) اختضر الكلأ جزه وهو أخضر ؛ واختضر الفاكهة أكلها قبل نضجها .
(٢) استهل الوليد : رفع صوته بالبكاء عند الولادة .

ولا تنبض ، وأصبح مآل غرفة المكتب فى البيت كمآل غرفة الطعام وقاعة الجلوس فيه ، بنى عليها سندوتش الصحيفة كما بنى على هاتين سندوتش الحان والقهوة .

يقول أنصار السندوتش فى الحياة إن المائدة لاتتفق مع الزمن الدافق والعمل المتصل والتطور المستمر والحركة السريعة ، فإن فى طول الجلوس إليها، وفى قواعد الأكل عليها ، وتعدد الألوان فيها ، واحتفال الأسرة لها ، إضاعة للمال والوقت ، وقتلا للنشاط والحركة ، وجلباً للسقام والمرض .

ويقول أنصار السندوتش فى الأدب : إن قواعد اللغة قيود لا توافق حرية العصر ، وأساليب البلاغة عوائق لاتجارى قراءة السرعة ، وبدائع الفن شواغل لاتساعد وفرة الإنتاج والحق الصريح أن آكلى السندوتش أعجلتهم محاقر العمل ومشاغل الرزق عن النعيم الآمن والجمام الخصيب والبيت المطمئن ، فجعلوا صعلكة المطاعم نظاماً وفلسفة . وإن قارئ السندوتش صرفتهم وعوثة الطريق وتكاليف الغاية عن اكتساب الملكة وتحصيل الأداة وتوفير المعرفة ، فقنعوا بهذا الفتات المتخاف ، ثم تجشأوا من غير شبع ، وتشدقوا من غير علم ، وطلبوا محو القيود والحدود والمقاييس ليصبح الأدب كوناً عاماً والفن حمى مباحاً ، فيسموا راوى الأقاويل قصصياً ، ووزان التفاعيل شاعراً ، ونهاش الأعراض ناقداً ، وسلاب القرائح نابغة . ولكن الطبيعة التى تحفظ سر الكمال ، وتحمى ندرة النبوغ ، وتبغى بقاء الأصلح ، تأبى إلا أن يظل قراء السندوتش وآكلو السندوتش فقراء ذوى عمل ، أو أغنياء ذوى لهو ، لاتهيئهم الحياة المضطربة إلى زعامة فى أمر ولا إلى نبوغ فى فكرة .

* * *

أثار هذا الموضوع فى ذهنى طائفة من الرسائل النقدية تلقيتها من أقطار العربية تستنكر بعض ما تظهر المطابع المصرية من لغو الكهول وعبث الشباب ، وتشدد النكير على بعض الأحاديث الأدبية التى تبثها الإذاعة اللاسلكية ، ويعجب فاضل من بغداد وأديب من حلب كيف تهون مصر كرامتها فترفع صوتها الأدبى فى العالم من فم شاعر له ديوان مطبوع وذكر مرفوع ، ثم لا يدرى شيئاً فى قواعد اللغة ولا ضوابط العروض ، فكان يقرأ النثر ولا يقيم لسانه ، وينشد الشعر ولا يضبط ميزانه ، حتى قالوا والعهدة عليهم إنه أنشد قصيدة ابن سعيد المغربى ، وهى من بحر السريع على روى الكاف الساكنة ، ففتح الكاف وجعل صدور الأبيات من بحر وأعجازها من بحر آخر

الواقع الأليم أن الذين درسوا لغتهم وفقهوها من الأدباء الناهجين نفر قليل . فإذا استثنيت هؤلاء الستة أو السبعة وهم من الكهول الراحلين ، وجدت طبقة الأدباء كطبقات الصناع والزراع والتجار يأخذون الأمور بالتقليد والمحاكاة لا بالدرس والمعاناة وكما تجد فى هؤلاء من ينشىء المتجر ثم يكله إلى أجنبى ينظمه ويرتبه ، تجد فى أولئك من يؤلف الكتاب ثم يدفعه إلى نحوى يعربه ويهذبه ولا تجد فى تاريخ العربية قبل هذا العصر ، ولا فى تاريخ اللغات فى جميع العصور ، من يحسب نفسه أديباً فى لغة وهو لا يعرف منها إلا مايعرفه العامى الالف . والغرور المتبجح والادعاء السفيه لا يستطيعان أن يحملا الناس على أن يقرأوا السخف ، ولا الزمن على أن يبقى على الضعيف .

إن رسالة الأدباء كرسالة الأنبياء فيها عبقرية وجلالة وسمو فإذا لم يكن الكاتب أو الشاعر خليقاً أن يسيطر على العقول والميول بمكانه فى العلم وسلطانه فى الأدب ورجحانه فى الرأى ، كان أشبه بمن يدعى النبوة فى مكة ، أو بمن يمارس الشعوذة فى لندن !

إن المدارس المصرية تعلم اللغة على منهاج غير واضح وإن الجامعة المصرية تبني الأدب على أساس غير صالح وإن الجامعة الأزهرية لاتزال تنفض البلى عن كتب ملتاثة التعبير من مخلفات العجمة إن صلحت لشيء فلن تصلح لتعليم البلاغة فليت شعرى إذا خلت أمكنة هؤلاء النفر الذين نبغوا بالاستعداد والاجتهاد كيف تكون حال الأدب الرفيع فى مصر ؟ أيذهبون وبُطنان مايعوضون على رأى الأستاذ أحمد أمين ، أم يذهبون وسرعان مايخلفون على رأى الأستاذ العقاد ؟

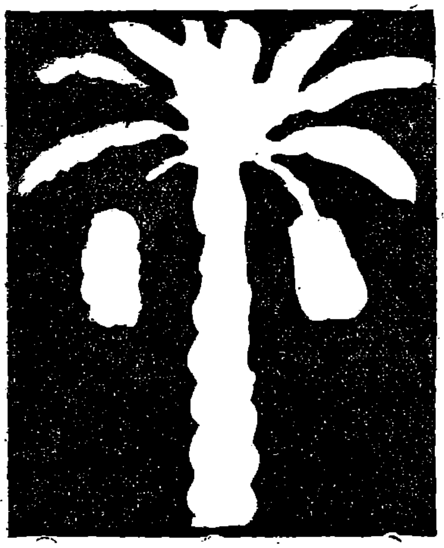

مصطفى لطفى المنفلوطى

(١٢ يوليو سنة ١٩٣٧)

— ١ —

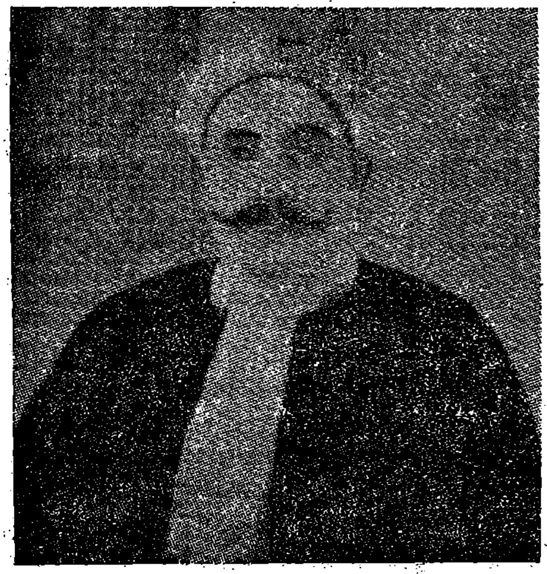

كان في مستهل هذا العصر نفر من الأيفاع الخلصاء يتنقلون بين حِلَق الأزهر كما تتنقل النحل بين الروض ، لا يتشممون غير الزهر ولا يتذوقون غير الرحيق . وكانوا كالفراش رقاق الجسوم خفاف الأجنحة يتهافتون على أضواء النوابغ المعاصرين أينما تشع . وكانت الومضات الروحية الأخيرة للبارودى واليازجى ومحمد عبده وقاسم أمين ومصطفى كامل والشنقيطى قد التمعت التماعة الموت لتنطفىء كلها متعاقبة فى العقد الأول من عقود هذا القرن ، فهيأت الأنفس والأذواق إلى أدب جديد كنا نفتقده فلا نجده . وكان إخواننا اللبنانيون فى مصر وفى أمريكا قد فتحوا نوافذ الأدب العربى على الأدب الغربى فأرونا فنونا من القول وضروباً من الفن لا نعرفها فى أدب العرب ؛ ولكنها كانت فى الكثير الأغلب سقيمة التراكيب مشوشة القوالب ، فأجمناها على نفاستها كما أجمنا أساليب المقامات من الألفاظ المسرودة والجمل الجُوف والصناعة السمجة والمعانى الغثة ،

وحينئذ أشرق أسلوب المنفلوطى على وجه (المؤيد) إشراق البشاشة ، وسطع فى أندية الأدب سطوع العبير ، ورن فى أسماع الأدباء رنين النغم . ورأى القراء الأدباء فى هذا الفن الجديد مالم يروا فى فقرات الجاحظ وسجعات البديع ، وما لايرون فى غثاثة الصحافة وركاكة الترجمة ، فأقبلوا عليه إقبال الهيم على المورد الوحيد العذب .

وكان هذا النفر من الأيفاع المتأدبين يجلسون فى أصائل أيامهم الغريرة أمام (الرواق العباسى) فى الأزهر يتقارضون الأشعار ، ويلهون بأغفال الناس ، ويترقبون (مؤيد) الخميس ليقرأوا مقال المنفلوطى خماس وسداس وسباع ؛ و (طه) مرهف أذنيه ، و (زناتى) مسبل عينيه ، و (الزيات) مأخوذ بروعة الأسلوب فلا ينبس ولا يطرف وكلهم يودون لو يعقدون أسبابهم بهذا المنفلوطى الذى اصطفاه الله لرسالة هذا الأدب البكر ، وجعله الإمام المفتى[1] تلميذه المختار ولكن المنفلوطى كان فى ذلك العهد الذى قرأناه فيه قد جاوز الثلاثين ، فهو قليل الإلمام بالأزهر ، لايجلس إلى شيخ ولا يأوى إلى رواق . وكان قد هيأ نفسه ليكون كاتباً لا عالماً فلم يجعل همه لامتحان ، ولم يشغل ذرعه بشهادة

وبعد سنتين نشر المنفلوطى مختار مادبج من فصوله فى المؤيد فى كتاب عنونه بالنظرات ، وكان قد حكم فيه على الشيخ عبد العزيز شاويش فى مقاله (طبقات الكتاب) حكماً شديداً ورطه فيه على ما أظن صلته بالمؤيد وبالمغفور له سعد باشا والشيخ شاويش يومئذ كان محرر (اللواء) بعد مصطفى باشا كامل ، واطه حسين به اتصال ، فرضه على أن ينقد (النظرات) فنقدها

---

(١) الشيخ محمد عبده .

ذلك النقد الغاضب الصاخب فى ثلاثين مقالة ونيفاً لم تدع سبيلا إلى التعارف بيننا وبينه .

ثم زاولت التعليم فكنت أستعيد قراءة المنفلوطى وهو نهب مقسم بين أقلام الطلبة وفى سنة ١٩٢٠ ترجمت (آلام فرتر) وكان صاحب (العبرات) يومئذ قد بلغ الغاية فى الشهرة والأدب فرغب فى أن يرانى . وكان لنا صديق مشترك فجمع بيننا فى داره . ورأيت المنفلوطى لأول مرة فرأيت رجلا مجتمع الأشدّ ، مربوع الخلق ، ممتلىء البدن ، غليظ الشارب ، حسن السمت ، لاتلحظ على وجهه المطهم المصقول مخايل الفنان ولاسهوم المفكر ، ثم تحسبه وهو يحدثك حديثه المقتضب الخافض سرياً من عامة السراة فى الصعيد لاحظ له من بلاغة اللسان ولا رياضة القلم . ثم داخلته فتكشف لى عن ألمعية أصيلة تستتر عادة بين الحياة والحشمة . ووثق الود بينى وبينه توافق المزاج المنقبض والطبع الحيى والوجود المنعزل ، فدرسته على ضوء ما أعلمه من صفات نفسى فلم أجاوز الحق فى تصويره وتقديره .

كان المنفلوطى قطعة موسيقية فى ظاهره وباطنه فهو مؤتلف الخلق ، متلائم الذوق ، متناسق الفكر ، متسق الأسلوب ، منسجم الزى ، لاتلمح فى قوله ولا فى فعله شذوذ العبقرية ولا نشوز القدامة . كان صحيح الفهم فى بطء ، سليم الفكر فى جهد ، دقيق الحس فى سكون ، هيوب اللسان فى تحفظ . وهذه الخلال تظهر صاحبها للناس فى مظهر العيى الجاهل ، فهو لذلك كان يتقى المجالس ويتجنب الجدل ويكره الخطابة ومرجع ذلك فيه إلى احتشام التربية التقليدية فى الأسرة ، ونظام التعليم الصامت فى الأزهر ، وفرط الشعور المرهف بكرامة النفس . ولكنك إذا جلست إليه رأساً إلى رأس ، تسرّح فى كلامه وتبارى لسانه وخاطره فى النقد الصريح والرأى الناضج والحكم الموفق والتهكم

البارع ، فلا تشك فى أن هذا الذى تحدثه هو المنفلوطى الذى تقرأه . ثم هو إلى ذلك رقيق القلب ، عف الضمير ، سليم الصدر ، صحيح العقيدة ، نفاح اليد ، موزع العقل والفضل والهوى بين أسرته ووطنيته وإنسانيته .

— ٢ —

كان مولد المنفلوطى كمولد الرافعى فى بيت كريم بالدين جليل بالفقه توارث أهله قضاء الشريعة ونقابة الصوفية قرابة مائتى سنة . ولكنه كان خلفة لتبعتين مختلفتين : فأبوه عربى صريح النسب إلى عترة الحسين ، وأمه تركية شابكة القرابة إلى أسرة الجوربجى . ونهج المنفلوطى سبيل آبائه فى الثقافة ، فحفظ القرآن فى الكتاب ، وتلقى العلم فى الأزهر ؛ إلا أن للأدباء من أبناء الفقهاء نبوة فى بعض الحالات على إرادة الوراثة والنشأة ، فهم يصدفون فى منتصف الطريق عن دروس الفقه والأصول والعقائد ، إما لأن أذواقهم الأدبية الموهوبة لاتسيغ أساليب كتبها المعقدة ، وإما لأن طباعهم المدنية الحرة لاتطيق الحياة الدينية المقيدة :

فكان السيد مصطفى على الكره من ورع قلبه ورعاية أبيه لايلقى باله كثيراً لغير علوم اللسان وفنون الأدب ، فهو يحفظ الأشعار ، ويتصيد الشوارد ، ويصوغ القريض ، وينشىء الرسائل . وتسير له شهرة فى الأزهريين بذكاء القريحة وروعة الأسلوب فيقربه الأستاذ الإمام ويرسم له الطريقة المثلى للغاية من الأدب والحياة . ثم يستفيد المنفلوطى من قرباه إلى الإمام صلته بسعد باشا ، ومن زلفاه لدى هذين العظيمين نفوقه لدى (المؤيد) والإمام المجتهد محمد عبده ، والسياسى الخطيب سعد باشا ، والصحفى الكاتب على يوسف ، كانوا أقوى العناصر فى تكوين المنفلوطى الأديب بعد استعداد فطرته وإرشاد أبيه . وأولئك

الثلاثة كانوا على ما بينهم من تفاوت فى نواحى النبوغ أفهم رجال العصر الحديث لحقيقة الأدب وأشدهم حدبا على بؤس أهله .

كان المنفلوطى لا يعمل جاداً لشهادة الأزهر ، وإنما كان يعتمد فى نيلها على جاه الإمام ، كما كان يعتمد من هم على شاكلته من أبناء الفقهاء على وساطة والديهم . والإمام المفتى مفسر وحى الله وشارح فن عبد القاهر ومعيد الأدب إلى الأزهر ، كان يقيس كفاية الطالب بمقياس سيبويه لا بمقياس أبى حنيفة . فلما قبضه الله إلى رحمته جزع المنفلوطى فيه على سنده وأمله ، وارتد مقطوع الرجاء إلى بلده . ثم نعش الله عاثر أمله بعد فترة من الزمن فهب يبتغى فى (المؤيد) الوسيلة إلى النباهة والنجح . وأوى من الوزير سعد باشا حامى النبوغ إلى ركن منيع ، فخلق له منصب التحرير فى وزارة المعارف ثم فى مجلس الشيوخ فضمن به رغد العيش ووفرة الإنتاج حتى اختار الله له ما عنده .

* * *

كان المنفلوطى أديباً موهوباً حظ الطبع فى أدبه أكبر من حظ الصنعة ؛ لأن الصنعة لا تخلق أدبا مبتكراً ولا أديباً ممتازاً ولا طريقة مستقلة . والنثر الفنى كان على عهده لوناً حائلا من أدب القاضى الفاضل ، أو أثراً ماثلا لفن ابن خلدون ، يتمثل الأول قوياً فى طبقة المويلحى وحفنى ناصف ، ويظهر الثانى ضعيفاً فى طبقة قاسم أمين ولطفى السيد .

ولا يستطيع ناقد أن يقول إن أسلوبه كان مضروباً على أحد القالبين ؛ إنما كان أسلوب المنفلوطى فى عصره كأسلوب ابن خلدون فى عصره ، بديعاً أنشأه الطبع القوى على غير مثال . والفرق أن بلاغة (النظرات) مرجعها إلى القريحة ، وبلاغة (المقدمة) مرجعها إلى العبقرية .

أعلم أن المنفلوطى تأثر فى القديم بابن المقفع وابن العميد ، وفى الحديث

بجبران ونعيمة ؛ ولكن هذا التأثر دخل فى فنه دخول الإلهام والإيحاء لادخول التقليد والاحتذاء ، فله من الأولين إشراق الديباجة وقوة النسج ، وله من الآخرين جدّة الموضوع وطرافة الفكرة . ولكنك لاتتذكر وأنت تقرأه أحداً من أولئك جميعاً .

عالج المنفلوطى الأقصوصة أول الناس وبلغ فى إجادتها شأواً لاينتظر من نشأة كنشأته فى بيئة كبيئته . وأذكر أننا كنا نقرأ (غرفة الأحزان) و (اليتيم) وأمثالها فنطرب للقصة على سذاجتها ، أكثر مما نطرب للأسلوب على روعته . وسر الذيوع فى أدب المنفلوطى ظهوره على فترة من الأدب اللباب ، ومفاجأته الناس بهذا القصص الرائع الذى يصف الألم ويمثل العيوب ، فى أسلوب طلى وسياق مطرد ولفظ مختار . أما صفة الخلود فيه فيمنع من تحققها أمران : ضعف الأداة وضيق الثقافة . فأما ضعف الأداة فلأن المنفلوطى لم يكن عالماً بلغته ولا بصيراً بأدبها لذلك نجد فى تعبيره الخطأ والفضول ووضع اللفظ فى غير موضعه . وأما ضيق الثقافة فلأنه لم يتوفر على تحصيل علوم الشرق ، ولم يتصل اتصالا مباشراً بعلوم الغرب لذلك تلمح فى تفكيره السطحية والسذاجة والإحالة . فإذا قدر الله لأدب المنفلوطى أن يفقد سحره وخطره فى أطوار المستقبل ، فإن تاريخ الأدب الحديث سيقصر عليه فصلا من فصوله يجعله فى النثر كالبارودي فى الشعر ، وكفى بذلك عنوان فضل وخلود ذكر . أما مسألة الأدب الباكى والأدب الضاحك ، أو الأدب الضعيف والأدب القوى ، فمغالطة مريضة من النقد سنعرض لها فى فرصة أخرى .

أى زمان هذا !

(٥ أكتوبر سنة ١٩٣٧)

فرغ الشيخ عثمان من قراءة « الأهرام » ثم ألقاها من يده الراعشة على الوسادة وقال بلهجة الساخط القانط : « أى زمان هذا ! » هل أتى أمر الله وقامت القيامة ؟ !

وكنا قد خليناه لنفسه ساعة شغلها بالنظر فى الجريدة ، وشغلناها نحن فى شأن من شئونه . فلما تحرك هذه الحركة العصبية ، وقال هذه الجملة التعجبية أقبلنا عليه نستفهمه الأمر ونناقله الحديث والشيخ عثمان هـذا فقيه نابه من فقهاء الأزهر القـديم ، قضى عمريه[1] فى خدمة الدين وعلومه ، وهو على الحال القروية الأولى من بساطة الطعام والمنام والملبس ، فلم يشك داء ولم يشرب دواء قط !

أولاده مثقفون مترفون ، يشغلون المناصب الرفيعة ، ويسكنون المنازل الأنيقة ، وينعمون بمتع الحضارة ؛ ولكنه لا يزال هو وزوجه الشيخة يعيشان فى دارهما العتيقة فى حى الباطنية على النمط الأول : يأتدمان بالفول ، ويتفكهان بالتمر ، ويستصبحان بالزيت ، ولا يخرجان — إن خرجا — إلا لصلة رحم أو لزيارة ضريح . والشيخ لا ينفك يحمد الله على أنه لم يركب سيارة ، ولم يغش قهوة ، ولم يشهد حفلة ، ولم يتعلق بشىء من أسباب الدنيا إلا بما لابد منه لسلامة البدن والدين فلولا أنه يقرأ

---

(١) العمران ثمانون سنة .

الصحيفة كل صباح ، ويسمر مع نفر من تلاميذه كل مساء ، لكان بينه وبين هذا العالم المتغير ، « كال الانقطاع » . وهو اليوم يدخل فى حدود التسعين من سنيه قطيع القيام قعيد الغرفة ، إلا أنه سليم الحواس شاهد اللب . ويرى أن الفضل فيما يتمتع به من طول العمر ونقاء الجسم وفراغ البال ، إنما يرجع إلى الإيمان بحكمة الله والرضا بقسمة القدر بلغه أن قوماً من العلماء يسكنون فى أحياء الأغنياء ، ويستطيلون على الناس بالجاه والثراء ، وأن أحدهم بلغ من ترفه وسرفه أن اشترى ثلاجة بعشرة جنيهات ، فاستهال الخبر وتعاظم الأمر ثم بكى وقال : ياحسرتا على الدين والعلم ! إن العالم إذا امتلأت عينه عن الدنيا فرغ قلبه عن الدين !

سأله أحدنا : ماذا قرأت يامولانا فى الجريدة فأنكرته على الزمان ؟ فأجاب بلهجته تلك :

« حرب داخلية فى الغرب ، وحرب خارجية فى الشرق ، وحرب عالمية تترقب فى البحر ، وتتوثب فى البر ، وتتنزى على ألسنة الساسة المساعير من أبناء المدنية وربائب الحضارة ، ثم سقوط الفرنك فى سورية ، وحبوط السياسة فى فلسطين ، وهبوط القطن فى مصر ، وقنوط الناس فى كل مكان من صلاح الحال وانفراج الأزمة ثم وباء الدنج الذى يؤازر الملاريا والأنفلونزا على خمود الحياة وشل الحركة ! لقد كنا لا نرى الموت إلا حيث تكون الشيخوخة الفانية ، ولا نسمع بالمرض إلا قبيل الموت المرغوب ، ولا نعرف من الأطباء إلا طبيب المركز يوم يزور القرية كل أربع سنوات ، فيأمر بتسوية التلال ، وكنس الأزقة ، ورش

الخيطان الخارجية بالجير ! وكانت النفوس راضية مطمئنة تسبح فى فيض من نعيم السلام والدعة ، لا يُرمضها حقد على إنسان ، ولا يقلقها حرص على شىء . وكان الناس لايعلمون عن أوزار الحرب إلا ما يتسقطون من أنبائها الحين بعد الحين بين العثمانيين والمسكوف . وكانت السلامة أدوم ، والأعمار أطول ، والأرزاق أيسر ، ورحمة الله أقرب ، وأمة محمد بخير .

أما اليوم فكأنما أصاب الناس سعار من الجحيم فلا يبرحون بين عمل دائب ، وهَمّ ناصب ، وطمع شره ، وتنافس دنىء ، وعداوة راصدة . ثم فشا الطب ففشا المرض ، وانتشر العلم فانتشرت الجريمة ، وفاض الخير وغاضت البركة ، واستبحرت المدنية المادية فخفت بين ضجيجها الآلى صوت الضمير ، وهلك فى عبابها المزبد سلام النفس . وكان الظن بالمدنية والعلم أن ينزعا من نفوس بنى الإنسان غرائز الحيوان ويهيئا لهم حياة الجنة التى حرمتهم إياها رذيلة الطمع فهل رفع الإيمان من الأرض حتى عم الناس هذا البلاء ، وأصاب العلماء منه ما أصاب الجهلاء ؟ » .

فقلت له : يا شيخنا ! كان عـــدد الناس فى صدر أيامك قليلا ، وكان خير الله بالنسبة إليهم كثيراً ؛ فكانت الحياة وادعة ، والنفوس قانعة ، والجوارح عفة ، والجوانح سليمة وبراءة الصدور من الحسد تصل قطيعة القلوب بالألفة ، وترفه لنوب العيش بالمعونة . وخلو البال من الهم يدفع المرض عن الجسم ، ويصد الرذيلة عن الروح فلما جاءت المدنية الكاذبة وفرت وسائل الصحة ، ومدت أسباب الأمن ، فزاد النسل أضعافاً مضاعفة ، وكثرت الحاجات كثرة فاحشة ، فتزاحم الناس على موارد

الرزق ، وتكالبوا على مواد العيش ؛ ثم أيأستهم هذه للدنية من عزاء الدين ، وشككتهم فى ثواب الله ، وأرابتهم فى غناء الخلق ، فأصبحوا فى حضارتهم الزاخرة بعجائب العلم كأوابد الوحش ، لايقودهم إلا غريزة الحى ، ولا يحكمهم إلا قانون الحياة . والله وحده يعلم كيف يكون المصير !

فقال الشيخ عثمان فى تسليم المصدق واستسلام المؤمن :

« الأمر لله يا بنى ! لايقع فى ملكه إلا ما يريد . نسأله تعالى أن يبقينا فيكم على سلامة ، ويخرجنا من دنياكم على خير »

الخريف في الريف

(أول نوفبر سنة ١٩٣٧)

دعنا الآن من القاهرة ! فبشرها الباسم قد استسرَّ في قطوب الطبيعة ، وشجرها الوارف قد اقشعرَّ من[1] رياح الخريف ، وهدوؤها الشاعر قد غاب في صخب الفتنة . وكأنما خفقت في جوها المستنير الصافي أبابيلُ سود من طيور الليل !

دعنا الآن من القاهرة ! فقد أصيب حِلمها بداء السياسة ، ونكب رأيها بتدليس الهوى ، وامتحن خلقها بشهوة المنفعة ، وكأنما فرغ القادة من جهاد الأجنبي ليشوى بعضهم بعضاً في حريق الوطن !

دعنا الآن من القاهرة ! وتعال نرفه عن حواسنا وأعصابنا في مكوثنا بالريف الآمن ، وفي كنف الفلاح المؤمن ، حيث الهوى جميعٌ والخريف ربيع والطبيعة الكهلة رُواء وغناء وسحر !

يقول هوجو : « إن الخريف هو الربيع انبعث من القبر ناساً حُلاه وحلله » ولكن الخريف للمصرى في الريف هو الربيع الحق في نضرته وزينته وعطره . فبينا ترى الحقول المتصلة في بياض الدمقس[2] أو صفرة النضار يجردها سبتمبر من القطن الحريري الأشوك والرز المسجدى الهائج[3] ، إذا بها في خضرة السندس أو زرقة اللازورد ، يكسوها أكتوبر أعواد الذرة الغنّاء وقصب السكر الوريق ونبات البرسيم المؤزر[4] ، فأينما

---

(١) اقشعر النبات : تخشن وتقبض وتغير لونه . (٢) الدمقس : الحرير الأبيض

(٣) الهائج من النبت : اليابس .

(٤) أزر الزرع بعضه بعضاً : تلاحق والتف فهو مؤزر .

أدرتَ بصرك لا تجد إلا رياضاً شجراء من شراب وحَب ، ومروجاً فيحاء من زهور وكلأ . ثم ترى النيل فى أعقاب فيضانه كذوْب التبر ينساب هادراً فى الترع والقنوات ، فيجعل من ضفاف الجداول وحفاف الطرق وحواشى الغيطان سلاسل زبرجدية من الريحان والعشب . وتنزل على الفلاح المكدود سكينة الرضا والأمل ، فينقلب شاعراً يتهادى فى ظلال الذرة الخفاقة ، على مدرجة الطريق المخضوضر ، وفكره مستغرق فى الله الذى يضع البركة فى غيطه ، أو فى المرأة التى تجلب السعادة إلى بيته .

ها هو ذا بعد صيفه الجديب المجهد يستنشى نسيم الراحة بين أولاده على مصطبة الدار ، أو بين بهائمه على رأس الحقل . ويتربص بقطنه المخزون الثمنَ الربيح ، ليقضى دينه فيستريح ، ويزوج ابنه فيفرح ثم يكسو عوارى الأبدان (بالدبلان) و (الشيت) ، ويمحو مرارة الأفواه بالرمان والبلح . وترى القرية بذكورها وإناثها تعيش فى فسحة هذا الأمل ودعة هذه الحياة وبهجة هذه الحقول فى فيض من الرخاء والغبطة لا يسممه كيد ولا تكدره منافسة .

خريف الريف وربيعه يتفقان فى الخصوبة والبهجة ، ويختلفان فى الحيوية والطبيعة . فبينما تجد ربيع إبريل ومايو مواراً بالحياة ، فواراً بالعاطفة ، هداراً بالهتاف ، يجعل من كل حى حركة لا تنى ورغبة لا تخمد إذ تجد ربيع أكتوبر ونوفمبر ساجى النهار سجسج الظل ساكن الطائر ينفض على كل امرىء دعة الطمأنينة وسكون التأمل وروعة العبادة . فالمشية وئيدة الخطوات ، والوقفة بعيدة النظرات ، والجلسة طويلة الصمت ، والشبان والشواب يتبادلون التحايا بغمز العيون وافترار الشفاه ، كأنما هم وهن نشاوى من رحيق عجيب يعقد الألسن ولكنه ينعش الروح ويوقظ القلب ويبسط المشاعر !

أى جمال أملك للنواظر والخواطر من جمال السماء الريفية وقد زينتها رياح الخريف بقزعات[1] من الغيم الرقيق كأنها القطعان البيض ترتعى فى المروج الخضر ؟ هذه السماء بألوانها السحرية المختلفة التى تتعاقب عليها بتعاقب الساعات ، تنطبق على أرض كرقعة الفردوس لا ترى فيها خلاء ولا عراء ولا وحشة ، ولا تسمع فيها لغواً ولا تأثيما إلا هتفات الطير الجاثمة على أعذاق[2] النخل اليانعة وسنابل الذرة النضيدة ، وإلا شدوات الرعاة قد كوموا الحشيش أمام الماشية وتحلقوا حول النار المشبوبة يشوون عليها أمطار الذرة[3] وصغار السمك ، ثم يأكلون ويغنون فى لذة وبهجة !

***

عهدُنا بالريف فى أيام الخريف أن يكون بنجوة من الهم وسلامة من الكآبة ، فالأهراء طافحة بالحب ، والمخازن مفعمة بالقطن ، والغيطان كاسية بالزرع ، والجيوب غنية بالمال ، والنفوس رخية بالرجاء ، ولكن ما بال فتيان القرية وفتياتها على غير ما نعهد ؟ يمشون ساهمين ، ويقفون واجمين ، كأنما غاب عن كل عين حبيب ، ومات فى كل نفس أمل !

ألا تراهم يا (حسن) يدافعون الأسى عن وجوههم ببسمات مكذوبة لاتخدع النظر عن الكمد الباطن ؟

— ماذا يصنعون ياصديقى والدائن يقتضى (القسط) ، والصراف يطلب (المال) ، والمالك يريد (الإيجار) ، والأسرة تبتغى (الكسوة) ، والقطن وهو سداد هذا كله يصبح عقدة المشكلة وغَلَق[4] الأزمة ؟ ثمنه البخس

---

(١) القزعات : قطع من السحاب متفرقة صغار .
(٢) الأعذاق جمع عذق : وهو من النخل كالعنقود من العنب .
(٣) الأمطار . جمع مطر بضم الميم وهو كوز الذرة .
(٤) الغلق محركة ما يغلق به الباب ويفتح بالمفتاح

لا يفى بتكاليف زرعه ، بله ما يحمل عليه من الأسباب ويناط به من المنى .
ها هم أولاء بنوهم وبناتهم كانت أحاديث أحلامهم أن يتزوجوا فى هذا العام الذى يتزوج فيه مليكهم المحبوب ، تفاؤلا بطالعه وتيمناً بجده ، فرد هذا الكساد المونس أحلامهم أضغاثاً وأطماعهم وساوس . فكيف تطمع بعد ذلك أن ترى البسمة التى تعهد ، وتسمع الأغنية التى تحب ؟

فقلت له والأسف يغلب على صوتى وكلامى . مهما يكن من الأمر فإن خريفكم أجمل من ربيع الشعراء ، وعبوسكم أنبل من بشر الكبراء ، وغيمكم أفضل من صفوة القاهرة .

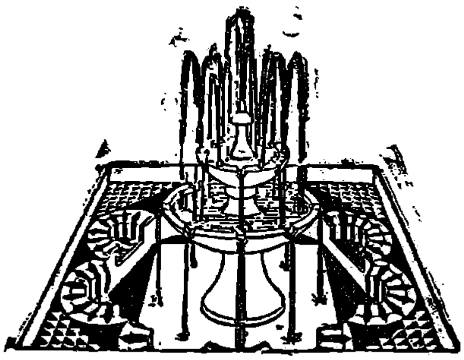

محمد فريد

(٢٣ نوفبر سنة ١٩٣٧)

ما كان أحقنا ونحن نجنى ثمرات الجهاد ، ونعقد أقواس النصر ، ونحيي بطولة الزعماء ، ونحيي ذكرى الشهداء ، أن نضع إكليلا من الزهر الندى على قبر الشهيد الأول محمد فريد !

لقد استشهد فى مثل هذا الأسبوع الذى وقعت فيه موافقة البرلمان على المعاهدة واحتفال الشعب بذكرى الضحايا فكيف غفل اللسان الذاكر وذهل الفؤاد العروف عن تحية المجاهد الصابر والمضطهد المهاجر والصريع المحتسب ؟ وما أقل التحية للذين نفروا لخلاص الوطن لايبتغون ثراء ولا دعة ، وهاجروا فى سبيل الحرية لايجدون مراغماً ولا سعة ، ولفظوا أنفسهم فى منازح الغربة ومضاجع البؤس حسرة لحسرة !

هذه دورهم ، كان العزة فى أفيائها مراد ، والنعمة فى أفنائها ربيع ، فتقوض فيها المجلس وانصرف عنها اللاجىء وتعاقب عليها مالك بعد مالك ! . . . وهذه قبورهم ، تناوحت عليها سواف الرياح فطمست الشاهد وأبهمت الأثر وتناهبها هالك بعد هالك ! وهذه ذكرياتهم ، ملأت المسامع وعمرت القلوب حينا من الدهر ، ثم أوشكت اليوم لكنود الناس أن تغوص فى لجج النسيان والعدم ! . . . وهذه أرواحهم ، كانت فى المحن السود تباكرنا بالعزاء وتراوحنا بالأمل وتغاديا بالمعونة ، ثم أقبلت ساعة النصر تخفق فخورة مع العلم ، وتصفق مؤيدة مع البرلمان ، وتهتف مبتهجة مع الأمة ، ولكنها لم تسمع وا أسفاه من بادلها تحية برحمة ، وجازاها وفاء بدعاء ! . . .

إن الشريعة تنسخ الشريعة ، والفكرة تطرد الفكرة ، والجديد يخلف القديم ، ولكن الجهاد فى سبيل الوطن غاية ، لكل جيل فى طريقها خطوة ، وبناية ، لكل عامل فى إقامتها حجر والخطوة اللاحقة لا ترد الخطوة السابقة والحجر الأعلى لا ينقض الحجر الأسفل . والمثل العليا من الرجال قليلة فى عهدنا الحديث ، فما أولانا أن نضمن بهم على الفناء ، فننصب تماثيلهم فى كل ميدان ، وندرس تاريخهم فى كل معهد ، ونرفع ذكرهم فى كل مناسبة .

* * *

واحسرتا على حظ فريد من أمته ! حبس عليها ثروته ورضى بالجوع ، ورصد لها قوته وصبر على المرض ، وضحى لها أسرته وعاش على التشريد ؟ ثم كان نصيبه منها برا لا يسعف ، وتقديراً لا يدوم ، وذكراً لا يتصل ، وقبراً لا يعرف !

كان فريد — برد الله ثراه وخلد ذكراه — سليل مجد وربيب نعمة

وحليف جاه وكان من الجائز أن تكون سبيله فى الحياة سبيل كل أمير وكل كبير : يغتصب ثروته من عرق العامل ، وقوته من دم الفقير ، ومسرته من دمع البائس ، وجبروته من ظلم الضعيف ؛ ولكنه تنكب طريق المترفين واتبع هادى الفطرة ، فدخل به سواد الشعب وقرنه فى أغلاله وشركه فى ذله ، فدفعته الجبلة الحرة إلى أن يتطوع لإنهاضه بجهده ، ويتبرع لإنقاذه بماله ثم اتصل برسول الوطنية يومئذ مصطفى كامل ، فكان منه مكان أبى بكر من محمد رفع معه ألوية الجهاد على سواعد الشباب الفتية ، ثم خلفه على تكاليف الدعوة من جهد وبذل وتضحية ، فاستمر ينفخ فيما يشبه الرماد ، ويصيح فيما يقارب الجماد ، حتى اشتد عليه أذى المحتلين وكيد المنافقين. فهاجر ناجياً بحريته وفكرته ، ولاذ بالآستانة يبتغى بها متنفساً لآمال مصر ، ومضطرباً لعزائم الشباب ، فكان فى هذه المدينة ذات الأستار والأسرار والحفر قبساً من الحق الساطع الصادع يبعث فى قلوب المصريين المهاجرين والطلاب الضوء والحرارة .

كان يدعو شبابنا الوديع إلى الثقافة الحربية فى المعاهد العسكرية التركية استعداداً لليوم الموعود والحدث المنتظر وكانت الحرب الكبرى قد انفجرت دواهيها على العالم يومئذ ، فحاول أن يكون لمصر من أعقابها المجهولة مغنم وكأنما دس عليه أهل الإفك ، أو عارضت أطماعه أطماع الترك ، فائتمروا به ليحاكموه ففر خفية إلى برلين وهناك أراده الألمان على أن يكون وسيلة من وسائل الحرب السرية فى الشرق ، فأبى عليه خلقه الصريح وجوهره الحر أن يكون أداة لهم ليعيش وتفرق عنه الرفاق إلى موارد الرزق الممكنة . وانقطع عنه المدد من مصر ومن غير مصر ، فعمل عمل الأجير ، وعاش عيش الفقير ، يتبلغ بما يمسك الرمق ، ويكتسى بما يستر الجسم ، ويأوى إلى غرفة

فى بعض السطوح يكابد فيها المرض والفقر والوحدة والغربة ، حتى أدركه الموت البائس الخامل وهو فى غيابة برلين للقهورة الباكية ، ليس فيه إلا فم يهتف للحرية ، وإلا قلب يخفق لمصر !

إن فريداً كان مثال الفكرة السليمة والوطنية القويمة والرجولة الكاملة والتضحية المؤمنة بذل فى سبيل الوطن ما بذل عثمان بن عفان فى سبيل الدين ، ثم كانت عاقبة أمره أن مات كما مات عثمان شهيداً غير مفهوم . ولكن الله جازى فريداً بما جازى به عثمان : جعل اسمه للخلود وروحه للخلد !

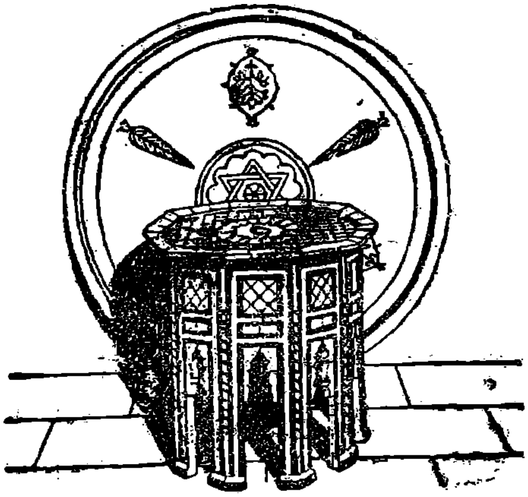

الصيام بين عهدين

(١٥ نوفبر سنة ١٩٣٢)

التجدد أو التطور يصيب كل شيء فيجعله أعلى عال أو يرده أسفل سافل!

كان عهدنا بالصوم قبل اليوم أن يكون عصياناً للنفس في طاعة الله، وحرماناً للجسم في مَبرّة الروح، ونكراناً للذات في معرفة الناس؛ فالجوارح مغلولة عن الأذى، والمشاعر مكفوفة عن الشهوة، والخواطر مستغرقة في الدعاء، بين نهار كله إحسان وتأمل وتصدّق، وليل كله قرآن وتواصل وتهجد. فلا الغنيّ يهيج به البطر، ولا القوى تفرط عليه القدرة، ولا الفقير يتجهم له الحرمان؛ وكأنما زالت الفروق بين الناس فأصبحوا سواسية في نعمة الدين وسعادة الدنيا!

كان الرجل الدنيوى الشهوان إذا أقبل عليه رمضان تاب وتطهر، فلا يفتح فمه لهجر، ولا عينه لفحش، ولا أذنه للغو، ولا قلبه لخطيئة. يقضى يومه مضطرباً في المعاش على أفضل ما يكون الخلق. فإذا كان تاجراً لا يدلس، أو صانعاً لا يزوِّر، أو عاملاً لا يفرِّط، أو معاملاً لا يخون ويحيى ليله في استماع القرآن ومواصلة الإخوان وموادة ذوى القربى. فإذا ما انقضى بعض الشهر بدا عليه شحوب الصوم وذبول الصلاة وكلال السهر وخشوع الورع. فلو كنت حاضر ذلك العهد لرأيت رمضان عيداً قومياً ودينياً يؤكد أسباب القرب بين الله وعباده، ويوثق عرى الحب بين الشعب وأفراده.

ذلك عهدنا برمضان الأمس أما رمضان اليوم فبحسبك أن أصف لك

حياة من حيوات القاهرة فيه ، وتستطيع أنت أن تصور لنفسك الطور العجيب الذى آل إليه شهر القرآن والعبادة .

هى أسرة لا أقول إنها مثال لكل الأسر ؛ ولكنها استجابت لنوازع التجديد الأبله استجابة الإمعة ، فأصبحت تمثل ماعسى أن يكون بين التقاليد والتقليد من التناقض المضحك .

(م. م) باشا يتبوأ منصباً من مناصب الدولة الرفيعة . بلغه بعد حياة طويلة كادحة ، تبتدىء من القرية الحقيرة والأسرة الفقيرة والوظيفة الخاملة ، وتنتهى إلى هذا الجاه العريض والثراء الضخم والمنزل المرموق . فهو وزوجه من عهد ، وابناه وبناته الثلاث من عهد والتفاعل بين هذين العهدين هو الذى أحدث هذه الظاهرة التى تجدها اليوم فى أكثر بيوت القاهرة . لابد لهذه الأسرة أن تصوم ذلك حكم النشأة وسلطان العادة ولابد كذلك لهذا الصوم المتزمت الجافى أن يتسع باله وترق حواشيه إذا مانزل على هذه الأسرة فهو يسبل جناحيه الرءومين على أسرتها الوردية الوثيرة من طلوع الفجر إلى متوع النهار ، ثم يمس بريشهما الناعم خدود الأوانس النواعس فينتبهن ، ويهب الوالدان على زقزقتهن فى غرف الزينة وطنف القصر ؟ ثم يجتمع بعد قليل مجلس الأسرة لينظر فى مقترحات البطون على إدارة المطبخ ؛ فهذه تقترح ، وتلك تعترض ، وهذا يطلب لوناً ، وذلك يطلب آخر ، والباشا يدير هذا الجدل الشهى إدارة موفقة ، فيعدِّل أو يكمل أو يؤجل ، حتى ينتهى النقاش بثبت حافل بالمشهيات والمقليات والمشويات والمحشوات والفطائر مما لاتجد بعضه فى مطعم كبير .

يتغير هذا الثبت كل يوم فيطول أو يقصر ، ولكن لونين لاينالهما تغير

ولا ينقصهما نقص : لوناً من الأرانب مطبوخة فى النبيذ يحبه الباشا ، ولوناً من الشرائح الوردية مطعمة بفصوص من شحم الخنزير تحبه الآنسة الكبرى (سين) !

هاهوذا الباشا البطين يتذبذب وئيداً بين المطبخ والمائدة كأنه رقاص الساعة ، فى يده مسبحته الكهرمان الصغيرة يهش بها على الطهاة والخدم ، وشفتاه تختلجان من غير كلام ، وعيناه تتحركان من غير نظر ؛ حتى إذا دنت للغرب خفت حركته واحتد نشاطه ، فأقبل على المائدة ينسق الآنية ، وينضد الأكواب ، ويسكب أمام كل آ كل الشراب الذى تعوده فهنا قمر الدين ، وهنا منقوع التين ، وهنا الكينا ، وهناك القرمود ، وهنالك ماء إفيان ، وأمامه هو شراب صحى فاخر من صيدلية (يني) ! ثم يدبج الخوان الخملى بنوافل المائدة من السلطات والكوامخ ، ويرتب الألوان مع الغلام على أصول مقررة فى الفن . ثم يسرح بعد ذلك بصره فى السماط المكتظ فيرتد إليه ملآن بالرضا والعجب ! فيخرج إلى الردهة ، ومن الردهة إلى الشرفة ، فيلقى النظرة الأخيرة على الشمس الغاربة ، ثم يعود فيرى الأسرة بجنسيها لم تفرغ بعد من إعداد الأهب للسهرة الراقصة ، فالحلل تُنتقى ، والحلى تختار ، والشعور ترجّل وتموج ، والأظفار تدرّم وتصبغ ، والحواجب تدقق وتخطط ، والخطوات والالتفات والبسمات تتكرر أمام المرايا لتُراض وتتقن ، حتى إذا نطق مدفع الإفطار من المذياع أهرعوا إلى المائدة إهراع جنود الإطفاء إلى السيارة . ثم يجلس الباشا بين بنيه ويضع المسبحة المعلومة مكان القدح المجهول ، ثم يرفعه إلى فمه وهو يقول : « اللهم لك صمت ، وعلى رزقك أفطرت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ! » ثم يقبلون على هذه الآكال وهذه الأشربة إقبال الشره القاره ! فلو رأيتهم حسبتهم صاموا العام كله ليفطروا فى رمضان !

أذنت العشاء فصلاها الباشا الصالح ! ولم يكد ينفلت منها حتى أخذ يعد بمقصف الليلة من النقول المختلفة ، والأشربة الهاضمة ، والأزهار الجنية ، وأخذت الأسرة زينتها التامة الكاشفة ، واجتمعت فى البهو الفسيح الفخم تستقبل أسراب السيدات والأوانس ومعهن أبناؤهن وإخوتهن من الأيفاع والشباب ، فيعزف البيان ، ويخفق العود ، وتشدو الكواعب ، ويهزج الفوتغراف ، ويدور الرقص على نمطيه الشرقى والغربى ، فتلتف الأيدى على الخصور ، وتلتصق الصدور بالصدور ، وتمتزج أنفاس الكحول بأنفاس العطور ، ويقف رمضان المسكين من هذه المناظر المريبة وقفة شيخ من شيوخ الدين دفعت به الأقدار إلى ماخور !

هذه والله صورة ناطقة لأسرة أعرفها ويعرف أمثالها الناس . فمن عرفها فسيقول قصر ، ومن جهلها فسيقول بالغ . والحق أنها صورة الواقع لا يعوزها إلا تسمية الأسماء وتعيين المنزل .

ثورة على الأخلاق

(٢٢ نوفمبر سنة ١٩٣٧)

– مارأيتك يا خالد على هـذه الحال منذ عرفتك ! أين السماحة التي تفترّ في ثغرك ، والغبطة التي تشرق في صدرك ، والرضا الذي كان يجعل من حياتك نموذجاً لعلماء الدين وجهابذة العلم وفلاسفة الخلق ؟

– ماذا أصنع ياصديقي والناس أصبحوا يشككونني في مزايا الأخلاق وقيم الفضائل ؟ كنت أضطرب في دائرة ضيقة من العيش فيها كل مافي الدنيا الواسعة من لذة الروح بالأهل ، وسرور القلب بالإخوان ، ومتاع العقل بالكتب ، ونشاط الجسم بالعمل ، وليس فيها البحران الذي يحدث من حمى الهموم ، ولا الجحيم الذي يشبُّ من تحاسد الخصوم ، ولا اللجب الذي ينشأ من تنافس المجتمع وكنت وأنا في هذا العالم الصغير المحدود أعتقد أن القواعد التي سنها الأخلاقيون لتهذيب الإنسان من الخلال المضادة لغريزته ، قد استطاعت على مر القرون أن تخفت في دمه صوت الحيوان ، وأن تلائم بين موهوب الطبع ومكسوب العادة من تناقض الرأى وتعارض الهوى ، وأن تجعل من سلطانها الغالب دستوراً لحياة الناس ، فيكون بها مقياس السؤدد وفيها سبب الرقي ومنها وسيلة النجاح . نعم ياصديقي ، كنت أعتقد ذلك وأستبعد أن يكون للمدنية معنى غير الثقافة ، وللثقافة مدلول غير الكفاية ، وللكفاية نتيجة غير الفوز ، حتى ألجأتني طبيعة عملي العام إلى توسيع هذه الدائرة ، فوسعتها بمقدار ما استلزمه العمل من ملابسة الشعب ومراجعة الحكومة ، فإذا كل ما قرأته زور ، وما تخيلته وهم ، وما اعتقدته

باطل ماشيت العامة على منهج الدين فلقيت الكفر ، وعاملت الخاصة على هوى الخلق فوجدت النفور ، وعالجت الأمور على مقتضى القانون فأدركت الخيبة فذهبت أفتش فى الناس عن أسباب الفوز فلم أجد من بينها سبباً يمت إلى الفضيلة أو يتصل بالكفاية .

هذا الباشا فلان يملك القرى بإنسانها وحيوانها وأطيانها ، وله المقعد المرفوع فى البرلمان ، والصوت المسموع فى الحكومة ، والأمر النافذ فى البنوك ؛ وهو رجل لايزال على الفطرة الأولى من الوحشية والعنجهية والجهالة .

وهذا البك فلان تشغل عمائره الخلاء والهواء من المدينة ، وله على أغلب الأسردين ، وعلى أكثر البيوت اختصاص ولو سألت جيرانه الأولين عن مصدر هذا الثراء الضخم لأجابوك بلهجة المحنق الموتور بأنه الربا الذى لا يحفل القانون ، والغش الذى لا يبالى الفضيحة ، والاختلاس الذى لايخشى الله ، والبخل الذى لا يذكر الموت .

وهذا الموظف فلان يملك القصر المنيف فى أجمل بقعة ، والسيارة الفخمة من أعلى طراز ، والمرتب الضخم من أول درجة ، وله الوصل والقطع فى أمور الناس ، والمنح والمنع فى أموال الدولة ، فهل بلغ ما بلغ بعلمه ؟ إنه لا يحمل غير الشهادة الثانوية ! هل نال مانال بكفايته ؟ إنه لا يحسن غير الإمضاء فى الموضع الذى يضع عليه الكاتب الصغير إصبعه من الورقة ! إذن لم يدرك الرجل ما أدرك إلا بفضل المرونة التى تكون فيمن خلقوا من المطاط لا من الطين ، فرأسه ذو وجهين ، ولسانه ذو شفتين ، وضميره ذو باطين ، وشرفه ذو رأيين ، يدارى ويجارى ، وينافق ويمالق ، ويهان فيغضى ، ويستباح فيبيح وهو متفرق الأحاسيس فلا تجتمع له عاطفة ، متنافر

المنازع فلا ينسجم له رأى ، معوج المسالك فلا يستقيم له مذهب :

وهذا الأستاذ فلان يأكل فى صحاف الذهب والفضة كالنابغة ، ويخطر فى مطارف النعيم والجاه كابن العميد ، ويملك للناس الضر والنفع كابن عبد الملك ! فلعله أصاب ما أصاب من وراء علمه وخلقه ليت ذلك كان فتشذ القاعدة ويخطىء القياس . ولكن الأستاذ نجح وا أسفاه لأنه باع العلم بالسياسة ، واشترى الدنيا بالدين ، واضطرب فى مهب الأعاصير حتى رفعه أحدها على متنه ، ثم استقر على المنحدر الشاهق استقرار الريشة القلقة !

ثم رجعت أبحث عن أسباب الفشل فوجدتها لاتخرج عن حدود الفضائل التى تمشقها ابن آدم منذ أدرك ! فالعلم والصدق والصراحة والشجاعة والقناعة والأمانة والنزاهة والأنفة والحلم والتواضع والجود ، كل أولئك عوائق عن درك الغنى ونيل الجاه وكسب الشهرة . وأقوى البراهين على إقناعك أن تستقرى أحوال المصابين بهذه الخلال فهل تجدهم إلا أواخر الموظفين فى الديوان ، وأخسر المتعاملين فى السوق ، وأضعف المتنافسين فى المجتمع ؟

لقد تدبرت الأمر فوجدت الفضائل لا تنتصر إلا فى الروايات والقصص أما التاريخ الذى يسجل الواقع ويروى الحق فهو دامى الصفحات بأخبار الأنبياء والعلماء والفضلاء والمصلحين الذين أوذوا فى سبيل الدين ، وقتلوا فى خدمة العلم ، ونكبوا فى مرضات الحق ، وشقوا فى حب الفضيلة .

فهل نقول بعد ذلك إن الأخلاق الفاضلة لاتزال عدة النجاح وطريق السعادة ؟

فقلت له : أما أنها طريق السعادة فنعم ونعم وأما أنها عدة النجاح فلا أجد في نفسي الآن قوة على تأييده ، لأن لي في بعض (المصالح) مسألة لم يفسدها إلا رعايتي للخلق ، ولأن لي في بعض الوزارات مسألة أخرى لم يعقدها إلا محافظتي على القانون . فليس لك عليّ إلا أن أعرض رأيك على رجال الدين وحماة القانون ودعاة الأخلاق ، ليردوا عليك ما كذب من قولك ، أو يردوا إليك ما عزب من عقلك .

رَجُلٌ سَعِيدٌ

(٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٧)

وعدتك ياخالد أن أقص عليك حديث الرجل السعيد بخلقه ودينه عسى أن تجد فيه مايبرد غيظك ويرد حلمك ويقر بالك وهأنذا اليوم أسوق إليك هذا الحديث على سرده :

دخل عليّ هذا الرجل وأنا مكب على عمل دقيق حافز ، فلم يسعنى حين رأيت ما عليه من سمت الوقار وسيما الخير إلا أن أدع ما فى يدى وأفرغ له .

— نعم ياسيدى — !

— أنا رجل من أهل . . . قرأت ما كتب فى « الرسالة » عن الأخلاق ونكولها أمام الغرائز الوصولية فى الإنسان ، فساءنى وايم الله أن تشتبه المعالم حتى يضل الهادى ، وأن تعترك الظنون حتى يشك المؤمن . وليس لى قلم أضعه بين هذه الأقلام فيدلها على موضع الحق ، أو يعيها على مقطع الحكم ، فآثرت أن أشخص إليك لأكون أمامك مقالا حياً يقرر ودليلاً ناطقاً يؤيد .

وفى الحق أن الرجل كان فى بزّته العربية المهندمة ، ولهجته الطبيعية المتّزنة ، كأنما ينطق عن وحى الفضيلة العليا . فقلت له : أتظن أن الفاضل ينجح بمحض فضله فى هذا العصر الآلى الأصم ؟

فقال . لا أظن وإنما أعتقد . لا أنكر مع هذا الاعتقاد أن الفضيلة وعرة الطريق ، وأن الخير صعب المرتقى . وفى قول الرسول الكريم : « حفت الجنة بالمكاره » و « القابض على دينه كالقابض على الجمر » ما يصدق ذلك ؛

ولكن الفضائل تعليم وتعويد ورياضة ؛ فإذا أوف [1] غرسها فى النشء ، وضعف أثرها فى المجتمع ، دل ذلك على فشل التربية لا على فشل الفضيلة .

أنا رجل واسع الثراء سابغ النعمة وقد جمعت مالى الوفر من ذلك الطريق السوى الذى ألزمنى إياه أبى منذ الصغر . فليس فى نصابه قرش زائف ولا متر مغتصب . وورثت عن أبى الدين الصحيح على أنه دستور الدنيا ، والخلق الصريح على أنه جوهر الدين . ثم زاولت التجارة بالصدق والصبر فاستغنيت ، واقتنيت العمائر والضياع فأثريت ، وأديت الصلاة فوصلت مابينى وبين الله ، وآتيت الزكاة فأصلحت ما بينى وبين الناس ثم أحصنت نفسى بالزواج الباكر فوهبتُ البنين ، وعصمت شهوتى من المتع الحرام فرزقت العافية ، وطهرت قلبى من الطمع الحاسد والخصام الحاقد فأوتيت السكينة . ثم جهلت البنك فجهلت الربا والدين ، وأنكرت المحكمة فأنكرت العداوة والظلم ، ووضعت فضل مالى فى أيدى ذوى الخلق من التجار يحفظونه لى ويستثمرونه لهم ، وجعلت أرضى فى ذوى الدين من الزراع يقومونها علىّ ويستغلونها عليهم ، ومسست بالمؤاساة والرحمة قلوب البائسين حولى فسلت منهم الضغينة . ثم كان لى فى كل مبرّة سهم ، وفى كل مستشفى سرير ، وفى كل مشروع وطنى يد . فأنا أمشى فى الناس ملحوظ الشهادة محفوظ الغيب ، لا تمتد يد إلى مالى لأنه مبذول للسائل والمحروم ، ولا ينبسط لسان فى عرضى لأن جاهى موقوف عَلَى المتعطل والمظلوم ، ولا يأتمر أحد بحياتى لأن وجودى أمان للشقى من البؤس والجريمة .

أما سعادتى فى نفسى وولدى فهى أعظم وأتم من سعادتى فى عملى ومالى : أجدنى كنف الرجاء لكثير من الأسر الفقيرة ، ومصدر العزاء لطائفة من القلوب الكسيرة ، وأرى فى كل نظرة وفى كل بسمة وفى كل كلمة معانى

---

(١) أوف الزرع : أصابته آفة

لاتتناهى من العرفان والحنان والشكر ، فتعظم سعادتى فى نفسى ، وتجمل دنياى فى عينى ، ويغمرنى شعور من عزة المؤمن وزهو الخاشع ، لأن حياتى لها هذا الخطر فى حياة بعض الناس . ثم أنظر إلى بَنِىَّ الثمانية فأرى فى وجوههم صورتى ، وفى صدورهم محبتى ، وفى شعورهم عاطفتى ، وفى ميولهم رضاى ، وفى آمالهم مناى ، فأقبل يدى ظاهراً وباطناً وأقول لنفسى : احمدى الله يا نفسى واشكريه فإن علياً لن يموت ، وإن تراثه لن يبيد ، وإن بناءه لن يتقوض !

ذلك كله يا سيدى بفضل الخلق . فإذا كان قد تهيأ لمثلى على جهله بقواعد المدنية وضروريات العلوم أن يجمع بمعونة الله وحده هذه الثروة الضخمة وليس له رأس مال من إرث ولا فيض رزق من حكومة ، وأن ينال هذا الجاه العريض وليس له نسب عريق فى أسرة ولا سبب وثيق إلى سلطان ، وأن يخلق من حوله هذا النعيم المقيم فيغرق فيه أهله وعشيرته وبيئته ، وأن يرفع بناء الأخلاق الفاضلة فى بنيه بالتربية وفى أهله بالقدوة وفى مواطنيه بالتقليد ، فكيف لايستطيع معلمو المدرسة ووعاظ المسجد ومشرعو البرلمان أن يخلقوا فى كل مكان هذه البيئة وتلك الجنة فيصلح المجتمع ويسعد العالم !

فقلت له وقد أعجبنى عقله وأمتعنى حديثه : ياسيدى إن من سعادتك وسعادة الناس بك أنك صاحب عمل لا صاحب علم ، وأنك رجل عزيمة لا رجل رأى . فلو كنت من كهنة العلم لصعدت إلى قدس الأقداس وظللت تقرأ الفلسفة والأخلاق لرياضة العقل أو للذة المعرفة أو لشهوة الجدل ، ثم رميت الناس من عليا سمائك بالآراء المتعارضة والأحكام المتناقضة لتصطرع فى المطابع حيناً ثم تموت فى الكتب .

لا يزال المربون ياسيدى يجادلون فى أغراض التربية ويجربون نظرياتها المختلفة فى حقولهم الخاصة . فليت شعرى وشعرك أيتاح لهؤلاء فى دهر من

الدهور أن يقبضوا على أعنة الأمم ويتولوا القيادة فى ركب الحياة ! ؟ ادع الله الناس أن يلهمهم من الحق ما ألهمك ، وأن يعلمهم من قواعد الخير ما علمك !

* * *

قال صاحبى الثائر خالد وقد شيا وجهه بشىء من الإيمان والاطمئنان ، وهل نستطيع أن نعد كثيراً من الناس على غرار هذا الرجل ؟ فقلت له يا صاحبى ! ليست المسألة مسألة إحصاء وعد ، إنما هى مسألة إمكان وواقع . ومتى ثبت أن الأخلاق الفاضلة استطاعت أن تصنع من هذا الرجل هذا المثال ، فلم لا تستطيع أن تصنع على غراره ملايين من الرجال ؟

من أحاديث العيد

(١٤ فبراير سنة ١٩٣٨)

أصبحت القرية الصغيرة غارقة في ضباب أمشير البارد الأهوج كأنها قطع السحاب المركوم جثمت من ثقلها على الأرض فالجو على قول « هوجو » كستار الغيب المسدول ، والنسيم على قول « ابن المعتز » كذيل الغلالة المبلول ، ووجه السماء كوجه الصحراء في يوم الدجن لا ترى فيه إلا تلولاً من الغمام الجون وسهولا من السحاب الهف[1] وكانت جدران المسجد تعج بالتكبير والتهليل ، وأفنية الدور تنعم بالعناق والتقبيل ، والطرقات من البيوت إلى الزاوية ، ومن الزاوية إلى المقبرة ، تزدان بالشباب القروى القوى العامل ، وهو يطفر من مرح الصبا ويخطر في زينة العيد ، فيكسب الطبيعة العابسة المقرورة بشراً من طلاقة وجهه ، وقبساً من حرارة قلبه .

أخذت « المناظر » والمصاطب زخرفها بالقوم بعد أن أقاموا الصلاة لله وأدوا الزيارة للموتى ، وقدموا التهنئة للأهل ، وانفضوا ثقالا عن سماط العيد ، ودارت عليهم أكواب القرفة ولفائف الدخان ، وتشققت بينهم مقطعات الحديث فترامت إلى عيد الملة بحج البيت ، وعيد الأسرة بيوم الأضحى . وكان اجتماع هذين العيدين السنويين في يوم العيد الأسبوعي[2] من مصادفات الدهر النادرة ، وموافقات القدر البعيدة ، فتألقت في وجوههم أضواء مختلفة من السرور ، وتدفقت في قلوبهم أحاسيس شتى من اللذة ؛ منها المنبثق عن

---

(١) الغمام الجون : الأسود . والسحاب الهف : الرقيق الأبيض .

(٢) يوم الجمعة .

مشرق الإيمان بالله ، ومنها المنبعث عن فيض النفس الراضية تفتحت فى حرارة الحب كما تتفتح الأكمام فى دفء الربيع .

* * *

من الصعب أن تقيد الأحاديث المرسلة إذا جرت بين قوم لايؤمنون بقواعد الجدل ، ولا يحفلون بأمانة التاريخ ، ولا يرون الحق للمتكلم فى أن يتم كلامه أو يشرح رأيه . وحديث الناس فى القرية كشقشقة العصافير فى الشجرة ، تسمع كل عصفور يغرد ، ولا ترى عصفوراً واحداً يسمع !

— كل عام وأنتم بخير ! واللقاء فى العام المقبل إن شاء الله على عرفات ! بهذه التحية وهذه الأمنية ابتدأ الحديث . وكأنما كان لفظ عرفات سبباً من الجذب الروحى حوّل عواطف القوم وأمانيهم إلى مكة ! فالذين حجوا أخذوا يذكرون وهم فى غمرة الشوق ونشوة الذكرى تجلى الألوهية فى مهابط الوحى ، وإشراق النبوة فى مطالع الرسالة ، ويروون عن كل منسك حديثاً ، ويقصون عن كل موقف حادثة . والذين لم يحجوا يصغون إلى صرف الحديث وهم من فعله الساحر فى هيام غالب وطرب نزوع .

ثم رجع الحديث من الكعبة إلى البرلمان فذكروا الحرب الانتخابية الضروس التى تفتك أسلحتها الأثيمة بالأموال والأنفس والأخلاق والقرابة . فالانتخاب بمآثمه ومغاومه هو المظهر الذى نحسه ونعرفه من مظاهر الدستور . وفترة الانتخاب هى الفرصة التى نرى فيها النائب طول الدورة البرلمانية . ومعركة الانتخاب بين الأحزاب ، وبين المرشحين والطلاب ، هى التى تحمل أولياء الحكومة وأغنياء الأمة على أن يذكروا القرية ، ويزوروا الفلاح ، ويعطفوا على بؤس الأجير ، ويمسحوا على رأس العامل ، ويعدونا المواعيد ويمنونا المنى ، ويصوروا لنا البرلمان فى صورة المسيح المنتظر ؛ فلا ظلم وهو منعقد ،

ولا بؤس وهو قائم ! فنقطع فى رضاهم القرابة ، وننقض فى سبيلهم الجوار ، ونتحمل فى نجاحهم العنت . حتى إذا فاز النائب ، والتأم المجلس ، وحكم الدستور ، انصرف البرلمان إلى الأحزاب ، واشتغلت الحكومة بالموظفين ، واهتم النائب بنفسه ! أما القرية والفلاح ، وأما الدائرة والناخب ، فرآهم مفتحم العين ، وشكواهم دَبْرَ الأذن .

* * *

ذلك بعض حديث القوم . وهو على سذاجته أو قل على تفاهته أخف على القلب وأندى على الكبد من حديث يزوّره كاتب يتعاطى الأدب ، أو خطيب يحترف السياسة .

في حفلة أدبية

(٧ مارس سنة ١٩٣٧)

أدبت السيدة (إ . خ) مأدبة لرجال الأدب ونسائه ، كانت على رأى من شهدوها مظهراً لذلك الأدب النغل[1] الذى يعييك أن تعزوه إلى وطن وأن تنسبه إلى أمة !

تفرنس فيها المدعوون حتى حماة اللغة والأدب ! بعضهم ملكته الحذلقة فاستكثر ظرفه وعلمه على اللغة العربية . وبعضهم غلبته المجاملة فخاطب الأديبات بلغتهن ، ولغتهن الفضلى هي الفرنسية . وكان الذين يتعصبون للعربية أو يتأدبون بالإنجليزية قلالا قد انتثروا فى غمار الحفل أول ما دخلوا . فلما أنكروا اللسان المتحدث بين القوم تراجعوا متزايلين مستوحشين إلى هامشه . ثم طفقوا ينظرون بعين المتفرج المتعجب إلى جمعى المذكر والمؤنث وهما يضطربان فى الأبهاء والحجر على غير قياس .

هذا يمثل الباريسى اللبق فيسلك طريقه فى السلام ، ويتخذ لهجته فى الكلام ، ويسمت سمته فى التظرف . وهذه تمثل إحدى (عالمات) موليير فتتصنع المعرفة ، وتتكلف الذكاء ، وتقدر نفسها بالقياس الطويل والوزن الثقيل ، فيمالق الذكى ويصدق الأبله وهذان يتضاحكان لحركة لا حظاها أو نكتة قالاها ، ثم يكتكتان فى الضحك ليلفتا إليهما السمع المشغول والنظر الغافل . وهاتان تتحدثان ووجهاهما متقابلان ، ونظراهما متدابران ، وكل منهما تبحث ذات اليمين وذات الشمال عن محدث أو معجب : وهؤلاء يتناقشون فى موضوع

---

(١) النغل ولد الزنا :

غريب بلسان غريب لم يوحه الوطن الذى نحيا به ولا المجتمع الذى نضطرب فيه ولا الأدب الذى نعيش له ؛ وإنما أوحاه رأى فى كتاب أو مقال فى صحيفة جاء به البريد الأخير من البلد الذى استوطنوه بالفكر واستقبلوه بالعبادة !

حدثنى أحد الذين دعوا إلى هذه المأدبة وهو أديب ظريف لا يعرف لغة هذا الصالون قال : كنت جالساً وراء القوم كأننى أحد (أولاد البلد) فى دار من دور السينما يشاهد فلماً فرنسياً ، فهو يرى ولا يعلم ، ويسمع ولا يفهم ، ولكنه مأخوذ بالمناظر التمثيلية التى تتقلب على عينيه ، فيغيب وهو حاضر ، ويحلم وهو يقظان . فإذا خشيت أن يلحظ الناس انقباضى عنهم بطول القعود قمت أتنقل بين المثنيات والجموع ، فأجدنى أشبه بالأطرش فى الزفة ، يرى الوجوه تنبلج ، والشفاه تنفرج ، والأيدى تتحرك ، وهو شاخص البصر ، مفغور الفم ، لا يدرى ما الذى يشيع السرور ويبعث الضحك : ثم جلست على مقربة من الأستاذ المازنى فرأيت ربة الدار تقبل عليه وتقدم إليه سيدة يقولون إنها من الأديبات النوابه . عرّفت إليها الأستاذ ونوهت بأثره فى الأدب ومكانه فى النهضة ، ثم تركتهما معاً وذهبت إلى غيرهما . وانتظر الأستاذ أن تتحدث إليه السيدة الأديبة فى قصة من قصصه أو فى رأى من آرائه ، فيكون فى ذلك بعض الترضية للأدب العربى المهان فى بلده وبين قومه ، ولكن السيدة الأديبة بدأت الحديث بهذا السؤال :

— حضرتك من مصر ولّا من الشام ؟

ولا أدرى أألقت على المازنى كلاماً فيه معنى أو دلواً فيه ماء ! فقد تخلص منها بلباقة وأقبل علينا يقول .

واضيعتاه ! أبعد ثلاثين عاماً قضيتها فى الأدب أكتب فى كل يوم مقالا ،

وألقى فى كل أسبوع محاضرة ، وأخرج فى كل سنة كتاباً ، أجد فى المتعلمات بالقاهرة من تسأل : أمن الشام أنا أم من مصر ؟ !

* * *

هذه حفلة أقامتها صاحبتها الأدبية لصحابتها الأدباء . وقد رأيت وسمعت كيف كان حرص أدبائنا عَلَى اللغة ، وإلى أين بلغ علم أديباتنا بالأدب . فهل تصدق أن يكون لهؤلاء أدب مستقل وهم ينكرون أن لهم لغة مستقلة ؟ لا جرم أن هذا النوع من هذا الأدب الحرام يزيف الأديب على أمته كما يزيفه على الأمم الأخرى . وإذا جاز لأولئك السيدات الأديبات أن يلغون بغير لغتهن بحكم نشأتهن وطبيعة ثقافتهن ، فكيف يجوز لأساتذة اللغة وزعماء الأدب أن يديروا فى أفواههم ذلك اللسان الاجنبى وما كانت قيمتهم فى الناس ولا دعوتهم إلى هذا الحفل إلا أنهم يحذقون اللغة العربية ، ويتزعمون الثقافة العربية ؟ !

إن من هوان نفسك عليك وإهانة جنسك فى الناس أن تتكلم غير لغتك فى بلدك و بين قومك من غير ضرورة ولا مناسبة ، فان ذلك إن دل على شىء فإنما يدل على عدم استقلالك فى خليقتك وعقيدتك ونمط تفكيرك وأسلوب عملك

ـ هل تستطيع أن تدلنى على بقعة من بقاع الأرض غير مصر ولبنان يجتمع فى دور من دورها مجلس من مجالس الأدب يحضره لفيف من أساتذة الجامعة وجهابذة الأدب وأقطاب الصحافة ، ثم لا يكون حديثهم إلا بالفرنسية ، ولا يدور نقاشهم إلا على موضوعات أجنبية ؟ !

يا قومنا إن لغة المرء تاريخه وذاته ، فالغض منها غض منه ، والتفضيل عليها تفضيل عليه . ولا يرضى لنفسه الضعة والصغار إلا مَهين أو عاجز !

سارة للأستاذ العقاد

(١٤ مارس سنة ١٩٣٨)

كنت أقول للذين يحلو لهم أن يصنِّفوا الكتاب إلى كاتب مقالة وكاتب قصة وكاتب نقد وكاتب سياسة وكاتب تمثيل : أن الكاتب الخليق بهذا الاسم يجب أن يكون أولئك جميعاً فاذا قصر جهده على بعضها ، فليس معنى ذلك قصوره عن بعضها الآخر ، بل معناه أن عمل الكاتب فى التعليم أو فى الصحافة ، أو حظّ الأمة من الحضارة والثقافة ، أو حال المجتمع من الرخاء والاستقرار ، يساعد اتجاهاً على اتجاه ، ويغلب نوعاً على نوع وما الكاتب إلا فنان موهوب ميزته تأليف الكلام الجميل تعبيراً عما يقع فى حسه وعلمه ، وتصويراً لما يجرى فى خياله وذهنه فاذ استمد الإلهام والمعرفة أحاط إحاطة الجاحظ و (جيته) ، وإذا استملى الشعور والعاطفة ألم إلمام (البديع) و (موسيه) . وانفساح ذرعه أو انحصار طبعه لا يدخل فى حسابه بالزيادة ولا بالنقص ، لأن الأصل فى فنه أن يجيد الكشف عما يحس والإبانة عما يعلم

قالوا : إن العقاد باحث جرىء الرأى ، وناقد نافذ البصيرة ، وجدلى دامغ الحجة ، ولكنه لا يملك أن يكون قصصياً يكشف بالوحى حجب الغيب ، وينمق بالخيال صور الحقيقة ، ويحيى بالعاطفة خمود الفكرة ، وتلمسوا لذلك الأدلة والعلل من طبيعة مزاجه واتجاه تفكيره وروح أسلوبه ؛ حتى رووا عنه أنه عاب القصة ونفى أن تكون نوعاً جديداً من أنواع الأدب . وكان الذين يسمعون هذا الكلام يقابلونه بالتصديق ويؤيدونه بالواقع ، فكنا نقول

لهؤلاء : إن الذى يعرض هذا العرض ، ويصف هذا الوصف ، ويحلل هذه التحاليل ، لا يعضل عليه إن أراد أن ينقل المشهد الذى رآه ، ويقص الخبر الذى علمه . وليس القصص كله خيالا حتى يسوغ فى العقل أن الكاتب الذى يضيق خياله و يضعف وهمه باتساع عقله وقوة فكره يقصر باعه عن القصة .

وجاءت (سارة) والرأى على ماخيل الراءونُ فأقرت الأمر فى موضعه من صميم الحق ، وقدمت الدليل القاطع على أن هذه الشخصية الأدبية قد بلغت المبلغ البعيد فى كل ناحية من نواحى الأدب ، حتى الناحية التى لم تتجه إليها إلا منذ أمس .

وهل صحيح أن أمس كان أول عهد العقاد بالقصة ، وأن سارة كانت أول ما كتب العقاد من القصص ؟ الحق أن الكاتب المطبوع يولد وفى قريحته أصول الأنواع الأدبية ، تنمو بنموه ، وتطّور بتطوره ، وترّقى برقيه ؛ ولكن ذلك يحصل لبعضها بالفعل و يحصل لبعضها الآخر بالقوة فلو أن العقاد كتب (سارة) أيام كتب (مجمع الأحياء) لكان من الراجح أن يكتبها من نوع غير هذا النوع وبأسلوب غير هـــذا الأسلوب ؛ ولكنه كتبها حين كتب (سعد زغلول) فجاءت من النوع التحليلى البارع ، وبالأسلوب المنطقى المشرق . والقصة التحليلية هى آخر أطوار القصة ، كما أن الشعر الفلسفى هو آخر مراحل الشعر ونتاج الذهن يتطور بين الطفولة والكهولة فى الفرد والأمة والخليقة ؛ فالأسطورة تنتهى إلى القصة ، والملحمة تصير إلى الرواية ، وشعر الغناء يؤول إلى شعر الفلسفة .

* * *

(سارة) قصة فتاة مثقفة لعوب أرملة ، وصفها العقاد فى فصلين لا تجد

كثيراً من أمثالها فى أدب العالم ، هما (من هى) و (وجوه) . عرفها هام المهذب العقل الطيب القلب وهو فى وسط عقده الرابع أعزب وحيد ، فشغفته حباً للأسباب التى حللها الـكاتب فى فصل من هذه الفصول ! ثم وصلت بينهما الطبيعة بالصلة التى لاحيلة فيها لانتظار ولا اختيار ولاخبرة. وظلت هى على نحيزتها الأنثوية تعابث وتخابث وتلبس تارة لباس (مانون)[1] ، وتارة أخرى لباس (مادلين) ، وظل هو عَلَى شكيكته العلمية يؤول ويعلل ، ويفرض الفروض ، ويثير الشكوك ، ويقوى حيناً فيـكون (دون جوان)[2] ، ويضعف حيناً فيكون (دى جْربو) حتى ذوى الحب بين الشك منه والسأم منها فتفرق العاشقان .

ليس فى القصة إذن حادثة تروعك ، ولا مفاجأة تدهشك ، ولا عقدة تشوقك ، ولـكن هذا الحادث العادى المطروق أصاب ذهناً شديد النفاذ وفـكراً دقيق الملاحظة وشعوراً صادق الحس ، فتجلى فى (ساره) صوراً واضحة الخطوط ناطقة الملامح عبقرية الألوان تمثل هذه المرأة فى جميع حالاتها وعلى كل وجوهها تمثيلا عارياً لاينفـع فيه ثوب رياء ولا ورق تين[3] . ولعل الطريف فى (سارة) أنها تحلل تركيب العشق فى قلبى عاشقين من ذوى الثقافة والفـكر فتنتهى إلى أن الفلسفة لاتجعل من العاشقة إلا امرأة كـكل امرأة ، ولا من العاشق إلا رجلا كأى رجل .

أما أسلوب (سارة) فهو أسلوب العقاد : صريح لا رغوة فيه ، جلى لا غبار عليه ، مستقيم لا التواء به يتصل فيه اللسان بالعقل

---

(١) مانون ودى جربو : بطلا قصة مانون ليسكو لبريفوست ومادلين أو مجدولين أو مريم المجدلية امرأة خاطئة اهتدت بالمسيح . وهى فى الأدب مثل المرأة التى ترجع عن غيها وتـكفر عن خطاياها .

(٢) دون جوان : شخص خرافى يمثل الرجل الغنى المترف الصلف الداعر الذى يفتن فى إغواء النساء بالجمال والظرف ، وفى تعذيبهن بالدلال والهجر .

(٣) ورق التين هو الذى استتر به آدم وحواء بعد الخطيئة فى الجنة .

فلا يلغو ، ويعتمد فيه القلم على القريحة فلا يهن . على أن العقاد فى سارة قد احتفل لأسلوبه واحتشد لفنه فجاء على النمط العالى ، لا تجد خللا فى سبكه ، ولا قلقاً فى اطراده ، ولا وهناً فى منطقه ، ولا سقطاً فى ألفاظه ، ولا شططاً فى معانيه وفى رأيى أنك لا تعرف العقاد على حقيقته إنساناً وفناناً إلا فى (سارة) .

إن سارة تقدم مثلا جديداً فى بلاغة الأسلوب ، وتفتح فصلا جديداً فى أدب القصة ، وتسجل اتجاهاً جديداً فى أدب العقاد .

العام الهجري

(٣١ مارس سنة ١٩٣٨)

أهل هلال المحرم و العالم المسكين يكاد يفلت من قيوده ويتحلل من نُظمه : فكأنما ارتد إلى عهوده الأولى يترصد الفرائس فى ألفاف الشجر وأجواف الحفر ، ويتعقب الطرائد فى بطون الأودية ومخارم الجبال ، ثم يشتد عليه سلطان الغرائز المهلكة فيستنشى روح الحياة فلا يجده ، ويلتمس ظل الأمان فلا يدركه ، ويبتغى عزاء النفس فلا يناله .

هذه أوربا العاملة القوية ، قد استحال بنو آدم فيها إلى هيا كل صناعية ، تتحرك بالبنزين ، وتسير بالقيادة ، وتعمل بالحيلة ، وتهتلك بالسبق ، حتى أوشكت أن تصطدم فتتحطم .

أين الروح الذى كان يحييها ؟ وأين النور الذى كان يهديها ؟ رجعا إلى مصدرهما الإلهى فى الشرق يوم تجهمت لحوارى المسيح وتنكرت لخلائف محمد ، وبنت الأخلاق على قواعد الاقتصاد ، والديمقراطية على استبداد الأحزاب ، والسلام على طغيان القادة . فكان من ذلك تجيمّها الألمة فى سلامها ونظامها وخلقها ، لأن مطامع الاقتصاد لايدوم عليها خلق ، ونوازع الأفراد لايثبت بها نظام ، وتوازى القواد لايدوم عليها عهد . حتى عصبة الأمم التى جمعت فيها أوربا مابقى لديها من هدى الأنبياء وحكمة الفلاسفة ، دفن أشلاءها هتلر فى النمسا بعد ما قطع أوصالها موسولينى فى الحبشة ! فحال أوربا اليوم كحال الضوارى الأوابد ، تتباعد بالأثرة ، وتتدانى بالخديعة ، وتتدافع بالقوة ، ثم أعوزتها الأنياب والأظفار فجعلت مصانع التجار مسالح ، وصهرت أجور العمال

أسلحة . وأخذ الساسة والطغاة يتجاوبون بالزئير فوق المنابر ، فملأوا الصدور بالرعب ، وزعزعوا البيوت بالقلق ، وسمموا الحياة بالهم ، ونزعوا من قلوب الناس طمأنينة العيش وحرية التصرف ولذة التملك ، فانقلبوا عبيداً مسخرين لهذه النظم الطاغية ، لا يجدون سلاماً في الأرض ، ولا يعتقدون نعيما في السماء !

أخطر ببالك أمم التمدن الحديث ، فهل تجد غير صولة تناهض صولة ، ودولة تبتلع دولة ، وأنظمة عراها تغير الإنسان فهي تُحْتَضر ، وأخرى هدى إليها الضلال فهي تنتظر ، والشعوب أنصار هذه وأنصار تلك مواد تُهلك في التجارب ، وأموال تنفق في الأهبة ، وأرواح تزهق في الصراع ، وآمال تذهب مع الريح !

دع هذا العالم المجهود البائس وجل جولة بالفكر في بلاد العالم الإسلامي ، فهل تجد إلا السلام في المجتمع ، والوئام في الأسرة ، والسكينة في النفس ، والرضا في العيش ، والثقة في الحاكم ، والأمل في الله ؟ ذلك هو الفرق بين نظام يضعه الخالق ونظام يضعه المخلوق . وذلك هو الفرق بين مجتمع يعيش بالروح ومجتمع يعيش بالآلة . وذلك هو المفهوم من دين سماه الله الإسلام[١] وجعل تحية أهله (السلام) ، وقرن فيه الصلاة دائما بالسلام ، وعرف أهله بأنهم (الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاماً) .

ذلك هو معنى الإسلام وذلك هو مبدأه . وتستطيع أنت بأيسر الفهم أن ترجع أصول الإسلام وفروعه إلى تحقيق هذا المعنى وتطبيق ذلك المبدأ ؛ فالصوم والصلاة سلام الفرد ، والحج والزكاة سلام المجتمع ، والسنن والأنظمة والآداب التي انشعبت من هذه الأصول دستور ثابت خالد يحقق لهذا الإنسان

---

(١) الإسلام معناه السلام ، ولذلك جعل مقابلا للجهل وهو السفه . ويؤيد هذا المعنى تفسير الرسول (ص) للمسلم بأنه من سلم الناس من لسانه ويده .

طريد العدوان وعبد الطغيان أحاديث أحلامه وهواجس أمانيه ، من الأخوة التى يعم بها النعيم ، والمساواة التى يقوم عليها العدل ، والحرية التى تخصب فيها المدارك ، لأنه دستور لم يوحه الجوع ولا الطمع ، وإنما أوحاه الذى خلق الموت والحياة ، وجعل الظلام والنور ، وأوجد الفساد والصلاح ، ليدرأ قوة بقوة ، ويصلح نظاما بنظام ، وينقذ إنسانا بإنسان .

إن الإسلام بشريعته السمحة وسياسته الحكيمة قد أزال الفروق وعدل المقاييس ، وألف القلوب بالبر ، وشفى الصدور بالتعاون ، فلا يمكن أن يعيش فى ظله نظام هادم ولا نحلة مفرقة . افتحوا ثغوره للنظم الحمراء التى تشيع الفزع هنا وتثير الحرب هناك ، فسترونها تفد جارفة وفود النسور الخاطفة ، ثم لا تلبث أن تقع من دون ذراه المنيعة مهيضة الأجنحة ناسلة الريش لا تقوى على زفيف ولا حفيف . وفى تركيا وإيران الدليل الحاسم ، فإن بينهما وبين الشيوعية جواراً وصداقة وعلاقة ، ومع ذلك لم تستطع الشيوعية — على جرأتها — أن تقتحم على الإسلام هناك غيله .

إن فى الإسلام من ديمقراطيته واشتراكيته وأخوته مناعة على كل شر ومثابة لكل جنس ومودة لكل دين . فانتصاره انتصار العقل ، وانتشاره انتشار العدل ، وسيادته سيادة السلام !

كلمة في أوانها

(١١ ابريل سنة ١٩٣٨)

ليس من دأبنا أن نعرض للسياسة إلا من حيث اتصالها بالخلق أو بالأدب . والخلق والأدب موضوع السياسة العليا التي لاتتحزب ولا تتعصب ولا تعرف تخوم المكان ولاحدود الزمن . ولكن بينها وبين السياسة الدنيا تفاعلا وتبادلا لايفترقان ، فهي تؤثر فيهما وهما يؤثران فيها ، وهي تتغير معهما وهما يتغيران منها. والخلق خاصة مساك الأمة وملاك الأمر . ولم تؤت النهضات القومية في الشرق إلا من جهة فساده . ذلك لأن الحال في الأمة العائدة أو الناشئة التي يخرج أهلها وحدانا من ظلام الجهل والغفلة ، أن يسعى المرء فيها ليغنى ، ويغنى ليتزعم ، ويتزعم ليحكم ، ويحكم ليستبد ، ويستبد ليطغى ، ويطغى ليتأله ! سلسلة من الغرائز الجافية الرذيلة حلقاتها الشهوة والطمع والغلبة والأثرة والجموح والبغى ، يصل بينها جميعاً أنانية غالبة وفردية أصيلة . فالأهل والأصحاب والأحزاب إنما يتعاملون بغير الحق ، ويتجادلون بغير المنطق ، ابتغاء الفوز من وراء الباطل ، والغلبة من طريق القوة ، لأن « الأنا » لايعرف « الغير » والذات لاتدرك المعنى، إلا إذا أضاء العلم ماحولها فظهرت الأشخاص ، وبانت الفروق ، ووضحت الحقوق ، وتميزت المعالم . وحينئذ يقول كل امرىء لنفسه أول مرة : إن في العالم ناساً غيرى، وإن لهم حقاً كحقى . ومتى شعر المرء بالناس ، وفطن إلى وجود الحق ، تولدت فيه معانى الإنسانية والديمقراطية والعدل ، فيصبح خالصاً للجماعة إذا سعى ، وللوطن إذا تزعم ، وللدولة إذا حكم.

نحن إلى اليوم لم نخرج عن ذواتنا فى العمل والسياسة والحكومة نقيس

كل شيء بمقياس الفائدة الخاصة ، ونحمل كل أمر على محمل الهوى الفرد ، ونغلب إرادتنا على إرادة الأمة في الحق المشاع ، حتى اقتنع المستريب بأننا تعلمنا الكلام ولم نتعلم العمل ، وحذقنا فنون الدعاية ولم نحذق أصول الحكم ، وحفظنا مصطلحات الدستور ونسينا مبادىء الشورى .

كان ذلك مقبولا محمولا والجهل غاش على العيون ران على الأفئدة أما الآن فقد تنبه الغفلان إلى أن من استطاع أن يرفع المظلوم يسهل عليه أن يخفض الظالم . وتذكر الناسي أن له دستوراً يجعل مصدر السلطات في فم المحكوم لا في يد الحاكم . فمن ذا الذي يوسوس إليه شيطانه أن يرفع في أوجه الأسود وأشبال الأسود عصا القطيع ؟ ومن ذا الذي يسول له طغيانه أن يرتفع على كواهل الشعب ويقول : أنا سيد الجميع !

لقد كان لبعضكم يازعماء الساعة أخطاء على الأمة في بعض الأمور ملكت عليها الصبر ولم تملك المغفرة وقد أتاح لكم القدر هذه الفرصة لتصححوا بصواب اليوم خطأ الأمس . وتبددوا بيقين الحاضر ظنون المستقبل ، فهل تدعونها تمر كما يمر أريج الطيب بالرجل الأخشم ؟[1] إن بعضكم بلغ ساحل الحياة ، وبعضكم جاوز حد الثروة ، وكلكم تفرع ذروة[2] الجاه ، فماذا يخزلكم[3] عن ابتناء المجد المؤثل وابتغاء الذكر الخالد ؟

نريد أن يكون الزعيم لجنسه لا لنفسه ، ولشعبه دون حزبه ، ولغده قبل يومه ، حتى يتذوق هذا الشعب المجهود لذة الأخوة في ظل الوطن ، وعزة الحرية في كنف الدستور ، وجمال المساواة في حمى الحكم الصالح .

---

(١) الأخشم الذي فقد حاسة الشم أو ضعفت به

(٢) تفرع الذروة : علاها

(٣) خزله عن الأمر : عوقه

ريد أن تلغوا سياسة الخطب ، وتقصّروا ألسنة الوعود ، وتخففوا ضجيج المظاهر ، وتكفوا عن كرامة الناس صلف المنصب وزهو السلطان وبطر الجاه ، فإن المصرى أكره الناس للزعيم المغرور والوزير المتغطرس والنائب الأثر .

ريد أن تفتحوا لمصر عهداً جديداً من الهدوء والاستقرار تدخلونه فى ثياب الإحرام ، وصدوركم نقية من أحقاد الحزبية ، ونفوسكم بريئة من شهوات العصبية ، وميولكم نزيهة عن خسيس المطامع ، فتصرفون القوى إلى الإنتاج ، وتوجهون الجهود إلى الهدف ، وترصدون ملكات الأمة وكفاياتها لطرد الجهل منها ، ودفع الفقر عنها ، ومعالجة المرض فيها ، لتعيش كما تعيش الأمم الحية صحيحة الجسم سليمة الروح متماسكة الوحدة .

إن الوزارة متسقة الأعضاء متحدة الهوى ، وإن المعارضة نزيهة الأغراض مريرة القوى ، وإن الأحزاب متقاربة الميول مستقلة الرأى ، وإن الأمة يقظة الفؤاد كلوءة العين ، وإن العرش من وراء أولئك محيط ، يقوِّم الصغر ويسدد الخطى ويرقب الأمور ويجمع الهوى الشتيت ، فهل آن لنا أن نحيا حياة العاملين الأعزة فى وطن صريح الاستقلال قوى الشوكة ، لاسلطان القوة خارجية عليه ، ولا سيادة للغة أجنبية فيه ، ولا استبداد لشركة أوربية به ؟ وهل آن لنا أن نتمتع بحرية مهذبة الأطراف مأمونة السفه ، ينعم الفرد فيها بنفسه ويأمن بها على رأيه ، فى مجتمع راقى الطبقات مثقف النواحى ، يؤلف نافره الخلق ، ويرفه حياته الحب ، ويؤويه إلى كنفه إله وعلم ودستور ؟

شم النسيم

(١٥ أبريل سنة ١٩٣٨)

اليوم يا صديقي يوم شم النسيم ! وشم النسيم في مصر هو عيد الطبيعة والناس. والناس الذين يعيِّدون هذا العيد هم سكان هذا البلد الأمين من كل جنس ونحلة. وهو بهذه الخصيصة يكاد لايشبهه عيد من أعياد الأمم، فإن أعياد الأمم إما أن تقوم لذكرى دينية فتكون لأهل هذا الدين، وإما أن تقوم لذكرى وطنية فتكون لأهل هذا الوطن. أما عيد شم النسيم فهو عيد إنساني اشتراكي سمح، يفتح قلبه لكل دولة، ويخلص حبه لكل ملة، ويبذل أنسه لكل جنس. فالمصريون على اختلاف الأديان، والأجانب على تباين الأوطان، يتلاقون به على بساط الربيع إخواناً في المودة، إخواناً في السرور، يتساقون راح الأنفس، ويتطارحون حديث القلوب، ويتجردون من فوارق الدنيا ليقفوا أمام الطبيعة الصريحة أطهاراً من رجس الحياة، أحراراً من إسار المادة، يرتعون في الجنة التي خلق فيها أبوهم الأول، وينعمون بالصفاء الذي نشأت فيه أسرتهم الأولى.

هذه الخصيصة التي انفرد بها هذا العيد إنما اكتسبها من طبيعة هذا الوطن الأريحي الذي طبع بنيه وساكنيه على فيض نيله وخصب واديه ورحب صحرائه وصفو سمائه واعتدال جوه ووداعة طبيعته، فجعل المصري والرومي يعيشان في قرية، والمسلم والمسيحي يصليان في كنيسة، واليهودي والألماني يعملان في متجر، والتركي والأرمني يسكنان في دار. ثم يلح على هؤلاء جميعاً بالخلط والمزج والتوحيد حتى تتشابه الألوان، وتتقرب

الألسنة ، وتتقارب الطباع وتتحد العناصر ، فيدخلوا صرحاء خلصاء فى هيكله النقى القوى المقدس .

* * *

فى هذا اليوم وحده من دون أيام السنة تغلق القاهرة دواوينها ومدارسها ومتاحفها ومصارفها ومتاجرها ومصانعها وحوانيتها ، ثم تخرج إلى الرياض والخلوات ، خروج الحجيج إلى عرفات ؛ ولكنه حجيج وثنى لا يؤمن فى ذلك اليوم إلا بأفروديت وباخوس[1] فيتفيأون ظلال الروض ، ويتشربون أشعة الربيع ، ويستروحون أرج النسيم ، ويجتلون جمال الطبيعة المتبرجة فى الزهر والنهر ، ويستوعبون أسرار الحياة المبثوثة فى السماء والأرض ، وينطلقون من عقال الهم والوقار والكلفة ، فيطيشون كالفراش ، ويهتفون كالطير ، ويطفرون كالأطفال ، ثم تدركهم ضرورة الحياة فيجلسون للموائد حلقاً وسلاسل يتهنأون[2] بضروب الآكال وصنوف الأشربة ، حتى إذا تضلعوا شبعاً وتحببوا رِياً[3] قرت فيهم فورة المرح فأووا إلى أحضان الطبيعة الخادرة من حر الظهيرة وحينئذ ترى أشتاتاً من خلق الله قد ضرب على آذانهم الكرى أو الكظة أو السكر أو الفتور ، فأصبح الناس والطير والشجر قطعاً من مادة الأرض لا يميز بعضها من بعض رقى النوع ولا سمو الفكر ولا غرور الفلسفة .

* * *

لا أزال أشعر بحلاوة هذا الموسم فى القرية . فقد كان الشباب والأيفاع

---

(١) أفروديت إلهة الجمال ، وباخوس إله الخمر.

(٢) تهنأ بالطعام : ساغ له ولذ .

(٣) تضلع من الطعام امتلأ حتى تمددت أضلاعه . وتحبب من الشراب صار بطنه كالحب وهو الخابية أو الزير .

يعتقدون أن فى العشرة الأخيرة من رمضان تفتح فى السماء (طاقة القدر) لمن كتب الله لهم السعادة ؛ وأن فى العشرة الأولى من المحرم تطوف (بغلة العشر) فى أعقاب الليل وهى موقرة بالذهب على من كتب الله لهم الغنى ؛ وأن فى يوم شم النسيم تهب نفحة من الفردوس لايتنسمها إلا من كتب الله له القوة . فكانوا إذا تنفس صبح ذلك اليوم أفعموا خياشيمهم بريح البصل ليدرأوا عن أعصابهم خمود العام كله ثم يخرجون إلى القنوات والنهيرات يستحمون فى مائها الجارى ، ويمشون هوناً على حفافى الحقول وضفاف الترع وحواشى البساتين يجمعون الفاغية والحبق والورد وزهر النارنج وورق الليمون ، ثم ينسقون منها باقات يشدونها بأعواد السعد وسعف النخل ، ويدسون فيها أنوفهم من لحظة إلى لحظة ؛ ثم يقفون فى مهب النسيم الفواح يعبونه عبا بالخياشيم والحلوق لعلهم يجدون فيه تلك النسمة الهاربة من ريح الجنة فيمسهم منها ما يسمونه (عرق الصبا) ثم يسيرون صامتين مستغرقين نشاوى يتشممون ذلك السر الإلهى المكنون فى أنفاس الزهر ، وفى عبير الزروع ، وفى فوحة الرياحين ، كما يتلمس الكيميائى الخبير إكسير الحياة فى عصير العقاقير وحلب الأنابيق ومزيج الأشربة

فإذا أحسوا نشوة فى الروح وفتوة فى الجسم وقوة فى الأعصاب لطول ما استنشقوا الهواء الخالص ، واستيقنوا الأمل الخادع ، تسلقوا أشجار التوت فجنوا منه أطيبه ، وخضبوا أناملهم بجناه ، ونقشوا طواقيهم بصبغه ، ثم يرجعون إلى القرية وهم يخطرون فى مطارف الصبا الغريض ، وكأن فى رءوسهم بالياً قد تجدد . وفى نفوسهم ذاوياً قد انتعش ، فيأكلون البيض الملون والخس الطرى والفسيخ النيلى . ثم ينامون وهم معتقدون أنهم ادخروا

لبقية العام من القوة والصحة والفراهة مالا يهن على طول العناء وسوء الغذاء ومس المرض

ذلك شم النسيم بخصيصته ودلالته ، تراه فى المدينة والقرية يوم الصفاء المشترك والأنس المشاع . ولقد كانت لى فيه ذكرى أو ذكريات لاتزال مشرق النور والسرور فى نفسى وما كان أحب إلى أن أقصها عليك ، ولكن الصفحة قد نفدت ، وساعة الطبع قد أذفت ، ورئيس المطبعة يقول هات ؟

معالي مصطفى عبد الرازق بك

(٢ مايو سنة ١٩٣٨)

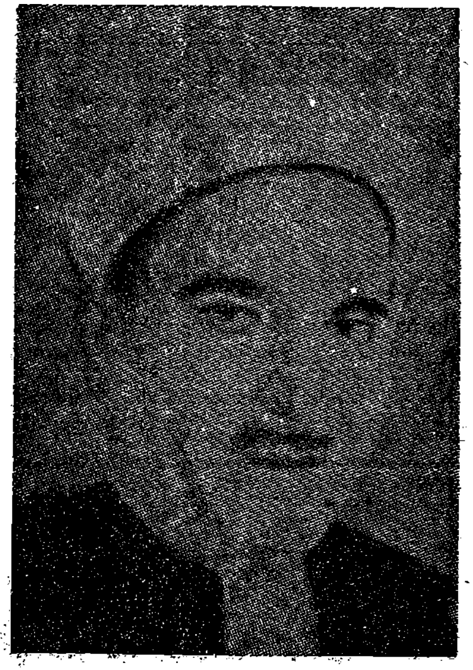

صديقنا صاحب المعالي الشيخ مصطفى عبد الرازق وزير الأوقاف إمام من أئمة الدين ، وعلم من أعلام الأدب ، وسري من سراة الأمة نشأ بحكم ولادته على النبل كما ينشأ ابن الملك على الملك ، فهو في خلقه وسمته يجري على سراح الطبع الجميل ، لا يتكلف ولا يتطبع ولا يتصنع ولا يقلد. وقلما تجد في مصر من ظفر بما ظفر به هو من إطباق الناس على اعتقاد سماحته وسراوته وفضله. ولعلك تدرك السر فيما تعرف من خلاله إذا علمت أن بيت عبد الرازق نمط لا واحد له في تقاليده وتربيته وبيئته. فهو وحده لا يزال يمثل نوعاً من الفتوة الإسلامية له خصائصه وسننه : يرى العزة في سمو الإنسانية فيه لا في إفراط العصبية عليه . ويجد المزية في سؤدد الفكر المهذب والخلق السجيح لا في سطوة المال المكنوز والجاه المتسلط ، ويتمثل المدنية الحديثة تمثل المعدة الصحيحة للطعام المهنئ فلا تكون إلا مدنيته الخاصة فيها سره وعليها طابعه. ثم يسير في سبيل الحياة على سنن واضح من شهامة القلب ونزاهة النفس وشرف اللسان

وثبات العقيدة وكرم التضحية ، كأنما يستجيب إلى صوت فى دمه ، ويمشى على دليل من طبعه .

ساهم فى جهاد الدستور والحرية بالنفس والمال ثم عف عن الغنيمة . وشارك فى ثقافة العقل والروح بالتشجيع والإنتاج ثم عزف عن الشهرة . وتهافتت من حوله بيوت المجد على الأضواء الغربية الخادعة فأضل بعضها العشا ، وأحرق بعضها اللهب ، وبقى هو على شرقيته ومصريته قوى الدعائم رفيع الذرى ، تضوع فى أبهائه نفحة الإسلام ، وتهش على موائده أريحية العروبة ، وتخفق فى جوانبه روح مصر

والشيخ مصطفى يلخص فى شمائله مجادة هذا البيت فهو سر وراثته وعطر أرومته وجملة ماضيه فإذا جلست إليه فى ألفة أو كلفة غمرك منه شعاع لطيف يملك نفسك من غير سطوة ، ويبسط شعورك من غير خفة . ثم تحس فى تواضعه سمو الكبرياء ، وفى وداعته أنفة العزة ، وفى بساطته جلالة النبل ؛ فلا تستطيع أن ترد هذه الخلال فيه إلى الحد الذى تواضع عليه الناس فى تعريف الخلق ، إنما تنتهى إلى أن شخصيته الجذابة واحدة الطراز لما تهيأ لها من أثالة المنبت وزكاوة العرق وسعة الثقافة وسلامة الفطرة وجمال القدوة .

رأيت الشيخ مصطفى طالباً فى الأزهر ، وعرفته أستاذاً فى الجامعة ، وزرته عضواً فى الوزارة ، فلم أجده فى كل حالة من هذه الحالات إلا على الوجه الذى لقى به الدنيا ، لم يتغير فيه لسان ولا عين ولا مخيلة ومزية المعدن الكريم ثبات وجهه على لونه ، وبقاء جوهره على نقائه . ولو أن وجوه الناس تثبت على تقلب الحظوظ لما تنكر صديق لصداقة ، ولا تجهم وطنى لوطن .

لله ما كان أنبل وأجمل حين دخلت على الشيخ الوزير مكتبه فى الوزارة من غير وقفة على حاجب الباب أو جلسة لدى مدير المكتب ! لقد كان زيه الوطنى الجميل ملء العين والنفس والشعور ، يوزع التحيات على عادته بسماته الرقيقة ونظراته الوديعة وكلماته الحلوة ، فيجعلك تشعر أن الوزير منك ، وأن الوزارة لك ، وأن الأمر بينك وبين أولياء الحكم كما يكون بين الأب وأعضاء الأسرة

كان سرورى وأنا أهنىء صاحب المعالى وزير الأوقاف أقرب إلى أن يكون سروراً بنفسى . فقد وقع فى وهمى أنى أسهم فى هذه الوزارة بنصيب مبهم شائع لا أجهله ولا أدريه . ولعل مبعث هذا الوهم أن الوزير أزهرى وصديق وأديب ، وصلته بالناس من جهة الثقافة أو الصداقة أو الأدب يجعلها وفاؤه الطبيعى أدنى إلى النسب الشابك والقرابة الواشجة .

* * *

أما بعد فإن استيزار أميرين من أمراء الأدب لهو فتح مبين لدولة القلم . فإن النهضات العلمية والأدبية فى تاريخ الفكر لم تزدهر إلا فى حمى ملك أو كنف وزير . والوزراء الأدباء أمثال ابن العميد والصاحب بن عباد والمهلبى وابن زيدون وابن الخطيب لايزالون عناوين فاصلة فى تاريخ الأدب . فإذا ناط رجال الثقافة والصحافة آمالهم بوزير الخير مصطفى ، وبوزير الجمال هيكل ، فإن دلالة الحال تعلن أن مواتاة هذه الفرصة فى صباح العهد الجديد حين صدقت النيات على الاستقرار ، وتهيأت النفوس للعمل ، إيذان من الله بتيسير السبل لأمة العلم أن تنهض ولدولة الأدب أن تقوم .

مصطفى صادق الرافعي

(١٦ مايو سنة ١٩٣٨)

— ١ —

في مثل هذا اليوم من العام المنصرم سكن لسان وجف قلم وانقطع وحي وفقد البيان الملهم والفكر المنير خسارة إنسانية لا يسهل العوض منها ولا العزاء عنها والرافعي وأمثاله من عباقرة العلم والأدب والفن والمال ، ثروة من ثروات الأمم لا تكتسب بالحيلة ولا بالإرث ، وإنما هي نفثات من روح الله تنتشر على الأنفس المصطفاة فتجعل طبيعتها بين النور والطين ، ومنزلتها بين السماء والأرض ، ورسالتها رفع الناس إلى الملائكة بالمجد ، وتنزيل الملائكة على الناس بالخير . فإذا جاء أجلهم عاد ذلك النور الإلهي إلى مصدره وهو أشد ما يكون نزوعاً إليه وعلوقاً به : ثم لا ينبثق مرة أخرى إلا حين يأذن الله لخليقته أن تهتدي ولأرضه أن تصلح !

لذلك كان أسى الأمم الذاكرة الشاعرة على نوابغها أسى خالداً يستمر

فى ذاكراتها ، ويتجدد فى ذكرياتها ، ثم يتردد على عواطفها كلما صبت إلى أمام فلم تجد الهداة ، وهفت إلى فوق فلم تجد الأجنحة .

على أن النابغ فى أمم الشرق يعيش وكأنه لم يولد ، ثم يموت وكأنه لم يعش ؛ لأن الحياة فيها لا تزال نوعا من السكر الغليظ يذهل الناس عن الوجود أكثر العمر ، فإذا أفاقوا — وقليلا ما يفيقون — عربد بعضهم على بعض !

كذلك عاش الرافعى ومات ، وكذلك يعيش أشباهه ويموتون ! وما حيلة الزهرة الفواحة إذا أنبتها القدر القاهر فى قفار الأرض بين سفى الرمال ولفح السمائم ؟

* * *

رحم الله الرافعى ! لقد كان فى الكتاب طريقة وحده ! وحسب الكاتب مزية ألا يكون لأسلوبه ضريع فى الأدب كله فإذا قيل لك إن الرافعى قديم الأسلوب فى التفكير والتعبير ، فاحمل ذلك على الحسد الذى لا حيلة فيه ، أو على الجهل الذى لا حكم معه . وتستطيع أن تتحدى من تشاء أن يدلك على كاتب يترسم الرافعىُّ مواقع قلمه أو قدمه . إنما هى شنشنة من ضعاف الملكة وقاصرى الأداة ، يرمون من يجيد لغته بالتخلف ، ومن يتعهد كلامه بالتكلف ، ومن يؤثر أدبه وتاريخه بالمحافظة :

أسلوب الرافعى يمتاز بالسلامة والسلاسة والإيجاز العميق . وهذه المزايا نتائج حتمية لاكتمال عدته وغزارة مادته وصفاء ذوقه وذكاء فهمه وأشد ما يروعك منه قوة الفن وحركة الذهن فأما قوة الفن فهى الأستاذية التى تخلق المادة ، وتصنع القالب ، وتضع اللفظ ، وتحدد الرسوم ، وتوضح الفروق ، وتتصرف بمفردات اللغة تصرف المصور البارع بألوان الطيف وتخيل إليك

أن الصناعة طبع وأن المعاناه سليقة . وأما حركة الذهن فهى حركة الغواص الدائب لا يقف عند السطح ، ولا يستقر على القاع ، وإنما يضرب بيديه القويتين فى أغوار البحر ، وقد انقطع عن شواغل الناس بالعين والأذن . على أنها حركة الروية لا حركة العبقرية ؛ فمعانيه تقطر ولا تفيض ، ولكنها على طول الرشح واعتصار القريحة تصبح سيلا طامى الجوانب صافى المورد .

كان يحمل الفكرة فى ذهنه أياماً يعاودها فى خلالها الساعةَ بعد الساعة بالتقليب والتنقيب والملاحظة والتأمل ، حتى تتشعب فى خياله وتتكاثر فى خاطره ؛ ويكون هو لكثرة النظر والإجالة قد سما فى فهمها على الذكاء المألوف ، فإذا أراد أن يعطيها الصورة ويكسوها اللفظ ، جلاها على الوضع الماثل فى ذهنه ، وأداها بالإيجاز الغالب على فنه ، فتأتى فى بعض المواضع غامضة ملتوية وهو يحسبها واضحة فى نفسك وضوحها فى نفسه . وذلك عيب المروّين من صاغة الكلام وراضة الحكمة ، كابن المقفع ، والمتنبى ، وبسكال ، وبول ڤاليرى . ومنشأ ذلك العيب فيهم أنهم يطيلون النظر ويديمون الفكر ويعمقون البحث حتى تنقطع الصلة بين عقولهم وعقل القارىء ، وتتسع المسافة بين معانيهم وألفاظ اللغة ، فيكتبون وأفهامهم سابقة سبوق الروح ، وأقلامهم متخلفة تخلُّف الجسم . ويزيد فى هذا الغموض أن سعة العقل فى النوابغ تستلزم ضيق اللسان ؛ فلا ترى الفضول والثرثرة والرغوة والغثاء إلا حيث يضحل الذهن ويقصر النظر وتنزر المادة . والرافعى كان يقتصد فى أسلوبه ، لأنه ينفق عليه من جهده ومن ذوقه ومن فنه ما يجعله أشبه بومضات الروح ونبضات القلب ونفحات العافية فهو يفصل اللفظ على قدر المعنى تفصيل (المودة) الفاشية اليوم : يقصر ولا يطول ، ويضيق ولا يتسع ؛ ولكنه على ضيقه وقصره يظهر الجسم الجميل على أتم ما يكون حسناً وأناقة .

وهو بعد ذلك أسلوب جيد التقسيم سليم المنطق ، إلا أنه بعيد الإشارة يستسر جماله على القارىء العجلان والفهم البطىء فإذا روّى فيه الناقد المتذوق انكشف له فى كل كلمة سر ، وطالعته فى كل فقرة آية . ولعل النفس الشاعرة لا تجد فيه من أوثة العاطفة ما تجده النفس المنطقيـــة من لحولة الفكرة ومرجع ذلك فى الرافعى غلبة الفكر على الشعور ، وسطوة الفن على الطبيعة .

— ٢ —

كان الرافعى رحمه الله حجة فى علوم اللسان ، ثقة فى فنون الأدب ، عليما بأسرارا اللغة ، بصيراً بمواقع اللفظ ، خبيراً بمواضع النقد ، محيطاً بمذاهب الكلام وقلما تتهيأ هذه الصفات لغير المطبوعين من الأدباء الذين تعاطوا مهنة التعليم فاستنزفوا أيامهم فى درس القواعد وحفظ الشواهد وفقه النصوص بحكم الصنعة ، فكنت إذا ذاكرته فى شىء من دقائق النحو وخواص التركيب وفروق اللغات وجدته على ظهر لسانه كأنما انصرف من مراجعته لوقته . ودراسة الكاتب أو الشاعر للغته وفنه هى فى رأيه ورأى الحق شرط لنبوغه ؛ فلا يكون النبوغ والأستاذية بدونه ، ولا تجزى الطبيعة ولا المحاكاة عنه .

ولقد بلغ علم الرافعى بالعربية وآدابها حد الاجتهاد والرأى ، فكان يقف فى التعليل والاستنباط من ثقاتها ورواتها موقف الند وقد يتعظم أحياناً فيقف منهم موقف الأستاذ . فهو فى أدبه مطلق الحرية مستقل الإرادة فى حدود المأثور من بيان العرب ، ولكنه فى فلسفته مقيد النظر مسير الفكر لنزوله فى الرأى على حكم الدين .

على أنك لا تعدو الصواب إذا قلت إن حرية أدبه أشبه بعبودية فكره ، لأن مصدرهما وموردهما واحد هو القرآن . والقرآن من جهة الأدب غاية الجمال ، ومن جهة الفضيلة غاية الخير ، ومن جهة الفلسفة غاية الحق . لذلك كان قوله في القديم والجديد قول العربي الذي يؤمن أن لغته التي تكلم بها الله نامية بذاتها لأنها حية ، ومتطورة بطبعها لأنها قوية . وكان قوله في المرأة والرجل قول المسلم الذي يعتقد أن دين الله حق لا يبطله قدم ، وشرعه قانون لا يعطله شهوة . ومادام العرب أحياء فأدبهم متجدد ، وما دام القرآن خالداً فدينه قائم .

على هذين القطبين كانت تدور فلسفة الرافعي الأدبية والاجتماعية ولعلى تساهلت إذا قلت فلسفة الرافعي فليس للرافعي فلسفة ، وإنما هي فلسفة القرآن قام منها مقام ابن رشد من أرسطو ، يقرر ويحرر ويدافع من غير أن يكون لمنطقه حكم ولا لرأيه اعتراض .

* * *

كان الرافعي في بعض حالاته يفتنّ في الصورة التي يرسمها افتنان المصور الخيالي : يضيف إليها من المشاهد ما لا تقره الحقيقة ، ويضع فيها من الألوان ما لا تعرفه الطبيعة . وقصده القاصد من ذلك أن يريك قدرة ذوقه على الملاءمة وقوة ذهنه على التوليد ، ويعطيك للشيء أو للشخص صورة إذا لم تكن كانت هي التي ينبغي أن تكون فهو إذا كتب في موضوع ما سمح لعاطفته أن تجر ولهواه أن يدفع ولفنه أن يزخرف ، ثم يستخدم براعته في التدليل على صحة العاطفة ونزاهة الهوى وصدق الأداء فيكون من امتزاج الخيال بالواقع ، واشتباه الغلو بالقصد ، والتباس البهرج بالصحيح ، صورة غامضة الدلالة خافتة الروح ، ولكنها بديعة الإطار رائعة اللون منمنمة الخطوط وذلك أكثر ما تراه يكون في « حديث القمر » ، و « السحاب الأحمر »

و «المساكين» ، و «أوراق الورد» . أما إذا اتصل فنه بشعوره ، وافتنانه بطبعه ، ورأيه باعتقاده ، فإنك ترى الإشراق في اللفظ ، والجلال في المعنى ، والسمو في الروح ، والإعجاز في الصنعة . وهنالك تجد الرافعي في جلوة الإلهام التي تشدهه هو نفسه فيقول لي ولمن يأنس إليه : إن حالا تشبه حالات الوحي تقوم به في بعض ساعات الليل حين يكتب في إعجاز القرآن أو في الدفاع عن أدبه ، فلا يكون فيما ينشيء إلا وسيطاً ينقل عن قوة وراء الغيب . وأكثر ما وقع له ذلك في كتابيه «تحت راية القرآن» و « وحي القلم ». وكان من شذوذ النبوغ في الرافعي اعتداده بنفسه إلى حد الصلف ، واعتقاده بالغيبيات إلى حد السذاجة . وله في ذلك حوادث وأحاديث ربما عرض لها صديقنا العريان في ترجمته له .

والرافعي بعد ذلك كله كاتب من الطراز الأول قلما يجود بمثله هذا العصر المجنون الذي يتبجح بالسرعة ويأخذ حظه الضروري من المعرفة مختصراً في رسالة أو مقتصراً في مقالة .

* * *

هذه كلمة مجملة كتبناها عفو الخاطر وفيض الذاكرة في ناحية من نواحي أدب الرافعي ، اعتمدنا فيها على خلاطه وحديثه وقراءته . أما دراسة الشرح والتفصيل ، والنقد والتمثيل ، والدعوى والدليل ، فتلك لها طريقة غير هذه الطريقة ، ومناسبة غير هذه المناسبة .

ليالي الحصاد

(١٣ يونيو سنة ١٩٣٨)

ياحبّة الأمح زيدى   واملى المخـــازنْ علينا
إنتِ دهب ملو إيدى   لولاكْ مرُحنا وجينـا
ياشمعة العـــز إيدى   واجـلى بنوركْ عنينا
دا عيدْ حبايبى وعيـدى   يارب عـــودهُ علينا

بهذه الأغنية الرقيقة كان صوت أمينة الوترىُّ الرخيم يموج لذيذاً فى مسمع الليل المقمر الساجى . وكان أترابها يُرجِّعن عليها اللحن ومناجلهن فى أيديهن تجز سيقان القمح فتسمع لها فى خلال النغم خشخشة آلة موسيقية غريبة !

كان ذلك فى إحدى الليالى بين أواخر مايو وأوائل يونية ، والزرع قد استحصد وتهالك بعضه على بعض من الذبول واليبس فلم يعد يقوى على حمل سُنْبُلة .

وكان الحاصدون والحاصدات قد خرجوا عشاءً إلى الحقول الذهبية ، فى أيديهم المناجل ، وعلى أكتافهم الأردية ، وهم يوقعون على طرُق الربيع العشبية أهازيج الجذل والأمل فباتت القرية هامدة كأنما ضرب على آذانها الموت فلا تسمع سامراً على مصطبة ولا نابحاً على تل فأخذنى منها ما يأخذ السائر الوحِد من الغابة الغفة أو المقبرة الفسيحة فخرجت أنشد الفرجة والأنس فى حقل من حقولنا القريبة وكنت أعلم أن فى حصّاده جوقة من الأوانس الحسان الوجه والصوت . فلما غمرنى ليل الحقول ، وملكنى سلطان الطبيعة ، أحسست فى نفسى دنيا جديدة لم أحسها من قبل

لا فى نهار النـاس ولا فى ليل القرية ! فقد كان القمر حينئذ فى الفخت[1] يرسل أضواءه اللينة الرخية هادئة كإشعاع الحُلم ، شاحبة كإسفار الأمل ، فيلوِّن الحيطان والغدران والطرق بلون الفضة الـكابية ، ونسيم آذار النديُّ العبهريُّ ينفح بطراءة الفردوس الإنسان والحيوان والشجر ، فينتعش الهامد ويتنفس المكروب ، وتتندى الحصائد ، فتسمع الجنادب تصر فى هشيم البرسيم ، والضفادع تنق على حفافى الترع ، والسواقى تنوح على رءوس الزروع ، والحاصدات يغنين فى مزارع القمح ، وطيور المساء تبغم على أعالى الدوح ، وكلاب الحراسة تنبح على أطراف الأجران ، فيكون من كل أولئك إيقاع موسيقىٌّ عجيب يبعث الروعة فى النفس ويلقى الشعر على الخاطر !

على أن هـذه الأصوات المتجاوبة على نشوزها لم تـكن هى مبعث السحر الذى غلب على مشاعرى ، وإنما كان مبعثه ذلك الـجوُّ العميق السحيق الذى ضرب على حياة الليل فهيمن على كل حس ، وسيطر على كل حركة ، فما نسمع الأصداء فى جوف هذا السكون إلا كما نرى الأنداء فى رمال المفازة .

كنت أمشى بين هذه الظواهر الليلية وئيد الخطو رزين الخيال مرهف الحساسة ، لا أجد فى طبعى ما كنت أجد فى النهار من مرح الصبا وخفة الحداثة ، فـكأنما يضع الليل من ثقله على الجسد والفكر والشعور فيتغلب على المرء الهدوء والبطء . ذلك إلى أن الجو الاجتماعى فى القرى ليالى الحصاد يختلف عنه فيها أيام الجنى . ففى حصاد القمح يأخذ القرويين حالٌ من التدين الذاكر الشاكر ، لأنهم يتقبلون فضل الله فى الحبة المقدسة ليحفظوا بهـا

---

(١) الفخت : ضوء القمر أول ما يبدو .

البدن ويمسكوا عليها الروح ؛ فهى عندهم مرادفة الحياة ، يسمون خبزها (العيش) و (النعمة) ، ويتحرون فى كسبها الحل والحرمة ، ويذكرونها فيذكرون الرزق والصدقة والزكاة والبركة .

أما فى جنى القطن فيدركهم مس من الطمع والغرور فيحبون الدنيا ويعشقون المال ويرغبون اللهو ، ويذكرونه فيذكرون الربا والثراء والرواج والزواج والهم .

كنت لدى ساقية الغيط الراقدة فى كلة[1] من أغصان الصفصاف المرسلة حين ارتفع صوت أمينة الحنون بالأغنية التى ذكرت بعضها فى مطلع هذا الفصل . وكان الحصدة من رجال ونساء يزحفون إلى القمح بمناجلهم صفاً فيتركونه وراءهم أضغاثاً من الحصيد منظومة الأسافل والسنابل ، ثم يعودون الحين بعد الحين فيركوها حزماً غليظة ويدعونها تنتظر النقل على الجمال إلى الجرن .

وأجمل ما فى ليالى الحصاد منظر الحقول المنبسطة على مدى الطرف وقد ضربت فى صفرتها أضواء القمر فابيضت ابيضاض المصريات الحسان ؛ ومجالسُ الشباب والشواب على حصائد القمح الوثيرة يديرون بينهم سقاط الحديث الفكه ويتبادلون فى احتشام كنايات الغزل الحيى ؛ وغناء الفتيان وزمرُ الفتية يتواردان على سمعك من قريب ومن بعيد ، فيفعلان فى نفسك مالا يفعله الموسيقار الحاذق ؛ ثم نوم هؤلاء وهؤلاء فى الهزيع الأخير على فرش من الحصيد تكلأهم عين العفاف ، وتتمثل فى أحلامهم صور الفضيلة . فإذا ما تنفس الصبح على وجوههم المطلولة هبوا إلى القناة

---

(١) الكلة : ناموسية السرير .

يتوضأون ويصلون ثم يعودون إلى مناجلهم على أنشط ما يكون الفتى وأرضى ما يكون المؤمن .

أبداً لا أنسى أنني قضيت معهم تلك الليلة ، ثم نمت هذه النومة ، وقمت هذه القومة ، وأسفر عليّ ذلك الصباح الضاحك المنضور فأبصرت مسالك القرية تسيل بحاملات الفطور إلى الحصّاد ، وسائقات الماشية إلى المرعى ، ولاقطات السنبل من بنات الفقر ؛ فكان لي من جمال تلك العشية وضحاها ، لذة لا أزال أنعم بذكراها وأتمناها !

من الذكريات الجميلة

(١٨ يوليو سنة ١٩٣٨)

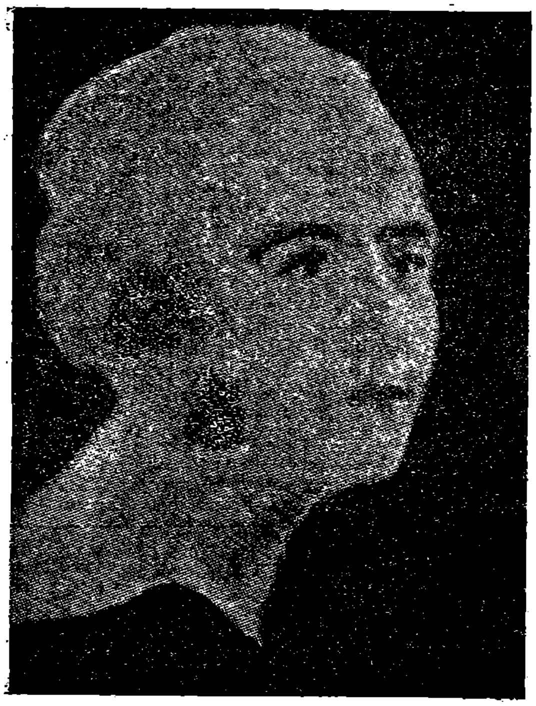

عرفت فى باريس عام ١٩٢٥ الآنسة (فرناند) ابنة أحد القضاة فى محكمة (ديجون) . كانت طالبة بالسنة الأخيرة من كلية الحقوق ، وكان لها بالمستشرق المرحوم (ب كازانوفا) أستاذ الأدب العربى فى (الكوليج دى فرانس) صلة قرابة أو صداقة ، فعرفنى إليها لتكون لى فى مدينة النور ما كانت (بياتركس) لدانتى فى جنة الفردوس .

وكانت هذه الفتاة آية فى الجمال والذكاء والظرف . وكان أعجب ما فيها أنها تؤلف فى نفسها بين المتناقضات ، فلا يكاد النظر العادى يلحظ ما بينها من التنافى ! فهى منطقية الفكر حرة العقيدة وهى خيالية الذهن شاعرية العواطف تؤمن بنيتشه كما تؤمن بالمسيح ، وتقدس جمهور الثورة كما تقدس ملكية البربون ، وتشيد بفتح العرب الأندلس كما تشيد بغزو الصليبيين لفلسطين ، وتعجب بروحية الشرق كما تعجب بمادية الغرب ، وتحدثك فى ذلك كله حديث المطلع المقتنع القائم ، فإذا أخذت عليها شذوذاً

فى قياس القضية ، أو نشوزاً فى سياق الحديث ، عمدت إلى المزاح البارع أو التهكم اللاذع أو الأسلوب الخطابى فتميت على لسانك البيان ، وتطير من عقلك الدليل .

أدهشنى منها إلمامها بأدب العرب وحكمة الإسلام وفلسفة الشرق فلما عرفت اتصال سببها بالأستاذ كازانوفا وهو الذى جعل فنه أساطير الشرق وأدب القرآن ، عزوت إليه هذا الميل وذلك العلم وعرفت منها بعدئذ أنها كانت تستمع إلى محاضراته فى التفسير ومسامراته فى الأدب ، وأنه أهدى إليها (حديقة الزهور) لصاحب المعالى الأستاذ واصف غالى ، وأعارها ترجمة ألف ليلة وليلة لماردروس ، فكان أكثر حديثها يدور على بغدادودورها التى تفيض بالنعيم والسحر ، وتنفح بالبخور والعطر ، وتمرح بالقيان والغزل ؛ وعلى دمشق باب الجزيرة إلى الفردوس ، وطريق البادية إلى الحضارة ، وملتقى القبائل والقوافل فى الخانات المملوءة بالسامرة والتجار ، والأسواق المحفوفة بالمغامرات والأسرار ، والغوطة الفياضة بالجمال والحب ؛ ثم على مصر التى خلقت المدنية وأنشأت الفن وشرعت الدين وولدت موسى وآوت عيسى وتوجت الملوك بالشمس وكفنتهم بالذهب ودفنتهم فى الخلود ثم كانت تتحرق شوقاً إلى النيل وأيامه المشمسة التى يضحك فيها القطن ، ولياليه المقمرة التى يحلم بها النخيل فكنت أقرن شوقها إلى مصر بالدعاء إلى الله أن يهيىء لهذا المحيا الفاتن أن يتفتح نضيراً فى جوها الإضحيان الطليق

* * *

أدينا الامتحان معاً ثم أرسلت نفسى الحشيمة على هواها ومناها ، فزرنا معابد الطبيعة فى فنسين وسان كلو وفنتينبلو ، وحججنا محاريب الفن

فى الوفر والأبرا وفرساى وكنت يومئذ أترجم « رفائيل » فكان ما أقرأ وما أكتب وما أسمع وما أرى نَسقاً عجيباً من الجمال والجلال والفن والشعر والحب والتأمل والاستغراق لايدع للخيال الوثاب مسبحاً ولا للنفس الطامحة رغبة . ثم أحَمّ الفراق ورجعت إلى مصر ولحقت هى بأهلها فى (روّان) .

كان بينى وبينها رسائل مسكية المداد وردية الورق ، تؤلف كتاباً من شعر القلب والعقل تناول فيما تناول الفروق الفاشئة بين الشرق والغرب من اختلاف وجهة نظريهما إلى الحياة ، إذ الحياة فى نظر الشرقى دار ممر ، وفى نظر الغربى دار إقامة .

وفى فبراير من عام ١٩٢٨ زارت مصر هى وزوجها وهو ضابط فرنسى كان فى طريقه إلى عمله فى جيش سورية ، فكنت لهما ترجماناً ودليلا مدى أسبوعين إلى مخلفات الفراعين وطلول الفسطاط وقطائع ابن طولون وقاهرة المعز . وسنحت الفرصة المرجوة فاجتمع القلبان والذوقان على فنون الشرق الحبيب ورأيت من (مدام زوجيه) عزوفاً قوياً عن الشوارع الأوربية فى مصر الحديثة ، وولوعاً شديداً بالتجوال فى الغورية والنحاسين والجمالية وخان الخليلى ، وشوقاً ملحاً إلى استطلاع المجهول واستكناه الغامض واستخبار الناس واستحضار الماضى وكانت كلما أوغلت فى هذه الأحياء ، واستبطنت دخائل هذه الأشياء، شعرت بالحاجة إلى زيادة الإيغال وإطالة النظر وإدامة التقصى كأنما كانت تبحث عن شىء تعتقد وجوده ولا تراه ثم قالت ذات مساء وهى على شرفة القلعة تشاهد مغرب الشمس من وراء الأهرام :

— رباه ، إن وراء هذه الآثار التى أجهدها الدهر ، وهذه المآثر التى شوهها الجهل ، وهؤلاء الناس الذين مسخهم الفقر ، لروحاً خفية تبعث من خلال هذه الأغشية الكثيفة هذا الشعاع اللطيف الذى يشرق فى هذه الوجوه الشقية المحروسة فيبدد عنها كرب العيش .

هذه هى روح الشرق الإلهية المجهولة . فمن زعم أنه يحكم عليها من وراء هذه الأخلاق المنحلة والنظم المختلة والمشاهد الزرية ، كان كالذى لم ير الشمس ثم يحكم عليها من وراء الغمام والقتام[1] والبعد ! ، اجلوا عن هذا الروح العظيم هذه الغشاوة ، واكشفوا عن هذا الجوهر الكريم هذا الرغام[2] ، ثم اجلوه إلى جانب الغرب الخلاق بالعلم البراق بالصنعة واحكموا بينهما ؛ فلعلكم بذلك تكونون أدنى إلى السداد .

(١) القتام : الغبار الأسود .
(٢) الرغام : التراب .

يا لله لفلسطين!

(أول أغسطس سنة ١٩٣٨)

يا لله لفلسطين مشرق الهدى والسلام، ومهبط الوحي والإلهام، ومجتلى عين موسى، ومسرح قلب عيسى، ومسرح روح محمد، وقدس الأديان الثلاثة، وقبلة الإسلام الأولى، ومهد الأنبياء، ومقبرة الرسل، ومسجد الشرق والغرب، ومجرى العسل واللبن،

يا لله لفلسطين، ماذا فعلت بها الأحداث وجرّت عليها المطامع؟ أبعد أن رفع الإسلام عنها آصار العبودية وأوزار اليهودية تعود بها المقادير السود إلى استعمار (طيطوس) القاهر، واستثمار (يهوذا) الجشع، فيعود إليها الفساد والفوضى والقهر والفقر والموت؟

أبعد أن استخلصها للعروبة (عمرو الداهية) من (أرطبون)، وسجل استقلالها العالمي (صلاح الدين) على ناصية (جودفروا)، تستبيح ذمارها طرائد البشرية وفي صدورهم تِراتُ الأمم وحزازات القرون، فينزلونها نزول الوباء، ويحلونها حلول الفتنة، ويمتصونها امتصاص العلق؟

لقد قال المسيح لذلك اليهودي الذي منعه ظل جداره وهو مجهود، وحرمه قِرى داره وهو جائع:

«ستظل تائهاً في الأرض حتى أعود ...»

فهل عاد المسيح في ثوب (بلفور) أم كذبت نبوءة «السيد»؟ إن لعنة الله ودعوة المسيح لا تزالان تحرقان قدمي إسرائيل، فهو لا يثبت له قدم في أرض، ولا تطمئن له نفس في وطن. وكان من أثر ضلاله البعيد في الآفاق أن

اكتسب خلائق النور : فهو يلصّ ليعيش ، ويخدع ليغلب ، ويستوحش ليأمن ، ويتعصب ليدافع ، حتى انقطعت بينه وبين الناس وشائج النوع ، فأصبح خلقاً آخر لا يألف ولا يؤالف فمحاولة إسكانه مع غير أهله وفى غير أرضه تكذيب لكلمة الله وتزوير على قانون الطبيعة

ليس بصددى اليوم أن أفند هذه السياسة المريضة ، فحسبها منطق الحوادث وأدلة الواقع ، إنما أريد بهذه الكلمة أن أصور فلسطين العربية بين بحر يرشها باليهود والحرب ، وقفر يحصبها بالمرض والجدب ، وأخواتها فى العروبة وفى الإسلام مطمئنات على ضفاف الأنهر الضاحة بالنعيم ، وعلى رياض السهول الفواحة بالنعمة ، ينظرون إليها نظر الغرير الأبله وهى تمشى فى النار وتخوض فى الدم ، وتطلب القوت فلا تجده ، وتنشد الأمن فلا تناله أريد أن أصور حال هؤلاء الكماة الأباة الذين يغاديهم الفزع ويراوحهم الموت ، وهم يدافعون عن حقهم فى الحياة ، وينافحون عن مرقدهم من الأرض ، ويقولون للواغل الثقيل والعادى الدخيل : إنها موتة لا مناص منها ولأن تنثر أشلاؤنا على أديم الوطن ، وتقبر أجسادنا فى ثرى الأجداد ، أحب إلينا من أن نعيش عيش اليهود ، شرداء فى كل طريق ، طرداء فى كل بلد ؛

لقد شن يهود الأرض على عرب فلسطين الحرب فى صراحة ووقاحة ، وأعلنوا الجهاد الدينى والقومى بالتطوع والتبرع ، وسلحوا ذؤبانهم بالمنايا والمنى ، ودفعوهم فى وجه الحق والعدل والشرف ومن ورائهم مصارف اليهود تمدهم بالذهب ، ومصانع الإنكليز تمدهم بالحديد ، فانطلقوا يخربون المدن ويحرقون الحقول ويقطعون السبل ، ويحصرون المؤمنين الآمنين فى أجواف الدور وفى شعاف الجبال لا يجدون منصرفاً إلى الزرع ولا سبيلا إلى القوت ، وقد شغلهم الدفاع المقدس عن الحى والنفس عمن وراءهم من الشيوخ والأطفال والنسوة ،

فتركوهم يتضاغون من الجوع ، ويرتعدون من الخوف ، ويكابدون برحاء الهموم على وطن يستبيحه الغريب ، وشعب يتخطفه الموت ، وحق يتحيفه الباطل ، ومستقبل يتكنفه الظلام ، وحال من البؤس تقطع الرجاء وتوهى الجلد لولا إيمان المسلم وبسالة العربى واستماتة المظلوم .

فلسطين العربية كلها اليوم بين منفى يلوذ بكنف الأعداء ، وضعيف يتلهى بالدعاء والبكاء ، ومدافع يقتات بالعشب ويعتصم بالصحراء،وليس للمنفى شفيع إلا الأمل ، ولا للضعيف عائل إلا الصبر ، ولا المدافع منجد إلا الإيمان .

أما إخوة النسب وإخوان العقيدة فكأنهم لا يملكون لمأساة فلسطين الدامية إلا عزاء المجامل ، ورثاء الشاعر ، ودعاء العاجز ، وبكاء المرأة

أيها المسلمون ! إذا ذهبت عصبية الجنس فهل تذهب نخوة الرجولة ، وإذا ضعفت حمية الدين فهل تضعف مروءة الإنسان ؟ إنا لا نقول لكم تطوعوا ، ولكنا نقول تبرعوا . وليس فى التبرع للجريح بالدواء وللجائع بالغذاء نقض لمعاهدة ولا غدر بصداقة ، وأقل ما يجب للقريب على القريب وللجار على الجار يد تواسى فى الشدة ، وقلب يخفق فى المصيبة ، ولسان يحتج فى المظلمة فهل يزكو بعروبتكم والجود غريزة فى كيانها ، وبإسلاميتكم والمواساة ركن من أركانها ، أن تقفوا من فلسطين موقف الخلى المتفرج يسمع الأنين فلا يعوج ، ويبصر الدمع فلا يكترث ؟

إن فلسطين تقاتل للحياة لا للمجد ، وتناضل عن القوت لا عن العزة وخليق بمن يدفع عن نفسه أن يعان ، وبمن يذود عن رزقه أن يعذر .

إن فلسطين من البلاد العربية بمكان القلب ، ومن الأمم الإسلامية بموضع الإحساس وسيعلم الغافلون أن محنتها سبيل المسلمين إلى التعاطف ، وصرختها نداء العرب إلى الوحدة .

أسبوع محمود

(٢٦ سبتمبر سنة ١٩٣٨)

لم يعد الناس فى هذه الأيام ناساً لهم دين ومدنية وفلسفة ، وإنما عادوا كما بدأهم الله أصحاب غلبة وأثرة وبغى يتخاطبون بلغة القوة ، ويتجادلون بمنطق الذئب(١) ، ويتصاولون بعصبية الجاهلية ، ويسرف عليهم الطغيان فينزلون عن نفوسهم المريدة ليكونوا قطعاناً من البهم تسوقهم عصا واحدة إلى المزرعة أو إلى المجزرة

ها هو ذا إنسان القرن العشرين ينسى أنه تقدم حتى جاوز حدود الغيب ، وارتقى حتى بلغ أسباب السماء ، وتعلم حتى هتك أستار الكون ، وتهذب حتى تخلق أخلاق الملائكة . ينسى ذلك ويعود فيقف على الصخرة الصماء التى هبط عليها أبوه آدم من الجنة ، عارى الجسم من زينة المدنية ، فارغ النفس من كرم الدين ، مجرد العاطفة من جمال الأدب ينظر إلى فريسته الدامية وفوه يتحلب ريقاً ورمحه يقطر دماً ، وأشباهه من حوله بين مطعون يتوجع ، وموهون يتضرع ، وموتور يتوعد ؟

وقف الحاكم بأمره(٢) على منصة هائلة يحملها سبعون مليون رأس ، ونظر بعين النسر إلى فرائسه السمان وهن آمنات فى حمى القوانين ، قائلات فى ظلال المعاهدات ، فثارت الشهوة فى نفسه ، وعصفت القوة فى رأسه ، وزأر زئير الأسد المسعور ، وفغر فاه الجهنمى الأهرت(٣) عن

---

(١) تلميح لقصة الذئب مع الحمل

(٢) هتلر وهو يخطب فى مشكلة السوديت بتشيكوسلوفاكيا التى انتهت بمؤتمر مونيخ

(٣) الأهرت الواسع .

وسائل المنايا الحمر والسود تضطرب فى لعابه ، وتصطخب على أنيابه، فجزعت البشرية ، وريعت الديمقراطية ، وخنست المدنية ، وخرست عصبة الامم ، ووقفت حجج تشمبرلن أمام رغبات هتلر موقف المضخة الصغيرة أمام الحريق المهول . وأصبح العالم كله لأول مرة فى تاريخ حياته يهذى فى جهاته الأربع هذياناً واحداً من حمى واحدة هى : إعلان الحرب وويلات الحرب ونتائج الحرب ،

إذن لم يبق لعلاج ابن آدم حيـــلة ، فشرائع الله ومذاهب الحكماء ومراشد العقول ومناهج التربية لا تجـــد سبيلها إلى قلبه إلا حين تسكن الطبيعة فيه فإذا ثارت به لسبب من الأسباب كان حاله كحال العواصف والزلازل والفيضانات والبراكين لا تعرف الأرصاد ولا المقاييس ولا الحواجز وحينئذ تمحى مظاهر الوجود الإنسانى فلا ترى الشطئان الجميلة ولا الأودية المترعة ولا المدن الفخمة ولا الحضارة الرائعة ،

منذ أسبوع تحركت طبيعة الإنسان الأصيلة فى الدولتين الدكتاتوريتين[1] على حين غرة ، فوقع العالم كله فى بحران من القلق على حضارته وسلامته وحاول الكتاب بالبلاغة والحكمة ، والساسة بالمنطق والحيلة ، أن يدفعوا وقوع الكارثة أو يؤخروا يوم القيامة فما رجعوا بطائل ولم يكن ذلك لأن الخلاف بين (برلين) و (براغ) لا يدخل فى نفوذ العقل ، وإنما كان لأن الذئب متى صمم على افتراس الحمل بطل كل دليل وأبدعت[2] كل حجة وإذا انفجر البركان ودوت حممه وسال حميمه ، فمن ذا الذى يقول للطبيعة : رويدك يا أمة الله ! إن على السفوح وفوق السهول ملايين من عباد الله لهم حق الحياة وليس عليهم أن يموتوا ليتنفس (فلكان)

---

(١) ألمانيا وإيطاليا

(٢) أبدعت الحجة : ضعفت

من ضيقه فى السماء ، ويشفى من غليله على الأرض ؟ .

هذه أزهار الشباب الغضة فى أوربا الجميلة تنتظم عقوداً وأكاليل لتذويها سموم الحرب فى غير ذياد عن حرمة حق ولا جهاد فى سبيل مبدأ فهل درى هتلر وصاحبه أن كل زهرة من هذه الزهرات بهجة بيت وسعادة أسرة ؟

إن السلام العالمى يحتضر الآن بين قرع النواقيس وصلاة الرهبان ودعاء الآباء وبكاء الأمهات ، والفكر الإنسانى ينظر حزيناً إلى كبره وهو يتطامن ، وإلى جهده وهو ينهار . فهل استطاع حماة السلم وأساته أن يحفظوه ومن ورائهم كل حى يطلب الحياة ، وكل ضعيف يرهب الموت ، وكل فتاة تنشد الحب ، وكل أم تلعن الحرب ، وكل رافه يريد الطمأنينة ؟ ماذا يصنع الطب إذا انتشر الوباء ؟ وماذا ينفع الكوخ إذا عصفت الأنواء ؟ وماذا تغنى المذاهب والقوانين والنظم إذا عارضت هوى الطبيعة ؟

لا جرم أن الحرب سلاح من أسلحة الطبيعة تدرأ به عن نفسها الفضول والجمود والوهن ؛ فهى نوع من التشذيب والتطهير والتنقية تصلح عليه الدنيا ويتجدد به الوجود ولا ريب أن الديمقراطية نظام من نظم الناس أقاموه على الحرية والمساواة ، ودعموه بالفلسفة والقانون ، ونشروه بالأدب والفن ، وقرنوه بالسلام والأمن ؛ وفى كل أولئك كفكفة لسلطان الطبيعة فهى لذلك تحاربه بضده كما تحارب الحياة بالموت ، والخير بالشر ، والجدة بالبلى ، فتسلط عليه الطغيان المطلق فى بعض الأمم فيخضد من شوكته ويقلل من هيبته حتى يشكك الناس فى أثره وغنائه فالدكتاتورية إذن هى نكسة الداء الحيوانى فى الإنسان المهذب

تعود به إلى حمى الشهوة وكَلَب الوحشية فلا يفهم غير لغة السباع ، ولا يخرج من النزاع إلا بالصراع .

فمن زعم أن السلم العالمية تحفظها عصبة الأمم أو تحالف الدول أو تقدم الحضارة فقد أحسن الظن بالإنسان إلى حد الغفلة ، وأساء الفهم للطبيعة إلى حد الجهالة إنما يحفظ السلام السلاحُ الإيجابي وهو القوة وهذا السلام لايمكن أن يكون إلا نسبيا ووقتياً بالضرورة ؛ فإن القوى إذا تكافأت تساقطت ، وإذا تفاوتت كان هناك الآكل والمأكول والغانم والغارم وهكذا قضى الله على الحياة أن تكون دولة بين الفساد والكون، تبنى جانباً بهدم جانب ، وتوجد حياً من عدم حى ، وترفع دولة على أنقاض دولة . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض .

شيطان

(٧ نوفبر سنة ١٩٣٨)

كان الناس منذ عهد قريب يقرأون فى القصص الغربية أفانين من فجور النفس وقحة الهوى وبغى الفتنة ، فتفيض عيونهم من الدمع رحمة للزوجة التى أعنتها الغواية ، وللزوج الذى أشقته الخيانة ، وللطفل الذى أيتمه الطلاق . ثم يُسَرّى عنهم أنها فجائع إن تكن فى الغرب فنحن فى الشرق ؛ و إن تكن من زور الخيال فنحن فى حقيقة الواقع ؛ حتى عشنا معيشة أوربا وفتحنا دورنا لكل طارق ، وصدورنا لكل متودد ، فأصبح ما يجرى هنا صورة لما يجرى هناك ، وما كان معدوداً من خداع الفن صار جارياً على نظام الطبيعة !

عرفت زوجين شابين تعارفا بالجمال وتآلفا بالحب ، ثم عاشا على اختلاف الدار والجنس معيشة أهل الجنة : صفاء غير مشوب ، وولاء غير مكذوب ، ورخاء فى ظلال النعيم والأمن يبسط المشاعر وينشر الأنس ويجمل الحياة . كان الزوج مثلا فى الإخلاص والرعاية لزوجه ، فلا يفكر إلا فيها ، ولا يسعى إلا لها ، ولا يفهم وجوده إلا مضافاً إليها أو متصلا بها . وكانت الزوجة آية فى الوفاء والطاعة لزوجها ، تقاسمه همّ العمل ، وتساهمه دَعة المنزل ، وتبادله رجاء المستقبل ، وتتقلب معه فى الشدة والخفض غير متبرمة ولا متجهمة ، وكانا معاً بهجة الأسرة وأنس الأصدقاء ، فلا يخلو بيتهما من سمر ، ولا ليلهما من زيارة ، حتى أصبحا فى بيئتهما الخاصة مثلا مضروبا فى الزوجية الموفقة والحياة السعيدة .

وكانت حياتهما الأوربية تقضى عليهما أن يكابدا التعرف العارض والخلاط المستمر . والعصمة من شرور الأخلاق فى مثل هذه الحال لا تجد لها مناطاً إلا الثقة

الزوج فى الزوج ، واطمئنان النفس إلى النفس . وثقة الرجل المثقف بالمرأة المثقفة. والثقة أصبحت فى المجتمع الحديث من القضايا المسلمة والأمور المفروضة. فلا ينبغى أن تحوم حولها شبهة ، ولا أن يقوم عليها جدل .

وكان فيمن يختلف إلى بهوهما الأنيس الباش فتى من أهل الرواء خداع الملامح ، خلاب الأحاديث ، يعد نفسه فى الطراز الأول من ثقافة الفكر والخلق . تقلب طويلا بحكم منصبه فى البيئات الدبلوماسية المختلفة ، فحذق الكلام والمنادمة ، ومَهر الغناء والرقص ، وأحكم النظرة التى تنفذ . والبسمة التى تقول ، واللفتة التى تعجب . وامتلأ ذهنه من صور الدنيا وحوادث الناس فكان جميل المحضرة عذب المفاكهة حتى ليستولى على المجلس فلا يترك فيه مسمعاً إلى أحد . وكان مذاعاً يتمزى[1] على زملائه ، ويتبجح بالحظوة عند رؤسائه ، ويلقى فى روع السامع أن له المكانة المرفوعة والكلمة المسموعة والغد المضمون ، فاستطاع بكل أولئك أن يخدع الزوجين بظاهره عن جوهره ، فكبر فى نفس السيد ، وحلا فى عين السيدة .

ودخل هذا الفتى جنة الزوجين دخول ابليس فحرك فيها السموم وسَفى عليها الكدر ! فلا الزهر نفاح ناسم ، ولا النسيم رَخيٌّ أرج ، ولا الجو بهيج طلق ، ولا العش الصادح فى أفياء الشجر ناعم آهل ! وسوس الشيطان لحواء قال لها : إن السعادة فى بيت غير هذا البيت ، والثروة عند رجل غير هذا الرجل ، والجاه فى منصب غير هذا المنصب ! وهذه المزاية التى لك عَلَى الأتراب فى الجسم والفكر والطبع لم يجملك بها الله لتحبسيها فى هذا القفص الشعرى الذى تهدده الأحلام على نغمات الحب والأمل . ليست الحياة كلها شعراً ياحواء ! وإن بجانب النفس الشاعرة نفوساً أخرى هواها فى المال واللهو والسلطان والعظمة . ومن زعم أن نعيم

(١) المذاع : الكذاب ؛ ومن لا يحفظ أحدا بظهر الغيب . ويتمزى : يظهر المزية

الدنيا فى الغزل وزينتها فى الرياض وبهجتها فى المنى ، فقد أنكر المعروف وتجاهل الواقع . وكان الشيطان المغوى حدث نساء فعرف كيف يندس بالخديعة إلى الزوجة الضعيفة ، فأصغت إلى نزغاته بأذنها ثم بقلبها . ثم أصبحت فإذا زوجها مشؤوم وبيتها موحش وعيشها تافه . وأحست برباط الزوجية يشتد على حناياها اشتداد الوثاق على ضلوع الأسير لم تعد الجنة فى عينها هى الجنة ، ولا آدم فى قلبها هو آدم ! وأوهمها الخبال أو الخيال أن النعيم المقيم هو فى أكناف إبليس على متون السحب وربى الجبال وشطئان الأبحر . ولكن عشر سنين قضتها مع الزوج الوفى فى نشوة متصلة من الحب المؤاسى لا يمكن أن تخفت أصداؤها العذبة فى لحظة . فكانت كلما تخلصت من فعل الغواية صارحت زوجها بأنها تحب هذا الفتى حبا غطى على بصرها وبصيرتها ، فهى لا ترى ولا تفهم وسألته يوماً أن يحتال لبرئها من هذا الخبل ، فاتفقا على أن ترحل إلى أوربا تنشد فى جوانبها المختلفة السكينة والسلو ، حتى إذا أقبل الصيف وتعطل العمل لحق بها زوجها ، فربما انجاب الغشاء عن العين والقلب فأبصر الأعمى ورشد الغوى ! ولكن الفاجر علم بسفرها المفاجىء فطلب إجازة طويلة من الوزارة التى يعمل فيها وتبعها إلى مصيفها وهى وحدها توازن فى هدوء العزلة بين ماضى الزوج الواضح ومستقبل الحبيب المبهم ، فأسقط من يدها الميزان ، وأيقظ فى صدرها الحيوان ، وأفسدها على نفسها وعلى زوجها وعلى أهلها فساداً لا يرجى معه صلاح !

ثم امتدت يد القدر تحل عقدة هذه الرواية ، فإذا الزوج وحيد يعانى غصص الألم ، والزوجة مطلقة تتجرع مرارة الندم ، والشيطان الرجيم يقطع البحر عائداً إلى منصبه الكبير فى وزارة . . يشارك فى أمور الدولة على هذا الخلق ، ويتصل بالأسر المخدوعة على هذا الوجه . . !

الغازي أتاتورك

(١٤ نوفمبر سنة ١٩٣٨)

ربما كان (كمال أتاتورك) أضعف من (مصطفى كمال) في الدلالة على نشور دولة في قائد، ونبوغ أمة في رجل، وبلوغ حكومة في زعيم، وتاريخ نهضة في حياة فرد! فإن (مصطفى كمال) اسم على كل أولئك جميعاً، نقشته في الآذان والأذهان الأقدار المصرّفة والعبقرية الخلاقة في مدى عشرين سنة! ولكن (أتاتورك) لقبٌ أطلقوه على النسر المحلق بعد ما قص مخلبه وطوى جناحه، فلم يطر معه في جو، ولم يقع به على فريسة، ولم يدل إلا دلالة الأبوة على الأسرة الطائعة والألفة الجامعة والرعاية الحنون.

لم يكن مصطفى كمال — رحمه الله — رجلا من رجال المصادفة والحظ، يرفعه إلى البطولة خلو الميدان، ويدفعه إلى الزعامة غباء الأمة؛ وإنما كان من الصفوة المختارة الذين يضع الله فيهم الهداية للقطيع الذي يوشك أن يضل، والحيوية للشعب الذي يأبى أن يموت. والغالب في هذا الصنف من الناس

أن يكون مستبداً برأيه ، حاكماً بأمره ، لأنه يظهر والقوم فى ضلال أو انحلال ، فيكون تفرده بالأمر تبنيهاً من الله وتوجيهاً من الطليعة ، ومن ثمّ كان المضاء والفداء والإيثار والعدل من أخص صفاته

جرت الطبيعة فى تهيئة مصطفى كمال على مهاجها فى تهيئة الأبطال ، فولدته فى مهد الفقر ، وربته فى مدارج القرية ، وغسلته بأنداء الحقل ، وسقته من عرَق العمل ، فقلح الأرض ، ورعى الغنم ، وتلقى من الطبيعة الصافية الحرة أخلاق البطل الذى رمى المنجل وأخذ السيف ، وانصرف عن قيادة القطيع إلى قيادة الأمة .

تستطيع أن تقول : إن الوراثة المختلطة والنشأة القروية والبيئة المقدونية والأم الصالحة قد فعلت فعلها جميعها فى تكوين مصطفى كمال ، ولكنك لاتستطيع أن ترد إلى عامل من هذه العوامل ذلك القلق الروحى الذى استولى عليه فى جميع أطوار عمره ، فتركه ثائراً لايهدأ ، وطامحاً لايرضى ، ودائباً لايستقر . إنما هو سر النبوغ يذيع ، وقبس الإلهام يتقد ، وفيض الحيوية يزخر ؛ فهو راع قلق فى المرعى ، وطالب ثائر فى المدرسة ، وقائد متمرد فى الجيش ، وزعيم مسيطر فى الحكومة !

رأى مصطفى طغيان عبد الحميد يخنق الحرية ويزهق النفوس ويرهق الضمائر ، فقاومه وهو يافع فى جماعة (الوطن) ، وهاجمه وهو شاب فى (جمعية الاتحاد والترقى) ، وقضى على تراثه كله وهو كهل فى (المجلس الوطنى الكبير) ، ثم كان فى كل عمل تولاه يمضى مضىّ الأمر المقدور فلا يتقيد برؤسائه الألمان ولا بزملائه الأتراك إذا رأى الفوز فى خطته أو الصواب فى رأيه .

وعصفت الحرب الكبرى بغليوم وبوحيد الدين ، ومزقت معاهدة (سفر) رقعة الإمبراطورية العثمانية بين الحلفاء ، فكان لكل حليف درة من تاج محمد الفاتح ، حتى لم يبق للخلافة إلا موضع العرش ونزل الخليفة ووزراؤه على حكم القادرين فاعترفوا بالضيم واستكانوا للذلة واعتقد الناس أن (الرجل المريض) لفظ نفسه فلا حس ولا حركة ، ولكن الشعوب الحربية ينتخلها الانتخاب الطبيعي فلا تموت بالصيحة كما تموت الشعوب الوديعة ، فبقيت الروح التركية تضطرم وتفور في مصطفى كمال ورفاقه الميامين على شعاف الأناضول ، فجمعوا فلول الجيش المحطم وكروا به على اليونان فكبكبوهم في البحر ، وضعضعوا عزائم الأحلاف فهادنوهم في (مودانيا) مهادنة النصر ، وعاهدوهم في (لوزان) معاهدة الاستقلال وبعثت تركيا من جديد على صرخة كمال وأنصاره كما يبعث للقبور على نفخة الصور ، عارية من دنياها القديمة ، منقطعة عن ماضيها الغابر ، فاستبدلت الجمهورية بالخلافة والقبعة بالطربوش ، وفصلت بين الدنيا والدين ، وكتبت من الشمال إلى اليمين ، وأدارت ظهرها للشرق ، وساوت بين الرجل والمرأة في الحق ، وسجلت نفسها في عصبة الأمم من مواليد هذا القرن !

قالوا : إذا كان محمد من جهة البشرية معنى العرب ، فإن مصطفى كمال من هذه الجهة معنى الترك ووجه الشبه في زعمهم أن أتاتورك أحيا وجاهد وأصلح وشرع ، وأن مبادئه ستنطبع في العقلية التركية فلا تصدر إلا عنها ولا تسير إلا عليها وقد فاتهم أن نهضة محمد يسددها قرآن ويسندها وحي ، وأن توطنها في القلوب آتية من اقتنـــاع العقل لا من شدة السلطان وقد انتقل العرب على هدى قائدهم الأعلى من حال إلى حال لا يقاس ما بينهما من البعد والاختلاف بما بين حالى الترك ، ومع ذلك ظلوا

فى طريقهم الواضحة إلى ثلاثة عشر قرناً ونصفا لاينكصون ولا يضلون .
فليت شعرى أيظل الترك فى طريقهم إلى الغرب بعد أن همد الصوت المهيب وسقطت العصا للهدة ؟ إن الناس ليختلفون فى الجواب عن هذا السؤال . ولعل كثرتهم يعتقدون أن التغلب على العقائد المغروسة والتقاليد الموروثة والآثار الماثلة لايتيسر فى هذه المدة ولكن المختلفين والمتفقين كلهم لسان واحد على أن كمال أتاتورك أعظم من أنجبت تركيا شجاعة قلب وبراعة ذهن وأصالة رأى وطهارة يد وسلامة ضمير .

تغمده الله برحمته ، وجعل ثوابه كفاء لصدق جهاده وحسن نيته .

ليت للأوقاف عيناً !

(٥ ديسمبر سنة ١٩٣٨)

ليت للأوقاف عيناً تخترق الجُدُر وتشق الأستار فترى ماذا يصنع البؤس بأهله ! إنها وا أسفا تسمع ولا تبصر : تسمع ذلك البؤس الملحّ الوقح الذي يغضب ويصخب ويثور ، ثم يقتحم عليها الحُجّاب والأبواب ومعه فوق لسانه الملحف بطاقة من كبير أو وساطة من موظف . وهذا البؤس الذي يدع لأهله قوة السعي وبراعة الحيلة لا يكون في أكثر حالاته إلا طمعاً أو حرفة . أما ذلك البؤس الدفين الصامت الذي يستعين على ضحاياه بكبرياء نفوسهم فيسلبهم الحس والحركة ، ويمنعهم الأنين والشكوى ، فلا يراه إلا الله الذي فرض الزكاة وأوجب الرحمة ، وجعل على عباده خليفة منهم ينطق بلسانه ويرى بعينه ويحكم بأمره .

إن في بعض الدور ومن وراء الستور ظلالاً من الحياة الغاربة على أمثال الخيال من بني آدم ؛ تنسم أنفاسهم الضعيفة بما بقي من أرواحهم الخافتة في إسلام مؤمن واستسلام صابر فإذا كشفتهم الحاجة للعيون حسبهم الجاهل أقوياء من الصبر ، أغنياء من التجمل ، حتى يستوفوا أجلهم المكتوب فتذهب بهم المنون وهم في وحدة الفقر ، كما تذهب شمس الصحارى بأنداء الفجر .

كان لنا جارٌ في مدرسة شبرا الثانوية يجثم تحت جناحيه أربع بنات وثلاثة بنين وزوجة وأم ، يقلبهم على ما يشتهون من لذاذات العيش الغرير ، فيأكلون أكل السرف ويلبسون لباس الترف ويلهون لهو المجانة ، حتى كانت غرف البيت من فيض النعيم ومرح العافية كأعشاش البلابل سالمها

الأحداث فى جنة من الحب والماء والشجر . ثم لحظتها عين الدهر فأصيب الأب بمرض السكر ، وعقر إصبعه الحذاء ذات يوم فأصابته قرحة ساعية(١) . فنقلوه إلى المستشفى القبطى فبتر الجراح رجله . وسعت عليه زوجه بالمال والأمل فلم تستطع أن ترد قضاء الله ولا أن تدفع عادى الموت . وانقلب المنزل الفرِح المرح النشوان قبرا رهيباً يغشاه الحزن ويجلله السواد وتخيم عليه الوحشة فلا زوار يقدمون بالهدايا ، ولا سمار يفدون بالأنس ، ولا ولائم تشرق فيها النفوس والكئوس كل جمعة .

وبحثت الزوجة عما خلّف الزوج الراحل فلم تجد غير ذلك المال الذى كان تحت يدها وقد أنفقته كله فى العلاج والجنازة . ونجمت حول بيتها الحزين رءوس الدائنين تندلع ألسنتها بالمطالبة الفاضحة ، ففزعت إلى وزارة المعارف تسألها أن تسرع فى أداء مالزوجها من الحق ، فأعطتها بعد لأى مكافأته على السنين السبع التى قضاها فى مدارسها . فقد كان من قبل مدرساً بأحد مجالس المديريات ، فلم يجتمع له الزمن القانونى لا ستحقاق ورثته جزءاً من المال على سبيل المعاش . وذهب الغرماء بالمكافأة ، وبقيت الزوجة وحماتها وبنوها السبعة فى غشية الهم وصدمة الواقع ، يتلمسون نفَساً من الكرب أو شعاعاً من الرجاء يطالعهم من قريب أو صديق فلم ينالوا . وتذكرت الأيم المسكينة أن زوجها كان يعلم ابن وزير الزراعة فلاذت به تسأله أن يساعدها بجاهه على تربية أولادها فى مدارس الوزارة فتخلص منها بخمسة جنيهات ثم أغلق من دونها بابه .

كان بين الزوجين مائة قرابة . وكانت أسرتهما من الأسر الريفية التى

---

(١) القرحة الساعية : هى التى تمتد من موضع إلى موضع وهى خلاف الواقفة .

ألوى بها الدهر المديل فلم يبق منها إلا عجائز وأيامى يعشن على معونة الأستاذ الفقيد ، وإلا موظف صعلوك فى شركة (سنجر) لم تره الأرملة إلا يوم الجنازة . وقد حملها هذا الموظف بغروره على أن تنفق خمسين جنيها على ليلة للمأتم ، لأن أقطاب التعليم وأعيان الأدب الذين سيتفضلون بالتعزية لا ينبغى أن يثووا إلا على الطنافس الفارسية ، ولا أن يجلسوا إلا على الكراسى الذهبية !

وكان للفتاة الكبرى خاطب غنى من أصحاب أبيها ، فلما وقف على حال الأسرة بعد كاسبها انقطع خبره فكأنما غاب معه فى قبر واحد ! وعجزت الأم عن دفع النفقات المدرسية لبنيها وبناتها ، فظلوا حولها فى البيت يندبون الميت ويبكون الحى ويسدلون على مأساتهم الفاجعة ستاراً من الصمت والعزل حذر الشامت ، فما كان بابهم ينفتح إلا لتجار الأثاث القديم يخرجون منه بصفقة بعد صفقة من الفرش أو المتاع .

ولبثوا على هذه الحال ستة أشهر لم يدفعوا عنها شيئاً من كراء المسكن للحاج محمود ، حتى أدركته عليهم شفقة المؤمن ، فنزل لهم عن الدين ونقلهم إلى غرفتين على سطح من سطوح منازله الكثر يسكنونهما من غير أجرة .

وتركنا حى شبرا منذ خمس سنين فلم نعد نعلم من حال هذه الأسرة المنكوبة شيئا .

وفى صباح أمس الأول كنت فى ميدان باب الحديد ، فتقدم إلىّ صبى من باعة الصحف يحيينى وهو يبتسم . فتفرسته فإذا هو إبراهيم أوسط الإخوة الثلاثة ! فصحت به مستطارَ القلب من دهشة المفاجأة :

— ابراهيم ؟ ماذا فعل الله بكم يامسكين ؟

مرضت أمى بالروماتزم فلا تنهض ، وعميت جدتى من الحزن

فلا تسعى ، وتزوجت أختى الكبرى من أحد السعاة فلم تصبر على عشرته غير ثمانية أشهر فهى تخيط بالأجرة ، وأختى الوسطى تدير للغزل ، وأختاى فلانة وفلانة تخدمان ، وأخواى فلان وفلان يعملان أحدهما صبى كواء والآخر خادم بقال ، وأنا كما ترى وكل ما نكسبه جميعاً فى اليوم لايتجاوز ثمن الخبز !

ألا ليت شعرى متى تقيم الحكومة الركن الخامس من أركان الدين وهو الزكاة ، فتتحقق به أخوة الإسلام ، وتنجلى عن الناس هذه الآثام والآلام ؟

بل ليت للأوقاف قلباً !

(١٢ ديسمبر سنة ١٩٣٨)

ذلك ما ابتدرني به رجل يهدف للخمسين ، أشمط الرأس أصهب الشارب جركسي البشرة ، يترجم كلامه عن العزة ، وينم هندامه على الفاقة ، ويشير سمته إلى مسحة من الأرستقراطية تتراءى ضئيلة على معارف وجهه وحركات يده .

دخل عليَّ المكتب أول أمس في أدب كأدب البيوتات الكريمة الدارسة سلام تحس فيه تواضع المملوك وكبرياء الملك ؛ وبسمة متملقة تجرى على شفتيه الرقيقتين كأنها من طبيعتها خلقة ؛ وأسلوب هذبه (الإتيكيت) فهو مختار اللفظ موزون الإشارة شكر لي مقالي (ليت للأوقاف عيناً) الذي افتتحت به عدد الرسالة الماضي وقال :

إذا كان طلاب الأوقاف الخيرية يتمنون أن تكون للوزارة عين ، فإن طلاب الأوقاف الأهلية يتمنون أن يكون لها قلب أولئك يشكون أنهم ييأسون من وراء عينيها فلا ترى ، وهؤلاء يشكون أنهم يشقون بين يديها ولا ترحم ! وما دام المستحقون لاينالون نصيبهم من الحق ، فكيف ترجو أن ينال المتعفون نصيبهم من الخير ؟

كان الرجل يتكلم كلام الشاكي الكظيم يهمه أن يقول ولا يهمه أن يسمع فتركته يستريح إلى ما في نفسه ، لا أعترض عليه ولا أصحح له ، فإن على أن أبلغ مسامع أولى الأمر زفرات الصدور المكروبة ،

وعليهم هم أن ينظروا إن كان مبعثها خطأ النفس على النفس ، أو خطأ الناس على الناس .

قال محدثى وهو يضع سيكارته الملفوفة باليـــد فى مبسم طويل من الأبنوس :

— إذا عذرنا وزارة الأوقاف على أنها لا تسعف أولئك المنكوبين الذين انفرد بهم البؤس فى ظلام الدور ، ومنعتهم الأنفة عن الخروج إلى النور ، فكيف نعذرها على أنها تدخل البؤس بيدها على قوم جعلوهم أهلوهم فى ذمتها وأمانها ، تحفظ لهم الملك وتثمره ، وتبسط عليهم الرزق وتوفره ؟ أنا ضحية من ضحايا الأوقاف الأهلية ، اعتمدت منها على جرف مهار فهويت إلى قرارة الفاقة لم أتهيأ للعمل الحكومى بشهادة ، ولا للعمل الحر بصنعة ، وإنما نشأت فى بيت جدى فلان باشا نشأة المترفين المدللين ، أجيد ركوب الخيل ، وأحذق أنواع الصيد ، وأساهم فى تجميل حياة القاهرة بالسرف فى الملاهى ، والقصف فى البيوت ، والمقامرة فى السباق ، والافتنان فى المظاهر وكان أبى رحمه الله ناظراً على ما وقف جدى على أسرتنا الكبيرة المتشعبة من الضياع والرباع ، فكان يغرق رغباتى فى فيض من المال لا ينهض ولا يخلف . فلما توفاه الله آلت النظارة من بعده إلى أرشد أعمامى فانقبض عنى شىء من بسطة العيش . وكان لى بنون وبنات نشأوا فى نعمة أبى كما ينشأ النبات الربعى(١) فى خصيب الأرض ، فلم أرد أن يمس نضرتهم ذلك الضيق الذى جره علينا طمع الناظر ، فبعت ما ورثت عن أبى وعشت سنين على الخفض والسعة حتى إذا لم يبق إلا الوقف أخذت أروض نفسى وأهلى على التدبير ، فاختصرت المسكن ، واختزلت الأثاث ، وضيقت

---

(١) الربعى : ما ينتج من الحيوان أو ينبت من النبات فى زمن الربيع .

المطبخ[1] ، ورضيت أن أركب (التكسى) وأن أجلس فى (النيوبار) .
وليت ذلك ياسيدى دام ! فإن كبار المستحقين شغبوا على الناظر فعزلوه ، وتألبوا على خلفه فشلوه ، واستحكم بينهم الشقاق فلم يتفقوا على ناظر منهم . ثم لم تنقطع أسباب هذا الخلاف ، إلا « بتنظير » وزارة الأوقاف !

كان لجوء المستحقين إلى تنظير الوزارة كلجوء القطين المتنازعين على قطعة الجبن إلى تحكيم القرد ، فلم يبق لهم على الأعيان الموقوفة يد ولا عين ، وأدارتها الوزارة على المنهج الحكومى فأرهقتها بالكتاب والنظار والمفتشين والمراقبين والخبراء ، ولكل واحد من هؤلاء طريقة فى العمل ورأى فى الإصلاح يتغيران بتغييره . فالبناء الذى أقيم يهدم ، والمصرف الذى حفر يردم ، ثم يستأنف البناء والحفر فى مكانين آخرين ! وهكذا دواليك : يتعاور البناء والتخريب ، ويتعاقب الاقتراح والتجريب ، حتى تذهب غلة الأرض بين نفقة الإدارة وحصة الوزارة ! تلك حال الأرض أما الدور فهى قصور فسيحة ذات أسوار وحدائق رغب الناس عن سكناها لمخالفة طرازها لمقتضيات المدنية الحديثة ، وأغفلتهـــــا الوزارة فلم تفكر فى تجديدها واستغلالها ، ولا فى بيعها واستبدالها ، وإنما تركتها لمعول الزمان فلا تؤجرها إلا مخازن للتجارة وزرائب للحيوان ومساكن للفعلة !

كان دخلى على عهد الناظر الطماع ستمائة جنيه فى العام ، فأصبح على عهد الوزارة شيئاً لا أسميه ! فهو سنة يكون ستين ، وسنة يكون ستة ، وسنة يكون مطلاً ، وسنة يكون ديناً ! وأنا وزوجتى وأولادى نكابد غصص الحرمان فى ركن رطيب من إحدى دورنا الخربة . فالبنون لا يجدون عملا لمكانهم من الجهل ، والبنات لا يجدن أزواجاً لمكانى من الفقر ،

---

(١) كناية من قلة البذل فى الطعام .

ولا نقضى أيامنا السود إلا على اقتراض من القصاب والبدال والعياش والقماش ، حتى ضاق بنا العيش وأصبحنا إذا دخلنا أقضّنا الهم . وإذا خرجنا أمضنا الخجل . . .

يا سيدى ! إن الوقف الأهلى إن حفظ العين فقد أضاع الريع وليس لهذه الغاية الحمقاء وقف الواقفون فسبيل الإصلاح فى عهد الصلاح أن يحل ، فإن المرء أدرى بشأنه وأعلم بخيره وليس من يعمل لنفسه كمن يعمل لغيره

يا إنسان . أين الإحسان ؟

(١٩ ديسمبر سنة ١٩٣٨)

ما أطول أحاديث البؤس وأكثر حوادث أهله !

كان للمقالين اللذين كتبناهما فى غفوة الإحسان عن مرتجيه ، وقسوة الوقف على مستحقيه ، رجع شديد فى أكثر النفوس فقد غدا علينا البريد بعشرات من الرسائل الباكية كأنما كتبت بدموع العيون ودماء القلوب ، فلا تدرى أهى كلمات أو أنات ! ولو شئت أن أنقل إليك بعض ما فيها لدهشت أن يكون فى مصر — وهى البلد الذى يجرى نيله بماء الحياة ، ويفيض ثراه بطيبات الرزق — خلق من بنى آدم يدمنون الصيام من الجوع ، ويلبسون الظلام من العرى ، وتصبح أمانيهم على الله أن ينقذهم من الحياة بالموت !

هاك حالة واحدة من ألوف :

روى الشيخ عبد الغنى فى رسالته الضافية ما ألخصه لك فى هذه الأسطر :

طرابيشى فى حى من أحياء القاهرة كان يعيش من فضل الله وربح الحرفة فى نعمة سابغة . كان رحب الدكان والصدر ، يجلس عنده سراة الحى فيتحادثون ويتنادرون ويفضى بعضهم إلى بعض بأسرار البيوت وأخبار الصحف ، والمكاوى لاتنقطع عن الكى ، والعمال لايفترون عن البيع . وكان رخى البيت والأسرة ، يغشى فناءه السهل ذوو القربى وأولو الحاجة يتقلبون فى أعطافه ، وينالون من ألطافه ، ويسترحمون إلى ظله . فلما تعود الناس قلة النفقات من كثرة الأزمات ، ووفدت على مصر من وراء البحر بدعة العرى ، فتعرت أرجل النساء من الجوارب ، ورءوس الرجال من الطرابيش ، أخذت نار الطرابيشى تنطفىء وحركته

تسكن ومورده يغيض ، وأخذ الغرماء مجالس الحرفاء[1] ، وزاد عدد المحضرين على عدد المشترين ، فكان الرجل يفتح دكانه يوماً ويغلقه أسبوعاً ، حتى فدحه الدين وأعيته الحيلة فباع الملك ، وركبه الهم والمرض فلزم البيت . وتفجرت عليه المصائب من كل جانب فمات ولده الوحيد وكان فى السنة الثالثة من كلية الطب ، وتوفى أخوه البار وكان موظفاً فى إدارة القرعة ، وتأيمت أخته الفقيرة الولود فلاذت بحماه . ووجد الداء فى جسمه الواهن للنحل مجالا فاستشرى ، ورأف الله به أن يعانى الألم فى نفسه وفى أهله طويلا فتوفاه ، وبقيت بعده زوجته المقطوعة وأخته الأرملة وابنتاه العانستان ، يعشن على خمسين قرشاً فى الشهر ! أندرى من أين تأتيهن هذه الخمسون قرشاً ؟ تأتى من أجرة الدكان ، فقد استأجر الصانع الذى كان يعمل فيه على عهد الرجل آلاته وأدواته وأثاثه بمائة قرش . فكن يعطين وزارة الأوقاف منها ثمانين كراء المحل حتى سعى لهن أهل الخير لديها فجعلته خمسين .

ويتساءل الناس بعد ذلك : كيف يعيش هؤلاء النسوة الأربع على هذا النزر اليسير من الرزق فلا يستطيع أحد أن يجيب ؛ لأنهن أغلقن على أنفسهن وعلى بؤسهن غرفة من غرف الغسل فى بيت متهدم من بيوت (زين العابدين) فلا يدخل عليهن إلا جارة برغيف أو خادمة بطبق . . . !

فليت شعرى أتقنع الفتاتان كما قنعت المرأتان بهذا العيش ، أم تحملان آخر الأمر على ركوب الغواية والطيش ؟

ذلك سؤال كان ينبغى أن يوجه إلى وزارة الأوقاف وأغنياء الأمة ، ولكن وزارة الأوقاف ليست بيت المال الذى كان يقوم عليه عمر ، والأغنياء فى مصر كلما أفعم الله جيوبهم بالمال أفرغ جنوبهم من الرحمة ؛ فأموالهم للأحزاب

---

(١) حريف الرجل : معامله فى حرفته (الزبون) .

والانتخاب ، وعواطفهم للخيل والكلاب ، ودنياهم للغرور والأبهة . فلم يبق لطرائد الشقاء وفرائس الفاقة غير الله . ولله فى أموال هؤلاء القساة حق معلوم هو الزكاة ، والزكاة ركن من أركان الإسلام كالشهادتين والصلاة . والإسلام سعيد اليوم فى هذا العهد زمانه وسلطانه ، فالأمراء والوزراء يصلون ، والمترفون والمثقفون يحجون ، والدين والمدنية يتعاونان على تنزيه النفس وترفيه العيش وتأمين الحياة . فلماذا يظل هذا الركن مهدوماً وهو وحده العماد القوى لبقاء الأمة ، والطباب الناجع لأدواء المجتمع ؟ لقد فرضت الحكومة على الأموال الثابتة والمنقولة ضرائب العمارة والأمن والدفاع ، وجبتها على الطوع والكره ، فما بالها وهى الحكومة الاسلامية القوية لاتجمع بوسائلها الإدارية ماجعل الله للفقراء فى أموال الأغنياء ، ثم تقسمها على من سماهم الله فى كتابه ، فتأمن بذلك ثورة النفوس واضطراب الأمن وسخط العدالة ؟

إنها إن تفعل ذلك ترض نفوس العامة ، وفى رضا هؤلاء تكثير النسل وتوفير الإنتاج وتيسير المعيشة . ولن تجد فى جباية الزكاة ماتجد فى جباية الخراج من امتعاض أو اعتراض أو مشقة ، فإن البذل فى سبيل الله ربا المؤمنين . ومليونا جنية من الصدقات يدخلان بيت المال فى كل سنة مع الأمانة والعدل ، لايتركان فى الأمة سائلا فى شارع ولا جائعاً فى بيت ولا جاهلا فى عمل . وكلما استبحر العمران واستذأب الناس واستشرت المطامع ، تبين أقطاب الرأى وأصحاب الأمر أن الله الذى جعل الفساد فى الدنيا جعل الصلاح فى الدين . فما من علة فى الفرد ولا آفة فى الجماعة إلا نبه إليها بنوره ، وطب لها فى شرعه ، وخفف منها بلطفه . فهل تفكر الحكومة فى إقامة الدين على وجهه ، فتهدأ ضلوع وتجف دموع ويتذوق الناس فى ظلال الإخاء ، سعادة الأرض ونعيم السماء .

تنظيم الإحسان

(٢٦ ديسمبر سنة ١٩٣٨)

الإحسان فى مصر — وإن شئت قلت فى بلاد الإسلام — فوضى وإذا كان للفوضى نظام فهو فى فوضى الإحسان أن ينال المستطيع ويدرك السريع ويظفر الملح والبؤس يسلب المنة ويعقل القدم فلا يغشى مساقط الندى ومهابط الرحمة إلا من اتخذ الفقر تجارة والتكفف حرفة أما الذين وارام التعفف وأقعدهم العجز ، فهم يتضاغون من السغوب وراء الحجب ، فلا تبصرهم عين ولا تسمعهم أذن . والناس من هؤلاء العاجزين المتعففين وأولئك القادرين المتكففين فى مأساة تبكى وملهاة تضحك !

دخل علينا القهوة ذات مساء فتى ريان الجسم بالشباب والصحة . على رأسه طربوش ، وحول عنقه كوفية ، وفى يده خيزرانة . فحيا بأدب وضراعة ، ثم أخذ يسترحم القلوب ويستندى الأكف بأسلوب يخبل العقل النير ويختل الطبع الحريص وكان خطابه التمثيلى المؤثر يدور على عزته التى لا تألف الهون ، وأسرته التى لا تصيب الدون ، وكفايته التى لا تجد العمل . . . فأعطاه بعض من فى المجلس ، ثم استدناه صديق من أهل الثراء وأرباب الضياع وقال له :

— لم لا تطلب العيش من طريق أخلق بالرجولة وأليق بالكرامة ؟

— طلبت العمل ياسيدى فى كل مكان فلم أجده

— أتقبل العمل عندى فى المزرعة ؟

— فبدا على الفتى شىء من التردد والحرج لأنه أحس الجد فى لهجة الرجل : ولكنه سأل :

— وماذا يعطينى اليك إذا قبلت ؟

— ثلاثة جنيهات بعد طعامك وكسوتك

فابتسم الفتى ابتسامة فيها معان شتى من الدهش والعجب والتهكم ، وقال وهو يدنى فمه من أذنه كأنما يريد أن يساره :

ياسيدي ، إنى أسأل فى اليوم الواحد ألفاً على الأقل ممن أتوسم فيهم رقة القلب وكرم المهزة فإذا أعطانى مائة وردنى تسعمائة تجمع لى من ذلك فى الشهر خمسة عشر جنيهاً على التقدير الأقل ، أصيبها وأنا فى القاهرة أتقلب بين مطاعمها ومقاهيها ، وأتمتع بمناعمها وملاهيها فكيف تريدنى على أن أقبل ثلاثة جنيهات فى الريف على عمل قذر متعب بين الأجلاف والبهائم ؟

* * *

* أرأيت ؟ خمسة عشر جنيهاً يجبيها من الأغرار هذا المتبطل المتعطل وينفقها فى الخمر والقمر والحشيش ، ومئات من الأسر الكريمة تكابد عبث الأقدار أو خطأ الأغيار فلا تجد مواسيا فى معروف الأحياء ولا فى موقوف الموتى ! وخمسة عشر ألف فدان يقتنيها ذلك الغنى الشره ينفق ريعها الفياض على وساوس غيه وهواجس أحلامه ، ومن حوله ألوف وألوف لا يدرون من طول الحرمان لماذا شق الله لهم هذه الأفواه وجوف فيهم هذه الأبطن !

هذا البليد الملحف ، وذلك الجماع الطماع هما اللذان أكلا نصيب العاجز من رزق الله ! فلو أن السائل المحترف ترك نفحات الأيدى للفقير ،

ولو أن الغنى المهوم عف عن فضول الرزق للعاجز ، لما رأيت عليها رجلا يشرق بالدموع بجانب آخر يشرق بالشمبانيا ! ولكن النفس البشرية تؤثر الجانب الأيسر من العيش ، وتطلب النصيب الأوفر من المتاع ، فلا بد من سلطان يقيم المعدلة بين الساعى بقوته والقاعد لضعفه ومن ثمَّ جعل الإسلام تنظيم العلاقة بين الغنى والفقير ركناً من أركانه الخمسة ، يصلح به وبالحج أمر الجماعة ، كما يصلح بالصلاة والصيام أمر الفرد وكان هذا الركن الإسلامى الركين عسياً بعناية أولى الأمر يجعلون له (مصلحة) أو (وزارة) تأخذ من أموال الناس صدقة تزكى النفوس من حقد الفاقد على الواجد ، وتطهر المجتمع من بغى طبقة على طبقة . ولكن الأمم الإسلامية الحديثة توزعتها الجهالة والمذلة ، فحسبت أن دستور القرآن لا يأتلف مع المدنية الغالبة ، فتركت شريعة الله إلى شريعة نابليون ، وهجرت سياسة الرسول إلى سياسة كارل مرقص ، فلم يكن بدٌّ من قسوة الأكباد لجفاف القانون ، ومن ثورة الأطماع لشدة التنافس وليست الرهبانية من نظم الإسلام حتى تقوم الراهبات بما لم تقم به الحكومات من جمع الزكوات وتوزيعها على صرعى الفاقة وأسرى المرض ، فكان مالا حيلة فى اتقائه من فوضى الإحسان فحبس عن غير أهله ، وحل فى غير محله ، وذهب كله للمتشردين فى الطرق والمحتالين فى البيوت والمتبطلين فى المساجد !

إن فريضة الزكاة فى الإسلام هى الفرق بين الدين والقانون ، وبين الشرق والغرب ، وبين الإنسان الذى يعيش بالروح والإنسان الذى يعيش بالآلة . فمن المحتوم على دولة تطمح إلى الخلافة أن تلزم بالزكاة الناس لتكون حكومتها الشعب كله . وإلا فما جداى أن أقول إن لى دولة دستورها المساواة وقانونها

العدل ، ووطننا ثراه الذهب وماؤه الكوثر ، وأنا محروم لا أنتفع بخير الحياة ، ومهضوم لا أتمتع بحقوق الحي ؟

إما أن تقولوا إن من عجز عن واجب السعي نزل عن حق الوجود ، وإما أن تنصفوا بعض الناس من بعض فيشعروا أنهم عباد لإله واحد ورعايا لملك واحد . أما أن تتعدد الآلهة فيكون لكل أرض إله وهو المالك ، وتتنوع الملوك فيكون لكل عمل ملك وهو الممول ، فذلك مالا يطيب به عيش ولا يصلح عليه أمر

إفرضوا الإحسان كما فرضه الله ، ونظموه كما نظمته الشريعة ، واجبوه كما جباه الراشدون ، ووزعوه كما وزعه القرآن ، تضمنوا للفقير سكون الجوف ، وللغني زوال الخوف ، وللأمة بأسرها السلام والوئام والمحبة

فنون وجنون ...

(٩ يناير سنة ١٩٣٩)

الى الآنسة « أ . س . ف »

نعم يا آنستى العزيزة ! لشد ما لاع القلب وراع الضمير ما قصصتِ من مآسى الحياة ! ولا يزال فى خبايا الغيوب وطوايا الحجب ما هو أمض لوعة وأشد روعة

وعدتنى أن تقصى علىّ أنباء من تعرفين من طرائد البؤس وأنضاء الهم ، وأنا أقص عليك هذه القصة ريثما تنجزين هذا الوعد :

فى المنصورة بلد المال والجمال والشعر كانت تعيش أسرة من أسر الريف الغنية المصرية عيش اللهو والزهو والمرح . وكانت قبل ذلك تعيش فى مزارعها الواسعة فى قرى مركز « شربين » تستغل أراضيها الخصيبة استغلال الدءوب اليقظ ، حتى أبطرها الغنى فرأت طرق الحقول المتربة لا تلائم المركبة الفخمة ، والبيت القروى العتيق لا يوائم الأثاث الأنيق ، والقرية كلها لا تصلح مجالا للعظمة ولا مجتلى للشهرة . فتركت ضياعها وزروعها فى ذمة النظار والخَوَل[1] وأسلمت قيادتها للبذخ والسرف ، ترتبع بالمنصورة ، وتصطاف بالاسكندرية ، وتشتو بالقاهرة . وتظاهر على رب هذه الأسرة الجهل والطيش والفراغ والغنى والعُجب ، فقلبته بين الحانات والمواخير قفاً لوجه حتى ركبه الدين والمرض ؛ فباع الأرض لبنك « خوريمى » والصحة لبار « أنسطاسى » . وكبر عليه أن يعود إلى قريته ذليلا بعد العز فقيراً بعد الغنى ، فظل فى المدينة ولكن

(١) الخول جمع خولى بالفتح وهو الفلاح المحسن القيام على الزراعة والعمال

تتألف هذه الأسرة من الوالدين ومن ست بنات وابن واحد وفى هذا الصبى الواحد انحصر مستقبلها وأملها فأرصدت ما بقى للأم من موروث الرزق على تربيته وتعليمه فلعله يكون كابن فلان باشا ، ينال (الليسانس) ، ويعين وكيلا للنيابة فقاضياً فمستشاراً فوكيلا للوزارة ويومئذ يرجع المال الذاهب ، ويعود المجد المضاع ، وتندم الشماتة الحاقدة وكان الفتى نحيل البدن كادئ الشباب[1] ولكنه فى مدرسته كان ذكيا جداً فلم يتخلف فى سنة ولم يرسب فى شهادة حتى نال إجازة الحقوق وكان فى مدة دراسته الطويلة شغل الأسرة الشاغل : فالوالدان همهما تدبير المال له وتوفير الصحة عليه ؛ والبنات الست عملهن غسل ثيابه وكى بدله وتصفيف شعره وتهيئة أكله وتهدئة نومه . وإذا فاتهن اليوم أن يأكلن المنىء ويلبسن الناعم ويجلون حسنهن للأتراب والخطاب فى شارع البحر بالمنصورة فسيعوضهن الله غداً بفضل أخيهم الموظف خيراً من كل أولئك فى القاهرة

وكانت الأم تبيع فى كل سنة من سنى دراسة ولدها فداناً من أرضيها ، تنفق نصفه على المدرسة ونصفه على البيت ، حتى خرج هو من كلية « حقوقه » ، وخرجت هى من كل حقوقها .

أصبحت الأسرة الفقيرة معدمة : فلا فى الأرض ولا فى البيت ولا فى اليد . فهى تعيش على ما يبقى من مرتب أملها وكاسبها « فؤاد » فقد وظف فى وزارة الداخلية بأحد مراكز طنطا وعاش وحده . وظل الأبوان الشيخان والبنات النواهد فى المنصورة على ضيق وقلق ينتظرون اتساع الرزق وامتداد الجاه فيجتمع الشمل ويرفه العيش .

---

(١) كادى الشباب : بطيئه ، من قولهم : كدا الزرع : ساء نبته .

أتدرين يا آنستى بماذا أجاب القدر دعاء هذه الأسرة ، وعمَّ أسفر الأمل فى هذا الولد ؟

كان (فؤاد) رقيق البدن والشعور والعقل ، فأغرم بالأدب وفتن بالجمال وكلف بالرُّواء وحياة الأقاليم لا تقضى حاجة النفس النزاعة الرغيبة من كل أولئك . فكان فى مكان عمله بالنهار ، وفى مجالى القاهرة بالليل ، حتى افتتن بمطربة معروفة ، فاضطرب أمره وانتكس حاله .

كان فؤاد عذرى الهوى ، لأن حياءه أقوى من طموحه ، وشاعريته أشد من شهوته . وهو إلى ذلك فقير ، ومعبودته من ذوات الثراء والجد ، فلا يدخل قصرها إلا غنى أو فنان أو مهرِّج فكان يقنع بالجلوس أمام تختها إذا غنت ، وبالطواف حول بيتها إذا استراحت ، حتى خبله العشق وأضناه السهر وبان أثر ذلك فى عمله ، فغاب طويلا عن مكتبه ، وأخطأ كثيراً فى تصرفه ، واختلف دائماً مع رئيسه ، فانتهى الأمر بفصله وهو لايزال فى عهد التجربة !

لم يشعر فؤاد بهذه الصدمة الصاعقة كما شعر بها أهله ، فإن حياته كانت فى الحب وحياة أهله كانت فى الوظيفة فلما انجلت غشاوة الهوى قليلا عن عينيه رأى نفسه خالياً من العمل والأمل ، يزجى فراغه الثقيل الذليل بالهيام فى الطرقات ، والنظر فى (الفترينات) ، والاختلاف إلى (الصالات) ، والوقوف بباب تلك المطربة أكثر النهار والليل ، يحادث الخدم ، ويرقب الزُّوار ، ويرصد السيارة الحبيبة حين تذهب وحين تؤوب .

وأسرع إليه أبوه على كبره ووهنه يستكشف سر النكبة ويعالج مقطوع الرجاء ، فوجد نفساً يتهافت فى جسد ضارع وهيئة زرية فما زال يتلطف به ويهاويه حتى كشفه عن أمره ، وعاد به إلى الأسرة المفجوعة فى ولدها الوحيد وأملها الفرد وملجئها الأخير وشرفها الباقى . .

— ليس فى طاقتى يا آنستى أن أقص عليك خاتمة هذه المأساة ولو كان وصفها فى إمكانى لما كان استماعه فى إمكانك فإنى أعرف رقة قلبك ووهن جلدك فى مثل هذه الحال وليس من العسير على فطنتك استنتاج ما حدث فالفتى من تباريح الجوى أصيب بالسل فمزق رئتيه وشف جسمه ، فهو فى السرير عظم هامد ينتظر النهاية المحتومة والأم من هول النكبة أخذها الفالج ، فهى سطيحة الفراش لا تمر ولا تحلى والأب من فقد الرجاء اعتراه الخبال فمات قتيلا فى حادث محزن . والبنات ؟ البنات بقين بعد المخبول والمسلول مع الأم الكسيحة لا كاسب ولا خاطب . فتصورى يا آنستى كيف يعشن ! لو كان للاسلام أديرة صوفية لدخلن فى حمى الدين . ولو كان للحكومة مدارس خيرية لاعتصمن بقوة العلم . ولو كان للأوقاف ملاجىء نسوية لعشن فى ظلال الخير ، ولكنهن يا آنستى يعشن العيش الكريه الضنك على فضلات الأقارب الأباعد . ومثل هذا العيش لا يثبت عليه إيمان ولا أمان . والبيت البائس إذا لم يدخله الملك دخله الشيطان .

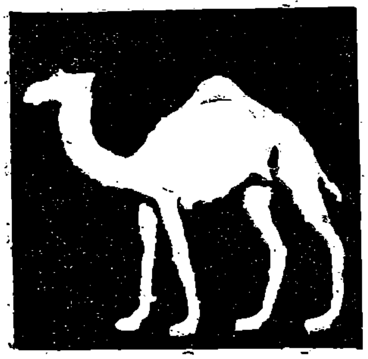

التبشير عدو للسلام

(٢٥ مارس سنة ١٩٣٩)

كان التبشير والتجارة رائدى الاستعمار السياسى منــــذ اعتزم الغرب الطموح الإغارة على الشرق الغافل وكان التبشير أشدّ الرائدين تدخلاً فى شؤون الناس، وتغلغلاً فى أصول المجتمع، لما تهيأ له من شتى الوسائل فى التعليم والتطبيب والتمريض والاستشراق والخدمة العامة. فاستطاع أن يُرهج بين الأمة المتحدة الغبار الخانق، ويزرع بين الملة الواحدة الزرع الخبيث، ويخلق فى كل شعب من شعوب الشرق بالعصبية الدينية والتربية المذهبية قلة حاقدة تعارض الكثرة فى الرأى، وتخالفها فى الهوى، وتغرى بها الشر، وتمالىء عليها العدو، وتحاول أن تتحيز فى السكن والعمل، وتتميز بالشعار والجنس، فلا تكون من قومها فى دنيا ولا آخرة.

ليس التبشير بهذا المعنى ولهذا الغرض من ألسنة الدين ولا من سبل الحق؛ فإن الدين مهما تتعدد أسماؤه، وتختلف فيه أبناؤه، لايزال فى حقيقته الحبل الذى يصل به الله من انقطع ويجمع عليه من تفرق. وإن الحق مهما تتفرق سبله وتتنوع وسائله لاتزال له غاية واحدة يهتدى إليها من ضل، ويتوافى عليها من تأخر وإذن لا يكون هذا التبشير القاطع المفرق إلا وسيلة من وسائل السياسة الماكرة أو حيلة من حيل العيش الرخيص.

وأعجب العجب أن الدول الديمقراطية الثلاث وهى أمريكا وفرنسا وانجلترا هى التى تحضن هذا النظام الطفيلى وتعوله وتقوده وتحميه وكان أقرب الظن بها أن تنكره بعد ما أمكن الشرق من يده وخلى بينها وبين ميراثه؛ فإن السلام

والوئام والحب هى التى تقرب إليها من تسوس ، وتحفظ عليها ما تملك .
وهؤلاء المبشرون الذين اضطرهم اليأس أو البؤس أو العجز إلى الاتجار بالدين والعيش على ضلالات العقول وحزازات النفوس وسفاهات الألسن ، لا يستطيعون أن يبذروا غير الخلاف ولا أن يحصدوا غير الضغينة .

* * *

إن ميدان الدعوة إلى الله لا يكون بالطبع إلا فى بلاد الوثنية والجهالة . هنالك يجد المجاهدون فى سبيل الحق والخير ملايين من عُمى القلوب يخبطون الظلام ويطأون الشوك ويعانون الحيرة ويكابدون الغوب فيخرجونهم إلى نور الله ويلحقونهم بركب الإنسانية . ولكننا لا نرى جمهرة المبشرين ولا معركة التبشير إلا فى مصر ، كأنما انحصر جهد هؤلاء المتعطلين فى فتون المسلم عن دينه وإخراج المسيحى عن مذهبه ! فهل حسب أولئك الناس أن الإسلام بالنسبة إلى المسيحية كفر ، وأن الأرثوذكسية بالقياس إلى البروتستانتية فسوق ؟ لا يمكن أن يقع هذا فى حسبان عاقل والقوم قد جازوا العقل والفطنة إلى الدهاء والخبث . فهم أكيس من أن يجهلوا حقيقة الإسلام وينكروا أثره الإلهى المحمدى فى تكريم الإنسان وتنظيم العيش وإصلاح الأرض . ولكن الأشبه بالحق أنهم اطمأنوا إلى العيش الغرير فى ظلال النيل فأمنوا وسمنوا وخاروا . وعز عليهم أن يبعدوا عن مَصابِّ الدولار والجنيه والفرنك فى بنوك القاهرة ، فأدخلوا فى روع الشيوخ والعجائز من المؤمنين المثرين فى أوربا وأمريكا أن البلد الذى يقوم فيه الأزهر هو المكان الذى لا يزال يصلب فيه المسيح . واستعانوا على خديعتهم بما افتراه قساوسة القرون الوسطى على الإسلام من الزور الغبى والكذب الأحمق .

وأوهموهم أنهم إذا أمدوهم بالمال ورفدوهم بالنفوذ جندوا الجنود وأحكموا الخطط وهجموا على الإسلام فصرعوه فى عقر داره .

من أجـــل ذلك كان المبشرون حِراصاً على أن يجمعوا الأزهريين للمناظرات أو المحاضرات بشتى الحيل ، فإذا ما اجتمعوا أخذوا صورهم فى أروقة الكنائس أو فى أفنية المدارس ، ثم بعثوا بها إلى مرسليهم وممولّيهم مدسوسة بين صحيفتين بارعتين إحداهما تبشر بتنصير (العلماء) ، والأخرى تلح فى مضاعفة الجزاء ،

وفى سبيل أن ينعم المبشرون بالطعام الدسم ، والشراب السائغ ، والفراش الوثير ، والفراغ الوادع ، تتمزق العلائق بين الإخوة فى النسب والوطن والعقيدة ، وتكون الجفوة بين المسلم والقبطى ، فى مصر وبين المسلم والمارونى فى لبنان :

* * *

إن التبشير عدو السلام ، لأنه تأريث للعداوة وتشتيت الوحدة فى غير طائل وهو فى مصر عمل لايليق ، لأنه إهانة وقحة لدينها وعقلها ، وإن لها فى تاريخ الحضارة والثقافة والمجد صفحات لا يزال اشراقها السماوى يضىء جوانب الحاضر ويبدد غياهب المستقبل .

قد آن للديمقراطيات التى تقاتل عصبية الجنس فى ألمانيا ، وتناضل عصبية المذهب فى روسيا ، أن تخلص سياستها من عصبية الدين ، فإن ذلك أخلق بالسلام الأدبى الدائم الذى تحارب الطغاة على سلطانه ، وتريد أن تقيم العالم الجديد بعد الحرب على أركانه .

إن التبشير فى مصر فواجع لاتزال الضلوع محنيّة منها على نار ولعل

أرمضها للقلب وأبعثها للدمع مأساة ابنة الوزير الوفدى الذى حال المبشرات بينه وبينها بالقوة لأنها نذرت نفسها للمسيح ، ثم أخفوها عن العيون حيناً من الدهر ، ثم نقلوها على رغم الأسرة والحكومة إلى فرنسا ، فانقطعت الأسباب بين أهلها ودينها ووطنها إلى الابد

* * *

ذلك ما خطر لى أن أكتبه ساعة قرأت ما كتبته مجلة التبشير الدولية عن حركة التنصير فى مصر وإن فى ذلك المقال الخبيث من اقتراح تأليف مجلس مسيحى وطنى لتنظيم التبشير وتعميمه فى المدن ، وإنشاء المدارس الإلزامية لفتنة الصبية والأيفاع فى القرى ، لبلاغاً للقائمين على سلامة التربية وحماية العقيدة من لصوص الضمائر وشياطين القلوب .

آراء الكتاب في هذا الكتاب

حذفت من هذه الطبعة الفصول التي جرى فيها لفاروق وأبيه ذكر. كتبتها يوم كان غلاماً بريئاً يجلس على العرش في استحياء، ويتجه إلى الشعب في إخلاص، ويبني على زوجه الأولى في طهارة ثم حذفتها إذ أصبحت بعد خروجه من دنيا الإنسان إلى دنيا الحيوان زوراً من القول وزخرفاً من الباطل لاتصدق عليه ولا تتصل به. وقد رأيت — ولعلي أصبت — أن أملأ هذه الصفحات الفارغة بطائفة من آراء صفوة الكتاب في (وحي الرسالة)؛ لأنها في ذاتها آيات من الفن تقرأ، وبينات من النقد تسجل.

قال المغفور له الإمام محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر:

عزيزي الأستاذ أحمد حسن الزيات

إن كثير الثناء عليك ليقل بجانب ما تسديه للأدب والعربية والثقافة من جهد وفضل فما أنا ببالغ حق الثناء عليك وإن أطلت وتأنقت، ولا حق تقديرك وإن أطنبت وجودت. وعجيب ألا يكون لوحي الرسالة فضل على الرسالة فما هو إلا جني أشجارها، وزهرات أغصانها، جمعت في باقة واحدة بعد أن كانت متناثرة، وقربت إلى اليد بعد أن كانت متباعدة. ولقد كنت في هذه الفصول مترجماً صادقاً منصفاً للتاريخ فيمن ترجمت لهم من الرجال وكنت مصوراً ماهراً فيما صورت من عيوب المجتمع وآلام الحياة، وأبرزت خفايا النفوس

ودبيب الهواجس حتى لتكاد تلمس وتحس وقبل هذا كنت محيطاً إحاطة دقيقة بما عرضت له من بحوث كل أولئك بأسلوب رصين نقي الجوهر تتصل فيه بأسلافك الأولين من فحول العربية والأدب ، ممن أثروا فيك فجريت على سننهم دون أن تقصد ، ومررت على نهجهم دون أن تحاكي .

ولست أملك بعد إلا أن أدعو لك بحياة طويلة سعيدة يدوم لك فيها الإلهـــام ، فتثابر على رسالتك حتى يقرأ لك الناس مجلدات عديدة من وحي الرسالة ،

والسلام عليك ورحمة الله .

محمد مصطفى المراغي

وقال المرحوم الأستاذ خليل مطران :

حضرة الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات

أشكر لك إهداءك إليّ نسخة من كتابك « وحي الرسالة » وإنه حقاً لوحي رسالة .

أقرر أنه وحي رسالة وما أرمي بذلك إلى محاولة بديعية أستمد منها وسيلة سهلة للتقريظ ، بل أرمي إلى غرض أبعد وأسمى ، ذلك أنك منذ أجريت قلمك في الترجمة ثم في الإنشاء التزمت ما لم يلتزمه غيرك من سلامة العربية وفصاحتها مع قربها إلى التناول وكان الأمر غير يسير فذللت له صعاباً ، وخضت دونه غماراً . ويعلم الله وأهل الذكر ما يعاني الأديب في هذا المطلب ، وإنه لوعر شاق . وإن إدراك الغاية فيه لفخر ما بعده فخر وقد جعلتُ بلوغك هذه الغاية رسالة لك وأعظم بها من رسالة مادام يتحتم على الناطقين بالضاد استبقاء الفصحى ،

وليس هذا فحسب بل تطويعها ، وهى لاتهى ولاتضعف ، ولا تهن ولاتسخف ، لأداء أدق الأفكار وأبدع المعانى فى هذا العصر ، بأصدق ما يكون البيان ، وأروع ما يأتى الأسلوب ، وأمتن ما تكون التراكيب ، بين أصيلة ومتشبهة بها

أمتعتنى بمراجعة تلك الفصول القيمة التى جمعتها بين دفتى كتابك ، فما زادتنى المراجعة إلا إكباراً لها وإعجاباً بها . وإنى لأرجو أن يكون من أثرها فى نفوس فتياننا ، ردهم إلى محجة الصواب التى نكبتهم عنها مولدات عجيبة من مقاطر الأقلام فى هذه الأيام .

فبارك الله فيك ومد فى أجلك لتجيد وتزيد . وإليك فى الختام ، خالص التحية مع فائق الاحترام .

المخلص

خليل مطران

وقال الأستاذ عباس محمود العقاد :

أخى الكاتب البليغ الزيات

وحى رسالتك أصدق ما قرأت فى الكتابة العربية الحديثة من مصداق رأى القائلين : إن الرجل هو الأسلوب .

فأنت أسلوبك وأسلوبك أنت إتقان واستحياء وسلامة ، صورت فى عالم الخلق فكانت إنساناً ، وصورت فى عالم الفكر فكانت وحى الرسالة .

إتقان صيغة فى غير ظهور ولا ادعاء ، يوشك من يتبينه أن يلمسه ليعرف

موضع الجودة فيه ، كما يلمس المسوّم النسيج المتين الذى وعى للمتانة سراً من أسرار منواله وخلا من الزخرف والبريق ، لأن إتقان تلك الصيغة كإتقان هذا النسيج ، فى حقيقتها وليس على مرآها ، وعلى صفحة محياها دون سواها .

واستحياء يخفى مزاياه ولا يفوته شىء بأن يخفيها ، لأنها أثبت من أن يحجبها الإخفاء .

وسلاسة تطوع العصىّ وتملك الزمام فى الوعر والسهل على السواء . فإن ما تصف من ألم نفسانى يلهب مراقّ الحشا ويبده الضعف الإنسانى بأقصى ما يطيق وفوق ما يطيق ، لكالذى تصف من ألم يباشر الفكر قبل أن يباشر اللحم والدم ، ويحسب من قضايا الرأى كما يحسب من قضايا الفؤاد .

إتقان واستحياء فى المعنى لا فى اللفظ وحده ، وفى موضوع الكتابة لا فى بنيانها وتركيبها وكفى ، وعلى السماء وفى الطوية سواء .

وتلك هى الأساليب التى تضاف إلى لغة العرب فيقال معنى إنسانى فى كلام عربى ، ولا يرتد المعنى إلى بنى الإنسان حيث كانوا ثم لا يبقى منه للعربية ما تحرص عليه .

وحى رسالتك فى كتاب أحمد .

والسلام عليك وعلى من اتبع هداه .

عباس محمود العقاد

وقال الأستاذ توفيق الحكيم :

صديقى العزيز الأستاذ الزيات :

أتيح لى أن أستمتع ساعات بقراءة ذلك الكتاب النفيس : « وحى الرسالة » الذى تفضلت بإهداء نسخة منه إلىّ . وليست هذه هى المرة الأولى التى أتعرف فيها إلى سمو أسلوبك ، وبلاغة تعبيرك ، واتساع أفق خيالك ، ولكنها قد تكون المرة الأولى التى ترتبط فيها وتتركز تلك الفصول ، والآراء ، والأفكار ، والمشاهد الفنية التى تمخضت عنها مواهبك ، فيضمها كتاب ينعكس على كل صفحة من صفحاته شعاع من جمال روحك ، وفيض من نبع ثقافتك ، وذكريات غالية عرفت كيف تحرص عليها وتحتفظ بها ، ثم تنشرها تذكرة للناس وموعظة لهم .

إن أدب المقال ياصديقى من فنون الأدب الكبرى . وقل أن تشهد أديباً فحلا لم يضمن أدبه وفنه آراء اجتماعية ونظرات فكرية ، واتجاهات ثقافية . و « وحى الرسالة » يحمل صورة نابضة من ذلك « الأدب الكبير » الذى أشرت إليه . فهو فى الواقع مجموعة دراسات عميقة ناضجة للمجتمع ، وتصوير بارع للتطورات الخلقية والنفسية ، وإشارات دقيقة وجولات موفقة فى الأدب والحياة ، استقرت عواطفك فى أجمل بقاعها ، وتغنى قلمك الرصين بأبهج مفاتنها .

جميل منك إذن أن تحرص على تدوين هذه الذكريات الغالية ، وتنشر هذه الفصول القيمة ، لتكون ذكرى للماضى ، وعظة للحاضر ، وإيماناً بالمستقبل .

المخلص

توفيق الحكيم

وقال المرحوم الدكتور زكي مبارك :

أخى الأستاذ الزيات :

إليك أقدم أطيب الثناء على الهدية النفيسة التى تفضلت بها على أخيك وهى المجلد الأول من « وحى الرسالة » وهو مجموعة لمحات من بوارق فكرك الوثاب الذى ترى به روح الشرق وعقل الغرب حين تشاء ، بفضل ماوهبك الله من البصر بأسرار البلاغة العربية والثقافة الفرنسية ، وتلك هبة لا يتمتع بها من كتّاب العصر إلا الأقلون .

ويمتاز كتابك بميزة أصيلة هى تصويره لأكثر ما يحيط بهذا العصر من مشكلات عقلية ، ومعضلات ذوقية ، فهو سِجِل صادق لحوادث عاناها المجتمع واضطرم لها روحك الأمين

وما عاودتُ النظر فى كتابك إلا تفزّعتُ إشفاقاً عليك ، فهو يشهد بأنك شديد الإحساس بالوجود . والذى يصف المجتمع وهو فى مثل حالك يستأهل الإشفاق ، لأنه يعانى البلاء بمحنة المجتمع وهو يحمل روح المصلح . ولا يعزّينى إلا الشعور بأن الذين يشقون فى الطب لأمراض المجتمع هم فى حقيقة الأمر من أعظم السعداء ، وأنت فى الطليعة بين كتابنا المصلحين ، وإنك لعزيزٌ علينا أيها الشقى السعيد .

هذا وقد قال بعض الناس إنك كاتب متأنق ، وذلك باطل يراد به حق ، فالكتابة الرفيعة فن جميل لا ينفع فيه الارتجال . ولا تحسب أنك خدعتنا حين قلت إن مجموعة « وحى الرسالة » لم تكن إلا ومضات يلمح بها الفكر من أسبوع إلى أسبوع ، فالكاتب الحق لا يعرف عفو الخاطر وإن أحب

أن يوصف بذلك ، وإنما ينقل إلى سنان القلم لواعج عاناها الفكر والروح في أعوام طوال . وهو كالشجرة التي تختزن ثمارها إلى أن يحين الموسم للنشود . فلا تحاول التعتب على من يصفك بالتأنق ، لأن التأنق من صور الاهتمام ، والاهتمام عملية جراحية تنقل الأفكار من عالم المعاني إلى عالم الشهود .

أما بعد فأنا أرجو أن يسبغ الله عليك أثواب العافية وأن يجعل لمؤلفاتك حظاً من القبول تنسى به آلامك في خدمة الأدب الرفيع ، إن جاز في دنيانا الحاضرة أن ينال المؤلفون المتفوقون بعض الجزاء . . . والله يحفظك الصديق الذي يعطف على جهودك أصدق العطف .

زكي مبارك

وقال الأستاذ محمود محمد شاكر في مجلة المقتطف :

قال الزيات : « قارئي العزيز ، اخترت لك هذه الفصول مما كتبته الرسالة في ست سنين . وكان من عادتي أن أكتب الفصل منها أصيل السبت من كل أسبوع ، ثم لا أكتبه طوعاً لتأثير قراءة ، أو تحرير فكرة ، أو تخمير رأي . وإنما كان أثراً لوحي ساعته أو حديث يومه أو صدى أسبوعه . فالزمن جزء منه متمم لمعناه : يعين ملابسته للحادث ويبين مناسبته في التاريخ . لذلك أعقبت كل فصل بذكر اليوم الذي كتب فيه ليتضح موضعه بفعله وحاله وظرفه » .

هذا خير ما يوصف به هذا الكتاب . فأنت ترى أني لا أستطيع أن أزيد في صفته من حيث التأليف والتبويب ، ولكني أستطيع أن أقدم بين يدي قارئه بعض الرأي في أدب صاحبه .

وأنت إذ تناولت هذا الجزء فقرأت فهرسه ، رأيت مائة وعشرين باباً من أبواب القول قد افتتحها « الزيات » بقلمه ، وصناها برأيه ، ومهدها بحسن بيانه . ولكل باب منها غرض ، ولكل غرض أسلوب ، ولكل أسلوب لفظ يصلح عليه ولا يصلح عليه غيره . وإذا كان الكتاب كذلك كانت المشقة فيه أعظم من مشقة التأليف المرسل إلى غرض واحد لايتميز إلا بالاتجاه ، فإن الغرض الواحد قلما يخرج أسرار البيان من قلب الكاتب ولسانه ، لأن الأسلوب إليه قلما يختلف . فإذا اختلفت الأساليب باختلاف الأغراض محصت قدرة الكاتب على ما اعترض له وهم إليه من الكتابة .

فإذا أنت أخذت هذا الكتاب بين يديك وسايرته فصلا فصلا وأسلوباً أسلوبا ، عرفت الجهد الذى لقيه صاحبه فى إبداعه ، ورأيت « الزيات » فى كل أسلوب هو « الزيات » لا يختلف ولا يتنافر . والكاتب إذا صار إلى هذه المرتبة — حيث تراه هو مهما اختلفت الأغراض وتباينت الأساليب — فاعلم أنه إنما يشتق لك ما يكتبه من حر نفسه ، فيضنيها ويهلكها مخلصاً صابراً لايمل وإذا كان كذلك فهو كاتب لايزيف لك ولا يقبل الزيف ، وهو يعطيك ولا يسألك ، ويبذل لك ولا يمن عليك ، ويعلمك ولا يدعى لك أنه أعلم منك . . . ذلك بأنه قد بلغ من العقل والفكر والصفاء والبيان حيث يعلم أنه ملك قارئه لا أن القارىء ملك له ، وأنه مرشد لامسيطر ، وأنه أخوك الذى يناقلك الحديث وإن كان بمنزلة الأب

و « الزيات » — كما عرفته من كتابته — روح هادئة متكتمة مسترسلة ، يكاد يختفى فى نفسه حين يفكر كأنه فيلسوف من فلاسفة

الصين يمشي هادئاً ، ويفكر ساكناً ، ويحاسب نفسه ولكن على التسامح والرضا والإستسلام . فإذا أراد أن يقيد أحلامه وأفكاره وهواجسه كان هو المادىء الساكن المتسامح فإذا اشتدَّ وحس وأراد أن يتفجر ، خيل إلىَّ أنه عينٌ حمَّة ترسل لواذعها سكباً ساخناً حامياً كالماء إذا غلى ثم هدأ أول هدأة لايضرب بعضه فى بعض . ولذلك ترى نقده إذا نقد شديداً بالغاً ، ولكنه رفيق غير عنيف ، ولكنه على ذلك مما تخشى صواعقه . وهذه الروح التى وصفناها هى التى تجعل كل كلامه قطعاً مزينة ناضرة محكمة مقدرة الألوان لا يختلط شيء منها بشيء ، ولا يجور لون منها عَلَى لون وهى التى تجعل لفظه مبنيا على الإيجاز دون الإطناب ، وعلى مذهب الحكمة دون المذهب الكلامى . وإذا أردت أن تتبين كل ذلك حقيقة التبين فلا تتكلف أكثر من أن تقرأ اهداء كتابه يقول لولده « رجاء » الذى احتسبه عند ربه فى سنة ١٩٣٦

« إلى روحك اللطيفة المذبة — يا ولدى رجاء — أقدم هــــذا الكتاب . فلولاك ما أنشأت الرسالة ، ولولا الرسالة ما أنشأت هــــذه الفصول » .

فإن فى هذه الكلمات القلائل لوعة مستكنة باقية إلى يومها هذا ، ولكنها ساكنة راضية هادئة لا تثور ولا تتأجج ، ولكنها تسرى وتدب وتمشى فى روحه الهوينا الهوينا .

هذا سر أسلوبه وأما أسلوبه وبيانه واقتداره عَلَى عربيته وحسن تصريفه لألفاظه فى وجوه أغراضه ومراميه ، فالزيات — ولا أشك — هو بقية أصحاب الأقلام العربية التى لا تخلط ولا تتقمم من هنا وهنا —

فأنت إذا نفذت إلى كل جملة من كلامه فى هذا الكتاب لم تجد إلا عربية خالصة مطاوعة لينة ، لا ينافر حرف منها حرفاً — على كثرة الأغراض التى رمى اليها واختلافها ، وعلى ظن من لا يعلم أن العربية لا تطيع فى التعبير عن الضرورات الحديثة التى قسرتنا عليها مدنية القرن العشرين من ميلاد المسيح

فلو أتاح الله لهذه العربية من يخلص لها فى معاهد التعليم على اختلاف أغراضه وأنواعه ، وأراد أن يردّ على العربية شباب أيامها حتى تكون لغة مدنيتنا فى الأدب والعلم والفن ، لوجد فى الذين أبادوا شبابهم بالعمل لإحياء اللسان العربى فى هذا العصر قوما استطاعوا أن يجعلوا عربيتهم أصلا فى الحياة ، إذ جعلوا الحياة أصلا فيها ، وبقية هؤلاء هو « الزيات » .

وقال الدكتور بشر فارس فى جريدة المقطم :

هذا كتاب يرجحنا مما يخرجه بعض المنشئين لهذا العهد ، وهم لا يفطنون إلى أن الكتابة صناعة فى فصول هذا الكتاب تصيب للنحى الحسن ، والتنسيق للطرد ، ثم اللفظ المتخير ، والسبك المحكم إلى جانب التبصر وأسلوب الأستاذ الزيات الترسل فى بسط العبارة ، والترفق فى تدوين الفكرة ويهدد هذا الأسلوب فى غالب الأمر سرد الألفاظ ، وتكلف الأداء وقد نجا أسلوب هذا الكتاب من هذين الخطرين بفضل سليقة صاحبه السليمة وترسمه خطى البلغاء من كتاب العرب الجاعلين للديباجة المكان الأول ومما ينشأ عن هذا الأسلوب

الإطناب المقبول ، وإن قال الأستاذ فى فاتحه كتابه إن الإيجاز صفته ، إلا إذا عنى بالإطناب ساقط الكلام وفضول القول بتطويل وحشو لغير فائدة .

وموضوعات الكتاب إن هى إلا معرض ألوان شتى من التأليف : إنشاء ونقد ووصف ونظر فى الحياة الجارية ، فمن الإنشاء « لماذا ترجمت الآم فرتر » وفيه هفوة القلب ونبضة العرق ومن النقد « مصطفى صادق الرافعى » و « أحمد زكى باشا » وفيهما تبرز خصائص الكاتبين فى اعتدال إذ تذكر مواضع الإكبار ومواطن الأخذ جنبا لجنب ومن الوصف ما يناسب هنا وهنا من تصوير لطرق المدينة وحقول الريف وشواطىء البحر وضفاف النيل ومن النظر فى الحياة الجارية تلك المقالات الرصينة مثل « داء الوظيفة » و « الفردية علتنا الأصيلة » والزيات فى هذه المقالات لاذع القلم نافذ البصر إنما بغيته التنبيه على جوانب الضعف الخلقى والتنديد بنواحى الفشل الاجتماعى وكتابة الأستاذ هنا لا تنجذب إلى الأسلوب الفلسفى المجرد ولكنها كتابة مصلح يصف الداء المقيم ويبين آثاره وعقابيله .

وفى تلك الموضوعات على تنوعها ، تطاوع اللغة الكاتب وتتأتى له ألفاظها وتعبيراتها المتواترة ، وذلك لأن الزيات يعرف كيف يستخرج الخبآت وينقب عن الدقائق وهو إلى هذا التضلع من أساليب القدماء يكره التشدد والتنطع ، حتى أنك تراه يستعمل اللفظة الأعجمية على وجهها إذا تطلبها السياق من ذلك لفظة « الإيديال » ص ٤٦ و « المثل الأعلى و « التاكسى » ص ٤٦٨ و « الفترينات والصالات »

ص ٤٧٩ . وأكبر الظن أنه يرقب من مجمع اللغة العربية أن يعالج مثل هذه الألفاظ ، وإني لأخشى أن تطول رقابته .

إن « وحي الرسالة » مجموعة مختارة مما سطره الأستاذ الزيات في مجلة « الرسالة » ، وهذه المجلة تستقبل سنتها الثامنة و « الرسالة » في صدارة المجلات العربية لهذا العهد . ومما تمتاز به أنها معترك الحركة الأدبية : من وجه تسجل مجرى الأدب ، ومن وجه تعرض المستحدث منه ، نخطتها الركز والوثوب معاً . ومن هنا ما فيها من التلون . وآفة للمجلات أن يركد ماء وجهها : فمن وراء ذلك الشحوب فالزوال . ويعين على ذلك التلون أن أقلام كتاب الرسالة متغايرة في التثقف والمضاء ، وأن فيها أبواباً ساكنة وأخرى مائجة . وربما وضعت هذه الأشياء مواضعها في بلد يكثر فيه الاضطراب وبصول الهوى .

وقال المرحوم الدكتور اسماعيل أحمد أدهم :

فصول متناثرة يتنازعها الأدب الصرف والفكرة الاجتماعية المصلحة والنظرة النقدية الصائبة : وهي كلها بعد ذلك تفيض من أصل أدبي وتاريخي من شخصية الكاتب متخذة لوناً خاصاً . والزيات أديب فنان ، يحسن إبراز الحياة التي في الأشياء بالفكرة التي تنطوي عليها ، وبالعاطفة التي تحملها في طياتها ، وبالخيال الذي تحتوي عليه : ومن هنا نجد التنوع في جمال كتابة الزيات التي تتوازن فيها الفكرة مع العاطفة مع الخيال ، والتي تتناسب كلها مع صناعة فنية بارعة تفرغ كل هذه الأشياء في صورة أدبية وقالب فني محكم . والحق أن الزيات هو الأديب العربي الوحيد بين كتاب اللغة العربية اليوم الذي تميزت في ذهنه مدلولات الألفاظ فعرف دقائقها وأدرك الأسرار العربية المحيطة بها ومن هنا تراه

يلبس فكرته وإحساسه وخياله اللفظة الخاصة بها ، التى تعطى لونها من طاقة الكلام .

والزيات قد خلف فى مدرسة البيان العربى للرحوم الرافعى ، وهما على ما بينهما من اختلاف فى الطبع وتباين فى المزاج وتفاوت فى الثقافة إلا أن قوة الفن وحركة الذهن تجمعهما . وإن كان ذهن الزيات يختلف عن ذهن صاحبه من جهة الصفاء وعدم انقطاع الصلة بينه وبين عقل الناس . فمعانيه مفهومة وهى ذات أصل دقيق من الفكر وفكر الزيات ملتقى العقلين العربى والغربى ، العربى فى جلالته وروعته ، والغربى فى عظمته وترتيبه وانتظامه ودقته .

وقال الأستاذ مصطفى الصباحى فى جريدة الدستور :

وحى الرسالة كتاب أخرجه للناس الأستاذ أحمد حسن الزيات ، وهو جملة من مقالاته التى كان يصدر بها مجلته (الرسالة) كل أسبوع جمعها بين دفتى هذا الكتاب ، فكان كأنما انتقى من روضة مونقة الربيع أزهاراً ذات أرج خاص فى باقة واحدة علم رغبة الناس فى تنسم عبيرها ، فيسر عليهم سبيل اقتنائها وتشممها والإفادة بما يستروحون له من عبقها دون كبير سعى أو عظيم جهد .

وللأستاذ الزيات أسلوب يتميز به على كثير من كتاب العصر ، وسياقة لن تجدها لكاتب من أهل العصر ، وتفتقدها من لدن ازدهرت اللغة وعمت آدابها فى العصر العباسى حتى الآن ، فلا تجد إلا نفحات مبعثرة فى تاريخ أدبها لا صلة بينها وبين بعضها ، فذلك كاتب وقعت له عبارة جزلة ، وهذا خطيب اتفق له معنى فحل ، وغير هذين جمعت له بعض ألوان من فنون العبارة أو بلاغة المعانى

ولكن قلما وقفت على كاتب وفق فى الغايتين فامتلك ناصية العبارة وبرز فى خلق المعانى .

فأنت إذن حين تقرأ للزيات إنما تجتمع لك طلاوة العبارة وجمال المعانى ، وتلك هى الغاية التى تنتهى عندها آداب الكتاب وتقف دونها ملكات المبرزين من أرباب الأقلام .

وفى زماننا هذا قل أن يعنى الكاتب والقارىء إلا بما وراء اللفظ ، فإذا برز إنسان فى إيراد المعانى الجليلة واتفقت له سلسلة من الآراء والأفكار القويمة تجاوز النقد من أهل العصر عن ركاكة عباراته وفساد سياقته .

ولقد كنت أعجب للتيار الذى تساق إليه هذه الأيام من إهمال الجانب الأدبى فى التحرير ، وكنت أرجو أن تنقشع تلك النغمة التى دعيت « تجديداً » وهى ليست من التجديد فى شىء . . . إذ قنع المنشئون بمحاكاة أهل الغرب فى أخيلتهم والأخذ عنهم فى إيراد الأحاديث وتقليدهم فى الأوصاف ونحوها من فنون الكتابة دون إعارة أصول الأدب العربى شيئا من عنايتهم ، حتى ذهب كبير من أعلام دولة القلم يتحدث إلى فى مجلس خاص فيقول إن اللفظ للمعنى كالثوب على الرجل ، فهو إن كان رجلا فاضلا لم ينتقص خلق ثوبه من فضله ، وإن الرجل مهما يكن لباسه شريفاً ولكن نفسه فقيرة من الفضل وقلبه خلى من العلم لاينفعه اللباس فى شىء !

وعلى الرغم مما فى ظاهر هذا القول من تعبير حق عن جوهر الموضوع فإن اللفظ الشريف يزيد المعنى الجليل شرفاً ، كما يسبغ الثوب الكريم على الرجل العظيم مهابة ويزيده توقيراً ويكون أدعى إلى احترامه لدى غشيانه المجالس .

فإن أول ما يطالعك من الرجل لباسه ، وأول ما يفاجئك من المعنى ظاهر لفظه . ورب معان كريمة ضاعت لسوء صياغتها وركاكة أسلوبها .

ورب مقالة خلدتها الرواية لطلاوة السياق وبلاغة الإيراد ورقة الحاشية .

والزيات كاتب جمعت له إلى رصانة الأسلوب ووضوح السياق حلاوة المعنى وبلاغة العبارة ولعله فى ذلك يتميز بالجمال فى الناحيتين . ذلك الجمال الذى تلمس منه ميلا إليه فى شتى صوره وتفضيلا له فى جميع معانيه . فأنت أول ماتطالع من كتابه الجديد مقالة « فى الجمال » ، فهو يحدثك فى هذه المقالة عن الجمال حديث الشاعر الملهم ، والكاتب الصادق الحس ، ورجل الفن الذى استغرق الفن مشاعره واستجاب لحاسته الفنية الدقيقة .

فهو بهذه الصفات كلها يقول :

(الطبيعة والفن إنما يحدثان أثرهما فى النفس إما بالفكرة وإما بالعاطفة وإما بالشعور الصادر عن آلات الحس . ومن ذلك تنوع الجمال فكان عقلياً وأدبياً ومادياً) .

هذا مذهب يذهب إليه الرجل وهو يتحدث لا بعقله وحده وإنما بحسه أيضاً ، ذلك الحس الذى يشعر بالجمال ويقدره ، يشعر به جمالا عقلياً وأدبياً ومادياً لا يخطىء فى الشعور به ولا يذهله فى أية صورة ظهر أو خفى . . . وآية ذلك أنه يقول بفضل ذلك الإحساس وحده : « وجمال المرأة يحتفظ بدوامه وسحره مادامت له روح من العاطفة تشع فى نظراتها ، وتنسم فى بسماتها ، وتشيع فى قسماتها ، وتنشر أضواءها السحرية على أعصاب الرجل — وهو بطبعه ولوع — فيتمتع بنعمة اختياره ولذة إيثاره ، ويجد فى الضعف الذى يستسلم ويستكين ، الحب الذى يطول ويحكم .

ثم إن الأستاذ الزيات يتحدث إليك بعد هذه المقالة عن « الربيع » فإذا هو يقول « فى الربيع يشتد الشعور بالجمال والحاجة إلى التجمل ، فترى الشباب بجنسيه يستعير ألوان الرياض وعبير الخمائل ومرح الطيور ، ويحتشد

فى دور الملاهى وصدور الشوارع فيخلع على الوجود وضاءة الحسن وعلى الحياة رونق السعادة » .

وفى المقالة الثالثة يتحدث الأستاذ عن العيد فيقول : (والأعياد الأجنبية التى تشهدها مصر فى ذكرى الميلاد ورأس السنة غاية فى نعيم الروح والجسم ، وآية فى سلامة الذوق والطبع ، وفرصة ترى فيهـا القاهرة — وهى متفرجة — كيف تفيض الكنائس بالجلال ، وتزخر الفنادق بالجمال ، وتشرق المنازل بالأنس . . . الخ) .

ألا ترى أن فى ولوع الأستاذ الزيات بالحديث عن الجمال وتحليل مذاهبه وترديد أوصافه مايهديك إلى سر ذلك الأسلوب الرائق الجميل وتلك الديباجة الموشاة البديعة ؟

ثم ألا ترى فى طريقة أخذه الموضوعات أخذاً منطقياً يشرف به الأسلوب مايدل على ملكة مطواعة وبديهة مواتية ومقدرة على الترسل فذة عجيبة !

وصل (وحى الرسالة) إلى يدى أمس وكنت قد طالعت فصولا مما احتوى نشرت قبل فى الرسالة ، وفيه فصول فاتتنى قراءتها ، وإنى لشديد الحرص على ألا تفوتنى ، ولكننى تعجلت إرسال هذه الكلمة إيماء الى فضل الكاتب وعظيم يده على الأدب العربى فى العصر الحديث والكتاب بعد جوهرة نفيسة دائمة الإشراق لاتخلق ديباجتها ولايخبو بريقها ؛ فهى ذخر مقتنيها ومتاع روحه .

مصطفى الصباحى

أحمد حسن الزيات

وحي الرسالة

فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع والقصص

المجلد الثاني

الطبعة الرابعة
١٩٥٨

نال هذا الكتاب جائزة الدولة للأدب

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر بالفجالة
١٨ شارع كامل صدقي

مطبعة الرسالة
٣ شارع حمودة المقاول - عابدين

الفهرس

صفحة

بين الفقير والغنى ١
ضحية من هذا ! ٤
عيد الفقير ٨
كيف نعالج الفقر ١١
يا أذن الحي اسمعي ! ١٤
الطفولة المعذبة ١٧
غني فقير ! ٢١
منطق الغني ٢٥
رسالة الأزهر ٢٩
الملك غازي ٣٣
نفخة الصور ٣٧
اقتلوا الجوع تقتلوا الحرب ٤١
حزن المليك الطفل ٤٥
في يوم وليلة ٤٩
فلاحون وأمراء ! ٥٣
هل لأغنيائنا وطن ؟ ٥٧
من صور الماضي ٦١
تكاليف الاستقلال ٦٥
من هذيان الحر ٦٩
حدثني المرحوم الزهاوي ٧٣
من الأحاديث العابرة ٧٧

صفحة

قلت لنفسي ٨٢
حلم ليلة صيف ٨٣
جريرة النازية على الإنسانية ٨٧
السلام ٩١
بين الدين والحب ٩٣
منهاج لوزارة الشئون الاجتماعية ٩٨
١ — الجهل ١٠١
٢ — الفقر ١٠٤
٣ — المرض ١٠٨
هذا هو المنهاج فكيف يكون المسير ١١٢
جسومنا وعقولنا بين الصحة والمعارف ١١٦
لحية بيضاء ١٢٠
صاحب المعالي وزير المعارف ١٢٤
وعلى الأرض السلام ١٢٨
هل خصب الأرض يستلزم جدب القرائح ١٣٢
من مذكراتي اليومية ١٣٦
من وراء المنظار ١٤٠
أمل وذكرى ١٤٤
الحياة جميلة ١٤٨
الموظفون والناس ١٥٢
محمد محمود باشا ١٥٦
الربيع الأحمر ١٦٠
من بريد الرسالة ١٦٣
محمد الزعيم ١٦٦

صفحة

الظلام ! الظلام ! ١٧١
فقهاء بيزنطة ١٧٥
العقيدة الساذجة ١٧٨
فى سبيل الأزهر ١٨٣
الرجل المنتظر ١٨٧
قلت لنفسى ١٩١
إشعاع الايمان ١٩٢
مصطفى كامل بعد ثلث قرن ١٩٦
الفكر والحرب ٢٠٠
الحرب بين أمس واليوم ٢٠٤
فرنسا تنهار ٢٠٨
بين المهاجرين والأنصار ٢١٢
نهاية أديب ٢١٦
الشتاء ٢٢٠
خواطر مهاجر ٢٢٢
فى مخبأ الفيشاوى ٢٣٨
أمة التوحيد تتحد ٢٤٢
إنجلترا هى المثل ٢٤٦
الأخلاق وهذه الحرب ٢٥٠
خواطر مريض ٢٥٤
بين اللاتينية والجرمانية ٢٥٨
يومان من أيام الرسول ٢٦٢
العصبية داؤنا الموروث ٢٦٦
يوم الفقير ٢٧٠

صفحة

هل انبعث الأزهر ؟ ٢٧٤
ما خلفته أثينا وروما ٢٧٨
الأمل ٢٨٢
إلى السيدة « ليلى » ٢٨٤
من البكاء إلى الضحك ٢٨٨
من أحاديث القهوة ٢٩٢
لا تقولوا أين الكتاب وقولوا أين القادة ٣٠٨
بعض الكلام فى « مى » ٣١٢
على ذكر عيد الميلاد ٣١٦
مشكلة الرغيف ٣٢٠
صحة الفقير تعويض من ثروة الغنى ٣٢٤
كيف عالج الإسلام الفقر ٣٢٨
على المصطبة ٣٣٤
بين ناخب ونائب ٣٣٨
ربيع وربيع ٣٤٢
لابد للإسلام من مؤتمر ٣٤٥
أرواح وأشباح ٣٤٩
وهذا كتاب ٣٥٣
مثل المصرية الحديثة ٣٥٧
غراب وطفل ٣٦٥
من عجائب الناس ٣٦٩
الرسالة فى عامها الحادى عشر ٣٧٣

صفحة

نهاية أستاذ ٣٧٧
الرسالة فى عامها الثانى عشر ٣٨٢
عبقرية الإسلام ٣٨٥
من مآسى هذه الحرب ٣٨٩
أبو العلاء المعرى بمناسبة عيده الألفى ٣٩٤

قارئي العزيز :

كتبت أكثر ما في هذا المجلد والحرب العالمية الثانية قائمة . فأثرها فيه شديد ، ورسمها عليه ظاهر . فإذا كنت حريصاً على استبطان معانيه وإدراك مراميه ، فأخطر ببالك أو صور في خيالك فظائع هذه الحرب . وقد يساعدك على استحضار الحالة وإدراك المناسبة أني سجلت في رأس كل مقالة تاريخ اليوم الذي صدرت عنه وكتبت فيه .

المؤلف

بين الفقير والغني

(١٦ يناير سنة ١٩٣٩)

« ياصاحب السعادة لِمَ ترضى أن أكون صاحب الشقاء ؟ أنا وأنت نبعتان من أيْكة[1] آدم نَمَتا فى ثَرى النيل ؛ ولكن مَغْرِسك لحسن حظك كان أقرب إلى الماء ، ومغرسى لسوء حظى كان أقرب إلى الصحراء ، فشبعت أنت وارتويت ، على قدر ما هَزِلت أنا وذويت ؛ لأن الماء والغذاء يطلبانك وأنت ضاجع[2] وادع ، وأنا أطلبهما بالكدح والمتح[3] فما أنال غير الجُفاف أو النِّطاف ![4] فماذا يضير المجدود[5] أن ينضح المكدود بِرَشْحٍ مما يسبح فيه من فيض هذا الوادى ، وهو لهما كالأم للتوأمين ، لكل منهما شطره بحكم الحياة والأمومة والطبيعة ؟ لقد ضمن الله لك حق الملك لصلاح الدنيا ، ولكنه فرض عليك بإزاء ذلك الزكاة تحقيقاً لهذا الصلاح . فإذا خشيت أن تمتد عينى إلى ما لك بالحسد والشهوة ، أو يدى إلى نفسك بالعنف والقسوة ، فا كسِر نظرتى وحدَّ ني عنك بأداء ما جعل الله لى عندك ؛ وإلا كان من الإنصاف فى رأيى على الأقل أن يكون اعترافى بالحق لك ، معادلاً لا عترافك بالواجب عليك » .

ذلك ما يقوله فى مصر كل فلاح لكل باشا ؛ ولكن أغنياءنا غلاظ الأجساد والأكباد فلا يُصغون لمثل هذا العتاب الهامس ! وهم إلى ذلك يعلمون أن الله الذى أعان الفقراء بالزكاة على الفقر أعانهم عليه أيضاً بالقناعة والصبر .

---

(١) الأيكة : واحدة الأيك ، وهو الشجر الكثير الملتف . (٢) رجل ضاجع : كثير الاضطجاع كسلان (٣) المتح : استخراج الماء من البئر بالدلو (٤) النطاف : جمع نطفة ، وهى قليل ماء يبقى فى دلو أو قربة (٥) المجدود : المحظوظ . والمكدود : المتعب

فهم يثقون بالله ، ويؤمنون بالقدر ، ويعتقدون أن نصيبهم المقسوم فى السماء سيهبط عليهم فى الأرض ، أو يصعدون إليه فى الجنة . وفى ضمان هذه الأخلاق السمحة والنفوس المطمئنة مشى الغنى متأبهاً متألهاً يحاول أن يخرق الأرض ويطول الجبل ويملك على عباد الله حق الحياة والموت . ثم ينظر إليه الكادح المحروم وهو يخور من السمن ، ويختال من البطر ، ويغوص فى الحرير ، ويخوض فى الذهب ، فيقول بلهجة المؤمن الراضى :

آمنت بالله ! لو لم يستحق ما هو فيه ، لما كان الله عز وجلّ يعطيه ! »

وأقسم ما أعطاه الله ولكنه هو الذى أخذ . وما كان ليستقيم فى ميزان العدل أن يُعْطَى الرِّى إنسان حتى يطفح ، ويُمْنَعَه إنسان حتى يلتهب !

أعرف فى بعض مراكز (الدقهلية) عشرين بلدة يملكها من الشرق أمير ومن الغرب باشا ؛ فليس لأحد من الأهلين فيها شبر أرض ولا جذع شجرة إنما هم أجراء أو مستأجرون سخرتهم الغفلة والاستكانة لرجلين كسائر الرجال ، ليس لبطنيهما سعة البحر ، ولا لعزميهما قوة الدهر ، ولا لنفسيهما عظمة الله ، إنما هما فمان تملأهما المضغة ، ومعدتان تكظهما (١) الأكلة ؛ ولكن لهما عينين كعين الجحيم لا تمتلىء ، ونفسين كجوف الرمل لا يروى فهما يعصران من أجساد هذه الألوف الجاهدة ذهبا يكتنز ، وقصورا تشاد ، وسلطاناً يرهب ، وقطعاناً تسعى ، ومراكب تطير ، ورغائب تبتغى ، ولذائذ تُنال ، وأوسمة تناط ، وألقاباً تكتسب . ثم لا تدركهما بهؤلاء العبيد رحمة الخالق بالخلق ولا عناية الصانع بالآلة فصاحب الآلة يوفر لها الشحم والوقود ، ومالك البقرة يهيىء لها الحظيرة والعلف ، وهما لا يتركان لفلاحيهما المساكين ما يمسك الروح ويستر البدن ، ثم يلزمانهم أن يؤدوا أجرة الأرض ونفقة الإدارة قبل أن يأكلوا . فإذا أوف (٢) الزرع أو رخص السعر وعجزوا عن الوفاء ، سلطا عليهم النظار والمحصرين فأخذوا الدور

---

(١) كظه الطعام ملأه حتى لا يطيق النفس (٢) أوف الزرع : أصابته الآفة

التي يأوون إليها ، والبهائم التي يزرعون عليها ، وخلفوهم فرائس للمرض والفاقة ، لا يجدون وسيلة للطب ولا حيلة للجوع . فإذا فزعوا إلى فضل الأمير أو الباشا زمّ بأنفه[1] واستكبر أن يفتح عينيه على هذا الهوان والقذر ! ولعله ساعتئذ كان يمسح خرطوم كلبه أو يرجّل عُرف جواده ![2]

سكان هذه القرى العشرين يعيشون هم وما شيتهم فى أكواخ من اللّبن[3] لا تدخلها بهجة الطبيعة ولا تعودها رحمة الله . تقوم على أقذار البرك وفوق سباخ الأرض ، وعلى ظهورها المراحيض وفى بطونها المزابل . والمالكان المدلّلان يغطّان بين الحرير والذهب ، فى قصور تطاول السماء ، ورياض تنافس الجنة ، ثم لا يتفضل أحدهما فيحمل الحكومة بجاهه ونفوذه على أن تجفف لهؤلاء البائسين بركة ، أو تنشىء لأطفالهم الضاوين مدرسة . وعلة حب الباشا للمستنقعات أن نفقة ردمها على حسابه ، وحجة بغضه للمدارس أنها تشغل الأطفال عن العمل فى أرضه .

ارجعوا ياقوم إلى الله فقد طبّ لهذه الأدواء واحتاط لهذه الفواجع . إن هذا الأمير وذلك الباشا يملك كل منهما مليوناً من المال تحول عليه الأحوال فيزيد ولا ينقص . فلو أنهما يؤديان زكاته كما فرض الله لكان ما يدفعانه خمسين ألف جنيه كل سنة . ولو حبسنا هذا المال الوفر على هذه القرى العشرين لما بقى فيها فقير ولا مريض ولا جاهل . وإذن تشفى الصدور من الغل ، وتبرأ النفوس من الوهن ، فتكثر الأيدى ، وتشتد السواعد ، ويزيد الإنتاج ، ويزكو الريع ، ويردّ عليهما ما أقرضا الله أضعافاً مضاعفة . ولكن أغنياءنا أبطرتهم نعمة الله فاستغنوا بجبروتهم عن رحمته ، وبملكوتهم عن جنته ، وبعبادهم عن عباده . وكأنهم أصبحوا يرون سعادتهم فى شقاء الوطن ، وعزتهم فى مذلة الناس !

---

(١) زم أنفه شمخ وتكبر (٢) يرجل الشعر : يسرحه ، والعرف شعر عنق الفرس (٣) اللبن : المضروب من الطين مربعاً للبناء (الطوب الأخضر)

ضحية من هذا ؟

« الآباء يأكلون الحصرم ، والأبناء يضرسون »

(٢٣ يناير سنة ١٩٣٩)

كنت فى مكتبى مساء الأمس أتحدث إلى قصصية شاعرة جاءت تهدى إلىّ قصة للتقريظ ، وإلى قصصى كاتب جاء يقدم إلىّ أقصوصة للنشر . وكان من مطارحات الحديث أن تكلمنا فى نصيب الخيال والواقع من قصة الأديبة وأقصوصة الأديب . وجرى على الألسنة الثلاثة كلام فى روعة الواقع المحض ، وزخرفة الفن البارع ، وجاذبية الخيال الممكن . وكأنما كان يدافع عن الحقيقة مدافع من وراء الغيب فأدخل علينا فتى ذاوى الفتوة ضارع الجسم ، ألف القدر من شقائه مأساة لا يحتاج الكاتب فى سردها إلى تلفيق خياله أو تزويق فنه .

قرأ هذا الشاب ما كتبناه فى الرسالة عن بعض من عرفنا من فرائس البؤس فظن لبراءة فكره وسلامة صدره أن ما نكتبه عن هذه المآسى الأليمة يصادف من أولى الأمر استماعاً واقتناعاً ورحمة ؛ فأراد آخر الرأى أن يُسمعهم أنينه الموجع من هذا المكان القريب . ولو علم فتانا أن القدرة صفة من لا يرحم ، وأن الرأفة خُلق من لا يستطيع ، لأدرك أن كبراءنا وأغنياءنا يقرأون مآسينا للتلهى والفن ، كما نقرأ نحن ملاهيهم للتسلى والعجب . فإذا كانت لهم عيون فعيونهم من غير دموع ! وإذا كانت لهم قلوب فقلوبهم من غير شفقة . ولكنه

أخذ يستريح إلينا بذكر ما كابد من باطن الهم ومكنون الأسى ، فأخذت الكاتبة تنهنه عبرة سالت على الخد ، وأخذ الكاتب يعجب أن يبلغ البؤس بالناس إلى هذا الحد ، وتركا إلى أن أقص عليك فصلاً من هذه الرواية

في المنصورة أيضاً بلد المال والجمال والشعر ، سطر الدهر المصرِّف في سجل الألم الإنساني هذه المأساة . كان أبوه من كبار التجار في هذه المدينة ، وكانت يداه كيدَى الخازن الماهر في المصرف العظيم تسيلان في الأخذ والعطاء ورقاً وفضَّة وكان معدوداً في سَراة القوم، يعيش عيش المترفين المسرفين ، يطلق نفسه في العز ، ويقلب أهله في النعيم ، وينشئ أطفاله السبعة على كبر النفس ورفعة الهوى وبُعد الأمل . واتسق له الحال وواتاه الحظ الناهض فظن أمره قد عظم على الأيام واعتصم من الطوارق ، فأغفل المواظبة والمراقبة ، وأهمل المراجعة والمحاسبة ، فصار الداخل لا يسجَّل ، والخارج لا يحصَّل . واجتمع عليه العدوَّان السخيان : التاجر المصدِّر الذي يعطي ولا يأخذ اعتماداً على الضمان ، والشارى المستهلك الذي يأخذ ولا يعطي اتكالا على الأمانة وظلت الأمور تجرى في مجاريها اليومية ، تفرغ صناديق البضاعة ليلاً في المخازن ، ثم توزع على الناس نهاراً في الحوانيت ، ولا يعلم إلا الله والتاجر مافي هذا الرواج العظيم من البوار ، وما يبطنه هذا الربح الموهوم من الخسارة .

وكان هذا الفتى وهو بكر أبيه قد نجح في امتحان البكالوريا بقسمها العلمي حين نزلت بهذا التاجر المغرور علة فادحة وأعان المريض العلة على نفسه بما انكشف له من سوء الحال وظلام المستقبل فقضت عليه .

جلس الفتى في المتجر مكان أبيه الراحل وهو يكفكف عبرات العين بالصبر ، ويخفف حسرات القلب بالرجاء ، وفي اعتقاده أنه سيبني على أساس مكين ويصعد على رأس مال ضخم . فلما خطا الخطوة الأولى تفتحت أمامه

الهُوى[1] ، وتفجَّرت حواليه النوازل ، فعاد ينظر فى المخازن و يبحث فى الدفاتر فوجد الخطر الذى لا يدفع ، والقضاء الذى لا يُرد . وحاول أن يتفق مع الغرماء والحرفاء[2] ، فلم تساعده فداحة دَينه وطراءة سنه على الاتفاق ، فاستغرق بعض الدين كل التركة ، وأعلنت المحكمة إفلاس المتجر

وفى عشية وضحاها فقدت الأسرة المدللة وسيلتها للعيش ومكانتها فى المجتمع ، فلم يعُد لها بعد الله عائل ولا وائل غير هذا الشاب وشهادة يحملها عليها طابع الحكومة وخاتم وزير المعارف بأنه تربى وتعلم ، فمن حقه أن يمارس شئون الناس ويلى أمور الدولة . فانتقل الفتى بأسرته إلى القاهرة ، ثم أخذ يقطع السبل المؤدية إلى الوزارات كل صباح وهو فخور بشهادته مدل بكفايته ، فلم يدع باباً من أبواب الدواوين إلا طرقه . ثم ألح فى الطرق رجاء أن يصيخ إليه سمع فلم يشعر بوجوده غير السعاة والحجاب ، فاتسعوا له حيناً ثم برموا به فنهروه وطردوه . وأدرك المسكين بعد لأى أن الشهادة من غير مدد ورقة عليها مداد فأخذ يلتمس الشفاعة عند أرباب السراوة والجاه . ولكن الشفاعة فى أيامنا أصبحت حرفة لا يبذلها الشفيع إلا لمن يبذل فيها المال أو العِرض . فكان الفتى كلما سمع برجل من رجال النفوذ قصده وقص عليه قَصصه ، فلا يكاد الرجل العظيم يعلم أن له أخوات فى غيسان[3] الشباب ، وأمّا لا تزال فى ربيع العمر ، حتى تحوم نفسهُ على الخِدْر الذليل ، فتثور الحمية بالفتى فلا يجد لها متنفَّسا إلا البكاء والاختفاء .

والتمس البائس السبيل إلى العمل بالفكر و باليد فلم يوفق ، وأوشك أن ينفد ثمن الحلية الأخيرة من حلى أمه ؛ وخشى أن يختم الموت على الأفواه الثمانية الذابلة

---

(١) الهوى جمع هوة (٢) الغرماء : الدائنون . والحرفاء المعاملون (الزبائن)

(٣) غيسان الشباب أوله وحدته ونعمته .

فتقدم إلى العمل (فاعلاً) فى عمارة تبنى ، فرده (المقـــاول) لرقة جسمه ودقة عظامه !

فانكفأ الطريد بالفشل والخجل إلى أسرته اليائسة الولهى ؛ وباتوا جميعاً على الطوى والجوى يخلطون البـكاء بالبـكاء ، ويصلون الدعاء بالدعاء ، حتى سمعوا أن كلية من كليات الجامعة تطلب فراشين ، فتقـدم صاحب الشهـادة مع صاحب المـكنسة ، وأمله كله ألا يُذاد عن هذا الملجأ الأخير !

وها هو ذا الآن فى قسم الـكيمياء ينظف لرفقائه فى الدراسة المقاعد والمناضد بأجرة فى الشهر مقدارها مائة وأربعون قرشاً يحفظ بها أربعة أعراض وثمانيـة أرواح ! ولعله بفضل ما تعلّم من المعادلات واللوغارتمـات لا يتعب كثيراً فى حساب هذا الدخل !

عيد الفقير

(٢٠ يناير سنة ١٩٣٩)

عيد الفقير ! وهل للفقير عيد ؟

نعم للفقير عيد إذا أردنا به الشعائر الدينية والقومية . فهو يصلى العيد ، ويزور المقبرة ، ويعيِّد على آله وصحبه ، ويُسكره السرور النافر على الإلمام ببيته وقلبه ، ويجعل من المساجد والحدائق والميادين مظاهر إخلاص وشكر لوطنه ور به

أما إذا أردنا بالعيد التقلب فى وثير الفراش من غير صلاة ، والتفنن فى ذبح الكباش من غير تضحية ، والتأنق فى الزينة والثياب ، والتفنن فى الطعام والشراب ، والتبسط فى اللذة واللهو ، والتهادى بين التيه والزهو ، فذلك عيد الباشا والأمير ، لا عيد المسكين والفقير

وأرحمتا للفقير قبيل العيد ! يرى متاجر الملابس واللُّعب والحلوى قد ازّينت واجهاتها البلورية بالعروض الجذابة والنماذج المغرية ، فينظر إليها نظر الراغب المحروم ، ويذكر أطفاله الفارّين[1] فى جنانه وهم يحلمون بالثوب الجديد واللعبة المسلية والأكلة الشهية والنزهة الممتعة ، ويعتقدون أن أباهم قادر على أن يجعل عيدهم سعيداً وحلمهم يقظة ، فيكرُبه الأسى وتصيح الحسرة فى نفسه بهذه الشكوى :

— حنانيك يارباه ! هذه نعمة واسعة سابغة ، ولكن القدر لحكمة لا يدركها البصر المحدود جعلها لغيرى لذةً بالقدرة ، ولنفسى ألما بالعجز ، ولأولادى شقاء بالحرمان . فليت القدرة تعرف الرحمة ! وليت العجز يدرك المعونة ! وليت

(١) الفارون : الآمنون .

الحرمان يخطىء الطفولة ! وليت الأيام تمضى إلى غايتها من غير عيد ولا موسم !

إن الأعياد مذلة للوالد الفقير ، وفضيحة للبيت البائس ! ففى الأيام الأُخر يستطيع العائل المسكين أن يغلق بابه على بؤسه ، ويَرُوض أهله على مكروهه ؛ ولكنه فى العيد لا يستطيع أن يضرب على الآذان ، ولا أن يختم على العيون ، فإن المدافع تقصف فى القلاع ، والمزامير تعزف فى الشوارع ، والناس يزيطون فى الملاهى ، والأطفال فى المراكب والمواكب يرفلون فى الوشى ويلهون باللعب ، فأولاده لابد سائلون :

يا أبانا ! أين الثوب الذى نلبس ، واللحم الذى نأكل ، والقرش الذى ننفق ؟ أهذا العيد لناس دون ناس ، أم هو ذو وجوه شتى منها العابس والباسم ، ومنها الدميم والحسن ؟ ولمَ آثَرتنا نحن يا أبانا بهذا الوجه الشتيم الكالح ؟

لو كان هذا الرجل فى أمة مؤمنة محسنة لأجاب بنيه بقوله صبراً يا بنى ، فعمَّا قليل يدخل عليكم باباكم (بيرم) أو عمكم (نويل) بالألطاف والحلوى والحلل من وقفية الباشا فلان ، أو من جمعية كذا للإحسان ؛ ولكنه يجيبهم بالدمعة الباردة ، والزفرة المحرقة ، والنظرة الحزينة ، فلا يفهمون إلا أنهم أحقر من هؤلاء الأطفال ، وأن أباهم أفقر من هؤلاء الرجال أما علة هذا التفاوت وإلهنا واحد ، وأبونا واحد ، وملكنا واحد ، ووطننا واحد ، فعلمها سيأتيهم مع الأيام إذا ما خرجوا بأنفسهم إلى الحياة فرأوا المكظوظ الذى غصب رغيف الجائع ، والملفَّف الذى نهب كساء العارى ، والمموِّل الذى سرق نصيب المحروم

* * *

حدثنى رجل من ذوى هذه الحال أنه كان يشتغل مياومة فى مصلحة من مصالح الحكومة ، فلما قل عليه العمل استغنوا عنه ، ولكنه لسوء حظه لم

يستطع أن يستغنى عن الأكل ، ولا أن يقنع أولاده بالصوم ، فراح يطلب العمل فى كل مكان ، والمعونة من كل إنسان ، فلم يجد . ودخل عليه عيد الفطر من هذا العام وليس فى يديه مايشترى به الكُسى لبنيه والسمك لزوجه وكان قبل نكبته بأسبوع قد وعد الكبار بالبدل والصغار بالهدايا ، فسبحت أخيلة الأطفال فى جو من الأحلام عجيب الألوان عبقرى الصور ؛ وأسرعت ألسنتهم الثرثارة إلى إشاعة ذلك فى الرفاق والجيرة فغم على الرجل الحال ، واعتلج فى صدره الهم ، وأصبح حيران لا يدرى مايقول ولا ما يفعل . تمنى الخروج من هذا المأزق بالمرض أو الموت ؛ ولكن المرض أو الموت إذا أصبح أمنيةً الفقير امتنع كالخير وعزَّ كالسعادة . فاحتال على العلة بالجوع ، فصام النهار والليل حتى هجمت عيناه وانسرقت قواه و بانت عليه نهكة المرض .

ودخل العيد بضوضائه وخيلائه على هذه الأسرة البائسة فوجدها عاكفة على سرير مريضها الموجَع ، مضرَّمة الأنفاس ، لهيفة القلب ، لا أمل لها إلا أن يعافى عميدها ويحيا فانكفأ العيد النشوان المرح خجلان عن هذا المنظر الأليم إلى مجالى البهجة والنعيم فى قصور الكبراء والأغنياء والسادة . ولولا هذه الحيلة التى أنقذت هذا التعس بالمرض من غير موت ، لأشفى به الخجل والهم على الموت من غير مرض !

* * *

تباركت يا ألله ! لقد جعلت فى عيد الفطر زكاة وفى عيد النحر تضحية فهل فهم ذوو القلوب الغُلف والبصائر العُمى من شرعك العادل أن الفقير يزكى بقوَّته حتى يعجز ، والمسكين يضحى بصحته حتى يموت ؟ !

كيف نعالج الفقر

(٦ فبراير سنة ١٩٣٩)

سؤال طالما وقع فى روع النبيين والمصلحين والفلاسفة ممن يملكون القول والدعوة ، ولكنه لم يدر أبداً بخلد الأمير فلان والباشا علان والبيك ترتان ممن يملكون الفعل والتنفيذ . ومن بدائه العقل أن يفكر الأنبياء والحكماء فى معضلة الفقر ، فإنهم نشأوا فى مهده الخشن ، ودرجوا فى فنائه الضيق ، وعاشوا فى مرعاه الجديب ، ورأوا بأعينهم العبرى أثقال العيش تنوء بالظهور الضعيفة فتسقط فى طريق الحياة عرضة لزواحف الرذيلة وجراثيم المرض . ومن بدائه العقل كذلك أن تبقى معضلة الفقر من غير حل يطهر الأرض من سمومه ، وينقذ الناس من همومه ، فإن أرباب الحكم والتشريع والتنفيذ هم من سلائل النعمة وكناز المال ، فلا يخطرون ببالهم الفقر ، ولا يحطبون فى حبالهم الفقير ؛ وهم يظنون إذا محا الإحسان الفاقة ، ونفى التعليم الجهالة ، أنهم لا يجدون الخدم ولا يملكون العبيد . والجاه من غير أذلاء يرمقونه زفة من غير نظارة ، والمال من غير فقراء يعبدونه ملك بلا رعية !

من أجل ذلك كان فزع الناس إلى الأقوياء من عوادى الفاقة تزييفاً على الطبع وتكليفاً بالمحال . ومن أجل ذلك كان تنظيم العلاقة بين القوة والضعف ، وبين الغنى والفقر ، عملا من أعمال الله وحده ، يرفه عليه النفوس ويرفع به الإنسانية ، ويجمّل به الحياة . فإذا حاربنا الفاقة بسلاح الاقتصاد المحض كدن النظم وتوسيع الموارد وتوزيع العمل . وأغفلنا أثر الحظوظ

والميول والأحوال والأمراض فى حياة المرء ، قتلنا الفقر بقتل الفقير ، كما يقتل الطبيب المرض بقتل المريض إنما يحارب الفقر بسلاح الدين ليس غير وسلاح الدين فى مجاهدة البؤس أنه يجعل للفقير فى مال الغنى حقاً معلوماً لا يصح إسلامه إلا باعتقاده وأدائه : وأنه يقوى الإنسانية فى الإنسان حتى يشعر بالأخوة لكل مسكين ، وبالرحمة لكل بائس . وبقوة الإنسانية وحدها فى الدول المتدينة كانجلترا وأمريكا أوشك البؤس أن يزول ، فوجد كل مريض مستشفى ، وكل هرم ملجأ ، وكل يتيم مدرسة . وقد بلغ ما أنفقته الحكومة الإنجليزية على أعمال البر فى سنة من السنين ثلثمائة مليون جنيه ، ولا يقل ما يتبرع به الشعب البريطانى للمستشفيات وحدها عن خمسين مليون جنيه فى العام !

الدين هو الطب الوحيد لأدواء المجتمع . فاذا غرستموه فى قلوب النشء ، وقويتموه فى نفوس الشباب ، جعل من الأمة أسرة متماسكة البناء متضامنة الأعضاء ، يعين سعيدها الشقى ، ويحمل قادرها العاجز ، حتى يقطعوا مراحل الحياة رافهين لا يمسهم نصب ، ولا تجافى بينهم عدواة

مَن غير الله يستطيع أن يرقق هذه الكبد الغليظة فى هذا الغنى البطان الذى غلا فى الكبر ، ولج فى الهوى ، ودال نفسه على ذل الناس ، وأمسك رزق الله فى خزائنه فلا يطلقه إلا لشهوة أو نزوة ؟

مَن غير الله يستطيع أن يقلب العبر على عينى هذا المغرور فيريه بالشكل والمرض والهم أن الراحة فى النفس ألذ منها فى الجسم ، وأن الجمال فى الرحمة أسمى منه فى الجبروت ، وأن السعادة فى الإعطاء أعظم منها فى الأخذ ، وأن خير ما فى الدنيا هو ما انتقل معه إلى الآخرة ؟

هيهات أن يكون فى الأرض إيمان ما دام فى الأرض فقر ! فان أسباب

الفقر ممدودة من الطمع والشح والأثرة وهذه الخلال السوء لاتطمئن عليها نفس مؤمنة . وإن من ضلال الأفهام أو الأقلام أن نعالج الفقر على أنه ناجم من ندرة العمل فى البلد أو قلة الخير فى الدنيا ، فإن العمل ميسور للقادر ، ورزق الله موفور للحى . وإذا شكت الأمم اكتظاظ المعامل ونضوب الموارد وضيق الرقعة ، فان مصر الجديدة البكر بينها وبين هذه الشكوى أن تمصّر المصانع والمعامل والمتاجر والمصارف والشركات ، وما بالقليل ذلك .

لاتطلبوا من الفقير العمل قبل أن توفروا له القدرة عليه . إنه جاهل فاشرعوا له منهل العلم ؛ وإنه عليل فانهجوا له سبيل الصحة ؛ وإنه معدم فدبروا له رأس المال . ومن بلادة الحس أن الغنى يسمعك وأنت تقرأ هذا الكلام ، فلا يظن المخاطَب به أحداً غير الحكومة ، فيشارك فى النقد ، ويسرف فى الإنكار ، ويلح فى الطلب ، لأن الحكومة فى رأيه يجب أن تلبى كل نداء ، وأن تؤدى كل واجب. والحكومة لو درى هذا المتواكل القدْم لاتتسع مواردها لكل رغبة ؛ فانها لم تجْب منه ومن أمثاله إلا حق العمارة والأمن ؛ أما حق الله عنده فقد وكلت أداءه إلى ضميره ؛ يعطيه متى يشاء وكيف يشاء ؛ ولكن الضمائر نامت على هدهدة الشهوات ، والعواطف قست على جفاف المادة ؛ وبين غفوة الضمير ، وقسوة العاطفة ذهب وازع الدين فلم يبق إلا وازع السلطان .

فهل يفكر أولو الأمر أن يعالجوا الفقر بما عالجه الله به فيجبوا الزكاة وينظموا الإحسان ؟ إنهم إن يفعلوا ذلك لايجدوا فى البيوت عائلاً ، ولا فى الطريق سائلاً ، ولا فى السجون قاتلاً ، ولا فى المواخير ساقطة !

يا أذن الحق اسمعي!

(١٣ فبراير سنة ١٩٣٩)

أوشكت صفحات الرسالة أن تحترق لطول ما أنّ عليها الفقر وزفر فيها الشقاء، وأغنياؤنا — أحياهم الله — لا يسمعون لأن آذانهم مبطنة بالذهب الأصم، ولا يشعرون لأن قلوبهم مغلفة بالورق المالي الصفيق. وبال الخليّ أطول من ليل الشجيّ؛ وسمع الناعم أثقل من همّ الشقي، ودنيا اللذة أشغل بمباهجها وملاهيها عن دنيا الألم!

لعل من القارئين من يختلج في رأسه هذا السؤال:

لماذا يمتد نفسي بهذا الأنين الموجع، ويستمد قلمي من هذا الدمع القاني؟ وجوابي أني نشأت في قرية من أولئك القرى العشرين التي سلط القدر عليها الباشا والأمير [1]؛ فانشق بصري على مناظر البؤس، وتنبّه شعوري على مآسي الجور. وعلمت حين تعلمت أن وطننا يفيض بالخير، وديننا يأمر بالإحسان، فأيقنت أن فقر الناس، ناشيء من فقر الإحساس فإذا طلب الفقير حقه، وأدّى الغني واجبه، تلاقت الأنفس على حدود الإنسانية الكريمة. فأنا أحاول بمواصلة هذا الأنين أن أعالج وقْر المسامع وسدرَ العيون وخدَر المشاعر، عسى أن يتذكر المترفون أن لهم إخوة من خلق الله يأكلون ماتعاف الكلاب من المآكل، وينامون مع الحيوان في المزابل. ويقاسون من الأدواء مالا يقاسيه

---

(١) أنظر مقال « بين الفقير والغني »

حتى فى غير مصر . ولكنى علمت واحسرتاه بعد أشهرين مضيا فى الشكوى والإسترحام ، أن بين أبناء الذهب وأبناء التراب أطباقا من اللحم والشحم الحديد والأسمنت ترتدعنها أصوات الضارعين أصداء خافتــــة ، ثم تتجاوب هــذه الأصـــداء فى أكواخ المساكين ثم تتهــافت على بريد الرســالة تهافت الأرواح الهائمة على الشعاع الهــادى تتلمس فى ضوئه الطريق إلى الله وائل الضعيف وعائل المعدم !

تمثال السائلة ، وكم تمثال لها فى مصر من لحم ودم ! !

من لنا بمن يفتح عيون السادرين على هؤلاء الأيامى اللاتى يقضين ليل الشتاء البارد الطويل على بلاط الأفاريز وقدتطرح أطفالهن على جنوبهن طاوين ضاوين لا يفهمون عطف الأب ، ولا يعرفون دفء البيت ، ولا يدركون إلا أنهم

أجساد تعرى ولا تجد الكساء ، و بطون تخوى ولا تصيب الغذاء ، وأكف تمتد ولا تنال الصدقة ؟

من لنا بمن يفتح قلوب المالكين لأولئك الفلاحين الذين اصطلحت عليهم محن الدنيا و بلايا العيش وجهلتهم الحكومة فلا يعرفهم إلا جباة الضرائب فى المالية ، وفرازو القرعة فى الحربية ، وحراس السجون فى الداخلية !

أما المعارف والصحة والأوقاف والأشغال فشأنهما شأن المترفين والمثقفين لا تعرف غير المدينة ولا تعامل غير المتمدن ؟

من لنا بمن يقول لهؤلاء المثرين المستكبرين : إن ركفلر ورتشلد لم يرفعهما إلا حب الإنسان ؛ وإن الدمرداش والمنشاوى لم يخلدهما إلا بذل الإحسان ، وإن لديهم من فضلات الثروة كربح الأموال فى المصارف ، ومكافأة النيابة فى البرلمان ، وحثالة الزروع فى العزب من التبن والقش والحطب ، ما يوفر الغذاء والدواء والعلم لألوف الألوف من بنى الوطن ؟

بالأمس كانت ذكرى وفاة المرحوم السيد عبد الرحيم الدمرداش ، وهو والمنشاوى وبدراوى سمنود من ملائكة الأرض يرفرفون بأجنحتهم النورانية على شقاء كثير من الناس . فلماذا لا يقام لهؤلاء الخيّرين البررة وأمثالهم تماثيل فى الميادين العامة ، ليتشبه بهم الغنى ، ويترحم عليهم الفقير ؛ وليكون فى رفع ذكراهم على هذا النحو إعلان لمعنى الإحسان ، وإطراء لأريحية المحسن ، وتفريق بين من دلله الوطن فعق ، وبين من رباه الوطن فبرّ ، فلا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ولا ينبغى « أن يكون المحسن والمسىء بمنزلة سواء ، فإن فى ذلك تزهيداً للمحسن فى إحسانه ، وتدريباً للمسىء على إساءته » .

الطفولة المعذبة

(٢٠ فبراير ١٩٣٩)

في الأقوال السائرة أن الفقير كلما طلب من الله قرشاً أعطاه كرشاً . وفى ذلك حكمة للعليم الحكيم تستسر دلائلها على الفطن المحدودة . فإن قوام العيش ونظام الدنيا منوطان بالسعى المرهق والعمل المهين ، وهذان لا يقوم بهما إلا الكثرة ، ولا يحفز عليهما غير الحاجة . والغنيّ المترف يحسب أن يديه لم تخلقا إلا لصرف النقود وقطف الخدود ورفع الكأس ، فمثله كمثل السبع من الوحش والطير : يُهلك ولا ينتج ، ويدمر ولا يعمر . فكان من صلاح الأرض أنْ يقل نسله كما يقل نسل الأسود والنمور ، ويكثر نسل الفقير كما يكثر نسل الضأن والبقر . ولكن حكمة الله ضاعت فى غفلة الناس ، فبغى الغنى على الفقير حتى أصبح — وهو مصدر الإنتاج فى النسل والحرث — مفدوحاً بحمله فلا ينهض ، ومكدوداً بعمله فلا يستطيع . ثم نبا كوخه الجديب الضيق عن بنيه فدرجوا فى أفاريز الشوارع وزوايا الطرق وعليهم هلاهل من أخلاق الثياب تهتكت على الصدور والجوانب . يستندون الأكف بالسؤال ، أو يستدرّون الجيوب بالسرقة ، أو يأكلون ما طرح الناس من فضلات الطعام فى المزابل

هؤلاء الأطفال المشردون هم الذين تراهم يطوفون طول النهار وثلثى الليل على القهوات والحانات ، كما تطوف الكلاب والهررة على دكاكين الجزارة ومطاعم العامة ، وهمهم أن يصيبوا ما يسد الرمق ويمسك الحياة . فإذا أغلقت القهوات وهجعت المدينة تساقطوا من السغوب واللغوب على العتبات وفى الحنايا

وتحت الجدُر ، فيقضون آخر الليل يتداخل بعضهم فى بعض كما تتداخل خراف القطيع إذا عصفت الريح أو قرس البرد

هؤلاء الأطفال المهملون هم الذين يستغل ذكاءهم تجار الرذيلة وسماسرة الجريمة ، يسلّطونهم على القلوب البريئة والجيوب الآمنة ، فيسلبونها العفة والمال ، ثم لا يكون نصيبهم من هذه الثمار المحرمة إلا الخوف والجوع والأذى والمطاردة.

من مناظر المشردين

يغرون الصبيان بالشر ، ويوزعون المخدِّر فى السر ، ويسرقون السابلة بالحيلة ، ويستجدُون الجلاس بالرحمة ، ويجمعون الأعقاب من الطرق ، وكل أولئك لطغمة من المتعطلين يتعقبونهم بعين النسر من بعيد ، حتى إذا أخذوا ما معهم تركوهم لأهوال الليل ، فإذا خشوا منهم نفاراً أو فراراً كدسوهم فى أقباء المنازل المهجورة ، فلا تدركهم عين الشرطة ، ولا تنالهم رعاية البر

ولا أدرى كيف سالت على قلمى كلمة البر هنا ، وهى لو كانت فى لغة

الناس لما كان كل هذا !

إن سادتنا المترفين ليأنفون أن تقع أعينهم على هذا القبح ، وتدنو أثوابهم من هذا القذر ، فهم ينهرونهم كما ينهرون الكلاب ، ويذبونهم كما يذبون الذباب ، ويفورون غضباً على الحكومة أن تسمح لهذه الحشرات أن تدب على الطرق المغسولة ، أو تحوم حول الموائد المزدانة !

شقّ الله هذه الأشداق المنفوخة ياسادة ! إن هؤلاء الأطفال الذين يحملون العُلب بالأصباغ[1] ، أذكى من أطفالكم الذين يحملون القماطر بالكتب . وإن عباقرة العالم في الأدب والفن والعلم والحكم ، قد وُلدوا كهؤلاء في مهاد اليتم والعُدم ، ونشأوا في حجور الألم والفاقة ، فاضطرهم الشقاء الباكر أن يعرفوا أن لهم أذهانا للتفكير ، وعقولا للتدبير ، وأيديا للعمل ؛ ففكروا ثم قدّروا ثم عملوا ، فكان من أثرهم هذه الدنيا ، ومن سيرهم هذا التقدم أما أبناؤكم أبناء الدعة والسعة والرفاهة فانتفى عنهم العمل لقلة الحاجة ، وضعفت فيهم أداته لكثرة البطالة ، فأصبح المخ مستويا أملس كالصحيفة ، والجسم صقيلاً أملط كالديباجة ، واليد رقيقة رفافة كالزنبقة فهم تماثيل ناطقة للغباء الأنيق ، تَطعم وتنعم وتلهو على حساب الفقير الذي يعمل ولا يأكل ، والأجير الذي يشقى ولا ينال !

يالله ! ماذنب هذا الطفل الشريد الذي تتحامون مسّه وتتفادون مرآه إذا كان القدر اختار له ذلك الأب البائس الذي يتزوج ولا يعاشر ، ثم يلد ولا يعُول ؟ هل من طبيعة الحي أن يلقى أفلاذ كبده مختاراً في مدارج الطرق تطأها الأقدام وتتحيفها المكاره ؟ هل تستطيعون أن تجدوا لذلك ، إذا وقع ، علةً غير الفقر الذي يحمل الأب في أزمات القحط والحرب على بيع بنيه

(١) مساحو الأحذية

وأكل بنــاته ؟ فإذا كنتم تشفقون على نعيم عيشكم من رؤية البــؤس ، وتخشون على جمــال حياتــكم دمامة الفقر ، وتضنون بسلام وطنــكم على أدواء التشرد ، فاقتحموا على الفقر مكامنه فى أكواخ الأيامى وأعشاش العجزة ، ثم قيدوه بالإحسان المنظم فى المدارس ، والصــدقة الجارية فى الملاجىء ، تجدوا بعدئذ أن الدنيا جميلة فى كل عين . وأن الحياة بهيجة فى كل قلب ، وتشعروا أن روحاً عامة قد وصلت بين جميع الأرواح فأصبــح الشعب كله جسماً حيًّا متآلفاً متــكافلاً تتغذى خلياته بدم واحد ، وتتساير نياته إلى غاية واحدة !

غنى فقير...!

(٢٧ فبراير سنة ١٩٣٩)

قد يكون مع بعض الفقر عزاء ورجاء وسكينة ؛ ولكن فقر هذا الغنى البائس الذى سأقص عليك نبأه ألم لا يهاون وهم لا يهادن ، وحمى لا تُقلع(١)

سأسوق إليك خبر هذا المسكين بقلمى لا بقلمه ، فإن الرسالة التى كتبها إلىَّ كلماتٌ كحسرات النادم لا تتصل ، ومقاطع كأنات المحتضَر لا تبين.. على أنى سأحاول ترجمتها لك ترجمة الشعور للشعور ، لا ترجمة اللفظ للفظ ، لترى كيف يشقى المرء بخطأ نفسه أكثر مما يشقى بخطأ غيره

قال بعد أن سلم وعظم وشكر :

« قرأت وأنا فى وحدتى السامة وعلتى القاتلة ما كتبتَ من مآسى الحياة فى الرسالة ، فراعنى أن يبلغ البؤس ببعض النفوس إلى هذا الحد ، وفى أرض الله رزق لا ينضب ، وفى يد الناس مال لا ينفد !

ولا أكذبُ الله لم أفطن إلى معنى الحرمان والإحسان إلا بعد أن نيفت على الستين وأقعدنى الكساح ، وسلبنى حريتى وثروتى وغبطتى مَن جعلت حياتى له ووضعت أملى فيه

أنا أملك ربع مليون من حر المال وخالص الذهب . وكان يخيل إلىَّ قبل أن ينكشف الغطاء عن العين أنى أسبح فى بحر أحمر لا أدرى أكانت حمرته من الذهب أم من الدم أم من الدموع ، فإنى كنت مصمَت القلب لا يختلج

---

(١) أقلعت الحمى عن فلان : تركته

فيه شعور ولا ترف عليه عاطفة . فلما بلغت الشاطىء لأستجم وجدتنى على ساحل الحياة ، هنا الموت الراصد ، وهنا المرض المثْبِت [1] ، وهنا الضمير المعذب ، وهنا الوارث الحاقد الذى دفننى وأنا أشعر ، وورثنى وأنا أنظر ، وحرمنى وأنا أريد فاذا كان فى بؤس الفقراء مايستدرُّ ماء العيون ، فإن فى ذل الأغنياء مايذيب شغاف الأفئدة !

أتدرى كيف جمعت هذا المال ياسيدى ؟ جمعته بالسعى الدائب ، والتدبير المعجز ، والربا الفاحش ، والشح الدنىء ، والتقتير المهلك ثم أمات الله فى نفسى نوازع الأبوة والقرابة والإنسانية فلم تبضَّ يدى فى سبيل شىء من ذلك ، فنما المال واتسع وامتد حتى صرفنى عن الناس وشغلنى عن العالم . ثم حسبتنى بهذا الثراء الضخم أستطيع أن أشترى السعادة والسيادة والإيمان والجنة ، فإذا بى واحسرتاه أملك مفاتيح قارون ولاأملك عصاموسى !

كان رأس مالى جنيهات معدودات ادخرتها من نفقاتى وأنا طالب بالأزهر . فلما عدت إلى بلدى استثمرتها فى الربا والتجارة ، فكنت أقرض الزراع المأزومين والعمال المعوزين والتواجر الأرامل بربا قدره خمسة قروش فى الشهر للجنيه الواحد . ثم اتخذتُ من فناء بيتى قنًّا للدواجن ، ومن سطحه مزرعة للبقول : فكنت أبيع الدجاج والأرانب من تحته ، والفجل والكراث من فوقه . وألححت على نفسى بكبت الشهوة وقتل الرغبة إذ اعتدتأ على المال ، حتى كنت أرى الفاكهة عند الفاكهانى فأتقزز ، وأبصر اللحم عند القصاب فأهُوع [2] ، ولكنى إذا لمحتهما فى يد إنسان تبعتهما نفسى وتحلّب عليهما فى . ثم اقتنيت العقار والضياع؛ أكثرها بغَلَق [3] الرهان وأقلها بالشراء ؛ وقفت عليها أحسنَ القيام بالرعاية

---

(١) المرض المثبت هو الذى يمنع من الحركة (٢) أهوع : أقىء

(٣) غلق الرهن إذا لم يقدر الراهن على افتكاكه فى الوقت المشروط

والجباية والتوفير حتى غدت غلتها سيلاً لا ينقطع عن الأهراء[1] والخزائن ثم فرضت نفقة أسرتى من الطعام والإدام على مستأجرى المزارع والدكاكين يؤدونها فوق الأجرة يوماً بيوم ؛ واقتصرت فى غذائى على الأبيضين : الماء والثريد ، وفى كسوتى على جلاليب من القطن للبيت والغيط ، وبدلة من الصوف للاحتفال والسفر . ثم وقع فى نفسى أن حماية هذه الثروة العريضة لابدلها من لقب (بك) فاشتريته أيام كانوا يبيعون الألقاب ، بقبضة من الذهب . ثم شيَّدت قصراً وبنيت دوَّاراً وجعلت فى رأسه دائرة . فاتسع النفوذ وامتد السلطان وصرت آمر ولا أرجو ، وأغتصب ولا أختلس ورأيت الناس يلقوننى بالإجلال والهيبة لفخامة اللقب وضخامة الثروة ، فازدادت نفسى شراهة ويدى كزازة وأفرط علىَّ الغنى فغطى على بصيرتى وبصرى ، فلم أعرف أن لىَ ديناً له حرمة ، وزوجة لها حق ، وأولاداً لهم رعاية . وعشت لنفسي بل لمالى ، أقضى النهار له ، وأسهر الليل عليه ، حتى كرهتنى أسرتى ، وحقَّرتنى عشيرتى ، وسئمتنى حياتى وأصبت بمرض عُقام برى عظام ساقى وفخذى فلم أستطع المشى ولا النهوض .فاستولى ولدى البكر على مفاتح الكنوز وأضفى على نفسه وزوجه وأمه وأخواته الذهب والحرير والنعيم والأبهة ، وتركونى سطيحة فى حجرة منعزلة لايدخلها علىَّ إلا الخادم بالماء والثريد والقهوة ولا أدرى لماذا استعرَتْ فى نفسى اليوم شهوة الأكل ورغبة المتاع ؟ فأنا أشتهى كل شيء ، وأبتغى كل معنى . ثم أنظر فى يدى الجماعة الكسوب فإذا هى معروقة كيد المسلول ، فارغة كراحة السائل وأدور بعينى فى الحجرة الموحشة فأرى أطياف الذين فجعتهم فى أموالهم وآمالهم تخفق على الجدران ساهمة حزينة ،

---

(١) الأهراء جمع هرى وهو مخزن القمح

فأتذكر كم مدين أغرقت ، وكم بيت أغلقت ، وكم قلب سحقت ، فتنهل مدامعي انهلالَ القطْر على خدى الغائر الشاحب ، وأتمنى لو تعود قدرتى على ثروتى فأمحص خطاياى بانفاقها كلها فى سبيل الله . ولـكن هيهات هيهات لما أرجو ! لم يبق لى منها إلا حريق القلب فى الدنيا وحريق الجسم فى الآخرة ! حتى الدواء لا أناله ، وحتى الـكفن لا أرجوه ! وكأنما أمات الله نصفىَ الساعى وأبقى على نصفى الواعى لأدرك بعينى وفـكرى وخيالى مضّ الألم الذى يحسه المظلوم يغتصب ولا يُستطيع أن يدفع ، والمحروم يتشهى ولا يستطيع أن يجد ، والمهموم يتلظى ولا يملك أن يموت » .

ثم يلى ذلك شكوى ضارعة من زوجه الفارك[1] وابنه القاسى ، وصهره المتعجرف ، لا تتسع لها الصفحة !

* * *

سيدى البك ! إن حالك لا تغنى فيها دمعة تذرف ولا كلمة تقال . أدع الله معى أن يتغمد خطاياك بالعفو ، وأن يقطع بلاياك بالموت . ولئن كنت فى حياتك للضعيف شقاء وللأهل حسرة ، فانك فى موتك للفقير عزاء وللغنى عبرة !

---

(١) امرأة فارك : تبغض زوجها

منطق الغنى

(٦ مارس ١٩٣٩)

لقيت أول أمس على قهوة « أتينيوس » بالأسكندرية رجلاً من نابهى النواب أعرفه معرفة لا تقرّب ولا تبعدّ . هذا الرجل ينزع بطبعه منزع الارستقراطيين في نمط العيش وأسلوب التفكير ورونق المظهر ؛ فهو يتجمل بالزينة ، ويتنبل فى الكلام ، ولا ينفك يعلك ألفاظ المثرين المترفين كالبنك والبرصة والسيارة والخيل والسباق والسهرات والحفلات والملاهى حتى لتظنه المرجع الحجة فى أولئك جميعاً . ونباهة هذا النائب لم تأته عن طريق الفطنة أو الخبرة أو الكياسة ، وإنما أتته عن طريق التهويش والتهريج والسياسة . فهو فى مجلس النواب جزء من كرسيه لا يتحرك ولا ينبس ؛ ولكنه فى الأمور الحزبية والأنتخابية ولاَّج خرّاج ، يجذب الزعماء بالمآدب الصاخبة ، ويخلب الناخبين بالوعود الكاذبة ، ويدرج بالدعوى والدعاية من قهوة إلى قهوة .

قال بعد أن تبجح طويلاً بقوة أثره فى توجيه المجلس وتسفيه المعارضة وتنظيم النادى وتقويم الحكومة

— مالك وللأغنياء توغر عليهم صدور الصناع والزراع والخدم ؟

— عجيب ! وهل تقرأ الرسالة ؟

— إنما يقرأها ابنى وابنتى ؛ وهما متأثران بها ومشايعان لها ، ولا يزالان يجادلانى فيما تكتب وتطلب حتى أترك لهما الدار . فهل تريد أن يكون الناس كلهم سواء فى الثروة ، وليسوا كما تعلم سواء فى الذكاء والقوة ؟

— ياسيدى ما اعتقدنا ذلك ولا كتبناه . فإنا نؤمن بالغنى والفقر كما نؤمن بالقضاء والقدر والتفاوت فى الطبع والكفاية والحيلة والوسيلة مبدأ مقرر فى الطبيعة ، ونظام مسلم فى الدين ؛ ولكنا نحاول أن نذكر الأغنياء أن الله الذى خلقهم وخلق الفقراء قد جعل لحمة ما بينهم وبينهم قائمة على أساس من المودة والرحمة يكفل المخالصة ويضمن السلامة . فأذا تعهدوا هذه الصلة الإلهية بالبر، فمنح القادر العاجز روحاً[1] من قواه ، ونفح الواجدُ الفاقدَ قليلاً من جدواه ، سارت القافلة الإنسانية فى طريقها إلى الكمال الممكن غير ظلعاء ولا وانية وإذا أردنا المساواة فأنما نريدها فى الحق والواجب ، وإذا ذكرنا المشاركة فأنما نذكرها فى حدود الإحسان والزكاة .

— الإحسان يغرى بالكسل ويعين على بقاء الفاسد . والفقير فى أكثر أمره عليل الجسم أو العقل ؛ فلم لا يكون من الخير أن يترك للحرمان حتى يذبل ويسقط ؟

— إذا استطعت أن تنفذ هذا الرأى فى أسرتك الخاصة ، استطعنا أن ننفذه فى أسرتنا العامة . فهل فى مقدورك أن تترك ابنك المملول الذى لا يبرأ ، وأخاك المخبول الذى لا يعى ، حتى تعصف بهما المنون كما تعصف ريح الخريف بالورق الجفيف ؟

— ما أظن القلب يطيع العقل فى ذلك .

— ومن قال لك إن العقل يخولك حق الله على خلقه ؟ إن للفقير حق الحياة وليس لك عليه حق الموت . والله الذى خلق الكون خلق الفساد وجعل لكل منهما قوانين يجرى عليها فى الطبيعة . وستنالك أنت على الرغم من قوتك

---

(١) الروح : المساعدة والرحمة .

وغناك عوامل الذوى والبلى ، فهل تقبل من ذوى رحمك ووارثى مالك أن يدعوك فريسة الهرم والمرض ، كما يدع القطيع الحمارَ المحموم فى القفر الجديب ؟

* * *

رأى صاحبى أن هناك مدارك من فهم الحياة استعجمت على ذهنه الشارد فمغم بعض الجواب و بيَّن بعضه الآخر حين قال :

ولكننى أعلم أن الزكاة فى أوربا ليست مشروعة ولا مجموعة ، ومع ذلك تجد الفقر محمولاً والحياة آمنة فكل إنسان يعمل ، وكل حى يعيش

— لا يغرنك ياسيدى مما تعلم من ظواهر الحياة الأوربية ، فإن مدنيتها طلاء على صدوع ، وكبرياء على خضوع . ولولا قيام الأديرة بجمع الصدقة وتنظيم الإحسان ، ونهوضُ الحكومات لحماية العجز وتوفير العمل ، لرأيت البؤس كرمز الموت هيكلاً بادى العظام لا تستره أثواب ولا تحجبه أبواب

— وما قولك فى أمريكا ؟ أليست المسافة فيها بين الفقراء والأغنياء كالمسافة بين الأرض والسماء ؟ ومع ذلك لا تجد بين هؤلاء وهؤلاء حسداً ولا ضغينة

— عفواً ياصاحب العزة ! لقد عرفت القياس وأنكرت الفارق . إن أكثر المنافع فى أمريكا من فضل الغنى فكيف يبطن الفقير له الغل وهو يتعلم فى مدرسته طفلا ، ويعمل فى مصنعه رجلاً ، ويتداوى فى مستشفاه مريضاً ، ويأوى إلى ملجئه شيخاً ؟ إن صاحب الملايين فى الدنيا الجديدة هو مثل الإنسان الأعلى أثرى بالكد والإيمان والكفاية ، ودبر ثراءه على قواعد الوطنية والإنسانية والدين ؛ فكان حربا على الجهل والبؤس والشر ، وعاملاً للسلام والوئام والمحبة . أما أغنياؤنا فمثال الطمع الجرىء والشح الدنىء والصلف العاتى :

أثروا بالإرث أو بالحرص أو بالحظ أو بالحيلة ، ثم كدروا صفو الحياة على الفقير ، فهم يزاحمونه على المجانية فى المدارس ، ويغلبونه على الوظائف فى الدواوين ، ويدوسونه بسياراتهم فى الشوارع ، ويسلبونه بطماعيتهم فى المزارع ، ويصدونه عن البرلمان حتى لا يكون لغير أقوالهم سميع ، ولا يصدر بغير إرادتهم تشريع

ونظر صاحبى فى ساعته ذات السوار ، ونظرت أنا إلى البحر الأبيض فإذا هو يمور ويفور ، والصيادون المساكين يكافحون العاصفة ليصيدوا لهذا الغنى المبطان لوناً من الطعام تكمل به مائدته الموقَرَةُ الحافلة !

ثم افترقنا وكل منا على رأيه !

رسالة الأزهر

(٢٧مارس سنة ١٩٣٩)

دار الرسالة والفضل لله — ملتقى مفكرى الإسلام العرب وغير العرب ، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب. يزورونها أول مايزورون من معاهد الثقافة بالقاهرة ، فنتناقل الحديث و نتذاكر الرأى فى موقف المسلمين اليوم من قراع المذاهب ، وصراع القوى ، واحتلاك الدول فى التسلح بالعلم والدعاية والعدة ، واحتفاز الأمم فى التقوِّى بالتعلم والعمل والإنتاج ، فنتبين من وراء الحديث أن الإسلام فى غير بلاد العرب خُلط عجيب من العقيدة السالفة ، والصوفية الزائفة ، والأساطير الموروثة ، والتفاسير الخاطئة ؛ ثم استحال هذا الخلط على تراخى الزمن وانقطاع الصلة واستعجام اللسان إلى مُرقِد يعوق عن السعى ، ويمنع من النظر ، ويصد عن الفكر ، ويذهل شاربيه عن حركة الوجود وسير الفلك . فالمسلمون فى ألبانيا ويوغوسلافيا من بلاد المغرب ، وفى الصين وجزائر الهند من بلاد المشرق ، يتميزون عن مواطنيهم بزهادة كالبلادة ، وجهالة كالموت ، وتوكل كالتواكل ؛ ويتوهمون أن الإسلام ليس من شأنه الدنيا ، وأن المسلم ليس من همه المادة ، وأن ماهم فيه من رَثَق العقيدة وظلام الفكر وَخدر الشعور إنما هو روح الدين ورضا الله وطريق الجنة . ثم لايعدمون أن يجدوا مصدقاً لما يزعمون فيما يقرأون من الأحاديث الموضوعة والأخبار المصنوعة والأقوال الملفقة ؛ فان من محن الإسلام حين ضعف أهله وزال سلطانه ، أن امتزجت به كل نحلة ، وسرت إليه كل علة ، وتراءت فيه كل حالة ؛ فكل امرىء واجد فيه ما يلائم استعداده

ويناسب فهمه . وإذا كان ذلك حاصلاً بين العرب وهم أصحاب الدين وأهل اللغة فما ظنك بغيرهم ممن بلغتهم الدعوة مترجمة عن طريق الفرس أو عن طريق الترك بالتجارة أو بالفتح ؟

لقد عصفت بالعالم كله عواصف هوجٌ من السياسة والاقتصاد فلم تدع فيه ساكناً إلا حركته ، ولا بالياً إلا جرفته ، وكان لابد للعالم الإسلامى أن يهب على دوى هذه الزعازع ، فنهض شبابه يستعدون بعدة الناس ، ويتجهزون بجهاز العصر ، ولكن شيوخه الوانين أخذوا يعوِّقونهم عن الأهبة والسعى بكلام ينسبونه إلى الله والله منه برىء . ثم كان من أثر تلك الهبَّة العامة ، وهذه الحالة الخاصة ، أن نفر من كل قطر من أقطار الأرض طائفةٌ من شباب الإسلام إلى مصر ليتفقهوا فى الدين ويتضلعوا من اللغة ، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ، فيكونوا شهادة صادقة لحقيقة الإسلام ، وقدوة صالحة لنهضة أهله .

* * *

ومصر اليوم وقبل اليوم هى بفضل الأزهر موئل اللغة ومعقل الدين ومشرق الهداية . والأزهر على الرغم مما يؤخذ عليه ، هو بفضل ما مكن الله له فى التاريخ ، وهيأ له من الموضع ، وأتاح له من المال ، أقدر على تبليغ الرسالة العظمى ، وتوجيه الأمة الكبرى ، وتصحيح العقيدة العليا ، إذا صدق رجاله الجهاد وأخلصوا النية وأحسنوا العمل ، وذكروا أنهم جنود الله يرمى بهم العدو فى كل وقت وفى كل أرض وفى أى صورة ، فيعيشون للموت كالجندى ، ويعملون للحياة كالقادة ، ويعزفون عن الدنيا كالرسل والإمام المراغى هو فى رأينا خير من يضطلع بما يفهم المثقفون من رسالة الأزهر إذا لم ينله ما نال الأستاذ محمد عبده من اضطراب الريح حول مصباحه ، وانبثاث العوائق الخازلة أمام إصلاحه ،

فإنه من أفهم الناس لمعنى الدين وروح العصر ومقتضى الحال .

ورسالة الأزهر التي يريدها الله ويرجوها الناس هي :

١ — تنقية الإسلام من العقائد الواغلة والمذاهب الباطلة والعادات الدخيلة . وسبيل ذلك أن يفسر القرآن على هدى الرواية الصحيحة وفي ضوء العلم الحديث ، تفسيراً يجمع بين ما صح من أقوال السلف ، وما صلح من آراء الخلف ثم يؤلف في الحديث كتاب جامع لما لا ريب فيه من الكتب الصحاح ، ويستعان على شرحه وتبويبه بعلوم التاريخ والاجتماع والأخلاق والفلسفة ثم يصنف في الفقه كتاب شامل على المذاهب الصحيحة يوضع متنه موادَّ كالقانون ، ثم يشرح شرحاً فنيًّا يستوعب أصوله ويستقصي فروعه ، في غير حشو ولا استطراد ولا تعمية ثم تكون هذه الكتب الثلاثة المطولة مادة الدراسة ومرجع القضاء ومصدر الفتوى ؛ فتقرر في الأزهر ، وتنشر في الجمهور ، وتترجم إلى أكثر لغات الشرق وأشهر لغات الغرب ؛ ثم ترسل إلى كل بلد يعرف الإسلام أو يريد أن يعرفه أما ما عدا ذلك من الكتب ، فما كان صحيحاً بقي في المكاتب بقاء الآثار في المتاحف ، يرجع إليه المتخصص والمؤرخ ؛ وما كان زائفاً صنع به ما صنع عثمان بكل مصحف غير مصحفه .

٢ — إعداد الوعاظ والدعاة من أهل اللسَن والخلق والورع ، وإمدادهم بالثقافة الحديثة واللغات الحية ؛ وإيفادهم إلى الأمم الإسلامية البعيدة عن مهبط الوحي وموطن العروبة . ويدخل في ذلك العناية اليقظة بالبعثات الإسلامية بالأزهر ، فإنهم أقدر من غيرهم على إرشاد قومهم باللغة والقدوة والنفوذ .

٣ — جعل اللغة العربية لغة المسلمين كافة ، فيكون لكل مسلم في الأرض لغتان لغة لوطنه الأصغر ، ولغة لوطنه الأكبر . والوسيلة أن تحمل المشيخة

أقطاب الرأى فى البلاد الإسلامية ، بالمفاوضة أو بالائتمار ، على أن يجعلوا تعلم اللغة العربية والتكلم بها إجبارياً فى مراحل التعليم المختلفة ، وأن تتكفل بإرسال المعلمين من المتخصصين فى الأزهر ؛ فإن فى شيوع العربية بين المسلمين تمكيناً لفهم الدين وتثبيتاً لمعنى الأخوة .

* * *

ذلك ما يجب أن يقوم به الأزهر ؛ وذلك ما يضمن للاسلام الجدة ، ويكفل للمسلمين الوحدة ، ويجعل للرأى المحمدى سلطاناً يُخشى فى الحرب ويُرجى فى السلام .

الملك غازى

(١٠ أبريل سنة ١٩٣٩)

فى ذمة الله زهرة فواحة من روضة الحسين ، ذوت فى ازدهار الربيع وغيـدان الصبى وفوران الأمل، ثم أسقطها الجفاف والرى موفور والخصب شامل!

كان الملك غازى — تغمده الله برضوانه — مهوى قلوب العرب ومعقد رجاء العراق ، لأن شبابه يرافىء شباب النهضة ، وطموحه يجارى طموح العروبة ؛ ولأنه من بعدُ ورث فيصل بانى العروش وقائد الثورة . وكانت تباشير الصباح المسفر تنبىء عن الضحى الجميل والنهار الصحو ، لولا أن للقدر أحكاماً لا تجرى على أقيسة العقول ولا تسير على رغائب الأنفس.

* * *

عرفت خليفة فيصل وهو ولى عهد ، ولم أنل شرف لقائه وهو ملك ، لأننى تركت العراق وأبوه لا يزال على عرش الرشيد يدبر الأمر بذكاء على ودهاء معاوية وكانت جلساتنا الليلية فى حديقة البلاط المزهرة المقمرة ، حيناً فى

حضرة الملك ، وحيناً فى حضرة خاله ، تكشف لى قليلاً قليلاً عن مصاير هذه النفس الرغيبة الطيعة التى نبتت فى هجير مكة وأزهرت فى ظلال بغداد ، فكنت لا أنفك مهما أمام طبيعتين مختلفتين : طبيعة تتأثر بحاشيته فتسامح وتساير وتمرح ، وطبيعة تتأثر بأبيه فتصعب وتسمو وتطمح . ولكن المقرر فى الأذهان كان أن الشبل سينتهى بالضرورة إلى طبيعة الأسد مهما يؤثر فيه طبع الناس وينل منه قفص الحديقة

* * *

قلّ فى الشباب الملكى من كان كغازى فى سماحة نفسه وسجاحة خلقه ونبل شعوره وسمو تواضعه وظرف شمائله . وتلك هى الصفات الهاشمية التى تنتقل فى بنى الحسين بالإرث ، وتقوى إذا ساعدتها القدرة وساعفتها البيئة . ولكن ماورثه هو عن أبيه صقر قريش من الجناح الزفاف[1] ، والبصر النفاذ ، واللب الحصيف ، كان يتيقظ رويداً رويداً مع الزمن والخبرة ، فلم يكن بعدُ قد توثقت آرابه[2] للاضطلاع بالعبء الفادح الذى ألقى على ظهره فجأة . والعبء الذى كان يحمله فيصل من أمور العراق هو العبء الذى قسمه الدستور على سلطات الدولة الثلاث فجمعه هو على عاتقه . من أجل ذلك لم يضع غازى يده من سياسة العراق العليا موضع يد أبيه للتعديل والموازنة ، وإنما تركها فى أيدى الزعماء تجرى سفينتها على مشيئة الريح ، تضطرب حين تثور ، وتستقر حين تسكن . ومن أجل ذلك امتحن الله الفراتين بالقوة الغشوم ، فحكم الجيش ، واستبد الطيش ، واضطرب العيش ، وسطت الأيدى المجرمة على عباقرة الأمة[3] . ومن أجل ذلك لا نتوقع

---

(١) الزفاف : السريع (٢) الآراب : جمع إرب وهو العضو

(٣) نشير إلى ثورة بكر صدقى

لسياسة العراق بعد غازى ماتوقعه لها الناس بعد فيصل . والغالب فى الظن أنها ستجرى فى عهد فيصل الثانى كما كانت تجرى فى عهد فيصل الأول . فإن نورى السعيد الذى يقبض عَلَى سكانها اليوم هو تلميذ أبى غازى : وضعا معاً سياسةالعراق الحديث على أساس من المرونة اللبقة ، ثم ساساه بنوع من الدكتاتورية المعتدلة التى تسير مع النزاهة وتقف عند حدود العدل . ولعل هذه السياسة الفيصلية هى التى تقتضيها الحال اليوم بعد مافت فى أعضاد الشعب توزع الرأى وتغلب الهوى وتوقح الخصومة .

* * *

إن مصرع الملك على هـــــذه الصورة الأليمة فاجعة تدمى العيون وترمض الجوانح وإن العالم العربى كله ليشاطر العراق الحزين أساه على سيد شبابه ومناط أمله ولـكن للدواهى النُّـكر صدمات تهز الشعور وتوقظ الفطنة ، فتنبه على قدر ما تذهل ، وتوجه على أثر ما تضل . والشعب العراق من الشعوب الـكريمة الحرة التى تصقلها الخطوب وتلمها الأحداث فتقف بفطرتها السليمة أمام الخطر هوًى واحدا ورأياً جامعاً وعزيمة صادقة . وسيرى الذين يتخيلون ويتقولون أن إرادته الصارمة الحازمة ستَثبُت لدواعى الشقاق ونواجم البغى ، وستُثبِت أن عصر فيصل الثانى سيكون عصره الذهبى الثانى ، فيشتد بنيانه ويمتد سلطانه ويتسع عمرانه ، وتهبُّ من جوف الهلال الخصيب [1] عبقريات غفت فى أحضان الخلود ولـكنها لم تمت !

* * *

فى ذمة الله زهرة فواحة من أرومة الحسين ومن شجرة فيصل ، سقاها النبل

(١) جوف الهلال الخصيب : العراق

الخالص ، وغذاها الكرم المحض ، وتعهدها الحفاظ الحر ؛ حتى إذا أوشكت الزهرة أن تخرج الثمرة المرجوة قصفها الموت المفاجىء ، فكان ذُوِيُّها حسرة في نفس شعب ، وقرحة في قلب وطن !

برد الله ثرى غازى بالصيِّب الهتون من رحمته ، وشعَب قلب العراق بالصبر الجميل عن مصيبته ، وجعل عهد المليك الطفل على العروبة والإسلام عهد سلام ووئام وبركة !

نفخة الصور

(١٧ أبريل سنة ١٩٣٩)

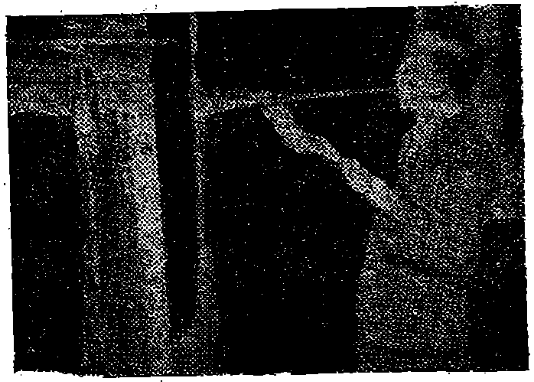

بعـــد ثلاثة وثلاثين قرنا من تاريخ مصر الخالدة نفخ جنـــدى فى بوق [١] فرعونها الشاب توت عنخ آمون ، فدوّى صوته النَّدىُّ [٢] فى أرجاء العالم والعالم يمور موران البحر ، ويفور فوران البركان ، وتتدافع شعوبه المـكلوبة المـكروبة عمياناً وصماً إلى مهاوى الموت ! فليت شعرى ما الذى أخطر ببال المتحف والإذاعة هذا الخاطر الغريب فى هذا الحين وفى هذه الحالة ؟ أهو القدر الإلهى الراصد الذى يقول كلمته فى كل حادث ، ويعلن مشيئته فى كل مشـكل ؟ أم هو الروح المصرى الخالد الذى بدأ حضارة العالم ، وأنشأ معرفة الناس ، ولايزال يوحى بكل فـكر ويشارك فى كل أمر ؟

من كان يقع فى حسبانه من فراعين النيل ودهاقين الوادى أن بوقهم الذى

---

(١) من مخلفات الملك توت عنخ آمون التى كشفت فى سنة ١٩٢٢ بوقان أحدهما للحرب وهو من الفضة ، والآخر للسلم وهو من النحاس . وقد عن لإدارتى المتحف المصرى ومحطة الاذاعة المصرية أن ينفخ فيهما أحد الجنود بالنداء الحربى ليذاع على العالم . وقد تم ذلك فى الساعة السابعة والثلث من مساء يوم الجمعة ١٤ من شهر أبريل سنة ١٩٣٩ فـكان حادثاً فذاً فى التاريخ الانسانى كله (٢) الصوت الندى : البعيد

كان يدعو إلى الطعن والضرب ، ويقضى فى السلم والحرب ، يحتفظ به الدهر الطحون ثلاثة آلاف وثلثمائة عام ليُبلغ به اليوم أذن الدنيا جماء صوتَ مصر الذى لا يخفت ، ومجد مصر الذى لا يبيد ؟

ما كان أروع هذا الصوت الفضى القوى وهو ينبعث من جوف الماضى العميق السحيق ، وينتشر جهيراً جباراً على أمواج الأثير ، فينصت الفلك ويدهش العالم ، ويذكر التاريخ ، ويغوص الخيال الشاعر فى خِضَم القرون ويطفو !

* * *

أيها النافخ فى صور إسرافيل ! أهى الراجفة [١] وانصعاق الأحياء وانشقاق السماء وزلزلة الأرضين واندكاك الجبال وفناء العالم ؟ أم هى الرادفة وانبعاث الأموات ، وميزان الحسنات والسيئات ، ثم استئناف الحياة الباقية الصافية التى تموت فيها المطامع ، وتفنى الأحقاد ، ويعيش بنو آدم فى ظلال الله إخواناً على سُرر الحب ، وضيفاناً على موائد الجنة ؟

لتكن نفختك يا إسرافيل ما شاء الله أن تكون ، فإنها لمصر القاعدة المتخلفة صيحة نشور ونذير أهبة ! فقد درجت على هامها القرون وهى مطمئنة إلى الخمول راضية بالعجز ، يستغل خيرها الواغل ، و يستقل بحمايتها المغير ، حتى خشن على أيدينا السيف ، وثقل على ظهورنا العتاد ، وجثم على رجولتنا الجبن ، وأصبحنا إذا طلبتنا القرعة نهرب ، وإذا انتخبتنا الجندية نبكى ، وإذا سمعنا

---

(١) الراجفة هى النفخة الأولى فى الصور وهى للعدم ، والرادفة هى النفخة الثانية فيه وهى للوجود . قال الله تعالى : « يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة »

بالحرب من بعيد يضطرب البال من الهم ويطير الفؤاد من الفزع . ثم كان من أثر هذه الحياة السلمية الوادعة ، وهذه التربية المدرسية البليدة ، أن فشا بيننا داء العجائز وهو الكلام ، وداء الضرائر وهو الحسد ، فأفواهنا الثرثارة لا تفتر عن قرض الأعراض والعلائق ، وعيوننا الطامحة لا تغمض عن حسد الأرزاق والمواهب ، حتى اتسعت الأحداق وطالت الألسن ، بمقدار ما ضاقت الأخلاق وقصرت الأذرع . فلو كنا نشأنا على الجندية ، ومرسنا بالحروب ، وارتضنا فى الشدائد ، لكثر فينا رجال القيادة والنظام ، وقل بيننا أهل السياسة والكلام ، وكان عندنا من الشركات والجمعيات والمصانع والورش أضعاف ما عندنا من المؤتمرات والأحزاب والمقاهى والصحف . . .

هذه هى القارعة التى تهتك حجب الأسماع وأغشية الأبصار وغُلف الأفئدة . فاليوم لا كسل ولا جدل ولا اتكال ولا استكانة لقد سلكنا متن الحياة بعد أن كنا نسير على الهامش ، وخضنا عباب الأمر بعد أن كنا نعيش على الشاطىء ، وحملنا تكاليف مصر العزيزة بعد أن كنا نلقيها من الخور والهُون على الأكتاف الغريبة كتفاً بعد كتف .

لشدّ ما يشرق فى تاريخ النيل ذلك اليوم الذى يزحم فيه البحر والبر والجو أسطوله الماخر وأسطوله الطائر وجيشه الجرار ، ثم يستقتل فى سبيله بنوه البواسل الميامين فى الحصون والخطوط والخنادق ، ليكون لثراه الحبيب من دمائهم رِى ، ومن أشلاء عدوهم سماد ، فيخصب فيه جذب العقول ويزكو به غِراس البطولة !

مرحباً بالنار إذا كانت تذيب غش الأخلاق وزيف العزائم ! وأهلاً بالحديد إذا كان يشذب ميت الأصول وذاوى الأفرع ! ورُبّما يبتلينا به الله

إذا كان من ورائه جمعة من هذه الفرقة ، وحياة من هذا الموت !

لقد استنفرنا الماضى ببوق فرعون ، واستفزنا الحاضر بوعيد نيرون[1] ، فلم يبق الا أن نميط اللثام عن الوجه الحر ، وننفض الغبار عن المعدن الكريم ، ثم نولى وجوهنا شطر الحدود المقدسة ، ونقوم للوطن كما نقوم لله ، صفا صفا ، طائعين خاشعين ، متحدين مستعدين ، ننتظر نداء العلم الموموق وأمر القائد الأعظم !

---

(١) تريد به موسولينى دكتاتور ايطاليا يومئذ ، وقد كان ريقه يتحلب طمعا فى فتح مصر

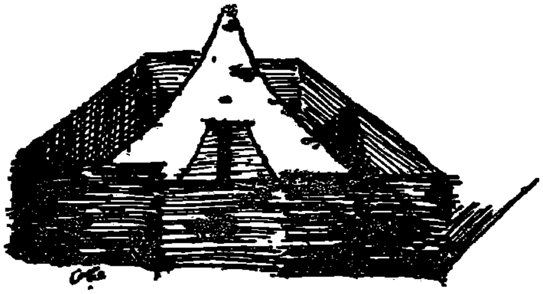

اقتلوا الجوع تقتلوا الحرب

(٢٤ ابريل سنة ١٩٣٩)

عالجت « الرسالة » فى بضع عشرة مقالة آلام الجوع وآثار الفقر وما ينجم عنهما من مآسى الحياة وكان فى ظننا يومئذ أن الناس متى هذبتهم المعرفة وصقلتهم المدنية يصبحون أعلم بحكمة الله، وأفهم لسياسة الدين، وأجدر أن يحكموا العقل والعدل فيما شجر بينهم على قسمة الدنيا وغلة الأرض؛ ولكننا تركنا الموضوع قانطين من رحمة القلوب، لأننا وجدنا غاية الأمر فيه لا تبعد عن البكاء والاستبكاء، ما دام الحكم لأيدى الأقوياء والتشريع لألسنة الأغنياء، والغلب والسبق للناب العضوض والجناح المحلق. وقلنا ونحن نمسح عن القلم سواد الحظوظ: لا يزال فى قدر الله أن يكابد بنو آدم عقابيل البهيمية الأولى، فيوطأ الوانى، ويسترق العانى، ويؤكل الضعيف، ويكون هنا الطمع والكزازة والأثرة، وهناك الحسد والحزازة والثورة، ثم لا يفصل بين الواجد والفاقد غير الحرب. فالحرب لا تنفك مشتعلة بين الفرد والفرد، وبين الأسرة والأسرة، وبين الأمة والأمة، بالقول أو بالفعل، وفى السر أو فى الجهر، حتى يتدارك الله عباده فيهيئ نفوسهم لفض هذه الخصومة، بغير هذه الحكومة

* * *

والخصومة الأبدية بين الناس هى المادة. والنكبة الأزلية على النظام والخلق هى الفقر وكل ثورة فى تاريخ الأمم، أو جريمة فى حياة الأفراد، إنما تمت بسبب قريب أو بعيد إلى الجوع حتى الشهوة شهوة الغرام

أو الانتقام لاتقع فى تاريخ الجناية إلا فى المحل الثانى بعد الجوع ، لأنها لاتـكون إلا عرضاً من أعراض الشبع من أجـل ذلك جاء دين الله يخفف عن الفقير بالإحسـان والعدل ، ويدفع عن الضعيف بالمودة والرحمة ولـكن عُرام النفوس كان أقوى من أن يرده الثواب المغّيب والعقاب المؤجـل فنبت على أمر الله ، وعللت نفسها بالنجاة من باب التوبة المفتوح ، ومن طريق المغفرة الواسع . ثم حاولت فلسفة الناس أن تجد سلام المجتمع فى أنظمة متناقضة يدفع بعضها فى صدر بعض ؛ فوقع العالم من جرّاء النزاع بين الفردية والاشترا كية ، والصراع بين الدكتاتورية والديمقراطية ، فى حرب عنيفة رعناء لاتأصرها آصرة ولا تدركها شفقة ، حتى أكلت من أمة الأسبان وحدها مليوناً وربعاً من شبابها الآمل العامل . ثم أخذت تخمد فى هذا الميدان الضيق المحدود لتستعر فى ميدان لاحد لعرضه ولا نهاية لطوله ، هو العالم !

* * *

أنيا يكن الغنى يكن السلام ما فى ذلك ريب ولاجدل ففى أمريكا وإنجلترا ، وفى فرنسا وسويسرا ، تجد الناس فى ظلال الأمن مقبلين على الإنتاج المثمر والاستهلاك المرفّه ، لا تكاد ترى بينهم عيناً تحسد ولا قلباً يحقـد ولا يداً تجترح

وفى ألمانيا وإيطاليا أصيب الناس بسعار من الجوع زاده طمع الطاغيتين (١) التهاباً واستكلاباً ، فانقلب إلى نوع من عبث نيرون أوانتقام شمشون أومقامرة اليائس الذى يضرب الضربة الحمقاء ليربح الـكل أويخسر الـكل !

فلو أن الله أتاح لأبناء برلين وروما من سعة الدنيا ونفاق التجارة ووفرة

(١) الطاغيتان هتلر . وموسولينى

المال ما أتاح لأبناء لندن وباريس ؛ ولو أن الله لم يبتل أبناء رومة و برلين بمن طحنهم بالعمل ، وعصرهم بالضرائب ، وقهرهم بالحرمان ، واتخذ من أجسادهم وأرواحهم واقواتهم مدافع تقذف بالنار ، وطوائر ترمى بالسم ، لما رأيتهم يكفرون بالانسانية ، و يتنكرون للمدنية ، و يفعلون فعل القوى المحتاج : تضطره الحاجة إلى السرقة ، وتدفعه القوة إلى القتل ؛ فهم يخرجون اليهود من ديارهم ليأخذوا المال ، ويحتلون الأمم بجيوشهم ليملكوا الأرض ، ويلقون الدول القوية فى بحران من القلق والفزع والذهول ، ليضعوا أيديهم الجارفة على أرزاق الدول الضعيفة

* * *

رأى خليفة ولسون[1] وهو فى دنياه الجديدة السعيدة أن الجوع الذى ولدته الحرب الكبرى فى قصر « فرساى » قد اشتد أسره ، وصلب عضله ، وفحش طوله ، وضخم بدانه ، حتى انشق إلى[2] تنينين فظيعين لكل منهما مليون رأس ومليون يد ، وفى كل رأس ناب يقطر السم الزعاف ، وفى كل يد مخلب يرسل الموت الوحى . فبعث إليهما برسالة من بقايا النبوة الأولى ، فيها الدعوة إلى الحق بالقول اللين كدعوة موسى التى لم تصب أذنا فى العالم

يطلب الرئيس رزفلت من الجوع المتجسد المتنمر أن يحبس لعابه المتحلب ، و يكفكف سعاره المضطرم ، ويقبض لسانه اللاهث ، ويتخذ هيئة الانسان ليلتقى بخصومه فى مؤتمر عام يجمع الغرب والشرق على المبادىء التى شرعها الله فكفروا بها ، والخطط التى نهجها المصلحون فحادوا عنها ؛ ثم يضعون لهذه

(١) المستر رزفلت رئيس الولايات المتحدة الأمريكية (٢) ألمانيا وإيطاليا ، أو النازية والفاشية

الدنيا المتدابرة المتناحرة سياسة جديدة تجعل أرض الله مضطرباً لكل كادح وخير الأرض مشاعاً لكل مستغل . ويومئذ يكون الفصل بين عالم عاش فيه الحيوان بغرائزه الوحشية ، يقوى فتنتشر مخالبه بين شعره المنفوش ، ويضعف فتنطوى تحت حريره الملفوف ، وبين عالم يعيش فيه الإنسان بطبائعه المدنية ، يعدل بين جنسه وغير جنسه ، ويحب لغيره ما يحب لنفسه ، ويطمس فى ذهنه حدود البيت والأسرة ، ومعالم الوطن والأمة ، ليصبح الناس كلهم أسرته ، والدنيا بأسرها وطنه

ويومئذ تستطيع الإنسانية أن تتبجح بميزة العقل والعلم ، وتقول لقافلتها الضاربة فى مجاهل الأبد وهى لا تملك مشاعرها من القلق والفرق :

لقد زال الطمع فزالت العداوة ، ومات الجوع فماتت الحرب

حزن المليك الطفل

(١٥ مايو سنة ١٩٣٩)

هـــذا اليوم هو الأربعون لمصرع الملك الشهيد غازى الأول. واليوم الأربعون هو فى عرف الناس أو الناسين آخر الخطوات فى تشييع الحى للميت ! فهل آن للجوانح الحرار أن تبرد على سلوان ابن فيصل ونسيان أبى فيصل ؟! كل حى إلى حين وكل ذكرى إلى نسيان . وكل أثر إلى طموس ولــكن أمثال غازى من ملوك الأرض وشباب الملوك وأزيان الشباب هم ملء السمع والبصر والقلب والتاريخ ، فلا يملك الدهر أن يمحو مالهم فى صحيفة الخلود من ذكر وأثر . وإذا استحال على الزمن أن ينسى دولة العراق ، استحال على العراق أن ينسى أسرة فيصل لأن أسرة فيصل هى الأساس المكين لبنيان العراق الحديث : قام على جهادها استقلاله ، وورفت على رِى دمائها ظلاله ، وسارت على نور هداها نهضته

* * *

كان الملك فيصل الأول برد الله بالرحمة ثراه ، مثال الرجولة العليا التى

يتيحها القدَر المديل لإحداث ثورة وإنشاء دولة و إقامة عرش . وكان هو وصحبه البهاليل من أبطال الثورة العربية رموز الحيوية الثائرة والخبرة القادرة والإرادة الحكيمة . جاهدوا حتى تحرر الوطن ، ونادوا حتى استيقظ المجد ، وأسسوا حتى بنى الشباب . ثم قضى وقضوا شهداء فى سبيل العراق الخالد ، ولا تزال أرواحهم الطاهرة تشرق في جوه ، ودماؤهم الزكية تعبق فى صعيده .

وكان الملك غازى الأول سقى الله بالرضوان ضريحه ، قائد الجيل الذى نشأ معه على قوادم الصقر القرشى الجبار ، فكان من طبعه الموروث — مهما يبطىء نمو الريش أو يرعد عليه الافق — أن يرتفع بشعبه الطموح الناهض . وكان بشبابه الفينان الواعد عنوان الأمل المعقود على فتوة العروبة فى توثيق العقدة وتحقيق الوحدة ثم كان بأريحيته العربيـة وسماحته الهاشمية نموذج الحكم الرضىّ الرفيق الذى تسود فى عهده الشورى ، ويخصب فى ظله الفكر ، وتعزُّ فى كنفه الديمقراطية . فلما صرعه القدر هذه الصرعة القاسية ارفض لهولها صبر الشباب والكهول من العرب ، لأنه كان فى رأى هؤلاء سر الماضي وذكرى يقظته ، وكان فى نظر أولئك رجاء المستقبل وروح نهضته

نعم كان فيصل الرجل ، وكان غازى الشاب ! وما آلم الإخبارَ بالكون الناقص عن الكون التام ! ولقد كان الظن بالأيام أن تُبقى على فرع الحسين النابت على دجلة حتى يستغيل ويتشعب ، ولكن أعاصير الخطوب كانت أقوى من منى القلوب وأصدق من أحاديث الأنفس ، فلم يبق من أرومة فيصل الحرة إلا غصنةٌ غضّة النبات تميل حزينة على الجذع المحطم ، كما تهوّم الزهرة الوحيدة على القبر الموحش !

* * *

وارحمتا للوليد المليك ! كان له بالأمس صديق لا يخلق الله من نوعه غير واحد لكل واحد وكان هذا الصديق يقبس نور عينه من نوره ، وسرور قلبه من سروره ، وغبطة حياته من غبطته ؛ ثم لا يرى وجوده كاملا إلا به ، ولا عيشه سعيداً إلا معه . فهما متلازمان كطيفى الجمال والحب ، يتجولان يداً فى يد بين رياض القصر ، أو يتنزهان جنباً إلى جنب فى أرباض المدينة ، ويوزعان هناك البسمات الحلوة والتحيات الطيبة على حواشى الطريق أو فى مماشى الحديقة ، ثم يعودان إلى الأسرة الملكية بالرخاء الطلق والأنس الشامل ، فتشرق غرفات القصر السعيد بسناً باهر من جلال الملك ، وجمال الطفولة ، وعطف الأبوة ، وحنان الأمومة ، وأمان القدرة ، وضمان الغد بالسطوة والثروة والولد !

وارحمتا للمليك الطفل ! أصبح اليوم وحيداً فى القصر المظلم والعراق الحزين كأنه بصّة الأمل فى القلب اليائس ، أو ومضة المنارة فى البحر المضطرب ! ينظر فلا يرى الوجه المتهلل الذى كان يهش له ، ويصغى فلا يسمع الصوت الحنون الذى كان يهتف به ، ويمشى فلا يجد اليد الرفيقة التى كانت تمسكه ، ويسأل فلا يجد اللسان الحلو الذى كان يجيبه ، ويجلس على المائدة فلا يرى الفم الباسم الذى كان ينادمه ؟

أين أبى ياأماه ؟ لقد خرج فى الصباح من غير أن يسلم على وليده ، ولم يعد فى المساء ليقبّل وجنة وحيده !

أين مَلكى ياخالاه ؟ لقد اختفت السيارة والموكب ، وذهب الأمناء والحرس ، وغاب الوزراء والقادة ! مالى لا أرى الناس إلا من وراء السواد ؟ وما لهم لا ينظرون إلىّ إلا من خلال الدموع ؟ فهل غيبة أبى هذه الفترة

القصيرة تجعل الناس غير الناس ، والدنيا غير الدنيا ؟

ثم وقف المليك ساهم الوجه حالم النظر ، يسأل فلا يجاب ، ويفكر فلا يدرك ، ويبحث فلا يجد ، وينتظر فلا يلقى ، حتى أعياه الأمر فاستسلم لشواغل الطفولة ، واستنام لوعود الحاشية ، وراح ينشد أنسه الوقتى فى صحبة خاله ، ريثما يعود إليه أنسه الدائم بعودة أبيه !

ولكن أربعين صباحاً وأربعين مساء مضت ثقيلة الأطراف موحشة العشايا مظلمة البُكَر ، والصديق لما يعدْ إلى الصديق ، والوالد لما يسألْ عن الولد ! واستيقظ فيصل الصغير الكبير من نومه القلق وحلمه المزعج ، فوجد ظهره يبهظه عبء فادح ، وجبينه يعلوه تاج ثقيل ، وأبصر حواليه فوجد مهده الذى كان ينام فيه قد عظم حتى عاد عرشاً ، وقصره الذى كان يلعب به قد اتسع حتى أصبح وطناً ، وأباه الذى كان ينتظره قد تعدد حتى صار أمة !

في يوم وليلة

(٢٢ مايو سنة ١٩٣٩)

في يوم وليلة رأينا مصر المبعوثة من مرقد الخلد تدخل في عهدها الجديد الجدى فتنهض بما توجبه الحياة الحرة من تكاليف الاستقلال وتبعات السيادة !

كان ذلك اليوم يوم الخميس الماضى ، وكانت تلك الليلة ليلة الثلاثاء قبله ! ففي هذا اليوم كان عرض القاهرة لجيشها الفتى في آلته الحديثة وعدته الكاملة! فخرج من عرائنه الشم والصباح الضاحى يتنفس بأريج مايو الجميل ، وسار في الشوارع الحاشدة يعرض على الأنظار الدهشة قوى الدفاع وأسلحة الأمن وما لابد منه لمن يعيش في زمن استذأب وضرى حتى أنكر حق الحياة على نوع الحمل

لم تكن المدافع القصيرة والطويلة ، ولا الدبابات الخفيفة والثقيلة ، هى التى ملكت الألباب وأثارت الإعجاب وفجرت الحماسة ؛ فإن منظر آلات الدمار والموت أصبح لطول ما ألفه الحس لاغرابة فيه ولا عجب منه ، وإنما الذى ملك الألباب حتى أذهل ، وأثار الإعجاب حتى أدهش ، وفجر الحماسة حتى أطغى ، هو منظر جنود مصر بشبابهم الفاره ، وخلقهم السوى ، وملامحهم الدالة ، ومظهرهم الأخاذ ، ونظامهم الرائع ، فكأنما هم جنود ابراهيم لم يلقوا السلاح منذ ارتد قائدهم عن الآستانة فأين كان مكمن هذه الروح الحربية القوية مدى حقبة من الرخاوة والكسل لو مرت على الضوارى لطمست في وجوهها معارف الجرأة ، وأماتت في نفوسها معانى الافتراس ؟ لقد كان لنا

قبل سبتمبر الماضى جيش من الأرقام متواضع العدد والعدة ، يعيش فى أكناف الشعب عيش الأمان والغفلة ، لا يعرف الحدود إلا على الورق ، ولا يشهد الحروب إلا فى السينما ، ولا يدرك معنى الدفاع عن النفس فى وجود انجلترا إلا كما تدركه الزوجة المرفهة فى وجود زوجها ، أو الولد المدلل فى حضرة أبيه ، فكيف انقلب هذا الجيش الصغير الغرير فى سبعة أشهر جيشاً من المرَدَة العتاة يقيم المعاقل على البحر ، وينحت الخنادق فى الصخر ، ويروض أوعار الأرض لأقدامه ، ويذلل أخطار السماء لقوادمه (١) ، ويضع الخطة فلا تخطىء ، ويسدد الرمية فلا تطيش ، ويقف جنبا إلى جنب مع الجيش البريطانى الذى قهر نابليون وهزم غليوم وغنم الدنيا ، فلا يفوقه فى نظام ، ولا يفوته فى سبق ، ولا يبذه فى مناورة ؟ ألسر هو فى معدن هذه الأرض التى جعلت للزمان تاريخا وللانسان مدنية . والسحر هو فى طبيعة هذا الفلاح الذى طبع آثاره على جباه القرون وسلطانه على قلوب الأمم وفرخ النسر لا يعَلَّم كيف يصيد ، وشبل الأسد لا يدرب كيف يفترس !

وفى تلك الليلة كانت تجربة الدفاع الجوى عن القاهرة ، ففى عتمة الليل والناس لاهون صاحت الأبواق المنذرة بالغارة فى كل حى ، فأطفئت الأنوار وأسدلت الأستار وخشعت الأصوات وسكنت الحركات ، وأقفرت الشوارع إلا من رجال الشرطة والمطافىء والإسعاف ، وجثم على صدر العاصمة كابوس من الرهبة والقلق ، فامتدت العيون خلسة من وراء السجوف ومن خلال النوافذ فلم تر إلا الظلام يموج والنجوم تضطرب ، والرقابة تحت الحنايا الآمنة تتهامس ، والمدافع فوق العمائر العالية ترتقب . ثم أقبلت من الحدود الغربية النسور المغيرة

---

(١) القوادم : كبار الريش فى مقدم الجناح ، والمراد بها طائرات القتال

فرَّقت فى جو المحروسة على علو لا يرى ولا يسمع ؛ ولكن آلات الرصد نبهت الكشافة فأرسلت على أطباق الجو الحالك أفواجاً من الأشعة الكاشفة ، تتطاول وتتعارض ، وتتعانق وتتشابك ، حتى لم تدع طائراً يطير إلا صورته فى عدسة مدفع ، وفى آخر الهزيع الأول من الليل أعلنت الأبواق بأصواتها المتصلة انقطاع الغارة ، فأشرقت المدينة ، واستأنف الناس حياة اللهو والأنس وهم يشعرون أنهم أصبحوا خلقاً كسائر الخلق ، لهم قوة لا تُزدرَى وكرامة لا تمتهن وحمى لا يستباح .

فى هذه الليلة وفى ذلك اليوم أدركنا أن مصر الناهضة قد بلغت سن التكليف وجاوزت حد العبث ، فهى تستعد للحرب وللسلام ، وتبنى بالفعل لا بالكلام ، وتقدم إلى ساحة الدفاع المقدس شيوخ دينها وشباب دنياها ، وهى راضية بهذا البذل فخورة بهذه التضحية والفضل كله للأحداث التى تذيب الغش وتفضح الزيف وتمحص الكفاية .

* * *

لا جرم أنا كسبنا مغانم الحرب وإن لم تكن حرب لأننا بما عملنا أوجدنا شيئاً لا بد من إيجاده ، وبما بذلنا سددنا عوزاً لا مناص من سداده . أما الدول الأخرى فدفاعها مكين الأساس مرفوع القواعد منيف الذرى ، فكل ما تنفقه عليه يضطرها الخوف إليه لتأمن الفشل وتضمن العاقبة .

ماذا كنا قبل أن ينتشر الجراد الرومى [١] المسلح عَلَى حدودنا المهملة ؟ كنا قوماً من سادة الماشية وعبيد الأرض تركوا أزمتهم للقدر وثروتهم للغريب وحمايتهم للحليف ، ثم أقبل بعضهم على بعض يتنافسون فى الهزل من غير

---

(١) الجيش الايطالى

غرض ، ويتراشقون بالتهم من غير بينة ، ويتسابقون إلى الحكم من غير غاية . فلما أينع الحصاد وأزَّ فى الأفق الجراد ، وزأر بالوعيد الطغاة ، تيقظت مصر الصادقة الحرة على ضفاف النهر وأحقاف الرمل ورياض الريف ، ثم وقفت فى شِكَّتها(١) الكاملة موقف الواثق الحذر وهى تنظر إلى الشفق الدامى فى وجه الغرب ، وتقول للطامع الساعى لإثارة الحرب : حذار ! فإن على عرشى رجلا كان وريث عمرو ، لا امرأة(٢) كانت صديقة قيصر !

(١) الشكة . السلاح . (٢) المراد بالمرأة . كليوبطرة

فلاحون وأمراء!

(٥ يونية سنة ١٩٣٩)

جلست كعادتى فى عصر كل سبت أفكر فى موضوعى الأسبوعى للرسالة، فتردد على خاطرى المكدود معان شتى من وحى الساعة وحديث الناس وحوازّ[١] القلوب، كمأساة (حلحول) فى فلسطين، وصلة الجديد بالقديم فى الأدب، فكنت أذودها بالفتور والإهمال، لأن معنى من المعانى القوية كان قد استبد بذهنى منذ الصباح، فهو يراوده ويعاوده ويلح عليه حتى لم يكن من الكتابة فيه بُد. ذلك بيان النبيل عمرو ابراهيم رئيس نادى الفروسية الذى بعث به إلى الأهرام وطلب إليها أن تنشره (كاملا) فى عدد اليوم. والذى استفزنى من هذا البيان لهجته الأميرية المنتفخة فى الرد على رئيس الوزراء، والطعن فى بعض الكبراء، والدفاع الظنين عن نظام الطبقات، والتفسير المجازف لكلمتى الفلاح والديمقراطية، والتلميح المختزل إلى الساميّة والطورانية، فإن هذه مسائل دقيقة ما كان للنبيل أن يعرض لها بهذا الاستكبار، فى بيان دفاعىّ لا يجوز أن يخرج فيه عن التنصل أو الاعتذار!

لست والحمد لله من طبقة أولئك النادين إلى هذه (الكلْبيات) التى تتضاءل فيها الديمقراطية بين أرستقراطية الدم أو المال أو المنصب، فلا أزعم أنى سمعت الأشـــداق الملوية تأمر، ورأيت الأنوف الوارمة تمتعض، ولكنى قرأت كما قرأ الناس ثورة رئيس الشيوخ

---

(١) حواز القلوب: جمع حازة، وهى الامور التى تقطع القلوب وتؤثر فيها.

وزارة[1] رئيس الحكومة ، فعلت والأسى يحز فى الصدر أن بعض الذين جعلناهم أمراء ونبلاء لا يزالون على عقلية ذلك التركى الفقير الذى كان يقرع الأبواب مستجدياً فإذا أجابه المجيب الفزع قال له فى عنف وصلف وأنفة : « هات صدقة لسيدك محمد أغا » . ولا أدرى ما الذى سوغ لهم أن يعتقدوا أن الله خلقهم من المسك للملك ، وخلقنا من الطين للطين ، وجعلهم للثروة والسيادة ، وجعلنا للخدمة والعبادة ؟ إن كانوا مسلمين فالإسلام قد محا الفروق بين الطبقات إلا البرّ والتقوى : فالعرب والعجم سواء ، وقريش وباهلة أكفاء[2] . وإن كانوا وطنيين فالوطن لا يعرف التفاضل بين أبنائه إلا بأثرهم فى تقويته وترقيته وخدمته ؛ فالفلاحون على درجته العليا لأنهم عماد ثروته وعدة دفاعه وقوة سلطانه ؛ والأمراء على درجته السفلى ، لأنهم فيه معنى السرف الذى يفقره والترف الذى يوهن ، والبطالة التى تميت ! وبين هاتين الدرجتين تتفاوت مواقف الوزراء والزعماء والكبراء على حسب ما لكل منهم عليه من فضل .

* * *

لا ياسيدى النبيل ! ليس نظام الطبقات هو القائم فى مصر وأوربا كما تقول ، فإن جعلك نفسك ونظراءك طبقة متميزة لها حدودها الأربعة وجهاتها الست لا يجعل نظام الطبقات حقيقة واقعة . إن مصر كلها من أعلى شلالها إلى

---

(١) قال الرئيس النبيل بالحق محمد محمود باشا وقد علم أن « نادى الفروسية » يتعاظم على سراة المصريين ويتصاونون من عضويتهم فيه لأنهم (فلاحون) : « إن حكومة جلالة الملك لا يمكن أن تسمح باعادة نظام الطبقات . نحن هنا فى بلد ديمقراطى ، وكل المصريين سواء ، وجلالة الملك يضرب كل يوم أعظم الأمثال فى ديمقراطيته ومصريته . أنا فلاح وابن فلاح ، وأفخر بأن أكون كذلك . والفلاح هو عماد هذه البلاد وفخرها . وإذا كان بين أعضاء (نادى الفروسية) من لا يعجبه هذا الكلام فليرحل عن بلاد الفلاحين ! »

(٢) باهلة : قبيلة عربية توصف باللؤم والحقارة

أسفل دالها[1] طبقة واحدة ، فيها الغنى والفقير ، والمالك والأجير ، والصحيح والمريض ، والعالم والجاهل ، فهل نجعل كل حال من هذه الحالات طبقة ؟ وهل تستطيع أن تعين لى الفرق بين طبقتك المرفوعة وطبقتنا الموضوعة إذا كان الدستور الذى تخضع له الطبقتان يستطيع أن يجعل ابن الخادم الذى ينظف لك الحذاء جليسك ورئيسك ؟ لقد كان امتياز طبقتك على طبقتنا أنك تمسك (الكرباج)ونحن نمسك الفأس ، وتأكل الذهب ونحن نأكل التراب ، وتعبد الشيطان ونحن نعبد الله ، وتتكلم التركية ونحن نتكلم العربية ، فلما قيض الله لمصر العظيمة فؤاداً العظيم فتزوج منا وحكم بنا وسعى لنا ، شعرنا بأن العرش مستقر على كواهلنا ، والعلم يخفق على معاقلنا ، والسلام[2] يتردد فى شعورنا ، والحكومة تقوم بأمرنا ، والنيل يجرى بخيرنا ، ورأينا كم حين أخذكم — رضوان الله عليه — بأدب الإسلام والشرق لذتم بأطراف الغربة ، وقبعتم فى زوايا العزلة ، وكنتم من مصر وثروتها مكان البانوعة تطفح بعرق الفلاح ودمه لتصب فى مناقع البلدان الغربية !

* * *

لا ياسيدى النبيل ! ليس المصريون فى الجنسية والوطنية بمنزلة سواء ، فان منهم من تمصر بالقانون لا بالأصالة ، وتوطن للمنفعة لا للعاطفة وكيف يستوى فى ميزان الوطنية من يقف على مصر يده وقلبه وكسبه ودمه ، ومن لا يعرفها إلا معرفة الغرماء ، ولا يعيش فيها إلا أشهر الشتاء ، ولا يعنيه من أمورها إلا خفض أجرة العامل ورفع سعر القطن !

---

(١) الدال : دلتا النيل (٢) السلام هو النشيد الوطنى .

كذلك ليس من خالص الحق قولك : « إن حق الشخص فى الانتساب إلى أمة إنما ينالة بما يؤديه إلى وطنه من الخدمات ، سواء أكان ذلك بنفسه أو بأفراد أسرته من آبائه وأعمامه وأبناء أعمامه وأجداده وأجداد أجداده » فإن أموال أبيك لك ، ولكن أمجاده له . والوطنى الصميم هو الذى يرفع ما بنى أبوه ، ويتمم ما بدأ جده . ولا ينفع المرء عند الوطن أن أباه وطنى وهو خائن ، ولا عند الله أن أباه مسلم وهو ملحد !

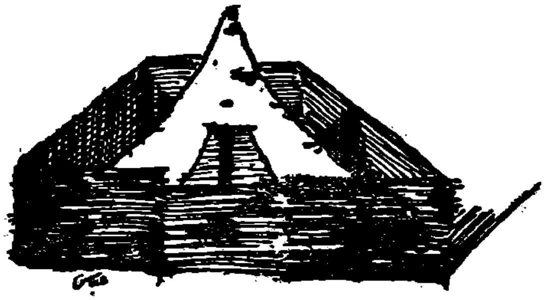

هل لأغنيائنا وطن؟

(١٢ يونية سنة ١٩٣٩)

من أنباء البرق الأخيرة أن اللورد (نفيلد) صاحب مصانع سيارات (موريس) الانجليزية قد تبرع للدفاع الوطني البريطاني بمليون ونصف مليون من الجنيهات ، ووضع مصانعه الكبرى تحت تصرف وزارة الدفاع ، فبلغت بذلك جملة هباته للوطن في مدى عشر سنوات خمسة عشر مليوناً ونصف مليون من الجنيهات على رواية (الصنداى إكسبرس) . فإذا قرأت هذا وتذكرت ما تبرع به السادة زخاروف وأفيروف وكوتسكا وأنطونيادس للجيش اليوناني وهم من رجال الأموال والأعمال في مصر لا يسعك إلا أن تسأل كما أسأل هل لأغنيائنا وطن ؟

الواقع الذي لامراء فيه أن ليس لأغنيائنا وطن ؛ إنما لهم قصور لإتلاف النعمة ، ومزارع لعصر الفلاح ، وبِرك لصيد البط ، وميادين لسباق الخيل ، وأندية لقتل الوقت ، ومنازه لإظهار الأبهة ، وماعدا ذلك من أرض الوطن ومعنى الوطن فهم لايعرفونه ولا يفقهونه !

هل سمعت أن غنياً من الأغنياء أو أميرا من الأمراء قال إن له وطناً فتبرع له بطائرة في الجيش ، أو بجائزة في المعارف ، أو بكرسي في الجامعة ، أو بمستشفى في الصحة ، أو بملجأ في الأوقاف ؟

لا تقل في تعليل هذه الفردية الشحيحة إن أغنياءنا جهلاء العقل ، وأمراءنا غرباء العاطفة ، فإن الوطنية عصبية طبيعية تقتضيها سنة الحياة فتكون في رجل الفطرة تعصباً للأسرة ، وفي رجل البداوة تعصباً للقبيلة ، وفي رجل

الحضارة تعصباً للأمة ، وفى رجل الإنسانية تعصباً للعالم .

ولئن سألتنى عن تعليل ضعف الوطنية فى هؤلاء الناس لأقولن لك إنى عنه عاجز ، فإنهم لا يزالون يشعرون بها شعور الفطرة الضيقة المحدودة . ومن الصعب على العقل أن يتصور أن أصحاب السمو وأصحاب المجد وأصحاب السعادة لا يجدون فى أنفسهم من الحب لمصر الحبيبة الخصيبة ، ما يجده الإنسان الفطرى للغابة السليبة والبادية الجديبة !

* * *

يكاد النيل يعتقد أن أكثر الأجانب الذين يعيشون فيه ، هم خير له من أكثر الأغنياء الذين يعيشون عليه ! لأن أولئك يعاملونه معاملة الراعى الذى يحلب ويرعى ، وهؤلاء يعاملونه معاملة العلق الذى يمتص ويهمل ، فأينما رأى التجارة والعمارة والإنتاج رأى ضيوفه ، وحيثما رأى الإسراف والإتلاف والتبطل رأى أهله !

ليتنى أدرى ماذا يقول الغنى الأصيل إذا نافره الأجنبى الدخيل أمام قدس الوطن ؟ أيقول له . هذه رءوس أموالى تنشىء الشركات وتقيم المصانع وتنمى الثروة ؟ أم يقول له هذه (مشروعات) أعمالى تقر الأمن وتحيي البلاد وتقتل البطالة ؟ أم يقول له هذه ثمار إفضالى تعزز الدفاع وتشجع الإبداع وتنشر الثقافة ؟ الله أعلم يومئذ أيهما يقول ذلك وغير ذلك ، وأيهما يقف ناكس الرأس خاشع الطرف عىّ اللسان ، لا يجرى على باله إلا أنماط الثياب وسلائل الكلاب وفضائل الخيل وطُرُز السيارات وأندية القمار وحسان هوليود !

يظهر أن التفدية والتضحية والخدمة العامة إنما تكون أثراً لقوة الروح وصحة الخلق ، فإن أول من تطوع للجهاد شباب الأمة ، وأول من تبرع للدفاع

برحال الدين ، فالحيلة فى أغنيائنا إذن هى حيلة الله هو وحده الذى يملك أن يجبل فى النفوس عبادة المال عبادةً للوطن ، ويجعل فى القلوب محبة النفس محبةً للناس

* * *

يا أغنياءنا إنما نريد أن نحبكم فساعدونا على خلق هذا الحب . إن ديننا ينهانا أن ننفس عليكم نعمة الله . وإن وطننا يمنعنا أن نضن عليكم بأخوة الوطن ، ولكن العقيدة والوطنية اللتين تحببانكم إلينا ، هما كذلك اللتان تغضباننا عليكم ! لأن الأمة تريد أن تقوى فى نفوسكم قوتها ، وتبغى أن تعتز فى رءوسكم نخوتها ، وتحاول أن تدافع وفى أيديكم ثروتها ، فحرمتموها كل ذلك ووضعتموه فى غير موضعه ، وأضعتموه فى غير سبيله ، ثم مكنتم للجهل والفقر والمرض أن تدهمها من كل جانب ، فقعد القوى لجهله عن السعى ، وفتر العالم لفقره عن البحث ، وعجز الضعيف لمرضه عن الإنتاج

* * *

يا أغنياءنا — والناس أجمعون يعرفون من أعنى — لقد جربتم بذل المال فى اللهو ، وقتل العمر فى العبث ، وفقد الصحة فى المجون ، فهل كسبتم من وراء ذلك مجداً أو وجدتم فى عواقبه سعادة ؟ جربوا ولو مرة واحدة على سبيل التسلية أن تمسحوا دمعة على خد حزين ، أو تنفسوا كربة عن قلب بائس ، أو تسهلوا طلب العلم لفقير ، أو تمهدوا سبيل العمل لمتعطل ، أو تشاركوا أبناء الشعب فى منفعة عامة ؛ ثم انظروا بعد ذلك كيف يشيع فى صدوركم الرخاء ، ويرتفع بقلوبكم الإخاء ، وتنعم نفوسكم فى الحياتين بين عاجل المجد وآجل الخلود . ثم وازنوا بين متعة الجسم ولذة الروح ، تجدوا أن الأولى تنقضى بالملل والعلل

والجريمة ، والأخرى تدوم بدوام الروح فى الأرض وتخلد بخلودها فى السماء

* * *

يا أغنياءنا — والله هو الغنى الحميد — لقد بح الصوت وحفى القلم وأنتم فى نشوة البطر وغفوة النعيم لا تسمعون ولا تقرأون ! فهل تظنون أننا بما نقول ونكتب نريد أن نخرجكم من متاعكم ، أو نحولكم عن طباعكم ؟ لا يا سادة ! إن ذلك عمل الله وحده ؛ أما عملنا فأن نذكركم كلما نسيتم أن لكم مواهب تهملونها وللوطن فى استغلالها نصيب ، وأن لديكم أموالاً تبذرونها ولله فى ريعها حق ؛ وأن ننبهكم كلما غفلتم إلى أن هزل الحياة لا ينفع فى جد الموت ، وأن ملك الدنيا لا يغنى عن ملك الآخرة !

من صور الماضى

(١٩ يونيه سنة ١٩١٩)

كان الفلاح فى القرن الماضى يكابد صنفاً من الخلق صورهم الله على مثال عجيب من خفة الصقور وفتكة النمور وهيئة الناس ليكونوا مذكرين بجبروته ومنذرين بعذابه ! كانوا من الأرناءود أو الجركس ، وكان عملهم جباية الضرائب على كل شىء ، ومن كل شخص ، وفى كل وقت ، وبكل صورة ، أو اقتحام الدور للبحث عن المحظور أو المحكور من الملح والصابون إذا اقتناها أحد من غير طريق الحكومة وكان سبيلهم إلى ذلك الإرهاب والعنف فمتى دخل أحدهم قرية من القرى دخلها الفزع والروع فلا يملك السائر أن يتقدم ، ولا الواقف أن يتكلم ، ولا الداخل أن يخرج ثم تخشع فى القريه الحياة فلا تسمع حساً ولا حركة إلا هرير الكلاب وقوقأة الدجاج وصراخ الصبية ! فإذا خرج منها (الجندى) كما كانوا يسمونه انطلقت من ورائه ضجة شديدة فى البلد من بكاء المضروب وصراخ المنهوب ودعاء المضطرب .

فلما انتظمت أداة الحكومة بعد الثورة العرابية انكمش هذا النوع حتى انحصر رهبوته فى ضياع الأمراء و « جفالك » السادة وكانت قريتنا وسبع قرى أخرى متجاورة قطائع لعلى باشا شريف فى أواخر القرن الماضى وكانت الإمارة والإدارة فيها لهؤلاء الأرناءود أو (الأرنطة) كما كنا نقول ، ففرضوا عليها نظاماً فى العيش أخذوه عن حياة الحيوان وعيشة العبد فكان الناس ، كما يحدثنا الباقون منهم ، لا يملكون مالا ولا حرية ولا حياة ، وإنما كانوا يعملون بالتعذيب ويغلون بالكره ، كما تعمل الماشية بلسعات السوط وهى صابرة ،

وتغل الأرض بضربات الفأس وهى صامتة . وكان لفظ (المأمور) معناه الموت الذى لا عاصم منه ولا مهرب ؛ ذلك أنه كان يخرج كل يوم على جواده إلى الحقول شاكى السلاح ، كاشر الوجه ، منفوخ اللغاديد ، مفتول الشارب ، متوقد النظر ، كأنه تمثال الرعب أو صورة الهولة ! ثم يسير متلفتاً ذات اليمين وذات الشمال لا ليتفقد العمال و يتعهـــد الزراعة ، ولـكن ليبحث عن إنسان يعذبه ، أو حيوان يضربه . والناس قد تعودوا منه ذلك فهم لا ينفـكون طول اليوم يرقبون ناحيته و يرصدون طريقه ، حتى إذا أبصروه من بعيد غابوا فى مخابىء الأرض كأنهم لم يكونوا ! فإذا عاد من طوافه خائب السوط جلس أمام الدوار وأمر أن ترش الأرض وأن يلقى فى وحلها من جاءه فى طلب حاجة أو رفع مظلمة ! ثم يصيح بالجلاد أن ينهال عليه بالـكرباج ، وهو فى خلال ذلك يميد من الغضب و يبربر من الغيظ حتى تهدأ ثورته وترضى كبرياؤه بعد لأى ! وكان العمد والمشايخ منوطين به فلا يسمعون الأمر والنهى إلا منــــه ، ولا يرفعون مشكلات القرى وقضاياها إلا إليـه لذلك ظل أهلوها يجهلون أن لهم خديوياً غير على شريف ، (ونظاراً) غير نظار الزراعة ، و (مأموراً) غير مأمور التفتيش وكان هذا (الحاكم) كسائر بنى جنسه مغلق الذهن مطبق الجهالة ، يجهل الزراعة ولـكنه يأمر ، ولا يعلم القضية ولـكنه يحكم ، والجانى المحـكوم عليه هو الذى جرؤ على أن يعقب أو يعارض . وكان سادته لا يفوقونه فى الذكاء ولا فى الرحمة ، فـكانوا إذا زاروا هذه القرى — وقليلا ما كانوا يزورون — تنـكبوا بنادقهم وخرجوا يقتلون الوز فى البرك ، والحمام فى الأجران ، والـكلاب على التلول ، والغربان على الشجر ، و يراهم الناس فيرنون إليهم دهشين من طرابيشهم الحمر على وجوههم البيض ، و يظنون أن وراء هذا الرواء جمال القلب وكرم النفس ، فإذا دنوا منهم يسألونهم الإحسان والعدل زمُّوا بأنوفهم ومضوا مستكبرين لا ينظرون ولا يجيبون !

أذكر وأنا صبي دون اليفاعة أن الناس كانوا يتحدثون عن جبار من هـذا الطراز اسمه (زينل) كانوا يتحدثون عنه كما يتحدثون عن البلاء ، ويؤرخون بعهده كما يؤرخون بالوباء ، لأنه أذل الفلاحين بالخوف والجوع ، وأضاع شبابهم بين التربة والغربة ولا تزال الألسنة هنا وهناك تتناقل هذه المأساة من مآسيه :

يقولون إنه كان فى قرية من هذه القرى شاب لم تلد نساؤها أجمل منـه وجهاً ولا أشجع قلباً ولا أرق عاطفة . وكان هذا الشاب بحكم شبابه وجماله وكرمه حبيباً لـكل فتاة وصديقاً لـكل فتى ، ولـكنه كان كلفا بينت عمه ، فهي وحدها حافز عمله وغاية أمله وروح حياته .

وفى ذات عشية عن عشايا الصيف كان على وليلى عائدين من الحقل وهما ينسمان بالحب الخالص ، ويبسمان للغد المرجو ، فغلبت على العاشق نشوة الطرب من جلال الطبيعة وجمال الفتاة ، فقال وهو يقدم إليهـا آخر قطعة بقيت فى يده من الحلاوة الطحينية :

— ألا تشتهين شيئاً فى الدنيا غير الحلاوة ياليلى ؟

فقالت له ليلى بعد لحظة من الصمت الحالم :

— لا أشتهى بعد قربك يا على إلا عنقوداً من العنب ؟

عنقود من العنب ؟ إن الثريا أقرب إلى يديه من هذا العنقود ؟ وهل رأى فى دنياه العنب إلا فى حديقة (التفتيش) ؟ وماذا يصنع والدنو من سياجهـا هلاك محقق ؟ ولـكن الحب لا يدرك البعيد ولا يعرف المستحيل فـكمن علىٌّ بعد رجوعه من الغيط فى كومة من دريس (الوسية) حتى جنه الليل فقـام يتسلق السور من جانبه المظلم فلما بلغ أعلاه سقط فى الحديقة فـكانت سقطته فى يد الحارس !

وبات فى سجن الدوار   وأصبح الصباح فجلس المأمور والمعاونون والنظار ورشت الأرض وطُرح الجانى ، وتعاقبت على جسده المعرّى عذبات الكرابيج والناس من حوله يضجون بالبكاء ، ويضرعون بالرجاء ، و (الأغوات) يتلذذون برؤية الدماء المنزوفة والدموع المذروفة ، ويطربون لسماع الأنات الضارعة والصرخات المتصلة ، حتى كلت يد الضارب وخفت صوت المضروب ، فحملوه إلى السجن . وشفع العمدة لأهله أن يأخذوه ، فلما دخلوا عليه لم يجدوا فيه وا أسفاه إلا حُشاشة نفس لفظها على صدر حبيبته أثناء الطريق .

تكاليف الاستقلال

(٢٦ يونية ١٩٣٩)

وهل تكاليف الاستقلال ، إلا ضرائب الدماء والأموال ؟

لقد كنا قبل أن نبلغ رشدنا الدولى نعيش فى كنف الحكومة وحمى الاحتلال ، كما يعيش النشأ الأغرار فى ظلال الأبوين ورعاية الأسرة ! تنفق علينا الحكومة ولا نعلم من أين تكسب ، وتدفع عنا الحليفة ولا ندرى بماذا تضرب . وكنا نسمع بما تجود به الأمم لأوطانها من الأموال والأعمار والأنفس ، ونرى ما نحن فيه من البال الفارغ والعيش الأبله ، فنحسب أن حياتنا هى الحياة وغبطتنا هى الغبطة . ولكننا كنا نرى من الجهات الأخرى أن عزتنا وقوتنا لا تقاس على عزات هذه الأمم وقواها ، فهى فى أوطانها حرة الإرادة مطلقة السيادة ، وفى العالم مرفوعة الرأس مسموعة الكلمة ؛ ونحن فى وطننا قطيع يُسام ويسمَّن ، وفى العالم سلعة تُساوم وتثمَّن ، فلا نشعر هنا كما يشعر الناس هناك أننا نحن الوطن والثروة ، والحكومة والسطوة ، والدولة والسلطان . فلما بلغنا التكليف وأدركنا الاستقلال وملكنا زمام الأمر ، أصبحنا فإذا أخطار المجد تحوم على كل نفس ، وأثقال الدفاع تنحط على كل كاهل : فالضرائب تجبى من المال ، والكتائب تجمع من الدم ، والتضامن الدولى العام يقتضينا المساهمة فى حفظ السلام وإقرار العدل بالمعاهدات الدفاعية والمواثيق الاقتصادية ؛ وفى سبيل ذلك تستعد كل نفس للموت ويتهيأ كل شىء للبذل . ومن أجل ذلك يجب أن يكون صوتنا هو الأرفع فى السياسة ، ورأينا هو الأعلى فى الحكم .

نحن الذين ننفق فلا بد أن يكون لنا الحساب ؛ ونحن الذين نموت فيجب أن يكون فى أيدينا الأمر !

* * *

ما كنا قبل اليوم نشعر هذا الشعور ولا نفهم هذا الفهم والفضل فى هذا الوعى وفى هذه اليقظة يكاد يرجع إلى ضريبة الدمغة من دون الضرائب فإن ضرائب العقار والدخل والإنتاج إنما هى ضرائب خاصة ، تجبى من قوم دون قوم ، وفى وقت بعد وقت ؛ فالشعور بوجودها محدود ، والتفكير فى أمرها مؤقت . أما ضريبة الدمغة فهى ضريبة عامة ، تجبى من أى إنسان فى أى زمان مادام له عمل أو حاجة فهى لذلك لا تنفك تشعرك وتشعرنى أننا ننفق على الحكومة ؛ فرؤساؤها وكلاؤنا ، وموظفوها أجراؤنا ، وأموالها أموالنا ؛ فنحن جديرون أن نراقب الوكيل ، ونحاسب الموظف ، ونرعى الخزانة . ونحن خليقون أن نقول للوزير : إن جهدك للدولة فلا تبذله على هواك الفرد ؛ وللموظف إن وقتك للأمة فلا تشغله بعملك الخاص ؛ وللنائب : إن رأيك للناس فلا تصرفه إلى متاعك الباطل .

لقد كنا ندرك معنى الوطن إدراك الشيوع والإبهام والغفلة ، فلا نكاد ندرى ما يقدّم إلينا وما نقدم إليه فالترع تشق ، والطرق تُنهج ، والجسور تقام ، والعمارة تمتد ، والثقافة تنتشر ، والأمن يستقر ، والحضارة تزدهر ، ونحن نستمتع بذلك كله استمتاع الغريب لا نجد فيه ريح الفخر ولا روح المجد ، كأن غيرنا هو الذى قام به وأنفق عليه ! ولو أن عابثاً عبث به ، أو عائثاً عاث فيه ، لما ألقينا بالنا إلا لخبر السرقة أو الخيانة أو المحاباة ، نرويه كما نروى أخبار

البرق للتفريج والتفكهة فى حديث القهوة أو سمر البيت وتلك حال كانت أشبه بحال الأمير أو الغنى الذى أوتى الملك عفواً من غير حيلة ، واستولى على ريعه صفواً من غير كلفة ، فشعوره به شعور بأثره لا بعينه ، وحرصه عليه حرص على ثمره لا على شجره . أما لذة الملك فى ذاته فلا يستشعرها إلا المالك الذى اشتراه بجده ، والفلاح الذى استغله بعرقه

كذلك كنا نفهم معنى الوطن قبل أن نفهم معانى الاستقلال والسيادة والعزة فلما فهمناها وفهمنا لوازمها من الإخلاص والإيثار والتضحية ، أصبحنا نعتقد أن كل قوة هى من قوات الوطن العامة ، وأن كل ثروة هى من ثرواته المشتركة فالقادر لا ينبغى أن يعطل قوته لأنه حر ، والغنى لا يجوز أن يبدد ثروته لأنه مالك

إن للوطن حقاً معلوماً فى أملاك المواطن وملكاته وإن للوطن حقاً مشاعاً فى أمجاد الوطن وخيراته : فأنا من حقى أن أقول للأمير الذى يهلك ثروتنا وسمعتنا على الفتون والمجون ؛ وللغنى الذى يخمد نهضتنا وحيويتنا بالكزازة واللؤم ؛ وللأديب الذى يزيف أدبنا وتاريخنا باللغو والباطل؛ وللوزير الذى يوزع المناصب بالهوى ويقسم الأرزاق بالمحاباة ؛ وللموظف الذى يتصرف فى أشياء الدولة تصرف المالك ، فسياراتها فى جراجه ، وسعاتها على بابه ، وأموالها فى جيبه ؛ وللعضو البرلمانى الذى لا يدخل أحد المجلسين إلا ليقبض مكافأته أو يلقى أصحابه أو يتلقى بريده ؛ من حقى وحقك أن نقول لهؤلاء جميعاً على التوالى : إنكم علقٌ تعيشون على دماء الناس ، وأنكاد تتلذذون بكفران النعم ، وأقدام تتطفلون على موائد العلم ، وأوغاد تدلسون الحكم على

الوطن ، ولصوص تعيث أيديكم فى مال الأمة ، وعيال تبهظ أثقالكم عاتق الفقير ؛ فحياتكم على الأرض غرور ولهو ، ونسبتكم إلى الوطن زور وباطل .

* * *

ذلك ما يحق لكل مصرى أن يكرر قوله . وذلك مايجب على كل مصرى أن يتقى سماعه . ولا خوف علينا بعد اليوم من غفوة العيون وغفلة البصائر ؛ فإن كل طابع نشتريه من طوابع الدمغة منبه عنيف الحركة فى اليد شديد الصوت فى الأذن ، وإنما الخوف كل الخوف على زعيم الأمة إذا ضل ، وعلى أمين الخزانة إذا أسرف !

من هذيان الحر

عابر .. وعابر

(٣ يوليه سنة ١٩٣٩)

نحن يا صديقي القارىء من سموم تموز على حالٍ سواء : أنا لا أحسن الكتابة وأنت لا تحسن القراءة ، فتعال أهذِ أنا وتسمع أنت ؛ فإن الهذيان في الحر كالهذيان في الحمى ، تنفيسٌ عن الروح المكروب ، وتخفيف عن الدم الفائر . والهذيان كلام كفورة الإناء ليس له نظام ولا فيه عقل ، ولكنه ككلام النائم لا تغلب فيه جملة على جملة ، ولا تظهر به صورة دون صورة ، إلا لأن لها في العقل الباطن أثراً وبالروح اليقظان صلة . ولعلك واجد في لواغي المحموم والملموم والنشوان والنائم من ومضات الحق مالا تجده في بعض الكلام . ولقد كان في قرى الريف جماعة من الممسوسين المستهامين يعتقد الناس أن وسوستهم من كشف الغيب وإنذار القدر . وربما أصابوا في لحونهم توجيهاً إلى منفعة أو تنبيهاً إلى مضرّة !

* * *

يقولون : في شهر تموز ، يغلي الماء في الكوز ، ويجرى الشر على البوز[1] أفول صم الفوهرر أن يفتح في (دانزيج) طاقة من جهنم تجعل البحر حميماً[2] على كل مستحم ، والجبل جحيما على كل مصطاف ؟ ماضر هتلر أن يمهل الأغنياء المدللين حتى يبذروا الذهب في مدن المياه ، كما أمهل الفقراء المساكين

---

(١) البوز في لغة العامة : الفم .

(٢) الحميم : الماء الحار.

حتى حصدوا الحنطة فى قرى اليابسة ! ماذا يصنع ذلك الأمير أو ذلك الكبير الذى وقف دخل العام كله على هذا الشهر ، فقسم أمواله بين موائده الخضر فى كل ساحل ، وفرق آماله على مواخيره الحمر فى كل حضيض ؟ أيجوز أن يحرمه هتلر غدوات القمار وأصائل الغزل وأماسى الرقص وأسحار الفتون ، لأنه يريد أن يتسع وطنه ويرتفع شعبه وينتشر سلطانه ؟ هل هانت الأرستقراطية على الناس إلى هذا الحد ! ؟

لو كنت ذلك الأمير أو ذلك الكبير لصحت ملء فمى : لعن الله الديمقراطية والدكتاتورية ! فإنهما منذ رفعتا كلمة الشعوب فوق إرادة السادة ، ونقلتا سلطان الملوك إلى الساسة والقادة ، هوت الأرستقراطية إلى الدرك الأسفل من بناء المجتمع ، وأصبح أهلها كدُمى الأثاث توضع للزينة ، أو كذلاذل الثياب ترسل للحلية ، لقد كانت الحرب فى عهد العزة الارستقراطية لا تقوم بين إمارتين أو مملكتين إلا لأن الأمير أو السيد أراد أن يصيد فصُد عن الأرض ، أو يخادن فدُفع عن المرأة ، أو ينفق فعجز عن المال ؛ أما اليوم فمن مهازل الدهر أن تشب الحرب بين دولتين أو قارتين لأن عاملا فقيراً أراد ليده عملا فلم ينل ، أو تاجراً حقيراً طلب لبضاعته سوقاً فلم يجد وفساد الأمر كله إنما جاء من وضع الحكم فى أيدى المتعلمين من أبناء الصناع والزراع والعملة !!

* * *

آمنت أن الله خلق فى الناس العُلّيق والعلق . فالعليق نبات يتسلق ما يقرب من الشجر فيعلوه ويلتف به ويعرش عليه حتى يحرمه نسم الريح وضوء الشمس وجلال الرفعة . والعَلق دود يتعلق بمن يمسه من الحيوان فينشب فيه خرطومه ، ثم يمتص دمه ويستلب حياته .

فهؤلاء الأتباع والأوزاع الذين يلتفون حول (أبناء الذوات) يهرّجون لهم فى الحديث ، ويروجون لهم المنكر ، ويتطاولون من وراء أكتافهم إلى نفخة الحياة ، هم عليق .

وهؤلاء (البلطجية) الأوشاب الذين يلقون أبدانهم الثقيلة على عواتق البغايا الضعاف والتجار المساكين فيفرضون عليهم بالقوة ملء البطون والجيوب من السحت والإثم ، هم عاق .

وأولئك المتزعمون المتبطلون الذين قصروا جهدهم فى الحياة على أن يتخاطفوا عصا القيادة ، ويتنازعوا كراسى الحكم ، ووسيلتهم إلى ذلك أن يقوموا على هامش الطريق أبواقَ فتنة ؟ أو يقفوا فى سَوائه أحجار عثرة ، هم عليق

وأولئك المترفون المسرفون الذين استولوا على الأرض من غير ثمن ، وتسلطوا على الفلاح من غير سلطان ، فأكلوا ثمرة الزرع حتى انتفخوا ، وشربوا عرق الزارع حتى طفحوا ، هم علق

وأولئك النقاد المتخرصون الذين يتهجمون على أعيان العلم والأدب باللغو والجهل والسفه ، ليدركوا نباهة الذكر من بلاهة العامة ؟ هم عليق.

وأولئك المؤلفون المزيفون الذين يستغلون ضعف المعلمين وفقر الأدباء فيكلفونهم أن يكتبوا المقالات وهم يمضونها ، ويضعوا الكتب وهم يستلحقونها، ويربحوا الأموال وهم يقبضونها ، هم علق .

وأولئك الرؤساء البلداء الذين يحملون على الموظف الصغير بالإعنات والقهر حتى يكفيهم كل رأى فى التقارير ، وكل نظر فى الأضابير ، ولا يدع لهم إلا نفخة الشدق بالأمر ، ولطمة الإمضاء بالخاتم ، هم عليق .

وأولئك الموظفون المخادعون الذين يسرقون جهود زملائهم بالمكر ،

ويكسبون رضا رؤسائهم بالملق ، و يلقون التبعات عن كواهلهم بالحيلة هم علق
ولو شئت لحدثتك عن العليق والعلق فى كل طائفة ، ولـكن مالنا نبغّض الهابط إلى الصاعد ، ونحرض الساعى على القاعد ، ولا نترك شئون الخلق للخالق ؟

* * *

إن عقرب الساعة يهدف إلى السابعة فى خُطى غير منظورة ، وإن أنفاس المساء الندية قد أخذت ترف بطراءتها على الغرف المحرورة وهأنذا أشعر شيئاً فشيئاً بحماىَ تذهب ، و برشدى يثوب ، و بدَمى يسكن ، و بذهنى ينتعش ، و بفـكرى يتجمع ، و بقلمى يجرى على الورق بكلام لا أدريه ، و بالغلام يطلب المقال للجمع فلا أستطيع أن أصرفه لأعيد النظر فيه .

من فكاهات العهد التركي في بغداد :

حدثني المرحوم الزهاوي

(١٠ يولية سنة ١٩٣٩)

تركية القديمة — غفر الله لها — كانت في دول الأرض معنى من معاني الإرهاب حروف لفظه السم واليم والسجن والسيف والسوط ! جمعت في يدها القوية أطراف الشرق والغرب ، ثم أدارت حول تاجها الرهيب هالة من خلافة الرسول فعنت لجلالها الوجوه ، وخشعت لسلطانها الأفئدة ؛ ولكنها لم تستطع أن تثبت ملكها بقوة الروح وبراعة الذهن وعبقرية البيان كما فعل العرب فظلت واقفة أمام شعوبها الثائرة عابسة الوجه معقودة العنق[1] منشورة الشارب مشهورة السيف ، فحرمها ذلك الموقف نصيبها من طمأنينة السلم ومدنية العلم ونعمة الثقافة . وكان ولاتها على الأمصار الخاضعة يحكمون الناس بهذه العقلية الجهول ، فيظهرون الأبهة وينشرون الرهبة ويحصدون الأموال والأنفس بالضرائب والرشى والمصادرة والقتل . فإذا طالت الولاية واكتظ الوالي ورضى (المابين) وأراد الباشا أن يفكر في الدين أو في العلم أو في الإصلاح ، دل على فهم بليد وغفلة عجيبة !

كنا في ذات يوم نتحدث في هذا وفيما جره على الأمة العربية من الجهل والذل والفقر ونحن جلوس في ندوة السيد صبحي الدفتري محافظ بغداد يومئذ ؛ وهي ندوة تقوم في داره المضياف ضحى يوم الجمعة من كل أسبوع فيندو إليها الوزراء والزعماء والأدباء والقادة ، فيكون لكل طائفة منهم حلقة وحديث .

---

(١) عقد عنقه : لواه تكبراً .

ولكن الزهاوى كان إذا تكلم أصغت إليه الدار وتحلقت عليه الندوة ؛ لأن جميلا كان آية الله فى فكاهة الطبع وظرف المحاضرة وحلاوة الدعابة ورقة العبث. وكان له فى إلقاء النادرة لهجة وإشارة وهيئة لا يبرح سامعها مستطار اللب نشوان المشاعر من غرابة مايرى وطرافة مايسمع

* * *

كان الحديث أول ما بدأ دائراً بينى و بين السيد ناجى الأصيل على أن الحرب وأوزارها استقلت بمواهب الترك فلم تدع لهم كفاية للسياسة والثقافة ؛ وأخذنا نضرب الأمثال على ذلك مما جرى فى العراق وفى مصر. وكان المرحوم الزهاوى بجانبى ، ولكنه كان مشغول الأذن بكلمة منافقة فى العقاد والرصافى ألقيت إليه فى خفوت وخبث. فلما نشر بها سمعه وأجاز عليها القائل ببسمة وهزة وسيكارة ، أقبل علينا فسمع طرفاً من الحديث نبض له نابضه فقال هُوهُوه! إذا حدثتك مولانا عن حمق الولاة من الترك لا ينتهى الحديث ولا ينقضى العجب!

ثم أرسل نكتته الحاضرة وضحك ضحكته الساخرة فتنبه المجلس إلى أن الزهاوى سيتحدث ، فسكت المتكلم وأصغى المستمع وتهيأت النفوس للسرور الشديد والضحك المتصل ، وأخذ الشاعر يقول :

أرسلت إلينا الدولة العلية بعد جفاف الريق والمداد من شكوى الجهل والفساد واليأس واليأس يسير بالعراق فى طريق العمارة والعلم ، فقابله البغداديون باحتفال عظيم وفرح شامل وكان لى يومئذ يد فى إدارة التعليم كما تريده الدولة ، فقال لى الوالى ذات يوم إنا نريد أن ننشىء مدرسة للبنات فابحثوا عن دار تصلح أن تكون لها مكاناً. وكان تعليم البنت فى ذلك العهد أملاً من آمال المصلحين

تتقارع حوله الأقلام بالحجج فى غير طائل . فقلنا إن الرجل رحب الباع فى الإصلاح ، ودللناه على جملة من الدور الكبيرة الصالحة ، فكان كلما دخل داراً قال إن الأبصار تجرح البنات من هنا ، والأسماع تسرق الأصوات من هناك؛ حتى لم يدع فى بغداد داراً إلا عابها هذا العيب من طريق التوهم أو التخيل ! وظهر من تصرف الرجل أن به بلاهة وغفلة . فخطر لى أن أتداعب عليه لأكشف حاله للناس فلا يستنيموا لحكمه . فقلت له : أفندى ! لم يبق فى البلد كله إلا مكان واحد أرجو أن يقع من هواك موقع الرضا . فقال : امض بنا إليه فذهبت به إلى (منارة سوق الغزل[1]) وصعدنا فوقها ، فلم تكد قدمه تستقر على شرفتها العالية ، وعينه تقع على سطوح بغداد وهى متطامنة تحت المأذنة العليا ، حتى شهق من الفرح وصاح بملء فيه ؛ نعم ! نعم ! هذا هو المكان المناسب !

ثم نزل وفى نيته أن يتخذ الأهبة من المقاعد والأدراج ليفتتح المدرسة ! فقلت له مولانا ! لابد أن تجمع الناس قبل الافتتاح لتقنعهم بتعليم بناتهم فإنهم سيئو الرأى فى ذلك التعليم ، ونجاح الأمر موقوف على أن يعتقدوا فيك التقى والورع. وسأدلك على أقرب الطرق لتحقيق هذا الاعتقاد :

إذا اجتمع الناس واكتظ بهم الديوان جلست أنت فى الصدر ، وجلس عن يمينك وعن يسارك رجال المعارف ؛ ثم تشعل (شبقك) وتأمر كلا منهم أن يفعل فعلك ؛ ثم تبتدىء فتذكر الله بصوت موقع على ضربات كفى وأنت تميل رأسك من الشمال إلى اليمين تارة ، ومن الخلف إلى الأمام تارة ، وأنا والحافّون من حولك نتابعك فى كل كلمة وفى كل حركة ثم حاول أن تأخذك

---

(١) منارة عريضة طويلة من آثار العباسيين نهب الناس المسجد من حولها وتركوها قائمة وحدها إلى اليوم .

الحال ويستخفك الذكر ؛ فكلما أزبد الفم وأرعد الصوت وتشنج الجسم وهاج الدم ، كان ذلك أحمل للناس على أن يعتقدوا فيك الولاية فتقودهم صاغرين إلى ما تريد .

وصدق الوالى كل ما قلته له تصديقاً لا تتخلله فيه شبهة . وجاء يوم الجمع واحتشد الأعيان والوجوه يسمعون ماذا يقول الوالى . وجلس الباشا وأنا بجانبه وشيوخ المعارف من حوله ، وأمر فأشعلت (الفلايين) الطويلة ، وأخذ يذكر ويترنح وأنا أرسم له ، والشيوخ يذكرون معه . ثم غمزته بعد حين فتهور و (تطور) وأرغى . وتظاهرت أنا بجذبة الوجد وسكرة التجلى فقرعت غليونه بغليونى ، ثم أخذت بلحيته البيضاء ورأسه الأصلع ، ففعل بى مثل ما فعلت به ، وأخذنا نتدحرج على البساط ، فمرة أكون فوقه ، ومرة يكون فوقى ، والشيوخ يعجون بالذكر ، والناس يضجون بالضحك ، وأنا والوالى قد ملكنا حمها الولاية فدخلنا فى صراع عنيف لم يخرجنا منه إلا انقطاع النفس فجلسنا مسترخيين نلهث من الإعياء وكلانا ينظر إلى صاحبه نظر الديك المنتوف إلى الديك المهيض . وذلك يا مولانا هو الوالى الذى اختير لتعليم الجاهل وتصحيح المريض !

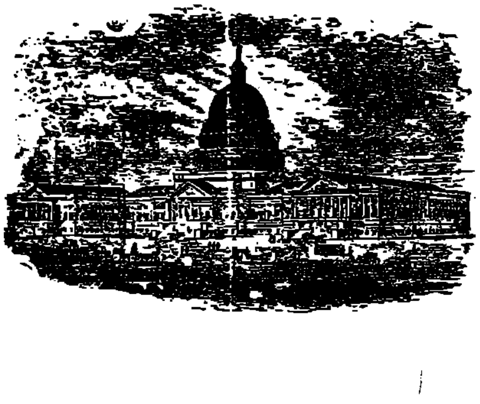

بين بطء الماضي وسرعة الحاضر :

من الأحاديث العابرة

(١٧ يولية سنة ١٩٣٩)

— اجلس ياصديقي قليلا نتحدث ! لقد أصبحت كالطيف النافر لا نسمعك إلا هتافاً ولا نراك إلا لمحاً ولا نجالسك إلا لماماً

— عصر السرعة ياصديقي ! لقد اشتد سائق الركب وأسرع في النغم حاديه ، فمن تخلف عن قافلة الحياة افترسه الجوع وتخطفه العدم !

— أوه ! أجل ياصديقي ! عصر السرعة ، أو عصر الآلة ، أو عصر الإنسان ذي الزمبلك ؛ أسماء مختلفة لمرض واحد : وهو كَلَب هذه الحضارة الغربية

— أتسمى نشاط الحياة وسرعة العمل ومساورة الرزق مرضاً ؟ وأين تكون الصحة إذن ؟ أفي الجمود أم في القعود أم في التخلف ؟

— رويدك ياصديقي ! هل تستطيع أن تقول لي : لماذا يسرع الناس ؟ أليقطعوا العمر في أعوام ؟ أليفنوا الشباب في أيام ؟ أليقضوا اللذة في ساعات ؟ وما قيمة كل ذلك في دَرَك السعادة ؟ لقد كنا نشتغل بعض اليوم ، فأصبحنا نشتغل طول الليل . وَكنا نعمل باليد ، فأصبحنا نعمل بالآلة وكنا ننتقل بالجمل فأصبحنا ننتقل بالطائرة . وكنا نأكل مطمئنين في البيت ، فأصبحنا نأكل مضطربين في الشارع وَكنا نقيم العرس أربعين يوماً والمأتم سنة ، فأصبحنا نقتصر من الفرح على ساعة العقد ، ومن الحزن على تشييع الجنازة وكنا نخلق الكائن الفنيّ في دهر طويل من العمر ليكون متعة الذوق والذهن

والعاطفة طول الأبد ، فأصبحنا نصوره فى ليلة ليفرغ الناس من تقديره فى لحظة . فهل وجدنا من رخاء الصدر وسكينة الروح مقدار ما فقدنا من راحة البدن وفسحة الأجل !

— وما يدرينى ؟ لو أننى أدركت العهدين لجاز أن أحسن الموازنة وأصيب الحكم !

— أنا الذى أدركت العهدين ، وأستطيع أن أقول لك إنى أشعر بالفرق بين بطء العيش وسرعته ، كما يشعر الظامئ الآمن بالفرق بين الرشيف والجرع[١] وأدركه كما يدرك المتنزه الشاعر الفرق بين اجتياز الروض على القدم واجتيازه فى السيارة . لا ريب أن الشارب إذا ترشف الماء وتمززه كان ذلك أنضج لغليله وأبرد على كبده من العب الذى يعجل الرى ولكنه يؤجل الهناءة كذلك المتنزه على قدميه يجد فى كل خطوة عالما من الجمال ، وفى كل وقفة فيضاً من اللذة ؛ على حين لا يجد راكب السيارة إلا الخوف فى كل نظرة ، وإلا الخطر فى كل كرة !

أنظر! هذا الذى تراه واقفاً بعربته أمام الدار هو عامل من عمال (أورزدى باك) ، طلبنا من هذا المتجر بالتليفون بعض متاع البيت وحاجة العيش ، فأرسله بالسيارة ، وتسلمه الخدم ، ولم نجد نحن الذين كلفتنا هذه الصفقة عشرين جنيهاً ما كان يجده المشترون المتذوقون من لذة الانتقاء وفرحة الاقتناء وغبطة القدرة .

هذه (العملية) التى لم تستغرق غير ساعة من النهار كانت فى حياتنا القروية الذاهبة تقتضى من الزمن أسبوعاً ينقضى بين سوابق اللذة وآثارها مذهب

---

(١) الرشيف : مص الماء بالشفتين، والجرع ابتلاعه بجرعة . وفى الأمثال : « الجرع أروى والرشيف أنقع » .

الأطراف بالأحلام ، مطرز الحواشى بالصور ، لا تكاد الأسرة تفيق من نشوته ولا تنتهى من حديثه !

دعنى أعد بالذاكرة إلى حدود الماضى البعيد فأذكر لك كيف كان رجال القرية يشترون حاجة عامهم من السوق . كان بين كفر دميرة القديم و بين المنصورة ساعة ونصف ساعة بالأتان السريعة ، فأصبح بينهما اليوم ربع ساعة بالسيارة البطيئة ! وكان القوم متى باعوا القطن أكثروا الحديث عن المتاع والكسوة والمنصورة ، فتتهيأ الأذهان من قبل للسوق كما يتهيأ قلب المؤمن فى رمضان للحج ، وفكر (المتمدن) فى أبريل للاصطياف . فإذا جاء يوم السوق الذى تواطأ رجال (الحارة) على الامتيار[1] فيه ، كان كل شىء على تمام الأهبة ، فالبرادع المنجّدة على الحمير ، والأخراج مخططة على البرادع ، والعصى الدقيقة فى الأيدى الغليظة ، والدنانير الذهبية فى الأكياس العميقة ، والفطائر الدسمة فى المقاطف الوعيبة ؛ وكبير (الحارة) قد تنفس عليه الصبح وهو على حماره فى جرن القرية يحبس المتقدم و يستحث المتأخر ؛ حتى إذا اجتمعت العير[2] واكتمل العدد ساروا فى سكة السوق سطراً منضوداً يتناسق على نظام المقام والسن . وتسمع ضوضاءها من بعيد فتحار أذنك بين الكلام والضحك والنهيق وحث المطايا بالزجر والضرب ، واصطكاك الحوافر بالتراب والحصى . فإذا بلغوا (طلخا) أودعوا حميرهم فى (الوكالة) وهى الجراج بلغة اليوم ، ثم وضعوا الأخراج على المناكب ومضوا صامتين إلى المعبر يركبون منه الزورق إلى شاطىء المنصورة .

وهنا يرفضّ عن القوم النشاط والزياط والجرأة فيخشعون خشوع الطائر المهيض ، لأن النيل غير الترعة ، والسفينة غير النورج ، والمدينة التى يسكنها

(١) امتار فلان لعياله : أتاهم بالميرة من طعام وكسوة . (٢) العير : قافلة الحمير .

(الأفندية) غير القربة التي يخفيها كلمة أفندى واحد ! هاهم أولاء يخرجون من ضيق القارب إلى زحمة الشارع فيمشون فى سواء الطريق أو على إفريزه سلاسل سلاسل يتماسكون عند الجوف ، ويتسكومون لدى الملع ، ويتصايحون عند الشتات ، ويقفون اللحظة بعد اللحظة ريثما يعود الشارد ويلحق المتخلف ، حتى ينزل بهم الدليل على (الخواجة) المقصود ، نزول الغيث على الثرى المجهود ، فيجلس الكهول على الكراسى والشباب على الأرض ، وينشر تاجر القماش وعماله الأثواب المختلفة على عيونهم الشاخصة وأيديهم الفاحصة ، فيختلفون على النوع أو على اللون أو على السعر ، فتعلو الأصوات وتعنف الحركات ، وتطول المساومة ، حتى تخور القوى وتصحل الحناجر ويذهب الوقت فيقبلون أخيراً كل نوع يعْرض ، ويرضون كل ثمن يفْرض !

ثم يقومون للغداء فيتخيرون شارعاً غير مطروق يجلسون حِلقاً على حاشيته ويأكلون فطائرهم بالحلاوة والعنب والبلح وهم فرحون مبتهجون ، ثم يعودون إلى البدال والعطار فيستأنفون النزاع على الصنف والسعر حتى يغشاهم الليل فيخرجون من سوق (الخواجات يجُرّ[1] الأخراج والغرائر ، لايهتدون فى النور ، ولا يأنسون بالناس ، ولا ينتهون للدليل ، فينقطع الضعيف ، ويضل الغافل ، ويكون عند (المعدية) افتقاد ونشدان وضجة !

فإذا خلصوا بجامعهم من المدينة والنهر ، واقتعدوا ظهور المطىّ ، ونشقوا نسيم الحقول ، انبسطت المشاعر وانطلقت الحناجر فخاضوا فى أحاديث السوق ، وأفاضوا

---

(١) البجر : جمع أبجر ، وهو الممتلىء البطن . والخرج وعاء ذو عينين يحمل على ظهر الدابة لوضع شىء فيه .

فى أعاجيب البندر ، وادعى كل منهم أنه كان أبصر بالبضاعة وأخبر بالسعر وأقدر على الخواجة !

وكان شباب القرية المنتظرون قد انتشروا مع الظلام فى طريق العودة يلقون العير ويكفونها مخاوف الليل . وكان نساء الغائبين وأطفالهم يتراقصون على أنغام المنى ويتسمعون على السطوح لجب القافلة ، فإذا دخلت البلد قابلوها بالأناشيد ، وقضت (الحارة) معظم الليل فى أكل البلح ومص القصب وتساقى الحديث . ثم يصبح الصباح فتفتح الحقائب وتوزع الكسى وتفرق الهدايا وتغرق هذه الأسر فى فيض من الفرح والمرح مدى أسبوع !

* * *

الواقع يا صديقى أن السرعة محنة هذه الحضارة . وذلك أن الحضارة وفرت على الناس الصحة وأخرت عنهم الموت حتى نموا وكثروا ، فهم يتزاحمون على موارد الرزق ، ويتسابقون إلى مظانّ القوت ، فأصبح من لا يجعل جناحيه رجليه لا يسبق ، ومن لا يصل بالعمل يوميه لا ينال !

قلت لنفسي ...

حضر الأصمعي يوماً مجلس الفضل بن الربيع وقبالته فرس مطهم فقال الوزير لصاحب كتاب الخيل : قم يا أصمعي وأمسك كل عضو من أعضاء هذا الفرس وسمه ، فإذا ما سميته أخذته . فقام وأمسك بناصية الفرس وجعل يسميه عضواً عضواً وينشد ما قالت العرب فيه إلى أن فرغ منه ، فأعطاه إياه ، فهبي يا نفس أن الجود والرق لم يُرفعا من الأرض ، وأني دخلت يوماً على أمير من الأمراء البهاليل و بين يديه جارية من الغيد الحسان ، ترفل في دِمَقس (شكوريل) و (سمعان) ، وقال لي هذا الأمير الأديب : إذا سميت ما على هذه الجارية من اللباس ، ووصفت ما في هذه الدار من الأثاث ، نزلت لك عن الجارية والدار ، وزدتك عليهما ألف دينار ! فماذا تريني يا نفس فاعلا ، وأنا الذي لا تعزب عنه مادة في اللغة ، ولا قاعدة في النحو ، ولا نكتة في البلاغة ؟ ماذا أسمي هذا الماثل على الفَوْد الأيسر ، أو هذا الماثل على الجبين الأزهر ؟ وماذا أقول في هذا المزرّر على الصدر المشرف ، وهذا المُدار تحت الثدى الناتىء ، وهذا المرسل على الكشح المضيم ، وهذا المفصّل على القدم اللطيفة ؟ أنا لا أعرف من غطاء الرأس إلا القناع والخمار ، ولا من لباس الجسم غير الملاءة والإزار ، ولا من وقاء الرجل غير الحذاء والنعل ! فهل تنطبق هذه الأسماء ، على هذه الأشياء ، أم تكون دلالتها كدلالة الأثاث والرياش على كل (مو بيليات) البيت ، والورد والريحان على جميع أزهار الحديقة ، والجهل والعجمة على كل أدوات السيارة ؟!

لا جرم أني سأعجز على أي حال ، وسأطلب من رئيس المجمع اللغوي التعويض عن الجارية والدار والمال !

حلم ليلة صيف

(٢٤ يولية سنة ١٩٣٩)

غربت الشمس فى الرمال اللوبية المرمضة ومن ورائها فى الجو والأرض وهيج كزفير جهنم . وكان القاهريون قد احتشدوا فوق الجسور وعلى الشواطىء وفى الحدائق ينسمون نفس الماء ونفح المساء وأرج الزهر ، فكأنما لم يبق فى البيوت والقهوات والطرقات أحد . وكنت أنا فى زحمة الناس أسير هوناً على جسر اسماعيل والذكريات العذاب تنثال على خاطرى انثيال الشعاع السينمائى بالأخيلة المتحركة على الشاشة ، فأذكر فيما أذكر كيف كان ذوو السراوة والنعمة يخرجون قبل أن يعرفوا أوربا إلى الجزيرة آصال الربيع والصيف فى زينتهم الفاخرة ووضاءتهم الباهرة ومركباتهم الفخمة تتراقص بها الجياد المطهمة العتاق فيكون للفقراء من عرضها منظر فتان من زهرة العيش يشغل الهم عن القلوب ساعة . ثم أبصر فيما أبصر كيف أصبح الجسر والجزيرة — بعد انتجاع المترفين المرفهين فيشى وكرلسباد ، ومونت كارلو ونيس — مراداً لذوى الفاقة والعاهة والكرب ، لا ترى حولهم إلا بؤساً ، ولا تسمع بينهم إلا شكوى ! ثم أنتهى من هذا السير البطىء الحالم إلى (كازينو الكبرى) فأجلس وحدى فى مكان مظلم ، وأجعل وجهى وعينى للنيل المزدان بالقوارب ، وللشاطىء المزدهر بالمصابيح وحينئذ تغوص وتطفو بين جوف الماضى ووجه الحاضر ، فلا أرى فيما خلفه الزمان والإنسان إلا مآسى دامية ألفها الطمع والأثرة ومثلها الضعف والقوة . وكان عقلى القاصر يعلق أحياناً على ما تعرض

الحافظة من هذه الصور ، فيعجب كيف عجز إلى اليوم دين السماء وعلم الأرض عن التوفيق بين القوة والضعف ما داما متلازمين فى الحياة ! أليس منشأ الصراع الأزلى بين المرأة والرجل والعبد والسيد والفقير والغنى والمظلوم والظالم والمستعمَر والمستعمِر إنما هو القوة فى جهة ، والضعف فى جهة أخرى ؟ لا يحق لنا أن نسأل : لأية حكمة كانت القوة هنا وكان الضعف هناك ، ولكن من حقنا أن نقول : لماذا أعضل على المصلحين أن يحملوا القوى على أن ينزل للضعيف عن بعض القدرة فيستقيم الأمر بالاعتدال ويتحقق السلام بالعدل !

* * *

كانت ساعة الحرس تعلن بدقاتها المدوية انتصاف الليل حين تهالكت على الفراش وأنا من إدمان الذكر والفكر على حال شديدة من الجهد فلم تكد عيناى تغفيان حتى رأيت فيما يرى النائم أن دور الفقراء وأكواخ المساكين فى بولاق أمست كالتنانير الموقدة تلفح جدرانها باللهب ، وتسيل سقوفها بالبق ، ويختنق هواؤها بالنتن ، فتركها أهلوها هاربين فى عتمة الليل إلى الشوارع والميادين فظنهم الحراس والعسس « متظاهرين » فطاردوهم بالعصى مطاردة الجراد ؛ فهاموا فى الشوارع من الذعر هيام القطيع ، حتى وجدوا قصراً من قصور الأمراء ، غريقاً فى الأضواء والضوضاء ، فلم يتمالكوا أن تدفقوا فيه من أبوابه ، على الرغم من دفاع حراسه وحجابه ثم انساب هذا الجمع الفزع فى حديقة القصر الأفيح حتى أحدقوا ببؤرة الضوء ، ثم أخذوا يستفيقون من الذهول والرعب على شذا العطور وسطوع النور ونغم الموسيقى ، واستطاعوا أن ينظروا فماذا رأوا ؟ رأوا حفلة راقصة تحت السماء على بركة الحديقة الواسعة ، وأربابُ النعمة وربات النعيم متقابلون على الأرائك أو متعانقون على الأعشاب ، أو متخاصرون

فى المرقص ، أو متنادمون حول المقصف ؛ وشموس الكهرباء تسطع على الظهور البلورية والصدور العاجية وقد انشقت أطواق الفساتين من أمام ومن خلف إلى ما تحت الخصور فلم يمسك الثوب عن النزول إلا شريطان على الكتفين رصعا بالماس وعقدا بالذهب . وكان الجو البليل مشبعاً بريا العطر وعبق الخمر وأنفاس الغوانى وشدو القيان وهزج المزامير وعزف الأوتار ، فلا يدخل فيه ذو حس إلا هاج واشتهى ، ولا ذو وقار إلا عبث والتهى وكانت البركة المسجورة بماء الورد واللاوندة تموج بالحور والولدان سابحين أو متشابكين ، يتواثبون من النشوة ، ويتجاذبون من الشهوة ، وعلى حفافيها المرمريين يتراقص القوم أزواجاً على أنغام « الجاز » والسواعد ملتفة على القدود ، والشفاه مطبقة فوق الخدود ، والأثداء رجراجة بين الصدور والنحور ، والأنظار جوالة بين البطون والظهور ؛ وفوق نافورتها الوسيمة البديعة ترقص حول رشاشها الطائر الوهاج جوقة من عرائس عبقر ، فى غلال عسجدية من نسج الجن ، وأوشحة مصبغة من صنع السحرة وكلما ماست الحوويات الرواقص تقلّب عليهن الوشى ، واختلف فوقهن اللون ، وانبثق عليهن شعاع من الفتنة يبهر العيون ويضل الأفئدة !

* * *

كان القوم فى سورة اللهو وسكرة اللذة وحميا الطرب حين أحاط بهم مساكين بولاق وفقراؤها فى بزّتهم الزرية وهيئتهم المخيفة ، فانفغرت أفواه هؤلاء من الدهش ، وقفّت رؤوس أولئك من الخوف ، والتقى الشقاء والسعادة وجهاً لوجه ؛ وأوشكت أن تكون بينهما ملحمة !

ولكن الله لم يشأ أن يصطرع الغنى والفقر فى هذه اللحظة الرهيبة فرأيت

أفواجاً من البق والبراغيث لها أجنحة كالفراش وخراطيم كالبعوض قد خرجت من ثياب الفقراء وأخذت تلسع الأجسام الغضة والوجوه الناضرة لسع النحل المهيجة ! فتراكض الداعون والمدعوون هاربين فى الحديقة وهذه الطير الأبابيل فى ظهور النساء وأقفية الرجال تحزهم بالسم حتى أخرجتهم إلى الشارع . وهناك كان الجند يترقبون خروج (المتظاهرين) فلم يكادوا يرون هؤلاء حتى ركبوهم بالعصى وساقوهم سوق الأنعام إلى مركز البوليس فقضوا ليلهم الباقى على الأسفلت ، وخلا المقصف والمرقص والقصر لطرائد البؤس والشرطة فأكلوا مريئاً وشربوا هنيئاً وناموا ملء الجفون على الأسرّة المذهبة !

ثم كربنى الحر فصحوت من النوم ، قبل أن يربى الحلم فى ضوء الصباح فضيحة القوم !

جريرة النازية على الإنسانية

(٩ أكتوبر سنة ١٩٣٩)

يا ضلة العقل ويا حيرة المنطق !

إن أمام التاريخ اليوم رجفة من رجفات الهول والهلاك لم يبتل بمثلها الإنسان منذ دحا الله هذه الأرض فهل يستطيع مهما يسبر أغوار النفس ، ويكشف أسرار المجتمع ، ويرصد أطوار الحوادث ، أن يقول فيها أكثر مما يقول في العواصف والزلازل والبراكين والاوبئة ؟

هل يستطيع التاريخ بفلسفته وحذلقته أن يفسر لنا وللأجيال كيف تسنى لخمسة نفر من عباد الله الضعاف ، لا هم آلهة ولا هم أبالسة ، أن يسيطروا على الشعب الألماني الضخم وهو آية النبوغ البشري في العلم والأدب والفلسفة والفن فيشلوا تفكيره ويلغوا إرادته ، ويمسخوه قطيعا جرارا من أفيال جهنم ترمي العالم كله محاربيه ومسالميه بالبوار والدمار ، أو بالفزع والمجاعة !

لو كانت النازية الهتلرية قائمة في سلطانها وطغيانها على مبدأ من مبادىء الخير ، أو مذهب من مذاهب الإصلاح ، لالتمسنا لخضوع الشعب الألماني لها ، واضطراب العالم الإنساني بها ، مساغاً في العقل أو مثلا من التاريخ ، ولكنها ضلالة من ضلالات العصبية والعنصرية والأثرة والغرور استبدت بفكر ثائر وعقل حائر وهوى طموح ، فظنها الفوهور رسالة من رسالات الله أوحاها إليه في كتاب (كفاحه) ، وأوجب أداءها عليه بقوة سلاحه ، فهي شريعة تنسخ كل كتاب غير كتاب هتلر ، وتمحو كل سيادة غير سيادة النازي ، وتمحق كل عنصر غير عنصر الجرمان . وإذا كان في الساميين وهم في رأيه حثالة الناس

رسالات ورسل ، فكيف لا يكون على الأقل فى الآريين وهم خلاصة الأجناس رسالة ورسول ؟

ولكنا عرفنا إله الناس الذى اصطفى من الساميين موسى وعيسى ومحمداً ليبلغوا رسالات الهدى والحق والخير فألفوا نوافر القلوب بالحب ، وأقاموا قواعد المجتمع على العدل ، وخففوا متاعب العيش بالإحسان ، وضمنوا وفاء العهود بالذمة ، وجعلوا الناس كلهم سواسية فى حق الحياة لا يطغى جنس على جنس ، ولا يبغى قوم على قوم . فمن هو يا ترى إله الألمان الذى اصطفى من الآريين هتلر وجورنج وهيس ورببنتروب ، ليبيدوا أمم العالم ، ويدمروا حضارة الدهر ، ويحطموا روائع الإنسان ، ويستبدلوا بشرائع الله وقوانين الضمير سياسة لا تعرف براً بوعد ولا وفاء بعهد ولا ثباتاً على مبدأ ؟

* * *

ياضلة العقل ويا حيرة المنطق !

أبعد أن تغلغل على طول القرون هدى الله فى الغرائز والأخلاق والقوانين والنظم ففازت الحرية ، وسادت الديمقراطية ، وعلت الإنسانية ، يمكن أن تقوم فى العالم اليوم نحلة مجرمة الوسيلة والغاية كنحلة النازية تحتقر أجناس الناس ، وتنكر حقوق الشعوب ، وتزدرى قواعد السلوك ، وتستحل فى سبيل السيطرة والغلب الغدرَ والمكر والكذب وغش السياسة ونقض العهود وإنكار المذهب ؟

ليت شعرى ماذا يقول حفدة لوثر وكَنْت وجوته وبتهوفن وقد رأوا زعيمهم الأديب الفنان يقول بلسان دولته ولا يصدُق ، ويعاهد بشرف أمته ولا يفى ، ويجعل من شعبه الصبور العامل غولاً للسلام يقذف الرعب فى كل قلب ، والشقاء فى كل منزل ، ثم يدع صليبه النازى المعقوف يتحطم رويداً

رويداً بين مطرقة الشيوعية ومنجلها بعد أن ناصبها العداء المر والهجاء الفاحش!

لقد قلنا فى كلمة سابقة : « إن هذا الرجل العجيب استطاع فى ست سنين ونصف أن يبنى من الحديد والنار والسم والثأر والعزيمة والعصبية دولة كانت بعد صلح فرساى تتوارى من الخجل ، وتتفانى من الجوع ، وتتهالك من الدَّين ، وتضع أيديها على هيكلها فلا تجد إلا شلواً لا صورة له ولا حسن فيه ، فأصبحت بما نفخ فيها من روح الكفاح ، ووضع فى أيديها من قوة السلاح ، تملك على الدول الحياة والموت ، وتقضى على الأمم بالسلام أو الحرب كل ذلك فعله من غير ثورة ولا حرب ، فكان حرياً أن يتبجح فى آخر خطبته التاريخية المشهورة بقوله : ألست حقيقاً بأن أطلب إلى التاريخ أن يعدنى فى الذين حققوا أعظم مايسمح الإنصاف بطلبه من رجل ؟ » . نعم قلنا ذلك أيام كان هذا الرجل الشاذ قابضاً على عجلة القيادة بحزم الربان الماهر وحكمة القائد البصير : وما كنا نتوقع أن يبتليه الله بضعف الإنسان على الفرد على هذا النحو المهلك والقضاء العاجل ، فيدور برأسه الغرور ، ويذهب بنفسه العناد ، حتى لم يعد لشهواته حد تقف عنده ، ولا لنزواته كبّاحة[1] تحبس عليه .

هذا هو هتلر الذى أعجب به شباب الأمم بالأمس يأخذه اليوم جِماح السلطان وعُرام القوة فيلقى عامداً بقومه و بالعالم فى سعير الحرب ، ثم يقف فى ضوء لظاها المشبوب فى الأرزاق والأعلاق والأنفس وفى يديه قيثارة نيرون يعبث بأوتارها و يضحك !

ماذا عسى أن يكون مصير الشعوب الصغيرة التى ضمنت على ضعفها أن تعيش فى حمى الشرف والعدل والسلام ، إذا تغلب هذا الطغيان النازى الذى

(١) كباحة : فرملة .

يريد أن يحكم العالم على أساس استعباد الضعيف ، وتسخير قوى الناس والطبيعة ، لسيادة عنصر واحد وإرادة رجل واحد ؟

إن ميراث الإنسانية المتدينة المتمدنة من أخلاق وثقافة ونظم هو اليوم فى حمى الدول الديمقراطية الحرة تدافع عنه وترعاه وتمسك به الأرض أن تميد وتبيد وليس للأمم الصغيرة سبيل للحياة الحرة إلا أن تساهم فى هذا الدفاع بإخلاص وقوة ؛ فإن ضمان العيش للقلة بجانب الكثرة ، وللعجز فى كنف القدرة ، هو هذه الفضائل الاجتماعية التى نبتت فى أصول الدين ونمت فى ظلال الديمقراطية . أما إذا شاء القدر — ومعاذ الله أن يشاء — أن يتحكم هوى الطغيان فى حقوق الإنسان فيذهب بالإخاء أثرةُ جنس ، وبالمساواة سيادةُ شعب ، وبالحرية استبدادُ فرد ، فقل إنها دنيا للشر جديدة ترجوا ألا يكون لنا فيها وجود

السلام

ترجمة صورة

سبحانك يا سلام !!

لقد بسطت على الأرض المحروبة جناحك الرفيق المسْبِل، فإذا الدار أمان، والفزع اطمئنان، والقلوب مؤتلفة، والشمل جميع!

هذه ساحة الحرب أصبحت مرعًى للقطيع الراتع؛ وهذه آلة الموت غدت كِنًّا للحمَل الوادع وهذا الوعْل النطّاح في أمسه لا يدرى ماذا يصنع بقرنيه في يومه. وهذا الكلب الحارس نسى اللص والذئب فاستغرق في نومه. وهذه الجبلة تنعم بعيشها الغرير تحت سماء الأمن، فلا همّ على والد ولا حزن على ولد!

تباركت يا سلام !!

لقد مددت على الدنيا المكروبة ظلك الرخىّ الوارف ، فإذا الزرع جميم ، والخير عميم ، والحال متسقة ، والدهر مطيع !

هذه الغنم ترعى أثبث العشب هانئة فلا قنابلُ ولا نيران وهذه الطير تسبح في صفاء الجو هادئة فلا صواعق ولا دخان . وهذه السفينة تمخر في عباب البحر مطمئنة فلا طرابيــــدُ ولا قرصان . وهذه الطبيعة تغرق في فيض النعيم ووضاءة الفردوس مسترخية فلا خصام ولا عدوان !

* * *

حنانيك يافاطر السموات والأرض !

لقد سميت نفسك السلام ، وسميت ذاتك المؤمن فلماذا جعلت للإيمان شيطاناً واحداً لا أكثر ، وجعلت للسلام شيطانين اثنين هما الدُّنشى وهتلر ؟ !

اللهم إن فى السلام نعمة ، و إن فى الحرب حكمة ، و بين نعمتك وحكمتك ضلت عقول الناس !

بين الدين والحب

(١٦ أكتوبر سنة ١٩٣٩)

لقيته بعد تسع سنين فى الأسكندرية على قهوة (تريانون) رائق الشباب رائع الصورة لطيف الشارة كما عهدته وكان هذا اللقاء الجميل مفاجأة سارة من مفاجآت الغيب بان أثرها على وعليه فلم ندر كيف نسلم ولا ماذا نقول .

هذا الشاب الطرير من أسرة لبنانية مسلمة ، تلمذ لى حيناً من الدهر فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، واتصل بينى و بينه الود بعد أن تخرج فيها ثم رحل إلى العراق يزاول التعليم به ، وانحصر وجوده بين بغداد وبيروت فلم أعد أراه فلما رأيته بالأسكندرية فى هذه الساعة على هذه الحالة تمثل أمام عينى جزء مشرق من الماضى القريب كاد يغرقه فى لجة النسيان حدثان الزمن

— متى قدمت مصر ياعبد القادر ؟ وكيف أخفيت عنى هذا القدوم ؟

— قدمتها منذ ثلاثة أسابيع . وقد علمت أنك هنا فبحثت عنك فى كل قهوة وفى كل شاطىء فلم أجدك . ومنذ يومين لم يعد لى بالاسكندرية عمل ولا أمل إلا أن ألقاك ، فإنى فوق أن أراك أريد أن أسألك عن أمر شغل بالى وشق على

— خير إن شاء الله ؟

فقال الصديق الشاب وهو يحاول أن يكظم شيئاً فى نفسه بدت أمارته فى نظرته القلقة وصوته المأخوذ ولهجته المترددة :

أريد أن تدلنى على كتاب فى الانجليزية يبين روح الاسلام وحقيقة مبادئه وأصول أحكامه بطريقة يقبلها الرجل العصرى المثقف

— هل وقعت معاذ الله فى أزمة من أزمات الشك ؟

— كلا ، وأحمد الله على قوة الإيمان وثبات العقيدة ؛ إنما يتعلق الأمر بإنسان أحبّ إلىّ من نفسى ، فتنه عن دينه فتون التعليم الأجنبى وفسوق البيئة. ولقد وقع اليوم فى يدى كتاب فى العربية عنوانه : « لماذا أنا مسلم » فراقنى أسلوبه وأرضانى منهجه ؛ ولكن صاحبى على مصريته لا يعرف العربية ولا يثق بما كتب فيها

— ألا تستطيع أن تقدمه إلى فأعينك على إقناعه وإرجاعه ؟

فارتبك الفتى وكسر من طرفه ، ثم ما لبث أن خفّض جأشه وأرسل نفسه وترك تحفظه وقال

— مالى أخفى الأمر عنك وقد كنت لى فى مشكلات الشباب والعيش المشير الصادق والناصح المخلص ؟ إن الأمر يتصل بفتاة مصرية هويتها منذ سبع سنين : أبوها طبيب من الأطباء الموظفين النابهين تعرفه كما أعرفه ؛ وأمها إنجليزية دخلت فى الإسلام لئلا تحرم الارث كما يقال ؛ والفتاة بارعة الجمال رضية الأخلاق رقيقة القلب عفيفة الدِّخلة ، تلقت دروسها الابتدائية فى مدرسة أمريكية بالقاهرة ، والثانوية فى مدرسة انجليزية بلندن . فهى فى ثقافة الجسم والعقل والروح مثل المرأة الحديثة الصالحة لقيت أسرتها أول مرة فى إحدى مدن لبنان ، فألف بيننا تجاوب الشعور وتقارب الثقافة . وتمكنت الألفة بينى وبين الفتاة بحكم الطبيعة والسن ، وتأثير اللهو والرياضة ، فما كنا نفترق فى النهار والليل إلا ساعات النوم القليلة . وكان أبواها يساعدان هذا الهوى الوليد بإطلاق الحرية وإرصاد الفرص واعتقاد الثقة ، فلم نعد إلى القاهرة معاً إلا وهذا الحب قد أصبح عانياً جباراً يذهب بقلبى وقلبها كل مذهب ثم

دأبت على زيارتها فى بيتها كل يوم فى النهار أو فى الليل فنقضى أوقات الفراغ فى القراءة أو فى النزهة أو فى التنس أو فى السينما ! وفى كل لحظة تمر أو لفظة تقال يكشف كلانا فى الآخر دليلاً جديداً على أنه عروس أحلامه وموعود غده .

كانت تسافر أوائل الخريف إلى لندن فيكون بيننا بريد دائم بالفكر المستمر والطيف المثابر والكتابة المتصلة . فلا ندع فكرة يبعثها الخيال أو الشوق ، ولا كلمة يوحيها العقل أو القلب ، إلا تبادلناها بالتفكر أو التذكر أو الحنين أو الكتابة فى النوم أو فى اليقظة . ثم تعود أواخر الربيع إلى القاهرة فيعود أنسنا باللقاء ، وسرورنا بالحديث ، ومرحنا بالرياضة ، فلا نترك متنزها ولا ملهى فى العاصمة والضاحية إلا أشهدناه على آية من آيات الحب ، أو ساعة من ساعات السعادة .

ثم رحلتُ إلى بغداد فنشأت فى نفسى رغبة شديدة فى بناء بيت وتكوين أسرة ، فخطبتها إلى أبويها فى شتاء هذا العام واستقر رأينا على إعلان الخطبة فى الصيف متى عدت أنا من بغداد وعادت هى من لندن .

جاء الصيف ياسيدى فعدتُ وعادت ، ونزلتُ على عطف أبويها فى مصيفهما بالرمل نزول الإبن الموموق على حنان أبويه بعد غيبة طويلة ولكنى رأيت الوجوه غير الوجوه ! فلا البشر بادٍ فى عين الأم كما شهدت ، ولا السرور جارٍ على ثغر الفتاة كما عهدت فلما سألت السيدة عن سر هذا السهوم قالت لى ادخل على (ميمى) الغرفه فلعلك تجد عندها الجواب .

دخلت على (ميمى) فوجدتها جاثية بجانب السرير تضرع وتبكى فلم أتمالك أن جثوت بجانبها مغرورق العين مستطار الفؤاد ، وأخذت أنفس من كربها وأسألها عما بها ، فقالت وهى تنشج بالبكاء :

مستحيل ! مستحيل ! لقد أحببتك حتى لم يعد لى هـــوى إلا إليك ولا فكر إلا فيك ؛ ولكننى لا أستطيع الزواج منك لأنى مسيحية متعصبة ، وأنت مسلم محافظ . ولا سبيل إلى أن نتزوج كما تزوج أبى وأمى : فإنى وأنت صريحان ؛ وأنا أحتقر دينك بقدر ما أحترمك ، وأبغض نبيك بقدر ما أحبك

— ومتى دِنت بالنصرانية ياميمى وأنا وأبوك لا نعرفك إلا مسلمة ؟

— دِنت بها منذ رحلت إلى لندن ، وجعلت الأمر بينى و بين الله حتى أخبرتنى أمى بخطبتك فلم أجد بداً من إعلانه

— وهل درست الإسلام ياميمى قبل أن ترتدى عنه ؟

— درسته على الراهبات فى مصر وفى انجلترا وعلمت عنه ما أشفق على وجدانك من سماعه

— لقد درستِه على خصومه ومنكريه ، فكيف يسوغ فى عقلك أن يكون كلام الخصم على الخصم حجة

— وعلى من كنت تريد أن أدرسه ؟ أعلى أبى وما سمعته مرة يذكر الله ولا رأيته يوماً يدخل المسجد ؟ أم على أمى وقد كانت مسيحية لا تؤمن ، فأصبحت مسلمة لا تعتقد ؟ وهل كان فى مقدورى أن أغالب الفطرة وفى نفسى إلى الله شوق نازع لا أملك الصبر عليه متى رأيت السبيل إليه ؟

— أنا كفيل بأن أعلمك ما تجهلين من حقيقة الإسلام ، فإن أقنعتك تزوجتك ، و إلا رجع الأمر بينى و بينك إلى الصداقة ، فإنك لا تتزوجينى مسلماً ، وأنا لا أتزوجك مسيحية .

وأخذت منذ ذلك اليوم أشرح لها مبادىء الإسلام على قدر ما يستطيع

مسلم تخرج فى الجامعة الأمريكية ؛ فكانت تصغى لما أقول وتعجب به . ولكنها كانت تتهمنى بتلفيق ذلك مما أعلم من فضائل الأديان وأصول الأخلاق ، ثم أنسبه زوراً إلى الإسلام . فاتفقنا على أن أقدم إليها كتاباً عن الدين الإسلامى فى الإنجليزية ، وأن نؤجل البت فى أمر الخطبة إلى مثل هذا الشهر من قابل . فهل تستطيع يا أستاذى أن تدلنى على كتاب فى هذا الموضوع يجمل زواجى منها حقاً لا ريب فيه .

فقلت له والأسى يكاد يعقل لسانى : إن كتاب (روح الإسلام) للأستاذ الهندى ميرعلى هو طلبتك ، فلعلك تصيبه فى مكاتب الإسكندرية . وعسى أن نعيش يا قارئى العزيز حتى أكتب لك الفصل الأخير من هذه الرواية !

منهاج لوزارة الشؤون الاجتماعية

(٢٣ أكتوبر سنة ١٩٣٩)

ما أظن أحداً من آحاد المصلحين ثلجت[١] نفسه لإنشاء هذه الوزارة مثلما ثلجت له نفس الرسالة . ذلك لأن سبيل هذه الوزارة هي السبيل التي تجاهد فيها الرسالة ، وخطتها هي التي تسير عليها الرسالة ، وغايتها هي التي تقصد إليها الرسالة ، فكأنها قامت لتحقيق آمالها بالتنفيذ ، وتطبيق مبادئها بالعمل . ومن ذا الذي لا يبلج صدره إذا رأى قوله قد صار فعلاً ، وخياله قد أصبح حقيقة ؟

لقد عالجت الرسالة مشكلة الفقر على وجوهها الشتّى في بضع عشرة مقالة خرجت منها على أن الحرمان كان في الأكثر الأغلب علة ما يكابد المجتمع من جرائم القتل والسرقة ، ورذائل البغاء والتشرد فلو أن أولى الأمر عالجوه بما عالجه به الله من تنظيم الإحسان وجباية الزكاة لما وجدوا في البيوت عائلاً ، ولا في الطرقات سائلا ، ولا في السجون قاتلا ، ولا في المواخير ساقطة . ولكننا تركنا الموضوع قانطين من رحمة القلوب ، لأننا وجدنا غاية الأمر فيه لا تعدو البكاء والاستبكاء ، ما دام الحكم في أيدى الأقوياء ، والتشريع لألسنة الأغنياء ، والغلب والسبق للناب المضوض والجناح المحلّق فلما وفق الله الحكومة القائمة لأن تجعل لآثام الجهل وآلام الفقر وأرزاء المرض وزارة تعالج كل عَرَض لها ، وتساعف كل منكوب بها ، وتقطع كل علة فيها ، قَرُبت منازع الإصلاح

---

(١) ثلجت نفسه كبلج صدره : سر .

وسفرت وجوه المنى ثم كان من مصاديق الأمل ودواعى الثقة أن تولى هذه الوزارة رجل من رجال الجد والعزيمة لم يصبه الله بداء الكلام ، ولم يشغله بحرفة السياسة ، فاختار لمشورته ومعونته وأمره طائفة من قادة الرأى ودعاة الإصلاح ، ثم مضى بهم فى طريقه المرسومة إلى غايته المعلومة يقظ القلب نافذ الهمة لا يُعمىّ وجهه ضلال ، ولا يقطع سبيله عقبة .

ولكننا لاحظنا أن وزارة الرجل السّكوت الفعول قد أخذت فى هذه الأيام تسرف فى نسج الكلام وقطع الوعود ووضع المشروعات وتقديم المقترحات وتأليف اللجان ، فذكرنا بذلك وزارةَ المعارف فى عهد من العهـــود إذ كانت تؤلف كل ساعة لجنة ، وتضع كل يوم مشروعاً ، وتسن كل أسبوع نظاماً ؛ ثم ينتهى الأمر بأكثر اولئك إلى ما تنتهى إليه الفقاقيع الغازيّةَ على وجه الماء الآسن !

لقد أكرهتنا حكوماتنا المتعاقبة على أن نفهم أن تأجيل الموضوع للبحث معناه إهماله ، وتحويل المشروع إلى لجنة معناه إغفاله . فهل يجوز أن نخشى مثل ذلك من هذه الوزارة الوليدة ، وهى لم تُبتلَ بعد بجمود الموظفين الآخرين وروتين الوزارات الأخريات ؟

إن الدم الجديد فى هذه الوزارة ، والروح المتوثب فى هذا الوزير ، يُذهبان الخيفة من جهة التفريط والنكول ، ولكنهما يوجبان الحيطة من جهة الإفراط والتهور . وكفى بهذه الظنة باعثاً على كتابة هذه الكلمة .

* * *

إن وزارة الشئون الاجتماعية تجديد رسمى لدعوة النبوة ، وهى بحكم

وجودها وطبيعة عملها وزارة الجمهور ؛ فلا مندوحة لها إذن عن نهج سبيل الدين في محاربة الفساد بالأناة والحكمة فإن مصادمة الموجود بالطبيعة مدعاة إلى الفشل ، ومقاومة المألوف بالعادة مجلبة للنفور ؛ ووسيلة النجاح في هداية العامة الحيلة والتدرج والله عزت حكمته لم يشأ أن يقيد الزواج ويحرم الخمر ويحظر الرق دفعة واحدة ؛ وإنما استدرج الغرائز والأهواء إلى حدود المعروف شيئاً فشيئاً ، حتى اطمأنت إليه ورغبت فيه .

ما للوزارة على حداثتها تبدأ منهاج الإصلاح من آخره ، فتريد أن تعرض لما يتصل بالحرية أو بالعقيدة كأن تقيد الزواج وتحدد السهر وتحرم على بعض الناس بعض اللهو ؟ إن ذلك وإن كان له أثره في صلاح المجتمع لا يحسن أن يكون أول ما تعمل وربما كانت هذه الأمور التي تنكرها ظواهر لبعض الأدواء الاجتماعية تزول بزوالها أما الرأى الذى تأمن عليه من المعارضة والفوضى والتشعث فهو أن تحرر دستورها الإصلاحي تحت ثلاثة عناوين هي الفقر والجهل والمرض[1] ، فإنها جُمَّاع العلل التي يصدر عنها كل فساد وينجم منها كل شر ثم تحاول بجهادها المتصل في شتى الميادين أن تمحو الأمية وتقتل الجوع وتجتث أصول العلة ، حتى إذا وجدت أمامها بعد ذلك شعباً صحيح الجسم نير الفهم مكفي الحاجة استطاعت أن تأخذه بوسائل الكمال كتوحيد الأزياء وترقية الغناء وتهذيب التقاليد وتنظيم الأسرة وتمدين الجماعة على أن ذلك كله يكتسبه الشعب من ذات نفسه متى أدرك قسطه الضروري من ثقافة العقل والروح والبدن . وعسى ألا يقع في ظنك من هذا الإجمال أني أخلط بين اختصاص هذه الوزارة واختصاص وزارات المعارف والأوقاف والصحة ؟

---

(١) كانت الرسالة ولله الحمد ومنه التوفيق أول من سمى هذه الأسماء ، ودل على هؤلاء الأعداء ، وجرت بعد ذلك على ألسنة الحكومة وأقلام الصحافة .

فإن وزارة الشئون الاجتماعية بحكم اختصاصها الشامل لحياة الجماعة فى المدينة والقرية لابد أن تتصل بالثقافة والسلامة والإحسان من جهاتها العامة ؛ ولكنها لا تعلم كالأستاذ ، ولا تعالج كالطبيب ، ولا تحسن كالواقف وسترى فيما يلى كيف يتميز عملها من عمل غيرها ، حين نفصل الكلام فى هذه العناوين الثلاثة : الجهل والفقر والمرض .

الجهـــــل

الجهل كما يظهر لأدنى نظر هو علة العلل فى اضطراب الأسرة ، وانحطاط البيئة ، وفساد المجتمع ، وأفن الرأى العام فإذا وُفقت هذه الوزارة بالفعل إلى أن تمحو الأمية وتنسخ الجهـــــالة فقد تيسر لها أن تقول فتفهَم ، وتكتبَ فتقرأ ، وتشير فتُتَّبع . وإذن يخف عنها عبء الإصلاح باعتماد كل امرىء على نفسه فى تدبير عيشه من طريق الكفاية فلا يكون فقر ، وفى علاج بدنه من طريق الوقاية فلا يكون مرض ، وفى تهذيب خلقه من طريق الدراية فلا يكون شر . ذلك إلى أن الشعب متى أدرك القدْر المشترك من المعرفة قوى عقله فيعمل عمله بروية ، ونضج رأيه فينتخب نائبه بحرية . وبروية العزيمة تثمر فروع الإنتاج ، وبحرية الرأى تثبت أصول الديمقراطية .

ولكن كيف نكلف وزارة الشؤون الاجتماعية أنْ تساهم فى نشر المعرفة وهناك على مدى قريب منهـــــا وزارة المعارف بميزانيتها الضخمة وجامعتها الفخمة ومدارسها المختلفة الدرجات والغايات ، ورجالها المتعددى

الألقاب والشهادات ؟ فهل يسوغ فى العقل أن تترك هذه الوزارة الفنية فى مصر بعد قرن ونيف من لا يعرف حروف الهجاء ، ولا يدرى أفى الأموات هو أم فى الأحياء ؟

والواقع الذى يحار فى تعليله الذهن الفلسفى أن التعليم الحكومى والأهلى ، والدينى والمدنى ، والوطنى والأجنبى ، لم يستطع أن ينفى الأمية فى مصر ، وهى ملتقى بحرين ومجتمع ثلاث قارات — إلا عن ٢٥ ٪ من الذكور و ٨ ٪ من الإناث . ونفى الأمية لا يثبت العلم ، ولكنى أسلم بأن هؤلاء تميزوا عن نظرائهم أولئك بإدراك الحياة الإنسانية على نحو معقول . فالى من نكل تعليم البقية وهى سواد الأمة وعماد الدولة وعدة الإنتاج ؟ إن تثقيف وزارة المعارف لا يشمل كل الصغار لأن قانون التعليم الإجبارى لم يُشرع ، ولا يقبل كل الكبار لأن قانون التربية لا يجيز ، فلا يبقى إذن للذين أفلتوا من القيد أو شبوا عن الطوق إلا وزارة الشؤون الاجتماعية ، فهى وحدها التى تستطيع أن تعلم الزراع والصناع والعمال والخـدام والباعة من كل سن وفى كل مكان وعلى أى حالة

أما كيف يتهيأ لوزارتنا الجديدة بلوغ هذه الخطة فسبيله القصد إنشاء المدارس الشعبية الليلية فى معاهد المدن ومساجد القرى وحشد العامة إليها عن طريق الإغراء المادى والإكراه غير المباشر ، كأن يُفرضَ للمنتهين والمتفوقين جوائز مالية ، وأن يُشْرَط على طلاب الرخص للسعى أو للخدمة أن يلموا بالقراءة والكتابة ، ولسنا بصدد التفصيل فذلك عمل له وقته وله أهله .

هذه المعاهد الليلية المبثوثة فى أرجاء الوادى وأعطافه وأريافه ستكون

— فضلاً عن عملها الثقافى — أداة مضمونة لنشر الإصلاح الاجتماعى فى جهاته المتشعبة وغاياته المتعددة ، فإن الوزارة تستطيع أن تجعل من كل فرد يتعلم فيها بوقاً رافعاً لأصوات وعاظها ومرشديها الذين يساعدون بالمحاضرة فيها على تقوية المدارك وتهذيب العادات وتنظيم العيشة وتدبير الصحة. وسيكون كل معهد من هذه المعاهد الشعبية وحدة اجتماعية يتفرق عنها الضوء والحرارة فى كل بيئة وفى كل أسرة . فإذا قامت الوزارة بذلك ثم حملت وزارة الدفاع على أن تعلم الجيش المرابط والجيش العامل فقد ظفرنا بقتل الأمية فى قليل من الزمن بيسير من النفقة . وإذا قتلنا الأمية فقد أحيينا فى الشعب خمود الحس وموات الضمير ومعنى الواجب .

ستقول الوزارة من أين لى المال وقد ولدتنى الضرورة لأعيش على ماطفح من رجال الدواوين وما فضل من مال الوزارات ؟ وجوابنا أن الوزارة التى لاتقوم على المال ، لاتنتج غير الأقوال. وربما كان ذلك علة مانرى من نزوع هذه الوزارة فى سياستها الإصلاحية إلى الوسائل الكلامية حتى حدثتها نفسها أن تنشىء لها مجلة خاصة بها تملأها بالمقالات والمناقشات والقصائد والحكم والأمثال لتكون كمجلة (التعاون) و (زميل الفلاح) و (المجلة الزراعية) و (الصناعة والتجارة) آلةً شرهة لاستهلاك الورق والحبر فى غير رحمة ولا جدوى !

يا معالى الوزير ، إن فن الكتابة مستقيم فلا يحتاج إلى إصلاح ، وإن سيل الكلام دافق فلا يفتقر إلى رفد ، وإن ميادين العاصمة مكتظة بالمجلات فلا تتسع إلى زيادة ، وإن ما عندكم من مذخور البلاغة لا يختلف عما عند

الناس فلماذا تؤثر النظر على العمل وتبذر الجهد والمال والوقت فى استثمار الصفصاف واستيلاد العقيم ؟ إن الذين يستطيعون أن يقرأوا المجلة العتيدة هم بثقافتهم مستغنون عنها ، والذين يهمكم أن يقرأوها لا يستطيعون لأميتهم أن يستفيدوا منها فأعدوا القارىء قبل أن تعدوا المجلة ؛ وإعداد القارىء هو الميدان الأول لجهاد الوزارة فإذا انتصرت فيه فقد ضمنت النصر المؤزر فى سائر الميادين :

على أن تثقيف الشعب من طريق التعليم فى هذه المدارس الشعبية لا يكلف الحكومة أكثر مما تكلفها الفرقة القومية أو معونة الفرق المسرحية الأجنبية والخير الذى تصيبه الأمة من وراء هذه الكتاتيب المتواضعة لا يجوز أن يوازن به عمل لا يزال صلاحه فى ذاته أمراً مشكوكاً فيه .

هذا بعض ما يدخل تحت عنوان (الجهل) أجملناه فى هذه الأسطر لتمضى الوزارة فى سبيل التفكير فيه . وفى ظننا أنها ستجد فى طوايا بحثه أبواباً للعمل وسبلا للاصلاح تغنيها عن المشروعات المبتسرة التى تلقفها من المجالس ، والموضوعات المرتجلة التى تأخذها عن الصحف .

الفقر

الفقر هو العنوان الثانى فى الدستور الإصلاحى لوزارة الشؤون الاجتماعية كما نقترح أن يكون وإذا قلت الفقر فقد عنيت بهذه الحروف الثلاثة كل ما يقع فى ذهن المرء وخياله وحسه من معانى البؤس والألم والأسى والجريمة والرذيلة والذلة والمسكنة والعداوة والانتقام والثورة . وأى مجتمع يتسنى له أن يلتئم

أو ينتظم أو يسعد ما دامت هذه الآفات تلح عليه بالاعتلال والانحلال والوهن ؟ وأنت إذا تقصيت بالنظر المتأمل أحوال الناس وأهوال الدنيا وجدت تنازع القوت هو المشكلة الأزلية للحياة ، والفقر هو النكبة الأبدية على النظام ، والجوع هو السبب القريب أو البعيد لكل ثورة فى تاريخ الأمم وكل جريمة فى حياة الأفراد فهل فى حدود الجائز إذن أن نطلب إلى وزارة الشئون الاجتماعية أن تبيد الفقر وتقتل الجوع كما طلبنا إليها أن تمحو الأمية وتنسخ الجهالة ؟ لا وا أسفاه ! لأن شمول العلم أمر تقتضيه الفطرة وتجيزه القدرة ، ولكن شمول الغنى شىء تأباه الطبيعة ويمنعه العجز . وما دام الناس مختلفين فى الذكاء والقوة ، فلا بد أن يختلفوا كذلك فى النفوذ والثروة والتفاوت فى الطبع والكفاية والحيلة والوسيلة مبدأ مقرر فى الطبيعة ونظام مسلّم فى الدين . إنما نطلب إلى وزارتنا المصلحة أن تخفف من نوائب الفاقة وتكفكف من غوائل الجوع بتقريب المسافة بين الغنى والفقر ، وتنظيم العلاقة بين القوة والضعف ؛ فإنها إن نجحت فى تحقيق هذين الأملين فقد نجحت فى إقرار السلام فى النفوس وإحكام النظام فى المجتمع .

ولكن كيف تستطيع وزارة الشؤون الاجتماعية أن تخفف آلام هذه العاهة المستديمة ما دامت لا تستطيع أن تحسم أسبابها بالطّباب الناجع ؟ تستطيع ذلك من طريق الدين ومن طريق التشريع ومن طريق الإدارة . فأما ما تستطيعه من طريق الدين فجباية الزكاة وتنظيم الإحسان وجباية الزكاة فريضة على الحكومة المسلمة ، كما أن أداءها فريضة على الشعب المسلم ؛ فلا يجوز للوزارة أن تكل أمرها لحرية الضمير وإرادة النفس ، فإن طمع الناس فى عاجل ثواب

الدنيا أقوى من طمعهم فى آجل ثواب الدين . ومن أجل أداء الزكاة كان ارتداد العرب عن الإسلام فى عهد أبى بكر . إنما يجب أن تجبى الزكوات بالاضطرار كما تجبى ضرائب الأرض وعوائد العقار ، وأن يكون لوزارة الشؤون الاجتماعية جُباة كما كان لوزراء المالية صيارف . ولا بأس أن يترك الاختيار فى الإحسان ، على أن يستعان على غرسه فى القلوب وجمعه فى الأيدى بفرقة من الرجال والنساء تدخل البيوت والمكاتب على الأغنياء والغنيات من الأفراد والشركات ، فيذكرونهم بأن الله الذى خلقهم وخلق الفقراء قد جعل جُمعة ما بينهم و بينهم قائمة على أساس من المودة والرحمة : فإذا ما جمعت الزكوات والصدقات من طريقىْ الطوع والكَرْه تجعل فى (بيت المال) لا فى (الخزانة العامة) ثم تدير على قواعد النظم الحديثة فى التأثيل والاستغلال ، وتنفق فى إنشاء الميآتم[1] والملاجىء والمستشفيات ، ويستعان بالفرقة التى جمعت الإحسان من بيوت الأغنياء ، فى توزيع المعونة على المتعفف المجهول من بيوت الفقراء .

وأما ما تستطيعه الوزارة من طريق التشريع فسن القوانين لحماية العامل والفلاح من صاحب المال ومالك الأرض ؛ فإن أكثر ما يصيب الطبقة العاملة من المحن والإحن إنما ينشأ من إطلاق الحرية الطاغية لأصحاب الأموال الذين يستثمرونها فى التجارة أو فى الصناعة ، ولأرباب الأطيان الذين يستغلونها بالتأجير أو بالزراعة .

---

(١) الميآتم : جمع ميتم وهو مكان لليتامى المتروكين يربون فيه ويعلمون ، وهو بهذا المعنى مستعمل فى العراق ، والعامة تستعمله خطأ فى معنى مأتم .

فهؤلاء وأولئك على قلتهم يتحكمون فى الأجَراء و يستبدون بالمستأجرين ولا تدركهم بهم رحمة الخالق بالخلق ولا عناية الصانع بالآلة .

و إذا شاءت الوزارة أن تحقق ما يعانيه العامل والصانع من أولى العمل ، وما يقاسيه الأجير والزارع من ذوى الطين ، تكشف لها أستار المجتمع عن مآسٍ مروعة من الظلم والغبن والطمع والأثرة لا يستطيع منع تمثيلها المحزن المخزى غير سلطان القانون .

بقى ما تستطيعه الوزارة من طريق الإرادة وهو يشمل ما لا يدخل فى نطاق الدين أو القانون بنص صريح ، كمكافحة البطالة بتيسير سبب العمل للعامل ، وتدبير رأس المال للصانع ، وتمصير المعامل والمصانع والمتاجر والمصارف والشركات يداً ولساناً ليحل الوطنيون المتعطلون فيها محل الأجانب ، وذلك مورد للرزق يمكن أن يعيش عليه ألوف من الأسر المحرومة أهملته الحكومات السالفة لاشتغالها بسياسة الكلام وخصومة الحكم عن كل نافع .

* * *

بهذه الخطة المحكمة لكفاح الفقر بمعونة سلطان الدين وسطوة القانون وقوة الحكومة تستطيع الوزارة أن تنقذ من غوائله الطفولة المعذبة والشبيبة المشردة والشيخوخة العاجزة والأسر المنكوبة والكفايات المعطلة ، وأن تطهر المجتمع مما يجره عليه بقاء هذه الأحوال من فساد الأخلاق ونغل القلوب واضطراب الأمن وقلة الانتاج وكثرة الجرائم . ونجاحها فى ذلك معناه بناء المجتمع المصرى على أسس جديدة من تقوى الله ورضوان الناس وتعاطف النفوس وتعاون القوى وتضامن الأمة

المرض

بعد الجهل والفقر لابد أن يجيء المرض فهو فى الترتيب الطبيعى ثالث العناوين البارزة فى دستور وزارة الشؤون الاجتماعية .

وإذا كان الجهل يمنع أن يكون لنا رأى عام ، والفقر يمنع أن يكون لنا خير مشترك ، فإن المرض يمنع أن يكون لنا كيان صحيح وإذا لم يكن للمجتمع رأى عام ولا خير مشترك ولا كيان صحيح ، فسمه ما شئت إلا أن تسميه أمة

ولعل المرض كان العَرَض الملازم الذى يَميز الشقاء المصرى من كل شقاء فى العالم وإن أثره فى تاريخنا الاجتماعى كان كأثر الزلازل والبراكين والحروب فى تاريخ البلاد الأخَر . فقد كانت الأوبئة تفد إلى مصر عاماً بعد عام فتجتاح نصف السكان وتصيب النصف الآخر بعاهات تدعه كالشجر اليابس لا للظل ولا للثمر . والعلة الأصيلة فى ذلك أن أبانا النيل منذ شقه الله يجرى فيكون الخصب والنضارة والحياة ، ثم يركد فيكون الجدب والذبول والموت . وفيضانه ونقصانه يتعاقبان تعاقب الجديدين . فإذا فاض أنعش الذاوى وجدد البالى وأحيا الموات . وإذا نقص تخلفت بقاياه فى أجواف المصارف وأطراف الترع ومناقع الأرض فتكون مزارع خصبة لجراثيم التيفود وبعوض الملريا وقواقع البلهرسيا وديدان الأنكلستوما ، وبنو النيل الدائبون البررة لا ترتفع أيديهم من مائه ، فى حالى نقصه ووفائه ، فخيرهم منه لا يزال مشوباً بالشر ، ووجودهم لا ينفك مهدداً بالعدم فإذا أضفت إلى ذلك أن الجهل يستوجب

فساد العيش وترك الوقاية ، وأن الفقر يستلزم سوء الغذاء ونقص العلاج ، فقد اجتمعت لك أسباب المرض التي جعلت الكثرة منا مذبذبين بين الدور والقبور لا هم في الأحياء ولا هم في الموتى !

إذا استطعت أن تقيم البناء من ناخر الحجر ، وتنسج الرداء من رثيث الخيط ، استطعت أن تؤلف من مهازيل المرض وسُقَاط الوهن شعباً يستغل الأرض وجيشاً يحمى الوطن .

تعال نزر قرية من قرى الريف فأريك كومة مبسوطة من سباخ الأرض ، في مستنقع واسع من آسن الماء ، قد قامت عليها أبنية من الطين والقصب والخشب تجمعت على ظهورها المراحيض والمزابل ، وتكدست في بطونها الناس والبهائم ، وتطرحت على أبوابها ومصاطبها الرجال والأطفال ، وقد هدَّتهم العلل وبَرَتهم الأسقام حتى ليعجزون عن دفع الذباب عن وجوههم الساهمة الشاحبة . فاذا سألت هؤلاء المنهوكين بالزُّحار والصُّفار والسُّلال والطُّحال[1] والحمى والرمد : من الذى يزرع الأرض ، ويتعهد الزرع ، ويحصد الثمر ، ويجمع الحصيد ، وينجل العلف ، ويرعى الماشية ؟ قالوا لك : يعمل ذلك كله قليل من الشبان الذين يدافعون المرض بالجلَد ، وكثير من النساء اللاتي يغالبن الضعف بالصبر . ومما ترى وتسمع يتبين لك أن تروز[2] العبء الذى تحاول وزارة الشؤون الاجتماعية أن تضطلع به .

* * *

ولكن هل من الحق أن يلقى عبء الصحة العامة على كاهل هذه الوزارة

(١) الطحال بالضم داء يصيب الطحال بالكسر .
(٢) راز الحجر ونحوه رفعه ليعرف ثقله .

المقدوحة بأمور المجتمع ؟ إذن فماذا تصنع وزارة الصحة ؟ والجواب أن الجهاد الصحي مفروض على الوزارتين جميعاً بنظام تقتضيه طبيعة كل منهما فلا يُثقل إحداهما ولا يعطل الأخرى . فكل ما يتصل بالوقاية والصيانة يرجع إلى وزارة الشئون الاجتماعية ، وكل ما يتعلق بالطب والعلاج يعود إلى وزارة الصحة وقد يجوز لهذه الوزارة بحكم خصوصها أن تصون وتقي ، ولكن لا يجوز لتلك الوزارة بحكم عمومها أن تعالج وتَطب .

فمن الطب الوقائي المنوط بوزارة الشئون تخطيط القرية على نمط يكفل لها الشمس والهواء والجمال والذوق والراحة ، وفصل الحظائر والمزابل عن المساكن ، وتجفيف البرك والمستنقعات ، وتطهير الماء الراكد من الطفيليات ، وإنشاء المغاسل والمراحيض العامة ، ورفع مستوى المعيشة القروية بتحسين الغذاء وتنقية الماء وتعميم النظافة ، وإرشاد الفلاحين عن طريق الإذاعة والصحافة والوعظ إلى أنجع الوسائل في اتقاء العدوى وتدبير البدن .

ذلك عملها في القرية . وأما عملها في المدينة فبناء المساكن الصالحة للعمال ، ومراقبة المعامل والمصانع من حيث الصحة ، وملاحظة المطاعم والمشارب من حيث النظافة ، ومراعاة الطعام والشراب من حيث السلامة ، وحماية الطبقة العاملة من رهق العمل ، ووقاية النفوس الغاوية من سموم المخدرات ، وبث الروح الرياضية في كل طبقة ، وإنشاء الملاعب والمسابح والأندية في كل بيئة ، وإقامة المسابقات النهرية والبرية في كل فرصة ، وتفريج الهموم بإقامة المهرجانات الشعبية في كل مناسبة ، وتعميم الثقافة الصحية عن طرق التعليم والإذاعة والنشر .

* * *

هذا مجمل ما ينبغي أن تقوم به وزارة الشؤون الاجتماعية لمكافحة المرض . فاذا أضفناه إلى ما أجملناه قبلا من الوسائل الفعالة فى كفاح الجهل والفقر كان لنا من مجموع ذلك برنامج كامل شامل لا يعوزه غير التنفيذ . فليت شعرى أتظل الوزارة واقفة من شؤونها الاجتماعية موقف خراش من ظبائه[1] ، أم تجرى على هذه الخطة الواضحة فتأتى كل أمر من وجهه ، وتعالج كل داء بدوائه ؟

(١) إشارة إلى قول القائل :

تكاثرت الظباء على خراش فما يدرى خراش ما يصيد

هذا هو المنهاج فكيف يكون المسير؟

(٢٠ نوفبر سنة ١٩٣٩)

حاولنا فيما سبق من القول أن نرسم لوزارة الشئون الاجتماعية معالم المنهج الذى تسلكه مخافة أن ينتشر عليها الأمر وتلتبس الوجهة. ثم تركنا لرجالها المختصين توضيح الرسوم وتحديد التخوم وتعيين المراحل. ولكن رسم المنهاج لا يكلفنا ولا يكلف الوزارة غير ساعات من النظر والفكر والكتابة ، وإنما عماد الأمر وملاكه أن تُنهج السبيل وتنفذ الخطة وتبلغ الغاية ويلوح لى أننا نكلف الوزارة شططاً إذا أردناها على إصلاح الفاسد وإقامة المعوج وهى على حالها الحاضر ووضعها القائم.

ماذا عسى أن تفعل وزارة موظفوها خمسة عشر موظفاً ، وليس لها وكيل ولا نظام ولا سلطة ولا خزانة ؟

لقد صدق الأستاذ الذى قال : إن وزارة الشئون الاجتماعية مشروع وزارة لا وزارة فإن خمسة عشر موظفاً من مختلف الوزارات كشليلة خيط من غير رأس ، أو كشركة إنتاج من غير مال ، لا يستطيعون أن يفكروا إلا فى لجنة تعقد أو قرية تزار أو مقالة تذاع أو مجلة تحرر ، أما تنفيذ الرأى وتكوين النتيجة وتوفير الثمرة فذلك شىء فوق الطاقة لمن لا يملك إليه الوسيلة.

ولقد كان فى وزارة الصحة عبرة لوزارة الشئون الاجتماعية لو أنها التمست

هداها على ضوء الدرس المنظم والتجربة الحاصلة والخبرة المختصة ؛ فإن وزارة الصحة قد فكرت منذ عامين فى كفاح المرض فهيأت له الأسباب وأرصدت الأهب ، فجعلت لكل جماعة من الناس طبيباً عاما ، وسيرت إلى كل جهة من جهات القطر مستشفى متنقلاً ، ولكنها لم تعد المال الكافى لشراء الأدوية وتجهيز العلاج فظل أطباؤها من غير عمل ، و بقيت سياراتها من غير حركة

* * *

إن وزارة الشئون الاجتماعية فكرة موفقة ما فى ذلك ريب . وليس من الغلو فيما أظن أن تكون ميزانيتها وسطا بين ميزانيتى الصحة والمعارف ، فقد علمنا أن اختصاصها يكاد ينبسط على كل شىء فى هذا البلد على أن المال الذى يقدر لهذه الوزارة فى ميزانية الدولة هو وحده النصيب الحق لهذا الشعب المسكين من ثروته العامة ؛ فإن أكثر ما يجبى من موارد الوطن المشتركة إنما يذهب إلى الحكومة لا إلى الأمة ، و إلى الأغنياء لا إلى الفقراء ، و إلى المدائن لا إلى القرى وجمهور الشعب هو صلب المجتمع وأداة إنتاجه وعدة دفاعه ، فينبغى أن يكون همّ الخاصة وولاة الأمر مصروفا لسد عوزه وتثقيف عقله وتأمين سلامته ، لا يضنون عليه فى سبيل ذلك بمال ولا جهد .

إن رئيس الوزارة الذى يتذرع لتقوية الدفاع الوطنى بكل الذرائع ، لا يمكنه أن ينسى مادة ذلك الدفاع ولا هيكله من العمال والصناع والزراع ومن يقمن على رعايتهم وخدمتهم من أم وزوجة ·

فلعله يقرع بصوته العالى أسماع أولئك الأمراء والأغنياء فينزلوا عن بعض

ترفهم وسرفهم للجيش أسوة بمن يضحون بأرواحهم وأموالهم فى سبيل وطنهم من أمراء انجلترا وأغنياء فرنسا ؛ فإنهم إن فعلوا ذلك — وبعيدٌ أن يفعلوه طائعين تسنى له أن يجد المال الضرورى للشئون الاجتماعية . ومن ثمَّ يتسنى لوزارة هذه الشئون أن تنهض بما ألقى عليها من عبء ، وأن تحقق ما نيط بها من أمل .

* * *

نعم هذا هو المنهاج فكيف يكون المسير ؟ هيهات أن تسير وزارة الشئون الاجتماعية إلا على قدمين من عزم ومال فمتى تيسر لها المال وتوفر لها العزم كان عليها يومئذ أن تعيد النظر فى تنظيمها وتقسيمها على أساس مكين من الحاجة والكفاية والاختصاص ، فإن الإسراف فى قلة الموظفين كالإسراف فى كثرتهم سواء بسواء والعدول عن الكفء إلى غيره جناية على العدل وإنكار لفائدة العمل ووضع الأمر فى غير أهله أقصر الطرق إلى الفوضى المربكة والفشل المحقق وإذا كانت الوزارات الأخَر تجرى على سَنَن من التقاليد الموروثة والأنظمة الآلية والأعمال الرتيبة ؛ فإن هذه الوزارة الجديدة فى وضعها وموضوعها حرية بأن تكون مثلاً يحتذى فى اختيار الموظف وابتكار الطريقة وتبسيط الإجراء ودقة المراقبة وحسن التوفيق بين قدرة العامل وطبيعة العمل ، وفرض المسئولية على كل موظف بمنح الاستقلال الذاتى لكل وظيفة وتجربة النظم الحديثة فى الجديد المنشأ أسهل منها فى القديم المجدد وتحويل الوزارة القديمة بمصطلحاتها وطفيلياتها ومحاباتها وفوضاها إلى وزارة جديدة بطريق التنظيم ، أدخل فى باب المحال من تحويل المدينة العتيقة بمنعرجاتها

ومنعطفاتها ومضايقها إلى عمـــارة حديثة بطريق الترميم

وملاك الأمر في الإصـــــلاح الدرس والروية والمشورة والعزيمـة والنفاذ ، على أن يكون كل عمل في وقته . وكل رأى في وجهه ، وكل أمر في أهله ومدار النجاح في العمل العظيم على الرزانة والجد فاذا قضى الله أن يعاجلك الفشل دون التمام ، فخير لك أن تفشل بالصمت لا بالـــكلام !

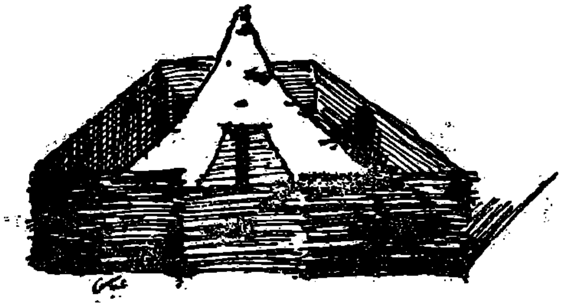

جسومنا وعقولنا بين الصحة والمعارف

(٤ ديسمبر سنة ١٩٣٩)

إذا عجبت من أن تقوم فينا وزارة المعارف قرناً ونيفاً ثم يظل ثمانية أعشارنا أميين ، فإن أعجب العجب أن تقوم فينا وزارة الصحة زهاء هذا العمر الطويل ثم لا يزال تسعة أعشارنا مرضى !

ولا تحسبن ذلك لأن شعبنا بدع من الشعوب ، هواه فى أن يجهل ومزاجه فى أن يمرض ، فإن الله لم يخلق إلى اليوم إنساناً يكره المعرفة ولا حياً يرفض السلامة . إنما السبب الأول فى هاتين الظاهرتين الخاصتين بهذا البلد أن القائمين على ثقافته والمسئولين عن سلامته قد حصروا همهم فى الديوان ، وقصروا جهدهم على الشكل ، فلم يشغلوا ذرعهم إلا بالتعيين والنقل والترقية والميزانية والدرجات والامتحانات والتقارير والتجارب والدسائس ، ولم يكلفوا أنفسهم النظر من نوافذ المكاتب الرسمية إلى هذا الشعب الذى يعيشون عليه ويعملون له ، فيضعوا سياستهم على مقتضيات حاله ، ويرسموا خطتهم على دواعى حاجته

* * *

أما الحديث عن ماضى المعارف وخيبتها فى كفاح الجهالة وتبعتها من هذه الخيبة ، فقد جف من تكراره المداد والريق ؛ فلندعها فى ذمة رجالها . ولنمض فى الحديث عن وزارة الصحة ، فقد راعنا أن يتخطفنا الموت اختضاراً[1] وعلى حراستنا جيش من الأطباء له المستشفيات المنشأة على آخر طراز ،

(١) اختضر فلان بالبناء للمجهول : مات شاباً غضاً .

والمعامل المجهزة بأحدث جهاز ، والصيدليات المزودة بأندر الأدوية ؛ وأصبحنا كلما رأينا القرى والقبور تكتظ بضحايا البلهرسيا والأنكلستوما والطحال والملاريا والبلغرا وداء الفيل ننكر الواقع ونفكر ونطيل التفكير ، ثم نسأل ونكثر السؤال : هل فى مصر وزارة للصحة ؟ وهل فى وزارة الصحة أطباء ؟ وهل لأطباء الصحة ضمائر ؟ ولا تكلفنى الإبانة عن آراء الناس ، فإنك تستطيع أن تسأل هذه الأسئلة فيكون لديك من الأجوبة عنها ألوف مختلفة الصيغ والأساليب فى التألم والتهكم والاتهام والشكاية والزراية والضغينة واليأس . ثم تسمع عن المستشفيات الحكومية فى حواضر الأقاليم شجوناً من أحاديث الإهمال والقسوة والفوضى وغير ذلك مما نمسك عن ذكره محافظة على ما بقى فيها من الثقة . ولكننى أحد الذين جُندوا فى جيش الإصلاح وفُرض عليهم أن تكون أقلامهم عارية كالسيف ، وأصواتهم عالية كالمدفع ، وألسنتهم صريحة كالحق ، فأنا أروى لك حال قريتى فى وراثة المرض ، ونصيب قريتى من وزارة الصحة . وحظ قريتى من الأدواء والأطباء هو حظ كل قرية : هى جزيرة من الأكواخ والحظائر فى مستنقع وخيم من مصافى المزارع نمت على عفنها وأسَنها جراثيم الأمراض المتوطنة فجعلت كل وجه فى صفار الخوف ، وكل جسم فى هزال الجوع ، وكل حى فى همود الموت . وقطعت مراحل عمرها الماضى على هذه الحال الشديدة ، لا يزهر فيها شباب ولا تثمر بها كهولة . ولم يكن لمصلحة الصحة يومئذ إلا شبه طبيب فى المركز لا تراه القرية إلا إذا انتشر وباء أو وقعت جناية . وعمله كله مع حلاق القرى : يصرح لهم بدفن الموتى من بعد ، ويكلفهم جلب المرضى إلى عيادته من قرب . وعلاجه قائم على البركة والتوكل : ماء من الترعة القريبة يشتمل على عقار مسهل . فلما صارت هذه المصلحة

وزارة أرادت أن يكون لها كالوزارات عمل ، فأنشأت المستشفيات الثابتة والمتنقلة ، ودرست الأمراض الوافدة والمستوطنة ، وقررت تطهير القرى بقتل الأمراض وردم المناقع . وكان من نصيب حاضرتنا مستشفى ، ومن حظ مركزنا طبيب فأما الطبيب فقد عجز عن ردم البركة لأن مالكها الباشا لا يريد ، وإذا لم يرد الباشا وجب ألا يريد الناس ، لأنه يملك المسئولين الخراف والسمن والفاكهة والكلمة المسموعة . وأما المستشفى فقد دعا القرويين إلى طبه فأهرعوا إليه من كل طريق . وأنحى طبيبه على الأذرع الذابلة بالحقن العنيف ، فخشع الداء وتنبهت العافية وشعر الفلاح أن فى (الاسبتالية) رجاء وفى الطب منفعة . فازداد وفود المرضى على المدينة حتى شَرِقت الشوارع وغص المستشفى وضاقت المساكن فلما وثق الطبيب من الإقبال جعل منزله عيادة خاصة ، وسلط أعوانه على المرضى ينفرونهم من المستشفى ، ويرغبونهم فى العيادة ، حتى أشاعوا أن الطبيب يحقن هنا بالماء ويحقن هناك بالدواء . وأخذ هو يقسو فى المعاملة ويهمل فى المعالجة ويشتط فى القول ، حتى اشتد على الناس الأذى ، وخرجت بهم الأخرجة ، وكثرت الوفَيات ، فانقطعوا فى دورهم مفضلين الموت البطىء الهادىء على الموت السريع المضطرب . وعادت الجراثيم الطفيلية ترتعى فى الكلأ الآدمى المباح ، فلم يبق فى القرية من لم يخامره داء . ثم انتشر من استفحال البلهرسيا داء الطحال ، فانتفخت البطون واصفرت الأطراف وثقلت الجوارح ، فمات به الأكثرون ، ولاذ بعض الأقلين بالقصر العينى يرجون استئصال الداء بالجراحة وقد سمعوا أن أساطين الطب من أساتذة الجامعة هم الذين يتولون الفحص ويزاولون العلاج ويباشرون العملية ، ولكنهم حين دخلوا لم يجدوا إلا أطباء كأولئك الأطباء ، ونظاماً كذلك النظام ، ومعاملة كتلك

للعاملة . أما بقراط وجالينوس وابن سينا فقد اتخذوا من (القصر) عنواناً ومن (الـكلية) وظيفة فهم يحضرون — إن حضروا — ساعة من النهار ، فيقابلون أطباء الامتياز ، ويحادثون طلاب الطب ، وغاية المقابلة أو المحادثة إشارة أو عبارة ، ثم ينقلبون سراعاً إلى عياداتهم أو مستشفياتهم يعملون فيها بقية النهار وطرفاً من الليل بصبر الفقير إلى الناس ، وعزم الـكادح لنفسه .

* * *

هذه حال قريتنا فى عهد من العهود وكل القرى المصرية على هذه الحال وإن الناس لينسجون حول المستشفيات الرسمية من الحوادث والأحاديث ما لا يجرؤ القلم على روايته مهما يشجع . ولعل فى هذه الإشارة ما ينبه أولى الأمر فى وزارة الصحة إلى شدة الحساب ودقة المراقبة ، فان الاعتماد فى كفاح المرض على التقادير والدفاتر والأرقام ، أشبه بالاعتماد فى كفاح العدو على رسم المعارك فى الورق وكسبها بالـكلام !

من صور الريف

لحية بيضاء

ليت شعرى ماذا كان يمكن هذا المخلوق أن يكون لو أنه تعلم ؟ الغالب في الظن أنه لو كان تعلم الحقوق لما برع إلا فى ابتكار الحيل التى تحمى اللصوص ، وتأليف الحجج التى تخدع القضاة ، وتدبير الخطط التى تضلل البوليس . ولو كان تعلم الطب لما اشتغل إلا بتركيب السموم ، وتزوير الشهادات ، وتخدير المدمنين ، وإجهاض الحوامل ولو كان تعلم الأدب لما نبغ إلا فى قصص التجسس والتلصص والائتمار والدعارة . ولو كان تعلم الزراعة لما برز إلا فى رراعة الدخان والأفيون والحشيش ولو كان تعلم الهندسة لما افتن إلا فى اختراع المخابىء السرية والمزالق الجهنمية والمفاتيح التى تتحدى كل قفل

ذلك لأن كل نزعة للشر أو نزغة للشيطان إنما وجدت أصلها فيه بحكم الطينة ومقتضى الفطرة ؛ فهو قروى أمى فقير وضيع ، ولكن غرائزه الشريرة العارمة تندلع من جوانب جسمه كألسنة اللهب أو رجل الأخطبوط فتجعل له شخصية غريبة ، فيها لكل ضرر مصدر ، ولكل خطر اتجاه !

نشأ بين لداته من أطفال القرية كما ينشأ الزنبور بين النحل أو الثعبان بين الحمام ؛ فكان لا ينفك ضارباً هذا بعصا ، أو قاذفاً ذاك بحجر ، أو خاطفاً لعبة من بنت ، أو سارقاً شيئاً من بيت ! فلما جاوز حد الطفولة دخل فى خدمة الفجّار والمجّان ، فكان يخدم أولئك فى تدبير الجرائم ، ويخدم هؤلاء فى إعداد الولائم . وهو فى غضون هذا العهد (التحضيرى) كان لا يفتأ يمرن ملكاته

الإجرامية لحسابه الخاص ، فكان يسرق من البيوت الآنية والثياب ، ومن الحقول القطن والذرة ، حتى صار فى حد الرجال ، فعُد من ذؤبان القرى وغربان الأسواق ، فكل جريمة له فيها يد ، وكل سرقة له منها نصيب !

وكانت مزيته بين اللصوص التجسس والاحتيال والمفاوضة وإخفاء المسروق وتعمية الأثر لأنه كان ضئيل الخلقة فلا يُرهب بمنظره ، ضعيف القوة فلا يغنى بعضله . ثم تفاقم شره واستطار أذاه ، فكان لا يقع إلا على منكر ولا ينقلب إلا فى معصية . غير أن إجرامه ظل من النوع الحقير لضعف بنيته وضعة بيته ، فلم يستطع أن يكون رئيس منسر يفرض الأتاوة بالسطوة ويستغل اللصوص بالنفوذ ، إنما كان أكبر همه أن يسطو فى الليل على أرزاق الأرامل ، ويتدسس فى النهار إلى أموال العميان ، حتى انقضت شبيبته وكهولته على حال متصلة من الإثم لم تسكن جوارحه فى خلالها عن الشر إلا وهو مجروح فى مستشفى ، أو مطروح فى سجن . كل ذلك ولم يدخل فى ملكه عقار ، ولم يجتمع فى جيبه نقد ، ولم يبت فى داره قوت .

فلما قيده الكبَر وحطمه ، وعممه المشيب ولثمه ، أصبح بحكم السن عاجزاً عن نقب الجدار وتسلق الدار ، فأرسل لحيته شبراً تحت ذقنه . ثم ضخم العمامة ، وبيّض الجلباب ، وأمسك المسبحة ، ومشى فى الأزقة مشية الوقار والتؤدة ، يتمتم بالأدعية ، ويجهر بالتحيات ، ويواظب على الصلوات ، ويجلس على المصاطب يتحسس الأخبار ، ويتسقط الأسرار ؛ فإذا وقف على خلاف أو خصومة بين والد وولده ، أو بين أخ وأخيه ، أو بين صديق وصديقه ، أو بين زوج وزوجه ، اندس إليهما بالإغراء ، وسعى بينهما بالنميمة ، وحمّل هذا على ذاك ، حتى تقع الفرقة أو تحل الكارثة . فإذا انتهى الخلاف إلى المحكمة ، وسوس للمتخاصمين

أو لأحدهما بالحيل التى تطمس الحق أو توسع الخصومة أو تعرقل القضية ؛ لأنه يزعم لنفسه العلم بالقانون والمرافعات لطول ما وقف أمام القضاء وعاش بين البوليس . أما إذا خذله الشيطان وتغلب السلام استفز بالسباب حمية بعض الشباب فيضربه ، ثم تكون الترضية أو تكون القضية . فإذا تعذّر الدس وتحاماه الناس عمد إلى قطعة متروكة مما يملك الغير فاحتلها واستغلها ، فتنشب بينه وبين المالك معركة قضائية لا يصبر فيها صاحب الحق على بطء القضاء وتعقد الإجراء وفحش التكاليف ، فيطلب مصالحة الغاصب بالنزول له عن بعض من حقه أو جزء من ماله .

ذلك عمله بالنهار . أما عمله بالليل فصلاة العشاء حاضرة ، ثم إحراق الحشيش جماعة ، ثم التهجد طويلاً ثم الهجود قليلاً ؛ فإذا طلع الفجر الكاذب خرج إلى المسجد يهدج[١] تحت الجدران ، وعيناه تبصان فى حلك الظلام بصيص الحباحب[٢] ؛ فإذا لقى فى بعض الطريق حماراً أو عجلاً أو خروفاً أفلت من الحظيرة ، امتطاه أو قاده ثم انطلق به حثيثاً فى هوادى الليل[٣] إلى أقرب (مركز) من مراكز اللصوص فيتركه هناك ليصرّفوه ويضيفوه إلى حسابه . ثم يعود إلى القرية وقد هتك الصباح ستر الظلام ، فيأوى إلى بيته ندمان على أن فاتته صلاة الفجر مع الإمام !

وفى ليلة نادية من ليالى المحاق خرج المتعبد القانت على عادته يريد المسجد . وكان الناس قد فطنوا إلى فقد الصغار من مواشيهم فأغلقوا الزرائب وأحكموا الإغلاق . فلما أرسل عينيه الثاقبتين فى الخرائب والأجران فلم تقعا على حيوان مهمل أو متاع متروك ، أخذ يهوّد[٤] فى مشيه ثم وقف يفكر . وكانت نفسه الغوية قد

---

(١) هدج الرجل : مشى مشية الشيخ (٢) الحباحب ذباب يطير له شعاع فى ذنبه كالسراج (٣) هوادى الليل : أواخره (٤) هود : مشى مشياً ساكتاً فاتراً .

استهواها الظلام والسكون فعض عليها الشر وعصفت بها المغامرة ، فرجع إلى داره وأخذ معولاً وعتلة ثم انحط من بعض السطوح على دار العمدة ثم شرع ينقب الجدار عن عجل السامرى[1]

دُهم الشيخ فى السَّحر وسيق فى الصباح إلى مركز البوليس ، فحاول أن يدحض التهمة عن نفسه بانخراع متنه وابيضاض شعره وارتعاش يده فلم يوفق .

ودخل المجرم السجن أشوق ما يكون إليه ، وبدد الحلاق على أرضه الخشنة الغبراء خصل لحيته الكثيفة البيضاء ثم لبث فيه ما لبث ، وخرج الناس يسلط عليهم النمائم ، ويزرع بينهم الضغائن ، ويدبر فيهم المكايد ، حتى سولت له نفسه بالأمس أن يخزن قمحه قبل أن تأخذ وزارة التموين نصيبها المفروض منه ، فتجاهل السلطة ، وتحدى العمدة ، وضرب الحارس . ثم بات هو وأهله فى سجن (المركز) ، ثم قدموا فى الصباح جميعاً إلى المحكمة العسكرية

تلك صورة من صور الريف الكريهة قد قدمناها مصغرة إلى المشتغلين بعلم النفس الجنائى لعلهم ينتهزون هذه الفرصة قبل أن تفوت ، فيدرسوا هذا الرجل العجيب قبل أن يموت !

---

(١) كناية عن الذهب وقصة موسى السامرى وعجله الذهبى معروفة

صاحب المعالي وزير المعارف

على ذكرى مراقبة الثقافة العامة

(١٨ ديسمبر سنة ١٩٣٩)

عرفك الناس ياصاحب المعالي في جميع أطوار النهضة وأدوار الجهاد رجل جد وعزيمة ، وصاحب رأي ونفاذ . ولعلك واحد الزعماء في حب الصمت وكراهة الإعلان و إيثار العمل . ولقد كان توليك أمور المعارف أمنية من أماني النفس المصلحة طالما هفت بقلبك وقلوب رجال الثقافة فإن دواء وزارة التعليم قد استفحل وأعضل حتى استيأس منه الطبيب والعائد . وأنت من الرجال القلائل الذين عرفوا أن هذه الزمانة التي خزلت هذه الوزارة عن السير في عصر السرعة إنما هي الفوضى في سياستها والذبذبة في ساستها والتواكل في جنودها وكنت تنظر إليها من بعيد وهي تمشي متخلجة متخلفة فترجو أن يتيح الله لها قوماً غير القوم فينفخوا فيها من روح العصر ونشاطه ما يساعدها على مسايرة النهضة ومواتاة الحاجة .

وها أنت ذا قد أتاحك لها الله كما رجوت ورجا أنصارك ، وقد استقر الأمر واتسق الحكم واستبان الطريق وعلى رأس الدولة ملك ديمقراطي النزعة عمري الإصلاح ، يريد أن يكون عهده السعيد عهد مصر الذهبي في العمران والعرفان والسلطان والمنعة وعلى رآسة الحكومة رجل قوي الإرادة نزيه السياسة حر الضمير ، يود أن يكون حكمه حكم الأمة في إشاعة الخير ، وتوخي المنفعة ، وتعميم العدالة ! ولك وكيل منطقي الرأي أصيل الثقافة يتساير هواك وهواه في الطريقة والغاية فنحن إذن حريون أن نرى وزارة المعارف في عهدك شيئاً آخر يختلف

عن هذا الشيء فى روحه وعمله وغرضه ومداه

* * *

إن مراقبة الثقافة يامعالى الوزير هى الناحية التى ستخرج منها الوزارة عن سياستها الديوانية التقليدية التى انحصرت إلى اليوم بين جدران المكاتب وأبواب المدارس فلم تتصل بالفكر العام اتصالاً مباشراً تغذيه أو تهديه أو تعاونه . فى هذه الناحية الجديدة ستلتقى الوزارة بالشعب وترى بعينها أنها فرطت فى جانب الثقافة العامة تفريطاً لا يسعها فيه عذر فالأدب لا يزال ناقصاً فى نوعه ، قاصراً فى بيانه ، قليلاً فى نتاجه ، ضعيفاً فى انتشاره . فهو ناقص فى نوعه لأنه أنكر قديمه وجهل جديد الناس فلم يُغذِّه ماض ولم ينمه حاضر ، فبقى مُخدَّج الخَلْق لا هو ميت ولا هو حى ولقد كان أدبنا القديم فى حدود مراميه اللسانَ العام لخوالج الإنسانية فى أكثر بقاع الأرض ، فلم تكن هناك فكرة تجول فى ذهن كاتب ، ولا صورة تتمثل فى خاطر شاعر ، إلا وجدت فى هذا الخضم المحيط صَدَفة تستقر فيها فلما تحولت عن مذاهبه الأنهار وجفَّت على جوانبه الروافد عاد كالبحيرة الراكدة المحدودة لا يمدها إلا قطرات المطر ودفعات السيل من حين إلى حين . فالقارىء العربى الحديث لا يجد فيما أثر منه ولا فيما استجد فيه غذاء عقله ولا رضا شعوره ؛ لأن المأثور منه ناقص لا نقطاعه عن سير المدينة ، والجديد فيه ناقص لخلوه من الآداب الأجنبية . والغريب أن المرء يقرأ أى نابغة من نوابغ العالم فى أى لغة من لغات التمدن إلا فى اللغة العربية ! فالتركى مثلاً يستطيع أن يقرأ فى لغته هوجو كله ، وشكسبير كله ، وجيته كله ؛ ولكن العربى لا يجد فى لغته لهؤلاء العالميين إلا كتاباً أو كتابين اختارهما مترجم على ذوقه ونشرهما على حسابه . فإذا أردنا يامعالى الوزير لأدبنا أن يتسع فى حاضره كما اتسع فى ماضيه ،

فليس لنا اليوم غير سبيل الأمس : نرفده بآداب الأمم الأوربية ، ونصله بتيار الأفكار الحديثة ؛ فإن لكل أمة مزايا ، ولكل بيئة خصائص . ولن يكون أدبنا عالمياً ما لم يلقح بآداب العالم . والمحاكاة والاحتذاء من أقوى العوامل أثراً في الأدب

والأدب العربي قاصر في بيانه ، لأنه مقطوع الصلة بحضارة العصر ، فلا يستطيع أقدر كتابنا أن يتحدث عما يستعمل من ماعون وأثاث ، ولا أن يصف ما ركب من باخرة أو طائرة . ومجمعنا اللغوي ليس في مقدوره بحكم تأليفه وطريقة عمله أن يقدم إلى الناس معجمه العتيد إلا بعد جيل أو جيلين ، حين يكون كل شيء في العلم قد تغير أو تطور ، فيصبح معجمه في الجدة يومئذ كمعجم لسان العرب اليوم ! فلابد لهذه الحال من علاجك الحاسم يامعالي الوزير ، فإن اللغة الناقصة هي نصف البكم إن لم تكن أكثر الجهل !

والأدب العربي قليل في نتاجه ضعيف في انتشاره ، لأن الأدباء ينتج بعضهم لبعض ؛ فهم الذين ينشئون وهم الذين يقرأون . أما الخاصة فلجهالتهم لا يفهمونه ، والعامة لأميتهم لا يعرفونه . وإذا حُرم الأدب تشجيع الخاصة لا يزدهر ، وإذا لم ينل إقبال العامة لا ينتشر ، وإذا لم يكن حاجة هؤلاء وهؤلاء لا يتنوع . وعلاج ذلك يامعالي الوزير تعويض الأدب من تعضيد الجمهور بالمكافآت والجوائز ؛ فإنها تحفز القرائح للعمل ، وتضمن الإجادة بالتنافس ، وترفع المستوى بانتخاب الأجود . وبضعة آلاف جنيه من الخزانة العامة ينفق أضعافها في تمهيد طريق أو تجميل بناء تخلق في الأمة أدباء عالميين ، وتجمع لها من الأدب الصحيح ثروة

وملاك ذلك كله يا معالى الوزير أن تفكر مراقبة الثقافة العامة فى أمرين جليلين : أحدهما إنشاء دار للترجمة تنقل الآداب الأجنبية نقلاً كاملاً صحيحاً ، فلا تدع نابغة من نوابغ العالم فى العلم أو فى الأدب أو فى الفلسفة إلا نقلت كتبه ونشرتها على حسب ترتيبها وتبويبها فى طبعاتها الأصلية . والآخر تأليف مجمع للأدب يقوم على رعايته وتوجيهه وتشجيعه ونشره ؛ ثم يكون لقرائح الشباب وهى فى أول الشوط مناراً وحمى ، ولعبقريات الشيوخ وهى فى آخره أمنا ومثابة . والأستاذ المراقب الذى اخترته يا معالى الوزير أقدر من يحقق الرجاء فى هذه المراقبة متى ظفر بتسديدك وتأييدك وعطفك

وعلى الأرض السلام

(٢٥ ديسمبر سنة ١٩٣٩)

فى هذا اليوم يحتفل المسيحيون بذكرى مولد المسيح عيسى بن مريم ، وفى ليلة هذا العيد المجيد بات القسس والرهبان يرتلون وحدهم بين أروقة البيع وصحون الكنائس ذلك القنوت الشعرى الجليل :

« المجد لله فى الأعالى ، وعلى الأرض السلام ، وفى الناس المسرة » .

وربما تابعهم الأقوام فرتلوا وهللوا جرياً على التقليد وخضوعاً للعادة ؛ ولكنهم وا أسفا لا يجدون في الآدق ولا في أنفسهم معنى هذا النشيد ، ولا حقيقة هذا العيد !

* * *

فى أى جهة من جهات الأرض ذلك السلام ؟ وفى أى قلب من قلوب الناس تلك المسرة ؟ لقد عادت روح يهوذا الأسخريوطى فى جسد هتلر فدل على السلام الإلهى أبالسة الشر وزبانية الجحيم فصلبوه فى بولندة ، ومكّنوا فى الأرض لعوامل القحط والموت ، فأوقروا مائدة عيسى سماً وصابا ، وأنبتوا شجرة ميلاده هماً وعذاباً ، وحولوا أعشاش الأسر ورياض الحقول قبوراً موحشة على كل قبر منها ركام من الثلج وصليب من الخشب !

لكأنى بك يا روح الله كنت تمشى من الناصرة إلى بحيرة الجليل ، ومن صفد إلى كفر ناحوم ، وأنت ناكس الرأس ساهم الوجه ، يعتلج بين جوانحك الهم ، ويجول فى مآقيك الدمع ، لأنك كنت ترى بعين الله التى تخترق

الأزل والأبد كيف تلازَم الشر والخير فى ملكوته ، فابتلَى آدم بإبليس ، وموسى بالسامرى ، وعيسى بيهوذا ، ومحمدا بأبى لهب ؛ وقضى ألا تخلو الأرض من أتباع هؤلاء وهؤلاء ، ليدوم صلاحها بمدافعة بعض لبعض ، حتى إذا طغت قوى الشر وسادت عناصره أرسل عليها طوفان نوح بالماء أو بالوباء أو بالدم أو بالنار فترعوى وتهمد !

وكان الشر فى عهد المسيح وقحاً يتبسمر فى عيون الروم ، ويتنمر فى نفوس اليهود ، فأخذ هو وحواريوه يكفكفون طغيانه بالمسالمة ، ويخففون عدوانه بالصفح ، ويسعفون ضحاياه بالمواساة ، ويشفون مرضاه بالدعاء ، ويحاربون أولياءه بالوعظ . ولكن الشر كان قد تفاقم واستطار فلم يرتدع باللين حتى جاء محمد رسول الله فرد جماحه بالسيف . وظلت محنة عيسى عليه السلام ألماً واخزاً فى ضمير الإنسانية لا يفتُر ، وأنيناً موجعاً فى أذن الدهر لا يخفت وتوالت القرون وتعاقبت الدول وتتابعت الحضارات ، ولا يزال إبليس والسامرى ويهوذا وأبو لهب مُنْظَرين فى الأرض ، يدعون إلى الشر ويُرغِّبون فى الرذيلة ويعملون للفساد ، والعالم المسكين يتدرع فى جهادهم بالدين والمدنيـة والتربية والعلم ، ولـكن ذلك كله لا يغنى عنه إلا كما يغنى السد فى دفع الفيضـان ، أو الفرجة فى كف البركان ، أو الـكوخ فى اتقاء العاصفة .

* * *

يا راعى السلام وداعى المودة ! لقد ضل قطيعك كله وشردَ . فاسأل الله أن يُطْلع فى سماء أوربا القاتمة « نجم المجوس » فعسى أن يهتدى به إليك طاغية موسكو وجبار برلين . والله قادر على أن يحول فى يديهما القنبلة والطربيد

(١) استالين وهتلر .

والنغم إلى « ذهب ولبان ومر[١] »

يا حامل الآلام ورسول الرحمة ! كيف استحال حلمك وسلمك وهداك فى ألمانية لوثر وروسية تولستوى سمائم قحط وزلازل دمار وطوفان هُلك ؟ ! ألأنك لا تزال غريباً عن الغرب فلم يصادف دينك هواه ؟ أم لأنك شرعت الألم تكفيراً عن الكفر بالله ؟

لشد ما تختلف المسيحية فى الغرب عنها فى الشرق ! إنها مع المسيح قد خرجت من الغسق إلى النور ، ولكنها مع بولس قد دخلت من الشفق إلى الظلام ! ومن سار فى ضحوة النهار اهتدى ودل ، ومن ضرب فى سدفة الليل اعتسف وأضل .

بأية حال عاد عيدك يا رسول السلام وحامل الآلام على بولندة وفنلندة ؟ ! هل قضى الآباء والأمهات ليلة البارحة مشبلين على بنيهم وبناتهم فوق الفرُش الوثيرة وحول المدافىء الواهجة وعيونهم تشرق بالغبطة وقلوبهم تفيض من السرور وهم يتناغون بأحاديث الحنان والحب تناغى البلابل الآمنة ، فى أعشاش الربيع الساكنة ؟ هل باتت الصغار الأبرار هذه الليلة فى مهودهم الحريرية يحلمون فى أحضان الكرى بباباهم (نويل) وهو يضع لهم الألطاف واللعب والحلوى تحت أفنان الشجرة وفى نواحى المدفأة ؟

ياحسرتاه عليهم ! لم يأتهم عيدك يامبرىء المرضى ومحيى الموتى إلا وهم حطام وأشلاء . فلا الدار آهلة ولا الرزق موصول ولا الشمل جامع ! إن نار الأعداء

---

(١) إشارة إلى الهدية التى قدمها مجوس الفرس إلى مريم وقد اهتدوا إلى بيت لحم بنجم بزغ فى السماء يوم ولد عيسى .

تحرق البلاد ولا مأوى ، وصقيع الشتاء يهرأ الأجساد ولا دفء ، وخوى الأمعاء يلحس الأكباد ولا قوت ، وبقايا القنابل والرصاص والغاز من النساء والأطفال والشيوخ مشرّدون على الجليد يلتمسون الحياة الموقوتة فى قرية بعد قرية !

وليت الخراب والعذاب كانا مقصورين على أمة أو أمتين فتمدها الأمم الأخرى بالمواساة والعون ! ولكن الخطب شامل والطامة عامة فالأمم المحاربة والمحايدة فى شقاء العيش وبلاء الموت على حد سواء ! قضت عليهم هنا وهناك نزوات الفرد وبدواته أن يساقوا إلى المجزر سوق القطيع ؛ فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ومن المنتظرين من يقتله الجوع والخوف ، قبل أن يقتله المدفع والسيف . والله وحده يعلم بأى حال ستعود ذكرى مولدك المقبلة على هذا الصدام ، أيقول الحى يومئذ : السلام على الأرض ، أم يقول : على الأرض السلام !

هل خصب الأرض يستلزم جدب القرائح

(٨ يناير سنة ١٩٤٠)

من الأقوال المأثورة أن الحاجة تلد الاختراع وتفتق الحيلة . وهذه الحاجة التي ضمّنها الله عمارة الأرض ورقى العالم ، هى التى جعلت بيئة الفقر مهبط الإلهام ومنبت العبقرية . فأينما تجد الحاجة تجد العمل والذكاء والقوة ، وحيثما تر الغنى تر الكسل والغباء والرخاوة . ذلك لأن الفقير يضطره العيش إلى أن يفكر فيجيد التفكير ، وإلى أن يعمل فيتقن العمل ، وإلى أن يهاجر فيزداد بممارسة الشدائد ومنافسة الناس جلاء فى الذهن وبسطة فى العلم وسعة فى الحيلة . ومواهب العقل كأعضاء الجسد تقوى وتنمو بالكد ، وتضعف وتضمر بالعطلة . ولا يصعب عليك أن ترى مصداق ذلك فى الفروق الذهنية والعملية الواضحة بين أبناء الفقراء وأبناء الأمراء ، وبين سكان مصر العليا وسكان مصر السفلى ، وبين بلد كدمياط وبلد كالفيوم ، وبين مدينة كأثينا ومدينة كرومة فى الغرب القديم ، أو بين قطر كفينيقية وقطر كالعراق فى الشرق الغابر . ففى كل من ذكرت لك ترى أن جدب الأرض وضحولة الموارد كانا علة فى إخصاب العقول وإنماء المدارك وكثرة الإنشاء ووفرة الإنتاج ، وأن خِصب البلد وسهولة الأرزاق كانا سبباً فيما أصاب بعض الناس وبعض الأجناس من البلادة والقعود والترف والغفلة .

* * *

نستطيع أن نقول إن مصر فى جملتها بلد غنى يؤتى أكله كل حين بيسير الجهد وقليل النفقة . فأهله آمنون من موت الجوع ، لأن الفقير يملك أن يمسك

روحه بنصف قرش . وما أيسر ما يجد قرشين فى اليوم بالعمل الحقير أو السؤال الملحف ! ومتى حصل المرء من بلده على الكفاف والراحة والأمن ، نشأت فى نفسه فضيلة القناعة الزائفة . والقناعة فى الفقير كالثروة لدى الغنى ، كلتاهما تقتل طموح النفس ، وتسكن قلق الروح ، وتخمد نشاط القريحة ، وتحمل الرجل على الرضا بالدون والتسليم بالواقع

هذا الفقير القانع الذى لا يحس بالحاجة فلا يسعى للغنى ، وهذا الغنى الوادع الذى لا يشعر بالنقص فلا يطمح إلى الكمال ، هما الأثر السيء لتدليل النيل لبنيه وحدبه البالغ على أهله . فالفلاح لا يزال يزرع الأرض بالآلة القديمة على الطريقة القديمة ، لأنه لا يجد فى نفسه الحاجة التى تحفزه إلى اختراع آلة وابتكار طريقة ما دامت أرضه تغل عليه ما يكفيه بهذه الأداة الرخيصة السهلة .

والصانع لا يزال يصنع بيده كل اليوم ما تصنعه الآلة فى بعض الساعة ، لأنه يجد فى جيبه آخر النهار ما يملأ به بطنه بخسيس الطعام وغليظه ؛ فعلام يشغل ذرعه بما يقلل النفقة ويكثر الإنتاج ويحسّن النوع ؟

والطالب يقصر جهده على استظهار المختصرات ، لأن الامتحان لا يخرج عن هذه المذكرات والوظيفة لا تطلب إلا بعضاً من الحساب وشيئاً من المصطلحات . وما غناء العلم بعد أن ينال المتعلم الشهادة والوظيفة ؟

والمعلم يحصر نشاطه فى كتب الدراسة وما يتصل بها من مقترح التمارين وموضوع الأسئلة ومحلول المسائل ، ثم لا يفكر بعد ذلك فى درس مشكلة من مشكلات التربية ، ولا حل معضلة من معضلات المجتمع ، لأنه ضمن لنفسه المرتب آخر الشهر والعلاوة آخر المدة

والكيميائى أو الفيزيائى يبلغ الدرجة الجامعية العليا فى الكيمياء

أو الفيزياء ، ثم يعلم أن أقرانه فى البلاد العاملة الجادة لا ينفكون يسخرون للمدنية والإنسانية قوى المادة وأسرار الطبيعة فى شكول مختلفة ومظاهر متعددة : فى البيت والمدينة ، وفى السماء والأرض ، وفى السلام والحرب ، ولا يفكر عالمنا الكبير أن يزيد فى العلم بكشف مجهول ، أو يرفه عن العالم باختراع آلة ، لأنه لا يبتغى شيئاً وراء اللقب الفخم والمرتب الضخم والحياة الوديعة .

والطبيب أو الصيدلى يجعل كل همه فى رواج عيادته أو صيدليته ، لأن المال هو غايته من الطبابة أو الصيدلة ، فإذا بلغها على حساب الطب المحفوظ أو الدواء المجهز فلماذا يكدر صفو عيشه بالاحتباس فى معمل ينقب عن جرثومة مرض ، أو يجرب مفعول مصل ؟

والسياسى أو المصلح يتوخى بعمله مجد الشهرة وجاه الحكم ، فإذا أدركهما بتملق الجمهور أو بعصبية الحزب فلا عليه بعد ذلك أن يظل حزبه من غير منهاج ولا غاية ، وأن يزاول عمله الخطير من غير خلق ولا دراية . وإذا كان الرمق فى هذا البلد يسد بنصف القرش ، والوظيفة تنال ببعض العلم ، والمنصب والمرتب يعظمان بمضي المدة ، والشهرة والجاه يدركان بإرضاء العامة ، والزعامة والحكم يُبلغان باحتراف السياسة ، فأى شيء يدعو إلى زيادة العلم وإطالة الفكر وإدامة العمل وإضاعة الجهد والعمر فى تحرير مسألة أو تأليف كتاب أو متابعة كشف أو محاولة اختراع أو وضع خطة للاصلاح أو تدبير سياسة للحكم ؟

* * *

حاولوا ياقوم أن تهذبوا القناعة فى ذهن الفقير برفع مستوى عيشه وإصلاح فساد ذوقه . وحاولوا أن تخلقوا الحاجة فى نفس الغنى بتشويقه إلى الكمال المطلق

وترغيبه فى المثل الأعلى ، فانكم إن نجحتم فى زعزعة الرضا فى القانع المعتز وفى الواجد المغتر ، ساورهما القلق الروحى الحافز الذى لا يقنع بما دون الغاية ، ولا يرضى للغير بأقل مما يرضى للذات .

حاولوا أن تحملوا العلماء والأدباء والأطباء بالجوائز والألقاب على الإنتاج الأصيل والتأليف المبتكر والبحث المنتج حتى ينشأ فيهم على طول الزمن والمرانة حب البحث لفائدة العلم ، وحب العمل لمنفعة الناس .

ثم حاولوا وحاولوا أن تقيسوا كفايات العاملين وأقدار النابغين بغير مقاييس المحاباة والزلفى والقرابة ، فان كثيراً من الأكفاء إنما يزهدهم فى العمل والإصلاح اليأس من الإنصاف والقنوط من المكافأة !

من مذكراتي اليومية

(١٥ يناير سنة ١٩٤٠)

من عادتي كلما ثقل عليّ الحاضر وضاقت بي الحال أن أعود إلى ماضيّ فأنشر عهوده وأجترّ ذكرياته . وسبيلي إلى ذلك استغراق الفكر فيما سجلت صحائف الصبا من حوادث ، أو العيش مع إخواني الذاهبين فيما كتبت وكتبوا من رسائل ، أو الرجوعُ إلى مادوّنتُ في مذكراتي اليومية من خواطر . وكان ليناير من دون الشهور نوطة[1] شديدة بالقلب وأثر بالغ في الذاكرة ، فوقع في نفسي وأنا أهم بالكتابة فيما أوحاه إليّ أسبوعه الثاني ، أن أتصفح مذكراتي لأقرأ ما كتبته فيه سنة من السنين . فتناولت جزءاً من أجزائها المتروكة وفتحته على موضع هذا الشهر منه ، فاذا بي أقرأ في يومه الرابع عشر ما أنقله إليك بنصه .

يوم الجمعة ١٤ يناير سنة ١٩٣٨

في مثل هذا اليوم من سنة ١٩٣٢ ولد لي ولدان : طفل وكتاب ! أذكر هذا كل الذكر ، لأنني في ذلك اليوم المقرور عدت في متوع الضحى من دار المعلمين بكرخ بغداد إلى داري بالرصافة ، فلزمتها جالساً أمام المدفأة الموقدة أكتب الفصل الأخير من كتابي : (العراق كما رأيته) ثم جاءني النبأ من مصر بعد ذلك بأن « رجاء » ولد في هذا اليوم نفسه . وكان طفلي وكتابي أعز شيء علي ؛ لأن ابن نفسي كان نتيجة أربعين سنة من خير عمري ، وابن فكري كان نتيجة ثلاث سنين من خير عملي .

أجل ، قضيت ثلاث سنين في تأليف « العراق كما رأيته » ! جمعت مادته

---

(١) نيط الشيء بالشيء : وصل به

من الآثار والأسفار والأساطير والكتب والمناظر والأحاديث فى سفتين ، ثم حزرته وأنشأته ببغداد فى سنة ؛ فلم أكتب منه فى القاهرة إلا رحلتى إلى كردستان والموصل وجبال عُبَّاد الشيطان ، وإلا عودتى إلى سورية عن طريق دير الزور وحلب . ثم وجهت عزيمتى إلى نشره فهيأته للطبع وتربصت به موافاة الفرصة ؛ ولكن الفرصة اتَّاقات حتى وفد إلى مصر صديق من رجالات العراق له بصر وخطر[1] فرغب أن يقرأ فيه ما كتبت عن بعض الناس وما علقت على بعض الحوادث . فحملته إليه فى فندق « الكنتننتال » فحبس نفسه عليه نصف نهار لم يبرح فيه الفندق ثم رده إلى فى المساء وهو يقول فى سمته الرزين ومنطقه المتئد « أشهد أن كتابك أول ما كتب عن العراق فى صراحة ولباقة وإخلاص وصدق . ولقد طويت عنى ما قلته فىَّ ؛ ولكننى بعد أن قرأت ما قلته فى غيرى أكاد أعرفه بالاستنتاج والحدس . ولعل من الخير لنا ولك أن تؤخر نشر القسم السياسى منه إلى حين . أما قسماه الأدبى والاجتماعى فستكثر حولهما الأحاديث ولكنهما فى الأدب والنقد والتاريخ نصرٌ وفتح »

نزلت على رأى الصديق العظيم وعدتُ بالمخطوط الغالى إلى موضعه من المكتب ثم أعلنت أنى سأنشر بعض صوره الأدبية فى « الرسالة » ، وقد نشرت بالفعل منه صورتين أو ثلاثاً رنت بها الآذان وأصغت إليها الأفئدة .

ولكن وا أسفاه ! لم يعد للطفل الحبيب نفَس ينسم على نفسي ببرد الجنة ، ولم يبق من الكتاب العزيز سطر يشعَب فؤادى بذكرى العراق !

والهفتاه على ولدى الذى أبدعه الله ؛ وعلى أخيه الذى أبدعته نفسى ! جاءا معاً فى الشتاء ، فلم أجد بفضل وجودهما برداً ولا عبوساً ولا كآبة ؛ وذهبا معاً فى الربيع ، فلم أحس بسبب فقدهما دفئاً ولاطلاقة ولا بهجة . أودى بهما القدر العابث خداعاً

---

(١) هو الزعيم الكبير المغفور له ياسين باشا الهاشمى .

وغيلة ، فسلب العين الـكاوء ريبةَ الحذر ، وجرد الدفاع اليقظ من فرصة الحيلة . دب للطفل الموت الوحي[(١)] فى وعكة خفيفة من البرد ظنها الطبيب ز كاماً عارضاً فإذا هى الخناق[(٢)] القاتل ومشى للـكتاب القدر المحتوم فى ركام من الورق المتروك فذهب به خلسة إلى النار المبيدة !

ذلك أنى أخذت ذلك الـكتاب ذات يوم من درج المـكتب لأختار منه فصلاً للرسالة ، ثم جلست فى البهو على كنبة بُعثرت فوقها وأمامها تجارب المجلة وأصول المقالات ، فاخترت من المخطوط قطعة أدبية ثم ألقيته إلى جانبى ، وأخذت أصحح (الملازم) وأطرح (الأصول) أرضا حتى فرغت من ملزمتين فدفعتهما إلى غلام المطبعة ، وخرجت من البهو لا فى يدى ولا فى جيبى لأترك هذا الورق المهمل لخادم البيت تـكنسه من هنا ومن هنا. ثم تطرحه على عادتها كل يوم فى صندوق الـكناسة ، و يأتى الزبال فيأخذ ما تجمّع فى الصندوق و يحمله على عادته كل يوم فى زنبيله إلى المستوقد !

وهكذا قضى الله أن تذهب إلى العدم خلاصة العمر وعصارة الفـكر فى فترة ضائعة من فترات الغفلة ! وهيهات أن يكون لهما فى الحياة عوض ، فإن الفلذة إذا اقتطعت من الجسم لا ترجع إليه ولا تتجدد فيه ، وسحر المنظر الجديد لا يتـكرر أثره فى نفس زائره ومجتليه

* * *

حولت بصرى عن المذكرة ثم أطرقته ولج بى الإطراق والاستغراق حتى سقط الدفتر من يدى ، وتلاشى الحاضر من نفسى ، ووثب المـاضى إلى خاطرى ، ووقفت أمام الفاجعتين وجهاً لوجه ، فـكأنما لبث الزمن واقفاً حيث كان ، وظل الجرح نازفاً حيث طُعن ، و بقى القلب واقداً حيث اشتعل ؟

(١) الوحى : السريع (٢) الخناق : الدفتريا

وكأنما أسلمني كل ضعف إلى الجزع ، وخذلتني كل قوة حتى الإيمان !

تفصد جبيني بالعرق ، ثم اخضل بالدموع ، فأخذت نفسي تثوب رويداً إلى ، وتحركت يدي في فتور فتناولت دفتر المذكرات ثم جعلت أصفحه ، فعثرت في ثناياه على ورقة بالية من مسودات كتابي الفقيد ؛ فنشرتها بين يدي ثم أقبلت على قراءتها لهيف القلب زائغ البصر فقرأت .

« هذه القهوة الضَّحيانة التي رقدت على صدر دجلة النابض ، واستغرقت في الدفء والضوء والسكون ، كانت أحب القهوات إلى القلب العميد والخيال الشاعر كنت كثيراً ما أغشاها بُعيد الغداء فأجد جماعة أو جماعتين يلعبون الورق هنا ، وفتى أو فتيين يتساقطان الحديث هناك ، و بائع (الأبيض والبيض والعنبا)[1] يسرق خطاه بين هؤلاء وأولئك فيذكر بندائه الخافت البطون التي شغلها عن طلب الطعام سكرة القمار أو نشوة المنادمة ؛ فأجعل ظهري إلى أحلاس[2] القهوة ، ووجهي إلى وجه دجلة ، وعيني إلى جسر (مود) ، ثم أشاهد فلماً عجيب الألوان من الناس والأجناس والصور فهذا قطيع من الغنم يعبر الجسر إلى الجزر في رحمى راعيه وهو مستسلم لصوته منقاد لعصاه استسلام الأمة للطاغية يقودها إلى الحرب ، وانقياد الخليقة للقدر يسوقها إلى الموت ! وهذا الملك فيصل يعود من قصر العرش إلى قصر (الزهور) من غير حرس ولا جلبة ، فيقف في غمرة الناس على فم الجسر ينتظر أن يعبر القطيع وراعيه ! وهنالك تلاقى راع وراع ، وتقابل قطيع وقطيع ! ولكل إنسان في دنياه مملكة ينفذ فيها حكمه ، ودائرة ينعقد عليها أفقه »

ثم حاولت أن أقرأ بقية الورقة الذابلة الحائلة فلم أستطع !

---

(١) الأبيض : الخبز ، والعنبا : ثمرة المانجو تملح وهي فجة وتؤكل مخللة

(٢) أحلاس القهوة : هم الذين لا يكادون يبرحونها

مِنْ وراءِ المنظار

(٢٢ يناير سنة ١٩٤٠)

سافر صديق (عين) فى العيد إلى الريف ليضحى بكبشه المنوفى الأملح هناك. ولصديق الوفى (عين) ولعٌ بالريف عجيب فصباياه عرائس شعره، ومشاهده مسارح خياله، ومعاهده ملاعب هواه، ومزارعه صقال خاطره، ومطاعمه عافية بدنه. لذلك تراه كلما افترص العودة إلى الريف فى ساعة من النهار أو الليل أسرع إلى القطار أو إلى السيارة دون أن يشاور أهله ويودع صحبه ويرتب عمله!.

دخلت صباح اليوم مكتبه الذى يكتب فيه (من وراء المنظار) فوجدت الكرسى خالياً وليس أمامه خبر، والمنظار متروكاً وليس وراءه نظر! فقلت لنفسى لم لا أجرب هذا المنظار الذى تنفذ منه (عين) الصديق إلى ما وراء الصدور والستور والحوادث؟ أما يجوز أن يكون سرُّ فنه فى هذا المنظار فأرى به ما يصح أن أصوّره وأنشره؟

سألت عن ذلك نفسى ولم أنتظر ما تقول، فقد أخذت المنظار وتركت الدار ووضعته على أنفى وأنا أمشى على طوار الشارع الذى عرفته وألفته، فإذا الناس غير الناس، والمدينة غير المدينة، والدنيا غير الدنيا!

كأنما هذا المنظار من صنع الله الذى أتقن كل شىء! فإن فيه أسرار المناظير المعظِّمة والمقرِّبة والكاشفة؛ وفيه غير ذلك قوة التجريد فهو يرد كل شىء إلى طبيعته، ويظهر كل شخص على حقيقته.

مشيت به فى زحمة الطريق مشية الغريب الجاهل فى البلد العجيب

المجهول ، تزخر نفسه بعواطف شتى من الغضب والعجب والدهش والإنكار والخوف ، ثم لا يملك أن يسأل لأن لسانه معقود ، ولا يستطيع أن يصبر لأن جَلده مفقود :

رباه ! ماهذا الذى أرى ؟ أهذاهو الصديق البر الذى خالصته الود وساهمته الوفاء وعاشرته نصف العمر ، ثم لا ألقاه إلا صافحنى بالكف الناعمة ، ومازحنى باللسان المعسول ؟ ما باله قد تساقطت عنه لفائفه الوردية ، وحالت عليه أصباغه العبقرية ، فبدا أمامى عارياً ضارياً كالأسد الجائع ، تتقد عيناه بالشر ، و يتحلب شدقاه بالشره ، وتمتد يداه الباطشتان إلى قوتى الذى لا مساك للنفس إلا به ؟ وفى شريعة الوحش لا تتصافح الكفان ما دامت بينهما فريسة ؟ ولكن الإنسان وحده هو الذى يستطيع أن يسلم بيد و يلطم بيد !

أهذا هو رجل الدين الذى عرفته عنوان الفضيلة ومثال الورع ولسان المعروف؟ مالى أراه اليوم قد تهتكت الأسرار عن تنكره البارع ، فلحيته المستعارة تكاد تسقط ، وزهادته الكاذبة تهم أن تفترس ، وحلته الدينية تشف عن جسد دنيوى تلهبه الشهوة المسعورة ، وتذيبه الرغبة الملحة ، و يود لو تنقلب المواعظ والآيات فى فمه رُقَى سحرية ينال بها عَرَض الدنيا وعزة الجاه ؟

أهذا هو العظيم المتأبه الذى أشاهده من حين إلى حين يمشى وأنفه فى السماء ، ولغاديده تكاد تنشق من نفخة الكبرياء ، ونظراته وكلماته توزع على من حوله احتقار القوى واستكبار المتسلط ؟ إنى لأراه الساعة من خلف هذا المظهر الموثق والرواء الخلاب جثة ضئيلة الأجلاد خبيثة الريح يلتف جلدها الرقيق الشاحب على ضمير مثقل بالخزى ونفس مطمئنة إلى الهون ؟ وكأنى أنظر

إلى بقايا الإنسانية فيه تحزه فى مواطن الحس منه بكلام معناه : ياعزّ ما بينك وبين الناس ؟ وياذل مابينك وبين نفسك !

ومن هذا ؟ أهذا هو السياسى الذى ألف معجماً فى لغة الوطنية ، ونظم ديواناً فى مدح الدستور ؟ أهو من أرى أم ذلك تاجر يهودى السمات يتجر بالكلام كالمضاربين فى (البرصة) ، ويراهن على الزعماء فى الحكم كالمراهنين على الخيل فى السباق، ويضحى بالمنفعة اليسيرة لينال مقعداً فى البرلمان ، أو بالوظيفة الصغيرة ليبلغ كرسيًّا فى الوزارة !

وما خطب هذا الشاب الذى يتجمل بالبدلة المهندمة ، ويتنبل بالحركة المنظمة ، وليس فى كيسه قرش ولا فى بيته قوت ؟ لماذا يجلس فى هذه المركبة الفخمة مع هذا الرجل وهذه المرأة ؟ أيريد أن يخدع الرجل فيبتز ماله بالصداقة ، أم يريد أن يغوى المرأة فيسلب ثروتها بالزواج ؟ لقد بان فى المنظار أنه (ابن ذوات) أفلس فتاجر فى الاحتيال وسمسر فى الرذيلة ، واللذان معه زوجان أرستقراطيان يقوم زواجهما على الرياء والخيانة ؛ فالفتى يبيع الرجل أعراض الناس ويشترى منه عرض نفسه وهو بهاتين الوسيلتين صديق الأسرة الأدنى وكلبها الممسوح المدلل !

وما حال هذه العصبة التى تندو كل ليلة إلى مجلس شراب أو سامر أنس ، فيتنادمون على الكأس بطرائف الأدب وروائع النكت ومداعبات الصداقة ؟ لقد كنت أحسبهم جميعاً فأصبحوا فى هذا المنظار شتى ! فهم لا يتصافقون على الود إلا فى مجالى اللهو ؛ فإذا تفرقوا تناكروا وبسط كل منهم لسانه فى الآخرين بالذم ؛ ودرج بعضهم بين بعض بالوقيعة ، وصحح كل واحد لنفسه ماتقسم من الفضل فى الجماعة .

أعوذ بالحليم الستار ، من شر هذا المنظار ! لقد شوه فى عينى جمال الوجود كما يشوه المسكر سكوب بشرة الموجه الرقاقة ولا مراء فى أن جمال الدنيا خداع ، وسعادة العيش وهم ، وحياة الناس تمثيل . فإذا أزلت عن العيون غشاوة الإيهام فرأت كل شىء على طبيعته ، وكل شخص على حقيقته ، لا يبقى لجميل سحر ، ولا لعجيب سر ، ثم لا يكون بين أحد وأحد ألفة ، ولا بين جماعة وجماعة نظام

أمل وذكرى

(٢٩ يناير سنة ١٩٤٠)

كانت القاهرة فى أيام عيد الأضحى حجًا للعروبة ، كما كانت مكة فيها حجا للاسلام وكان بين عرفات والمقطم أمواج متعاقبة من شعاع الروح الإلهى تشرق فى الأبصار والأفواه والأفئدة فتتعارف وتتآلف وتتكاشف ، فيفضى كل قطر إلى أخيه بينات قلبه وذوات صدره[1] وكان ولاشك بين وفود المؤتمر الطبى العربى ، كما كان بين حجاج البيت الإسلامى الحرام ، مذاكرات وأحاديث فيما يكرب الأرض و يحزُب الناس من انفجار العدوان والطغيان والشر فى أكثر بقاع العالم ، فكان إصفاق الرأى ولابد على ضرورة الوحدة العربية بأى شكل وعلى أى نظام

والحق أن الوحدة العربية فى شتى صورها لم تكن فى عهد من العهود ولا فى حال من الأحوال ألزم منها لحياة العرب فى هذا العهد وعلى هذه الحال . فقد كانت بالأمس سبيلا من سبل الكمال الإنسانى تصد عنها عصبية المكان وحزبية المذهب ، ولكنها أصبحت اليوم ضرورة من ضرورات البقاء تدعو إليها طبيعة الحياة وسلامة الذات . لذلك لهج بها وفود المؤتمر وشهوده فى حفلاتهم الرسمية والشعبية ، واعترف بها ودعا إليها وزير الشئون الاجتماعية فى خطبته الخطيرة بدار الأبرا الملكية .

* * *

---

(١) بنات القلب : العواطف ، وذات الصدر : الأسرار .

كان عيد القاهرة بما رأينا من تعاطف الإخوة المؤتمرين مبعث أمل ، وكان عيد بغداد بما سمعنا عن مصرع الوزير رستم حيدر مثار ذكرى ولم يكن من السهل على الخاطر — وقد امتلأ البصر والسمع بشباب العراق وأخباره — أن ينصرف عن الفكر فى حاضر العراق وماضيه .

رحم الله رستم حيدر ! لقد كان وحده فصلاً فى تاريخ العراق الحديث . وإذا كان فى بعض حواشى الملوك رجال للهو والزهو ، وآخرون للتجسس والتمويه ، فإن رستم حيدر كان فى حاشية الملك فيصل رجل الجد والعمل . ولم أر فى المهاجرين إلى بغداد مع صقر قريش أعلم ولا أفهم من رستم حيدر وساطع الحصرى . وقد أبلى الرجلان فى إذكاء النهضة العراقية البلاء الحسن : هذا فى ميدان الثقافة ، وذاك فى ميـــدان السياسة . وكان بينهما مشابه عن جهات كثيرة فكلاهما مستقل الفكر ، له فى كل مسألة رأى وعلى كل رأى اعتراض . وكلاهما متقن للعمل ، يتقصى أطرافه ويستبطن دخائله . وكلاهما صليب الرأى ، يعييك أن يتابعك على ما تريد وإذا كان بين الرجلين اختلاف ، فهو الاختلاف الطبيعى بين رجل السياسة الذى يتأثر بالأحوال والرجال والحوادث ، وبين رجل العلم الذى لا يستخدم غير المنطق ولا يتوخى غير الحقيقة

كان المرحوم رستم حيدر ظاهر الوقار ، دائم الانقباض ، كثير الصمت ، خافض الصوت ، هادىء الحركة ؛ ولكن هدوءه كان كهدوء الماء العميق ، تضطرب فى جوانبه الأفكار والأسرار وهو ساكن السطح بارد الأديم .

وكان منذ اشتغاله بشئون العراق مستشار المغفور له الملك فيصل الأول فى سياسته الداخلية والخارجية ، لبصره بعلوم السياسة والمال ، وعلمه بمداخل الأمور ومخارج

الحيل فكانت أعمال العاهل العظيم تجد مصاديقها غالباً فى أقوال المستشار اليقظ

كان من سياسة رستم الاعتماد بعد التاميز على الفرات قبل دجلة[1] ؛ لأن الفرات شيعى المذهب ، وعلى ضفافه الخصيبة تنزل القبائل البدوية القوية . فى تقويه بالشيعة حيطة من نجد ومودة لإيران .

وكان يشيح بوجهه عن مصر ، لأن هواها فى ثورة الحسين على الترك كان مع الخلافة ، ولأن اشتغال طلبتها بالسياسة كان فى رأيه مرضاً مخطراً لا ينبغى أن تسرى عدواه إلى العراق ولعله كان السياسى العراقى الوحيد الذى يهتم بأحوال مصر ، ولا يتصل برجال مصر .

وكان من رأيه توسيع التعليم الأولى والمهنى ، وتضيق التعليم الثانوى ، وحصر التعليم العالى فى مدرسة لتخريج الموظفين ورجال الإدارة ، خشاة أن يكثر المتعلمون والمتعطلون فيكونوا مصدراً للشغب والإضراب والفوضى وفى ذلك العهد الذى أرجح بذا كرانى إليه أغلقت المدارس العالية جمعاء إلا مدرسة الطب . وكان من أشد المعارضين لهذه السياسة التعليمية الأستاذ ساطع الحصرى لأنه كان يحاول أن ينشىء الثقافة العامة على قواعد العلم الخالص دون أن يحفل بأهواء الطوائف وأغراض السياسة ، ولذلك نُحِّى حينئذ عن سياسة المعارف

وكان من خطة المرحوم رستم أن تظل الأراضى الزراعية ملكا للحكومة لتضمن بمنح الالتزام ومنعه طاعة القبائل وتأديب العصاة ومتى تحضرت العشائر وتوحد القانون وعمت المدنية الاجتماعية أمكن أن توزع ملكية الأرض على نظام عادل .

تلك هى أقوى الأصول التى كانت تنبت عليها سياسة القصر فى ذلك

---

(١) نهر التاميز كناية عن انجلترا ، والفرات كناية عن أهل الشيعة ، ودجلة كناية عن أهل السنة .

الحين ، ولا يعلم غير الله مقدار أثر المستشار فى وضع هذه السياسة .

لقد كان المرحوم رستم حيدر عنيداً فى رأيه صليباً فى خطته . والعناد والصلابة صفتان لا تحسنان فيمن يتولى أمراً بالعراق .

دخلت عليه ذات يوم من عام ١٩٣٢ وهو وزير المالية أسأله أن يرد على صديقى حسن السهيل أمير بنى تميم ما أخذته الحكومة من أراضيه الملتزمة وهو يبلغ خمسة عشر ألف فدان ، فأجلسنى إلى جانبه عن يسار المكتب الذى سُفك عليه دمه منذ أيام ؛ ثم أخذ يقنعنى بالحجج والشواهد أن الحكومة محقة وأن الشيخ مُبطل ثم عزا المصادرة إلى أمور تتعلق كلها بسلامة العشيرة وإقامة العدالة . ولم ير نفسه فى حاجة إلى ذكر السبب الأول ، وهو أن سيد تميم عضو قوى فى حزب المعارضة ! فأدهشتنى جرأة الوزير وأعجبتنى لباقته ، وعجبت كيف يصر على مناوأة الشيخ وفى سبيل خمسة عشر ألف فدان تُخشى الخصومة ! ولكنه نجا من مناوأة الأمير لأن الأمير طالب مجد ، ولم ينج من مناوأة الموظف(١) لأن الموظف طالب قوت !

---

(١) الموظف الذى قتله فى مكتبه لسبب إدارى .

الحياة جميلة

(٥ فبراير سنة ١٩٤٠)

الحياة جميلة ، وما يشوِّه جمالها غير هذا الحيوان المسمى بالإنسان ! لم يعش فيها كما تعيش سائر الأنواع على رسم الفطرة وَهدْى الطبيعة ووحي الله ، وإنما عاش على قوانين من وضعه استمدها من أثرته وكبريائه وهواه فكان شرًا على نفسه وحربًا على غيره .

ربما اقتتل الوحش والوحش أو الطير والطير فى سبيل القوت أو الأنثى ؛ ولكنه اقتتال الساعة لا يسبقه تدبير ولا يصحبه حقد ولا تلحقه جريرة أما الإنسان فهو كدَرُ السلام وقذى الحياة ! أحيا لنفسه بفضل ذاكرته ماضيًا يحفظ الثأر ، وخلق لنفسه بفضل بصيرته مستقبلاً يحمل الخوف ، فكان حاضره بينهما قتالاً مستحرًا لا ينقطع ولا يفتر ، إما دركًا لثأر الأمس الذى يذكره ؛ وإما كسبًا لقوت اليوم الذى يتبصره ، وإما درءًا لخوف الغد الذى يتصوره .

* * *

الحياة جميلة ، وأجمل منها الحى الذى يدرك هذا الجمال ويتذوقه ويستوعبه ويكتسبه . فالطائر أجمل من الروض ، لأنه عرف كيف ينقل ألوانه على ريشه ، ويجمع ألحانه فى صوته . والأسد أجمل من الغابة ، لأنه استطاع أن يجعل رهبتها حية فى رهبته ، وعظمتها ماثلة فى عظمته . والجمل أجمل من الصحراء لأنه اندمج فيها ؛ فصير جبلها فى هيكله وصوّر رملها على أديمه . والحوت أجمل من البحر ،

لأنه قطعة من الحياة صيغت من لين مائه وشدة موجه وسرعة تياره .

وكأنما يدرك الطبيعـــة ويسايرها ويتأثر بها كل شيء من ناطق وصامت إلا هذا الإنسان ! فقد خرج عن سنة الله فى خلقه حتى اختصه بالأنبياء والرسل والمدارس والكتب ! وهيهات أن يدخل النور عين الضرير ، وأن يبلغ الصوت أذن الأصم !

* * *

الحياة جميلة . وليس جمالها قصراً على قوم دون قوم ، ولا على طبقة دون طبقة إنما الجمال وضاءة الفن الإلهى أشاعه الله فى الأرض والسماء ، وهيأ المدارك للاستغراق فيه والاستمتاع به فمن كان ذا سمع وبصر وقلب وجده فى كل منظر وأحسَّه فى كل حالة . فهؤلاء الذين يمرون عليه وهم معرضون عنه قد فسدت فيهم طبيعة الحياة ، وتبلدت فيهم ملــكة الحس ، فانقطع ما بينهم وبين الوجود الحق والوجدان الصحيح .

إن الجمال وسيلة الطبيعة لحفظ الحيـاة وبقاء النوع تجمع به ما شتَّ وتؤلف به ما نفر وهو بعد ذلك سرور النفس ونور القلب وســلام الروح . فمن تملاه فى صوره الحسية والمعنوية فى الـكون كان له منه فى كل زمان شباب وفى كل مكان ربيع

* * *

الحياة جميلة ، ومظهر الشعور بجمالها المرح والبهجة . فأينما تر الجمود والـكآبة تر الشعور الذى أدركه الـكلال أو أصدأه القبــح أو أفسده الشر ، فيموت فيه الوعى ، أو ينعكس فيه الجمال ، أو ينقلب فيه الخير فالجمال فى الطبيعة لابد أن يجاوبه جمال فى النفس . والصفاء فى العيش لابد أن يعادله صفاء فى القلب

ومن هنا انتشر الجمال والصفو على ذوى الحس المظلم والضمير الخامد .

كن جميلاً تر الجمال فى كل شىء حتى فى الدمامة . ومتى امتلأت قواك المدركة بمفاتنه ومباهجه حَلِى الوجود فى صدرك ، وساغ المر فى فمك ، وسعيت إلى مجالى الجمال فى النيل والجزيرة والريف ، فشدوت مع الطير ، وطرت مع الفَراش ، وسبحت مع السمك ، واستطعت أن تطاول الأغنياء فى العز وتشأم فى الغبطة وتقول لهم إن السعادة بالجمال أضعاف السعادة بالمال . والمال لكم تجدواه عليكم ، ولكن الجمال لله تجدواه على الناس .

* * *

الحياة جميلة ، وأنت يا ابن الحياة وارث هذا الجمال . فلم تزوى عنه وجهك وترسل عينيك بالحسد والحقد إلى المترفين الخافضين وهم يتلهون بالقنص ، أو يتزحلقون على الجليد ، أو يتمتعون بالسياحة ؟ إن فى القاهرة وضواحيها من الجمال المبذول والنعيم المشاع ما يكفكف ثورتك على الغنى ، ويلطف سخطك على الحياة وهذا هو النيل الجميل يجرى بين ضفافه السحر ، ويخطر على سواحله الفتون ؛ فمن الذى يمنع جمهرة الشعب أن تداعب أمواجه بالمجاديف ، وتشق عبابه بالزوارق ، وتقيم على شاطئيه مهرجانات السباق ومسارح اللهو ؟ إنك لتمر على النيل فى أى ساعة شئت من النهار أو الليل فتحسبه من السكون المخيم على شاطئه ومائه يجرى فى مجاهل الأرض ولولا أن عليه جسوراً لا مناص من عبورها إلى الشاطىء الغربى لما ذكره القاهريون إلا كما يذكرون المقطم !

إن حياة الكسل والرخاوة والجمود والانقباض التى نحياها ألقت من ظلالها الباردة على النيل والجزيرة ، فجعلت النيل فى ركود المستنقع ، والحدائق

فى سكون المقبرة . ولذلك ترى الناس يمشون على جنباته أو بين جِناته مطرقين صامتين كأنهم فى مجال التأمل أو فى مقام العبرة !

* * *

الحياة جميلة . ولكن جمالها يقتضى أن يكون لنا زعماء للهو يصححون إدراكنا للحياة ، ويرهفون أذواقنا للجمال ، ويهيئون قلوبنا للسرور ، ويشغلون أوقات فراغنا بالمسابقات الرياضية ، والمهرجانات الوطنية ، والسياحات النهرية ، والملاهى الفنية ، والمواكب الشعبية . وليس أقدر على هذه الزعامة اليوم من وزارة الشئون الاجتماعية فإن هذا الذى ذكرنا داخل فى منهاجها وعلاجها ؛ وهو يشبه أن يكون غرضاً أصيلا من أغراض وزيرها المجاهد المصلح ، فإن سياسته فى تقويم الشباب قائمة على تقوية رجولته وشجاعته بالجندية ، وتربية خلقه وذوقه بالرياضة

الموظفون والناس

(١٢ فبراير سنة ١٩٤٠)

ابتليتُ هذه الأيام بأن أختلف إلى بعض الوزارات في شأن من شئون الرسالة. وأشد الأمور على نفسي أن أغشى دواوين الوزارة أو أقسام الإدارة، لأني أعتقد كما يعتقد أمثالي من السوقة الأحرار أن الحكومة من الأمة بمثابة الرأس من الجسد، فيه التفكير والتدبير والقيادة، وليس فيه الاختيال والشموخ والسيادة؛ ولكن الحكومات في أمم الشرق لا تزال تعتقد أن الرأس معناه أن يوضع فوق الجسم ليسمو على أعضائه ويعيش على غذائه. فإذا دخلت دورها لا تجد فيها الروح الوطنية التي تبعث الحياة العامة، ولا الفكرة الاجتماعية التي تدير المنفعة المشتركة، وإنما تجد بها مظاهر شتى للسلطان الجبار والبيرقراطية[1] الصلفة تعطل معنى الإصلاح وتبطل حقيقة العدالة.

ترى أول ما ترى جيشاً من الشرطة وكتام السر والحجّاب والسعاة يسد أبواب المكاتب، ويملأ مدارج الطرق، ويشغل فراغ الحُجَر. وهذا الجيش الذي يكلف الخزانة لا أدرى كم من المال، لا عمل له إلا بث الرهبة وإظهار الأبهة والحيلولة بين الناس وبين القائمين على (مصالحهم) من أولي الأمر. فإذا ساعفتك الفرصة أو ساعدتك اللجاجة فنجوت من شراسة الشرطي أو الحاجب، وخلصت من غطرسة السكرتير أو الكاتب، دخلت على الموظف الكبير بهوا كأبهاء القصور، فُرش بالطنافس، وأُثث بالأرائك، وزين بالتحف، وأدفئ بالكهرباء، وقام في صدره الحالي[2] طرفة من طرف الأثاث يقولون إنها مكتب

(١) البيرقراطية : حكومة الموظفين .

(٢) الحالي : ضد العاطل ، وهو المزدان .

ومن وراء هذا المكتب الفاخر كرسى وثير متحرك جلس عليه الموظف العظيم وبدلته تكاد تنشق من ورم الكبر ونفخة السلطة ، فلا تستطيع أنت من رهبة السلطان أن تكلمه ، ولا يستطيع هو من عزة المنصب أن يكلمك.

هذه المظاهر القائمة على السرف والترف يجب أن تزول أو تخفف ، لأنها تحيط الموظف بجو من العظمة المستعارة تزوِّر له ذاته ، وتفسد عليه حياته ، وتجعل ميزانه الاجتماعى منصوباً على ضميرين مختلفين : يزن فى بيته ولنفسه بضمير ، ويزن فى الديوان وللناس بضمير ويا ويل ذى الحاجة إذا دخل على الموظف مكتبه وليس منسوبا إليه ولا معروفاً لديه ولا موصى به ! إنه لا يجد إلا النظرة القاسية ، والكلمة الجاسية ، والإشارة المهينة ، والهيئة الوقحة التى تصرخ فى وجهه بهذه الجملة :

يا بُعدَ ما بينى وبينك ! أنا حاكم وأنت محكوم ، وأنا (ميرى) وأنت (برانى) ؛ فإن احتمل المسكين الهون وقف على مضض ، وإذا ملكته الحمية انصرف على شجار !

لقيت منذ يومين فى فناء الوزارة الفلانية صديقى فلاناً المهندس المقاول يزمجر من الغيظ وينتفض من الغضب . فقلت له وأنا أربت على كتفه :

— كفاك الله الشر ! ماذا بك ؟

فقال بصوت يتفجر بالسخط ويتهدج من التأثر :

— والله يا أخى ما أدرى أنحن عبيد الموظفين ، أم نحن وهم عبيد القانون ؟ هذا فلان بك . . .

— فلان بك ؟ ! إنه الرجل الذى أقصده الساعة فى مسألة عامة .

— تعال تعال ! لا خير فى لقائه اليوم لقد تركته يفور على الكرسى

فوران القدر على الموقد

— ولم كان ذلك ؟

طلبت الإذن عليه لأشكو إليه خلل إدارته وإهمال مرءوسيه ، فان لى عملا يدخل فى اختصاصه مضى عليه سنتان ، وكان يكفى لإنجازه يومان ، فأهملنى عند سكرتيره ساعة ثم خرج من مكتبه غير آذن ولا معتذر . فانصرفت خجلان من سوء ما يظن بى كاتم سره ثم عدت إليه يوماً آخر وطلبت إذنه مع الطالبين ، وفيهم كما علمت النائب والصاحب والقريب ، فدخلوا وخرجوا ، ثم دخل قبلى من جاء بعدى ، حتى لم يبق فى شرف الانتظار إلا أنا ورجلان من أصحاب العمل . حينئذ قال سكرتيره : إن البك مشغول بقية الوقت ! فثار فى وجهى الدم ، وطغى فى رأسى الغضب ، فاقتحمت عليه الباب وقلت له من غير اعتذار ولا تحية : يا سيدى البك ! ربما كنت أنا الزائر الوحيد الذى زارك اليوم لعمل من الأعمال التى تجلس لها وتؤجر عليها ، فلم يكن من اللائق بأمانة المنصب أن تحجبنى مرة بعد مرة لتستجيب إلى طلاب الشفاعات والوساطات من ذوى الصداقة والقرابة .

فحملق البك فىَّ وقد استشاط وبربر وصاح مَن أنت ومن أذن لك بالدخول ؟ فقلت له : أنا فلان سَرِى من سراة البلد ، وثروة من ثروات الأمة ، نشأت فى مهد العُدم ، ثم تعلمت للعمل الحر ، وضربت فى سبيل العيش الكريم من أفق إلى أفق ، حتى أصبح على الناجح مرتزقاً لمئات من الأسر العاملة ، وأصبحت — وأنا لا أزال فى شباب الكهولة — ذا خمسينَ ألفَ جنيه ورتبة . أما أنت فالكبير الصغير ! كبرك المنصب والمرتب اللذان أدركتهما بمضى المدة ، وصغرك العجز والكسل اللذان كشفاك فى إدارة العمل . إن سلطان الوظيفة

ياسيدى عرَض منفض ومتاع زائل . فإذا شئت أن تعرف أين أنت منى فدع منصبك الحصين وادخل معى فى غمرة الدنيا وزحمة الناس ، و يومئذ نرى أينا يوطأ بالأقدام ، وأينا يرفع على الرءوس !

وهنا رأيت الرجل يكاد يتمزق من الغيظ فأهوى بيده على أزرار الأجراس فصلصلت جميعاً ، وقال لحجابه وسعاته أخرجوا هذا . . . من هنا . فأخرجونى على حال من الهوان لا يصبر عليها إلا رجل حازم أمام موظف أحمق .

فقلت له ونحن نمشى الهوينى فى طريقنا إلى البيت : هون عليك يا صديقى فإن أكثر الموظفين حالهم مع الناس كحال هذا الموظف معك .

* * *

ايها القلم !

لشد ما أتمنى على الله أن يجعلك فى يدى سنانا يحز ، ومعولا يهدم !

لقد عجزنا يا قلم وعجز اللسان !

محمد محمود باشا[1]

(٩ فبراير سنة ١٩٤٩)

رجلان يربكان الكاتب إذا حاول أن يكتب عنهما رجل لا يستطيع أن يجد ما يقوله فيه ، ورجل لا يستطيع أن يختصر ما يعرفه عنه .

ووصف (الأول) بالرجولة تساهل فى التعبير ، وإطلاق لفظ الرجل على (الآخر) قصور فى اللغة ، فإن من المسلمات فى تاريخ الإنسان أن من نوعه من يعلون حتى يكونوا خيراً من الملائكة ، ومنه من يسفلون حتى يكونوا شرا من البهائم . أولئك هم أصحاب الرسالات لحياتهم للناس ، وهؤلاء هم أصحاب الشهوات لحياتهم لأنفسهم . ولا مراء فى أن الرجل الذى فقدته مصر فى هذه الأيام السود كان من البابة الأولى فى الرجولة تجلت فى خلائقه مزايا الإنسان الرفيع فاتفق على نبله الصديق الحميم والعدو الكاشح وتمثلت فى أفعاله خلال الشريف الحر فاعترف بفضله الوطنى النزيه والأجنبى المنصف . عاش محمد محمود عمراً ثم مات ، كما اشتعل القبس حيناً ثم انطفأ ، فقال قوم هو النور والإشراق ، وقال آخرون

بل هو النار والإحراق وما أرسل الله من قبلُ حكيما ولا زعيما إلا آمن به بعض وكفر به بعض . وليس الإيمان بالدعوة دليلا على الصدق ، ولا الكفران بها دليلا على الكذب

* * *

لا يَعنى « الرسالة » من تاريخ صاحب الهوى الرفيع والنفس الكبيرة محمد محمود إلا دينه وخلقه وأدبه ؛ وهو فى هذه الثلاثة بإجماع الكلمة كان مضرب المثل وموضع القدوة . فدينه دين المعتقد عن علم ، وخلقه خلق التقى عن عقيدة ، وأدبه أدب السرى عن أصالة . وما اجتمعت هذه الصفات فى زعيم حكيم إلا كانت ضماناً لحسن نيته وأماناً من سوء عمله .

أما السياسة فلا تزال فى الشرق العربى كله أثراً للعوامل الأجنبية ، فلا تتأثر برأى حزب ولا تتغير بإرادة حكومة . فمن الخطل أن ندخلها فى أسباب الحكم على زعيم أو حاكم مادام يتأثر بها ولا يؤثر فيها وإذا اعتبرنا السياسة على هذا الوجه السلبي شهوة من شهوات النفس الطموح تصل من طريقها إلى المال أو الجاه أو الحكم ، فقد أبى لزعيم الأحرار الدستوريين نبل فطرته وكرم أسرته أن يجعل أى عرَضٍ من هذه الأعراض الدنيا غاية لهذا الطريق .

اجتمعت لمحمد محمود باشا أرستقراطية النسب والمال والعلم والمنصب. فلو أنه كان يندلق على الناس بالبطر والزهو فى الشوارع والمجامع لما كان بِدْعاً من الأمر ، ولكنه ـــ برّد الله بالرحمة ثراه ـــ ظل طول حياته يطالع الجمهور ويعالج الأمور ومن دونه حجاب من التصون الكريم لا يسمح له أن يتخذ الشعب إطاراً لصورته ولا مظهراً لعظمته

لم يقل أحد من الناس فى وقت من الأوقات :

هذا محمد محمود يعرض سلطان منصبه على عيون الفقراء ، أو يفرض إعلان موكبه على حناجر الدهماء . أو يرفد ثروته الضخمة بعضوية ظنينة فى شركة من الشركات أو فى بنك من البنوك !

ولم يقل أحد من الناس فى مناسبة من المناسبات :

هذه زوج محمد محمود تتمرد على تقاليد الشرق وآداب الإسلام ، فتشهد مع الرجال حفلات النهار وسهرات الليل !

ولم يقل أحد من الناس فى حالة من الحالات :

هذا ابن محمد محمود ينبو على القانون فى الدواوين ، أو يعربد على الناس فى (عماد الدين) ، أو يتنبل باللباس والمركب فى طريقه إلى نادى القمار أو إلى سباق الخيل !

إن بيت آل محمود وبيت آل عبد الرازق هما المثلان الصحيحان فى مصر للأسرة المسلمة الحديثة . ذلك لما تهيأ لهما من وسائل السؤود وشمائل الفتوه ؛ وجماع هذه الوسائل وتلك الشمائل قيامها على أركان من المجد والمال والعلم والشخصية القوية قلما تجتمع كلها لبيت واحد . والسر كله فى الشخصية الأصيلة التى خلقت من التليد والطريف والشرق والغربى مدنية مستقلة كانت أبلغ حجج الإسلام والشرق على من يقولون بلسان الجهالة والوضاعة إن الإسلام ينافى التمدن وإن الشرق يجافى الحضارة .

ومن هنا كانت حياة الفقيد العظيم بخصائصها المميزة من العزة والعفة والإباء والصدق رسالة خلقية تقوم على الدعوة والقدرة فى فترة من المصلحين الصالحين تفككت فيها الأواصر وتحللت العقد وانماعت النفوس ، وأصبح كل عمل يجوز ، وكل شىء يمكن ، وكل وضع يستقر !

رحم الله محمد محمود ! لقد كان فوق الشهوات والحزازات والحوادث ، فكان عف اليد واللسان والضمير . وكان الناس لندرة هذه الخلال فيهم يحسبونه قد نزع في ذلك إلى أبناء « أكسفرد » ؛ وما كان الشبه بينه وبينهم إلا في صفات القوة كصراحة الخلق وصرامة النظام والاعتداد بالنفس والاستقلال في الرأى وما يستتبع أولئك من المحافظة على السنن الموروث والاكتراث للعرف المتبع وأصول هذه الأخلاق مما ينبت طبيعة في أقاليم الصعيد ؛ ولكنها تزكو زكاء الكلمة الطيبة إذا غذت أرومتها خصائص الجنس الممتاز وفضائل الدين الصحيح .

فإذا برح بالأمة الحزن عليه فذلك لأنه كان المثل الشاهد على أنها تلد الرجال الكملة إذا نشأتهم على سنتها القويمة ، ولأنه كان القدوة الحسنة لمن كان يشك في نجاح الأخلاق الكريمة .

رحم الله محمد محمود ، وعزى أسرته على رزئه أجمل العزاء ، وعوض أمته من فقده خير العوض !

من وحي الحرب :

الربيع الأحمر

(١٩ فبراير سنة ١٩٤٠)

الربيع الأحمر ! ذلك هو الربيع المقبل كما يتصوره الشاعر !

لا يزال الربيع جنيناً فى بطن الأرض ، وإن الطبيعة لتهيء لجذوره وبذوره الغذاء المرىء والكساء الوضىء من دماء البشر !

سيولد ولادة الملوك على حشد الجنود وخفق البنود وقصف المدافع وسيدرج فى غلائله الأرجوانية الموشاة على فجوات القنابل وأخاديدها ، فيبذر الحياة فى الموت ، وينشر الجمال على القبح ، وينثر أزهاره الغضة على جثث وقبور ! ويومئذ لا تدرى وأنت ترى غيم الدخان وبرق النيران ، وتسمع صفير الرصاص ورعد القذائف ، أنحن فى ربيع إبريل أم فى شتاء يناير ؟

على أن الشتاء كان على الناس سلاماً وبركة ! خمدت على جليده لظى الحرب، وجمدت فى ثلوجه مخالب الموت ، واستطاع بفضله الهر الفنلندى الضئيل أن ينشب أظفاره فى حشا الدب الروسى الهائل ؛ ولكن الربيع الذى جعله الله نشورا للحياة ومعاداً للشباب ومبعثا للحب ، سيعين لؤم الإنسان بدفء نسيمه وصفاء جوه ، على أن يجعل الأرض لنفسه مجزرة ومقبرة !

* * *

الربيع الأحمر ! ذلك هو الربيع الذى لا يخلقه الله وإنما يخلقه الإنسان ! سيخلقه من الذهب واللهب والدم ، فيجعل من الجداول خنادق ومن الأغصان بنادق ومن الأدواح مدافع ، وإذن تصبح الأعشاش الناعمة المغردة

المطارة مثابة بؤس ومناحة شباب ومستودع غاز !

سيعود ربيع الله الأخضرُ بطيوره وزهوره ونوره وسروره إلى الجنة ، وسيستعير الإنسان مادة ربيعه الدامى من جهنم ، فينبت فى كل بقعة من بقاع الأرض آجام من شجر الزقوم الباسق الألفّ ، تَئزُّ فى آفاقها الطوائر ، وتعج فى أجوافها المـدافع ، وتدب فى مدارجها الدبابات ، وتهب فى مجاريها السموم ، وتردّد فيها أناشيد السلام وأغاريد الغزل أنات وصرخات تذوب لهولها الهائل قلوب الشياطين !

تبصّروا أيها السادرون من ساسة الشعوب ! أهذا هو الربيع الريان الذى جعله الله جدة للحياة ومتعة للحى ، أم هو الخريف الميت أحرقته الحرب باللهب وكفنته بالنجيع ، وأخـذت عواصفها الرُّعن تـكسح الأرواح الساقطة قبل الأوان لتقذف بها فى هوَى العدم ؟ لم تستعجلون أمر الله ، وتستقدمون يوم القارعة ، وتحاولون أن تدكوا الأرض ، وتشقوا السماء ، وتدَعوا الـكون الذى عمرته القرون وحضّرته الأمم كمعبـد (داجون) أنقاضاً على شمشون وأعدائه ؟

هيهاتَ أن تصيخ اليوم لنداء السلم أذن ! لقد جمح الهوى بالعقل جموح الفرس الشموس ، فلا هو يسمع الصوت المهيب ، ولا هو يطيع اللجام الـكابح !

تلك مشيئة الله ، وما تشاءون إلا أن يشاء . ولعله ، عزت حكمته ، يريد من هذه القيامة العاجلة أن يحيي الناسَ حياة أخرى على نمط من الهداية جديد .

* * *

الربيع الأحمر ! ذلك هو الربيع الخلاق الذى يهز الأرض هزاً فتربو وتنبت ! سيهزها هز العافية ليسقط الذاوى وينتعش الهامد والحرب تشذيب لغرس الله تقوى عليه الغصون ويزكو بعده الثمر وآفة الحرب أنها تودى

بالصالح للحياة وتبقى على الصالح للموت ؛ ولكنها كالسيل الأتىّ يجرف تياره الجنىّ واليابس ، ويغرق طغيانه العامر والغامر فإذا انقطعت روافده وجفت مجاريه عادت الأرض به أخصب تربة وأوفر غلة

مرحباً بالحرب إذا لم يكن من خوض غمارها بد ! إنها تقطع الفضول وتنفى الخبَث وتذيب الغش وتذهب الوهن ولعلنا أحوج الأمم إلى طَهور الحرب يرحض عنا رخاوة الذلة واستكانة الرق ! فقد غبرت على وجوهنا قرون من التبعية المستسلمة لو مرت على الضوارى لطمست فى جباهها معارف الجرأة ، وأماتت فى نفوسها معانى الافتراس كنا نعيش فى ظلال المتبوع عيش الأمان والغفلة ، لا نعرف الحدود إلا على الورق ، ولا نشهد الحروب إلا فى السينما ، ولا ندرك معنى الدفاع عن النفس فى وجود الحامى إلا كما تدركه الزوجة المرفهة فى وجود زوجها ، والولد المدلَّل فى حضرة أبيه ؛ حتى فشا فينا الجبن ، وغلب علينا التواكل ، وقعد بنا الرضا فتركنا ثروتنا للغريب ، ووكلنا حمايتنا للحليف ، وفرغنا للتنافس فى الهزل ، والتراشق بالتهم ، والتسابق إلى النيابة أو الحكم من غير كفاية ولا غاية !

* * *

الربيع الأحمر ! ذلك هو الربيع الجبار الذى يأكل غثاء الخريف وحطام الشتاء ليحيلها فى جوفه النارى غذاء لشجره ونماء لثمره !

هو وحده الذى يستطيع أن يقتطع الحطب ، ويقتلع العُليق ، ويُنبت على الجذور البالية خِلفة نامية زاكية تهيىء الروض الهامد للنضارة والطهارة والإنتاج والبركة .

إن روضنا يا ربيع هشيم وخشب ! فأحيه بالماء أو بالدم ، وعالجه بالغذاء أو بالسم ، فقد استعصى يا ربيع علاجه على النيل . ولا بد أن يضحَّى بجيل فى سبيل جيل !

من بريد الرسالة

(٢٦ فبراير سنة ١٩٣٩)

على غير انتظار ولا توقع وجدت اليوم فى بريد الرسالة كتاباً من السيدة « حياة » والذين كانوا يقرأون جريدة (الليبرتيه) على عهد ليون كاسترو ، أو مجلة (الرسالة) فى عامها الأول ، لا يزالون يذكرون ولا شك هذا الاسم الجميل ، وذلك الأسلوب الساحر ، وتلك القريحة النسوية الصافية التى تخلق من الشعر والمنطق صوراً من الفكر الرصين البارع .

ذلك الكتاب كذينك الكتابين[١] وردي الغلاف أنيق الخط مصرى الروح فرنسى اللغة ؛ ولكنه يختلف عنهما بعمان من المحافظة والاعتدال لعلهما رجْع[٢] المبالغة والإسراف فى حياة المرأة المصرية الحديثة

لا أحب أن أفقدكَ شيئاً من جمال هذا الكتاب بتلخيصه أو اقتضابه ، فإنه فى ذاته وحدة من البيان الصريح والقول الشارح لا تقبل توطئة ولا تجزئة . فأنا أترجمه إليك ترجمة لا تخالف الأصل إلا فى اللفظ . أما تأليف الجملة ، وتنسيق الفكرة ، وتلوين الصورة ، فذلك كله لفن الكاتبة . وإذا علمت أن السيدة « حياة » إنما تكتب بروح عربية وطبيعة مصرية ، سهل عليك أن تدرك سر هذا الائتلاف العجيب بين العربية والفرنسية فى قلمها المبدع

قالت :

---

(١) تحدثنا عنهما ونشرنا شيئاً منهما فى العددين العاشر والحادى عشر من الرسالة .
(٢) الرجع : رد الفعل .

أستاذى العزيز

ما زلت أوثر أن أكتب إليك بالفرنسية على الرغم من بلوغى فى البيان العربى بفضل الرسالة مكانة لا بأس بها وسبب هذا الإيثار أن المرء يميل بطبعه إلى جهة القدرة لا إلى جهة العجز ، ويؤثر بغريزته جانب الكمال على جانب النقص ولغتى العربية لا تزال عاجزة عن رياضة هذا القلم فى يدى ، فإذا كتبت بها إليك أهملتَ ما أكتب فتسىء إلىّ ، أو أعملت فيه قلمك فتزوِّره علىّ وأنا كأكثر النساء مستكبرة أنوفة ، فلا أحب أن أكونَ من الرجل فى موضع الإهمال أو المعونة .

أكتب إليك فى صباح ليلة ساهرة ثائرة تقسمت مشاهدها العجيبة خواطرى ومشاعرى ، فكأنني لم أشهد قبلها ليـــلة ! والحق أن ليلة (مبرة محمد على)(١) فى هذا العام كانت بِدْعاً فى نظامها و برنامجها والاحتفال بها والإقبال عليها والديمقراطية فيها

لقد كان قصر المعرض بالجزيرة معرضاً حقيقياً لمجتمعنا الحديث . فالأميرات والعقيلات والآنسات والممثلات يصاحبهن أو يراقصهن أو يجاورهن الأمراء والكبراء والموظفون ورجال الفن ؛ وكلهم على النمط الغربى الرفيع فى أناقة الزى ورشاقة الحركة وأسلوب التحية ومراعاة الرسوم وإجادة الرقص ، حتى خيل إلىّ أن الحفلة فى (الجران باليه) بباريس لا فى السراى الكبرى بالقاهرة .

كنت أتنقل أنا وزوجى من مقعد إلى مقعد ، ومن مشهد إلى مشهد » فى مسرح اللهو ، وفى حلبة الرقص ، وفى المقصف ، وفى (القهوة البلدية) » فأجد أخلاطاً من الناس يشتركون فى المظهر ، ولكنك تستطيع أن ترجعهم إلى بيئاتهم المختلفة من طريق الهندام ولهجة الكلام واختلاف الوضع . يسهل

(١) مؤسسة صحية خيرية تقوم على تمويلها بعض الأميرات بالتبرعات .

ذلك التمييز فى الرجال ويصعب كل الصعوبة فى النساء ؛ لأن المرأة بفضل السينما والرياضة استطاعت أن تشأى[١] الرجل فى مضمار المدنية الغربية ، فهى فى إتقان زينتها وانسجام سمتها لا تختلف عن كواكب هوليود . أما الرجل فبطىء التطور عصىّ الطبع لا يغشى أمثال هذه الحفلات إلا مسوقاً بإرادة زوجته أو ابنته

لعلك تذكر أنى كتبت إليك منذ خمس سنوات كتاباً قلت فيه عن حرية المرأة إنها مسألة لا تتعلق إلا بنا ، ولا يكون الحكم فيها إلا لنا . وما دخول الرجل فيها إلا أثر من اعتقاده القديم أن فى يده زمام هذا الجنس المنكوب يرخيه ويشده على هواه والأمر لا يخرج عن كونه نظاماً طبيعياً يجرى على سنة الحياة من سيطرة القوة على الضعف ، وطغيان الأثرة الباغية على العدل الذليل فحرية المرأة كحرية الأمة ، سبيلهما الفعل وحجتهما القوة ؛ أما الدفاع بالقول والإقناع بالحق فأصوات مبهمة كزفيف الريح المحبوسة فى مخارم الجبل لا تدل على الطريق ولا تساعد على الفرج .

قلت ذلك وما كان يهجس فى صدرى أن المرأة فى هذه المدة القصيرة تستطيع أن تنزع من الرجل قيادتها وحريتها ثم تغلبه على إرادته وكرامته فتروضه هذه الرياضة وتخضعه هذا الخضوع !

لقد كنت أرى المرأة فى هذه الليلة تراقص الغريب وتضاحك الكأس ، وزوجها أو أبوها يهيىء لها فرصة المغرفة ويسعى لها بوسائل اللذة ، فأجدنى أنا داعية الحرية النسوية بالأمس ، أشد الناس ضيقاً بها وسخطاً عليها اليوم ؛ لأن هذه الحرية — بالقياس إلى الحرية التى كنا ننعم بها وندعو إليها — إباحية وفوضى وذلك فى الحق علة ما نرى من التنافر بين الفتى والفتاة ، فقد

---

(١) تشأاه : تسبقه .

كان الظن أن يزول بالتعلم ما بينهما من تنافر العلم والجهل ، فأصبح هذا التنافر معززاً بتنافر الحشمة والتهتك . وما دام التلاؤم مفقوداً بين الجنسين إما لتقدم الرجل على المرأة فى العلم ، وإما لتقدمها هى عليه فى المدنية ، فهيهات أن تنفرج أزمة الزواج أو تستقيم حال الأسرة .

كانت هذه الحفلة فى السنين الخوالى مظهراً للحرية القصد والبر الخالص فما زالت عوامل التقليد والتجديد تلح على مزايا الأنوثة وخصائص الجنس حتى أصبحت معرضاً للجمال والدلال والزينة . وذلك بالطبع سر نجاحها ورباحها ؛ وهو مغنم لغايتها الشريفة على أى حال .

إنى ألمح على المرأة فى نادى السيدات وفى بعض الحفلات نزوعاً إلى تعدى الحدود التى جعلها الله بينها وبين الرجل ، فإذا لم نعالجه بالفطام والكبح أعضل الأمر وفسد المجتمع .

ولعلى ياسيدى أشير فى (الرسالة) إلى مواطن الداء الحين بعد الحين ليتسنى لأرباب القلم وصفه ، ويسهل على أقطاب الحكم علاجه .

أدام الله عليك التوفيق وأعانك بالسداد على مواصلة الجهاد فى تبليغ الرسالة .

(مباه)

* * *

هذا كتابك ياسيدتى قرأته وترجمته ونشرته ، وسأعود إليه بالتعليق والتحقيق فى فرصة أخرى .

محمد الزعيم

(٤ مارس سنة ١٩٤٠)

وُلدت سنتنا الهجرية الجديدة وا أسفاه فى هذه الأيام التى اختبل فيها إنسان الغرب فزلزل جوانب الأرض على نفسه ، وأبكم فى فمه حجة العقل ووحى الضمير ، فلا يتكلم إلا بلسان النار ، ولا يصول إلا ببأس الحديد وراحت المنايا الرواعد تدكدك المدن والناس فى فجوات القنابل ، فلا ترى اليوم فى بلاد الحرب غير مقبور أو منتظر ، ولا فى بلاد الحيدة غير مذعور أو حَذِر . ومفزَع الشعوب فى غشية هذه الخطوب الزعماء والقادة . فليت شعرى إلى من يفزع العرب والمسلمون من هول هذه الساعة ؟ لم يُتح الله لهم بعد محمد وخلفائه زعيماً تجتمع عليه القلوب وترجع إليه الأمور فى أقطارهم البعيدة ووجوههم المختلفة ؛ وإنما ابتلاهم بالانقسام والفرقة حين ضلوا الطريق ؛ فكان فى كل قطعة من الوطن الأكبر سرير وأمير ، وتوزعت زعامة محمد فى كل جيل وفى كل قبيل بين عشرات من الرجال العجاف ، فكانت كالشعلة العظيمة الوهاجة تقطعت أقباساً كشموع الأطفال لا تقوى على نَسَم الريح ولا تظهر فى حلك الليل !

* * *

تعالوا يازعماء اليوم عانين خاشعين ألق عليكم درساً من زعامة محمد ! إن فيكم زعماء أحزاب وليس فيكم زعيم أمة . أما هو فكان زعيم الإنسانية جمعاء. ولقد بلغتم مكان الزعامة الإقليمية عن طريق الحزبية أو الثروة أو القوة ، ثم لم تستطيعوا أن تنسوا ضعف القمىء الصغير الذى ارتفع على كواهل غيره ؛

أما هو فقد بلغ الزعامة العالمية عن طريق الألم والفقر والغربة والجهاد ؛ ثم جعل في عشر سنين من الرعاة الجفاة المشتتين على رمال القفر أمةً متماسكة الأجزاء ، متحدة الأهواء ، متساندة القوى ، متجانسة الطباع ، بلَّغت رسالة الله وحكمت عامر الأرض ، ومدنت أكثر العالم .

إنكم تكونون قبل الزعامة ناساً كالناس ، ثم تصبحون بعدها آلهة كالآلهة . تنكرون الخاصة ، وتزدرون العامة ؛ ثم تمتازون فتدخلون بفضل المبادىء المزورة والمناصب المسخّرة في دنيا النبلاء والأغنياء ومإذا بعد هذا ؟ أما هو فقد ملك الحجاز واليمن ، وجبى الجزيرة كلها وما داناها من العراق والشام ، وظل ينام على فراش من أدَم حشوه ليف ، ويبيت هو وأهله الليالي طاوين لا يجدون عَشاء ، ويمكثون الشهر لا يستوقدون ناراً ، إن هو إلا التمر والماء ؛ ويلبس الكساء الخشن والبرُد الغليظ ويقسّم على الناس أقبية الديباج المخوص بالذهب ، فإذا أقبل على أصحابه فقاموا إجلالا له قال لهم : « لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً . إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » وكان ذات مرة في سفر فأمر أصحابه بإصلاح شاة فقال رجل : عليَّ ذبحها ، وقال ثان : عليَّ سلخها ، وقال ثالث : عَلَيَّ طبخها فقال الرسول صلوات الله عليه : وعَلَيَّ جمع الحطب فقالوا : يارسول الله نكفيك العمل فقال علمت أنكم تكفونني إياه ولكني أكره أن أتميز عليكم !

ولما استعز الله بقاسم الفيء وزعيم الجزيرة وسيد الملوك كانت درعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله !

إنكم حينما تتزعمون لا تفكرون إلا في مثوبة الصديق وعقوبة العدو ؛

ثم لاتخرج أعمالكم وآمالكم عن دائرة الحزبية الصغيرة الحقيرة ؛ فالمنفعة تقاس بمقياس الحزب ، والسياسة تتلون بلون المنفعة أما هو فكان يعادى فى الله و يصادق فى الله . اشتط فى أذاه المشركون فى مكة والمنافقون فى المدينة ، فلما أمكنه الله منهم بسط عليهم جناح عفوه ، وقال لقريش يوم الفتح يا معشر قريش ! ماترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ! أخ كريم وابن أخ كريم ! قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ثم كانت سياسته كنور الله لاتعرف الحدود ولا الخصوص ولا الزمن ؛ إنما هى سر الخالق العظيم استعلن فى سكون الصحراء على لسان الرسول العظيم ، ثم دوّى فى غياهب الآفاق ومجاهل الأبد ليكون الشعاع الهادى لكل ضال ، والنداء الموقظ لكل غافل .

إنكم تسيِّرون الجنود إلى الخنادق وتبيتون على حشايا الديباج ، وترسلون العمال إلى المهالك وتظلون فى أبراج العاج ؛ أما هو فكان يقاتل مع الجندى حتى يدمَى ، و يعمل مع العامل حتى ينصب . وكان صحبه إذا احتدم البأس واحمرت الحدق اتقوا به فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه !

ذلك محمد يازعماء اليوم وهؤلاء أنتم ! فهل تحسون بينكم و بينه صلة ، أو تجدون بين سياستكم وسياسته مشابهة ؟

لا تقولوا إنه الوحى ، فما كانت حياة الرسول كلها ولا سياسته كلها من هُدى الوحى ؛ ولكن قولوا إنها الرجولة الكاملة والخُلق العظيم والعبقرية الفذة والشخصية القوية . ووصف شخصية الرسول بالقوة لا يدل عَلَى شىء ، لأن هذه القوة لم تظهر فى أحد قبله ولا بعده حتى يقوم بها وصف . وما ظنكم بشخصية تُخضع لليتيم العديم الزارى على الآلهة والسادة الرؤوسَ الطاغية والنفوس العاتية

والقلوب الغلاظ ، فيسمتُون سَمتَهُ فى الخلال ، وينهجون نهجه فى العيش ، ويأخذون أخْذَهُ فى المعاملة ، ويجتمعون على حبه وطاعته وتفديته إجماعاً لايخرقه إلا الكفر بالله . فأقواله سنن تتبع ، وأعماله عهود تحفظ ، وآراؤه أوامر تطاع ، وأحكامه أقضية تنفّذ . فعليكم يازعماءنا بسيرة محمد وسياسة محمد ؛ فلعل فيكم من تدركه نفحة من نفحاته القدسية فيجدد مارثّ من دعوته ، ويجمع ماشتّ من وحدته ، ويصلح ما فسد من أمته ! « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها » .

الظلام ! الظلام !

باسم الله تخطو الرسالة إلى عامها العاشر ، و بغير اسم الله نور السموات والأرض لا يهتدى فى هذا الظلام الحالك سارٍ ولا سائر . والظلام فى هذا الكوكب طبيعة أصيلة ، فأناره الله بالشمس والقمر والدين ، وأنرناه نحن بالزيت والكهرباء والعلم ، حتى أوشك أن ينجاب الحلك الغاشى عن آفاقه وأخلاقه ولكن سلائل الطين لا تستضيء بصائرهم وسرائرهم بغير الدين ، فإذا أطفأوه فى قلوبهم تنفسوا الظلام فإذا الدنيا ضلال وجهل ، و إذا العالم دمار وهلك ! وتلك هى الحال التى يكابدها الناس اليوم : ظلام فى بلاد الأرض ، وظلام فى نفوس الناس ، وظلام فى وجوه المستقبل ، فمن يخرج يده لا يكد يراها . ومن يتعلق بسبب من أمله انقطع به ! ومن ينظر فى صفحة الغد عميت عليه ! ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور !

* * *

الظلام ! الظلام ! الظلام ! ذلك هتاف الأمان ودعاء السلامة فى كل أمة من أمم الشرق والغرب اليوم ! فليت شعرى هل تألّه الشر وتحكم الشيطان وصدقت المانوية[1] !

---

(١) المانوية مذهب مانى ، وهو رجل ولد فى فارس حوالى سنة ٢٧٤ م ، وكان يقول إن العالم تتولاه قوتان متضادتان : قوة من طبيعتها الخير وهى الله أو الروح أو النور ، وقوة من طبيعتها الشر ، وهى الشيطان أو المادة أو الظلام ، قال المتنبى :

وكم لظلام الليل عندى من يد　　تخبر أن المانوية تكذب

غشينا ظلام الغرب ولفنا ليله الأليل ، فكأنما انطفأت في شرقنا عين الشمس !
وما كان الغرب منذ دحا الله الأرض إلا مبعث ظلمة وما كان الشرق منذ أوقد الله الشمس إلا مطلع نور فإذا دجت الآفاق واستسّرت المعالم كان معنى ذلك أن الشرق قد انكفأ فلم يرسل شمسه ولم يبلغ رسالته !

والحق أن منازل الوحي من الطور والجليل وحراء قد أصبحت ترسل أمواج النور الإلهية لغير قابل كان لها من نفوس الأنبياء أجهزة من صنع الله تقبلها وتنشرها وتهدى بها وتدعو إليها ، فلما ختمت النبوة وانقطع الوحي ، ورث الخلفاء والعلماء رسالة الله فكانوا كوراث الملك أو المال ، منهم القاعد المضيع ، ومنهم المجاهد الكاسب ولو شاء ربك أن يدرك النصرَ أولياؤه ، ويطبّق الأرض دينُه ، لجعل الناس أمة واحدة ، ولكن لا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلكَ خلقهم !

لا تزال منازل الوحي ترسل الأمواج السماوية بالهدى ودين الحق ، ولكن الذى يضل من يشاء ويهدى من يشاء حرم الناس نعمة القبول فاستأسدت فيهم الغرائز ، وأسرفت عليهم المطامع ، وتفرقت بهم المذاهب ، وذاقوا من فساد النظام وطغيان الحكام ما لم يذقه الحيوان الأدنى من القتل والجوع والجور والبؤس والفوضى

وكان الظن بالأزهر الذى قام للدين وعاش بالدين ، أن يكون لأمواج الوحي الخالد محطة استقبال وإذاعة ، ولكنه انقطع عن ركب الحياة فخضع لعوادى الدهر القاهر ، خضوع القلعة المحصورة المغير القادر !

على أن هذه الحرب العالمية كما قلنا القيامة الصغرى ، ومن الحتم أن سيكون بعد القيامة الخلق الجديد والحياة الفضلى والواقع في الظن أن الأزهر

يمهد لهذا الانبعاث ، ويهيىء لهذه الحياة وما هذه الروح التى دبت فى (جماعة كبار العلماء) آخر العام المنصرم إلا نفحات الربيع الأولى يرسلها النيروز لتجرى الماء فى الأعواد ، وتوقظ الحياة فى البراعم

* * *

لعلك تسأل نفسك ما بال الرسالة لا تنفك تذكر الأزهر فى معرض الإصلاح والنهضة ، وما الأزهر فى رأى أكثر الناس إلا متحف آثار ومقبرة أفكار وطلل مذاهب ؟

وجوابى عن هذا السؤال أن الشرق لا ينهض إلا بالدين ، وأن الدين لا ينهض إلا بالأزهر . ولست أقصد بالدين هذا الدينَ الذى يعتقده المسلم المعاصر ، ولا بالأزهر هذا الأزهرَ الذى تراه فى نظامه الحاضر ، إنما الدين الذى أعنيه هو دين القرن الأول ، والأزهر الذى أبغيه هو أزهر القرن الرابع عشر أريد الدين النقى القوى الذى فتح الممالك ، ومدّن الأمم ، وكرّم الإنسان ، واحترم العقل ، وفرض المعرفة أما هـذا الدين الذى يقول بعبادة الأولياء ، وتمجيد القبور ، وتقديس القـديم ، وإيثار التواكل ، ومخادعة الله بالحيـل ، ومهاواة القادة بالنفاق ، فليس دين الله ؛ إنما هو دين هؤلاء الأوزاع والأتباع الذين ضلوا وذلوا ، فرقتهم الأحداث ، وأكلتهم المطامع ، وأصبحوا نهباً تتقاتل عليه الدول و يعتدل بتقسيمه التوازن .

وأريد الأزهر الجـديد الذى يضع لثقافة الشعب أساساً من الدين ، يقوى بقوة الله ، ويثبت بثبوت الحق ، ويدوم بدوام الدنيا ، ثم يقيم عليه من القواعد والنظم والأوضاع ما يقره العقل ، ويؤيده العلم ، ويتقبله العصر ، وتقتضيه الحاجة أما هذا الأزهر الذى يَعلك الـكلام ، ويجترُّ الماضى ، ويقتات

الفتات ، ويبطل الاجتهاد ، ويعطل العقل ، فهو مسجد من المساجد الأثرية لا أقل ولا أكثر .

* * *

أما بعد فقد عودتك يا قارئى العزيز أن أتحدث إليك فى مطلع كل عام عن بلاء الرسالة فى الجهاد وعملها فى المستقبل . وإنك لتعلم أن هذا الظلام الشامل الكثيف الذى ضرب على أبواب الغد حجباً فوق حجب ، يجعل مثل هذا الحديث أقرب إلى لغو الكلام وعبث الأمانى فنسأل الله أن يتولانا فى هذه الزلزلة العامة برحمته وفضله !

فقهاء بيزنطة

(أول ابريل سنه ١٩٤٠)

فقهاء بيزنطة هم الذين كانوا يجادلون فى البيضة والدجاجة : أهذى أصل تلك ، أم تلك أصل هذى ، بينما كان محمد الفاتح يرسل الصواعق دراكا على أسوار القسطنطينية ، فلا يخرجهم من شدة الخلاف وحدة الجدل ما فوقهم من حمم المنايا ، ولا ماحولهم من صرخات النزع !

وفقهاء بيزنطة هم الذين يجادلون اليوم فى محراب المسجد بعد ألف ومائتى عام . أهو سنة فيبقى ، أم هو بدعة فيزول ؟ وفى محمل [1] شجرة الدر : أهو موافق للشرع فيسير ، أم هو مخالف له فيقف ! يجادلون فى هذا وفى ذاك بين أعمدة الجرائد والمساجد ، ويسرفون فى الجدال حتى يتشعب الخلاف ويتمادى ، ويتقسم الرأى ويتعادى ، فيكون لكل شيخ شيعة ، ولكل شيعة عصبية جاهلة تمزق ما وصل الدين به القلوب من وشائج الإخاء والمودة .

نعم يجادل فقهاء بيزنطة اليوم فى المحراب والمحمل ، ومن قبل كانوا يجادلون فى زر العمامة أيبتر أم يضفى ، وفى شعر الذقن أيحفى أم يعفى ، وفى قبر الميت أيسوى بالأرض أم يقام ؛ حتى أدخلوا فى روع العامة من طول ما شغلوهم بهذه التوافه أن الدين هو هذا وليس غير هذا . فلو تسنى لك أن تكشف عن عقيدة الإسلام فى ذهن العامى أو شبهه لما رأيت إلا صورة مشوهة من رسوم العبادات

---

(١) المحمل : هو الذى تسيره الحكومة المصرية كل عام الى مكة حاملا كسوة البيت الحرام وهو من التقاليد الموروثة عن « شجرة الدر »

وأوضاع العادات وألوان الأدعية أما الإسلام الذى وضع الدساتير الخالدة لسعادة الفرد و الأسرة والأمة والإنسانية فى كل زمان وفى كل مكان ، فذلك معنى لم يجر فى شعوره ولم يدخل فى علمه . والعوام وأشباه العوام هم جملة الأمة الإسلامية اليوم فما تسمعه من هذا تسمعه من ذاك ، وما تراه هنا لابد أن تراه هناك . وعلة هذه الجهالة الفاشية هى طريقة أهل الدين فى تعلمه وتعليمه ونشره ، فهم يقفون فى تحقيقه عند النقل ، و يقتصرون فى تطبيقه على الشكل ، و يكتفون فى نشره بهذه المظاهر الصوفية الباطلة ؛ فكان من جرائر ذلك عليهم أن قصرت مداركهم عن مداه ، و بان على القدر الذى شدَوه منه الضيق والضحل والجمود ، ووهم الناس أن ما عندهم هو الدين كله فزهدوا فيه ونفروا منه .

* * *

أى والله ! لا يزال فقهاء بيزنطة يفرقون بين الناس بصدعات الرأى[1] والهوى فى المحراب والمحمل ، وفيما هو أدنى من المحراب والمحمل ، وهم يعلمون أن الأديان البشرية التى وضعها الطغاة تحدِّياً لله وتهجماً على دينه ، تحاول بقوة الجيش وحجة المدفع ودعاية المذياع أن تخفت ذكر الله فى كل أرض ، وتطفىء نوره فى كل سماء وهذه المذاهب الأرضية إنما تجادل خصومها فيما تزعمه لنفسها من قتل البؤس ومحو الفروق ونشر العدالة ، لا فيما تتخذها لشعائرها من زِىّ ، أو تبتدعه لمظاهرها من شكول .

ثم جعلوا غاية الدين أن يتزيوا بالورع ، و يتفقهوا فى علومه بتشقيق الجمل وتوليد الألفاظ وتعديد الفروض ، فإذا زادوا عَلَى ذلك شيئاً فهو الوعظ الذى

(١) الصدعة : التفرق . تقول : « رأيت بينهم صدعات » أى تفرقا .

يميت الطموح ويخمد العزيمة ويحقر الدنيا ويهيء النفوس المثقفة التي أعوزها النور الهادي والصوت المهيب لأن تصغى لما يتقوله المبشرون على الإسلام من الأباطيل ويزورونه عليه من الشبه

* * *

ليس من البر بالدين يا ورثة الأنبياء أن تخذلوا دعوة الله لتنصروا دعوة الإنسان

إن الدعوات السياسية التي تتخذ شعار الاصلاح أو تلبس مسوح الدين تسلك إلى النفوس المؤمنة المطمئنة سبل الغرور والغي في غفوة من العقل أو سورة من الجهالة ، فتزعزع إيمانها بالشكوك ، وتذهب اطمئنانها بالفتون فماذا أعددتم لحماية هذه النفوس الغريرة الغضة من وساوس الفتنة وهواجس الجهل ؟ إنني ألقى هؤلاء النشء في كل يوم ، وأحدثهم في كل لقية ، وأكشفهم في كل حديث ، فلا أجد عندهم من الإسلام إلا ما كان عند نصارى القرون الوسطى منه . ثم لا تسمع منهم إلا غماغم من الألفاظ المنكورة المكرورة عن الزواج والطلاق وحرية الفكر ومجافاة التمدن فإذا أخذت تقرر لهؤلاء كيف كان الإسلام بتوحيده بين الدين والدنيا علاجاً لأدواء المجتمع ونظاماً لفوضى الطبيعة ، وتدلل على أن ميزة الاسلام التي تفرد بها هي أنه يساير التطور ويطاول الزمن فلا يمكن أن تكون فيه مناقضة للمدنية الصحيحة ولا معارضة للتقدم الحق ، سألوك دهشين . وأين نجد بيان هذا ؟

والمعضلة التي لم نجد لها إلى اليوم حلاً هي إجابتهم عن هذا السؤال : وأين نجد بيان هذا ؟ الواقع الذي يكسف البصر ويرمض الفؤاد أنك لا تجد في مكتبة الدين الاسلامي على ضخامتها وسعتها كتاباً واحداً يشرح للناس عبقرية هذا الدين وفلسفة تشريعه ووجوه إصلاحه وأسباب خلوده على

ضوء العلم الكاشف ونظام التأليف الحديث . وما أظن دينا من الأديان قد نكب في نفسه وفي أهله بمثل هذه النكبة !

فلو أن الله وفق (جماعة كبار العلماء)[١] فألفوا هذا الكتاب بدلا من تأليفهم في (المياه التي يجوز بها التطهير) مثلا لدفعوا عن أنفسهم معرة الجمود ومن دينهم نقيصة التخلف .

ولكن كبار العلماء لم يدخلوا هذه (الهيئة) إلا ليعظم القدر ويضخم الرتب ، فكيف نجشمهم أن يبطلوا كيد المبشرين بوضع هذا الكتاب ، أو يفصلوا بين المتجادلين المتقاتلين في المحمل والحراب ؟

---

(١) هي جماعة من كبار الشيوخ في الأزهر يؤلفها قانون ويديرها نظام ويرأسها الشيخ الأكبر شيخ الجامع الأزهر . ولها شروط للقبول واختصاص في العمل ليس هنا موضع تفصيله

العقيدة الساذجة

(١٥ ابريل سنة ١٩٤٠)

العقيدة الساذجة هي عقيدة الكثرة الكاثرة من مسلمي اليوم ! وربما كان الأشبه بالحق أن نصفها بشر من السذاجة ؛ فإن أيلولة الدين في نفوس أهله إلى هذا القدر العامي من العبادة الشكلية والزهد الكاذب والتفويض الذليل والورع المنافق والتصوف المشرك هي الفساد بعينه . وماذا بعد أن ترى كتاب الله وسنة رسوله يقرآن لالتماس البركة لا لاكتناه الفقه ، ودستور الإسلام وفلسفة وحيه يدرسان لمجرد العلم لا لإرادة العمل ؟

وماذا بعد أن ترى الأحكام والآداب والأنظمة التي أصلحت الأرض ومدنت الخليقة ، تصبح في الجوامع والمجامع رهبنة وشعبذة لا يستقيم عليها فرد ولا تنتظم بها جماعة ؟

لقد كان من أثر فساد العقيدة في النفس أن فسدت آثارها في الناس : الفقه في الدين تفيهق وجدل ؛ والصلاح في الدنيا تبطل وفشل ؛ والعبادة مظاهر آلية لا أثر فيها للروح ولا صلة لها بالقلب ؛ والأخلاق مياسم وراثية تنطق بالحق على ذلة الماضي وجهالة السلف ؛ والمعاملة ألاعيب اجتماعية تخدع الله وتزعم لنفسها الرضا والسكينة !

تذكر معنى الزكاة في دين الله ثم قل لي أين منها ما كان يصنع أحد شيوخ الأزهر وقد كان يملك في القاهرة شوارع بما عليها من المباني عن شمال وعن يمين ؟ لقد حدثوا أنه كان يجمع زكاة ماله كلما حال الحول في قفة ؛ ثم يغطي

الذهب والفضة بطبقة من الحنطة ؛ ثم يأمر فيأتونه بأحد المساكين الذين يتكففون على حاشية الطريق ، فإذا أدخل عليه قال له :

« هذه زكاتنا يا رجل آثرناك بها ابتغاء مرضاة الله » .

فيدعو المسكين ويهم بأخذ النفقة ؛ ولكن الشيخ قارون يريد أن يخفف عنه ويحتال له فيبادره بقوله : « وما تصنع بها يا رجل وليس عندك من تطحن وتعجن وتخبز ؟ أتبيعنى إياها بكذا قرشاً ؟ » فيلهج المسكين بالدعاء ، ويبالغ فى الحمد والثناء . ثم ينصرف بالقروش وتعود مئات الدنانير المروعة آمنة إلى صدر الخزانة الحنون !

تدبر فكرة الصدقة الجارية فى سنة الرسول ثم أخبرنى : أمنها ذلك البناء المربع الذى أقامه أحد القضاة المتقين فى وسط شارع حسن الأكبر ، ثم أجرى فى قلبه الماء ، وأوقد على رأسه النور ، ووقف على نفقته المال ، وجعله مورداً للسابلة فكان مزرعة للجراثيم ومصدمة للناس !

تصور حكمة الإنفاق فى سبيل الله على قواعد الدين الذى شرع ليضمن للفرد السعادة وللأمة السلامة وللبشرية الألفة ؛ ثم تعال أنقل إليك ما روته جريدة (الدستور) فى يوم الإثنين الماضى عن مراسلها ببغداد :

كان من ضيوف العراق لعامين مضيا الزعيم الشيعى الهندى السردار طاهر زين الدين ، وهو من أنداد أغاخان فى الزعامة المقدسة والثروة العريضة . فلما زار ضريح الإمام على رضوان الله وسلامه عليه ، نشأ فى نفسه أن يقيم للخليفة الراشد ضريحاً يكون مضرب الأمثال على تعاقب الأجيال فى نفاسة المادة وبراعة الصنعة وضخامة النفقة . ولم يكد يرجع إلى الهند حتى استحضر أمهر الصناع وأقدر الفنانين وتقدم إليهم بما أراد ، ووصل أيديهم بكنوزه العجيبة ، فصنعوا

ضريحاً من الأبنوس سمكه إحدى عشرة قدماً وقطره عشرون ، ثم زخرفوه بروائع النقش الهندى ، وغشوه بخمسة عشر رطلا من صفائح الذهب وبمثلها من سبائك الفضة حتى بلغت تكاليفه اثنين وأربعين مليون جنيه على ما روى المراسل ، أو اثنين وأربعين مليون ربية على ما أرجح !

هل قرأت ؟ إثنان وأربعون مليون جنيه كميزانية مصر ، أو اثنان وأربعون مليون ربية كميزانية العراق ، تنفق فى مقصورة تقام على ضريح الإمام الزاهد المجاهد الشهيد على كرم الله وجهه !

فهل تحسب أن هذا المؤمن الساذج قد بلغ بما أنفق مكانة الزلفى من الله وموضع الرضا من إمامه ؟ لا والله ! إن الله الذى يقترض من عباده القرض الحسن ليضاعفه لهم لا يقبل هذا القرض العقيم وإن الإمام الذى كان يطوى الأيام ليطعم على حب الله المسكين واليتيم والأسير ، لا يرضى هذا الاحسان الميت لو كان هذا الغنى الأمي صحيح الفقه فى الدين ، واسع الأفق فى الفكر ، بعيد النظر فى الاصلاح ، لعلم أن علياً كان سيف الاسلام ولسان الدعوة وإمام القضاء ، فكان خير ما يتقرب به إليه أن يعطى حكومة العراق هذه الملايين لتنشىء بها أسطولا جوياً فى بغداد على حب فاتح خيبر ، أو معهداً علياً فى الكوفة على ذكر صاحب نهج البلاغة

بذلك وشبهه يكون القرض حسناً والإحسان جميلا ياسيدى الزعيم . أما أن تصفح الضريح بالذهب والفضة ، وترصعه باللؤلؤ والجوهر — وفى وطن الإمام الفقيرُ الذى لا يجد القوت ، والمريض الذى لا ينال الدواء ، والجاهل الذى لا يستطيع العلم ، والجندى الذى لا يملك السلاح — فذلك فن من العمل

الباطل لايليق أن يُجترح باسم الدين فى سبيل إمام أمته وقطب أبطاله!

* * *

لقد قرأت فى أنباء اليوم أنهم فضوا وصية المحامى الأمريكى اليهودى «صموئيل أونترماير» منذ أيام فإذا به يوصى بجزء عظيم من تركته الضخمة لبضع جامعات أمريكية. ثم كان نصيب الجامعة العبرية فى القدس منها مائة ألف دولار!

فليت شعرى متى يعلم هذا الذى ينفق دماء الشهداء على ملاهى القصور، وذاك الذى يبذر أموال الأحياء على شواهد القبور، أن الحياة من غير إحسان موت، وأن الإحسان فى غير موضعه إساءة!

في سبيل الأزهر الجديد

(٢٢ أبريل سنة ١٩٤٠)

من بشائر الأمل في النهوض ودلائل الثقة بالفوز أن النفوس الشابة مهيأة لدعوة التجديد ورسالة الاصلاح ؛ فهي كالأرض الطيبة تشتمل على مذخور الحياة وموفور البذر ثم لا تنتظر غير الحراث والغيث .

منذ أخذنا على بعض العلماء اشتغالهم بالمراء الباطل والبحث العقيم ، ووقوفهم عند المماحكة في اللفظ والمماياة بالاعتراض ، وتركهم أصول الدين تتشجن[1] عليها الأضاليل ، والرسائل تنثال علينا من شباب المراغي في أقسام الأزهر وكلياته يشايعوننا على الرأي و يسألوننا أن نزيد .

و (شباب المراغي) تعبير لم نضعه ، وإنما وجدناه في جميع الرسائل التي ألقيت إلينا ، فهو إما إلهام جاء من اتحاد النية ، وإما اتفاق أبرم على إرادة الإصلاح

نعتقد مخلصين أن الأزهر متى استكمل أداة التعليم وساير حاجة العصر نهض بالشرق نهضة أصيلة حرة ، تنشأ من قواه وتقوم على مزاياه وتتغلغل في أصوله . ذلك لأن ثقافته المشتقة من مصدر الوحي وقانون الطبيعة متى اتصلت بتيار الفكر الحديث تفاعلت هي وهو فيكون من هذا التفاعل ما يريد به الله تجديد دينه وكفاية شرعه وإدامة ذكره

كذلك نعتقد مخلصين أن رجعة الأزهر إلى ماضيه البعيد خير له وللناس

---

(١) تشجن الشجر : التف .

من جموده على شأنه الحاضر والرجعية لا يمكن أن تكون فى منطق الطبع سبيلاً إلى التقدم ، ولكنها فى نظام التعليم الأزهرى خرق لهذا القانون لا ينكره العقل . ذلك لأن رجعية الأزهر معناها العودة فى استنباط الدين إلى منابعه الأولى من صريح الكتاب وصحيح السنة ، وفى فقه الأحكام إلى مثل كتابى الأم والرسالة للشافعى ، وفى تعليم النحو إلى كتاب سيبويه وخصائص ابن جنى ، وفى تدريس البلاغة إلى كتب عبد القاهر وأبى هلال . وفائدة هذه الرجعية الخلوص من أمثال كتابىَ (الجمع) و (الهمع) ، وما حشد الأعاجم فى عصور الشروح والحواشى والتقارير مما أفسد الملكات وأفند[1] العقول وصرف الأذهان عن جوهر الدين ولب العربية وسر البلاغة

* * *

إن الدين الإسلامى ينفرد عن سائر الأديان باعتماد دعوته على الأدب وقيام معجزته على البلاغة . فإذا حثر[2] ذوق العربية فى رجاله بما قمّش[3] السكاكى والفنرى وملا جلبى من الغثاء والهراء ، تقطعت الأسباب بينهم و بين محمد فضلوا سبيله وجهلوا علمه فالدين الإسلامى والأدب العربى متلازمان تلازم المعنى واللفظ أو الفكر والأداء ولا يتسنى لرجل الهداية والإصلاح أن يبلغ دعوة محمد إلا إذا تمكّن منهما تمكّن الجاحظ والزمخشرى ومحمد عبده ورشيد رضا والمراغى . أما المضمضة بالألفاظ الاصطلاحية ، والجمجمة بالجمل المعقدة على أنها هى العلم والأدب ، فتطور إلى العكس لا يجوز أن ينتج إلا ما نحن فيه .

---

(١) أفند العقول : أضعفها .

(٢) من قولهم : حثر اللسان إذا لم يجد طعم الطعام.

(٣) قمش الشيء : جمعه من هنا وهنا .

من الطبيعى أن ينشىء هذا الكلام فى ذهنك هذا السؤال فتلقيه على :
إذا كان المراغى أجدر الناس بإصلاح الأزهر كما نعتقد ؛ وكان شباب الأزهر راغبين فى هذا الإصلاح مؤمنين بقدرة شيخهم عليهم كما نرى ؛ فما الذى يعوق هذا الإصلاح ويعارض هذه الرغبة ؟ . والجواب المفصل عن هذا السؤال يقتضى شيئاً من الصراحة لا تحتمله بعض النفوس فيما أظن فإذا وقفنا عند الأسباب الظاهرة المباشرة قلنا إن إصلاح الأزهر لا يمكن أن يتم فى سنتين أو فى أربع ، لأن ملاك هذا الإصلاح منوط بأمرين اثنين : أحدهما إعداد المعلم ، والآخر تأليف الكتاب

فأما إعداد المعلم فيقوم على أن يكون متمكناً فى علوم الدين وصاحب ملكة فى الفقه ، وأن يكون متبحراً فى فنون العربية وصاحب قريحة فى الأدب ، وأن يأخذ بعد هـــذا وهذا من ثقافة الغرب بأوفى نصيب . وهذا الإعداد على هذه الأساس لا يؤتى ثمره قبل عشر سنين إذا أخذوا منذ اليوم يتنخلون ممن تخرجهم أقسام التخصص المختلفة فى كل سنة نوابغ الفقهاء الأدباء ؛ ثم يبعثون بهم إلى جامعات انجلترا وفرنسا وألمانيا ليبلغ كل منهم أقصى الدرجات فى العلم الذى تخصص فيه .

وأما تأليف الكتاب فلا يتيسر إلا بعد إعداد المعلم ، لأنه هو وحده الذى يدرى كيف يؤلفه ويدرّسه . ومتى توفر للأزهر المعلم والكتاب فى ظل هذه الإدارة البصيرة صح لك أن تقول : « إن مصر ظفرت بجامعتها الصحيحة التى تدخل المدنية الغربية فى الإسلام ، وتجلو الحضارة الشرقية للغرب ، وتصفى الدين والأدب من شوائب البدع والشبه والركاكة والعجمة »

ذلك فيما نعتقد ما كان يعنيه الملك « فؤاد » حين قال لأحد كبار العلماء . « إن أنجع الوسائل فى إصلاح الأزهر أن يغلق عشر سنين ثم يفتح من جديد » .

وذلك فيما نعتقد أول الاصلاح الأزهرى وآخره . وما دام التعليم الدينى قائماً على براعة المعلم فى حل المعميات وخلق الاعتراضات ، وإمعان الكتاب فى الاستطراد والاستغلاق والحشد ، فهيهات أن يتجدد الأزهر وإن شيد بالمرمر وفرش بالطنافس وأنير بالكهرباء !

الرجل المنتظر

(٢٩ أبريل سنة ١٩٤٠)

بهذه الرجة العظمى[١] تبدد النظام العالمي كله ؛ فكأنما اجتمع اللاعبون بأقدار الأفراد ومصاير الأمم وقالوا لمتلر أجرأ العابثين : (بَوِّظ)[٢] !!

وهاهم أولاء يتحكمون في قطع اللعب ، فيجمعون ثم يفرقون ، ويبددون ثم يفسقون ، وكل ما ورث الناس أو كسبوا من أديان ودساتير وقوانين وأنظمة وسنن قد أصابه كما يقول النحاة الإلغاء أو التعليق . والواقع أن العالم العربي بأجمعه ليس منه في هذا اللعبة العالمية لاعب ؛ إنما هو تلك القطع الجامدة التي تقسم وتقدم وتصك ثم تذهب وتجيء بين اللاعبين دواليك حاملة على وجوهها الملس قيمها الكسبية المختلفة من (الدش) إلى (البياظة)[٣] . فإذا طلبنا أن يكون لنا في الدست حساب وليس فينا حاسب ، أو يعود علينا من ورائه اكتساب وليس منا كاسب ، كان ذلك من خداع النفس بالمحال وتعليلها بالباطل . والمتوقع الذي لا حيلة فيه أن نظل كما نحن لعبة تلعب ، أو نهبة تنهب ، حتى يبعث الله فينا الرجل الذي ننتظر .

ولست أعني بالرجل الذي تنتظره الأمة العربية : (المهدي) أو (الإمام) أو (المسيح) ، فإن ظهور أولئك أحدهم أو كلهم شرط من أشراط الساعة ،

---

(١) الحرب العالمية الثانية .

(٢) التبويظ كلمة مصرية معناها في اصطلاح لاعبي (الدومينو) أن تقلب القطع على وجوهها قبل اللعب أو بين الدست والدست ، ثم تجال ويضرب بعضها في بعض كي لا يكون بينها نظام ولا توافق . والدش والبياظة من أسمائها (٣) الدش : اثنا عشر ، والبياظة صفر

فانتظار الناس إياه كانتظار الطامع المطول راحة الفوت، أو المريض المشفى سكينة الموت. إنما أعنى الرجل الذى ينتظره الناس انتظارهم طلعة الشمس، وتنتظره الأرض انتظارها رجعة الربيع. هو كالشمس لأنه يرسل النور والحرارة: وهو كالربيع لأنه يبعث الحياة والنضارة. وظهوره كطلوع الشمس ورجوع الربيع سنة من سنن الله فى الكون، يجرى بها حكمه كما شاء للعقول الحائرة أن تهتدى، وللقلوب الشتيتة أن تتحد، وللنفوس العليلة أن تصح.

كان هذا الرجل فيما خلا من الدهر يسمى رسولاً، فلما خُتمت الرسالة وانقطع الوحى، كان يظهر فترة بعد فترة فى صورة ملك أو فاتح أو حاكم أو عالم أو مفكر، فيبين ما التبس من معانى الحق، ويجدد ما انطمس من معالم الطريق. وكان نجاحه أو فشله فى التجديد أو فى الإصلاح أثراً من آثار قوته أو ضعفه؛ فهو بين أصحاب السلطان يكون أسرع نجاحاً وأوسع إصلاحاً منه بين أصحاب الفكر. وقلما يأبه الناس لدعاة التجديد بالكلام ما لم ينتشر صداه فى الأرض ويتسع مداه فى الزمن. لأن أصحاب الكلام إذا ملكوا الرأى فلا يملكون التنفيذ، وإذا استطاعوا التشريع فلا يستطيعون الحكم. وقطرة القلم قد يفطن لها الفؤاد اليقظ، ولكن وخزة السيف يثور بها الجسد العليظ وما كانت الوثبات الاجتماعية التى خلقت ناساً غير ناس، وأبدلت نظاماً من نظام، وفصلت تاريخاً من تاريخ، إلا نتيجة لدفع المصلحين السلطين الذين وضعوا الكتاب فى يد والسيف فى يد، ثم كتبوا دستور الإصلاح بالمداد والدم.

ولهذا الرجل الذى تنتظره الأمة العربية آيات تمهد له وتدل عليه: فمن الآيات الممهدة لظهوره انحلال الأخلاق فلا تماسك فى قول ولا فعل، وتقاطع

القلوب فلا تتواصل فى وطن ولا دين ، واستئثار النفوس فلا تتعفف فى صداقة ولا نسب . وجموح الشهوات فلا تنقدع بلين ولا شدة ، واستبهام المذاهب فلا تستبين بنجم ولا شمس ، وانقطاع الأمة عن ركب الحياة فلا تتحرك قبلة ولا دبرة .

ومن آياته المنبئة بوجوده أن يكون لغيره لا لنفسه ، ولأمته قبل أسرته ، ولإنسانيته بعد وطنيته . وبهذه الصفة الأخيرة يختلف المصلح القوى عن الرسول ومصداق تلك الآيات أن تموت (أنا) فى لسانه وتحيا فى ضميره ، ويتحد فى ذهنه وجود ذاته بوجود شعبه ؛ فهو يحس ألمه لأنه مجتمع شعوره ، ويدرك نقصه لأنه مجتلى عقله ، ويملك قياده لأنه مظهر إرادته. وهو فى سمو نفسه ونزاهة هواه قد ارتفع عن أوزار الناس وأقذار الأرض ؛ فلا يطمع لأن غرضه أبعد من الدنيا ، ولا يحقد لأن همه أرفع من العداوة ، ولا يحابى لأن فضله أوسع من العصبية ، ولا يقول قولاً أو يعمل عملاً إلا إذا وافق الدين الذى يعتقده ، والمبدأ الذى يؤيده ، والشعب الذى يقوده .

ثم هو فى ألمعية ذهنه ورصانة لبه وصلابة عوده وبعد همته يعظم على الأحداث ، ويعلو على الحوائل ، فلا ينضج رأياً إلا أمضاه ، ولا يرمى غرضاً إلا أصابه ، ولا يروم أمداً إلا أدركه .

هذا الرجل الملهم الموهوب هو الذى ترقب ظهوره كل فرقة ، وترصد نجمه كل أمة . ولقد ظهر أمثاله فى بعض الأمم وهى على شفا الهاوية فأعادوها إلى الحياة وردوها إلى الجادّة . ولا تزال الأمة العربية تحدق النظر الحيران فى الأفق الغائم ترجو أن تنشق الحجب عن نوره . فهل آن يا أرحم الراحمين أوان ظهوره ؟

إن القطعان المهملة تدخل فى عهدة الذئب . وإن القوى المتفرقة تجمع

فى حساب العدو وإن اللآلىء المبددة إذا لم يضمها سلك لا ينتظم منها عقد له وإن الأمة التى لا تملك يوم الجد والفخار إلا أن تقول : كنت وكنت ، لا يزيد قدرها على قدر الرماد الذى يقول : كنت فيما مضى جمرة متقدة !

* * *

رباه ! لقد امتد بنا التيه فى مجاهل الأرض إلى قرون ، وفسد فى نفوسنا الإيمان بالحياة حتى تحول إلى ظنون . فمتى نخرج من التيه يارباه خروج موسى ، ونتبوأ من صدر الحياة العاملة مكان محمد ؟ اللهم إنا نسألك الراعى الذى يطرد الذئب ، والنظام الذى يجمع الحب ، والدليل الذى يحمل المصباح ، والقائد الذى يرفع العلم ، والأستاذ الذى يعلمنا أن نصنع الابرة والمدفع ، ونشق المنجم والحقل ، وتوفق بين الدين والدنيا ، وتوحد بين المنفعة الخاصة والمنفعة العامة . وكل أولئك يارباه يجمعهم رجل واحد هو أشبه الناس بالمهدى المنتظر والإمام المرتقب والمسيح الموعود .

قلت لنفسي ...

قالت لنفسي : عجيبٌ أمر ابن آدم اليوم ! يكاد لا يعطف بعضه على بعض إلا المادة أو السطوة أو الشهرة ! أما ألفة الجنس للجنس ، ومتعة الإنس بالإنس ، وإجابة الحس للحس ، فقد أصبحت في هذا الزمان ، من الصفات الأثرية في الإنسان.

كانوا يقولون إن الناس مع الزمان ، يقبلون متى أقبل ، ويدبرون متى أدبر . فكنا نقول : كان ذلك والزمان كلبٌ يجرى وراء سيده ، مادام الرغيف في يده أما اليوم فالزمان إنسان حر مفكر لا يتبع إلا المبدأ ، ولا يطيع غير الضمير .

ولكن لواقع وا أسفا علمنا أن الزمان لا يزال كلباً ، وأن المال لا يزال رباً ، وأن حكمة الأولين لا تزال صادقة !

لي صديق من رءوس العراق المرفوعة بالفضل والنبل والكفاية ، كان وهو في سلطان السيف وعزة القلم مرجع الرأى والهوى والحاجة . فلما نكبته في نفسه وأهله السياسة العشواء الجوح ، تجرد كالسيف ، وتفرد كالأسد ، وأصبح فإذا الوجوه أقفاء ، والأنصار أعداء ، والأحياء في دنياه موتى ؛ فلا رأس ينحني ، ولا لسان يحيي ، ولا يد تصافح . وظل وحده يعالج مرارة الحزن والحرمان والغربة حتى صحا الدهر من غفوته ، ونهض الحظ من كبوته ، فعاد إلى الوزارة ، وعاد الناس إلى الزيارة ، وقال الوجه الذى عبس وأشاح ، واللسان الذى ذم ونم : والله يامولانا لا يعدُل حزننا لغيبتك ، إلا فرحُنا بأوبتك . . . ثم انعكست الصفات في الصحف ، فصارت الخيانة أمانة ، والبلادة زكانة ، والعقوبة شهادة .

إشعاع الإيمان

(٦ مايو سنة ١٩٤٠)

لكل إنسان إشعاع ينتشر عليك من روحه كلما جلست إليه أو دنوت منه وهذا الإشعاع يختلف في القوة والضعف وفي الكثافة واللطف باختلاف الروح في أولئك كله. ولكن لرجل الدين ورجل الحكم إشعاعاً عرضياً آخر ينبثق عن العالم ما دام متصلاً بالله، ويصدر عن الحاكم ما دام متصفاً بالسلطان فإذا انقطع ما بين أحدهما وبين القوة السماوية أو الأرضية انقلب كسائر الناس يشع على حسب اقتداره واعتباره.

تدخل على رجل السلطان أو تلقاه فتغشك منه مهابة تطأطىء من نفسك وتكسر من نخوتك، فإذا خرجت من مدار هالته، أو خرج هو من ملكوت سلطانه، وجدته في رأيك الحر أشبه بالجذوة الواهجة إذا ما تحولت إلى رماد بارد.

وتجلس إلى رجل الدين أو تراه فتغمرك منه جلالة تثلج صدرك بالرضا وتنقع نفسك بالسكينة، فإذ قمت عن مجلسه بقي في بصرك نوره وظل في بصيرتك هداه. وذلك هو الفرق بين قوة تسيطر بمادة الإنسان وقوة تؤثر بروح الله.

كان هذا الإشعاع الإلهي من رجل الدين في الأيام الخالية يعمل فعله في القلوب والأبصار من غير إرشاد ولا وعظ. كان العالم أو شبه العالم إذا دخل قرية أشرقت أرضها بنوره واهتز أهلها لمقدمه، فيهرعون إليه ويمكفون عليه ويجدون فيه الدليل إلى الله فمصافحته عهد لا ينتقض، وإشارته حكم لا يرد، ودعوته بركة لا تنقطع وكنا في ذلك العهد أحداثاً ننظر إلى الشيخ وهو في بهرة المجلس

كأنه برهان الله ، يعبر وهو صامت ، و يؤثر وهو ساكن ، والقوم من حوله مطرقون مستغرقون قد فرغت قلوبهم من مطامع الدنيا ، وخلت صدورهم من وساوس الشر . فإذا ترك القرية خلف بها عهد الله يتصل به ما انقطع من الأسباب ، و يقوى عليه ما وهن من المودة .

ذلك لأن الشيوخ كانوا يومئذ يسمتون سمت الأنبياء فيجعلون دينهم ودنياهم وحدة لا تتجزأ ؛ فإذا قالوا وعظوا ، و إذا فعلوا أرشدوا ، وإذا صمتوا كانوا كأعلام البَرّ تدل بالاشارة ، أو كمنائر البحر تهدى بالشعاع . فلما تشوف العلماء إلى زهرة العيش ، واستشرفوا لعزة المنصب ، انطفأت من حولهم هالة الورع فأصبحوا كالناس يفعلون فيرُمون بالرياء ، و يقولون فيُتهمون بالكذب .

* * *

تعال أقص عليك حديثاً من أحاديث الواقع لا يزال الناس يروونه كلما حلا لهم أن يوازنوا بين عالم يجرى دينه على لسانه فيذهب فى قوله ، وعالم يجرى دينه فى قلبه فيشع من مسامه :

كان الشيخ عمر فقيهاً من النمط القديم ، قد شغل فكره بالدين ، وقصر جهده على العلم ، ووهب جهوده للأزهر ؛ فهو يقضى النهار وطرفى الليل فى التدريس والمطالعة والصلاة . لا يكاد يخرج من درس إلا إلى درس ، ولا يترك ملزمة إلا إلى ملزمة[1] . فإذا جاء يوم الجمعة خرج ماشياً إلى زيارة الأولياء فى المقابر أو فى المساجد ، ثم يعود مع المساء قرير العين مطمئن النفس إلى حجرته الأزهرية ذات الفراش الخشن والضوء الشاحب ليعُد درسه الذى سيلقيه فى فجر السبت

وفى ذات يوم من أيام الجمع وقع فى نفسه أن يصلى الجمعة فى مسجد أبى العلاء ببولاق ، فخرج من الأزهر فى ضحوة النهار وأخذ يسأل عن الطريق إلى ذلك

(١) الملزمة فى اصطلاح الأزهريين والوراقين جزء منفصل من الكتاب ، مقداره ثمانى صفحات أو ست عشرة .

للمسجد والناس يدلونه أو يضلونه حتى دفعه القدر إلى المكان الرسمى للمومسات بالقرب من ميدان (العتبة الخضراء) !

كان الشيخ يسير فى هذا الشارع العاهر بعمته العظيمة وجبته الفضفاضة كما يسير الجمل فى شارع من شوارع لندن ! كان موضعاً للنظر الساخر وموضوعاً للتنادر البذىء ولكنه كان يمشى ناكس الطرف مشغول الخاطر فلم يفطن لشيء ثم فطن إلى انتقاض وضوئه حين لمست يده بغى من البغايا تريد أن تعبث به ، فاستغفر الله وحوقل ، ثم سأل صبياً من صبيان ذلك الحى أن يدله على مسجد يجدد فيه وضوءه ، فقد كان يكره أن يمشى على غير وضوء ، وكان الصبى خبيث الفطرة فاحش الدعابة فدله على بيت مومس وقال له : هذه ياسيدى دورة مياه الجامع الأحمر !

دخل الشيخ الدار فإذا فتاة كصورة (القارئة) فى متحف (اللوفر) بباريس قد اضطجعت على كنبتها الوثيرة وهى نصف عارية فلما رآها أسبل عينيه وغمغم بالاستغفار والدعاء ثم قال لها :

— استرى نفسك يابنيتى فقد قربت الصلاة وأوشك المصلون أن يجيئوا

فنهضت الفتاة وقد اعتراها نوع من الوجوم ينشأ من الدهش والعجب . فوضعت عليها بعض ثيابها وقالت

— ماذا تريد ياسيدى الشيخ ؟

— أريد أن أتوضأ . نادى أباك يقودنى إلى الحنفية ! ألست ابنة خادم المسجد ؟

فأجابت الفتاة وقد أدركت كل شىء :

— بلى ياسيدى أنا ابنته ، وسأقودك بنفسى إلى الحنفية فافتح عينيك واتبعنى فقد لبست ثيابى .

وأرشدت المومسُ العالم إلى مكان الطهارة وهو مغسلها الوردى الأنيق فوقف أمامه ذاهلاً يرى أداة الزينة ويجد رائحة العطر، ولكنه لم يسترب . ولم يستريب ؟ أما يجوز أن يكون فى القاهرة طراز من المساجد لم يره ؟

وفتح الشيخ الحنفية وتوضأ . وجاءته الفتاة بيشكير أو بر(١) فأمرّه على وجهه فنطمه أريجه . ثم أقسمت عليه المرأة ليجلسن على الكنبة ريثما تهيء له فنجاناً من القهوة . فجلس الشيخ يذكر الله وجلست هى بجانبه تغلى الكنكة وتديم النظر إلى وجهه . فلما تمزز (٢) الفنجان سألته إلى أين يذهب ؟ فقال لها : إلى مسجد السلطان أبى العلاء . فخرجت أمام الدار ونادت عربة من عربات الركوب فأجلست الشيخ فيها ، ثم أعطت الحوذى الأجرة وأمرته أن ينزله أمام الجامع المقصود . ورغبت الفتاة أن تقبل يد الشيخ ، ولكنه أدخلها مسرعاً فى ثوبه وقال : لقد ضاق الوقت يابنيتى عن وضوء جديد أسأل الله لك الهداية والمغفرة .

قالوا : ورجعت المومس إلى دارها وعليها من الشيخ شعاع نفذ إلى ظلام نفسها فأشرقت بالصلاح والخير . ثم لم تُرَ بعد ذلك اليوم إلا فى ثوبها الأسود قاعدةً تخيط أو قائمة تصلى !

---

(١) أوبر ذووبر : (٢) تمزز الشراب : تمصصه :

مصطفى كامل بعد ثلث قرن

بمناسبة ازاحة الستار عن تمثاله

(٢٠ مايو سنة ١٩٤٠)

كل شىء فى مصر ينسى بعد حين كما قال شوقى وليست مصر بدعاً من الأمم فى ذلك ؛ فإن الرجل أو العمل لا ينطبع ذكره فى الذهن إلا إذا كان ندىّ الصوت قوى الأثر . ومصر فى عهدها القريب إنما كانت تجرى فى خلاء من التاريخ لا يكاد يظهر فيه إلا فقاعة تنفجر أو ومضة تنطفىء

وليس لهذه أو لتلك من الأثر ما يملأ الشعور و يشغل الذاكرة

على أن السائر فى الصحراء مهما يضعف وعيه وتشتد غفلته لا بد أن يذكر المنار الذى دله عَلَى الطريق ، والواحة التى أعادته إلى الحياة . وهيهات أن تعرض القلوب عن ذكر محمد على ومصطفى كامل وسعد زغلول ! و إذا جاز للزمن العابث أن ينال من رجل الدولة أو بطل الثورة ، فإن مصطفى كاملاً يظل على تراخى الحقب أنوط بالقلب وأعلق بالذاكرة ذلك لأن زعامته كانت أشبه بالنبوة فى تهيئة الفطرة وثبات العقيدة وعصمة النفس واختيار القدر . وهو الزعيم

الوحيد الذى لم تلده الظروف ولم تبعثه المطامع . لم تلده الظروف ، لأن مصر كانت فى إبان حداثته قد استأمنت إلى الجهل والاحتلال فنامت فى ظلهما نومة الضاجع الأبله ! وكانت دعوة الأفغانى قد جمعت من ومضات الأذهان النيرة شعلة أضاءت جانب الطريق فسلكه العرابيون ؛ ولكنهم لم يكادوا يبعدون حتى أدركهم الظلام فى (التل الكبير) ، فلا يصح فى العقل إذن أن نقول إن مصطفى كان أثراً للأفغانى وعرابى ، كما نقول إن سعداً بعد عبقريته كان أثراً لهؤلاء الثلاثة . إنما أرسل المصطفى على فترة من رسل الوطنية . وكان إرهاصه وهو فى المدرسة الثانوية أن الوزير على مبارك باشا زار مدرسته يوماً فسأله فيمن سأل من التلاميذ : ماذا اعتزم أن يعمل بعد نيل الشهادة ؟ فأجابه مصطفى اليافع فى خطاب طويل : « إن أرفع الرجال شأناً من يحرر بلاده . وسأكون أنا ذلك المحرر الذى يكتب ويخطب حتى ترفع الأغلال عن عنق مصر » وكان إرهاصه وهو فى مدرسة الحقوق أن أنشأ مجلة سماها « المدرسة » أشرقت فيها نفسه الكريمة إشراق النفس الزعيمة ، فتهافت على ضوئه طلاب المدارس العليا يؤيدون دعوته ويرددون كلمته ويترسمون خطاه ، حتى نال إجازة الحقوق ففرغ لرسالته وخلص لوطنه . وحينئذ رأيناه يكتب إلى أمه الروحية الفرنسية (مدام جوليت آدم) يقول : « إننى لا أزال صغيراً ، ولكن لى آمالا كباراً . أريد أن أوقظ فى مصر الشيخة مصر الفتاة . هم يقولون إن وطنى لا وجود له ؛ وأنا أقول إنه موجود بدليل ما أشعر له فى نفسى من الحب الشديد الذى سيتغلب على كل حب سواه . سأنفق فى سبيله كل قواى ، وأفديه بشبابى ، وأجعل حياتى وقفاً عليه ... »

ثم اضطرمت فى ذلك الجسد الناحل روح الله فقار فورة الجبارين ،

وثبت ثبات الرسل ، وقام فى وحدة النبى و إيمان الشهيد يجاهد الإشراك بالموطن والكفران بالأمة ، ويقارع بالحجج الثائرة الملزمة طغيان المحتل ، وأمة هذا المحتل كانت يومئذ علة العلل ودولة الدول ! .

ومصطفى لم تبعثه المطامع لأنه أدرك وهو فى طراءة الشباب زعامة الأمة وثقة العرش ورضا الخلافة وخصومة المحتل . وكان فى مقدوره إذا شاء أن يستغل هذه القوى العظيمة فى سبيل الثراء والحكم ؛ ولكنه زهد فى ذلك كله زهادة الحكيم ، فعاش للمبدأ والفكرة ، ومات للقدوة والعبرة .

وهل أدل على نزاهة مصطفى ونبل نفسه من نبوه على الخديو عباس و انحرافه عنه حين رآه يستيئس ويستكين بعد الاتفاق الودى الذى أبرم بين انجلترا وفرنسا سنة ١٩٠٤ ؟ لقد كان فى مسايرة الخديوية ومياسرة الاحتلال ما شاء الطامع من جاه وألقاب وسطوة وثروة . ولكن مصطفى كان يريد أن يقود لا أن يسود ، ويطلب أن يخدُم لا أن يحكم . والزعيم الحق هو الذى يدافع عن أمته ولا يحاول أن يحكمها ؛ لأنه متى حكمها أدركته حقارة الإنسان فاستطال و ترفع وفاش وطاش حتى يصعب عليه أن يوفق بين رغائب نفسه و بين مطالب الناس !

وهكذا قضى الصدق فى الجهاد والاخلاصُ للمبدأ على مصطفى العليل الواهن أن يحرك ساكن شعبه بوجيب قلبه ، و يذكى خمود جيله بحرارة دمه ، ويضىء ظلام وطنه بوميض روحه ، ثم يموت رضوان الله عليه ميتة الأنبياء لا (عمائر) تحجب سماء المدن ، ولا (دوائر) تشغل أرض القرى (١)

---

(١) العمائر جمع عمارة وهى الدار العظيمة التى تبنى للاستغلال . والدوائر جمع دائرة وهى مركز إدارة الأملاك الواسعة .

لو أن زعيمنا الخالد كان قد سعى ما سعى لينال كرسيًا فى (وزارة) أو مكتبًا فى (شركة) لما أقمنا له هذا التمثال بعد ثلث قرن ؛ فإن الزعيم الذى يجعل همه السياسى أن ينتفخ لغدوده وجيبه لا يمكن أن يعيش فى ذاكرة الناس هذا العمر ولكن مصطفى عاش كأصغرنا ، وسعى كأقدرنا ، ومات كأفقرنا ، فكان حقا علينا أن نقيم تمثاله رمزاً للوطنية التى لاتتاجر ، وللوطنى الذى لايداجى ، وللزعيم الذى لايخون .

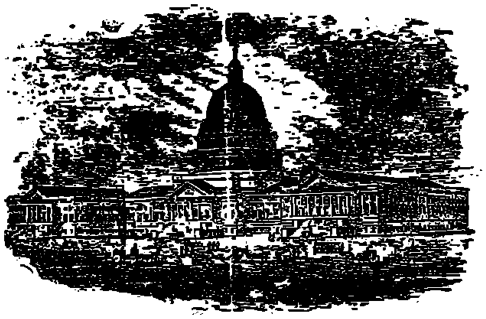

الفكر والحرب

(٢٧ مايو سنة ١٤٩٠)

قال الأستاذ « دومينيك[(١)] » فى تحليله البليغ للكتاب القيم الذى ألفه « نيفل هندرسون » سفير إنجلترا فى برلين بعنوان (سنتان عند هتلر) :

« إن المتمدنين الذين يعيشون فى هذا القرن بإنسانية القرن التاسع عشر ومسيحيته ليقضون من الدهش إذ يرون هـذا « الهتلر » يرجع بالعالم إلى عهود الجاهلية القيصرية فيحمل أتباعه على أن يعتقدوا أن الله قد حل به ، وأن ألمانيا قد تجسدت فيه . وإن المفكرين ليفزعون فى وسط هذه الزعازع الهوج إلى الله جزعين أن يرتكس الفكر والحضارة فى مهوى البربرية الأولى »

وقال المستر « سمنرولز » فى خطبته الختامية بالمؤتمر العلمى للأمم الأمريكية :

« ليس من الصعب أن نتنبأ بنكسة القرون الوسطى فى بلد أصبح التفكير الحر مستحيلاً فيه . وأى أمل يبقى للأخلاق بعد هذا الطغيان الذى موه الباطل على الناس حتى اعتقدوا أنه الحق ؟ » ثم دعا الولايات المتحدة إلى أن تذود عن المدنية التى تدين لها بأكثر مما تنعم به .

وقال صديقنا الأستاذ « الحكيم » فى جريدة (الأهرام) :

« إن نذير الدمار المسلط على شؤون الفكر والروح كفيل بأن ينهض برجال الفكر والأدب للدفاع بأقلامهم وقلوبهم عن حضارة ساهم أسلافهم فى وضع أحجارها الأولى »

---

(١) مجلة النوفيل ليترير (الأخبار الأدبية)

وكلام هؤلاء السادة على اختلاف الموطن والمذهب ترجمة لطائفة من المعانى الخداعة التى قدمها الإنسان الحديث فأقام عليها ثقافة المدرسة ، وراض بها نفسية المجتمع ، وجعل منها خصائص لحيوانيته تميزه فى زعمه على الإنسان القديم والوحش الآبد . وليس فى منطق الطبع أن يكون أثر الفكر دائماً من الخير المحض ما دام مصدره الإنسان وهو يفسد ويصلح ويخبث ويطيب تبعاً لوحى غريزته وخضوعاً لهوى منفعته . أليس الفكر والأدب والعلم والمدنية التى يدعو الأساتذة الكتاب إلى النضح عنها هى نفسها التى جعلت ألمانيا الهتلرية جحيما يستعر باللظى والغاز والحمم ، فزلزل الأرض من القطب إلى القطب ، ورمى الدنيا جمعاء بغاشية من الموت الوَحِيّ والفلق المميت ؟

لو لم تعتمد النازية على الفكر الألمانى القوى الخصيب لما استطاع هتلر ناسك « برجوف » أن يفاجىء العالم الآمن بأهوال من الشر ينكرها الشيطان ، وأساليب من الموت يجهلها الموت

إن الفكر الفعال فى الأرض لا ينفك عنه قصور الإنسان وضلاله ، فهو عاجز عن هداية الناس ما لم يهده الله بنوره . ولا يجرؤ المسكين ابن آدم على أن يزعم أنه استطاع بفكره أن يحل مشكلاته بالمفاوضة ، ويقسم أرزاقه بالعدل ، ويوثق علائقه بالمودة ، ويضع لدنياه أنظمة ثابتة تكفل له السعادة الخالصة والسلام الدائم .

وإن الأدب المحرك لهوى النفوس لم يستطع الإنسان الأثر أن يسمو به على الأهواء النفسية والأغراض الحزبية والأطماع القومية ؛ فظل فى كل أمة خاضعاً لمنهاج المدرسة وسياسة الدولة وطبيعة الشعب لا يتجاوز حدود المكان ولا فصول الزمن ، فكان عاملاً من أشد عوامل العصبية والوحشية والفرقة .

وإن العلم الذى ناط به العقل كشف أسرار الكون لفهم الحياة ، وتسخير قوى الطبيعة لخير الناس ، جافاه الضمير فاستبد به الشر وراح يستعديه على نتائج الخير وآثار الصلاح ، فرماها بآلات البوار والدمار من طائر يقذف الشهب ، وسائر يطلق السموم ، وزاحف يرسل اللهب !

وإن المدنية التى عمرت بها الأرض ، ونمت عليها الأنفس ، وزخرفها النعيم ، وتبجح بازدهارها الإنسان ، قد سطت عليها المادة القاسية فسلبتها الروح وحرمتها القلب ، فوقعت الجفوة بينها وبين الدين ، وانقطع السبب بينها وبين الحب ؛ فتشتت الألآف ، وتباعدت القربى ، وتشعبت الحاجات ، وتنافست المطامع ، وتكاشفت الأحقاد ، واضطرب الناس فى سبل الكدح ، وألهبتهم حوافز الهم ، حتى عجزوا بخلقتهم وطبيعتهم عن مسايرة الحضارة فسعوا بالطائرات ، وعملوا بالآلات ، ونظروا بالتلسكوب ، وسمعوا بالميكرفون ، وضاقت عليهم الأرض برحبها فضربوا فى الآفاق واختصموا على ديار المستضعفين فحكموا بينهم السلاح فكانت هذه المدنية المادية أشبه بسعير الآخرة تنضج الجلود ولا تزهق الأنفس ليستمر الاضطراب ويتجدد العذاب ويدوم للطبيعة الخداعة هذا الثوب الأنيق الموشى بفضل هذا الإنسان الأحمق الذى يعمل ولا يعرف لماذا ، ويسرع ولا يدرى إلى أين !

* * *

هذا الفكر العاجز ، وهذا الأدب القاصر ، وهذا العلم المجرم ، وهذه المدنية الفاجرة ، لاتستحق الاحتفاظ بها ولا الذياد عنها يا زملاءنا الأعزة . لقد اشتد بأسها وعظم سلطانها فى ألمانيا (الراقية) فولدت الهتلرية بوحشيتها وعصبيتها وبلاياها . وإن من الخير للإنسانية أن تذهب هذه العقلية

مع المتلزِّية إلى غير رجعة .

إن الفكر الذى نريده هو الفكر المدبر النفاذ الذى يُشرق فى جوانبه نور الله ، فلا يشت به ائتلاف ولا يضل عليه سائر .

وإن المدنية التى نرجوها هى المدنية الإنسانية التى تنبث فى طواياها روح الله فلا يولد بها شقى ولا ينجم فيها ثائر .

إن شمس المدنية الصحيحة قد أشرقت من الشرق ثم غربت فى الغرب ، ولا بد أن يدور الفلك فتعود إلى مطلعها لتشرق على العالم من جديد .

الحرب بين أمس واليوم

(١٠ يونية ١٩٤٠)

يقول الأغرار من الناس إن السرعة الخاطفة عبقرية هذا العصر ومزيته ، من لم يجرِ مرّ على ظهره المتأخر وغبّر في وجهه المتقدم . وواجب السرعة أن تعمل ولا تستريح ، وتفكر ولا تتأمل ، وتأكل ولا تتذوق ، وتنام ولا تحلم ، وتموت ولا تمرض . ونحن نقول لهم إن السرعة ليست عبقرية ولا مزية ؛ وإنما هي مس من الجنون أصاب العالم منذ اخترعت الآلة . ذلك أن الآلة مخلوق أرضي جهزه العلم بعشرات الأعضاء ليس بينها اللسان ولا القلب ولا العقل ولا الروح ، فهي تلد ولا ترأم ما تلد[1] ، وتعمل ولا تضمن ما تعمل . وهي تكون للشر كما تكون للخير ، وتنتج للموت كما تنتج للحياة . وطبيعة الآلة سرعة الحركة ووفرة الإنتاج ؛ فلم تكد تسيطر على مجارى العمل في أقطار الأرض حتى دفعت العالم دفعاً عنيفاً إلى الاهتلاك والاستهلاك والتسابق والتنافس والاصطراع والكدح ؛ فهو دأب لا يفتر ، ونصب لا يستروح ، ونهم لا يشبع ، وعراك لا ينقطع . ولئن سألت المتبجحين بعصر السرعة على الأعصر الخوالي كيف يجد الجسم راحته في هذا الاضطراب الدائم ، وأين يلتمس القلب سعادته في هذا الجحيم المستمر ؟ وماذا أدرك راكب السيارة أو الطائرة أكثر مما أدرك صاحب الجمل والحمار ، أو راكب الحنطور والقطار ، لا تسمع منهم غير جواب أشعب الطماع حين أجرى الصبيان إلى الوليمة خادعاً بالحيلة ، ثم جرى هو معهم مخدوعاً بالوهم !

---

(١) رئمت الأم الولد : عطفت عليه ولزمته .

هذه هى الحرب التى عرفها العالم منذ خلق الله آدم و إبليس ، قد انقلبت فى عصر السرعة آلية لاتعتمد على فضائل النفس ولا على خصائص الروح ، و إنما تعتمد على سرعة الدواليب فى الطائرة والسيارة والدبابة والدراجة والغواصة والبارجة . فأصبح الفرق بين الآلة والسيف فى حصد الأرواح كالفرق بين الماكينة والمنجل فى حصد الحنطة !

إن معركة الفلندر التى شبت بين الألمان والحلفاء أهلكت فى أيامها المعدودة من الأنفس والأموال أكثر مما أهلكت حرب البلوبونيز التى نشبت ثمانيا وعشرين سنة بين إسبرطة وأثينا ، والحرب الميدية التى اشتبكت أربعين سنة بين الفرس والإغريق ، وحرب البسوس التى اضطرمت أربعين عاما بين بكر وتغلب ، والحروب الصليبية الثمان التى ظل ضرمها يحتدم ويخبو قرناً وثلاثة أرباع القرن بين الغرب المسيحى والشرق المسلم !

اشتعلت هذه الحروب بين المدن أو بين القبائل أو بين الأمم قبل أن يوضع القانون الدولى وتنشأ عصبة الأمم ، ومع ذلك تكشف عجاجها الأقتم عن خلال مشرقة من الفتوة والبطولة والنبل والإيثار والوفاء والتضحية كانت للأدب الإنسانى الخالد مصدراً لاينقطع رِفده ولا يفتُر وحيه .

وكانت الحروب الإسلامية على الأخص فى الفتوح أو فى الفتن تجرى على سَنَن مستقيم من الدين والخلق والأدب لا تزيغ عنه فالقلوب التى تجيش بالغل لا تلبث أن تخضع للصلاة ، والألسنة التى ترتجز بالحماسة لاتنسى أن تتناشد الشعر . وما ظنك بجيش يفرض عليه دينه أن يؤدى الصلاة جماعة فى المعركة ؟ أتراه حريًا أن يجاوز الحد إذا قاتل ، أو يجانب الوفاء إذا عاهد ؟ وما رأيك فى جيشين يتهادنان ساعة ليحكم فارس بين رجلين اختلفا فى المفاضلة

بين شاعر وشاعر ، وكان الحكم من جيش والمختلفان من جيش آخر ؟

لقد رووا أن رجلين تنازعا في عسكر المهلب بن أبي صُفرة في جرير والفرزدق وهو بإزاء الخوارج ، فصارا إليه ، فقال : لاأقول فيهما شيئاً ، ولكن أدلكما على من يهون عليه سخطهما : عبيد بن هلال ، وهو يومئذ في عسكر قطري ابن الفجاءة . فأتيا فوقفا حيال المعسكر ، فدعواه فخرج يجر رمحه وظن أنه دعي إلى المبارزة ، فقالا له : آلفرزدق أشعر أم جرير ؟ فقال : عليكما وعليهما لعنة الله ! فقالا : نحب أن تخبرنا ثم ننصرف إلى ما تريد . فقال : من يقول :

وطوى القيادُ مع الطراد بطونها　　طي التِّجار بحضرموت برودا

قالا : جرير . قال : هو أشعرهما !

فقل لي بربك : أين تلك الحرب التي كان يبرز فيها رجل لرجل فيتقاولان ويتصاولان على مسمع ومرأى من الجمعين المتقابلين ، حتى إذا حميت الصدور واحمرت الحدَق ، حمل بعضهم على بعض فيُقتل نفر ويجرح نفر — من هذه الحرب الميكانيكية التي يقف فيها المليون حيال المليون فتغشاهم ظُلل من السماء ترسل الشهب والصواعق ، وتكر عليهم قُلل من الحديد تقذف اللهب والقنابل ! ثم يُرعد الجو والبر والبحر بآلات الموت والدمار ساعة من الليل أو النهار فإذا بك لا ترى بعد ذلك عشرات من البلدان عمرتها الحضارة في دهر ، ولا ألوفاً من الشبان نشَّأتهم المدنية في جيل !

لقد اتخذ الفرس يوم القادسية دبابات من الفيلة هولوا بها على المسلمين بعض الوقت ، ولكن العرب لم يلبثوا أن أصابوا مقاتلها في الخراطيم فمسحها الشهداء بالسيوف ، فانقلبت الفيلة إلى أهلها فعجنتهم بأرجلها وهي مولية ولكن دبابات هتلر كضمير هتلر لاتحس الوخز ولا تحفل الصدام ولا تبالي

العاقبة ؛ فهى تهجم هجوم الجراد الجهنمى على النبت العميم (١) ، فلا تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم.. فإذا أضفت إلى ذلك الويل أن الذين أوقدوا نار هذه الحرب حلوا أنفسهم من روابط الدين والخلق والقانون والعرف والشرف أدركت مبلغ ما تعانيه الانسانية اليوم من يأجوج ومأجوج فى أمة بسمرك ونيتشه وغليوم وهتلر !

ليت للعالم يار باه كرَّةً إلى عصر الجمل والحصان ، وحرب السيف والسنان ، ومدنية القلب واللسان ، لينجو من هذا العلم الذى يدمر ما يعمر ، ويخلص من الحضارة التى تأكل ما تلد !

(١) العميم : المجتمع المتكاثر .

فرنسا تنهار

(٢٤ يونية سنة ١٩٤٠)

سبحانك اللهم مالك الملك وصاحب القدرة ! أفى أقل من دورة القمر تخشع باريس محرابُ الأدب للقوة ، وتخضع فرنسا منجم الذهب للمادة ؟

أفى أسرع من كسرة بولندة والنرويج وهولندة والبلجيك ينهزم أبسل جيش على الأرض ، وتنهدم أرفع أمة فى التاريخ ؟

أبعد القارعة العالمية الأولى ونجاة (فوش) من (فون كلوك) بالمعجزة الفاجئة يُخلد (بيتان) و (فيجان) إلى الدعة ، ويسترسلان إلى النعيم ، ويطمئنان إلى الأمن ، ويسالمان الأحداث فى أفياء « ماجينو »[1] ، ويهملان الشباب فى أفناء (سان سير)[2] ، فلا يهتمان بسلاح ولا يفكران فى خطة ؟

لقد كانت (سيدان) فى جسم الدفاع الفرنسى كعب أخيل[3] : جثا فيها نابليون الثالث أمام بسمرك ، فلم يستطع (تيير) و (غبتا) أن ينقذا شرف فرنسا ويفديا عاصمتها إلا ببذل الألزاس واللورين وخمسة مليارات من حُر الذهب . وانخرع فيها جيش (كوراب) فانثغر عندها خط الدفاع الرئيسى فوقعت

---

(١) ماجنو . خط دفاعى مسلح أقامته فرنسا على الحدود الألمانية بقوة العلم والمال فلم يغن عنها شيئاً (٢) سان سير : المدرسة الحربية فى باريس

(٣) الكعب : مؤخر القدم ، وأخيل أشهر أبطال الألياذة غمسته أمه وهو وليد فى أستكس أحد أنهار « الأنفيرا » ؛ وخاصة هذا النهر أن ماءه إذا مس جسم إنسان لا يعمل فيه سيف ولا رمح ، ولذلك كان جسم أخيل معصوما من الجرح إلا من كعبه ، لأن أمه كانت ممسكة به حين غمسته ، ومنه كان مقتله .

الكارثة التى لا حيلة فيها ولا نجاة منها وليس يدرى إلا الله ماذا يملى الدكتاتوران على فرنسا الضارعة من شروط الصلح فى (فرنكفورت) الثانية . فكيف غفل القواد الفرنسيون عن هذا الثغر فلم يحصنوه ويؤمنوه ؟ لقد قال رئيس الحكومة الفرنسية : إن القيادة ارتكبت أخطاء لا يتصورها العقل . وأشار رئيس الوزارة الانجليزية إلى تهم لا يرى الوقت ملائماً للافضاء بها . ونحن نعيذ فرنسا مثل الوطنية العالية ونموذج العسكرية الرفيعة أن تكون ميداناً لجيش الهتلرية الخامس(١) ، فما علم الناس على ضميرها الوطنى من سوء ؛ وإنما نعتقد أن الديمقراطية دهاها مادهاها من بطر الغنى وغرور الأمان واعتقاد السلامة . فلو أن الحلفاء يوم صرعوا الأفعى قطعوا ذنبها ورأسها لما تفتحت الجحيم عن شياطين النازية الذين زلزلوا الدنيا وبلبلوا العالم ولكنهم دوخوها وسلخوها وتركوها فى فجوة من الأرض تتحوى وتتقوى وتستعد ، وانطلقوا فى جنتها الفيحاء ينعمون ويقصفون حتى أذهلتهم نشوة الفوز عن كيد الموتور وحنق المقهور ، فأغفلوا الحيطة وأهملوا العدة إلى أن انفجرت عليهم السموم من كل وجه . والدولتان الحليفتان قد اعترفتا بهذا الخطأ الذى جر عليهما هذه النكبة . فقد قال المستر تشرشل فى خطبته الأخيرة : « لقد انهارت قوى العدو فى سنة ١٩١٨ فجأة . فشاءت حماقتنا أن نلقيه جانباً ثم نستنيم إلى سكرة الفوز » وقال المرشال بيتان فى ندائه الأخير : « بعد انتصارنا على الألمان فى سنة ١٩١٨ تغلب فينا مرح السرور على روح التضحية ، وحرص الناس أن يأخذوا أكثر مما أعطوا ، واستشعروا برد الراحة فأراحوا أنفسهم من عناء الجهد »

لذلك لم يكن بالعجيب أن تعقم فرنسا من الأبطال فلم تنجب فى زهاء ربع

---

(١) يراد بالجيش الخامس أو الطابور الخامس الخونة والمنافقون ودعاة الهزيمة .

قرن من القادة العباقرة من بخلف جُفْر وفوش ، فاضطرها الأمر أن تلقى بمقاليدها إلى رجال المدرسة العسكرية القديمة كغاملان و بيتان ممن أوهنت السن العالية عواتقهم فلا يقوون على حمل النجاد .

كذلك لم يكن بالعجيب أن يفجأهم النازيون بالخطط المبتكرة والأسلحة الحديثة ، فيقفوا حائرين ذاهلين أمام الدبابات التى تقذف اللهب وتعبر النهر ، والطائرات التى تنقض كالصاعقة وترتفع كالقذيفة ؛ فيذهب غاملان و يجىء فيجان ، و يستقيل رينو و يتولى بيتان ؛ ولكن القدر القاهر فوق الناس يأبى إلا أن يكفّر المخطىء و يخسر الغافل .

ليت شعرى ماذا قال الفرنسى الحزين المهان المحطم حين سمع المرشال بيتان يقول ليلة الأمس فى أول ندائه : إننا فى قلة من الجنود ، وقلة من الأسلحة ، وقلة من الحلفاء ، ولذلك انهزمنا »

لعله قال : وأين إذن يا مارشالى العزيز السعى الذى سعيته والمال الذى أديتَه ؟ إن فرنسا وانجلترا ومستعمراتهما يبلغون ستمائة مليون نسمة ، فهل يجوز على مثل هذا العدد القلة والضعف لولا أن هناك خطأ من الإنسان أو خذلاناً من الله ؟

لقد برهن الفرنسيون فى معركتهم الخاسرة أنهم جديرون بمكانهم من ثبت الشرف وتاريخ البطولة . وما غلبوا إلا لأن الديمقراطية التى يعتقدونها لاتفكر إلا فى السلم ولا تتسلح إلا بالعهود والمواثيق والقوانين والشرف ، وأن الدكتاتورية التى يعادونها لا تفكر إلا فى الحرب ولا تتسلح إلا بالحديد والنار والدعاية والخيانة والكذب .

على أن الله عوّد فرنسا العريقة أن يحفظ عليها الشرف إذا شاء أن تخسر المعركة . و بقاء الشرف ضمان لبقاء العزة . والعزة حافز دائب الوخز يدفع إلى الحياة بالموت ، و يرفع إلى السيادة بالتضحية

ويقيننا أن هذا الصلح الذليل الذى طلبه الفرنسيون العسكريون عارض من اليأس أصابهم فى حال سيئة . أما سائر الفرنسيين فى القارة وفيما وراء البحر فسيختارون المنية إذا خُيِّروا بينها و بين المذلة .

* * *

إن فرنسا المنكوبة ضحية جديدة لجبروت العلم الفاسد . والعلم الفاسد هو الذى قصدناه بالغضب فى مقالنا الذى عقب عليه صديقنا الأستاذ العقاد . وهو الذى عناه المستر تشرشل فى بيانه بقوله : « إننا إذا انهزمنا سقط العالم كله فى عصر من الظلام سيكون أطول العصور وأشأمها بفضل العلوم الفاسدة » .

وفساد العلم أن يضع الإنسان فيه شهواته الدنيا فيجعله شراً خالصاً لا خير فيه . ورحم الله جان جاك روسو فقد أجهد قريحته فى التدليل على أن العلم يفسد الإنسان[١] . ولو تنفس به العمر إلى عهد النازية لأيقن أن الإنسان هو الذى يفسد العلم .

(١) Discours sur les sciences et les arts.

بين المهاجرين والأنصار

(١٢ يوليو سنة ١٩٤٠)

كان من أثر الفازعة الشديدة التي نالت الناس من الغارات الجوية الإيطالية أن لجأ سكان العاصمة والثغور، إلى القرى والعزب والكفور، يلتمسون الأمن في ظل الريف الوريف، وينشدون الهدوء في حضن الطبيعة المشبل .

وكان الطيار الذي يحلق ذات صبح من هذه الأصباح المضطربة، في سماء مصر المشرقة المخوفة، يرى الطرق الرئيسية تسيل بحاملات الأنفس وناقلات المتاع بين القاهرة والإسكندرية والإسماعيلية وبورسعيد، فلا يجد نوعاً ولا شكلا من عربات النقل أو الركوب التي تسيرها الأحصنة الحيــــوانية أو الميكانيكية إلا جمع لهذه الهجرة التي لم تر مثلها مصر في ماضيها الطويل!

هذه سلاسل من عربات النقل تجرها الخيل أو الحمير فتسير على يمين الطريق وئيدة السكر تقعقع عجلاتها مخنوقة في التراب، وتجلجل أجرامها خافقة في الجو، من ثقل ما تحمل من الأثاث و(السكرار) والماعون ...

وهذه قوافل من سيارات النقل المكشوفة والمغطاة موقرة بالأثاث الفخم والرياش الثمين، تهتك دروجاً في وسط الطريق المترب فتثير غماماً من الغبار الخانق يحجب وراءه الأشخاص والأشياء إلى مسافة بعيدة،

وهذه أرتال السيارات المملوكة أو المأجورة تشرق بمن فيها من النساء والرجال والأطفال، وهي تنتقل من الوسط إلى الشمال لتخطف طريقها من (الكميونات) العنيدة

ولدى كل نقطة من « نقط المرور » ، وعلى كل رأس من رءوس الجسور ، طوائف من القرويين والقرويات ، يُلوِّحون بالفواكه والمرطبات ، فلا يكاد المهاجرون المفزَّعون يحسونهم لتوزع قلوبهم بين أهوال الحرب المتوقعة ، ومخاوف الحياة الجديدة .

* * *

أشرقت القرى العوابس بألوف من ناشئة النعيم ذوى الوجوه الرقاقة والأطراف الناعمة والطرر المصفوفة والبنائق المقوَّاة والطرابيش القانية ، وألوف من نابتة المطبخ الحضرى ذوى الوجوه المطهمة واللغاديد الضخمة والبطون الشحيمة والجسوم الرهلة ؛ وازدانت الأكواخ والمصاطب وحواشى البرك وحفافى السكك برواد الكنتننتال والكرسال وسان جمس واعترى القرى بادىء الأمر من التزايل[1] والانزواء ما يعترى القروية إذا رأت أحد الأفندية على حين فجأة . ثم أدرك القرويون أنهم ملاذ هؤلاء الضيوف فاستشعروا قليلاً من الجرأة ، فخالطوهم و باسطوهم حتى ارتفعت الكلفة بين أهل المهجر وأصحاب الدار ، وأصبح بينهم من التعاون والألفة ما كان بين المهاجرين والأنصار .

وفى سقيفة من شجر الصفصاف وحطب القطن ، بين تل من تلال السماد الطرى ، ومستنقع من آسن الماء الوحل ، جلس ذات يوم جماعة من المهاجرين بعد شهر من الهجرة وقد حف من حولهم رجال القرية بين مضطجع فوق الحصباء ومحتب بحضيض التل ، ومستند إلى جذع الشجرة . وكان كل رجل من هذه الجماعة قد نال من جسمه الشحوب ، وشاع فى نفسه السأم ، وانتشر على جبينه الأبلج حَبَر[2] البراغيث والبعوض ! فهو يتكلم من غير شهوة الكلام ، ويجيب من غير تفكير فى الجواب ، ثم يذهل ذهول شارب الأفيون فلا كلمة ولا حركة .

---

(١) التزايل : الحشمة والانقباض . (٢) الحبر : الأثر الذى يتركه لدغ البراغيث وما يشابهها .

ولكن الشيخ . وهو رجل أزهري الثقافة سليط اللسان جرىء القلب ، أراد أن يشفى صدور الفلاحين من هؤلاء المترفين الذين سلبوهم نعمة الله وراحة الدنيا وحق الحياة . فقال فى خبثه المعهود يسأل أحدهم وهو من الملاك الغلاظ المتأبهين :

— لعلك سعيد بجمال الطبيعة و بهجة الحقول وصفاء الهواء وهدوء القرية !

ولم يكد الشيخ يتم جملته حتى تحرك ساكن القوم ، ثم جاشت حركتهم ففارت على ألسنتهم خليطا من الكلام فيه الضجر والسخر والملال والسب . قالوا :

— أين الجمال وهذه المزابل والزرائب والخرائب والبرك تقذى الأعين ؟ وأين البهجة وهذه الأجسام الضاوية والثياب البالية والمساكن التى فى بطنها الوحل وعلى ظهرها الروث تقبض الأنفس ؟

وأين الصفاء وهذه الدور المنتنة والأزقة القذرة والمراحيض المكظومة تسمم الأبدان ؟

وأين الهدوء وطنين البعوض والذباب ، وتجاوب الكلاب والذئاب ، ونقيق الضفادع ، ونهيق الحمير ، وصراخ الأطفال ، تؤلف جوقة من الموسيقى الشيطانية تحطم الأعصاب ؟

إن القرية الأوربية خميلة من خمائل الفردوس فيها متعة الحس والعقل والجسم . وكان الظن بالقرى المصرية أن تكون قريبة الشبه بتلك . فلما رأيناها أنكرنا أن يكون سكانها من الناس ، لأنهم يأكلون ما تعافه الكلاب فى المدن ، و يشربون مالا يجوز أن تغسل به الأقدام فى العواصم ، و يعانون من مختلف الأمراض فى القرية الواحدة مالا يجتمع مثله إلا فى المستشفيات

المتعددة . فنحن بهجرتنا إلى القرية قد فررنا من موت متوقع إلى موت محقق . لذلك عقدنا العزم على أن نعود إلى القاهرة فإن الموت بالشظايا على دفعة ، أخف من الموت بالجراثيم على دفعات .

فما كان جواب الشيخ والذين معه إلا أن قالوا بلسان واحد : الحمد لله الذى أراكم بعد العمى وأنطقكم بعد البكم ! لقد خطبنا حتى نشف الريق ، وكتبنا حتى جف الحبر ، فلم تصدقوا أنكم عمرتم المدينة وخربتم القرية ، وأبطرتم الباشا وأفقرتم الفلاح ، واتخذتم من عرقنا ودمنا أفنانا من لذائذ البطن أعلاه وأسفله ، حتى ضوينا وسمنتم ، وفزعنا وأمنتم ؛ وكانت بلية كل أولئك على الإنتاج والدفاع !

ثم افترقوا ، هؤلاء ساخطون وأولئك قانطون ! فعسى أن يلتقى هذا السخط وذلك القنوط عند معالى وزير الشؤون الاجتماعية !

نهاية أديب

(٥ أغسطس سنة ١٩٤٠)

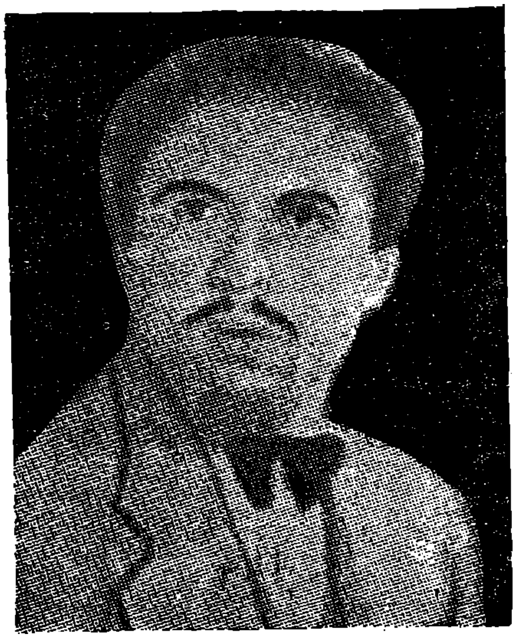

في الساعة السابعة من مساء يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من شهر يوليه ، لفظ البحر على ساحل « جليم » بالإسكندرية جثة كانت في رونق العمر وإن بدا على محاسرها مسحة من شفوف الهم وشحوب الألم . لم يكد يلقيها الموج الصاخب المتعاقب بالرمل المستوى المنضوج حتى أخذتها عيون الحرس الساحلي ، فظنوها لأول وهلة ضحية من ضحايا الحرب الانجليزية الايطالية في البحر المسجور بالعذاب والموت ؛ ولكنهم علموا من بدلة الغريق ومعطفه وسلامة بدنه أنه مدني سقط في البحر أو أُلقي فيه فلما فتشه رجال الشرطة ليكشفوا عن هويته عثروا في جيب معطفه على كتاب منه إلى رئيس النيابة يقول فيه :

« إنه قتل نفسه بالغرق يأساً من الدنيا وزهادة في العيش ، ويوصي بأن يحرق جسده ويشرّح رأسه »

إذن هو رجل من رجال الفكر والرأى ، جعل للحياة مثلا لم يحققه فهو يجتويها ، ورأى فى العقيدة رأياً لم يرقه فهو لا يرتضيها ، واعتقد أن فى مخه عبقرية فهو يرجو أن يظهرَ بالتشريح خافيها

فهل تدرى من هو ؟

هو الدكتور إسماعيل أحمد أدهم عضو أكاديمية العلوم الروسية ، ووكيل المعهد الروسى للدراسات الإسلامية ، كما كان يخبر عن نفسه وهو صاحب المقالات العلمية والنقدية فى الرسالة والمقتطف ، ومنشط الحركة الأدبية فى الاسكندرية وجمعية الثقافة ، نَجَله أبوان مختلفان : تركىّ وروسية ، ثم غُذى فى يفاعته بثقافة البحر الأسود ، فتأثر بنفسية الترك الجمهورية ، وعقلية الروس الشيوعية . وتزوج أبوه مرة أخرى من مصرية فعاش معه فى الأسكندرية حيناً من الدهر تعلم فيه العربية ثم ترك له بعد موته بيتاً صغيراً كان يعيش على أجرته هو وأخته عيش الكفاف الضيّق واعتراه داء السل فكان يراوغه بالسكنى فى جفاف « أبو قير » ، ولكنه كان مضطراً إلى أن يشق طريقه فى زحمة الحياة بسن القلم فكتب وألف وحاضر وناظر ، حتى كان له فى كل كتاب رأى ، وعلى كل مسألة اعتراض ، ومع كل كاتب موقف وأعانه على هذا الجهد العظيم قريحةٌ طيعة وبصيرة ناقدة وعزيمة نافذة وطبع عمول ومع ذلك ظل فى عزلة عن القلوب المؤاسية أو المشجعة من جمهرة القراء وقادة الأدب ، لأن نشأته اللادينية ، ونزعته العلمية ، وطبعه الجرىء الحر ، وأسلوبه الجاف القلق ، كانت تجعل لسطوره ظلالا من الإلحاد والمادية والغثاثة تبغّضها إلى صاحب الدين وصاحب الفن ثم وصل أسبابه ببعض ذوى القلم فاستخدموه فيما لا يكسبه المودة والعطف . وجابه قوماً من المتصوفة وطلاب العلم بوقاح الرأى

فى الدين فآذوه فى بدنه وسمعته ووجد رضا نفسه وراحة عقله فى تسليط الطبيعة على العقيدة ، وتحكيم الفلسفة فى الشعور ، فساءت ظنون الناس فيه ، وأرهفت الألسن عليه ، حتى عجز أن يعيش على ثمرات فكره .

وكان المرحوم إسماعيل أدهم عفيف النفس يتقنع بميسور الرزق ، ويتكرم عن طلب المعونة ولو كانت جزاء على عمله وكان مرضه الدخيل المزمن يقتضى وفرة الغذاء وجودة الهواء وراحة الجسد ، ولكنه كان لا يجد الكفاف لضيق مضطربه ، ولا ينال الدعة والجمام لقوة عزمه ؛ فتظاهر عليه الداء والشقاء والإباء واليأس من روح الله حتى زلزلت هذه المحن فى نفسه الثقة ، وأذهبت عن قلبه السكينة .

ونكبت الإسكندرية الجميلة بالغارات الجوية الإيطالية ، فجلا أكثر الساكنين عن الثغر المروّع ، فأقفرت المنازل حتى منزل أدهم وهو مرتزقه الوحيد ، فلم يكن بد من النهاية المحزنة التى انتهى إليها هذا الأديب البائس .

* * *

كان الدكتور أدهم — غفر الله له — شديد الذكاء أصيل العقل رياضى الفكر واسع الثقافة لا يؤمن إلا بالعلم والمنطق . وقد أضاف إلى ثروة الأدب العربى الحديث جهداً مهما تختلف الآراء فيه فإن له قيمته . وكان من الممكن أن يعيش فى ظلال أدبه رخى البال مكفول الرزق لو أنه وصل ما بينه و بين الله؛ ولكنه خضع لسلطان طبيعته ونشأته فعالج الموضوعات الإسلامية معالجة الملحد المخلص الذى يجد سعادته فى الكفر ورسالته فى التكفير . ولو أنه خادع الناس كما يفعل بعض الأكياس من الأدباء ، لأدرك السلام فى الأرض وإن لم يدركه

فى السماء ؛ ولكنه كان أشبه بشهداء الفكر الذين يجدون اللذة فى الألم ، ويبتغون الخلاص فى الموت !

* * *

رحم الله الدكتور أدهم ! حسب أن أرقام العلم وأقيسة المنطق هى كل شىء فى تقدير المعلوم واكتناه المجهول ، فاعتمد فى أدبه على العقل القعيد الذى يرى ولا يطير ، واتكأ فى فلسفته على الفرض البعيد الذى يطير ولا يرى ، وتحامل فى معتقده على الضمير البليد الذى خبا وهجه بين فتور الخيال وخمود العاطفة . ثم غره أن معارضة الدين سبيل من سبل الشهرة فأوغل فيها بعنف حتى انقطع فى صحراء الحياة عن الله والناس ! فهو لا يملك النور الذى يضىء ظلمة القلب ، ولا الرجاء الذى يخفف وطأة الكرب ، ولا الحب الذى يؤنس وحشة الطريق. وحكم القدر على السائر فى الظلام والوحدة أن يزلق من صخرة الحرمان إلى لجة العدم[1] وهناك لا يدركه إلا رحمة الله التى وسعت كل شىء وشملت كل شخص!

إن الأدب الملحد قد يعيش فى الغرب لأن الظلام يمد الظلام ، ولكنه لا يستطيع أن يعيش فى الشرق لأن الظلام ينسخه النور !

---

(١) إشارة إلى انتحاره بإلقاء نفسه فى الماء من فوق صخور الشاطىء.

الشتاء[1]

ترجمة صورة

الشتاء ! الشتاء ! وماذا تفهم من الشتاء يا ابن مصر الضاحية الضحوك ؟ هل تفهم منه إلا أنه أسابيع من عمر العام لا تدرى أهى أواخر خريفه أم أوائل ربيعه ؟ هل تجد فى جسمك غير

دفء النعمة ، وفى نفسك غير بهجة الأنس ، وفى عينك غير إشراق الجمال ؟ انظر الصفحة اليمنى تر الشتاء الغربى الذى جعله الله شيخوخة الطبيعة ، يُسلبها الرواء فلا تُعجب ، ويحرمها النماء فلا تخصب ، ويلقى عليها الهمود فهى سكون خافت وصمت ثقيل ، ويلفّها فى كفن من الثلج نسجته ريح بليل ثم تقشعر الأرض ، وتكفهر السماء ، وتقع الحياة بين القحط والموت فتئن بالرعود وتتأوه بالأعاصير ، وتتساقط على الشجر السليب والثرى الكئيب والقرى الموحشة هما فى الصدور ، وبؤساً فى الأكواخ ، ورهقاً فى العزائم

إن الشتاء فى غير مصر زمهرير جهنم تتنفسه كما تقول الأساطير فلا يذر من شىء يهبّ عليه إلا أحرقه بالقر وأغرقه فى الصقيع أما فى مصر فالشتاء فى الناس لا فى الطبيعة . والشتاء فى الناس برد فى الدماء ، وخمود فى العواطف ، وقحط فى الأنفس فلو كان كل من على النيل صافى القلب كسمائه ، عذب الخلق كمائه ، طلق اليد كفيضه ، ضافى المعروف كأرضه ، لكان هذا الوادى الحبيب جنة الله فى الدنيا ، أزلفها لجنس من خير الأجناس ، خلقه وسطاً بين الملائكة والناس ! ولكن وما أسخف الحياة مادامت فيها لكن !

خواطر مهاجر

(١٩ أغسطس سنة ١٩٤٠)

— ١ —

تفيأ كعادته كل يوم ظلال الكافورة الغيناء من قهوته المختارة على شاطىء النيل الجميل فى « المنصورة » بلد الشعر والسحر والجمال والفتنة وكان مجلسه تحت هذه الدوحة الفينانة أشبه بالعش الناعم قد احتضنه النهر وحنت عليه الغصون وتنفس فوقه الماء بالنسيم الرطب فأصبح للحس الشاعر قطعة من رياض عدن ، أو بقعة من بقاع عبقر ! فإذا أضفت إلى جمال المكان وبهجه المنظر ، أنس الصديق المخلص ، ورقة الجليس المهذب ، و بشاشة الوجوه التامّة عن الود ، وعطف القلوب المتآخية فى الأدب — جمعت فى ذهنك صورة مقاربة للحياة الروحية الوادعة التى يحياها هذا المهاجر فى زمن روعت الحرب فيه معالم الأرض ومجاهلها حتى ما كان ممتنعاً منها على شرور الإنسان منذ الأبد كأجواء السماء وأثباج البحر وقفار البيد .

مال ميزان النهار وأوشكت جمهرة النادين من الأهلين والمهاجرين أن تنصرف عن مناضد القهوة الحافلة ، فلم يبق إلا جماعة هنا وجماعة هناك من الذاهبين إلى (رأس البر) أو الآيبين منها ، جلسوا يستروحون من عناء السفر ليستأنفوه بعد الظهيرة . وسكت النداء عن السقاة فجلسوا يرفهون عن أقدامهم على أبواب القهوة وانقطع الرجاء بماسحى الأحذية و بائعى اليانصيب ومحترفى

السؤال فناموا متربصين على إفريز الطريق وهمدت الأصوات والحركات حول المهاجر فاتجه بعينه وقلبه إلى النهر الخالد ، وقد ظمىء شاطئناه ونش مجراه حتى سحب الملاحون قواربهم على قاعه . هنالك رأى زمر القرويين الوافدين على السوق يملأون الزوارق فى المعبر الذى لم يتغير منذ رآه وهو طفل ، فأتبعهم نظرَه الحالم حتى صعدوا درج الموردة وانسابوا بعصيهم وأخراجهم فى شارع فاروق . فلما مروا به على قرب رأى لهم صوراً غير التى عهدها لآبائهم وهو يافع . كان الغالب على آبائهم الجسامة والوسامة والسذاجة والصحة وكان بين أبدانهم الوثيقة ولحاهم المرسلة وثيابهم الفضفاضة وعمائمهم الضخمة تناسق عجيب يملأ النفوس مهابة وروعة . فإذا حادثتهم فى شىء من الأشياء ، أو عاملتهم فى أمر من الأمور . وجدت صفاء القلب مشرقاً فى الحديث ، وأثرا الدين ظاهراً فى المعاملة . وكنت تخالط سوادهم أو آحادهم فلا ترى إلا عفة فى القول ، وصراحة فى الفعل ، وقناعة بقسمة القدر ، وزهادة فى مال الناس ، ومساهمة فى تكاليف العيش ، ومواساة فى محن الدهر ، ونية صادقة فى أن تكون القرية للكل ، وأن يكون الكل للقرية .

ذلك لأن الرزق كان أكثر من الناس ، والرضا كان أوسع من الهم ، والأمل أطول من الحياة !

زِدْ على ذلك أن أولئك الآباء السعداء ما كانوا يعرفون عداوة الانتخاب ولا دعاية الأحزاب ولا مكاره السياسة ولا تهاويل الحرب ؛ إلا ما كان يقع فى أسماعهم الحين بعد الحين من أخبار الحرب بين (العثمانلى والمسكوف !)

أما فلاحو اليوم فهم كما يراهم ضئال الأجسام قصار القدود مبذوء والهيئة يتبين الناظر فى وجوههم لوائح المرض ، وعلى مظاهرهم دلائل الفقر ثم يتمثلهم

وهم فى طواقيهم الحقيرة و جلاليبهم القصيرة مسوخاً من تشويه الطبيعة ينسجم فيها خبث الطوية مع قبح الصورة !

لم يرث قروى اليوم عن قروى الأمس إلا الجهل . أما سلامة الصدر وسماحة النفس وعفة الطعمة ، فيقولون إنها ارتفعت مع البركة من أرض القرية . فالفلاح يكدح ولا ينجح ، و يسعى ولا يبلغ ؛ لأن عدد الناس زاد إلى الضعف ، وموارده هو ظلت على الضيق . وتشوّفت نفسه إلى متاع الدنيا ويده من محصول عمله أو ملكه صِفْر لشره المرابى وطمع المالك ، فاضطر إلى أن يساعد الجهل بالحيلة، و يرفد الحلال بالحرام ، و يمزج الطيب بالخبيث . وذلك بأخذ من راحته وصحته وخلقه ودينه مالا يعوضه طب الطبيب ولا وعظ الواعظ .

والفلاح لإخفاقه الغالب وحرمانه المتصل ينفس على الناجح ويحقد على الغنى ولعله يعانى حُمَّى الحسد أضعاف ما يعانى من تبريح العلة .

ولقد ركبه الغرور باستفحال الجهل فيه . وألهبه الطمع بإلحاح الحرمان عليه : والجهل إذا طغى خيّل لصاحبه أنه العلم والحرمان إذا استمر زيّف فى ذهن المحروم معنى الحياة . والشر إذا دأب على معاندة الطبع أفسد فى نفس الشرير صلاح الفطرة فالفلاح يقول الزور ويعتقده الحق ، ويفعل المنكر ويظنه المعروف ، ويعمل مع الطبيعة فى استثمار الأرض ولا يتفق معها ، ويعتمد على الله فى اكتساب الرزق ولا يتصل به !

والفلاح التام الجهل كالحضرى الناقص العلم ، كلاهما ضحية من ضحايا الانتقال الاجتماعى فى هذا العصر ؛ لأن القروى المغرور يحاول أن يكون مدنيًّا ، والمدنى المفتون يريد أن يكون أرستقراطيًّا ، فقعد بهذا وذاك فشل القدرة دون الغاية . وعيش المسيخ المشيَّأ[1] لا يصلح أن يكون فى نسيج الكون لُحمةً ولا سداة

(١) المشيأ : الذى فيه شىء من كل شىء

هذا الفلاح المزيف لا يصلحه تنظيم قريته ولا تجميل داره ؛ إنما يصلحه تربية ذوقه و إرهاف حسه . فإن صاحب الذوق يبنى الدار الجميلة و يخط الحديقة البهيجة ؛ أما فاقده فخليق به أن يجعل القصر زريبة والبستان مزبلة . ووسيلة إصلاح الفلاح التعليم ولاشك . ولـكن التعليم وسيلة بطيئة و إن كانت مضمونة . فإذا أردتم سرعة الإصلاح فلم لا تجربون مع التعليم أن تجعلوا مكان العُمَد (كنستبلات) تـكون لهم عجرفة الترك وعقلية الإنجليز ؟ إن هؤلاء خلقاء أن يُعلموا الفلاح الجاهل بالفعل كيف يعيش ؟

— ٢ —

كأنما أقبل فيضان النيل فى هذا الموسم متلكئاً منزوراً ليوائم طبع هذا العام فى خصومة السلام وعداوة الخير !

وكأنما كانت كل سنة من عُمر الدنيا نشيداً من ملحمة القدَر تتألف أبياته من تفاعيل الخير أو من تفاعيل الشر ليصح منطق الكون فيما ينتج من أفعال الناس ومنطق الطبيعة !

كل شىء من الأشياء قد انحرف اليوم عن وضعه أو خرج عن مداره ؛ لأن زلزلة الشر للأرض ، وانفجار الدواهى على الناس ، لابد أن يحدثا الفساد فى كل معنى ، ويبعثا الاضطراب فى كل ذات . فمن توقع فى هذه السنة النازية الجهنمية خيراً أو سكينة كان كمن يتلمس الصلاح فى عمل الشيطان ، ويتحسس الطرب فى لحن الحزن !

يُخيَّل إلىّ وأنا أقرأ أنباء الحرب وأطالعُ أحوالَ الناس أن وشائج الإنسانية قد تقطعت بين بنى آدم فوقعوا فى فترة منكرة من فترات الوحشية الأولى ، فلا وفاء بينْ الآحاد ، ولا ثقة بين الأمم ، ولا حِجاز بين النفوس ؛ وإنما يعيشون على الترصد والغيلة فى فزع لا يُغبّ وحذر لا يغفل . فإذا أخلف النيل هذا الإخلاف — وهو فى رأى مترجمه « إميل لدْوج » معروف بخصائص الإنسانية العليا من الوفاء والسخاء والعدل — فإن ذلك لا يتنافر مع هذه الفوضى العامة المهلكة التى أصبح فيها الكذب سلاحاً مشروعاً يسمى الدعاية ، والغدر سياسة مرسومة تسمى الوقاية ، والخيانة خطة مدبرة تسمى الطابور الخامس !

* * *

على أن النيل أوفى منذ أيام فطمَى وزخر ! ففى ذات بُكرة من بُكر المنصورة الغريقة فى النور والفتور والهدوء والعطر ، رأيت من مشرف القهوة شاطئيه الظامئيْن قد شَرِقا من فيضه بدم الحياة أو بذوب النضار ، فهما يفهقان كما يفهق اليهودى ذو الربو الهرم ! وأبصرت الزوارق التى كانت تجر بالأمس على رمال القاع قد غدت على صفحته الذهبية المتموجة أشبه شىء بالحمام الطائر على حقول القمح إذا استحصدت ، أو بالفَراش المبثوث على رياض الشقائق إذا توردت . ثم صُوِّرَلى أن المدينتين المتقابلتين على ضفتىْ النهر المقدس الخالد قد صَفتا إليه بوجوههما وقلوبهما كأنهما تؤديان إليه تحية العرفان ، وإلى الله صلاة الشكر ! حتى الكافورة بالغت أغصانها الشمالية فى التدلى حتى أوشكت أن تقبِّل أمواجه المسلسلة وهى تنساب فى ظلها الظليل شادية بالثراء والغبطة !

حينئذ وجدتنى على الرغم منى عانىَ الوجه له مستغرق الفكر فيه ، يتردّد فى خاطرى ما يردِّده الحيوان والشجر من تقديسه وتمجيده . ثم قرّ فى نفسى أن بينى وبين هذه الشجرة القريبة وذلك الرجل البعيد قرابة شابكة ؛ لأنى شعرت أن بينى وبين من يسقيه النيل إخاء من رضاع الماء كما يكون بين الولد والولد إخاء من رضاع اللبن ! ووضح فى ذهنى الآن معنى ما يقول الناس من أن علاقة الفرد بالأمة هى علاقة الأخوّة ، وعلاقة الأمة بالوطن هى علاقة الأمومة . وكما يتجه فى لحظات الصفاء الروحى فكر الأخ الممنوح إلى أخيه المحروم ، اتجه فكرى فى هذه الجلوة النفسية إلى ثرانا المكروب وأكبادنا الحرّى فى صحارينا الشرقية والغربية . فقلت لنفسى وأنا أردد الطرف السائم فى تيار النهر الجارف ودارأته المدوّمة ولججه الفائرة : كيف خفّ على ضمائر ذوى العلم

والرأى في وزارة الأشغال أن يدعوا هذا الفيض الحيوى العظيم يتدفق أربعة أشهر فى لهوات البحر الأبيض دون أن يحبسوه بحيلة من حيل الفن الهندسى ليحيوا به موات الناس والأرض!

لو كان لمهندسى الرى فى بلدنا مطمح تُشرف نفوسهم عليه غير أن يكونوا موظفين يسجلون المناسيب ويضبطون المناوبات ويتعهدون الجسور ويترقبون العلاوات، لوصلوا ما انقطع من أبحاث (ولكوكس) و (سِرِّى) حتى يبلغوا بها الغاية التى يكون بعدها كل سهل واحة وكل تل غابة. ولكن مهندسينا كسائر أهل الفكر فينا لا يعملون إلا للعيش؛ فإذا ضمنوه هدهدوا كسلهم الرخىّ اللذيذ على كرسى العمل الدوار فى المكتب، أو على كرسى الهضم الهزاز فى المنزل!

* * *

قالت نفسى وقد ساءها أن أتهم العلماء والمفكرين بقلة الوفاء بعهد الضمير: لعلهم لا يوفون بعهود الوطن والفكر إلا إذا قدَّمت الأمة إليهم العرائس كما كانت تقدمها إلى النيل من قبل.

فقلت لها: لا جرم أن العرائس أو الجوائز هى أقوى الحوافز لقرائح العلماء والأدباء والفنانين، لأنهم خُلقوا لأنفسهم قبل أن يخلقوا للعلم والأدب والفن؛ فإذا لم يجدوا الجزاء على ما يبذلونه للناس ضنوا به أو أنزروه، ولكن النيل خلق لغيره كما يخلق النبى المرسل والزعيم الملهَم؛ فوجوده أن يفيض، وعمله أن يعطى. ومن ذلك كان أصدق خلاله الوفاء والكرم، فهو منذ اتصلت منابعه بعيون السماء، وانشقت مجاريه فى صدور الأرض، لا يزال يفى بوعده ويجود برفده على القدْر الذى يريده الله لا يملك زيادته ولا نقصه. وما كان الوفاء

والسخاء غريزتين فى المصرى الحر إلا لأنه خلق من غرين نهره الحبيب ومائه ؛ فهو لابد موف بما عاهد عليه وإن تثاقل . والتثاقل مثبط عارض ينشأ من غفوة الضمير أو من كلال الذهن فمتى نبه الدين الضمير وشحذ العمل الخاطر ، عادت النفوس إلى جوهرها الخالص فسخت بما تملك . ويومئذ لاتجدين يا نفس عالماً يكسل ، ولا غنياً يبخل ، ولا سياسيا يكذب ، ولا زعيما يخون ، ولا صانعا يغش ، ولا عاملا يهمل ؛ وإنما يجرى أبناء النيل على أعراق النيل ، ينشأون أطهاراً ، ويشبون أحراراً ، ويعملون أخياراً ، ثم يذهبون أبراراً ، كما يذهب هذا النهر العظيم بعد أن يخصب الجدب وينبت الحب ويرفع الحضارة ويقر السلام .

— ٣ —

أخذت نوافح الخريف الأولى تتنفس منذ أسبوع على وجه المنصورة رخية ندية · وللخريف على شطئان النيل الشرقى وهو فى عنفوان الفيضان سحر لايبلغ كنهه الشعور ولا تعبر عن تأثيره اللغة . فللسماء اللازوردية على صفحاته ألوان وأحوال ، وللسحب الرقاق البيض على حواشيه أطياف وأظلال ، ولشمس الأصيل على مويجاته المرتعشات الحمر انكسارٌ يخطف البصر ، كأنما ذاب قرص الشمس فهو يتدفق من السماء على الماء ، أو انبجست على النهر من الأفق الغربى عين من ذائب الماس لم يدخل علها فى الكيمياء . وللأبكار والعشايا أنسام طيبة الشميم كأنما تنقل عن رياض الفردوس · والطبيعة الريفية عطار حاذق يعرف كيف يفتق الطيبَ من سنابل الرز وأكواز الذرة وأقناء النخيل ونوار التيل ولوز القطن ، ومما ينبت على حفافى الترع والطرق من أشتات الريحان والبقل وللمنصور يين والدقهليين على الجملة صباحة ووداعة يزيدها الخريف حلاوة وشاعرية . وإن بينهم وبين طبيعتهم المشرقة الجميلة من التآلف والتجاوب ما لاتجده بين الناس والطبيعة فى مكان آخر والناظر فى أخلاق هذا الإقليم ومزاياه يرى أن مثله بين أقاليم مصر كمثل أوربا بين قارات الأرض ، تميز كما تميزت بالنبوغ والمدنية والجمال ، وتألف تاريخه القديم والحديث من فصول وضاءة فى الوطنية والعبقرية والبطولة .

فنى الحروب الصليبية كان للمنصورة وإقليمها شرف القضاء على حملتها الأخيرة . وكان الجيش المصرى قد ارتد إليها مهزوماً . وامتحنه القدر القاسى فمات ملكه الصالح وقتل قائده فخر الدين ، فانتشر الأمر على جنوده ، واستبهم

الرأى على قواده ، وكاد الرجاء من نجاة مصر ينقطع لولا أن نهض الظاهر بيبرس بالمماليك ونهض معه أهل المنصورة ، فأقاموا المتاريس فى الطرق وجعلوا من دورهم قلاعا يرمون من نوافذها الفرنسيين بالأحجار والقذائف ، حتى قتلوا الكنت القائد « أرتوا » ، واستأصلوا فرقته ومزقوا الفرق الأخرى . ثم كانت الهزيمة الحاسمة فى فارسكور ، حيث أبيد الجيش العدو وأسر الملك القديس سجين بيت ابن لقمان ومضروبُ الطواشى صبيح .

وفى الغزوة النابليونية كان للمنصورة وإقليمها فضل الجهاد السابق الصادق؛ فقد ثاروا يوم السوق على جنود القائد « دوجا » وأعملوا فيهم السلاح حتى أفنوهم . وسجل التاريخ فى ثبت الخلود من أسماء القادة فى هذه الثورة : الأمير مصطفى كبير محلة دمنة ، وعلى العديسى شيخ القباب ، وحسن طوبار زعيم المنزلة .

وفى الثورة المصرية على الاحتلال كان للمنصورة وإقليمها فى البطولة الوطنية مواقف سارت أمثالاً مضروبة فى الإيثار والتضحية ، ولا تزال أسماء الشناوى والجيار وعبد النبى والأترىى عناوين لفصول خالدة من كتاب الجهاد الوطنى المقدس .

* * *

على أن المزية الظاهرة للدقهلية هى انطباع أهلها على الأدب والفن حتى العامة و السوقة . وإنك لتتبين أثر ذلك فى كل ما يصدر عنهم من ثمار العقل والقلب حتى القانون والسياسة وحسبك أن يكون من نوابغها فى الأدب : على مبارك ، ولطفى السيد ، وحسين هيكل ، وعوض إبراهيم . ومحمد العشماوى ، ومحمد عوض محمد ، وإبرهيم رمزى ، وعبد الله عنان ، وصالح جودت الكبير . وفى الشعر : إسماعيل صبرى ، وعلى محمود طه ، والهمشرى ، وكامل الشناوى ،

وصالح جودت الصغير ، ومحمد عبد الغنى حسن ، والوكيل . وفى الغناء والموسيقى : أم كلثوم ، ورياض السنباطى ، ونجاة على ، وسعاد زكى ، والدكتور الحفنى . وما اقتصرت على من ذكرت إلا لأنهم عُرفوا بالأسماع فى أقطار العروبة فلا يضعف بهم المثل . والواقع أن فى كل بلد من بلاد هذا الإقليم الفنان هيكلاً لعطارد تغاديه نفثات الأولمب ، وتراوحه نفحات عبقر !

أقامت جريدة الإصلاح فى السنبلاوين لمجلة الرسالة حفلة تكريم وترحيب ، وشاء زميلنا الكريم صاحب الجريدة أن تكون حفلته مظهراً من مظاهر الأدب الإقليمى فى صورة من صور العطف الجميل ؛ فدعا إليها جمهرة من أدباء البلد المختلفين فى الجنس والزى والثقافة ، فأسمعونا على موائد الشاى الحافلة أفانين من النثر المشرق الأسلوب ، والشعر المحكم الأداء ، والزجل البارع النكتة ؛ فعجبنا أن تجتمع هذه الجملة المختارة فى هذا البلد المغمور ؛ ثم علمنا أن فى كل بلد من بلاد الدقهلية عكاظاً يتبارى فيها صاغة القوافى وحاكة الفِقَر !

يالله للريف المسكين ! لقد غبنته المدينة فى كل ما ينتج من مادة وأدب : ففلاحه يكد ولا ينال القوت ، وشاعره يغنى ولا يجد السامع ، وصحفيه يجاهد ولا يلقى الجزاء !

* * *

سحرتنى مفاتن الخريف والريف فى المنصورة فما ينفك ناظرى وخاطرى يسبحان فى جو مشرق عبق من حاضرها الجميل وماضيها المجيد . وكنت الساعة أتتبع بالخيال كتائب الصليبيين وهم يسيرون على ساحل النيل الأيمن من دمياط إلى المنصورة ، يقود الحملة الأولى « جان دى بيرين » ، ويقود الحملة الأخرى « لويس التاسع » ، حتى رأيتهم على الثرى الخصيب الحبيب جزراً للسيوف

وطعاماً للوحش . وسرعان ما انتقل ذهنى إلى ساحل البحر الأبيض ، فرأيت أحفاد أولئك الصليبيين [1] يزحفون من السلوم إلى الإسكندرية فى زى غير الزى وسلاح غير السلاح وعدد كأرجال الجراد ! فقلت لنفسى وهى تضطرب بين الرجاء والخوف : إن رب الكنانة يا نفس عسى أن يبعث (صلاح الدين) فى هذا العصر ، وأن يجعل فى (السلوم) السلامة كما جعل فى (المنصورة) النصر !

(١) إشارة إلى الحملة الايطالية الألمانية على مصر

— ٤ —

سار (موكب الرؤية)[1] (من مركز البندر) فى صفين طويلين من الجنود المشاة تتقدمهم فرقة الموسيقى فى شتى آلاتها وشاراتها ، وتتلوهم طوائف الصوفية فى مختلف هيئاتها وإشاراتها ، وعشاق شهر رمضان محتشدون على جوانب الطرق وفى طنوف المنازل يجتلون الموكب المهيب ووجوههم يُشرق فيها السرور كأنما يستقبلون وافداً من الملأ الأعلى سيغمرهم بالسرور ويطهرهم بالنور ويزكيهم بالبركة . فلما أتم الموكب خطاه الوئيدة الموزونة تفرق ، واجتمع الناس على شاطىء النيل يرتقبون بشرى المحكمة الشرعية بطلعة الهلال الوليد ! ولشهر رمضان فى رأى الريفيين هلال غير أهلة الشهور ، يولد من نور الجنة ، ثم يدرج فى رياض الشفق دروج الطفل المدلل الموموق ، حتى إذا أبدر واستحار شبابه تردد كل يوم بين المشرق والمغرب فى موكب ذاكر من كرام الملائكة ، يختلط فيه تسبيح القائمين بذكر الصائمين ، ويمتزج به سليل النور بسليل الطين ؛ وتلك هى الأيام المباركة التى تتصل فيها السماء بالأرض من كل سنة .

وهلال شهر رمضان فى لغة الريفيين هو رمضان نفسه . لذلك يتخيلونه رجلاً له حياته وعمره وأجله . فإذا لم يبق منه إلا ربعه الأخير تمثلوه فى محفته السماوية محتضراً يعالج غصص الموت بين أناشيد الحور وصلوات الملائكة ، فيندبونه فى البيوت والمساجد ، ويرثونه على السطوح والمآذن ، ويبكونه يوم الجمعة اليتيمة أحر بكاء .

قصفت المدافع المصرية فى كل محافظة وفى كل مديرية فى لحظة واحدة

---

(١) رؤية هلال شهر رمضان ، ولها احتفال تقليدى معروف

وعلى فترات محددة ، فافتر البشر على الشفاه ، وجرت التهنئات على الألسن ، واستولى على المنصورة شعور نقى هادىء خاشع لا يصدر عنه الا الكلم الطيب والعمل الصالح . وشهر رمضان يرجع المسلم الصادق نقياً كقطرة المزن ، طاهراً كفطرة الوليد ، لاينغمس فى منكر ، ولا يخف إلى شر ، ولا يلغو فى حديث ، ولا يبغى فى خصومة . ومن ذلك كان كل حى سعيداً فى رمضان ، ماعدا الرومى (١) والشيطان !

كان فى كل طلقة من طلقات المدفع المبشر تنبيه إلى فضيلة من فضائل الصوم فالمؤمن حين دوّى فى سمعه صوت البارود تيقظت فى نفسه وازع الخير ، ففكر فى توثيق ما وهن بين القلب والدين ، وتقريب مابعد بين الغنى والمسكين ، وتأليف مانفر من القلوب المطمئنة ، ووصل ما انقطع من الأرحام الشابكة ، ولكنه وا أسفاه لم ير فى هذا العام المآذن تتلألأ فى أجيادها قلائد النور ، ولا فوانيس الأطفال تخفق شموعها فى الشوارع والدور ، فتذكر أن هناك على ساحل البحر الأبيض وشواطىء بحر المانش مدافع غير هذه المدافع ، تنطلق لتطفىء كل نور ، وتظلم كل قلب ، وتخرب كل عامر ، وتقتل كل حى ، وتقطع كل سبب ، وتغشى أجواء السماء بدخان من البوار والدمار لايقوم تحته قائم ولا ينسم فيه حى !

ليت الذى حوّل لوثر هتلر ، ومسخ فى هتلر الإنسانية نازية ، جعل فى كل ركن من هذا الجحيم الأور بى رمضان بحكمته وطبيعته وعقيدته ! إذن لكان كل مدفع للسلام ، وكل مصنع للخير ، وكل مخترَع للحياة ، وكل مورد للناس ! « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولكن لا يزالون مختلفين إلا من

---

(١) الرومى لايكون سعيداً فى رمضان لأن الناس يصومون فيه عن الخمر ، والأروام أصحاب الحانات فى مصر .

رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ! » .

إن الفرق بين مدافع رمضان ومدافع هتلر ، كالفرق بين القرآن و (كفاحى)[١] كتاب الله دستور الخالق لجميع خلقه ، فهو خير مطلق وأمن شامل ، وكتاب هتلر نزغ من الشيطان للألمان ، فهو شر محض ونزع دائم . فأنا حين أسمع مدفع شهر رمضان فى الغروب أو فى السحر ، أعتقد أن جياعاً سينالون القوت ، وضُلالاً سيجدون المثوى ، وجوارح ستكف عن اجتراح الإثم ، ونفوساً سترتاض على مكاره الفضيلة ، وأمماً فى جميع بقاع الأرض سيغمرهم الشعور السامى الجميل بأنهم يسيرون إلى غاية الوجود قافلة واحدة ، ممتزجة الروح متحدة العقيدة متفقة الفكرة متشابهة النظام متماثلة المعيشة .

وأنا حين أتصور مدافع هتلر أعتقد أن كتائب من الشباب الغريض قد صهرتهم النار فهم حمم على وجه الماء ، أو مزقتهم الشظايا فهم مِزَق على أديم الثرى ؛ وأن آلافاً من الدور الأنيسة قد نبت مراقدها فهى حبوس ، وخمدت مواقدها فهى رموس ، ثم دكتها القنابل فهى أنقاض على أشلاء ، أو أحرقتها الصواعق فهى غسلين على فحم ؛ وأن ملايين من الأطفال قد حرموا عطف الأب وحنان الأم ، فهم يعانون فى مطارح الغربة غصص الحرمان ومرارة اليتم ؛ وأن ألوفاً من الأيامى والثكالى أصبحن بغير عائل ولا مأوى ولا أمل ، فهن يمشين فى ثيابهن السود بين الأطلال والخرائب كأنهن الأطياف الحزينة تجوس فى الليل خلال المقابر ؛ وأن ملايين من العمال والصناع أدركهم التعطل وقعد بهم الكساد فظلوا يكابدون حسرة الحاجة

---

(١) كفاحى كتاب ألفه هتلر ذكر فيه خطته وسياسته .

فى أنفسهم ولوعة الهم فى أهليهم ، وباتوا يضطربون بين البؤس واليأس اضطراب القنيص لايجدون مخلصاً للحياة ولا للموت .

إن الحرب فى تاريخ الديمقراطية الإسلامية لم توقد نارها إلا دعاء إلى سبيل الله ، أو ابتغاء لخير الناس ، أو ذياداً عن سلامة الوطن ؛ أما أن تنهب الممالك لأنك تريد أن تأكل ، وتسحق الشعوب لأنك تريد أن تنتقم ، وتخضع الدول لأنك تريد أن تسود ، فذلك ماضي البربرية الحمراء ، وحاضر الطغيان الأسود !

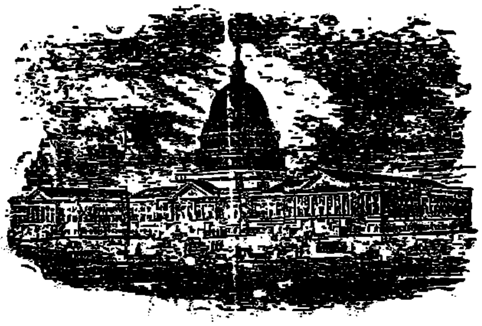

في مخبأ الفيشاوي

(٢٨ أكتوبر سنة ١٩٤٠)

جلستُ أنا وصديقي شاعر الجندول في قهوة « الفيشاوي » عشية يوم الأحد الماضي نتحسى أقداح الشاي العنبري الهنيء ، بعد إفطار من طهو رمضان الدسم المريء ؛ وكان الظلام قد هب يتموج لطيفاً بين المصابيح الزرق كأنه ظلام الأجنحة الخفاقة في جو بنفسجي قاتم ؛ والحركات الهامدة والأصوات الخاشعة قد أخذت تتخلص رويداً رويداً من فترة الصيام وسكرة الطعام ، فهي تنتعش في البيوت ، وتنتشر في الشوارع ، ويقبل الناس على المقاهي فيلقون ثقل بطونهم على مقاعدها ليعالجوها بالأفاويه المنبهة والأشربة الهاضمة . وكان صديقي الشاعر قد طفق بعد أن شرب شايه يكركر في شيشته الأعجمية وقد امحى من خياله السباح جندول البندقية وخمرة الرين وبحيرة كومو ، فلم يعد يشعر إلا بعطر الشرق وسحر الشرق ونور الشرق . وتراءت له من خلال ما يجلوه الحي (الحسيني) على عينيه من مختلف الأجناس والألوان والصور ، بقايا الملك الإسلامي المعظم ، ودلائل المجد العربي الخالد ، فلم يتمالك أن قال في لهجة تنم على الأسى والأسف :

— ياضيعة الشعر ويا ضلَّة الشاعر إذا لم يُسجِّل هذا الملك في ديوان ، ويخلد هذا المجد في ملحمة !

وكان شعوري في تلك اللحظة يجري مع شعوره من غير تنبيه ولا توجيه ، فقلت له على الفور :

— لو أن شعراءنا في الماضي والحاضر قد خلصوا كما خلصت أنت الساعة

من أنانية الفكر وفردية الشعور لوجدوا فى حضارتنا الزاخرة وتاريخنا الحافل أفانين عجيبة من الشعر القصصى توحد شتات الهوى وتكمل نقص الأدب؛ ولكنهم كانوا وما زالوا ينقلون عن ذاتية غالبة وطبع أثر فالقصيدة عواطف الشاعر لا تكاد تخرج عن دخائل نفسه ومدارج حسه ، والأغنية لواعج لمغنى فلا تعبر عن المعانى العامة ولا تهتف بالأمانى المشتركة . ولعل (ملاحك التائه) يرسيه القدر الهادى على شطئان الشرق الجميلة فيقبس من شمسها نور إيمانه وأمانه ، و يأخذ عن إلهامها سحر أوزانه وألحانه !

* * *

غصت القهوة على عادتها فى ليالى شهر رمضان بالسامرين من كل لون ومن كل طبقة ، وكان القمر يضرب بأشعته الباردة الرخية فى ضوء المصابيح الداخلية فيشمشه ويقويه ، والمذياع على جدار القهوة ينقل الأغانى المسؤومة فى فرقعة وصخب ، والجالسون يتجادلون فى السياسة أو يتحدثون فى الأدب ، والسقاة يذهبون و يجيئون وألسنتهم لا تفتر عن ترديد هذه الجمل « واحد كشرى مضبوط . . فلوسك يا محمود . . . أيوه حاضر . . . ولْعَة لمين ؟ . . . واحد سادة ، مستوى ز يادة . . . »

وعلى حين فجأة سكت المذياع وانطلقت صفارات الإنذار تردد نعيبها المتقطع ، فأطفىء النور ، وأخذت الناسَ زلزلة من الفزع ، فنهضوا وتجمعوا ودخل بعضهم فى بعض كما تتداخل خراف القطيع إذا دهمتها العاصفة ثم تدافعوا متدفقين فى داخل القهوة وهى قبو مظلم مسلوك تحت بيت ضخم من البيوت القديمة وعلى جانبى هذا القبو حجرات ضيقة من غير أبواب للخلوة أو للعب . فدخلت أنا وصديقى إحداها فوجدنا فيها شيخاً هادئاً يكركر ، وشاباً

مضطرب بما يثرثر ، وآخرون قد ألجمهم الذعر فهم فى وجوم ذاهل . ثم أنصت الناس ونظروا، فلم يسمعوا رعداً يقعقع ، ولم يروا برقاً يلعلع ، فتساير عنهم الخوف ، وتذكروا أن القدر لامفر منه ، وأن القضاء لا حيلة فيه ؛ فأخذوا يتنادرون على الصفارات والغارات ، ويجددون ما أريق من الأكواب وأطفئ من الشيشات . والمصرى أربط الناس جأشاً فى الخطوب متى زايلته بوادر الجزع ؛ لأن إذ عانه لقضاء الله يكسر حدتها عنه ، وأخذه المكاره بالمزاح يضعف أثرها فيه . وهو فى ذلك كالانجليزى ، إلا أن ثبات المصرى يرجع إلى حرارة يقينه ، وثبات الإنجليزى يرجع إلى برودة طبعه : هذا يبلد ثم يجلد ، وذاك يتفرق ثم يتماسك

* * *

ليت الذى صبغ وجوه المصابيح باللون الأزرق[1] استطاع أن يصبغ به وجه القمر ! لقد كان أجدادنا القرويون يقولون : « لم يبق من ليالى الهناء غير ليالى البدر » . فهل يصح هذا القول إذا قلناه اليوم ؟ إن بزوغ القمر أمسى نذيراً بالغارة ، ودليلاً للجارة إلى قتل الجارة . . فمن يزعم الآن أن الليل لا يزال لباساً، وأن الناس لا يزالون ناساً ، فقد جهل أن العالم الحاضر يسوسه الشياطين ، فهو يرتكس ليسقط ، وينتكس ليموت !

قال لى صاحبى وقد أعلنت الصفارة بصوتها المتصل زوال الغارة الأولى :

قم بنا نتلمس الطريق إلى مكان آخر نتنفس فيه من كربة الحر والحرب .

فقلت له وأنا أحبسه على كرسيه : هنا يا صديقى مخبأ هيأته لنا وقاية الله ، فإذا تركناه وأدركتنا غارة أخرى فأين نختبئ ؟

---

(١) صبغت المصابيح العامة باللون الأزرق فى زمن الحرب تعمية للطائرات المغيرة

— ليس فى القاهرة ولا فى غير القاهرة مخبأ حصين يعرفه الجالس فى بيته أو السائر فى طريقه . ولا أدرى أى ضرب من ضروب الغفلة أطبق على مصلحة الوقاية المدنية فلم تقم بإنشاء المخابىء الصالحة على وضعها الصحيح ! هل أخذوا على الدهر عهداً بالأمان ، أم حسبوا أن بضعة أخاديد فى أمكنة متباعدة مجهولة تعصم سكان القاهرة وهم فى المنازل أو فى الطرق من شظايا القنابل ؟

ليس من صالح الرأى ياصديقى أن تجهز قصور السراة ودور الحكومة بالمخابىء المسلحة المريحة ، ثم يقال للشعب المسكين تبرع بالقرش لنشق لك لحودا فى ظاهرها الخام المنقض ، وفى باطنها الزحام المهلك !

فقال لى الشاعر وهو يتمكن فى مجلسه : إن سياسة (الملاح التائه) لا تزال هى سياسة الحكومة فى كل أمر . فاسأل الله وحده أن يجعل لهذه الأمة مرفأ فى كل عاصفة ، وملجأ من كل غارة !

أمة التوحيد تتحد

١١ نوفمبر سنة ١٩٤٠

قالت الأهرام فى عدد يوم الجمعة الماضى : « إن هناك بحثاً يدور الآن فى بعض الدوائر العربية حول تكوين حلف عربى يواجه به العرب الظروف الحاضرة التى يجتازها العالم اليوم . والمفهوم أنه إذا انتهى هذا البحث التمهيدى فستدعى الحكومة المصرية رسمياً إلى الاشتراك فيه . أما الدول التى يشملها هذا الحلف فهى : مصر وسورية وفلسطين والعراق والحجاز ؛ وقد يتسع نطاقه فيشمل إيران وأفغانستان »

هذا التفكير على أى شكل كان يدل على تيقظ الروح الماجد فى الجسم العربى ، ويبشر بتجمع القوى الشتيتة فى أعضائه ، ويطمئن قلوب الأحرار الأبرار الذين تتفارظهم الهموم[1] على متسقبل العرب والإسلام والشرق وكان من أعجب العجب أن يرى العالم العربى الخطوب تتواثب على جوانبه ، والنوازل تتفاقم فى أحشائه ، ثم تظل كل دولة من دوله سادرة فى مشاعب هواها ، تتلهى بالنظر الغرير إلى حركات زعمائها وهم يتصارعون على المناصب ويتنازعون على الحكم ، كأن السلامة والسلام أمران يجريان من حياتها مجرى الأمور الطبيعية كالنوم واللذة والضحك ، فهى لا تشغل بهما البال ولا تدير عليهما الفكر !

وقد قلنا منذ عام حين تحلبت أشداق النازية على حدود الدول الصغيرة :

---

(١) تفارطته الهموم أصابته فى الفرط أى الحين ، وقيل تسابقت اليه

إن الدويلات الضعيفة كان لها فيما مضى من الزمن السعيد حارس من سلطان الدين وحكم القانون وعرف السياسة ؛ فكانت تعيش فى ظلال الخلق الإنسانى العام حرة آمنة ، لا تجد من جارتها الكبرى إلا ما يجده الصغير من عطف الكبير ، والفقير من عون الغنى . فلما كفر النازيون والفاشيون بشرائع الله وقوانين الناس أخذوا العالم بسياسة السمك ، ففسد النظام ، واختل التوازن ، واضطربت الحياة ، وذل الحق ، وأفلس المنطق . فليس لها اليوم من عاصم إلا أن تنضوى إلى الديمقراطية التى تجاهد فى سبيل السلام والحرية والمدنية بجانب جهادها فى سبيل نفسها ، حتى إذا انتصرت على هذا الطغيان المسلح الكافر نظرت هى فى يومها وفى غدها ، فتعالج ضعفها بما تعالج به الطبيعة ضعف النمل والنحل والقرود ، وهو التجمع والتعاون ، فيكون بين البلاد المتجاورة كشعوب الإسلام الأربعة عشر شبهُ ما بين الولايات الأمريكية الثمانى والأربعين : من اتحاد السياسة الخارجية ، والدفاع العام ، والدستور المشرع ، والرئيس الحاكم . وإذن لا يبقى على الأرض أمة صغيرة يقوم على استعمارها النزاع ويميل من جراها ميزان السلامة

* * *

إن من يستمع إلى الإذاعة العربية من بلاد المحور يرتعد فرقاً من هذا الإخلاص الإيطالى للاسلام ، وذلك العطف الألمانى على العرب . ومن شقاء العقل أن نحمله على أن يسيغ هذه الدعاية الغريبة التى اتخذت وا أسفاه ألسنتها من بعض العرب الذين فتنهم المال الغرور لتقول : إن فيالق (الدنشى) وكتائب (الفوهرر)[1] لم تحشد فى صحراء مصر وجبال البلقان إلا لتنقذ العرب والمسلمين من

(١) الدنشى لقب موسولينى ، والفوهرر لقب هتلر

عذاب الديمقراطية البريطانية !

ليت شعرى من الذى حملهم هذه الرسالة وأوجب عليهم هذه التضحية ؟ لسنا إخوتهم فى الجنس ولا فى العقيدة ولا فى المنفعة حتى يكون لما يبذلون فى سبيلنا من الأموال والأنفس مسوغ ولسنا من السذاجة والغفلة بمكان القطيع الذى خاف الذئب الجائع الطامع على الكلب الحارس الأمين . إنما نحن شعب مختار حكم العالم فى ماضيه ، وتمرس بالشدائد فى حاضره ؛ فله من بصيرته الموروثة نفاذ إلى صميم الخديعة ، ومن تجاربه الأليمة سداد فى مزالق الفتنة ؛ فلا نجهل أننا نحن الغنيمة التى يحتربون عليها ، والطعمة التى يختصمون فيها . وكلما أرسلوا الأمواج من مذابيع (بارى) و(برلين) تحمل إلينا منهم الشوق المبرح والحدب الشـــديد ، تضاممنا من القزع ليتقى بعضنا ببعض سهام كيو بيد[1] الأثيرية

هذا التضامُ هو التكتل الذى يصير إلى الوحدة والوحدة التى يقتضيها الدفاع عن النفس ويدعو إليها الخوف ، أوثق وأصدق من الوحدة التى يوجبها النزوع إلى الأنس ويبعث عليها الأمن .

لقد كان العرب والمسلمون فيما غبر متواكلين متخاذلين ، لأنهم كانوا وهم على هذه الحال يستطيعون فى حمى الديمقراطية السمحة أن يعيشوا بوجه من الوجوه ، ولكن ماذا عساهم يصنعون وهذه الدكتاتورية الباغية تزحف شعبتاها إلى الشرق عن طريقين مختلفين : شعبة تبغى استغلال البلاد لأنها بطبيعة أرضها فقيرة[2] ، وشعبة تريد استعباد الناس لأنها بطبيعة عنصرها على زعمها سيدة[3] وإذا دهمك من اليمين ومن الشمال الجائع السلاب والمتكبر

---

(١) كيوبيد أو كوبيدون : إله الحب عند الرومان (٢) أريد إيطاليا

(٣) أريد ألمانيا

الغلاب فقدت وجودك المادى والأدبى بين السلب والغَلْب ! ثم لا تدرى أى شىء تكون بعد ذلك !

فاتحاد الأمم العربية أمام هذا الخطر الهاجم ضرورة خلقتها غريزة حب الحياة . وفى اعتقادى أن الأمر فى هذا الاتحاد لن يقف عند مناقشة الفكرة ومواضعة الرأى ، ولكنه سيتعداها إلى إمضاء العزيمة وإنجاز العمل . ذلك لأن كل أمة من هذه الأمم تشعر فى وسط هذه الكوارث الداجية بما تشعر به الشاة الشاردة عن القطيع وإن أسهل على الطبيعة أن تعيد اتحاداً ألفه الله من صلة الدم ونسب الروح ، من أن تبدىء اتحاداً ألفه الشيطان من النازية والفاشية والوثنية ، فإن هذه النحل المجرمة أضداد تنسجم فى الباطل وتتنافر فى الحق ، ولا بد أن يدركها داء البغى فتخر ضارعة صريعة أمام قوى الخير والعدل ولو بعد حين !

انجلترا هي المثل

(٢٥ نوفبر سنة ١٩٤٠)

قال شوقي : « و إنما الأمم الأخلاق ما بقيت » . . فقال تشرشل : صدق ، وانجلترا هي المثل ! وكأنه حين قال : « فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا » قال بيتان : صدق ، وفرنسا هي المثل !

ولكن الذي يضع القاعدة بالقول لا يستوى هو ومن يطبقها بالفعل - وشتان بين من يطبقها على وجه السلب ، و بين من يطبقها على وجه الإيجاب !

إن تحريك اللسان في الفم أسهل على المرء من تقليب اليد في العمل . و إن رجل التجربة والخبرة ، أصلح للحياة من رجل النظر والفكرة و إن تنشئة الفرد على حب الفضيلة أدخل في إمكان المربي من بناء الأمة على أساس الخلق . . . ذلك لأن تهذيب النفس عمل البيئة والقدوة والعادة ، وتهذيب الجنس أثر الانتخاب الطبيعي والدهر الطويل . ومن الكثير الغالب أن تجد واحداً تصلح فيه كل غريزة ، ولكن من القليل النادر أن تجد شعباً يصلح فيه كل واحد . ولعلك لا تجد في عمر الإنسانية شعباً سلم جَمْعُهُ بسلامة آحاده غير الشعب العربي في الماضي والشعب الإنجليزي في الحاضر ومرجع ذلك فيما نظن إلى انعزال العرب في الصحراء ، وانعزال الإنجليز في البحر والعزلة في مثل هذه الحال تنفي خَبث الاختلاط عن مزايا العنصر الأصيلة فتنضج وتخلص كما ينضج الدر اليتيم في قاع البحر ، ويخلص الحجر الكريم في جوف الأرض . فلما خرج العرب للفتح ، ثم خرج الإنجليز للاستعمار ، ضيع

بنو الصحراء خصيصتهم لأنهم اماعوا فى الشعوب الأخرى بالمصاهرة ، وحفظ بنو الماء مزيتهم لأنهم انقبضوا عن الناس وترفعوا عن الأجناس فظلوا فى عزلة .

كان الناس يقولون إن انجلترا أدركتها أعراض الهرم من دوام النعيم وطول السلامة ، ويعجبون مع ذلك أن تملك سدس العالم وتستمكن فيه والإنجليز فى كل أرض قلة ، ووسائلهم فى تملق القلوب ومداهنة النفوس قاصرة ، والتمويه والخداع والاستغفال والمصادفة والحظ عوامل قد تساعد على الغلب ، ولكن فعلها لا يجوز على كل النـــاس ولا يدوم على طول الزمن ، فلم يبق إلا أن يكون فى هذا الشعب العجيب سر من أسرار الطبيعة تنبجس عنه حياته الدقاقة الخلاقة كما تنبجس الحيوات الدنيوية بمظاهرها وآثارها عن الروح المجهول .

فلما أخذت العالَم هــذه الرجفةُ النازية ووقفت انجلترا بقوتها وسطوتها وثروتها ووجودها فى سعير المحنة ، استعلن فى حلك الخطوب ذلك السر فإذا هو الخلق ، ولا شيء غير الخلق ولم تسفر الأيام عن أصدق من هذا المثل الإنجليزى الحاضر لقدرة الخلق العظيم على حياطة الدولة ووقاية الأمة وخلق المعجزة التى تحيل القنوط أملاً والضعف قوة

كانت أوربا فى العـــام المنصرم من طول ما هوّلت عليها الهتلرية الباغية قد وقفت صفوفاً متلاصقة متلاحقة من الشباب والحديد والنار ترابط على الحدود لشياطين الصليب الأعقف[1] ؛ وكانت انجلترا من وراء البحر تمدها بالمال والرجال والأسلحة لا تدخر لجزرها شيئاً منها ، ولا تــكاد تخطر على بالها أن العدو سيجد من بين هــذه الصفوف المرصوصة ثغرة يقتحمها ليرميها عنها . ولــكن هتلر هجم

---

(١) الصليب الأعقف : شعار ألمانيا النازية

على أخلاق أوربا قبل أن يهجم على جيوشها ؛ فهتك أستار الدول بالجواسيس ، وبلبل عقائد الناس بالدعاية ، وشرى ضمائر الساسة بالمنى ، وبث فى دخيلة كل أمة دعاة الهزيمة وسماسرة النفاق يزيفون الوطنية فى كل نفس ، ويميتون الحمية فى كل رأس ، حتى تركوا القوم تماثيل من غير خلق ولا روح ثم ارسلوا على هيا كلهم النخرة الجوفاء الدبابات كما ترسل على هشيم الحنطة آلة الحصاد فلم تك إلا أيام تضيق عن فناء القطيع بالوباء السريع ، حتى استكان الضعيف ، واستخذى القوى ، وانبسط ظلام النازية على ممالك كانت بالأمس مسارح للسلطان والمجد ، فأصبحت اليوم سجوناً للأحياء وقبوراً للموتى . ووقفت انجلترا وحدها أمام أوربا الضارعة المصروعة ، وقد فرغ لها الطاغيتان وسلطا عليها فى الغرب والشرق وفى الجو والبحر كل ما ادخراه وأرصداه من آلات الدمار والبوار فى بضع سنين .

كانت خطتها فى الدفاع قائمة فى أكثر ميادين البر على عاتق فرنسا ، فلما وهى هذا العاتق وانحل سقطت هذه الخطة على خلاء . فكان على انجلترا بعد نكبة جيشها فى الشمال وانهيار حليفتها المفاجىء أن تجدد العدة وتسد الخلل وتدفع الموت الهاجم على أراضيها و بنيها من الجهات الأربع ، وكل ذلك كان يقتضى أن يكون لها فى كل أرض جيش ، وفى كل بحر أسطول ، وفى كل سماء أسراب . فلو أنها استجابت لهذه الجدود العواثر ونكلت نكول فرنسا لما خالف ذلك منطق الحوادث

ولكن هنا ظهرت المعجزة وما المعجزة إلا خُلق هذا الشعب المختار ! تجرد هذا الشعب من فرديته ، ونزل عن حريته وثروته ، وجعل ملكه وجهده وروحه فى يد تشرشل ينفقها حيث يشاء وكيف يشاء . وانكب هو على العمل

الدائب ليل نهار ، لا تعوّقه الأخطار ولا تضعضعه الكوارث ، حتى رأيناه فى أقل من خمسة أشهر يفسد عَلَى الفوهرر خطة الغزو ، ويفوّت على الدتشى فرصة الهجوم ، ويشد على أنفاس أوربا بالحصر ، ويلجىء الطغاة العتاة إلى استجداء المعونة من الأقل ، وابتغاء النصرة من الأذل ! ذلك ولم نسمع خلال هذا الصراع الجبار وذلك الخطر المؤنس أن جنديًا عبث ، أو قائداً خان ، أو وزيراً غش ، أوحزباً نفس على حزب ما نسميه نحن نعمة الحكم

إن الله أمدّ الإنجليز بجيوش لا تقهر من الصدق والصبر والثقة بالنفس والإيمان بالحرية والديمقراطية والأمبراطورية

فياليتنا حين حالفناهم على السياسة والدفاع ، حالفناهم كذلك على الآداب والخلق ! لقد كنا بأخلاق القرآن قدوة للأقوياء ، فأصبحنا وأسلافنا بضلالات الأذهان عبرة للضعفاء

الأخلاق وهذه الحرب

(٩ ديسمبر سنة ١٩٤٠)

جلست ساعة إلى المذياع أقلب مفاتحه على أفواه المذيعين المختلفين فى أقطار أوربا المجنونة ، فخيل إلى أنى انتقلت إلى عالم آخر من خلق الشيطان تقطعت بينه و بين خلق الله وشائج الآدمية ؛ فلا الأيدى تستند فى أفعالها إلى العدل ، ولا الألسن تعتمد فى أقوالها على الحق ، ولا النيات تتجه فى غاياتها إلى الخير ؛ و إنما هو زياط وعياط[1] من الأضاليل السود والأراجيف الحق والأفاعيل النكر يحملها الأثير إلى النفوس الآمنة الرخوة فترتاع ، و إلى القلوب المؤمنة الساذجة فتشك ، و إلى العقول الراجحة الوزينة فتدهش .

ر باه ! ماذا جرى لأور با العاملة المتمدنة حتى انقلب كل كلامها كذباً لا يستحى ، وكل سياستها خداعاً لا يستتر ، وكل قتالها تدميراً غاشماً أهوج لا يفرق بين المحارب والمسالم ، ولا بين الشاكى والأعزل ، ولا بين الرجل والطفل ، ولا بين الحصن والكنيسة ؟

كانت الحرب فى العصور الخوالى نظاماً من البطولة الإنسانية له سننه وآدابه وعرفه : لا يقاتل القوىّ من ضعف أو قل ، ولا ينازل الكمى من هان أو ذل ، ولا يطعن الفارس خصمه طعنة الغدر ، ولا يعطى المتعهد من ذمته عهداً إلا جعل من ورائه دمه وماله . ثم دخلت الحروب فى سلطان الدين فنظمها بقيوده وحدوده تنظيمه للشر الذى لا بد منه ، حتى غدت سلاحاً من أسلحة

---

(١) الزياط : اختلاف الأصوات . والعياط الجلبة والصياح

الحق يظهر بها على الباطل . ثم انشعب من نظامها المهذب أنظمة أخرى كالفروسية والفتوة والمرابطة والكشف وما يدخل فى بابها مما يقوم على المروءة والشهامة والشجاعة والإيثار والوفاء والعفة وجرت المدنية الحديثة فى تنظيم الحرب على سنن الدين والخلق فكفكفت طغيانها بالقوانين ، وفللت عدوانها بالعهود ، ووقفتها لدى الحدود التى رسمتها الطبيعة للدفاع المشروع والجهاد المقدس

وفى الوقت الذى طمحت فيه الإنسانية الأوربية إلى قطع أسباب الحرب بالمجالس التحكيمية والمحاكم الدولية والعصبة الأممية ، انبعث من ركنين متجاورين من أركان التمدن الحديث مسيخان دجالان فاستوحيا الشيطان دينين جديدين يجعلان الآخرة للدنيا ، والأمة للفرد ، والعقل للهوى ، والعلم للشر ، والحضارة للدمار ، والحياة للموت ثم خرجت هاتان النحلتان من الكهوف والمواخير وانتشرتا فى أجواء برلين وروما انتشار الظلام المضل والغاز الخانق فعميت عيون كانت ترى ، وغبيت قلوب كانت تفقه ، ورمت النازية والفاشية جوانب الأرض وخوافق السماء بالموت الوحيِّ فى شتى أشكاله وأهواله ، حتى أصبح أكثر أوربا الجميلة خليطاً من الأنقاض والأشلاء ، ومزيجا من الدموع والدماء وأشد ما أصاب العالم من هذه الحرب الغشوم ضياع ما ورثته المدنية من حُر الخلال وكريم الأخلاق ، فإنها القبس الإلهى فى الإنسان تصدر عنه الألفة والثقة والاطمئنان فيكون لكل كلام معناه ولكل عقد أثره . ومن المستطاع تجديد ما دُكَّ من البيوت وأغرق من السفن ، وتعويض ما زهق من الأنفس وأنفق من الأموال ؛ ولكن تجديد ما انهار من البناء الأخلاقى وهو عمل الأديان المختلفة والحضارات المتعاقبة على كر الدهور أمرا لا تتعلق به طاقة المخلوق .

افتح المذياع على أبواق الدعايات الأوربية واصبر نفسك على مكاره الفجور قليلاً تسمع الأعاجيب من فحش الكذب وسوء البغي . هذا يتبجح بما أحرق وأغرق ، وذاك يتمدح بما راع وأجاع ، وذلك يفيش بما أسر وقتل وكل أمة إنما تبدأ الكلام وتختمه بلعن أختها ورميها بما تبرأ هي منه من التزيد والافتراء والخور والدس واستغلال الضعف فى الشعوب الصغيرة وكل شيء تسمعه من المذياع إلا الصدق والحق والرحمة . ومن كلال الحس و بلادة الضمير أن يصك المذيع مسمعيك بأخبار الدمار والبوار فى كل أمة وفى كل مدينة وفى كل أسرة وفى كل نفس ، ثم يرسل إليك فى خلال ذلك أفاكيه الغناء وأفانين الموسيقى ؛ كأنما فناء الشباب وثكل الوالدين وحرمان اليتامى وشقاء الأيامى وخراب الأرض أصبحت من توافه الأمور التى لا تنبه الوجدان ولا تمس القلب !

من كان يصدق قبل انهيار الأخلاق فى الأمم الدكتاتورية أن روسيا تحارب بولونيا وفلندة ، وألمانيا تهاجم بلجيكا وهولندة ، وإيطاليا تغزو ألبانيا واليونان ، وكل أمة من هذه الأمم الثلاث تستطيع أن تحشد من الجنود ما يزيد على عدد السكان فى كل فريسة من فرائسها الست !

* * *

إن الدكتاتورية تدير هذه الحرب على غير قانون ولا خُلق ومن الصعب على العقل السليم أن يفرض القانون والخلق فيما يعقب هذه الحرب من سلم و يقوم عليها من نظام و إذا كانت الأخطاء لا يتألف من مجموعها صواب ، والآثام لا تنشأ من جملتها براءة ، و الأباطيل لا ينتج من تعددها حق ، فإن نزو(١) النازية

---

(١) النزو : الوثوب

وفياش [1] الفاشية لا يمكن أن يؤديا إلى عدل شامل وسلام دائم ولا يزال في الديمقراطية المجاهدة رجاء الحق المضاع والخلق الصريع ؛ لأن السلطان القائم على دستور الحق ، يساعد عليَّ الانتصاف لنفسك منه بمنطق الحق والنصر مكفول للديمقراطية لا ريب فيه ، فإن الديمقراطية هي الصحة التي انتهى إليها جسم الإنسانية العليل أما الطغيان والبربرية فهما نكسة المرض ، والنكسة خلل عارض لا يلبث بحسن علاج الطبيب وصدق إيمان المريض أن يزول .

(١) الفياش : كثرة الوعيد في القتال من غير فعل

خواطر مريض

(٢٠ يناير سنة ١٩٤١)

عقدنى « الروماتزم » شهراً بالسرير لا أتورك ولا أتحرك وكانت دنياى فى هذه الفترة الفاترة قد انحصرت فى غرفة المرض كما تنحصر دنيا الطائر السباح فى القفص ، أو حياة الخاطر الطماح فى السجن فالنشاط الحيوى الجياش بالعمل والأمل ينقلب فى المريض والسجين نوعاً من الهدوء الفلسفى الصوفى ، يردّ كل ثورة إلى السكون ، ويروض كل رغبة عَلَى الرضا ، ويزيل عن البصر والقلب غشوات الباطل ، فيرى المرء كل شىء عَلَى طبيعته ، ويدرك كل معنى عَلَى حقيقته .

أين القفص الضيق الحاصر من جو السماء يسبح فيه الطائر ملء جناحيه . فيرى فى كل دوحة عشا لحبه ، وفى كل روضة مسرحاً لغنائه ؟ ولكن البلبل الأسير يعرف بعد قليل كيف يطوى جناحيه على الصبر ، ويختصر سماءه وهواءه وأرضه وروضه فى هذه الأسلاك المعدنية الباردة يغرد بينها ويثب فوقها ويستقبل الصباح بمرح النشوان ، والمساء بهدوء الخلى .

وأين السجن الموحش المظلم من رقعة الأرض يضرب فيها المغامر طليق العنان حر الإرادة ، يفترس مع القوة ، ويختلس مع الضعف ، ويجمع فيشح ، ويطمع فيهتلك ؛ ولكن (أشعب) السجين يعرف كيف يرد طماحه ، فيرى فى جدران السجن حدود مطامعه وغاية دنياه ، فيسخر من كيد المنافسة وبغى الخصومة ، ويخطو بأنفاسه الرخية إلى أجله وهو زهيد العين مطمئن الجوانح

كذلك أنا : وجدتُنى بعد معركة رابحة على أمر من أمور الدنيا دارت ثلاثة أشهر بين العجز والفقر يقودهما الحق المعيوب فى صف ، و بين القدرة والغنى يؤيدهما الباطل الجرىء فى صف آخر . و جدتنى بعد هذا الجهاد المجهد على سر يرى كما يكون الميت فى نعشه ! غير أن الميت فقد الحس والوعى فلا يتألم ولا يتكلم ؛ أما أنا فكنت قوى الشعور بالألم ، شديد الرغبة فى الكلام ، أبصر فى كل صباح حواجبَ الشمس تنفذ إلى من خلال الزجاج رخية لينة ، فتغمرنى بالدفء وتشيع فىّ سر الحياة ، وتسكت عنى صوت المرض ، ثم تتركنى لتعطى الدنيا الكبيرة ، ما أعطته دنياى الصغيرة ، وأظل أنا محدود الآمال ، مردود المطامع ، لا يصلنى بحياة الناس غير طنف مقابل تتمثل عليه طول النهار صباحة الشباب فى أفواف الربيع والشباب الجميل لا يعنيه إلا أن يعجب و يجذب و يلذ .

تلك هى حياتنا الدنيا ! أراها من وراء المرض على لونها الأصيل ووضعها الحق : ظاهرةٌ متغيرة من ظواهر الطبيعة المتجددة مثلها فى الإنسان كمثلها فى الحيوان ، تعيش بالغذاء لى أمد مأمود ، وتبقى بحفظ النوع إلى أبد محدود . ولو لم يتدخل الإنسان بعقله وعلمه فى نظم الطبيعة لجرى تيار الحياة دفاقاً مستقيما فى مجراه المرسوم المحتوم كما يجرى فى النبات الوحشى والحيوان الآبد ولكن آدم جعله الله خليفة فى الأرض فلا بد أن يكون كل ما فيها خاضعاً لتدبيره مسخراً بأمره . وكان أمره وتدبيره على الرغم من اعتداده فيهما على دين الله وفلسفة العقل لا يخلصان من سلطان الهوى وطغيان الغريزة ، ومن أجل ذلك كانت حياة الإنسان وحدها عرضة للتعقد والارتباك والتناقض .

ومن أعجب أمور الإنسان أنه هو وحده الذى فطن عن طريق العيان

والبرهان أن حياته على هذا الكوكب الفانى موقوتة ، ومع ذلك كان هو وحده الذى استعمر هذه الأرض على أنه باق وهى خالدة ؛ فهو يكدح حتى ما يعرف طعم الراحة ، ويجمع حتى ما يدرى معنى الإنفاق ، ويسلب أخاه أو وديده حق الحياة ونعمة السلام ليزيد فى ماله الضخم قطعة ، أو يضم إلى أرضه العريضة رقعة. وقد سول له غروره أن يتبجح بأنه سخر الطبيعة لخدمته ، وذلل قواها لمشيئته. والحق الذى طمسته الكبرياء فى ذهنه أن نوعه هو الوحيد فى أنواع الحيوان الذى استخدمته الطبيعة ليعمرها بعمله ، وينظمها بعلمه ، ويزخرفها بفنه ، ويهيئ لها أسباب الازدهار والاستمرار والنمو بما يبتكر من وسائل ، ويسن من نظم ، ويؤثل من مال ، ويدخر من رزق.

والطبيعة كما تستخدم الإنسان فى البناء لاطراد العمران ، تستخدمه فى الهدم لحفظ التوازن فهى تستعين بحروبه الطاحنة كما تستعين بالبركان والفيضان والموتان على قطع الفاسد ، وحذف الزائد ، وتجديد البالى ، وتعديل القوى ، وكفكفة الباطل.

هؤلاء الذين يجمعون مالا ينفقون ، ويبنون مالا يسكنون ، ويدخرون مالا يأكلون ، وأولئك الذين زعموا لقومهم سيادة العالم ، وأجازوا لأنفسهم قتل الشعوب ، ووقفوا على شهواتهم طيبات الأرض ، قد استغلتهم إرادة الطبيعة القهارة التى لا تعرف اليوم ولا المكان ولا الفرد ، وإنما تعمل للأبد والكون والجنس.

والغذاء والماء والهواء والمأوى وصلات الجنس هى النعم المبذولة لكل حى بحكم وجوده. فلو كان مما ينفع الطبيعة ويصلح الأرض سلام الناس وهدوء العيش لألهمتهم القناعة وعودتهم الرضا وجنبتهم الأثرة ، ولكن فوضى

الطبيعة هى نظامها المطرد ، وفسادها الظاهر هو صلاحها المضمر والفرد هو الأضحية المحتومة لبقاء الجنس ، والحاضر هو القنطرة المهدومة لعبور المستقبل !

فى المرض يزداد يقين المرء بأن الدنيا زائلة ! فهو يأسى على ما جنى ، و يندم على ما جمع ؛ ولكنه حين يصح تمتد آماله وتتشعب مطامعه و يعود عبداً للطبيعة يعمل لأنها تريد ، و ينفذ لأنها تحكم ! فليت شعرى إذا عقل كل الناس فعمل كل امرىء ما يلزم ، وقنع بما يقوت ، وكف عما لا يحل ، فماذا يشتغل قضاة المحاكم وقواد الجيوش و صناع الأسلحة ورؤساء الأحزاب ؟

أوشكت يدى من برّح الألم أن تقف ! فعسى الله أحكم الحاكمين أن يبتلى الدكتاتورين الكبير والصغير بروماتزم العقل والقلب فتقف رحا الحرب وتغلق أبواب جهنم !

الشمس تجمع هلاهل نورها على المنازل العالية لتهرب من رؤية الأكداس المكدسة من جثث الإنسان على عُدْوتى البحر الأبيض ؛ وفتاة الطنُف الحسناء تلم غسيلها المنشّر لتغلق عليها الباب من البرد القارس . وليل (طوبة) الطويل يقترب بأوصابه رويداً من المريض المسكين ، فاللهم حنانيك ورحماك !

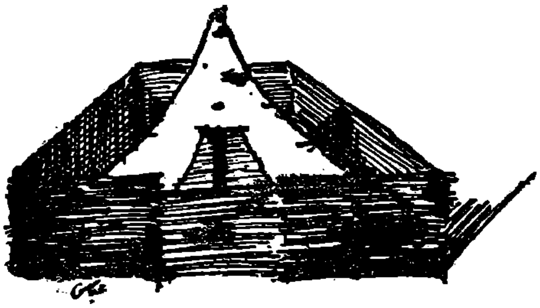

بين اللاتينية والجرمانية

(٢٤ فبراير سنة ١٩٤١)

كان بعض المولعين بتصنيف الناس من علماء الأجناس يقولون ان الله اصطفى الآريين على الساميين بمواهب العقل الأصيل فآتاهم الحكمة ؛ ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتى العلم والحكم ، وهيء بفطرته لملك الأرض وتمدين العالم . واستغل المستعمرون هذه الفكرة فسرقوا بها ملك العرب ، ونسوا أن العرب وهم ساميون ، كانوا خلفاء الله فى الأرض وورّاث المعرفة فى الدنيا . واستغلها النازيون آخر الأمر فسرقوا بها مال اليهود ، ونسوا أن اليهود وهم ساميون ، كانوا الرأس الخلاق واليد المصرفة فى ألمانيا .

ولعل هؤلاء المصنفين لخلق الله يشغلون بالهم اليوم بما يتجلى من الفروق بين اللاتينية والجرمانية وهما شعبتان من الآرية ، ليعلموا أن من عوامل البيئة والتربية وطريقة العيش ما لا يقل أثراً فى اختلاف العقل وتغير الخلق عن عوامل الجنس والوراثة ولئن كان فى فكرة الآرية والسامية أكثرُ الكذب الذى يسنده الغرض ، فإن فى فكرة اللاتينية والجرمانية أكثر الصدق الذى يؤيده الواقع وإذا كانَ الغربيون قد انتفعوا بفكرتهم فى أن يسودوا ، فإنا حريون أن ننتفع بفكرتنا فى أن نتحرر .

* * *

لأمر ما تنهار اللاتينية وتتماسك الجرمانية وقد مسهما من هذه الحرب الطَّحون عذاب لا يختلف !

هنا الديمراطية الوادعة تتمثل فى دولة جرمانية هى انجلترا ، ودولة لاتينية هى فرنسا . وهناك الدكتاتورية الباغية تتمثل فى دولة من الدول الجرمانية هى ألمانيا ، ودولة من الدول اللاتينية هى إيطاليا . فما هو إلا أن امتحنت الحرب بنارها معدن الفريقين حتى ذابت فرنسا هنا وتفككت إيطاليا هناك ، وظلت الأمتان الجرمانيتان ثابتتين ، تتصارعان بعبقريات الذهن ، ومبتكرات العلم ، ومهلكات المادة ، والعالم كله يشهد هذا الصراع العنيف المخيف وهو من هوله الهائل لا يتقارّ ولا يتمالك . وسيكون النصر ولا ريب للفريق الذى يحالفه الحق والصدق والصبر ؛ ويومئذ تنقسم الجرمانية كذلك إلى سكسونية تعتمد على قوة الخُلق ، وتوتونية تعتمد على سعة الحيلة .

—

ليت شعرى ومن أين أتيت اللاتينية حتى انخرعت فما تقوم ، وانماعت فما تتماسك ؟ لم تؤت يا زعماء الشرق إلا من جهة خصائصها التى تبجحت بها حيناً من الدهر ، وهى الإفراط فى الأدب والفن والكلام ، حتى غلب فيها النظر على العمل ، والحفظ على التفكير ، والخيال على الواقع ، وقاعات التمثيل على أندية الرياضة ، فمن المعقول ألا يقام لها وزن مع الجرمانية التى كان من أظهر خصائصها الممتازة أن ألفت ثقافتها وحضارتها من عناصر معلومة المقادير مضبوطة النسب ، من كل ما يتصل بالمادة والأدب ، ويدخل فى غذاء الجسم والروح ، فلا يطغى معنى على معنى ، ولا يجور شىء على شىء . ثم هى لا تفهم الفرد إلا بالأمة ، ولا العلم إلا بالتطبيق ، ولا العمل إلا بالتجويد ، ولا رياضة العقل إلا برياضة البدن ، ولا غاية الآخرة إلا بطريق الدنيا . وكل ما يصدر عن الجرمانية من نتاج الفكر واليد موسوم بسمات القوة والدقة والجد .

ماذا عسى أن نصنع يا زعماء الشرق العربى وهذه اللاتينية المتخلفة العجفاء قد غلبت علينا لوجودنا على البحر الأبيض المتوسط ، واتصالنا بشعوبها المختلفة فى العمل والتجارة ، واعتمادنا على رسلها الدينيين فى التربية والتعليم ، فأخذنا من أهلها حب الكلام وشهوة الجدل فقادتنا كتاب ومحامون ، وجيشنا هتّاف ومتظاهرون ، وعدتنا أحزاب وصحف ! و إذا لم يكن زعيمنا من صاغة الكلام وراضة المنابر انصرفت عنه الأسماع ونبت عليه النفوس ولو كان ملء سكوته العمل المثمر !

من صفات اللاتينية فينا أننا لا نزال نتعلم بالحفظ ، ونتقدم بالمحاباة ، ونعمل بالوساطة ، ونقنع بالشكل ، فلا يهمنا من النظام إلا أن يبقى مظهره و إن ذهب جوهره .

ومن مظاهر اللاتينية فينا أن ضعف إيماننا بالمثل الأعلى والخير الأعم فالأمة معناها : أنا أكون ، والوطنية مغزاها : أنا أعيش . فإذا تناقضت منفعة الفرد ومنفعة الأمة ، وتعارضت رغبة النفس و إرادة الوطن ، وقع الضمير الاجتماعى فى غشية ثقيلة لا يبالى المرء فيها أن يخون أو يسف أو يسقط .

ومن بلايا اللاتينية فينا أننا نسرف فى الوعود ، ونتزيد فى الحديث ، ونداجى فى النصيحة ، ونكابر فى الحق ، ونجاحش فى النقاش ، ونركن إلى شعبذة الحظ ، ونستكين إلى معابثة القدر ، ونستأمن إلى مخادعة السلامة .

فاذا شئنا أن نتقى العواقب المحتومة لهذه التربية الفاشلة ، فلنطهر قلوبنا من رواسبها المتراكمة ، ولنهيء نفوسنا لحياة جديدة تنكشف عنها هذه القيامة القائمة فإن مما لا شك فيه أن الحياة الحاضرة بمذاهبها ونظمها

تتصهر الآن فى نار هذه الحرب لتصوغها يد الخالق المصور صياغة أخرى تتفق مع تقدم الإنسانية فى سبيل الخير المحض والكمال المطلق . ومتى خلصت العقول من الهوى ، وبرئت النفوس من الأثرة ، وطهرت القلوب من الحقد ، عاد الناس إلى شريعة الحق الخالد فيلتقى الشرق والغرب ، ويأتلف الأحمر والأسود ، وتطمع الشعوب أن يعيشوا فى عالم من الإخاء والرخاء جديد ، وهل ذلك على الله بعيد !

يومان من أيام الرسول

(٣ مارس سنة ١٩٤١)

يومان من أيام الرسول تضمنا سر النبوة كما تتضمن النواة سر النخلة ، ولخصا تاريخ الإنسانية كما يلخص الجنين تاريخ الإنسان . ذانك يومه الخائف المجهود وقد خرج مهاجراً إلى المدينة ، ويومه الآمن المشهود وقد رجع ظافراً إلى مكة !

كان يومه الأول لثلاثة عشر عاماً من المحن الشداد والآلام الفوادح تظاهرت على الإيمان والصبر حتى قال الرسول وهو يلوذ بحائط من حوائط ثقيف : اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس .

وكان يومه الآخر فاتحة لثلاثة عشر قرناً من النصر المؤزر والفتح المبين ، خنس فيه الشرك واستخذت الجهالة وذلت قريش حتى قال الرسول وهو واقف بباب الكعبة : لا إله إلا الله ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده !

وإذا كان للرسول فى تاريخ الإسلام يومان لا تزال العقول تقع منهما كل يوم على سر ، فإن مصدر هذه الأسرار معجزتان لله لا تزال الأفهام تكشف فيهما كل حين عن آية : معجزة الرسول فى خلقه ، ومعجزة القرآن فى بيانه . وقد انكسر القرن الرابع عشر على هاتين المعجزتين والأذهان البصيرة الموالية والمعادية تدرس آثارهما وتستبطن أسرارهما ، فما بلغت من ذلك كنهاً ولا غاية .

كان محمد فى يوميه العظيمين مثل الإنسانية الأعلى ، حمل رسالة الله وحمل

أبو جهل رسالة الشيطان ، واستحالت مكة المشركة جبلا من السعير سد عليه طريق الدعوة ، فكان يخطو فى طرقها وشعابها على أرض تمور بالفتون وتتسعر بالعذاب ! وتفجرت عليه من كل مكان سفاهة أبى لهب بالأذى والهون والمعاياة والمقاطعة . وكل قريش كانت يومئذ أبا لهب إلا من حفظ الله . وافتن شياطين مكة فى أذى الرسول ، فعذبوه فى نفسه وفى قومه وفى أصحابه ليحملوه على ترك هذا الأمر فما استكان ولا لان ولا تردد . وحينئذ تدخل الشيطان بنفسه فى (الندوة) فقرر القتل ، وتدخل الله برَوْحه فى (الغار) فقدر النجاة . وانطلق محمد وصاحبه ودليله وخادمه على عيون المشركين فى الطريق الموحش الوعر إلى يثرب وكأن هؤلاء الناجين بدين الله لم يكادوا يدخلون فى غيب الطريق حتى انشقت الصحراء عنهم فإذا هم عشرة آلاف من جند الله يجرون الحديد على النياق الكُوم والخيول الجرد ، والرسول فى كتيبته الخضراء من المهاجرين والأنصار لا يظهر منهم وراء الدروع غير الحدق ، وإذا أبو سفيان زعيم قريش قد اشترى حياته بإسلامه ، ثم وقف مع العباس بمضيق الوادى يشهد جيش الفتح وهو زاحف إلى مكة ويقول : هذا والله ما لا طاقة لنا به ! لقد أصبح ملك ابن أخيك يا أبا الفضل عظيما . فقال له العباس : يا أبا سفيان إنها النبوة !

ثم نجا أبو سفيان إلى مكة فصاح بأعلى صوته : يامعشر قريش ، لقد أتاكم محمد بما لا قبل لكم به ، فسلموا تسلموا .

* * *

أهذه مكة الطاغية التى لبثت إحدى وعشرين سنة تفور بالسفه والحقد والإفك والضغينة والمعارضة على محمد ودين محمد وأصحاب محمد ؟ ما بالها خشعت خشوع الجناح الكسير ، وسكنت سكون المقبرة المهجورة ؟ لقد باتت ليلة من

ليالى يناير الباردة الطويلة وقلبها يرجف من هول الغد وانتقام الفاتح ثم أصبحت مكة الساهدة فإذا أهلها بين قابع فى منزله ، أو عائذ ببيت الله ، أو لائذ بدار أبى سفيان ؛ وإذا فرق الجيش المحمدى الظافر تنحدر من (ذى طوى) مكبرة مهللة إلى جهات مكة الأربع فلما ارفضَّت المخاوف عن الناس خرج القائد الأعظم من قبته المضروبة بأعلى مكة يؤم المسجد الحرام ، وعلى جوانب الطرقات ألسنة المسلمين تذكر ، ومن وراء الحجرات عيون المشركين تنظر ، والرسول الكريم قد طأطأ رأسه على رحله حتى كاد يمس قادمته ؛ فلم يجر على باله أن هذه الأرض التى طورد فيها وسال دمه عليها قد أصبحت ملكه ؛ وأن هؤلاء الناس الذين قذفوه بالأحجار ورموه بالأقذار قد اصبحوا أسراه ، حتى دخل المسجد فطاف ؛ ثم أقبل على الأرستقراطية الصاغرة وهى تتطامن من القلق والفرق وقال لأهلها الذين أفرطوا عليه فى البذاء والإيذاء يا معشر قريش ، اذهبوا فأنتم الطلقاء !

* * *

كان يوم الهجرة وما قبله تشريعاً من الله فى حياة الرسول للفرد المستضعف إذا بغى على حقه الباطل ، وطغى على دينه الكفر ، ليعرف كيف يصبر ويصابر ، وكيف يجاهد ويهاجر ، حتى يبلغ بحقه ودينه دار الأمان فيقوى ويعز .

وكان يوم الفتح وما بعده تشريعا من الله على لسان الرسول ويده للأمة إذا اتسعت رقعتها واجتمعت كلمتها واستحصدت قواها لتعلم كيف تنسى الضغائن إذا ظفرت ، وتحتقر الصغائر إذا كبرت ، ثم لا تحارب إلا فى الله ولا تسالم إلا فى الحق .

كانت المدينة وحدها بعد الهجرة مجالا لسياسة الرسول يضم شتات

الجماعة ، و يوثق عقدة الدين ، و يجمع أهبة الحرب، فألف بين الأوس و الخزرج ، وآخى بين المهاجرين والأنصار ، وعاهد بين المسلمين واليهود ، حتى تكتّب في يثرب جيش الله الذى فتح الدنيا بفتح مكة !

ثم كان العالم كله بعد يوم الفتح مشرقاً لوحى الله وهدْى الرسول ، فطهره الإسلام من الأرستقراطية بالمساواة ، ومن الرأسمالية بالزكاة ، ثم علم الناس حكم الشورى ، وألزمهم قضاء العدل ، حتى أخرجهم من الوطنية المحدودة إلى الإنسانية المطلقة

ذانك يومان من أيام الرسول تضمنا أسرار نفسه ولخصا أطوار حياته .
فهل تطمعون يا من تظنون أن الزعامة تجوز من غير صدق ، والجهاد يفوز من غير صبر ، والحياة تصلح من غير إيمان ، أن تكون لكم في رسول الله أسوة حسنة ؟

العصبية داؤنا الموروث

(١٧ مارس سنة ١٩٤١)

كنا ستة فى أحد مجالس القطار السريع الصاعد إلى القاهرة وكانت غريبةُ الغرائب أن يجتمع فى هذا المجلس الطائر القلق ثلاثة ينتسبون إلى ثلاثة أحزاب سياسية ، واثنان ينتمى كل منهما إلى فرقة دينية ؛ وكنت أنا وحدى المستقل فيما بينى و بين الله والناس . وكان مما ليس بُد منه أن يترامى بهم الحديث إلى ذكر ما يشغل الخواطر من شؤون الدين والسياسة والحرب ؛ فكان لكل منهم هوى لا يتابعه هوى ، ورأى لا يشايعه رأى ، حتى انقلب الحديث اللطيف جدلاً صخاباً لا حيلة فيه إلا للاشارة العنيفة والحنجرة الصُّلبة

حينئذ ابتلعت لسانى ودخلت فى نفسى وتركت هذه الأفواه يقذف بعضها فى وجه بعض ، ثم أخذت أفكر فى هذه الصدَعات التى مزقت الكلمة وفرقت الدين ، وجعلت بعضنا يبنى و بعضنا يهدم ، وأحدنا يسوق والآخر يعوق ، فلم أجد لها مصدراً تشتق منه إلا العصبية !

تصورت فى هذا المجتمع الصغير ، صورة ذلك المجتمع الكبير ، فعجبت كيف يتسنى فى هذا الجمع الشتيت أن يتفاهم لسان ولسان ، ويتآلف قلب وقلب ، وتتعاون يد ويد ، حتى يجوز أن تنتج من اتحاده قوة ، وأن تنشأ من آحاده أمة !

الفرد فى نفسه هو كل الناس ، وشيئه فى عينه هو كل شىء ورأيه فى عقله هو كل رأى وذلك داء موروث من أدواء العصبية التى أفسدت كيان

العرب وأوهنت بناء الإسلام بما يلازمها من حب الاستئثار وشهوة الرياسة .

لم تمت العصبية من حياة العرب إلا فترة موقوتة بحياة الرسول . فلما استعز الله برسوله انبعثت فى (السقيفة) بين المهاجرين والأنصار تقول : منا أمير ومنكم أمير . ثم سلطها الشيطان على الخلافة ، فانقسم العرب إلى هاشمية وأموية ، ثم إلى قيسية ويمنية ، ثم إلى علوية وعباسية ، ثم إلى عربية وشعوبية ؛ وأغراها بالدين فانشعب المسلمون إلى اثنتين وسبعين فرقة ، تتقاطع بالضلال ، وتتعادى فى الباطل ، وتزعم كل فرقة أنها هى وحدها الناجية ! ولو كان تحزب العرب وتشعب المسلمين لمبادىء تصلح الدنيا وتعز الدين ، لكان ذلك أخلق بمن جعلهم الله أمة وسطاً ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويسارعون فى الخيرات ؛ ولكنهم اختلفوا تعصباً للنفس أو الجنس أو الرأى ، وتوسلا لبلوغ الحكم أو خضوع الخصم أو فتون العامة .

وحب الرياسة وشهوة الحكم هما شر أدواء العصبية وبالاً وأشدها استفحالا فى الشرق القديم والحديث ولو ذهبت تستقرى عوامل الشقاق والانشقاق بين العرب فى جميع الأطوار والأقطار لما عدوت ما رُكب فى طباعنا من حب الظهور ورغبة التفرد ورذيلة الحسد .

إذا جاء الأمة خير لا نصيب لى منه ولا سلطان لى عليه ، جعلته شرا يستعان على درئه ببدع تتسم بسمة الدين ، وخدع تتستر بستار الوطن وإذا نهضت فى الأمة جماعة للاصلاح ولم يكن لى موضع الرياسة فيها ولا مرجع الفائدة منها ، أشعتُ حولها الرِّيب ، وأطرت فوقها الظنون ، حتى يستوحش من ناحيتها الناس فتفشل .

تنازع زعيمان من زعمائنا على الرياسة أو ما يشبه الرياسة ، فقسما الأمة بنزاعهما قسمين متعارضين لكل منهما آراؤه وحججه ومبرراته ؛ وكاد يدخل على الناس أن هذين الرأيين مذهبان فى سياسة البلد أحدهما يصل والآخر ينقطع ! وكان مبعث الأمر كله عصبية الرأى وشهوة الرياسة .

واجتمع أعضاء مجلس الإدارة لجمعية المعلمين فى بغداد يوم أنشئت لينتخبوا من بينهم رئيساً فلم يفز أحد من الثلاثة عشر عضواً إلا بصوت واحد ! ذلك لأن كل عضو منهم أراد أن يكون الرئيس فانتخب نفسه !

* * *

أحزابنا السياسية وجماعاتنا الدينية أسماء وأزياء لا تجد وراءها مسمى يتميز من مسمى ، ولا جسما يختلف عن جسم وإن طالب الثقافة ليستطيع أن يذكر لك فى يسر ووضوح جملة الفروق فى الوسائل والغايات بين اليسوعية والماسونية والشيوعية والنازية والفاشية ، أو بين حزب وحزب من الأحزاب البرلمانية فى جميع الدول الدستورية ؛ ولكنى أتحدى أستاذ الجامعة نفسه أن يذكر لى فرقاً أو شبه فرق بين الوفديين والسعديين والدستوريين والمستقلين والوطنيين والشعبيين والاتحاديين ؛ أو بين الشبان المسلمين ، والإخوان المسلمين ، والأخوة الإسلامية ، والهداية الإسلامية ، وشباب الإسلام ، ومجد الإسلام ، ومن لا علم لى به من هذه الجماعات . فليت شعرى ماذا يمنعهم أن يضموا الشتات ويوحدوا الكلمة ويحددوا الغاية ما داموا إخوة فى الوطن أو فى الله ؟ ولكن العصبية هى داؤنا الموروث لا يحسمه عنا إلا طبابه الذى عالجه به الله ورسوله : محو الفروق بالحرية والشورى ، وشفاء الصدور بالأخوة

والمساواة ، ورفع النفوس بالإيثار والتضحية !

ويومئذ يحيا فينا الضمير الاجتماعى فنعمل مرءوسين ، ومجهولين ، أصدق مما كنا نعمل رؤساء ونابهين ، فنخلص للأمة كما نخلص للأسرة ، ونحب لعامة الناس كما نحب لخاصة النفس ، ونخرج من حدود العصبية إلى آفاق الوطنية ، سالكين سبيل القانون إلى غاية الحق ، كما يسلك هذا القطار صراطه المستقيم إلى غايته المعلومة !

يوم الفقير

(٢٩ مارس سنة ١٩٤١)

تفضل صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا فدعانى أمس إلى زيارته فى داره بالزمالك . ومن طبعى أن أتهيب الزيارة الأولى لأولئك الذين رفعتهم مواهبهم أو مناصبهم عن مستوى العرف ؛ لأن اعتيادهم إمضاء الرأى وإنفاذ الأمر بالصوت الرفيع والسلطان القوى أرهف فى نفوسهم الحس بما يجب لهم على الناس من أدب الجلوس ومصطلح الحديث . والرجل الذى يلف رأسه الحياء ، ويعقل لسانه التزايل ، لا يسهل عليه وهو يستبع إليهم أن يعرف متى يصح أن يسأل ، ومتى يجوز أن يعارض ، ومتى ينبغى أن ينصرف .

على أنى كثيراً ما جلست إلى بعض هؤلاء ، جلسة التحفظ والاستحياء ، فكنت أشعر بعد قليل أن المهابة تنجلى عنى ، وأن الجلالة تنسرى عنه ، حتى أزعم لنفسى أنى أفهم للموضوع وأجدر بالحديث . ولكن على ماهر باشا ليس كأحد من أولئك الطبول ، إنما هو رجل — كما توسمته من وراء لفظه — ألمعى الذهن يكتفى منك باللمحة الدالة ، رصين اللب لا يحرك لسانه إلا بالكلمة المرادة ، رفيع النفس لا يُسرُّ فى مطاوى حديثه عصبية ولا ضغينة . وأخص ما يميز ماهر باشا رسوخ الطبع الاجتماعى فيه . ولعل نبوغه فى القانون الدولى العام على الأخص سر من أسرار هذا الطبع . وأصحاب الفكرة الاجتماعية ينفرون من السياسة الحزبية لأنها فردية مجتمعة ، ولا يميلون إلى الأعمال المالية لأنها أثرة محتالة . وإذا طلبوا إلى الحكم نهجوا فيه منهاج الدين من تنظيم أمر

الجماعة وإصلاح العامة ، على قدر مايسعه طوق الإنسان الضعيف من توخى الإحسان وإيثار العدل ؛ فإذا خرجوا منه لم يسعوا للدخول فيه ؛ لأن السعى للحكم لايخلو من خطوات فى سبيل الشهوة الذاتية والمنفعة الخاصة . لذلك كان أظهر العزائم وأصدقها فى وزارتى عَلَى ماهر باشا سلسلة من الإصلاح الجماعى تتحقق على وجوهها الصحيحة فى وزارة الشئون الاجتماعية والجيش المرابط.

وكانت حياة الفلاح والعامل موضوع هذا الإصلاح وموضعه فلو أن طوارق الحدثان نامت عن مصر حيناً آخر من الدهر لكان من الممكن أن يشعر الفقير بأن له حقاً فى خير الله ، وحظاً من نصيب الوطن ؛ ولكن الحرب التى تنتشر أخطارها على الرمال والمياه من حدود (الوادى) لا تتيح لأولى الأمر أن يرصدوا الأهبة كلها لمعالجة الفقر ؛ فلم يكن بد من قيام المعنيين بإصلاح الجماعة ليحلوا هذه المعضلة الأزلية بما حلها به الله فيجمعوا المبرات ، ويجبوا الصدقات ، وينظموا الإحسان ، ويسهلوا العمل ، ويوفروا القدرة عليه بمكافحة الجهل والمرض ؛ وذلك هو مشروع الزعيم الاجتماعى على ماهر باشا ، سماه (يوم الفقير) وجعله يتجدد فى تاريخ بعد تاريخ ، ويتجدد فى إقليم بعد إقليم ، ليكون مظهراً جميلاً لأريحية النفوس المؤمنه المحسنة ، تتعاون فيه على الخير وتتنافس فى المعروف ، وتقيم ركن الإسلام الخامس .

* * *

حدثنى صاحب المقام الرفيع عن سياسته الاجتماعية وما يتذرع لها باليوم الثامن والعشرين من هذا الشهر وما يتلوه من أيام أُخَر ؛ فسمعت لأول مرة كلاماً له معناه ، ومنهاجاً له غايته كان الأخلق بمن سمع كثيراً من القول ، ورأى قليلاً من الفعل ، ألا يبالغ فى الثقة ولا يسرف فى الأمل ، لولا أن

صاحب الفكرة وممضيها على ماهر باشا ، وهو رجل لم يجرب عليه الناس لغواً في كلام ولا عبثاً في فعل والحق أن الفقير يستطيع منذ اليوم أن يأوى إلى ركن شديد من عطف المليك ورعاية الحكومة ومعونة الشعب . ولعل مقاومة الحفاء ويوم الفقير هما المحاولتان الجديتان لمحاربة البؤس ومعاونة البائس ؛ لأن المشروع الأول يعتمد على إرادة كريمة ، والمشروع الآخر يستند إلى إدارة حكيمة وكانت وزارة الشؤون الاجتماعية عسيّة أن تكفى المصلحين هذا الأمر لو أنها انتفعت بما توخاه لها الكتاب من مناهج الرشد ؛ ولكنها حصرت معونتها للفلاح في إقامة الموالد لتفريج الهم عنه ، وتحرير « المجلة » لمعالجة الأمية فيه ! وعسى أن تكون قد بلغت من ذينك مبلغاً يعوض عليه ماتبذل من مال وماتنفق من جهد !

* * *

لقد قطعنا سنة من عمر « الرسالة » في تذكير المترفين بأن لهم أخوة من خلق الله يأكلون ماتعاف الكلاب من المآكل ، وينامون مع الحيوان في المزابل ، ويقاسون من الأدواء مالا يقاسيه حى في غير مصر ؛ فلم يؤثر فيهم ما كتبناه إلا كما تؤثر النسمات اللينة في الصخر الأصم . ذلك لأن حق الله في أموالهم قد وُكِلَ أداؤه إلى ضمائرهم ؛ والضمائر قد نامت على هدهدة الشهوات ، والعواطف قد قست على جفاف المادة وبين غفوة الضمائر وقسوة العواطف ذهب وازع الدين ولم يبق إلا وازع السلطان لذلك لا ينتظر ليوم الفقير ما ينتظر لمقاومة الحفاء من الفوز ، لأن الدافع هناك رهبة الحكومة أو رغبة (الرتبة) ؛ أما الدافع هنا فعاطفة البر وهى في أكثر النفوس رسم دارس بين الجشع والأثرة

يا أغنياءنا لقد جربتم بذل المال فى اللهو ، وقتل العمر فى العبث ، وفقد الصحة فى المجون ، فهل كسبتم من وراء ذلك مجداً ، أو وجدتم فى عواقبه سعادة ؟ جربوا ولو مرة واحدة أن تمسحوا دمعة على خدّ حزين ، أو تنفسوا كربة عن قلب يائس ، أو تسهلوا طلب العلم لفقير ، أو تمهدوا سبيل العمل لمتعطل ، أو تشاركوا أبناء الشعب فى منفعة عامة ، ثم انظروا بعد ذلك كيف يشيع فى صدوركم الرخاء ، ويرتفع بقلوبكم الإخاء ، وتنعم نفوسكم فى الحياتين بين عاجل المجد وآجل الخلود

هل انبعث الأزهر

(٢٨ ابريل سنة ١٩٤١)

يغلب فى ظنى أن الأزهر انبعث فسمع فرأى ففكر؛ انبعث كما ينبعث الربيع فى أوائل مارس ، تراه سليب الشجر جديب الأرض مقرور النسيم ، ولكن أسرار الحياة تكون — من وراء بصرك — قد انبثت فى الثرى ، وجرت فى الأصول ، وسرت فى الجو ، فلا تلبث أن تستعلن فتُسعد الأرواح بجميل الزهر ، وتمتع الأجسام بطيب الثمر .

هؤلاء هم شباب الأزهر الجديد أساتذة وطلاباً ، قد جلت نفوسهم ثقافة العصر ، وصقلتها مدنية الحاضر ، فأشرقت عليها أشعة النبوة ساطعة بعد ماحجبها الغمام والقتام حقباً بعد حقب . فهم وحدهم الذين يدركون مسافة البعد بين روح الأزهر وحياة الناس . وهم وحدهم الذين يملكون تزييف الأباطيل المقدسة التى اتسمت بسمة الحق وتسمت باسم الدين ؛ ولكنهم حول هذا الهيكل البالى أشبه بالأغصان الخلِفَة التى تنبت نضيرة على أصل الدوحة العتيقة ، ثم لا يتسنى لها الغلظ والسموق لأن الجذور الشيخة لا تمدها بالغذاء كله ، والفروع الميتة لا تمكنها من الهواء كله . فإذا لم يرسل الله رسول الإصلاح و يؤته ما آتى أولى العزم من الرسل ، فيقطع من أعالى هذه الدوحة ما اعوج ، و يجتث من أسافلها ما ذبل ، ويكشف عن جذعها الواهن ما التف عليه من طفيلى النبت بقى الجفاف على هذه الأفنان النواشىء فتذوى فى زهرة العمر و بكرة الربيع

دفعنى إلى تعجيل هذه البشرى وتسجيل هذه الظاهرة فى هذا الوقت الذى شغل الأذهان بوحوش النازية الهاجمة ما قرأته للأستاذ محمود شلتوت اليوم ، وللأساتذة المدنى والبهى والشرقاوى من قبل ، وما سمعته من صفوة من أولئك الأساتذة الأزهريين الشباب ضمهم مجلس من مجالس الرسالة ؛ فلقد كنت — علم الله — أدعو إلى إصلاح الأزهر وفى نفسى خلجات من اليأس ؛ لأن أهله الذين وقفوا عقولهم عند حد النقل ، وقصروا جهودهم على درس القديم يشرحونه ، أو يحشونه ، أو يقررونه ، أو يختصرونه ، أو ينظمونه ، حتى قرّ فى نفوسهم أن القديم أفضل من الجديد ، وأن الماضى خير من الحاضر ؛ فالقرن الأول خير من الثانى ، والثانى خير من الثالث ، وهلم جرا حتى يجعلوا القرن العشرين شر القرون ، وعلماءه أجهل العلماء ، فلا يجوز لفهم أن يبتكر ، ولا لعقل أن يعترض ، ولا للسان أن يقول إن فى الإمكان أبدع مما كان . أولئك لا يستجيبون لدعوة الإصلاح ، لأن الإصلاح تغيير أو إبداع ، وقبول التغيير محال ما لم يتغير ما بالنفس ، وإجازة الإبداع باطلة ما لم يتضح معنى البِدعة . ومن أجل ذلك كان لكل مهدىّ « عليش » ، ولكل محمد عبده « رفاعى »(1)

أجل ، كان يخالجنى اليأس من نهوض الأصلاح قبل أن أتصل عن طريق الرسالة بهذه الطبقة الممتازة من الأساتذة الشباب وتلاميذهم الأنجاب فى كليات الأزهر الثلاث . فلما عرفتهم وفهمتهم انبثق فى صدرى الأمل فى أن الأزهر سيعود ويقود ، وأن الإسلام سيحكم ويسود . والأمر رهن بدفن الرميم وكسح الهشيم وانفساح المجال وتحرر العقلية العامة .

أعجبنى من الأستاذ شلتوت وأصحابه خلوص الدين فى قلوبهم ، ونصوع فكرته فى عقولهم ، وفهمهم إياه على أنه دين هذا العصر وشريعة هؤلاء الناس ،

(1) الشيخان عليش والرفاعى كانا يعارضان الإصلاح فى نهضة الأزهر .

فنحن أبصر بموقع الحكمة فيه ، وأجدر باستنباط الرأى منه . والدين كالشمس لاهى تراث ولا هى أثر . وإنما الشمس للحاضر لا للماضى ، وللحى لا للميت ! يستفيد منها الفرد بعد الفرد والجيل بعد الجيل ثم يقتضى اختلاف النظر وتقدم العلم أن يختلف فيها العلماء ، وتتعارض فى نظامها الآراء ، ولكن رأى فيثاغورس أو بطليموس لا يجوز أن يوازن برأى نيوتن أو هرشل .

هذه هى المرونة البصيرة التى توجبها سنة الحياة ولا يكون بدونها إصلاح ولا تطور . ولم يصب الأزهر بهذا الجمود إلا لأنه فقد هذه المرونة ، فلم يبال فعل الزمن فى الدنيا وفى الناس لذلك لم يعلم التاريخ جامعة من جامعات الأرض بقيت فى القرن العشرين على ما كانت عليه فى القرون الوسطى غير الأزهر !

كان الأزهر أسبق الجامعات الباقية فى الدنيا إلى الوجود أنشىء عام ٩٧٢ م وأنشئت جامعة بولونيا عام ١١٠٠ م ، وجامعة باريس سنة ١١٥٠م ؛ ثم تتابعت بعدهن الجامعات فى أوربا وأمريكا . وكانت كلها تنحو منحى الأزهر فى النظام والمنهاج والطريقة ؛ إلا أنها سايرت الزمان وأطاعت التطور واستجابت لداعى الحاجة ، حتى أصبحت مورداً ومَراداً لأسمى ما بلغه العقل الإنسانى من الثقافة والمعرفة ولبث الأزهر وحده حيث كان ، يمضغ كلام السلف ، ويردد لغو الألسن ، ويعلل ضلال الأقلام ، ويصم أذنيه عن أصوات العالم وحركات الفلك ، حتى أصبحت المدارس الأولية أدنى منه إلى طبيعة العصر ، وأفهم منه لمعنى الحياة !

لسنا اليوم بسبيل البحث فى علل هذا الجمود المزمن المحزن ، فذلك شىء تتصل أسبابه بما انتاب المسلمين من ضلال العقيدة وشيوع الجهالة وفساد الحكم

وبحسبنا أن نسجل هذا الجمود بما بدا على بعض الأساتذة وأكثر الطلاب من الطموح إلى السبق والنفور من التخلف والزراية على نهج المعلم وطريقة الكتاب ومن تفاعل فى نفسه القلق والاشمئزاز والسخط لسوء حال أو فساد أمر ، شق عليه الاطمئنان إليه والاحتفاظ به وتغير النفس إيذان بتغير الحال ، والشعور بالنقص أول مراتب الكمال !

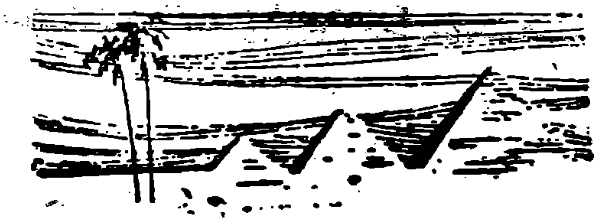

ما خلفته أثينا وروما

(١٢ مايو سنة ١٩٤١)

أهل روما الأولون قومٌ بناهم الله بِنْيةً وثيقة ، فنشأوا عظامَ التجاليد أشداء العضل أقوياء العصب ، يعطون البهيمية من نفوسهم ، أكثر مما يعطون الإنسانية من قلوبهم . ووثاقة البنية وسورة الهوى تحركان فى المرء شهوة الغلب وحب الأثرة ، فبغى الرومان على الناس بحدة القلب و بأس الحديد ، فملكوا أم البحر المتوسط ملك الرقيق ، واستعانوا على تدبير هذا الملك العظيم بالسيف واللسان والقانون ، فتهيأت لهم بذلك مَلَكة أصيلة فى الحرب والخطابة والتشريع ، وحرمتهم جِبلّتهم فنون النفس الرقيعة فكانوا فى الأدب والفلسفة والفن عَيلةً على الإغريق . فلما أذن الله لدولتهم أن تدول سلط عليهم الترف والفسوق فتدفقوا فى اللهو و (الأرجى)[1] حتى ترهل من لحومهم ما اكتنز ، وهش من عظامهم ما صلب ، وانسرق من قواهم ما اشتد ، وذهب بذهاب سلطانهم ما شرعوا من قوانين وسنوا من نظم وألقوا من خطب ، وأصبحوا لا يد تطول ، ولا لسان يقول ، ولا فكرة تجول ، ثم بادوا ولم يتركوا لأخلافهم على تعاقب القرون إلا ما يُعقبه السلطان الزائل من الغرور والتبجح والفيش ، و إلا ما يورثه اللهو الباطل من الغناء والموسيقى والرقص .

وأهل أثينا الأقدمون قوم صاغهم الله صيغة حسنة ، فكانوا مثلاً للكمال الممكن فى الإنسان الاعلى . سمت فيهم ملكات العقل والقلب واللسان والجسم

---

(١) L'orgie موائد كانت حافلة بالطعام والخمور والفجور والرقص تحدرت إلى الرومان المترفين من أعياد باكوس إله الخمر .

سمواً لا شبيه له فى شعوب الأرض ، فأبدعوا فى نواحى الفكر والشعور والبيان ما ربأوا به أن يكون من صنع الإنس فنسبوه إلى أرباب من خلق أنفسهم ثم تعاقبت على المدن الإغريقية أطوار الحياة العقلية للجنس البشرى تامة غير مخدَجة[1] فمن الغناء الفردى فى المعابد إلى التمثيل الجماعى فى المسارح ، ومن الحياة الأبوية إلى الحياة النيابية ، ومن شعبذة الكاهن إلى فلسفة أرسطو . ولم يبد فى سائر الأمم إلا ظواهر لبعض هذه الأطوار تقل أو تكثر على قدر نصيبها من كمال الخلق ، ثم تضعف أو تقوى على نسبة حظها من محاكاة الإغريق . فكأنما هذه البقعة وأهلها لما جمعوا من شتيت المزايا صورة مصغرة لأمم العالم ، ونسخة مختصرة لتاريخ الإنسان

فلما أصابهم داء الأمم فنى مُلكهم فى ملكوت الرومان ، ولكنهم انبثوا فى عقول الناس وحضارات الأمم وثقافات الشعوب ، فكراً لا يأفن ، وفناً لا يبلى ، وأدباً لا يقدُم ، وفلسفة لا تبطل ، ونظاماً لا يفسد ، وعلماً لا يذهب ؛ فكان الفكر اليونانى أساساً قائماً لكل حضارة ، ولقاحاً مثمراً لكل ثقافة

ذلك أثره فى الناس عن طريق الاقتباس ؛ أما أثره فى أعقاب بركليس والاسكندر عن طريق الوراثة المتحدرة فى الدماء حاملة مجد السلطان والغلب ، وعظمة الفكر والروح ، وعزة الملك والقيادة ، ومزية الإبداع والخلق ، وفضيلة الجمال والحق ، وسمو الإيمان والعقيدة ؛ فكان يونان اليوم كيونان الأمس مثلاً مضروباً فى شهامة النفس وشجاعة القلب وحمية الأنف وصدق الوطنية والضرب فى الأرض من أفق إلى أفق .

أولئك اعقاب رومة يتمثلون فى الطاغية (موسو) ؛ وهؤلاء أخلاف أثينا

---

(١) مخدجة : منقوصة

يتمثلون فى الرئيس ماتسكساس . هناك الرأس الخواء ، والقلب الهواء ، والصلف البغيض ، والغرور العريض ، واللسان الطائش . وهنا العمل الصامت ، والقول الثابت ، والدماء التى تفور بمزايا الجنس ، والقلوب التى تنبض بحب الوطن . ويشاء الله عزت حكمته أن يخرج العبرة للناس فى هذه الكوارث المؤسة من تراث وتراث وجيل وجيل ، فسلط نعرةَ نيرون على أنف الدنشى فوقف على ماسورة مدفع ضخم ، ثم رفع أنفه فى السماء ، وبسط يده فى الفضاء ، وأرسل أمره الأرعن إلى عديده وحديده أن يخترقوا حدود اليونان وهم فى إغفاءة الفجر ينعمون تحت الكلال بأواخر الأحلام السعيدة . فسالت من ألبانيا فرق الجيش الإيطالى بسياراته المصفحة ، ودباباته المسلحة ، وطائراته الموقرة بالقذائف والرصاص ؛ وعلى رأس الطليعة المزهوة قائد جهم الوجه ، كثيف اللحية ؛ غليظ الألواح ، يحمل إلى الجيش اليونانى المضطرب الهالع شرط الهدنة وصك الأمان !

يا سخرَ القدَر ممن زعم أنه يصرِّفه ! ويا عار (قيصر) ممن ادعى أنه يخلفه! ما باله يرمى فترميه أبابيل من طيور العذاب ، ويهجم فتصده حصون من سواعد الشباب ، ويصيح بأبطال الألب ، فلا يجيبه إلا صناديد الأولمب بالهجوم الجارف والضرب المتدارك والقصف المزلزل ؛ فذوو القمصان السود كالأرانب يتوارون فى أخاديد الأرض ، ويلوذون بجلاميد الصخر ، فإذا أعجلهم الفزع عن التماس النجاة ألقوا السلاح صاغرين واستأسروا ! !

هنا تصبب الزعيم الشحيم عرقاً لا ندرى أمن الكلال هو أم من الخجل ، فأقسم ليحشدن الإمبراطورية كلها أمام الجيش اليونانى الصغير الفقير الذى يقاتل الطائرات بالحجارة ، وينازل الدبابات بالسلاح الأبيض ، ويزوده بالميرة

والذخيرة النساء والشيوخ والأيفاع فى شعاف الجبال و بطون الأودية ، فكانت أفواج الجيش تذوب أمامه ذوبان الشمع ، وأمواج الحديد تتكسر دونه تكسر الهشيم ، والأكياس الحازمون من قواد الفاشية وجنودها يتقهقرون حتى ارتدوا عن اليونان ، وكادوا يجلون عن ألبانيـا ، لولا أن استغاث الدنشى بالفوهرر ، فـكانت الفاجعة التى لا ينصل عارها من تاريخ الالمان أبد الدهر !

* * *

أرأيت ؟ ! هذه هى الفئة القليلة التى يصيح فى دمائها وأعصابها تاريخ أثينا بأسره وتاريخ أثينا ليس كتاريخ روما مسارح دارسة لصراع الثيران ، وآثاراً عافية من مغامرات الفرسان ، وأسفارا ميتة من شرائع جستنيان ؛ وإنما هو ومضات الضمير التى لا تخبو ، وآيات العقل التى لا تموت .

وتلك هى الفئة الـكثيرة التى تنتفخ بالهواء كالفقاقيع ، وتعيش بغير مثل كالجراد ، وتحارب بغير إيمان كالمرتزقة . لذلك تراهم يستأثرون بجانب الهزيمة فى هذه الحرب ، ويؤثرون وسائل الحقارة فى هذه الجريمة وإذا كان فى انتصار اليونان وانـكسار الطليان عبرة ، فهى للعرب الذين يتميزون على الإغريق بوراثة القرآن الخالد الذى لايتبدل ، واكتساب الإيمان الصادق الذى لا يحول .

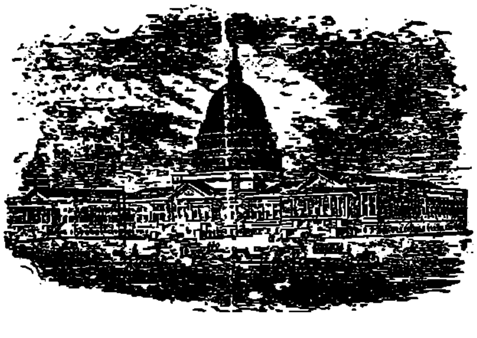

الأمل

« إذا كانت الحياة وردة ، فان الأمل كامها »

أجل ياصديقى (مُسِّيه) : الله فى السماء والأمل فى الأرض ! وبين رَوْح الله

المؤاسى ، ومَدد الرجاء الآسى ، تندمل الجفون القريحة ، وتلتئم القلوب الجريحة ، وتنتعش الجدود العاثرة .

الكروان يموت فرخه فى المساء ، وفى الصباح يرقص ويصدح والشاة يذبح حَمَلها فى الحظيرة ، وفى المروج تثغــو وتمرح . والقلب يُقطع من القلب ، والروح تُنْزعُ من الروح ، ثم يعيش المحب بعد حبيبه ، والوالد بعد ولده ، كما يعيش النهر الناضب فى ارتقاب الفيضان ، والروض الذابل فى انتظار الربيع !

لله على الناس نعمتان لا يطيب بدونهما العيش ولا يُبْلَغ إلا عليهما العمرُ : النسيان والأمل .

ماذا كان يصنع الأسى بالقلوب الوالهة إذا لم يمح النسيان من الذهن صورة الحبيب الراحل أو الهاجر ؟ تأمل حالك يوم فجعك الموت فى عزيز عليك ، أما كنت تجد لهيب الحزن متصلاً يوقد صدرك من غير خُبوٌّ ، ويذيب حشاك من غير هدنة ؟ تصور دوام هذه النار على نياط القلب وأعصاب الجسد ، ثم قدر فى نفسك الحياة على هــذه الصورة على أنها والحمد لله لا تدوم ؛ فإن الجبار الذى سلط الألم على الروح ، هو الرءوف الذى سلط الزمن على الألم . فالزمن لا ينفك يسحب ذيول الأيام والليالى على الصور والآثار حتى تنطمس المشابه ، وتعفو الرسوم ، ولا يبقى من المفقود إلا صورة لا تنطق ، ولا من الجرح إلا ندبة لا تحس .

وماذا كان يفعل اليأس بالنفوس المكروبة إذا لم يفتح الأمل أمامها فرجة فى الأفق المطبق وفسحة من الغد المجهول ؟

يا ويلتنا للفقير يعتقد أن فقره يدوم بدوام الحياة ، وللمريض يرى أن مرضه ينتهى بانتهاء الأجل ! ويا بؤسَ للحياة إذا لم يقل المأزوم والمحروم والعاجز : إذا كان فى اليوم قنوط ففى الغد رجاء ، وإذا لم تــكن لى الأرض فستكون لى السماء !

- حول مشكلة الزواج

الى السيدة ليلى

(٩ يونية سنة ١٩٤١)

لم تعدُ الصواب ياسيدتى حين قلت فى كتابك الرقيق المدرج فى مقالك البليغ : إن لكل من الشباب والشواب معايب ومطالب قد تعاونت على خلق مشكلة الزواج ؛ ولكن السبب المباشر والمصدر الأول هو المادة .

وتصديقاً لقولك أسوق إليك قصة سمعتها من بطلها الدكتور « م . ش »

والدكتور « م . ش » ياسيدتى فتى سوىّ الخلق كامل الثقافة ، يملك البصر والسمع بروعة منظره و براعة حديثه نشأ فى بيت من أوساط البيوت ، ولكنه تعلم فى أوربا ، وتقدم فى الوظيفة ، فنحا منحى الأوربيين فى العيش ، وسمت سمت الأرستقراطيين فى المظهر ؛ فهو يلبس كما يلبسون ، و يجلس حيث يجلسون ، و يلح بالسرف على مرتبه الكافى حتى يضيق بشهواته فيتمزق عند منتصف الشهر ثم يكون فى النصف الآخر حيلة على والديه .

حسبك ياسيدتى من وصفه هذا ، فإنى لأخشى أن يُكشف فيعرف ؛ ومعرفته تجر إلى معرفة الفتاتين اللتين ضحى بهما لهواه . و إذا علمت أسرتاهما أنهما ذكرتا فى موضع العبرة كان ذلك أشد على نفوسهما من ألم المصيبة .

قال الدكتور ذات مساء بلهجة المقترف المعترف النادم ونحن نتناقل الحديث عن جنسك الذى لا يفتُر عنه الحديث ولا يُمل

كنت مصروفاً عن الزواج لأنى لم أجد فى نفسى حاجة إليه ، ولا فى رأيى فائدة منه : إن كان يطلب للمتعة الطبيعية فقد يسرتها المرأة الطليقة ؛ و إن

كان يطلب للراحة المنزلية فقد هيأتها الأسرة الشفيقة ؛ وما دام الأنس بالمرأة والأسرة موفوراً ، فعلام يحمل عنت الزوجة وهم الولد وتكاليف البيت ؟ ولكن سرفي وترفي وقلة مرتبي وضيق ثروة أبي نبهتني إلى أن الزواج يطلب لأمر ثالث هو الثروة فرغبت إلى أمي أن تستعين بالأقارب والصواحب والخواطب على أن تجد لي (بغلة العشر) ، فقلبن على عيني أشتاتاً من العبقريات الحسان يملكن كل شيء إلا ما أريده ، حتى وصلتني إحدى الخاطبات بفتاة قالت إنها أكثر مما أطلب . ثم خلى أهلها بينها وبيني ، فتلاقت عينانا ، ثم فكرانا ، ثم قلبانا ، فما أنكرت منها خلقاً ، ولا ذممت لها صحبة : ملاحة شرقية تخترق البصر ، وثقافة عصرية ترضي العقل ، ورشاقة رياضية تملك النفس ، وشهوة جامحة لعيش المترفين تصورها بالألوان السحرية أي قصر ستسكن ، وأي حلة ستلبس ، وأي سيارة ستركب ، وأي حفلة ستقيم ، وأي أسرة ستدير . فرأيت في رغباتها وحياتها صورة رغباتي ونمط حياتي ، كأنما خلقها الله رضا لهواي وتحقيقاً لمناي وتماماً لنفسي . ثم توثقت بيننا على جلوات الربيع وخلواته عرى المحبة ، فتساقينا كؤوس الهوى في كل حديقة وعلى كل نهر ، وأخذنا نهدهد حبنا الوليد على أناشيد الأمل انتظاراً ليومنا الموعود وعيشنا المرتقب !

على أن وحدة الخلق وجمعة الأمل وألفة الهوى لم تنسني السؤال عن المحبوب الأول والمطلوب الأولى وهو المال ولشدّ ما كانت خيبتي حين تكشف لي غناها عن دَين فادح لا ضمان له ، ورياء فاضح لا حيلة فيه حينئذ تغير النظر وتبدل الرأي واختلف الغرض ، وأصبحت الخطيبة الحبيبة كعشرات الأوانس اللائي عقدتُ بهن أسبابي ، وأذقتهن ضلال نفسي وعبث شبابي . إذن فما معنى أن أجمع بين طمعي وطموحها ، ثم لا أملك لي ولا لها تحقيق أمل ولا قضاء نهمة ؟

مشيت معها مشى الشباب المعروف أعدُّها وأمنيِّها والخواطب الموعودات يغشين الدور ويقتحمن الخدور باحثات عن الثراء الضخم فى أى فتاة كانت ؛ حتى اهتدين إلى ابنة المرحوم « م باشا » وكان من الأغنياء المذكورين ، فلا مساغ للشك فى ثروته ، ولاوجه للسؤال عن ملكه . وكان العجب أن تظل ابنته مغمورة حتى تكشف عنها الخاطبة ؛ ولكن أعجب العجب أن يشترط أهلها عقد الزواج من غير روية ، وتعجيل يوم الزفاف من غير مهلة وكان لا يعنينى أن أسأل الخاطبة عن حِلية الخطيبة ، فإنها إن تكن جميلة ظفرت بالحسنيين ، وإن تكن دميمة كان لها معى بحكم زواجها بيت ، ولى مع غيرها بفضل ثروتها ألف بيت !

وفى الحق أنى تمثلتها حين دخلت بها كومة عالية من اللحم والشحم أضفو عليها أفواف الوشى وشفوف الحرير ، وفى ذروة الكومة نتأ رأس كرأس أبى الهول طوقوا أسفله بالذهب ، وتوجوا أعلاه باللؤلؤ . ولا تسل عن الذراعين والساقين فإنهن قوائم فيل أوأساطين هيكل ! ولكنها على بدانتها — شهدالله — خفيفة الظل عذبة الروح وحسبى منها ألا تكونُ هولةً[١] تُقذى العين وتؤذى النفس فى الساعات القليلة التى ألمُّ بالبيت فيها .

أطلقت يدى فى ثروتها ، على الرغم من معارضة أسرتها ، فعشت عيش الأمراء السفهاء ، أنفق باليدين على خليلاتى وندامايَ وهى تنظر وتُغضى ، وتسمع وتسكت ، كأنما وازنت بين جمالهن وجمالها ، وقارنت بين حالى وحالها ، فلم يسعها غير الرضا بهذا النصيب . وكنت قد خدعت خطيبتى الأولى عن نفسها بقوة النقود والوعود فخضعت لى خضوع المنوَّمة . ثم ركض بى فى طريق الغواية

---

(١) الهولة : ما يخوف به الصبى .

فرس الهوى المجروح ، وخلفت فى غبار النسيان حليلة يذيبها فقد زوجها ومالها فتموت ، وخليلةً يذلها ضياع أملها وشرفها فتجن !

* * *

لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب . ما كان حديثاً يُفترى ؛ ولـكنه الواقع ياسيدتى يثبت لك أن المال إذا جعل غاية للزواج كان شقاء لمن وجدته ولمن فقدته على السواء فهل سمعت حديثاً كهذا الحديث ، أو رأيت خبيثاً كهذا الخبيث

!

من طرائف الأزهر القديم

من البكاء إلى الضحك

(٧ يولية سنة ١٩٤١)

لا تزال طوائر المنون تحلق فى سماء الإسكندرية فترسل الصواعق والشهب على أهلها الغافين فى أكناف الأمان ، فتدك المنازل ، وتطحن الأجساد ، وتخسف الطرق ، وتقذف الرعب فى قلوب الناجين فيخرجون من دورهم هائمين على وجوههم ، فى مدارج السهول ومسالك الحقول وأزقة القرى ؛ حتى إذا ارفضّ عنهم الهلع واستقر بهم القرار ، نظروا فى أنفسهم ، فإذا هم على أرصفة المحطات ، أو على حواشى الطرقات ، أو تحت أفياء الجدُر ، فى ملابس النوم أو فى مباذل البيت ، لا يملكون ما يمسك الرمق ولا ما يستر الجسم . ثم نظروا إلى من معهم ، فإذا زوجة تصحب غريباً وهى تظنه بعلها ، وأم تحمل مخدة وهى تحسبها طفلها ، وولد ينادى أمه فلا يجاب ، ووالد ينشد أسرته فلا يجد . وحينئذ ينجلى الذهول ، ويتضح الخطب ، وتعيد الذاكرة إلى المشاعر تهاويل المنايا السود فى هوادى الليل المقمر ، فيذكرون انقضاض القنابل على المدينة ، وانهيار المنازل على الناس ، فيعاودهم الفَرَق فيذهلون ، ثم يساورهم القلق فيرحلون ، وهم لا يدرون أين ينزلون ، ولا من أين يأكلون ، والناعمون على سُرر الذهب وحشايا الديباج ، ينظرون إليهم كما ينظرون إلى أسرى الطليان فى طريقهم إلى المعتقل ، أو يسمعون بهم كما يسمعون بجرحى الألمان فى طريقهم إلى الموت !

أربعمائة ألف أو يزيدون أخرجهم القدر القاهر من ديارهم وأموالهم ، ثم تركهم عاجزين فى ذمة الوطنية والإنسانية . وإذا علمت أن الوطنية فى عُرفنا

لفظ لا يذكر إلا فى دعاية لحزب يريد أن يحكم ولنائب يريد أن يُنتخب ، وأن الإنسانية فى رأينا معنى لا يفهم إلا فى عمل تحته شهرة أو وراءه لقب ، أدركت السبب فى وقوف بنى قارون من المنكوبين موقف تماثيل المسرح من المأساة !

إذن لم يبق للمهاجرين إلا أكواخ الفقراء ، وعتبات الأولياء ، وهبات الحكومة فأما مواساة الفقراء لهم فحق ، وأما معونة الحكومة إياهم فيقين ، وأما ضيافة الأولياء فبقيت كضيافة الأغنياء موضع الشك !

كتب إلينا مهاجر أديب بطنطا يقول « أيأسنى الأمراء والأغنياء من رزق الله ، فلجأت بعيالى إلى مقام سيدى أحمد البدوى فى طنطا ؛ فلم ألق منه ما لقى اللاجئون إلى مزارع جنا كليس فى البحيرة . فهل التوسل بالأولياء عبث ، والالتجاء إليهم فى الخطوب باطل ... »

وجوابى أنى ياسيدى المهاجر أعلم الدين والحمدلله عِلْم الفقيه المجتهد ، ولكنى لا أزعم لنفسى درجة الإفتاء . على أن بين يدى الآن شيئاً يشبه الفتوى صدر عن أحد مفتى الديار المصرية فى عهد مضى ، أقدمه إليك لعل فيه بعض الغناء فى موضوع هذا الاستفتاء !

وقع فى نفس هذا المفتى أن شيخ الأزهر إذ ذاك سعى هو وحزبه بين الخديو وبينه حتى أفسدوا حاله عنده ، فاستعدى عليهم سيدى أحمد البدوى بقصيدة رفعها إلى مقصورته الشريفة ، بعد أن قدم لها هذه المقدمة الطريفة ودونك المقدمة والقصيدة ! (١)

« التجاء واستنجاد ، برجل الفتوة طويل النجاد ، وإمام الأولياء ،

---

(١) المقدمة والقصيدة نشرتا بمجلة المنار م ٢٧ ج٣ ص ١٧٣

وسراج الأصفياء ، الغوث الأوحد ، سيدى وولىّ نعمتى البدوى أحمد ، دامت إمداداته ، وعمت فى الدارين بركاته

آمين آمين لا أرضى بواحدةٍ حتى أضم إليها ألف آمينا »

* * *

أيرضيك يا غوث الورى و إمامهم غَيبتة أهل الحق والحق ظاهر
تعدى لئيم القوم واشتد بغيه وجاء بكل الحقد وهو يجاهر
أتى بالمعاصى مُعْلناً وهو يدعى مكانة دين قيم ، وهو فاجر
وساعده حزب على شكله سعوا بكل فساد أوضحته الكبائر
فضلّوا جميعاً عن طريق رشادنا وأزهرنا منهم غدا وهو صاغر
فجئنا حماكم نرفع الأمر سيدى ونطلب دين الله والله ناصر
وأنتم إمام الأولياء ولا مِرًا وأنت غياث الملتجى وهو حائر
إذا كان يا مولاى أزهر ديننا تدور عليه فى الضلال الدوائر
فأين يكون الدين يا سيد الورى وأين يكون العدل والعدل عاطر
فها قد بسطنا بعض شأن يزيده وثم أمور قد حوتها الضمائر
فمنها دخول فى البقا وهداية لأقوم طرق الله وهى المفاخر
وصحـــــة جسم للذين أحبهم كذلك لى فى العز والعمر وافر
ونصر على الأعدا وجاه مؤبد وفوز مبين دائماً يتقـــاطر
وتيسير ما أرجوه من كل مطلب وسكنى جنان الخلد حيث الأكابر
ورؤية خير الخلق جهراً بسرعة فها قد مضى عمرى وقل التناصر
فقل يا طويل الباع ها قد أجبتكم لـكل الذى ترجون والله جابر

أصلي على المختار ربي مسلماً كذا آله ما قام بالذكر ذاكر

كتبه عبد الأخبان الواقف بالباب
الراجي سرعة الجواب :
بكرى الصدفى
مفتى الديار المصرية

فأنت ترى أن فضيلة المفتى غفر الله له لم يقنع باستعداء السيد البدوى (سيد الورى) على خصومه ، وإنما دفعه الطمع فى فضله إلى أن يسأله الهداية وطول العمر وصحة الجسم له ولمن يحب ، والنصر على الأعداء ، والجاه المؤبد ، وتيسير كل مطلب ، ودخول الجنة ، ورؤية النبي جهرة . فإذا كان سيدى أحمد البدوى قد استطاع أن يستجيب هذه الرّغاب ، فليس أسهل عليه من أن يمن عليك برغيف وجلباب . ولكنى أفهم من أسلوب استفتائك أنك ستقول : سبحانك ربى ! هذا شرك عظيم . ولعلك تمعن فى إنكارك فتزعم أن ما أصاب الإسلام من قبح القالة ، وما حل بالمسلمين من سوء الحالة ، إنما يرجع إلى ما ران على القلوب والعقول من أمثال الرسالة العليشية[1] والقصيدة الصدفية . ولكنى أعيذك بالله أن تسرع فى الحكم فتخطئ الصواب والخير لى ولك أن نعلن سؤالك إلى العلماء وننتظر الجواب .

---

(١) هى رسالة ألفها الشيخ محمد عليش المالكى فى تحريم السفر إلى أوربا وطلب العلم فيها، وقد نشرت ملخصة فى الرسالة .

من أحاديث القهوة

(١٨ أغسطس سنة ١٩٤١)

— ١ —

المنصورة بلد الطبيعة الساحرة والطبع الشاعر هى الآن مصيف ومهجر . هى مصيف ، لأن موقعها على ملتقى النهر الصغير والنهر الكبير جعلها كرأس البر على ملتقى النيل والبحر . والفرق بينهما أن (رأس البر) رملة من رمال الصحراء، والمنصورة روضة من رياض الجنة . وهى مهجر ، لأن بعدها عن الأهداف الحربية و الثغور البحرية صرف عنها لحظات المغيرين والغِيَر .

ومن جملة المصطافين بها والمهاجرين إليها تتألف فى القَهوات والندَوات جماعات فى الأدب والسياسة والتجارة واللهو والفضول ترتسم من مجموعها صورة مقاربة لمجتمعنا العام تصلح للتأمل والدرس . ومن جعل الله ديدنه وصف مايبصر وتسجيل ما يسمع ، لا يملك أن يشاهد هذا العالم الصغير دون أن يعرض بعض أحاديثه للبحث ، و بعض حوادثه للنظر

تتفيأ القهوةُ التى تجلس فيها جماعتنا الدوح الباسق والشجر الوريف بين شارع الكرنيش وشاطىء النيل فهى تنظر عن اليمين فترى فى الطريق أخلاطاً من الأجناس أكثرها الإغريق ، وأنماطاً من اللباس أغربها القلانس ، وصوَراً من الحسن أبدعُها الأوانس ، وهُولاً من القبح أشنعها المتسولون والباعة . وتنظر عن الشمال فترى فى النهر زوارق العبور تنساب حابسة فى شُرُعها طلق الهواء ، أو ضاربة بمجادفها وجه الماء ، وشباكَ الصيد يطرحها الصيادون

فى المكان الضحل فلا تصيب إلا صغار الحصى أو شبار السمك ، وخواطف الطير تحلق فوق الصائد فتخطف ما ثار أو تأخذ ما ترك .

يندو إلى هذه القهوة طوائف من الناس أأَّت بينهم وحدة الحرفة أو مصافقة المودة أو مبادلة المنفعة : فهنا المعلمون قد تكوفوا[١] على بعض المناضد القاصية يجادلون بالصوت الجهير فى الحرب والأخبار ، أو يخوضون فى حديث المفتشين والنظار ، ومذباتهم التقليدية تتحرك آليا فى أيديهم فتذود الغبار عن الثياب والذباب عن الأوجه وهناك التجار يتعاقب على مناضدهم الوسطى شكول من السماسرة والمنتجين فيقيمون فى حدودهم الضيقة سوقاً تصطرع فيها طباع المتسوقين من الإغراء والإباء ، والصخب والغضب ، والمشادة والملاينة ، والمسارة والمسايرة ، ثم ينجلى الأمر عن صفقة من الشعير أو الرز وهنالك فى أقصى الشرق مناضد بسطت عليها أغطية من القماش المخطط وقد أحاط بها عقائل من حسان الروم يفسرهن شباب منهن ، قد أنقذهم من نار الحرب سلام النيل وأفرغ عليهم وضاءة النعيم خير مصر ، وضمن لهم عيش الأمان سماحة المصريين . فهم يتساقون أقداح الزبيب ، ويتناقلون أحاديث الأنس ، ويتطارحون أضاحيك الحياة ، كأن شعبهم لم يذل ووطنهم لم يحتل وملكهم لم يشرد !

وفى خلال هذه الزُّمر ترى شاعراً وسنان الحركة نشوان الحس يقرأ على صفحة النهر الوردية أشعار الطبيعة ، أو طارئاً من ضخام القرويين لم يطق صبراً على عبث النسيم فنام على كرسيه أثقل النوم ، وغط فى نومه أقبح الغطيط وعلى حفافى القهوة ومماشيها تتهافت أفناء من ذباب البشر يقولون إنهم من رعايا وزارة الشئون الاجتماعية ، فيهم المعتوه المخيف ، والمريض المعدى ، والشيخ المتهدم ، والشمطاء الخاوية ، والناشىء الضرير ، وكلهم يسأل بإلحاف ، أو يبيع

---

(١) تكوفوا : تجمعوا واستداروا

بسماجة ، أو يحتال في سخف !

وتحت الدوحة الكبرى وفى مكان لا يكاد يتغير تجلس جماعتنا طرفى النهار وزلفا من الليل . وهذه الجماعة من تأليف الحب وحده . تقارب فى أفرادها الذوق والرأى والهوى فتمكنت بينهم الألفة ، واستكمل بعضهم من بعض ما نقص من عوامل أنسه ومباهج نفسه وأحسبنى لا أعدو الحق إذا قلت إنها كثيرا ما تشقق الحديث فى شجون من الأدب والتاريخ ، وفنون من السياسة والنقد ، وشئون من التجديد والإصلاح ، إذا هى سجلت فى (الرسالة) على إيحاء الخاطر وإملاء الطبع كانت نوعا من الإنتاج الأدبى له قيمته وأثره ولعلنى أستطيع أن أنقل إليك الحين بعد الحين مقطعات من هذه الأحاديث تجد فيها لونا طريفا من ألوان المعرفة .

واسطة عقد هذه الجماعة رجلان كل منهما طراز وحده فى مناقلة الحديث ومباذهة الرأى : أحدهما الأستاذ محمد توحيد السلحدار ، والآخر الأستاذ محمود الزناتى . أما صديقنا السلحدار فكنز مدفون لم يشأ الله أن يُعرف : نفس كريمة لا تخلق إلا فى ملك ، وحس مرهف لا يكون إلا لشاعر ، وذوق سليم لا يوهب إلا لفنان ، ورأى حصيف لا يختمر إلا فى حكيم ، وثقافة شاملة لا تجتمع إلا لعالم ، وخبرة واسعة لا تتهيأ إلا لأريب درس الأستاذ توحيد وقرأ ، ثم رحل وشاهد ، ثم ذاق وجرب ، ثم عايش النبلاء بحكم نشأته ، ولابس الدهماء بحكم وظيفته وأعانه على الإفادة من كل أولئك أسرة غنية ويد سخية ونفس مُطلعة . فأنت لا تكاد تبدأ الحديث أو تلقى السؤال فى ناحية من نواحى الأدب أو الفن أو السياسة أو التاريخ أو الطب أو الطعام أو الشراب أو اللهو إلا بادرك بقول تظنه لصوابه تفكير يومه ، أو بادهك بجواب تحسبه لسداده اطلاع ساعته .

وأما أخونا الزناتى فحديث حسن المنطق عذب الأسلوب جامع لطائفة مختارة من أخبار العلماء والأدباء ورجال الحكم شهدها بنفسه ، أو سمعها من أبيه أو قرأها فى مخطوط من نوادره ومن هذه الأخبار ما لا تجده فى كتاب ولا تسمعه من أحد . وللزناتى تطلّع الجبرتى وملاحظته ، فهو يستقصى أطراف الخبر ، ويستوعب أحوال الأشخاص ، ثم يخزن ذلك فى حافظة واعية ليؤديه متى شاء لا يند منه حرف ولا وصف ولقد اقترح أحد الأصدقاء على الأستاذ توحيد أن يطرف قراء (الرسالة) بأحاديث « من جانب الذاكرة » ، وعلى الأستاذ الزناتى أن يمتعهم بنوادر « من فيض الحافظة » ؛ فعسى أن ينزل الأستاذان على مقترح الصديق . وأن يعجّلا إلى القراء الظماء بهذا الرحيق !

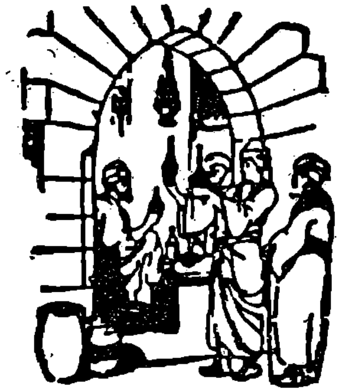

— ٢ —

أصبحنا فإذا النيل الجليل يقبل نفاحاً بالخير فياحاً بالنعيم ، تتريع[1] شطئانه الخضر بالعسجد الذائب ؛ وتتدفق مجاريه الفيح بالكوثر العذب ، وتتنفس أمواجه الصهب بالتحيات والبركات على بنيه الخلص الذين خُلقوا من طينه الحر ومائه الطهور ، وعاشوا على نائله الجم وخصبه الموفور . وكأنما تنفرج كل موجة عن سؤال من هذه الأسئلة التى اعتاد أن يلقيها كل عام على أهله :

— ماذا صنعتم يا بنى بالذهب الذى نثرته على أرضكم فى العام الذاهب ؟ هل قسمتموه بينكم على شريعة الله ، وأنفقتموه فيكم على منفعة الوطن ؟ أم هل بقيتم على طباع الوحوش الأوابد ، تتفارسون بالغيلة أو بالحيلة حتى لا تدع المخالب والمجاريف ، شيئاً للفقير أو للضعيف ؟ ألا تزال الأمة مقسومة إلى باشوات و (دلادبل) ، والسياسة قائمة على بهلوانات وتماثيل ؟

ألا يزال أربعة الأخماس من أبنائى ، يعيشون مجهودين على فضلات الخمس من أغنيائى ، وخيرى الفياض لم يدع فى مصر كلبا جوعان ولا ضفدعا عطشى ؟

أى شىء صار مائى السماوى الفرات فى دمائكم يا ساكنى الوادى ؟ أمواتا وقد أحييت الصحارى ؟ أم ذلا وقد أعززت الفراعين ؟ أم جهلا وقد خلقت الحضارة ؟ إلى متى يا بنى تقابلون برى بالعقوق ووفائى بالغدر ، وتقبلون من أوليائكم أن يدعوا مائى وترائى يذهبان فى عباب البحر كما تذهب النفحة الرخية فى ثورة العاصفة وترای مكروب وشعبى جائع !

ولكن أسئلته الأبوية السنوية تذهب فى الهواء كما يذهب فيضه

---

(١) تتريع : تفيض

فى البحر ، فلا أذن تعى ، ولا لسان يجيب !

* * *

أخذنا مجلسنا المعتاد من القهوة ، وكان النادون المعتادون قد راعهم ما رأوا من جمال النيل وجلال الفيضان فسكنت ثرثرتهم بعض السكون ، واتجهوا بمشاعرهم إلى النهر الطامى يقابلونه بالمشاشة و يبادلونه التحية وملكتنا نحن أيضاً روعة المنظر فذهلنا ذهول الشاعر المستغرق . وتراءت على مرهفى الحس منا سِماتٌ من جلوة الخاطر وطلاقة النفس ؛ وكاد الذهول ينقلب نشوة والحديث يتحول شعراً ، لولا الذباب الذى يقع فى الكأس فيكدر الصفو ، أو المتسول الذى يسقط فى الحديث فيقطع الأنس والمتسولون فى المنصورة كالذباب فى رأس البر ، لا يَدَعون للجالس مشغلة إلا بالاستعاذة والطرد . وكان الذى صرفنا عن المنظر الساحر والحديث العذب نوعاً من هؤلاء المتسولين طريفاً : كان رجلا كفيف البصر ، وثيق التركيب ، مربوع القامة ، على جسمه جلبابٌ محكم التفصيل ، وعلى رأسه عمامة حسنة التكوير ، وفى يده هراوة صلبة العود كان يقود نفسه على طوار الشارع وهو يقول بصوت جهير رزين ، ولهجة متزنة آمرة : « طالب من الله : أفطر ، وأشرب القهوة ، ونصف ريال ، وواحــد يلمه لى » !

لم يكد هذا الرجل يُبدىء و يعيد ، و يذهب و يجىء ، حتى نهض إليه الجالسون بالقرش بعد القرش حتى أعلنهم أنه استوفى حقه ثم انصرف عنهم إلى غيرهم دون أن يجود عليهم بما تعود المتسولون أن يسرفوا فيه من مبتذل الدعاء والشكر !

قال لى صاحبى وقد بدا عليه ما بدا على من العجب العاجب : هذا المتسول

واحد من هؤلاء الأوزاع المتبطلين الذين يلحون على الناس بالضراعة والوضاعة ، ويلح الناس عليهم بالنهر والقهر ، فما السر الذى حمل القوم على أن يفردوه بهذه المعاملة ؟

فقلت له : السر فى رأيى هو القوة التى برزت فى هيئته ولهجته والإنسان منذ كان يعجب بالقوة ويخضع للقوى بدافع من فطرته ، لأن القوة دليل الحياة الصحيحة ووسيلة العيش العزيز ، وهى معبودة منذ كانت فى تهاويل الفلك وأفاعيل الطبيعة وتعاجيب الناس ولولا سلطانها الفطرى على القلوب لما عُبد صنم ولا قدس طاغية .

ربما يتفق لك أن تجادل بعض الناس بالحسنى وتحاجه بالمنطق ، فيركب هواه ويصر على غيه ، فإذا فجأته بالصيحة الغاضبة استكان وسلم . وإنك لتجد كثيرا من خلق الله يصفقون لهجمات هتلر ، ويصفرون[1] لخطب روزفلت ! وأولئك هم العامة وأشباههم ممن غلبت على نفوسهم عبودية القوة فآمنوا بالحيوان وكفروا بالإنسان ، وانقادوا للعاطفة وغفلوا عن المنفعة !

الديمقراطية كما تعلم وليدة المدنية العليا وما كان لمدنى سليم النفس والفكر والإرادة أن يعود إلى عيش القطيع فيلقى مقادته إلى رجل مثله يجوز عليه ما يجوز على البهيم من غلبة الشهوة وطغيان الأثرة ، ولكن النفس البشرية على ما بلغته من المدنية والثقافة لا تزال فى سرائرها بقايا من نوازع القوة تفسد بها وتصلح . فهى فى السلم الطويلة والرخاء الوارف تماع فلا يمسكها غير الشدة ، وفى الحكم الصارم والسلطان الغشوم تذل فلا يعزها غير الهوادة . لذلك كانت الديمقراطية ياصديقى كالدم : كلما اعتل الجسم واختل نظامه كان

(١) التصفيق استحسان والتصفير استهجان.

أول ما يشير به الطبيب على المريض ترك اللحم كذلك كلما انحل الشعب واسترخت قواه واضطرب أمره ، كان أول ما يأمر به الزعيم نسخ الديمقراطية . ذلك ما كان فى روسيا و إيطاليا وألمانيا وأسبانيا ، ثم كان أخيرا فى فرنسا وطن الجمهورية ومعبد الحرية ومعقل الدستور ! كأنما خلق الانسان آكل عشب فاللحم دخيل على طعامه ، وكأنما فطر على الجبر والاكراه فالحرية غريبة عن نظامه !

— ٣ —

حبسنى عن ندامى « الـكافورة » عوادٍ من الشغل والمرض فلم أعد إلى الأنس بهم إلا بعد حين : وهذا الحين على قصره كان كافياً أن يجعل الحال غير الحال ، و يبدّل الجو غير الجو .

هذه طلائع الخريف الباكر قد هيمنت على الأفق : فالرياح السوافى تنوح على عذبات الشجر الوريق فيرتعد فَرَقاً من نذير الجفاف والموت ، والغمائم الرقاق تتجمع غبراً كخمل النعام ، أو تتفرق بيضا كندوف القطن ، فيتعاقب من تجمعها وتفرقها الظلام والنور والظل والحرور على صفحة النهر ووجه الأرض .

وطلائع الخريف تبـكر فى الريف فتحدث فى نظام الطبيعة قليلا من الفوضى . ذلك أن الفيضان يشارف غايته المقدورة فى أوائل سبتمبر ، فيُترع النيل كل القنوات ، ويغمر أكثر الحقول ، ويكون من جراء هذا الرى الطافح أن يفتر الحر و يرطب الهواء ، و ينعقد بخار المـاء سحباً فى السماء وأندية على الأرض ، فلا تجد أواخر الصيف مناصاً من الرحيل وفى رحيل الصيف على هذه الحال الفاجئة اضطراب فى حياة الناس والزرع فالقطن يعوقه احتجاب الشمس عن اكتمال النضج فيفسد لوزه ، والإنسان يُعجله تغير الجو عن اتخاذ الحيطة فيميل اعتداله .

* * *

سكنت الريح بعد هبة حمقاء هصرت غصون الشجر ، وكشفت أغطية الموائد ، وقلبت وجوه الُحدّاث والُجلاّس فقطعوا سلاسل الحديث ، واسترجعوا

زميل النظر وكان إخواننا المصطفَوْن قد نابهم من ثورة الريح ما ناب الناس، فانزوى كل امرىء عن أخيه وانطوى على نفسه . فلما سكت عن الريح الغضب عادوا يستقبلون أنفاس الموج ويستروحون أنسام الزروع ، ويستمعون إلى الأستاذ نجيب ، وكان يتحدث عن مشكلات التموين ومخزيات الإدارة والأستاذ نجيب مدرس بكلية الآداب ، قضى أسابيع من عطلته بين أهله فى سمنود . وكان له بجانب ذهنه معدة كمعدة الأحياء لا تفتأ تطلب القوت ، والقوت اليوم بفضل الطاغية « هتلر » لم يعد كما كان مبذول المنال يأتيك على اغتماض وأنت وادع ، إنما أصبح عزيز الدرك لا تناله إلا ببطاقة أو صداقة أو شفاعة فكان يلقى كتابه من يده ثم يخرج ومعه بطاقة التوزيع يسأل عن القمح فلا يجاب ، ويبحث عن البترول فلا يجد .

نظام البطاقات محكم دقيق يضمن لكل بطاقة رصيدها ، ولكل مستهلك نصيبه ، فمن أين جاء الحرمان والخير موجود ؟ وكيف سيطرت الفوضى والنظام قائم ؟ كان الأمين الذى حملته الحكومة على خزائن التموين قد قضى أن يكون مع بطاقة التوزيع تصريح منه لا يظفر به إلا ذوو المال أو الجمال أو القربى، وصديقنا الأستاذ لم يؤته الحظ شفاعة من هذه الشفاعات المجابة ، فبقى فى جمهرة الفقراء يحتشدون كل يوم على باب الأمين يسألون فيه غير مجيب ، ويسترحمون منه غير راحم قال الأستاذ وقد نبض من الغيظ نابضه فارتجفت شفتاه وتهدج صوته

كان مئات من ذوى الضعف والمسكنة يتركون بيوتهم صفراً من القوت والوقود ، ويظلون النهار كله على باب هذا (الحاكم) قياماً وقعوداً وبأيديهم القفف والأكياس ، وفى جيوبهم البطاقات والنقود ، يسألونه التصريح مرة

بالدعاء ومرة بالبكاء ، فلا يجيبهم غير الجنود بعصيهم الملهبة وكلماتهم الغليظة ، حتى إذا أمسى المساء انصرف المجدودون بتصاريحهم إلى تاجر بعينه يكتالون بالسعر المقرر ، وانقلب المكدودون بأوعيتهم إلى التاجر نفسه يكتالون بالسعر المكرر . ومن عرق البائسين ودموع اليتامى تنتفخ جيوب وتكتظ كروش ، وبأمثال هذا الموظف وذلك التاجر تدول دول وتسقط عروش !

قلت : وما يدريك يا نجيب ؟ لعل الحال فى بلدك هى الحال فى كل بلد ! لقد فجر التجار وهودتهم[1] المطامع ، فاحتكروا السلع ، واختزنوا الأرزاق وعموا عن طريق الحق ، وصموا عن نداء الضمير ، ولم تزعهم خشية الله ولا سطوة الحكومة ، لأن الله يمهل ، ولأن الإنسان يهمل . والقانون من غير تنفيذ ورق مطبوع ، والتنفيذ من غير خلق ظلم مسلح

إن فى مخازن الأغنياء ومخابىء التجار من الأقوات مالو عرض للبيع المشروع لأعاد إلى الناس عيشهم الأول ، ولكن الفقدان والحرمان سيدومان مادام للطامع يد وليس له قلب ، وللحكومة لسان وليس لها عين

إن الحكومة قد أيقظت وعيها ورأيها لشؤون الوقاية والتموين ، وفى سبيلهما تستطيع أن تبتكر الأسلوب البارع وتسن النظام المحكم ، ولكنها لا تستطيع أن تبعث النور فى الحس المظلم ، ولا الشعور فى الفؤاد المصمت .

هذه انجلترا تمون ملايين الجنود من نهر النيل إلى بحر قزوين ، ومن أقصى المحيط الغربى إلى أقصى المحيط الشرقى ، فهل تجد مع ذلك جندياً فى البر أو فى البحر أو فى الجو يزعم أن نصيبه الموفور من الطعام والشراب والفاكهة والخمر والحلوى والعتاد والسلاح والذخيرة لم يدركه فى موعده الموقوت على أكمل نظام وأعدل قسمة ؟ وهل كان هذا العمل المعجز ممكناً لو لم يكن بإزائه خلق

---

(١) هودتهم : جعلتهم يهودا .

يعين على قضاء الحق ، وضمير يحث على أداء الواجب ؟

قال الأستاذ : وهل عطل الأنظمة وعوّق الإصـــلاح وأوهن العلائق وشتت الوحدة وأشاع البؤس غير فساد الأخلاق ؟ إن ما أصابنا من نـكد العيش وذل النفس وحبوط العمل ، نتيجة محتومة لما أصبنا من فحش الجور وقبح الأثرة وسخف الذمة . (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة) فقال الأستاذ توحيد : إن التعبير هنا بالدابة من معجزات البلاغة القرآنية ، فإن الناس إذا زاغو عن طريق العدل ، وخرجوا عن منطق العقل ، لا يصدق عليهم غير هذا اللفظ .

وعادت الريح البـاردة تهب هبوب الخلق الشموس فقطعت الحديث ، وقوضت المجلس ، وأنذرت القوم أن يهجروا الـكافورة فلا يعودوا حتى يعود الربيع

— ٤ —

كأننا حين كنا نجلس فى لَحَقَ القهوة على شاطىء النهر كنا نشرف على مسرح من مسارح الفكر والشعور لا يقع فى صفوه كدر من أوزار الناس ، ولا قذر من أوضار المادة . فلما دفعتنا بواكر الخريف إلى داخل القهوة أحسسنا الدنيا بصخبها وشغبها ، وجدها ولعبها ، وصدقها وكذبها ، وفشلها وغلبها ؛ واستشعرنا ثقل الحياة وضعة الناس وسخف الروايه الإنسانية تمثل على أسلوب واحد كل يوم فى أى مكان من الأرض صغير أو كبير ، وبأى عدد من الناس قليل أو كثير .

مسرح الحياة فى القهوة ضيق المجال ضئيل العدد قليل الشهود ، ولكنه صورة مقاربة لمسرحها فى الوجود الأكبر ثلاث سلاسل من المناضد الرخامية امتدت فى ثلاثة أورقة ، قد جلس عليها هواة النرد والدومينو والشطرنج والورق : فأما النرد ، ومثله الدومينو ، فيمثل مذهب الحظ والتهويش فى ابتغاء الربح ؛ فلاعبه لا ينفك طياش الحلم جياش الدم ، يصك الخانة بالقشاط ، ويربك الخصم بالعياط والزياط وأما الشطرنج ، ومثله الورق ، فيمثل مذهب الروية والأناة فى محاولة الكسب ؛ لذلك ترى لاعبه ساكناً ساكنا كتمثال الحكمة ، تحسبه من طول تفكيره لا يعمل ومكسب العقل أو الشطرنج بطىء ولكنه ثابت ، ومكسب الحظ أو النرد سريع ولكنه متقلب

وعلى حواشى هذه السلاسل جلست جماعات مختلفات فى منهج السلوك ودرجة الثقافة ؛ فهؤلاء من رجال العمل يداهى بعضهم بعضاً فى مبايعة أو

مقاولة ، وأولئك من رجال العلم يتنازعون الحجج فى مناقشة أو مجادلة .

وفى مماشى القهوة أفراد من صعاليك الخلق يمشون وأبصارهم لاتقع إلا على النعال أو على الأرض : أولئك هم ماسحو الأحذية ولا قطو أعقاب السكائر ؛ وهم يمثلون الذين رضوا بالهوان والدون ؛ وجهلوا أن فوق الأرض سماء وأن مع (البراطيش) طرابيش !

ولو أردنا لوجدنا لكل طبقة من طبقات المجتمع صورة من صور القهوة نشقق عنها الحديث ونعمق فيها البحث ، ولكننا نقف اليوم عند صورة هذه العيون المشدودة إلى الأرض ، أو المعقودة فى النعال ، فإنها أولى بالتفكير وأجدر بالرثاء

هذه الصورة تمثل الفلاح ابن الأرض وعبد الأرض : قصر نظره على الأرض ليزرع ، كما قصرت البهيمة نظرها على الأرض لترعى ؛ فلا هو يطمح أن يكون إنساناً يترقى ، ولا هى تطمح أن تكون طائراً يرتفع . حتى الصلاة لايعرف الفلاح منها غير الركوع والسجود ؛ أما دخوله فيها بالتكبير ، وخروجه منها بالتسليم ، فمعنيان ميتان فى نفسه ، لايفهم من الأول صلته بالله ، ولا من الآخر صلته بالناس وإذا علمت أن هذا الفلاح فى بعض الأمم الدستورية الشرقية هو الكثرة الكاثرة والسواد السائد ، علمت كيف يزوَّر فيها الرأى العام ، ويزيف النظام الديمقراطى !

كانت هذه الصورة فى تلك الليلة مثاراً للحديث عن الفلاح وما يتحمله من سوء الحالة وقبح الجهالة ؛ وكانت القهوة على ماتريد (الوقاية)[١] مغلقة النوافذ مرخاة الستائر لاتملك لضوضائها المكتومة وأنفاسها المحبوسة متنفسا ولا فرجة

(١) الوقاية : نظام كان قائماً فى زمن الحرب عمله أن يقى السكان أخطار الغارات الجوية .

وكان اصطكاك النرد وارتفاع الأصوات وضجة المذياع قد جعلتنا أشبه باليهود في بورصة العقود ، فلم نكد نسمع الأستاذ عدلى وهو يلقى هذا السؤال على الأستاذ توحيد :

— إذا صح أن الشعور بالنقص مبدأ الكمال فماذا نعلل بقاءنا في هذا الدرك الأسفل من الحياة ونحن لانكاد نسمع في كل مكان ومن كل إنسان غير شكوى من اختلال النظام واعتلال الحكم وانحلال الخلق ؟

فقال الأستاذ توحيد : أما إجماع الناس على الشكوى من سوء الحال فما أظن الواقع يؤيده . وإذا كنت تعنى إجماع أهل الرأى من رجال الثقافة والصحافة ، فإن شكوى هؤلاء لاتدل إلا على آلامهم هم والقول بأن الأمة متمدنة لأن فيها قوما يأكلون أكل الذوات ، ويلبسون لبس الخواجات ، وبأنها متعلمة لأن فيها جماعة يحملون شهادات من كل نوع ، ودرجات من كل قياس ، وأنها طموحة لأن فيها طائفة من مرهفى الحس وعشاق الكمال يطمحون إلى خطير المساعى ويتشوفون إلى بعيد المطامع ، ذلك القول لايسوغه إلا الغرور أو الهزل

صحيح أننا كنا نقول قبل اليوم . إن المصريين أصل الناس ، وإن مصر أم الدنيا ، فلما كشفت الأغطية الكثيفة عن العيون كدنا نبصر موقعنا من البلاد وموضعنا من الأمم ، ولكن ذلك لايعنى أننا شعرنا بالنقص ، ووقفنا على العلة ، وبرمنا بالجمود ، ونزعنا إلى التكمل .

إن الفلاحين وهم جمهور الأمة قد مات في نفوسهم — لسبب لا أدريه — ذلك القلق الروحى الذى يتحدى القدر ويخلق الطموح ويحقق التطور ، فإذا انبثق في صدورهم ذلك النور الإلهى اهتدوا إلى الطريق الإنسانى

الذى أضاوه ، فلا يحتاجون إلى من يبنى لهم المراحيض فى البيوت ، أو يضع لهم النعال فى الأرجل . وليس العلم شرطاً فى حبك النظافة وطلبك الحق وإبائك الضيم ورعايتك الصحة ، فإن ذلك كله من مقتضيات الفطر السليمة . والبدوى على عنجهيته وجهله لا يزال المثل المضروب فى الاعتداد بالنفس والاحتفاظ بالكرامة وفى يقينى أن الواجب الأول على رجال الدين وأقطاب الصحافة ورجال الإصلاح أن يقنعوا الفلاح بأنه إنسان.. ذلك وحده كفيل أن يعلمه كيف يعيش ، وأن يلهمه كيف يرق !

وهنا قدح الأستاذ توحيد زناده الفضى النادر ، وأشعل سيجاره التسكانى الفاخر ؛ ولم يكد يطفئه ويستأنف الكلام حتى أغلقت مفاتيح الأنوار ، وأطلقت صفارة الإنذار[1] فخشعت الأصوات ، وسكنت الحركات ، واستولى على الناس شعور من صريح القلق ورياء الصبر فاستحال الإصغاء وانقطع الحديث !

(١) صفارة لمويه كانت مصلحة الوقاية تطلقها أول الغارة الجوية وآخرها .

لا تقولوا أين الكتاب وقولوا أين القادة

(٢٤ فبراير سنة ١٩٤١)

أو كلما كظمت الأنفاس روائح الشر ، وكربت النفوس غواشي الفساد ، ذهل الناس عن مرسلى الريح ومثيرى القتام وقالوا أين الكتاب ؟ هل الكاتب إلا نذير ؟ وهل على الكتاب إلا البلاغ ؟ لقد كتبوا حتى أوشك المداد أن ينفد ، وخطبوا حتى كاد الريق يجف ؛ ولكن أكثر العامة لا يقرأون ، وأكثر الخاصة لا يفهمون : ومتى أغنى القول عن الفعل وجزى الرأى عن العزيمة ؟

إن من أقبح ما يعاب علينا وعلى أمم الشرق أننا لم نعرف من أدوات السياسة ووسائل الإصلاح غير الكلام والكتابة ؛ فسياستنا خطب ، وإدارتنا تقارير ، ومناهجنا وعود. ولو كان الشعب قارئاً لرجونا من وراء الكتابة صلاح النفس فى الفرد وسمو الروح فى الجماعة ، ولكن الأمية لا تزال بفضل وزارة المعارف حجاباً مستوراً بين عيون الناس ونور الحق . فماذا عسى يصنع الكتاب وليس لهم من الأمر شىء ؟ هل يصنعون إلا أن يفتحوا بأسنان أقلامهم أجفان المتعلمين لتنفذ إلى عيونهم صور العيوب فيدركوها ، وهم قد فعلوا ذلك ولم يألوا ؛ فعلوه فى الكتب والصحف ، وفى المدارس والمسارح ، حتى لم يبق فى هؤلاء الذين تقسموا الحكم ، وتوزعوا السلطان ، وتنازعوا القيادة ، من لم يحفظ صور الفساد ووجوه الإصلاح عن ظهر قلب ! ولكن الله الذى آتى زعماءنا ملكة الكلام لم يؤتهم ملكة العمل فهم يستطيعون أن يقولوا ما قال الكتاب ،

ولكنهم لا يستطيعون أن يفعلوا ما فعل القادة ومصداق ذلك أنك تراهم فى أندية الأحزاب، وفوق مقاعد النواب، وبين أعمدة الصحف، يكشفون عن مواضع النقص، ويشيرون إلى موقع الكمال، فيفتون فى كل مسألة فتوى العالم، ويدلون فى كل معضلة برأى الخبير، ويعترضون على كل أمر اعتراض اليقظ؛ فإذا وليناهم الحكم وخلينا بينهم وبين العمل، التاث عليهم الأمر، وبرّح بهم التطبيق، وأصبح جهدهم مصروفاً إلى مناقضة القول بالقول، ومعارضة الرأى بالرأى؛ كأنما تبوأوا مقاعد الحكم ليردوا وهم وزراء ورؤساء، على ما انتقدوه وهم كتاب وخطباء!

* * *

مَن من الزعماء يجهل أن الأمة لا تزال متخلفة فى الخلق والمعرفة والحضارة عن أدنى أمم الأرض المعدودة قرناً من الزمان؛ فحياتها بدائية، وأخلاقها همجية، ونظمها ارتجالية، ومعيشة الزراع والصناع فيها أقرب إلى معيشة البهيم، منها إلى معيشة الإنسان الكريم؟ كلهم يعلمون ذلك وإن لم يقرأوه فى مقال أو يسمعوه فى خطبة؛ ولكن اشتغالهم بسفساف الأمور، صرف أكثرهم عن النظر فى شؤون الناس وأحوال المجتمع؛ فلا يذكرون الشعب إلا يوم يقوم الانتخاب، وتصطرع الأحزاب، ويحتاج كل طامع إلى سلالم من أكتاف المساكين يصعد فيها إلى النيابة والحكم.

ومَن من الأغنياء يجهل أن الفقر فى مصر ضرب من الرق يذل النفوس، ويقتل المواهب، ويشكك المرزوء به فى العدل والحق؛ فهو يسكن ليستكين، ولكنه قد يثور ليثأر؟

كلهم يعلمون ذلك وإن لم يقرأوه فى مقال أو يسمعوه فى خطبة وهم

مقتنعون بأن علة هذا الفقر هى أكلهم الحق الذى جعله الله فى أموالهم للفقير ؛ ولكن العلم وحده لا يبسط الأنامل الكزة ، ولا يهز النفوس الشحيحة !

ومَن من العلماء يجهل أن دين الله صالح لكل جيل من الناس ولكل حين من الدهر ، فهو ثابت بحقيقته ثبوت الخالق ، ولكنه متطور بطبيعته تطور المخلوق . كلهم يعلمون ذلك وإن لم يقرأوه فى مقال أو يسمعوه فى خطبة ، ولكنهم أغلقوا على عقولهم باب الاجتهاد فظلوا فى دنيا الماضين ، يذهبون ما ذهبوا ، ويقرأون ما كتبوا ، ويجذبون ركب الإنسانية إلى الوراء ثلاثة عشر قرناً ليأخذ من ساكنى القبور ، جواز المرور !

ومَن من الموظفين يجهل أن الأمة هى أسرته الكبرى ، وأن الوطن هو بيته الأكبر ، فالعمل الذى يقوم به هو عمله ، والمال الذى يقوم عليه هو ماله ، والرجل الذى يقف أمامه فى شأن من الشؤون هو أخوه ؟ كلهم يعلمون ذلك وإن لم يقرأوه فى مقال أو يسمعوه فى خطبة ؛ ولكنهم فى الكثير الغالب يتحاملون على ضمائرهم فيخضعوها لسلطان الكبر والأثرة ، فيرفعون أقدارهم على أقدار الناس ، ويضعون المنفعة الخاصة فوق المنفعة العامة ؟

ومَن من التجار يجهل أن الحرام لا يزكو ، وأن الغبن لا يحل ، وأن الحكرة لا تجوز ؟ كلهم يعلمون ذلك وإن لم يقرأوه فى مقال أو يسمعوه فى خطبة ؛ ولكنهم فى سبيل الثراء الدنىء يتعامون عن بؤس الفقير ، ويتصامون عن صوت الضمير ، ويهتبلون فرص الحرب ليعصروا الذهب والفضة من دماء القتلى ودموع الأيامى وعرق العملة !

* * *

الواقع الذى لامرية فيه أن أمم الشرق لا يعوزها إدراك النقص ولا عرفان الواجب ؛ إنما يعوزها الرجل الذى يطبق علمها على العمل ، ويوحد رأيها على الحق ، ويجرى خلقها على الرجولة ، ويجمع شتاتها على الطريق فهل لصديقى العشماوى بك أن يوافقنى على أن مصر اليوم لا تحتاج إلى « علىّ » بلسانه الحكيم ، وإنما تحتاج إلى « عمر » بدرته[1] الحازمة ! ؟

(١) الدرة : عصا عمر بن الخطاب

بمناسبة الأربعين

بعض الكلام في (مى)

(٨ ديسمبر سنة ١٩٤١)

وُلدت « مى » وعاشت ثم ماتت كما يولد النهر من قَطْر السماء ، فتربيه الطبيعة فى الينابيع الهادئة الفسيحة ؛ ثم تبعثه برسالة الحياة إلى حوضه ، فيشق بالجهد والصبر طريقه الموحش فى صخور الجبل وقفار الأرض وأصول الغاب ، ثم يُلقى على شاطىء الوادى ما حمل من فضل الله ، فيحيا الموات ، وتتجمع الخيرات ، وتنشأ الحضارات ، وتتألف الملاحم ، ويتكلم التاريخ . ثم يأخذ النهر مجراه بين الحقول الناضرة والمدن العامرة شادياً بالمال والجمال والحب حتى يذهب فى عباب البحر كما تذهب الروح الطيبة فى فضاء اللانهاية !

لن تجد « لمى » فى حياتها وموتها أقرب من هذا التشبيه فقد كانت فى خلال ما غشى الشرق من الهمود والظلام قبساً من الحياة من يمسه وهيجه وسناه انتعش ما همد منه ، واستنار ما أظلم فيه

كانت « مى » فى حياة القاهرة ظاهرة من الظواهر العجيبة ! والعجيب فيها أنها كانت كممدوح المتنبي واحدة من ناس دنياها وليست منهم : كانت جنساً من الخلق الجميل تميز بخصائص الجنسين ، فكان فيها أفضل ما فى الرجل وخير ما فى المرأة فمن كان يسمعها خطيبة فى محفل ، أو يشهدها محدثة فى منزل ، كان يحسبها — وقد استدارت على رأسها الأنيق هالة من السحر والفتنة — « قليوب » إحدى بنات « جوبتير » التسع ، وإلهات الفنون التسعة ، قد سرقت من أخواتها أسرار فنونهن ثم هبطت من فوق جبل « البرناس » إلى ضفاف النيل .

تجدد فى الناس آى المسيح   تميت القنوط وتحيي الأمل

ومن يستطيع أن يحسب « مى » غير هذا وهى فتاة قد نشأت فى عهد كانت المرأة فيه شيئاً من المتاع ، ترى ولا تعلم ، وتسمع ولا تفهم ، ثم تحذق هى الكتابة والخطابة والشعر والفلسفة والتصوير والموسيقى ، وتتقن العربية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية والألمانية والإسبانية ، وهى لم تولد فى قصر ، ولم تتخرج فى جامعة ؟ !

* * *

أبصرت « مارى زيادة » الدنيا أول مرة فى « الناصرة » بلد المسيح ، ومن هنا استوحى أبواها اسمها الأول على ما أظن . ثم أرسلت إلى منبت أسرتها فى قضاء كسروان بلبنان ، فتفتقت طفولتها قليلا فى مدرسة « عين طورة » ، ثم هاجرت إلى مصر مع والديها ، فتفتح صباها الغض على ماء النيل ، وتفتق ذهنها الصافى على نسيم الوادى . وكان والدها إلياس يحترف الصحافة ويصدر (المحروسة) فكان لها من عمل أبيها ، ومن أصالة الملكة فيها ، حافز سديد

التوجيه إلى الأدب . ولـكن أدبها على الرغم من نشوئه و بلوغه و نبوغه فى القاهرة لم يتأثر بأدب مصر ، و إنما تأثر فى شـكله وموضوعه بأدب لبنان ، لأن الأدب اللبنانى كان وحده فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر مظهر الحياة والجدة والتنوع فى الأدب العربى الحديث فبينما كان الأدب المصرى يصدر عن الأزهر ، والأدب العراقى يصدر عن النجف ، والأدب السورى يجرى على أسلوب هذين الأدبين ، كان الأدب اللبنانى يصدر عن مدارس تتسم بسمة الدين ، ولـكنها تعترف بوجود الدنيا ؛ فهى تعلم العلوم الحديثة ، وتلقن اللغات الحية ، وتعتمد فى أدب القلب على الإنجيل ، وفى أدب اللسان على القرآن ، فبيضت الـكتب الصفراء[1] ، ورتبت المعاجم المشوشة ، ونشرت الـكتب المقبورة ، ولقحت الآداب العربية بالآداب الأوربية وكان من أثر هذا اللقاح النقد والترجمة والصحافة والتمثيل والقصص وكان من ثمر هذا اللقاح طلائع هذه النهضة من آل اليازجى والبستانى والشرتونى وزيدان وصروف وشميل والريحانى وجبران ومطران . وكان لابد لمارى العربيـة أن تجنى ثمر الثقافة مما غرس الفرنسيسكان والأمريكان والمارون ، وأن تقبس نور العروبة من الضياء والهلال والمقتطف ، وأن تناجى عنادلنا الغردة فى رياض مصر وخمائل لبنان ومنازه الدنيا الجديدة ، وأن يحملها الاعتداد بجنسها ولغتها على أن تقتصر من اسمها الأعجمى على طرفيه ليـكون اسمها العربى (مى) وعلى هذا المنهج بلغت مى غايتها من الأدب والعلم والفن ، فاستفاض ذكرها على الألسنة ، وعظمت مكانتها فى الأفئدة ؛ ووصلت بينها وبين كثير من أولى الفـكر والجاه أسباب من الروح ؛ فـكان صالونها فى أيام الثلاثاوات كصالون الولادة بنت المستـكفى منتجع الصفوة من أقطاب السياسة وأعيان الأدب يعكفون على أصدق مثال

---

(١) كتب الأزهر المعقدة

للأناقة واللباقة والذوق فى فتاة بارعة الظرف ، تشارك فى كل علم ، وتفيض فى كل حديث ، وتختصر للجليس سعادة العمر كله فى لفتة أو لمحة أو ابتسامة !

* * *

لقد كان لمى ولصالون مى فى أدب العصر آثار وسمات : ألهمت صبرى وأوهمت الرافعى [1] ، وألهبت جبران ، ثم أخرجت من سواد المداد صوراً مختلفة الألوان متنوعة الأفنان أضافت إلى ذخائر الفكر الإنسانى ثروة .

ثم تقدم العصر وطوت (مى) أكثر مراحل الشباب ، فتنكر الدهر وتغير الناس . وورد أبواها متعاقبين حياض المنون فاستكانت للحزن ، وأخلدت إلى الوحدة ، فانفض السامر الأنيس ، وانطفأ السراج اللامع وانحدرت (مى) فى طريق الوحشة والمرض والنسيان إلى نهايتها الأليمة !

* * *

أما بعد فقد قال بشار لبعض جلسائه ذات يوم : ما سمعت شعر امرأة قط إلا أحسست فيه الضعف ! فقيل له : أو كذلك الخنساء ؟ فقال فى لهجة الفطن المحترس : أوه ! تلك فوق الرجال !

ونحن نقول فى مى ما قال بشار فى الخنساء ، ونزيد عليه أن مى هى الأديبة الكاملة فى تاريخ الأدب العربى كله ! أما إجمال هذا التفصيل فله مناسبة أخرى

---

(١) كان المرحوم مصطفى صادق الرافعى من زوار مى وكان يتوهم من جميل لقائها أنها تحبه

على ذكرى عيد الميلاد

(٢٢ ديسمبر سنة ١٩٤١)

بعد ثلاثة أيام تتجدد ذكرى « مولد المسيح » فيقف أبناء « قابيل » آلة الحرب ؛ ثم يخرون جاثين لله فى الثكنات والمطارات والبوارج والخنادق والمخابىء والكنائس يرتلون وهم حاسرو الرءوس نشيد السلام المأثور :

« المجد لله فى الأعالى ، وعلى الأرض السلام ! »

فإذا أصبحوا انقلبوا سراعاً إلى آلات الفناء فأرسلوا منها الصواعق على إخوانهم الذين هتفوا معهم بالمجد لله فى السماء و بالدوام للسلام على الأرض ، فسحقوهم أو أحرقوهم على رمال لوبيا ، وفوق ثلوج روسيا ، وبين أطباق الهواء ، وتحت أعماق الماء ؛ كأنما اختلت الدنيا ، واختبلت الناس ، وانقلبت المعانى فصار الدين معناه الكفر ، والسلام معناه الخصام ، والمفاوضة معناها الختل ، والمعاهدة معناها الغدر ، والأخوة معناها العداوة ، وأصبح هذا الكوكب بقاراته ومحيطاته وسكانه كرة من النار تتقاذفها الأرجل الحديدية بين فريق هتلر وموسولينى والميكادو ، وفريق تشرشل وروزفلت وستالين ولا يدرى إلا الله من سيقذفها فى (الجول) ؛ وما الجول هنا إلا عبودية الأبد ، أو حرية الأبد !

كان العالم المسيحى فى مختلف أقطاره يجدد بعيد الميلاد ما انطمس فى نفسه من معانى المودة والرحمة والأسرة والطفولة ، فيصل بالتزاور ما انقطع من أسباب القرابة ويؤكد بالتهادى ما وهى من عرى الصداقة ، وكان الميكادو على وثنيته يقوم بدور الشيخ الطيب « نويل »[1] فيحمل اللعب من اليابان بأبخس

---

(١) إشارة إلى أن اليابان كانت تصدر إلى الأمم لعب الأطفال قبل الحرب .

الأثمان إلى كل بيت فيه طفل ؛ فلما صُلِبت المسيحية فى أوربا على صليب النازية المعقوف انتكست الطباع ، وانعكست الأوضاع ، وانكفأ بعض الشعوب إلى البربرية الأولى ، يغالبون بعصبية الجنس ، ويسودون بيأس الحديد . وجامل الميكادو فى الشر كما جامل فى الخير ، فترك دور الشيخ « نويل » وقام بدور الأب « فويتار[1] » ، فاستبدل بلعب الاطفال من صور الدبابات والطائرات والساحات ، قطعاً كالجبال من الحديد والبارود تدك مدائن البر ، وتبتلع جزائر البحر ، وتشعل النار فيما بقى من أطراف الأرض ، حتى أوشك أن يخرج من الصواب قول الفلكيين إنها كوكب مظلم !

* * *

بعد ثلاثة أيام تعاود الناس ذكرى ليلة الميلاد وهم من تفاعل المذاهب والقرون فى رجفة من الصراع الماحق توشك أن تقيم عليهم القيامة وسيذكر الشباب المجندون لمجالدة الحق أو مجاهدة الباطل أنهم كانوا فى مثل هذه الليلة أمام المواقد وحول الموائد قرة عيون وزينة بيوت ، وأنهم فى هذا اليوم يستقبلون عيد الحياة وهم مشردون فى مجاهل الأرض ومساقط الموت لا يعرفون متى يصرعون ولا أين يقبرون ثم يقول هذا الشباب الرّيق الريان لنفسه : أبعد التربيب والتهذيب والعيش الناعم والأمل الباسم والغد المرجو نصير طحيناً لهذه الرحا الهائلة من غير سبب موجب إلا نزوة من نزوات الطيش ، فى رأس رجل من طلاب العيش !

---

(١) يعتقد أطفال المسيحيين أن بابا نويل يزور البيوت ليلة عيد الميلاد ومعه الأب فويتار فيوزع هو على عقلائهم اللعب والحلوى ، ويترك الأب فويتار لخبثائهم حزما من العصى الصغيرة اللينة .

— أما الزعماء الستة الذين يحاولون أن يقرروا مصير العالم على مشيئة الله أو على هوى الشيطان ، فسيذكرون بمولد المسيح أشياء أخر : سيذكر هتلر بيلاطس ودقليانوس ، وسيذكر الدتشي يهوذا ونيرون وسيذكر رزفلت بولس ، وسيذكر تشرشل قسطنطين ، أما ستالين إن ذكر فسيذكر لوثر ، وأما الميكادو فلا يذكره العيد معنى من حياة المسيح ، ولا مغزى من تاريخ المسيحية ، إنما يذكره تلك اللعب التي كان يقدمها إلى لهو الاطفال ليربح من ورائها القروش ، فأصبح اليوم يقدمها إلى قتل الرجال ليربح من ورائها العروش !

* * *

سبحانك ربِّ السموات والأرض ! ما كان لنفس مؤمنة أن تحسبك تركت أمر هذا العالم لهؤلاء الحمقى من خلقك

لا جرم أن لك من هذه القارعة الصغرى حكمة تدق على بصيرة ابن آدم .

إن مع القيامة نشورا أكمل وحياة أفضل كل نظام سنه ابن العاصى[1] سيتغير ، وكل قانون نزغ فيه الشيطان سيلغى ، لن يبقى يامولاى غير شرعك ، ولن يدوم غير دينك .

وكَلْت ابن آدم إلى نفسه فجرب قواه كلها فى تدبير أمره وتسخير غيره فما أنتج غير الاضطراب والخراب والفوضى .

تبجح بعلمه وتشريعه وفلسفته ؛ وزعم أنه هيمن على الغريزة بقوة الخلق ، وسيطر على الطبيعة بسلطان العلم ، وتوهم أنه يستطيع بما كشف عن الأسرار وذلل من القوى أن يصنع مفاتح الغيب ويقتحم أبواب القدر ، فلما ابتليته بتحقيق زعمه وتطبيق فهمه ، تحرك فى طبعه الطين[2] الراسب ، وتيقظ فى نفسه الحيوان الراقد ، وتألبت الأهواء على رأيه فاضطرب وتفرق ، وتغلبت

---

(١) العاصى . آدم (٢) إشارة إلى أن آدم خلق من طين .

الطامع على جمعه فتنازع وتمزق !

* * *

ربّاه إنا مؤمنون ، وإنا مطمئنون ، فأدم علينا نعمة الهداية ، واكفنا شرّ هذه الغواية ، واجعلنا الأدلاء على طريقك ، والأمناء على حقك ، حتى تنجلي هذه الغمة عن الدنيا ، فيرجع إليك الغوى ، ويخضع لك القوى ، ويلوذ بك الضعيف !

مشكلة الرغيف

(١٩ يناير سنة ١٩٤٢)

وكيف لا يكون للرغيف مشكلة ، والمشكلات منذ هبط الإنسان الأرض إنما تتناسل من أب واحد هو الرغيف ، ومن أم واحدة هي المرأة ؟

سمِّ الرغيف وسيلة حفظ الحياة ، وسم المرأة وسيلة حفظ النوع ؛ ثم حاول أن تنسب بشيء من التحليل الدقيق جميع ما سجل التاريخ من خصومات وأزمات وثورات إلى هاتين الوسيلتين ، أو هاتين الغريزتين ، فلن تجد في نسبة البنات إلى أبويهن غموضاً ولا مشقة .

كانت المرأة في بدء الخليقة هي حواء ، وكان الرغيف في حياة الجنة هو الشجرة ، وكانت الأثرة والطمع والحسد هي إبليس . وكانت الضحية لهؤلاء جميعاً هي سعادة آدم .

ثم مضى الرغيف والمرأة وإبليس يعملون في دنيا الأرض ما يشاء القدر : يصلحون هذا ويفسدون ذاك ، ويعمرون هنا ويخربون هناك ، ويخلقون التنافس لتنشط عناصر الحياة ، ويوجدون الخلاف لتتفق عوامل الموت ، وينزعون الملك من يد إلى يد ، وينقلون الحكم من دولة إلى دولة ، حتى قال ابن أبي الحديد بحق « لم تسَلّ السيوف إلا لوجه أصبح من وجه ، ولقمة أسوغ من لقمة »

ولو كان الملائكة يأكلون الرغيف ويخالطون المرأة لكانوا أناساً كالناس ، ولكان الملكوت الأعلى كالملكوت الأدنى ؛ ولكن الله لم يشأ أن يجعل

النور كالظلام ، ولا أن تكون السماء كالأرض !

على أن الرغيف لاكتنان سر الحياة فيه كان أشد الثلاثة إيقاداً للخصومة !

كان مالك بن أنس يذكر عثمان وعلياً وطلحة والزبير فيقول « والله ما اقتتلوا إلا على الثريد الأعفر[1] »

وأنت إذا ذكرت فى تاريخنا ، العدنانية والقحطانية ، والقيسية واليمانية ، والمهاجرين والأنصار ، والهاشمية والأموية ، والعباسية والعلوية ، والعروبة والشعوبية ، والتركية والفارسية ، والهلالية والصليبية ، والإسلامية والقبطية ، والسعدية والعدلية ، والفُلانية والعِلاَّنية ، لما قلت إلا ما قال أنس بن مالك !

كذلك إذا ذكرت فى تاريخ الناس الشرقية والغربية ، والديمقراطية والدكتاتورية ، والرأسمالية والشيوعية ، لما وجدت لهذه الأسماء معنى ولا مغزى إلا ما قاله كثير بن شهاب لغلامه وقد طلب منه الطعام يوماً فقال الغلام ما عندى إلا خبز وبقل قال : ويحك ! وهل اقتتلت فارس والروم إلا على الخبز والبقل ؟

لذلك كله عالج الدين مشكلة الرغيف بتنظيم المعاملات ، وفرض الصدقات ، وكفكفة النفوس الشرهة بالقناعة والعفة والحدود ؛ واتقت الدول جرائر الرغيف بالعلم والنظام والإصلاح والاستعمار . فإذا غلب الكفر أو طغت الأثرة ، شبت الثورة أو نشبت الحرب . ذلك أن الفرد أو الشعب يصاب فى حريته فيصبر ، ويؤذى فى كرامته فيستكين ، ويفتن عن عقيدته فيرضى ؛ ولكنه إذا حرم

(١) الثريد الأعفر : الخبز المفتوت فى مرق اللحم .

الرغيف انقلب ضارياً كالوحش ، أو جارفاً كالبركان ، لا يذر من شيء أتى عليه إلا جعله كالرميم .

* * *

هذه مصر هبة النيل وجنة الشرق وملتقى البحرين والبرين طالما عركتها الخطوب فاستكانت للقدر ، واستعانت بالصبر ، ومضت على حسن ظنها بالله ، تتربص الدوائر بالمغير ، وترجو الغوائل للظالم ، حتى إذا أخذت هذه الحرب الأكول تنازعها الرغيف ، أصبحت كلها لساناً واحداً يتضاغى مخافة انقطاعه ، فلا تجد فى الأمة ولا فى الحكومة إلا سائلاً عنه ، أو شاكيا منه، أو باحثاً فيه، أو ساعياً له ؛ وكأنما اختزلت لغات الناس فأصبحت لا تعدو ألفاظ التخزين والتموين ، والإحصاء والاستيلاء ، والاستيراد والاستكثار ، والمطاحن والمخابز ، وما يدخل فى هالة الرغيف النورية من مادة وأدب فليت شعرى إلام تؤول الحال إذا تأزم الأمر ، وضاقت موارد الرزق ، فلا أرض تغل ما يكفى ، ولا بحر(1) يسد ما ينقص ؟!

تمثيل الحال فى الخيال مرعب فما بالك بتقرير الحس وتصوير الواقع ؟

الأمر جد لا مساغ للعبث فيه . والخطر بادٍ فلا مناص من الاعتراف به . والتقصير ثابت فلا سبيل إلى التنصل منه وإذا فاتنا الاستبصار للمستقبل فلن يفوتنا الاعتبار بالحاضر وإذا عجزت السياسة أن تحل مشكلة الرغيف فلا أزعم أن يحلها الأدب وكل ما يستطيع الأديب أن يقوله للسياسي إن مشكلة التموين لا يحلها أن يكون لها وزارة ، ولا أن تقصر على أمورها السياسة والإدارة ؛ إنما يحلها أداء الحاكم للواجب ، وقضاء المحكوم للحق وأقسم بالله جَهْدَ القسم لو أن القائمين على شئون الناس بسطوا لها الأيدى النظيفة ، ونحروا

---

(١) المراد بالبحر أن يأتى الناقص عن طريقة من الخارج وهو الاستيراد .

عيها الأوجه الصالحة ، ثم ساووا بين العامة والخاصة فى القسمة ، عدلوا بين الأقوياء والضعفاء فى التكليف ، وأيقظوا العيون لخفايا الحيل ، وأنضجوا الآراء لمشتبهات الأمور ؛ ثم عاونهم الشعب بفضائله ، فلا يطمع المنتج ، ولا يدخر المستهلك ، ولا يحتكر التاجر ، ولا يشح الغنى ، ولا يجزع الفقير ، لما كان الرغيف فى مصر مشكلة ، ولا كان للتموين فى الحكومة وزارة ولكن مشكلة المشكلات هى أن مكارم الأخلاق لا تباع ولا تعار ولا تكسب فى الزمن القليل ، إنما هى تهذيب الدين الصحيح وصقال الدهر الطويل .

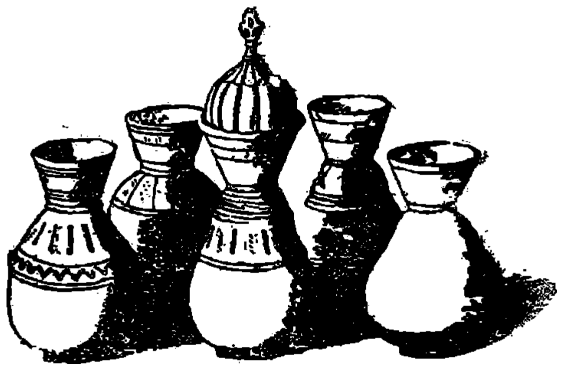

صحة الفقير وثروة الغني

(٢ فبراير سنة ١٩٤٢)

فى هذه الأيام العجاف يكثر الكلام فى الغنى والفقر والكلام فى الغنى والفقر وما يتصل بهما يوشك أن يكون الوظيفة الطبيعية للسان الإنسان ؛ ففى الرخاء يكون تعبيراً عن سخط مكظوم ، وفى الشدة يكون تبريراً لسخط متفجر. فإذا وجدت فى الفقراء من لا يسخط على الأغنياء فثق أنه من أتباع الفلسفة التى تؤمن بمبدأ التعويض فى قانون الطبيعة وتقول: « إذا لم يكن للفقراء الأرض فلهم السماء ، وإذا لم يرزقوا المال فقد رزقوا الصحة والآخرة خير وأبقى من الدنيا ، والعافية أعلى وأغلى من الثروة » .

من هؤلاء الذين جعلوا القناعة فلسفة رجلٌ من القراء المنكرى الصوت لا يملك فى أكثر أوقاته غير قوت يومه ، ولكنه مع ذلك موفور الحظ من السلامة ، لا يتسخط ولا يتبرم ، ولا يجد فى جسمه ما يشكوه ، ولا فى نفسه ما يرجوه ، ولا فى غده ما يخافه . رآنى بالأمس جالساً فى مكان ضاح من القهوة أنقع فى أشعة الشمس الفاترة جسدى المقرور وعلىّ من ثياب الشتاء لفائف فوق لفائف ، فأقبل إلىّ يطفر طفور الظبى بين المناضد المصفوفة وليس على جسمه غير غلالة بيضاء من التيل ، وعباءة سوداء من الصوف ، قد رفع ذيلها إلى عاتقه ، ثم جلس متهلل الوجه متماسك البدن مكتنز اللحم رفاف البشرة يكاد إهابه من فرط الرّى وسورة المرح ينشق فلما تكلم وجدته على ما عهدته من فراغ البال وسلامة الصدر وقلة المبالاة ، فلم أتمالك أن بدهته بهذا السؤال : أفى هذه

السن وفى هذه الأيام لا أرى للخبز المخلوط[1] أثراً على وجهك ، ولا أسمع المجاعة المتوقعة ذكراً على لسانك ؟

قال الشيخ منصور بلهجة الخلىّ وضحكته : والله يا سيدى ما أكلت الخبز نقياً من قبل حتى أشكو خلطه اليوم . ومن تعود أن يأكل الخبز مخلوطاً بالحصى والتراب ، لا يصعب عليه أن يأكله مخلوطاً بالذرة والرز . أما المجاعة التى يتوقعها الناس فلا تختلف عما أنا فيه وإذا جاز لى أن أشكو شكوت إلى الله طغيان الصحة ؛ فان للصحة الطاغية تكاليف أقلها النَهم والقرَم[2] وتحلب الريق وسُعار الجوف وسرعة الهضم وتحقيق الشبع الدائم للشهوة الدائمة لا يمكن إلا بخزائن عاشور ومخازن عمرو . إنى أسأم الصحة كما يسأم غيرى المرض وفى ساعة من ساعات الشِرّه يقوم فى نفسى أن الله قد منح الفقراء الصحة ليزيد ألمهم من الحرمان ، ولكننى حين أسكن أطيط[3] أمعائى بفطيرة من الذرة وطبق من المش ورأس من البصل وحزمة من السريس ، ينمحى ما صوره الخيال فى ذهنى من أطيب الآكال وأعذب الأشربة ؛ ثم تنتشر على بدنى حرارة العافية فأرى الجمال فى كل منظر ، والنعيم فى كل شىء ، واللذة فى كل عمل ؛ وأدرك بمشاعرى السليمة القوية ما انبثّ فى عالم الحس من كل متاع ويخيل إلىّ من فرط الشعور وفيض السرور أن الهواء الذى أنشقه هو مددٌ من الروح الخالق يبعث فى جسمى النشاط وفى نفسى الغبطة .

أؤكد لك يا سيدى أن الغنى يجوع مثل جوعى ، ولكنه لا يشبع مثل شبعى . أنا إن أصبت شِبَع بطنى بأى لون من ألوان الطعام بدا على من دلائل الراحة والسعادة ما وصفته لك أما الغنى فإنه إذا جرؤ على معدته المترفة بالشبع قضى وقت هضمه العسِر الطويل وهو فاقد الشعور بالدنيا لشدة ما يلقى من حَرَ-

(١) كان الخبز يخلط فى زمن الحرب بالذرة أو بالرز لقلة القمح .

(٢) القرم : شدة الشهوة للحم . (٣) أطيط الأمعاء قرقرتها من الجوع .

الحموضة وثقل الطعام وضيق النفس وضربان القلب وهو فى الكثير الغالب معمود أو مفؤود أو مكبود أو ممرور أو مصاب بالملح أو بالسكر[1] ، فلابد له من الجرعات المختلفة التى تنيم الألم أو تكافح الداء أو تؤخر الخطر . وقد ينتهى به الأمر فى الزمن القريب أو البعيد إلى الإمساك عن الطعام إلا ما يمسك الرمق.

كان لى عند الباشا ثمن أربعين مقطفاً ضفرتها من الخوص لدائرته ، فلما جئته أقتضيه الثمن أكبره وأنكره ، وتهدم على بالكلام العنيف وقال محتجاً لسبابه واغتصابه : « إن ضفر الخوص عمل العاجز وإن رجلا فى مثل صحتك وقوتك لايجدر بيديه غير الفأس والكريك » فقلت له فى مثل هذا الهدوء الذى أحدثك به : « يا باشا إن نصيحتك إياى على نفاستها وقداستها لا تبرر أكلك حقى . ومن اليسير علىّ أن أنزل لك عن هذه القروش ثم لا أنقص شيئاً ؛ ولكنك قد تزيد شيئاً . وكلما زاد مالك ساء حالك إنك قد بلغت أرذل الغنى ثم انحدرت إلى أسفل الفقر . فأنا وأنتَ يا باشا سواء : أنا فقير لأنى مصاب فى جيبى ، وأنت فقير لأنك مصاب فى معدتك ، فأنا أشتهى ولا أجد ، وأنت تجد ولا تشتهى ؛ ولكن حرمانى مؤقت وحرمانك مؤبد ، ونقصى يسده الرضا ونقصك يزيده السخط ، وجيبى المفتوق يرتقه الرّفاء بقرش ، ومعدتك البالية لا يجددها الطبيب بمليون » .

وكنت لا أزال أرسل الكلام على هِينة وحذر مخافة أن ينفجر فى وجهى على عادته مع الناس ، ولكن المعجزة التى ظهرت على يده أو على يدى — لا أدرى — هى أن الرجل استرخى وتليّن وبدا على وجهه الأبكم سمات التفكر لأول مرة ثم قال فى لهجة لا تزال فيها بقية حائلة من الشموخ : « ليتك تدلنى على ما فتل عضلك وشد عصبك ودفّق فيك هذا الدم الفوار

---

(١) المعمود : المصاب فى معدته ، والمفئود المصاب فى قلبه ، والمكبود المصاب فى كبده . والممرور المصاب فى مرارته .

الحار الذقى ، فليس ذلك من عمل طــاهٍ ولا طبيب » فقلت له فى شىء من الشماتة : ذلك يا باشا تعويض الفقر من الغنى ، وهو صنع الله ولا حيلة فى صنعه . أما الطاهى فهو الذى يقدم للغنى خيوط الـكفن وهو ينسجه بأضراسه . وأما الطبيب فلا يعرفه من لا يشبع ولقد قال أبو جعفر المنصور لأعرابى : « أما عندكم فى البادية طبيب ؟ » فقال « يا أمير المؤمنين ، حُمر الوحش لا تحتاج إلى بيطار » والشبه بين حالنـا وحال البدو فى الخضوع لقـانون الطبيعة واضح . .

قطعت الحديث على الشيخ منصور بهذا السؤال : أتـكره أن تـكون فى مكانه وهو فى مكانك ؟ فأجاب الخبيث : لا أقبل ثروة قارون إذا لم أحتفظ بمعدة منصور ، ولا أرفض وزارة المالية إذا أسندوا إلىّ معها وزارة الصحة !

كيف عالج الإسلام الفقر

(٩ فبراير سنة ١٩٤٢)

ألق عن عينيك هذا المنظار السحرى الذى صنعه الأدب والفن ، ثم انظر إلى الحياة فى شتى مظاهرها تجدها معركة هائلة على القوت لا تنقطع ولا تفتر وهذه المعركة التى لا تدرك لها طولاً فى الدهر ، ولا عرضاً فى الكون ، لا تنفك رحاها تلفظ على جنباتها قتلى وجرحى ؛ وأولئك هم الذين خذلهم الضعف فماتوا شهداء ، أو عاشوا فقراء . أما الموت فلا حيلة لأحد فيه . وأما الفقر فهو الداء العياء الذى خامر الإنسانية منذ طبعها الله على القدرة والعجز ، و برأها على الكمال والنقص. وهذا الداء كان وما زال موضوع الطب الاجتماعى يخفف بُرَحاءه بالمرقدات ، و يكفكف غلواءه بالتمائم ؛ ولكن دواءه الناجع ظل من وراء إمكانه حتى وصفه الله فى دينه ، وطبقه فى شرعه ، فانحسمت العدوى وانكشفت البلوى و برئت العلة . فإذا رأيت فى وطن الإسلام طرائد للفقر وفرائس للجوع فصدّق الله وكذّب نفسك إن الوطن الذى ترى لم يعد ذلك الوطن الذى أشرق بنور الله وتعطر بريح الجنة ؛ إنما هو طلل ترحّل عنه أهله ، ومريض فرط فيه أساته ، ومسلمون انطمست فيهم معانى القرآن فتعبدوا بألفاظه ، وحاكمون أعضلت[1] بهم أصول الحكم فاكتفوا بصوره فلو كان للاسلام رأى فى الحكومة وسلطان على الأمة لكان الوطن كله أسرة ، والناس جميعهم إخوة ، تجد فيهم الفقير ولا تجد المحروم ، وترى بينهم الضعيف ولا ترى المظلوم ، لأن شريعة الله جعلت بين الغنى والفقير سبباً هو البر ، وأنشأت بين القوى والضعيف نسباً

---

(١) أعضل به الأمر : ضاقت عليه الحيلة فيه .

هو الرحمة !

* * *

عالج الإسلام الفقر علاج من يعلم أنه أصل كل داء ومصدر كل شر . وقد أوشك هـذا العلاج أن يكون بعد توحيد الله أرفع أركان الإسلام شأناً ، وأكثر أوامره ذكراً ، وأوفر مقاصده عناية ولو ذهبت تستقصى ما نزل من الآيات وورد من الأحاديث فى الصدقات والبر ، لحسبت أن رسالة الإسلام لم يبعث بها الله محمداً آخر الدهر إلا لينقذ الإنسانية من غوائل الفقر وجرائر الجوع . وحسبك أن تعلم أن آى الصيام فى الكتاب أربع ، وآى الحج بضع عشرة ، وآى الصلاة لا تبلغ الثلاثين ؛ أما آى الزكاة والصدقات فإنها تربى على الخمسين

كأنما اختار الله لكفاح الفقر أشح البلاد طبيعة وأشد الأمم فقراً ليصرعه فى أمنع حصونه وأوسع ميادينه ! فإن الفقر إذا انهزم فى قفار الحجاز كانت هزيمته فى ريف مصر وسواد العراق أسرع وأسهل ثم اختار الله رسوله فقيراً ليكون أظهر لقوته ، كما اختاره أميا ليكون أبلغ لحجته .

كانت جزيرة العرب إبان الدعوة العظمى مثلاً محزنا لما يجنيه الفقر على بنى الإنسان من تضرية الغرائز ، وتمزيق العلائق ، ومعاناة الغزو . ومكابدة الحرمان ، وقتل الأولاد ، وفحش الربا ، وأكل السحت ، وتطفيف الكيل ، وعنت الكبراء ، وأثرة الأغنياء ، وفقد الأمن ، وانحطاط المرء إلى الدرك الأسفل من حياة البهيم . فلما أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق كانت معجزته الكبرى هذا الكتاب المحكم الذى جعل هذه الأشلاء الدامية جسما شديد الأسر عارم القوة ، ونسخ هذه النظم الفاسدة بدستور متين القواعد خالد الحكمة ؛

ثم كانت بوادر الإصلاح الإلهى أن قلّم أظفار الفقر ، وأسا كلوم الفقراء ، وقمع جرائر البؤس ، فألف بين القلوب ، وآخى بين الناس ، وساوى بين الأجناس ، وعصم النفوس من القتل الحرام ، وطهر الأموال من الربا الفاحش ثم عالج الداء الأزلى نفسه بما لو أخذ به المصلحون لوقاهم شرور هذه الحروب التى أمضت حياه الناس ، وكفاهم أخطاء هذه المذاهب التى قوضت بناء المجتمع عالجه بالسفارة بين الغنى والفقير على أساس الاعتراف بحق التملك ، والاحتفاظ بحرية التصرف ، فلا يُدفع مالك عن ملكه ، ولا يعارَض حر فى إرادته . إنما جعل للفقير فى مال الغنى حقاً معلوماً لا يكمل دينه إلا بأدائه ! ذلك الحق هو الركن الثالث من الأركان الخمسة التى بُنى عليها الإسلام ، فلا هو فرع ولا نافلة ولا فضلة وليست الزكاة بالقدر الذى يخفى أثره فى حياة الفقير ؛ فهى ربع العشر فى المال وما يُقدّر بنحو ذلك فى غيره فاذا جُبيت الزكاة بالأمانة على حسابها المقدّر ، ووزعت بالعدالة على نظامها المفروض ، شفت النفوس من الحقد ، وأنقذت المجتمع من البؤس ، فلا تجد سائلاً فى شارع ، ولا جائعا فى بيت ، ولا جاهلاً فى عمل

ولم يقف الإسلام فى علاج الفقر عند فرض الزكاة ، وإنما شرع للبر فى العبادات والمعاملات موارد لا يأسن لها مَعين ولا ينقطع عنها رافد :

يحنث الرجل فى يمينه فيكفرّ بإطعام عشرة مساكين من أوسط ما يطعم أهله ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة

ويقسم ألا يفعل شيئاً ، ثم يرى أن فعله خير من تركه ، فيكفِّر بإطعام المساكين ثم يفعله .

ويظاهر من زوجه ثم يبدو له أن يعود ، فيطعم ستين مسكيناً

أو يحرر رقبة .

ويرمى فيقتل نفساً عن غير عمد ، فيطعم أو يعتق فضلا عن أداء الدية .

ويعجز عن صوم رمضان لسقم أو هرم ، فيفطر ويطعم كل يوم مسكيناً .

ويفطر عامداً فى رمضان من غير علة ، فيطعم ستين فقيراً أو يفك رقبة .

ويخل الحاج بشرط من شروط الحج فيكفر عنه بذبح يقدمه للمساكين .

ويتجرد عن المخيط فإذا لبس شيئاً منه لزمته الفدية .

ويُرزق الرجل غلاما فيعق عنه بذبيحة يطعمها الفقراء يوم أسبوعه .

ويقبل عيد الصوم أو عيد الحج فيجب على الأغنياء أن يرفهوا عن الفقراء بزكاة الفطر أو بلحوم الأضاحى .

وينذر المسلم لله نذراً فيوجب عليه الدين أن يفى به براً بالفقراء وعوناً للمساكين .

ويعجز الرجل عن تكاليف العيش فيوجب الدين على من يرثه بعد موته أن ينفق عليه ! فينفق الابن على الأب ، والأب على الابن ، والأخ على الأخ ، والزوج على الزوج ، عملا بالقاعدة الإسلامية الحكيمة : (الغرم بالغنم) . ولقد رأى الفاروق عمر بن الخطاب يهودياً لا يقدر على شىء ، فوقف به ثم قال له : ما أنصفناك أيها الذمى ! أخذنا منك الجزية فى قوتك ، فيجب ألا نضيعك فى ضعفك ثم أجرى عليه من بيت المال ما يمسك نفسه

وجاءت الشريعة بالوصية لمن حضره الموت : يوصى بثلث ماله لوجوه البر فضلا عن الوصية للوالدين والأقربين .

ونوهت السنة بالصدقة الجارية ، فكانت بركة من بركات الرسول الكريم

على المريض والزمنى وذوى الخصاصة وأبناء السبيل وطلاب العلم وحجاج البيت ، بما وقف عليهم أولو الفضل والسعة من المستشفيات والملاجىء والخانات والزوايا والأربطة والمدارس والمساجد والمكاتب . وكفى شهيداً على أثر (الصدقة الجارية) فى علاج الفقر و إشاعة البر ، أن تحصى الأوقاف فى الأقطار الإسلامية ؛ ثم تنظر فيما حبست عليه من وسائل الإصلاح ووجوه الخير ؛ ثم تحكم على ما قدمت لذوى الحاجات والعاهات من إحسان لا يغب و إسعاف لا يغيب

كل أولئك إلى ما جاء فى كتاب الله وفى سنة رسول الله من الحث على الإنفاق فى سبيل الله والترغيب فيما عند الله من حسن المثوبة ، بفنون من القول الرائع والتشبيه المحكم .

* * *

كذلك عالج الإسلام الفقر من طريق آخر غير طريق الزكاة والصدقات والكفارة . عالجه من طريق الكسر من حدة الشهوة ، والكف من سورة الطموح ، والغض من إشراف الطمع ، فرغب الغنى فى الزهد ، وأمر الواحد بالقناعة ، ومدح الفقير بالتعفف .

* * *

ذلك ما عالج به الإسلام داء الفقر الذى أعيا الإنسانية منذ الدهر الأول . وهو على إحاطته و بساطته ونجوعه ينهض وحده دليلا على حمق الذين يقولون إن دستور القرآن لا يأتلف مع المدنية ، وشريعة نابليون أصلح للناس من شريعة الله ، ونظام كرل مركس أجدى على العالم من نظام محمد .

فلو أن كل مسلم أدى حق الله فى ماله ، ثم استقاد لأريحية طبعه

وكرم نفسه ، فأعطى من فضل ، وواسى من كفاف ، وآثر من قلة ؛ ثم قيض الله لهذا كله من ولاة الأمر من يجمعه على أكمل حال ، ويدبره على أفضل وجه ، ويوزعه على أعدل قسمة ، لكان ذلك عسيا أن يقر السلام فى الأرض ، ويشيع الوئام فى الناس ، فتهدأ ضلوع الحاقد ، وترقأ دموع البائس ، ويسكن جوف الفقير ، ويذهب خوف الغنى ؛ ويتذوق الناس فى ظلال الرخاء سعادة الأرض ونعيم السماء!

من صور الريف

على المصطبة

(٢ مارس سنة ١٩٤٢)

على المصطبة الغبراء وفوق حصيرها الخشن جلس (البك) وفى عينيه نظرة يكسر من طولها الخجل ، وعلى شفتيه بسمة يمد فى عرضها الملق ، وفى يمناه سبحة يقطر من حباتها الرياء ، وفى يسراه صحيفة لا تزال على طية البريد ، وتحت قدميه بقية من وحل الشتاء تهدد حذاءه اللامع ، وبين يديه وعن يمينه وعن شماله جلس الفلاحون يسارق بعضهم بعضاً نظر المستفهم عن سر هذا التواضع الغريب ، وسبب هذا التنازل المفاجىء ، ورب الدار يذهب ويجىء فى ربكة تبدو دلائلها على حركاته المضطربة ، وكلماته المتقطعة ، وتحياته المتكررة ..

صحيح أن صاحب المصطبة رفيع الصوت فى القرية ، نافذ الرأى فى الناس ؛ ولكنه منذ أيام قلائل كان فى دائرة (البك) فريسة لغضبة هوجاء من غضباته أخذته بالشتم واللطم والسخرية ، لأنه جرؤ على أن يسأل (الكاتب) عما له من حساب الإجارة ، وأن يعترض على (الناظر) فيما عليه من نفقات الإدارة . ومن السير على المنطق المحض أن يستخرج هذه النتيجة من تلك المقدمة .

كان (البك) المالك يرد التحيات الساذجة بالانحناءة والإيماء والتحنى ؛ فكأنما انقلب جانبا معطفه الأسود جناحين رءومين يرفرف بهما على بنيه ! وكان أكابر القرية قد تسامعوا بمقدم (مالكهم) على حال من التطامن والتبسط لم يألفوها منه ، فأقبلوا على المجلس الذى شرفته سيارته بالوقوف عنده .

ومهما يكن (البك) عيّ اللسان كليل الذهن فلا بد أن يتكلم ليكشف عن سر قدومه . وقد استأذنت الشيخ منصورا راوى هذا الحديث أن أترجمه بلغة الناس فأذن

قال البك : لم أزركم منذ خمس سنوات لأن أعمال مجلس النواب لم تدع لى وقتاً يتسع للاهتمام بأسرتى ، ولا للتفكير فى معدتى ، فكنت فى أغلب الأحيان لا آنس بأهلى ولا أهنأ بطعامى

فقال الشيخ منصور مقاطعاً ولكننا يا صاحب السعادة لم نقرأ لك كلمة واحدة فى محضر من محاضر المجلس .

فقال البك : ذلك لأن فى المجلس فريقاً يتكلمون وفريقاً يعملون ؛ وأنا من هذا الفريق .

فقال الشيخ منصور بلهجة المستدرك الخبيث ؛ ولكنك لم تفارق العزبة فى أكثر الأيام التى ينعقد فيها المجلس !

فقال البك ذلك لأن الكلام يكون فى داخل المجلس ؛ وأما العمل فيكون فى خارجه

واندلق مالك القرية فى الكلام ليأخذ على الشيخ منصور سبيل الرد فقال : وقد أخذت الحكومة برأيى فى كثير من مشكلات التموين وأزمات الحكم ، واستفاد النواب من اقتراحاتى واعتراضاتى فى (بوفيه) المجلس وفى لجانه ؛ ولكنى إذا انتخبت هذه المرة فسأوزع مواهبى وجهودى بالعدل بين الحكومة والأمة ؛ و بين القرية (والدائرة) سأنظر بعين الرحمة إلى ما يكابده إخواننا الفلاحون من الغلاء المرهق ، والعناء المعنى ، والمرض المضنى ، والجهل المطبق ، والعيش الخسيس ؛ فأخفض الإيجار ، وأردم البرك ، وأرمم المسجد ،

وأعيد المدرسة ، وأحمل الحكومة على أن تمدكم بالماء النقى والنور الكهربائى ، وأن تخصكم بوحدة طبية أقل ما يكون فيها صيدلية وطبيب .

ولعلى بذلك أكون قد أوفيت لكم بذمتى ، وقضيت للوطن واجب خدمتى ، وأديت لله زكاة قدرتى وثروتى

وكانت عين البك لا تنفك تراقب وجه الشيخ منصور ، فلما رآه يتحفز للكلام بادره بقوله :

— وأنت يا شيخ منصور ! ما هذا الحديث الذى قرأته لك فى (الرسالة) ؟

— أى حديث تعنى يا بك ؟

— حديثك عن صحة الفقير وثروة الغنى .

— لقد قلت شيئاً كهذا ولكنى لم أنشره .

— زرنى غداً فى العزبة فأريك عدد (الرسالة) وأسر إليك بعض الحديث .

قال البك ذلك ونهض فودع الناس ثم ركب سيارته الفخمة وذهب يعيد هذه الاسطوانة نفسها فى قرية أخرى !

وأقبل القوم بعضهم على بعض يتساءلون : لماذا يُعنى البك نفسه هذا العناء ، ويستخذى للناس هذا الاستخذاء ، وهو بحمد الله ضخم الثروة ، فلا يحتاج إلى مكافأة البرلمان ، زَمن المروءة فلا يصلح بطبعه لخدمة إنسان ؟ فقال الشيخ منصور إن فى أربعين جنيهاً لمضرباً ، وإن فى مزايا النيابة لطاعية وإن الله الذى فطر بعض النفوس على الأثرة والشح جعل من خصائصها الوضاعة إذا تسامى المطلب ، والضراعة إذا تجافى المطمع وقد رأيتم هذا الرجل المتكبر المترفع الكزَّ كيف طامن من كبره ، وردَّ من جماحه ، وبسط من

يده لتعطوه أصواتكم فى الانتخاب ، حتى إذا انتخب عاد إلى معاملتكم بالسفه ، ومحاسبتكم بالدناءة ، واستغلالكم بالشره ، ومقاطعتكم بالأنفة . إنه هو وأمثاله لا يرون للفلاح قيمة ولا كرامة إلا فى أيام الانتخاب . وقد كنا أحرياء ألا نعطى أصواتنا إلا من يعيش عيشنا ويشعر شعورنا ويتألم ألمنا ؛ فإن منطق الطبع يقول إن خصمك لا يدافع عنك ، وإن سيدك لا يحب حريتك

فصاح أحد الحضور : ولم لا ترشح نفسك ونحن نضمن لك أصوات القرية ؟

فقال الشيخ منصور إنى — وأسفاه — لا أحرز من النصاب قيراطاً ولا أملك من التأمين مليما ! والنصاب والتأمين عقبتان وضعهما قانون الانتخاب فى سبيل الكفايات الفقيرة ، كأن المال شرط فى صدق الجهاد للوطن وإخلاص النيابة عن الأمة ! وإن مثلك فى ضمان أصوات القرية واستسهال ما بعدها كمثل السائح الذى لقى فى بعض طريقه نعل حصان واحدة فالتقطها ثم ضمها إلى صدره وقال :

آه وافرحتاه ! بقى ثلاث كهذه وحصان ثم أركب !

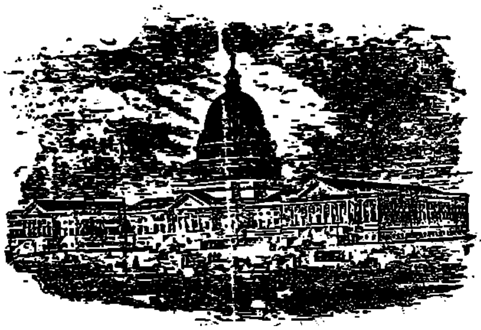

بين ناخب ونائب

(١٦ مارس سنة ١٩٤٢)

بين غداة وعشية أمسى غنينا الطائح عضوا بالتزكية فى مجلس النواب . والفوز بالتزكية هنا معناه امتناع المنافس لا انقطاع النظير ، وخلو الميدان لا بطولة الفارس . ومع ذلك نصب (البك) السرادق ، وقدم الحلوى ، وتقبل التهنئات ، وسمع بأذنيه الطويلتين القصائد العور والخطب البُتر فى الإشادة بالكفاية العالية فيه ، والثقة الغالية به ، والخير المرجو منه وللريف شعراء وخطباء كعصافير الحصاد : تقع فى الجرن ولا تقع فى الروض ، وتزقزق للحبة ولا تزقزق للزهرة ، وتكرر أغرودتها الواحدة ولا تقصد بها معنى غير فرحها هى بسعة البيدر وضخامة العرمة

ولكن البك وحده هو الذى صدق هذه التفاعيل العروضية فانتفش انتفاش الديك ، وراح يعد ويمنى ، ويعدد ويمن ، ويفخر ويفيش ، ويزعم أنه باجتهاده وجهاده سيجعل المجلس يبسط الأرزاق ، ويطيل الأعمار ، ويضمن لكل ناخب فى دائرته قصراً فى الدنيا وقصرا فى الجنة . كان الرجل ينتفخ والناس يجاملون بالإصغاء ، ويتجملون بالصبر ، إلا صديقنا الشيخ منصوراً فقد قال فى شىء من حدة الصراحة وشدة الحجاج :

— ذلك يا بك كلام من لغة التحيات والمجاملات ترددە الألسن بحكم العادة ولا تريد به شيئاً . هو أشبه بقولى : (أهنئك بالفوز) وما كنت أريد انتخابك ، أو قول اللص : (السلام عليك) وهو يريد انتهابك ولو كانت

الوعود البرلمانيــة فى آخر الانتخاب ، والبرامج الوزارية فى أول الدورة ، من الــكلام الذى يقصد به معناه ، لما بقى فى صحارى مصر شبر يشكو الظمأ ، ولا فى مساكين مصر فرد يشكو الجوع . لقد قلتم كثيراً ولم تفعلوا ، فحاولوا هذه المرة أن تفعلوا ولا تقولوا !

— أنت يا شيخ منصور كالفرس المخالف فى دولاب الساقية ! لا يجرى كلامك مع الــكلام ، ولا يقف رأيك مع الآراء ! ماذا تريد أن يفعل النائب أكثر من أن يمثل الأمة ، ويشرع القوانين ، ويبحث الميزانية ، ويراقب الحــكومة ؟

— ذلك هو المفروض يا بك ! أما الواقع فهو أن بعضكم متى دخل البرلمان لا يمثل إلا نفسه ، ولا يقضى إلا حاجته ، ولا يراقب إلا عدوه ، ويصوت على القانون فى قاعة المجلس بالإقرار ، ثم يكون هو أول من يطلب خرقه فى ديوان الحــكومة بالوساطة !

إن ما يطلب من الحــكومة والبرلمان فى شؤوننا العامة . لا يزيد كثيراً على ما يطلب من صاحب العزبة فى شؤونه الخــاصة : استصلاح الأرض والانتفاع بكل ما فيها ، ثم تدبير القوت والصحة والمعرفة لــكل من يقوم عليها . ليس لنا مستعمرات تقتضى إدارتها النشاط والحــكمة ، ولا أسواق تجارية تطلب مراقبتها الذكاء والخبرة ، ولا سياسة خارجية تحتاج معالجتها الدهاء والقوة . ها هى ذى عشرون سنة مرت على مصر ولها استقلال وفيها برلمان ، فهل تستطيع أن تقول إن المصرى الآن ، أصبح خيراً مما كان ؟ . إن هذه العشرين سنة غيرت نظماً وخلقت أمماً وقلبت الدنيا كلها رأساً على عقب ؛ ولــكنها مرت على النائمين فى الــكهف مرور الحلم المزعج ، حرك الأجسام بعض الحركة ، وترك

المشاعر ساكنة كل السكون

— ما هذه الفلسفة يا شيخ منصور ؟ هل تستطيع أن تقول لى أنت متى تركوا الحكومة تستقر ، وخلوا البرلمان يعمل ؟ إن الدستور فى الأمة كالمصباح فى الصحراء ، لا ينشر ضوءه إلا إذا تركته الرياح آمناً

— لو تفلسفت يا بك كما أتفلسف لتبينت أن استقرار الحكومة واستمرار البرلمان لا يكونان مع سياسة الكلام ؛ فإن سياسة الكلام هى سياسة الفراغ ، وإذا شغلها شاغل فانما هو المراء والمكابرة والمهاترة والخصومة . وكلما علا صوت على صوت ، وظهرت دعاية على دعاية ، انقلبت الأوضاع ، وتغيرت المكاتب ، وتبدلت المناصب ، وتعطلت المواهب ، وتقوض المبني ، وانتكث المفتول ، وتوقف السائر . أما سياسة العمل فتهيء لكل ذهن ما يشغله ، ولكل يد ما تعمله • وإذا اشتغلت الأذهان وعملت الأيدى ، عيت الألسنة فلا تجادل ، وائتلفت القلوب فلا تختلف ، وانقطع دابر القوالين فلا تعود الحزبية تجارة ولا السياسة حرفة .

— إن الدلائل يا شيخ منصور تبشر بصلاح الحال وما دام الأمر فى يد أهله فانظر إلى المستقبل نظر المتفائل الآمل

— لا تكلنى إلى المستقبل يا بك . إن من يضيع يومه لا يجد غده . ومن يفرط فى عاجل الشهادة طمعا فى آجل الغيب ، كان حقيقاً ألا يدرك شيئاً

— وماذا تريد أن أصنع لك الآن ؟

— أريد أن تنزل عن مكافأتك البرلمانية لدائرتك الانتخابية . إنك والحمد لله ضخم الثراء رفيع العيش ، فلا أقول إنك طلبت النيابة كما يطلب الناس الوظيفة . وإن أربعين جنيها فى كل شهر تقسم على ثمانى قرى لا تدع

فيها أميا واحداً قبل انقضاء الدورة . ولا أعتقد أنك تؤدى إلى أمتك فى طول نيابتك عملا أرفع ولا أنفع من هذا العمل .

— ولكنك تطلب ما لم يطلبه أحد فى أمة من الأمم

— وهل تجد فى أمة من الأمم فقراء فى مثل فقرنا يعطون ، وأغنياء فى مثل غناكم يأخذون ؟ إن النيابة عندهم بذل وتكليف ، ولكنها عندنا ربح وتشريف وإن أكثركم ليسخو بالآلاف فى سبيل الدعاية لها والظفر بها ، فهل يضيركم أن تنزلوا لنا عن هذه العشرات فتحفظوا مهجاً من التلف وعقولا من الجهالة

— كلامك يا شيخ منصور سديد ورأيك أسد . وإنى أعدك ألا أعارض إذا قبل الآخرون .

— أى آخرين تريد يا بك ؟ ولم لا تسن أنت هذه السنة الحسنة فيكون لك أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم يحل المجلس ؟

— يحل المجلس ؟ قل إلى يوم تنتهى الدورة يا شيخ ! فأل الله ولا فألك ! لقد شغلتنا بثرثرتك عن تحية الناس . ثم أشاح البك عن الشيخ وأقبل على المهنئين يوزع عليهم تحياته الشريفة ! فلما أعدنا هذه التحيات على ترتيبه خرجت لحسن حظ الأدب منظومة فى هذا البيت :

أهلا وسهلا ، طيبون ، وحشتنا سلمات ، ازّيك ، وكيف الحال ؟

ربيع وربيع

ترجمة صورة

هذا ربيعكما يا فتاتى الفاتنة ويا طفلتى الجميلة : صفاء من سلام النفس يفيض بشراً فى العين وطلاقة فى الوجه ، ورواء من ألق الشباب يشع نوراً فى السماء وسروراً فى الأرض ، ورخاء من نعيم الطبيعة ينتشر عطوراً فى الجو وزهوراً فى الروض ، وانتشاء من رحيق العيش يشيع لذة فى الحس وبهجة فى القلب ، وهدهدة على أرجوحة الحب تذهب مع الأمل الباسم وترجع مع الرضا السعيد .

* * *

هذا ربيعكما يا فتاتى الفاتنة ويا طفلتى الجميلة : استغراق فى أمان الله واستطلاع لمتاع الحياة ، واتساق ربيع العمر مع ربيع العام ، واتحاد الجمال البشرى بالجمال الإلهى الماثل فى وشاء الحقول وأفواف الخمائل وأعطار النسيم وألحان الطير وأنفاس الأحبة . فأين — بالله ربكما — أجد الفرق بينكما وبين ملكين يعتنقان فى نشوة الخلد ، ويأتلقان فى وضاءة الفردوس ؟ أفى النظرة الساهمة ، أم فى البسمة الحالمة ، أم فى الفتنة النائمة ، أم فى الخلو الحقيق بالطهر ، أم فى الحنو الخليق بالأمومة ، أم فى الذهول الغريق فى اللذة ، أم فى الصبا الذى يضوع بريح الجنة ، أم فى الحلم الذى يصل باللانهاية ؟

* * *

هذا ربيعكما يا فتاتى الفاتنة ويا طفلتى الجميلة ! وما كان أحرى الناس أن يكون لكل امرىء ربيع مثله ! ولكن

النفوس إذا عاث فيها الشر أجدبت فلا تربع ، واضطربت فلا تطمئن !

هذا ربيعنا يا زهرتيّ النضيرتين يلفح بالسموم ويطفح بالهموم ويضطرم بالعداوة ! كأنما استخلف الله الشياطين على حكم الأرض ، ففي كل دولة إبليس ، وفي كل أمة جهنم ومن طباع الأبالس كراهة الفراديس فهم لا يريدون سلاماً في وطن ، ولا يحبون ربيعاً في زمن ولا يدعون آدم في جنة . هذا مفيستوفولس النازى ، وشمهورش الفاشي[1] ، أصابهما الله بنمو القرون فجأة ، فتأبها وتألها ونازعاه ملكوت الأرض ، فأحدهما يريد أن يعبده الغرب ، والآخر يريد أن يعبده الشرق ، وهما لذلك يحشدان كل ما في الجحيم من سموم ونيران وحمم ليدمرا في أيام معدودات سكان الدنيا وحضارة الدهر ! والعالم كله قد وقف أمام الشيطانين موقف الدفاع ، لا تنتج معامله غير الخراب ، ولا تخرج مصانعه غير الموت ، ولا تحرك دوله غير الجيوش ، ولا يفكر ناسه إلا في الحصون والخنادق والأسلحة والمخابىء والأقنعة !

فكيف يكون لربيعنا في هذا الجدب ازدهار ، ولنفوسنا على هذا الفزع استقرار ، ولحضارتنا مع هذا البلاء استمرار ، ولحياتنا على هذه الحال المحزنة جمال ولذة ؟ !

لعن الله يا ابنتي حواء شياطين الإنس وشياطين الجن ، فإنهم لو لم يخلقوا لكانت الأرض كلها جنة ، ولكان الناس كلهم ملائكة ! ؟

---

(١) هتلر وموسليني

من خواطر الحرب

لابد للإسلام من مؤتمر

(٣٠ مارس سنة ١٩٤٢)

جلست ذات أمسية إلى المذياع أنتقل فيه بسمعي المرهف بين برلين و بارى ولندن وموسكو وطوكيو و باريس وأنقرة ، وكلها تذيع باللغة العربية ، وتوجه الكلام إلى الأمة العربية فقلت فى نفسى : سبحان الله ! ما هذه العناية اليقظة بنا ، والاهتمام البالغ بلغتنا وأدبنا ، كأننا لا نزال نملك زمام الدنيا ونصرف عنان القدر ! ثم أعلن المذيعون أنباء الحرب فى ميادينها المختلفة ؛ فإذا هم يذكرون : أفريقية الشمالية ، ومصر ، وفلسطين ، وسورية ، والعراق ، وإيران ، والهند ، والصين ، والملايو ، وسنغافورة ، وجزر الهند الشرقية ؛ وكلها مواطن الأمم الإسلامية ، ومسارح الثقافة العربية ، وليس من أهلها المغير ولا المدافع ، وإنما هم كثروة الأرض وعروض التجارة خسارة للمغلوب وربح للغالب . فعدت أقول لنفسى : ما أشبه تلك الإذاعات اللينة العطوف بالرقى الساحرة ، يسلطها المفترس على أعصاب الفريسة لتخدر وتنام فلا تنشب فى حلقه ولا تضطرب فى جوفه ! وما أعجب ألا تشب الحرب الاستعمارية ، وتتصارع الدول القوية ، إلا حيث يملك العرب ويعيش المسلمون ، كأنما أصبحوا سلباً لكل غاز ونهباً لكل غاصب !

ألم يكن هؤلاء الناس أعقاب أولئك الفاتحين الذين نزل على حكمهم الدهر ودخل فى ملكهم العالم بضعة قرون ؟

أليس هذا الإسلام الذى يؤمنون به اليوم هو إسلام ذلك الخليفة العباسى

الذي نظر ذات يوم إلى السحائب الجون تزجيها الرياح الرعن إلى أقاصي الأرض ، فقال في لهجة تنم على العزة والجلالة والشكر : أمطرى يا سحائب حيث شئت فان خراجك لى !

بلى ، هؤلاء أعقاب أولئك ، ولكن الدين الذى يعتقدونه لم يعد دين ذلك الخليفة ! إنما هو بقية من الإسلام الأول حالت ثم آلت إلى صوفية بلهاء لا يفيق الممسوس بها من الغفلة ، ولا ينشط من الخمود ، ولا يبالى أن يبلغ ساحل الحياة مركوباً على ظهره أو مسحوباً على وجهه ! والدين والعلم مآلهما فى النفوس الضعيفة والعقول الخفيفة إلى الترهات والأباطيل : فأيلولة الكيمياء إلى البحث عن حجر الفلاسفة ، وعلم الفلك إلى التنجيم والسحر ، كأيلولة الإسلام إلى هذه العقيدة الملفقة التى ريف فيها الإيمان بالقدر حتى أهمل الناس التوقى استسلاما للقضاء ، وتركوا السعى اعتمادا على (القسمة) . و « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال »

ولئن سألتنى بعد ذلك : هل بلغ العلماء رسالة الله لأقولن لك « لا » مغلظة مكبرة مكررة وأكبر الظن أنهم لا يؤمنون بأن لهم رسالة وأن عليهم تبعة .

رجال السياسة يعملون بحق أو بباطل ؛ ورجال الحكم يتصرفون بعدل أو بظلم ؛ أما رجال الدين فى ممالك الوطن الإسلامى كله فقد قنعوا باللقب والزى واكتفوا بالشبع والرى ، ورضوا أن يكونوا متوناً لذوى الطمع ، وحواشى لأولى النعمة ، وهوامش على صفحة الحياة !

على أن سلطان الدين أكمل وأشمل من سلطان السياسة وسلطان الحكم ؛

فإن هذين لا يتجاوزان بقعة من الأرض ولا أمة من الناس ؛ ولكن ذاك ينبسط على كل مكان فيه لله ذكر ، ويهيمن على كل إنسان له فى الإسلام فكر . وعلماء الدين هم الطوائف التى نفرت من كل فرقة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم ، فإذا تفقهوا ولم ينذروا ، أنكروا ماخلقوا له ، وعصوا ما أمروا به . وليس الإنذار أن يلهجوا بذكر الحساب والعذاب ، وإنما الانذار أن ينبهوا المخطىء ، ويوجهوا الحائر ، ويرشدوا الغوى ، وينصبوا فى مجاهل الأرض أعلام الطريق .

لو كان علماء الإسلام يعملون لكان لهم مثل ما للمبشرين والمستعمرين والمستشرقين من المؤتمرات التى تعقد العام بعد العام فى الدولة بعد الدولة . والله قد فرض على المسلمين أمثال هذه المؤتمرات العامة يوم فرض الحج و إذا كان وفود العلماء من الأقطار المختلفة إلى إحدى المدن تعوقه الأهواء والظنون ، فإن وفودهم إلى مكة لا يعوقه غير الشيطان ، ورجال الدين والحمد لله فى عصمة منه .

لا بد للاسلام من مؤتمر يجمع زعماء الرأى فى أهله ليجددوا ما درس منه ، ويوضحوا ما التبس فيه ، وينفوا عنه ما غشيه من أباطيل القرون وأضاليل النحل ، ويجلوه للناس كما كان صالحاً للحياة ، كافلا للفوز ، ضامناً للسعادة

لا نطمع أن يجتمع هذا المؤتمر اليوم ، فإن الزلزلة التى لا تنفك آخذة بأقطار الأرض وأفكار الناس تجعل العقاب(١) والسدود من دونه ، ولكنا نطمع أن يفكر أولو الأمر فيه ويهيئوا الأسباب له : حتى إذا عادت السلم وتحلق زعماء الأمم حول الموائد الخضر لإقرار السلام الدائم واختيار النظام الملائم ، اجتمع كذلك علماء الإسلام ليعرضوا على العقول الحائرة والأجسام الخائرة نظام الله

---

(١) العقاب : جمع عقبة .

خالصاً كما أوحاه ، صافيا كما أنزله نعم لا بدّ للاسلام من مؤتمر يقيم بين البهرج والصحيح حداً من نور الحق يجتمع عليه القطيع الشارد ، ويهتدى إليه الركب المضلل . ولكن ليت شعرى من الذى يفكر فى هذا المؤتمر و يعمل له و يدعو إليه ؟

لقد عقدنا الآمال بالأزهر فى كل ذلك ، فهل عقدناها بلعاب الشمس ؟[1]

كانت (جماعة كبار العلماء) معقد الرجاء ومناط الثقة ؛ وكانت هذه الجماعة فى نظامها الجديد عسية أن تدعو إلى هذا المؤتمر بعد الحرب فى العيد الألفى للقاهرة ؛ وكان الظن ببرنامج الإصلاح الذى اقترحه شبابها المصلحون وأقره أقطابها المخلصون ، أن يكون نواة الإصلاح ونقطة التحول ولكن جنديا باسلا من جنود الإصلاح الدينى كتب إلينا يقول إن برنامج الإصلاح أدركته أزمة رجعية توشك أن تخنقه فى درج المشيخة ؛ فإن عضواً من الجماعة يوجس منه شراً ، فهو ينسج حوله الشكوك و يؤلب عليه القوى ، وقد نجح فى ذلك !

فهل يجوز فى ظن امرىء أن يكون فى كبار العلماء من يشتبه عليه الحق والباطل والخير والشر والصلاح والفساد ؟ ذلك مالا نصدقه ، ولا نود أن تجرى الأمور بما يحققه .

---

(١) لعاب الشمس : شيء كأنه ينحدر من السماء إذا قام قائم الظهيرة تراه مثل نسيج العنكبوت ، ويقال له مخاط الشيطان أيضا

أرواح وأشباح

(١٣ أبريل سنة ١٩٤٢)

على الضفة الشجراء من مصيف المنصورة عرفت « على محمود طه » ، وعلى هذه الضفة الخضراء من مرّ بعها قرأت ديوانه « أرواح وأشباح » وكان بين اللقية الأولى للصديق و بين القراءة الأخيرة للشاعر إحدى وعشرون سنة

كان حين عرفته فى إبان شبابه ، وكنت حين عرفنى فى عنفوان شبابى وابن آدم فى هذه السن ربيع من أربعة الفردوس لا يدرك بمحدود الشعور ، ولا يوصف بلغة الشعر ؛ فهو منضور الخلقة ، مسجور العاطفة ، مسحور المخيلة ، لا ينشد غير الحب ، ولا يبصر غير الجمال ، ولا يطلب غير اللذة ، ولا يحسب الوجود إلا قصيدة من الغزل السماوى ينشدها الدهر و يرقص عليها الفلك .

وعلى ذلك كنا أيام تعارفنا وتآلفنا : هو على حال عجيب من مواسّ الهوى وما لابسها من ألوان وصور ، وأنا على عهد قريب من ترجمة (آلام فرتر) وما سايرها من أحلام وذكر !

قال لى صديق « حسين » ونحن عائدان من نزهتنا اليومية فى الشقة الحلوية من شارع البحر :

« مل بنا إلى قهوة (متيو) أعرفك بشاب من ذوى قرابتى يرضيك خلقه و يطربك حديثه ، وقد يعجبك شعره »

وكان شارع البحر كما هو اليوم متنزه المدينة ؛ وكان نصفه الغربى لا يزال يومئذ مخطوطاً بين النيل والحقول ، فلا ترى على جانبيه غير مماص قصب السكر ،

ومشارب الكازوزة ، وعريشة من عرائش الكرم وألفاف الشجر تتفيأه هذه القهوة .

دخلنا القهوة فوجدنا فى باحتها بعض الإغريق وعلى إحدى مناضدها المنعزلة فتى رقيق البدن شاحب الوجه فاتر الطرف ، ينظر فى سكون ويقرأ فى صمت . فلما رآنا هشّ بقربيه ورف لى ، ثم كان التعارف . وطارحناه طرفاً من الحديث ، ثم طلب إليه صديقى أن ينشدنا بعض شعره ، فنشط لهذا الطلب وارتاح كأنما نفسنا من كربه أو خففنا من عبثه ثم قال فى سذاجة الريفى ووداعة الطفل : « نشرت لى جريدة (السفور) هذه القصيدة وقدمتها بهذه الكلمة » ثم أدى المقدمة عن ظهر الغيب وهمّ بإنشاد القصيدة . وكنت حين ذكر السفور قد أصغيت سمعى وجمعت بالى ، فلم يكد يفرغ من سرد المقدمة حتى صحت به :

أأنت صاحب تلك القصيدة ؟

— نعم

— وأنا صاحب هذه المقدمة !!

— عجيب !!

كان ذلك فى سنة ١٩١٨ ؛ وكانت جريدة السفور يحررها يومئذ الأعضاء الأصدقاء من لجنة التأليف والترجمة والنشر . وكان النظر فيما يرد على الجريدة من الشعر موكولا لصديقى الأستاذ الجليل الشيخ مصطفى عبد الرازق ، ولى . فألقى إلينا البريد فيما ألقى هذه القصيدة غفلا من الإمضاء ، فقرأناها للاختيار ، ثم قرأناها للاختبار ، فوجدنا قوة الشاعر الموهوب تطغى على ضعف الناشىء البادى ، فضننا بها على السلة ، وصححنا ما فيها من الخطأ ، وقدمت لها ببضعة

أسطر تنبأت فيها بنبوغ الشاعر ، ونصحت له أن يرفد قريحته السخية بمادة اللغة وآلة الفن ، وأخذت عليه أن يكره قيثاره المرح على النغم الحزين واللحن الباكي وهو لا يزال في روق الشبيبة كما يقول شعره

ثم تتبعت بعد ذلك علياً : تعقبت آثاره ، وتعرفت أطواره ، وتقصيت أشعاره ، فاذا الفراشة الهائمة في أرباض المنصورة ورياض النيل ، تصبح « الملاح التائه » في خضم الحياة ، و « الأرواح الشاردة » في آفاق الوجود ، و « الأرواح والأشباح » في أطباق اللانهاية ! وإذا الناشيء الذي كان يختشب[1] الشعر ويتسمح فيه ، يغدو الشاعر المحلق بجناح الملك أو بجناح الشيطان ، يشق الغيب ويقتحم الأثير ، ويصل السماء بالأرض ، ويجمع الملائكة بالناس ، ويقضي بين حواء وآدم !

« أرواح وأشباح » هي ملحمة الرجل والمرأة ، وقصة الفن والوحي ، وحوار الجسد والروح ، وأنشودة الشباب والحب سما فيها الأستاذ « علي طه » إلى غاية من الفن قل أن بلغها شاعر

هي حادث جديد في حياة الشعر المصري لا يزكو بالنقد الأدبي أن يهمل الاحتفال بتسجيلها في تاريخ الأدب وهي قصيدة من النمط العالي لا تحك في أية حلقة من سلسلتها إلا ثبتت على المحك فهي في الصياغة مشرقة البيان منتقاة اللفظ ، وفي التفكير واضحة المنهج سديدة المنطق ، وفي التخيل بعيدة الغاية قريبة المأخذ . وأشهد أني قليل الاهتزاز لأكثر الشعر وأكثر الغناء ، ولكن « أرواح وأشباح » هزت نفسي هزاً شديداً ، فكنت أطيل الوقوف عند كل رباعية ، وأديم النظر في كل بيت ، أتذوق جمال صياغته برفق ، وأستجلي سر بلاغته في أناة وإن « الحية الخالدة » و « الفنان الأول »

---

(١) اختشب الشعر : قاله من غير تنوق ولا تعمل له

و « حواء » لمن الروائع التى تطول على مقاييس النقد وتدخل فى منتخبات الخلود

على أن أسلوب هذه الملحمة ليس بدعاً من أسلوب على طه ؛ فان الصفات الغالبة على أسلوبه كله هى الوضوح والأناقة والسهولة والسلامة ومرجع ذلك فيه إلى ثقافته الرياضية وليس كالعقل الرياضى شكيمةٌ للخيال الجموح يسلس بها ويصحب[1] . وما دام الخيال فى قيادة المنطق طار بالفكرة فى جواء مشرقة لا سحاب فيها ولا ضباب ؛ فتتميز الألوان وتتحدد الخطوط وتتبين الصور . أما الخيال الشعرى الجامح ، فهو كالحب الصوفى الجامح ، لا يجد اللفظ الذى يسفر ولا العبارة التى تُبين إنما هى « شطحات » وراء الفكر لم تتضح فى الشعور ولم تستقم فى الذهن ، يحاول الشاعر أن يعبر عنها بالمجازات البعيدة والرموز الخفية ، فيغرب ولا يعرب ، ويشير ولا يدل

* * *

إن من عادتى فى هذا المكان من (الرسالة) ألا أجامل فى سياسة ولا أدب .. وربما كان من الخير فى هذه المرة أن أدافع الظنون عن هذه العادة بذكر الحكم مؤيداً بأسبابه ، وكان ذلك يقتضى تحليل القصيدة إلى عواملها البلاغية ، ولكن الكتاب فى أيدى القراء ، والتنبيه على مواضع الجمال فيه اتهام للأدباء !

---

(١) أسلس وأصحب : انقاد

وهذا كتاب

(١١ مايو سنة ١٩٤٢)

قال لى صديق منذ شهرين : إن العقاد يخرج كتاباً عن محمد . فقلت له : ذلك ما تمناه الناس وتوقعناه نحن منذ أخذ العقاد يعالج بعض هذا الموضوع فى « الرسالة » . ولعل هذا الكتاب يكون الأول فى بابه ؛ لأن العقاد صاحب جد وصراحة ؛ فهو لا يتكلف ما لا يحسن ولا يحسن ما لا يعتقد ، ولا يعتقد ما لا يسوغ فى المنطق . وإذا كان الذين كتبوا عن محمد إنما كتبوا للدين أو للدنيا أو للأدب أو للهوى ، فإن العقاد لن يكتب إلا للعقل . وإذا استراب أكثر الناس بأكثر هذه الكتب ، لأن صاحب الدين موافق ، وصاحب الدنيا منافق ، وصاحب الأدب خداع ، وصاحب الهوى متعصب ، فإن القراء على اختلاف ثقافاتهم ودياناتهم سيخلدون بثقتهم إلى العقاد ، لأنه سيكتب غير ما كتب هؤلاء جميعاً .

ثم قدّرت فى نفسى النواحى البكر التى سيطرقها العقاد من هذا العالم الأعظم فكأنما قدرت عن تلقين الغيب : قدرت أنه لن يكتب ترجمة ولا سيرة ولا قصة ، لأن الناس فى القديم والحديث ، وفى الشرق والغرب ، لم يكتبوا غير ذلك . وذلك الذى كتبوه إنما كان مداره على الوحى والرسالة والمعجزة والدعوة ؛ وإدراك العظمة أو العبقرية فى هذه الأمور موقوف على الإيمان بها . فلو أن امرأ غير مسلم حاول أن يستشف من خلال ما ينكر من هذه الصور الإسلامية صورة محمد فى نفسه ، لما وجد فيما بقى على الهامش أو علق بالإطار

ما يقنعه بأن محمداً لو لم يكن أعظم الرسل بدينه ، لـكان أعظم الأبطال بخلقه

فصورة محمد فى نفسه هى الناحية التى طوّف حولها الرُّوّاد ولم يدخلوا ، وحوم فوقها الوراد ولم ينزلوا وهى التى قدرتها على التخمين فى خطة العقاد ، ثم قرأتها على اليقين فى « عبقرية محمد » وأشهد الله أنى لو مضيت على المخيل فيما أكتب عن هذا الـكتاب لما كذبنى الظن ، ولا أخطأنى الصواب ذلك لأن العقاد كاتب مؤمن بالعقل والرجولة ؛ فإذا درسته أو قرأته على ضوء هذا الإيمان تـكشف لك عن منطق فحل لا يتناقض فى الرأى ، ولا يتعثر فى الأداء ، ولا يتـكثر باللغو ، ولا ينزل عن طبقته حتى فى المقاصد المبتذلة والمعانى المطروقة وإيمانه بالعقل والرجولة هو الذى بعثه على أن يكتب كتابين فى أدب ابن الرومى وفى سياسة سعد زغلول على كثرة الأدباء والساسة فإذا كتب عن محمد فإنما يكتب بوحى هذا الإيمان عن عبقريته « بالمقدار الذى يدين به كل إنسان ولا يدين به المسلم وكنى ، وبالحق الذى يثبت به الحب فى قلب كل إنسان وليس فى قلب المسلم وكنى » ، « وبالقياس الذى يفهمه المعاصرون ، ويتساوى فى إقراره المسلمون وغير المسلمين » « ليقيم البرهان على أن محمداً عظيم فى كل ميزان . عظيم فى ميزان الدين ، وعظيم فى ميزان العلم ، وعظيم فى ميدان الشعور ، وعظيم عند من يختلفون فى العقائد ولا يسعهم أن يختلفوا فى الطبائع الآدمية »[1]

والحق الذى لا تجوّز فيه أن كتاب « عبقرية محمد » هو التفسير الملهم المحـكم لقول الله تعالى لنبيه الـكريم : « وإنك لعلى خلق عظيم » . . ولا يدهشنك

---

(١) ما بين الأقواس من مقدمة الـكتاب

أن أقول إن شهادة الله لرسوله بعظمة الخلق ظلت مجهولة الفور والمدى والدلالة فى التفسير والتاريخ حتى جاء العقاد فصورها بأبعادها وحدودها وألوانها وسماتها كأنطق ما يكون المثال وأصدق ما تكون الحجة هل تجد معنى من معانى الأخلاق فنى فى شرحه وتشريحه من الريق والمداد على طول القرون ما فنى فى تحليل معنى الصداقة والصديق ؟ ومع ذلك تقرأه فى فصل (محمدالصديق) من كتاب العقاد فتجده معنى من معانى العظمة لم يتمثل فى ذهن كاتب من قبل على هذه الصورة . إقرأ قوله على سبيل المثال : « وهنا أيضا قد تمت به لمحمد معجزته التى لم يضارعه فيها أحد من ذوى الصداقات النادرة فأحدقت به نخبة من ذرى الأقدار تجمع بين عظمة الحسب وعظمة الثروة وعظمة الرأى وعظمة الهمة ؛ وكل منهم ذو شأن فى عظمته تقوم عليه دولة وتنهض به أمة — كما أثبت التاريخ من سير أبى بكر وعمر وخالد وأسامة وابن العاص والزبير وطلحة وسائر الصحابة الأولين — وربما عظم الرجل فى مزية من المزايا فأحاط به الأصدقاء والمريدون من النابغين فى تلك المزية كما أحاط الحكماء بسقراط والقادة بنابليون . بل ربما أحاط الصالحون بالنبى العظيم كما أحاط الحواريون بالمسيح عليه السلام وكلهم من معدن واحد وبيئة متقاربة أما عظمة العظمات فهى تلك التى تجذب إليها الأصحاب النابغين من كل معدن ومن كل طراز وهى التى يتقابل فى حبها رجال بينهم من التفاوت مثل ما بين أبى بكر وعلى ، وبين عمر وعثمان ، وبين خالد ومعاذ ، وبين أسامة وابن العاص : كلهم عظيم ، وكلهم مع ذلك مخالف فى وصف العظمة لسواه .

تلك هى العظمة التى اتسعت آفاقها وتعددت نواحيها حتى أصبحت فيها ناحية مقابلة لكل خلق ، وأصبح فيها قطب جاذب لكل معدن ، وأصبحت

تجمع إليها البأس والحلم ، والحيلة والصراحة ، والألمعية والاجتهاد ، وحنكة السن وحمية الشباب .

تلك هي بلا ريب عظمة العظمات ، ومعجزة الإعجاز في باب الصداقات »

ذلك سمو العقاد في المطروق المبتذل ، فما ظنك به حين يعالج الأحرار الأبكار من معاني العبقرية المحمدية في السياسة والادارة والرياسة والبلاغة ؟ أما تحليله البراعات الخلقية والنفسية في محمد الزوج والأب والسيد والعابد ، ودفعه الشبهات المريضة عن دعوة الرسول وعظمته في تحكيم السيف وتحليل الرق وتعدد الزوجات ، فغاية الغايات في دقة الفهم وشدة الحجاج وقوة الأسلوب . ولولا أن العقاد أدركه نسيان الإنسان فأراد غار ثور وكتب غار حراء ، لقلت إن كتابه قبس من الوحي نزل عليه من السماء !

مثل المصرية الحديثة

(٢٨ يونية سنة ١٩٤٢)

— ١ —

لا تزال السيدة و . . . على العهد بها طاهرة القلب حاضرة اللب ساحرة الحديث حرة الفكر ، لا تختلف وهى عقيلة تدبر البيت وتدبر المزرعة ، عنها حين كانت معلمة تسوس الفصل وترأس المدرسة . ولا يزال بهوها الجميل يستقبل فى مساء الخميس من كل أسبوع نفراً من خليط الخاصة ، فيهم الأديب والطبيب والمحامى والجندى والفلاح والواعظ ، وكلهم إما قريب أو صديق أو صهر .

والسيدة و . . مثل صادق للمصرية الحديثة حين تراها فى ثوبها الأنيق ، المحكم على قدها الرشيق ، تتخذ من البهو مكان القلب ؛ فترسل الدم بالحياة والنشاط والرغبة والبهجة إلى كل عضو من أعضاء المجلس .

جمال السيدة فاتن ؛ ولكن جلال الحشمة فيه يكف عنه النظر الشهوان فيقف على حد الإعجاب به .

وأدب السيدة رائع ؛ ولكن روعته آتية من قوة الذكاء لا من سعة الاطلاع ؛ فهى ترى الرأى فى بعض معانى الأدب فتحسبه من التماع الذهن فيه عالى النمط ، وهو فى حدود الوسط .

وعلم السيدة دون الكفاية ؛ ولكنها ترفده بقليل من الدعوى المقبولة ، فترفعه المبالغة منها والمجاملة منك إلى المستوى اللائق بالمرأة المثقفة .

وذوق السيدة رفيع ؛ ولكنه ذوق الأنوثة الموهوب لا ذوق الحضارة المكتسب . أرهفته بالقراءة ، وصقلته بالمرانة ، حتى أوشك أن يكون من خلالها الأصيلة ، يصدر عنه ما يصدر عن الطبع السليم من حسن الاختيار وجمال التنسيق وصحة المواءمة .

وروج السيدة طبيب ؛ ولكنه يعمل فى عيادته عمل المنهوم بالعلم والمال ، فهو لا ينفك طول يومه بين تفريق (التذاكر) وجمع النقود ، ثم لا يعلم من دنياه شيئاً بعد ذلك . فهي تدبر المنزل وتدبر العزبة وتربى الأولاد وتنمى الثروة وتراجع البنك وتعامل الناس ، ثم تجعل من بيتها ومكتبتها وحديقتها جنة يسكن إليها زوجها المكدود وولدها المجهود وقريبها المكتئب وزائرها المتطلع .

قد يكون لمزاولتها التعليم فى شباب العمر بعض الأثر فى تكوينها على هذه الشيمة من حسن الإدارة وحب النظام وبراعة الحيلة ولطف المداخلة ؛ ولكن المرأة المصرية على الجملة تبذ الرجل فى هذه الخلال متى سلمت فطرة الله فيها من بطر النعمة وزيف التربية وسوء المحاكاة

* * *

زرت ندبها فى يومها المختار فوجدته حافلاً بمن ينِدون إليه فى العادة من الأقارب الأدنين والأصدقاء الخلّص وكانت هى حين أخذت مجلسى تناقش المحامى حديث السياسة وزوجها يساجل الواعظ حديث الدين وكان الضابط البطين والفلاح البدين يلقيان السمع إلى هذين مرة وإلى ذينك أخرى ، تبعاً لارتفاع الصوت واشتداد الجدل . وكان محضر السيدة فى الصالون ، ورشاقتها فى الإشارة ، ولباقتها فى الحديث ، وتجلى ذوقها وروحها فى طراز الأثاث ، وطرافة ألوانه ، وانسجام قطعه ، وحسن توزيعه ، كان كل أولئك قد غمر

للجالسين بشعور من السمو لم يألفوه ، فرقت الأصوات ، واتأدت الحركات ، واتزنت الكلمات ، وسما كل شيء فى كل نفس . ولا ريب أن للزى الذى أنت ترتديه ، وللمكان الذى تجلس فيه ، وللرجل الذى تتحدث إليه ، أثر فى نفسك يصدر عنه الفعل مطابقاً للحال التى أحدثته .

قالت لى السيدة وقد ترامى بنا الحديث إلى أثر المرأة فى الإصلاح ومكانها فى الأدب :

— ما بال فلان وفلان يحبان أن يُذكرا بمعاداة المرأة وما أظنها وقعت فى حياتيهما موقع العائق عن إنتاج أو إصلاح أو سعادة ؟

فقلت لها ذلك فى رأيى ضرب من الحب ونمط من الغزل ! أما دعوة أحدهما إلى استعبادها فلأنه شقى فى الحصول عليها ، فهو ينتقم منها انتقام الصائد الأرعن من الطائر المسحور وأما دعوة الآخر إلى استبعادها فلأنه يئس من الوصول إليها ، فهو يزهد فيها زهد الفأر الأبتر فى قدرة السمن والمثلان معروفان !

فقالت : إذن لو كان نصيبهما من المرأة خيراً ما كان لأصبحت حواء خيراً من آدم ، ولكانت المرأة المصرية خيراً من المرأة الأوربية !

وهنا ابتدرنى الواعظ إلى الكلام فقال :

— لا يجوز فى الدين ولا فى العقل أن تكون حواء خيراً من آدم . ذلك أنها خلقت من ضلع أعوج ، فمن طبيعتها ألا تستقيم ومالا يستقيم لا يصدر عنه استقامة ولا عدل . ولو أن الله أراد لها غير ذلك لخلقها من رأس آدم فهيمنت عليه ، أو إحدى جوارحه فسمت معه .

فقالت السيدة : ولم لا يكون لخلقها من ضلع آدم حكمة أخرى يا أستاذ ؟

أليس في خلقها من أحناء صدره تعيين لوظيفتها وتوجيه لرسالتها ؟ إن حنوها على الزوج والولد ، كحنو الضلوع على القلب والكبد والأسرة التي تشبل عليها المرأة هي العضو الرئيسي في جسم الأمة ، كما أن الأجزاء التي تشبل عليها الضلوع هي الأعضاء الرئيسية في جسم الإنسان .

قال الطبيب : معنى ذلك أن عمل المرأة لا يتعدى المنزل .

فقالت السيدة : وهل ذلك يسير ؟ إن المنزل عالم أصغر ينطوي فيه العالم الأكبر وإذا كانت الأمة هي الأسرة مكررة ، والوطن هو الدار مكبّرة ، فإن المرأة القائمة على شؤونهما لتحتاج من الثقافة والحصافة ما يحتاجه رجل الدولة . إن في البيت حجرة طعام ، وغرفة نوم ، وبهو استقبال ، وقاعة مكتبة ، وحديقة زهر ، ولكل مكان من هذه الأمكنة ثقافة خاصة لابد للمرأة الصالحة أن تحذقها جميعاً

ومضت السيدة في حديثها العذب تفصل هذا الإجمال ، والطبيب والمحامي يصغيان إصغاء الإعجاب ، والضابط والفلاح ينظران نظر العجب ؛ أما الشيخ فقد كان همه كله من هذا الحديث ، أن يرقب اتفاقه أو إختلافه مع القرآن والحديث

— ٢ —

قالت السيدة (و .) تفصل ما أجملت من رأيها فى معنى لفظ البيت الجديد بأن يكون بيت أسرة، وفى حقيقة معنى المرأة الجديدة بأن تكون ربة بيت:
قد تكون الزوجة أبصر النساء بفنون الطبخ وشؤون المطبخ وأصول المائدة ، ولكنها تكون أجهلهن بما يجب لمهد الطفل وسرير الزوج ومدفأة الأسرة وبهو الضيوف ، وإذن لا تعدو أن تكون طاهية

وقد تكون الزوجة أقوم على رعاية الطفل والزوج ، وأضبط لحساب الدخل والخرج ، وأحزم فى سياسة العمال والخدم ، ولكنها تكون عامية الفكر خشنة الجانب مبتذلة الهندام فلا تعدو أن تكون قهرمانة[1]

وقد تكون الزوجة بطبيعتها ولوداً فتتوزعها الآلام والأسقام والشواغل فى الحمل والوضع والرضاع والفطام والتربيب والتهذيب والتمريض فلا يبقى من جهدها طاقة للبيت ، ولا من وقتها ساعة للناس ، ولا فى قلبها مكانة للزوج ، فلا تعدو أن تكون والدة

وقد تكون الزوجة أجذب أنوثة من كليوبطرة ، وأعذب حديثا من شهرزاد ، وافتن رشاقة من بنات هوليود ، ولكنها تكون خرقاء لا تجيد العمل ، حمقاء لا تحسن التدبير ، فلا تعدو أن تكون حليلة .

وقد يقتصر مدلول البيت فى ذهن السيدة على غرفة الزينة وقاعة المطالعة وصالون الاستقبال ، فهى ترقب الحديث من الثياب، وتقرأ الجديد من الكتب، وتناقش الطريف من الآراء ، ولكنها تعيش على هامش الأسرة عيش الترف والظهور والحذلقة ، فلا تعدو أن تكون أديبة .

وليست المرأة الصالحة لملكوت البيت واحدة من أولئك ، وإنما هى هن

(١) القهرمانة : مديرة البيت gouvernante

جميعاً : هى مخلوقة من نوادر الخلق ركبها الله من مجموع ما تشتت من الفضائل فى هؤلاء النسوة ، كما ركب الإغريق « فينوس » من جملة ما تفرق من الجمال فى مختلف الحسان .

قال الطبيب الزوج : كأنك يا عزيزتى تنقلين عن نفسك صورة هذه المرأة وأقسم لقد تعلمت فى بعض بلاد أوربا وتقلبت فى بعضها الآخر فلم أر صاحبة بيت تفوقك فيما سردت من مزايا الزوجة الصالحة .

فقالت الزوجة : قد يكون فى شهادة الزوج لزوجه بعض الهوى الذى يميل ميزان الحكم ، أو بعض الرضا الذى يزيغ بصر الناقد .

قال المحامى : ربما كان الهوى والرضا من شوائب الحكم فى غير الزوج ! فإن الغالب أن يتهم الزوجان بعد طول العشرة ، ودوام الخبرة ، وسأم الخلاط ، بقسوة العدل أو برقة الظلم فى حكم أحدهما على الآخر . على أن صديقنا الدكتور لم يعد ما فى نفوسنا جميعاً وإنما المسألة الصريحة التى تطلب الجواب الصريح هى أننى عرفت من النساء من هن أوسع ثقافة وأرفع بيئة وأضخم ثروة وأكرم أسرة ؛ ولكننى لم أجد فيهن ما وجدت فيك من خلال الزوجة المرجوة التى تجمع حنان الأم وإخلاص الزوجة وبراعة القهرمانة ومهارة الطاهية وأناقة الحبيبة وثقافة الأديبة فإذا لم تكن الثقافة أو البيئة أو الثروة أو الأسرة هى التى تكون الفتاة على هذه المزايا فمن تربته يكون ؟

قالت السيدة إن الأغلب فى هذا الضرب من النساء أن يكون وليد الفطرة وربيب الطبيعة وهو يكثر حيث يشتد التماسك ويقوى التضامن فى الأسرة ، لذلك تراه فى القرى أكثر منه فى المدن ، وبين العامة أظهر منه بين الخاصة وما دامت القسمة الطبيعية قائمة بين الشريكين الدائمين على أن يكون للزوجة البيت وللزوج ما وراءه ، فإن هذه الخصائص الفطرية تنشأ فى المرأة بحكم الضرورة ، وتقوى بفعل المرانة ، وتحكم بسلطان العادة . وليس

التعليم والتمدين إلا ثقافاً وصقالا لهذه الخصائص يقومانها ويرفعانها إلى المستوى الذى بلغه المجتمع فإذا وجدت امرأة تجردت من هذه الشمائل كلها أو بعضها فلا نشك فى أن طبيعة الأنوثة فيها قد فسدت لسبب من الأسباب فغدت من شواذ الخلق كالجمل المستنوق أو الناقة المستجملة

قال الفلاح : لقد كنت أتمثل فى ذهنى المرأة القروية حينما كنت تصفين ربة البيت . ولكنى لم أستطع إقحامها فى الحديث لأنها فى رأى الجمهور عنوان الجهالة حتى سمعتك تقررين أن الزوجة الصالحة تكثر فى القرية . والحق الذى يؤيده العيان أن الفلاحة تقوم على شؤون البيت ، وتنهض بأمور الأسرة ، على المنهج الأعلى الذى رسمته فى قولك واتبعته فى فعلك والفرق بين القروية والمدنية هو الفرق بين بيت وبيت ، وبيئة وبيئة ، وحياة وحياة . وتجانس العقلية فى المجتمع القروى يجعل مكان المرأة فيه أرفع ، وسلطانها عليه أوسع ، لتميزها على الرجل فى قوة النشاط ولطف الحيلة ويقظة الرأى .

فقالت السيدة : ذلك يؤيد ماقلت من أن ربة البيت هى من صنع الضرورة والطبيعة ، لا من صنع المدرسة والبيئة . والضرورة هى وجود البيت ، والطبيعة هى توزيع العمل على حسب الاستعداد والقدرة ولا أعنى بالبيت المسكن ، وإنما أعنى به الأسرة . وللأسرة فى النظام الاجتماعى مفهوم قلما يتضح فى أكثر النفوس ؛ فلا تظنوا أن قصور الخاصة بيوت تسكنها أسر ، إنما هى فنادق ينزلها أفراد . فللزوجين والأولاد غرف لا يدخلونها إلا وقت النوم ، ومائدة لا يرونها إلا ساعة الأكل ، وصالون لا يزورونه إلا يوم الاستقبال ، ومرافق لا يعرفونها إلا عند الحاجة أما القصر وما فيه ومن فيه ففى ذمة القهارمة والخدم ومن المحال أن ينشأ فى مثل هذه الجماعة المنتثرة سيدة تصلح لبيت ، أو آنسة تصلح لزوج وفى اعتقادى أن الكتاب الذين يعادون المرأة المصرية بين رجلين : رجل أحبها ويريد بعدائها أن تتحدث عنه فهو خادع ، ورجل كرهها لأنه عرفها فى البيئات الممسوخة فهو مخدوع .

غراب وطفل

(٢٠ يولية سنة ١٩٤٢)

حادثان وقعا فى نهار يوم وليله ، لهَا بهما من لهَا ، وتفكر فيهما من تفكر ، وبات أثرهما الباقى يعمل فى نفسى وفى رأسى ما يعمل الهم إذا جاش ، والألم إذا برح ، حتى أصبحت فإذا بى لا أجد فى ذهنى ما أكتبه إليك ، غير أن أقص نبأ هذين الحادثين عليك .

نشب جناح أحد الغربان فى مشتبك الغصون من أعالى (الكافورة) ، وجهد الطائر الأسير أن يخلص جناحه بالاضطراب والاجتذاب والخفق فما استطاع وكان قد حط بالقرب منه غراب ، فهبّ ينعب نعيب المستغيث ، ثم حاول أن يجتذب بمنقاره الجناح الناشب فأعياه ذلك فارتد يثب من حوله صاعداً هابطاً وهو ينعب ، حتى أقبل على صوت الإغاثة غرابان ، فحوّما هنيهة فوق أخيهما المصاب ، ثم أطلقا فى الفضاء نعيقهما المنذر . فلم تكن غير لحظات حتى تتابعت الغربان فكان منها على ذوائب الدوحة الفينانة عصابة ، وعقدت هذه العصابة مناحة ، وظلت هذه المناحة بقية النهار لا ينقطع لها صوت ولا تفتر بها حركة وكأنما كانت الغربان تضرع إلى الناس أن يسعفوا أخاها المسكين بحيلهم البشرية ؛ ولكن الناس كانوا قد تجمعوا على طِوَارَىْ الشارع تجمع البله ، لينظروا إلى الحادث العجيب نظر الفضول ! وقلما تجد بين البله والفضول مكاناً للمروءة !

فلما دنا الليل واستيأست الغربان انصرف بعضها وبقى بعضها الآخر

ولم تقصِّر الأغربة الباقية فى مواساته والترفيه عنه ، حتى لقد زعم بعض أصحابنا أنه رأى غراباً يزقه بالحب والماء . وانصرفنا نحن كذلك عن القهوة بعد موهن من الليل ، وليس فى نفسى غير هذا المظهر الأخوى الرائع فى نوع من الطير لم يرسل إليه رسول ، ولم تنشأ لتربيته جامعة ؛ وما كنت رأيت ولا قرأت ولا سمعت من قبل ما يشبه ذلك فى عالم الحيوان .

* * *

لم أكد أسكت المذياع بعد إعلانه الأنباء الأخيرة حتى سمعنا صراخ طفل حديث الولادة ينبعث فى سكون الشارع على حال غير مألوفة فاطَّلعت من النافذة فإذا الصراخ يتتابع من ركن مظلم أمام حانوت جارنا النجار فظننت أول الأمر أن إحدى الوالدات جلست تسترفه من التعب ، أو تستندى أكف المارة . وكانت امرأة من سواد الناس تمر فى تلك اللحظة فعاجت بحكم غريزتها على الطفل الباكى ، وجعلت تجسه بعينيها ويدها ، ثم صاحت تقول فى ارتياع وحسرة : الله يلعنها فى كل كتاب ! زِنَى وقتل ؟ !

ثم اندفعت المرأة فى طريقها تهرول وتدمدم كأنما تريد أن تنجو بنفسها عن موطن الشبهة !

ووقف بعدها على الوليد المنبوذ كل سائر . وكان كل واقف يشعل ثقاباً وينظر إلى محيا الطفل البرىء ثم يحوقل وينصرف !

وكان الطفل على ما فهمت من وصف الواصفين من الواقفين أزهر اللون جميل الصورة قد وضعته أمه (الحنون) فى قفة جديدة من الخوص ملفوفاً فى خرقة بالية من قماش مهلهل النسج لا نقش عليه ولا خيط فيه ! ولعلها خشيت ، إذا هى ألبسته بعض الثياب أن يستدل الشرط بها عليها ! والاحتياط لسلامة

الخدر المصون من سوء السماع ومض الملام فوق كل اعتبار !

كان المارة يجتمعون على جوانب المهد الخشن والطفل يضطرب فيه بيديه ورجليه ، ثم يتفرقون ولا يجرؤ أحد منهم أن يسبل غطاءه عليه ، أو يمد يده إليه ، كأنما هو فى ذاته لعنة مجسدة تعلق بمن يمسها وتلحق بمن يقرب بها ! والواقع أن اللقطاء أو أبناء السكك والدهالبز كما يسميهم الشرفاء ، أشقياء بالولادة . وقد تشتمل الرحم الفاجرة على الشقى والشقاء فى وقت معاً . فاللقيط وهو جنين يكون خطراً لا ينفك مهدداً بالعارَ إذا استمسك ، و بالموت إذا سقط . فإذا سلم على طعن البطن باليد ، وتسميم الرحم بالعقاقير ، وُلد فى الخفاء ، وغمر بالظلام ، وأحيط بالسكون ، وأصبح فى حجر أمه جريمة مولودة تطفىء نور البصر ، وتذوي شباب القلب، وتقطع خيط الرحم ، فتحاول أن تتنصل من هذه الجريمة الواحدة ، باقتراف جرائم متعددة ! فإذا عاش على سوء الولادة وجفاء المهد وقسوة الهجر ، عاش موسوماً بالخزى ، موصوفاً بالمهانة ؛ لا يرتفع به بيت ، ولا يشرف به منصب

يا حسرتا على اللقيط من بنى آدم ! يمر الانسان بالمتروك أو الضال من جراء الكلبة ، أو خنانيص الخنزيرة(1) ، أو حملان النعجة ، أو فراريج الدجاجة ، فيؤويه إليه حتى يجد صاحبه ؛ ثم يمر بالمتروك من جنسه فيشيح بوجهه و ينأى بجانبه ؛ لأنه إذا ضمه إليه اتهمته زوجه ، و إذا أظهر العطف عليه اتهمه الناس . ومن ينكره أهله لا يعرفه أحد ! ومن ضاق ذرعه بابنه لا يتسع صدره لمتبناه . لذلك كان الناس يمرون باللقمة المتروكة ، وفيها ثمرة الحب يتضـــــور و يبكى فلا يجودون عليه إلا بنظرة حنان ، أو كلمة رثاء ، أو إشارة إعجاب، أو لعنة انتقام وخفت أن يبيت الطفل على قارعة الطريق فدعوت من حمله إلى مركز البوليس

---

(١) الجراء : جمع جرو لولد الكلبة . والخنانيص : جمع خنوص لولد الخنزير .

وأصبح الصباح فقيض الله للغراب من عالج جنـــاحه بعود طويل من الخشب حتى خلص ، وانطلق الأسير فى رفاقه الأوفياء يرفه عن الجناح العليل فى العش الناعم والفضاء الحر والإخاء الوثيق وذهب صديقنا (على) يسأل رجال الشرطة عن مصير الطفل ؟ فقيل له : منحناه اسماً من الأسماء ، ونحلناه أباً من الآباء ، وسجلناه مجهول الأب والأم ثم أرسلناه إلى الملجأ ليعيش عمره الطويل أو القصير من غير أسرة ولا كرامة ولا ثروة ولا رجاء !

* * *

أما بعد فذلك غراب وهذا طفل ! أما الغراب فلم يتركه قومه حتى أنقذوه وأخذوه ؛ وأما الطفل فقد تركه أبوه لأمه ، وتركته أمه للناس ، وتركه الناس للقدر ! فمن ذا الذى يقول بعد ذلك إن ابن آدم خير من ابن آوى ، وإن بنت حواء أفضل من بنت اللبون ؟ إن هذا الغراب هو الذى علم قابيل جد هذا الطفل أن يوارى بالدفن سوأة أخيه المقتول ! وهل نجد أبلغ فى تسجيل العجز على الإنسان من قول قابيل حين رأى الطائر يبحث فى التراب :

« يا ويلتا ! أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ؟ »

من عجائب الناس

(٢٨ سبتمبر سنة ١٩٤٢)

لعل ابن آدم هو المخلوق الوحيد الذى يرى الشىء الواحد بعينيه الاثنتين أبيض تارة وأسود أخرى على حسب الصبغ الذى يلونه به الهوى ! فقد يتحد الشىء فى ذاته وصفاته ، ولكنه يختلف واعجباه فى نظره أو فى رأيه ، فيكون حسناً وقبيحاً ، أو خيراً وشراً ، أو حلالاً وحراماً ، أو نافعاً وضاراً ، لا باعتبار حقيقته فى نفسه ، ولكن باعتبار ما تقتضيه الحاجة أو الأثرة أو الرياء أو المحاباة . وبفضل هذه الميزة العجيبة فى الإنسان تعددت مقاييسه ، وتضاربت أهواؤه ، وتناقضت أحكامه ، وتباينت عقائده وتفرقت سبله .

ذلك كلام لا نكير فيه ولا لبس فلا أحلل ولا أعلل ؛ وبحسبي أن أدع الحوادث تحدّث والأمثلة تمثل .

أذاع راديو (بارى) منذ ليلتين أن فريقاً من الطلاب الهنود تظاهروا فى بمباى فاعترضتهم فئة من الشرط الانجليز فتفرقوا فى شوارع المدينة أباديد بعد أن أصيب نفر منهم بجروح ثم عقب المذيع على هذا الخبر بأن الاعتداء على المتظاهرين بالضرب ينافى المدنية ، ويجافى الخلق ، ويصم الذين ارتكبوه بالقسوة الوحشية والبربرية الأثيمة وفى هذه الاذاعة نفسها أعلن هذا المذيع نفسه أن مليوناً من جنود المحور قد اقتحموا بالدبابات الثقيلة والطائرات المنقضة والسيارات المدرّعة منازل « ستالينجراد » على الروس وفيهم النساء والأطفال والشيوخ والمرضى ، فدكوا كل بناء ، وسحقوا كل حى ، وركموا أشلاء القتلى فى الحجرات والطرقات على صورة لم يرها الراءون ولم يروها الراوون . ثم أخذ هذا البوق البشرى يهذى بفضل هذا النصر على المدنية ، وينوه بعظيم أثره فى مستقبل الانسانية !

كان لكاتب من كبار المصلحين حصه مأكولة فى وقف أهلى ، فظل

يكتب فى وجوب حل هذا النوع من الوقف حتى نضب مداده ، ويخطب فى جشع النظارة وإهمال الوزارة حتى جف ريقه وتداول الناس مما كتب وخطب جملة من البراهين الملزمة والنصوص الصريحة والوقائع الثابتة لا تدع لوجود الوقف الأهلى مبرراً ولا للدفاع عنه حجة فما هو إلا أن آلت النظارة على هذا الوقف إليه حتى بلغ لسانه فلم يخطب ، وكسر قلمه فلم يكتب ، وفرغ لاستغلال الوقف والاستبداد بريعه فلم يقبل رقيباً عليه ، ولم يقابل مستحقاً فيه !

ذكرت بهذا الكاتب المصلح ذلك الاشتراكى المفلس الذى كان يرى الرأسمالية وبالاً على المجتمع ، والرأسماليين كلا على الناس وكان يسوغ فى سبيل اشتراكيته الإرهاب والإضراب والمصادرة والقتل ، حتى ورث عن أحد أقربائه الأباعد قطعة من الأرض ، فنصب على كل جهة من جهاتها الأربع لافتة كتب عليها بالخط العريض : « ممنوع المرور » !

وكان خطيب من خطباء المساجد عليه سمات التقى والزهد لا ينفك يقرع آذان المصلين بالعظات الزاجرة عن احتكار السلع وإخاش الأسعار وإرهاق الناس فى هذه السنين العجاف ؛ فإذا فرغ من الوعظ وخرج من المسجد جلس فى حانوته الصغير يسبح الله ويقسم لطالب السكر أو الزيت أو الرز أن دكانه من كل أولئك خلاء . فإذا وجد الضعيف المضطر أعطاه بالسعر المضعف والكيل المطفف بعض مايطلب ! وهيهات أن تنفذ إليه عيون الحكومة من وراء الحجب الأربعة التى ضربها عليه من وظيفته وعمامته ولحيته ومسبحته !

هذا الشيخ يحسب أن حدود الدين لا تتعدى حدود المسجد ، فإذا عالج شؤون الدنيا عالجها على المنهج الذى سنه الشيطان لأوليائه ؛ فهو كالتلميذ الذى يحسب أن قواعد النحو لا تتعدى «حصة» اللغة العربية ، فإذا كتب فى التاريخ أو فى الكيمياء كان مطلق الحرية فى إنشائه . ذلك أحسن الفروض ، فإذا كان يعتقد أن الدين طعم الدنيا وشرك المال ، كان كذلك الصوفى المرم الذى

زعموا أنه كان يركب الترام كل صباح إلى ضريح الإمام الشافعى ، فكان كلما أقبل « الجابى » يطلب أجرة الركوب أدبر عنه وشغل لسانه بالذكر ويده بالتسبيح حتى ينصرف إلى غيره. ففى ذات يوم ألح الجابى على تغافل الشيخ وسأله عن (التذكرة) فلم ير بدًّا من أن يدفع هذه المرة ويقول فى هيئة المفحوم ولهجة الذاهل : « معذرة يا بنى ! فقد شغلت بالله عن كل شىء » !

وكان كبير من الكبراء له فى الصوم مذهب جديد ؛ فهو يصوم الصوم (الصحى) الذى يفيد الجسد ولا يفيد الروح : يتعاطى كل ساعتين كوباً كبيراً من عصير العنب أو الليمون أو المانجو ، ثم يمسك عن التبغ فى النهار وعن الخمر فى الليل ، ويصر على أن تساقط أصابعه الثلاث حبات المسبحة منذ أذان العصر ، وأن يفطر على أشربة رمضان وآكاله عند أذان المغرب . فإذا بلغه أن أحد مرءوسيه غفل عن آداب الصيام ، فى النظر أو فى الكلام ، أخذه أخذاً شديداً (بتعليمات الوزارة)

وكان أستاذ من أساتذة الأدب لا يحاضر إلا فى الدين ولا يجادل إلا فى الخلق ، له فى الحرية الشخصية مذهب فضفاض يسحب أطرافه السابغة على كل معروف من الدين والخلق ؛ ثم لا يعوزه أن يجد لكل رغيبة من رغائب نفسه الشهوانية سنداً مما يسميه هو الدين والخلق . فمثله كمثل ذلك الفقيه الثقة الذى تبحر فى القانون وتقصّى فى الإفتاء حتى لا تند عن ذهنه مسألة ، ولا تغرب عن براعته حيلة. فلما تولى بعض أمور الناس وجد لكل مأزق من مآزق الضمير مخرجا من مخارج الرأى لا يضيق عن أمر من الأمور فى أى غرض من الأغراض!

هذه أمثلة من الواقع المشهود تؤيد شقاء الإنسانية بين العقل والهوى . ولو طاوعت القلم لسردت عليك ما هو أعجب ؛ ولكن . . .

قالت الضفدع قولاً ردّدته الحكماء
فى فمى ماء وهل ينطق مَن فى فيه ماء ؟

الرسالة في عامها الحادي عشر

(٤ يناير سنة ١٩٤٣)

أقبل العام الميلادى تسعى بين يديه الشمس ؛ ومن ورائه يقبل العام الهجرى تسعى بين يديه القمر ؛ و بين هذين النيرين الآلهيين تبلغ « الرسالة » مرحلتها الحادية عشرة فى سبيلها الشاقة ، إلى غايتها الحاقة ، ومنهما معرفتها ورشادها ، وفيهما تضحيتها وجهادها ومن نور القمرين نور الدنيا ، ومن هدى التاريخين هدى الناس ؛ فإذا تعسر الخطو وتعثر الخطاة فذلك لأن النور الإلهى احتجب ، والبصر الإنسانى . كل على أن نورالهدى تدركه البصائر لا الأبصار ؛ فإذا عميت القلوب تخبط الناس فى ظلام جهنمى تموج فيه تهاويل الشر ، فأفسدوا كل صالح ، و بددوا كل منتظم ، وهددوا كل حى . وما محنة العالم اليوم إلا ضلال عن الطريق . والضال إذا لم يهتد هالك لا محالة ومن يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً

كلما عاد عيد الهجرة أو عيد الميلاد صاح بالضالين المتفانين شيخ الإسلام أو حبر النصرانية : أن تعالوا إلى الطريق! ولكن كلا الدليلين — وا أسفاه ! — يقف على رأس الجادة المهجورة داعياً ولا سميع ، وراعياً ولا قطيع !

فتى يا إله الناس تنحسر عن العيون السادرة أغشية الضلالة فيعود الجائر إلى القصد ، و يرجع الشارد إلى الحظيرة ؟

لقد طغى الفنـاء على الكون ، وأرسل على ملكوت الله سمائمه السود تعصف فى كل مكان بالخوف والجوع والدمار والموت لا تكف ولا تخف

حتى لا يدرى الممسى كيف يصبح ، ولا الغادى كيف يروح !

هذا هو الشتاء الرابع يقبل على هذه الرجفة الآدمية العالمية وهى راعدة لا ينقطع لها دوى ولا حم ولا نار ولا ضحايا ؛ و بنو آدم المتمدنون لا يفتأون يسحرون العلم الذليل الخاضع فى تأريث براكينها المزمجرة ، فتقذف الردى شهباً فى السماء ، وتصبه حميا فى الماء ، وتشعله جحيما فى الأرض ، وأولادهم هم أشلاء هذه المقتلة ، وحضارتهم هى أنقاض هذه الزلزلة وكل أولئك فى سبيل الرغيف ورزق الله موفور ميسور ما دامت السماء تمطر والأرض تنبت ! ولكن الإنسان مهما يتعلم و يتقدم لا يزال فى سياسة معدته على الفطرة الأولى من حب الاستئثار والاحتكار ، فلا يعرف القناعة فى الرزق ، ولا يقبل العدالة فى القسمة ، ولا يحسم الخلاف على القوت إلا بالقوة إذا تأسد ، و بالمراوغة إذا تثعلب . وقد تتفانى الدول وتبقى الأرض ، كما يتفانى الأسود وتبقى الفريسة !

والخاسرون فى معركة الحياة هم عبيد الطمع من الأفراد والأمم . يبذلون دماءهم فى سبيل الحياة لا لينعموا بها ، ولكن ليحافظوا عليها . وهم مادة الغذاء فى يد الطبيعة : ترعاهم ليأمنوا ، وتدر عليهم ليسمنوا ، فإذا تكاثروا وامتلأوا قدمتهم إلى الحياة العامة فكانوا سماد الزرع ليخصب ، وقلامة الشجر ليغلظ !

* * *

كان الشأن فى الحرب القديمة أن يخرس اللسان والقلم إذا نطق السيف والرمح وكانت نيرانها المحصورة لا يصلاها إلا المتحاربون ، رجلا لرجل ، أو فئة لفئة ؛ ولكن هذه الحرب الجديدة فى خططها وعددها ، قد جندت كل قوة وأوعبت كل حياة . جندت العلم والأدب والفن والصحافة والإذاعة والتمثيل والسينما ، وعبأت الزراع والصناع والتجار والمدنيين والعسكريين والمحايدين

والمحاربين والأطفال والشيوخ ، فلم تدع أحداً فى العالم كله يفكر إلا فيها ، ولا يشغل إلا بها ، ولا يعمل إلا لها ، ولا يألم إلا منها ؛ فكأنها أصبحت المحرك الأول لآلة العيش ، استولت عليه الشياطين فأنتجوا به من أداة الشر ما لم يقع فى سماع التاريخ ، ولم يخطر ببال الناس ، ليهلكوا ما ادخرته القرون ويهدموا ما شاده الله !

لذلك نما وطما كل ما يمت إلى هذه الحرب بسبب من الإنتاج المادى والفكرى ، وذبل وضؤل منهما ما لا يحارب ولا يدعو . والأدب فى الحرب القديمة كان تشجيعاً ، ولكنه فى هذه الحرب أصبح دعاية وقد نفق هذا النوع من الأدب نفوقاً عجيباً فى كل أمة ، لأن الحكومات على اختلافها وائتلافها تتملقه وتتعهده وتنفق عليه والأدب كالحرب عصبه المال بفضله يخصب و يزدهر ، وبحوله يتسع و ينتشر أما الأدب الذى لا يحارب ولا يدعو ، فقد ظل كالشعب المحايد ، يعانى الحرمان ولا يد له فيه ، و يقاسى الغلاء ولا ربح له منه .

والصحافة الأدبية من هذا النوع : ألح عليها فحش الغلاء وحرمان العوز حتى نحل بدنها وشحب لونها ، وكادت تنبَتُّ من فرط الضنى فى وسط الطريق أصبحت لا تجد الورق إذا وجدت المال ، ولا تملك زيادة العرض إذا ملكت زيادة الطلب ، ولا تضمن بقاء الغد إذا اطمأنت على بقاء اليوم فإذا قدر الله لها أن تخرج من محنة هذه الحرب وفيها حشاشة نفس ، كانت حرية بعد ذلك أن تستهين بكل صعب ، وتثبت على كل خطب ورجاء الرسالة فى الله أن يرزقها من الجلد ما تتماسك به على عرك هذه الشدائد . وحسبها من صدق الأمانى أن تعيش حتى ترى الطريق قد استبصر ، والسلام قد استقر

والأمر قد استقام ويومئذ يتسع لها المجال فتشارك جاهدة مخلصة فى رأب ما تصدع وتجديد ما تهدم .

وإذا كان للرسالة فى مستهل هذا العام ما تغتبط به من فوز جهادها ونجاح دعوتها ، فذلك توفيقها فى معالجة الإصلاح الاجتماعى توفيقاً لمست أثره فى منهاج وزارة الشؤون الاجتماعية فى عهد وزيرها القائم بأمرها اليوم . فلقد أتاه الله حزم الحكماء وعزم المصلحين فطوى فؤاده الشهم على نية الإصلاح بالفعل لا بالقول فرفع شأن العربية فى دواوين الحكومة ، ومهد السبل المؤدية إلى تنظيم الاحسان وجباية الزكاة ومحاربة الأمية ومطاردة الفقر على نحو يشبه ما نحته الرسالة فى معالجة هذه الشؤون

وأمنية أخرى طالما تمنتها وودتها الرسالة وتوشك أن تكون مقاصد الحكم فى هذا العهد : تلك الأمنية هى الاتحاد العربى على أى صورة يكون . وفى كلام الزعماء ومنطق الحوادث ما يعزز الرجاء فى تحقيق هذا الأمل ؛ وفى توفيق الله وجهاد الصادقين ما يحقق النفع المرجو من هذا العمل .

نهاية أستاذ

(١٦ أغسطس سنة ١٩٤٢)

مئـات من المدرسين وآلاف من الطلاب يعرفون الأستاذ أحمد عثمان المهدى مدرس (الفرير) الشـابر خمسا وثلاثين سنة . ولـكن معرفتى إياه رفيقاً فى الدراسة ، وزميلاً فى التدريس ، تجعلنى أقدرَ من عرفوه جميعاً على حكاية مأساته ، وكشف ما خفى من أسرار حياته ومماته .

غرفته سنتين طالباً فى الأزهر يُعنَى بتجويد الخط ، ويحاكى « أبناء البلد » فى الرواء والسمْت ومن كان ربيب أسرة المهدى[1] المترفة كان خليقاً أن ينشأ على حب الجمال فى الزى والمنظر .

وزاملته سبع سنين مدرساً فى كلية الفرير بالخرنفش يُعلّم العلوم العربية فى فصولها المختلفة ، وينسخ « للأخ بلاَج » المفتش أصول (مؤلفاته[2]) فى النحو والبلاغة والأدب وما كان أحذقُ المتنبئين ليستطيع حينئذ أن يتنبـأ لهذه النفس الراضية والطبع المرح والثغر الضحوك واللسان الداعب ، بهذه الـكهولة الأليمة والعاقبة المحزنة . نعم كان المتفطن المستبصر يخشى أن تـكون له فى بعض الأزمان المقبلة زوجة وأولاد ؛ فقد كان يعيش عيش السمك فى الماء ، لا يكاد يعرف له مستقراً ولا غداً ولا غاية . كان يقضى فراغه كله فى المقاهى بين زمرة من الشباب الملق المتملق، وكان العِرق التركى الذى فيه لا يزال يضرب عليه بالشموخ والأبهة ، فلا يسمح لأحد من الجلاس أن يدخل يده فى جيبه . وكان

---

(١) كان أبوه من مماليك الشيخ المهدى العباسى ، ومن هنا كانت نسبته

(٢) من الإنصاف للحقيقة والتاريخ أن أقول بهذه المناسبة أن الذى ألف كتابى (سفينة النجاة) و (سفينة البلغاء) هو الشيخ سيد الشايب، وأن الذى حرر كتاب (بحر الآداب) فى أجزائه الخمسة ووضع نثره ونظمه فى هذا الأسلوب الأخير هو الشيخ أحمد حسن الزيات ، وكان الرجلان مدرسين فى كلية الفرير .

فضلا عن ذلك مخروق الكف والكيس فلا يمسكان على ما يكسب ، ولا يبقيان على ما يملك كان لا يسأله أحد إلا أعطاه ، ولا يعرض عليه شيء إلا اشتراه . وكان أكثر ما يشتريه لا يحتاج إليه ، كأداة للمطبخ وليس له بيت ، أو حاجة المرأة وليست له زوجة ، إنما كان مولعاً بمساومة الباعة الجوالين ، ويسره أن يعلموا أنه خبير بالصنف فلا يغش ، عليم بالثمن فلا يغبن . وقد فطن الخبثاء إلى هواه فكانوا يتغالبون له ويتشاكون منه ، وهو يشترى ويشترى ثم يودع ما اشتراه صاحب القهوة ثم يذهل عنه فلا يطلبه !

وكان لحبه الخير والشهامة يتمدح بما فعل وما لم يفعل منهما . ولخياله الخصب فى هذا الباب حوادث وأحاديث يكون هو فيها البطل المرموق . وكان يكفى أن تحسن الاستماع وتظهر الاقتناع لتسلبه الإرادة وتقوده إلى حيث تريد . وضعف إرادته إنما كان يظهر فى نواحى المروءة والرحمة ، أو فى أمور المال والمعيشة فكان لابد له من قيم يدبر ماله وينظم أمره ، ولكنه مع ذلك كان يعيش أرغد العيش وينعم أطيب النعمة ، لأنه كان يخلف ما يتلف كان يكسب من الدروس الخصوصية لليهود أضعاف ما يأخذ على عمله اليومى فى المدرسة وكان من الجائز أن يقضى العمر فى ظلال هذا العيش الغرير لولا أن وقع المحذور وتنبهت عيون الحوادث . تزوج المسكين ! وكانت زوجه لسوء حظه صورة مؤنثة منه بل زادت عليه أنها من قوم فقراء يحبون الرفد والمعونة ، وكانت كما شاء القدر ولوداً ، فلم يأت على زواجهما بضع سنين حتى كانا فى بضعة أولاد وتظاهر ضعف الزوجين وإسرافهما الشديد ونزاعهما المتصل على حياة هذه الأسرة البائسة فلم تنعم بهدوء ولم تظفر بتربية . وأصبح كدح الرجل قليلاً على تسعة أفواه لا تحسن غير الخضم والهضم ، فكان يكد ويحتال ويتصرف ويقترض . ولكن الأمر كان فوق طاقته ومن المحال أن يتعادل دخل المبذر وخرجه والماء مهما يزخر ويرتفع لا يبقى إذا ما انتهى إلى بالوعة !

وتسابقت الأحداث على المسكين ففدحه الدين ، وركبه الهم ، وغاضت بشاشة وجهه ، وذهبت أناقة هندامه وقسا عليه الدهر ذات مساء فانتحر ابنه البكر تحت الترام وهو معه ينظر إلى أشلائه المبددة ، و يستمع إلى أناته المرددة !

ثم جاءت هذه الحرب بما نعرف من بلائها وغلائها ، وكانت عوارض الوهن والانحلال قد ظهرت على المعلم المكدود فاضطرب تفكيره وفتر نشاطه وصعب على « الفرير » خدام الدين والعلم أن يمشوه عظماً كما نهشوه لحماً ، فأخرجوه بعد أربع وثلاثين سنة قضاها معهم فى جهاد العجمة واللكنة لا يدخر جهداً ولا يبالى مشقة وأخرجوه وكل ما فى يده مائة وخمسون جنيهاً كافأوه بها على ما أفنى من صحته وشبابه . وكانت هذه المكافأة طعام أشهر معدودة كان فى أصباحها وأمسائها يطرق الباب بعد الباب عسى أن يجد السبيل إلى رزقه الهارب ، أو الوسيلة إلى عيشه المفقود وتصام أكثر الأصدقاء فلم يستجيبوا لطرق الأنامل النحيلة على الأبواب الصقيلة فباع الرجل فضول المتاع ثم باع حاجاته . وكادت الأسرة الشريدة تجوع وتعرى لولا أن قيض الله له صديقاً من ذوى الجاه والفضل فرشحه للتدريس فى المدرسة الملكية بالمنصورة ولهذه المدرسة شهرة بحب الجمع وكراهة القسمة ، فرتبت له ثمانية جنيهات فى الشهر وحاول البائس المضطر أن يسد بهذا المرتب أجرة مسكنه ونفقة عياله فاستحال ذلك عليه إلا أن يسكنوا نصف السكن ، و يأكلوا بعض الأكل ، و يخلصوا من عقابيل السرف القديم ، فكان يقترض من المدرسة سبعة جنيهات فى كل شهر على حساب الأشهر المقبلة ، حتى جاء شهر مارس الماضى وليس له من مرتب العام كله غير خمسة جنيهات ! نعم خمسة جنيهات هى كل ما بقى لسبعة الأشهر الباقية ! إذن ماذا يصنع ؟ لم يبق فى المنزل ما يباع ، ولا فى الناس من يعين ، ولا فى الغد ما يُرجى !

وها هو ذا بعد أن نيف على الخمسين فى خدمة اللغة والأدب يجد نفسه على

بشا الهاوية ممنوع الرزق مقطوع الرجاء ، لا منصب يُظل ، ولا ثروة تُغل ، ولا ولد يعول ، ولا عشيرة تؤوى ، ولا أمة تساعد !

وفى هوادى ليلة سوداء من ليالى مارس انفرد به الهم الملازم فى ركن منعزل من البيت النائم ، وكان مستقبله القريب الداهم قد تمثل فى ذهنه و برز فى عينيه حجاباً من الظلام الكثيف يتدجى بالمخاوف واليأس ، فلم يستطع أن يتبين من خلاله غير صفيحة من البترول صبها على جسده ، وغير ثقاب من الكبريت أشعله فيه ! فلما شاعت النار فى جسمه خرج يعدو إلى الشارع وهو يستغيث بأبنائه واحداً بعد واحد فما أصاخت أذن ولا تنبهت عين وسقط المسكين صريعا أمام كنيسة المارون فى الحسينية ، وكان الصراخ الهالع قد أيقظ قسيسها فخرج يستطلع الخبر . وانحنى القسيس على المحترق يتأمله ، ورفع المحترق نظره إلى المنحنى يتبينه ، فإذا كلاهما يعرف الآخر ، و إذا القسيس تلميذ من تلاميذ الأستاذ القدماء !

— ماذا صنعت بنفسك ياشيخ عثمان ؟

— تلك مشيئة الله !

ونقلت المحتضر عربة الإسعاف إلى المستشفى ليلفظ آخر أنفاسه حين تنفس صباح الجمعة . وأبطأت إجراءات النيابة والصحة حتى دخلت ليلة السبت ولم يكن حاضر أمره غير ناظر المدرسة ووكيله . فاقترح الوكيل أن يبقى فى المستشفى إلى الصباح ليشيعه زملاؤه وتلاميذه ؛ وصمم الناظر أن يقبر فى الليل ، لأن النهار يقتضى قماشاً وفراشاً وقهوة !

وشيعت فى ظلام الليل وسكون الناس جنازة جندى باسل من جنود الأدب المجاهدين ، وليس أمامه إلا الناظر والوكيل ، وليس وراءه إلا أولاده وزوجه !

الرسالة في عامها الثاني عشر

(١٠ يناير سنة ١٩٤٢)

في بصيص من الأمل يلمع في دياجي الآفاق استهل عامنا الوليد! ! وهذا البصيص قد لاح من الشرق أيضاً : لاح في أفق « العلمين » من صحراء لو بيا ! ولصحارى الشرق أسرار يبوح بها القدر كلما قضى الله أن يخرج العالم من ظلمة إلى نور ! ولِرَب السموات والأرض نظام يدبره على مقتضى أمره . فلا الزلزال ولا الإعصار ، ولا الحديد والنار ، ولا الدمار والموتان ، ولا الجبروت والطغيان ولا النازية النازيّة ، ولا الفاشيّة الفاشيَة ، تستطيع وإن تظاهرت أن تُعقّب على حكمه ، ولا أن تبدل ما سبق في علمه .

كان العالم كله في النصف الأول من العام الذاهب يتيه في بيد قوائم الأعماق من مجاهل الأرض ، نجومها رجوم ، وآفاقها غيوم ، ورياحها سموم ، ومسالكها لغوم ، وهواتفها جِنة . وكانت الوحوش النازية تزأر في جنباتها السود ، فتردد زئيرها الرعود ، وتنزل بوعيدها الصواعق . ثم أراد مالك الملك ألاّ يشركه في ملكه أحد ، فبدا في غياهب « العلمين » ودياجي « ستالنجراد » شعاع من نوره ، فإذا الظلام يشف والطريق يستبين ، وإذا اليأس يتحول رجاء ، والزئير ينقلب عواء ، والمارد الجبار يعود إلى القمقم ، والتنين الخرافي يرتد مثخناً بالجراح إلى قفصه الهائل ، وقد شرع مخالبه الكثيرة بين قضبانه الطوال الغلاظ ليعوق القدر الهاجم ويؤخر الأجل المحتوم !

في هذا الشعاع الإلهي الذي هدى المجوس ليلة ميلاد المسيح ، وضلل المشركين يوم هجرة محمد ، ثم عاد فبيّن للانسانية نسم الطريق في معامي هذه

الحرب ، تستقبل « الرسالة » عامها الثاني عشر ، وهي باعتبارها لسانا من ألسن الإصلاح الإنساني تجد بهذا التحول الحربي والسياسي رَوْحاً وغبطة ترتاح لأن تباشير النصر تكاد تنبيء عن سلام رخي يرد الوئام على الناس ويعيد النظام إلى الدنيا . وتغتبط بعقبي هذه الحرب التي لا نعت لها في لغات الناس إذا استطاعت نارها التي لم تخب ساعة في أربع سنين أن تنفي خَبَثَ الغرائز عن العنصر السماوي في ابن آدم المسكين وما أسعد الإنسانية جمعاء إذا عوضها الله من ملايين الأنفس التي أزهقت ، ومن قناطير الذهب التي أنفقت ، ومن آلاف المدن التي أحرقت ، تلك الأماني العذاب التي اشتمل عليها ميثاق الأطلسي ، وعبرت عنها حريات رزفلت !

لقد ظلت هذه المنى دعوة الدين ورسالة الحكمة منذ هبط هذه الأرض آدم ؛ فكانت تُقص كالأحلام وتُسمع كالأنغام ، فتهدهد الغرائز العارمة ساعة الشبع والغفوة ؛ فإذا انتبه الإنسان على وخز الحاجة كشَّر عن الناب وشمر عن المخلب ، ثم يفعل ما يفعل كل حيوان من كل جنس فلما جاءت المدنية لم تزد على أن جعلت للناب غطاء من الذهب الوهاج ، وللظفر غشاء من الصبغ القاني ! فهل آن لعقول الناس أن تفهم عن وحي الله ، وللخلائق المكسوبة بالتهذيب أن تتغلب على الغرائز الموروثة بالفطرة ؟ لا نظن ذلك . إنما هي القوة التي تحولت بتأثير الكثرة والثروة إلى تهديد مستمر . وهي الحرب التي تطورت بتسخير العلم والفن إلى فناء عام ! فاذا فكر قادة الإنسانية اليوم أن يحسموا أسباب الحرب فيما بقي من عمر الدنيا ، فذلك لأن الحرب المقبلة معناها انفطار السماء وانفجار الأرض وقيام الساعة والنزاع الدولي مهما تختلف دواعيه نزاع على مادة الحياة . فاذا كان يؤدي إلى الفناء المطلق ، وجد في أصل الفطرة

الإنسانية ما يمنعه . والأصل فى طبيعة الحرب أن تُنتج النصر من بين قوة وضعف ، فإذا تكافأت القوى بطل عملها أو تفانت . وكل دولة من الدول التى تمتاز اليوم بكثرة الأرقام فى عدد الأنفس والأموال ومعاهد العلم ودور الصناعة ، تستطيع أن تعبىء الجيوش وتهيىء الأسلحة ولكنها لا تستطيع أن تضمن الغلب ، فلا مناص إذن من تحالف دولتين أو ثلاث منها لتُبطل التكافؤ وتثقل الكفة ؛ ولا يدوم هذا التحالف الحتمى بين الدول المختارة لحفظ السلم إلا إذا انقدعت نفوسها عن الطمع والأثرة . لذلك كنا متفائلين بنتائج هذه الحرب إذا دارت دوائرها على المحور ؛ فان جنوح الأحلاف إلى تحكيم العقل المسلح فى النزاع ، وتوخى العدل الممكن فى القسمة ، وإيثار التبادل الحر فى المعاملة ، هو حلم الأمم الضعيفة بطبعها فى العدد والعُدة .

على أن سلطان العقل والعدل وإن قوى أثره فى نظام العالم المرجو لا يضمن وحده سلامة شعب اجتمعت على أهله القلة والذلة والفرقة والجهالة ؛ فإن لهذه الصفات الخسيسة أثرها فى تخفيف الموازين وتخفيض القيم . ولن تستطيع ولو حرصت أن تعدل بين متفاوتين فى العقلية والحرية والمدنية والقوة . ولا يستوى فى طلب الحق أو الدفاع عنه واحد وجماعة . والدول الصغيرة كالآحاد قوتها فى أن تُجمع . ودول البلطيق والبلقان والشرق الأدنى قوى متفرقة ؛ فلو تجمعت المتجاورات منها لكان لها فى الحرب والسلم شأن غير هذا الشأن .

اللهم رحماك ورضاك ! هذا خامس شتاء يقضيه عبادك فى زمهرير جهنم ! ونار الطاغين يا أعدل الحاكمين غير نارك ، يصلاها البر والفاجر ! لم يبق فى العالم المحروب صدر من غير بلبلة ، ولا بلد من غير زلزلة ، ولا أمة من غير أزمة ! فاجعل اللهم هذا العام حداً لهذا البلاء الشامل !

عبقرية الإسلام

(١٧ يناير سنة ١٩٤٤)

عبقرية الإسلام[١] عنوان وضعته لكتاب اشتغلت بإعداده منذ اشتغل العالم بهذه الحرب. وكان الذى وجه فكرى إلى هذا الموضوع ما وقع فيه الناس كافة من هذا التفانى الذريع لأسباب لا يصعب حسمها على العقل الأصيل. وبداهة الرأى أن نرجع إلى ما شرع فاطر الأرض وواهب الحياة ومنزل الوحى بعد أن عجز الذين طاولوه فى ملكه من دهاقين الحكم وأساطين العلم عن قسمة رزقه بين أشتات خلقه. وما كان لبشر سليم الفطرة ليرتاب فى أن الذى برأ الخلق على اختلاف فى القدرة والحيلة، وأنشأ الغرائز على اتفاق فى الطمع والغيلة، هو أعلم بما سينشأ فى كونه من تصادم القوى وتعارض الأهواء؛ فلا جرم أن يكون شرعه دستوراً كاملاً تصلح عليه شؤون الفرد وأحوال الجماعة من كل جنس وفى كل عصر وعلى كل أرض.

ولقد كانت إدامتى النظر والفكر مدى هذه السنين الأربع فى مصادر الإسلام الصافية مصداقاً لهذه الفكرة؛ فإن غير الله لا يملك أن يضع فى الإسلام هذه الأسس والقواعد التى تضمن نظام العالم وسلامه مهما تختلف الأجيال وبتطاول الأبد. وهل كان — لولا وحى الله — فى مقدور رجل أمى نشأ ربيب اليتم والعدم فى قرية جاهلة من قرى الحجاز الجديب أن يعلن فى أوائل القرن السابع حقوق الإنسان وحرياته، وهى التى أعلنت بعضها بالأمس فرنسا نتيجة لتلك الثورة، وتمنت بعضها اليوم أمريكا غاية لهذه الحرب؟!

* * *

عبقرية الإسلام هى ذلك الإشراق الإلهى الذى انبثق من غار حراء

---

(١) عارضت بهذا الكتاب العتيد أمير النثر الفرنسى شاتوبريان فى كتابه القيم الممتع «عبقرية المسيحية Le Génie de christinisme

فكشف الرسول عن أطوار النفس البشرية فى طوايا الغيب فدعا دعوته الخالدة إلى تكريم الإنسان وتنظيم العمران وتعميم الخير وتحقيق السعادة ، من طريق التوحيد ، والمؤاخاة والمساواة ، والحرية ، والسلام فالتوحيد سبيل القوة ، والمؤاخاة سبيل التعاون ، والمساواة سبيل العدل ، والحرية سبيل الكرامة ، والسلام سبيل الرخاء . وتلك هى الغايات التى ترجو الإنسانية بلوغها عن طريق العلم والمدنية فلا تتكشف أمانيها بعد طول السُّرى وفرط اللغوب إلا عن سحاب خلب وسراب خادع .

هذه المبادئ المثالية التى تضمنتها دعوة الإسلام معلومة من القرآن بالنصوص الصريحة ، فلا موضوع فيها لتأويل أو تحميل أو تعسف . فالتوحيد ركن من أركان الدين وعنوان من عناوينه . وهو من الكلم الجوامع التى وعت جوهر الإصلاح وسر النجاح لكل مجتمع وأمة . وهو توحيد الله ، وتوحيد العقيدة ، وتوحيد الغاية ، وتوحيد اللغة ، وتوحيد الحكم ، وتوحيد التشريع ، وتوحيد الدين والدنيا وشواهد التوحيد فى أشتات معانيه مذكورة فى كتاب الله لا يختلف فى مدلولها أحد

وفكرة الوحدة الإنسانية هى مزية الدعوة المحمدية على كل دعوة وفى سبيلها صدق الإسلام بكل دين أنزل ، وبكل نبى أرسل ، ودعا الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً إلى خطة واحدة وكلمة سواء ثم وصل الدين بالدنيا وكانت اليهودية والنصرانية تفصل بينهما ؛ فالأولى كان همها الصفق والاجتراح؛[1] والأخرى كان سبيلها الرهبانية والتنسك ولكن الإسلام جعل الدين للدنيا كالروح للجسد ، فلا تعمل إلا بوحيه ،ولا تسير إلا بهديه ثم آخى بين المؤمنين ليجتمعوا على صدق المودة ويتعاونوا على لأواء العيش ، فلا يبغى قوى ،

---

(١) التجارة والعمل .

ولا يبخل غنى ، ولا يظلم متسلط بدأ ذلك بالتأليف بين الأوس والخزرج ، والمؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين ؛ ثم توثقت عرى الأخاء بين المجاهدين فى سبيل الله ، حتى صار المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، وأصبح هؤلاء القلال الضعاف فى بضع سنين أئمة للناس وورثة لكسرى وقيصر !

كذلك فى سبيل الوحدة الانسانية والأخوة الاسلامية فرض الاسلام الزكاة وشرع الحج ، وأمر بالاحسان والبر ، ثم سوى بين الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم فى الحقوق والواجبات ، بمحو العصبية الوطنية ، وقتل النعرة الجنسية ، وجعل التقديم والتكريم للتقوى ، فقال الرسول الكريم فى خطبة الوداع « إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد . كلكم لآدم وآدم من تراب . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

وفى هذه الأصول الاسلامية كما ترى أفضل ما فى الديمقراطية ، وأعدل ما فى الاشتراكية ، وأجمل ما فى المدنية . فهى حرية أن تصلح ما فسد من أمور الناس ، وتقيم ما اعوج من نظام الدنيا ولقد كانت كذلك يوم كان لحملتها دولة ولدعاتها صوت ولمعتقديها يقين . فلما دالت الدولة ، وخشع الصوت ، وأراب اليقين ، تمزق المسلمون قطعاناً فى فدافد الأرض لا مرعى يجود ، ولا راع يذود ، ولا حظيرة تؤوى ثم كانوا بتخلفهم عن ركب الحياة حجة على الاسلام فى رأى السفهاء من مرضى الهوى أو الجهل ، فصموا عن دعائه ، وعموا عن ضيائه فليت شعرى متى يُتاح لدعوة محمد من يجدد حبلها ، وينشر فضلها ، ويقول لأولئك الذين يحاولون أن يرفعوا قواعد العالم على أساس جديد ؛ « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم ».

من مآسي هذه الحرب

(١٤ فبراير سنة ١٩٤٤)

أجل، هي مأساة من مآسي هذه الحرب وإن وقعت في قرية صغيرة لأسرة فقيرة. فلا تقل أين (منصور جراد)[1] من (استالين جراد) ، ولا أين خمسة نفر أهلكتهم الجوع من ملايين طحنتهم رحاً عرض شقيها كعرض السماء والأرض ؟ فإن الموت في معركة الدبابات ، كالموت في معركة الزهور . والشقاء الذي يكرب أنفاس أسرة ، هو بعينه الشقاء الذي يفدح كواهل أمة . والموت لا يقاس أثره باتساع ميدانه وانتشار مداه ما دامت الجماعة لا تحسه إلا إحساساً جزئياً في كل فرد منها والفرد مهما يقو شعوره لا يدرك من بحيرة السم غير القطرة التي تسري فيه ، ولا من أطنان القنابل غير الشظية التي تفتك به .

* * *

ما أظنك نسيت صديقنا الشيخ منصورا ومواقفه الجريئة من أصحاب الضياع والألقاب، أيام الانتخاب لمجلس النواب ، فقد كان في جرأة قلبه وعزة نفسه مثل الفلاح المؤمن بعظمة الله وكرامة الإنسان وحقارة الدنيا . وكان كما علمت من وصفي إياه قد تعاظمت في نفسه الحرية حتى احتقر المالك ، وألحت على جسمه السلامة حتى سئم العافية ، ونفرت عن قلبه الهموم حتى ألف السعادة .

هذا الرجل الذي كان شخصه يتميز في الزحام من بعد ، قد استسرت على

(١) جراد معناها بالروسية بلد أو مدينة ، فاستالين جراد : مدينة الزعيم ستالين ، ومنصور جراد من باب المشاكلة بلد الشيخ منصور .

معرفته وهو أمامى ! لقد ذوى ذلك المحيا النضر ، وتهدم ذلك الجسد الوثيق ، وتخدد ذلك العضل المكتنز ، وتجرد ذلك الهيكل الريان ، حتى ليخفق جلبابه على ألواح !

لقد انقطع علم ما بينى وبينه منذ دهر طويل . وكان آخر العهد به لقاء ضاحك فى بعض قرى الريف وهو على حاله تلك من الوثاقة والطلاقة والصحة فلما علم أنى قدمت المنصورة فى هذا الأسبوع جاء يزورنى متحاملا على نفسه . فلما أقبل على أنكرته أول ما رأيته ، ثم لم ألبث آن عرفته بما بقى من سيماه على وجهه . فصافحته وأحسنت لقاءه ؛ ثم دعوته إلى الجلوس فسقط بجانبى على الكرسى كما يسقط كيس من العظام على الأرض . وعقل الدهش لسانى فلم أسأله عن أمره . وحدس هو ما يعتلج فى نفسى من الخواطر فقال بصوت غير صوته ، ولهجة غير لهجته :

١ — لعلك ظننتنى خارجاً من المستشفى ، أو بالحرى مبعوثاً من القبر ! ليت ما بى كان المرض ، فقد يكون للمرض دواء ! وليت ما بى كان الموت ، فقد ينحسم بالموت الداء ! إنما هو جسم يذوب فى نار من الهم لا تخبو ، وروح تزهق فى حشرجة من الكرب لا تنقطع !

— إذن أنت يا صديقى حزين ؟

— إذا كان لفظ الحزن يعبر عن هذا الذوبان الدائم وذلك الاحتضار المتصل فأنا حزين ؟

— هل فقدت عزيزاً عليك !

— لقد فقدت كل عزيز على !

وهنا خانه الجلد فلم يستطع المسكين أن يملك دمعه . فلما هدأت نفسه

وراجعه صبره قال :

— أنا فى حياتى ما شكوت ولا رجوت ، ولـكن الخطوب التى قوضت ركنى وسودت حياتى هى التى أكرهتنى على أن أشكو وأرجو ؛ وذلك وحده خطب الخطوب .

كان ذلك فى شتاء سنة ١٩٤٢ ، وكان لى عامئذ زوجة مخلصة وابنة عزيزة وثلاثة شباب بررة . وكنا نحن الستة ، ومعنا بقرتنا العاملة الحلوب ، وحمارنا الفاره الدؤوب ، وكلبنا الحارس الأمين ، لا نفترق ولا نختلف ، ولا نرى الدنيا إلا فى بيتنا وحقلنا ، ولا نجد اللذة إلا فى لباسنا وأكلنا فإذا جار المالك علينا فى القسمة ، عدل الله فينا بالعوض . وإن جرى القضاء علينا بما نـكره ، انتهى الصبر بنا إلى ما نحب . حتى أزمت هذه الحرب الناس ، فضاق الرزق ، وامتنع الوارد ، وارتفعت البركة ، وفشا المرض ، وأعوز الدواء ، واختزن الملاك ما تنبت الأرض ، واحتكر التجار ما تجلب السوق ، ففحش الغلاء ، وطفف الـكيل ، حتى أصبح الأجير يعمل الأسبوع كله ليشترى كيلة من الذرة إذا وجدها . ثم قضت سياسة التموين أن تشترى الحـكومة مقداراً من القمح مفروضاً على كل زارع وقضى الله الذى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ألا تزيد غلة أرضى على حصة الحـكومة عندى ، فنقلت على حمارى ما فى الجرن إلى بنك التسليف ؛ وحجز المالك ثمن القمح استيفاء لبعض إيجاره ؛ فخرجت صفر اليدين من النقد والحب ، فلا فى الجيب ولا فى المخزن . ولـكننا يا سيدى أحياء ؛ والحى لا مناص له أن يأكل فقمت أنا وزوجتى وابنتى على زراعة الأرض ورعى البقرة ، واشتغل بنى الثلاثة أجراء عند الناس ، فـكنا نجمع أجرتهم فى كل ثلاثة أيام لنشترى بها كيلة واحدة . وماذا تصنع الـكيلة من غير إدام

فى ثلاثة أيام لستة أفواه ؟

على أن هذه الحال لم تدم ، وليتها دامت ! فقد نفدت الحبوب من القرية ، وحُرم على الناس نقلها من بلد إلى بلد ، فكنت أقبض أجرة أولادى فى المساء ، ثم أذهب إلى المنصورة فى الصباح ، فأشترى بها من الخبز المخلوط مالا يسمن ولا يشبع وعلى هذا النمط النابى من سوء العيش قل الغذاء ، وكثر العمل ، وبلى الثوب ، واتسخ الجسد ، واعتلت الصحة . ووفدت على القرية حمى التيفوس فلم تجد مناعة فى جسم ، ولا وقاية من نظافة ، فأودت ببنى الأربعة واحداً بعد واحد . ونجت منها زوجتى لتندبهم فى النوا كل حتى لا يترك أولادى الحياة من غير عرس ولا مأتم ثم أمعن القدر فى ابتلائه فانتشر فى الماشية وباء التسمم الدموى ، فنفقت البقرة ، وهلك الحمار ، وأصبحت الدار والحمد لله خلاء مما صأى وصمت ! أما بقية القصة فإنك تقرأها الآن فى وجهى وإذا جاز أن يكون لمثلى بعد ذلك رجاء ، فإنى أرجو من الله الموت ومنك الكفن !

أبو العلاء المعري بمناسبة عيده الألفي

(٢٧ مارس ١٩٤٤)

في اليوم السابع والعشرين من شهر ربيع الأول عام ٣٦٣ والشمس في الغروب ، والقمر في المحاق[١] ، والمعرة في همود الكلال ، والطبيعة في فتور الكرى ، ولد الطفل النبيل الضئيل أحمد أبو العلاء !

كان في ظلام الرحم ، وولد في ظلام العشية ، ثم عاش في ظلام البصر ، وانتهى إلى ظلام القبر ! ومن هذا الظلام المتصل[٢] نسج القدر حياة أبي العلاء وأنشأ عواطفه ، وسود فلسفته ، وأبهم عقيدته ، وأوحش نفسه !

ومن هذا الظلام أيضاً تفجر النور كله على قلبه وعقله ، فكان آية من آيات ربه الكبرى في ذكاء الفهم ولطافة الحس وقوة الحفظ ودقة التخيل ، وهو القائل :

---

(١) المحاق : ثلاث ليال من آخر الشهر لا يرى فيها القمر .

(٢) لم يبصر أبو العلاء الدنيا إلا ثلاثة أعوام قبل أن يصاب بالجدري كانت عليه ظلاماً محتويا لقلة وعيه وضعف إدراكه .

سواد العين زار سواد قلبي ليتفقا على فهم الأمـــور

وإذا كان لكل عاهة من عاهات الحس تعويض من قوى الروح ، فإنه لها كذلك أثراً شديداً في حياة المعوه ، ترسم له الطريق وتعين له الغاية . فعاهة أبي العلاء فرضت عليه أن يجعل العلم شغل حياته ؛ واختارت له من العلم أنواعه النقلية والنظرية مما تغنى فيه الحافظة وتعين عليه المخيلة ، كاللغة والدين والشعر ووسائلها من الرواية والنحو والصرف والعروض ، فقضى عمره[1] الأول بين أيدي الشيوخ في الشام وبغداد ، أو على مقاعد المكتبات في المساجد والأديرة ، يسمع ويعي ، ويجمع ويستوعب ، حتى لم يدع كلمة في معاجم اللغة وكلام العرب إلا علقها ، ولا مسألة من مسائل العلوم الأدبية إلا حذقها ثم قضى عمره الثاني معتكفاً في داره ، يعسّل الشهد تعسيل النحل امتلأت بطونها برحيق الزهر المختلف ، ويقطر الزلال تقطير المرشح الضخم أفعم جوفه بماء السيل المشوب . ولغلبة الأدب على حافظته لم ينضح فؤاده إلا به . وكتبه التي أملاها وهي تربى على المائتين لم تخرج عن فنون الأدب المختلفة أما علمه بالفلسفة وسائر العلوم فقد كان علم الأديب ، يأخذ منها ولا يعطيها ، ويشارك فيها ولا يختص بها . وأروع مظاهر النبوغ في ثقافته الأدبية إحاطته باللغة إحاطة المستوعب ، حتى كانوا إذا عدوا من رزقوا السعادة في شيء لم يؤته الله غيرهم ، عدوا أبا العلاء ممن تفرد بالاطلاع الواسع على لسان العرب . ومن هنا طغى الغريب على نظمه ونثره ، إذ كان همه مصروفاً إلى تقييد الأوابد اللغوية مما جمع عليه وعاء قلبه . وما كان في نية أبي العلاء أن يكتب لدهماء الناس ، إنما كان يكتب لنفسه ولتلاميذه . فهو ينظم ليرتاض ، ويؤلف ليسجل ، ويملي ليعلم ومن قوله

---

(١) العمر أربعون سنة ، وناهز فلان العمرين إذا قارب الثمانين

فى مقدمة سقط الزند : « لم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد ، ولا مدحت طلباً للثواب ، وإنما كان ذلك على معنى الرياضة وامتحان السوس[1] » فاذا كتب للعامة أشرق لفظه وسهل أسلوبه ، كما صنع فى كتابه (سيف الخطيب) ، وهو مجموعة من الخطب المنبرية ألفها على حروف من حروف المعجم ، ثم قال :

« وتركت الجيم والخاء وما يجرى مجراها ، لأن الكلام المقول فى الجماعات ينبغى أن يكون سجسجاً سهلا »

وعاهة أبى العلاء هى التى جذبت إليه العيون وشغلت به الألسن ؛ لأن الضرير الذى يجيد النرد والشطرنج ، ويدخل فى كل باب من أبواب الجد والهزل ، ويحفظ من مرة واحدة ما يرد على سمعه مما يفهم وما لا يفهم ، عجيبة من العجائب التى يجب أن ترى ، وتستحق أن تروى . واكتظاظ مجلسه بالناس سبيل إلى الفضول والتزيد منهم ، وإلى مقابلة الحال بالحال وموازنة الحظ بالحظ منه . وأبو العلاء الذى خلق بحكم منبته الكريم عزيز النفس رفيع الهوى ظاهر المزية ، كان يستشعر العجز والنقص بما يعلم من انطفاء بصره ودمامة وجهه وضآلة بدنه وقصر قامته ، فكان لذلك شديد التيقظ لحركات الجالس وكلمات المتكلم . وربما أساء الظن ببرىء ، وتوهم الإساءة من محسن . وهو فى طعامه وهندامه وسلامه وقيامه عرضة للخطأ ومظنة للمؤاخذة ؛ فكان لا ينفك متزايلا[2] ضجراً يديم الحذر ويؤثر العزلة .

صاحب أبو العلاء الزمان ولابس الناس وراود السعادة حتى استحار شبابه فلم تزده الأيام إلا يقيناً بعجزه الطبيعى عن مجاراة الأنداد فى سباق الحياة وعن مرضاة النفس بلذات العيش ، وعن منازلة الخصوم بسلاح الإفك ؛

---

(١) السوس : الطبيعة ، تقول : الفصاحة من سوسه أى من طبعه (٢) متزايلا : منقبضا .

فانقلب إلى داره نافضاً كفيه من دهر لا رجية له فيه ، ومن عالم لا صديق له به ومن نعيم لا نصيب له منه . وساعد على إمضائه نية الاعتزال لجيعته فى أمه وهى الظل الذى يأوى إليه ، والسبب الذى يتعلق به ؟ فزهد فى الدنيا وصدف عن الناس ، وأخذ نفسه بالخشونة والحرمان خمساً وأربعين سنة لا يلبس غير القطن ، ولا يفترش غير اللبد ، ولا يأكل غير العدس ، ولا يتفكه إلا بالتين وهو فى أثناء ذلك الدهر الطويل منطو على نفسه ، متحامل على ذهنه ، يحوك القوافى ويصوغ الأسجاع فى التسبيح لله ، والتزهيد فى العيش ، والترغيب عن الزواج ، والزراية على أم دفر[1] ، والتنديد بأبى البشر ، والتشنيع على ريله أهل الدين وجور أصحاب الحكم ، والتشكيك فى صلاح الأنظمة والشرائع .

كان أبو العلاء فى شبيبته نسيم رحمة ، ثم صار فى كهولته عاصفة دمار ! ولعله لو كان بصيراً متفائلا كالجاحظ ، أو ضريرا شهوان كبشار ، لتبدل حكمه على الدنيا ، وتغير رأيه فى الناس !

(١) أم دفر : هى الدنيا فى شعر أبى العلاء

أحمد حسن الزيات

وحي الرسالة

فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع والقصص

المجلد الثالث — الطبعة الخامسة

١٣٨٤ — ١٩٦٤

نال هذا الكتاب جائزة الدولة للأدب

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر بالفجالة
١٨ شارع كامل صدقي

مطبعة الرسالة
شارع [illegible] ٣ عابدين

مقالات

بعد الاعتكاف

(١١ ديسمبر سنة ١٩٤٤)

وجدتُني بعد خروجي من المستشفى أشبه بالآلة الميكانيكية الموهونة ، تزلزلت مفاصلها وانحلت عُراها ، فشدوا بعضها إلى بعض بخيوط غليظة بالية . فكنت إذا نهضت نهضت متحاملاً على ذراع ، وإذا مشيت مشيت متثاقلاً على حذر . وتلقيت على هذه الحال دعوة المجمع العلمي العربي بدمشق إلى مهرجان المعري ، فارتحت إلى هذه الدعوة ، لأنها ستتيح لي سعادة النفس بلقاء الإخوان ، ومتعة العقل بشهود المهرجان ، وصحة البدن بهواء لبنان ، وتأدية الواجب لشيخ المعرة .

ولكن السفر شاق ، والأمد بعيد ، والآلة الهشة لا تزال من الوهن تميد وتتخلع . فقررت الاعتكاف عن دنيا الناس حيناً من الدهر تحية وزلفى لإمام المعتكفين في مهرجانه . وقلت لنفسي : هي خلوة وفية يثوب فيها الجسم ، وتصفو بها الروح ، وتشف بيننا وبين أبي العلاء الحجب ؛ فنخلو إلى روح الشاعر في كتبه ، ونجلو لإخواننا المحتفلين فناً من أدبه . ووقفت بنا السيارة على باب صومعتي الريفية في ضواحي المنصورة ، وهي قائمة وحدها بين الحقول الخُضر والأشجار الغين ، كما كان يقوم عش آدم في الجنة حين لم يكن على الأرض إنسان غيره وغير زوجه . فدخلتها دخول الناسك الشريد وجد الظل والماء بعد وقدة الهجير وشدة الظمأ . وهبّت على الجسد العليل نفحات النسيم البحري فأذهبت عنه ما أرمضه في القاهرة من لفحات يوليو القائظ . وغمرني السكون الريفي الحي في المنزل والحديقة ، وفيما حولها من مزارع القطن والرز ، فسبحتُ في فيض من سكينة الفردوس اختنق

فيها ما بقى عالقاً بسمعى من أصداء الحياة وضوضاء المدينة. وقطعت عن عشى صلاته العالم الخارجى فلم أعُد أرى غير مخضرّ أو مفترّ ، ولم أعد أسمع غير صادح أو باغم .

تذكرت حينئذ ناسك المعرة ، وقد اختصر العالم فى داره ، واختزن العلم فى صدره ، ثم كفاه الله هم الرغيف والمرأة ، فانفلت طليقاً من إسار العيش المقيد ، وانطلق سابحاً فى جواء الفكر الحر ، ينظر من عَلٍ إلى بنى آدم المساكين، وقد سلطتهم الطبيعة على أنفسهم ، فتفارسوا بالغرائز ، وتنافسوا فى الصغائر ، وزعموا أنهم العلة الغائية لخلق السموات والأرض وما دب على ظهرها وتولد فى بطنها ، ونما فى ثراها . ولو أنك نضوت عنهم ثياب التمثيل ، وجردتهم من وسائل التمويه والتجميل ، لما وجدتهم فى حقيقة الأمر يختلفون عن جماعة الكلاب تقتتل على جيفة ، أو تختصم على كلبة ! .

كان اعتكافى كما قلت قرباناً لأبى العلاء . فأنا أعيش معه أكثر النهار فى اللزوميات ، أو فى الفصول والغايات ، أو فى مسارح التأمل والتفكر . وكثيراً ما كنت أستغرق فى استذكاره واستحضاره وأنا مستلق على العشب ، فأتمثله وهو مضطجع على سريره يفكر ، أو جالس على حشيته يملى، وكاتبه بين يديه ، وأولاد أخيه من حواليه ، وتلاميذه وزواره فى صحن الدار يرقبون أن تشرق عليهم شمس المعرفة من غرفته . وكنت أتخيل الشيخ بين هؤلاء كائناً عجيباً يشع العلم طبعاً كما تشع الشمس النور وتبث الزهرة العطر وتعسل النحلة الشهد . فأسائل نفسى هل أبو العلاء وأضرابه من عباقرة الفكرة أفراد من نوع الإنسان؟ وإذا كان وجودهم دليلا على قابلية هذا النوع لمثل هذا الرقى، فلماذا كانوا من الندرة بحيث يُعَدون عداً منذ وقع فى سمع الزمان نبأ آدم ؟ وهل يجوز أن يكون

التفاوت بينهم وبين سائر الناس كالتفاوت بيني وبين هذه الحشرات التي تموج من حولي تحت وريقات هذا العشب ؟ .

خلوت إلى أبي العلاء في هذا المعتكف شهرين شغلتهما بالفكر فيه والقراءة له والتأمل معه . وكنت أشعر في خلالها أني أعمق شعوراً بالكون، وأدق فهماً للطبيعة ، وأتم علما بالناس ، ولكني مع ذلك حاولت مراراً أن أكتب فلم أفلح ! ذلك لأن الخواطر التي كانت تنثال على إنما كانت صدى لخواطر المعرى أو اشتقاقاً منها أو اقتباساً بها . وكنت أجد في شعره أو نثره التعبير الجميل الصادق عن هذه الخواطر فلا أجد بي حاجة إلى مزيد . والاعتكاف بعد هذا ضرب من العبادة الصامتة يغني فيها الفكر عن الذكر والاستغراق عن المشاهدة ، والاستقبال عن الإذاعة .

وأوفيت على تلك الحال بالنذر للشيخ فودعته وودعني ، وانسدلت بيني وبينه حجب القرون العشرة . ثم عاد إلى قبره الجديد ، وعدتُ إلى مقرى القديم ليستأنف هو راحة الخلود في سكون المعرة ، وأستأنف أنا جهاد الحياة في زحمة القاهرة . فلما أخذت على عادتي في الريف أبسط رئتي للهواء النقي ، وأرهف أذنيّ للصوت الجميل ، إذا الهواء منتن يزكم الأنف ويأخذ بالنفَس ؛ وإذا الصوت منكر يندب الأخلاق وينعى الشرف ، وإذا النقائص والفواحش التي أخذها أبو العلاء على الناس متفرقين في الأمم والعصور، تتجمع كلها في زمن واحد وبلد واحد ! وتلك كارثة خلقية تتضاءل بجانبها كوارث الحرب في الأموال والأنفس . فإن من يشكو الجوع والموت والدمار وهي بلايا تدفعها السلم القريبة ويعوضها العمل المنتج ، ليس كمن يشكو جوع النفوس وموت

الضمائر وخراب الأخلاق ، وهى محن لا ينفع فيها غير تبديل الفطَر الأصلية ، وذلك من صنع الله وحده ! :

لم يأت وا أسفاه على مصر فى دهرها الطويل حينٌ كهذا الحين اماعتْ فيه الرجولة ، وانحلت الأخلاق ، وطغت الشهوات ، وأظلم الحس ؛ حتى خفت الرذائل على الطباع ، وساغت التهم الفواجر فى الأسماع ، فأصبح الناس يقرأونها كالأخبار ، ويسمعونها كالقصص ، ويتبادلونها كالتحايا . ثم لا يجدون لها فى أنفسهم مضاً ولا غضاضة ! :

الرسالة فى عامها الثالث عشر :

تباشير الجامعة العربية

يناير سنة ١٩٤٥

لاحت فى جوانب العام المنصرم تباشير السلم كما تلوح فى هوادى الليل تباشير الفجر الكاذب[١]؛ فانبعثت رواقد الأمانى هنا، وتحلبت أشداق المطامع هناك؛ وابتهل العالم العربى إلى الله أن يوقّيه ويلات السلم كما وقاه ويلات الحرب، فأوحى إليه[٢] أن يتحد — ومن طباع العالم العربى الذى يؤمن بانقطاع الوحى ألا يعمل إلا بوحى — فوفد إلى القاهرة وفود الدول العربية خفافاً وثقالاً ، وأخذوا ينظرون فى الصورة التى تكون عليها الوحدة ، وفى الألوان التى تتألف منها الصورة . ولا يزال أقطاب « الجامعة العربية » يديرون الرأى فيما بينهم استعداداً لجمع « المؤتمر » وعقد « الميثاق » .

ذلك وحى الضرورة نزل على قلوب الساسة فصدعوا به وعملوا له . وهنا لك وحى الطبيعة أوحته القرابة الواشجة ، واللغة الواحدة ، والوطن المشاع ، والتاريخ المشترك ، فتجلى فى المجمع اللغوى ، وفى التعاون الثقافى ، وفى مؤتمر الأطباء ، وفى مؤتمر المحامين ، وفى مهرجان أبى العلاء ، وفى مؤتمر النساء ، وفى بعوث الأقطار العربية فى معاهد مصر العلمية ، وفى الدعوات والرحلات ، وفى الكتب والمجلات ، وفى الأصوات المتجاوبة تزأر بالدفاع عن فلسطين المهددة، وفى الجماعات المتزاورة تتساقى المودة حيناً على بَرَدَى وحيناً على دجلة .

تلك وحدة الروح والهوى . لاخلاف فيها على زعامة ، لأن زعيمها الخالد بالإجماع محمد . ولا خوف منها على استقلال لأنها كدين الله لا تعرف الحدود

(١) الفجر الكاذب ضوء داكن يبدو قبيل الفجر الصادق مستطيلا معترضاً و يقال له ذنب السرحان

(٢) إشارة إلى إشارة المستر « إيدن » وزير خارجية انجلترا بتأليف الجامعة العربية .

ولا تقبل الحصر . ولا مثار بها لعصبية لأنها كعروبة الإسلام لا تفرق بين أحد من الناس لدين أو لجنس . و (الرسالة) تحمد الله وتشكره على أن وفقها في سنيها الثلاث عشرة لتكون جندياً صادق البأس خالص العقيدة من جنود هذه الوحدة.

وكان الرجاء أن تَصدق نبوءة المتنبئين بانطفاء هذه الحرب في عامنا الذاهب ، لتستعيد الأرض قرارها المطمئن ، وتستأنف الحياة سيرها الآمن ، وتستقبل الرسالة عامها الجديد وهى على حال من القوة والفتوة والجِدَّة توافق هذا الجهاد وتطابق هذه السن ، ولكن الشياطين ما برحوا يحتلون مختبرات العلماء ومكاتب الزعماء ورءوس القادة . ورأس الشيطان كقلب الإنسان لا يسبر غوره ولا يحد مداه . فإذا خبت نار ذكت نار ، وإذا سكن إعصار ثار إعصار ، وكلما انكشف سر تلاحقت أسرار . فالخطة تنسخ الخطة ، والعُدَّة ترفد العُدة ، والاختراع يتبع الاختراع . وليس يعرف لهذه القوى الجبارة أمداً تخور عنده إلا الخبير القدير الذى شاء أن يطامن من كبرياء الإنسان ويكسر من غروره ، فسلط هواه العارم على عقله القاصر ، ثم وكله إلى نفسه ، فاعتل إدراكه ، واختل توازنه ، وانطلق فى ضراوة الوحش ، ورعونة العاصفة ، يدمر ما عمر ، وينقض ما أبرم ، ويقتل ما ولد !

* * *

ليست هذه الحرب مقصورة على جهاتها المادية بين الجيوش المتحاربة فى أوربا وآسيا ؛ وإنما هى زلزلة اجتماعية عامة هزت كل وطن ، وبلبلت كل نفس ، وزعزعت كل نظام وغيرت كل معنى . فمن لم يجدها فى جيشه أو على أرضه وجدها فى نفسه وفكره وعقيدته وسياسته وتقاليده ونظمه . والأسلحة والوسائل تختلف باختلاف البواعث النفسية فى كل محارب ؛ فقد تكون إذا تحركت فى الجماعة حوافز السمو ونوازع الكمال ، ثورة على قيد يعوق نهضتها ، أو على نظام يهين إنسانيتها ، أو على مذهب يستعبد عقليتها ، أو على حكم يلغى إرادتها .

وقد تكون إذا اضطربت فى قرارة هذه الجماعة كدورة الطين وشهوات

البهيم اعتداء على حُرمَ الناس بالدس والسباب ؛ أو بالسرقة والاغتصاب ، أو بالغدر والحيلة ؛ أو تمرداً على الأوضاع الطبيعية ، فيرغب الفقير الكسول في ثروة الغنى الجد ، ويتشوف العاجز الكَلّ إلى منصب القادر الكفء ، وتطلب المرأة الخرقاء مساواة الرجل في الحق دون الواجب .

ستنطفىء ثائرة هذه الحرب في وقت ما . وستأتي نتائجها بالطبع منطقية مع أسبابها التي بعثتها على صورة من هذه الصور . فأما الذين أنفقوا فيها من أنفسهم وأموالهم ، في سبيل أمجادهم وآمالهم ، فسيجدون الكمال في هذا النقص ، والحياة في هذا الموت ، كالشعر يغزر ويقوى بالقص ، وكالشجر يغلظ ويرف بالتقليم . وعقبى مثل هذه الحرب على الغالب والمغلوب وثبة إلى الرقى الإنساني والعمراني يفتتح بها عصر ويبدأ تاريخ .

وأما الذين أنفقوا من فضائلهم وأخلاقهم ، في سبيل مناصبهم وأرزاقهم ، فقد خسروا كل شيء : خسروا مالا كفاء له ولا عوض منه ، وربحوا مالا بقاء له ولا فضل فيه . وهل تغنى المادة إذا ذهبت الروح ، أو تحيا الأمة إذا مات الخلق ؟

لقد نجا العالم العربي من حرب الإنسان التي تهدم لتجدد ، وتقلم لتثقف ، وتبيد لتزيد ، فهل نجا من حرب الحيوان التي تقتل لتأكل ، وتغاب لتلذّ ، وتغصب لتحتكر ؟ إنك ياسيدى أبصر من أن تُبصَّر . والنتن ينم على وجوده ، والشر يدل على نفسه . ومن لا ير يسمع . ومن لا يسمع يشم . ومن أعوزه الدليل في نفسه وجده في غيره . فليت شعرى ماذا أعد سادتنا وزعماؤنا للسلم التي تعقب هذه الحرب ؟ إن أقطاب العالم الثلاثة[1] قد استعدوا من اليوم لتعمير ما اندثر من المدن ، وتجديد مارث من النُّظم ، فهل يستطيع أقطابنا الثلاثون[2] أن يستعدوا لتعمير ماخرب من الضمائر ، وتجديد مارث من الأخلاق وتوثيق ماوهى من العقود ؟

(١) الثلاثة هم رزفلت وتشرشل واستالين (٢) والثلاثون هم الوزارة المصرية التي كانت قائمة و (الهيئة السياسية) التي ألفت من أقطاب السياسة لتعاونها في المفاوضات مع انجلترا .

اذكروا يا زعماء العرب

(٨ يناير سنة ١٩٤٥)

أذكروا يا زعماء العرب وأنتم اليوم بسبيل التشاور فى تجديد وحدة العرب أن الركن الأول من أركان دينكم هو التحديد ، وأن العمل الأول من أعمال نبيكم كان المؤاخاة .

أذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً . وأذكروا إحسان النبي إليكم إذ كنتم أشتاتاً فجمع شتيت شملكم فاقتم على وحدته مُلكاً وسلطاناً .

أذكروا لماذا نذكر صاحب الهجرة فى كل أذان وفى كل صلاة من كل يوم . هل نذكر اسمه مع اسم الله تعبداً به ؟ معاذ الله فما يكون الشرك غير هذا. إنما نذكر الله وحده ونذكر محمداً كما تُذكر القاعدة ومعها المثَل، أو النظرية وبعدها العمل . لأن الله يوحى والرسول يبلغ ، ويأمر وهو ينفذ ، ويَشرعَ وهو يطبق. فذِكر الله استحضار لأوامره ونواهيه وتلك هى القدرة ؛ وذِكر الرسول استحضار لأفعاله وأقواله وتلك هى القدوة .

أذكروا أن الوحدة هى التى أمكنت العرب فى الأمس البعيد من تراث كسرى وقيصر . وهى وحدها التى تستطيع فى الغد القريب أن تنقذهم من وراث (موسو)[1] و (هتلر) .

قولوا المعوقين منكم والمخلّفين عنكم : إن العصبية التى توسوس فى بعض الصدور بالرياسة والسيادة والعزة إنما كانت فى تاريخنا الحافل بالأحداث والعبر علة العلل فى انشقاق العصا ، وانقسام الرأى ، وانحلال العقدة وانتشار الأمر ،

(١) موسو اختزال لموسولينى وكان زعيم الفاشية فى إيطاليا .

وتعدد الدول . هى النعرَة[١] التى قالت يوم السقيفة : منا أمير ومنكم أمير . وهى الهامة[٢] التى خرجت من قبر عثمان وظلت تصيح على دار الخلافة : نحن هاشميون وأمويون ! نحن قيسيون ويمنيون ! نحن علويون وعباسيون ! نحن عرب وشعوبيون ! نحن اثنتان وسبعون فرقة تتقاطع فى الدين ، وتتعادى فى الدنيا . وتزعم كل فرقة منها أنها هى الناجية ! نحن ثلاثة خلفاء فى وقت واحد : عباسى على عرش بغداد ، وأموى على عرش قرطبة ، وفاطمى على عرش القاهرة ، ولكل خليفة منهم شأن يغنيه ، وهُدْوان مع الباغين على أخيه !

أذكروا كل أولئك يازعماء العرب واستاروا بسيرة نبيكم فى السياسة ، واستنوا بسنته فى الحكم ، فإن محمد بن عبد الله الذى آثر أن يكون نبياً عبداً على أن يكون نبياً ملكاً قد ساس الناس فى عهده سياسة دينية لا تفرق بين على وبلال ، ولا بين قريش وباهلة . لم يسسهم عليه السلام سياسة وطنية ، لأن الوطن محدود والدين لا حد له ، ولم يسسهم سياسة قومية ، لأن القوم جماعة متميزة لا تعرف العموم ، والدين إنسانية شاملة لا تعرف الخصوص . ومن كان مديناً بزعامته لربه لا لحزبه كان خليقاً أن يساوى بين الناس جميعاً فى عدله وفضله . أما وقد استشرت العصبية ففرقت شعبنا فرقاً لكل فرقة طُرُزٌ ورسوم ، ومزقت وطننا مِزَقاً تفصل بينها مكوس وتخوم ، فإنا أحرياء بأن نصلح الأمر بما صلح عليه أوله : نخفت فى نفوسنا صوت الأَثرة ، ونسكِّن فى رءوسنا عصف الهوى ، ونجدد فى أذهاننا ما طمس من معانى الإيثار والإخاء والفداء والمروءة ، ونحدد فى أفهامنا ما انبهم من هذه المبادىء الإسلامية الصريحة : « إنما المؤمنون إخوة » .

---

(١) النعرة ذبابة زرقاء طنانة تدخل فى أنف الحمير والخيل فتضطرب وتهيج ، وتستعمل فى الخيلاء والكبر .

(٢) الهامة فى أساطير العرب الأولين طائر يخلق من رأس القتيل ولا يزال يصيح فى رأسه يقول : اسقونى ، حتى يقتل قاتله .

« وأمرهم شورى بينهم » ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً . الناس سواسية كأسنان المشط .

وتلك هى المثلُ العليا للسلام والنظام والحكم تطلبها الشعوب المكروبة المسخّرة بالثورة بعد الثورة ، وبالحرب عقب الحرب ، فيحول بينها وبينها تصادم القوى وتعارض المنافع .

* * *

لا نطمع فى أن نجعل من الوطن العربى الذى قطّعه الغاصبون الآكلون دويلات أو لقيمات يسهل إزدرادها ، وحدة كاملة . ذلك فوق الطاقة الآن ، لأنه عمل لم يقو عليه من قبل غير محمد ، ولن يقوى عليه من بعد غير رجل من رجال محمد ، وهو الرجل الذى ينتظره العرب انتظارهم رجعة الربيع ، ثم لا ينفكون يحدقون النظر العبران[1] فى الأفق الغائم يرجون أن تنشق الحجب عن ظهوره . وبحسبنا اليوم أن تمهد أمامه الطريق وتهيىء له النفوس بهذه (الجامعة العربية) التى تتوافدون إلى عقد ميثاقها فى القاهرة . فإذا أقمتموها يا زعماء العرب على الإيمان الصادق والنية الخالصة كانت إرهاصاً لظهور ذلك الزعيم الذى يجمع الله لكم فيه الراعى الذى يطرد الذئب ، والخيط الذى يجمع الحب ، والدليل الذى يحمل المصباح ، والقائد الذى يرفع العَلَم ، والأستاذ الذى يعلمكم أن تصنعوا الإبرة والمدفع ، وتشقوا المنجم والحقل ، وتوفقوا بين الدين والدنيا ، وتلائموا بين المنفعة الخاصة والمنفعة العامة . ويومئذ تعودون إلى منزلتكم من صدر الحياة ومكانتكم من قيادة الناس .

(١) العبران : الباكى الحزين .

أحمد ماهر المجاهد الشهيد

(١٢ مارس سنة ١٩٤٥)

كنت فى الريف ليلة نعى الناعى الزعيم الشهيد أحمد ماهر ، وكان من امتحان القدر لصبرى أن يروّعنى هذا النبأ الفاجع الفاجىء وأنا فى وحـدة من الناس ووحشة من الطبيعة ، لا أرى ولا أحس غير وكيف السحاب وزفيف الريح وشفيف البرد ، فأقبع فى الغرفة قبوع القنفذ ، وأنشر فكرى فى معانى هذا الرزء الوطنى الفادح ، أسبر غوره ، وأتقصى أطرافه ، فأشعر بثقله كله يبهظ نفسى ويصدع قواى ، فأستكين للجزع وأستسلم للشجون !

ويتمثل لعينى منظر الصريع المسجّى على فراشه الدامى ، وحوله ابنته وزوجته وإخوته هلعين مشدوهين لا يكادون يصدقون أن هذا الجسد الهامد هو رجلهم الذى تركهم منذ هنيهة وقدرته فوق الأحداث ، وهيبته طى القلوب ، وذكره ملء الأسماع ، وعمله حديث الألسنة ، وأمله سعة الدنيا ، فينفر عنى النوم ، ويطول علىّ الليل . وتهون فى نفسى الحياة !

وفى الصباح الباكر من يوم الأحد كان القرويون يتناقلون النبأ العظيم ، وعلى كل وجهٍ سهوم الحزن ، وفى كل قلب لهيب الحسرة ، كأنما وشجت بينهم جميعاً قرابة الفقيد ، فمصابهم فيه واحد ، وحزنهم عليه مشترك . وتلك ظاهرة اجتماعية لم يسجلها مرصد التاريخ من قبل أحمد ماهر إلا لسعد زغلول . وتعليل هـذه الظاهرة أبين من أن يُبين ؛ فقد كان ماهر كما كان سعد زعيما شعبياً تألق اسمه فى سطور تاريخنا الحديث تألق النجم الهادى ، وتردد ذكره فى حوادثه الجلى تردد النشيد الحماسى على أفواه الجند . وكان له ولرفيقه فى الجهاد وخليفتـه فى

الحكم – أطال الله عمره – من فضل التدبير والتنظيم والفعل ، ما كان لرئيسها الخالد من فضل التنبيه والتوجيه والقول . ثم كان ظهور سعد للزعامة حين أبطرت الحرب الماضية نفوس الغالبين ، فسطت قوة الغالب على حق الوطن ، وسيطرت إرادة المحتل على رغبة الأمة ، وتطامنت الرءوس فلا ترتفع ، وانعقدت الألسن فلا تنطق . فتميز واشتهر بشجاعته وكفايته وبلاغته وقدرته. وكان ظهور ماهر للزعامة حين أضلت الحرب الحاضرة عقول الحاكمين والمحكومين ، ففسدت الأخلاق ، وماتت الضمائر ، وتحكمت الشهوات ، وانتهكت الحرمات ، وخست المطامع ، فتميز واشتهر برجولته وصراحته ونزاهته وحريته .

كلا الزعيمين كان رجل الساعة فى وقته ، وحديث الأمانى لقومه ، ذلك لدعوة الإيقاظ والثورة احتجاجاً على صلح كفر بالعدالة . وهذا لدعوة الإصلاح والوحدة استعداداً لصلح يؤمن – كما يقولون – بالحق . ومن ثم كان الحزن عليهما حزناً شعبياً أحسه القريب والبعيد ، وأخلص فيه الخصيم والولى .

والحق أن الحزن على الفقيد الشهيد قد غزا القلوب الغلف والأكباد السود فما ظنك بمن يعرفونه عن كثب ، أو يمتون إليه بسبب ، أو يقرون له بفضل ؟ والإقرار بفضل أحمد ماهر قد بلغ حد الإجماع ، إن لم يكن من جهة كفايته فمن جهة خلقه . والخلق فى الرجل السياسى هو المزية التى تجزى عما عداها .وهو الثروة التى لا يبلغ العلم والمال والسلطان مداها . وأخلاق أحمد ماهر كانت أخلاق الرجل الذى يعده القدر ليرفع أمته إلى الفوق ويدفعها إلى الأمام ، كان أكرم الله مثواه وبرد بالرحمة ثراه ، مؤمناً بما يدعو ، مخلصاً فيما يعمل ، صريحاً فيما يقول ، جريئاً على مايقدم ، عفيفاً عما لا يحل ، وتاريخه كله

مصداق لأصالة هذه الصفات النادرة فيه . جاهد فى استقلال بلاده حق جهاده ، ففكر وقدر ، ثم جهز ودبر . وترصدته العيون ، وانفجرت من حوله المخاطر ، وأشفى به الإقدام على هوة الموت ، فما نكص ولا وهن ولا استكان ، ولم يكن يومئذ للمجاهدين أمل فى منصب ولا رجاء فى حكم .

ورأس مجلس النواب فى حكومة الوفد فتجلت خلال الديمقراطية فيه . كان الوفد عنده أصغر الأحزاب حين ينتصف لغيره منه . وكان رئيس الحكومة عنده أضعف النواب حين يطبق (اللائحة) عليه . وكان الدستور قسطاسه المستقيم لايصدر إلا عنه ولا يرجع إلا إليه .

وتولى المعارضة حيناً من الدهر ، فكان عف اللسان عن الهُجر ، عف الضمير عن الفُجر ، عف الفكر عن المغالطة ، عف النفس عن الخديعة . يعالن بالمخالفة ويعتمد فى إعلانها على الصدق والجد ، ويصارح بالتهمة ويستعين على إثباتها بالحق والمنطق ، وينفرد بالرأى ويجعل له من قوة إيمانه وثبات جنانه السندَ الذى لايهى والدليل الذى لايدفع . ومواقفه فى (المجلس) وفى (القصر) لاتزال عطر الأفواه والأندية ، فلا حاجة إلى ذكرها .

ثم رأس الحكومة والخصومة الحزبية على أقبح ماتكون عنفاً وحدَّة ، والأخلاق الاجتماعية على أسوأ ماتكون اعتلالاً وردَّة ، والسياسة الدولية تتمخض عن أحداث جسام ستغير أوضاع الأرض وتبدل أنظمة الحياة ، فساسها بالصراحة والسماحة والحرية والعدل ، فمكن لكل ذى رأى أن يرى ، ولكل صاحب قلم أن يكتب . ومهد لائتلاف القلوب واتحاد الكلمة بالمسامحة لاستلال مافى النفوس من سخيمة ، وبالمشاورة لتهوين ما فى المعارضة من خلاف ، وأوشك أن يقول لنفسه : « عدلت فأمنت فنمت ياعمر » ، لولا أن الخوارج لايزالون أحياء ، وأن أبا لؤلؤة لايزال له فى مصر أبناء ! وهكذا تجرى تصاريف القدر بما غُيب عن ابن آدم علمه ، فذهب أحمد كما ذهب عمر صريع جنون

أو فتنة . ولو كان أحمد أو عمر أو سائر الأسماء العظمى علماً على رجل لهان فيه الخطب وتيسر عنه العزاء ، ففى كل ساعة من ساعات الليل والنهار يبتلع القبور ألوفاً من الأنفس فلا يعقبون فراغاً ولا دهشة ؛ إنما هو علم على ثروة ضخمة من الخلق والعلم والمواهب والتجارب عمل فى تكوينها مع الطبيعة الحرة والزمان الطويل عوامل جمة وأحوال مختلفة ، حتى أصبحت قوة فى طاقة الإنسانية وقطعة من ثروة العالم . ففقدها يحدث فى سير الحياة من الخلل ما يحدثه فقد الضرس الصغير فى الدولاب الكبير . ذلك الخلل هو الفراغ الذى يحسه الناس بموت العظيم . وعلى مقدار العظمة يكون اتساع الفراغ . وإن الفراغ الذى أحدثه فى صف القادة مصرع أحمد ماهر فراغ واسع عميق . وكم من فراغ مثله فى نواحى الحياة المصرية أودى الزمن بشاغليه ، ولم يستطع شغله بأمثالهم فاضطرب المسير وأبطأ التقدم .

نحن فقراء إلى الرجال ذوى الخلق والكفاية . وليس لنا وا أسفاه فى توفيرهم حيلة ، لأنهم من صنع الله لا من صنع المدرسة ، ومن أثر الأسرة لا من أثر البيئة . وأمثال الأسرة الماهرية فى الشرق قليلة . أنجبت رجالا تميزوا على نظائرهم بأخلاق الرجولة ، شق كل واحد منهم طريقه إلى المجد بنفسه ، ثم ساروا إلى غاياتهم فى طرق متوازية لا تتلاقى . وعهدنا بالأسرة الكبيرة إذا سما فرع من فروعها وغلظ تسلقه الآخرون كما يتسلق اللبلاب جذع النخلة . هم يعملون للمجد أكثر مما يعملون للعيش ، ويبذلون للناس أضعاف ما يبذلون للنفس . فهم فى العظماء لا فى الأغنياء ، وفى معنى السماء لا فى حقيقة الأرض ! فما أجدر هذه الأسرة أن تدرس لتكون لأسرنا قدوة ! وما أخلق الشباب أن يتخذوا لهم من رجالها أسوة ! وما أحق مصر أن تجزع جزع الثكلى على من يعز الصبر عليه ويستحيل العوض منه !

معروف الرصافى

(٢٦ مارس سنة ١٩٤٥)

نعى العراق أول هذا الأسبوع شاعره الباقى ، فوجمت لمنعاه ألسن ، وجزعت لفقده نفوس ! ثم قرأنا أن بغداد قد غسلت شاعرها الراحل بالدموع وشيعته بالحسرات ، وكنا قرأنا من قبل أن الرصافى فى أعقاب عمره كان يطلب الغذاء الكافى فلا يجده ، ويلتمس الدواء الضرورى فلا يناله !

لفظ معروف الرصافى أنفاسه الأخيرة فى حجرة مظلمة مقرورة لا يلطف جهومتها نور ولا نار ، ولا يخفف وحشتها خليط ولا جار ، ولم تقع عينه الشاخصة وهو فى نزاع الروح إلا على ورقة هنا وكتاب هناك ، أو على خادمه الأمين يتماسك لحظة ويتهالك أخرى والدنيا التى صحبها الشاعر سبعين عاماً يدل على جمالها العيون ؛ ويغرى بمتاعها الأفئدة ؛ لم تجد عليه ساعة الوداع بيد رفيقة تغمض عينيه ، ولا بعين حبيبة تذرف دمعة عليه !

كان الرصافى – أحسن الله إليه – لسان العراق الصادق، ينقل عن شعوره ويترجم عن أمانيه ، ويحدو لركبه المجاهد فى سبيل استقلاله وعزته بالحداء الحماسى المطرب ، ويصور خلجات نفسه ووساوس أحلامه بالشعر الصريح المعجب: وظل هو والزهاوى وشوقى وحافظ ومطران حقبة من الدهر يؤلفون الأوتار الخمسة لقيثارة الشعر العربى الخالص ، ولكل وتر درجته فى الرنين والجهارة والأثر .

والرصافى أشبه بحافظ من الزهاوى بشوقى ، وإن شئت فقل إن الرصافى وحافظ كانا الوترين الرابع والخامس فى القيثارة : صوت عريض ضخم ، وذبذبة ضيقة محدودة .

كان هذان الشاعران يتشابهان فى أسلوب العيش وأسلوب الفكر . كانا صدى لهتاف الجمهور فى السياسة والاجتماع ، ورجْعا لأنين المساكين فى الألم والشكوى ، وكانا يتقاربان فى جوانب من ضيق الثقافة وقلة الإطلاع وهيمنة الحياة . ولكن الرصافى كان متميزاً على نظرائه جميعا بالصراحة الجريئة والاستهتار البالغ . كان يعيش ليومه وينطلق على هواه ويستجيب لغريزته ، فيفعل مايشاء ، ويقول مايعتقد ، ويطلب مايشتهى ، ثم لايبالى أين يقع ذلك كله من رأى غيره . ولامراء فى أن لهذه الحرية المطلقة أصلا فى مولده ونشأته. كان أبوه من بدو الكرد ، وأمه من بدو العرب . وكانا فقيرين فولداه ببغداد فى مهد بدوى خشن . ثم نشأه على أخلاق البادية الأصيلة . ثم أرخيا له الحبل وتركاه يغدو ويروح على مقتضى فطرته . ثم تبناه بالروح عالم العراق الأستاذ محمود شكرى الآلوسى فلقنه فى اثنى عشر عاما أصول المعقول والمنقول من علوم الدين واللغة والأدب ، ثم حاول أن يقبسه أشعة من نور سلفيته وتقواه ؛ ولقبه بالرصافى رجاة أن يخلف معروفا الكرخى فى صوفيته وزهده . ولكن غرائز معروف كانت أقوى ، ومطامحه كانت أبعد ، فخرج من هذه الرياضة الطويلة مسلم اللسان جاهلى القلب .

ووجد الرصافى العراق على فترة من الشعراء ينتظر أبا نواسه المبعوث ، فصدح على ضفاف الرافدين صدحاته المعروفة فأصغت إليه الأسماع واهتزت له القلوب ورأى الناس فى أمثال قصائده (المطلقة) و (أم اليتيم) و (اليتيم فى العيد) أسلوباً من الشعر لم يعرفوه فأكبروه . وحاول أن ينفض عن نفسه غبار المتربة فزاول التعليم فى مدارس بغداد . ثم كان من الذين صارعوا استبداد عبد الحميد بقوافيه المسمومة . فلما خر الطاغية وأعلن الدستور تعاظمه النصر وازدهته الشهرة فاعتقد كما كان يعتقد الشعراء أن له أن يقول وعلى الناس أن يفعلوا ، وأن له أن ينفق وعليهم أن يبذلوا ، فذهب إلى الأستانة يطلب المجد بوساطة شعره ، فكان قصارى أمره أن يكون خوجة فى مدرسة أو محرراً فى صحيفة . ثم سما به الحظ درجة فانتخب نائباً فى مجلس (المبعوثان) عن لواء منتفق . وظل فى عاصمة الخلافة مدة الحرب الماضية حتى أعلنت الهدنة . وكانت ثورة العرب على الترك يومئذ قد انجلت عن عرش أمية فى دمشق يجلس عليه فيصل الأول . ومن حوله سيوف الثورة وألسنتها من أمثال ياسين ونورى وجعفر ورستم وساطع . وجاء الشاعر الطماح يبحث عن مكانه فى الدولة العربية الجديدة فلم يجد ، فانقلب بعد طول الصبر وإدمان السعى إلى فلسطين خائب الأمل كاسف البال يبتغى العيش فيها من طريق التعليم . فلما انتقل العرش الهاشمى من الشام إلى العراق سنة ١٩٢١ ، عاد الرصافى إلى وطنه ورجا أن ينال فى بغداد ما لم ينله فى دمشق . وتهيأ خليفة النواسى لينادم خليفة الأمين ، وإذا الأمل الفسيح والطموح البعيد يسفران عن وظيفة متواضعة فى وزارة المعارف ! حينئذ تفجر غيظه المكتوم على السلطان ورجاله فأعلنها شعواء بالهجاء المقذع والتهكم الفاحش . ووسعه (معاوية بنى هاشم) بحلمه ، وتغمد إساءته بإحسانه ، ففتح له الطريق إلى مجلس النواب ثم عاد فأغلقه دونه .

ونال الخذلان والحرمان من نفس معروف ومن جسده ففتر نشاطه وتراجع شعره ، ورضى من دهره بالمهلكات الثلاثة : شرب العَرَق ، ولعب الورق ، واستباحة الجمال !

وعلى هذه الحال المضنية أدركه الفقر والمرض والموت دون أن يجد آسيا من إيمانه ، ولا مؤاسياً من إخوانه !

* * *

قلت لصاحبي ذات ليلة من ليالىّ فى بغداد : أريد أن أزور الرصافى فقد زارنى مراراً ولم أزره . فقال : أتشجع على أن تدخل حى البغايا ؟ فقلت له . وماصلة هذا بذاك ؟ قال إنه يسكن بينهن ؛ وقد تزوره واحدة أو أكثر منهن . فقلت له : هلم ، فما يسع زواره من العذر يسعنا . ودخلنا البيت فإذا هو بيت الشاعر الأعزب المتلاف ؛ لا أثاث ولا نظام ولا حرمة . وكلمة الشاعر هنا بدل الأديب تدلك على أن ليس بالمنزل مكتب ولا مكتبة ؛ فقد كان الرجل لا يقرأ وإنما كان يتكىء على شدة ذكائه وحدة فهمه ، ويكتفى بما حصل فى شبابه من أدبه وعلمه . كان فى الردهة قوم يأكلون ويشربون ، وفى حجرة النوم آخرون يسمرون ويلعبون وكان الرصافى يتصدر هؤلاء ، فى يمناه كأس ، وفى يسراه ورق . فلما رآنى فض اللعب وأقبل بأنسه علىّ . ثم أخذ يشرب ويتحدث باللغة العارية عن الحقائق العارية فى غير اكتراث ولا تحفظ . ويظلم الرصافى من يقيد عليه فى مثل هذه الحال : ولكن ندماءه يروون شعره أو يذيعون حديثه فيبلغ صاحب الملك فيغضب ، أو صاحب الحكم فيعجب ، أو صاحب الدين فيصخب ، أو صاحب الخلق فيثور . وكل أولئك يعادون الرصافى ولكنهم يهابونه لشخصيته ، ويحترمونه لعبقريته ، ويتربصون به سوء المصير .

هذه صورة مصغرة لحياة الفقيد الكريم . أما عقيدته فالأمر فيها لله لا للناس ؛ وأما شاعريته فالحكم عليها للناقد لا للمؤرخ . وقد يكون لنا إليها عودة ...

الرصافي وأغاخان

أو

الزعيم الأدبي والزعيم الديني

(٩ إبريل سنة ١٩٤٥)

لك الله يا ابن آدم ، ما أغمض سر الطبيعة فيك ! تزعم أن فيك عقلا وأنت تتبع هواك ، وأن لك ديناً وأنت تعبد دنياك ، وأن عندك علماً وأنت تجهل نفسك !

ما هذا الذي نرى من خذلان المنطق لك ، وإسراف الرأي عليك ؟ تعرف الله وتفسق عن طاعته ، وتخلق الصنم وتخلص في عبادته ، ثم تقدس الجرائم باسم العدل . وتعتقد الأباطيل باسم العقل ، وتفسد قوانين السما وتقول إنه الشيطان وما الشيطان إلا نفسك ، وتزيف طبائع الأشياء وتقول إنه الحظ وما الحظ إلا عماك ! .

إن من عماك لا من عبث الحظ أن يكون في بيتك الكلب يتقلد الذهب، ويتوسد الحرير ، ويتهنأ اللحم ، وفي جوارك الإنسان يفضح جسده العرى ، ويلحس كبده الجوع ، ويقض مضجعه الهم .

وإن من هواك لا من نزغ الشيطان أن تلح على أخيك بالأثرة والحرمان ثم ترثى لحالته . وإذا كان من عمل الشيطان أن تقتل القتيل فليس من عمله أن تمشى فى جنازته !

* * *

فى الأسبوع الذى كان الرصافى شاعر العربية يعالج فيه آلام المرض ، ويكابد غصص الموت ، على الفراش القلق ، فى المضجع الموحش ، وكل ما يملكه من حياته الطويلة العريضة أسماله البدوية وأشعاره المخطوطة . فى ذلك الأسبوع نفسه كان أغا خان زعيم الاسماعيلية يقعد فى كفة الميزان المأثور المشهور كما ترى فى الصورة وبإزائه فى الكفة الأخرى مائة كيلٍ من سبائك الذهب المصفى ، هى مثقال الزعيم العظيم فى هذا العام ، خرج له عنها أتباعه فى الهند وفى غير الهند ، ونفوسهم راضية ، وقلوبهم مطمئنة !

إى والله ! مائة كيلٍ من الإبريز الخالص ، هى ضريبة العقيدة يقدمها المؤمنون المخبتون كل سنة إلى أميرهم المقدس ، ورقابهم من الجلالة خواضع ، وعيونهم من المهابة نواكس ، فيتعطف صاحب السمو بأخذها ، ليطهرهم بها ، ويزكيهم لأجلها ، فى حلبات السباق . وخلوات العشاق ، ومعابد الحب ، على البحيرات الناسمة بالنعيم ، والجبال الباسمة بالجمال ، والشواطىء المائجة بالفتنة !

كان للرصافى كذلك أتباع يؤمنون بأدبه ، ويتصلون فى الحياة الروحية بسببه . فما بالهم تركوه يكتب فى وصيته الأخيرة هذه الفقرة التى تستدر الشؤون وترمض الجوانح :

« كل ما كتبته من نظم ونثر لم أجعل هدفى منه منفعتى الشخصية ، وإنما

(١) إقرأ نص الوصية كاملة فى العدد رقم ٩٠١٤ من الرسالة .

قصدت به خدمة المجتمع الذى عشت فيه ، والقوم الذين أنا منهم ونشأت بينهم لذلك لم أوفق إلى شىء فى حياتى يسمى بالرفاهية والسعادة فى الحياة . . . لا أملك شيئاً سوى فراشى الذى أنام فيه ، وثياب التى ألبسها . وكل ماعدا ذلك من الأثاث الذى فى مسكنى ليس لى ، بل هو مال أهله الذين يساكنوننى ».

أين كان ذوو النفوس الشاعرة القادرة من أتباع الرصافى حين أفرط عليه إباؤه وكبرياؤه ، فانطوى على نفسه يهدهد آماله بالصبر ، ويخدر آلامه بالشراب ، وروحه الوثاب ينبثق انبثاق النور ، وأمله الطماح يتقلص تقلص الظل ؟ لو شاء الرصافى أن يهاوى السلطان ويمالق الحكومة وينافق الشعب ، لعاش أرغد العيش وبلغ أرقى المناصب ؛ ولكنه آثر الحرية على الرق ، واستحب الصراحة على الرياء ، فذهب شهيد كرامته وعفته .

ستقول إن الزعيم أغا خان كذلك صريح حر ، وإن صراحته السافرة وحريته الطليقة لم تبغيا عليه فى قومه ، ولم تجرا إلى الكلام فى صلاته وصومه . والجواب أن أتباع الزعيم الدينى يصورونه فى نفوسهم بصورة العقيدة التى يدينون بها ، ويجعلون هيكله المادى رمزاً لهذه الصورة . ولهذا الرمز ظاهر يراه الأوزاع ، وباطن يستأثر بعلمه الأتباع ؛ فهم يقوّمون مايبصرون من زيغه ، ويؤوّلون ما يسمعون من باطله ، ويُسبلون على عمله المريب ما يسبله الصوفيون من القداسة على الطبل والدف والناى والصنج ، فتصبح هذه الآلات فى أيديهم غيرها فى أيدى القيان والمُجَّان ، وهى فى نظر الناس لاتختلف فى شىء عنها . قل إنها الجهالة أو السذاجة أو البلاهة ، فلن يقدح ما تقول فى الحقيقة ، ولن يغير من الواقع .

أما أتباع الزعيم الأدبى فإنهم يتخذون صورته من فنه وروحه ؛ فلصورته فى كل ذهن شكل مختلف ، وفى كل قلب أثر خاص . وطبيعة هذه الصورة

أو تلك السور مشتقة من طبيعة الفن : تتضح تارة وتنبهم تارة ، وتختفى حيناً وتلوح حيناً ، على حسب استعداد النفوس لتقبّل الجمال الفنى حالا على حال ووقتاً بعد وقت . لذلك كانت عقيدة هؤلاء الأتباع فى زعيمهم كالعرَض المنفك : تزول ثم تؤول ، فإذا زالت نسوه كما ينسون السرور والحزن واللذة والألم. وإذا آلت سمعوه كما يسمعون البلبل على فنن الدوحة ، يطربون لشدوه ويُعجبون بريشه ، ثم لا يعنيهم بعد ذلك أيجد الحب والعش ، أم يجد الفخ والقفص !

وكذلك شأن أصحاب السلطان وأرباب الحكم مع رجال الأدب ، يقتبسون من عقولهم النور إذا أظلمت الخطوب ، ويستمدون من نفوسهم اللهب إذا خمدت العزائم ، حتى إذا استوثق لهم الأمر ، وتنازعوا الغار ، وتقاسموا الفىء ، أنكروا ما بذل الأدباء ، وقالوا بلهجة الساخر البطر : وماذا صنع هؤلاء ؟ لقد قالوا وإن الكلام طبع ، وكتبوا وإن المداد رخيص . ذلك إلى أن أكثر عشاق الأدب مفاليك لا يملكون لأربابه إلا الدعاء فى الحياة ، وإلا الرثاء فى الموت ! وإذا كان لدى بعضهم فضل من القوت لم يجد فى نفسه من سلطان العقيدة ما يحمله على المؤاساة به . وذلك هو الفرق بين العقيدة الأدبية والعقيدة الدينية . فالعقيدة الأدبية سلبية لا تتجاوز الإعجاب بالكلام والإنفاق من الكلام ؛ فاذا وجدت من يبذل فى سبيلها المال كان ذلك قطعاً للسان الهاجى ، أو شراء لضمير المادح ، أو تزييفاً لصورة الحق . وليس فى مثل هذا البذل كسب للأدب ولا نفع للأديب . ولكن العقيدة الدينية إيجابية تقوم على إعلان الفكر بالشعيرة ، وتمثيل المعنى بالرمز ، وتحقيق النية بالعمل . والسلطان الروحى فيها قاهر ، والأثر المادى عليها ظاهر . وحسبك منها الزكوات والصدقات والأضاحى والنذور ؛ ففى بعض أولئك للزعيم الدينى ذهب وميزان ؛ ومدد وسلطان ، وقصور ورآسة ، ثم ضريح وقداسة .

* * *

حظك يا معروف هو حظ الأديب منذ كان فى الناس أدباء وفى الأرض أدب ! يموت أمثالك شَرَقاً بالبؤس كما يموت أمثال أغا خان غرقاً فى النعمة ! فلو أن ربك حقق لك ما كان يرجوه شيخك الألوسى من رسوخ قدمك فى الدين ، وعلو منزلتك فى التصوف ، إذن لخلفته فى الزعامة الدينية ، وبلغت من (طريقتك) ما بلغ أغا خان فى الدنيا ، ونلت من (صوفيتك) ما نال معروف الكرخى فى الآخرة !

نهاية دكتاتورين !

(٧ مايو سنة ١٩٤٥)

عَمْرَكَ اللهَ ، أهي نهاية دكتاتورين ، أم نهاية دولتين ، وعبودية أمتين ، وعبرة الدهر لمن يسول له الحمق الآدمى أن يطاول الله فى سمائه ، ويصرِّف الأقدار فى أرضه ؟ !

سبحانك ربنا ما أبلغ حكمتك وأعدل حكمك ! كأنما يقضى عدلك المطلق بين آدم وإبليس فى صراع الخير والشر أن ترسل من الجحيم رسلا للفساد ، كنيرون وجنكيز وهتلر ، كما أرسلت من الجنة رسلا للصلاح ، كموسى وعيسى ومحمد ! وإلا فكيف يتصور عقلنا المحدود أن رجلا كسائر الرجال ، فيه الخطل والجهل والعجز والهوى ، وليس فيه إيمان لوثر ، ولا سياسة بِسْمرك ، ولا أدب جوته ، ولا فلسفة نيتشه ، يستطيع أن يسيطر على ستين مليونا من الجنس الأوربى الممتاز ، وأن يسخرهم اثنى عشر عاماً فى ابتكار أفظع ما يتصوره الذهن الجبار المجرم من وسائل الفتك وآلات الدمار ، فابتكروا من المهلكات المعجزات ما لو وجهوه إلى الخير لعمرت الأرض ، وأنفقوا من الأموال والثمرات ما لو سلطوه على الفقر لسعدت الدنيا . ولو أن هذا الشقى وأحلافه فعلوا ذلك فساعدوا الخير بمبتكرات العلم ، وأشاعوا الغنى ببراعات الإنتاج ، لكانت رسالتهم أكرم وسيادتهم أعم ومجدهم أخلد ؛ ولكنهم لم يهيأوا بطبائعهم لهذا الأمر لحكمة يريدها الله من هذا الكون العجيب الذى يحيا بالموت ، ويصلح بالفساد ، ويتجدد بالبلى ، ويقتات بعضه ببعض ، وَيتربص كله بكله !

نعم هلك الطاغيتان موسولينى وهتلر فى أسبوع واحد بعد أن ظلا ستة أعوام

ينشران الفزع والجوع والموت والخراب والحداد فى كل أمة وفى كل أسرة وفى كل نفس ، دون أن يعصم الناس من كل أولئك عاصم من دفاع أو ملجأ أو بعاد أو حياد . ومن سخر الأقدار أن الفوهرر الذى كان يدعو إلى النازية فى مشرب من مشارب البيرة فى ميونخ ، يُقتل وهو يدافع فى برلين فيهوى على قاعدة مدفع ؛ وأن الدتشى الذى كان يخطب للفاشية على ظهر مدفع فى البندقية ، يُصرع وهو يفر إلى الحدود فيخر على صدر مومس ! والحق أن هاتين الميتتين : ميتة الأسد لزعيم الألمان ، وميتة الكلب لزعيم الطليان ، هما الخاتمان اللذان صاغتهما الحوادث للزعيمين من معدن الأمتين ليطبعهما التاريخ على وثيقة هذه الجزرة البشرية فيرمز بهما إلى نفس كل زعيم وطبيعة كل أمة ! وفى المجرمين تفاوت فى الطباع يدعو بعضها إلى الإكبار و بعضها إلى الإصغار ؛ ولكن اللص الإيطالى الذى يغتالك خفية بالموسى ، لا يختلف فى رأى القانون عن اللص الأمريكى الذى يقتلك جهرة بالمسدس . وليس فى الإجرام تفاضل ولا فى الشر خيار .

* * *

انبعث هذان المسيخان من ركنين متجاورين من أركان التمدن الحديث ، فاستوحيا الشيطان دينين جديدين يجعلان الآخرة للدنيا ، والأمة للفرد ، والعقل للهوى ، والعلم للشر ، والحضارة للدمار ، والحياة للموت . ثم خرجت هاتان النِّحلتان من الكهوف والمواخير وانتشرتا فى أجواء برلين وروما انتشار الظلام المضل والغاز الخانق ، فعميت عيون كانت ترى ، وغبيت قلوب كانت تفقه . ثم هتكت النازية أستار الدول بالجواسيس ، و بلبلت عقائد الناس بالدعاية ، واشترت ضمائر الساسة بالمنى ، وبثت فى دخيلة كل أمة دعاة الهزيمة وسماسرة النفاق يزيفون الوطنية فى كل نفس ، ويميتون الحمية فى كل رأس ، حتى تركت

القوم تماثيل من غير خلق ولا روح ، ثم رمت جوانب الأرض وخوافق السماء بالموت الوحيّ فى شتى أشكاله وأهواله ، فأصبحت أوربا الجميلة خليطاً من الأنقاض والأشلاء ، ومزيجاً من الدموع والدماء ، وانبسط الطغيان المحورى على ممالك كانت بالأمس مسارح للسلطان والمجد ، فأصبحت اليوم سجوناً للأحياء وقبوراً للموتى ، ثم وقفت الديمقراطية من الدكتاتورية موقف الفريسة المرتاعة تنظر إلى الناب البارز ، أو موقف الشهيد الصابر ينتظر هُوِىّ الحسام المصْلت؛ ولكننا قلنا يومئذ والأمل فى النصر كبصيص المنارة الخافت على محيط من اليأس يموج بالظلام والهول . إن الفوز مكفول للديمقراطية ، لأنها هى الصحة التى انتهى إليها جسم الإنسانية العليل . أما الطغيان والبربرية فهما نكسة المرض والنكسة خلل عارض لا يلبث بحسن علاج الطبيب وصدق إيمان المريض أن يزول . وقد صدّق الله هذا القول ، فانهارت النازية على نفسها وأهلها انهيار الطود الأشم فلم تدع خنزوانة فى رأس طاغية ولا أملاً فى صدر طامع .

* * *

والدكتاتورية نظام من أنظمة الحكم الشاذ يقتضيه حال ويستوحيه جيل ويستسيغه زمن ؛ ولكنه كالعلاج بالسم إذا زاد مقداره قتل . وعيب الدكتاتور الصالحْ أنه يعرف كيف يبتدىء ولا يعرف كيف ينتهى . إنه عجلة من غير فرملة، يحمل عليها أمته المتلكئة المتخلفة ، ثم ينطلق بها انطلاق الطائرة المطارِدة لا يلوى على شىء ، حتى إذا غلا فى السرعة وأوغل فى المسير أعياه الوقوف فيضل فى مفازة سحيقة ، أو يتردى فى هاوية عميقة .

والطاغية إذا ركب رأسه تنكر للنصح وتمرد على المشورة ، فهو يسكت أقطاب الرأى ليتكلم ، ويؤخر أبطال القيادة ليتقدم . والغالب أنه يجيد القول

ولكنه يزوِّر ، ويحسن العمل ولكنه يطيش . وما زلنا قريبي عهد بشقشقة هتلر وثرثرة موسوليني ، فقد كانا يقولان القول ولا يصدقان فيه ، ويعدان الوعد ولا يبران به ؛ لأن الاستبداد بالرأي ينفي التبعة ، والإعتداد بالنفس يلغي الرقابة ، والتبعة والرقابة مزية الديمقراطية . ومن ذلك كانت خطب تشرشل وروزفلت وثائق يستشهد بها السياسي ويعتمد عليها المؤرخ . والديمقراطية تنظر إلى الشيء من جهاته الست ، وتسلك إلى الغاية طرقها المختلفة ، ولكن الطغيان لا ينظر إلى الشيء إلا من الجهة التي تجذبه ، ولا يسلك إلى الغاية إلا الطريق الذي يعجبه ، ثم يحمل الشعب على رأيه ونهجه بالإرهاب المستمر ، والتعليم المسموم ، والتربية الآلية ، والدعاية المغشوشة ، فلا يجوز لصوت أن يرتفع بتعريف أو إنكار ، ولا ينبغي لأحد أن يقول للقاطرة الرعناء إلى أين تذهبين بالقطار !

* * *

الآن ، وقد تحطمت النازية بعد أن تحدَّت بجبروتها سنة الله وقوة الطبيعة ، وارتفعت أيدي الأبالسة عن منشأ هذه الرجفة العامة من الأرض ، وأخذت غواشي الليل الطويل تنكشف عن فجر السلام المشرق ، وأوشكت الإنسانية المكروبة أن تجد نفساً من الرجاء ورَوحاً من الطمأنينة ، وآن لقادة الحديد والنار أن يتركوا الميدان لساسة الرأي والهوى ، ألآن ، يجمل بالأقطاب الثلاثة أو الأربعة الذين يقررون اليوم مصاير الأمم والشعوب أن يتخذوا لهم من أهوال ست سنين موعظة وعبرة . يجمل بهم أن يذكروا وهم حول الموائد الخُضر تلك الميادين الحمر فتتمثل لعيونهم تلك القذائف الجهنمية تذرو أجساد الشباب كما تذرو العاصفة غثاء الهشيم ! يجمل بهم أن يذكروا وهم ينعمون بالحفلات الساهرة بعد المناقشات الثائرة ، تلك الأسر الحزينة التي خلت من عائلها الكادح ، وفتاها الشابل ، وأنسها الأنيس ، وعيشها الآمن ، فترد على خواطرهم تلك المآسي

الدامية التى مثلتها الحرب فى كل مكان ! نعم يجمل بهؤلاء الأقطاب أن يذكروا أنهم أنقذوا المدنية هذه المرة بأعجوبة . وليست الأعاجيب والمعجزات مما يكشف أو يخترع ، إنما هى الفرص والمصادفات تسنح أو تبرح كما يشاء القدر . إنهم إذا ذكروا كل أولئك كانوا احريين ألا يقبلوا فى مؤتمر الصلح مندوبين عن أصحاب الجلالة : الاستئثار والاستعمار وبسط النفوذ ! وإذن يتمتع العالم بسلم طويلة يضمد فيها جروحه ويستأنف بها سيره .

وزير أديب

(٢١ مارس سنة ١٩٤٥)

من القضايا التي صدقت في الماضي والحاضر ، وفي الشرق والغرب ، أن الأدب والفن لا يزدهران وينتشران إلا في ظلال ملك أو وزير أو أمير .

وصدق هذه القضية جاءها من أن الأدب العالي والفن الرفيع لم يكونا من مطالب العامة في أي عهد ؛ إنما يطلبهما عشاق المجد والحمد ممن بلغوا الغاية القصوى من بسطة الحياة وسطوة الملك فتشوفت نفوسهم وامتدت عيونهم إلى أبعد من ذلك . يطلبها الملوك وأشباههم من أولى الصدارة والإمارة لأنهما العطر الباقي في يد ابن آدم من الجنة ؛ فمن لم يطلبهما لمتعة النفس وسعادة الروح ، طلبهما لزينة الملك وجمال الأحدوثة . فالأدب والفن بمعناهما الأعلى أرستقراطيان لا يعرفهما إلا الرفيع ولا يقدرهما إلا القادر . فإذا نزلا إلى الشعب ابتذلا فلا ينفعانه ولا يرفعانه، إنما الأدب والفن معنيان من معاني السماء يحملك النزوع إليهما على أن تطمح ببصرك إلى الفوق ، ويدفعك الطمع فيهما إلى أن تطرح بنفسك إلى الأمام . ومن هنا كان الرجل إذا سمت ملكاته بالعلم أو بالملك ، ورقت مشاعره بالتربية أو المدنية ، وجد نفسه في أفق الفن محوطاً برجاله ، مغموراً بجماله . فإذا كان صاحب السلطان من ذوي القرائح الفنانة كان جدواه على الأدب من جهتين : جهة الاقتداء به في الإقبال عليه ، وجهة المكافأة منه على الإحسان فيه . والناس منذ كانوا على دين الملوك وهوى القادة . قال أسامة بن معقل : كان السفاح راغباً في الخطب والرسائل يصطنع أهلها ويثيبهم عليها ، فحفظتُ ألف رسالة وألف خطبة طلباً للحظوة عنده فنلتها . وكان المنصور بعده معنيًّا بالأسمار والأخبار

وأيام العرب يدنى أهلها ويجزيهم عليها ، فلم يبق شىء من الأسمار والأخبار إلا حفظته طلباً للقربة منه فظفرت بها . وكان موسى مغرماً بالشعر يستخلص أهله ، فما تركت بيتاً نادراً ، ولا شعراً فاخراً ، ولا نسيباً سائراً ، إلا حفظته . وأعاننى على ذلك طلب الهمة فى علو الحال . ولم أر شيئاً أدعى إلى تعلم الآداب من رغبة الملوك فى أهلها وصلاتهم عليها . ثم زهد هارون فى هذه الأربعة فأنسيتها كأنى لم أحفظ منها شيئا » . وكل أديب أو فنان أو عالم هو فى ذلك أسامة بن معقل . وما النهضات الأدبية والعلمية فى الأمم إلا وثبات للمجد الروحى فى نفوس بعض الملوك . وفى تاريخنا الأدبى نستطيع أن نؤرخ النهضات فيه بتاريخ معاوية وعبد الملك فى دمشق . والرشيد وابنه المأمون فى بغداد ، وعبد الرحمن الناصر وابنه الحكم فى قرطبة ، والعزيز بالله وابنه الحاكم فى القاهرة . وإن فى قصور بنى بويه فى الرصافة ، وبنى حمدان فى حلب ، وبنى عباد فى إشبيلية ، لمنازلَ للوحى تنبأ بالقريض فيها من تنبأ ، وبُعث برسالة العلم منها من بعث . وإنك لتذكر الوزراء الأدباء من أمثال ابن العميد ، والصاحب بن عباد ، ويعقوب بن كلس ، ولسان الدين بن الخطيب ، والقاضى الفاضل ، فتذكر مجالى بالأدب ناضرة ، ومغانى بالعلم عامرة ، ومجالس كانوا فيها شموساً تدور من حولها توابعها ، تستمد الحرارة وتمد ، وتقتبس النور وتقبس .

وكان للمجالس الأدبية والعلمية فى عصرنا الذهبى نفحات من الإلهام أيقظت رواقد العبقرية فى ألوف من الأذهان الخصبة والقرائح الموهوبة فازداد بهم الأدب والعلم ازدهاراً وابتكاراً وكثرة .

وكان للرشيد مجلس للأدب بلغ لألاؤه أطراف الإمبراطورية الإسلامية فعشا على ضوئه صاغة القريض ورواته حتى ضاقت عليهم بغداد بما رحبت ، فاضطر يحيى بن خالد إلى امتحانهم فى الشعر وترتيبهم فى الجوائز ليخفف من زحمة الأدباء

عن عاصمة الدنيا فى ذلك الحين . وقد عهد بذلك الامتحان إلى شاعره أبان اللاحقى فقام به .

وكان للمأمون مجلس للعلم يعقده فى دار الخلافة أيام الثلاثاوات من كل شهر . فإذا أقبل الحكماء والفقهاء مدت الموائد وقيل لهم : « أصيبوا من الطعام والشراب ثم جددوا الوضوء : ومن كان خفه ضيقاً فلينزعه . ومن كانت قلنسوته ثقيلة فليضعها » فإذا فرغوا أتوا بالمجامر فتبخروا ، ثم خرجوا فدخلوا على المأمون فيدنيهم خير إدناه ، ويناظرهم أحسن مناظرة ، حتى تزول الشمس فتنصب الموائد ثانية فيطعمون وينصرفون .

وكان للصاحب بن عباد مجلس للشعر لا يغشاه إلا من حفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب . ومع هذا الشرط القاسى كان يجتمع على سماطه كل يوم ألف من رجالات الأدب والعلم والكلام . وبنى داراً فاجتمع له من قصائد التهنئة عليها ديوان شعر ضخم . ونفق برذون لأديب من أدباء مجالسه فرثاه شعراء الحضرة بخمسين قصيدة . وقد ذكرتُ بذلك (مكسوينى) حصان المغفور له الدكتور محجوب ثابت ، فإنه حين نفق من الهزال لم يظفر من شعراء مصر على كثرة ما ركبوه بالمزاح والهزل إلا بقصيدة واحدة لشوقى !

وكان للمعتضد بن عباد دار خاصة للشعراء ينزلونها على الرحب والسعة . فإذا جاء يوم الشعراء وهو يوم الإثنين من كل أسبوع دخلوا عليه فلا يقابل غيرهم ولا يسمع إلا شعرهم . ولقد بلغ من عنايته بهم ورعايته لأدبهم أن جعل لهم رئيساً يرجعون إليه ، ونظاما يرتبون عليه ، وسجلا يُحصونَ فيه .

ولو ذهبت أستقصى مجالس الأدب والعلم فى عواصم العراق والشام ومصر والأندلس لاسترخى فى يدى عنان القلم ، وتشتت فى ذهنى سياق الموضوع .

* * *

تواردت على خاطرى هذه المـآثر العربية التاريخية وأنا أنعم لأول مرة بالحديث إلى الأستاذ إبراهيم دسوقى أباظة وزير المواصلات ؛ وكنت قبل هذا اللقاء الأول قد عرفته بالسماع . والسماع بسَرِىٍّ خلقه وسمو أدبه مستفيض ، فلم يجر ذكره على لسان أديب إلا روى عن مجالسه ، ونوه بمواهبه ، وحدث عن أياديه . وكنت أعلم أنه استن لنفسه سنة وزراء بنى بويه ، فاتخذ له بطانة من صفوة الشعراء الشباب يأنس إليهم فى داره ، ويُسْبِل عليهم جاهه ، ويستعين بهم فى عمله . ويجزل لهم من فضله . وهم يعلمون أن الأدب وحده هو الذى أحظاهم عنده . فلا يفتأون يتنافسون فى تحصيله ، ويتفاضلون فى تجويده . فلولا أن لهذا الوزير الشاعر طبعاً أصيلا فى الأدب استفاده من مناشىء فطرته وتقاليد أسرته ، لما انبثق فى حياته العاملة ذلك النور السماوى الذى استحال أدباً فى نفسه يتخلقه ويعمل به ، وأدباً على لسانه يقوله ويفتن فيه ، وأدباً على سمعه يعيه ويشع عليه .

قال لى أديب صديق . كان لفظ (الأريحية) كسائر الصفات المهجورة مائعاً فى ذهنى لا يحدد مداه تخصيص ولا يوضح معناه مثل ؛ فلما رأيت دسوقى أباظة يرتاح للخير ويهتش ، ويهتز للمعروف ويلتذ ، تعرّف هذا الوصف بانطباقه عليه ، وتخصص معناه بإضافته إليه ، فقد يُحَمِّل الرجل على تـكاليف المجد لأن له إرثاً فيه ، فهو يبذل من ماله أو جاهه أو نعمته لواجب يؤدى ، أو لحاجة تُقضى ، أو لسُنة تتبع ؛ ولـكن الأريحى الأباظى يجد من غبطة النفس ومتعة العيش أن يهتف باسمه أديب ، ويتعلق بسببه فنان ، ويستظل بفيئه عالم .

* * *

ثم زارنى الوزير وزرته ، فإذا خلاله وأفعاله تفسير واضح لمعانى العظمة . وأخص مزايا العظمة فيه أنه سَبْط الخليقة تتقلب منه فى مثل أعطاف النسيم ليناً

ورقة ؛ جزل المروءة كأنما يُشع الفضل إشعاعاً فلا منّ ولا زهو ولا كلفة ، متواضع النفس لا تدرى وأنت تحدثه أيكما الوزير ومن منكما الباشا ؟ ولعل هذه الصفة هى أدل الصفات على نبل فطرته وكرم أصله . وهى وحدها مزيته على جميع الوزراء والعظماء ما عدا الشيخ مصطفى عبد الرازق ، وسر التواضع فيه على جلالة منصبه وسمو لقبه أنه بلغ الشرف عن أصالة وورث المجد عن طِراف ، فلم يجد منصبه ولقبه مزيداً من الفضل يضيفانه إلى ميزانه ، وإن أضافا بعض الألفاظ إلى اسمه وعنوانه . إن المنصب مظهر لتقدير الأمة ؛ وإن اللقب رمز لرضا الحاكم ؛ وكلاهما تحصيل لشىء حاصل ، وتسجيل لأمر واقع .

إن القطب إبراهيم الدسوقى أمة وحده فى سمو أدبه وبعد همه . وإن له نظراء فى الجاه والثروة إذا تشبهوا به وتأدبوا بأدبه كانوا عسيِّين أن ينفخوا من رُوحهم ورَوحهم فى جذوة هذه النهضة الأدبية حتى تستعر وتنتشر فتصهر بقوتها الجامد ، وتنعش بحرارتها الخامد ، وتنير بأشعتها الطريق .

نريد داراً للترجمة يا معالي الوزير

(٢٣ إبريل سنة ١٩٤٥)

يا صاحب المعالي وزير المعارف !

إن أخص ما يميزك على نظرائك في العلم والحكم أنك تقدس الحقيقة وتطلب الحق : وإن سبيلك إلى ذلك عقل راجح واضح يتعمق ويتبسط ، ويحيط ويستوعب ؛ ويدقق ويحقق ، ويستقرىء ويستنبط ؛ فإذا رأيت الحق في جانبك أقنعت ومنطقك سديد وحجتك ملزمة ، وإن رأيته في الجانب الآخر اقتنعت وعقلك راض ونفسك مَسلمة . وقد أجمع الذين عرفوك أن في مناقشتك الرأى أو في مطارحتك الحديث متعة للعقل والذهن ؛ لأنك توضح الخطة وتحدد الرسوم وتعين الغاية ، ثم تعرض الرأى عالما بما تقول ، وتسمع الرأى فاهما لما يقال . ثم تعارض القول بالقول ، وتوازن الدليل بالدليل ، ثم تحكم الحكم المسبب لك أو عليك فلا تدع للمكابرة والمماراة سبيلا إلى استئناف أو نقض !

لذلك أحببت أن أتقدم إلى معاليك برأى يتصل بالثقافة العامة . ويقيني أنك إذا أقتنعت به أمضيته . وإذا أمضيته كان حرياً أن يضيف هذا العصر إلى عصور بركليس وأغسطس والمأمون ولويس الرابع عشر . وهى كما تعلم العصور الذهبية التى حددت المراحل المتعاقبة للإنسان المتمدن فى طريقه إلى المعرفة .

تعلم أن أدبنا الجديد لا يزال ناقصاً فى نوعه قاصراً فى بيانه . ناقص فى نوعه لأنه أنكر قديمه وجهل جديد الناس ، فلم يغذه ماض ولم ينمه حاضر، فظل مخدَّج الخلق لا هو حى ولا هو ميت . ولقد كان أدبنا القديم فى حدود مراميه اللسان العام لخوالج النفس الإنسانية فى أكثر بقاع الأرض ، فلم تكن

هناك فكرة تجول فى ذهن كاتب ، ولا صورة تتمثل فى خاطر شاعر ، إلا وجدت فى هذا الخضَم المحيط صدفة تستقر فيها . فلما تحولت عن مذاهبه الأنهار ، وجفت على جوانبه الروافد ، عاد كالبحيرة المحدودة لا يمدها إلا قطرات المطر ودفعات السيل حيناً بعد حين . فالقارىء العربى الحديث لا يجد فيما أثر منه ولا فى أكثر ما استجد فيه غذاء عقله ولا رضا شعوره؛ لأن المأثور منه ناقص لانقطاعه عن سير المدنية ؛ والجديد منه ناقص لخلوه من الآداب الأجنبية . والغريب المخجل أن المرأ يقرأ أى نابغة من نوابغ العالم فى أى لغة من لغات التمدن إلا فى اللغة العربية ! فالتركى مثلا يستطيع أن يقرأ فى لغته هوجو كله ، وشكسبير كله ، وجيته كله ؛ ولكن العربى لا يجد فى لغته لهؤلاء العباقرة العالميين إلا كتاباً أو كتابين اختارهما مترجم على ذوقه ونشرهما على حسابه !

فإذا أردنا يامعالى الوزير لأدبنا أن يتسع فى حاضره كما اتسع فى ماضيه ، فليس لنا اليوم غير سبيل الأمس : نرفده بآداب الأمم الأوربية ، ونصله بتيار الأفكار الحديثة ؛ فإن لكل أمة مزايا ، ولكل بيئة خصائص . ولن يكون أدبنا عالمياً مالم يلقح بآداب العالم . والمحاكاة والاحتذاء من أقوى العوامل أثراً فى الأدب .

والأدب العربى قاصر فى بيانه ، لأنه مقطوع الصلة بحضارة العصر ، فلا يستطيع أقدر كتابنا أن يتحدث عما يستعمل من ماعون وأثاث ، ولا أن يصف ما يركب من باخرة أو طائرة ، ومجمعنا اللغوى على ما نراه من نشاطه لن يقدم إلى الناس معجمه المنتظر إلا بعد جيل أو جيلين ، حين يكون كل شىء فى العالم قد تغير أو تطور فيصبح معجمه فى الجدة يومئذ كمعجم (لسان العرب) اليوم ! والزمان يامعالى الوزير يسرع ، والعالم كله يجد ، والسارى على مركب العجز لا يلحق ، والبيان القاصر نصف الخرس ، واللغة الناقصة ثلاثة أرباع الجهل .

وما قلناه فى اللغة والأدب نقوله فى العلم والفن ؛ فإن ما فى العربية منهما لا يعدو فى الغالب أن يكون ملخصات مجهولة النسب ، أو مقتبسات قليلة الغناء، إذا نفعت أحداً فإنما تنفع طلاب المدارس . أما الشعب الظامىء إلى المعرفة فلا يجد بين يديه من أمهات الكتب العلمية والفنية ماينقع غليله ويسد عوزه . ومادام الأمر كذلك فسيظل اللسان العربى والعقل العربى محصورين فى حدود القرون الوسطى لا يوا كبان ركب الحياة ، ولا يسايران تقدم الفكر .

إن العلوم اليوم أوربية وأمريكية مافى ذلك شك . وإن الفروق التى باعدت بين الشرق والغرب فى مدلول الإنسانية الراقية إنما يجمعها كلها لفظ العلم ، وهذا العلم الذى يسخر السموات والأرض للإنسان الضعيف ، ويذلل القطعان الملايين للراعى الفرد ، سيبقى غريباً عنا مالم ننقله إلى ملكنا بالتعريب ، ونعممه فى شعبنا بالنشر . ولا يمكن أن يصلنا به أو يدنينا منه كثرة المدارس ولا وفرة الطلاب ؛ فإن من المحال أن ننقل الأمة كلها إلى العلم عن طريق المدرسة، ولكن من الممكن أن ننقل العلم كله إلى الأمة عن طريق الترجمة

فالترجمة إذن يا معالى الوزير هى الوسيلة الأولى لدفع القصور عن اللغة ،وسد النقص فى الأدب ، وكشف الظلام عن الأمة . وبحسبنا أن ننقل معجماً من المعاجم العلمية الأوربية لتصبح لغتنا كاملة وثقافتنا شاملة ؛ فإنا مضطرون فى أثناء الترجمة أن نضع المصطلحات الحديثة لكل علم وفن ، فلا يتم المعجم حتى تتم اللغة.

واذا نقلنا الى العربية نتائج القرائح لأقطاب العلوم والفنون والآداب من الانجليز والأمريكان ، والفرنسيين والألمان ، والروسيين والطليان ، أصبح هؤلاء العالميون جزءاً من كياننا الأدبى ، وركناً فى بنائنا العلمى ، نعتز به ونستمد منه ونفتن فيه ونزيد عليه ، كما فعل آباؤنا الأقدمون بما نقلوه من علوم الإغريق والهنود واليهود والسريان والفرس .

لذلك أرى — ورأيك الأعلى — أن تُنشأ دار للترجمة مستقلة عن ديوان

الوزارة ، يكون لها من جلالة القدر ما للجامعتين ؛ فإنها على اليقين ستكون جامعة شعبية لاتقل عنهما فى الخطر والأثر ؛ أو قل إنهما الميدانان المتقدمان وهى مركز التموين الذى يمدهما بالميرة والذخيرة والمدد . ثم يختار لها مائتان على الأقل من المترجمين النابغين فى لغتهم وفى اللغات الأوربية الثلاث ، ينقلون الآداب الأجنبية نقلا كاملا صحيحاً ، فلايدعون علماً من أعلام الأدب والعلم والفن والفلسفة إلا نقلوا كتبه ونشروها على حسب ترتيبها وتبويبها فى طبعاتها الأصلية .

هذه الدار ستنقل إلى العربية كل يوم أربعمائة صفحة مصححةمنقحة مهيأة للنشر ، قد تكون كتابين أو كتاباً أو جزءاً من كتاب على حسب النظام الذى يوضع لها . فاذا فرغت من ترجمة الموجود فرغت لترجمة المستجد ، فلا يكون بين ظهور الكتاب فى أوربا وظهوره فى مصر إلا ريثما يترجم هذا ويطبع . أما نفقات الدار فلا تزيد على مائة ألف جنيه ، وقد تنقص إلى نصف ذلك إذا ساهم فيها الأمراء والأغنياء وجامعة الدول العربية . على أن ما ينفق فى سبيل هذا العمل العظيم يقل مهما يكثر فى جانب مايؤتيه من تجديد اللغة ، وتطعيم الأدب ، وتعريب العلم ، وتعميم الثقافة ، وتدعيم النهضة ، وتيسير القراءة ، وتشجيع القارىء ، وفى تحقيق منفعة واحدة من هؤلاء تخليد لذكر من قام بهذا العمل أو شارك فيه أو أعان عليه ؛ فما بالك إذا حقق هذه المنافع جمعاء ؟

ذلك جوهر الفكرة يامعالى الوزير عرضته عليك ، أما النظر فى تأثيلها وتفصيلها فأتركه إليك .

دار الترجمة أيضا :

لا ! هذا الطريق لا يؤدي

(٤ يونيو سنة ١٩٤٥)

اقترحنا على صاحب المعالى وزير المعارف أن تُنشأ دار للترجمة مستقلة عن ديوان الوزارة يختار لها مائتان على الأقل من المترجمين النابغين فى لغتهم وفى اللغات الأوربية الثلاث ينقلون المعارف الأجنبية نقلاً كاملاً صحيحاً فلا يدعون عَلماً من أعلام الأدب والعلم والفن والفلسفة والاجتماع إلا نقلوا كتبه ونشروها على حسب ترتيبها وتبويبها فى طبعاتها الأصلية ؛ فإذا فرغوا من ترجمة الموجود فرغوا لترجمة المستجد ، فلا يكون بين ظهور الكتاب فى أوربا وظهوره فى مصر إلا ريثما يترجم هنا ويطبع . وكان هذا الاقتراح مبين الأسباب ، مفصل النتائج ، موضح الآثار . يقرأه القارىء فيحسبه لطول ما تردد فى نفسه ، وتجدد فى أمانيه ، صادراً عن رأيه أو منقولا عن شعوره . لذلك دوّى صداه فى الأقطار العربية فتجاوبته ألسنٌ مبينة ، وتناولته أقلام بليغة . ولو ذهبنا نذكر كل ما قيل، وننشر كل ما كتب ، لما اتسعت الرسالة لموضوع غير هذا الموضوع .

على أننا ننشر اليوم قولين رسميين دارا على هذا الاقتراح فى مجلس الشيوخ ، أحدهما سؤال لشيخ محترم أجمل فيه رأى الأمة ، والآخر جواب عنه لوزير المعارف لخص فيه رأى الحكومة ، ثم نعقب عليهما بما نعتقد أنه الحق والأحق .

صاغ الأستاذ أحمد رمزى أحد أعضاء مجلس الشيوخ من هذا الاقتراح

سؤالا وجهه إلى معالى الوزير عبد الرازق السنهورى فأجابه عنه بقوله :

« توجد فعلا بوزارة المعارف إدارة لأداء الأغراض النافعة التى أشار إليها حضرة العضو المحترم فى الجزء الأول من سؤاله ، وهى ترجمة المؤلفات الأجنبية ونقل المعلومات العلمية والاجتماعية والأدبية وثمرات الثقافة الأجنبية إلى اللغة العربية. وعندما توليت وزارة المعارف أعدت تنظيم إدارة الثقافة العامة التى تتبعها إدارة الترجمة بما يكفل لها أداء مهمتها على الوجه الأكمل ، وراعيت فى هذا التنظيم الجديد أنه يمكن الوزارة من أن تستعين بمن يمكن الاستعانة بهم من الكتاب والمترجمين من موظفين وغير موظفين فتعهد إليهم بأعمال الترجمة والمراجعة نظير مكافآت سخية تصرفها لهم . وشكلت لجنة من كبار رجال الوزارة والجامعة لاختيار الكتب التى تترجم ، ووضع المناهج للترجمة وتعيين من يقومون بها . أما عن النفقات التى يحتاجها هذا العمل فإن الوزارة فضلا عما يوجد فى أبواب ميزانيتها من اعتمادات مرصودة لهذا الغرض لن تتأخر عن التقدم إلى البرلمان بطلب ما يحتاجه هذا العمل الواسع النطاق من اعتمادات جديدة » .

أما سؤال الشيخ فاتجاه إلى الطريق الأقوم فى تربية الشعب وترقية عقله ولغته وأدبه وعلمه وعمله . وأما جواب الوزير فاحتفاظ بالنمط المألوف من مسايرة (الروتين) ، ومشاورة اللجان . ومماطلة الحوافز ، حتى يتراخى الزمن ويفتر العزم ويتغير الحال و ينتقل الحكم وينتهى كل شىء إلى لا شىء ! وكان الظن بصاحب المعالى وزير المعارف وهو من هو فى منطقه وتعمقه وجده أن يعالج نقل المعارف الأجنبية على أنه تصحيح نهضة وتثقيف أمة وبدء تاريخ ، فيجعله الهدف الأول لسياسة الوزارة فى عهده ، والمنار الهادى لمن يسلك هذا الطريق من بعده .

إذن بقينا فى نقل الثقافة الغربية على ما كنا عليه لم نتقدم خطوة : إدارة

للترجمة فى مراقبة الثقافة العامة تشرف على خمسة مترجمين أو ستة ينقلون سفراً ضخماً فى التاريخ العام لا ندرى فى أى مدة ينتهى ، أو كتاباً فى تاريخ انجلترة لمـا كولى لا ندرى أى أمة يفيد . ثم الاستعانة بالـكتاب والمترجمين من موظفين وغير موظفين (فى أعمـال الترجمة والمراجعة نظير مكافآت سخية تصرف لهم) !

وهذه هى الخطوة الجديدة فى الإدارة القديمة ولـكنها إلى الوراء ، لأن الـكتب وتوزيعها على أحرار المترجمين تجربة تحققت فى بعض العهود ثم أخفقت . وإخفاقها إنما أتاها من نزعتها الفردية فى اقتراح الفـكرة وانتخاب الـكتاب واختيار المترجم . وبقاء الأعمال الفردية رهن ببقاء الفرد . والقاعدة عندنا أن يهدم الخالف ما بنى السالف حتى لا يكون لغيره بناء يقوم ولا عمل يتم . أما إذا أسس العمل على قانون أو مرسوم عز على الرياح أن تنال منه وإن سفت عليه التراب وزمجرت حوله باللغط .

وبعد ، فهل نستطيع أن نعرف ولو بالحدس بعض الأسباب التى سوغت للوزارة أن تفضل إدارة للترجمة على دار للترجمة ؟ يقولون إن من هذه الأسباب صعوبة الحصول على مائتى مترجم يصلحون لهذا العمل . واعتراف الوزارة بهذه الصعوبة اعتراف منها بالعجز عن أداء ما خلقت له ؛ فإن من العار الذى لا يدحضه ندم ولا لوم ألا نجد فى جيلين نشأتهما وزارة المعارف فى مصر وفى أوربا ، مائتين يحسنون اللغة العربية ولغة أخرى أوربية ، وتعليمها كما نظن يبتدىء مع الدراسة الابتدائية ، وينتهى مع الدراسة الجامعية ! فإذا سلمنا لهم أن ذلك هو الواقع فإن فى الإمكان أن يسدوا هذا العوز بطائفة من إخواننا العرب ، إذ الغرض العلمى واحد ، والتعاون الثقافى قائم . فإذا أعيانا الوصول إلى ذلك ، بدأنا العمل بمائة و بخمسين ثم بعثنا إلى أوربا فى كل سنة عشرة من خريجى الأزهر ودار العلوم

والجامعة يخصصون لدرس هذه اللغات حتى يبلغ النصاب عدده . ولو أن (البعثة الفهمية) — ولها فى ذمة الوزارة ستمائة فدان من أخصب الأرض — سارت على النهج الذى رسمه لها صاحب المعالى حلمى عيسى لما شكونا هذا النقص ولا أحسسنا ذلك القصور .

كذلك يقولون إن هؤلاء المترجمين إذا تيسر الحصول عليهم سيصيبهم داء الموظفين فيعملون عشر ما يستطيعون . وإذن يكون عشرون يرأسهم ضميرهم ، خيراً من مائتين يرأسهم كبيرهم . ودواء ذلك إذا جاز أن يكون عين كلوء تراقب ، ويد حازمة تصرّف ، وتحديد يومى لإنتاج المترجم يطلب منه ويناقش فيه ويحاسَب عليه .

أما غير هذين الاعتراضين على تهافتهما فرده إلى الهوى لا إلى العقل . والحق أن الغار الذى ضفره عطارد لهذا العمل العظيم الخالد لا يزال مرفوعاً بين يديه ينتظر الرؤوس التى تستحقه . وما زلت قوى الأمل فى أن يكون من نصيب الصديقين العزيزين وزير المعارف ومدير الثقافة . فليت شعرى أهو الحذر الذى يخطىء ، أم هو القدر الذى يصيب ؟

يا معالى الوزير ! إننا أمة جاهلة فينا أفراد يعلمون . وإن من الخزى أن نظل كذلك وآباؤنا هم الذين علموا الشعوب ومدنوا العالم ! إن الجهل باللغات الأجنبية عندنا مذمة وهو عند غيرنا محمدة . وعلة ذلك أن لغتنا لا تزال لغة العلم القديم ؛ فمن اكتفى بها أنهم بخفة الوزن وقلة العلم . وهيهات أن ندرأ عنها وعنا هذه المعرة إذا لم ننقل إليها المعارف الحديثة على الوجه الذى أقترح ! بهذا وحده يا معالى الوزير تعود لغتنا إلى الحال التى قال فيها كاهن قرطبة أيام كنا سادة الأندلس : « إننا نحب أن نقرأ الشعر والقصص ، وندرس الدين والفلسفة

فى اللغة العربية ، لأنها لغة عذبة الألفاظ بليغة الأداء . ولا نـكاد نجد فينا من يقرأ الـكتب المقدسة باللغة اللاتينية ، وشبابنا الأذكياء كافة لا يعرفون غير لغة العرب وآدابهم . وكلما قرأوا كتبها ودرسوا أدبها أعجبوا بها . فإذا حدثتهم عن كتاب من الـكتب اللاتينية سخروا منه وقالوا . إن الفائدة منه لا تساوى التعب فى قراءته[1] ... »

ذلك ما قالوه فى لغتنا بالأمس ؛ وهو نفسه ما نقوله فى لغاتهم اليوم ! فهل فى ذلك لقوم بلاغ ؟

(١) تاريخ العرب فى أسبانيا لدوزى بالفرنسية ج ٢ س ١٣ .

أوربا والإسلام

(٧ يناير سنة ١٩٤٦)

شيّع الناس بالأمس عاما قالوا إنه نهاية الحرب ، واستقبلوا اليوم عاماً يقولون إنه بداية السلم . وما كانت تلك الحرب التي حسبوها انتهت ، ولا هذه السلم التي زعموها ابتدأت ، إلا ظلمةَ أعقبها عمى ، وإلا ظلماً سيعقبه دمار ! .

حاربت الديمقراطية وحليفتّها الشيوعية عدوتيهما الدكتاتورية ، وزعما للناس أن أولاهما تمثل الحرية والعدالة ، وأخراهما تمثل الإخاء والمساواة ، فالحرب بينهما وبين الدكتاتورية التي تمثل العلو في الأرض ، والتعصب للجنس ، والتطلع إلى السيادة ، إنما هي حرب بين الخير والشر ، وصراع بين الحق والباطل . ثم أكدوا هذا الزعم بميثاق خطوه على مياه (الأطلسي) واتخذوا من الحريات الأربع التي ضمنها هذا الميثاق مادة شغلت الإذاعة والصحافة والتمثيل والتأليف أربع سنين كوامل ، حتى وهم ضحايا القوة وفرائس الاستعمار أن الملائكة والروح يتنزلون كل ليلة بالهدى والحق على رزفلت وتشرشل وستالين ، وأن الله الذي أكمل الدين وأتم النعمة وختم الرسالة قد عاد فأرسل هؤلاء الأنبياء الثلاثة في وشنطون ولندن وموسكو ، ليدرأوا عن أرضه فساد الأبالسة الثلاثة في برلين وروما وطوكيو ! وعلى هذا الوهم الأثيم بذلت الأمم الصغرى للدول الكبرى قسطها الأوفى من الدموع والدماء والعرق ؛ فأقامت مصر من حريتها وثروتها وسلامتها في (العلمين) سداً دون القناة ، وحجزت تركيا بحيادها الودي سيل النازية عن الهند ، وفتحت إيران طرقها البحرية والبرية ليمر منها العتاد إلى روسيا ، ولولا هذه النعم الإسلامية الثلاث لدقت أجراس النصر في كنائس أخرى ! .

ثم تمت المعجزةُ وصُرع الجبارون ووقف الأنبياء الثلاثة ، على رءوس الشياطين الثلاثة ، يهصرون الأستار عن العالم الموعود . وتطلعت شعوب الأرض إلى مشارق الوحى فى هذه الوجوه القدسية ، فإذا اللحى تتساقط ، والقرون تنتأ ، والمسابح تنفرط ، والمسوح تنتهك ؛ وإذا التسابيح والتراتيل عواء وزئير ، والوعود والمواثيق خداع وتغرير ؛ وإذا الديمقراطية والشيوعية والنازية والفاشية كلها ألفاظ تترادف على معنى واحد : هو استعمار الشرق واستعباد أهله !

إذن برح الخفاء وانفضح الرياء وعادت أوربا إلى الاختلاف والاتفاق على حساب العرب والإسلام ! :

هذه إيران المسلمة ، ضمن استقلالها الأقطاب الثلاثة ، حتى إذا جد الجد تركوها تضطرب فى حلق الدب[1] ثم خلصوا نجيا إلى فريسة أخرى !

وهذه تركية المسلمة ، واعدوها وعاهدوها يوم كانت النازية الغازية تحوّم على ضفاف الدردنيل ؛ وهم اليوم يخلونها وجهاً لوجه أمام هذا الدب نفسه يطرق عليها الباب طرقاً عنيفاً مخيفاً ليعيد على سمعها قصة الذئب والحمل ! .

وهذه إندونيسيا المسلمة ، آمنت بالإنجيل (الأطلسى) وقررت أن تعيش فى ديارها سيدة حرة ؛ ولكن أصحاب الإنجيل أنفسهم هم الذين يقولون لها اليوم بلسان النار : هولندا أوربية ، وإندونيسيا أسيوية ، ونظرية الأجناس ، هى القانون النافذ على جميع الناس ! .

وهذه سورية ولبنان العربيتان ، أقر باستقلالهما ديجول ، وضمن هذا الإقرار تشرشل ، ثم خرجت فرنسا من الهزيمة إلى الغنيمة ، واختلف الطامعان نخاس المضمون بعهده ، وبر الضامن بوعده . ثم قيل إنهما اتفقا ! واتفاقهما لن يكون على أى حال قائماً على ميثاق الحريات الأربع ! .

---

(١) الدب : روسيا .

وهذه فلسطين العربية ، يفرضون عليها أن تؤوى فى رقعتها الضيقة الشريد والطريد والفوضوى واللص ، وفى أملاكهم سعة ، وفى أقواتهم فضل ؛ ولكنهم يضحون بوطن العرب ، لعجل السامرى الذهب ، و يتخلصون من الجرائيم بتصديرها إلى أورشليم !

وهذه أفريقية العربية ، يسمعون أن ديجول أخا (جان دارك) قد حالف على أهلها الخوف والجوع ، ثم انفرد هو بمطاردة الأحرار حتى ضاقت بهم السجون والمقابر ، ولا يقولون له : حسبك ! لأن السفاكين أوربيون يؤمنون بعيسى ، والضحايا أفريقيون يؤمنون بعيسى ومحمد !

بل هذه هى الأرض كلها أمامك ؛ تستطيع أن تنفضها قطعة قطعة ، فهل تجد العيون تتشوف ، والأفواه تتحلب ، والأطماع تتصارع ، إلا على ديار الإسلام وأقطار العروبة ؟ فبأى ذنب وقع خمس البشرية فى هذه العبودية المهلكة ، وهو الخمس الذى انبثق منه النور وعرف به الله وكُرم فيه الإنسان ؟ ليس للثلاثمائة مليون من العرب والمسلمين من ذنب يستوجبون به هذا الاستعمار المتسلط إلا الضعف ، وما الضعف إلا جريرة الاستعمار نفسه . فلو كان المستعمر الأوربى صادق الحجة حين قال إننا نتولى شؤون الشرق لنقوى الضعيف ونعلم الجاهل وندفع المتخلف ، لوجد من العرب سنداً قوياً لحضارته ، ومن الإسلام نوراً هادياً لعقله ؛ ولكنه ورث الخوف من الإسلام عن القرون الوسطى فهو يسايره من بعد ، ويعامله على حذر . و إذا عذرنا قسوس العصور المظلمة فيما افتروا عن جهالة ، فما عذر الذين كشفوا الطاقة الذرية إذا جمدوا على الضلال القديم وكتاب الله مقروء ودستور الإسلام قائم ؟ !

لقد فشلت مذاهبهم الاجتماعية كلها ، فلم تستطع أن تخلص جوهر الإنسان من نزعات الجاهلية الأولى ؛ فلم يبق إلا أن يجربوا المذهب الإسلامى ولو على سبيل الاقتباس أو القياس .

لا نريد أن نقول لهم : أسلموا لتسلموا ، وتعلّموا لتعلموا ، فإن هذه الدعوة يعتاقها عن الغاية القريبة عوائق من العصبية والوراثة والتقاليد والعادة ؛ ولكنا نقول لهم : تصوروا نظاماً واحداً يصلح لكل زمان ومكان ، ويقطع أسباب النزاع بين الإنسان والإنسان : يوحد الله ولا يشرك به أحداً من خلقه ؛ ويقدس جميع الشرائع التي أنزلها الله ولا يفرق بين أحد من رسله ؛ ويؤاخي بين الناس كافة في الروح والعقيدة لا في الجنس والوطن . ويسوي بين الأخوة أجمعين في الحقوق والواجبات ، فلا يميز طبقة على طبقة ولا جنساً على جنس ولا لونا على لون ؛ ويجعل للفقير حقاً معلوماً في مال الغني يؤديه إليه طوعاً أو كرهاً ليستقيم ميزان العدالة في المجتمع ؛ ويجعل الحكم شورى بين ذوي الرأي فلا يحكم بأمره طاغ ، ولا يصر على غيه مستبد ، ويحرر العقل والنفس والروح فلا يقيد النظر ولا يحصر الفكر ولا يقبل التقليد ولا يرضى العبودية ؛ ويأمر معتقديه بالإقساط والبر لمن خالفوهم في الدين وعارضوهم في الرأي ، ويوحد الدين والدنيا ليجعل للضمير السلطان القاهر في المعاملة ، وللإيمان الأثر الفعال في السلوك : وجملة القول فيه أنه النظام الذي يحقق الوحدة الإنسانية فلا يعترف بالعصبية ولا بالجنسية ولا بالوطنية ، وإنما يجعل الأخوة في الإيمان ، والتفاضل بالإحسان ، والتعاون على البر والتقوى . فإذا تصورتم هذا النظام ، فقد تصورتم الإسلام . وإذا أخذتم به فقد اطمأن العالم المضطرب واستقر السلام المزعزع . ولا يعنينا بعد ذلك أن تطلقوا عليه لفظاً يونانياً أو لاتينياً مادمتم تسلمون وجوهكم إلى الله ، وتسلمون قيادكم لمحمد !

حوار سياسى بين شيخ وشاب

(٢٨ يناير سنة ١٩٤٦)

فى مجلس من مجالس الرأى يندو إليه صحابة من أحرار الفكر قد اطمأنوا فى حياتهم الوديعة إلى قسمة القدر بعد أن اضطربوا فى المكاسب ، وتقلبوا فى المناصب ، وتمرسوا بالأمور ، وبلغوا غاية المقدور لهم من مطالب العيش ومآرب النفس ؛ فهم يمثلون الرأى الصريح ، ويستعملون المنطق الخالص ، ويرفعون أنفسهم فوق الأوضاع والأطماع والسياسة ، فلا تقيدهم وظيفة ولا تعبدّهم شهوة ولا يقودهم حزب . فى هذا المجلس تُستعرض كل ليلة أخبار اليوم وأقوال القوم ، فتوزن بالميزان القسط ، وتنقد بالنظر الثاقب ، فلا يورد خبر أو قول إلا حاكه رأى ، ولا رأى إلا هاجمه اعتراض ، ولا اعتراض إلا ساوره شبهة .

وأكثر السامرين فى هذا المجلس من الكنتيين [١] ، فكثيراً ما تسمع كنتُ وكنتُ ، وقليلا ما تسمع سأكون وأكون . لذلك كان التشاؤم الذى تقتضيه ذكرى الماضى غالباً فيه على التفاؤل الذى يستوجبه رجاء المستقبل ! والشباب الذين يختلفون إليه يهولهم منهُ عرْى الحقيقة وجفاء الواقع ، فيستحبون عليهما توشية الأحلام وتزويد المنى ، ليستديموا لأنفسهم بواعث النشاط وحوافز الأمل .

فى إحدى جلساته الأخيرة جرى بين شاب من هؤلاء وشيخ من أولئك هذا الحوار نسوقه إليك على سرده تصويراً لروح هذا المجلس :

الشاب : وما ذنبنا فى هذا الضعف الذى نعانيه ؟ أيستطيع قصير القامة أن يطول ، ورخو العظام أن يصلب .

---

(١) الكنتي : الطاعن فى السن كأنه نسب إلى قوله : كنت فى شبابى كذا وكذا .

الشيخ : أما الضعف الناشىء عن قلة العدد وضيق الرقعة فلا حيلة لنا فيه ؛ وأما الضعف الناشىء عن سوء الخلق وقلة العلم فلا عذر لنا منه . والناس يقوّمون بالأرواح لا بالأجساد ، ويقدّرون بالصفات لا بالأعداد . فلو كان الشرقيون قد بلغوا ما بلغ الغربيون من المدنية والثقافة ، لاستحيا هؤلاء أن يعاملوهم كما يعاملون الأرقاء ، وأن يساوموهم كما يساومون الأشياء !

الشاب : وهل يمنعنا هذا الضعف العارض من أن نطالب الحق ونغضب له ونفاوض فيه ؟ .

الشيخ : وهل تطلب حقك من غاصبيه إلا بإحدى وسيلتين . وسيلة القوة وليس لك جيش ، أو وسيلة المنطق وليس عندك ساسة ؟ إن طلب الحق على هذه الحال استجداء . والمستجدى يسأل ولا يفاوض ، و يقبل ولا يعارض !

الشاب : إن الضعيف يستطيع أن يخدش ، إذا لم يستطع أن يبطش ، والخدش فى وجه القوى عيب يهمه ألا يكون .

على أن القوة ستحققها الجامعة العربية ، ومن حبات الرمل يكون الجبل ، ومن قطرات المطر يكون النهر . واستعباد العروبة المتحدة عسير ؛ وازدراء الكتلة الضخمة أعسر ، ومتى تيسرت القوة للقادة تيسرت الحجة للساسة .

الشيخ : إن الجامعة العربية من وحى الخصم وتدبيره . ولو كان (إيدن) يخشاها لما أوحاها . والعبرة ليست بالعدد كما قلت لك ؛ فإن فى الهند وفى جزر الهند كمية ، ولكن فى انجلترة وهولندة كيفية . وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات والنور !

على أن العرب تيقظوا متأخرين . تيقظوا فى عصر الذرة ، ولو أنهم استيقظوا فى عصر الفحم لوجدوا مسافة تخلفهم عن الغربيين فيه تبلغ قرناً أو تزيد .

الشاب : وماذا يضير لو كانت الجامعة العربية من وحى الخصم وتدبيره ماذام يومها لغدنا وأمرها بيدنا وقوتها بنا وخيرها لنا ؟ وهل يقدح فى ملكيتك لبيتك أو يمنع من انتفاعك به أن يعاونك صديق على بنائه ليستند إلى جداره، أو يفىء إلى ظله وهو فى الطريق إلى داره ؟

على أن الإنجليز أكيس من أن يناصبوا العرب العداء ؛ فإن البلاد العربية إذا عادتهم يكون موقعها من ملكوتهم موقع الغصة فى الحلق والجلطة فى الدم، هذه تقف القلب وتلك تكظم النفَس . وما كان أيسر الغصة وأهون الجلطة لولا أنهما اعترضتا طريق الحياة ! ونشوب العظم فى حلقك يؤذيك وقد يرديك ولكنك لا تتخلص منه بالرصاص إلا اذا تخلصت من نفسك !

ذلك إلى أن الخلاف بين الدول العظمى على استعمار الشرق يقبض عنان كل دولة عن الافتيات بالأمر والجنوح إلى القوة . ولو صح أن روسيا وفرنسا تسيران وحياً فى طريق الكشف عن القنبلة الذرية ، لكان من أمل الأمم الضعيفة أن تجداها حتى يصبح التهديد بها عبثاً لا يجدى ولغواً لا يفيد !

الشيخ . أوافقك على أن موقع البلاد العربية يملك على انجلترة الحياة والموت ، وأن الخلاف بين الدول المستعمرة يفوت على كل منها الإنفراد بالرأى والحكم ، وأن شيوع الطاقة الذرية يبطل الركون إلى القوة فى تسويغ العدوان والظلم ؛ ولكن مَن من الساسة الذين نراهم اليوم يتبوأون كراسى الحكم فى دول العروبة يستطيع أن يستغل هذه الأسباب لفائدة مصر ومنفعة العرب ؟ إن أكثرهم يحترفون السياسة من غير أداة ولا آلة . وإن وثوب من يثب منهم إلى الحكم أو بقاءه فيه ، إنما يعتمد على ذرائع غير طبيعية ليس منها على كل حال براعة الذهن ولا نبالة الغرض ولا إرادة الشعب . وأمثال هذه (الكفايات) التى أقامتها المصادفات والحظوظ على أسناد من الدعاية والخداع والتمليق والتفريق

والمحاباة والتساهل لا يمكنها أن تزاول الإصلاح لأنها صنيعة الفساد ، ولا أن تصاول القوة لأنها وليدة الضعف ؛ فقصارى أمرها أن تصانع ولا تصنع ، وتقول ولا تعمل ، وتدور ولا تسير . وما دام الرجل الذى يخلقه الله للاصلاح و يرسله بالهدى و يؤ يده بالحق لا يزال وراء الغيب ، فإن الأمل فى وحدة العرب ونهضة الشرق يظل أوهن من حبال الهباء وأبعد من أشباح الوهم ! و إنى لأجيل النظر والفكر وأتقصاها فى الأفق الغائم البعيد فلا أتبين لظهور هذا الرجل المنتظر شرطاً ولا علامة .

الشاب : أراك أسقطت الشباب من حسابك ، كأنهم غير أحرياء بحمل الشعلة وهم ثمار جهد طويل بذلته الأمة فى تنشئتهم وتثقيفهم ؛ فهل كانت الشهادات المختلفة الدرجات والغايات ، والألقاب الممنوحة من المعاهد والجامعات دلائل على الجهالة وعناوين للأمية ؟

الشيخ : إن الأبناء أشبه بآبائهم من الليلة بالليلة . و إن الدار والمدرسة على حالهما الحاضرة لتعجزان عن تخريج طبقة من الشباب يخرج منها ذلك الرجل الموعود الذى تموت (أنا) فى لسانه وتحيا فى ضميره ، ويتحد فى ذهنه وجود ذاته بوجود شعبه ؛ فهو يحس ألمه لأنه مجتمع شعوره ، و يدرك نقصه لأنه مجتلى عقله ، و يملك قياده لأنه مظهر إرادته . ثم يرتفع بسمو نفسه ونزاهة هواه عن أوزار الناس وأقذار الأرض ، فلا يطمع لأن غرضه أبعد من الدنيا ، ولا يحقد لأن همه أرفع من العداوة ، ولا يحابى لأن فضله أوسع من العصبية ، ولا يقول قولا أو يعمل عملا إلا إذا وافق الدين الذى يعتقده ، والمبدأ الذى يؤ يده والشعب الذى يقوده !

الشاب : إنك يا سيدى لتسرف فى التشاؤم لأنك شيخ !

الشيخ : و إنك يا بنى تسرف فى التفاؤل لأنك شاب . ولعل الحق أن يكون بينى و بينك !

جمال الدين الأفغاني

ناحية من جهاده

(١١ مارس سنة ١٩٤٦)

فى اليوم التاسع من شهر مارس عام ١٨٩٧ قضى السرطان فى عاصمة الخلافة على الحكيم الثائر المصلح السيد محمد جمال الدين الأفغانى ، بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، ومسح عن عيون الشرقيين ما فتَّرها من همود الكرى ، وجلا عن قلوب المسلمين ماغشاها من صدأ الجهل ، فاطمأن الاستبداد وأمن الاستعمار وظن الذين ينفضون أوطانهم ليقيموا عروشهم ، والذين يزيفون أديانهم ليملأوا كروشهم ، أن الصوت قد خفت ، وأن المشعل قد انطفأ ؛ ولكنهم نسوا أن الرسل يبعثون والله يُثْبت ، وأن المصلحين يبذَرون والدهرُ ينبت ، وأن جمال الدين إنما كان صيحة الحق وإشراقة الهدى انبعثتا فى يومهما الموعود كما ينفجر المكظوم فيدوّى ، ويحلولك الليل فيصبح . وهل كانت الثورات الديمقراطية التى شبها العرابيون ثم المهديون ثم الاتحاديون ثم السعديون ثم الهاشميون ثم الفهلويون إلا أقباساً من تلك الشعلة المباركة التى حملها الأفغانى وتنقل بها فى ممالك الشرق ، يحرق و يضىء ، و ينضج ويحمى ، ويقَبس ويشعل ، وساعده مرفوعة لا تكل ، وعزيمته ماضية لا تنكل ؟

وسر القوة فى هذا الرجل أنه كان صاحب رسالة لا طالب ملك : هاجم السياسة الإنجليزية فى (العروة الوثقى) أعنف الهجوم أيام الثورة المهدية ، فدُعى إلى لندن ليلوح له اللورد ساليسبرى بملك السودان ليطفىء الثورة ويقترح الإصلاح ، فما كان جواب الأفغانى إلا أن قال : « إن السودان لأهله . وهل

تملكونه حتى تملكون عليه ؟ ! »[١] .

وأراده السلطان عبد الحميد على مشيخة الإسلام فأباها وقال : إن وظيفة العالم فيما يزاول من تعليم ، وإن رتبته فيما يحسن من علم[٢] .

أما كيف تهيأت نفسه لرسالة البعث والتجديد على فترة من رسل الهدى وأئمة الإصلاح فجر فيها الحاكم وكفر المحكوم ، فذلك من علم الله الذى يصطفى من يشاء كما يشاء لنصرة حقه وهداية خلقه . وكل ما نظنه معيناً على هذا التهيؤ أنه ولد فى بيت كريم الأصل يجمع إلى جلالة النسب إلى الحسين ، سؤددَ الإمارة على بعض الأقاليم الأفغانية ؛ وأنه درج فى بيئة تعتز بطباع البداوة من حرية وحمِيَّة وأريحية وأنفة ؛ وأنه درس فيما بين الثالثة والثامنة عشرة من عمره علوم الدين والدنيا ، وفنون اللسان والعقل ، على منهاج محيط شامل ؛ وأنه حذق فى مراحل حياته ومواطن رحلاته اللغات العربية والأردية والفارسية والتركية والفرنسية ، وألم بالإنجليزية والروسية ، فاتصل منها بثقافة الشرق والغرب فى القديم والحديث ؛ وأنه طوّف ما شاء الله أن يطوّف فى أقطار الهند وإيران والحجاز ومصر وتركية وانجلترا وفرنسا وروسيا ، فازداد بصراً بأحوال الدول وأخلاق الشعوب ؛ وأن موقع أفغانستان بين الهند وإيران أمكنه من أن يرى ميادين الاستعمار المذل المذل تتواثب عليها قوى الإنجليز والروس ظاهرة وباطنة ، فهاله منذ شب عدوان الأجنبي على استقلال أمته وجيرته .

كل أولئك الذى ذكرت من كرم المحتد ، وشرف المولد ، وبداوة البيئة ، وعمق الثقافة ، وحذق اللغات ، وإدمان الرحلة ، ومعاناة الإستبداد ومكابدة الاستعمار ، لم يخلق وحده الرجل المصلح فى جمال الدين ، وإنما كان مساعداً

(١) خاطرات جمال الدين للمخزومى ص ٥٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٠ .

لسر العبقرية الذى أكنَّه الله فيه على أن يظهر مهيأ الأسباب مستكمل الوسائل

* * *

كان رضى الله عنه متواضع النفس لأنه عظيم ، جرىء الصدر لأنه حر ، ندِى الراحة لأنه زاهد ، ذرب اللسان لأنه قرشى ، أبى الضيم لأنه أمير ، حاد الطبع لأنه مرهف ، صريح القول لأنه رجل . ولم يبتغ من وراء هذه الصفات — كما قال — إلا سكينة القلب . وكان يحمد الله على أن آتاه من الشجاعة ما يعينه على أن يقول ما يعتقد ، ويفعل ما يقول[1] . ومِنْ تمازج هذه الشمائل وتلك الوسائل فيه اتسعت حوله الأرض ، وامتد أمامه الأفق ، وانصرف همه البعيد عن الدار والزوجة والعشيرة إلى الوطن الإسلامى كله ، والشرق الإنسانى كله ، فجعل قصده وكده أن يدعو إلى إنهاضهما بالوحدة الإسلامية لتدفع غائلة المستعمر ، وبالحكومة الدستورية لتقمع شرة المستبد .

وقد آمن بهذه الدعوة إيمانه بالله حتى رأى فى سبيلها السجن رياضة والنفى سياحة والقتل شهادة ![2] .

وكان الذين يقفون من سيرة الأفغانى على الهامش يظنون أنه قصر جهده فى تحقيق هذه الدعوة على الكتابة والخطابة . والواقع الذى لاشك فيه أنه فكر ثم قدر ثم دبّر ، ولكن الوحدة كانت من الشتات بحيث لاتلتئم ، والاستبداد كان من الثبات بحيث لا ينهزم .

تولى الوزارة وهو فى ريق شبابه لأمير الأفغان محمد أعظم ، فجمع نفسه على الاستقلال ، وأدار أمره على الشورى ، فأوجس الإنجليز خيفة من هذه النزعة ، فأرسلوا ذهبهم إلى منافسه فأضرم الثورة وفرق الكلمة وطرد الأمير ، وخرج السيد إلى الهند يبتغى السكينة عند تاجر صديق ، فاستقبله الإنجليز على الحدود ،

---

(١) خاطرات جمال الدين ص ٢١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٣

وأنزلوه بالإكراه ضيفاً على الحكومة . فسألهم الإقامة شهرين ، ولكنهم حين رأوا إقبال الناس عليه ، و إصغاءهم الشديد إليه ، قصروا هذه المدة وأمروه بالخروج . وكادت الأعصاب الهندية المخدّرة تثور حين قال للزعماء الهنود وهو راحل :

« وعزة الحق وسر العدل ، لو أن ملايينكمُ مسخت ذباباً لأخرجت الإنجليز بطنينها من الهند . ولو انقلبت سلاحف وخاضت البحر إلى الجزر البريطانية لجذبتها إلى القاع » !

وفى الآستانة استقبله الصدر الأعظم استقبال التجلة ، وأحله أعيان الدولة محل الكرامة . ثم عُين عضواً فى مجلس المعارف ، فرأى فى التعليم رأياً ، وخطب فى الصناعة خطبة ، أحفظا عليه أعوان الجهل من رجال العلم وإخوان الضلال من شيوخ الدين . وتولى قيادة الإرجاف شيخ الإسلام لحاجة فى نفسه ، فافترى على الرجل الأباطيل ، وبسّ حواليه النمائم ، فلم يجد الأفغانى بدًّا من النزوح إلى القاهرة .

وهنا وجد الصدر الأرحب فى رياض باشا ، فتجلت عبقريته فى التعليم والتنبيه والتوجيه ؛ وأوقد بالزيت المقدس شعلته الوهاجة فى البيت وفى القهوة ، فعشا على ضوئها الهادى طلاب المعرفة وعشاق الحكمة من علماء وأدباء وساسة وقادة . ثم اتخذ من المحفل الماسونى الذى أنشأه ، منارة لهذه الشعلة ، فقسم الإخوان العاملين فيه شعباً لكل وزارة من وزارات الدولة شعبة . فشعبة الحربية تنظر فى ظُلامة الضباط المصريين ، وتنذر (ناظر الجهادية) ، أن يُنصفهم من الضباط الجراكسة . وشعب الحقانية والمالية والأشغال تنذر وزراءها أن يساووا المصريين بغيرهم فى العمل والمرتب. وراع أولى الأمر ما قرأوا فى تقارير الشعب ، وما سمعوا من لغط الموظفين ، وما رأوا من قلق المثقفين ، فاستدعاه الخديو توفيق وفاوضه فى ذلك فقال له فيما قال : « إن سبيل الإصلاح أن يشترك الشعب فى حكم

البلاد عن طريق الشورى » . ثم ازداد جمال الدين إمعاناً فى حملته ، وانقلب الأدب كله أصداء لأحاديثه وأبواقاً لدعوته ، حتى انتهى الأمر — بعد جهاد ثمانى سنوات — إلى أن ضاق الإنجليز بسعة نفوذه ، فزينوا للخديو أن يخرجه من مصر فأخرجه .

وانتقلت الشعلة إلى باريس ، وسطعت فى العروة الوثقى ، وظلت ألسنتها ثمانية عشر شهراً تومض فى جنبات الشرق كما تومض المنارة فى ظلمات المحيط ، حتى دلت على أوكار الطغيان ونمت بأسرار القرصنة ، فاستقدمه شاه العجم واستوزره ، فلما أشار عليه بالشورى أشاح بوجهه عنه . واستزاره قيصر الروس واستخبره . فلما نبأه بحديث الشورى نفر منه . واستدعاه خاقان الترك واستشاره ، فلما نصح له بالشورى وتقسيم الامبراطورية إلى عشر خديويات يتولاها أمراء عثمانيون ، زوى عبد الحميد مابين عينيه ؛ ولكنه ألطف الجواب للحكيم الشجاع وظل على إكرامه واحترامه أربع سنين حاول فيها أن يكبله بقيود المنصب والزواج فلم يستطع ، ولكن الموت استطاع أن يكبل الثائر الحر ليبلغ الاستبداد أجله المقدور !

وهكذا كانت حياة جمال الدين كلها جهاداً مضنياً فى سبيل الله والعلم والحرية والشورى .

كان أينما حل تنفس الصبح واستيقظ الهجود ، وأينما رحل ارتجفت العروش واضطربت القيود !

طيب الله ذكرى هذا الإمام العظيم ، وأجزل له ثواب المصلحين المخلصين فى جنات النعيم !

أعداؤنا الثلاثة

(٢٥ مارس سنة ١٩٤٦)

كانت « الرسالة » أول من حصر أعداءنا الثلاثة فى الجهل والفقر والمرض حين اقترحت على وزارة الشؤون الاجتماعية أن تحرر دستورها الإصلاحى تحت هذه العناوين ، لأنها جماع العلل التى يصدر عنها كل فساد وينجم منها كل شر[1] ؛ وقالت الرسالة يومئذ : إن هذه الوزارة تجديد رسمى لدعوة النبوة ، فملاك الأمر فيها الدرس والرواية والمشورة والعزيمة والنفاذ ؛ على أن يكون كل رأى فى وجهه ، وكل عمل فى وقته ، وكل أمر فى أهله . ثم انتظرنا وانتظر الناس ، فإذا هى وزارة كسائر الوزارات : مكاتب وكتاب ، وسعاة وحجاب ، وأوراق تفرّق وتجمع ، وأرزاق تقدر وتوزع ، ثم علم من غير عمل ، أو عمل من غير علم ؛ وإذا نحن بعد ثمانى سنوات من عمرها لا نزال من الأمية والفاقة والعلة فى الموضع الذى كنا فيه إذا لم نكن تأخرنا عنه . ذلك لأنها وزعت جهدها الضئيل وما لها القليل على ما سلبت من اختصاص الوزارات فعجزت عن أداء ما خلقت له ؛ وتعاقب عليها الوزراء والوكلاء تعاقب الظلال الخفاقة ، فلم يمهلوا حتى ينضجوا الرأى ويرسموا الخطة ويبتغوا الوسيلة . فإذا سنح لها خاطر فى الإصلاح بدأته من آخره أو أخذته من طرفه فينتشر عليها الأمر وتلتبس أمامها الوجهة . فالأمل إذن فى استعدائها على الجهل والفقر والمرض وهى مصابة بهن جميعاً أشبه الأشياء باستثمار الصفصاف واستيلاد العقيم . ولكن علل الشقاء المصرى كانت قد رزت

---

(١) انظر المجلد الثانى من كتاب وحى الرسالة ص ١٠٦ .

فى وعينا القومى بروز العقيدة الراسخة والضرورة الملحة ، فهى تثب إلى العيون وثوب الحصى ، وتقع فى القلوب وقوع النبل ، فمن حاول أن يفر منها أو يغضى عنها كان كالمصحر فى وسط الزوبعة أنى اتجه وجد الرمل فى وجهه والظلام فى وجهته . وذلك مثل الذين تزعموا نهضة الأمة فى مدى ربع قرن فقصروا الجهود وحصروا الأفكار فى مكافحة العدو الرابع وهو الاحتلال . ولو كتب الله لهم التوفيق لشبوها على الأعداء الأربعة فى وقت واحد . ولو مهد لهم سبيل الفوز لجعلوا الميدان الأول للعدو الأول وهو الجهل ؛ لأنه هو الذى ولد الفقر والمرض ثم استعان بهما على سلب الاستقلال وجلب الاحتلال ، وقتل الروح القومية فى الشعب ، فلم يكن له رأى عام لنقص إدراكه ، ولا خير مشترك لضعف إنتاجه ، ولا كيان صحيح لوهن جسمه . ولكن زعماءنا اختاروا أسلم الميادين ، ونهجوا أسهل الطرق ، وابتغوا عرض الحياة ، لأن محاربة الاحتلال لا تكلفهم غير تأليف المظاهرات وإنشاء المقالات وإلقاء الخطب ، ثم تنتهى بهم وشيكا إلى الحكم والثروة والجاه عن طريق الدستور أطال الله عمره وأعز نصره ! أما محاربة الجهل والفقر والمرض فجهاد لا يثبت له ولا يصبر عليه إلا أولو العزم من المجاهدين المخلصين المضحين الذين يعملون ليرضى الله ، ويشقون ليسعد الناس ، ويموتون ليحيا الوطن !

على أن الزعيم الحكيم يستطيع أن يدرك من وراء السياسة والحكم رضا قلبه ورضا شعبه ورضا ربه إذا تأبى على المطامع ، وتعالى عن الشهوات ، ووجه قوى الحكومة والأمة كلها إلى هذا الجهاد المقدس . إنه إن أحسن التنبيه وأخلص التوجيه وأحكم القيادة ، أبلى بلاء الرسل دون أن يتصدى لمخاطر الرسالة ، وجوزى

جزاء الملوك دون أن يتعرض لمكاره الملك ، فأجناده يضحّون وهو يُعيِّد ، وقواده يحاربون وهو ينتصر ، وأنداده يفنون وهو يخلد !

* * *

ليت شعرى هل كان يفكر فى ذلك صاحب الدولة رئيس الحكومة القائمة حين قطع العزم على أن يكون برنامجه فى الحكم مفاوضة الاحتلال فى مصر والسودان على الجلاء ، ومجاهدة الجهل والفقر والمرض حتى الفناء ؟ !

نعم ، طوى برنامجه السياسى على هذين المطلبين ، ثم أخذ يهيىء لهما الأسباب ويرُصد الأهب ، فألف وفد المفاوضة من رجالات السياسة ، وفى الوقت عينه ألف مجلساً أعلى لشؤن الطبقات الفقيرة من وزارة المعارف والشؤون والصحة والزراعة والتجارة ، وجعل لنفسه الرياسة فى الوفد المفاوض وفى المجلس الأعلى ، ثم بدأ العمل فى الميدانين على السواء . والذى يعنينا اليوم ذكره أن هذا المجلس الأعلى قرر القيام بطائفة من أضخم المشروعات الثقافية والاقتصادية والصحية ، تحقق العدالة الاجتماعية ، وترفع مستوى العيش لجمهور الشعب وهو صلب المجتمع وأداة إنتاجه وعدة دفاعه ؛ ورأى تنفيذاً لتلك الأعمال الخطيرة أن يعقد لها قرضاً وطنياً بخمسين مليون جنيه يُثمرُ فيه عفو المال وفضلات الرزق فتجدى على صاحبها مرتين : مرة فى نفسه ، وأخرى فى جنسه !

من تلك المشروعات العتيدة ما يعالج الجهل كاصلاح التعليم الإلزامى ومحو الأمية فيمن شبوا عن الطوق وجاوزوا حد الإلزام . ومنها ما يعالج الفقر والمرض كتقسيم القطر إلى وحدات اجتماعية عامة ، وتنقسم كل منها إلى عشرة آلاف وحدة ، تتمثل فى كل وحدة جميع الوزارات المشتركة فى هذا المجلس الأعلى فتكون

سفيراً بين الحكومة والفلاح ، وصلة بين العلم والزراع ، ورسولا من الطب إلى المرضى ، ووسيطاً بين التاجر والمنتج ، وبرزخاً بين الناس والمعرفة . وتلك هى الأعمال التى أنشئت لها وزارة الشؤون فلم تستطع النهوض بها ، ولم تصارح الناس بالعجز عنها ؛ وظلت تعمل على هامش الحكومة : تصدر المجلة ، وتعلن الموالد، وتسجل النقابات ، وتزور المساجين ، وتستقبل العمال ، وتأخذ شيئاً من كل شىء، ولا تؤثر أبداً فى أى شىء! وكان من وسائلها المرجوة لو رزقت ملكة الابتكار، ان تدبر المال والرجال بمثل ما يدبره اليوم رئيس الحكومة فتذلل العقبة التى وقفت دونها خائرة حائرة لا تعرف لأمرها قِبلة ولا دِبرة .

لقد عبأ رئيس الوزراء قوى الحكومة والشعب لمحاربة اعدائها الأربعة ، وليس فى الأمة اليوم كما يقول شبابها ويردد كهولها من يضن بماله ونفسه على هذه الحرب . فهل آن لمصر السادرة فى الخلاف والغى أن تدرك سر النهوض، وتعرف حقيقة الإصلاح ، وتعلم أن الأمة لا تكون متمدنة إلا إذا محت هذه الفروق المخيفة بين الخاصة والعامة ، وبين المدينة والقرية ؟ إنك ترى الفقير القروى فى جسمه الضاوى وثوبه الخلق وجهله المطبق ، ثم ترى الغنى الحضرى وعليه زهرة العيش ونضرة الصحة ونور العلم ، فلا تصدق أن هذين الرجلين يرأسهما وطن واحد وترعاهما حكومة واحدة ؟

إن معرة الاحتلال العسكرى تصيب المحتل فى شرفه وضميره لأنه يبرره بضعفنا ويؤيده بقوته ؛ ولكن معرة الانحلال الفكرى والجسدى والاجتماعى تصيب الشعب فى كرامته ودينه ، لأنه يرضاه وهو قادر على الإفلات من ربقته .

لذلك كنا أحرياء أن نفكر بعض التفكير فى عاقبة هذه الأمور ؛ فإن الوزارة الصدقية محدودة الأجل بنتيجة المفاوضات ، فإذا أخفقت مفاوضة الاحتلال،

أو مال ميزان الانتخابات إلى الشمال ، اعتزلت الوزارة الحكم لامحالة .

وإذن يحق لنا أن نتساءل عن مصير العملين العظيمين اللذين بدأهما صدقي باشا . فأما المفاوضات السياسية فسيستأنفها وقد يتلوه وفد إلى ان يرث الله الجزر البريطانية ومن عليها ، لأن هذا النوع من الجهاد كلام ونحن نجيده ، وسلام ونحن نريده ! وأما هذه الهبّة الاصلاحية فأغلب الظن ألا تستمر ؛ لأنها بناء ونحن نحب الهدم ؛ وعناء ونحن نؤثر الراحة ؛ ومجد ونحن نكره أن يكون لغيرنا الا كرام !

والله سبحانه وتعالى قادر على أن يخيب هذه الظنون ، وأن يقول للشيء كن فيكون !

حل حاسم لمشكلة الأزهر

(٨ ابريل سنة ١٩٤٦)

غاية الأزهر التي اتجه إليها منذ اكتمل أمره أن يفقّه الناس في الدين وفيما تفرّع عن أصوله من شتى العلوم، وسبيله إلى هذه الغاية أن يعلم اللغة وما اتصل بآدابها من مختلف الفنون؛ فالدين واللغة إذن هما علة وجوده وجوهر علمه وثمرة عمله. ومن مزايا الإسلام أن يمرُن مع الزمن ويتجدد بالعلم ليلائم كل عصر ويعالج كل حالة. ومن طبيعة العربية أن تتطور مع الجماعة وتتسع بالحضارة لتعبر عن كل معنى وتدل على كل ذات. وكان من ثمر هذه المرونة في الدين هذا الفقه العالمي العجيب، ومن أثر هذا التطور في اللغة هذا الأدب الإنساني الخصيب. فلما تدفقت الخطوب على حواضر الإسلام والعروبة فمال الميزان ودال السلطان وانتقض الأمر وعجز العقل، جهل المسلمون مرونة دينهم فأغلقوا باب الاجتهاد، وأنكر العرب تطور لغتهم فصدوا عن سبيل الأدب. وتقدم الغرب وتأخر الشرق، وسيطر العلم وتعطل الإسلام، وتطور التعليم وجمد الأزهر، وولى المصريون وجوههم شطر أوربا يأخذون عنها ما كانت أخذته عنهم، ثم استأنفوا السير في ركب الحياة. ولكن الأزهر ظل في موقفه فلم يسر، وأخذته الصيحة من كل مكان فلم ينتبه، وسألوه أن يمدهم بشيوخ الدين ورجال العربية وهما غايته ووسيلته فلم يستطع. حينئذ اضطر أولو الأمر إلى إنشاء (دار العلوم) لتعليم اللغة، ثم إلى إنشاء (مدرسة القضاء) لتطبيق الشريعة، وتركوا الأزهر المعمور مُتحفاً لآثار غير ثمينة من الكتب القديمة والآراء العقيمة؛ يتعبد بألفاظها قوم من فارغي القلوب قد اطمأنوا إلى الخمول، ورضوا بالدون، وعاشوا على فضل الناس، حتى دخلت النهضة المصرية في أوائل ربيعها المزهر، فهب كل وسنان

وانتعش كل ذابل . وتيقظ الأزهريون من رقادهم الطويل فإذا هم عراة من حلل الثقافة الحديثة فطفقوا يخصفون على سوءاتهم مما تناثر حول الأزهر من ورق الربيع ؛ ولكنهم ظلوا متميزين من سائر المصريين بهذا الورق الذى لا يدفىء ولا يستر ، فنزعوا بأنفسهم عن معرة التخلف ، وتنافسوا فى اقتباس المعرفة ، وأرادوا الدين للدنيا ، وطلبوا العلم للحياة ، وهتفوا وهتفنا معهم بالإصلاح ولكن بقايا الراقدين على حطام الماضى يفزعون من هذا الإصلاح لأنه يجرفهم كما يجرف السيل الهشيم ! فهم يُلقون بأجسادهم إلقاء فى طريق الشباب ليعوقوهم عن بلوغ الأمد المحتوم والأمد المحتوم الذى سيبلغه الشباب الأزهريون ولا شك هو أن يتعلموا ليعيشوا مادام الإسلام لا يتبنى الرهبان ولا يبنى الأديرة وقد أخذوا منذ نقل الأستاذ المراغى طيب الله ذكره صورة النظام الجامعى إلى الأزهر ، يفكرون فى مصيرهم بعد العالمية والتخصص ، وفى موقفهم من دار العلوم وكلية الآداب ، ويقولون لأنفسهم حينا وللناس حينا آخر نحن خمسة عشر ألفا من شباب الأمة أو نزيد ، فينا مواهب وعلينا تكاليف ولنا مستقبل ، فلِمَ نتعلم إذا قضى علينا ألا نعمل ؟ وكيف تنفق أموال الدولة على معاهد قصارى أمرها أن تخرّج فى كل عام قوما متبطلين لا هَمَّ لأنفسهم ولا لله ولا للوطن؟ وإذا كان تعليمنا على هذا المنهج الخاص لا يؤهلنا لابتغاء الرزق إلا من تعليم اللغة والدين فى المدارس ، فما غاية الحكومة إذن من قيام هذه المعاهد التى تنافسنا فى الحرفة وتخاصمنا على القوت ؟ وإذا كان تخلف الأزهر فى عهد إسماعيل قد اضطر على مبارك باشا إلى إنشاء (دار العلوم) فما الضرورة الملجئة اليوم إلى بقائها والأزهر جامعة والدرس مستقصًى والمدرس مختص؟ ولكن الدرعميين والجامعيين فى الجهة الأخرى يجيبون عن هذه النجوى أو الشكوى بأن الإعداد مختلف والتحصيل متفاوت . وما تستوى الفوضى والنظام ، ولا النقص والتمام ، ولا التقليد والأصالة . ووقف الفريقان يتلاحيان ، رأياً إزاء رأى ، وإضرابا وراء إضراب ،

واحتجاجا إثر احتجاج ، ومن هنا نشأت المشكلة بين المعاهد وأعضلت. وجهدت مشيخة الأزهر ووزارة المعارف جهدهما أن تعالجاها بالدواء المسكن لا بالطباب الحاسم ، فكانت كالثوب المتداعى كلما رتق من جانب تفتق من جانب .

لذلك نتقدم اليوم إلى هاتين الجهتين باقتراح نرجو إذا خلصت النيات وصدقت العزائم أن يكون مقطع الحق فى فض الخلاف وإصلاح الأزهر .

ذلك الاقتراح هو :

١ — أن يلغى التعليم الابتدائى من جميع المعاهد الدينية ليُلقى بمقاليده إلى وزارة المعارف تُلزمه وتقسّمه وتعممه على الوجه الذى تراه . وذلك بدء الوحدة الثقافية بين أبناء الأمة .

٢ — أن تجعل المعاهد الدينية فى القاهرة وفى الأقاليم مدارس ثانوية يدخلها حاملو الشهادة الابتدائية العامة وتعلم فيها اللغات والرياضيات والآداب والعلوم على منهج وزارة المعارف . وفى أول السنة الثالثة منها يتجه طلابها اتجاهين على حسب مرادهم واستعدادهم : إما اتجاها إلى الدين وعلومه ، وإما اتجاها إلى اللغة وفنونها . فإذا انقضت السنوات الدراسية الخمس تقدم طلاب الشعبتين إلى امتحان الشهادة الثانوية مع سائر إخوانهم من جميع المدارس ، يمتحنون معهم فيما يتفقون فيه ، وينفردون انفراد شُعب التوجيهية فيما اختصوا به . والناجحون فى هذا الامتحان سيجدون أمامهم طريقين هم بالخيار فى سلوك أحدهما . طريق الوظيفة الوسط ، وطريق الدراسة الأزهرية العليا . فإذا اختاروا طريق الوظيفة عينوا كتبة فى المعاهد الدينية ، أو فى المحاكم الشرعية أو فى المجالس الحسبية ، أو فى بعض الأقسام من وزارات الأوقاف والمعارف والشؤون ، أو عينوا موثقين شرعيين فى المدائن والقرى . ذلك إلى أن لهم الحق بحكم شهادتهم أن يسابقوا فى الامتحان

إلى أى وظيفة من وظائف الدولة . وإذا اختاروا طريق الدراسة العليا دخلوا القسم الجامعى بالأزهر .

٣ — أن يقتصر فى التعليم الجامعى فى الأزهر على كليتين اثنتين : كلية الدين وتندمج فيها كلية الشريعة وكلية أصول الدين . وكلية اللغة وتندمج فيها كلية اللغة العربية ودار العلوم وقسم اللغة العربية من كلية الآداب بجامعتى القاهرة والاسكندرية. و تشترك الكليتان فى الدراسة العميقة للغتين العربية والأوربية ، وتنفرد كلية اللغة بتاريخ الآداب العربية والأجنبية ، كما تنفرد كلية الدين بتاريخ الأديان السماوية والأرضية . وذلك بالطبع فوق ماتختص به كلتا الكليتين من علوم الدين ، أو من فنون اللغة . وما يتصل بهذه أو بتلك من العلوم الحديثة . ومدة الدراسة فى الكليتين أربع سنين للعالمية أو الليسانس ، وست سنين للتخصص أو الدكتوراه . ومن يرد من طلاب الكليتين الاستعداد للتعليم قضى فى معهد التربية سنتين بعد الليسانس لمن يريد التعليم فى الثانويات ، ومثلهما بعد الدكتوراه لمن يريد التعليم فى الكليات . والمتخرجون فى كلية اللغة يزاولون تعليم اللغة والأدب فى المعاهد الدينية ، وفى جميع مدارس الدولة ابتدائية وثانوية وعالية فضلا عن مزاولتهم الترجمة والتحرير والصحافة . وأما المتخرجون فى كلية الدين فيزاولون القضاء والمحاماة والإمامة والوعظ والخبرة والتفتيش فى المساجد والمعاهد وتدريس الدين والشريعة فى كل مكان يدرسان فيه .

بهذا النظام يحتفظ الأزهر بقديمه ويشارك فى جديد الناس . وبهذا النظام تمحى الفروق المعنوية والمادية بين طلابه وسائر الطلاب . وبهذا النظام تتحقق وحدة الثقافة وتنقطع أسباب الفرقة ويساهم الأزهر فى شركة المدنية . فإن أردتم الإصلاح فهذه سبيله واضحة . وإن أبيتم إلا التخدير والتجمير والتقية فأضيفوا من فضلكم كلية للدين إلى جامعة القاهرة ثم أغلقوا الأزهر !

إصلاح الأزهر
بين دعاته وأُباته

(٦ مايو سنة ١٩٤٦)

كتب الأستاذ محمود الغمراوى مقالا فى الرسالة صور فيه المخاوف التى تساور بعض علماء الأزهر من عواقب الاقتراح الذى اقترحته على مشيخة الأزهر ووزارة المعارف لحل مشكلة الأزهر . صور الأستاذ الفاضل ما توهم من تلك المخاوف تصويراً يروعك منه حفاظ المؤمن وإشفاق الناصح ؛ ولكن الألوان والظلال التى اختارها لصورته جعلتها أدخل فى باب الخطابة منها فى باب المنطق ! من تلك الظلال « هذه السهام التى تسدَّد إلى الأزهر ، وهذه الأسنة التى تشرع على القرآن » . ومن تلك الألوان هذا « الفرض الذى يقتل الأزهريون بأيديهم لغتهم ودينهم » وهذا التهويل عليهم « بالبلاء الوافد والخطب الراصد والموت الحاصد » . والأستاذ أعلم الناس بأن المستعمرين أنفسهم لم يبلغوا من الجحود بآيات الله أن سول الشيطان لهم بعض ذلك ، بَله الذين يؤمنون بأن العالم لا يسعد إلا بالدين ، وأن الدين لا يجدد إلا بالأزهر ، وأن الأزهر متى استكمل أداة التعليم وساير حاجة العصر نهض بالشرق نهضة أصيلة حرة ، تنشأ من قواه وتقوم على مزاياه وتتغلغل فى أصوله . ذلك لأن ثقافته المشتقة من مصدر الوحى وقانون الطبيعة متى اتصلت بتيار الفكر الحديث تفاعلت هى وهو ، فيكون من هذا التفاعل ما يريد به الله تجديد دينه وكفاية شرعه وإدامة ذكره .

على أن الأستاذ الغمراوى قصر جهده فى مقاله على عرض اقتراح الرسالة

فى صورة الهولة ليفزع بها المخلصين لدينهم ولغتهم فلم يشر بتعديل فيه ولا بتبديل منه ، كأنه يرضى للأزهر أن يظل كما هو يعلك الكلام ، ويجتر الماضى ، ويقتات الفتات ، ويبطل الاجتهاد ، ويعطل العقل ، ويصم أذنيه عن أصوات العالم وحركات الفلك !

ولكن الأستاذ من صدور العلماء المعروفين بطول الباع فى علوم الدين وسعة الاطلاع على فنون اللغة ؛ فلا بد أن يعلم أن ميزة الإسلام التى تفرد بها هى مسايرته للتطور ومطاولته للزمن ؛ فإذا حصرناه فى زمان محدود ، أو قصرناه على نظام معين ، سلبناه هذه الميزة . وفصلناه عن دنيا الناس . فهو إذن من المصلحين المحافظين الذين يجددون بقدَر ، ولا يتقدمون إلا فى أناة وحذر ، لأنه يرى الحال داعية إلى الإصلاح ، ولكنه يطلب من الأستاذ العقاد ومنى أن نراجع الرأى فيما كتبناه لعلنا نجد « لونا آخر من العلاج يكون فيه للأزهر الشفاء والعافية » .

أولئك هم المجددون المحافظون ؛ وأما غيرهم ممن يعارضون الاقتراح فطائفتان : طائفة السلفيين المتزمتين ، وهؤلاء قد وقفوا عند حدود النقل ، فلا يرون لفهم أن يبتكر ، ولا لعقل أن يعترض ، ولا لمصلح أن يجدد ، لأن التجديد بدعة ، وكل بدعة على إطلاقها ضلالة . وطائفة الأحرار المستقلين ، وهؤلاء يعارضون الاقتراح لا لأنهم يناهضون الإصلاح ، وإنما يخشون أن يفلت زمام الأزهر من أيديهم فتصبح قيادته لوزارة المعارف . ويخيل إلىّ أن المعارضين الأفاضل على اختلافهم فى أسباب المعارضة لو قرأوا الاقتراح على عادة الأزهريين من التفلية والتحليل لما وجدوا فيه مبعثاً للخوف ولا مثاراً للشك . وبحسبنا أن نوضح ما أشكل من جوانب الرأى لنصبح جميعاً متفقين على الأسس التى يجب أن يقوم عليها بناء الأزهر القديم الجديد .

* * *

يرى الأستاذ الغمراوى والذين يذهبون مذهبه أن الاقتراح « يجبُّ نصف الأزهر و يدق رأسه » .

١ — لأن إلغاء التعليم الابتدائى من المعاهد الدينية يستتبع إلغاء حفظ القرآن ، إذ كان حفظه كله أو نصفه شرطاً فى قبول الطالب ، و إلغاء هذا الشرط ينقص الإعداد الدينى تلك السنوات الست التى كان يقضيها الصبى فى حفظ القرآن .

٢ — ولأن تحويل المعاهد الدينية إلى مدارس ثانوية تساير منهاج وزارة المعارف فى الثقافة العامة ، وتنفرد فى سنّى التوجيه بعلومها الخاصة ، يحرم الأزهر ست سنوات أخرى كان يقضيها الطالب فى دراسة اللغة والدين بأقسامه الابتدائية والثانوية .

٣ — ولأن المواد المدنية على نهجها المعروف فى برامج الوزارة ستطغى على المواد الدينية ، فيقل المحصول الدينى واللغوى لدى الطلاب ، وتضعف الملكة الأزهرية الخاصة لفهم الدرس والكتاب .

٤ — ولأن الاعتماد على حملة الشهادة الابتدائية العامة فى تغذية أقسام الأزهر الثانوية يعرضها للهزال بانصراف التلاميذ عنها إلى المدارس الثانوية الأخرى اتباعاً لأهواء العصر المادية .

وسترى بعد إيضاح ما انبهم أن هذه الأسباب منتفية عن معنى الاقتراح فى أصله . وما أراب من استراب إلا إجمالُ فكرته و إيجاز شكله .

* * *

١ — لا يستتبع إلغاء التعليم الابتدائى من المعاهد الدينية إلغاء حفظ القرآن

واستقطاع ست سنوات من زمن الإعداد الديني واللغوى ؛ لأن المعاهد الدينية الابتدائية إنما تستقبل داخليها وهم فى سن الثانية عشرة ، وهى السن التى ينتهى فيها الصبى من الدراسة الابتدائية العامة دون أن يأخذ من زمن الدراسة الأزهرية وقتاً كثر أو قل ، وإنما تكون مداركه وملكاته قد تهيأت لحفظ القرآن فى مدى السنوات الثانوية الخمس أو الست عن رغبة وفهم . ومن الذى يمنع مشيخة الأزهر أن تجعل حفظ القرآن فرضاً على كل طالب فى كل سنة من سنى الدراسة فى المدارس الثانوية الأزهرية وأمرها فى يديها ، وإعدادها منها وإليها ؟

٢ — إن المعاهد الدينية التى نقترح جعلها مدارس ثانوية بالمعنى الرسمى المعروف ستظل بالطبع تابعة للأزهر خاضعة لإدارته ، فله إذا شاء أن يزيدها سنة أو أكثر ، وأن يبدأ الدراسة الدينية واللغوية من سنتها الأولى ، على شرط أن يحافظ على مواد الثقافة العامة المقررة فى برنامج الوزارة من لغات وآداب وعلوم ورياضة ، وأن يتقدم طلابها المنتهون إلى امتحان التوجيهية العام ، ليكون لهم ما لسائر إخوانهم من ميزة الشهادة الرسمية ، ولتفتح لهم أبواب الوظائف التى أجملناها فى الاقتراح لحاملى الشهادة الثانوية . وإذن تكون مدة الدراسة الدينية واللغوية اثنتى عشرة سنة لا ستاً كما ظن الأستاذ .

٣ — لا خوف من طغيان المواد المدنية على المواد الدينية فى الدرس والتحصيل مادام الوقت متسعاً ، والأستاذ كفؤاً ، والكتاب مهذباً ، والمنهاج مستقيما ، وتوزيع المواد دقيقاً ، والإدارة حازمة ، والمراقبة يقظى ؛ فإن الوقت إذا أحسن استخدامه اتسع ضيقه ، والكتاب إذا حذف فضوله قصر طوله .

٤ — من المحال أن ينصرف التلاميذ عن المدارس الثانوية الأزهرية ؛ لأن الاقتراح يقصر وظائف تدريس الدين واللغة والأدب فى جميع مدارس الدولة والأمة على الأزهر ، فإذا أضيف إلى ذلك وظائف التحرير والترجمة

ومهنتا الصحافة والتمثيل ، كان الراغب فى ممارسة أمر من هذه الأمور محتوماً عليه أن يدخل الأزهر لأنه لا يستطيع بلوغه إلا عن طريقه .

وجملة الأمر أن الاقتراح يرمى إلى تجديد الأزهر وتوحيد التعليم على الوجه الذى يحفظ للأزهر طابعه وللأمة وحدتها . فإذا تجاذب الباحثون أطراف الرأى فى حدود هذين الغرضين ، استبان الطريق ، واتحدت الوجهة ، وتلاقوا جميعاً عند الغاية المقصودة لا محالة !

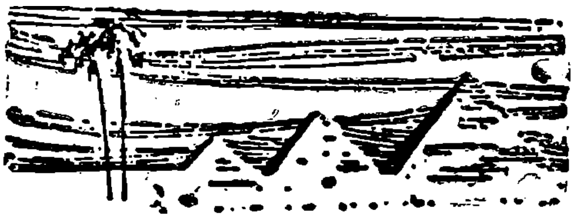

آفة الشرق هذا الغرب

(٢٠ مايو سنة ١٩٤٦)

يخيل إلىّ من هول ما أسمع وأرى أن هذا الغرب قد مُسخ حوتاً من حيتان الأساطير له رءوس أربعة قد فغر أفواهها جميعاً على الساحلين الأفريقى والأسيوى يريد أن يطبق فكوكها على العالم العربى بأسره ، وإنما عوق هذه الجلاقيم عن الازدراد هذا الخلاف الصاخب بين تلك الرءوس على الاقتسام كيف يكون ، وعلى الالتقام متى يبدأ ! و إذا تصورت أفواج السمك حين يسوقها التيار إلى جوف الحوت فتجزع وتضطرب ، تصورت أمم الشرق الصغيرة وقد روعها هذا الوحش الهائل وهى وادعة فى ظلال دينها ، قانعة بحلال الرزق من أرضها ، فتنظر إليه نظر المقضى عليه ، تستنجد بالعهود فلا تُنجد ، وتستغيث بالمواثيق فلا تغاث ، وترى بين منخَرى الحوت تشرشل جالساً وقد انقلب سيجاره الفخم بين شفتيه مدفعاً ضخماً يقذف بالحمم السود على أرض (العلمين) وعلى ظهرها ، وبفضلها كتب الله له المجد ولشعبه السلامة ! .

تشرشل هذا الذى وقف ذات يوم على الساحل البريطانى يستقبل الهزيمة الساحقة الماحقة من دنكرك وقلبه واجف ودمعه واكف ، يضرع إلى الله أن يثبت قدميه العجوزين المتخاذلتين أمام الإعصار النازى الجارف ليعيد نعمة الحرية إلى الناس ، ويقيم ميزان العدالة فى الأرض ؛ فلما تمت له المعجزة ، وقَتل هتلر كما قتلت البعوضة النمرود ، قام اليوم يدعو أمريكا إلى شركة أخوية بين الناطقين باللغة الإنجليزية تصوب أسهمها المراشة إلى كل دولة تطلب المساواة ،

وإلى كل أمة تريد التحرر ، لأن الذى ورث ملكوت هتلر وسلطانه ، يجب أن يرث كذلك عنصريته وطغيانه !.

تشرشل هذا الذى كان كلما لكمه هتلر بجُمْع يده الحديدية لكمة الموت ، خر فاقد القوة والوعى كالثور المنزوف ، فيدركه المرحوم روزفلت ، فيجلسه ويسنده ، ويمسح الدم عن وجهه ، وينفض التراب عن جسمه ، ثم ينضحه بالماء حتى يفيق . فإذا أفاق قام مترنحاً إلى الكنيسة يصلى ، أو إلى المذياع يستغيث ، أو إلى مجلس العموم يبكى ، أو إلى البيت الأبيض يستجدى ، أو إلى المحيط الأطلسى[1] يستوحى السماء رسالة العدالة الإجتماعية فتنزل عليه ألواحها المزيفة من سجيل ؛ هذا الرجل الذى نجا لأن عمره طويل ، وانتصر لأن جهده قليل ، يتبجح اليوم بالعصبية والامبراطورية والدومنيون ، ويألم أشد الألم لأن وزارة العمال قررت إجلاء الجنود الإنجليزية عن مصر بعد أربعة وستين عاماً جثمت فيها على صدرها المكروب فلا تنسم إلا كما ينسم المحتضر ، ولا تتحرك إلا كما يتحرك المبهوظ ! والمستر تشرشل يعلم كما يعلم كل الناس لماذا دخلوها ، وكيف احتلوها ، وكم سجلت مضابط برلمانهم العتيق وعود أسلافه بالجلاء عن بلد لم يملكوه بالفتح ولا بالإرث ولا بالهبة ، وإنما فرضوا لأنفسهم عليه (حق إرتفاق) بالمرور ، ثم جعلوا احتلاله واجباً لحماية هذا (الحق) ! ثم اختلفت الأسماء على هذا الاحتلال ، من الاستعمار المقنَّع ، إلى الحماية السافرة ، إلى الاستقلال الصورى ، إلى الصداقة الجبرية ؛ ولكن المسمى ظل فى جميع هذه الحالات واحداً ، وهو الوزير الذى يأمر فى (دوننج ستريت) ، والسفير الذى ينفذ فى (قصر الدوبارة) ، والأسطول الذى يهدد فى (مالطه) !

(١) إشارة إلى ميثاق الأطلسى .

حتى غيرت هذه الحرب الدنيا فغيرت عقول الناس ، وتبدلت وسائل القتال ، واختلفت أسلحة القتال ، وتغلبت مبادىء الاشتراكية ، وتأصلت فكرة الحرية ، واستحيا بنو آدم أن يظلوا على شريعة الوحوش يحكمون الأظفار والأنياب فيما يشجر بينهم من خلاف ؛ فاتخذوا (ميثاقاً) للأمم ، وألفوا مجلساً للأمن ، وأقاموا محكمة للعدل ، وطمعوا أن يقيموا العالم الجديد على هذه القواعد . ولكن تشرشل وسائر المحافظين لم يكونوا جادين يوم نادوا مع ترومان وستالين بهذه المبادىء ، لأنهم مطمئنون إلى براعتهم فى مماطلة الموت كلما طلع عليهم بمنجله الرهيب ! ومن يدرى ؟ لعل الموت الذرّى فى زيارته القادمة لا يقبل من المخادعين بعد ذلك مطلا ولا ختلا ولا فدية !

لقد كان الشعب الانجليزى بعيد النظر سديد الرأى حين دهور تشرشل وإيدن وأعوانهما عن كراسى الحكم فى صبيحة يوم النصر ؛ فإن من انتصر بالسيف لا يصالح إلا بالسيف ، ومن عشش الاستعمار فى رأسه وفرّخ فى نفسه لا يستطيع أن يؤمن بالديمقراطية والحرية إيماناً يحمله على أن يحبهما فى نفسه وفى غيره ، ويرجوهما لصديقه ولعدوه !

* * *

على أن عذر تشرشل فى موقفه من مصر ومن غيرها ناهض ؛ فإن الرجل ربيب العسكرية والاستعمار منذ درج ؛ ولكنك تكلف عقلك شططاً إذا حاولت أن تجد بعض العذر لموقف ترومان الرجل الشعبى من فلسطين ! ! لقد دس أنفه فى هذه القضية دساً ، لأن المقادير شاءت أن يكون له فى قضايا العالم رأى ؟ فهل فغمت أنفه رائحة العدل فيها ، أم سطع فى خيشومه عبير الذهب الصهيونى وهو يفيد فى الانتخابات والدعايات ، وينفع فى الحروب والملمات ؟

وماذا يضر إذا نافس الأمريكانُ الإنجليز فى إرضاء اليهود على حساب العرب

مادام الأمر لا يكلفهم إلا إيفاد (لجنة) تبحث وتحقق ، ثم إرسال (حملة) تنفذ وتطبق ؟ أما فلسطين فحسبها من العيوب والذنوب أنها شرقية ، وأنها عربية ، وأنها مسلمة ، فلم لا تكون مشاعاً بين أهل الديانات الثلاث ، ثم تُقطع إقطاعاً ليهود القارات الخمس ؟ ولا تسل بعد ذلك عن حرية الشعوب وحرمة الأوطان وقدسية الحقوق ؛ فإن ذلك كلام كان يقرر ويكرر وسيف هتلر مصلت على الأعناق ، وكابوس النازية جاثم على الصدور !

* * *

واستالين ، ما شأنه والوصاية على طرابلس ؟ هل كان يظن أن انجلترا تترك مفتاح (كرارها) فى يد القط ؟ إنها ترضى إذا حيل بينها وبينها أن تعود إلى إيطاليا لأن إيطاليا ريح لا تثير الغبار ؛ وحصى لا يعوق السائر ! فإذا سألت هؤلاء الذين يحكمون ويقسمون : لماذا تردون المسلوب إلى سالبه ، ولا تردونه إلى صاحبه ؛ أجابوك جواب المستعمر الخبير : إنا إذا أعدنا طرابلس إلى أهلها خرجت برقة من قبضة بريطانيا ، وأفلتت تونس والجزائر ومراكش من ربقة فرنسا ، وجعلها فى وصاية الجامعة العربية لا يختلف عن استقلالها فى الخطر الذى يهدد الجامعة العربية ؛ لأن الشرق مادام سوقا للاستعمار ظلت سلعه المباركة موضع المقايضة والمعارضة ؟ فإذا حررت رقاب العبيد ، وأغلقت سوق الرق ، انقلب المستعمرون إلى ديارهم خاسرين يقتل بعضهم بعضاً من الخوف ، ويأكل بعضهم بعضاً من الجوع ! والرد الذى تقتنع به عقلية الغرب ، إنما هو مجابهة العدوان بالعدوان ، ومواجهة القوة بالقوة . وليست الإشارة هنا إلى العدوان والقوة من القول الجزاف ؛ فإن قوتنا الفكرية متى ذهب عنها مركب النقص الذى اعتراها من طول ما ضامها المستبد وسامها الدخيل ، استطعنا أن نقول صادقين

لأى أمة من الأرض : لقد اجتمع رجالنا برجالكم فى مؤتمر الميثاق وفى مجلس الأمن ، فهل وجدتم فى عباقرة أوربا وجهابذة أمريكا من يفوق عبد الحميد بدوى ، أو محمود حسن ، أو حافظ عفيفى مثلا ، فى رسوخ القدم فى القانون ، وأصالة الرأى فى المشورة ، ومتانة الحجة فى الجدل ، ومقطع الصواب فى الحكم ، وأما القوة المادية ، فالعدد وفر ، والإيمان صدق ، والرأى جميع ، والعروة وثيقة . فإذا أعوزتنا الوسائل تبرع بها من يترقب هذه الفرصة ليكيد ، ويستعجل هذا اليوم ليستفيد !

وعينا القومي ينضج:
مثال على بردى، ومثال على الأردن

(٣ يونية سنة ١٩٤٦)

يخطىء من يقيس تقدم أمة أو تأخرها بما يشاهد من حال السابقين منها أو المتخلفين عنها؛ فإن من سبق إنما سبق بإعجازه، ومن تخلف إنما تخلف بعجزه. والإعجاز والعجز من الشذوذ لا يسبب حكما ولا يبنى قاعدة. إنما يصح القياس بحال الكتلة التي ظلت متماثلة في اللون والكثافة والحركة بعد أن انفصلت منها قطعة إلى الأمام، وانخذلت عنها قطع إلى الوراء؛ لأن هذه الكتلة تمثل القدر المشترك من الشعور والإدراك والوعى والقلق والطموح والاندفاع؛ فرأيها هو الرأى العام، وأمرها هو الدستور الحاكم، ووحيها هو السياسة القومية، وغضبها هو الثورة الوطنية، ورضاها هو السلام الدائم. والحكم على الأمة العربية — لمن يحلو له أن يحكم — يجب أن يكون بناء على هذا القياس أو الأساس، قائما على حركات كتلتها العجيبة التي مافتئت منذ مؤتمر فرساى تتقارب وتتضام وتتماسك وتتحد على الرغم من الأسباب المفككة والعوامل المهلكة التي ابتليت بها من سفه الأحزاب السياسية في الداخل، وطمع الدول الاستعمارية في الخارج.

كانت هذه الكتلة الممزقة فاقدة الوعى حين أراد (محمد على) إحياء الامبراطورية العربية؛ وكانت فاقدة الوعى حين ثار أحمد عرابى على العناصر الأجنبية، وكانت فاقدة الوعى حين دعا مصطفى كامل إلى الفكرة الوطنية؛ ولكن وعيها القومى أخذ يتنبه حين زلزلت الأرض قنابل الحرب العالمية الأولى، فثارت الجزيرة وسورية والعراق على استعباد الأتراك، وتمردت مصر على احتلال الإنجليز، واستجابت الأمة العربية جمعاء لدعاء الحرية هنا وهناك، وسارت وراء

قادتها بخطى الواثق المطمئن ، فأضلوها السبيل ، وأوردوها السراب ؛ ولكنها استفاءت من كلال السير ووعوثة الطريق وسعار الظمأ ، بصراً فى الوعى ، وقوة فى الموازنة ، وصدقاً فى التمييز ، وصحة فى الحكم ، فلم تكد الحرب العالمية الثانية تنطفىء حتى كانت أمام زعمائها تلهمهم فيقولون ، وتأمرهم فيفعلون ، وتوجههم فيتوجهون : ومتى عرفت الأمة نفسها ، وأحست نقصها ، وتبينت قصدها ، أبت على ولاة أمرها أن يدلسوا عليها الرأى ، ويموهوا لها الباطل ، ويقنعوها بما دون الحق .

وفيما يجرى الآن فى مصر وفى غيرها من الحوادث ، ويذيع فى المجالس والصحف من الأحاديث شواهد صادقة على اتساع الوعى القومى فى نفوس المصريين والعرب تثب فى عين المنكر إذا وازن بين ما كانوا عليه وبين ما صاروا إليه .

كان الساسة الذين احترفوا الوصاية عليهم يفاوضون فى أمورهم ، ويعاهدون على مصيرهم ، دون أن يحفلوا لهم برأى ، أو يرجعوا إليهم بخيرة ، وإن زعموا أنهم استشاروهم فأشاروا ، وخيروهم فاختاروا ! وهم اليوم يفاوضون تلك المفاوضة ويراجعون تلك المعاهدة ، ولكن الأمة هى التى وضعت المبادىء ، وحددت المطالب ، وأملت الخطوط ، وقدرت العواقب ؛ فليس لمفاوض أن يقوّلها مالم تقل ، ولا لحاكم أن يريدها على مالم ترد !

وهل نسيتَ يوم الجلاء فى سورية ؟ وكيف تنساه أذن الحى ولا تزال أناشيده وزغاريده تدوى فى سمع الزمان ! جلت جنود الاستعمار عن أرض سورية العزيزة فاهتز العالم العربى اهتزاز الغبطة ، واعتزّ اعتزاز النصر ، وشعر كل فرد من أفراده فى مختلف بلاده ، أن فريقاً من أهله تحرر من القيد ، وأن جزءاً من وطنه تطهر من المغير ؛ وأقبلت وفود الدول العربية تشارك دمشق فى الاحتفال بإقامة العرش الأموى بعد أن خرت قوائمه وابتذل حماه ، وقال العراق لمصر : ذلك يا أختاه هو الجلاء الذى يكشف الضر ، والاستقلال الذى يرضى الحر ، فمتى يكون لنا ولسائر أقطار العروبة مصير كهذا المصير ويوم كهذا اليوم ؟ !

ذلك مثال من أمثلة الوعى القومى العربى تجلى فى هذا الحادث الخطير صريحاً غير مشوب ، وصحيحاً غير مزيف ، فإذا وازنت بين موقف العرب من استقلال سورية ، وموقفهم من استقلال شرق الأردن ، فلن يخامرك بعد ذلك شك فى أن الأمة العربية الكريمة إنما تصدر عن وعى بصير ، وتنقل عن شعور صادق.

فاوضت انجلترا شرق الأردن مفاوضة (الند للند) ، ثم منحته (الاستقلال التام) ، وعقدت بينها وبينه (معاهدة الشرف والفخار) ، ثم رفعته من الإمارة إلى المملكة ، واحتفل إخواننا الأردنيون بمبايعة أميرهم المعظم عبد الله بن الحسين ملكا عليهم فزاد ملوك العرب ملكا ، وزادت ممالك العروبة مملكة . وكان هذا النبأ العظيم عن هذا النصر الأعظم جديراً بأن يزلزل النفوس من الفرح ، ويبح الحناجر من الهتاف ، ويدمى الأكف من التصفيق ، ويحشد جيوش العرب فى ميادين عمان ، ويدعو شعراء العرب إلى منابر عمان ؛ ولكن هذا النبأ العظيم سرى به البرق ، وتموّج به الأثير ، وكأنما ضرب الله على الآذان فلم تسمعه ، وختم على القلوب فلم تتفتح له ! واحتفلت عمان وَحدها بيومها التاريخى المجيد احتفالا رسمياً لا روعة له ولا بهجة فيه . ذلك لأن العرب الذين لا ينفكّون يسخرون من احتقلال [1] مصر ، ويهزأون باستقلال العراق ، قد سئموا هذه المظاهر الكاذبة ، وأنكروا هذه الألفاظ الفارغة ، وكبر عليهم أن يشاطروا انجلترا السرور باقتلاذ قطعة من الوطن العربى لا يزيد عدد سكانها على خُمس سكان القاهرة ، لتجعلها وكراً للاستعمار يثب منه متى شاء علينا أو على من حوالينا من الأمم المطمئنة الوادعة .

أليس الوعى القومى هو الذى جعل العرب يميزون بين استقلال سورية واستقلال شرق الأردن ! أليس الوعى القومى هو الذى جعل لانجلترا من

---

(١) كلمة نحتها المرحوم الأستاذ وحيد الأيوبى من كلمتى : احتلال واستقلال .

جامعة الدول العربية ما جعل لآل فرعون من موسى بن عمران ؟ آووه وتبنوه ليكون ظهيراً للكفر ، ونصيراً للظلم ، ووزيراً للاستبداد ، فكان لهم نذيراً من الله ، وداعياً إلى الحق ، وبشيراً بالحرية ؟

بلى ، هو الوعى القومى الذى تيقظ واستبصر فى نفوس العرب من ملوكها ورؤسائها ، إلى سوقتها ودهمائها . ولن تجد مصداقاً له ولا دليلا عليه أبلغ من هذا القلق الذى يساور كل نفس ، وهذا الامتعاض الذى يرتسم على كل وجه ، وهذا الانتفاض الذى يجرى على كل لسان . كل أمرىء يريد التغيير وينشد الكمال ويطلب الأحسن . وكل امرىء يحاول أن يفرق بين رجل ورجل ، ويميز بين عمل وعمل ، ويوازن بين مبدأ ومبدأ .

بلى ، هو الوعى القومى الذى يذكِّر العرب اليوم أنهم خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتسارع إلى الخير ، وتتعاون على البر وتتناصر فى الشدة ، وتأبى إلا أن تتبوأ مكانها الأول من قيادة الإنسانية . ذلك الوعى القومى هو ضمان للنهضة العربية من الانتكاس والردة ، وأمان للسياسة العربية من الغش والخديعة ، ووقاء للوحدة العربية من الشتات والفرقة . فمن يحاول بعد اليوم أن يقود الأمة العربية قيادة القطيع ليَذبح ، أو يسوسها سياسة الخيل ليركب ، نبتْ فى يديه كما ينبو المارد فى يد الرجل إذا انطلق من حبسه ، وامتنعت عليه كما يمتنع الثور على الطفل متى شعر بنفسه .

من مخلفات الحرب
هذا الطبلاوي أفندي !

(١٧ يونية سنة ١٩٤٦)

تخلّص الإنجليز والأمريكيون من أوزار الحرب التي انقطع منها النفع ، فباعوا كل ما تركت من شيء حتى القنابل المحشوة ! وأقصوا كل ما خلّفت من شخص حتى تشرشل الجبار ! ونحن في مصر لا نزال نعاني من مخلفات هذه الحرب وجرائرها ما يرمض الجوانح ويقُض المضاجع .

لا أريد بمخلفات الحرب هؤلاء الجنود الغرباء الذين يملأون الدور ويزحمون الشوارع ، ولا هذه الضرائب الاستثنائية التي تقصم الظهور وتقوض المصانع ، إنما أريد أثرياء الحرب الذين يُفحِشون أسعار الخبز واللحم والفاكهة على الفقراء في العواصم ، ويرفعون أجور القصور و (العشش) و (الكابينات) على الاغنياء في المصايف ، ويخفضون مستوى الخير والحق والجمال والذوق والفضيلة في جميع الأماكن ! أكثر هؤلاء ظمام ربّوا في أحجار الفاقة ، ودرجوا في أكواخ البؤس ، وأعوزتهم التربية الدينية التي تجمل الفقر بالزهد ، والثقافةُ المدنية التي تلطف الشقاء بالأمل ، فشبوا على غرائزهم الأصيلة ، يحتالون عند العجز احتيال الذئاب ، ويفترسون عند القدرة افتراس الأسود ، وهم بين أحوال العجز والقدرة يكابدون آلام الشوق المليحّ المحرق إلى المال في يد الغني وفي بيوت التجار ، وإلى اللحم في جسد المرأة وفي حانوت الجزار ، ويحاولون ما استطاعوا أن يطفئوا هذا السُّعار القاتل بالسرقة والقمار والتدليس والاحتيال والغش ، فلم يزدهم هذا الري إلا ظمأ ، ولا هذه المتعة إلا حسرة .

فلما أوقد المستعمرون نيران الحرب الأخيرة في بقاع الدنيا فأكلت شباب

الأمم ، وأهلكت ثمار الأرض ، ونقصت نتاج الناس ، قيدت المعاملات ، وحُدِّدت الأرزاق،فوجد هؤلاء الشرهون الجياع أن الانطلاق من هذه القيود إلى الحرام المشتهَى والثراء المرجوّ ، أسهل على نفوسهم من تكاف العفاف وإضاعة الفرصة ، فاحتكروا السلع ، وأغلوا الاسعار ، وطففوا الكيل ، وأخسروا الميزان ، وأقاموا فى ظلمات الطرق وفى كهوف الأرض سوقاً سوداء يستغلون فيها عُرى الفقير وجوعه ليسلبوه ما تجمع فى يديه من ثمن عرقه ودمه . وظلت الحرب بضروراتها وشواذها تركم على أجسادهم اللحم والشحم ، وتكدس فى خزائنهم الأوراق والأرزاق ، حتى أصبحوا فى المجتمع المصرى طبقة متميزة لها طابعها الخاص وسمتها الفرد ، وهندامها العجيب ، وحياتها التى أصبحت للتصوير الهازل والصحافة الفكهة مدداً لا ينقطع ومنبعاً لا ينضب ! .

أسخطنى على هذه الطبقة الجديدة قصة سمعتها عن أحد أعيانها البارزين سأقصها عليك ، وليست هذه القصة أول القصص ولا آخرها،فإن أغنياء الحرب ينفجرون كل يوم من فرط السمن والانتفاخ ، فيكون لهم من الشظايا والضحايا ما لهذه القنابل التى لا نزال نسمع انفجارها فى الطرق أو فى الملاهى !

استزارنى يوم الأحد الماضى صديقى الأستاذ (ج) فى دارته[1] الجميلة بالدقى فزرته فى وقت الشاى ، وكانت الشرفة التى اختارها لجلوسنا تنظر إلى دارة تقابل دارته ، إلا أنها أوسع وأرفع وأفخم ، ولكن أنماط الناس الذين يدخلونها أو يخرجون منها أو يحفون بها لا تأتلف مع جمالها ولا ترتفع إلى مستواها . دع هذا الصياح الذى يتفجر فيها ، والزياط الذى ينبعث منها ، فربما كان أصحابه

(١) الدارة : خير ما وضع من الألفاظ للفلا Villa

الدارة غائبين والخدم يتنفسون عن حريتهم المكظومة بهذا الهرج . فسألت صديقى من باب الكلام الذى لا يُقصد به إلا تحريك اللسان قطعا للصمت أو فتحاً للحديث .

لمن هذه الدارة الفخمة ؟

فابتسم صديقى وقال وهو يشير إلى امرأة تجلس وحدها على مائدة من مقاعد حديقته :

لهذه المرأة !

ونظرت إلى المرأة التى أشار إليها فوجدت جسما كالخيال دقيق الشبح معروق العظام تستره ملاءة لف من الطراز الذى كانت تلبسه الخادمات قبل أن يصبحن (أرتستات) حرب ! فقلت لصديقى وأنا أبتسم كما يبتسم : ماذا تعنى ؟ فقال : إنما عنيت ما قلت ، وهو أن تلك الدارة لهذه المرأة ، وهى مع ذلك لا تجد اللباس ولا تملك القوت ولا يمر أسبوع دون أن تزورنى مرة أو مرتين لألتمس لها من جانب هذا الثراء الضخم فضلة من الرزق تمسك الرمق وتديم العفة ، ولكن !

— فقلت له والتعجب يترقرق فى عينى ووجهى : لم أفهم ماتريد فماذاتعنى؟

— فقال بلهجة الجد: أعنى أن هذه المرأة هى زوجة صاحب هذه الدارة وهو فلان الغنى الذى يسميه الناس (الطبلاوى أفندى) لأن بطنه المنتفخ المتسع المستدير يجعله أشبه بضارب الطبل العظيم حين يحمله على صدره . كان هذا الرجل فقيراً غير شريف ، ووضيعاً غير متواضع، تزوج وهو فى تلك الحال من هذه المسكينة فولدت له خمس بنات وثلاثة بعين أكبرهم كما تقول هى لا يبلغ الرابعة عشرة . وكانت تعيش معه هى وأولادها على الكفاف . تساعده فى حدود ماتستطيع بالعمل والتدبير والتقتير والقناعة، وتحتمل سرفه ونزقه بالصبر والإغضاء والنصيحة،

حتى أدركته (نعمة) الحرب فى سنتها الثالثة ، فوصلت حباله بحبال المتعهدين لجيوش الحلفاء بالمواد الغذائية فشاركهم فى الجمع والتوريد، وانفرد عنهم بالمصانعة والمهاواة ، حتى استطاع بجرأته بعد قليل أن يدخل على رؤساء العمل الإنجليز من الباب الخلفى ، فعاملهم بالغش ، وشاركهم فى الربح ، واستعان بهم على إخراج المحظور من السكر والرز ، وإدخال الممنوع من الحشيش والأفيون ؛ فتساقطت على رأسه وقفاه رزم (البنك نوت) تساقط البَرَد الغليظ ، حتى اجتمع له فى نهاية الحرب ربع مليون جنيه !

ومنذ رحلت جيوش الحلفاء خلع الطبلاوى رداء العمل ، وحشر نفسه فى صفوف المترفين والعِلية فلفّف جسمه بالحرير ، وختّم أصابعه بالماس ، وعدّد الألوان الفاقعة فى بدلته وحذائه ؛ ثم خلى جسمه المنهوم يضخم ويسترخى وينبعج جانباه ، وترك شاربه الخشن يغلظ وينتفش ويطول سِبالاه ؛ ثم اقتنى الضياع والعقار ، وركب الرُّلزرايز والبكار . وكان يطلب الأغلى من كل صنف ، والأعلى من كل شيء . حتى تحدث الظرفاء عنه بأنه استشار الطبيب فى مرضه فأشار عليه باستعمال فيتامين بيه (B)،فقال له: ولم لا تشير علىّ باستعمال فيتامين باشا ؟ وأنه طلب إلى مصور أن يرسمه فسأله: أتريد الصورة بالزيت؟فقال له: كلا، بل أريدها بالسمن . وأن طبيب الأسنان أراد أن يصنع لأحد أضراسه المنخورة غلافاً من الذهب ، فطلب إليه أن يصنعه من الماس ! ثم سكن هذه الدارة وألقى زمامه فى يد الغاوين من رواد اللهو وسماسرة الفجور ، فجعلوا له من كل غرفة مأخوراً ، ومن كل ردهة مرقصاً ، ومن كل بهو حانة .

وأعجب ما فى الأمر كله أن صورة بيته القديم كصورة ماضيه العظيم قد انمحت من ذاكرته ، فلم يعد يذكر عنوان بيته ولا سكانه ولا جيرانه ، كأنه لم يستقبل الحياة ولم يبصر الدنيا إلا سنة ١٩٤٥ ! وهاهى ذى امرأته على الحال التى

ترى ، تأتى كلما دفعتها الحاجة لتتوسل بى وبغيرى إلى هذا الوغد ليرمى إليها من وراء السُّور من فضلات الفوانى وفتات الموائد ما يمسك الحياة عليها وعلى أولاده ؛ وهذا إن لم ينقص فلن يزيد .

فهل كنت تظن قبل هذا الحديث أن فى خلق الله أمثال هذا الرجل ؟

فقلت له : والله ياصديقى لو كان المحدّث غيرك لاتهمته بالتزويق والتزوير ، ولما صدقت أن يكون فى بنى الإنسان هذا الخنزير !

لمن الملك اليوم؟
نبوءة من غير نبي!

(٦ يناير سنة ١٩٤٧)

يعيش جارنا طاهر افندى الكاشف بعد خروجه إلى المعاش عيشة الصوفى المتبتل، يتعبد النهار، ويتهجد الليل، ويزجى مابقى من فراغه بمطالعة الصحف ومتابعة السياسة ومراقبة الحوادث. وقد آتاه الله ألمعية عجيبة يستشف بها حجاب الغيب كأنه رسول ينطق عن الوحي؛ فلا يتظنن إلا تحقق ظنه، ولا يتكهن إلا وقعت كهانته. وكثيراً ما يرى فى المنام أموراً لا يلبث أن يراها فى اليقظة. وربما أخذته حال من الذهول عن الوجود الخارجى تنفذ بصيرته فيها إلى غيابة المستقبل، فيكون كما يقول أشبه بالصبى الذى ينظر فى فنجال (المندل) يرى ما لا يُرى، ويسمع ما لا يُسمع!

قص على فى صباح هذا النيروز (١) رؤيا من رؤى يقظته لم أجد كلاماً خيراً منها أجعله مقدمة لهذا العدد وفاتحة لهذا العام. قال: كنت فى الساعة التى تفرق بين عام وعام فى تقويم الزمن، وتفصل بين فصل وفصل فى رواية الحياة، قائماً فى غرفتى أصلى ركعتين لله توديعاً لعام قضى، واستقبالا لعام أهلّ. وكان الجو المتماطر (٢) القار قد حبس الناس فى الدور فلا أسمع فى الشوارع المحيطة صوتاً ولا حركة، فوجدت نفسى من جلال الساعة ورهبة الوحدة وعمق السكون، كأنما تنسرح من ثوبها المادى وتندمج فى الروح العام والشعور المطلق، ثم تغيب فى طوايا المجهول، وتصفح كتاب الغد ورقة بعد ورقة، حتى تقع على عنوان من

---

(١) النيروز: أول يوم فى السنة الشمسية.

(٢) المتماطر: الذى يمطر ساعة ويكف أخرى.

الدم معقود على ما سجلته يد الأقدار من قضايا الدول ومصاير الشعوب، فتحدق إلى العنوان، وتدقق فى السطور. ثم خيل إلىّ وأنا مغمض العينين أنى أرى نقطة مربعة من النور تنداح فى الحماليق [1] وتنبسط حتى تصير فى مثل الصحيفة الكبيرة، وأنى قرأت فى هذه الصحيفة كلاماً كنت فى أكثر الأيام أفكر فى بعضه، وقد وعته ذاكرتى حتى لأستطيع أن أؤديه إليك الآن على سرده، فقلت له أعد علىّ بعضه إن شئت. فقال. اجعل بالك إلىّ. ثم انطلق يتلو عن لوح قلبه :

« قال (جون بول) الماكر لصديقه العم سام الطيب بعد أن غسلا أيديهما من دم التنين الألمانى وحمدا الله على السلامة : ما هذا الدب الروسى الذى لجّ فى الخلاف وأصرّ على العناد حتى كدر بجموحه صفو السلام، وزوّر بطموحه معنى النصر؟ ألسنا بما جاهدنا فى سبيل الحرية والحق والعدل أولياء الله وخلفاءه، جعل إلينا وراثة الأرض، وكتب علينا سياسة العالم؟ فما سكوتنا إذن عن هذا الدكتاتور الآخر؟ فقال العم سام وقد تذكر أن استجابة رزفلت لتشرشل قد كسبته نصف الدنيا : من الطبيعى أن ينبو علينا هذا الوحش ما دام طعامه غير طعامنا، وكلامه غير كلامنا، ومرامه غير مرامنا، ونحن خليقان أن ننظر فى أمره. فما عندك من الرأى؟

قال جون بول وهو ينفض بيبته على كعب حذائه : الرأى عندى أن نتغدى به قبل أن يتعشى بنا. وسأضع بين يديك موارد الإمبراطورية، لتضمها إلى موارد الجمهورية، فيكون منها جميعاً ذلك السلاح الذرى الخفى الذى يمحو روسيا والروس فى يوم أو بعض يوم وحينئذ نقسم الكرة بيننا قسمين بالطول

---

(١) الحماليق : بواطن الجفون .

أو بالعرض كما تشاء ، وأترك لك أن تختار إما غرب جرينتش أو شمال خط الاستواء !

وكان الدب فى الوقت نفسه يقول لخليفة استالين : ما هؤلاء الذئاب الذين لبسوا مسوح الرهبان حتى سلموا وأمنوا ، وولغوا فى دماء المغلوبين حتى بشموا وسمنوا ، وظنوا أن قذائفهم الذرية مانعتهم من الله فبغوا بغى (موسو) ، وطغوا طغيان (هتلر) ؟ إن رسالة الشيوعية إعتاق الإنسان من رق الإنسان. ولن يزول من الأرض استعباد الأفراد برأس المال ، واستعباد الأمم فى سبيل المال ، مادام على ظهرها ناطق بالانجليزية . ومن المحال أن يتحالف الخير والشر ، ويتآلف الصلاح والفساد . فسبيلنا إذن أن نعمم رسالتنا ، ونتمم إنسانيتنا فنبيد هذه الجراثيم بما هيأه لنا الله من قوى المال ومعجزات العلم فيطهرُ الكون ويصلح المجتمع .

وما هى إلا مواضعة الرأى بين رب الشيوعية وزبانيتها حتى انبثت عيون الروس فى مخابىء انجلترا وأمريكا تبحث عن أوكار الطاقة الذرية . وفى ساعة من ساعات الليل الكافر أرسلت عليها صواريخ روسية ألمانية لم يصل إليها العلم السكسونى بعد . فزلزلت الأرض كلها بضع ثوان ، ثم سكن الزلزال وسكن معه كل حىّ وانقضّ به كل قائم .

وأصبح الصباح الأغبر الدامى فإذا العالم قد أسلم وجهه لقوة واحدة ، وإذا عملاق أصلع من عماليق موسكو يخرج من الكرملين كما يخرج العفريت من القمقم ، فيطول ثم يطول حتى يضع رجلا فوق لندن ، وأخرى فوق وشنطن ؟ ثم يقول وقد ازدهاه النصر وتملكه الفخر : لمن الملك اليوم ؟ فلا يجيبه فى الغرب أحد ! ولكنه يطلع أمامه فيرى شفقاً من سنا الشرق يغشى بلاد الإسلام من مراكش إلى تركية وإيران وأفغانستان وباكستان وقسم عظيم من

ملكوت الصين ، وقد تألقت فى جنباته المآذن والقباب ، وأشرقت من خلاله وجوه تمجّ أفواهها النور ، وتشع أعينها الأمل . وتجيب ألسنتها بصوت واحد تجاوبته الأرض ورددته السماء : الملك لله الواحد القهار ! ثم يعلو من بين هذه الوجوه وجه ترمقه الدول العربية ، وترقبه الأمم الإسلامية ، حتى يواجه العملاق الذاهب بنفسه ، ثم يقول له : ألست تزعم أن لك رسالة تشيع وسائل العمل بين العمال ، وتفك رقابهم من أغلال رأس المال ؟ إن هذه الرسالة آية واحدة من آى الرسالة الإلهية المحمدية شوهتها نقائص العقل البشرى بما دسّ فيها من إفراط وإقساط وتهور . وليس من المعقول أن يسعد الفرد وتصلح الأمة وترقى الإنسانية بإلغاء الوساطة الطفيلية بين المنتج والمستهلك وهى مشكلة واحدة من مشكلات الحياة . هناك علاقة الفرد بنفسه وقد تركتموها كعلاقة الآلة بالمحرك عليها أن تعمل ولها الوقود والزيت والشحم . وهناك علاقته بأسرته وقد جعلتموها كعلاقة الفرّوج بالفرّوج فى معامل التفريخ الصناعى لا يعرف حنوّ الجناح ولا يدرك نعيم القرّ . وهناك علاقته بدولته وقد رددتموها كعلاقة قطع الشطرنج باللاعب ينقلها من خانة إلى خانة ولا إرادة ولا وعى . وهناك علاقته بربه وقد قطعتموها فانقطع نور الوحى عن ضميره وعقله . وبمثل هذه العلائق الواهنة لا يتماسك مجتمع ولا يترابط شعب ، فاذا كنت صادقاً فى دعواك ، مخلصاً فى دعوتك ، فاقتبس للعالم الجديد شريعة الإسلام ؛ فإنها وحدها هى النظام الذى يحقق الوحدة الإنسانية : يؤاخى بين الناس كافة فى الروح والعقيدة لا فى الجنس والوطن ، ويسوى بين الإخوة جميعاً فى الحقوق والواجبات فلا يميز طبقة على طبقة ولا جنساً على جنس ولا لوناً على لون ؛ ويجعل للفقير حقاً معلوماً فى مال الغنى يؤديه إليه طوعاً أو كرهاً ليستقيم ميزان العدالة فى المجتمع ؛ ويجعل الحكم شورى بين ذوى الرأى فلا يحكم طاغ بأمره ، ولا يصر مستبد على غيه ؛ و يأمر معتقديه بالإقساط

والبر لمن خالفوهم فى الدين وعارضوهم فى الرأى ؛ و يوحد بين الدين و الدنيا ليجعل للضمير السلطان القاهر فى المعاملة ، وللإيمان الأثر الفعال فى السلوك .

عندئذ يتصاغر عظموت العملاق و يتقاصر طوله ، ثم يقول فى استسلام و إسلام : تلك مبادىء الفطرة ؛ فإذا كانت هى مبادىء الإسلام فسيدخل فيه الناس بالطبع ، و يعتقدونه بالضرورة ، كلما تقدم العلم و ترقى العقل وتهذب الخلق وصحت المعرفة !

من مذكراتي اليومية

يوم الأحد ٢٣ فبراير سنة ١٩٤٧ :

اختلف أطبائى الخمسة فى شرح مابى ، ولكنهم اتفقوا على أن أذهب إلى حلوان فأنقع فى هدوئها ودفئها أعصابى وأوصابى . ففى صباح هذا اليوم العابس القر انتقلت إلى هذه المدينة ونزلت فندقاً من فنادقها الكبرى ، ثم قطعت ما بينى وبين دنيا الناس فلا أشغل ذهنى بفكر ولا يدى بعمل . هذا الفندق الغريق فى الضوء والسكون أشبه الأشياء بالدير الجبلى فى روعته الأخاذة ووحشته القابضة ؛ وهؤلاء النازلون به المستشفون فيه أشبه الأحياء بالرهبان المنقطعين فى معيشتهم الرتيبة وعزلتهم الرهيبة ، إنه كالدير فى غير بساطة ولا زهادة ؛ وإنهم كالرهبان فى غير ورع ولا عبادة . هم أزواج ومزاج من جاليات الأمم الذين انتجعوا مصر انتجاع البدو منابت الكلأ ومساقط الغيث ، ففيهم اليونانى والطليانى واليهودى ، وفيهم كذلك خلق عجيب من جيراننا الأدنين يلبسون القبعة حتى لا يقال إنهم مصريون ، ويتكلمون الفرنسية حتى لا يتهموا بأنهم شرقيون . وأكثر هؤلاء الأخلاط كهول وكهلات يشكون ذات الصدر أو وهن الأعصاب أو وجع المفاصل أو داء الملوك ؛ فمنهاجهم اليومى أن يغدوا إلى العين الكبريتية فيستحموا ، أو إلى العين المعدنية فيشربوا . فإذا متع الضحى رجعوا فرادى وثُناحى يتجمعوا حِلقاً حول الموائد تحت مظلات الحديقة وفوق شرفات الفندق . فهنا جماعات العجائز السمان والعجاف جلسن يثرثرن وفى أيديهن إبرة الحياكة تدخل وتخرج ، وفى أفواههن آلة الغيبة تتحرك وتمرج ، فلا يزلن معظم النهار بين أيد تحوك ،

وألسنة تلوك ، وأهدافهن أعراض أولئك الحسان القليلات اللائى جلس متفرقات يهدهدن أجسامهن وأحلامهن على الكراسى الوثيرة الهزازة .

وهناك جماعات الكهول الثقال والخفاف يتراطنون بفضول الكلام وغث الحديث ولؤم الوقيعة ، وكل منهم يتغفل عجوزه المراقبة من بعيد ليخالس النظر إحدى أولئك الجميلات المنفردات فلا يرى منها بالا يعى ولا طرفاً يجيب !

كان مرضى يمنعنى القرار فى مكان واحد ، فكنت أسترق السمع حيناً إلى جماعة النساء ، فلا أجد حديثهن يخرج عن أن هذه الفتاة الداخلة عشيقة الغنى فلان تاجر القطن وقد أخفاها عن زوجه فى هذا الفندق ، وهو يزورها من الإسكندرية كل أسبوع فيقضى معها الليلة أو الليلتين ؛ وأن هذه المرأة الخارجة أرملة لعوب وصلت أسبابها بالمرابى الأرمل فلان ، فهو يلقاها كل عصر فى (دار الينبوع) أو فى (الحديقة الصينية) ؛ وأن هذه المستلقية على الكرسى الطويل يهودية بذلت سريرها لصديق زوجها فانتحر الزوج وأفلس الصديق ، وهى الآن فى حضن صاحب سينما .

ثم أسترق السمع حيناً إلى جماعة الرجال فلا أجدهم يخوضون إلا فى الهجْر والنكر ؛ ففلان أثرى بالسرقة ، وفلان يتجر بالفحش ، وفلان قضى بهذا الفندق شهرين ثم لم يعط الخدم يوم سافر إلا قرشاً صاغاً كان من نصيب الخادم الذى حمل له الحقائب ، فإذا أفضى بهم الحديث إلى قضية المصريين والإنجليز مطوا الشفاه ، وعوَّجوا الأفواه ، وقاءوا على أنفسهم خلطاً أسود من الغمز بنا والطعن فينا ، وأخونا الشرق المقبع الذى يناقلهم الحديث لم يرد أن يقول لهم ولنفسه « حسبكم ! فإن لحم أشداقكم التى تلوونها بالبذاء ، وشحم أعناقكم التى تثنونها بالكبرياء ، هما من ضيافة هذه البلاد ! » ولكن المجتمع الأجنبى هنا كما كثر

المجتمعات الأجنبية فى كل مكان : نسيج من عمل الشيطان ، لحمته الجناية على الأخلاق ، وسداه الزراية على مصر .

حلوان فى يوم الجمعة ٢٨ فبراير سنة ١٩٤٧ :

زوجة مدير الفندق يوغسلافية حسناء ، يحلو لها أن تلبس فى ساعة العمل القميص الرياضى الأبيض ، والبنطلون الرمادى الطويل ، وأن تسرح شعرها وتصففه على الأسلوب الغلامى الفاتن فتكون أشبه الناس بأبناء الذوات حتى فى العقوين الجميلين المكوّرين فى أعلى البطن وفى أسفل الظهر. ثم يعجبها ويعجب الناس أن تمشى المبخترة فى الشرفة أو فى الردهة أو فى البهو ، فتوزع التحيات والبسمات على من تعرف ومن لا تعرف من نزلاء الفندق . فأينما تمر ينبثق منها على القعود الخمود أشعة من الصبا والفتوة ، فلا تجد غافياً إلا صحا ، ولا غافلا إلا وعى ، ولا مغمضاً إلا فتح عينيه ، ولا ساكناً إلا رفع يديه ، ولا شيخاً إلا تمنى أن تقف لحظة على طلله فتسأله كيف أمسى وكيف أصبح !

كانت تصدُّ عامدة عن الشباب أو أشباه الشباب حتى لا تُفسر نظراتها وبسماتها بغير المجاملة التى تقتضيها طبيعة عملها من مواساة المريض ومؤانسة الوحيد ومباسطة المنقبض ؛ ولكنها كانت تؤثرنى بقسط موفور من هذه المجاملة الغزلة ، وتعلل هذا الإيثار بأننى مصرى وهى ترتاح لهذا الجنس ، وبأننى حيى وهى تطمئن إلى هذا الخلق .

أقبلت علىّ ضحى اليوم إقبال الربيع فى لونه وحسنه وعطره . وكان المرض ساعتئذ قد أحرج صدرى وأفرغ صبرى وتركنى لا أتقارُّ من الضجر ، ولا أتفرَّج من الضيق . فلم تكد تحيى وتجلس حتى أحسست فى جسمى ذلك الخدَر العجيب الذى يسكن الألم ويحرك النفس . ثم أخذت تساقطنى أعذب الحديث حتى جرى ذكر هذه الطغمة التى تنعم بخير مصر وتنكره ، وتنتشى برحيق النيل ثم تعكره .

فقالت لا تعجب أن يجحد هؤلاء اللئام فضل مصر ؛ فإن منفعتهم قائمة على أن تظل موسومة بالعجز موصومة بالجهالة ! لقد خالطت بحكم عملى أنماطاً شتى من الأجناس فلم أجد أنبل فطرة ولا أسجح خليقة ولا أندى راحة من المصرى الأصيل القح . أتذكر ذلك الرجل البذىء الذى كنت تجادله بالأمس فى مشكلة فلسطين ؟ إنه أغنى أرمل فى يهود الإسكندرية . ومع ذلك طمع يوم نزل الفندق أن ينام دون أن يأكل ؛ فلما أبينا عليه ذلك اتفق مع يهودية مصدورة تقيم فى إحدى الغرف المفروشة على أن تشترى غداءه وعشاءه بستين قرشا ؛ ولها فوق البيعة أن تتمتع بشمس الفندق وحديقته وأثاثه وحفلاته ؛ وبذلك ينام هو بستين قرشاً ويأكل بعشرين ، وتنام هى بعشرين قرشاً وتأكل بستين ! فأين هذا الشحيح القذر وأمثاله منك وأنت لا تكاد تأكل خمس ما تنفقه ، أو من المصرى الآخر م . باشا ، وطعامه يأتيه كل يوم من داره فيفرقه ؟ إن المصرى سمح سهل ، لا يساوم فى (تعريفة) الأجرة حين تعرض عليه ، ولا يراجع قائمة الحساب يوم تقدم إليه .
فقلت لها . من هنايا سيدتى جاءته الخيبة ! فلو انه كان بخيلا لاستدروا بالتقبيل كفه ، ولو أنه كان فظاً لاستماحوا بالتدليل عطفه !

حلوان فى يوم الاحد ٣ مارس سنة ١٩٤٧ :

ذهبت صباح اليوم إلى نبع حلوان الجديد فإذا عليه أمة من الناس يستقون ويشتفون ، بعضهم من مخلفى الجيش ، وبعضهم من مرفهى العيش ، وكلهم من الممعودين أو المكبودين أو الممرورين (١) فلا تعرف فى وجوههم نضرة الشباب ، ولا على جسومهم بضاضة العافية .

انبجس هذا النبع منذ سنوات فى هذه البقعة التى انطمس فيها معنى الوجود فلا حياة ولا موت ، ولا سكون ولا حركة ، ولا أمس ولا غد ، فأصبحت بعد

---

(١) الممرور : من هاج به خلط المرارة .

نبوع هـذا النبع وما جر إليهـا من النفع ، مهوى الشعراء ومرَاد الأصحاء وَملاذ المرضى !

كذلك بنو آدم والدنيا ! جنادب[1] فى أجادب ! فلولا الينبوع الذى ولد الواحـة ، والنهر الذى خلق المملـكة ، والنبى الذى منح الجنادب أجنحة الملائـكة ، والحاكم الذى وهب الأجادب خصب الفراديس ، لما أخلد بعض إلى بعض ، ولما امتازت أرض من أرض !

الأرض لولا الرياض واحدة   والنـاس لولا الفعال أمثال[2]

تقطع الناس فرقاً حول الينبوع يتساقون أقداحه الفاترات العِذاب . وقد لاحظت أن الذى قسم هذا الجمع إلى هذه الفرق إنما هو الدين لا الجنس ولا الوطن ولا اللغة ، فاليهودى مع اليهودى ، والمسيحى مع المسيحى ، والمسلم مع المسلم . ينظرون إلى الماء بعين واحدة ، وينظرون إلى السماء بعيون متعددة ! فأين هذا من اجتماع الحجيج حول زمزم ؟ إنهم هناك يجتمعون على ينبوع من الإيمان القوى المتحد يجرى فى أفواههم دعاء وأملا ، ويسرى فى دمائهم شفاء وقوة .

ذلك ما أكدلى للمرة السبعين أن الدين أقوى العوامل الروحية والاجتماعية أثراً فى توثيق العلائق بين معتقديه ، وتوهينها بينهم وبين منـكريه ، فإذا شاء ربك أن يجعل الناس أمة واحدة أرسل إليهم ذلك الرجل المنتظر فيجمعهم بالرضا أو بالـكره على الدين الذى يكفل التعاون بالمؤاخاة ، ويضمن العدالة بالمساواة ، ويحفظ الـكرامة بالحرية ، ويرفع الإنسانية بالإيثار ، فإذا ما تم له ذلك عمد إلى سماسرة الدين وتجار السياسة وعباد الطمع فأقام لهم المشانق فى الساحات العامة من المدن المقدسة . يومئذ تنـكسر حدة العصبية ، وتنقمع شهرة المنافسة ،

(١) الجنادب . صغار الجراد .

(٢) الفعال بالفتح : الـكرم الخير .

وتنقطع أسبابَ الحرب ، ويغنى الناس عن هذه المؤتمرات والمجتمعات التى يقيمها ذؤبان البشر للحرية والديمقراطية وهى فى الواقع أسواق دولية للرقيق تباع فيها الأمم الصغيرة بالمساومة أو بالمزايدة !

* * *

الينبوع وميدانه الرحب ، وفندقه الفخم ، وحديقته المنمقة ، ومشربه الريان ، ومسبحه العريان ، تعج بالناس ولكنى وحيد . والسماء الصحو ، والنسيم الفاتر ، وسفح المقطم الحادر الضحيان ، وشاطىء النيل الأشجر الفينان ، تغرى كلها بالنشاط ولكنى مريض . وليس للوحيد المريض إلا أن يعود إلى مثواه عسى أن يجد فيه لساناً حلواً فى فم جميل يؤانسه ، أو قلباً طيباً فى صدر نبيل يواسيه !

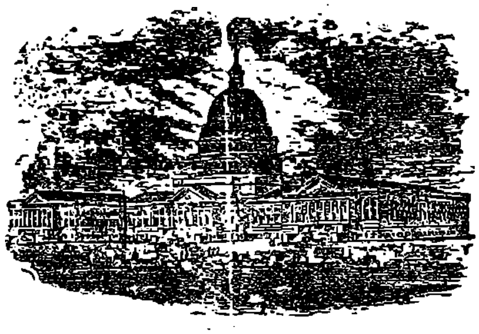

الهيضة بالهيضة تذكر :

من ذكريات الطفولة

(٦ أكتوبر سنة ١٩٤٧)

كنت فى الثالثة عشرة من عمرى حين وفد على مصر وباء الهيضة (الكولرا) فى سنة ١٩٠٢ ، وكانت قريتنا الصغيرة الفقيرة تنقل خُطاها الوئيدة فى طريق الحياة وادعة بالأمن ، ناعمة بالرضا ، هانئة بالقناعة .

كان المرض قليلا ما يغشاها ! فإذا غشيها غشى الكهل الضعيف . وكان الموت كثيراً ما ينساها ؛ فإذا ذكرها ذكر الشيخ الهرم . لذلك كان المرض لندرته مرهوب الاسم . وكان الموت لوحشته مهيب الصورة ، فإذا مرض الصحيح تجمع القوم فى منظرته أو على مصطبته ، يؤانسونه ويمرِّضونه ويدعون له . وإذا مات المريض لبسوا الحداد عليه العام كله ، فلا يلبسون الجديد ، ولا يحلقون اللحى ، ولا يأكلون الفسيخ ، ولا يصنعون الكعك ، ولا يباشرون المضاجع .

وفى ذات ليلة من ليالى الصيف على ما أذكر ، قيل إن لأسرة فلان قريباً غريباً علموا أنه مريض فذهبوا ليعودوه فى بلده فعادوا به . وهو يشكو مرضاً لم يشكه أحد من قبل : ظمأ لا ينقعه ماء ، وقىء لا يمنعه دواء ، وإسهال لا يقطعه شىء . وفى الصباح الباكر نعته الناعيات فأجمعت القرية على الحزن عليه ، وأقبلت الجيرة على العزاء فيه ، ورسموا المأتم أسبوعاً كالعادة . إلا أن ثلاثة من أسرة الفقيد مرضوا تلك المرضة وماتوا تلك الموتة ، فلم يقوضوا سرادق العزاء ، حتى أتى على جميع الأسرة الفناء . وصحا الناس من دهشة الروع وذهول الفاجعة ، فإذا كل غرفة فيها مريض ، وإذا كل ساعة فيها جنازة ! وهان الموت ورخصت

الأموات ، فلا يُعاد محتضَر ، ولا يشيَّع ميت ، ولا يُعزَّى حى . وقال فقهاء القرية إنه الهواء الأصفر الذى أهلك الله به عاداً الأولى فهيهات أن يعصمَ الناس منه بيوت مغلقة ، أو حصون معلّقة . فاستكان القوم للقضاء ، وصفت قلوبهم من الحقد ، وعزفت نفوسهم عن الدنيا ، وانصرف كل امرىء عن عمله فى انتظار أجله .

* * *

كان الموت الوحىُّ الذريع يخترم لِداتى فى الحارة واحداً بعد واحد ، فخلت الملاعب من الأطفال ، وأقفرت المكاتب من الصِّبية . وكان شوقى إلى بعضهم يدفعنى إلى أن أزورهم خلسة ، فأجد فيهم من يكابد هول الداء وحده ، فلا أبوه يخفف عن كبده سعار العطش ، ولا أمه تمسح عن ثوبه رجْع القىء ! لقد شغل كل إنسان بنفسه عن غيره ، ولها كل بيت بكبيره عن صغيره .

ولكن (زهرة) اليتيمة زينة الصبايا وبهجة الحارة كانت فى السواد من قلب أختها ، وفى السواد من عين أخيها ، مرَّضتها الأخت حتى أخذتها سكرة الداء ، ومرَّضها الأخ حتى غشيته غمرة الموت . وبقيت (زهرة) الجميلة وحدها تنتظر النهاية المحتومة فى حجرتها الموحشة على حصيرتها الخشنة . وكانت عمتها العجوز تزورها الحين بعد الحين لترمقها من بعيد ثم تنصرف . وكنت أكنُّ لهذه الفتاة نوعا من الحب المبهم يختلط فيه الإعجاب والحنان والعطف . وكان بيتنا يشرب الماء مغلى فلم يُصَب أحد منا بسوء ، فظننت أن الدواء فى هذا الماء ، فحملت منه قلة ثم دخلت بها عليها . فلما رأتنى افترت شفتاها الذابلتان عن ابتسامتها الحلوة . وأشارت بطرفها إلى الماء فجرَّعتها منه جرعة . ثم جلست بجانبها أرنو إلى العينين الغائرتين وقد كانتا كعينى الرشأ ، وإلى الوجنتين الشاحبتين وقد كانتا فى حمرة الورد ، وإلى الجسد الضارع المشفوف وقد كان فى غضاضة السوسن . ثم

وضعت القلة مرة أخرى على فمها الجاف فرشفت منها رشفة ، ولـكن الماء وقف في حلقها فلم تستطع أن تسيغه ثم شخص بصرها ، وحشرج صدرها وأخذها فواق ضعيف ، ثم لفها سكون شامل !

لا أزال أذكر هذا المنظر المروع وأتمثله كأنه وقع أمس ! ولا أزال أذكر أن تياراً من الرعب قد اعتراني ، فعقل يدى وعقد لساني ، فخرجت من الحجرة هارباً بنفسي لا ألوى على شيء ، ولا أخبر أحداً بشيء !

واحسرتا على قريتي الصغيرة الفقيرة ! لقد جثم على صدرها الموت المائت حتى ختم على أكثر الدور ، ونقل نصف أهليها من الدور إلى القبور !

كانت حالنا يومئذ غير حالنا اليوم ؛ فلم يكن هناك مصل يقى ، ولا علاج يشفى ، ولا حكومة تطارد الوباء وتحصره ، ولا أمة تتبع النظام الصحي وتنشره .

المسلمون في معترك الخطوب

(٥ يناير سنة ١٩٤٨)

كأن الحلفاء يوم عقدوا ألوية الحرب قد عقدوا غيب ضمائرهم على الغدر بأنفسهم وبالناس ، فلم يكادوا ينفضون أيديهم من تراب هتلر وحليفيه حتى أخذ بعضهم بتلابيب بعض يتصارعون على أسلاب الحرب ، ويتكالبون على جثث الضحايا ، فهذا يريد أن يغرز أنيابه هنا ، وذاك يحاول أن ينشب أظفاره هناك والاحوم طعوم ، والذبائح أجناس ، فوقف كل وحش بإزاء منافسه يهدده بما يملك من أسباب الحياة ومايعلم من أسرار الموت ، حتى خشع المهيض ، واستكان الضعيف ، واستخذى الجبان ، وأقرت الأمم بالضيم ، واعترفت الدول بالرق ، وانتهى النزاع على ملكوت الأرض إلى قوتين متعارضتين : قوة الرأسمالية في أمريكا ، وقوة الشيوعية في روسيا : كلتاهما تريد أن تبسط سلطانها على المستضعفين في الأرض دون الأخرى . والدولة التي كانت تنافسهما في استرقاق الشعوب نتفت ريشها الحرب فتأخرت عن صفها وهبطت عن مستواها ، فتركت لهما تصريف الأمر وغفت في ظلال السكينة ترجو لأجنحتها أن ترتاش ولجروحها أن تندمل . فلم يبق في العالم اليوم من يقف أمام هاتين القوتين العارمتين موقف الأبي الذي يتكرم عن الذل ويتجافى عن المهانة إلا قوة واحدة تستمد بأسها من رَوْح الله ، وتقتبس هديها من نور الحق ، هي قوة الإسلام . وبحسبك أن تسمع مذياعك في أي ليلة ، أو تقرأ صحيفتك في أي يوم ، لتعلم أن هذه القوى الثلاث هي التي تتصارع وتتقارع في الغرب والشرق وما بينهما ، وسائر الأمم محتبون بهامش الميدان يشهدون هذا الصراع شهود المتفرج أو المهرج أو المراهن : فالروسيون يريدون أن يتدفقوا في سهول الشرق لينسخوا بمبادئهم دياناته وفلسفاته ،

والأمريكيون يقيمون من دونهم السدود ليظلوا مستأثرين وحدهم بخيراته ، والمسلمون فى تركية وإيران وباكستان وأفغانستان وأندونيسيا ، وفى أقطار العروبة من الخليج الفارسى إلى المحيط الأطلسى ، يجأرون بالشكوى ، ويصرخون من الظلم ، ويغضبون للكرامة ، ويثورون للحق ، وينادون بالجهاد ؛ ولكن أصواتهم الإنسانية اللينة تذهب فى عواء الذئاب ونباح الكلاب كما تذهب النسمة الرخية فى الأدغال الشواجن !

كأنما الحرب لم تخلف من المشكلات غير مشكلة الشرق الأوسط ! وكأنما الأسرى فى نظام هيئة الأمم المتحدة هم المسلمون ! فمن لم يكن له وطن من شذاذ الأمم جعلوا له موطناً من أرض العرب ! ومن ضاقت عليه مذاهب العيش فى بلده وسّعوها عليه من أرزاق العرب ! ومن نقت ضفادع بطنه من المستعمرين لازدراد بقعة حرام سكّنوا جوفه المسعور بقطعة من أملاك العرب ! ومن نازع المسلمين أو العرب على شيء من ديارهم الموروثة فضوا النزاع على حساب المسلمين أو العرب ! فالروس تتحلب أشداقهم على ابتلاع تركية وإيران ، والهندوس يجدون العطف الأوربى على عدوانهم الوحشى على أهل باكستان . وهولندة تحاول أن تمزق بحديد الأمم المتحدة إندونيسيا ، وهذه الدولة لا تزال تشعر بمسامير النعل الهتلرية الثقيلة تغوص فى ظهورها الوطيئة البضة وانجلترة العجوز تريد أن تخل لحاميتها أمريكا طريق الشرق فتقرر الجلاء عن فلسطين لتقطع السودان من مصر ، وهو إنسان عينها ومهجة قلبها ، لتجعله نقطة ارتكازها فى افريقيا وحقيقة مجازها إلى الشرق وفرنسا المنحلة ما زالت تفرض الباقى من سلطانها على الشمال الأفريقى كله فتقيم بينه وبين أبويه الإسلام والعروبة حاجزاً من الظلام والحصر والرقابة والتجسس ، وترغمه على الاندماج بها والفناء فيها فيستظل بغير علمه ، ويتكلم بغير لغته ، ويؤمن بغير دينه . ولولا ممالأة الدول ومواطأة اللصوص ومناوأة الخطوب لما ثبتت هذه القدم الناعمة فى رمضاء الريف وصخور أطلس !

وأمريكا التاجرة الطموح تصمم على أن تحول بين الشيوعية وثروة الشرق فتجعل من الإنجليز واليهود سداً كسد ذى القرنين بأخذ السودان من مصر، وفلسطين من العرب ، و بقية امتداده من الإسلام . ولولا هذه النية الخبيثة لما ساعدت انجلترةَ على مصر فى مجلس الأمن ، وعاونت اليهودَ على العرب فى جمعية الأمم المتحدة .

ها هى ذى تقسم فلسطين وبها إحدى القبلتين وثانى الحرمين قسمة ضيزى بين العرب الأصلاء واليهود الدخلاء وتحمل الصهونيين على ضمائرها و بواخرها من أركان الأرض إلى فلسطين لينصبوا فيها الصليب للحق كما نصبوه من قبل لعيسى ، ويبذروا فى القدس الشقاق للناس كما بذروه فى يثرب لمحمد !

ليت شعرى ما جريرة العرب والمسلمين على الأمم الأوربيين والأمريكيين ؟ هل جريرتهم عليهم أنهم فتحوا العالم وطهروه ، وأعلنوا دين الله ونشروه ؟ قد يكون مع الفتح ترة العنصرية ، ومع نشر الدين تعصب الكنيسة ، ولكن ترة المقهور وتعصب الكاهن لم يكونا وحدهما السبب فى ذلك الاستخفاف الدولى بالإسلام والعروبة ؛ إنما السبب الأقوى فيما أعتقد أن المسلمين اعتمدوا على الحق دون القوة ، وعولوا على القول لا على الفعل ، واعتقدوا فى الشخص لا فى المبدأ . ونسوا أن دينهم قرآن وسيف ، وتاريخهم فتح وحضارة ، وشرعهم دين ودنيا ، وحربهم جهاد وشهادة ، وزعامتهم خلافة وقيادة .

فهل آن لأبناء الأمة الوسطى وورّاث الدعوة الكبرى أن يذكروا ما نسوا ، و يجددوا ما طمسوا ، ويعلموا أن الحق هو القوة ، وأن القوة هى الوحدة ، وأن وحدة العرب كانت معجزة دين التوحيد ، قام عليها تاريخهم القديم ، ولن يقوم على غيرها تاريخهم الجديد ؟ !

بلاغة الرسول

(٢٦ يناير سنة ١٩٤٨)

كلفتنى الإذاعة المصرية فى احتفالها بذكرى مولد الرسول الكريم أن أكتب كلمة فى بلاغته تذاع فى عشر دقائق ؛ وهذا تكليف بالمحال. ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ؛ فإن عشر دقائق لا تتسع للحديث الموجز عن بلاغة كاتب. فكيف تتسع للحديث عن بلاغة رسول اصطفاه الله لرسالته، واصطنعه لوحيه، وعلمه من علمه ؟

إن بلاغة الرسول من صنع الله. وما كان من صنع الله تضيق موازين الإنسان عن وزنه، وتقصر مقاييسه عن قياسه. فنحن لا ندرك كنهه وإنما ندرك أثره، ونحن لا نعلم إنشاءه وإنما نعلم خبره. هل يدرك المرء من آثار الشمس غير الضوء والحرارة ؟ وهل يعلم من أسرار الروض غير العطر والنضارة ؟ وهل يجد فى نفسه من أغوار البحر غير الشعور بالجلالة والروعة ؟ إن البلاغة النبوية هى المثل الأعلى للبلاغة العربية، وإذا كان كلام الله (كتابَ) البيان المعجز، فإن كلام الرسول (سُنة) هذا البيان. وإذا كان البلاغ صفة كل رسول، فإن البلاغة صفة محمد وحده. تجمعت فيه صلى الله عليه وسلم خصائص البلاغة بالفطرة، وتهيأت له أسباب الفصاحة بالضرورة ؛ فقد ولد فى بنى هاشم، ونشأ فى قريش، واسترضع فى بنى سعد، وتزوج من بنى أسد. وهاجر إلى بنى عمرو وهم الأوس والخزرج ؛ وهذه القبائل التى تقلب فيها الرسول هى بالإجماع أخلص القبائل لساناً وأفصحها بياناً وأعذبها لهجة. والوسيلة الطبيعية لاكتساب اللغة والمنطق إنما هى المخالطة والمحاكاة. ثم تولى الله عز وجل تأديبه وتهذيبه، فكمله برجاحة العقل وسجاحة الخلق وصفاء الحس وقوة الطبع وثقوب الذهن وتمكن اللسان

ومحض السليقة ، ليكون لساناً لكلمته ومظهراً لنوره . ثم أخذ يتصرف في التجارة على عادة قومه ، فضرب في الآفاق ، وتنقل في الأسواق ، فرأى المناظر الجديدة ، وسمع المناطق المختلفة ، وحصّل المعارف العامة . والأسفار والأخطار والهجرة بعد توفيق الله تفتق الذهن وترفد العقل وتزيد المعرفة . ثم كان يخلى ذرعه من صوارف الدنيا الليالى الطوال فيعتكف في غار حراء يتعبد ويتأمل ويتجه بروحه الصافي اللطيف إلى الملأ الأعلى . ثم كان من طبعه أن يديم التفكير ويطيل السكوت ، فإذا تكلم اختصر من اللفظ واقتصر على الحاجة ، وألقى الكلام بيناً فصْلاً يحفظه من جلس إليه ، ولو عده العادّ لأحصاه ، كما قالت السيدة عائشة ؛ كل أولئك قد مكن للرسول من ناصية البلاغة ، فأسلست له الألفاظ ، وأسمحت له المعانى ، فلم يندّ في لسانه لفظ ، ولم يضطرب في أسلوبه عبارة ، ولم يعزب عن علمه لغة ، ولم ينْب عن خاطره فكرة ؛ حتى كان كلامه كما قال الجاحظ « هو الكلامَ الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة وتنزه عن التكلف . واستعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، وتنزه عن الهجين السوقى ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمه ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة وشُد بالتأييد ويُسر بالتوفيق . ثم لم يسمّع الناس بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل معنى ، ولا أجْمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح من معناه ، ولا أبين من فحواه ، من كلامه صلى الله عليه وسلم » لذلك قال وقوله الحق . « أنا أفصح العرب ، بيْد أنى من قريش ونشأت في بنى سعد بن بكر » . وقد قال له صاحبه أبو بكر : لقد طفت في بلاد العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أحسن منك ، فمن أدبك ؟ قال : أدبنى ربى فأحسن تأديبى » ومن أولى بذلك كله ممن يخاطبه الله تعالى بقوله : وعلمك مالم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما ؟

إن أخص ما يميز الأسلوب النبوى الأصالة والإيجاز .

فالأصالة ، وهى خصوصية اللفظ وطرافة العبارة تتجلى فيما كان ينهجه الرسول من المذاهب البيانية ، و يرتجله من الأوضاع التركيبية ، و يضعه من الألفاظ الاصطلاحية ، كقوله عليه الصلاة والسلام : مات حتف أنفه . ألآن حمى الوطيس . هدنة على دخَن ؛ وقوله لحادى النساء : رويدك ! رفقاً بالقوارير . وقوله فى يوم بدر : هذا يوم له مابعده . ولكن الأصالة فيه كان يقتضب ويتجوز و يشتق و يبتدع ، فيصبح ما أمضاه من ذلك حسنة من حسنات البيان ؟ وسراً من أسرار اللسان ، يزيد فى ميراث اللغة ، و يرفع من قدر الأدب .

والإيجاز ، وهو تأدية المعانى الكثيرة بالألفاظ القليلة ، غالب على أسلوب الرسول ؛ لأن الإيجاز قوة فى التعبير ، وامتلاء فى اللفظ ، وشدة فى التماسك ؛ وهذه صفات تلازم قوة العقل وقوة الروح وقوة الشعور وقوة الذهن ؛ وهذه القوى كلها على أكمل ما تكون فى الرسول : ومن هنا شاعت جوامع الكلم فى خطبه وأحاديثه حتى عُدَّت من خصائصه .

على أن الرسول عليه السلام كان يطيل إذا اقتضت الحال ذلك . فقد روى أبو سعيد الخُدرى أنه خطب بعد العصر فقال : « ألا إن الدنيا خضرة حلوة ! » ألا وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون . اتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، ألا لا يمنعن رجلا مخافةُ الناس ، ألا يقول الحق إذا علمه . . قال أبو سعيد ولم يزل يخطب حتى لم يبق من الشمس إلا حمرة على أطراف السعف . فقال : « إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى » .

والمأثور من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم خطب وكتب وأحاديث ، وكلها تتسم بالإلهام والإبداع والعبقرية ، وتمتاز بالجزالة والجلالة والسبك

وهو فى بعضها يستعمل الغريب و يلتزم السجع تبعاً لما جرى على ألسنة الوافدين عليه من مختلف القبائل . من ذلك حديثه مع طهفة بن أبى زهير النهدى ، ومع لقيط بن عامر بن المنتفق ، وذلك من حسن أدبه وسمو بلاغته وقوة تأثيره .

وللرسول قدرة عجيبة على التشبيه والتمثيل و إرسال الحكمة و إجادة الحوار ، وتلك ميزة الرسل من قبل ؛ لأن المرسلين فى مقام المعلمين ، وأنجع ما يكون التعليم إذا كان على طريقة التمثيل والمحاورة ، كقوله عليه السلام « إن المنبتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى . المؤمن هين لَيِّن كالجمل الأنِف إن قِيد انقاد ، و إن أنيخ على صخرة استناخ ، أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم . ولو توكلتم على الله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً . إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم . إياكم وخضراء الدمن : المرأة الحسناء فى المنبت السوء . المرأة كالضلع إن رُمت قوامها كسرتها · الناس كلهم سواسية كأسنان المشط . جنة الرجل داره . ومن روائع تشبيهاته عليه السلام قوله : إن قوماً ركبوا سفينة فاقتسموا ، فصار لكل رجل منهم موضع . فنقر رجل منهم موضعه بفأس ؛ فقالوا له ماتصنع ؟ قال هو مكانى أصنع فيه ما أشاء . فإن أخذوا على يده نجا ونجوا ، و إن تركوه هلك وهلكوا .

والسفينة التى ضربها الرسول مثلا هى اليوم دنيا الإسلام والعروبة ، تقسمها الإخوان والبنون فى عهود الضعف والانحلال فصار لكل منهم وطن ودولة ؛ ولكن هذه الأوطان المتعددة تجمعها دنيا واحدة ، كما تجمع السفينة مواضع الركاب ؛ فكل وطن و إن استقل بنفسه مرتبط فى قوام حياته بغيره ؛ فهو حرى ألا يو بق بحريته الوطن الجمع ؛ والوطن الجمع حرى ألا يغرق فى عبابه الوطن المفرد وكأن

الرسول صلى الله عليه وسلم ، بما آتاه الله من ألمعية الذهن وإشراق الروح كان ينظر إلى الغيب من ستر رقيق ، فضرب هذا المثل لجامعة الدول العربية لعلها تتذكر فتتدبر . وهذه هي بلاغة الإلهام والفيض ، تكشف الحجب بنور الله ، وتخترق الغيوب بنفاذ البصيرة ، وترسل الكلمة من فيض الخاطر وعفو البديهة فتكون حكمة الحاضر ونبوءة المستقبل !

صلى الله عليك يارسول التوحيد والوحدة ، ونبي الحرية والديمقراطية ؛ وإمام السياسة والتشريع ، وأمير الفصاحة والبلاغة ، وداعية السلام والوئام والمحبة !

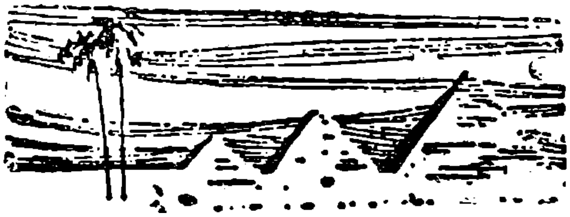

محمد إسعاف النشاشيبي

(٢ فبراير سنة ١٩٤٨)

أهكذا ، وفى أسرع من رجْع النفَس يسكت اللسان الذليق ، ويسكن العصب الثائر ، ويخمد الذهن المتوقد ، ويقف الفؤاد الذكى ، ويصبح النشاشيبى نعياً فى الصحف ، وخبرا فى البلاد ، وحديثاً فى المجالس ، لا يقول فنسمع ، ولا يكتب فنقرأ ! ؟

أهكذا ، وفى مثل ارتداد الطرف يترك النشاشيبى قلمه سائلا بالمداد ، وكتبه مهيأة للطبع ، ومجلسه مشتاقاً للسماع ، و (رسالته) منتظرة (للنقل)(١) ، ويذهب إلى حيث لا يرجع ولا يكتب ولا يتحدث ؟ !

سبحانك يارب ! شعاع أرسلته ثم رددته ، وروح بثثته ثم استعدته ، وظل بسطته ثم قبضته ، ولواء رفعته ثم خفضته ، وبنو آدم العاجزون الضعاف لا يملكون أمام أمرك البادى وسرك المكنون إلا أن يشكروا على العطاء والأخذ ، ويحمدوا على المحبوب والمكروه !

كنتُ ثالث ثلاثة استبقاهم الوفاء بجانب إسعاف فى ساعاته الأخيرة ؛ وكان

---

(١) نقل الأديب ، مختارات من أعذب الأحاديث كان ينشرها تحت هذا العنوان فى مجلة الرسالة .

الطبيب واقفاً يصف الدواء و ينظم العلاج و يرشد الممرضة ؛ وكان المريض جالساً في سريره حاضر الذهن حافل الخاطر يغالب انبهار النفَس من الربو ؛ و يجاذب العوّاد مارقّ من الحديث : فهو يضع لسانه حيث شاء من نوادر اللغة وطرائف الأدب ، فينتقل من الكلام في (ليس غير) إلى الكلام في ترجمة (جوتة) لقصيدة خلف الأحمر ، حتى إذا سمع الطبيب يصف له البنسلين قطع الحديث وقال بلهجته المعروفة : أنا أكره البنسلين لأنه أنقذ (تشرشر)[1] ! فقلنا له : ونحن نحبه لأنه سينقذ أبا عبيدة ! وكانت مظاهر العزم في حديث (أبي عبيدة) توسع في أنظارنا فسحة الأمل ، وتصرف عن أذهاننا فكرة الخوف ، فلم يدر في خلدنا أن المنية كانت مرنّقة فوق سريره تنتظر أنفاسه المعدودة أن تنقضي ، وألفاظه المسرودة أن تنفد ، فلم يكد السامر ينفض والساهر ينام حتى ختمت على فمه المنون فسكت سكوت الأبد !

ولد محمد إسعاف بن عثمان النشاشيبي بالقدس حوالى سنة ١٨٨٢ في أحد البيوتات التي تجاذبت السيادة على فلسطين . وكان أبوه من ذوي الثراء والدين والخلق فنشأه على الطباع العربية الأصيلة من جرأة القلب وصراحة الرأي وحرية الضمير . ثم أراد أن يجمع له أطراف المجد بالعلم والمال فبعث به إلى المدرسة البطريركية ببيروت فشدا شيئاً من مبادىء الآداب والعلوم ، ثم انقلب إلى أبيه ، وكان يومئذ وحيده ، فنظمه بالعمل في سلكه ، ونزل له بالبيع الصوري عن أكثر ملكه . وأخذ إسعاف يتقلب في ظلال أبيه على مهاد النعيم والخفض حتى تزوج أبوه زوجة أخرى ، ورزقه الله ولداً آخر ، فأراد الأب إسعافاً على أن يرد إليه ما أعطاه ليكون شركة بينه وبين أخيه ؛ فأبى إسعاف أن ينزل عن شيء دخل في رزقه وأصبح من حقه ... وانشقت العصا بين الأب وابنه ، فخرج إسعاف

---

(١) يريد المستر تشرشل وهو أصل نكبة العرب في فلسطين .

من كنف الأبوة مغاضباً يضطرب فى المعاش و يسعى على نفسه . ومنذ ذلك اليوم عرف إسعاف الهم وذاق الألم وكابد البؤس . كان يعمل ليلهو فأصبح يعمل ليعيش . وكان يقرأ ليلذّ فأصبح يقرأ ليعلم . وكان يحيا لينعم فأصبح يحيا ليموت . وولىّ أبوه غفر الله له وساطة الناس أذناً صماء فلم يعنه على تكاليف العيش بتمكينه من ريع أرضه ، فذهب يستقطر الرزق من تعليم العربية فى بعض المدارس وكان يعول بعض الضعيفات من أهله ، فتحمل فى سبيل ذلك رهقا شديدا بقى أثره بارزا فى نفسه طيلة حياته ، تعاوده ذكراه فى سكينته فيضطرب وفى لذته فيتألم . ثم حسم الله الخلاف بينه و بين أبيه بالموت ، فوضع إسعاف يده على نصيبه من الثراء العريض . وعاد إليه الحظ باسما يتملقه ويعتذر إليه ، فتلقاه الكادح المحروم كما يتلقى الثرى المكروب ماء المزن . وفى القدس شيد قصره المنيف ليكون مثابة للأدباء ومجمعاً للأدب ، ثم اقتنى مكتبة من أنفس الكتب وأندرها ، وأقبل عليها وهو لا يزال فى ربيع العمر فقتلها علماً وفهما وتدقيقا وتعليقا واختيارا واستظهارا ، فلم يترك كتابا مما أخرجته المطابع أو نسخته الأقلام فى القديم والحديث إلا قرأه وعلق عليه واستفاد منه . ثم وقف بعد ذلك نفسه ووقته وجهده على دراسة الإسلام الصحيح فى مصادره الأولى ، وتحصيل اللغة وعلومها وآدابها من منابعها الصافية ؛ وأعانه على ذلك قريحة سمحة و بصيرة نيرة وحافظة قوية وذوق سليم ، فكان آية من آيات الله فى سعة الاطلاع وكثرة الحفظ وتقصى الأطراف وتمحيص الحقائق . ثم جلس على مكتبه كما كان يجلس ابن دريد ، عن يمينه زجاجة فيها مداد القلم ، وعن يساره أخرى فيها مداد الفكر ؛ وأخذ يعسل كما تعسل النحل إذا امتلأ جوفها بالرحيق . وفاضت بهذا العسل المصفى أنهر الصحف والمجلات فى الشام ومصر ، فاشتاره القراء متنوع الطعوم مختلف الألوان متعدد الأسماء . ولئن سألوا لمن هذا الشراب أعياهم أن يجدوا فى إمضاءاته الرمزية من نحو (ن) و (أزهرى المنصورة) (* * *) و (السهمى) !

لأن النشاشيبي لم يكتب للشهرة والمجد ، إنما كان يكتب للعصبية والعقيدة . أخلص لله فأخلص لقرآنه ، وأولع بمحمد فأولع بلسانه . فإذا جلس إلى الناس في القدس أو في دمشق أو في القاهرة كان مجلسه ندوة علم وأدب وفكاهة ، ولا تذكر مسألة إلا كان له عنها جواب ، ولا تثار مشكلة إلا أشرق له فيها رأي ، ولا تروى حادثة إلا ورد له عليها مثل ، ولا يحضر ندوته أديب مطلع إلا جلس فيها جلسة المستفيد . ثم كان في غير مكتبه ومجلسه يشارك في (معارف) فلسطين بعمله ، وفي المجمع العلمي العربي بعلمه ، وفي الثقافة العامة بكتبه ، وفي المحافل الأدبية بخطبه وفي المساعي الخيرية بماله . ثم أقلع منذ أربعة عشر عاما عن شهوات الجسد فلم يبق له من لذاذات العيش إلا الكتاب العربي والسكارة التركية . ولكن إسرافه على شبابه أعقبه علة في شعاب الرئة جرّت إليه علة الربو . واصطلحت هاتان العلتان على القلب طيلة عشر سنين حتى أضعفتاه ، ومن هنا جاءت منيته .

كان النشاشيبي جاد الله بالرحمة ثراه رجلَ وحده في الأسلوب والخط والحديث والتحصيل . أسلوبه عصبي ناري تكاد تحس الوهج من ألفاظه ، وتبصر الشعاع من مراميه . وخطه نمط عجيب بين الكوفي والتعليق لم يأخذه على أحد ولم يأخذه عنه أحد . وحديثه نبرات قوية تبرز الألفاظ ، وحركات سريعة تمثل المعاني ، وانفعالات شتى تتعاقب على قسمات وجهه وأصابع يده . وتحصيله عجب من العجب : لا تستطيع أن تذكر له كتاباً من كتب العربية لم يقرأه ، ولا بيتاً من شعر الفحول لم يحفظه ، ولا خبراً من تاريخ العرب والإسلام لم يروه ، ولا شيئا من قواعد اللغة ونوادر التركيب وطرائف الأمثال لم يعلمه ؛ فهو من طراز أبي عبيدة والمبرد ، ولذلك كان أكثر ما يكتب تحقيقاً واختياراً وأمالي . ثم كان إلى كل أولئك متواضع النفس ، فكه الأخلاق ، لطيف الروح ، نفاح اليد ، عفيف اللسان ، مأمون المغيب ، لا يتعزز بحسبه ، ولا يطاول بماله ،

ولا يباهى بعلمه ، ولا يفخر بشىء مما يتمدح به الناس إلا بالانتساب إلى العرب والانتماء إلى محمد !

إن النشاشيبي كان خاتم طبقة من الأدباء اللغويين المحققين لا يستطيع الزمن الحاضر بطبيعته وثقافته أن يجود بمثله . فمن حق المحافظين على التراث الكريم ، والمعتزين بالماضى العظيم ، أن يطيلوا البكاء على فقده ، وأن يرثوا لحال العروبة والعربية من بعده !

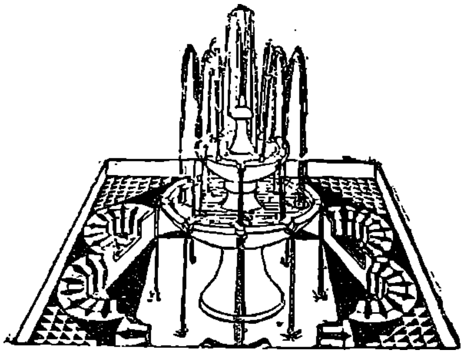

في الروتين الحكومي

إرادة الصغير إرادة الكبير

(٢٧ سبتمبر سنة ١٩٤٨)

من العجائب التي قلما يعجب لها أحد أن هذه الأداة الحكومية على ضخامتها وجلالتها وخطرها، إنما يحركها صغار الموظفين حيناً بالعقل وأحياناً بالهوى. فإذا حدث في أسافلها الخطل أو الخلل — وكثيراً ما يحدث ذلك عن جهل أو عن علم — اصَّعَّد آليًّا في أعاليها حتى يبلغ ذرى الرياسة فيدخل على المدير أو على الوزير، مزوداً بالتقارير الشارحة، مؤيداً بالتواقيع المختصة، فلا يسعه إلا أن يصدق ما بين يديه، فيقبل الخطأ على أنه صواب، ويرد الحق على أنه باطل. وتلك إحدى سيئات الهيرارشية (hièrarchie) وهي النظام الإداري الذي يقضي بتدرج المناصب في العمال والأعمال والتبعات: فيبدأ الأمر بالأصغر فالصغير، ثم ينتهي إلى الكبير فالأكبر. وكلما انتقل الأمر من درجة إلى درجة أسرع النظر فيه، وقلت الرقابة عليه، وخفت المسئولية عنه.

فالعهدة في هذا النظام كما ترى على الضمير، إذ سلم سلمت الأداة وانتظم العمل، وإذا اعتل اعتلت الحكومة واضطرب الحكم. أما حياطة القانون (للأوراق الرسمية) بتشديد العقاب على من عبث بها أو زور فيها فذلك أمر لا طائل من ورائه إذا خفي العبث أو غفت الرقابة أو اشتركت المنفعة!

تعال أقص عليك بعض ما أعلم عن هذه الهيرارشية من سوء عسى أن يكون في قصصه إنعاش لضميرك إن كنت عاملا في هذا النظام وعبثت به، أو تعزية لنفسك إن كنت معمولا به وتأذيت منه:

غضب مالك الأرض فى قريتنا على شاب من شبابها الأخيار لأنه جرؤ على سعادته يوماً فطلب منه أن يردم بركة من بركه التى تحيط بالقرية إحاطة الغل بالعنق ، وأراه أن من الخير له أن يقى فلاحيه حمى الملاريا ليظلوا قادرين على رى أراضيه بعرقهم ، وتغذية خزائنه بدمهم . وكان لهذا المالك الغضبان قرابة ببعض أولى الأمر فى وزارة الداخلية ، فاستعداهم عليه ، فألف الإدارى الصغير تقريراً غيابياً عن هذا الرجل رماه فيه بتهديد حياة الناس بالإجرام ، وتكدير أمن البلاد بالشغب . ووافق المأمور المعاونَ ، وأيد المدير المأمورَ ، وصدّق الوزير المدير ، وحكم على البرىء حكما عسكريا بالاعتقال ستة أشهر تجدد لمثل ذلك ، إذا لم يرض عنه المالك ! فلما علمت بالأمر طلبت الإذن على وزير الداخلية ، وكان يومئذ ، ف . س ، وعرضت عليه القضية ، فى لغة أنيقة ولهجة رقيقة : إن هذا الرجل من الأشقياء (الخطرين) ، ولا أحب أن يشفع مثلك فى مثله ، فقلت له : يا باشا ، إن الرجل من كرام قريتى ، وأنا أعرفه كما أعرف أبناء أسرتى . فقال : وماذا أصنع فى تقرير رسمى حققه المركز وأيدته المديرية واعتمدته الوزارة ؟ فانصرفت حردان أسفاً على الحق يدمغه تقرير باطل فيزهق ، وعلى العدل يصيبه تقرير جائر فيهلك . وبقى المسكين فى سجنه يقاسى ألم الجور وذل الاعتقال ، حتى سقطت الوزارة القائمة ، وألغيت العسكرية الحاكمة ، فزالت عن الرجل فى التوِّ صفات الإجرام ، وخرج من معتقله إلى أهله بسلام !

* * *

وفُصل من وظيفته مُحْضر شاب كان يعمل فى محكمة (عنيبة) من مركز الدر ، لأنه غاب عن مكان عمله خمسة عشر يوماً من غير إذن . وسبب غيابه أن المرض أدركه فى آخر يوم من أيام إجازته السنوية ، وكان يقضيها مع أسرته بالمنصورة ، فطلب إجازة مرضية ، فأباها عليه مفتش صغير كانت بينه وبينه

خصومة ، وقرر للرياسة أن الرجل صحيح البدن ولكنه مريض النية ، فهو يأبى العودة إلى بلاد النوبة ويتمارض ليسعى . وصدق الكبير فأمره بالعودة إلى العمل بعد انقضاء الأجل . وكانت العلة شديدة ، والشقة بعيدة ، فلم يدخل عتبة إلا ليقرأ كتاب فصله ، ويرجع بالشقاء والبؤس إلى أهله !

وقضى المسكين فى العطل أشهراً يطعم أطفاله الأربعة وأمهم بالدين ، ويدافع الضر عنه وعنهم بالأمل ، حتى عرضت بنفسى ظلامته على صاحب المعالى ا . ع . وكان يومئذ يتولى وزارة العدل بالنيابة ، فاقتنع ببطلان تهمته ، وأعاده إلى وظيفته بمرتبه ودرجته ومدته .

وقضى المسكين فى العمل أشهراً يجاهد نصيب العيش ويكابد وصب الداء حتى أودى به الشلال على السرير موحش ووساد قلق . وكان فى إدارة المستخدمين بوزارة العدل عصبة من صغار الموظفين تتجر بمنح العلاوات والدرجات ، فينقضون المبرم ، ويبرمون المنقوض ، والكبار من غير فطنة ولا علم يحلون ما عقدوا ، ويعقدون ما حلوا ، فقررت هذه العصبة أن إعادة الموظف المرحوم إلى عمله بعد فصله كانت تعيينا من جديد يجبُّ أربعة عشر عاما قضاها فى الخدمة ! وانتظرت العصابة من ورثة الميت المساومة ؛ ولكن اليتامى الأربعة الضعاف ، وأمهم الأيم الصغيرة الفقيرة ، كانوا لا يخرجون من مسكنهم النابى ، ولا يفيقون من حزنهم الطويل ، فأمضى الكبار ما قضى به الصغار ، وقدرت المكافأة بجنيهين تقطع منهما الدمغة !

وبلغتنى المأساة فعرضتها على صاحب المعالى ا . م . ب وزير العدل — وكان قد كشف بفطنته ويقظته سر العصابة — فنظر فى هذه القضية بنفسه ، وكتب إلى (المالية) كلمة العدل فيها بيده .

* * *

وشكوت إلى (مصلحة الطرق والكبارى) بالمنصورة أن ضيعتنا جزيرة في بحر الأمير عمر طوسون ، لايصلها بالشاطىء العام إلا طريق وعر غير سالك. وسألتها أن تمهده ولو على حسابي ؛ ولكن المهندس الصغير تلكأ لسبب أحذره أنا ، وربما تحذره أنت ؛ فلجأت إلى الرياسة العليافقررت الطريق وأمرت أن يمهد ويصان . فلما جاء الأمر بالتنفيذورم أنفه واستطار عناده وأقسم ليقفن دون هذا الطريق مهما يكن الأمر والآمر . وكتب تقريراً زعم فيه أن الطريق خمسة آلاف متر وهو لايزيد على سبعين قصبة ، وأن فى بعضه عقبة كأداء وهو وحده هذه العقبة ! فلما رأت الإدارة هذا الاختلاف بين ما قررت وقرر أرسلت إلى العزبة ثلاثة من مهندسي القاهرة فوافقوا أمامى على ما قررت ، ورسموا الطريق على ما قدّرت ، ولكنهم حين خلو إليه فى مكتبه أصبح الخفيف ثقيلا ، والممكن مستحيلا ، والكذب صدقا ، والعام خاصا والضرورة ترفا ، والمنفعة مضرة ! ومن هذا الزور الجرىء ألف الموظفون الصغار التقرير ، ورفعه كبيرهم إلى المدير ، فلم يسعه إلا أن يصدق الأوراق الرسمية ، ويعتمد التوقيعات المختصة .

ورفعت أنا تقريرى إلى صاحب المعالى أمير الأدباء ووزير المواصلات ، فهو ينظر فيه نظر القاضى العالم والحاكم الحازم ، وسيستشهد بالطريق الناطق على التقرير المكتوب ويستدل بالواقع الصادق على التقدير المكذوب !

* * *

هذه أمثلة ثلاثة مما أعرف ، ولعل أمثالها ألوف مما يعرف الناس ، سردتها عليك فى هذا الإيجاز لتصدق أن إرادة الصغير هى إدارة الكبير ، وأن ليس على صغار الموظفين رقيب إلا الشرف والضمير !

أول ما عرفت شوقي

(بمناسبة ذكراه السادسة عشرة)
(٢٥ أكتوبر سنة ١٩٤٨)

عرفت أحمد شوقي عن عِيان سنة ١٩٢٧ فى المهرجان الذى أقيم لتكريمه فى القاهرة . عرفنى به الأستاذ محمد كرد على ، وكان قد وفد فيمن وفدوا من أقطاب الأدب وأعيان العرب ليشاركوا مصر فى تكريم شاعر العربية العظيم . فذهبت إليه فى فندق الكنتنتال أزوره . فوجدته بالشرفة جالساً فى قلادة من أولى الفضل يتوسطها شوقى . فلما رآنى مقبلا هش لى ورفّ علىّ ، وقال لشوقى وهو يبسم و يتهلل : هذا هو الرجل الذى أنصفك ! فلما استسمانى الشاعر النابه عجب الأستاذ كرد على ألا يكون بيننا تعارف ونحن نعيش فى بلد واحد ونسير فى طريق واحد . وسمانى له ، فتلقانى ببشره وشكره وأنسه . ثم توثقت بينى و بينه أسباب المودة سنتين كاملتين رحلت بعدهما إلى العراق . وفى أثناء مقامى ببغداد اصطفاه الله لجواره ، فلم أره بعد ذلك إلا رؤيا ، ولم أتمثله إلا ذكرى !

كان الأستاذ كرد على يشير بانصافى لشوقى إلى مقال نشرته يومئذ فى العدد الخاص بتكريمه من مجلة (السياسة الأسبوعية) عنوانه (ما لشوقى وما عليه)(١) ؛ وكان أكثر ما كتب فى هذا العدد عن شوقى أقرب إلى النكير وأدنى إلى الجرح ، فداخل شوقى ظنون من إخراج هذا العدد ، وحك فى صدره أشياء من جهة الدكتور محمد حسين هيكل رئيس تحرير السياسة ، وأرهج بعض الناس بين الصديقين بالفساد حتى كادت تقع بينهما جفوة .

---

(١) نشر فى كتابى (فى أصول الأدب) .

قال لى شوقى وقد أخذ بذراعى والقوم منصرفون : إنى أشكرك على نقدك وتقريظك على حد سواء ، فإن الحق فيما آخذت لى ظاهر ، والعدل فيما أخذت علىّ صريح . و إنى أسلم لك ماعددت من هفواتى وأرده إلى اختلاف الأثر بين عصرين وثقافتين وذوقين . وليس من السهل أن يتجرد الشاعر أو الكاتب جملة أو فجأة من عوامل الوراثة والدراسة والبيئة . ولكن ما رأيك فيما كتب فلان وفلان ؟ وهل كان من مقتضيات الحال أن تنشر مجلة صديقى هيكل آراء خصومى فى عدد تكريمى ؟ فقلت له : إن رئيس تحرير السياسة كاتب يعرف قيمة النقد ، ويرعى حرمة الرأى ؛ وقد طلب إلى طائفة من أعلام الأدب أن يدلوا بآرائهم فى الشاعر من غير تحديد لجهة ، ولا تعيين لقصد ، ليكون العدد الخاص على ما أعتقد دراسة فنية شاملة لنواحى الشاعر تتعارض فيها الآراء ، وتتقارع فيها الحجج ، فتتألف من هنا ومن هناك صورة تامة لفن الأمير تكون فى وسط هذا المهرجان تمثالا فيه الجمال والجلال ، ولكن فيه كذلك الصفات الطبيعية الأخرى التى يريدها الخالق الكامل للمخلوق الناقص . فقال شوقى بصوته الخفيض وابتسامته الوديعة : يظهر أنك لاتقرأ ما بين السطور ، ولا تعرف ما وراء الستور . فقلت له : ربما !

ووقفت بنا سيارته على (كرمة ابن هانىء) ، وكانت ليلتئذ تتلألأ بالنور والسرور ، وتزدان بالزهور والحضور . فأصاب القوم ما شاءوا من مرىء الطعام وهنىء الشراب ، ثم تجمعوا زمراً فوق أرائك البهو وكراسى الردهة ، يستمعون إلى الملحن الناشىء والمغنى الحدث محمد عبد الوهاب وهو يغنى بصوته الرخيم الخافت « أنا أنطونيو وأنطونيو أنا » . وكان شوقى آنس الله وحشته يؤثرنى بالرعاية ويخصنى بالحديث ، شأنك مع الصديق الجديد والزائر المحتشم .

وفى أصيل اليوم التالى بعث إلىّ بسيارته الفخمة تحملنى إلى داره . وكانت

الدار حين دخلتها ساكنة كالصومعة ، رهيبة كالمعبد ، فمن رآها ليلة أمس ثم رآها عصرية اليوم تذكر حال السكران الطافح ترنحه الخمر فيعربد ، ثم يهوده الخُمار[1] فينام .

كان شوقى جالساً فى ركن من أركان الشرفة ومعه على مائدة صغيرة حافظ وعبد المطلب وحفنى محمود . فلما أخذت موضعى من المجلس قال شوقى إنه دعانا على هذا الوضع من اختلاف السن والذوق والثقافة ، لنقرأ نونيته التى نظمها للمهرجان . وأخذ حافظ يقرأ القصيدة فنقف عند كل بيت ، ننظر فى سياقه وموسيقاه ، ثم نروّى فى معانيه وألفاظه ، فربما استبدلنا لفظاً بلفظ ، وآثرنا عبارة على عبارة ، وذوق الشاعر العبقرى من وراء أذواقنا جميعاً ينقد ويوازن ويختار ، حتى استوى القصيد على فنه الرفيع منضد اللفظ نقى المستشف . وأردنا بعد ذلك أن نسمع حافظاً ، برد الله بالرحمة ثراه ، فاعتل بعلة لا أذكرها . ولكنه رأى من خلال المناقشة تجانساً بين ذوقى وذوقه فسألنى أن أصحبه فى العودة : وفى قهوة بميدان الأوبرا كانت موضع ملهى (بديعة) اليوم، جلست أنا وحافظ رأساً إلى رأس ، يقول فى شوقى وأسمع ، ويفتنّ فى النكات وأضحك، حتى قال : سأنشدك قصيدتى لترى فيها رأيك . وأخذ شاعر النيل يقرأ لى عينيته المشهورة بصوته الفخم وإلقائه المعبر حتى فرغ منها . ثم نظر إلى نظر المستفهم المطمئن المعجَب ، فقلت له : هنيئاً لك التصفيق الحاد والاستعادة المتكررة يا حافظ ! قصيدة شوقى للقراءة وقصيدتك للسماع ، ومعانيه للخاصة ومعانيك للجمهور ! فقال فى لهجته الساخرة الفكهة : وهل يعنينى غير الجمهور ؟

توالى اللقاء بينى و بين شوقى بعد ذلك ، مرة فى داره ، ومراراً فى محل (صولت) .

---

(١) الخمار · صداع الخمر وأذاها .

وكان كلما أنشأ عبقرية من عبقرياته أقرأني إياها. وذلك شأنه في جميع أطوار عمره: يعرض ما يقرض على الآذان المتباينة والأذهان المتفاوتة ليعلم موقعه من كل ذوق وأثره في كل نفس. وكان أشد ما مكن الألفة بيني وبينه مشابه في الطبع من فرط الحياء، وحب العزلة، وقلة الكلام، والإنقباض في الندىّ الحافل، والابتعاد عن الحفل الجامع؛ فكأن كلا منا كان يرى في الآخر عزاء عن نقصه وعوضاً من حرمانه.

كان شوقي يرى كأكثر الناس أن الرجل إذا لم يعمل في الحكومة كان أشبه بالمتشرد. لذلك كان قلقاً عليّ من هذه الناحية؛ فهو يستكبرني على العمل الحر ويعجب ألا يكون لي مكان في وزارة المعارف! ثم أخذ يسعى من وراء علمي لدى وزير المعارف علي الشمسي باشا ويمهد لي السبيل إلى لقائه. وفي ذات ليلة من لياليه قال لي ونحن في ركن من أركان صولت: سأنتظرك غداً هنا في الساعة الحادية عشرة، فتعال ومعك مجموعة من كتبك لنزور وزير المعارف. فقلت له: وما شأني بوزير المعارف؟ فقال إنه يود أن يراك. ولعل من الخير أن تراه. فلما دخلنا على الوزير في الموعد الموقوت قدمني وكتبي إليه، فسلم الرجل تسليم البشاشة، وشكر شكران الغبطة. وجرى في حضرته حديث عني استجاز شوقي فيه ما لا يجوز إلا للشاعر من المبالغة في المدح والمجاملة في الثناء. ولما خرجنا من عنده ربت على كتفي وقال وهو مبتهج: لقد وعدني الوزير أن يضمك إلى الوزارة! فقلت له ولم أدهش لأني حزرت ذلك من قبل: ألهذا جشمت نفسك يا سيدي ونفسي؟ حدّ الله ما بيني وبين الحكومة! لقد حاول هذه المحاولة منذ أربع سنين طاهر باشا نور وعبد الفتاح باشا صبري فجذبت عناني من يديهما ومضيت. وأراد صديقي طه حسين وأستاذي لطفي السيد أن يدخلاني الجامعة منذ سنتين فلذت بالفرار بعد صدور القرار. أنا يا سيدي أستاذ في الجامعة الأمريكية، مرتبي

ضخم ، ومكانى مرفوع ، ورأيى مسموع ، وحريتى مطلقة . فهل نافعى أن أدع الطريق الذى قطعت أكثره إلى طريق أبدأه من جديد ، وأن أعمد إلى رجلىّ الطليقتين فأضعهما فى قيد من حديد ؟

ولكن شوقى الصديق الشفيق لم يرضه هذا المنطق ، فظل مشفقاً علىّ من العمل الحر حتى رحلت عن هذا البلد ، فودعنى راضياً وما كنت أدرى وا أسفاه أنه وداع الأبد !

أسرة طيبة

(٨ نوفمبر سنة ١٩٤٨)

كنا فى سنة ١٩٢٠ نسكن حى (غمرة) فى شمال القاهرة . وكان يسا كننا فى العمارة التى نحن فيها أسر مختلفة الجنس والدين والطبقة . تعيش كل أسرة منها فى انعزال عن الأخرى فلا يتلاقى الجيران إلا على السلم أو لدى الباب . وربما لقى الجار جاره فى بعض الطريق فلا يعرفه ، إلا إذا كان ممن يعلق شخصه بالذهن لسمة تميزه من سائر الناس كحسن يغترق البصر ، أو قبح يسترعى النظر ، أو شذوذ يشغل البال . . . من هؤلاء الذين يدخلون فى هذا الاستثناء المعلم فهمى رزق أستاذ الدروس الخصوصية فى حى (الظاهر) ، ومدرس الدين والعربية فى مدرسة (التوفيق القبطية) ، فلا تجد أحداً من سكان العمارة ولا من قطان الحى ينكره إذا رآه ، أو لا يذكره إذا عرفه ! كان يسكن الشقة المقابلة لشقتنا ، وكانت هذه الشقة لا تفتح فى اليوم كله إلا أربع مرات : مرتين حين يغدو هو وأخوه الأصغر فى الصباح ؛ ومرتين حين يروحان فى المساء ، ثم لا يدرى غير الله أتغلق بعدهما على أم أو زوج أو أخت أو خادم . لا يستطيع بشر أن يعرف ذلك ، لا بالعين لأنه لا يرى إنساناً من نافذة ، ولا بالأذن لأنه لا يسمع صوتاً فى غرفة . أما الشذوذ الذى يغرى به الطرف ويجمع له البال فهو فى شكله العجيب : كان مفرط القصر واسع البطن دقيق الأطراف[1] ، أوقص العنق ، مخروط الوجه ، أخوص العين ، أكزم الأنف ، أهرت الشدقين ، غليظ الشارب والحاجبين . ومالى أطيل عليك الوصف ، وأنت تستطيع أن تخفف مؤونته على قلمى إذا تصورت كرة أرضية من الخشب أو من

---

(١) أطراف البدن : اليدان والرجلان والرأس . أوقص العنق : قصيره . ومخروط الوجه : طويله . وأهرت الشدقين : واسعهما . وأخوص العين : ضيقها ، وأكزم الأنف : قصيره .

غيره قطرها متران ، وضع فوق قطبها الأعلى وجه عليه طربوش ، وتحت قطبها الأسفل قدمان فيهما حذاء ، ثم تدلى من الجانب الأيمن ذراع قصيرة فى آخرها مذبة عاج ، ومن الجانب الأيسر ذراع أخرى فى طرفها جريدة (الوطن) ؛ ثم اكتسى الظهر جاكتة كحلاء ، واكتسى البطن والساقان بنطلوناً أبيض . فإذا تخيلت بعد ذلك الكرة تمشى فتدب فى البطء دبيب السلحفاة ، وتخطو فى السرعة خطو الأوزة ، اجتمعت فى ذهنك صورة مقاربة للمعلم فهمى . حينما رأيته لأول مرة يتدحرج هابطاً فى السلم . وكان قد علم من قبل أن جاره مدرس الأدب فى الإعدادية الثانوية ، وناقل آلام فرتر هـذا العام إلى العربية . فلما أبصرنى صاعداً حيَّانى وعرّفنى بنفسه ؛ ثم سألنى أن يجلس إلىّ فى القهوة قليلا ليعرض علىّ مسائل فى الإعراب له فيها رأى . فقلت له : ولمـاذا نجلس فى القهوة وبين بيتى وبيتك خطوتان إذا شئت خطوتهما إليك فى أى وقت تحدده . فقال : أفضل أن أزورك فى عشية الغد .

وفى الجلسة الأولى جرى بينى وبينه حديث فى السياسة ونقاش فى النحو تبينت من خلالها أن الرجل طيب القلب ، وآفة الطيبة أنها تصاب أحيانا بالغفلة فتوقع صاحبها فى الزهو وتورطه فى الدعوى ؛ فهو يفخر بأنه خطأ قول الشنقيطى فى اللغة ، وزيف رأى اليازجى فى النقد ! ويدعى أن مصطفى باشا كامل يستشيره فى خطبه قبل أن تلقى ، وأن سعد باشا زغلول كان يسترشده فى بياناته قبل أن تنشر .

وفى الجلسات الأخرَ علمت أن الرجل لم يتم التعليم الابتدائى ، وأنه بحث عن مرتزق لا يضر فيه الجهل فلم يجد غير التعليم والصحافة ! فاختـار التعليم فى المدارس الابتدائية ، وتخصص فى تدريس اللغة العربية ، فـكان يعلمها مشاهرة فى المدرسة بجنيه ، وفى البيت بريال . ومن هذا المال اليسير ينفق على كسوته وقهوته

وسجائره ، ثم يعتمد فيما جاوز ذلك على مرتب أخيه ، وهو موظف بالابتدائية فى وزارة المالية ، وعلى تدبير أخته ، وهى تخيط فى بيتها لبعض البيوت التجارية. وهو وهذا الأخ وهذه الأخت هم الأقانيم الثلاثة التى تتألف منها هذه الأسرة المسيحية الطيبة ؛ فهى هو الأب ، وشحاتة هو الإبن ، وعائدة هى روح القدس ! ثلاثة أرباب وثلاثة عبيد ، كل منهم لأخويه إله بالاحترام وعبد بالحب ، وثلاثتهم يعيشون على الإيثار والتضحية ؛ فالأخ الكبير قد نيف على الأربعين ولا يريد أن يتزوج لأن أخته لا تزال آنسة ؛ والأخ الصغير أربى على الخامسة والثلاثين ولا يبغى الزواج لأن أخاه لايزال عزباً ؛ والأخت قد هدفت للسادسة والعشرين وهى تدفع الخطاب عن يدها لأنها لا تحب أن تترك أخويها عزبين .

وكل أخ يؤثر أخويه على نفسه ؛ فالمعلم فهمى يحنو على عائدة وشحاتة حنو الوالد الحدب : يقوم عنهما بشؤون البيت مع الناس ، ويجلب لهما حاجة المطبخ من السوق ، ويقبل مُكرهاً أن يخصه أخواه ببعض المال لأنه بكر الأبوين ومظهر الأسرة .

وشحاته أفندى يؤدى مرتبه أول كل شهر إلى أخته فلا يأخذ منه إلا شهرية الحلاق . وماذا يصنع بالنقود ؟ إنه لا يركب الترام ، لأن له قدمين قويتين تحملانه إلى الديوان ثم إلى البيت . . وإنه لايشترى الطعام ، لأنه يأخذ فطوره معه كل صباح : رغيفاً فى منديل وطعمية فى علبة ، أو ملوخية فى قارورة . . . فإذا رجع من عمله ، تولى كنس الغرَف ونفض الأثاث وغسل الآنية ، ثم يجلس بعد ذلك إلى أخته فيدير لها مكينة الخياطة ، أو يرفه عنها بأحاديث المدينة ، أو يذهب إلى التجار بالمخيط ليعود من عندهم بالقماش .

أما الآنسة عائدة فتشبل على العزَبين إشبال الأم العطوف : تدبر لها المنزل

فتطهو وتغسل وتـكوى ؛ وتدبر منهما الجسم فتقى وتُعالج وتمرِّض ؛ ثم لا تـكلفهما بعد لباس البيت إلا فستانا بسيطاً كل عام تذهب به أيام الآحاد إلى القداس .

وكان مرض الواحد مرض الثلاثة ، إذا شـكا أحدهم علة شـكا الآخران ألمها معه . وقد حرص المعلم فهمى على أن يقيس حرارة أخويه إذا لحظ عليهما فتوراً أو سمع منها شـكوى . وفى ذات ليلة من ليالى الشتاء طرق علىّ الباب فى أخريات الليل ، فانتبهت فزعاً وفتحت فإذا هو ينتفض انتفاض المحموم وينشج نشيج الطفل . فقلت له : خير ياصديقى ! ما الذى يبكيك ؟ فقال : أختى فى نزاع الروح ، وإن حرارتها ثلاث وأربعون درجة ؛ وقد بعثت أخى فى طلب الطبيب القريب ، فلما أخبره أن حرارتها ثلاث وأربعون درجة أغلق الباب فى وجهه وهو يصيح : إذهب يامجنون إلى الحانوتى ولا تضع وقتك !

قال المعلم فهمى هذا وهو يجذب يدى حتى دخل بى غرفة المريضة فوجدتها راقدة على سريرها العالى ، لحافها دائر على خصرها ، ويداها مشبوكتان على صدرها ، ونفَسها يتردد هادئا كنفَس الطفل ، ووجهها يشرق نديا كوجه الصبح . وكان على مقربة من سريرها منضدة عليها مصباح كبير من طراز المصابيح التى كانت تضاء بها الصواوين فى الأعراس والمـآتم قبل أن تعم الـكهرباء . فلما وقفت إلى جانب سريرها وجسست يدها ومسست جبينها وجدت حرارتها توشك أن تـكون طبيعية ؛ ولـكن أخاها أرانى مقياس الحرارة فوجدت زئبقه على الآخر . فنفضت المقياس ووضعته فى فم المريضة المستسلمة ثم قرأته فإذا هو سبع وثلاثون درجة ونصف درجة ! فلما نطقت بالرقم دبت الحياة فى عائدة ففتحت عينيها ، وعاد الهدوء إلى فهمى فـكف دمعه ، وأخذ شحاتة الدهش ففغر فاه ، وسرى النشاط من الغرفة إلى سائر البيت فقفزت من تحت الـكنبة أرنب ، وقاقت من فوق

المائدة دجاجة ، وتمطت من بين الفراش هرة . ولكن المعلم فهمى أراد أن يتأكد مما قلت ، فأخذ مقياس الحرارة وأدناه من المصباح لضعف بصره ، ثم أخذ يقلبه وينظر ، ثم يقلبه ، وينظر ، حتى مضى على المقياس دقيقتان بجانب المصباح المشتعل الوهاج ، ثم اهتدى أخيراً إلى الزئبق الصاعد فإذا هو الآخر الطرف الأعلى من المقياس . فقال وهو يرتجف : أنظر ! هاهى ذى الدرجة ثلاثاً وأربعين ! فقلت له وأنا أبتسم ابتسامة عريضة : هذه ياصديقى درجة المصباح لادرجة المريضة !(١) .

* * *

أقلعت الحمى المزعومة عن جسد عائدة الرشيق الغض ، فشعرت شعور الفتاة الصحيحة بأن رجلا أجنبيا فى غرفتها فنهضت بحكم الغريزة تتعهد مواضع احتشامها ، وتجمع بيدها ما تشعث من هندامها . ثم نظرت إلى بطرفها الساجى نظر المطمئن الشاكر .

فقلت لها : كيف تجدينك الآن يا آنسة ؟ فأجابت فى ابتسامة خجلة وصوت خريد : « أجدنى والحمد لله كأن لم يكن بى شىء . وإنّا لنعتذر إليك ياسيدى من إزعاجك فى مثل هذه الساعة . والحق أنى لا أعرف كيف جرى ذلك ! شكوت أول الليل فترة فى جسدى لعلها مسّة من البرد ، فلما قاس أخى حرارة جسمى وقال إنها ثلاث وأربعون درجة اعتقدت أنى مشفية على الموت ؛ لأن فهمى لا يمزح فى مثل هذه الحال ، والمقياس لم يغشنا قبل هذه المرة . وحينئذ شعرت بدمى يفور ، وبنفسى يتتابع ، وبنبضى يسرع ، وبروحى تذوب ، وبجسمى ينحل . ثم نزلت بى غشية الموت فرأيت ثلة من القديسين وفى أيديهم الأناجيل يرتلون من حولى آيات الغفران وأدعية الرحمة . فلما أوشك السراج أن ينطفىء سمعت

(١) كانت حرارة المصباح هى التى مددت الزئبق فارتفعت الدرجة لشدة قرب الميزان من المصباح ولطول مكثه على هذا الوضع .

قديساً من بينهم يقول ضاحكا : إن حالتها تـكاد تـكون طبيعية ، وإن حرارتها سبع وثلاثون درجة ونصف درجة ! ففتحت عينيّ فإذا بك واقف على سريري وفي يدك المقياس . ثم فهمت من الحديث الذي جرى أن حرارة المصباح الشديدة هي التي رفعت الدرجة حين أدناه أخي من لهيبه وقلبَّه طويلا على حره . حينئذ فتر الدم الغالي ، وأبطأ النبض السريع ، وتماسك الروح القلق ، وخف الجسم الثقيل ، فنهضت أشـكر عائدي الـكريم وأعتذر إليه ، وجلست أطمئن بيتي المرتاع وأسرِّي عنه .

فقلت : نحمد الله على أن جعل مرضك وهماً لاحقيقة ، ونسأله ألا يصيبك المرض إلا بهذه الطريقة . ثم هممت بالانصراف ، فأقسم المعلم فهمي ألا أخرج حتى أشرب قدحاً من شاي شحاته ، أو كأساً من عرق (عزّوز) .

فقلت له وأنا أمكّن لنفسي في الـكرسي المخلّع :

— لا بأس أن أبر يمينك بأخف الضررين . هات الشاي نشرب به على صحة الآنسة .

فذهب شحاته يطبخ شايه ، وسرعان مارجع خزيان يعتذر بأن زجاجة المصباح الأصغر قد تحطمت في الفزعة التي سببها المصباح الأكبر .

فقلت لهم : وماذا يضطركم إلى الاستضاءة بالـكيروسين والعمارة كلها تستضيء بالـكهرباء ؟

فأجاب المعلم في لهجة الأستاذ وهيئة العبقري .

خلاف بيني وبين شركة النور على التأمين الذي تأخذه مقدماً من المشترك .. هي تريد أن (أدفعه) ، وأنا أريد أن أمنعه . ومعاذ الله أن أكون مغفلا كجميع مشتركيها فأنزل لها عن بعض مالي بغير حق . إن التأمين مال ميت . لأنك لاتستفيد منه مادام النور ، والنور لاتستغني عنه مادامت الحياة . وقد تحدثت

فى ذلك إلى رئيس الوزارة فاقتنع ووعد بأن يطلب من الشركة إما أن تأخذ التأمين بأجر ، وإما أن تكتفى منه بالتأمين على استهلاك شهر .

ومنذ تلك الليلة تفتحت بيننا الأبواب وتكشفت دوننا الحجب ، فإذا أصبحنا تذاكرنا فصول النحو فى مكتب فهمى . وإذا أمسينا تناقلنا شهى الحديث فى مجلس عائدة . واتفقت لى مع الآنسة الطيبة خلوات أنست فيها النفس بالنفس ، واطمأن الضمير إلى الضمير ، فعلمت من دفائن نفسها أنها أحبت ، وأن حبيبها كان من أهل الرؤاء الباهر والثراء القليل . كان يعمل فى تقطير (العرق) وجلب (الملوحة) ويطمع منها فى صداق ضخم يوسع به معمله ، ويبنى عليه مستقبله ، وكانت هى ترجو أن تدبر له هذا الصداق من تجارة أبيها الرابحة فى القطن والزيت. ومضى على هذا الحب العنيف العفيف ثلاثة أعوام كانت فى خلالها تلقى فتاها فى إيابها من المدرسة ، أو فى ذهابها إلى الكنيسة ، فينضحان هواهما المكظوم المحروم بما تيسر من أناشيد الغزل وأحاديث المنى ، ويتشاوران فى مستقبل هذا الحب الجائش النامى : متى يعرف الأبوان . ومتى تعلن الخطبة ، ومتى ينعقد (الجبنيوت) ، ومتى يكون الزفاف ؟ وانتهى التشاور بينهما ذات يوم إلى أن يتقدم الخاطب فى الأحد القريب إلى أبويها فيطلب يدها ويعلن خطبتها . ومضت هى تهيء سمع أمها إلى هذا الخبر ؛ وكانت الأم قد عرفت عن طريق غريزتها وأمومتها سر هذا الحب فلم تدهش حين صارحتها ابنتها به ، ووعدتها أن تظفرها فى وقت واحد برضا الأب وضخامة الصداق : ولكن أمها مرضت فى ذلك الأسبوع مرض الموت فتأجلت الخطبة . ولحق بها أبوها بعد عام فتجدد التأجيل . فلم يمل الخاطب الحبيب هذا الانتظار ، لأن حظ عائدة من الجمال يتسع له الصبر ، ونصيبها من تركة أبيها يستحيل منه العوض . ولكن تركة المرحوم تكشفت بفضل المضاربة فى البرصة عن دين فادح كان يستره بجمال المظهر وحسن السياسة ، فلم يجد بنوه شيئاً فى البنوك ولا فى الدفاتر . فخرج فهمى من المتجر وتبطّل ، وانقطع شحاتة

عن المدرسة واشتغل ، واعتكفت عائدة في بيتها عن الناس فلم تزر أحداً ولم تقبل أن يزورها أحد . ثم قصرت جهدها على أخويها وحبها على المسيح ؛ فهي تعمل طول الأسبوع في البيت ولا تخرج إلا يوم الأحد إلى الكنيسة . ثم استعاضت عن عشرة الناس بعشرة الحيوان . فهي تربي الأرانب في المطبخ ، وترعى الدجاج في الصالة ، وتقتني كلباً في الغرفة ، وتصطحب هرة في السرير . ولكنها منذ عرفتها وتألفتها نظفت البيت ونظمت الأثاث وجملت المنظر واكتفت من خلطائها العُجم بالكلب والهرة .

ثم تعاقبت السنون وتبدلت الأحوال فانتقلنا من حي إلى حي ، وتحولنا من ناس إلى ناس ، فانقطع علم ما بيني وبين هذه الأسرة الطيبة ، فلم أعد أرى فهمي البطين ، ولا شحاتة الأعجف ، ولا عائدة الرشيقة .

وفي يوم من عطلة عيد الأضحى الماضي كنت واقفاً أجيل النظر في المعرض الزجاجي لمكتبة من مكاتب الفجالة ، فرأيت بجانبي رجلاً أشمط الرأس معروق العظام يحمل قرطاساً من البلح الأمهات ويديم النظر إلي وفي عينيه استفهام وعلى شفتيه كلام . فلما حدقت ببصري إليه عرفت فيه شحاتة أفندي ، فسلمت عليه بشوق ، وسألته عن أخويه بلهفة . فقال لي والأسى يقطر من وجهه ويظهر في كلامه : قضى فهمي بالشلل ، وقضت عائدة بالسل ، وقضى الله أن أعيش بعدهما لأبكي عليهما وحدي ، ثم لا أجد من يبكي عليهما ولا عليَّ بعدي !

فشجعته ثم ودعته ؛ وانصرفت وفي نفسي أن أحيي ذكرى هذه الأسرة الطيبة بهذه الكلمة في « الرسالة » .

أسرة منبوذة

(١٣ ديسمبر سنة ١٩٤٨)

جمعنى مجلس من مجالس المنصورة الأدبية ببعض السيدات الحديثات من اللائى يتزعمن دعوات الخير ، ويتصدرن حفلات التكريم ، ويغشين أندية الرياضة . وكان مجلسى من الصالون بين سيدتين رشيقتين أنيقتين لهما اطلاع على الأدب ومشاركة فى الثقافة . فجرى الحديث بينهما وبينى أول الكلام فيما يشغل الناس عن أمر فلسطين ومصير اللاجئين ؛ ثم أفضى إلى ذكر ما تبذلان من الجهد الجاهد فى معونة الهلال الأحمر ومبرة محمد على ، فنم سياق حديثهما وما شاب أداءه من نبرات الزهو وحركات العُجب على ما تضمران من حب الظهور ورغبة الشهرة ، فى طوايا ما تظهران من حب الخير ورغبة المنفعة . والمرأة الجميلة الغنية لا تجد فى الحياة المصرية مظهراً لفتنتها ، ولا معرضاً لزينتها ، ولا سبيلا لشهرتها ، إلا فى الحفلات الخيرية والخدمات العامة . فهى تشترك فيها بالشعور والحضور لتظهر ، وتتبرع لها بالجمال والمال لتُذكر ! بله ما تشعر به من الرضا والغبطة بمنافستها للرجل فى ميدان عمله ، ومساعدتها للوطن على تحقيق أمله .

انتقلنا إلى حديث الأدب فذكّرتنى إحداهما بما كتبته فى الرسالة عن (مثل المصرية الحديثة) فشكرت بعضه وأنكرت بعضه . وكان الذى أنكرته ما يرمى إلى تقييد المرأة وقصر كفايتها على تربية الطفل وتدبير البيت ومعاونة الرجل . ثم مضت تنوه بما يكون المرأة الحرة المستقلة من أثر فى الأسرة وبلاء فى المجتمع إذا شاء الرجال أن يفردوها بشؤون البيت ويشركوها فى أمور الوطن. وفى اللحظة التى كانت تقول فيها : « إن المرأة روح الأمة والرجل جسمها ؛

وإن الزوجة رأى الأسرة والزوج عزمها ، طغى على صوتها الحماسى صوت سيدة نَصَف كانت تتحدث فى تأثر وامتعاض إلى هلال[١] من عقائل المدينة فيهن ربة الدار ؛ فأصاختا وأصاخ الجلوس فإذا هى تروى حادث الطلاق الذى وقع فى الأيام الأخيرة بين فتى محافظ أبوه من نبلاء الريف ، وبين فتاة حرة أبوها من أطباء المدينة . وكان سبب هذا الطلاق الذى أعقب الزواج أن العروس كانت مغرقة فى التحرر ، مسرفة فى التجدد ، فسمت بنفسها على أسرة العريس ، ورمت حماها بالرجعية وحماتها بالأمية ، وطلبت أن تسيطر على أرزاق البيت وعلى أهله ، فتبدل أثاث الغرف كل سنة ، وتغير زى النساء كل شهر ، وتقيم حفلة استقبال كل أسبوع . ثم اقترحت أن يزال الجدار الحاجز بين البهو والردهة ليكون منهما مرقص متى أريد الرقص ، ومقصف متى أريد القصف ؛ وأن يُقلع الشجر المثمر فى الحديقة لينشأ على مكانه ملعب للتنس وحوض للسباحة . وكان المطلب الأخير ألا يدخل البيت ريفيون من أقارب الزوج ولا فلاحون من رجال العزبة . فلم يستطع الزوج معها صبراً ، ولم يجد أبوه لترويضها حيلة ، فكان الفراق وكانت الفضيحة !

فلما سمعت جارتاى الخبر وكانتا على علم به من قبل ، قالتا بلسان واحد : « المودرنة للمودرن ، والقديمة للقديم ! والمخطىء هو الذى ينزل فى غير أهله ، ويقع على غير شكله ! »

ثم تركت القوم يعلقون على الحادث والحديث بما يشاءون ، وانتقلنا إلى مائدة الشاى ثم عدنا حيث كنا . وعادت جارتى اليسرى إلى حديث التقيد والانطلاق ، وكانت جارتى الأخرى قد فتحت محفظتها وأخرجت منها قلم (الروج)

---

(١) جماعة يجلسن على هيئة الهلال .

أو الإصبع الأحمر ، وأخذت تجدد به صبغة شفتيها ، ثم أعادته وأخرجت سيكارة إنجليزية وأشعلتها ، وقطعت صاحبتها الحديث وفعلت فعلتها . ثم لحظتا بعض الهنوات على زينة المدعوات وأزيائهن ، وتبادلتا بعض الغمزات على كلام المتحدثات وآرائهن . ثم أقبلتا عليّ تستأنفان ما كنا نخوض فيه من الحديث فوجدتاني شارد اللب مطرق الرأس مطبق الجفنين كأنما أخذتني فترة النعاس ، فقالتا لي : ماذا عراك ؟ فقلت لهما : ذكرى بعثها في الخاطر هذا الأحمر على شفتيكما وخديكما ! فقالتا : أنعم بذكرى تظفرنا منك بحديث ، وتمتعنا بلذة الموازنة بين القديم والحديث !

نعم ياسيدتيّ أذكر أني كنت وأنا صبي أمر في طريقي إلى الكتاب بمنزل المعلم يوسف النجار فأجده كل صباح جالساً تحت جداره ، في يمناه قدومه وفي يسراه يد فأس يسويها ، أو بسخة محراث يقويها ، أو ورش طنبور يجدده ؛ وأصحاب هذه الأدوات من شباب القرية قيام من حوله أو قعود ينتظر كل منهم دوره ليقدم آلته أو ليسأل حاجته . وكان مظهر النجار المرح ومنظر حلقته الصاخبة يغريان صبيان الكتاب بالوقوف ، فيقفون ليسمعوا هذا يستحثه بالسب لأنه عوّقه عن الحولي، وذاك يبادره بالعتب لأنه غشه في خشب الزّحافة ، وذلك يركبه بالدعابة لأنه غبنه في ثمن النورج ؛ ثم ليروا المعلم يوسف مكباً على عمله ، ووجهه متهلل بالضحك ولسانه متحرك بالمزاح ، يجزي على السباب بالنكتة اللاذعة ، ويحتج على العتاب بالحجة البارعة ، ويرد على الدعابة بالسخرية المرة . حتى إذا انصرف الفلاحون إلى حقولهم ، انصرف هو إلى دورهم ، فتسأله هذه إصلاح المطرحة ، وتسأله تلك تثبيت الباب ؛ وهو يجيب كل طلب بابتسام ، ويؤدي كل عمل باهتمام ؛ لأنه يقوم لأهل القرية جميعاً بنجارة البيت والغيط مسانهة ، فيأخذ من كل أسرة كيلتين في موسم القمح وكيلتين في موسم الذرة . ومن هذه الجباية السنوية تجتمع له ثروة

من الحب تظهر بركتها فى عيشه الرضىّ وباله الرخى وزيله الجميل . واستبد النجار الوحيد بخير البلد وارتفع به الغنى إلى طبقة أعيانه . ونظر يوسف فى أمره فلم يجد فى نفسه حاجة يتمناها على الله غير زوجة تكون لعُشه الخالى سكينة وزينة . والتمسها فى فتيات القرية فلم ينلها ، لأن الفقيرة أقل مما يبغى ، والغنية أكثر مما يستطيع . فأشارت عليه أمه العجوز أن يتزوج من قرية أخواله وهى على بعد كيلين من قريته . فدله نصيبه على فتاة رأيناها بعد زفافها عليه ودخوله بها فإذا منظرها يملأ العين ويشغل الفؤاد : جسم بض ممتلىء يكاد الثوب من ريِّه يلتصق به ؛ وقوام سبط معتدل يتثنى تثنى الغصن الأملد ؛ ووجه مشرق اللون كأن على كل صفحة من صفحتيه وردة جورية أو تفاحة أمريكية ؛ وساعدان عبلان يحليهما من الرسغين إلى المرفقين أساور من الزجاج الأحمر المذهب ؛ ويدان رخصتان تزينهما أسطار من الوشم الأخضر المنمنم ؛ وهندام مدنى جرىء ظل حديث الدور والمصاطب مدة طويلة !

كثر الفضول حول دار النجار ، فكل امرأة تريد أن ترى ، وكل رجل يحب أن يسمع . ومضت الأيام ومال بعض الجارات على بعض يقلن وهن يملأن جرارهن من النهر . إن لامرأة المعلم يوسف لونا حين يتنفس الصبح ، ولونا حين يمنع الضحى . لونها فى طلعة الشمس أسمر حائل ، ولونها فى ميعة النهار أزهر مشبوب !

ثم مضت الأيام وقالت جارة لصواحبها وهن يحملن الحطب إلى البيوت : لقد رأيت بعينى محمدا العطار يقف على باب النجار ويعطى زوجه شيئا فى السر، فأخذته مسرعة وهى تتلفت ، وغيبته فى ثوبها وهى تهمس . ومحمد العطار هذا بائع جوال يتنقل بحماره وخُرجه بين القرى المتجاورة ، فيبيع اللبان اللدْن والصابون المسَّك والمناديل المزركشة والفوائش الملونة وسلعا أخرى تتصل بالزينة

والتجميل يسارُّ بها النساء ، فينفرن منها ويطول حديثهن عنها .

ثم مضت الأيام وجاءت جارة أخرى تعرض على جاراتها وهن يخبزن رُغفانهن فى الفرن المشترك ، حُقه صغيرة من الصفيح الأخضر على غطائها المستدير مرآة ، وفى جوفها الفارغ آثار من صبغ أحمر . وتقول إنها التقطت هذه الحقة خفية من دار النجار ، وهى تؤكد أن هذا الأحمر هو (حسُن يوسف) الذى طالما أغراهن به العطار ؛ وترجح أن هذه المرأة الفاجرة تصبغ به وجهها . ولا يجرؤ على تغيير خلقة الله إلا الغوازى فى القرى وبنات الهوى فى المدن . ولا بد أن تكون هى من هؤلاء أو من أولئك .

وانتشر الخبر فى القرية انتشار الظلام ، فلم يبق من لا يعرف أن زوجة المعلم يوسف تستعمل حُسن يوسف .

ثم مضت الأيام وغدوتُ ذات صباح إلى الكتاب ومررت فى طريقى إليه بدار النجار فإذا الحال غير الحال والمنظر غير المنظر : تقوض المجلس وأقفر المكان ، فلا الرجل قاعد تحت جداره ينجرُ ، ولا الجمع حاشد من حوله ينتظر ! وأسأل نفسى وأسأل الصبيان : ماذا صنع الدهر بالمعلم يوسف ؟ لم يعدُ رجل يستأجره لعمل ، ولم تعد امرأة تزوره فى حاجة ! فيقولون لقد قاطعه القريب وتحاماه البعيد ، لأنه تزوج من الخبيزة ! والخبيزة كما علمت من بعد اسم يطلقه أهل المنصورة وضواحيها على المواخير . وللمواخير الفسق ما لحارات اليهود من تعدد الأسماء فى مختلف الأنحاء على مسماها القذر الواحد !

وطال احتباس الرجل فى بيته وتعطّله من عمله حتى صدىء قدومه ومنشاره ، وبيع فى الدين متاعه وعقاره . فاقترحت عليه أمه أن يطلق زوجه إبقاء على سمعته وصحته وصنعته . فقال لها فى إباء وألم : وما ذنب هذه المسكينة يا أماه ، وإنك لتعلمين كما أعلم أنها طاهرة الثوب قاصرة الطرف ، وإنما جنى عليها هذه

الجناية تقليدها البرىء لابنة عمها المتزوجة فى القاهرة . وقد حرمت على نفسها منذ أن شاع ماشاع أن تتزين حتى بالزجاج ، وأن تتجمل حتى بالكحل . والرأى عندى أن نهاجر تحت الليل إلى عزبة من العزب المنشأة فى أطراف باقاس فنستأنف هناك حياة جديدة ، وعسى الله أن يجعلها بفضل براءتنا واستقامتنا موفقة سعيدة .

وأصبح الناس فإذا دار النجار مفتوحة بعد أن ظل بابها مغلقاً أثناء الأنهار سنة وشهرين لم يدخل منه داخل ولم يخرج منه خارج . فنفذ المارّون بأبصارهم إلى دهليزها فلم يلحظوا حركة تبدو ، ولم يسمعوا صوتا ينبعث . فتسللوا إليها حذرين مستطلعين فلم يجدوا وا أسفاه إلا رَبعاً أوحش بعد أنس ، وروضا صوح بعد بهجة ، وشملا تبدد بعد اجتماع .

ثم مضت الأيام وتعاقبت الأعوام وفعل الزمن فعله فى العقول والميول فأصبحنا فإذا الرجل هو الذى يشترى الأحمر لزوجته لتصبغ ، ويخلع المعطف عن ظهر أمه لتعرى ، ويشعل السيكارة لأخته لتدخن ، ويقدم المراقص إلى ابنته لترقص !

ما أقربنا من ذلك الزمن وما أبعدنا عن تلك الحياة ! كان الولد يشب ثم يتزوج ثم يولد له ، ويبتليه الله بالتدخين فلا يستطيع أن يعلن ذلك لأبيه ، ولا يجرؤ على أن يدخن فى حضرة من يكبره . وكان الإخوة لأب وأم يعيشون فى دار واحدة ثم لا يرى أحدهم زوجة الآخر . وكانت المخدَّرة إذا سهّلت من حجابها ، أو تبرجت بين أترابها ، انتفت منها العشيرة وتحامتها الجيرة . ثم أمسينا فإذا المرأة هى التى تدبر الأمر وتسير العرف وتحجب الرجل : وإن مجلسى منكما هذا المجلس ، وظهور كما علىّ هذا الظهور ، لشاهدان على هذه الحال !

فقالت جارتاى بلسان أوشك أن يكون واحدا فى لفظه : تلك سنة الحياة يا أستاذ ! قدمٌ ينسخه تجدد ، وتأخر يدفعه تقدم ، ورق يخلفه تحرر ! فقلت لهما

إن ألفاظ التجدد والتقدم والتحرر كألفاظ الحق والعدل والاستقلال ، لها في كل ذهن معنى ، وفي كل نظام صورة ، وفي كل أمة دلالة . لقد تقدمنا في التعليم ولم نتقدم في التربية ، وجددنا في الصورة ولم نجدد في الفكرة ، وتحررنا من السوط ولم نتحرر من الهوى ! وهنا سحبت جارتي اليسرى من محفظتها سيكارة أخرى ، ثم بحثت عن علبة الثقاب فلم تجدها ، فاضطررت إلى أن أقطع الحديث وأدور بين الجماعة ، لألتمس لها من بعضهم ثقابا أو ولاعة !

الإسلام دين القوة

(٣ يناير سنة ١٩٤٩)

الإسلام دين القوة ؛ وهل فى ذلك شك ؟

شارعه الجبَّار ذو القوة المتين ؛ ومبلغه محمدٌ الصبَّار ذو العزيمة الأمين ؛ وكتابه هو القرآن الذى تحدى كل إنسان وأعجز ؛ ولسانه هو العربى الذى أخرس كل لسان وأبان ؛ وقواده الخالديون[1] هم الذين أخضعوا لسيوفهم رقاب كسرى وقيصر ؛ وخلفاؤه العمريون[2] هم الذين رفعوا عروشهم على نواصى الشرق والغرب . فمن لم يكن قوى البأس ، قوى النفس ، قوى الإرادة ، قوى العدة ، كان مسلماً من غير إسلام ، وعربياً من غير عروبة !

الإسلام قوة فى الرأس ، وقوة فى اللسان ، وقوة فى اليد ، وقوة فى الروح .

هو قوة فى الرأس لأنه يفرض على العقل توحيد الله بالحجة ، وتصحيح الشرع بالدليل ، وتوسيع النص بالرأى ، وتعميق الإيمان بالتفكير .

وهو قوة فى اللسان لأن البلاغة هى معجزته وأداته . والبلاغة قوة فى الفكرة ، وقوة فى العاطفة ، وقوة فى العبارة .

وهو قوة فى اليد لأن موحيه — وهو الحكيم الخبير — قد علم أن العقل بسلطانه واللسان ببيانه لا يغنيان عن الحق شيئاً إذا ما أظلم الحس وتحكمت النفس وعميت البصيرة ، فجعل من قوة العضل ذائداً عن كلمته وداعياً إلى حقه ومنفذاً لحكمه ومؤيداً لشرعه . كتب على المسلمين القتال فى سبيل دينهم ودينه ؛ وفرض عليهم إعدادَ القوة والخيل إرهاباً لعدوهم وعدوه ؛ وأمرهم أن يقابلوا اعتداء المعتدين بمثله . ولكن القوة التى يأمر بها الإسلام هى قوة الحكمة والرحمة

(١) نسبة إلى خالد بن الوليد . (٢) نسبة إلى عمر بن الخطاب .

والعدل ، لاقوة السفه والقسوة والجور ؛ فهى قوة مزدوجة ، أو قوة فيها قوتان: قوة تهاجم البغى والعدوان فى الناس ، وقوة تدافع الأثرة والطغيان فى النفس .

والإسلام بعد ذلك قوة فى الروح لأنه يمحص جوهرها بالصيام والقيام والاعتكاف والارتياض والتأمل .

وأنت إذا عرضت على الفكر السليم الحكيم مرامى العقيدة الإسلامية ، وجدتها كلها تتجه إلى القوة : أو إلى ما تحصل به القوة . فالصلاة نظافة جسدية بالوضوء ، وطهارة روحية بالذكر ، ورياضة بدنية بالحركة . والزكاة تقوية للضعيف بالتصدق ، وتنمية للمال بالتطهير ، وتمكين المجتمع بالتعاون . والحج قوة اجتماعية بالتعارف والتآلف ، وقوة سياسية بالتشاور والتحالف ، وقوة اقتصادية بالبياعات والتسوق . وإن أشد ما تجتمع به القوة وتتسق عليه الحال هو الوحدة والجماعة ، وهما لباب الدعوة الإسلامية . فالوحدة هى الأساس الذى حمل ، والجماعة هى الصرح الذى قام . كانت الوحدة هى الأساس لأنها توحيد لله بعد إشراك ، وتوحيد للعرب بعد شتات ، وتوحيدٌ للرأى بعد تفرق ، وتوحيد للغة بعد تبلبل ، وتوحيدٌ للقبلة بعد تدابر . وكانت الجماعة هى الصرح لأنها جُمعة القلوب التى ألف بينها الله ، وجملة الشعوب التى رفع شأنها محمد . ثم قامت سياسة الإسلام على استدامة القوة بالمحافظة على الوحدة والحرص على الجماعة ، فالفرد الذى يكفر بوحدة العقيدة والأمة يقتل ، والطائفة التى تبغى على جماعة المسلمين تقاتَل . والصلاة إنما يعظم أمرها ويضاعف أجرها إذا أديت فى جماعة . وهذه الجماعة تتكرر خمس مرات كل يوم ؛ ثم تكبر فى صلاة الجمعة كل أسبوع ، ثم تعظم فى صلاة العيدين كل عام ، ثم تضخم فى أداء الحج مرة — على الأقل — فى كل عمر .

على ذلك كان إسلام محمد وأبى بكر وعمر . وعلى ذلك كانت عروبة خالد وسعد وعمرو . كان العرب والمسلمون حينئذ يحملون المصحف للحق والسيف

للباطل . وكان خلفاؤهم يجمعون بين إمامة الصلاة وقيادة المعركة ، حتى بلغوا من القوة أن فعل كتاب الرشيد ما يفعل الجيش ،[١] وبلغوا من المروءة أن سيّر المعتصم جيشاً لإنقاذ امرأة[٢] . فلما شذت الوحدة ، وتفرقت الجماعة ، وصارت سيوف المسلمين خُشُباً يحملها خطباؤهم على المنابر ، ومصاحفهم تمائم يعلقها مرضاهم على الصدور ، أصبحت دولهم تبعاً لكل غالب ، وتراثهم نهباً لكل غاصب ؛ وبلغوا من التخاذل والفشل أن الأندلسيين يجليهم النصارى عن أقطارهم بالأمس فلم يجدوا الرشيد ، وأن الفلسطينيين يشردهم اليهود عن ديارهم اليوم فلا يجدون المعتصم !

إن مسلمي هذا الزمن الأخير صاروا من جهلهم بالدين وعجزهم في الدنيا على أخلاق العبيد ، يُطأطأ إشرافهم فلا يفدي لهم جبين ، وتُنقص أطرافهم فلا يَحمي لهم أنف ، وتنزل بهم الشدة فيتخاذلون تخاذل القطيع عاث فيه الذئب ، ويغير عليهم العدو فيتواكلون تواكل الأخوة دبّ فيهم الحسد . وتجمعهم الخطوب فيفرقهم الطمع والهوى ، ويلجأون إلى جماعة الدول المتحدة فيخذلهم العدو والصديق ! كأن الإسلام الذي كان عامل قوة وائتلاف ، قد انقلب اليوم علة ضعف واختلاف ! وكأن الذين كنا نقول لهم بلسان الجهاد : أسلِموا تسلَموا ، يقولون لنا بلسان الاضطهاد : تنَصَّروا تنْصروا ! ولكن الإسلام دين الله لا يغيره الزمن ، ولا تجافيه الطبيعة ، ولا يعاديه العلم ، ولا تنسخه المذاهب ؛ وإنما المسلمون اليوم هم أعقاب أمم وعكارة أجناس وبقايا نظم ورواسب حضارات وربائب جهالات وطرائد ذل ، ففسدت مبادىء الإسلام في نفوسهم المشوبة كما يفسد الشراب الخالص في الإناء القذرِ .

إن جامعة الدول العربية كانت تعبيراً جميلاً لحلم ساور النفوس الطيبة حقبة

---

(١) إشارة إلى كتاب الرشيد إلى نيقفور امبراطور الروم .

(٢) إشارة إلى فتح المعتصم لعمورية .

من الزمن . ولكن الحلم قد يقع ولا يقع ، والتعبير قد يصدق ولا يصدق . ولو كان ميثاق هذه الجامعة قبساً من نور الله وهدياً من سنة الرسول لما رأيناها في نكبة فلسطين تعد ولا تنجز ، وتقول ولا تفعل ، ولو ظل أمرها قائماً على الخطب الحماسية والوعود المغرية والتصريحات البليغة والاجتماعات المتعاقبة ، لظلت في نفوس العرب والمسلمين مناط الثقة ومعقد الرجاء ومثابة الأمن ؛ ولكن طالعها السيء ابتلاها وهي لا تزال في زهو النشأة وصفو المآدب بحرب الصهيونية المهينة ، فتحمست الدول السبع ، وسيّرت كتائبها المظفرة إلى عصابات اليهود في فورة من الأناشيد والخطب . فلما صار الأمر جداً والكلام فعلاً وقفوا على أطراف الميادين وقفة الحائر القلق : هذا يتجه إلى بريطانيا وفي يده التاج الناقص ؛ وذاك يلتفت إلى أمريكا وفي كفه العقد المبرم ؛ والآخرون يتهيبون الأمر وينتظرون في ظلال الهدنة المفروضة ما تلده الأحداث ويقرره مجلس الأمن !

وليس من هؤلاء الآخرين المنتظرين والحمد لله مصر ؛ فقد قضت عليها حمايتها للإسلام ورعايتها للعروبة وأمانتها للجامعة أن تقف وحدها في الميدان الغادر تكافح في صدق وصبر جيوش اليهود وقواد الروس وأسلحة الأمريكان ومكر الإنجليز ؛ ثم لا تتلقى من أخواتها الشقيقات إلا هتافاً كهتاف الحمام وحناناً كحنان الأوز : بروق باسمة من غير غيث ، وصكوك ضخمة من غير رصيد !

لقد تكشفت مأساة فلسطين — واسوأتاه — عن قلوب شتّى ووجوه متعارضة . والإسلام — كما رأيت — وحدة وجماعة . فمن فصم العروة بعد توثيقها ، ونقض اليمين بعد توكيدها ، وفرق الكلمة بعد توحيدها ، فهو مسلم من غير إيمان وعربي من غير شرف ، وإنسان من غير ضمير .

قروية فيلسوفة

(٣١ يناير سنة ١٩٤٩)

لا يا صديقى ! لا أريد أن تَبيضَّ صحيفتى ![1]

كان العشاق لا يطيقون الرقيب وله عين ، فكيف يطيقونه اليوم وله عين ولسان ، وقلم وسلطان ؟ دعنا من حديث شرق الأردن والعراق والجامعة ، وتعال أحدثك حديثاً رفيقاً رقيقاً ، إن خلا من الفائدة فلا يخلو من اللذة ، وإن بعد عما يشغل الناس فلا يبعد عما يشغل النفس :

أم عامر قروية شيخة ، تعد الستين من عمرها فى سرها ، ولكنها كسائر النساء لا تجاوز الثلاثين منه فى جهرها . وهى فى سبيل التدليل على استحارة شبابها واكتمال قواها تتحامل على نفسها ، فتحلب الجاموسة ، وتملأ الزير ، وتخبز الفطير ، وتكنس الدار ، وتكسح الزريبة ، وتعلف الماشية ، وتطهو الطبيخ ، وتعلق فى عنقها مفاتح الحبوب والنقود واللبن والكرار ، فلا يستطيع أحد من أولادها وحفدتها أن يصل إلى شىء من أولئك إلا عن يدها . فإذا أشفقت عليها كَنَّتاها[2] ورغبتا فى أن تعيناها على شأن من شؤون المنزل ، قالت لهما فى كبرياء وأنفة : أنا لا أزال صبية مثلكما ! عليكما الغيط ، وعلىّ البيت ! والحق أن السيدة أم عامر قروية ذكية : تمرست بالشدائد فازدادت مِرّة[3] ، وتصرفت فى الأمور فاكتسبت خبرة ، واضطربت فى المعاش على هوى الزمن القلّب فتعلمت بالتجربة ، وتفلسفت بالسليقة ؛ فكلامها حِكم وحديثها أمثال ورأيها حجة . ومن أجل ذلك تميزت شخصيتها فى المجتمع

---

(١) إشارة إلى ما كان يقترفه (رقيب المطبوعات) يومئذ من حذف ما لا يروقه من المقالات فى الصحف والمجلات فيظهر بعض الصفحات بيضاء

(٢) الكنة : زوجة الابن (٣) المرة : القوة .

الريفى فأصبحت كالعرافة فى العهد القديم ؛ تستخيرها كل امرأة ، وتستشيرها كل أسرة . وهى إلى ذلك طويلة الأنف تدسه فى كل منزل ، شرفاء[١] الأذن ترهفها إلى كل مجلس ، فلا يقع فى العزبة حادث أو حديث إلا كان عندها علمه ومن لدنها ذيوعه .

رأيتها صباح يوم من أيام ديسمبر جالسة فى الجرن تنزع الأغلفة عن أمطار الذرة المنداة ، وحفيدها الصغير نائم على كتفها ، وكلبها الأبقع رابض بقربها ، وحمائم البرج القريب ينتهزن غفلتها النادرة فيقعن من وراء ظهرها على جانب المفرش يقتلعن الحب من قوالحه . وكان الفلاحون ونساؤهم قد خرجوا إلى الحقول ، صغارهم ليسيموا[٢] الأنعام فى البرسيم الغض ، وكبارهم ليطهروا المصارف من الغرين الراسب ، فلم يبق فى الضيعة إلا عجوز تستدفىء بالشمس ، أو طفلة تلعب فى الطين ، أو دجاجة تبحث فى الأرض . فأغرانى هدوء المكان ودفء الجو وما سمعته عن حال العجوز ، على أن أذهب إليها . فحييتها ، ثم جلست إزاءها على أعواد الذرة اليابسة وسألتها : كيف حالك يا أم عامر ؟ فأجابت العجوز بلهجة تنم على الرضا والغبطة : حالى خير حال والحمد لله ! العيش مخبوز ، والماء فى الكوز . فماذا أبغى فوق ذلك ؟ فقلت لها : وهل يقنع ابن آدم ؟ تبغين الأرض المملوكة ، والدار المشيدة ، والثوب الحرير ، والمركب الفاره ، واللحم فى كل وجبة ! فقالت وهى تضحك : هبنى ياسيدى أصبحت (بدراوية) ، عندى الآلاف من الحقول ، والمئات من العجول ، والقناطير من الذهب ، والصناديق من الحلى ، والدواليب من الثياب ، فهل أنال من كل أولئك غير ملء الجوف وستر الجسم ؟ إن الحلاوة التى تجدها فى قالب السكر الصغير ، هى بعينها الحلاوة التى تجدها فى قمع السكر الكبير . وإن اللذة التى تذوقها فى رطل اللحم الذى تشتريه ، هى نفسها

---

(١) أذن شرفاء : طويلة . (٢) سام الماشية : رعاها .

اللذة التى يتذوقها (البدراوى) فى الخروف الذى يذبحه وإن الدائرة الضيقة التى أضطرب فيها أنا وعيالى تجمع من متاع النفس والجسم ماتجمعه الدائرة الوسيعة التى يركض فيها الباشا هو وأهله . فالمسألة إذن مسألة قلة وكثرة ، لا مسألة نعيم وبؤس . وما دام القليل يكفيك من الكثير ، والصغير يغنيك عن الكبير ، فإن فضول العيش شغل وهمّ وفتنة . اسمع أقص عليك من بعض أمرى ما يثبت فؤاد القانع ، ويغير اعتقاد الطامع .

قالت أم عامر — والمعنى لها واللفظ لى — : نشأت كما تنشأ القرويات الفقيرات على التلول كالكلاب وأنا طفلة ، وبين الحقول كالذئاب وأنا صبية . آكل الجشب (١) وأستمرئه ،وأشرب الكدر وأستسيغه،وألبس الخشن وأستلينه، وأفترش المدر (٢) وأستوطئه ، وأعالج الصعب وأستسهله . والذى أحلى المر فى فمى ، وجمل القبيح فى عينى ، وألان الغليظ لجانبى ، صحة كصحة الظبى الشادن (٣) لم تجنح يوماً لراحة ولم تحتج أبداً إلى دواء ؛ ومرانة على عنف الطبيعة لا تفرّق طاقتها بين صبح ومساء ، ولا بين صيف وشتاء ؛ ونفس راضية تقنع بميسور العيش وتخضع لمكتوب القضاء .. فأنا أشارك أمى فى عمل البيت ولا تستثن غير الكانون ، وأعاون أبى فى شغل الغيط ولا تستثن غير الحراث . وفى الفترات القصيرة القليلة بين عمل وعمل ، يجدوننى فى الحارات أمرح أو فى القنوات أصيد .

أذكر أنى كنت ذات يوم جالسة على حافة الجدول المنساب أتغذى أنا وأختى الصغيرة على خوان من النجيل ، فرأيت ابنة الباشا مالك الأرض وسيد الناس مقبلة يتقدمها كلبها الذئبى الضخم ، ويتبعها خادمها النوبى النحيل ، وفى يدها صنارة تطويها على قصبتها وتنشرها ، وابنة الباشا صبية لا تجاوز العاشرة ، فهى فى مثل سنى تقيم طول عامها فى المدرسة بالقاهرة ، فلا تلم بالريف إلا أياماً فى أوائل الخريف .

---

(١) الطعام الجشب : الغليظ الخشن : (٢) المدر : قطع الطين اليابس « الطوب »
(٣) الظبى الشادن : القوى المترعرع

أقبلتْ حتى وقفت بإزائى وحيّت ، ثم ألقت صنارتها فى الماء وجعلت تنظر إليها وتنظر إلىّ ... فدعوتها إلى الطعام على عادتنا ، فشكرت واعتذرت ثم قالت وهى تبتسم :

أتأكلين الحشيش ؟

فقلت لها ليس هذا حشيشاً ، وإنما هو بقلة من أحرار البقول[١] نسميها السريس ، وأنا آكله ليخفف من ملوحة المش ويكسر من حرارة البصل .

فقالت وهى تمط شفتيها الرقيقتين . ولكن اللحم خير منه !

فقلت لها : نعم ، اللحم خير منه ؛ ولكن موسمه لم يحن بعد .

فنظرت إلى نظرة المتعجب المهتم وقالت :

موسمه ! وهل للحم موسم ؟

فأجبتها : نعم ، إن للحم مواسم خمسة لا نأكله إلا فيها : نصف شعبان ، وأول رمضان ، والعيد الصغير ، والعيد الكبير ، وليلة عاشوراء .

فقالت وماذا تأكلون بقية العام ؟ .

فقلت : نأكل الحبوب والبقول واللبن الرائب والجبن الأريش والمش المعتق .. فبدت على قسماتها الجميلة مخايل الشك فى قولى ، وهمت أن تقول شيئاً لولا أن رأت غماز الصنارة يغطس ويعوم فشغلت به ، وجذبت الصنارة من الماء ، فإذا بها قد علقت بشبارة حجم كفها الصغيرة ، فاستطارها الفرح وهزها النجاح ، وأخرجت الصنارة من فم السمكة المضطربة وناولتها الخادم . وأرادت أن تطعمها فلم تجد طُعماً ، فسألتنى من أين يأتون بالثعابين الصغيرة التى تقدم إلى السمك بالصنارة ؟ فقلت لها وقد فهمت أنها تريد تلك الديدان الطويلة الحمر التى تعيش فى الطين : أنا آتيك ببعضها : ثم حفرت بجانب القناة وأخرجت لها من باطن الحفرة قطعة من الطين

(١) أحرار البقول ما يؤكل منها غير مطبوخ كالخس .

وأريتها كيف يجول فى أحضانها الدود ، فابتهجت لذلك ابتهاجاً شديداً . ومن ذلك اليوم وصلنى بها سبب من الأنس والعطف ، فكانت كلما زارت القرية افتقدتنى وطلبتنى ، فيرسلنى إليها أهلى فخورين مسرورين ، فألقاها فى حديقة القصر ، أو فى ساحة الجرن ، فنعدو على مخضوضر النبات ، أو نرتجح على فروع الشجر ، أو نصطاد على حوافى الماء ، أو نستبق على ظهور الحمُر ، أو نتهادى على مماشى الحقول ، وقدرتى على كل أولئك فوق قدرتها ، وكلى أعلى من كلمتها . فأنا أشأوها فى العدْو ، وأمهرها فى الارتجاح ، وأكثرها فى الصيد ، وأسبقها فى الرهان ، وأحملها فى اجتياز المواحل ، وآخذ بيدها فى تخطى الحفر ، وهى ترى ذلك كله فتعجب وتقول :

كيف تستطيعين مالا أستطيع وأنت لاتطعمين اللحم ، ولا تأكلين الفاكهة ، ولا تذوقين الشكولاتة ؟

فأقول لها : إن الله يعطينا القوة لأنه خلقنا للعمل ، ويعطيكم الثروة لأنه خلقكم للإنفاق !

* * *

وترعرعت سيدتى « جيهان » وشبَّت ، فانقطعت عن حياة المدرسة واتصلت بحياة القرية ، فكنت عندها فى منزلة بين الصديقة والخادمة . أقضى معها آخر النهار فى حديقتها ، أو أول الليل فى غرفتها ، أطرفها بأخبار القرية ، وأطربها بأغانى الريف ، وأنا أراها كل يوم تفتر وتضعف وتذوى ، وهى ترانى كل ليلة أنشط وأقوى وأنتعش ، فيشتد عجبها ، وتزداد حيرتها ، وتحاول أن تعرف الأسباب التى جعلتنى قوية على الفاقة والحرمان والكد ، وجعلتها ضعيفة على الغنى والسرف والرفاهة . فمن هذه المحاولات أنها طلبت منى أن آتيها خفية بوجبة من المش والبصل والسريس وخبز الذرة ، ولم يكن فى الأرض سريس يومئذ

فاستبدلت به الجلوبن وجئت بما طلبت . وكانت تنتظرنى وحدها فى كشك الحديقة . فلما وضعت بين يديها ماحملت نظرت إليه نظرة الهائب ، وأقبلت عليه إقبال المضطر ، واقتطعت من الرغيف لقمة وغمستها فى المش ووضعتها فى فمها . فلم تكد تذوقها حتى كرّشت من وجهها ، وخاوصت من عينها ، كما تفعل الفتاة الساذجة إذا أكرهها الطبيب على جرعة من الكنياك . ثم تحاملت على نفسها من الطعام بضع لقيمات ، ثم تقززت منه وقالت فى اشمئزاز وتكرّه :

كيف تعيشون على هذا و إن مذاق بعضه لأليم ، و إن مذاق أكثره لتافه ؟

فقلت لها : يا سيدتى ، لقد أتيتك بطعامى ولم آتك بشهوتى ، ولو أتيتك بشهوتى لاحتجت أيضاً إلى معدتى !

واعتلت صحة الآنسة جيهان من سأم الراحة ومعاناة الترف ، فقلّبوها بين المصايف والمشاتى ، ونقلوها ، ونقلوها بين الجبال والأبحر ، وعرضوها على طب مصر وطب أوربا حتى شبا وجهها[1] ونضر عودها ، وثاب إليها جسمها ، فزوجوها من أحد الباشوات القارونيين[2] فلم تجد عنده أكثر مما وجدت عند أبيها . نعم ، وجدت لذتين لم تجدهما من قبل : متعة الزوج وفرحة الولد ؛ ولكنهما لذتان شائعتان بين الإنسان والحيوان تجدهما كل زوجة تحب وكل والدة تلد . وها هى ذى قد بلغت الغاية فى الثراء الضخم والجاه العريض . أبوها باشا ، وأخوها باشا ، و إبنها باشا ، وكل أولئك لم يعصمها من السكر والروماتزم والكباد والسمن والرهل والأرق ، فلا تأكل إلا أقل الأكل ، ولا تنام إلا أيسر النوم ، ولا تتحرك إلا أثقل الحركة * وها أنا ذى لا أنفكّ على الحال التى كنت عليها : أبى

(١) شبا وجهها : أضاء بعد تغير (٢) القارونيون : نسبة إلى قارون صاحب الكنوز المشهور .

فقير ، وزوجي ضرير ، وابني الأول خفير وابني الثاني أجير . ومع ذلك لا أزال شابة على رغم السنين ، قوية على رغم العمل، صحيحة على رغم النصَب، سعيدة على رغم الفقر ،أدير أسرتي كـكل سيدة ،وأصيب لذتي كـكل حرة، وأرضى قسمتي كـكل مسلمة . وما أظن أن سيدتي جيهان تـكره أن أكون أنا في ثروتها وأن تـكون هي في صحتي ، أليس كذلك ياسيدي ؟

فقلت لها وأنا معجب بمنطقها وبيانها : بلى كذلك يا أم عامر ! وإن لله في ذلك حكمة . إن صحة الفقراء تعويض من ثروة الأغنياء، وإن السعادة من عندالله يمنحها من يشاء ويمنعها من يشاء .

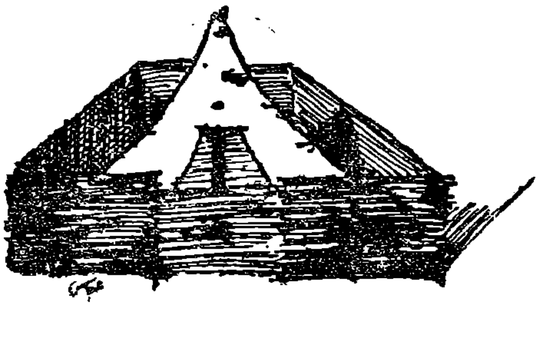

أنطون الجميل

خطبة العضوية فى مجمع اللغة العربية

(١٧ اكتوبر سنة ١٩٤٩)

اسمحوا لى أيها السادة أن أتقدم بأجزل الشكر وأخلصه إلى إخوانى الذين تفضلوا فشرفونى بانتخابهم إياى زميلا لهم فى هذا المجتمع الموقر . وإنى أسأل الله أن يعيننى على استحقاق هذه الثقة الغالية ، وأن يُقدِرنى على تكاليف هذا الشرف العظيم . ثم أخص بأجمل الحمد وأطيبه صديقى الأستاذ محمد فريد أبو حديد على استقباله الذى أشاع فيه من سراوة خلقه وسخى تقديره ماهز من عطفى وبسط من انقباضى . وإنى لأذكِّره فى غضبة ولذة ما يحمل كلانا لأخيه من ذكريات عذاب نشأت منذ أكثر من ثلاثين عاما فى ظلال الشباب وكنف الأخوة ، ولا يزال لها فى النفس إشراق وبالقلب نوطة . وأشهد لقد لابسته تلك السنين الطوال فزاملته فى جهاد العيش ، وآخيته فى نسب القلم : فى المدرسة الإعدادية ، وفى لجنة التأليف ، وفى تحرير (الرسالة) ، فلم أره تخلف يوما عن مكانه بين أولئك الذين يعرفون كرامة النفس ، ويحفظون غيب الصديق ، ويقيمون قواعد العمل والمعاملة على آساس العلم والخلق .

ثم أرجو أن تشاركونى فى دعاء الله رب جميع الناس أن يتغمد برضوانه وغفرانه فقيدنا الكريم أنطون الجميل . وإنى لأعترف أن خسارة المجمع فيه لن يعوض منها أن أكون خلفه . ولا أقوال هذا مجاملة لسان ولا تواضع نفس ؛ فإن صادقت الرجل خمس عشر سنة بلوت فيها ما عنده ؛ فأنا من أعرف الناس بفضله ومن أعلمهم بموضوعه .

عرفت صديقى أنطون سنة ١٩٣٤ . وكان لقاؤنا الأول فى دار صديقتنا المرحومة (مى) ، وكانت هى التى دبرت هذا اللقاء ودعت إليه ؛ فقد سمعته مراراً يذكرنى بالخير ويؤثر (الرسالة) بالثناء ، فجمعت بيننا فى مساء أحد من آحاد فبراير من تلك السنة ، وقالت بلهجتها الأنيقة وهى تعقد بينى وبينه المعرفة : إن كلا منكما يعرف اسم صاحبه فى الاسماء ، ولعله يعرف وجهه فى الوجوه ، ولكنه لا يعرف أن ذلك الاسم لهذا الوجه . ومن سعادتى أن تكمل معرفتكما عنـــدى .

فقال لى الجميل وهو يبتسم ابتسامته الرقيقة المعبرة : نعم إنى أعرفك ، وإن لم أرك . عرفتك مما قرأت لك وسمعت عنك فوجدت بينى وبينك مشابه فى استعداد الفطرة وأسلوب العيش هى التى حببتك إلىّ وجذبتنى إليك . فقد بدأت حياتى معلما للأدب كما بدأت . ثم حررت جريدة « البشير » ببيروت دينية يشوبها الأدب ، وأصدرت (الزهور) فى القاهرة أدبية يهذبها الدين ؛ وهاتان النزعتان أجدهما مجتمعين فى (الرسالة) . ثم كرهت التحيز لأى حزب ، والتعصب لأى مذهب ، والإضافة إلى أى شخص . فأنا أنشد الخير فى كل عقيدة ، وأؤيد الحق فى كل هيئة ، وأحب الجمال فى كل إنسان . ولولا أن (الأهرام) أمانة فى عنقى لقطعت ما بينى وبين السياسة . ويظهر لى أنك تنهج فى حياتك هذا المنهج ، وتسلك فى عملك هذا المسلك .

ثم تشاجن الحديث وأخذ ثلاثتنا بأطرافه . فعلمت فى هذا المجلس وفى المجالس التى أعقبته ، أن الجميل ـــ فضلا عن وجوه الشبه التى رآها بينه وبينى ـــ أزهرى مثلى ، يعرف قواعد اللغة كما يعرفها الأزهر ، ويفهم تاريخ الأدب كما تفهمه دار العلوم .

ولست أعنى بأزهرية الجميل ذلك التأثير القوى الذى يؤثره الأزهر فى كل

كاتب وفى كل شاعر من طريق مباشر أو غير مباشر ، إنما أعنى بأزهريته ما أعنيه بأزهرية فقيدنا العزيز الآخر على الجارم ، وهو أن كلا الرجلين كان ربيب مدرسة اشتقت من مصدر الأزهر وتفرّعت من أصله . والأمر فى أزهرية الجارم أبين من أن يُبين ، ولكنه فى أزهرية الجميل يحتاج إلى بسط قليل :

كان الأزهر فى أوائل النصف الأخير من القرن الماضى لا يزال يرسل وحده أشعة الثقافة فى العالم الإسلامى كله ؛ ولكنه كان فى أثناء الغفوة العامة يحفظ علوم الدين ولا يجتهد ، ويدرس فنون اللغة ولا يطبق . وكانت معاهد العلم فى المغرب والشام والعراق تتعلم فى كتبه وتجرى على مناهجه ، حتى وقع فى سورية ومصر أمران خطيران كان لهما الأثر البالغ فى تطور المجتمع وتقدم التعليم ونهوض الأدب : حدوث الفتنة الدامية فى لبنان سنة ١٨٦٠ ، وولاية اسماعيل على مصر بعدها بثلاث سنين . كان من أثر تلك المذبحة الأليمة أن لجأ اللبنانيون من قراهم إلى بيروت فتجمعت فيها الحركة ، وأن وُضع للبنان نظامه الخاص ففتح بابه للأجانب فدخله المستعمرون والمبشرون من فرنسا وأمريكا ، وأنشأوا فى ظل الامتيازات الأجنبية الكلية الأمريكية سنة ١٨٦٦ ، والكلية اليسوعية سنة ١٨٧٤. وكان اللبنانيون فى عهد بنى عثمان كالموالى فى عهد بنى أمية ، أبعدوا عن مناصب الدولة فاشتغلوا بالعلم ، وحيل بينهم وبين موارد الثقافة فى عاصمة الخلافة فاعتمدوا فى التعليم على أنفسهم . وكانت (المدرسة الوطنية) التى أنشأها المعلم بطرس البستانى سنة ١٨٦٣ أول مدرسة تخرج فيها صفوة من الأبناء كانوا عدة الكليتين الأمريكية واليسوعية فى تعليم اللغة العربية وكانت كتب التعليم فى هذه المدارس هى كتب الأزهر بعد أن بيَّض اللبنانيون أوراقها الصفر ، وسهّلوا أساليبها الوعرة ، وقرنوا قواعدها الجافة بالأمثلة الشارحة والتطبيقات المدربة ، واحتذوا فى تنسيقها على مثال مادرسوه من كتب التعليم الفرنسية .

ثم كان من أثر جلوس إسماعيل على كرسى الخديوية أن بسط ظلال الأمن على ربوع مصر ، ومهد لرجوع المدنية إلى ضفاف النيل ، فوفد علينا الأجانب للتبشير والتعليم والعمل والتجارة ، وفيهم جماعتا الفرير والجزويت . ثم فتح ما انغلق من المدارس ، ووصل ما انقطع من البعوث ، وأسس نظارة المعارف ، ووسع دائرة التعليم ، فاقتضى ذلك كله أن ينشىء مدرسة يتخرج فيها المعلمون ، فأنشأ دار العلوم فى سنة ١٨٧١ ليتخصص طلابها فى الآداب العربية ، و يشاركوا فى العلوم الدينية والعقلية ، و يأخذوا بنصيب من الثقافة الأوربية . وكان أساتذتها يومئذ من نابغى شيوخ الأزهر ، وتلاميذها من متقدمى طلابه ، وكتبها من أمهات كتبه . ولكن اتصال أهلها بالحياة المدنية ، وتأثرهم بالآداب الغربية ، واقتباسهم لطرق التعليم الحديثة ، جعلت لهم فى التفكير والتعبير والسمت طابعا خاصا يميزهم من رجال الدين فى الأزهر وتوابعه . فمدرسة دار العلوم كانت فى القاهرة أثرا لسياسة إسماعيل العامة ، كما كانت المدرسة الوطنية فى بيروت أثراً لنظام لبنان الخاص . وكانت هاتان المدرستان كما قلت شُعبتين من أروقة الأزهر ، أمدّها بالغذاء والرى ، ووصلهما بالروح والحرارة ؛ ولكنهما لأسباب متجانسة ، وعوامل متشابهة ، تميزتا منه بالشكل واختلفتا عنه فى الثمر . غير أن الاختلاف فى المدرسة المصرية كان ضعيفا لقربها من الأزهر فى البيئة والعقيدة والعقلية والتقاليد؛ فهى فرع طبيعى من أصله ، ونوع ممتاز من جنسه ؛ ولكنه كان فى المدرسة اللبنانية شديداً لبعدها عن الأزهر فى المكان والدين والتربية والسنن الموروثة والصلات الأجنبية ، فهى أشبه بالطعمة الغربية أدخلت فى جذعه فجاء ثمرها مغايراً للأصل فى طعمه ولونه ، ومختلفاً عنه فى قيمته وجداه .

سارت المدرستان على جانبى الركب الحثيث فى طريق النهضة ، مدرسة مصر يمينية تتأنى وتتزن ، ومدرسة لبنان يسارية تتسرع وتخف . وكان الزمام

أول الأمر عندنا وعندهم فى أيدى المحافظين كحمزة وحفنى والمهدى والاسكندرى وشاويش ووالى هنا ، وكالبستانيين بطرس وسليم وسليمان ، واليازجيين خليل وناصف وإبراهيم هناك ؛ فكان التقليد غالباً ، والتطور بطيئاً ، والفروق بين المدرستين قريبة . فلما أسرع الركب ، واتصل القديم بالحديث ، وامتزج الشرق بالغرب ، وانشقت من مدرسة دار العلوم المحافظة مدرسة أخرى تتميز بالإيجاز والطبيعة والسهولة والحرية والمنطق ، هى مدرسة لطفى السيد . ومن رجالها قاسم أمين ، وفتحى زغلول ، وعبد القادر حمزة ، كما انشقت من المدرسة اليازجية المحافظة مدرسة أخرى تتميز بالشاعرية والطرافة والانطلاق والتمرد ، هى مدرسة جبران ومن أتباعها ميخائيل نعيمة ، وأمين الريحانى ، ومارى زيادة .

وظلت المدرستان الشقيقتان المصرية واللبنانية تنتجان الأدب فى ضروبه المختلفة بأسلوبين مستقلين ، أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر ، على ما كان بينهما من تفاوت فى الطاقة والمادة والصنعة والتقيد والتحرر ، وبقيت المدرسة الأزهرية الأم عاكفة على النظر المجرد والجدل العقيم بين أروقة الأزهر والزيتونة والأموى والنجف ، تنتج الخام ولا تصنع ، وتشحذ السلاح ولا تقطع ، فلم يكن لها فى ذلك العهد الغابر أدب غير أدب الشواهد ، ولا أسلوب غير أسلوب الحواشى ، حتى إن شيخاً من كبار شيوخها كان ناظراً بحكم منصبه على وقف خيرى ، فاضطر إلى أن يكتب رسالة إلى محافظة القاهرة فى شأن من شؤونه ، فلم يفهموا مما كتب شيئاً فلما أعادوا الرسالة إليه يستوضحونه المبهم ضحك هزؤاً بالجهل ، ومصمص أسفاً على العلم ، ثم كتب على الرسالة حاشية على طريقة : قولى كذا معناه كذا ، وقولى كذا أريد به كذا ، ثم ردها عليهم ، ولو أنهم ردوها عليه مرة أخرى لكتب — رحمه الله — تقريراً على الحاشية !

* * *

كان الفرق بين مدرسة القاهرة ومدرسة بيروت كالفرق الذى كان بين مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة . كان البصريون يقدمون السماع فلا يرون القياس إلا فى حال تضطرهم ، ويتشددون فى الرواية فلا يأخذون إلا عن الفصحاء الخلص من صميم العرب ، لكثرة هؤلاء بالبصرة وقربها من عامر البادية . أما الكوفيون فكانوا لخلاطهم أهل السواد والنبط يعتمدون فى أكثر المسائل على القياس ، ولا يتحرجون فى الأخذ عن أعراب لا يؤمن البصريون بفصاحة لغتهم فالمصريون لقربهم من الأزهر واعتمادهم على القرآن ، وقلة اختلاطهم بالأجانب ، كانوا أشبه بالبصريين فى تقديمهم السماع ، وتشددهم فى القواعد ، وخضوعهم للمعاجم ، ونفورهم من الدخيل ، وجريهم على أساليب القدامى ، واعتقادهم أن العربية لغة العرب الأولين ، فلا يملك المولدون أن يُنقصوا منها ولا أن يزيدوا فيها . واللبنانيون كانوا لبعدهم عن بيئة القرآن ، وتأثرهم بأسلوب الإنجيل ، وكثرة اختلاطهم بالفرنسيين والأمريكيين ، وشدة احتياجهم فى الترجمة والصحافة إلى تطويع اللغة وتوسيعها لتعبر عن المعانى الحديثة ، كانوا أشبه بالكوفيين فى تقديمهم القياس ، وقبولهم الكلمات المولدة والنصرانية والدخيلة ، واقتباسهم بعض الأساليب الأوربية ، وتساهلهم فى بعض القواعد النحوية والتراكيب البلاغية . ولذلك رماهم الدَّرعميون(١) بضعف الملكة ، وسُقم الأداء ، وقصور الآلة ، فلم يقيموا لإنتاجهم وزناً ، ولم ينيطوا بمعاجمهم ثقة . ولكن الحق أن المدرسة اللبنانية كانت عملية تقدمية حرة ، واكبت الزمن فى السير ، وطلبت العلم للعمل ، وسخرَّت الأدب للحياة ، ونظرت إلى اللغة نظر الوارث إلى ماورث ، يملك عليه بمقتضى الشريعة والطبيعة حق الانتفاع به على الوضع الذى يريد ، وحق التصرف فيه على الوجه الذى يحب . وقد تطوَّفت العربية منها أيادى مشكورة

---

(١) الدرعميون كلمة منحوتة من دار العلوم .

بما أمدتها به من مصطلحات الفنون المختلفة ، وأسماء المخترعات الحديثة ، عن طريق الترجمة والتأليف والتمثيل والصحافة والتجارة . ثم كان فى جانبها الزمن وفى مؤازرتها الطبيعة ، ففعلا فعلهما فى تطوير المصرية حتى قل بينها و بين أختها الخلاف وكثر التشابه . وجاء مجمع اللغة العربية فأخذ بحكم قانونه يوفق غير عامد بين المدرستين ، فتسهل فى القواعد ، وتجوز فى الوضع ، وتسمح فى الدخيل ، وسلم بالواقع ، وأصغى إلى مذهب الإجماع اللغوى الذى دعا إليه الدكتور السنهورى ، و إلى مذهب القياس فى اللغة الذى قال به الأستاذ أحمد أمين .

والمتتبع لتطور المدرستين أيها السادة يرى أن كلتيهما قد مرت فى أطوار ثلاثة : طور التقيد والمحاكاة ، وطور التحرر والاعتدال . ثم طور التمرد والانطلاق . ولكن الانتقال من طور إلى طور كان فى مصر متثاقلاً متداخلاً ، يرود قبل النجعة ، و يحوم قبل الوقوع . على حين كان فى لبنان متسرعاً لا يتأنى ، مصمماً لا ينخزل . فبينما نجد مراشا الحلبى فى (مشهد الأحوال) يقلد ابن حبيب الحلبى فى (نسيم الصبا) ، ونصيفاً اليازجى فى (مجمع البحرين) يقلد الحريرى فى المقامات ، وإبراهيم اليازجى فى (لغة الجرائد) ينهج نهج الحريرى فى (درة الغواص) ، إذ نجد آل البستانى وآل الحداد وزيدان ومطران والخورى والجميّل وملاّط يتوخّون السهولة والابتكار والطرافة ، والجبرانيين والمهجريين يجنحون إلى الأصالة والإبداع والتطرف ؛ والزمن بين هؤلاء وأولئك مُتقارب ، والعوامل المؤثرة فيهم لا تكاد تختلف وليس بسبيلنا اليوم أن نحلل العوامل فى كل تطور فى كل بلد ، ولا أن نعين الرجال فى كل مدرسة فى كل طور ، ولا أن نورد الأمثلة من أدب كل رجل فى كل فن ، إنما سبيلنا أن نقول إن الجميل كان من خير من يمثلون اللبنانية فى طور الاعتدال ، و إن الجارم كان من خير من يمثلون المصرية فى مثل تلك الحال .

* * *

سيدانى ، سادتى : ولد أنطون الجميل فى بيروت سنة ١٨٨٧ ، وبيروت حينئذ كانت ملاذ العلماء والأدباء من لبنان وسورية ، ومنتجع المبشرين والمستشرقين من فرنسا وأمريكا . وكانت النهضة الأدبية فى عاصمة الجبل قد أثمرت بواكيرها ودنا جناها ، فنال الفتى أنطون ما تيسر له منه فى الكلية اليسوعية . والمارونيون كانوا يفضلون التعليم الفرنسى ، لصلتهم الدينية القديمة باليسوعية ، وعلاقتهم السياسية الجديدة بفرنسا . وحذق أنطون على الأخص اللغتين العربية والفرنسية ، والنبوغ فيهما كان فاشيا فى شباب لبنان ، لأن تعليمهما كان جاريا على الأسلوب اللاتينى فى تأليف الكتاب وإعداد المعلم واختيار الطريقة ؛ فالكتاب متعمق فى القواعد متنوع فى التطبيق ، والمعلم متضلع من العلم متقص فى التحقيق ، والطريقة قائمة على الحفظ معتمدة على التمرين . ذلك إلى أن الغالب على التعليم الفرنسى الأدب ، والغالب على التعليم الأمريكى العلم . واللبنانيون كانوا يومئذ يتهيأون للعمل الحر فى خارج لبنان ؛ لأن النصارى فى سورية كانوا كالشيعة فى العراق لم يكن لهم فى حكومة الترك مكان . والعمل الحر كان فى التعليم أو فى الصحافة أو فى الترجمة أو فى التمثيل أو فى التجارة ، وكلها أعمال تقتضى التبريز فى اللغات والتبسط فى الآداب . لذلك لم يكد الجميل يتخرج فى الكلية اليسوعية حتى عين معلماً فى مدرسة القديس يوسف ، ولكن ميله إلى الكتابة واستعداده للتحرير ، ساعدا على اختياره محرراً لجريدة (البشير) سنة ١٩٠٨ ، وقد كان يصدرها الآباء اليسوعيون فى بيروت ، ويجعلون إدارتها لأب من صالحى الآباء ، وتحريرها لأديب من نوابغ الأدباء . ثم دعاه إلى الهجرة ما دعا أحرار لبنان من ضيق العيش وسعة الأمل وفساد الحكم ، فهاجر إلى مصر سنة ١٩٠٩ وحرر فى صحيفة الأهرام الفرنسية . ثم أعلنت وزارة المالية المصرية سنة ١٩١٠ عن حاجتها إلى مترجم ، فتقدم إلى المسابقة فى هذه الوظيفة ففاز بها . ولكنه لم يقطع صلته بالصحافة فأصدر فى تلك السنة نفسها مجلة الزهور أدبية شهرية . وانصلت

منذ يومئذ أسبابه بالحكومة ورجال الحكم . وكان الجميل على طبيعة قومه عمولا لا يدخر جهداً ولا يضيع فرصة ولا يستوطىء راحة ، فبان شأوه على أقرانه ، ودل فضله على كفايته ، فترقى فى المناصب حتى عُين سكرتيراً للجنة المالية ثم اعتزل العمل الحكومى ليتولى رياسة تحرير الأهرام ، فسطع مجده ، وضخم أمره ، وانبسط نفوذه ، واضطرب فى مجال الحيوات المصرية السياسية والاجتماعية والأدبية اضطراباً عجيباً ، ينبه ويوجه ، ويوفق ويشارك . عمل فى مجلس الشيوخ ، وفى مجمع اللغة ، وفى جمعيات البر ، وفى جماعات الأدب ، وفى شعب الثقافة ، وفى لجان الاقتصاد ، فلم تكن عضويته فيها جميعاً مظهراً من مظاهر الفخر ولا مورداً من موارد المنفعة ، وإنما كانت هماً من هموم الجد يستفرغ الوسع فيه ، ويتوخى النجاح له ، ويدفع العوائق عنه . وكان الرجل على حظ عظيم من الخلق الكريم والطبع المهذب والحلم الراجح ، فساعدته هذه المزايا على أن يكون له فى المجتمع هذه المكانة وفى العمل هذا البروز . كان أديب النفس واللسان والقلم ، فلم تكن لنفسه جلافة تنفر ، ولا للسانه بادرة تُخشى ، ولا لقلمه سن تخز . وكان مرهف القلب والعقل والذوق ، فكان يشعر بقوة ، ويفهم بزكانة ، ويذوق بلذة . وكان دقيق العمل والوقت والأسلوب ، فلا يقدر بالقياس الجزاف ، ولا يوقت بالزمن المبهم ، ولا يعبر باللفظ المقارب ؛ إنما كان يتبين الغرض ثم يرميه بالذهن النافذ واللفظ المحكم فلا يخطئه . ولعل كلماته السياسية فى الأهرام كانت على وجازتها أدل كلامه على خلقه وأدبه . كان يعالج مشكلات السياسة والحكم بأسلوب فيه صراحة الجبليين وكياسة اليسوعيين ونعومة الفرنسيين ، فيكشف عن المخبأ من غير فضيحة ، ويدل على الفساد من غير اتهام ، ويُوجه إلى السداد من غير استطالة . وهذا الأسلوب وما كان يقويه من صدق النظر وصحة الحكم جعله وهو فى مكتب الأهرام وندوته عضو شرف فى كل حزب ، ووزير دولة فى كل حكومة .

أما أسلوبه الأدبى فى الكتابة والخطابة فكان شعرياً فى صوره وأخيلته وألفاظه . كان يغلب عليه سلامة التركيب ووضوح المعنى وحسن الترسل ، ويكثر فيه تضمين الأبيات واقتباس الحكم وإيراد النوادر . وقد شغلته الجهود الصحفية والاجتماعية عن الفراغ للأدب المحض فما كان يكتبه إلا مدفوعاً إليه بإلحاح الطلب وإكراه الحاجة ، كأن يكتب مقدمة لديوان صديق ، أو بحثا فى أدب شاعر ، أو محاضرة فى دار نقابة ، أو خطبة فى مجلس شيوخ . ولقد كان له وهو فى عهد الاستشراف والطموح إنتاج أدبى متصل ، وعته جريدة البشير الدينية ومجلة الزهور الأدبية . ومن آثاره فى ذلك الحين روايتاه : (أبطال الحرية) وموضوعها الانقلاب العثمانى ، وبطلاها القائدان التركيان نيازى وأنور ؛ و (السموءل ، أو وفاء العرب) وموضوعها وبطلها معروفان . وهاتان المسرحيتان لا تمتازان ببراعة الحوار ولا بقوة البناء ، وإنما تمتازان بفصاحة اللفظ وبلاغة الأداء .

وإذا كان لى أن أضيف إلى ما قلت كلمة فى وفائه لمصر وحبه للمصريين فحسبى أن أقول إنى لم أر فى الأدباء الذين توطنوا هذا البلد كاتباً قبل الجميل ، ولا شاعراً قبل مطران ، نالا الرضا المصرى بكل معانيه ومن جميع نواحيه ، بإخلاص العمل لهذا الوطن ، وإصفاء المودَّة لأهله ، واعتقاد العرفان لجميله .

هذه — أيها السادة — بعض مزايا الرجل الذى كُتب علىّ أن أودعه بلسانكم فى رحلته الأبدية عن هذا المجمع . وإنى لأشعر وأنا أجلس فى مكانه الخالى أن كرسيه ينكرنى كما ينكر الفرس والجواد الراكب الغر . ولقد حدثتنى نفسى — شهد الله — حين تأدى إلىّ خبر انتخابى لعضوية المجمع أن أستعفيه من هذا التشريف ، لا زهادة فى الشرف ، ولا رغبة عن العمل ، ولا فراراً من الواجب ، ولكن لعلة نفسية مزمنة كان من أخف أعراضها أنى أحسن العمل منفرداً أكثر مما أحسنه مجتمعاً . وربما جعلتنى — لعنها الله — أعلم الشيء

ولا أقوله ، وأسمع الخطأ ولا أصوبه ، وأرى المنكر ولا أغيره . وتلك كانت حالى معها وظل الشباب وارف ، وعود الأمل ريّان ، وقوة النفس عارمة ، فكيف تكون حالى معها اليوم وقد بلغتُ المدى الذى بعده القصور ، والأملَ الذى بعده الذكرى ، والساحل الذى بعده القفر ؟

ولكننى استخرت الله وألقيت بجهدى الضعيف بين جهودكم القوية . والرماد يحمى إذا مسه من الجمر وهيج ، والجبان يشجع إذا لم يكن من العراك بُد .

أسأل الله أن يهدينا الطريق إلى خير العربية والعروبة ، وأن يرزقنا التوفيق فى خدمة الإسلام والشرق .

أحقاً مات على محمود طه ؟!

(٢٨ نوفمبر سنة ١٩٤٩)

أحقاً ، رفاقَ علىّ ، لن تروه بعد اليوم يحيى المجالس بروحه اللطيف ، ويؤنس الجلاس بوجهه المتهلل ، ويدير على السّمار أكؤساً من سلاف الأحاديث تبعث المسرة فى النفوس ، وتحدث النشوة فى المشاعر ؟

أحقا ، عشاق على ، لن تسمعوه بعد اليوم ينشد القصائد الرقيقة ، ويخرج الدواوين الأنيقة ، ويصور الحياة بالألوان من الشعر والسحر والفتون ، فى إطار من الجمال والحب واللذة .

أحقاً ، أصدقاء على ، لن تجدوه بعد اليوم يبذل من سعيه ليواسى ، وينيل من جاهه ليعين ، ويجعل بيته سكناً لكل نفس لا تجد الدعه ولا الأنس ، ومثابه لكل طائر لا يجد الروضة ولا العش ؟

أحقاً عباد الله سكت البلبل ، تحطم الجام[1] ، وتقوض المجلس ، وانفض السامر ، وتفرق الشمل ، وأقفر الرّبع ، وأصبح على طه الشاعر العامل الآمل أثراً وخبراً وذكرى ؟

لقد حدثنى ربع ساعه فى تليفون المستشفى يوم الأربعاء ، فبشرنى أن قلبه انتظم وجسمه صح ووجهه شبا[2] ، وأن الأطباء سمحوا له بالرجوع إلى بيته ، وأن استقباله فى الدار سيعود . وأن مجلسه فى (الاميريكين) سينعقد ، وأنه سينتظرنى يوم الجمعة فى مكتبه ليقرأ علىّ النشيد الأول من ملحمة (اليرموك) التى اقترحتها عليه ، وربما خرج معى بعد القراءة إلى نزهة هادئة فى طريق الأهرام . ثم ختم

---

(١) الجام الكأس (٢) شبا وجهه : أضاء بعد تغير

على حديثه الطويل بضحكة حلوة فيها أمل ، وعبارة فكهة فيها تفاؤل ! ولكنما كان بين يوم الأربعاء الذى حدثنى فيه هذا الحديث ، ويوم الجمعة الذى ضرب لى فيه هذا الموعد ، يومُ الخميس الذى سكن فيه قلبه الطيب فما ينبض بحياة ولا حب وسكت لسانه الحلو فما ينطق بنثر ولا شعر : طلع صباحه الأسود المشئوم على غرفة على وهو يلبس ثيابه ويداعب أصحابه ، وينظر فى الداخل فيرى طاقات الزهر تزين المنضدة ، وفى الخارج فيرى ممرضات المستشفى يجمّلن الممشى ، فيهفو الشاعر المعبود إلى أزاهره التى تنفح قلبه بالعطور ، وإلى عرائسه التى تغمر شعره بالشعور ، فيخرج ليؤدى ماعليه من المال للمصحة ، ومن الشكر للأطباء حتى إذا أبرأ ذمته من حقوق الناس أدار فيمن حوله من أصدقائه وذوى قرباه نظرة فاترة حائرة ، ثم أسبل عينيه ، وخر مغشياً عليه ! خف إليه أساته الذين بشروه العافية ووعدوه السلامة ، وأخذوا يقلبونه ويفحصونه فإذا الجسد الجياش بالشباب والقوة هامد لاحراك به ولا حس فيه ! وهكذا فى مثل ارتداد الطرف ذهب من أرض الآدميين إنسان ، وغاب من سماء العبقريين فنان !

والهف نفسى على أحبائه وقدمسهم مامسنى من غصة الرق وحرقة الجوى حين نعاه إليهم الناعى ! لقد كان كل معنى أقرب إلى على فى أذهانهم إلى معنى الموت : لذلك ظلوا متبلدين ساهمين يقلبون الأكف أسى وحسرة ، ويحركون الألسن انكاراً ودهشة ! .

لا يابديع الزمان ! ليس الموت كما زعمت خطباً صعب حتى هان ، ولا ثوباً خشُن حتى لان ! إنما الموت نقيض الحياة وبغيضها من أزل الدهر إلى أبده ؛ لا تقترب من مظنته ، ولا تأنس بناحيته ولا تسكن إلى ريحه ، حتى يفجأها كالقضاء ، ويدهمها كالوحش ، ويختلها كالصائد ، ويختلسها كاللص !

وهل الدنيا كلها بمن فيها وما فيها إلا معركة لاتفتر بين البقاء والفناء والجدة

والبلى ؟ أرحام تدفع ، وأجداث تبلع ، وهجوم فيه المرض والشهوة والأثرة ، ودفاع فيه الطب والسياسة والخديعة ، صرعى هذه المعركة الضَّروس لا ينفكون يتناثرون من بين شقي الرحا الهائلة أشلاء لاتشبع جوف الأرض ، ودماء لاتنقع غليل الثرى !

عرفت عليا منذ سبع وعشرين سنة على الضفاف الخضر من مدينة المنصورة وكان حين عرفته شاباً منضور الطلعة مسجور العاطفة ؛ مسحور المخيلة ، لا يبصر غير الجمال ، ولا ينشد غير الحب ، ولا يطلب غير اللذة ، ولا يحسب الوجود إلى قصيدة من الغزل السماوى ينشدها الدهر ويرقص عليها الفلك !

كان كالفراشة الجميلة الهائمة فى الحقول تحوم على الزهر ، وترف على الماء ، وتخفق على العشب ، وتسقط على النور ، لا تكاد تعرف لها بغية غير السبوح ولا لذة إلا التنقل . ثم تتبعته بعد ذلك فى أطواره وآثاره ، فإذا الفراشة الهائمة على أرباض المنصورة تصبح (الملاح التائه) فى خضم الحياة ، (والأرواح الشاردة) فى آفاق الوجود ، (والأرواح والأشباح) فى أطباق اللانهاية ؛ وإذا الشاعر الناشىء يغدو الشاعر المحلق تارة بجناح الملك ، وتارة بجناح الشيطان ، يشق الغيب ، ويقتحم الأثير ، ويصل السماء بالأرض ، ويجمع الملائكة والشياطين بالناس !

كان على - واحسرتا عليه - من أصدق الأمثلة للشاعر الذى خلقته الطبيعة . والشاعر الذى تخلقه الطبيعة يكون فى ذاته وفى معناه نشيداً من أناشيد الجمال ، ولحناً من ألحان الحب ؛ فيكون شاعراً فى أخلاقه ومُثله وأحلامه وهندامه وسلوكه ، وفى نمط حياته وأسلوب تفكيره وطريقة عمله وطبيعة صداقته . وأشهد لقد كان على برَّد الله ثراه نسقاً فريداً فى الصفاء والوفاء والمروءة والمودة . كان لا يطوى صدره على ضغينة ، ولا يحرك لسانه بنقيصة ، ولا يقبض يده عن

معروف ، ولا يعقد ضميره على غدر ؛ فلم تدع له هذه الصفات الشاعرة النادرة عدوا — لا فى نفسه ولا فى الناس ، فعاش ماعاش وادع البال فى سلام الحب وأمان الصداقة

قضى علىّ عمره بالعرض لا بالطول ، وقدر عيشه بالكيف لا بالكم ، وجعل همه فى الحاضر لا فى المستقبل ، ونظر إلى الشعر نظر البلبل إلى الشدو ، فكان يصدر عنه بالطبيعة إعلاناً لوجود ، وإبرازاً لنفس ، وكمالا لصورة ، وجمالا لحياة ! لذلك كان شعره تعبيراً صادقاً عن شعوره ، وتصويراً ، ناطقاً لهواه ونظاماً متسقاً مع خلقه وطبعه فى الحرية والأصالة والوضوح والأناقة والسهولة والسلامة .

إن حياة على طه كانت أشبه بالطيف خفق خفوق الملك على حواشى الروض ثم عبر أو الحلم نعم به رائيه فى إغفاءة الفجر ثم زال ، أوحبات الندى تلألأت فى وجه الصباح ثم ذهبت فى متوع الضحى ، أو قطرات العطر سطعت فى نفح النسيم ثم تبددت فى عصف الريح . فالحزن على وفاته حزن على حبيب قضى ، وخير مضى ، وجمال ذوى ، وشباب تولى ، ووفاء غاض ، وفن ذهب . فإذا بكينا فإنما نبكى علينا لا عليه ، وإذا سألنا الله العوض منه فإنما نسأله لنا لا له . وكل ما نملكه للفقيد العزيز أن ندعو الله أن يتغمده برحمته ، وأن ينزله منزلة الأبرار فى نعيم جنته .

محمود حسن زناتي

(٢٦ ديسمبر سنة ١٩٤٩)

كنا ثلاثة ألفت بيننا وحدة الطبع والهوى والسن ؛ فالطبع مرح فكه ، والهوى درس الأدب وقرض الشعر ، والسن فتية لا تجاوز السادسة عشرة وكان طه قاعدة المثلث ، ومحمود وأنا ضلعيه القائمتين . أو كان المبرد صاحب الكامل قلب الطائر ، والزمخشري صاحب الكشاف وثعلب صاحب الفصيح جناحيه الخافقين ؛ وتلك كانت ألقابنا على الترتيب ، لقب بها بعضنا بعضا لنزعة فكرية أو فنية كان ينزعها كل منا في نظر أخويه . ووجه الشبه بيننا وبين المثلث أن وجودنا كان كوجوده ، لا يتصور في الذهن ولا في الخارج إلا بأضلاعه الثلاث على أي شكل يكون . وأما وجه الشبه بيننا وبين الطائر فإن حياتنا كانت كحياته ، وتردد إلى كل روضة ، وتغريد على كل شجرة ، وتحليق في كل جو . كنا تتنقل من حلقة العلم إلى درس الأدب ، ومن درس الأدب إلى مجلس الشعر ، ومن مجلس الشعر إلى دار الكتب ، ومن دار الكتب إلى الجامعة المصرية القديمة ، ومن الجامعة إلى إدارات الصحف نعرض عليها ما كنا

نسميه يومئذ شعرا ؛ ثم ننتهى إلى دار أحدنا فنتدارس ما حصلنا من علم ، ونتذاكر ما حفظنا من أدب ، ونتنادر بما سمعنا أو رأينا من سخف . فإذا أخطأنا أو نسينا لجأنا إلى ذاكرة طه العجيبة فتعيد ما وعت لا تخرم منه حرفا ، فنصحح أو نستكمل أو نستفيد . وإذا سئمنا أو ونينا فزعنا إلى حافظة محمود الخصيبة فيسرى عن خواطرنا بمقطعات من أعذب النوادر يحكيها عن نفسه ، أو يرويها عن أبيه ، أو ينقلها عن حياته . وزناتى محدث طليق اللسان متفنن الحديث تسمع منه النادرة عشرين مرة وكأنك لم تسمعها من قبل لجمال عرضه وجاذبية أسلوبه ، ثم كان الطائر بقلبه النابض بالأمل والحب ، وبجناحيه الخافقين بالخيال والنشوة ، يضيق أحيانا بعشه الباغم فى ركن من الرواق العباسى بالأزهر المدوى الهادر ، فيخرج إلى هدوء الطبيعة يستمتع بمفاتنها فى خمائل المطرية أو فى حدائق الجزيرة ، فنتصل بالحياة العصرية ، وننال من ثمار المدنية ، ثم نعود إلى الأزهر فنجد الاختلاف شديداً بين حياته وحياة الناس فنقلق وتثور ، ويكون مظهر هذا القلق وهذه الثورة التمرد على الأزهر المنعزل عن العالم ، والسخر من الطلاب المنصرفين إلى الفقه ، والعبث بالشيوخ الجاهلين بالأدب . وكنا حينئذ فى عهد اليفاعة حين يكون العيش كله حباً عارماً لحبيب غير مشهود ولا معهود .

كان كل منا يحب أخويه حباً غلب على كل شىء . فإذا اجتمعنا عكفنا على هوى واحد هو الأدب ، وإذا افترقنا نزعنا إلى هوى واحد هو نحن الثلاثة . وكنا نعبد الجمال فى أى معنى وفى أية صورة ، والجمال فى حياة أيفاع من طلاب الأزهر لا يرون غير الدمامة ، ولا يسمعون غير القدامة[1] ، لا يمكن أن يكون إلا حلماً أو خيالا أو مثالا أو شيئاً من نحو ذلك . وكنا نعشق الكتب ، فلم ندع

---

(١) القدامة : العى عن الكلام فى ثقل ورخاوة وقلة فهم وفطنة .

فى الأدب كتاباً مطبوعاً ولا مخطوطا إلا قرأناه أو قلبناه . والمكتبة العربية كانت يومئذ بالنسبة إلينا (الكتبخانة المصرية) . وكان محمود أشدنا غراماً بالمكتبات والمخطوطات ، فكنا حين ننصرف ، طه وأنا ، لدراسة الفرنسية ، ينصرف هو إلى مكتبة الأتراك ، أو إلى مكتبة الأزهر ، أو إلى دكاكين الوراقين ، ينقب عن نوادر الكتب فيستعيرها أو ينسخها أو يشتريها . لذلك كان أعلم الناس بأسماء الكتب وسماتها وشياتها وموضوعاتها ومؤلفيها . وقد ظهر أثر ذلك حينما عمل مغيراً فى دار الكتب المصرية ، فقد انتقد فهارس الدار نقداً قوياً عنيفاً كان مثار خصومة بينه وبين زملائه . ومحمود كان لا يلاين ولا يهادن إذا كان معه الحق . ولقد كان عمله فى وزارة المعارف وفى وزارة الأوقاف نزاعاً متصلا بينه وبين رؤسائه ، لأن الوظيفة الحكومية تقتضى صاحبها المصانعة والمهاواة والمساهلة ، ومحمود كان مستقيم الطبع فلا يلتوى ، شديد الإباء فلا يستكين ، قوى الشكيمة فلا ينقاد ، حافظ العين فلا يغضى . من أجل ذلك طلب أن يحال إلى المعاش فأحيل قبل سنه بعشر سنين .

عرفت محموداً فى درس النحو ، وعرفت طة فى درس الأدب ، وكان بين المعرفتين شهران أو ثلاثة . كنت أحضر درس النحو الذى يلقيه الشيخ عبد الله دراز فى مسجد محمد بك أبى الذهب ، وكانت لى بين رفاقى شهرة بصنع الكلام الموزون المقفى ، فكان هذا يطلب مدحة فى باشا ، وذاك يطلب تهنئة لعمدة ، وذلك يريد مرثية فى قريب . وعلم ذلك محمود فجاءنى ذات يوم وأنا فى الدرس يشكو إلى أنه صنع تاريخاً لمولود فى شطر ولكنه يحتاج إلى واحد ليتم به عدد السنين ١٩٠٤ . فنظرت فى التاريخ فأعيانى أن أجد هذا الواحد ، فقلت له اكتب الشطر الأول هكذا : « وبالفرد استعنت لكى أؤرخ » والفرد معناه

الله ومعناه الواحد المطلوب ، فضعه بين قوسين واحسبه واحداً . أما جزم المضارع فللضرورة ، والضرورات ترفع المجرورات ! فسر محمود بهذا الحل سروراً عظيماً ، وصحبني منذ ذلك اليوم لا نكاد نفترق ، حتى أثلثنا بطه في درس المرصفي ، فتوثقت بيننا عرى المودة ، وتصادقنا على المحبوب والمكروه ، وتصافينا على القرب والبعد ، و مُلي كل منا أخويه خمساً وأربعين سنة تصدع فيها الشمل ، وافترق الطريق ، واختلفت الحظوظ ، واتسعت الفروق ، وثقلت الأعباء ، وكثرت الأصدقاء ، وتوزع القلب ، وتغيرت الدنيا ، واحترب العالم كله مرتين ، ولكن صداقة الشباب ظلت راسخة الأصل في أعماق الفؤاد لا يعبث بها الحدثان ولا ينال منها الزمن .

كنا ثلاثة فأصبحنا اثنين • طه حسين وأنا . أما محمود زناتى فقد سبقنا إلى الغاية التي لا بد أن يبلغها كل حي . مات محمود وبكاه طه في (الأهرام) بكاء هز قلب الخلى واستدر عين الغريب . وبكاء طه على محمود بكاء على عهد مضى لن يعود ، وعلى صديق قضى لن يعوض . مات محمود على فراش غير دافىء ولا وثير ؛ لأنه كان وحيد أبويه ، كما كان أبوه وحيد جديه ، فلم يكن له من عصبته أخ ولا عم . وكان الله قد جعله عقيماً فلم يكن له من صلبه ابن ولا بنت . ونزل به منذ ثلاث سنين مرض فادح طال وأعضل حتى سلبه الأمل وحرمه الراحة . ونقله بنو أخواله إلى (ناى) من أعمال القليوبية وهو في نهاية الشوط ونزاع الروح . وكان طيلة مرضه إذا هذى ينشد شعر الشنقيطي وكان يحفظه كله ، وإذا وعى ذكر طه والزيات ، وتمنى لو يهادنه المرض وتعاوده الصحة فيغشى ما كان يغشى من أماكن ، ويزور ما كان يزور من أصحاب !

رحمك الله يا محمود وبرد بالغفران والرضوان ثراك ! لقد كنت حريصاً على

الوداد حين ضاع الوداد ، وسخياً بالوفاء حين عز الوفاء . وأحسن الله عزاءك وأطال بقاءك يا أخى طه ! لقد ذكرتنى أواخر الصبا وأوائل الشباب وعهداً غفل عنا الزمان فيه فنعمنا بالإخاء المحض والصفاء الخالص ! ومن الذى ينسى أيها الأخ الكريم ربيعه وهو فى الخريف ، وشروقه وهو فى الغروب ؟ لقد ابتدأنا فى الرواق العباسى ومعنا الشباب والأمل ومحمود ، ثم انتهينا إلى مجمع اللغة ومعنا الشيخوخة والذكرى ولا شىء !

في ذكرى مولد الرسول

على جبل النور

(٢ يناير سنة ١٩٥٠)

قضى الصادق الأمين محمد بن عبد الله خمساً وعشرين سنة فى شعاب مكة وبطاحها يتيما فقيرا ، ثم راعيا صغيرا ، ثم تاجرا أجيرا ، فلم ينعم بدفء الفراش كمن لهم أم ، ولم يجلس أمام المعلم كمن لهم مال ؛ وإنما تولى الله تأديبه وتهذيبه لأنه أراد لنوره وبرهانه أن يشرقا فى هذا المنزل المتواضع ، ولمجده وسلطانه أن يظهرا فى هذا اليتيم الوادع ، ولعلمه وقرآنه أن ينزلا على هذا الأمى الحيى ، لتكون آيته أبهر للعيون ، ودعوته أبرع للعقول ، وكلمته أعلق بالأفئدة ، فكمله بالخلق العظيم والحياء الوقور والصبر المطمئن واللسان الصادق والذمة الوثيقة والقلب الشجاع ، ثم طهره من أرجاس الوثنية وأوزار الجاهلية ، فلم يشرب الخمر ، ولم يأكل الربا ، ولم يلعب الميسر ، ولم يشهد اللهو ، ولم يعنُ وجهه لصنم .

ثم شاء الله لمصطفاه أن ينعم بسكينة القلب ورفاغة العيش خمس عشرة سنة أُخرى بعد ذلك فى ظلال زوجه الغنية الوفية خديجة بنت خويلد استعداداً لأعباء الرسالة ومكاره الدعوة ومجاهدة الشرك . وكان النبى الكريم فى هذه الفترة الهادئة السعيدة يؤثر الوحدة ويطيل السكوت ويديم التفكير : يفكر فى خلق السموات والأرض ، وينظر فى أمر قريش والعرب ، ويسأل نفسه : من الذى خلق الموت والحياة ، وجعل الظلام والنور ، ودبر أمر هذه العوالم ، ونظم سير هذه الكواكب ؟ فتجيبه : إله آخر غير اللات والعُزّى ومناة ، لا يحل فى بشر ولا يتمثل فى حجر ، ولا يتحيز فى مكان ، فيفكر محمد ويطيل التفكير . ويبحث

النبي ويعمق البحث ، ويتعبد المتحنث ويكثر التعبد . فإذا جاء شهر رمضان من كل سنة ، هجر المهاد اللين ، وفارق الزوجة الحنون ، وتزود الزاد اليسير ، ثم صعد إلى جبل حراء على ألف وخمسمائة متر من شمال مكة ، ليستعين بالصوم والاعتكاف على استجلاء الحقيقة . وهنالك على قمة الجبل المخروطي الشاهق ، وفي صمته الملهم الرائع ، وفي غيابة الفضاء الرهيب ، يفكر في الملكوت الدائم ، ويسبح للجلال القائم ، ويفنى في الوجود المطلق . فإذا جنه الليل أرسل نظره وفكره في أشعة القمر أو في أضواء النجوم ، يستطلع المجهول ، ويستجلي الغامض ، ويرقب انبثاق النور عن الخالق ، وانكشاف الستور عن الحق . حتى إذا أجهده التفكير وأرهقته الحيرة ، أوى إلى الغار الموحش النائي فيستلقي على صخره سويعات ثم يستيقظ قبل أن تغور النجوم ، فيتعبد ويتجه بروحه اللطيف الصافي إلى الملأ الأعلى حتى تهيأ بطول الرياضة والعبادة والخلوة إلى تبليغ الرسالة ، فرأى في الليلة السابعة عشرة من شهر رمضان من السنة الحادية والأربعين من مولده صلوات الله عليه وهو نائم في الغار أن رجلا جاءه بنمط من ديباج فيه كتاب وقال له : اقرأ . فقال مأخوذاً من روعة ما رأى : ما أقرأ . فأحس كأن الرجل يخنقه ثم يرسله ويقول له : إقرأ . فقال : ما أقرأ . فعاد إليه بمثل ما فعل . فقال له : ماذا أقرأ ؟ خشية أن يعود إليه بمثل ما صنع . فقال له : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ؛ خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » فقرأها وانصرف الرجل عنه وقد نقشت في لوح قلبه .

وما لبث أن هب من نومه فزعاً مذعوراً يدير بصره في الأرض ، ويجيل طرفه في السماء . ثم تمثل له في اليقظة ما رآه في المنام فأدركه الخوف على نفسه فانطلق مسرعا إلى السكن الذي يسكن إليه ، وإلى الصدر الذي يحنو عليه ، فتلقته خديجة بالنظر المشفق والقلب العطوف ، فقال لها وهو ينتفض كأن به مساً من الحمى : زملوني ، فزملته . حتى إذا ذهب عنه الروع وعاودته السكينة ، نظر

إلى زوجه نظر اللائذ العائذ وقال لها : ياخديجة ، مالى ؟ وحدثها بالذى رأى ، فطمأنته وقالت له : أبشر يا ابن عم واثبت ، فو الذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة . والله لا يخزيك الله أبداً : إنك لتصل الرحم وتصدُق الحديث وتؤدى الأمانة وتحمل الكلّ وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق » .

وفتر الوحى مدة جزع لها محمد وقلقت خديجة . ثم نزل على قلبه الروح الأمين بقول الله تعالى : يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر » فقام بأعباء الرسالة والتبليغ ثلاث سنين فى طى الخفاء ، حتى أوحى الله إليه : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ، وأنذر عشيرتك الأقربين » فمالن بالدعوة قريشاً وسفه أحلامها وعاب أصنامها ، فكاشفوه بالعداء ، وقصدوه بالإيذاء ، وهو يتلقى كيدهم بجنة صبره وُعدّة إيمانه ومن ورائه عمه أبو طالب يذود عنه ويحميه ، وزوجه السيدة خديجة تواسيه وتقويه . ولكن قريشاً أنذروا أبا طالب لئن لم يكف ابن أخيه عما هو فيه ليقاتلنّه هو وإياه حتى يهلك أحد الفريقين ، فلما أعاد أبو طالب قولهم على سمع الرسول أجابه ذلك الجواب الذى خيّس أنف الشيطان ، وغير وجه الزمان ، وحسم الأمر بين التوحيد والشرك . قال : والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » فلم يسع العم النبيل إلا أن يقول له : « اذهب ياابن أخى فقل ما أحببت فو الله لا أسلمك لشىء تكرهه أبداً » .

عند ذلك تألبت على الرسول عناصر الشرك جمعاء ، فأصيب فى بدنه ، واتهم فى عقله ، وأوذى فى أهله ، وعذب فى صحبه . ثم فجعه الموت فى عمه الشهم وزوجه المخلصة فى يومين متقاربين من السنة العاشرة للرسالة ، فاشتد عليهما حزنه وحرج بعدهما فى مكة مقامه ، فخرج منها إلى الطائف يدعو ثقيفا إلى الله فأغروا

به صبيانهم وسفهاءهم فقذفوه بالحجارة حتى أدموا قدميه . فلجأ إلى بستان يعصمه منهم ، وتفيأ شجرة من شجر الكرم وهو يدعو الله ويقول : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس . أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى » .

ولما نبت قفار مكة على الغراس الإلهى انتوى الرسول الهجرة بالمسلمين إلى المدينة ، وقد أسلم فيها جماعة من الأوس والخزرج ، فأحس المشركون منه هذا العزم فائتمروا به ليقتلوه . ولكنه خرج ليلة اجتماعهم على قتله هو وصديقه أبو بكر إلى طيبة ، تكلؤهما عين لا تغفو وقوة لا يقام لها بسبيل . وهنالك تجلت فى الرسول مواهب الكمال الإنسانى فحشد للخصومة قوى النفس وقوى الحس فجاهد بالصدق ، وجالد بالصبر ، وجادل بالمنطق ، وصاول بالرأى وأثر باللسان وقهر باليد . وتلك مزيته الظاهرة على النبيين والرسل . فكل نبى وكل رسول إنما بان شأوه على قومه فى بعض المزايا ، إلا الرسول العربى فقد تم فيه ما نقص فى غيره من معجزات الرجولة . كان رسولا فى الدين ، وعلماً فى البلاغة ، ودستورا فى السياسة ، وإماما فى التشريع ، وقائدا فى الحرب . وبهذه المواهب التى نشأت فى محمد بالفطرة ، وانتقلت إلى أصحابه بالقدوة ، أصبح الإسلام الذى بدأ بخديجة وعلى وأبى بكر وزيد ، دين الناس ودنيا العالم . يقف به فى آخر الغرب عقبة بن نافع على شاطىء المحيط الأطلسى ويقول وقد خوض جواده فى الماء : « اللهم رب محمد ! لولا هذا البحر لفتحت الدنيا فى سبيل إعلاء كلمتك اللهم اشهد » ويتجه به إلى آخر الشرق قتيبة الباهلى ، ويأبى إلا أن يوغل فى بلاد الصين ، فيقول له أحد أصحابه محذراً : « لقد أوغلت فى بلاد الترك ياقتيبة والحوادث بين أجنحة الدهر تقبل وتدبر » فيجيبه : « بثقتى بنصر الله توغلت قتيبة وإذا انقضت المدة ، لم تنفع العدة » فيرد عليه المشفق المحذر : « أسلك سبيلك حيث شئت ، فهذا عزم لا يفله إلا الله » .

فليت شعرى يا علماء الإسلام ويازعماء العرب ، ماذا فى نفوسنا وأيدينا من دين محمد وأخلاق محمد وتراث محمد ؟ ألسنا نعيش اليوم مسلمين من غير إيمان ، ومستقلين من غير سلطان ، ومتحالفين من غير ألفة ؟ وهل كان ذلك يكون لو اتخذنا من أحكام الله منهاجا ومن وصايا رسوله علاجا ومن حياة السابقين الأولين قدوة ؟

إن ذكرى مولد الرسول ذكرى انطلاق الإنسانية من أسر الأوهام وطغيان الحكام وسلطان الجهالة . فما أجدر القلوب الواعية الحرة على اختلاف منازعها ومشارعها أن تخشع إجلالا لذكرى رسول التوحيد والوحدة ، ونبى الحرية والديمقراطية ، وداعية السلام والوئام والمحبة !.

الوضع اللغوى وحق المحدثين فيه

(٩ يناير سنة ١٩٥٠)

يذكرنى موضوع الوضع اللغوى وهل للمحدثين حق فيه بطائفة من البديهات كان المعلمون الطيبون يكلفون بها تلاميذهم ، كفضائل العلم ، ومحاسن الأدب ، وفوائد الثياب ، فيكتبها التلاميذ على أنها واجب يؤدى ، ويقرأها المعلمون على أنها أجمل تصحح . والواقع أنى سألت نفسى حين اقترح على هذا الموضوع : ما الفرق بين سؤالنا هل للمحدثين حق فى الوضع اللغوى وسؤالنا : من الذى يملك على التراث حق الانتفاع به وحق التصرف فيه ؟ أهو الميت الذى ورّث ثم غاص فى أعماق العدم ، أم هو الحى الذى ورث ولا يزال يضطرب فى آفاق الوجود ؟ أو سؤالنا : من الذى يملك أن يزيد فى اللغة أو يهذب منها وهى وسيلة الفهم والإفهام ؟ هو اللسان الذى سكت وبلى وانقطعت أسبابه بالحياة ، أم هو اللسان الذى لا يزال يتحرك ويلغو ليسمى كل وليد تضعه القريحة ، ويعبر عن كل جديد تخلقه الحضارة ؟

أليست الأجوبة عن هذه الأسئلة هى من نوع ذلك الكلام الذى كان تمتحن به عبقريات الأطفال فى سنيهم الأولى ؟

إذن ما الذى سوغ أن يكون مثل هذا الموضوع من الموضوعات التى أقرها المجمع لتلقى فى المؤتمر ؟ سوغه أن الحق فى الوضع اللغوى على وضوح الرأى فيه ، كان عقبة من العقبات التى أقامها المجمع لنفسه بنفسه . وذلك أن المجمع وهو وحده السلطة التشريعية العليا للغة العربية يستطيع فى حدود قواعدها

---

(١) نص المحاضرة التى ألقيت فى مؤتمر مجمع اللغة العربية فى جلسة ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٤٩ .

الموضوعة وقوالبها الموروثة أن يزيد عليها وينقص منها ويغير فيها ، ولـكنه يعطل مختاراً هذه القدرة التى يؤتيها غيره باستشارته القدماء فى كل إصلاح لغوى يقترحه ، وفى كل قرار نحوى يقره . واستشارة الماضين فى شؤون الباقين مع تبدل الأحوال وتغير الأوضاع وتقدم العلوم وتفاوت العقول واختلاف المقاييس ، تـكون فى أكثر الأحيان معطلة أو مضللة . فلو أن معالى رئيس المجمع استشارهم مثلا فيما ينقل من كتب أرسطو لقال له ابن فارس وهو من رجال القرن الرابع : زعم ناس أن علوما كانت فى القرون الأوائل والزمن المتقادم ، وأنها درست وجددت منذ زمان قريب ، وترجمت وأصلحت منقوله من لغة إلى لغة . وليس ما قالوا ببعيد ، وإن كانت تلك العلوم بحمد الله وحسن توفيقه مرفوضة عندنا » .

ولو أن معالى وزير المعارف استشارهم مثلا فى البعثات التى يبعث بها فى طلب العلم إلى أوربا وأمريكا لقال له الشيخ محمد عليش مفتى المالـكية فى أواخر القرن الثالث عشر فى رسالته التى رد بها على عالم من علماء الجزائر أفتى بجواز لبس القبعة للطلاب المسلمين الذين يطلبون العلم فى فرنسا ما نصه : « تقرر فى شريعة الإسلام أن السفر لأرض العدو للتجارة جرحة فى الشهادة ومخل بالعدالة فضلا عن توطنها وطلب العلم بها . والمقرر فى شريعة المسلمين أن المطلوب تعلمه من أقسام العلم ، العلوم الشرعية وآلاتها وهى علوم العربية ، وما زاد على ذلك لا يطلب تعلمه بل ينهى عنه . ومن المعلوم أن النصارى لا يعلمون شيئاً من العلوم الشرعية ، ولا من آلاتها بالـكلية ، وأن غالب علومهم راجع إلى الحياكة والقبانة والحجامة وهى من أخس الحرف بين المسلمين ، وقد تقرر فى شريعتهم أنها بالعدالة » .

عرض المجمع الموقر لمسألة التعريب وهى مسألة حلها الشعر القديم والقرآن

الكريم والسنة الصحيحة والدول المتعاقبة والطبيعة التى تنشىء الأمم بالتوالد والتجنس ، والحضارة التى تسد عوزها بالأخذ والاقتباس ؛ ولكن المجمع رأى مع كل أولئك أن يستفتى فيه المتقدمين ، فقالوا :

— لا يملك التعريب إلا من يملك الوضع .

— ومن الذى يملك الوضع ؟

— يملكه العرب الذين يعتد بعربيتهم .

— ومن هم العرب الذين يعتد بعربيتهم .

— هم قوم محصورون فى حدود معينه من المكان والزمان لا يتعدونها : حدودهم المكانية شبه جزيرة العرب على تفاوت بينهم فى درجات الفصاحة . وحدودهم الزمانية آخر المائة الثانية لعرب الأمصار ، وآخر المائة الرابعة لأعراب البوادى . هؤلاء هم الذين تنزّل عليهم وحى اللغة ، وألهموا سر الوضع ، فكلامهم حجة ، وأقوالهم حكمة ، وصوابهم قاعدة ، وخطأهم شذوذ ، وضرورتهم مقبولة

— إذن من نكون نحن ؟

— طبقة مولدة فقدت أهلية الأصل فلا ترتجل ، وأضاعت مزية الفرع فلا تشتق . إنما تتكلمون ماتحفظون . فإذا وقع لكم مالم يقع للعرب الخلص من الأعيان والمعانى فعبر عنه بأى لسان تشاءون ولا شأن لنا به .

ولقد كان لنا أيها السادة غُنية عن هذه الفتوى بحكم الرسول صلوات الله عليه حين سمع أن منافقا نال من عروبة سلمان الفارسى فدخل المسجد مغضباً وقال : « أيها الناس إن الرب واحد ، والأب واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هى اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربى » ونحن بحمد الله نتكلم العربية ونحرص عليها ونتعصب لها ونريد أن نهذب منها ونزيد فيها

وكان بحسبنا فى تزييف قول ابن فارس : « ليس لنا اليوم أن نخترع ولا أن نقول غير ماقالوه ، ولا أن نقيس قياسا لم يقيسوه » قول فيلسوف العربية ابن جنى : (ماقيس على كلام العرب فهو من كلام العرب) ، ولـكن القدماء رووا قول الرسول ، ووعوا قول ابن جنى ، وسمعوا كثيراً من نحو ذلك . ثم ظلوا متبلدين يهابون الوضع ولا يقطعون فيه برأى . وإذا حاولنا أن نعلل هذا التبلد وتلك الهيبة كان أول مايخطر فى الذهن تلك القداسة التى أسبغوها على اللغة العربية لصلتها الوثيقة بالدين ، فهى لغة القرآن والحديث ، وأداة التحدى والإعجاز ، ولسان الدعوة والخلافة ، فالعناية بها عناية بـكلام الله ، والتعصب لها تعصب للغة الرسول ، ولذلك وضعوا النحو والصرف ، ورسموا النقط والشكل ، واستنبطوا المعانى والبيان ، وقطعوا بوادى الحجاز ونجد وتهامة ليسمعوا المناطق المختلفة ، ويجمعوا الألفاظ الغريبة ، فأخذوا أكثر ما أخذوه عن قبائل قيس وتميم وأسد ، وتحاموا الأخذ عن الأعراب الضاربين على التخوم الموبوءة بالعجمة ، وعن العرب المتصلين بالأجانب فى التجارة .

فعلوا ذلك ليدرأوا عن العربية شبهة العجمة ويبرئوها من تهمة الدخيل ، وظنوا أنهم استطاعوا ذلك فقالوا : ليس فى كتاب الله شىء من لغة العجم ، يتأولون بذلك قول الله تعالى « إنا جعلناه قرآناً عربياً » وقد جهدوا جهدهم فى التماس الأصول العربية لجميع الـكلمات الأعجمية فجاءوا من ذلك بما لا يتفق مع فضلهم ، كقولهم فى الخندريس مثلا ، وهى تعريب خندروس باليونانية : « الخندريس : الخمر القديمة . واشتقاقه من الخدرسة ولم تفسر ، أو من الخدر لأن شارب الخمر ربما أصيب به ، أو من الخرس لأنه فى حال السـكر يصير كالأخرس !

وقد حاول مثل هذه المحاولة فقيد المجمع المرحوم الأب أنستاس مارى

الكرملي فكتب طائفة من الفصول في مجلته (لغة العرب) بعنوان (العربية مفتاح اللغات) ورد فيها كثيراً من الكلمات الأفرنجية إلى أصول عربية كقوله مثلا : إن كلمة imbécile الفرنسية ومعناها الأحمق ، مأخوذة من الكلمة العربية بأقل العي العربي المشهور . و يقول إن القاف في العربية تكون كافا في اللاتينية وسينافي الفرنسية ؛ فإن رددناها إلى اللاتينية وجردناها من الزوائد كانت باكول أو بأقل . وقد افتعل عليه أدباء الشام والعراق طرفا من مثل ذلك فزعموا أنه يقول إن (جرسون) أصلها العربي جار الصحون ، خففت الراء والصاد ثم حذفت الحاء لعسر النطق بها !

ولقد غلا الأقدمون في تقديس العربية حتى ادعوا أن واضعها الأول هو الله سبحانه ، محتجين بقوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها » وهي حجة لا تنهض بدعواهم إلا إذا ثبت أن الأسماء التي علمها الله آدم كانت عربية ، والذين فندوا هذا الرأي وقالوا إن اللغة اصطلاح لا توقيف ، أكبروا هذه اللغة عن أن يضعها الأعراب والأوشاب والعامة ، فتوهموا لها واضعاً لم يسموه ولم يعرّفوه ، و إنما تخيلوه منقطعاً في خيمته للوضع ، كما ينقطع الناسك في صومعته للعبادة . فيذهب إليه الناس كما يذهبون اليوم إلى القصاب والبدال يسألونه ما اسم هذا الشيء ؟ وما لفظ هذا المعنى ؟ فيجيبهم عما سألوا فيحفظونه و ينشرونه . قال صاحب الخصائص : « إن واضع اللغة لما أراد صوغها وترتيب أحوالها هجم بفكره على جميعها ، ورأى بعين تصوره وجود جملها وتفصيلها ، وعلم أنه لابد من رفض ما شنع تأليفه نحو هع وقج فنفاه عن نفسه » .

وقال صاحب المثل السائر : « حضر عندي رجل من علماء اليهود بالديار المصرية ، فجرى ذكر اللغات وأن اللغة العربية هي سيدة اللغات ، فقال اليهودي : وكيف لا تكون كذلك و إن واضعها تصرف في جميع اللغات السالفة فاختصر

ما اختصر وخفف ما خفف ؛ فمن ذلك اسم الجمل ، فإنه عندنا فى اللسان العبرانى (كوميل) فجاء واضع اللغة العربية وحذف من الكلمة الثقل المستبشع وقال (جمل) . وقد صدق فى الذى ذكره » .

هذه القداسة أيها السادة التى كسبتها العربية من القرآن والحديث ، أكسبتها هى أيضاً العرب وجزيرة العرب فى تلك الحقبة المحدودة . مصداق ذلك أن علماء المصرين البصرة والكوفة لم يدعوا فى البوادى العربية بقعة ولا صخرة ولا نبتة ولا حشرة ولا وجهاً من وجوه الأرض ، ولا ظاهرة من ظواهر السماء ، إلا عرّفوها ووصفوها وسجلوها ، ورووا ما قيل فيها من الشعر ، وقصوا ما جرى عليها من الوقائع ، ولم يتركوا من مناطق البدو ووسائل حياتهم ومظاهر اجتماعهم ومختلف عاداتهم لفظة ولا لهجة ولا حالة ولا أداة ولا لعبة إلا جمعوها ودونوها حتى الكلمة الغريبة والعبارة المهجورة والصيغة المماتة ، فاجتمع لهم من كل أولئك سجل محيط شامل فرضوه بفضل هذه القداسة على جميع المتكلمين بالعربية فى العصور الأربعة والقارات الثلاث ، فظلوا على رغم ما بلغوه من السلطان والعمران والمدنية والعلم والأدب والفن يستعملون أمثال للبدوى وصوره وأخيلته ومجازاته وتشبيهاته وكناياته ، فيقولون مثلا : جاءوا على بكرة أبيهم ، وألق دلوك فى الدلاء ، وقلب له ظهر المجن ، وضرب إليه أكباد الإبل ، وركب إليه أكتاف الشدائد ، واقتعد ظهور المكاره ، وأنبتّ حبل الرجاء ، وضل رائد الأمل ، وهو شديد الشكيمة ، وله غرر المكارم وحجولها ، وإن حلمه أثبت من ثبير وأوقر من رضوى ، وأوسع من الدهناء . ولو ذهبت أستقصى هذه الأوضاع وتلك التراكيب لما أبقيت فى المعجم إلا المصطلحات التى فرضها الدين ، والمعربات التى أقحمتها الحضارة .

ثم اعتقدوا أن اللغة قد كانت فى عهد الرواية كاكمل الدين فى عهد الرسالة

تختم الرواة السجل ، وأغلق علماء اللغة باب الوضع ، كما أغلق فقهاء السنة باب الاجتهاد ، وتركوا الأمة العربية التى امتد ملكها من الهند والصين شرقا إلى جبال بيرانس غربا ، تتعامل خارج (البورصة) ، وتتجاوز حدود المعجم ؛ كأنهم نسوا أن اللغة لا يمكن أن تثبت ثبوت الدين ، ولا أن تستقل استقلال الحى ، لأنها ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم . والأغراض لا تنتهى . والمعانى لا تنفد ، والناس لا يستطيعون أن يعيشوا خرساً وهم يرون الأغراض تتجدد ، والمعانى تتولد ، والحضارة ترميهم كل يوم بمخترع ، والعلوم تطالبهم كل حين بمصطلح ؛ ولا علة لهذا الخرس إلا أن البدو المحصورين فى حدود الزمان والمكان لم يتنبأوا بحدوث هذه الأشياء ، ولم يضعوا لها ما يناسبها من الأسماء !

ترتب أيها السادة على إغلاق باب الوضع ، وتخصيص حكم القياس ، وتقييد حق التعريب ، وإنكار وجود المولد ، وطرد الأمة العربية بأسرها خارج الحدود . أن حدث أمران خطيران كان لهما أقبح الأثر وأبلغ الضرر فى كيان اللغة وحياة الأدب .

الأمر الأول طغيان اللغة العامية طغيانا جارفا حصر اللغة الفصحى فى طبقات العلماء والأدباء والكتاب والشعراء يكتبون بها للملوك ، ويؤلفون فيها للخاصة ؛ وسيطرتها على حياة الأمة فى شؤونها العامة وأغراضها المختلفة ؛ لأن العامية حرة تنبو على القيد ، وطبيعية تنفر من الصنعة ؛ فهى تقبل من كل إنسان ، وتستمد من كل لغة ، وتصوغ على كل قياس . وبذلك اتسعت دائرتها لكل ما استحدثته الحضارة من المفردات المولدة والمقتبسة فى البيت والحديقة والسوق والمصنع والحقل والناس فى سبيل التفاهم يؤثرون السهل ، ويستعملون الشائع ، ويتناولون القريب . وتخلف اللغة عن مسايرة الزمن وملاءمة الحياة معناه الجمود . والنهاية المحتومة لجمود اللغة اندراسها بتغلب لهجاتها العامية عليها وحلولها محلها ، إذ تكون بسبب

مرونتها وتجددها ، أدق تصويراً لأحوال المجتمع ، وأوفى أداء لأغراض الناس . وهذا ما حدث للغة اليونانية القديمة حين خلفتها اليونانية الحديثة ، واللاتينية حين ورثتها الفرنسية والإيطالية والأسبانية . وهذا ما كان يحدث حتماً للعربية الفصحى لولا أنها لغة القرآن . واللغات السامية كما يقول (رينان) مدينة ببقائها للدين فلولا اليهودية ما بقيت العبرية ، ولولا المسيحية ما عاشت السريانية ، ولولا الإسلام ما حفظت العربية .

والأمر الآخر حرمان الفصحى كل ما وضعه المولدون من الألفاظ ، وما اقتبسوه من الكلمات ، لأن اللغويين الذين أقاموا أنفسهم على أسرار اللغة مقام الكهنة على أسرار الدين ، أبوا أن يعترفوا بهذه الثروة اللفظية الضخمة لصدورها عمن لا يملك الوضع والتعريب بزعمهم ، فحرموا اللغة مورداً ثراً كان يقيها الجفاف والذبول ، و يؤتيها النماء والخصب . ولولا أن العلماء والمترجمين — وجلهم من غير العرب — تجاهلوا أوامر اللغويين فى الوضع والتعريب لما استطاعوا أن ينقلوا إلى العربية علوم الأولين من فرس ويونان وهنود ويهود ، ولما قال أبو الريحان البيرونى فى العربية : « وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم فازدانت وحلت فى الأفئدة ، وسرت محاسن اللغة منها فى الشرايين والأوردة . والهجو بالعربية أحب إلى من المدح بالفارسية » .

وقد أدى احتقار اللغويين للغة المولدين إلى احتقار الأدباء لأدب العامة . فكما أن أولئك لم يدونوا فى معجماتهم الكلام المولد ، لم يدون هؤلاء فى مؤلفاتهم الأدب الشعبى . ولو أنهم دونوا أحسن مادار على الألسنة فى جميع الطبقات والبيئات من الأمثال والحكم والمجازات والكنايات والطرف لوفروا للغة الفصحى وللأدب العالى مورداً لا ينضب ومادة لا تنفد فإن العامة كانوا تسعة أعشار الأمة العربية وهى فى أوج سلطانها ، وأكثرهم أعقاب أمم مختلفة الجنسية والعقلية والعقيدة ،

دخلوا فى دين الله أو عاشوا فى كنفه ، واتخذوا العربية العامية لغة لهم أودعوها معانيهم وتصوراتهم ، وأفضوا إليها بأسرار لغاتهم ؛ فكانت أمثالهم تسير ، وأقاصيصهم تحكى ، ومصطلحاتهم تنقل ، ومواضعاتهم تذيع . فإذا كانت الفصحى نهراً تجمع من أمطار ، فإن العامية بحر تجمع من أنهار . والنهر إذا أخلفه الغيث غاضت منابعه وجفت مجاريه ، ولكن البحر إذا أخلفه رافد هنا أمدته روافد هناك .

ولست أذكر مزايا العامية لأهتف بها وأدعو إليها ، وإنما ذكرتها لأقول إن سادتنا اللغويين وأدباءنا الأولين لو أنهم أزالوا هذا السد الذى جعلوه بين اللغتين لاكتسبت الفصحى من العامية السعة والمرونة والجدة ، واكتسبت العامية من الفصحى السلامة والصيانة والسمو ، ولكان لنا من تداخل اللغتين وتفاعلهما لغة تجمع بين محاسن هذه ومحاسن تلك . فأما مساوىء الفصحى أو عنجهيتها فتموت كما يموت الحوشى المهجور من كل لغة . وأما مساوىء العامية أو حثالتها فتبقى على الألسنة التى تستذيقها من الطبقات الدنيا وتكون هى اللغة العامية التى لابد منها فى كل لغة من لغات العالم ؛ ولكن بالنسبة القليلة التى لا تطغيها على الفصحى ولا تفرضها على الناس .

سادتى : إن حق المحدثين فى الوضع مقرر بالطبيعة فلا مساغ للنزاع فيه . وإن الذين أنكروه لم ينكروه بقول يناقش ولا حجة تسمع ، إنما قولهم فيه أشبه بقولهم فى كتابة المصحف . فقد قالوا لا بد أن نكتب القرآن بالرسم الذى كتب به فى زمن عثمان ، فنكتب الصلاة بالواو ونلفظها بالألف ، ونكتب (والسماء بنيناها بأيد) بياءين ونلفظها ياء واحدة ، ونكتب (لشىء) بألف زائدة بين الشين والياء وننطقها بدونها . ولو كان هذا الرسم موحى من الله على رسوله لآمنا به وحرصنا عليه ، ولكنه من عمل قوم كانوا قريب عهد بالخط فوقع فيه الخطأ والنقص والإشكال . والغرض من كتابة القرآن أن نقرأه صحيحاً لنحفظه صحيحا ، فكيف

نكتبه بالخطأ لنقرأه بالصواب ؟ وما الحكمة فى أن نقيد كتاب الله بخط لا يكتب به اليوم أى كتاب ؟ و إذا احتجنا فى دفع هذه الأقوال إلى غير الوجدان فلن يصح شىء فى الأذهان كما يقول أبو الطيب .

بقى أن نعرف من هو المحدث الذى يملك حق الوضع . أهو فرد معين أو جماعة معينة كما كان يظن الأوائل ، أم هو كل فرد وكل جماعة يتكلمون العربية وتدعوهم الحاجة إلى وضع اللفظ للمعنى الذى ولده ، وللشىء الذى أوجدوه ؟ إن حق الوضع حق مطلق لا يتخصص بأحد ولا يتعلق بظرف . يملكه الفرد والجماعة ، وتملكه الخاصة والعامة . فالعلماء يضعون مصطلحات العلوم ، والرياضيون يضعون مصطلحات الرياضة ، والأطباء يضعون مصطلحات الطب ، والفقهاء يضعون مصطلحات الفقه ؛ الفقه كما أن الصناع يضعون لغة المصنع والورشة ، والزراع يضعون لغة الحقل والحظيرة ، والتجار يضعون لغة الدكان والسوق . ومجمعكم الموقر يشارك هؤلاء وأولئك فى الوضع والتعريب ؛ ويختص دونهم جميعاً بالتسجيل والتصديق . فأيما كلمة توضع لا تدخل فى اللغة قبل أن يسمها بميسمه و يدخلها فى معجمه و بغير ذلك نقع فيما وقع الأولون فيه من تعدد الوضع فى المرتجل واختلاف الصيغ فى المشتق .

و إذا سمحتم أيها السادة أن أجعل لهذه الكلمة نتيجة إيجابية فأنى أتقدم إلى معالى رئيس المجمع باقتراح يشمل أربعة أمور أرجو أن يأذن فى عرضها عليكم لتمحصوها وتصدروا قراركم فيها :

١ ــ فتح باب الوضع على مصراعيه بوسائله المعروفة وهى الارتجال والاشتقاق والتجوز .

٢ ــ رد الاعتبار إلى المولد ليرتفع إلى مستوى الكلمات القديمة .

٣ ــ إطلاق القياس فى الفصحى ليشمل ما قاسه العرب وما لم يقيسوه ، فان توقف القياس على السماع يبطل معناه .

٤ — إطلاق السماع من قيود الزمان والمكان ليشمل ما يسمع اليوم من طوائف المجتمع كالحدادين والنجارين والبنائين وغيرهم من كل ذى حرفة .

فإذا أقررتم هذا الاقتراح أيها السادة دفعتم معرة العُدم والعقم عن هذه اللغة الكريمة التي سمعناها فى القرن الخامس تصف ناقة طرفة فتسمى أعضاءها عضواً عضوا ، وتنعت أوضاعها وضعاً وضعا ، فى أربعة وثلاثين بيتاً من معلقته ؛ ثم تراها فى القرن العشرين تقف أمام سيارة فورد بكماء بلهاء ، تشير ولا تسمى ، وتجمجم ولا تبين . وإنى أشكر لكم ياسادتى حسن التفاتكم وكرم إصغائكم ؛ والله يهدينا الطريق ويلهمنا التوفيق .

الإسلام والمذاهب الهدامة

(١٣ مارس ١٩٥٠)

الإسلام هو السلام الإلهى على هذا الكون . شرعه الله وهو العليم الخبير ليكون للناس جميعاً دستوراً كاملا تصلح عليه شؤون الفرد وأمور الجماعة من كل جنس وفى كل عصر وعلى كل أرض .

جمع فيه أفضل ما فى الديمقراطية ، وأعدل ما فى الاشتراكية ، وأجمل ما فى المدنية ؛ ثم كشف لرسوله الكريم عن أطوار النفس البشرية فى طوايا الغيب فدعا دعوته الخالدة لتكريم الإنسان وتنظيم العمران وتعميم الخير وتحقيق السعادة من طريق التوحيد والمؤاخاة والمساواة والحرية والسلام . فالتوحيد سبيل القوة ، والمؤاخاة سبيل التعاون ، والمساواة سبيل العدل ، والحرية سبيل الكرامة ، والسلام سبيل الرخاء . وتلك هى الغايات التى ترجو الإنسانية بلوغها عن طريق النظم السياسية والمذاهب الاجتماعية فلا تتكشف أمامها بعد طول الجهاد وفرط الجهد إلا عن سحاب خلب وسراب خادع .

ثم علم الله جلت حكمته وعز شأنه أن الفقر من أمراض المجتمع المحتومة مادام فى الناس القادر والعاجز والقانع والطامع والسابق والمتخلف ، فعالجه علاجاً لو دأب عليه المسلمون لعاشوا إخوة متعاطفين متناصرين ؛ تجد فيهم الفقير ولا تجد المحروم ، وترى بينهم الضعيف ولا ترى المظلوم ، لأن دينهم جعل بين الغنى والفقير سبباً هو البر وأنشأ بين القوى والضعيف نسباً هو الرحمة . ولو أخذ به المصلحون لوقى العالم شر هذه النحل الهدامة التى تثير بين الدول النزاع والحرب ، وتنشر بين الأمم القلق والثورة . ذلك العلاج الإلهى هو الوساطة بين الأغنياء

والفقراء على أساس الاعتراف بحق التملك ، والاحتفاظ بحرية التصرف ، فلا يدفع مالك عن ملكه ، ولا يعارض حر فى إرادته . إنما جعل للفقير فى مال الغنى حقاً معلوماً لا يكمل دينه إلا بأدائه . ذلك الحق هو الزكاة وهى الركن الثالث من الأركان الخمسة التى بنى عليها الإسلام . وليست الزكاة بالقدر الذى يخفى أثره فى حياة الفقير ، فهى ربع العشر فى المال وما يقدر بنحو ذلك من غيره . فإذا جُبيت الزكاة بالأمانة على حسابها المقدر ، ووزعت بالعدالة فى نظامها المفروض ، شفت النفوس من الحقد ، وأنقذت المجتمع من البؤس ، فلا تجد سائلا فى شارع ، ولا جائماً فى بيت ، ولا جاهلا فى عمل . ذلك العلاج الذى عالج به الإسلام الفقر فيه البر والرحمة من صاحب المال ، والرضا والقناعة من صاحب العمل ، والرعاية والعدل من صاحب الحكم . وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ولكن أصحاب النحل الخبيثة وذوى المطامع الخسيسة لم يرضهم فى الزمن الغابر ولا يرضيهم فى الزمن الحاضر أن يعيش الناس وادعين راضين فى ظلال النظم المشروعة ، فهبوا يعارضون أوامر الله ووصايا الرسل بتسليط الغرائز وتحكيم الشهوات وإثارة الفتن ، فتمردوا على الدين ، وتحللوا من الخلق ، وتحرروا من القيود ، وقال القرامطة : « لا حقيقة فى هذا الوجود وكل أمر مباح » بذر هذه البذرة فى الشرق الإسلامى بابك الخرمى فى القرن الثالث من الهجرة · ومن بعده عبد الله بن ميمون . ومن بعده الحسن الصباح شيخ الجبل ، وأغروا بثمارها المحرمة عبّاد اللذة ورواد المنكر من ضعاف العقول وصغار الأنفس ، وأمعنوا فى الغى والضلال ، واشتركوا فى النساء والأموال : وفى سبيل ذلك نشروا الإرهاب ، وبددوا النظام ، وزعزعوا الأمن .

كان أولئك الطاعون الخداعون يقترفون هذه الكبائر تحت ستار من الدين

والخلق : فبسلطان الدين كانوا يشيعون الإلحاد ، وباسم الخلق كانوا ينشرون الاباحية . ولكن للإسلام منبعين من كتاب الله وسنة رسوله لا يزالان يتدفقان بالصفاء والطهر والعذوبة ، فإذا تلوثت مجاريه البعيدة بمثل هذا الدنس أقبل الفيض الإلهى فجرف تياره القوى كل عفن ، وطهر ماؤه النقى كل رجس .

وفى هذا العصر الحديث تجددت المزدكية والبابكية باسم الفوضوية والشيوعية فقامتا تدعون باسم الإنسانية إلى الإلحاد والاباحية سراً وعلانية . تقول الشيوعية للاسلام : إن ربك ظالم لا يعرف العدل . جائر لا يعرف المساواة ، مستبد لا يعرف الحرية . لا يعرف العدل لأنه يقول : والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، وأنا أريد أن يكون الرزق مشاعاً ينال كل امرىء منه ما يشاء . ولا يعرف المساواة لأنه يقول : ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات ، وأنا أريد أن يكون الناس جميعاً فى كل أمر سواء . ولا يعرف الحرية لأنه قيد كل شىء بقيد : قيد الرزق بالملكية ، وقيد المرأة بالزوجية ، وقيد تصرف النفوس بالعقيدة والخلق ، وقيد تداول الأموال بالوقف والإرث . أما أنا فأقول كل شىء مشاع ، وكل أمر مباح ، وكل إرادة طليقة ، حرمت الملكية ، ومحوت الأسرة ، وألغيت الجنسية ، وأنكرت الوطنية ، وجعلت المزارع والمصانع والنساء وسائل للإنتاج العام : آخذ من كلٍ حسب كفايته ، وأعطى كلا على حسب حاجته . على الناس أن يعملوا ، ولهم أن يأكلوا . . أما أن يكون للافراد أملاك تغنيهم عن الإنتاج ، وللآباء أبناء يشغلونهم عن العمل ، فذلك فى شرع الشيوعيين لا يجوز . الملك ملك الدولة ، والولد ولد الدولة . وليس بين الرجل ووطنه ، ولا بين الولد ووالده ، إلا كما يكون بين القطعان والمرعى ، أو بين الحملان والكبش !

ذلك ما يقوله الشيوعيون فى الله ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً .

يزعم الشيوعيون أنهم أعلم من الله بأحوال خلقه ، وأعدل منه فى تقسيم رزقه . فهم لذلك ينكرون دينه ، ويغيرون شرعه ، ويحاولون أن يهدموا كل ما أنتجته القرائح وخلفته القرون ليبنوا على أنقاض ذلك كله شيئاً لا يقولون صراحة ما هو : ولا يرُون الناس جهرة كيف وهو ؟ وإنما يضربون من دونه الأسداد والحجب . فلا يقع فى الأسماع منه إلا ما يريدون هم أن يقع ! وفاتهم قبل أن يلغوا الفضائل والعقائد والقيم أن يلغوا العقول حتى يصدق الناس أن هذا الشىء الذى يذكر فى السر ، ويدبر فى الظلام ، ويبذل فى سبيله الأموال والأنفس والثمرات والجهود ، إنما يقصد به العدل المطلق والخير العام ، ولا يقصد به طغيان بشر على إله ، ولا سلطان دولة على عالم !

ليست الشيوعية عقيدة تقوم على الخير ، ولا طريقة تعتمد على الحق ، ولا رسالة تؤدى بالمعروف ، إنما هى أطماع من عمل الشيطان وسوس بها فى صدر جماعة من مغامرى الروس كابدوا استبداد القيصرية ، وقاسوا استعباد الأرستقراطية ، فلم يكادوا يثلون عرش المستبد ويقوضون صرح المستعبد ، حتى أدركهم مركب النقص ، وأخذتهم سورة الانتقام ، فتقاسموا بينهم جبروت القياصرة وصاف الأشراف ، وسخروا كل ما تنتج العقول وتخرج المصانع وتنبت الأرض للجيوش والأسلحة ليتخذوا عباد الله كلهم عبيداً ، ويجعلوا أرض الله كلها لهم ضيعة !

حزب من ستة ملايين قيصر قد أعد الحديد والنار والدمار والقلق والفزع والاضطراب والفوضى لتنفيذ هذه الخطة وبلوغ هذه الغاية ! فهل يقدر الله أن تنهزم

القوى الخيرة أمام هذا الشر ، وتنخزل (١) المبادىء الصالحة عن هذا الفساد ؟ حاش لله أن يؤتى ملكه غير البر ، وأن يورث أرضه غير الصالح ، فأما الزّبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض .

إن العقلية العربية معمرة فلا تقبل الهدم ، وإن العقيدة الإسلامية نيرة فلا ترضى الضلال ، وإن النحل الهدامة التى انتشر ظلامها حيناً فى سماء العراق إنما كانت خارجة عن الإسلام طارئة على العرب : وإن الشرق العربى سيظل بفضل عقليته وعقيدته آمناً من كل سوء نابيا على كل فتنة .

---

(١) انخزل عن الشيء : تعوق عنه واحتبس .

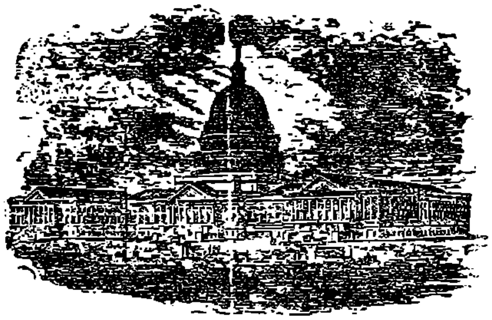

علي طه بين المهد واللحد

(٦ مارس سنة ١٩٥٠)

سادتي أقرباء علي طه ،
وأصدقاء علي طه !

نحن هنا في البلد الذي خرج فيه إلى نور الوجود ، ونحن هنا في البلد الذي رجع فيه إلى ظلام العدم !

نحن هنا في البلد الذي قدم إليه المهد مزيناً بأوراد الربيع ، مشرقاً ببسمات الحب ، محفوفاً بنظرات الأمل . ونحن هنا في البلد الذي أعد له اللحد مكللا بأزهار الخريف ، مبللا بعبرات الأسى ، مودعاً بحسرات الذكرى !

نحن هنا في البلد الذي نشّأ علياً على حب الجمال ، وهيأ علياً لرسالة الشعر ، ووجه علياً إلى طريق المجد . ونحن هنا في البلد الذي خُتم فيه على القلب الشاعر ، وضُرب فيه على السمع الواعي ، وحكم فيه على اللسان البليغ !

الكلمة التي ألقيت في تأبين الأستاذ علي محمود طه بالمنصورة مسقط رأسه .

من هذا الشاطىء ، شاطىء المنصورة ، ركب الملاح زورقه الهائم [1] ، ثم مخر به العباب فى خضم الحياة . تارة يختفى ، وتارة يظهر . فإذا اختفى غاب مع « الأشباح والأرواح » فى جزر الأرخبيل أو على جبل الأولمب . وإذا ظهر شوهد على سواحل كليوا بطرة يردد اللوعة والأنين ، أو على جندول البندقية يرجّع الشوق والحنين ، أو فى بحيرة كومو يمجد الحب والجمال فى صور الناس ومجالى الطبيعة .

وكذلك كان فى كل بحر يجرى فيه ، وفى كل ساحل يدنو منه : يرسل الأنغام العذبة من قيثاره المرح ، ويبدع الصور الجميلة بريشته الفنانة ، وينفح الصدور المكروبة بنسماته الشعرية السحرية التى تسرّى هموم النفس وتهوّن متاعب الحياة .

ثم غام الأفق فى وجه الملاح ، وثارت الأعاصير على جوانب الزورق ، فكلت الذراع ، وسكن المجداف وتمزق الشراع ! وفى يوم من الأيام السود أُلقى فى ساحل المنصورة حطام الزورق وجثة الملاح ! وفى حفرة ضيقة من المقبرة المهمومة ثوى القلب الكبير ، وذوى الأمل النضر وهمد الجناح المحلق !

فى هذا البلد وفى الحبيب عرفت على طه وأحببته . عرفته منذ تسعة وعشرين عاما وأحببته منذ عرفته . كان لقاؤنا الأول على هذا الضفاف الخضر فى أصيل يوم من أيام أغسطس من السنة الحادية والعشرين من هذا القرن . وكان عِلى لا يزال طالبا بمدرسة الفنون والصناعات ، يكابد ألم التناقض بين ملوجهُ إليه بالفطرة ، وما حل عليه بالاكتساب ؛ بين النوازع الأدبية التى يجدها فى نفسه ، والمسائل العلمية التى يتلقاها فى درسه ؛ بين الناس الذين يتخيلهم فى الذهن ، والناس الذين يتمثلهم فى الخارج ؛ بين مطالب الجسد التى تربطه بالأرض ، ونوازى

(١) الملاح التائه ، والأشباح والأرواح ، ديوانان للشاعر . وليالى كيلوباترة ، والجندول وبحيرة كومو ، قصائد من قصائده .

الروح التقى يجذبه إلى السماء .

كالى يقضى طرف نهاره فى قهوة (ماتيو) بشارع البحر ينظر فى كتاب مرة ويكتب فى ورقة مرة ، ثم يذهل عن الكتاب والورقة ويرسل بصره إلى الأفق البعيد ، ثم يرده إلى نفسه وينطوى عليها انطواء الفيلسوف المفكر أو الشاعر الحالم . فإذا جلس إليه أحد ثقاته أخذ ينفس عن صدره المكظوم بالحديث عمن يحب ، أو بالشعر فيمن يحب ، وحبه يومئذ كان حب الفنان الخيالى يجمله بالتنزيه والحرمان منبعاً للألم ومبعثاً للشكوى ليرهف به شعوره ويغذى عليه شعره .

قلت له ذات يوم : ما بالك يا على وأنت فى زهرة العمر ونضرة الصبا حزين الشعر ضائقا بالناس والحياة ؟ فهل تشكو من مرض ؟ فقال على ، ومازلت أذكر ما قال : إنما أشكو مرض الاغتراب ، يخيل إلى أنى من قوم آخرين ومن بلد آخر ، فأنا لا أزال أشتاق إلى القريب المجهول ، وأحن إلى الوطن النازح . ويشتط بى النزوع أحياناً فأتمنى لو أطير . وأتوهم حين يخفق قلبى أنه طائر يريد أن ينهض ، وأن ضلوعى من حوله قفص يأبى أن ينفرج !

ثم انقضى ذلك العهد وانقضت معه تلك الحال الغريبة . ودخل علىّ فى زحمة الحياة وغمار المجتمع ، فازهر الوجه الشاحب، وانبسط المحيا الكئيب ، وابتسم الثغر الحزين ، وتشعبت فى نفسه أصول الجمال والحب ، فامتد فى نظره الجمال إلى العمل والخلق والسلوك ، واتسع فى قلبه الحب للخير والإخاء والمروءة . ولذلك عاش ما عاش فى سلام من نفسه ، وعلى وئام مع الناس .

وتأكدت بينى وبين على أسباب المودة فعرفته فى جميع حالاته ، وخبرته فى أكثر ملابساته ، فلم أره يوماً قبض يده عن معروف ، ولا بسط لسانه بأذى ، ولا طوى صدره على ضغينة .

كانت لذته فى أن يفعل الخير لأنه إنسان بفطرته ، وكانت متعته فى أن يقول الشعر لأنه فنان بطبعه . وفيما عدا فعل الخير وقول الشعر كانت حياته أشبه بحياة الطائر الفرد فى سماء الربيع الطلق : انتقال من غزل إلى شدو ، وارتحال من جو إلى جو !

كان على طه أكرم الله مثواه طاغى الشخصية ، ولكنه طغيان الروح ؛ مستبداً بالحديث ، ولكنه استبداد النبوغ . يجلس الجالس إليه ويطيل الجلوس ويكرره ، ولكنه فى كل جلسة يجد نفسه فى حضرة رجل ممتاز . وامتيازه كان من طلاوة حديثه ، وشجاعة رأيه ، وصراحة قوله ، وعفة لسانه ، وحرية ضميره ، وخلوص قلبه . كان فى صرامة الرجل ووداعة الطفل ، فلا يسع من يلقاه إلا أن يجله ، ولا يملك من يعرفه إلا أن يحبه .

وكان شعره صورة لشخصه ومرآة لنفسه . نقرأه فكأنما تقرأ فى قلب مفتوح ، وننظر فيه فكأنما ننظر فى أفق منير . أجمل ما فيه الصدق ، وأقوى ما فيه الجمال ، وأعظم ما فيه الحب . والصدق والجمال والحب وهى عناصر الرسالة الفنية التى أداها على طه .

كان شعره صافى الأسلوب لأنه صافى القلب ، متسق الألفاظ لأنه متسق الخلق ، مشرق المعنى لأنه مشرق النفس . وإن من المصائب التى يرفضُّ لها الصبر ويضيق بها العزاء أن نستعمل (كان) فى الحديث عن على طه ! إنه باق ما بقيت العربية ، مذكور ما ذكرت العروبه ، خالد ما خلد القرآن .

ولست اليوم بسبيل الكشف عن عبقريته فى فن الشعر ، ولا عن مكانته فى تاريخ الأدب ؛ إنما هى عبرات مما بقى فى المآقى جئت أسكبها على ثراه ، وزهرات من الروض الذى كان يحبه جئت أنثرها على قبره !

رحم الله الفقيد العزيز أوسع الرحمة ، وعزى عنه الأمة العربية أجمل العزاء ، وعوض الأدب الرفيع من فقده خير العوض !

« حيـاتى »

(٢٤ أبريل سنة ١٩٥٠)

« حياتى » هى حياة صديقى الأستاذ أحمد أمين ، ألفتها الوراثة والبيئة والأقدار والظروف والمواهب والأخلاق والجهود فى مدى أربع وستين سنة ، فجاءت فصلا متميزا من كتاب الحياة العام . وقليل من الناس من يتهيأ بفطرته وعبقريته ليكون مادة من مواد هذا الكتاب . أما الأكثرون فأكثرهم ينكرهم المؤلف الأعظم إنكاره للمعدوم وأقلهم يذكرهم إما لحقاً فى حاشية ، وإما عرضا على هامش .

هذا الفصل الطويل الحفيل لخصه أحمد أمين بقلمه فجاء قصة من قصص البطولة النفسية فى ثلثمائة وخمسين صفحة من الحجم اللطيف ، تقرأها وأنت ترجو ألا تشغل عنها ، وتفرغ لها وأنت ترجو ألا تفرغ منها !

قرأتها فى جلستين اثنتين على كلال بصرى ووهن أعصابى ، فكنت كأننى أشهد بخيالى وذهنى فلما ثقافيا عجيب المناظر مختلف الألوان جم الصور يمتع العقل والقلب جميعاً .

كان ما أجده من الشوق واللذة وأنا أقرأ « حياتى » لأحمد أمين ، يشبه ما كنت أجده من الشوق واللذة وأنا أقرأ « الأيام » لطه حسين : شوق ولذة من نوع غريب الطعم والأثر لم أذقهما فى حياتى الأدبية قبل هاتين المرتين فى هذين الكتابين . وليس معنى ذلك أن « حياتى » و« الأيام » يشتركان فى مذهب فنى واحد ، بل معناه أنهما يشتركان فى اجتذاب النفوس وامتلاك المشاعر بشىء آخر غير الفن . قد يكون ذلك الشىء فى الجمال النفسى الذى يتجلى فى الصدق حين

يجوز الكذب ، وفى الصراحة حيث تنقذ الكناية ، وفى التفصيل حيث يسهل الإجمال .

وقد يكون فى الروح القوى الذى يهيمن على الكتابين ، فيظهر هناك فى عمق الشعور كما يظهر هنا فى عمق الفكر .

وقد يكون فى التصوير الدقيق البارع لتربية روحية مسختها المادة ، وبيئة شعبية نسختها المدنية ، ولا يزال لها فى النفوس أثر وبالقلوب نوطة .

وقد يكون فى أولئك كله ، وما أولئك كله إلا الصفات الجوهرية التى لا بد منها للمكتوب الصحيح وللكاتب الحق .

عبر صادقا عن نفسك تتجاوب أنت والناس ، وانقل أمينا عن بيئتك تتعارف أنت والطبيعة .

قال لى صديقى ذات يوم ونحن جالسان فى مجمع اللغة العربية : سأبعث إليك بأول نسخة تخرجها المطبعة من كتابى . وسأمضى فيه على رأيك ولو كلفنى ذلك تفريق ما جمع وتمزيق ما طبع ، فإنى ضعيف الثقة بما أعمل . فلما مضيت فى الكتاب تبين لى أن ضعف الثقة فى الصديق لم يأته من اشتباه الحق ولا من التباس الصواب ، وإنما أتاه من اتساع المسافة فى نفسه بين ما يريد وبين ما يستطيع ، ومن شدة الاختلاف فى رأيه بين ما يجب وبين ما يكون .

ولقد كان صديقى فى هذا الكتاب بالذات شديد التردد فى كتابته ، كثير التشكك فى إفادته . فهو يقول فى المقدمة : «لم أتهيب شيئاً من تأليف كما تهيبته من إخراج هذا الكتاب ؛ فإن كل ما أخرجته كان غيرى المعروض وأنا العارض ، أو غيرى الموصوف وأنا الواصف . أما فى هذا الكتاب فأنا العارض والمعروض والواصف والموصوف . والعين لا ترى نفسها إلا بمرآة . والشيء إذا زاد قربه صعبت رؤيته . والنفس لا ترى شخصها إلا من قول عدو أو صديق ، أو بمحاولة

التجريد وتوزيعها على شخصيتين : ناظرة ومنظورة ، وحاكمة ومحكومة ، وما أشق ذلك وأضناه ! » . « وترددت أيضا فى نشره . ما للناس و « حياتى » ؟ لست بالسياسى العظيم ، ولا ذى المنصب الخطير الذى إذا نشر مذكراته ، أو ترجم لحياته ، أبان عن غوامض لم تعرف ، ومخبآت لم تظهر ، فجلى الحق وأكمل التاريخ ؛ ولا أنا بالمغامر الذى استكشف مجهولا من حقائق العلم فحاول وصفه وأضاف ثروة إلى العلم ، أو مجهولا من العواطف كالحب والبطولة أو نحوهما فجلاها وزاد بعمله فى ثروة الأدب وتاريخ الفن ؛ ولا أنا بالزعيم المصلح المجاهد ، ناضل وحارب وانتصر وانهزم ، وقاوم الكبراء والأمراء ، أو الشعوب والجماهير ، فرضوا عنه أحيانا ، وغضبوا عليه أحيانا وسعد وشقى ، وعُذب وأكرم ، فهو يروى أحداثه لتكون عبرة ، وينشر مذكراته لتكون درسا . لست بشىء من ذلك ولا قريب من ذلك ، ففيم أنشر حياتى ؟ » .

ومع ذلك استطاع أحمد أمين بوزانة عقله ورزانة خلقه أن يقول الحق أصرح ما يقال ، وأن يصدر الحكم أعدل ما يصدر ، كما استطاع بقوة شعوره وصدق تصويره أن يحقق الفائدة للقارىء ، فجعل من تاريخ حياته تاريخ حياة لمصر فى الربع الأخير من القرن الماضى ، والنصف الأول من القرن الحاضر ، فوصف عادات كادت تزول ، وسجل حوادث كادت تنسى ، وصور وجوها كادت تغيب ؛ فالحال الاقتصادية بسخرتها وقسوتها وثقل ضرائبها وسوء جبايتها فى قرية (سمخراط) بالبحيرة ، كانت هى الحال فى كل قرية من قرى الأقاليم . والحال الإجتماعية بطبقاتها وعاداتها وأعتقاداتها فى (حارة العبادية) بالمنشيه ، كانت هى الحال فى كل من حارات القاهرة . والحال الشخصية بتربيتها ونفسيتها وعقليتها فى نفسه وأهله وصحبه وجيرته ، كانت هى الحال فى كل فرد من أفراد الشعب ! وإن فى تصويره البيت والسقاء والمحدث والكتّاب والأزهر ، وفى وصفه لأبويه وأخويه ، وصديقيه عبد الحكيم محمد وعلى فوزى ، وأستاذيه عاطف بركات ومس بور ، لنماذج من البيان المطبوع الذى يشرق بنور العقل وينبض بروح العاطفة . وإن من أجمل ما فى الكتاب تلك

البراعات الذهنية التى تبدهك بين الصفحة والصفحة فى تحليل نفس، أو تعليل حادث، أو تأثير شخص فى شخص ، أو موازنة حالة بحالة . على أن مثل « حياتى » فى انبثاقها من البيت والحارة والكتاب والأزهر ، وفى تفرقها بعد ذلك فى نواحى العمل ووجوه الأرض وأشتات الأمر ، كمثل الدوحة العظيمة ، تكون عند الجذع قوية غليظة مكتنزة ، تضطرب بالحياة وتزخر بالخصب وتستمد غذاءها من جذورها الضاربة فى جوف الثرى ، فإذا تفرعت على ساقها انتشرت الأغصان وتشعبت الأفنان فتوزعت الحياة ، وتقسم الرّى ، وخفت الحركة ؛ ولكن فيها مع ذلك الجمال والظلال والزهر والثمر . فالقسم الأول من « حياتى » كأصل الدوحة عميق وثيق مكتنز لاستمداده من أعماق النفس ؛ والقسم الآخر كفروعها هش الأفنان منبسط الجوانب لامتداده فى آفاق الطبيعة .

والكتاب من بعد ذلك قد كشف عن سر من أسرار الصناعة فى كاتبه . ذلك سر القصة . والنفس الفنانة عميقة كالكون ، سحيقة كالأبد ، فلا تنتهى أسرارها حتى ينتهى المجهول ، ولا تنقضى عجائبها حتى تنقضى الحياة !

أدب اللذة وأدب الجوع

(٢٩ مايو سنة ١٩٥٠)

أريد بأدب اللذة ما يسميه الفرنسيون اليوم: (La délectation litteraire) وهو الأدب الذى يلذ ولا يفيد، ويسوغ ولا يغذى، ويشغل ولا ينبه، كالذى تقرأه فى أكثر الصحف وفى بعض الكتب من غرائب الأخبار، وطرائف النوادر، وتوافه المعارف، مما يجذبك عرضه ويلذك تصويره ويلهيك موضوعه، فإذا فرغت من قراءته وصحوت من خَدره، لا تجد له أثراً فى نفسك ولا حاصلا فى ذهنك.

طغى هذا الأدب على أوربا من بعد الحرب، فهزم الكتاب النافع ونفى البحث المفيد، فثارت ثائرة أقطاب الكتاب، وأنحوا باللائمة على معالجيه ومروجيه، وحاولوا أن يفتحوا أعين الناس على أخطاره بما نشروا وأذاعوا؛ ولكن العلة كانت أفدح مما ظنوا؛ فان الأعصاب التى أوهنتها الحرب بفظائعها وفواجعها لم تعد قادرة على معاناة الجد واحتمال التقصى، فرجعوا يتحاورون ويتشاورون ويطلب بعضهم إلى بعض أن يدسوا الفائدة فى اللذة، ويدوفوا المرارة بالحلاوة، تهويناً على الأعصاب المنهكة، وتسكيناً للنفوس القلقة.

ذلك هناك: أما هنا فالأمر مختلف. لا أعصابنا موهونة من جرب، ولا نفوسنا قلقة من ضيق؛ إنما هى الثقافة الخاوية، والأمية الفاشية، والتربية المهملة، والصبر الفارغ، والطبع السؤوم، والهوى المتنقل، والوقت المضيع، والحياة الهازلة! خير ما فى المدرسة الألعاب، وخير ما فى المجلس النكت، وخير ما فى الكتاب الأفاكية، وخير ما فى الصحيفة الصور، وخير ما فى النزهة التهريج!

فإذا كان الناس فى أوربا قد انصرفوا بعد الحرب إلى أدب اللذة ، فإن ذلك وإن طال عرض سيزول ، وحال ستحول ، لأن ثقافة النفس فى الغرب أصيلة ، وحب المعرفة فى أهله طبيعة .

أما القراء فى مصر فإنهم إنما يعكفون على هذا النوع من الأدب البهرج لأنه رضا السطحية الغالبة ، وهوى العامية العريقة . وعلاج هذه الحال لا يكون بالتنبيه والتوجيه ، وإنما يكون بتغيير العقلية ، وإصلاح التعليم ، وإعداد المعلم ، وتعميق الدرس ، وتعويد القراءة ، وتنشئة النفوس على استجلاء الغامض واستكشاف المجهول واستدناء القصى واستشواف الكامل ؛ وهو علاج يراودنا اليأس من قرب حصوله ، فلا بعضه فى اليد ، ولا كله فى الأمل !

إن أدب اللذة عندنا هو الأصل ، وما جاء على أصله لا يسأل عن علته ولا يتعجب من وجوده . وإن أدب المنفعة عندهم هو الأصل ، وما خرج عن أصله تناصرت كل القوى على كف ضلاله وكبح شروده .

* * *

أما أدب المجون فيختلف عن أدب اللذة فى الدواعى التى تدعو إليه وفى الدواهى التى تنجم عنه . فمن دواعى أدب اللذة عامية الذهن ، أو سطحية الفكر ، أو سآمة الجد ؛ وهى أعراض طارئة مصيرها إلى الزوال ، وانحراف عن الطبيعه مآله إلى الاعتدال . ومن دواهيه أنه يلفظ أهله على ساحل الحياة فلا يخوضون العباب ولا يغوصون على الجوهر ، ويدفعهم إلى هامش الوجود فلا يكون لهم فى متنه مكان يرمق ولا شأن يذكر .

ولكن دواعى أدب المجون التنفيس عن رغبة مكظومة ، أو التعبير عن عاطفة جائشة ، والتحرر من التزامات مقيدة ، وهى خواص فى طبع الإنسان ، تلازم لزوم البكاء والضحك له ، وتدوم دوام الجد والهزل فيه . وأقل دواهيه أن

تزول الحدود بين المعروف والمنكر ، فلا يكون فارق بين حلال وحرام ، ولا بين نظام وفوضى ، ولا بين إنسان وحيوان .

أدب المجون إذن خاصة تلزم لا عرض ينفك . وذلك أن حياة الإنسان من لوازمها الحياء والوقاحة ، والعفة والفجور ، والاحتشام والتبسط ، والتصون والتبذل ، والأدب صورة لهذه المتناقضات جميعاً . فالفنان الشاعر أو الكاتب أو المصور لا بد أن يعبر بطريقته الخاصة عن كل ما يجول فى نفسه أو يقع تحت حسه ، وكلما كان هذا التعبير صادقاً كان أدخل فى باب الفن ، وأوغل فى طريق الكمال . من أجل ذلك كان أدب المجون ثابت الوجود فى أدب العالم كله . وهو فى الأدب العربى عريق الأصل ، ظهر منذ قال العرب الشعر ورووا منه لامية امرىء القيس ، ودالية النابغة ، ورائية بشار ، وغزوات ابن أبى ربيعة ، وفواحش أبى نواس ، ومنديات ابن إياس ، ومخازى ابن سكرة ، وأحماض ابن حجاج . وظل الأدباء فى كل زمان ومكان ينظمون المجون وينثرونه . ولا تزال ذواكر المعاصرين تعى ما تلقفته الأفواه من مجون حافظ والرصافى وإمام العبد والهراوى مما لم تسجله صحيفة أو يدونه كتاب .

على أن هؤلاء جميعاً كانوا ينشئونه لأنفسهم لا للناس ، ويتناقلونه فى السر لا فى العلانية ، ويتفكهون به فى المجالس الخاصة لا فى المجامع العامة . ولو كان لهم ما لنا اليوم من طباعة تنشر ، وصحافة تذيع ، وجمهور يقرأ ، لتحرجوا من أكثر ما قالوه ؛ فإن الناس منذ بث الله فى أبويهم آدم وحواء فضيلة الحياء فخصفا[1] على جسديهما العاريين من ورق الجنة ، شعروا أن للجسم عورات لا يجوز أن تظهر . ولما هذبهم الدين وثقفهم العلم وصقلهم التحضر شعروا كذلك أن للفكر عورات لا يليق أن تنشر . فهم بحكم الحرية والاستقلال والانطلاق يقولون

(١) خصف العريان الورق على بدنه ألصقه وأطبقه عليه ورقة ورقة ليستتر به .

ويفعلون فى خلواتهم ومباذلهم ما شاءوا ؛ ولكنهم بحكم الدين والقانون والعرف يسترون سوءاتهم ونزواتهم ما استطاعوا ؛ فلا يقولون كل حق ، ولا يصورون كل حالة ، ولا يظهرون كل مضمر ، مراعاة لشعور الجماعة ومحافظة على كرامة الإنسان . . .

أدب المجون يجوز إذن أن يقال ، ولكن لا يجوز أبداً أن يعلن . والرقيب على هذا الأدب ضمير المنشىء وكرامة القارىء . فما دام المنشىء ضمير يحميه الدين القويم والخلق الكريم فإنه يتكرم عن الهبوط إلى حضيض القوادين الذين يزينون الفحش ، والمطاردين الذين يروجون الحشيش . ومادام للقارىء كرامة يقويها الحس اللطيف والطبع الشريف ، فإنه يتنزه عن سماع الهُجر ورؤية المنكر . والناس فى الشرق والغرب ، وفى القديم والحديث ، كانوا كذلك قبل أن تقوم قيامة الحرب العالمية التى أهلكت فيما أهلكت تراث الإنسانية والمدنية من كريم الشمائل وحر الخلال .

هتك بشار فى بعض شعره ستر الحشمة فنقم الناس منه ذلك وتمنوا موته صونا للعذارى وغيرة على المخدَّرات ، وقال مالك بن دينار : « ما شىء أدعى لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى الملحد » وانتهى المجون ببشار إلى أن أمر به الخليفة المهدى فضرب بالسوط حتى هلك .

واستهتر أبو نواس فى الغزل واسترسل فى الفجور حتى حبسه الخليفة الأمين ، ولم يكد يخرج من ظلام الحبس ، حتى دخل فى ظلام الرمس .

وألف أوفيد الشاعر الرومانى كتابه (فن الحب Larrt d'aimer) فرأى فيه القيصر أغسطس إفساداً للناس فنفى المؤلف فى (سرماسيا) وقال لطيباريوس حين سأله العفو عنه : « لا أنكر أن أوفيد شاعر ميزته الآلهة بالذكاء البارع والقريحة النافذة ، ولكنه أفسد بكتابه شباب روما فحق عليه أن يموت فى سجن سرماسيا »

وكتب فلوبير القصصى الفرنسى قصته (مدام بوفارى) فوجد الناس في أسلوبها خروجا عن مذهب الحياء فرفعوا أمره إلى القضاء فحكم عليه بالكف عن معالجة هذا النوع من القصص .

ونظم بودلير الشاعر الفرنسى ديوانه (أزهار الشر) فثار على جرأته أهل الحفاظ والنخوة وساقوه إلى القضاء فحكم عليه بغرامة قدرها ثلثمائة فرنك وإعدام ست قصائد من مطولاته .

فلما زلزل الله أركان الأرض بالحربين العالميتين انقلبت الأوضاع ، وتغيرت الطباع ، واختلفت المقاييس ، وبرد الدم الحار ، وبلد الحس المرهف ، وغلظ الجلد الرقيق ، فشاع الإغضاء ، وساغ البذاء ، وقلت المبالاة ، وسكنت الحمية ، حتى صار الفجور دينا له أنبياؤه ومبشروه ! فمن الأنبياء فرويد وجيد وسارتر ، ومن المبشرين لورنس وفكتور مرجريت . أما الأتباع فهم مسوخ الحرب ومشوّهوها . والقوم هناك ومقلدوهم هنا مخلصون جميعاً للدين الجديد إلا من رحم ربك . ومن هؤلاء الذين أدركتهم رحمة الله فرنسوا مورياك ؛ فقد حزبه الأمر وشجنه الحال حتى ألقى ثلاثة أسئلة على صفوة من رجال العلم والأدب فى أوربا يرجو أن يجد فى الأجوبة عنها طبا لهذا الداء ، وكشفا لهذا البلاء . قال :

« هل تجد فى انصراف الأدب إلى التعبير عن شهوات الجسد العارمة خطرا على الفرد وعلى الجماعة وعلى الأدب نفسه ؟ من هم الأدباء الذين تقع عليهم التبعة فى انحطاط الأدب الحديث ؟ وأى المذاهب قد ساعد على هذا الانحطاط ؟ » .

فإذا فرضنا أن هذه الأسئلة ألقيت علينا كما ألقيت عليهم فبماذا نجيب عنها ؟

يسأل فرنسوا مورياك ثلاثة أسئلة عن أدب المجون ، أولها عن نتائجه ، وثانيها وثالثها عن أسبابه ، فأما سؤاله عن نتائجه فما أظن جوابنا عنه يختلف عن جواب زملائنا الأوربيين فى شىء ؛ لأن خطر الأدب الماجن على الفرد والجماعة

وعلى الأدب نفسه لا يمارى أحد فيه لا منا ولا منهم . وهل يمارى أحد فى أن البهيم الذى يساكن الإنسان فى جسد واحد إنما يروضه ويكبحه الأدب القائم على العقل والدين والعلم ، تارة بالفطام والإلجام ، وتارة بالسياسة والملاينة ، فإذا فسدت طبيعة هذا الأدب ، فانقلب القيد سوطاً يلهب ، والشكيمة مهمازاً يحث ، أفلت البهيم من ربقته فافترس الإنسان الذى يعيش معه ، وحطم المجتمع الذى يضطرب فيه . والأدب الذى أطلق هذا البهيم بتمليق غرائزه وتحريض شهواته سينتهى أمره لا محالة إلى أن يصير آفة تتقى وجرثومة تُقاوَم ؛ لأن فى ابن آدم محكمة داخلية نسميها الضمير ، إذا تعطلت حينا فلن تتعطل أبد الدهر .

وأما سؤالاه عن أسبابه فالأمر بيننا وبينهم فى جوابيهما جد مختلف . ليس فى أدبائنا أديب تلقى عليه التبعة فى انحطاط الأدب الحديث كسارتر ، وليس فى أدبنا مذهب يساعد على هذا الانحطاط كالوجودية ؛ إنما هى العدوى انتقلت إلى مصر من مكان الوباء فصار فيها المرضى وحملة المرض . ولا أقصد بالعدوى عدوى حدوث المجون ، فإن المجون كاقات أصيل فى كل نفس ، عريق فى كل أدب ؛ إنما أقصد بالعدوى عدوى نشره فى الصحف والكتب والتمثيل بنوعيه المحقق والمصور .

ليس على المرء من حرج أن يماجن صحبه الأدنين فى مجلسه الخاص . وليس عليه من حرج أن يعرى فى غرفة نومه أو فى حمام بيته ؛ إنما الحرج كله أن يماجن فى ملأ أو يعرى فى شارع . والذين يسمعونه مفحشا ولا يعارضون ، أو يرونه عاريا ولا يُعرضون ، لا يقلون مجونا ولا جنونا عنه .

فالمسألة فى أدب المجون مسألة ضمير فى الكاتب والناشر ، وكرامة فى القارىء والناظر . فى وجودهما عدمه ، وفى عدمهما وجوده .

كنا قبل أن نعرف أوربا نتحرج أن نرى المرأة فى نافذة أو نماشيها فى طريق ،

فأصبحنا نقبل أن نواجهها فى دكان وأن نجالسها فى حان ! وكنا قبل أن نقلد أوربا نذوب خجلا إذا سقط قناع المرأة عن استحياء ، أو انحسرت ذراعها عن غفلة ، فأصبحنا نتحرق شوقا إذا كشفت ظهرها فى مرقص ، أو خلعت ثوبها على شاطئ !

ومن أعجب العجب أن نرضى رضا الغبطة واللذة إذ رأينا الأمهات والزوجات والبنات عاريات على (البلاج) ، ثم نغضب غضب التقى والورع إذ رأينا الراقصات والممثلات والمومسات عاريات على الورق ! لماذا نقبل ما يفعل فى الشواطئ والحفلات ، ولا نقبل ما يقال فى الصحف والمجلات ؟ .

إن الطبيعة موضوع الفن . وإن الحياة مادة الأدب . والفنان الحق يصور بحق ، والأديب الصادق يعبر بصدق . فإذا شئتم أن يطهر أدبكم من المجون والبذاءة فطهروا مجتمعكم من الفجور والرياء . إن الأدب صورة ، جمالها من جمال الأصل وقبحها من قبحه !

حاضر الأدب العربي

(٢٦ أغسطس ١٩٥٠)

دعاني إلى الكلام في حاضر الأدب العربي أمران : أولهما أن الأدب العربي هو الجامعة الروحية الحق للعرب جميعاً ؛ اتصل بها حبلهم حين تقطعت الأسباب . وانتظم عليها شملهم حين شذت الوحدة. ومزية هذه الجامعة أنها من وحي الله ومن صنع الطبيعة ، فلا يوهي من عقدها تناقض رأي ورأي، ولا تعارض غاية وغاية . وفضيلة أعضائها أنهم كالأنبياء يبنون لتعمر الأرض ، ويبذرون ليحصد العالم ، ولا يؤثرون بجهدهم وطنا على وطن ، ولا يخصون بخيرهم قوما دون قوم.

لذلك كان من الخير أن يتحدث أعضاء هذه الجامعة بعضهم إلى بعض كلما آتتهم الفرصة لهذا الحديث .

أما الأمر الآخر فهو سؤال من الأسئلة التي عرضتها الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية للاجابة عنها في هذا المؤتمر ، ونصه كما ورد في الصفحة الثالثة عشرة من البرنامج .

« ماذا يجب أن تعمل المدرسة للتغلب على النزعة الأدبية والكلامية المنتشرة في البلاد العربية ، ولإشاعة روح التفكير العلمي بين شباب العرب ؟ »
ولست أدري إلام يرمي هذا السؤال ؟ أيرمي إلى قتل النزعة الأدبية في الشباب ليصبحوا جميعاً أصحاب علم ورجال عمل ؟ وهل هناك تعارض بين الأدب والعلم ؟ فلا يجوز أن يكون للأديب من العلم ما يكسبه الضبط والدقة والوضوح ، وأن يكون للعالم من الأدب ما يقيه المادية والثقل والجفاف ؟ أم يرمي إلى أن الأدب

الكلمة التي ألقيت في المؤتمر الثقافي العربي الثاني بالأسكندرية يوم ٢٦ أغسطس سنة ١٩٥٠ .

كلام وأن العلم عمل ، وشباب العرب وهم أحوج إلى النهوض المادى قد انصرفوا إلى الأدب عن العلم ، ولهوا بالقول عن الفعل ؟ إن كان ذلك ما يرمى إليه فإن الواقع يخالفه . ولعل فى تهافت الطلاب على شعبتى العلوم والرياضة ما يدعو إلى التفكير فى مستقبل كليات الآداب والحقوق .

على أن الكلام إذا كان ألفاظا فارغة كان غثاء وثرثرة ، فإذا كانت ألفاظه حافلة بما يمتع أو يقنع أو يفيد ، كان إنتاجه عملا مثمراً لا يقل خطرا عن صنع آلة أو اختراع قنبلة أو كشف دواء ورجال الأدب الخليقون بهذه الإضافة إليه أقل عدداً فى كل أمة من رجال العمل والمال والسياسة ، ووظيفتهم وهى التفكير والتعبير أقوى أثرا فى رقى الأمم من وظائف أولئك جميعاً .

ومهما يكن من مرمى هذا السؤال فإنه هو والأمر الأول قد حركا فى نفسى الكلام فى حاضر الأدب العربى عسى أن يكون له من عناية المؤتمر نصيب أكبر ، ومن رعاية رئيسه الأديب الوزير حظ أوفى .

حاضر الأدب العربى لا يطمئننا كثيراً على مستقبله. حظه من المنهج الحديث قليل . وهذه القلة نفسها مشوفة بسوء الطريقة فى تعليمه ، وقلة الرغبة فى تعلمه ؛ فلا المعلم على الجملة صادق الجهاد فيما يعطى ، ولا المتعلم على العموم حسن الاستعداد لما يأخذ . والأثر المحتوم لهذا الحظ المنكود فى كمه وكيفه ، ضعف الملكة فيمن يكتبون ، وفساد الذوق فيمن يقرأون . وإذا ابتليت أمة بضعف الملكة فلا تحسن أن تعبر ، وبفساد الذوق فلا تعرف كيف تقدر ، أصبحت لغتها بينها أشبه بالرموز اللفظية البدائية ، لا تثمرها بجمال ، ولا تحفزها الكمال ، ولا تربطها بماض ، ولا تصلها بمستقبل .

كانت علوم الأدب فيما مضى تدرس فى الأزهر وفى دار العلوم وفى مدرسة القضاء وفى مدرسة المعلمين العليا وفى أشباهها من معاهد لبنان وسورية والعراق دراسة عميقة تمكن الطالب المجتهد المستعد من فهم ما يقرأ ، وفقه ما يعلم ، وتعليل

ما ينقد ، وتحليل ما يذوق . فإذا اتصل النظر بالعمل ، واقترن الحكم بالتطبيق ، وصادف ذلك استعداداً في المتعلم ، نبغ الكاتب الذي يكتب عن علم ، والشاعر الذي ينظم عن فن ، والناقد الذي يحكم عن تصور . أما إذا قوى الاجتهاد وضعف الاستعداد ظهر الأديب العالم الذي يهيء الوسائل ويقرب الموارد ويوجه المواهب ويسدد الخطى . ومن هاتين الفئتين تستمد الحركة الأدبية عناصرها الحيوية فتقوى لتزدهر ، وتنمو لتنتشر ، وتسمو لتخلد . وكان من خريجي هذا المنهج القديم في التعليم أولئك الأدباء الأصلاء الذين حفظوا تراث اللغة ، وجددوا شباب ، وأسسوا هذه النهضة الأدبية الحديثة . ولا يزال من هذه الطبقة الكريمة فئة قليلة في أقطار العروبة تستبطن لغتها وتتعمق أدبها وتعرف لماذا تكتب الجملة على وضع دون آخر . فإذا ماخلت أمكنتهم من المجتمع بعد أجل طويل أو قصير ، فهل يخلف من بعدهم خلف يحملون أمانة اللغة ويبلغون رسالة الأدب ؟ ليس أمام الراصد الأدبي من الظواهر الواعدة ما يحمله على أن يجيب عن هذا السؤال بنعم . كل شيء يبعث على التشاؤم : منهج تطبيقي يكاد يخلو من القواعد ، كما كان المنهج السابق نظريا يكاد يخلو من التطبيق . وتعليم سطحي مقتضب لا هدف له إلا اجتياز الامتحان بأية وسيلة ؛ فالمطولات تختصر ، والمختصرات تختزل ، فلا يبقى بعد ذلك في ذاكرة الطالب إلا رموز على معان عائمة غائمة لا هي مستقرة ولا هي واضحة ؛ زهادة في الجدّى النافع من ثقافة اللسان والقلم تقعد بالنشء عن تعمق الأصول وتقصى الفروع ، وتقنعهم بالقدر الذي ينقلهم من سنة إلى سنة ، أو من شهادة إلى شهادة . فإذا ما تخرجوا عادوا كما بدأهم الله أميين لا يقرأون إذا قرأوا إلا السهل ، ولا يطلبون هذا السهل إلا في قصة عامية تخدر الشعور ، أو في مجلة فكاهية تنبه الشهوة ، حتى نشأ من إفراطهم في هذا الطلب إفراط الكتاب الخفاف في عرض الأدب الذيذ الذي لا ينفع أو الأدب الماجن الذي لا يرفع ذلكم إلى طغيان الأدب الأوربي بمذاهبه ونزعاته وترهاته

على عقول الناشئين الذين ثقفوا هذه الثقافة الأدبية الهشة ، ففتنهم عن أدبهم ، وصرفهم عن تاريخهم ، وزين فى قلوبهم أن الآداب الغربية من لوازم المدنية الحديثة . فكما تركنا فى الأكل اليد إلى الشوكة والسكين ، وفى اللباس الجبة والقفطان إلى الجاكتة والبنطلون ، ينبغى كذلك أن نترك فى الكلام اللغة العربية وأدبها إلى اللغة الأوربية وأدبها ليقال إننا متمدنون ! نحفظ هوجو ولا نحفظ المتنبي ، وندرس فلتير ولا ندرس الجاحظ ، ونقرأ لامرتين ولا نقرأ البديع ! ومن هنا نشأت هذه التبعية المعيبة التى فرضت على أدبنا لأدب الغرب ، فأساليب الشباب اليوم هى أساليب الكتابة فى الغرب ، ومذاهب الأدب اليوم هى مذاهب الأدب فى الغرب ، حتى الرمزية بنت الأفق الغائم والنفس المعقدة واللسان المغمغم ، يريدون أن تتبناها العربية بنت الصحراء المكشوفة والشمس المشرقة والطبع الصريح ! وحتى الوجودية وليدة الخلق المنحل والذوق المنحرف والغريزة الحرة ، يحاولون أن تتقبلها العربية لغة الرسالة الإلهية التى كرمت الإنسان وفضلته عن سائر الحيوان بحدود من الدين والخلق لا يتعداها وهو عاقل . ولا يتحداها وهو مؤمن .

ليس الأمر فى الأدب كالأمر فى العلم . الأدب للنفس والعلم للناس . الأدب مواطن والعلم لا وطن له . الأدب روح فى الجسم ودم فى العروق يكون شخصية الفرد فيحيا مستقلا بنفسه ، ويبرز شخصية الشعب فيحيا متميزاً بأفراده . الأدب جنس ولغة وذوق وبيئة وعقلية وعقيدة وتاريخ وتقاليد ، والعلم شيء غير أولئك كله . فإذا جاز طبعا أن نأخذ عن غيرنا ما يكمل نقصنا فى العلم ، فلا يجوز قطعاً أن نرجع إلى هذا الغير فيما يمثل نفسنا من الأدب .

إن من أشد البلايا على الأدب الحاضر بليتين : العامية فى اللغة ، والعلمية فى الأسلوب . أما العامية فى اللغة فلو كان الغرض منها إمداد الفصحى بما تزخر به لغة العامة من مصطلحات الحضارة وألفاظ الحياة العامة لقلنا نعم ونعام عين ، ولكن

الغرض الذى ترمى إليه الثقافة الضحلة والدراسة السهلة هى أن يكتب الكاتب كما يشاء لا يتقيد بقاعدة من نحو ، ولا قياس من صرف ، ولا نظام من بلاغة .

ولم يعرف قبل اليوم فى تاريخ الآداب القديمة والحديثة من يعد فى لغته كاتبا أو شاعرا وهو لا يعرف من قواعدها الأساسية ما يقيم لسانه وقلمه . وإذا كنتم تقرأون الصحف والكتب ولا تقعون على الخطأ الذى يفضح المستور ويكشف الغش ، فالفضل لأولئك الجنود المجهولين الذين يرابطون ليل نهار فى دور النشر ويسمونهم المصححين ، فإنهم يمرون بأقلامهم الحمر على المعوج فيستقيم ، وعلى المعجم فيعرب ، وعلى الركيك فيقوى !

وللعامية أنصار من بعض الكبراء الذين تعلموا فى قصورهم على المربيات ، وهؤلاء لهم نفوذ معوق ، ومن أشباه المعلمين الذين يتولون تعليم العربية فى مدارس الأجانب وهؤلاء لهم توجيه ضار . حدثتنى معلمة فاضلة أن الأمير عباس حليم رغب إليها فى أن تنظر فى تعليم ولديه ، وفى المنهج الذى يدرسان عليه ، ثم تكتب له تقريراً بما ترى . فكان مما لاحظته المعلمة أن الولدين يتكلمان العربية باللهجة التركية ولا يعرفان من قواعدها الضرورية شيئاً . فلما كلمته فى ذلك ابتسم وقال لها بلسانه العوج ما نصه : « لا ، مش عاوز كلام أزهر ولا كلام أولاد بلد ! » . وحدثنى معلم فاضل عين مشرفا على امتحان النقل فى مدرسة أجنبية ، فلما أخذ يدقق فى أجوبة التلاميذ قال له المفتش وهو رجل عربى من رجال الدين المسيحى : « حسبك يا أستاذ ! إن تلاميذنا يتعلمون العربية ليكلموا بها الخدم » !

وأما العلمية فى الأسلوب فلو كان الغرض منها اقتباس الروح العلمى فى تحديد الفكرة وتصحيح القياس وتدقيق العبارة ونبذ الفضول وتوخى الفائدة لقلنا نعم ونعام عين ؛ ولكنهم يقصدون بالعلمية بخس القيمة الجمالية للأسلوب ، وخفض المستوى الرفيع للبلاغة ، فيكون الكلام جاريا على نهج العلماء فى تأدية المعنى

المراد فى اللفظ السهل ، أو على سنن التجار فى ضغط المعنى المحدد فى اللفظ المختزل ، ولا عليهم بعد ذلك من الروح الذى يبعث الحياة فى المعانى فتؤثر ، ولا من الفن الذى يلقى الألوان على الصور فتمتع ، ولا من الشعور الذى يشيع الهمس فى الجمل فتوحى .

إن الأسلوب العلمى أسلوب من أساليب التعبير لا هو كلها ولا هو خيرها ؛ وإنما هو أسلوب تقتضيه حال كما تقتضى غيره أحوال . فالسعى بتغليبه على غيره من الأساليب مخالفة للطبيعة ومجافاة للطباع . والمعروف فى تاريخ الآداب أن المذاهب الأدبية والأساليب الفنية هى التى تتنافس فى الشيوع وتتفارس على البقاء . أما الأسلوب العلمى فله مجال آخر ورجال أخرَ . مجاله العلوم ورجاله العلماء . والعلوم والعلماء يتخذون من اللغة أداة ضرورية للفهم والإفهام ، لا وسيلة كمالية للجمال والإلهام . فأساليبهم فى فن الكلام أشبه بالصور الجغرافية والخطوط البيانية فى فن الرسم : يقصد بها البيان لا الزخرف ، ويراد منها الحق لا الجمال . فإذا صح أن نقول للرسامين اقتلوا فى أنفسكم ملكة التصوير الجميل لتصبح رسومكم كلها جغرافية أو هندسية ، صح بالقياس أن نقول للكتاب اقتلوا فى أنفسكم ملكة التعبير الجميل لتصبح أساليبكم كلها علمية أو فلسفية .

هذه على الإجمال الخطوط البارزة فى صورة الأدب العربى الحاضر ، منها خطوط بيض تشرق عليها أشعة من أقلام الصفوة الباقية من رجال المدرسة القديمة والتابعين لهم بإحسان من الشباب المعتدل ، ومنها خطوط سود تخفق عليها ظلال من المستقبل الغامض يساعد على مدها تساهل المدرسة الحديثة والتابعين لها من الشباب المتطرف . فإذا تركنا الأمور تجرى كما تجرى انتهت بنا إلى تغلب العامية ، لأن أساليبها غالبة على السمع ، وقواعدها جارية مع الطبع ، فلا يحتاج تحصيلها إلى درس ولا النبوغ فيها إلى ملكة . وتغلب الأساليب العامية معناه فصل الأدب عن

الدين ، وقطع الحاضر عن الماضى ، وتوهين الصلات بين العرب . وفى اعتقادى أن أمر العربية وأدبها لا يصلح إلا بما صلح به أوله : فقه اللغة جد الفقه ، وفهم قواعدها أشد الفهم ، وحفظ آدابها كل الحفظ . وذلك يستلزم الجهد والجد فى إعداد المعلم ، والعلم والخبرة فى وضع المنهج ، وتوفير الزمن الأسبوعى لاستقصاء الدرس ، وتنظيم الامتحان العام على النحو الذى يخرِّج ولا يخرِج .

وما أظننى أعدو الصواب إذا قلت إن الثقافة العامة للشباب إنما توازن بالقدر الذى يحصله من ثقافة لغته . فإذا استطاع بعد المدرسة أن يقرأ فيفهم ، ويكتب فيحسن ، استطاع أن يجد السبيل إلى كل علم والدليل إلى كل غاية ، والمثقفون متى تركوا مقاعد الحياة المدرسية إلى مواقف الحياة العملية ، تبخر من رءوسهم أكثر ما تعلموه ، فلا يكاد يبقى من ثقافتهم إلا ما حذقوه من اللغات وما شدوه من الآداب . ذلك إذا كانت ثقافتهم الأدبية ثابتة الأصول نامية الفروع ، فإذا كانت كغيرها من الثقافات الأخرى سطحية رخوة أتى عليها النسيان فيصبحون أميين فى المخطوط بعد أن كانوا أميين فى الخط .

أمامكم الساسة والقادة والزعماء والعلماء والمصلحون فى كل أمة ، هل تغنى عنهم علومهم وعقولهم عند الناس شيئاً إذا لم يملكوا ناصية البيان فيقنعوا إذا كتبوا ويؤثروا إذا خطبوا ؟ كلا يا سادة ! إن العالم من غير أدب معمل ساكن . وإن الزعيم من غير بيان تمثال صامت . وإن المصلح من غير بلاغ مصباح مطفأ .

سيداتى ، سادتى . لا بأس فى أن نيسر النحو والصرف والبلاغة على الطلاب ، ولكن البأس كله فى المدى الذى بلغه هذا التيسير . لا بأس فى أن نحذف الغث من التقديرات والتعليلات التى فلسف بها النحاة النحو ، وننبذ الأوجه الإعرابية التى بقيت فى اللغة أثراً من اختلاف اللهجات فى الجاهلية ، فبلبلت الألسن ، وهوّشت القواعد ، وجعلت كل صواب خطأ وكل خطأ صواباً ؛ ولكن البأس

كله فى أن نجرد علوم العربية من خصائص القوة والخصوبة والبراعة لتصبح أشبه بالهيكل العظمى ، فيه الخفة والبساطة والشكل ، وليس فيه العضل والعصب والروح .

إن ما يبقى من هذه العلوم بعد النقصان ، وما يبقى من هذا المنقوص بعد النسيان ، لا تحيا به لغة ولا يبقى عليه أدب . وإن استطاع يوما أن يجيز امتحانا أو ينيل شهادة ، فلن يستطيع أبداً أن يخرج أمثال من خرجهم الأزهر ، كمحمد عبده وسعد زغلول وطه حسين والمنفلوطى والبشرى ، ولا أمثال من خرجتهم دار العلوم كجاويش والمهدى والخضرى والسكندرى والجارم ، ولا أمثال من خرجتهم مدرسة القضاء كأحمد أمين وعبد الوهاب عزام والخولى ، ولا أمثال من خرجتهم مدرسة المعلمين العليا كالمازنى وشكرى وأحمد زكى وفريد أبو حديد ، ولا أمثال من خرجتهم كتب الأزهر كالعقاد والرافعى وشوقى وحافظ فى مصر ، وكالبستانيين واليازجيين والشدياق ومطران والخورى فى لبنان ، وكالمغربى وجبرى والطنطاوى والأفغانى فى سورية ، وكالرصافى والزهاوى وكاشف الغطاء والراوى والأثرى فى العراق ، وكالنشاشيبى والسكاكينى والخالدى فى فلسطين .

هذه يا سادتى مخاوف ألقاها فى روعى ما أرى من ضيعة الأدب الحاضر بين تسامح القائمين عليه وزهادة الناشئين فيه . والأمل فيكم يا حماة العربية ورعاة العروبة فى كل قطر ، ألا يتحقق من هذه المخاوف شىء . ومناط هذا الأمل أنكم تؤمنون جميعاً بأن العربية هى عماد ثقافتنا ، ورباط جماعتنا ، وبأن أدبها هو التراث الروحى المشترك الذى يثور فى دمائنا لننهض ، ويصرخ فى آذاننا لنتحد ، ويشتد فى حدائنا لنلحق .

إن الأدباء فى كل أمة هم الذين يحملون شعلة الفن والفكر وينقلونها بالتتابع من صالحها السالف للخالف فيغذيها وينفخ فيها لتظل فى طريق الأبد باقية نامية

هادية . وأدباؤنا الشيوخ وهم خريجو الماضى قد تسلموا شعلة الفكر العربى فى أواخر القرن التاسع عشر من أدباء لم تهيئهم ثقافتهم ولا حضارتهم ليمدوها بوقود من عصارة الذهن ولا بقبس من نور الوحى فكادت تنطفىء ؛ ولكن الله قد أتاح لأدبائنا الذاهبين من مواتاة الملكات وتهيؤ الوسائل ومعاونة الظروف واستكمال الأداة ما مكنهم من إذكاء هذه الشعلة ، فأوقدوها بالزيت والكهرباء وجلوا نورها السماوى فى بلور كالكوكب الدرى ، فتألق سناها وانتشر هداها . وها هم أولاء يكادون يسلمونها لشباب الغد خريجى هذا الحاضر ، فليت شعرى ماذا تصنع بها الأحداث ، وماذا يخبىء لها القدر ؟

أنا بالرغم مما أتوجس من المخاوف متفائل ، لأن الله سبحانه الذى يقول : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » قد ضمن للعرب بقاء البيان ببقاء القرآن . وفى هذه القلة البارزة من أدباء الشباب فى أقطار العروبة نرجو أن يحقق الله وعده ، وإن الله لهو خير الصادقين .

فُصُولٌ قِصَار

قصة النمل الأبيض

(١١ يونيو سنة ١٩٤٥)

قالت[١] نملة حمقاء لجماعة من النمل الأبيض أنقذها القرار من أخفاف الفيلة[٢] لم لا نعمل كما عمل (تيتو) وقد صنع الحلفاء بنا ما صنعوه به، فجعلوا على جوانبنا أجنحة ، ووضعوا فى أفواهنا أسلحة ؟

قالت لها الجماعة : وماذا ترين أن نعمل ياذات الأجنحة الأمريكية والأسلحة الإنجليزية ؟

قالت : نهجم على هذه الجماعة البشرية وهى فى نشوة من وعود النصر ، وغفوة من عهود السلام ، فنخرجها من دار أمية ، أو ندفنها فى أنقاضها وهى حية ،

وكان فى الجماعة نملة متصوفة من أتباع (مسّنيون) تكفر بخطب الحجاج ، وتؤمن بطواسين الحلاج[٣] ، فنهضت تقول وفى عينيها رقراق من الدمع : ولِمَ هذا البغى يا أختاه ؟ أنسيتِ والعهد قريب بطشة الجبارين[٤] بأرضنا العزيزة وأهلها يومئذ يتقلبون فى النعمة و يتبسطون على الأنس ؟ أنسيت والهول لا يزال يعصف بالقلوب تلك الجبال التى كانت تسير فتنفجر منها الحُمم ، والقلاع التى كانت تطير فتنهمر منها الصواعق ، ونحن نلوذ بأجواف الأرضين فلا يمنعنا ذلك دون أن نُسحق أو نحرق ؟ ولولا أن جاءنا النصر بطريق القرض[٥] ، لبقينا كاليهود مشردين فى الأرض ؟ فهل يزكو بمن قاسى معرة الظلم أن يظلم، وبمن كابد مذلة الحرمان أن يحرم ؟ ثم أسمعك تذكرين الأجنحة المستعارة ، كأنك لا تذكرين

(١) ثارت سورية على الانتداب الفرنسى بعد الحرب فتصدى لها الجيش الفرنسى المحتل بقيادة الجنرال أوليفيا روجيه فقتل ودمر حتى صاحت به انجلترا فاستكان وانتهى الأمر باستقلال سورية ولبنان . والنمل الأبيض رمز للجيش الفرنسى . (٢) المراد بالفيلة الألمان .

(٣) الطواسين كتاب للحلاج فى التصوف وقد نشره المستشرق الفرنسى مسينيون .

(٤) الألمان الذين احتلوا فرنسا بعد هزيمتها. (٥) إشارة إلى أن النصر قد شملهم من غير أن ينتصروا.

الحكمة التى تقول : لا يزال النمل بخير ما لم تنبت له أجنحة ؛ فإذا نبتت أجنحته وأخذ يطير ، صادته العصافير . وهل فى أمة النمل أحد ينسى قول أبى العتاهية شاعر الأنس :

وإذا استوت للنمل أجنحة ... حتى يطير فقد دنا عطبه

فما كان جواب النملة الحمقاء إلا أن قالت فى ضحكة ساخرة ولهجة ماكرة : إنك لا تزالين ياصديقتى متأخرة . ومن العجيب أنك تُنسبين إلى أمة متحضرة ودولة مستعمرة ! على أننا لا نجادلك بوصايا سان فرنسسكو ، ولا بنصائح وشنطون ولندرة وموسكو ، إنما نجادلك ببرهان العمل وسلطان الواقع .

وما هى إلا دمدمة كعزيف الجن حتى غامت السماء بالنمل ، وسالت الأرض بالحشرات ، وأخذت هذه الطير الأبابيل ، ترمى الناس بحجارة من سجيل ، ولم يغن عن العُزْل الأبرياء دعس النعال ، فى دفع هذه النمال ؛ فاستحرّ القتل ، وأثخنت الجراح ، وانتشر النهب ، وفشا الخراب ، وكاد النصر المؤقت يتم لهذه الحشرة الباغية لولا أن صاح من الجانب الغربى[1] صائح يقول وفى يده بوقه وعلى رأسه بنوده : « يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده » ! فلم تبق نملة سمعت هذا الصوت من ذلك البوق ، إلا دخلت مذعورة فى شق من الشقوق ! وهيهات أن يبعث الله من فى القبور ، إلا يوم ينفخ إسرافيل فى الصور !

وحينئذ قالت النملة المتصوفة الحكيمة وهى تُنغض رأسها استهزاء بالضعيف المغتر : أليس من خيبة الحكمة ألا ينفضّ مشكل ، إلا بجن سليمان أو بأسطول تشرشل ؟! .

---

(١) تدخل انجلترا بلسان تشرشل رئيس وزرائها يومئذ .

خليفة نابليون!

(١٨ يونيو سنة ١٩٤٥)

لا تقل إن خليفة نابليون هو (بيتان) ؛ فإن المرشال جثا ضارعاً أمام النازية وجيشه يفعم الميادين والمدائن ، وذهبه يتخم الصناديق والخزائن ، وعَلمه يخفق على مستعمرات مسخرات بأمره ، وخليفته[1] الغنية القوية تسأله جاهدة أن تصل عمرها بعُمره !

ولا تقل إنه ديجول ؛ فإن الجنرال لم يشتهر فى أية ملحمة ، ولم يُعرف بتدبير خطة محكمة ، وجملة أمره أنه تشبث يوم الهزيمة بطائرة فهرب ، ثم لجأ إلى لندن وطلب فأعطته لندن ما طلب ! ولكن قل معى : إن خليفة نابليون ووارث بطولته وعبقريته هو الجنرال أوليفيا روجيه دكتاتور فرنسا فى سورية !

وجه كوجه البومة عليه صفرة المومياء ، ورأس كرأس النعامة فيه رعونة الكبرياء ، وشخص كتمثال الموت فى يده منجل الفناء ، وصوت كنعيب الغراب يردد فى أجواز الفضاء :

« أخفق نابليون فى استعمار مصر فأنا أستعمر سورية ، وعجز نابليون عن تدمير عكا فأنا أدمر دمشق ! وكان فى يد هذا المغرور بقية من عتاد الحلفاء فيها القاذفات والدبابات والرشاشات والبنادق . وكان من حول هذا المغرور طغمة من عبيد السنغال غلاظ المشافر سود الأكباد حمر العيون يعملون كالآلة من غير وعى . وكان إخواننا السوريون قد نظروا فى أمرهم وأمر هؤلاء فلم يجدوا لهم مزية عليهم ؛ فلا هم قدوة فى حسن الخلق ، ولا حجة فى صحيح العلم ، ولا قوة فى نظام العالم ؛

---

(١) هى انجلترة . وقد اقترحت اتحادها بفرنسا لتحول دون استسلامها لألمانيا فلم يقبل اقتراحها .

وإنما هي أمة أمرضتها رواسب اللاتينية فاستكانت لعوامل البلى ، حتى إذا ابتليت بهذه الحرب انخرعت فلم تقم ، وانماعت فلم تتماسك. فلو كان بينهم وبينها أسباب من فتح أو عهد لأعادوا النظر فيها بعد انهيارها المخزى ، فكيف والسبب الذى انقطع كان أوهن من خيوط الباطل ؟ ولكن مسيخ نابليون يصمم على البقاء وإن أبدعت[1] الحجة ، ويصر على المعاهدة وإن فقدت الثقة ! فهو يجلب للدد ، ليعزز العدد ، وينصب المدافع ، ليحصن المواقع ، ويتحدى حمية العرب الذين كان آباؤهم يحملون السيوف ليقودوا الأمم ، أيام كان آباء هؤلاء من (الغال) يحملون العصى ليقودوا الغنم ! فلم يكن بد من قبول التحدى. ووقف الكماة الأباة العزل يتلقون برءوسهم قنابل النار ، وبصدورهم قذائف الرصاص، دون أن يفروا كما فر فى (سدّان) خلفاء نابليون الثالث وهم مدججون بالسلاح محصنون بالمدافع . فاستشهد من السوريين على أرض سورية الكريمة العظيمة ثمانمائة وجرح ألفان ! وكاد أربعون مليونا من العرب يؤججون بأجسادهم هذه النار ليصلى بها من يشاء الله أن يصلى ، لولا أن رفع الصوتَ من يملك الرفع والخفض[2] ، فانخلعت قلوب القادة وانخرعت متون الجنود !

ولا والله ماذهب باطلا ذلك الدم الذى طهر سورية من الدخيل، وجمع كلمة العرب وقوتها من شرق دجلة إلى غرب النيل !

---

(١) ابدعت الحجة : ضعف .   (٢) صوت انجلترا .

نهضة العرب مشكلة !

(٢ يوليو سنة ١٩٤٥)

نعم ، كذلك قال السياسي الخطير ديجول ، وقوله من وجهة نظره سديد معقول ؛ فإن الجنرال يرى على ما يظهر أن العرب دوابٌ سُخِّروا لنقل الأحمال وجر الأثقال ، أو هم على رأيه الأفضل عبيدٌ خلقوا للخدمة والاستغلال . ومتى عرف الحيوان أو العبد حقه وواجبه ، فقد حطَّم راكبهُ أو قتل صاحبه !

بهذا المنطق الفرنسي وحده تستطيع أن تعقل ما قال هذا الرجل . فإذا أكرهت منطق الناس ، على تصحيح قوله بالقياس ، فقد حمَّلته مالا يطاق ، وكلفته مالا يدرك ! وأي عقل غير عقل الجنرال يُسيغ أن فرداً من نوع الإنسان يرى في نهضة أخيه الإنسان مشكلا تعقد لحله المؤتمرات ، وخطراً تقام لصده المعسكرات ، وسبباً يختصم لأجله العالم بأسره ؟!

لقد زعموا أن (الانتداب) رسالة الغرب إلى الشرق ، فهو يحيل صحاريه فراديس . ويجعل أناسيَّة ملائكة ، فما بالهم إذن يتسعّرون بالغيظ ، ويتنمرون بالعداوة ، لأن العرب قد أدركوا أنهم ناس كسائر الناس ، لهم وطن لا يشركون به ، واستقلال لا يساومون عليه ، وسلطان لا ينزلون عنه ؟! أليس ذلك لأنهم يرمون بنشر مدنيتهم إلى استعباد الجسوم ، وبتعميم ثقافتهم إلى استرقاق الحلوم ، وبفرض انتدابهم إلى امتلاك الأرض ؟

* * *

أتدري من أسمج من ذلك العتلّ الغليظ الذي يلقي بجسمه اللحيم الشحيم على صدر الفتاة الرشيقة الرقيقة في ملأ من الناس ، ثم يغفر فاه الأبخر ، ويصيح بملء صوته الأصحل : أحبك فلا بد أن تحبيني ، وأدعوك فلا مناص من أن

تجيبيني ؟ أسمج منه ذلك الطفيلى الرقيع الذى يقتحم عليك دارك ويقول لك ؟ صادقني لأنني أحب طعامك ، وضيفني لأنني أريد إكرامك، وعاهدني لأكون سيدك وإمامك ، وأطعني لأقوم في كل أمر مقامك ؛ فإن أبيت أو تأبيت فالسيف، حتى تقول أنا المضيف وأنت الضيف !

يالكثافة الظل ! أبهذه الرقاعة الثقيلة والفضول البغيض يطمعون أن يحملوا العرب في شمال أفريقية ، وفي لبنان وسورية ، على أن يأخذوا (الجنسية) ليعطوا الدين ، ويمنحوا الثقافة ليُسلبوا العقل ، ويدخلوا في التحالف ليخرجوا من الوطن ؟

يالسخافة العقل ! أبهذه النية المدخولة والكلام المزور يخادعون خمسين مليوناً من العرب تثور في دمائهم أربعة عشر قرناً من التاريخ المجيد الحافل بالنبوة الهادية ، والخلافة العادلة ، والفتوح المحرِّرة ، والقيام على ملك الله بالعمارة والعدل ، والمحافظة على تراث الفكر بالزيادة والنقل ؟ .

إن العرب بعد اليوم لن يُخدعوا ، وإن أبناء الفاتحين لغير الله لن يخضعوا . وإن (جامعة الدول العربية) هي الظاهرة الأولى لفورة الدم وثورة التاريخ ؛ فليتدبر ذلك القائمون على إقرار السلم ، والموقعون على ميثاق السلامة !

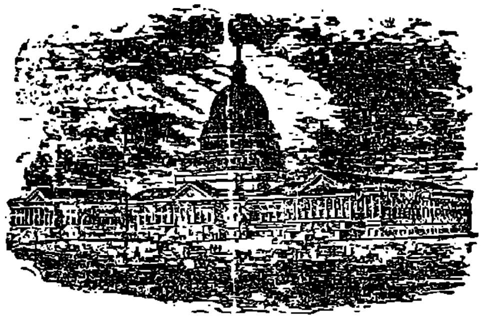

الثغر يضحك !

(١٦ يوليه سنة ١٩٤٥)

نعم ، يضحك ثغر الاسكندرية اليوم بملء شدقيه ، وعلى مضاحكه الغرّ العذاب سمات ، وفي ضحكاته المرجّعة الموقّعة دلائل ! يضحك بعد أن قضت عليه الحرب بالعبوس المظلم ست سنين لم يسكن فيها روعه ، ولم يرقأ دمعه ؛ فهو يضحك ضحكة الشامت بخطوب طغت ثم زالت ، ودول بغت ثم دالت ، وقوم أرادوا أن يسخروا الأقدار فسخرت منهم ، وطمعوا أن يصرّفوا الحظوظ فانصرفت عنهم ، ومغتر أشار إلى بحر العرب[1] وقال إنه بحرنا ، فقال له القدر الراصد : بل قل إنه قبرنا ! .

* * *

والثغر يضحك من القاهرة كما يضحك أبيقور أو أبو نواس من الكابيين أو المتزمتين الذين اتخذوا الحياة جداً من غير لهو ، وعبوساً من غير طلاقة ، وسعياً من غير جمام ، وخصاماً من غير بقيا ، وعراكاً من غير هدنة : ويقول وهو ينظر إلى البحر ، للعاصمة التي تنظر إلى الصحراء : إن الحياة زبد ورمال ، وموج وجبال ؛ ففيها الصلابة والمرونة ، وفيها الرصانة والرعونة ، وفيها العبث الذي يفور ويذهب ، والجد الذي يطمئن ويمكث ؛ وفيها المرح الذي يكتسي جمال الحياة ، والوقار الذي يرتدي جلال الموت . وهيهات أن تصلح الدنيا على المعالجة ، إذا لم تساعدها الطبيعة بهذه المزاوجة !

---

(١) بحر العرب هو البحر الأبيض والمغتر هو موسوليني .

والثغر يضحك للقاهريين للذين يتهالكون من الجهد على أحضانه ، ويترامون من الكلال فوق شطآنه ، ويقول لهم : تعالوا إلى الصفاء المحض ، والسرور الخالص ، والوداد المصفق ، والشعاع الذى يعافى الجسد ، والنسيم الذى يرد الروح ، ودعوا القاهرة للساسة الذين أوقدوا فيها نار الخصومة فزادوا وهجها ، وضاعفوا رهجها[1] . وخلوا للزمان الحكم لهم أو عليهم ، فإنه لم يبق منهم أحد إلا أتهم الآخر . فإن كان ما قالوه حقاً فليس فيهم صالح . وإن كان ما قالوه باطلاً فليس فيهم صادق !

* * *

والثغر يضحك عند استانلى باى[2] ! وخليج استانلى مغاص للؤلؤ كخليج عُمان ؛ إلا أن اللآلىء هناك تغوص وهى هنا تعوم . لآلىء عُمان مصونة فى الأصداف لا تنال إلا ببذل النفس ، أما لآلىء استانلى فعارية مبذولة للنظر واللمس ! ومن لآلىء عُمان ما يباع بخزانة فى مصرف أومساحة فى منجم ، ولكن من لآلىء استانلى ما يباع بكأس فى حانة أو عشاء فى مطعم ! وهذه أروع ما برأ الله فى العالم الناطق ، وتلك أبدع ما صاغت يده فى العالم الصامت . ولكنه فضل الصون على الابتذال ، وفرق ما بين الحرام والحلال !

* * *

والثغر يضحك فى وجوه المصطافين كما يضحك الشباب فى الأجسام أو الربيع فى الخمائل ! فترى الشيخ فى مرح الشاب ، والشاب فى نزق الطفل ، وكلهم يجتمعون فى وحدة من الإخاء والرخاء والعافية والأمن تشعرهم بأنهم عبيد لإله واحد منعم ، وأبناء لوطن واحد مُنيل !

---

(١) الرهج : الغبار .

(٢) استانلى باى حمام من الحمامات العامة على شاطىء الرمل بالاسكندرية ، له شهرة بجمال قاصداته من نساء الروم والفرنج .

رحم الله أودلف هتلر!

(٢٧ يناير سنة ١٩٤٧)

رب يوم بكيت فيه فلما صرت فى غيره بكيت عليه !

كان هتلر — سقى الله ضريحه إن كان له ضريح — رجلا صحيح النية صريح الرأى يقول لنفسه المكروبة بعد ما أجال النظر فى معاهدة فرساى : نحن جياع وفى رءوسنا الفكر ، وفى صدورنا العلم ؛ وفى أيدينا العمل . والآخرون شباع وفى رءوسهم المكر ، وفى صدورهم الحقد ، وفى أيديهم السرقة . فما الذى أجاع العالم وأشبع الجاهل ، وأفقر العامل وأغنى المحتال ؟

وفى ساعة من ساعات التجلى ، وفى حانة من حانات (ميونيخ) ألقى عليه الجواب أن الذى أسغب هنا وأتخم هناك إنما هو رأس المال ! ورأس المال لفظ معناه اليهود وسماسرتهم من هذه الطفيليات التى تعيش على دم المجتمع كما يعيش البعوض والقمل على دماء الناس . فإذا قُطعت (رءوس الأموال) قُطعت الألسنة التى تكذب ، والأيدى التى تسرق ، والأسباب التى تفرّق . على ذلك حكم المرحوم بالإعدام على وايزمان وريدنو وتشرشل ! ولو شاء ربك السلام للأرض والوئام للناس لما نقض هذا الحكم رزفلت واستالين . ولكنه لأمر يريده قضى أن يُشنق القاضى ويطلق المجرم ! ولو كان فى قدَر الله أن يكون هتلر قاضى (نورمبرج[1]) لما كان لفلسطين قضية ، ولا للسودان مشكلة ، ولا فى شمال أفريقية مأساة ، ولا فى الهند الصينية مجزرة .

---

(١) نورمبرج مدينة ألمانيا أقام فيها الحلفاء المنتصرون محكمة لمجرمى الحرب من الألمان المغلوبين .

مَن هؤلاء الملقون بجثثهم على موارد المسلمين فى مراكش والجزائر وتونس وطرابلس ، ويخضمون أرزاقهم خضمَ الخنازير ، ويحتلون بلادهم احتلال الصراصير ، ويفسدون أخلاقهم إفساد الأَرَضية ؟ ومَن هؤلاء الوالغون فى النيل الطهور من منبعه إلى مصبه ، يسممونه بالجراثيم ، ويكدرونه بالشوائب ، ويحرشون على أهله التماسيح والأفاعى ؟ ومَن هؤلاء الجاثمون على صدور العرب فى فلسطين والعراق ، يبيحون العدو ذِمارهم ، ويمنحون الغريب ديارهم ، ويتصرفون فى شؤونهم تصرف القيم السفيه ؟

هم الفرنسيون طلقاء الحلفاء وعتقاء القدَر الذين يزعمون أنهم أعلنوا حقوق الإنسان . وأقاموا صروح الحضارة ، وعبّدوا طرق الثقافة ، وورثوا اليونان فى الآداب والرومان فى القوانين ! !

وهم الإنجليز أموات (دنكرك[1]) وأحياء (العلمين) وصنائع الحظ الذين لا يزالون يتبجحون بأنهم رسل الحرية وجنود الديمقراطية ومنقذو العالم من طغيان نابليون وغليوم وهتلر !

فليت شعرى متى تنكشف أغشية الغرور عن قلوب هؤلاء المساكين فيعلموا أنهم لم ينتصروا ، وأن خصومهم النازيين لم ينكسروا . إنما انتصر الضمير الإنسانى فلن يجوز عليه خداع ، وانهزم الروح الاستعمارى فلن يغنى عنه بعد اليوم دفاع !

وما أجدر الذى يتنكر اليوم لمصر الكريمة أن يعرف أن الفلك لا يجرى بأمره ، وأن البحر مهما يرتفع مدُّه فلا بد من جَزْره ! !

---

(1) دنكرك ميناء على بحر الشمال نجا منه فلول الجيش الإنجليزى فى هزيمته المنكرة فى الحرب العالمية الثانية . و « العلمين » موضع بمصر على ساحل البحر الأبيض انتصر فيه الحلفاء على الألمان والطليان .

أولياء، وأعداء

(٣ فبراير سنة ١٩٤٧)

حياك الله ياسورية! ورعاك الله يالبنان! لشدّ ماقضيتما حق الأخوة، وبيضتما وجه العروبة! آسيتمانا حين صرّح البغي عن محضه، وحسر الباغي عن قناعه؛ وآزرتما النيل حين صمم أن يدافع عن حوضه، وأن يعبىء كل القوى في دفاعه[1]

أما شرق الأردن ففيه جلوب، وأما العراق ففيه كرنواليس[2] والرُجلان رِجْلان من أرجل الأخطبوط الضخم الذى أمِن الحوت فسيطر على معظم الماء وأكثر اليبَس. ورجْل الأخطبوط ختْم على أفواه الساسة؛ يوضع بحذر، ويرفع بقدَر. ولطالما كابد ساستنا مشقة هذا الختم أيام كانوا للأخطبوط أرقاء أو أصدقاء!

والاستعمار — كشف الله عناصره — على الأفواه كمامة، وعلى العيون غمامة، وعلى الآذان حجاب، وفي الأعناق غلّ. ولكن الأمم العربية التى تستمد غذاءها الروحى من عقيدة الإسلام، وآداب العرب، وتاريخ الفتوح، وحضارة الرشيد، وثقافة المأمون، لا يسعها إلا أن تخالف الرؤساء والزعماء لتتفق فى الشعور، وتتحد فى الوجهة، وتتعاطف فى المكروه، وتتناصر فى الشدة. ولن تكون هذه العقارب التى يبسّها الأخطبوط من دعاة الوحدة العربية إلا طعمة للنار المقدسة التى يشبها شباب العرب لتذيب الغش وتنفى الخبَث وتنكشف عن المعدن الصحيح.

---

(١) آزرت سورية ولبنان مصر فى قضيتها على انجلترا فى مجلس الأمن.

(٢) جلوب رجل عسكرى فى شرق الأردن، وكرنواليس رجل سياسى فى العراق. وهما يومئذ يمثلان مشيئة الانجليز فى هذين البلدين.

جرح الخفاء ونصل صبغ الرياء عن طبع إنجلترا فبدا على لونه الأصيل من خبث العنصر ولؤم الفطرة . وأصبح الأمر بيننا وبينها فى ذمة مجلس الأمن ، وهو الجهة التى زعموها موئل الحق ومثابة العدالة . فهل كان يظن (جون بول) أن مصر التى ظل خمسا وستين سنة يتصرف فى حكومتها وشعبها تصرف الراعى فى القطيع ، تقف منه موقف الند من الند فى مجلس القضاء الأممى تدمغ باطله بالحق ، وتدحض مراءه بالمنطق ؟ الحق أن صرح الإمبراطورية يوشك أن ينهار ما دام أمرها قد انتهى إلى سلطان العدل . وهل هى إلا بنيان ساهق من الزور المتراكم والظلم المتراكب يسنده دعامتان من دهاء السياسة وضخامة الأسطول ؟ على أن الدهاء قد فضحته يقظة الناس ، والأسطول قد نسفته طاقة الذرة . فماذا بقى لسيدة البحار ؟ إن انجلترا غنية بغيرها ، فلا تستغنى بنفسها إلا يوم تروض حلوقها ثانية على ازدراد القواقع والسمك . والرجل الذى يعيش على الناس يكون مع القوة لصاً يسلب ، ومع الضعف متسولا يستجدى . وقد زالت وسائل اللصوصية عن انجلترا باستيقاظ الوعى فى الأمم فى المستعمرة . وانخزال السلاح البحرى عن الأسلحة الحديثة ، والتجاء الدول إلى تحكيم القانون فرقا من المدمرات الخفية ، فلم يبق لها إذن غير التسول بالمفاوضة ، والتعلل بالمعارضة ، والتسلل إلى البلاد فى ثياب الخونة من أهلها طلاب الملك أو الحكم أو المال ، كما تتسلل الجراثيم إلى الأجساد على أرجل الذباب وأفواه الكلاب وأجسام الفئرة ! فإذا عرفنا نقلة الجراثيم عرفنا مصدر الوباء ، وإذا أمنا دسائس الخصم أمنا جور القضاء .

في ميدان عابدين

(١٠ فبراير سنة ١٩٤٧)

شهد ميدان عابدين يومين من أيام الانجليز السود سيظلان فى تاريخ الاستعمار عنوانين على الخزى واللعنة ؛ يوم صحت أحلامهم فأخذوا يدخلون . ويوم زلت أقدامهم فأخذوا يخرجون ! أما اليوم الأول فهو التاسع من شهر سبتمبر عام ١٨٨١ يوم وقف عرابى فى ساحة القصر ، ومن خلفه الجنود ومن خلف الجنود الشعب ، يطلب من ولىّ الأمر فى احتشام واحترام أن يقيل وزارة ويقيم وزارة .

وكان (كلفن) ابن جول بول واقفاً بجانب الخديو يشير عليه بقتل القائد الثائر . فلما نبا[1] (توفيق) فى يد الحية ، واستجاب لرغبة الأمة ، قبض مشير السوء وسفير الاستعمار بكلتا يديه على ناصية الفرصة العجلى حتى لاتفوت ، وأخذ يزرع بين القصر والحكومة الزرع الخبيث ، حتى فسد الأمر ، واستطار الشر ، وعصفت رياح الفتنة . وحينئذ وضع الماكر الخدّاع يديه على قوائم العرش يوهم صاحبه أنه يمسكه ، وهو الذى يحركه . ثم وجد من طعام الطابور الخامس من أعانه بالخيانة على جيش الثورة ، فاحتل البلاد ونفى القواد وسيطر على الحكم !

وأما اليوم الآخر فهو الرابع من فبراير عام ١٩٤٢ يوم وقف (ما يلز لامبسون) حيث كان يقف عرابى ، ومن ورائه فلول الدبابات التى طحنها (رومل)[2] يطلب عن عرش النيل فى صفاقة وحماقة أن يقيل وزارة ويقيم وزارة . . . ولكن جون بول فى هذه المرة كان هواه مع عرابى لا مع القصر ؛ فوضع الكرسى بإزاء

---

(١) نبا فى يده : عصاه .

(٢) رومل قائد ألمانى كان يقود الحملة الألمانية الايطالية على الجيش الانجليزى بمصر فى الحرب العالمية الثانية .

العرش ، والطربوش بجانب التاج ؛ ثم دفعه فجور النفس وفحش الضمير أن يقول لمصر وهو يقتحم أبواب القصر بيأس الحديد .

أريد أن يحكم هذا الوزير أو لا يملكُ هذا الملكُ !

كلمة مجرمة لم يقلها في ذلك اليوم البعيد عرابي الثائر ، وإنما قوَّله إياها الكذاب ليحكم عليه بالمصادرة والنفي ، وعلى وطنه بالاحتلال والحماية ! ولكن المجرم قالها في هذا اليوم القريب بلسانه البذيء وسلاحه الجريء ، فنزت في الرؤوس نوازي الغضب ، وثارت بالنفوس عواصف الحميّة ، وكاد الزمام يفلت من يد الحليم فيلتاث الأمر على انجلترا لولا أن سبق في حكم الله أن الجبان يهزم الشجاع ، وأن العصا تكسر السيف ، وأن (العلمين[1]) تدمر ألمانيا !

لقد أثار جون بول الجيش يوم عرابي ، والجيش قد ينهزم لأنه عتاد وعَدَد ؛ ولكنه أثار الشعب يوم لمبسون ، والشعب لا ينهزم لأنه روح ومدد ! وإذا دخل اللص منصوراً وراء الجيش ، فإنه سيخرج مدحوراً أمام الشعب . وإذا كان في يوم الدخول قد وجد الخائنَ الذي تلقاه في (التل الكبير) ودله على الباب الخلفي وقاده إلى فناء القلعة ؛ فلن يجد بعون الله يوم الخروج إلا ألسنة تجري باللعن ، وأرجلا تمتد بالركل ، وأيديا تشير إلى جهنم !

إلى القضاء يا مجرم ! إلى المحكمة التي أنشأتها سنختصم ، وإلى القوانين التي سننتها سنحتكم . فإذا كنت أنت وحلفاؤك جادّين ، فسيحكمون عليك بما حكمت به على عرابي . وإن كنتم هازلين فارتقب يوم ينذرك القضاء بحكم القدر ، وتأخذك الصيحة الكبرى فلا تبقي عليك ولا تذر !

---

(١) موقعة العلمين بمصر هي التي هزم فيها الانجليز الألمان فقررت مصير الحرب .

الجامعة الإسلامية هي الغاية

(٣٠ يونية سنة ١٩٤٧)

نشأت جامعة الدول العربية ، وكان نشوؤها ضروريا وإن أشار به (إيدن[١]) وقامت دولة الباكستان الإسلامية ، وكان قيامها طبيعيا وإن سعى له (مونتباتن[٢]) تلك لأن العروبة في يقظة ، وهذه لأن الإسلام في انبعاث . ويقظة العروبة هبة من الروح العالمي الذي دفع الأقوياء إلى الحرب ، والضعفاء إلى التعاون ، والأشتات إلى الوحدة . وانبعاث الإسلام أثر لتناقض المذاهب وتعارض الشرائع وافتقاد الإنسانية لذلك النظام الإلهي الذي يسدد خطاها ويحفظ عليها قواها . وما كان فضل انجلترا في هذين الحدثين العظيمين إلا فضل القابلة . سهلت الولادة ولكنها لم تخلق الوليد . وسيحذو المسلمون في الصين حذو المسلمين في الهند وإندونيسيا فتنشأ الدولة الإسلامية الثالثة في القوة والعدد ؛ ثم تنكفيء تركيا إلى الشرق ويرجع ساستها إلى الإسلام ، فيكون منها لكتلة الدول المحمدية روح ومدد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، إذ يرون كلمته هي العليا . وعقدته هي الوثقى وحزبه هو الغالب .

فالجامعة الإسلامية ، أو البانسلامزم كما يسميها الغربيون ، هي الغاية المحتومة التي ستتوافى عندها أمم الإسلام في يوم قريب أو بعيد . ذلك لأنها النظام السياسي الذي وضعه الله بقوله : « إنما المؤمنون إخوة » ثم شرع له الحج مؤتمراً سنوياً ليقوى ، وجعل له الخلافة رباطاً أبدياً ليبقى . وهذا النظام الإلهي

---

(١) ايدن وزير خارجية انجلترا يومئذ وهو الذي أشار بقيام جامعة الدول العربية .

(٢) مونتباتن كان حاكم الهند يوم أن انقسمت إلى باكستان والهندستان .

أجدر النظم بكرامة الإنسان ، لأنه يقوم على الإخاء فى الروح ، والمساواة فى الحق ، والتعاون على الخير ، فلا يفرق بين جنس وجنس ، ولا بين لون ولون ، ولا بين طبقة وطبقة .

وظلت الجامعة الإسلامية ، فى ظلال إمارة المؤمنين وإمارة الحجيج ، قوية شاملة حتى خلافة المتوكل . ثم وهى السمط فانفرط العقد ، واضطرب اللسان فتفرقت الكلمة . فلما تبوأ الترك عرش الخلافة استطاعوا أن يبرموا الخيط ولكنهم لم يستطيعوا أن ينظموا فيه الحب . فبقى المسلمون عباديد لا ينظمهم سلك ولا تؤلف بينهم وحدة . ثم أدركت الشيخوخة دولة العثمانيين فى أواخر القرن التاسع عشر ، فتعاوت على جسدها الواهن المنحلّ ذئاب الغرب ، فلوح لهم عبد الحميد بالجامعة الإسلامية ذياداً عن ملكه ، فهرّوا هرير الكلاب المذعورة ، وصور لهم هذا الذعر أن الجامعة هى التعصب وسفك الدماء ، فصدقوا وهمهم وكذبوا الواقع . وكان الاستعمار يومئذ قد توقح وفجَر ، فنشأت العصبية الوطنية فى الأقطار الإسلامية لدرء خطره ، أو تخفيف ضرره . والوطنية لا تعارض الجامعة ، ولكنها تفارقها فى الطريق لتلاقيها عند الغاية .

إن أوربا التى مزقتها الأطماع وطحنتها الحروب ، سترحب اليوم بالجامعة الإسلامية ، لأنها وحدها تملك غرس الوئام فى النفوس ، وإقرار السلام فى العالم . إنها تقوم على الإيمان المحض ، وتنزل فى خير مكان من الأرض ، وتشمل مئات الملايين من الناس ، وتهيمن على الموارد الأولى للاقتصاد ، وتدين بالآداب السماوية المثلى للاجتماع ، وتشرق أعمالها فى الصفحات العظمى من التاريخ ؛ فمن المحال أن تظل نهباً مقسما بين فرنسا الحمقاء ، وانجلترة المتطفلة ، وهولندة الأنثى !

أحمد عرابى المفترى عليه

(٢٨ يوليه سنة ١٩٤٧)

ذلك عنوان الكتاب الفريد الذى أخرجه للناس فى هذا الأسبوع صديقنا الكاتب الشاعر المؤرخ الأستاذ محمود الخفيف ، عن زعيمنا الوطنى الأبى المجاهد المظلوم أحمد عرابى . وهذا الكتاب هو الحق الذى اختفى منذ خمسة وستين عاماً لم يظهر فى خلالها على لسان ولا قلم ، حتى ظهر أخيراً على ضوء هذا اليراع النبيل رائع البيان ساطع الحجة . والحق كالصبح لابد أن ينبلج مهما يتطاول الليل ويحلولك ظلامه .

استبهمت معالم الحق فى قضية الضابط الفرنسى (دريفوس) اثنتى عشرة سنة حتى جلاه الكاتب الجرىء إميل زولا ، فأجبر القضاء العسكرىّ على رد اعتباره ، وإطلاقه من إساره .

واستعجمت مذاهب العدل فى قضية عرابى ثلثى قرن حتى أبانه الكاتب النزيه محمود الخفيف ، فإذا عرابى زعيمنا الصادق ، وقائدنا الشجاع ، وموقظنا المبكر ا .

تاريخ عرابى هو تاريخ الثورة الوطنية ، والنهضة القومية ، و (المسألة المصرية) ، والنكبة الإنجليزية ، وقضية الوادى كله فإذا كُتب على النهج الواضح ، والمرجع الثقة ، والاستقصاء المحيط ، والتمحيص الكاشف ، والاستنتاج الصحيح ، والتحليل الدقيق ، والتعليل الصائب ، والتبويب المحكم ، كان لمصر من هذا التاريخ نور يضىء لها جوانب الطريق إلى (مجلس الأمن) ؛ لأن عرابى هو اليد البريئة التى

سخرها القدر لكشف الستار عن مأساة الاحتلال ، والنقراشى[1] هو اليد الجريئة التى يهيئها الله اليوم لإرخاء السترُ على فصلها الأخير . ومن المحال أن تدرك مرامى الرواية إذا نمت عن بعض الحوادث أو غبت عن بعض الفصول . والأستاذ الخفيف قد اجتمعت له فى هذا الكتاب أولئك المزايا ؛ فهو من حيث المادة لم يدع مصدراً يعول عليه من المؤلفات والمذكرات والمقالات والوثائق والرسائل والأحاديث إلا استمد منه بعد النظر النافذ والموازنة العادلة . ومن حيث الطريقة قد اتخذ المنطق ميزاناً يأخذ به ويعطى ، فهو يروى بالنص الصريح ، ويدّعى بالدليل الناهض ، ويُقنع بالحجة العالية ، ويدافع بالحق المبين ، ويستقرى فيحسن الاستقراء ، ويستنتج فيجيد الاستنتاج . ثم جعل همه منذ اللحظة الأولى تبرئة الجندى الثائر ، فسلسل الوقائع والفصول سلسلة المقدمات الصحيحة ، ثم خرج منها بالنتيجة التى لا موضع فيها للشبهة . ومن حيث الأسلوب قد اختار اللفظ السائغ ، والنظم المنسق ، والسياق المطرد ، والمعرض الجذاب ، حتى ليستولى على القارىء العجلان فيمعن فيه لولا أن الكتاب ستمائة صفحة والقيظ مقلق والصيام مرهق[2] ، ولكنه على كل حال لن يفتح كتاباً غيره حتى يفرغ منه !

إن هذا الكتاب أول كتاب فى بابه . ولعلّه هو وكتاب (الله) للأستاذ العقاد كتابا السنة ؛ لأنهما على اختلافهما فى الموضوع والوضع خطَوا بالكتاب المصرى خطوة سديدة ، وأضافا إلى الأدب العربى ثروة جديدة .

---

(١) محمود فهمى النقراشى باشا كان رئيس الوزارة المصرية فى ذلك الحين ، وهو الذى رفع قضية مصر على انجلترا إلى مجلس الأمن .

(٢) ظهر هذا الكتاب فى شهر رمضان .

نحن والظالم أمام القضاء!

(١١ أغسطس سنة ١٩٤٧)

كان يوم الثلاثاء الماضي يوماً مشهوداً في تاريخ مصر! رددت ذكره الألسنة والأقلام في كل لغة وفي كل أرض، وستردد ذكراه الألسنة والأقلام على مدى الأحقاب في كل عهد وفي كل معهد! في ذلك اليوم وقفت مصر كلها ممثلة في النقراشي، بجانب انجلترة كلها ممثلة في كادوجان، أمام العالم كله ممثلا في مجلس الأمن. ندّعي نحن ونثبت، وتغالط هي وتروغ، ويوازن هو بين حجج الإنسان يبسطها لسانٌ فيْصل، وحجج الذئب يؤيدها نابٌ أعصل، والناس في مشارق الأرض ومغاربها يتتبعون المحاكمة ويترقبون الحكم ليروا بالتجربة أيخضع الأقوياء كما زعموا لسلطان العدل والعقل، أم يظلون كما كانوا يحافظون على الموضوع ولا يغيرون إلا في الشكل!

قضية وادي النيل قضية الحق الذي لا يماري فيه إلا الذين يتسكعون على الباطل، ويعيشون على الحرام، ويتسعون على الظلم: وقد جعلها النقراشي بأدلته الواضحة وحججه الملزمة، من بدائه العقول، فلا يمكن أن تؤتَى من جهة القانون والمنطق، إنما يجوز أن تؤتَى من جهة السياسة التقليدية القائمة على تبادل المنفعة وتقارُض المعونة. ويومئذ يعلم المؤمنون بتقدم العقل، والمتفائلون بتغلب العدل، أن العالم يكابد اليوم خدعة أخرى، وأن (هيئة الأمم المتحدة) لم تزده إلا اسماً جديداً للاستعمار في أخَسِّ معانيه وأقبح صوره.

كان النقراشي بإجماع المنصفين عظيما في موقفه ، رائعاً في بيانه ، بارعاً في خطته ، صريحاً في طلبه ، موفقا في عرضه . فإذا لم يستطع صديقنا الأستاذ الجليل فارس الخوري رئيس مجلس الأمن أن يعصم البصائر من الزيغ ، والضمائر من الخدَر ، فلن نقول يوم يعمى أعضاؤه عن الحق : إننا أسأنا الدفاع ، أو أضعنا الفرصة ، أو تنكبنا الطريق ، ولكننا سنقول : تعلقنا بالخيال وتركنا الواقع ، وتذرعنا بالحق وأهملنا القوة . سنقول للنقراشي يوم يجعلون الحق دَبْر آذانهم[1] : أرِهم أننا أقوياء كما أريتهم أننا محقون . وقل لهم إن شعباً كان تاجه الشمس ، ولا يزال عَلمه الهلال ، ومن بين يديه كتاب الله ينطق بالحق ، ومن خلفه دول العرب والإسلام تمده بالقوة ، لا يفشل من ضعف ، ولا يخذل من قلة .

— ولكن مالك تتسلف الخذلان وتتوقع الجور وتغلو في التشاؤم وسوابق الأقضية في مجلس الأمن تقوى الثقة به وتنفش الأمل فيه ؟ ألم تسمع بما قضى به على الروسيا في إيران ، وعلى انجلترا وفرنسا في سورية ولبنان ، وعلى هولنده وإندونسيا في ساحة الميدان ؟

— بلى قد سمعت : ولكن لا ننسَ أن الذى تصرف كان الهوى لا القانون ، وأن الذى تعفف كان العجز لا العدالة . فهم إذا اختلفوا حكموا على أنفسهم ، وإذا اتفقوا حكموا على الناس !

(١) جعلوا الحق دبر آذانهم : أعرضوا عنه .

القوة هي الحق !*

(٨ سبتمبر سنة ١٩٤٧)

القوة هى الحق وما سواها باطل . فإذا رابك هذا القول فعارضته بآية من القرآن فى الرحمة ، أو بحديث من السنّة فى العفة ، أو بمأثور من الحكمة فى البر ، أو ببيت من الشعر فى العدل ، قلت لك و يداى مشبوكتان على صدرى : صدق الله العظيم ، أو برّ النبى الكريم ، أو أحسن الواعظ الحكيم ، أو أجاد الشاعر النابغ ؛ ولكن للطبيعة طغيانا تكسر الأديان من غُلوائه ولا تمحوه ، وللحياة سلطانا تكف الآداب من عاديته ولا تزيله . وما دام الغربيون يحنون إلى حياة الغاب ، ولا يعترفون إلا بالظفر والناب ، فإن كلمتى الحق والعدل تظلان مرادفتين لكلمتى الضعف والعجز ، يجأر بهما المظلوم و يتصامّ عنهما الظالم !

على أن العدل والبر والإحسان وأخواتها من مهجورات الفضائل ، إنما يُفهم التعامل بها بين الفرد والفرد ، أو بين الأسرة والأسرة ، لأن الأمر بينهما يقوم أكثره على عواطف الصداقة أو القرابة ، فمظهره الإيثار والتسامح والتعاون . أما التعامل بها بين الشعب والشعب ، أو بين الدولة والدولة ، فإنما يقوم على جلب المنفعة أو دفع المضرة ، فمظهره التفارس بالغيلة والحيلة الماثلتين فى بأس الجيوش ومكر الساسة !

ماذا بيننا و بين إنكلترا أو فرنسا أو أمريكا من أسباب المودة ؟ هل بيننا و بينها إلا ما يكون بين حيوان جائع تحت كفيه حمَل ، وأسد مسعور بين فكيه ناب ؟ كيف ننشد الحق والعدل فى دول الغرب وكل واحدة منها جعلت قصدها ووكدها أن تنفرد بخيرنا أو تشارك فيه ؟ إنها عصبة من دول الشيطان تعاونت على الإثم والعدوان وتحالفت على العرب والاسلام والشرق ! جرّبوا

آثار القوة فيهم فلم تفدهم التجربة ، وأصابهم الطغيان النازى فى أنفسهم وأموالهم فلم تعظهم الإصابة ، ووقفوا أمام جبار المحور ضعافاً ضارعين ست سنين طوالاً ثقالاً يطلبون من الله أن يسعفهم بالحق ، ومن القانون أن يؤيدهم بالعدل ، ومن العالم أن يرفدهم بالإحسان ، حتى إذا رأوا القدرَ القاهر يسلب القوة العامة ، ويعطل الآلة الحاطمة ، استطالوا على الله ، واستهانوا بالقانون ، واستكبروا على الناس ، وقال كل منهم . أنا اليوم وريث هتلر وخليفته ! ها هم أولاء لا تزال وجوههم محمرة من لطمات هتلر ، وأشلاؤهم مبعثرة بقذائف هتلر ، وبلادهم مخربة من قنابل هتلر ، وتراهم مع ذلك يجلسون فيما سموه مجلس الأمن جلسة النخّاسين فى سوق الرقيق ، يساومون فى حريات الأمم ، ويزايدون فى حقوق الشعوب ، وحجتهم العالية أن بلادهم تزخر بالحديد والنار ، ونفوسهم تجيش بالطمع والاستعمار !

القوة هى الحق وما سواها باطل . فمن عاش فى البرّية حَمَلاً أكلته الذئاب ، ومن سار فى القافلة أعزل سلبته اللصوص .

قولوا استعدوا، ولا تقولوا اتحدوا

(٢٢ سبتمبر سنة ١٩٤٧)

يسيء إلى كرامة مصر من يزعمون أن فيها اليوم جماعة وفرقة، ثم يحاولون أن يجمعوا المتفرق ويضموا الشتيت بدعاء داع أو سعى ساع أو إذاعة مذيع!

إن فى هذا الزعم اتهاما لبعض قومنا بالعقوق وقذفا لهم بالخيانة. ولا يجوز فى الطبع ولا فى الشرع أن نفترض الجريمة ثم نرتب على افتراضها ما يرتب على الأمر الواقع. قولوا استعدوا وانظروا يوم الاستعداد من يتلكأ وقولوا انفروا وانظروا بعد النفير من يتخلف. أمّا أن تقولوا اتحدوا وائتلفوا وسووا الصفوف، ثم تنتظروا أن يقبل زيد رأس عمرو، ويرد عمرو قُبلة زيد، فذلك هو الهزل فى مقام الجد، والعبث فى موقف الخطورة!

ليست الأحزاب السبعة أو الثمانية هم جميع الأمة. وليست الزعماء التسعة أو العشرة هم كل القادة. وليست الأمة بأضعف غريزة من النحل التى تدفع عن بيوتها الزنابير؛ فكيف تنتظر أن يقول لها هذا الحزب أو ذاك الزعيم دافعى عن أرضك التى منها تأكلين، وعن مائك الذى منه تشربين؟

هذا يوم الفصل بين الاحتلال والاستقلال أو بين العبودية والحرية؛ فمن تخلف فيه أو خذّل عنه قوتل مقاتلة العدو، أو عومل معاملة المريض؟

هذا يوم جهاد البغى والجور والاستعمار: فمن لم يكن لنا فيه فهو علينا؛ ومن لم يقم للدفاع معنا فليس منا. والخارج علينا لغُلول فى نفسه، والمتخلف عنا لنكول فى طبعه، لا يردهما إلى الطريق قول معروف ولا عذل منكر.

اقرعوا الطبول يادعاة الجهاد تجدوا الأمة برجالها ونسائها أمامكم، تضمر

فى قلوبها الضغينة ، وتظهر فى أيديها القوة ، لتجرد عدو الله وعدوكم من الباطل هنا ، كما جرده النقراشى من الحق هناك !

إن الذين يظهرون الأمة فى هذا المظهر الكاذب من الشقاق والافتراق والتخاذل فريق من الكتاب والساسة ، يقولون فنسمع ، ويكتبون فنقرأ ، حتى إذا اقتربت الساعة وجدّ الجد وحق الجهاد رأيت الأمة صحيحة الكيان قوية البنيان سليمة الوجدان ، لا تطيع غير رجل واحد هو القائد ، ولا تعرف غير عدو واحد هو الإنجليز !

قولوا استعدوا ولا تقولوا اتحدوا ؛ فإن الأمر بالاتحاد يتضمن اعترافا بالتفرق ؛ وفى ذلك تزييف للحقيقة ، وإيهان للعزيمة ، وإغراء للعدو !

إن من يزعم أن فى الأمة المصرية تفرقاً لأن صاحب العزة رئيس التحرير ، أو صاحب السعادة رئيس الحزب ، يريد أن يعارض ليضمن نقوده ، أو يخالف ليثبت وجوده ، كمن يزعم أن فى الجامعة العربية تصدعاً لأن صاحب الجلالة الهاشمية الملك عبد الله يريد أن يشرك سورية فى صداقته لبريطانيا ليرتفع عرشه شبرين ، ويتسع تاجه إصبعين ! كلا الزعمين ينكر الأمتين المصرية والأردنية ولا يزال يقول كما قال الأقدمون : إن أهواء السادة هى مصالح الأمة ، وإن إرادة الملوك هى شرائع الممالك !

لا يا سادة قولوا استعدوا ولا تقولوا اتحدوا ، فإن الاتحاد قائم بإرادة الأمة وإن النصر مكفول بمشيئة الله .

الطابور الخامس فى حرب الكولرا

(٢٠ أكتوبر ١٩٤٧)

عبأت الحكومة المصرية لجهاد الكولرا الإنجليزية (١) قوى الدولة ، وتجهزت للقائها بأفتك الأسلحة الحديثة من عزل وحصار وعلاج وتلقيح وتطهير ودعاية . وكان المرجوّ من كل أولئك أن يموت الداء الوليد فى مهده ، وينكفىء الوباء العنيد عن قصده ، وترفضّ مخاوف الموت عن البلاد فى مدى أسبوعين كما وعد بذلك أولو الأمر فى أول الأمر . ولكن شهراً يوشك أن ينصرم والعدوى السريعة لا تزال تسرى ، والعلة الثقيلة لا تزال تستشرى ، والموت بمنجله الحاصد لا يزال يسبق الآجال فى كل بقعة . فيما نعلل هذه الهزيمة وأسباب النصر موصولة ، ونتائجها مكفولة ، وطرائقها مؤدية ؟ نعللها بأن فى صفوف العدو طابوراً خامساً يغذى المرض بالوقود ليشتعل ، ويشحذ للموت المناجل ليحصد . ذلك الطابور الخامس هو أطباء وزارة الصحة . ومن الإنصاف ألا نعمم الحكم ؛ فإن من هؤلاء فريقاً لا يزالون أوفياء للانسانية خلصاء المهنة ، لم يفجروا فى يمين أبقراط ، ولم يخرجوا عن قانون ابن سينا . ولكن هذا الفريق وأسفاه لم يزوروا الإقليم الذى نعيش اليوم فيه .

أكثر هؤلاء الأطباء منهومون بالمال ، يتهالكون على جمعه ، ويتنافسون فى ادّخاره . وهم فى سبيل تحصيله يسفهون الحق ، ويغفلون الواجب ، ويجهلون الرحمة ، وينكرون الحسنى ، ثم يخفون اللقاح المجانى عن الفقير ليظهره بالثمن للغنى ، ويصعّبون دخول المستشفى العام ليسهلوا دخول العيادة الخاصة ، يكاون

---

(١) نسبناها هذه النسبة لأن عدواها انتقلت من جيش الاحتلال فى القنال إلى سائر البلاد المصرية .

تطبيب المرضى لأجلاف الممرضين وجفاة الخدم ليلعبوا النرد فى القهوة أو يلهوا بالورق فى النادى . ومن جراء هذا الإهمال والاستغلال والعنت استحب الناس المرض على الصحة ، وفضلوا الحلاق على الطبيب ، وضنوا بمرضاهم على المعازل فلم يبلغوا المركز عنهم ، حتى لا يموتوا وحَــــداء فى وحشة ، ولا يدفنوا غرباء فى مهانة .

هؤلاء الاطباء وأشباههم من غير الموظفين تعرفهم الحكومة بالسماع والخبرة . ولولا سوءَ رأيها فيهم ، وترجيحها ما أشيع عنهم ، لما جعلت ألف جنيه مكافأة لـكل من يبلغها أن طبيبا تاجر بلقاح أو لقح بأجر .

وإنك لتعجب أن يكون فى الناس من لا يشغَل باله فى الوباء إلا بالثراء ، ومن طبيعة الإنسان إذا اكتنفته ظواهر المرض ومظاهر الموت أن يخشع قلبه وتزهد عينه ؛ ولـكن عجبك ينقضى إذا حشرك الله فى زمرة الذين يعيشون على حساب المرض والموت ، فجعلك طبيبا أو ممرضا أو حانوتيا أو نحو ذلك ، فيومئذ تشعر بحكم الإلف والعادة أنك أشبه بخدمة الموائد فى حفلة العرس ، أو بحملة القماقم فى موكب الجنازة ، لا يعنيك من الأمر غير الاجر ، ولا يغنيك عن شأنك شؤون الناس .

على أن فى الطبابة جزءاً من النبوة ، وشطراً من الحـكمة . وعلى هذا الشطر وذلك الجزء يعوّل الناس فى إيقاظ الضمير الإنسانى فى هؤلاء الاطباء ليعودوا رسل سلامة وملائـكة رحمة .

يا أغنيارنا !

قولوا أسلمنا ولا تقولوا آمنا

(٣ نوفبر سنة ١٩٤٧)

لا أزال معجباً بالحديث الدينى الذى نشرته الاهرام منذ أسبوعين لصاحب السمو الملكى أمير الامراء محمد على بلغه الله أنفس العمر . وأشد ماحرك إعجابى به ، وأثلج صدرى منه ، قول الامير فيه عن نفسه : « إنى أشهد الله على أن كل توفيق أصبته وكل خير نلته ، منذ نشأتى إلى اليوم ، كان مرجعه إلى ائتمارى بأوامر الدين وانتهائى بنواهيه » وقوله عن مصر وأخواتها : « إنهن لو رجعن إلى الماضى العظيم لعلمن أننا لم نأت بخير ولم نظفر بسؤدد إلا برعاية الدين » .

جميل من سمو الولى أن يعتقد الدين ويعمل به ويتعصب له ويدعو إليه فى وقت نسى الناس فيه الله ، فعبد الامراء الشهوة ، وأله الاغنياء المال ، واتّبع الزعماء الهوى ، واستجدى الفقراء الحظ — ولكن — وما (لكن) إلا حرف جرىء ملعون يستدرك على كل موجود ماخلا الله — لماذا اقتصر أمير الامراء من فضائل الإسلام على (المحبة والسلام والصلاة والصيام والعمل والصبر والطهارة) وقد كنا نطمع فى صدق إيمانه وسمو بيانه أن يذكر كذلك الزكاة والإحسان والبر والتعاون ، ليعلم أولئك الامراء الذين أسلموا ولم يؤمنوا ، وهؤلاء الاغنياء الذين أساءوا ولم يحسنوا ، أن الدين عمل ومعاملة، وتثقيف وتكليف ، وإيثار وتضحية ؟ نعم كنا نطمع فى سمو الامير وهو القدوة الحسنى فى قول الحق وعمل المعروف أن يدعو إلى الجهة العملية من الدين

عسى أن يستجيب له أولئك الذوات المدللون المرفهون الذين ميزهم الوطن كرهاً على بنيه وآثرهم الشعب جهلا على نفسه ، فيؤتوا حق الله فى أموالهم لتقوى الحكومة على أن تدفع عنهم الوباء ، و يشجع الفقراء على أن يشغلوا عنهم الموت. وحق الله الذى يشبع الجائع ويكسو العارى ويداوى المريض ويكفن الميت ، ضئيل بجانب حق الشيطان الذى يولم الولائم الفاجرة ، ويقيم السهرات الداعرة، ويجود على انجلترا الخؤون من غير طلب ، وينفق على تركية العقوق من غير حساب . ولكن حق الله على ضآلته ثقيل لأنه ينفق على العامل والفلاح، وحق الشيطان على ضخامته خفيف لأنه ينفق فى الميسر والراح !

إن أكثر الأمراء عقام أوأعزاب ، فلاعيال يكلفون فى الحياة ، ولاأعقاب يرثون بعد الموت . فليت شعرى لم لايقتنون هذا الشعب الكريم وهو الذى وضعهم فى ركب الحياة على كاهله ؛ فأقدامه تحفى من الكلال وهم فى دعة ، وجسمه يضوى من الإقلال وهم فى سعة ، ونفسه تضطرب من الأهوال وهم فى أمن ؟ إنهم إلا يفعلوا يندموا ، فإن من المشكوك فيه أن يتسع حلم الشعب طويلا لهذا التفريط فى جنبه . وإن من الصعب أن يغمض عن كزازة أغنيائه وهم يرون وباء الهيضة يقطع السبل ويشل الأيدى ويحصد الأنفس فلايبسطون لساناً بمعروف، ولايمدون يداً بمعونة !

إن الإمارة لا تكفى للسعادة . وإن المال لا يجزى عن الشرف وإن الدنيا لاتغنى عن الآخرة .

لا إله اليوم إلا الهوى !

(أول ديسمبر سنة ١٩٤٧)

أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ؟ ذلك هو إنسان اليوم . وإن شئت فقل هو إنسان الدهر كله. زعم ابن آدم أنه عرف الله وعلم الحق وحكم العقل وآثر العدل وتوخى السلام ، وراءى بعضه بعضاً فتظاهروا بالتصديق ، ونافقوا بالإيمان ، وشقشق خطباؤهم بالهدى ، وتشدق شعراؤهم بالحكمة ، وفي قرارة كل امرىء أن الله معناه الهوى ، وأن الحق معناه المنفعة ، وأن العقل معناه الحيلة ؛ فأنا وأنت وهو إنما نذكر عزائم الله(١) وفضائل الخلق وفرائض القانون إذا لم يكن من ذكرها بد لإدراك الغنيمة مع الراحة ، أو اتقاء الهزيمة عند العجز . وغاية السياسة الآدمية أن تكون ثعلباً مع الضعف وأسداً مع القوة !

أزِلْ عن عينك إن استطعت ما غشيها من رياء الإنسانية وخداع المدنية ، ثم انظر إلى حقيقة الإنسان في نفسك ، وفي عشرائك في البيت ، ورفقائك في المدرسة ، وخلطائك في القهوة ، وزملائك في العمل ، ورؤسائك في الديوان ، ونوابك في البرلمان ، ووزرائك في الحكومة ، فلا تجد إلا غرائز الحيوان الوحش تسمّت بأحسن الأسماء ، وتزيت بأجمل الأزياء ، وتجلت في أبهى المناظر : فالتفارس تنافس ، والأثرة محبة ، والطمع طموح ، والاستغلال تعاون ، والاستعمار تحالف ، والقوة حق ، والضعف عفة ، والحرمان قناعة ، والختل سياسة ، والشعوذة دين ، والعصبية وطنية !

---

(١) عزائم الله : فرائضه التي أوجبها على عباده .

قد يخدعك الغطاء الذهبي على الناب ، والقفاز الحريرى على المخلب ، فتحسب أن هذا الإنسان الذى هتك بعلمه أستار الطبيعة ، وكشف بعقله أسرار الوجود ، قد هذبه العلم وصقله التمدن ، فارتفع من الأرض إلى السماء ، وانتقل من الحيوان إلى الملاك ، ولكن خلافاً يشجر بين الإخوة على ميراث ، أوشقاقاً ينشأ بين الزعماء على منصب ، أونزاعا يحدث بين الدول على بلد ، يستطيع أن يشق الذهب و يمزق الحرير فترى الوحش الآدمى على جبلته بادى النواجذ متقد العينين ، يتحلب الريق من أنيابه ، ويقطر الدم من أظفاره !

هانحن أولاء ، كنا نظن لوفرة المساجد فى المدن والقرى ، وكثرة السُّبح فى الرقاب والأيدى ، وتنافس الفقراء فى إقام الصلاة ، وتسابق الأغنياء إلىأداء الحج ، أن الدين قد سيطر على القلوب وهيمن على الضمائر . . . فلما ابتلانا الله بوباء الهيضة الجارف ، ووقع الإيمان المزيف تحت المحك ، تمزقت الأغشية عن عفن فى نفوس أكثر الأغنياء والأطباء والمسئولين كان أزكى روائحه روائح الرشوة والشح والسرقة والتواكل والتخاذل والتفريط والقسوة . . . وكل هذه الموبقات مشتقات من مصدر واحد هو الأثرة !

وهذه هيئة الأمم المتحدة ، كنانظن لفرط ماعانى الحلفاء من أهوال الحرب وكابدوا من نتائجها ، أنهم يقيمون العالم الجديد على قواعد الميثاق الأطلسى الأربع ، فلما تقدمت مصر وفلسطين إليها تستمديان قوى ميثاقها على بغى انجلترا وجور أمريكا لم تجدا فى قاعة مجلس الأمن إلامجمع الوحوش والبهائم الذى تخيله (لافونتين) فى الغاب !

إن الرجل يعمل لنفسه ثم لأبنائه ، وإن الحزب يعمل لرئيسه ثم لأعضائه ، وإن الشعب يعمل لمليكه ثم لوزرائه ! فمن زعم أن الأنانية تتجه إلىالغيرية ، وأن الحزبية تعمل للوطنية ، وأن الوطنية ترمى إلى الإنسانية ، فقد زور على الإنسان وكذب على الطبيعة !

صليبية من نوع جديد

(١٥ ديسمبر سنة ١٩٤٧)

شتان بين الغزوات الصليبية الثمان التي شنتها أوربا النصرانية على الشرق المسلم في مدى قرنين من العصر الوسيط ، و بين هذه الصليبية التاسعة التي تشنها أوربا وأمريكا على فلسطين في هذه الأيام من عصرنا الحديث !

تلك غزوات كان مبعثها الفروسية المسيحية والعصبية الدينية ، صدرت عن الإيمان وابتغت مرضاة المسيح . وهذه غزوة بعثتها اللصوصية الدولية والطماعية الدنيوية فصدرت عن الكفر وابتغت مرضاة يهوذا ! ويهوذا هو اليهودي الذي باع المسيح إلى عدوه بدوانق معدودة قبل أن يصيح الديك . وهو الذي روّى بالدم المسفوح شجرة الصليب فأثمرت العذاب للناس والخراب للأرض !

ولا يزال يهوذا المسيح ينافس في الشر إبليس آدم : يبغي الغوائل لأتباع عيسى كما ينصب الحبائل لأتباع محمد . فلكل مصلح من يديه صليب ، ولكل نهضة من وساوسه نصيب ، ولكل أمة من دسائسه فتنة !

ومن أعجب الأمور أن تتعاون اليوم دول النصرانية على أن تجعل صانع الصليب سادناً لقبر المسيح وكاهناً لكنيسة القيامة !

لقد كان بطرس الناسك ولويس التاسع أدنى إلى الإيمان من بلفور الواعد وستالين المساعد وترومان المنفذ ! كانا يؤلبان حملة الصلبان على أن ينتزعوا مفاتيح الأقداس المسيحية في فلسطين من أيدي المسلمين سدنتها الشرعيين ليضعوها في أيدي النصارى الغربيين أما هؤلاء فقد حملوا الأمم المتحدة المسيحية على أن

تجود بها على سلائل (اسخريوط) من صهاينة اليهود ! والجود بما لا تملك على من لا يستحق أغرب حوادث الجود !

ليست المسألة إذن مسألة دين أو جنس ؛ إنما هى مسألة استعمار وتنافس . وليست مدافعة الصهيونيين عن قلب العروبة أمراً يعنى فلسطين وحدها أو المسلمين وحدهم ، إنما هو أمر يعنى الأقطار العربية جمعاء ، ويهم العرب مسلمين ومسيحيين على السواء !

ذلك لأن الهيضة ظهرت جراثيمها فى (القرين) ، ثم ظهرت أعراضها بعد أيام فى (قنا) . والسرطان إذا نشبت جذوره فى عضو نجمت فروعه فى كل عضو . والصهيونية إذا عشش بومها فى خرائب (سليمان) طبقت أفراخها الأرض ما بين النيل والفرات . والعلق إذا فشا فى ماء شق على ذى الدم الحار أن يعيش فيه . واليهود علق البشرية يمتصون دمها ثم يفرزونه كالعنكبوت خيوطاً من الذهب يصيدون بها الذباب والبعوض من ساسة أوربا وأمريكا ! ومادام أمر الصهيونيين والمستعمرين قائماً على العدوان والجور ، فإن الفيصل بيننا وبينهم هو القوة . والقوة منذ جعلها الله قواماً لهذا الكون أودعها الإيمان والذهب والحديد .

فأما الإيمان فيجيش فى الصدور العربية جيشان السيل المزبد الهادر فتسمع اصطخابه فى كل بلد .

وأما الذهب فيفيض من الخزائن والجيوب ولن يبخل عربى على فلسطين بمال ولا ولد .

وأما الحديد فسيصوغه الذهب بأساً للايمان وروحاً للجِلاد ومعنى للجَلد ومتى اجتمعت هذه الثلاثة للجيش المجاهد فهيهات أن يقف فى سبيله أحد !

حسن، مرقص، كوهين

أبطال مسرحية مضحكة مثلها نجيب الريحاني — (٢٩ ديسمبر سنة ١٩٤٧)

خرج الثلاثة من مسرح رتز ، ثم جلسوا في قهوة من قهوات عماد الدين يعقدون صفقة من صفقات الربا الفاحش ، يطلبها حسن ، ويطبخها مرقص ، ويقدمها كوهين . فلما اتفقوا وذهب حسن يشترى كمبيالة مطبوعة من مكان قريب ، أقبل مرقص السمسار على كوهين المرابي يسأله في خبث :

مرقص : أتدرى لماذا يقترض حسن منك هذه الخمسمائة جنيه ليؤديها إليك بعد عام ستمائة وليس مأزوماً ولا محروماً ولا صاحب مشروع ؟

كوهين : وما فائدتى في أن أدرى ؟ إن غاية ما يعنيني من شؤون زبونى أن أعرف مقدار الفائدة وميعاد الأداء . أما غير ذلك فهو لا يملأ كيساً ولا يعمر خزانة !

م — ربما يعنيك هذه المرة أن تعرف سبب الاقتراض !

ك — هل يريد حسن أن يفتح بهذا المال بنكا للصرافة ؟ أم هل يريد أن يُقرضه زبوناً آخر أقدر ، بفائدة أخرى أكبر ؟

م — لا هذا ولا ذاك

ك — إذن أرحنى من الحديث في شيء لا يُمر ولا يُحلى

م — وإذا كان يريد أن يتبرع بهذا القرض لفلسطين العربية ؟

ك — يالرحمة الرب ! و يالقسوة القدر ! ويالرحم إسرائيل ! أنا . أنا أعين على قومى بمالى ؟ ونظر فرأى حسناً مقبلاً وفى يده الكمبيالة ، فكظم على جرّته،

و بسط ماتغضن من جبهته . ثم قال لحسن وهو يمد يده إليه بالكمبيالة ليملأها :

ك — لقد بدا لى ياحسن بك أن أؤجل عقد الصفقة إلى موعد آخر ا ذلك أدنى أن تنظر فى أمرك وأنظر فى أمرى ؛ فربما وجدتَ أنت لك دائناً أسهل، ووجدتُ أنا لى مديناً أفضل !

فقال له حسن ومخايل الدهش والعجب والامتعاض تختلط على وجهه :

ح — ولكنك درست المسألة منذ أيام وانتهت إلى أننى وفى ملىء . . فما عدا مما بدا ؟

فبادر مرقص إلى الجواب وفى عينيه نظرة توحى ، وعلى شفتيه بسمة تغرى:

م — بلغه مايظهر أنك تقترض عرب فلسطين !

ح — وماذا فى هذا ؟ أليس كوهين مصريًّا مثلى ومثلك ، وطنه مصر ، وقومه المصريون ، وإخوانه العرب ، وحاخامه ناحوم الذى قال : يهود مصر مصريون لاصهيونيون !

ك — نعم ياسيدى ! أنا كوهين بن بنيامين، وطنى الأرض الموعودة، وقومى اليهود ، وإخوانى الصهيونيون ، وحاخامى الحق هو الذى يتلو علىَّ كل صباح قول الرب فى سفر التكوين : (فى ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقاً قائلا: لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات) . وإذا كان لك فى فلسطين المسجد الأقصى ، ولمرقص مهد المسيح ، فإن لى فيها وعد إبراهيم ونسكه ، وهيكل وسليمان وملكه ! ومن قال لك غير هذا من اليهود فقد اتقاك ، والتقية من وصايا الدين والسياسة !

ح — لسنا ندافع عن فلسطين لأن فيها المسجد الأقصى والقريب الأدنى وحسب ، إنما ندافع عنها لأن فيها مع ذلك ، الخطر الذى تصرح به الآية التى

تلوتها من سفر التكوين . . وكان الظن بك يا كوهين ، ومن ثرى مصر هذا الشحم الذى يترجرج عليك ، ومن نيل مصر ذلك الذهب الذى يجرى فى يديك ، أن تنهض لمثل ما أنهض له عن سماحة نفس وطيب خاطر .

لم يستطع ابن يهوذا أن يسمع بقية الحديث ، فترك الكمبيالة على المائدة وقام حردان ، يده إلى مرقص ليصافحه ، وعينه إلى حسن ليقول له ·

إن الدين والجنس والوطن هى الأقانيم اليهودية ، ألفاظها ثلاثة ولكن معناها واحد !

من علامات الساعة!

(١٣ يوليه سنة ١٩٤٨)

من علامات الساعة أن يتشجع اليهودى فيحمل سلاحاً ويشهد حرباً ويحرز نصراً ويحتل مدينة ! !

ومن علامات الساعة أن يخرج اليهودى من البنك إلى الثكنة ، ومن الدكان إلى الميدان ، ليحارب العرب على فلسطين، ويثأر للفرنج من صلاح الدين !

ومن علامات الساعة أن يكون لليهود جيش ينتصر على العرب فى حيفا ، وعلم يرفرف على المسجد فى يافا ، ودولة تريد أن تقوم فى القدس ! !

كذلك من علامات الساعة أن ينهزم العربى أمام اليهودى ولو ظاهرته مادية الأمريكان وخديعة الانجليز وشيوعية الروس ؛ فإن الثعلب يكفيه أن يشم ريح الأسد من بعيد ليجحر ، وإن الفأر يكفيه أن يبصر الهر من فوق الجدار ليسقط ! يالله ماذا نرى ؟ نرى الألوف من نساء العرب وأطفال العرب يخرجون من ديارهم مشردين فى البر والبحر ؛ يلتمسون فى الشام المأوى ، و يطلبون فى مصر الأمن ، وأهلوهم مصرّعون على ثرى الوطن الحبيب السليب بعد أن قذفوا فى صدر العدو آخر رصاصة ، ودفعوا غائلة الجوع بآخر كسرة ، وافتدوا وطن الآباء بآخر رمق !

يالله ماذا نسمع ؟ نسمع أن تل أبيب تحكم يافا ، وأن راية صهيون تخفق على مسجد (حسن بك) ، وأن بنى إسرائيل يذبحون الأبناء ويستحيون النساء فى دير ياسين !

لقد سمعنا أن اليهود يحتلون البلاد بالنساء والذهب ، ولكننا لم نسمع قبل اليوم أنهم يحتلونها بالرجال والحديد !

ماذا جرى حتى استجملت الناقة يايهود؟ وما جرى حتى استنوق الجمل ياعرب؟ جرى أن اليهود يعملون ونحن نقول، ويجدّون ونحن نهزل، ويبذلون ونحن نبخل، ويتعاونون ونحن نتخاذل، ويتكاون ونحن نتوا كل!

للجامعة العربية فى كل شهر مؤتمر، وفى كل أسبوع مجتمع، وفى كل يوم قرار، وفى كل ساعة تصريح، وفى كل دقيقة خطبة؛ وكل أولئك يحمله الهواء إلى المجاهدين المجهودين أصواتاً لا تدفع سيارة، ولا ترفع طائرة، ولا تحشو مدفعاً، ولا تملأ بطناً، ولا تبعث قوة. فإذا جاء يوم العمل نظر بعضهم إلى بعض، فإذا الأول واقف لأن (ترومان) لم يتقدم؛ وإذا الثانى ساكت لأن (بيفن) لم يتكلم. وإذا الثالث مترجح لأن الآخرين لم يستقروا على رأى.

وكنا قبل أن تنشأ (الجامعة العربية) أهواء متشعبة وآراء متضاربة وقوى متفرقة، فكنا نجد عذرنا فى هذا الانقسام، ونعزو فشلنا إلى هذه الفرقة. ونهدد خصمنا بأن فى جمعتنا الخلاص منه، وفى وحدتنا القضاء عليه؛ فلما أذن الله لأوطاننا أن تتصل، ولدولنا أن تتحد، ابتلانا بمحنة فلسطين ليعلم العدو المتربص ما وراء العربى إذا تجمع شمله. وما غناء الإسلام إذا تجدد حبله.

فالجامعة العربية اليوم فى ميزان الأقدار وامتحان الشدائد؛ فإذا رجحت كفتها على اليهودية رجحت فى كل أمة، وإذا ثبت معدنها على المحك فى هذه الأزمة ثبت فى كل أزمة.

إن مستقبلنا رهن بهذه المعركة؛ فاذا كسبناها كسبنا جل ما نبغى، وإذا خسرناها خسرنا كل ما نملك. ذلك لأن اليهود لا يستطيعون أن يقيموا لهم دولة فى فلسطين إلا على عمد من الجبهة الغربية أو الجبهة الشرقية. وأيًّا ما تكن هذه العمد فانها التدمير والتكفير والفوضى إذا كانت شيوعية، وإنها الاستعمار والاستئثار والبلوى إذا كانت رأسمالية.

لله جيش مصر!

(٣١ مايو سنة ١٩٤٨)

إن فلسطين لتشهد وهى ترى جيشنا اليوم على أرضها للمرة الرابعة أنه هو جيش رمسيس الثالث ببأسه ونجدته ، وأنه هو جيش صلاح الدين بإيمانه وشدته ، وأنه هو جيش إبراهيم ببسالته وجرأته ، وأنه هو جيش الإسلام الذى ورد فيه القول المأثور : « إذا فتح الله عليكم بمصر فاتخذوا بها جنداً كثيفاً ، فإن هذا الجند خير أجناد الأرض » . والتاريخ الذى سجل لجيشنا الأصيل النبيل هذه الشهادة المقدسة ، لايزال يسجل تأييدها بما ينقل من مساعيه الصادق ومداعيه الخطيرة حقبة بعد حقبة . والواقع الذى جرى بالأمس ويجرى اليوم ، لايزال يؤيد أن هذا الجند خير أجناد الأرض ، لا لأنه قهر الحجاز ولم تقو على قهره تركيا ، ولا لأنه فتح عكا وقد عجز عن فتحها نابليون بجيش فرنسا ، ولا لأنه سحق الجيش التركى بقيادة (مولتكه) نصيبين ولم تستطع سحقه روسيا ؛ ولكنه خير أجناد الأرض لأنه خرج من أسر انجلترا سليم الروح ، نقى الجوهر ، صليب العود ، شجاع القلب ، شديد الطماح ، بعد خمس وستين سنة قضاها فى قبضة المحتل ، غريباً فى وطنه ، بعيداً عن حصونه ، مجرداً من سلاحه ، تساومه سيطرة الإنجليز على عزته ، وتراوده رخاوة الكسل على حميته ، وتغالبه دعة الفراغ على بطولته . وبأيسر من بعض هذا انكسر بأس الجيش الفرنسى فخر على أقدام الألمان مبذول القيادة ، ضارع الخد ، لايحفزه حافز من ذكرى جان دارك ، ولايحجزه حاجز من مجد نابليون .

كان الشامتون والمتشائمون يقولون إن الاحتلال صير مصر امرأة . لها الزينة والمتاع ، وعلى عشاقها النفقة والدفاع ، حتى زين العبث لبعض الساسة فى الزمن

الأخير أن يزوجها من إنجلترا زواج الأبد لتضمن الكاسب وتأمن الغاصب . وجعل الإنجليز منذ مُنى باحتلالهم وادى النيل يمكنون لهذه الفكرة الخبيثة من نفوس الشعب ، فيزعمون أنهم دخلوا مصر ليحفظوا العرش ، وأنهم احتلوا مصر ليحموا البلاد ، حتى أنسونا ونحن عشرون مليوناً أننا زعزعنا عرش الخلافة ونحن مليونان ونصف ! ثم عملوا لدوام هذه الحال ، فسرحوا الجيش ، وزيفوا التعليم ، وعاثوا فى النفوس ، وعبثوا بالضمائر ، وسلطوا الأهواء على عقول الخاصة ، والأدواء على جسوم العامة ، حتى إذا حسبوا أنهم بلغوا ما أرادوا انتفضت الأمة المقبورة فزال الكفن وذهب العفن وفار الدم الحار وثار التاريخ المجيد ، واستهل وعينا القومى فى حكم سعد ؛ ثم بلغ رشده فى حكم النقراشى . ثم جاءت قضيتنا فى مجلس الأمن فكانت معركة الحق كسبناها بالقلم ، وأعقبتها قضية فلسطين فكانت معركة القوة وسنكسبها بالسيف ، وكان انتصارنا فى هاتين القضيتين دليلا من أدلة الواقع على أن أمتنا بخير :

إن جيشنا بأعماله الباهرة يرحض عنا بالفعل عار الكلام ، ويكشف عنا بالقوة ذل الضعف ، ويفاوض خصمنا فى الميدان على استقلالنا التام . فقدموا أيها الأغنياء العون لمن يبنى لكم المجد ، وابذلوا المال لمن يبذل فى سبيلكم الروح ، ولاتنسوا أننا منذ دخل جيشنا فلسطين بدأنا نعيش .

أدبنا وهذه الحرب

(١٢ يوليو سنة ١٩٤٨)

كان أدباؤنا فى الحرب العالمية الثانية إذا سئلوا : ما بالكم تظلون « محايدين » والعالم من جهاته الست قد أخذته جنة الحرب ونقضته حمى الهلاك ؟ أجابوا : وما لنا وللأمر لا جارّة لنا فيه ، ولا رادّة علينا منه ؟ ليست هذه الحرب لنا فتزهونا العزة ، وليست علينا فتهزنا الحميّة . إنما نحن منها كمن يشاهد من جانب الغاب معركة بين الوحوش ، يصيبه من شظاياها الناب المخلوع أو المخلب المقطوع أو المفصل الطائر ، فلا يعنيه إلا أن يسب الضارب والمضروب ، ويلعن الغالب والمغلوب . وهذا ما نهض به فن المقالة فى ميدان واسع ، وتحرك له فن الشعر فى مجال ضيق .

ذلك ما كانوا يقولونه بالأمس فى حرب الألمان والطليان للإنجليز والأمريكان ، فماذا عسى أن يقولوا اليوم فى قتال العرب لليهود ، وجهاد القرآن للتلمود ، وكفاح الإسلامية للشيوعية ، ونضال الحرية للرأسمالية ؟ أيقولون إن هذا الشعب الكريم الذى يجود بنفسه وماله ، فى سبيل عزته واستقلاله ، ليس شعب الوادى ؟ أم يقولون إن هذا الجيش الباسل الذى قهر العدو ببطولته وإقدامه ، وبهر الصديق بخطته ونظامه ، ليس جيش النيل ؟ أم يقولون إن هذه الحكومة الحرة التى دافعت بشجاعة الحق فى مجلس الأمن ، وهاجمت ببراعة القوة فى ميدان الحرب ، ليست حكومة مصر ؟ أليس فيما يرفع الجباه ويعطر الأفواه مما تسجله الصحف كل يوم لقوادنا وجنودنا وطيارينا ، من مواقف البسالة والشهامة والتضحية والإيثار والنجدة والنبل ، ما يوحى للشاعر الحماسى

بالملحمة ، وللكاتب القصصي بالقصة ؟ أو ليس فيما يزكم الأنوف ويكظم الصدور مما جنته على فلسطين وعلى المسلمين وغادة اشترن[١] ، وخيانة أرجون ، وفسولة الهاجنا ، ونذالة يهود ، ما يفتح للروائي الساخر باب الملهاة ، وللفنان الشاعر باب المأساة ؟ بلى ، إن في العار الذي يكلل رءوس العرب ، وإن في العار الذي يجلل رءوس اليهود ، لمادة ثرة للخيال المبدع ، ومدداً فياضاً للقلم الخالق. ولقد أدت الصحافة حتى الأدب والتاريخ ، وحاولت الإذاعة أن تقضي حاجة العقل والروح ، وأخذ الشعر يجيب داعي الغناء والموسيقى ، فلم يبق إلا الشاعر الطويل النفَس الذي يسجل المفاخر في القصيدة ، والكاتب البارع الذهن الذي يصور المآثر في الرواية وعما قريب يجري في الفلك المصري كوكب عطارد[٢] فينبض اللسان الساكن ويجيش القلب القَرور .

لقد كانت القبيلة تغزو القبيلة ، فيقتل بعض الرجال ، وتُنهب بعض الجمال ، فتثور ثائرة الشعر ، وتقوم قائمة الخطابة ، ويسمع الدهر العجلان فيقف مصغياً للبدوي الجلف ليروي للأجيال المقبلة مناقب قومه ، ويخلد على الآباد المتعاقبة حوادث يومه . فهل نقول إن حرب فلسطين التي احتشدت لها دول العرب السبع أضعف تأثيراً في النفوس من غزوة ، أم هل نقول إن شعراء العروبة اليوم أقل تأثراً بالمجد من السُّليك وعروة .

إن حرب فلسطين ليست كما يقال مبدأ نهضة ومفتتح عصر ؛ إنما هي أشبه بحروب الفتح في عصر الإسلام الأول : كانت نتيجة لتأليف الله بين قلوب العرب فتوحدت اللغة والكلمة والعقيدة والثقافة والخطة والغاية ؛ وكان من وراء أولئك كله سلطان لم يطاوله سلطان ، وعمران لم يماثله عمران ، وأدب لم يعادله أدب .

(١) اشترن وأرجون والهاجنا عصابات يهودية كانت نواة لجيش إسرائيل .
(٢) عطارد في الأساطير إله البلاغة .

مالى لا أكتب؟

(١٣ سبتمبر سنة ١٩٤٨)

يعتب علىّ صديق العباس أنى لا أكتب فى هذه الأيام للرسالة ، ويحتج لعتابه بأن دواعى الكتابة فى ريف المنصورة ، أو فى ظلال (الكافورة) ، أقوى من أن ينهض لها عذر من اعتلال أو اشتغال أو إراحة . وواقع الأمر أنى لم أكن كاليوم أرهف شعوراً بالجمال ، ولا أبلغ تأثراً بالطبيعة ، ولا أشد انطواءً على النفس ؛ ولكن أكثر ما يتمثل فى الخيال ، أو يخطر على البال . سوانح هى بالشعر أشبه وإلى الغناء أقرب . فإذا هم باقتناصها القلم اندلعت من جوانب النفس زفرات وقودها الصهيونيون واللاجئون والحرب والهدنة وترومان وستالين وبرنادوت ومجلس الأمن وهيئة الامم ، فانصرف عن الغناء إلى الرثاء ، وأنتقل من الضحك إلى البكاء ، وأهمّ بتلحين الالم وتوقيع الانين فتنبعث من نواحى العقل أصوات تستنكر وتستنفر وتقول : لقد خطبنا حتى جف الريق وكتبنا حتى نفد المداد ، و بكينا حتى نضب الدمع ، فما الذى أغنى عنا كل أولئك ؟ ألا يزال أرانب اليهود مغرورين يتبجحون بالدولة والجيش ؟ ألا يزال عرب فلسطين مشردين يكابدون ذل الاغتراب وشظف العيش ؟ ألا يزال ترومان الاخرق يجرى على سياسة الهوى والطيش؟ ألا يزال برنادوت الغر يستر عجزه بالمداهنة والفيش[1] ؟ فأصيخ إلى صوت العقل وأقول : بلى كل أولئك لا يزال ، وأتمنى على الله رب العالمين وناصر العرب والمسلمين ، أن يستحيل اللسان فى فمى حساماً يضرب ، والبراع فى يدى سناناً يطعن ، والغضب فى نفسى عاصفة تدمر ، والضعف فى جسدى قوة تُبيد فأنا الآن مترجح بين طرفين كلما ملت إلى أحدهما

(١) الفيش أن تفخر وليس عندك مايستوجب الفخر

جذبني إليه الآخر : أنظر بعيني إلى مفاتن الطبيعة فى ضفاف النهر وحواشى الحقول ومماشي الرياض فأبتهج ، ثم أنظر بقلبي إلى مخازى الناس فى صور النذالة والجور والبؤس بفلسطين فأكتئب ؛ ثم يصيبني العى والخرس لأن ابتهاجى عابر لا يحدث الافترار ، ولأن اكتئابى عاجز لا يبعث غير الدمع .

وإذا حصلت من السلاح على البكا فحشاك رُعت به وخدك تقرع

إن نكبة فلسطين ومحنة العرب قد غطتا على كل حاسة وغلبتا على كل عاطفة . فالفكر فيهما والحديث عنهما ملء القلوب وشغل الألسن . ولكن الكلام هواء ، والبكاء ضعف ، والمنى أباطيل والمهادنة غش ، والمفاوضة عجز ؛ فلم يبق إلا أن نسكت لنعمل ، وندبر لننفذ ، ونتقوى لنسود ، ونتسلح لننجح ، ونقتل لنحيا ، ونظلم لنحترم !

لو كان فى الدنيا حق لما كان لفلسطين قضية . ولو كان فى الناس عدل لما اصطلحت على ظلمنا الشيوعية والرأسمالية . ولو كان فى الأمر اختيار لما تركت سيوفنا من بنى يهوذا بقية !

ألا إن أفدح الخطوب أن يخاصم الاسود القرود ، وإن أقبح الحروب أن يقاتل العرب اليهود !

فلو أنى بليت بهاشمى خؤولته بنو عبد المدان
لهان علىّ ما ألقى ولكن تعالوا فانظروا بمن ابتلانى !

عاهل الجزيرة

(١٤ يناير سنة ١٩٤٦)

من بوادى نجد منبت العَرار والخُزامَى، ومهبّ الصَّبا ومسرى النّعامَى [١] فاحت عطور الإسلام و العروبة من جديد ، وباحت الرمال الصامتة بسرها المكنون منذ بعيد ، وهبّت نفحات الرسول على آل الشيخ [٢] وآل سعود فجددوا مارثّ من حبل الدين ، وجمعوا ما شتّ من شمل العرب . وتهيأت الفرصة مرة أخرى لشريعة الله لترى الناس كيف بسطت ظلال السلام والوئام والأمن على أشد بقاع الأرض ضلالة وجهالة وفتنة . وتجلت فى طويل العمر عبد العزيز فضائل العرب الأصيلة ، فتمثل شاعريتها فى رهافة حسه ، وأريحيتها فى سماحة نفسه ، وحميّتها فى صرامة بأسه . فهو فى دينه النقى الخالص ، وفى خلقه السّرى الصريح ، دليل ناهض على أن الجزيرة العربية لم تعقم من بعدماانجبت أنصار الدعوة وأبطال الفتح . ولا يضيرها أن تتباعد فترات الإنجاب ما دامت تنجب فى القرن الأول ابن الخطاب ، وفى القرن الأخير ابن السعود !

والملك عبد العزيز كالخليفة عمر من المصطفَين الذين صنعهم الله على عينه وأمدهم بسلطانه وعونه ، ليؤيدوا رسالة أو يجددوا دعوة أو يوحدوا أمة . وقد اصطفاه الله من آل سعود ليكشف على يديه ما ادخر فى الأرض المقدسة المجهولة من ثراء وقوة ، وليعود العرب بنعمة الله عليهم وعليه أمة واحدة ذات عزة وسطوة ، والعرب والمسلمون على اختلاف المذاهب وتباين الأجناس وتنائى

---

(١) العرار والخزامى من رياحين نجد ، والصبا تهب فى نجد شرقا . والنعامى تهب جنوباً وهما أبل الرياح وأرطبها .

(٢) الشيخ محمد بن عبد الوهاب إمام الوهابيين .

الديار ، يولون وجوههم كل يوم خمس مرات شطر المملكة السعوديه ، لأنها صلتهم بالسماء ، ورابطتهم فى الأرض ، ومنارتهم فى الحياة !

وابن السعود هو ملك الوطن المشترك ، وإمام القبلة الجامعة ، لذلك أوتى محابّ القلوب(١) وطواعية النفوس ، فله فى صدر كل عربى مكانة ، وفى عنق كل مسلم ذمة !

وقد كان استقباله فى مصر يوم الخميس العاشر من شهر يناير سنة ١٩٤٦ تعبيراً شعبياً قوياً عن هذه المعانى التى تجول فى كل خاطر وتتمثل فى كل ذهن كان استقبالا رائعاً لم تشهد الكنانة مثله لزعيم أو فاتح ؛ لأن العواطف التى حشدت هذه الألوف المؤلفة فى طريق الموكب الملكى على أطورة الشوارع وطنوف العمائر(٢) ، وفى أفواه الأزقة ونوافذ البيوت ، كانت شيئاً آخر غير الفضول الذى يسوق الناس فى مثل هذا اليوم ليشهدوا ضخامة الحشد وفخامة الجند وروعة السلطان ؛ إنما كان استقبالا روحياً طبيعياً فيه الحب والإعجاب ، وفيه التجلة والقداسة ، وفيه معنى أسمى من كل أولئك وهو شعور كل مصرى بأنه يستقبل فرعاً من أصله ، وعزيزاً من أهله .

فعلى الرحب والسعة يا مجدد التوحيد والوحدة ومقيم ملكه الأشم على الحمّية والنجدة !

وعلى الرحب والسعة يا حامى الحرمين ، وثمال القريتين(٣) ، وباعث الجزيرة الهامدة إلى عصر جديد سعيد يقوم أمر الله على سيف على ؛ ومصحف عثمان ، ودرة عمر(٤) وعزيمة الصدّيق .

---

(١) أوتى فلان محاب القلوب : أى ما يحببه إليها .

(٢) الأطورة جمع طوار وهو إفريز الطريق « تروتوار » والطنوف جمع طنف وهو « البلكون » .

(٣) الثمال : الغياث الذى يقوم بأمر قومه . والقريتان : مكة والمدينة .

(٤) الدرة : عصا عمر .

أحمد حسنين

١٨٨٩ — ١٩٤٦

(٢٥ فبراير ١٩٤٦)

مات صاحب المقام الرفيع والخلق الرفيع والأدب الرفيع أحمد باشا حسنين في غير الميادين التي تحدى فيها الموت !

تحداه في الصحراء المجهل حين رحل ، وفي السماء المرعدة حين طار ، وفي الداء المقام حين مرض ، فخنس عن تحديه ؛ ثم اختلسه اختلاسا في حادث من حوادث القدر على غفلة من إرادته وحيويته ! ولو كان الموت خليقا للحياة لأمهل الفقيد حتى يتم عمله الذي تهيأ له بخير الفضائل والوسائل من تربيته وخلقه وثقافته وتجربته ، ولكن أجل الله إذا جاء لا يؤخر !

كان أحمد حسنين — سقى الله بصيب الرحمة ثراه — مزيجا حلواً من طبيعتين كريمتين : صوفية مؤمنة ، وعسكرية مغامرة . أخذ الأولى عن أبيه وكان من علماء الدين في الأزهر ، وورث الأخرى عن جده وكان من أمراء البحر في الأسطول . أما أثر البيئة الأزهرية فيه، فخلوص العقيدة وبلاغة الأسلوب واستقامة الطريقة . وأما فضل الوراثة العسكرية عليه، فحبه للنظام، وولعه بالرياضة، وميله إلى المخاطرة . ثم تخرج في جامعة أكسفورد فوجدت هاتان الطبيعتان في البيئة الإنجليزية والثقافة السكسونية الغذاء الناجع والجو الصالح ، فنمتا أعظم النمو ، وأثمرتا أكرم الثمر . والخلق الإنجليزي الأصيل قائم على جوهر هاتين الطبيعتين وفي هذا سر نجاحه .

كان الفقيد الكريم رياضي الروح والعقل والجسم ؛ فمن رياضة روحه نبالة

نفسه ، ومن رياضة عقله سلامة تفكيره ، ومن رياضة جسمه شجاعة قلبه. وهذه الصفات هي التي تندر في أكثر الناس ، وتعسر على قادة الشرق . لذلك كان فقد أمثاله رزءاً لا يحتمل وخسارة لا تعوض .

وكان من خواص الأدباء وبلغاء الكتاب . وكتابه (صحراء ليبيا) وآثاره في منشآت (القصر) تتسم بسمة الفكر الناضج والذوق السليم والفن العالي . والبلاغة ظاهرة من ظواهر القوة ، وأدب اللسان مظهر لأدب النفس .

وكان من حملة العرش الأقوياء الأوفياء المخلصين . آثر التاج بحبه ، وآزره بقلبه ، وأحسن السفارة بينه وبين شعبه . ومن اعتدال الزمان وإقبال الأمور أن تكون بطانات الملوك من هذا الطراز : رأس مفكر ، ولسان عف ، ويد طاهرة ، وقلب مؤمن .

ومما يُطمئن القلب على سلامة الفطرة في هذه الأمة أنها أجمعت على حب هذا الرجل ، فكأنها تحب الفاضل لذاته ، وتكره أن يدخل الهوى في تقدير حسناته .

إن الشعب الفقير في الرجال خليق بأن يطول حزنه على فقد رجل . وإن المصاب في أمثال أحمد حسنين مصاب في الكيف لا في الكم ، وفي الجوهر لا في العرض ، وفي الرعاية لا في القطيع .

تغمده الله برحمته ، وأجزل له ثواب المتقين في جنته ، وأخلف بالخير على أسرته وأمته .

يوم عظيم لسورية العظيمة

(٢٢ ابريل سنة ١٩٤٦)

يوم عظيم لسورية العظيمة ! ذلك يوم الجلاء ! أشرق عليها بعد ليلٍ طويل بالألم ، مظلم باليأس ، مرعد بالهول ! كابدت فى أوائله مشانق (جمال) ، وفى أنصافه مدافع (غورو) ، وفى أواخره قواذف (أليفا روجيه) !

ثم خفقت أشباح الشهداء بيضا على حواشيه ، ولمعت بروق الآمال تباعاً بين غواشيه ، فانصدع الظلام المكفهر ، واستبان الطريق المبهم ، واستطاع المجاهدون الجاهدون أن يسمعوا على مآذن الجامع الأموى : حىّ على الفلاح ، وأن يبصروا تباشير الفوز على غرة الصباح !

وفى الصباح المسفر حمدت سورية الحبيبة سُراها الطويل المرهق ، فضمدت جروحها الدامية ، وكحّلت جفونها القريحة ، ثم ذهبت إلى (المزة فركلت آخر جندى من جنود الاستعمار ورفعت فوق مطارها العلم ، ورجعت إلى (الغوطة) فحملت ورودها الجنّية إلى قبور الشهداء وعزفت أمامها النشيد . ثم خرجت فى زينتها وبهجتها تستقبل وفود الدولة العربية التى جاءت تشاركها السرور فى يوم حريتها المشهود وعيد استقلالها المشترك . ثم أطلقت لنفسها المحتشمة عنان الفرح والمرح ، فصدحت شوارعها بالأهازيج ، وهتفت منازلها بالأغانى ، ودوّت مساجدها بالأدعية ، وفاض النور والحبور على دمشق وأخواتها ، فجلون عن أنفسهن فى يوم واحد ما ركمته المحن والأحداث فى قرون !

حيّاك الله يا سورية ! لولا ليلك الطويل الحالك ما أسفر لك هذا النهار الضاحك . ولولا جهادك الصادق الصابر طيلة ربع قرن ما أتم عليك الله هذا النصر

المؤزَّر ! ولولا دماؤك المفسوحة على ثرى وطنك الغالى ماجنيت هذه الثمرة التى تتحلب لها الأفواه فى أكثر الدول ؛ ولكنك ياسورية خرجت من جهاد الطمع والعدوان فى غيرك ، إلى جهاد الهوى والأثرة فى نفسك ! والانتصار على العدو الخارجى سهل كالانتصار على الداء الظاهر ؛ ولكن الانتصار على العدو الداخل صعب كالانتصار على الداء المضمر . والمجاهدون فى سبيل الوطن لايبتغون عاجل الثواب ؛ فإذا سول لهم الشيطان أن يبتغوه وكلهم الله لأنفسهم فيخسرون ماربحوا ، ويفسدون ما أصلحوا ، ويسلبهم الله مجد الجهاد فلا ينالون سعادة هنا ولا شهادة هناك !

ما أزهى نفوسنا بجلاء المحتل عنك ياسورية ! وما أبهج قلوبنا بكشف الضر عنك يادمشق . فهل آن لأكدار النيل أن تصفوا يابرَدَى ، ولعار « التل الكبير »[1] أن يغسل ياميسلون ؟ !

(١) موقعة التل الكبير كانت بين المصريين والإنجليز وانتهت بالاحتلال لمصر ، وميسلون موقعة كانت بين السوريين والفرنسيين وانتهت بعد جهاد طويل إلى جلاء الفرنسيين عن سورية

مثل الشيخ ...

مثل الشيخ كمثل الزرع إذا آتى ثمره ثم هاج[1] واصفر وأوشك أن يكون حطاما لا يهتم بأصوله فى الثرى لأنها عجزت عن امتصاص الغذاء فحسبه منها أن تتماسك ؟ وإنما يهتم بسيقانه وأوراقه ، يخشى عليها نفحة البرد ولفحة الحر وهبّة الريح ؟ وكلما تغير وجه السماء ، أو اشتدت سرعة الهواء ، ارتاع وانكمش وتوقع النهاية . فإذا صحا الجو وسرى النسيم الفاتر يداعب الأغصان اللدن والأوراق الغضة ، تبلد من الهمود فلا يحس نشاطا لدعابة ولا اغتباطا بمتعة !

وهكذا الشيخ ! تذويه السنون وتضويه العلل فتيبس أسافله وتجف أعاليه ، فيعيش بالاجترار أكثر مما يعيش بالأكل ؛ ويتجه إلى الوراء ليتذكر ولا يتجه إلى الأمام ليأمل ، ويحفل باله لأخبار المرضى والموت والداء ، أكثر مما يحفله لأخبار الرياضة والولادة والغذاء .

فإذا سمع بمرض صديق سأل مامرضه ؟ ومن طبيبه ؟ وما أسباب هذ المرض؟ أعنده ارتفاع فى الضغط ، أم ازدياد فى السكر ، أم تصلب فى الشرايين ، أم ضعف فى القلب ، أم اضطراب فى الغدد ؟

وإذا قرأ فى الصحف نعى رجل سأل بأى علة مات ؟ وكم سنة عاش ؟ فإذا كان من طوال العمر سأل بماذا طال عمره ؟ أكان يتبع فى الطعام نظاماً خاصاً، أم كان يسلك فى الحياة خطة معينة ؟

وإذا كان من قصاره سأل لماذا قصر عمره ؟ هل كان يفرط على نفسه فى الطعام أو فى الشراب أو فى التدخين ؟ أم هل كان يسرف على جسمه فى العمل أو فى الفكر أو فى الهم ؟

---

(١) هاج الزرع : يبس .

وإذا وقع على مجلة فى الطب أو مقالة فى العلاج أو إعلان عن دواء، تلمس فى كل أولئك مايعيد الصحة أو يؤخر الشيخوخة أو يطيل الأجل . وإذا جلس شيخ إلى شيخ لا يسأل أحدهما الآخر عن شدة الغلاء ، ولا عن أزمة الجلاء ولا عن قضية الجيش[1] ؛ إنما يسأله عن مقدار سنه ، ونوع أكله ، وساعات نومه ؛ وعن الطبيب الذى يعالجه ، والدواء الذى يفضله ، والنظام الذى يتبعه وإذا رجا الناس من العلم أن يكشف عن أسرار المادة ويهيمن على قوى الطبيعه ، ليهبط بالفردوس إلى الأرض ، ويفيض من السعادة على العالم ، رجا الشيخ منه أن يدرس كل مادة ، ويخبر كل قوة ، ويسبر كل غور ، ليستخرج من المنابع الخفية والمناجم المجهولة العقّار الذى يرجع الشباب ، والإكسير الذى يطيل الحياة !

وإذا الشيخ رأى الشباب الريان يمرح فى الطريق ، والجمال الفتان يخطر فى النَّدى ، انصرف ذهنه عن الوسامة والقسامة والفتنة واللذة ، إلى العضلات القوية ، والحركات الخفيفة ، والأعصاب المتينة ، والشرايين المرنة ، والنفوس المفتوحة ، فيتحسر على ماض لا يعود ، ويتأوه من حاضر لا يبقى !

وإذا الشيخ قال أف فما مل حياة وإنما الضعف ملا
آلة العيش صحة وشباب فإذا وليا عن المرأ ولى

---

(١) شدة الغلاء فى مواد العيش ، وأزمة جلاء الانجليز عن القنال ، وقضية الجيش وماحدث فى تسليحه من خيانة ، كانت حديث الناس حين كتبت هذه الكلمة .

صديقي توفيق الحكيم

(٢٠ مايو سنة ١٩٤٨)

مهما يكن من حرصي على ألا أدخل في حديث يدور لي أو علي ، فإني لا أجيز لنفسي بعد ما قرأت في (أخبار اليوم) تحيتك الكريمة أن أدعها تمر دون أن أتقبلها بالغبطة وأردها مع الشكر .

تفضلت فرشحتني لكرسي شوقي في كلية الآداب من جامعة فؤاد ؛ وأيدت ترشيحك بحسن ظنك بي وجميل رأيك في . وليس الترشيح في ذاته هو الذي هيأ نفسي للكلام وحرك يدي بالكتابة ، فإنك تعلم من نفسك ومن تجاربك أن الترشيح لمثل هذه المناصب تتنازعه عوامل مختلفة من هوى السياسة ورضا الحكم . والمعروف أنهم ينظرون في المنصب إلى المال والمجد ومن لهما يستحق ، ولا ينظرون فيه إلى الفضل والكفاية ومن بهما يتصف . وإني أعلم من نفسي ومن طبعي أنني لا أقبل هذا الكرسي وإن ذللت عقابه[1] وسهلت صعابه ؛ لأني أن أظل بقية حياتي كما كنت جندياً متطوعاً في القوة الخفيفة من قوى الأدب العربي أرود وأنتجع وأكتشف من غير نظام أتبعه ولا قائد أطيعه ولا جزاء أبتغيه ... ولقد عرض علي في العام الماضي عميد كلية الآداب السابق أن أكون أستاذاً زائراً في الكلية ، فقلت له والأسى يهدّج صوتي ويقطع كلامي ، شكراً يا صديقي وعذراً ! لقد تقدمت السن وتأخرت الصحة ، وأوشك الماخر في عباب الحياة أن يبلغ الساحل ! وماذا تبتغي من عامل مكدود أدرك سن المعاش ، أو من فرس مجهود قارب نهاية الشوط ؟ إن من حق ذلك أن يستريح ومن حق هذا أن يستجم ، وما على الجواد من بأس إذا أخطأه الرهان بعد أن جرى .

---

(١) العقاب جمع عقبة وهي المرتقى الصعب من الجبال .

ملء فروجه[1] وبذل غاية جهده حتى بلغ ما بلغ من غير صوت يحث ولا حقنة تثير ولا حيلة تساعد . ولكن صديقى ألح فى العرض وألححت فى الرفض ووقف الأمر بينى وبينه عند ذلك .

فالموضوع إذن يا صديقى أهون على من قطرة المداد التى تسيل بالحديث عنه ، وإنما هيأه نفسى للكلام وحرك يدى بالكتابة تلك الروح الطيبة التى أملت عليك ما كتبت ؛ فإن كلمة الخير من أديب فى أديب ، أو شهادة الحق من عالم فى عالم يسجلها تاريخ الأدب إلا فى باب النوادر ! ولعلك تذكر أننا نشا كينا مرة داء الضرائر بين الأدباء فقلت لك : لا أدرى لماذا يظن الكاتب أو الشاعر أو الفنان أن الأرض لا تتسع إلا له ، وأن الناس لا يقبلون إلا منه ، وهو يعلم علم اليقين أن الأدب ألوان وطعوم ، وأن الذوق أشتات ودرجات ، وأن مثل الأدباء والفنانين فى العصر الواحد والبلد الواحد كمثل الجوقة الموسيقية تؤلف بأصواتها المتنوعة وصورها المتعددة لحناً واحداً يطرب النفوس المختلفة ، ويرضى الأذواق المتباينة ، ونجد مع هذه الوحدة وذلك الانسجام لكل عازف مكاناً ، ولكل صوت آذاناً ، ولكل قطعة فناً ، فلا تغنى آلة عن آلة ، ولا يجزى صوت عن صوت .

وإنى لأذكر أنك صوبت هذا الكلام وزدت عليه أن رجال الأدب والفن هم صفوة الناس فى سمو النفس والحس ، فلا ينبغى أن يجوز عليهم ما يجوز على غيرهم من أوزار الغيرة وأضرار الحسد ، وأنهم باتحادهم وتوادهم أحرياء أن يخففوا عن نفوسهم بعض ما يكابدون من عامية الخاصة وأمية العامة ومادية الحكومة .

والحمد لله والشكر لك ؟ لقد رأيتك تعنى ما تقول وتريد ما تعنى ، وتفعل ما تريد .

---

(١) فروج الدابة ما بين قوائمها . وجرى الفرس ملء فروجه إذا عدا عدواً شديداً .

فكاهة لها مغزى

(أول نوفمبر سنة ١٩٤٨)

لا أدرى ما الذى أخطر ببالى فى هذه الأيام هذه الواقعة المضحكة وقد مضى على وقوعها ثلاثون سنة دون أن تجرى على لسانى أو تدور بخاطرى ؟ اسمعها أولا ثم حاول بعد ذلك أن تعلل ورودها على ذهنى بما تشاء[١] :

كان ببلدنا الشيخ عبد الجبار خادم المسجد شموس الطبع طائش الحلم ، يده أسرع من لسانه ، ولسانه أطوع من عقله ؛ ولكنه كان كسائر النزقين أبيض القلب سليم الصدر ، لا تبطىء ريحه أن تسكن[٢] ، ولا تلبث أناته[٣] أن تعود . ذهب ذات يوم إلى المنصورة يقبض مرتبه من مأمورية الأوقاف ، ويمتار[٤] لعياله من سوق المدينة . فلما كان عائداً إلى القرية ، فوقه مظلته العتيقة ، وتحته جحشته الريِّضة ، قابله فى مضيق الطريق حماران يسيران متوازيين وعليهما سماد الزبل والسِّرجين ، فاقتحم العقبة من بينهما فصدم خُرْجُه الأبجر أحد الحمارين فأزال عن ظهره الغبيط . فاستشاط سائق الحمار وقال للشيخ فى ثورة غضبه : لا عجب ولا ملامة ! خُرْج فوق خُرج ! فوقف عبد الجبار دابته وصعّر خده وقال للمتهكم الغضبان بلهجة التحدى ! ولِمَ لا تقول حمارٌ وراء حمار ؟ فأجابه الفلاح وقد تنمر له وهمَّ به : مخطىء وتسقه ! ثم جذبه من ذراعه بقوة فسقط فى حفرة ، فبرك فوقه وأعانه شاب آخر وانهالا عليه طحناً بالصدر وعجْناً بالأيدى ، والمسكين تحتهما ملقى على ظهره ، يضرب الهواء برجليه ، ويحاول أن يدفع اللكم بيديه :

---

(١) كتبت هذه الكلمة أيام تخلت جيوش العرب عن جيش مصر فى حرب فلسطين وتركته وحده فى الميدان . (٢) سكنت ريحه : هدأ غضبه . (٣) الأناة : الحلم . (٤) يمتار : يجلب لعياله الميرة (الطعام) .

ولكنه كان أشبه بالسلحفاة المقلوبة ، تحرك أطرافها ولا تتحرك ، وتقلب رأسها ولا تقوم ، حتى شاء الله الذى يؤخر النفس إذا لم يجىء أجلها أن يمرّ به فى هذه اللحظة الشيخ عبد الرحمن ، أخوه فى القرآن ، وزميله فى الحرفة ، وجاره فى الحارة . فلم يكد يراه على هذه الحال حتى ترّجل وانقض على الرجلين انقضاض النسر ، فأزاح هذا بيمناه وذاك بيسراه ، ثم أعمل فيهما يديه جميعاً . ورأى الشيخ عبد الجبار صدره خفيفاً فنهض كأنما نشط من عقال وأسرع إلى حمارته فوثب عليها ، وانطلق دون أن ينفض التراب عن ثوبه ، ودون أن يقول للشابين بارك الله فيكما ، وللشيخ عبد الرحمن السلام عليكم . . . وشفى غليله من الأتان فأنحى سبًّا باللسان وضرباً بالعصا وطعناً بالمنخاس ولكزاً بالفخذين حتى بلغ الدار ، وصك رأسه الجدار .

وفى المساء أقبل الشيخ عبد الرحمن وعلى إهابه وجلبابه آثار المعركة فجمع له الناس وقال يا شيخ عبد الجبار ! كيف أنصرك وتخذلنى ، وأُحْيِيك وتقلتنى ، وأرفع عنك العبء فتلقيه علىّ ، وأنقذك من الرجلين فتتركهما إلىّ ؟!

فأجابه فى خليط من الخزى والبلادة والمكابرة : كان بينى وبين فلان موعد فى صلاة العصر . ومعاذ الله أن أخيس بوعد أو أحنث فى يمين !

فقال له أمرك يا مولانا عجيب ! تحافظ على وعد وتفرط فى روح ، وتنظر إلى مصلحة وتغضى عن كرامة !

فقال له الشيخ عبد الجبار ، وقد غلى دمه وهو لا يغلى إلا فى السِّلم : سبحان الله يا أخى ! لماذا هذا التجهم ، وتعنفنى هذا التعنيف ؟ من قال لك أنزل ؟ هل كنت مغلوباً فانتصرت لى ، أو مكروبا ففرجت عنى ، أو ضعيفاً فأشفقت علىّ ؟ وهب الأمر كان كذلك ، فهل بعد خُرجى مأرب ، أو بعد حمارتى مركب ، أو بعد روحى حياة ؟ !

مثل المهذبين من بني آدم

(٢٩ نوفبر سنة ١٩٤٨)

عندنا فى دارنا الريفية عصبة من كلاب الحراسة مختلفة الأسنان الألوان والجنس تعيش فى حال مدنية عجيبة . فى الليل تتعاون على النباح وتتساعد فى الهجوم ، فإذا نبح أحدها سواد إنسان أو ريح ذئب استنبحها جميعاً واستعداها جميعاً ، لا تسأله ماذا نبح ولا لماذا عدا . وفى النهار تربض متقابلة فى ظلال الشجر ، أو ترقد متجاورة على قش الرز ، تتهارش حيناً وتتفلى حيناً ، والصغير يعمد إلى الكبير فيعضه وهو هادىء مستسلم ، والضعيف يجرؤ على القوى فيركبه وهو وادع مستكين .

ثم هذبناها فتهذبت ، ودربناها على النظام فتدربت : وأتى فى روعها أن تأخذ بطرف من مدنية الكلاب الأوربية فأحسنت لثم الفم ، وأتقنت ملق العين ، وأجادت بصبصة الذيل . ثم أسرفت فى الرقة وأغرقت فى الظرف حتى ليكاد كل كلب منها أن يقول : ضعوا على رأسى القبعة !

تلك حال كلابنا مادامت خارجة من سلطان البطن عاليه وسافله ، فإذا قدم إليها الكلاب وجبة الغذاء ، أو عثر أحدهما على عظمة فى حواشى الفناء ، انقلب التراحم قسوة ، والتعاطف جفوة ، والتهارش حرباً ، والتفلية عضاً ، والمدنية وحشية ، والإيثار أنانية . فالأم تنكر ولدها ، والأخ لا يعرف أخاه والطعام الوافر المختص والمشترك تتنازعه المخالب الحداد والأنياب العصل ، فيخرج الخطف

من فم إلى فم ، و ينتقل باللقف من يد إلى يد ؛ والكلاب الضعاف والجراء الصغار يقفن منكمشات على بعد ، يسألن بالحق و يتوسلن بالقرابة فلا يرين إلا النظر الشزر ، ولا يسمعن إلا الزئير المهدد ؛ حتى إذا غاب الطعام فى الأجواف ، ولعقت الألسن آثاره على الخراطيم ، أشبلت الأم على ولدها وأقبل الذكر على أنثاه ، وعطف الأخ على أخيه ، وعادت إلى الكلاب حياتها المدنية من مرح الهراش وحنان التفلية وألفة النباح ! !

ذكرت بهذه العصبة عُصباً أخرى فى (ليك سا كس) وفى (قصر شايو) تلبس الفراك[1] ، وتحذق المواضعات[2] ، وتحفظ الرسوم ، وتفتنّ فى الظرف وتبالغ فى المجاملة ، فإذا لمس أحدهم ثوب الآخر عن غير قصد اعتذر ، أو لفظ جملة من غير ابتسام تأسف ! يقضون أيامهم فى التشاور الرقيق ، ويمضون لياليهم فى التزاور البهيج ! و يأدب بعضهم لبعض المآدب الفخمة ؛ يتساقون فيها الوسكى على نُقل[3] (الكافيار) ؛ و يتناوبون الرقص على نغم (الجاز) ، و يتبادلون باللسان المعسول ألفاظ السلام والأمن والعدل والإنسانية والحرية والديمقراطية والعهود والمواثيق . حتى إذا جلسوا إلى مائدة السياسة ، وقُدم إليهم الطعام العربى المرىء ، والشراب الشرقى الهنىء ، تحلبت الأشداق ، واحمرت الأحداق ، وانقلبت حُلل الفراك جلود نمور ، وتحولت الأصابع فى القفافيز مخالب صقور ، ووقف المتسلحون بالحق والمنطق على بُعد من المائدة ينظرون بالأعين العَبرَى

---

(١) الفراك حلة أفرنجية تلبس فى الحفلات الرسمية .

(٢) المواضعات : الإتيكيت ، والرسوم : البروتوكول .

(٣) النقل : ما يتنقل به على الشراب (المزة) .

إلى مالهم المنهوب وتراثهم المغصوب ولا يملكون إلا أن يحتجوا راغمين ، ثم يقولوا نادمين : ياويلتنا ! ما لسيف الحق لا يقطع ، وما لبرهان المنطق لا يفيد ؟

ياقوم ، لقد قلنا لكم : إن القوة هي الحق وما سواها باطل ؛ وإن ابن آدم على الرغم من دينه وعلمه ومدنيته لا يزال عبد العصا وصنيعة الدينار . فمن شاء أن يعيش مرهوب الجانب محفوظ الحق فليدَع سماحة موسى وبلاغة هارون ، وليتخذ قوة شمشون وغنى قارون !

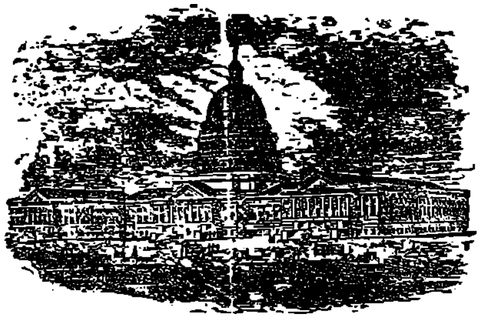

النقراشي الفقيد الشهيد

(١٠ يناير سنة ١٩٤٨)

من الخطوب ما يدهم المرء فيصيبه بجمود في الحس وخمود في الذهن فلا يشعر ولا يفكر : ومن الأهوال ما يفجأ الآمن فيرميه بالدهش والتلدد فلا يقدم ولا يؤخر . وتلك كانت حالي حين أقبل عليّ صديق يقول وهو يقلب كفيه ، ولا يملك مسارب عينيه : قتل النقراشي الساعة برصاص أخ مسلم ! فبرق بصري لما قال وأقمت شاخصاً لا أطرف ، ذاهلا لا أعي ! وتسامع الناس بالخبر المشئوم ، فاعتقلت ألسن ، وأخضلت أعين ، ولهفت قلوب ، وظل أكثر السامعين بين مصدق ومكذب ، حتى أسند الخبر إلى مدير الدقهلية ، فاستيقنوا جميعاً وقوع الكارثة التي طالما تمناها اليهود لمصر ، وابتغاها اليهود للعرب . وتجمع أهل المنصورة زمراً في القهوات والطرق والحوانيت يطيلون في الثناء على الصريع العظيم ، ويستعينون بالعزاء على الخطب الجسيم ، ويحاولون أن يعللوا هذا الجرم الفظيع فلا يجدون باعثاً عليه لا من واقع الأمر ، ولا من عمل الرجل ، ولا من مصلحة الوطن ، ولا من سياسة الدين !

وثاب إليّ وعيي بعد ذهول المفاجأة فشعرت بصدري يضطرم ، وبصبري يرفضّ ، وبدمعي ينهلّ ، وبخاطري يتمثل النقراشي الصديق وهو يزورني معزياً في وفاة ولدي ؛ ويتمثل النقراشي المجاهد وأنا أزوره مستضيئاً برأيه

فى مشكلات بلدى ، ويتمثل النقراشى الوزير وهو يغلب عقله على هواه ، ويؤثر رضا الله على رضاه ، ويضحى بالصداقة فى سبيل العدل ، وبالحزبية فى سبيل الوطن ؛ ويتمثل النقراشى الرئيس وهو ينهج فى سياسته نهج الصدِّيق ، ويسمت فى حكمه سمت الفاروق ، فيحدد مطالبنا المبهمة ، ويسدد عزائمنا الموهونة ، وينشر فضائلنا المطوية ، وينعش آمالنا الذاوية ، ويحرر أعناقنا المغلولة ، ويطلق أيادينا المقيدة . ويرفع رءوسنا المطأطأة ؛ ثم يقف فى مجلس الأمن على ملأ من الأمم ومسمع من العالم ، يقرع انجلترا بالحق فتفحم ، ويلوى عنقها بالحجة فتكابر . ثم يسيِّر جيشنا الأصيل الحر إلى إنقاذ فلسطين وينفخ فيه من روح إبراهيم فيصنع المعجزة ويدنى المستحيل على قلة عدده ونقص عدده !

نعم . تمثل خاطرى النقراشى فى هذه الأحوال وفى هذه الأعمال ، ثم تمثل فى الوقت نفسه هذا الإنسان العامل ، الشريف العفيف ، المؤمن المخلص ، الشجاع الحازم ، صريعاً بالنار كلص أرداه الشُّرطَ ، ملطخاً بالدم كخائن رماه الجنود ! فأسائل نفسى كما يسائل كل مصرى نفسه . لماذا قُتل محمود فهمى النقراشى ؟ ألأنه اشترى دنياه بدينه ، أم لأنه مالأ عدوه على وطنه ، أم لأنه اتبع هواه فى حكمه ! أم لأنه ضن بجهده ونفسه على خدمة أمته ؟ أم لأنه استغل السلطان فاقتنى النضار والعقار على حساب ذمته ؟ !

لا تستطيع النفس العاقلة أن تجيب صاحبها عن هذه الأسئلة إلا بالنفى ، لا فرق فى ذلك بين حزب وحزب ، ولا بين جنس وجنس ، ولا بين عدو وصديق فلا يبقى إلا أن نرجع إلى تاريخ الشهداء الدامى فنسأل العقل المأفون ، والجهل المفتون ، والدين المزيف ، والطبع الشرير ، والقدر الأعمى : بأى ذنب طعن عمر ، واغتيل غاندى ، وصرع أحمد ماهر ، وقتل النقراشى ؟ !

أربعة شهداء لا أجد لهم فى تاريخ الشرق خامساً فى عظمة النفس ، ونقاء الضمير ، ووفاء الذمة ، وطهارة اليد ، وصدق العهد ، وشرف المسعى ، ونبل الغاية . وإن مصارعهم الأليمة ستظل وصمة فى جبين الدهر ، ولعنة فى تاريخ الإنسان ! !

هذه كلمة اليوم ، وإنها لقطرة دم من فؤاد ينزف أسى على مقتل النقراشى، ستتبعها قطرات ! وللنقراشى فى ذمة كل مصرى ديون ، فهو حرى أن تذرف عليه قطرات القلوب لا عبرات العيون !

حج غير مبرور

(١٧ يناير سنة ١٩٤٩)

رد جلسائى التحية إلى رجل ألقاها عليهم وهو يدخل القهوة فى زى أنيق ورؤاه[1] حسن ؛ ثم أتبعوه النظر حتى جلس فى جماعة من ذوى الهيئات قابلوه بنشاط وصافحوه بقوة ؛ ثم عادوا بأبصارهم وأفكارهم إلى تشقيق الحديث، فقال أحدهم لجاره : أشهدت الحفلة التى أقامها بعد عودته من الحج فى الأسبوع الماضى لمستقبليه ومهنئيه ؟ فأجابه جاره : أوه ! نعم شهدتها . ولقد بلغت هذا العام من ضخامة المادة وفخامة المظهر مبلغاً صغر سوابقها فى أعين الناس على كثرة ما كان يجمع لها و ينفق فيها !

فقال جارى : إن العجيب من أمر هذا الرجل أنه يحرص كل الحرص على أداء الحج فى كل سنة ، وهو لا يقيم الصلاة ، ولا يؤتى الزكاة ، ولا يصوم رمضان ولا يكاد يتشهد ؛ فكيف يقوم دينه على ركن واحد والإسلام كما نعلم إنما يقوم على خمسة أركان ، وكلما تهدم منها ركن تقوض من بنيته بناء ؟ فرد عليه شيخ مستنير الفكر بأنه اغتر على ما يظهر بقول المتزيدين من جهلة الشيوخ : إن الحج وحده يمحص الذنوب ويمحو الخطايا حتى ليذهب الرجل إلى مكة وهو موقر النفس بالجرائر ، مثقل الضمير بالكبائر ، فيعود منها وهو نقى الصحيفة كيوم ولدته أمه . و إن كثيراً من مطففى الكيل وقطاع الطرق وروّاد الفحش يبسطون لأنفسهم العنان فى المنكر اتكالا على حجة يغتسلون بها فيعودون بزعمهم أبراراً كالأطفال وأطهاراً كالملائكة ! ولكن الأعجب فى أمر هذا الحاج أنه تاجر وليس له متجر نراه ، وغنى وليس له مورد نعرفه .

(١) الرؤاه : المنظر .

يقضى عامة من الحجة إلى الحجة وهو فارغ البال من هموم العيش ، مستريح البدن من مؤونة العمل ، يتنقل بالنهار فى المدن وبين الناس ، ويتقلب بالليل فى المواخير وبين الندامى ، حتى إذا اقترب ميقات الحج ، وهفت النفوس المؤمنة إلى مشرق الدين ومهبط الوحى ، فطم نفسه عن رضاع الكأس ، وأصم أذنه عن نداء المنكر ، وأخذ يعد الجواز والجهاز لأداء هذه الفريضة . وقد لاحظ مخالطوه أن موسم الفيضان فى رزقه يبدأ بعد رجوعه من الحجاز ، فيبسط أنامله العشر بأوراق النقد ، يولم بها الولائم ، ويقدم منها الهدايا ، ويدرك عليها اللذائذ ! والمعروف أن الزكاة هى التى تبارك المال وتنميه لا الحج ، وأن العمل هو الذى يجلب الرزق ويبقيه لا التبطل ، ولكن هذا الرجل لغز لا يحل ، وسر لا يدرك ، فابتسم أحد الحضور وقال : وماذا عندك لى إذا كشفت المخبوء وشرحت الغامض ؟ فقال له الشيخ : ثمن القهوة وأزيدك طلباً آخر . فقال الرجل إن حال الحاج إبراهيم كحال كثير من خاصة الحجاج ، يذهبون إلى مكة محرمين ، ويعودون منها مجرمين ! ألم تلاحظ وأنت من جيرة هذا الحاج أنه يجلب من الحجاز مقادير كبيرة من التمر والحلوى على خلاف ما جرت به العادة ؟ قال الشيخ : بلى ، وما السر فى ذلك ؟ قال : السر أنك إذا شققت ثمرة من يابس التمر ، أو فتحت علبة من علب الحلوى ، وجدت فيها الكنز الذى ينفق منه طول العام . الكنز قبل أن تسألنى عنه نوع من الحشيش للزمزم المبارك مما يجلبه أتقياء الحجاج من منابت آسية العجيبة ، إلى أرض الحجاز المقدسة الحبيبة ، فصحنا جميعاً دهشين : والجمرك ؟ فعرض الرجل ابتسامته : صلوا على النبى يا جماعة ، والله لو كان على حدودنا تفتيش ، لما دخل مصر أفيون ولا حشيش .

الرجل الذى فقدناه

(١٤ فبراير سنة ١٩٤٩)

مضى على استشهاد المجاهد الخالد محمود فهمى النقراشى سبعة وأربعون يوما ولا يزال الأسى على مصرعه يلوع القلوب ، والأسف على فقده يرمض الأنفس ! وعهدنا بالحزن على الزعماء العظماء أن يشتعل أوسع مايكون الاشتعال ثم يخبو أسرع ما يكون الخبو . ولم يمت زعيم إلا اختلفت الآراء فى تعيين مكانته ، وتفاوتت الموازين فى تقدير كفايته . حتى أبو الأبطال سعد ، لم تتفق على سياسته الكلمة ، ولم تجمع على عدالته الأمة ، ولم يصلِّ على جنازته الملك ولم يكن النقراشى الذى ظفر من الشعب والحكومة والعرش بذلك قد أوتى ما أوتى مصطفى كامل وسعد زغلول من ذكاء القلب فى الخاصة ، و بلاغة اللسان فى العامة . ولم يكن الوعى القومى الذى قدّره هذا القدْر ، ووضعه هذا الوضع ، وبكاه هذا البكاء ، خامد الفطنة كليل البصيرة سلس المقادة ، كذلك الوعى الذى افتتن بمصطفى واستقاد لسعد .

وعينا القومى اليوم غيره بالأمس . ولئن نضج فى هذا العهد لقد تقلب على أطوار الطبيعة ككل كائن : كان غصناخدّره برد الشتاءفنبهها بواليقظةمصطفى ثم كان برعماً أخرجه دفء الربيع ففتّقه أبو الثورة سعد . ثم كان ثمرةسواهاحر الصيف فقطفها أبو النهضة النقراشى . فالوعى المصرى فى هذا الطور يتأثربالفعل لا بالقول . ويستجرُّ[1] للعقل لا للهوى ، و يفاضل بالمنفعة لابالعاطفة . ومن هنا

---

(١) يستجر : ينقاد .

كان حزن الأمة العميق على النقراشى الذى كان يعمل ولا يتكلم ، ويحارب ولا يخطب ، ويصارح ولا يداهى ، وينتصر ولا يباهى ، وينتصف ولا يحابى ، ويُقدِم ولا يتردد ، ويهجم ولا يخاف ؛ لأنه كان مقتضى الحال الأليمة التى كانت عليها مصر يوم تولى أمرها . والمصلحون كالأنبياء يبعثهم الله حين يستشرى الفساد ويضطرب الحبل ويستبهم الطريق . كانت الحكومة مترددة تريد الحازم ، والسياسة مستكينة تريد الأبى ، والشهوة متوقحة تريد النزيه ، والأمة متحيرة تريد الدليل . والنقراشى شهد الله كان أقدر على تصريف الأمر بعين لا تكسرها ريبة ، ويد لا تقصِّرها جبانة .

كانت حياة النقراشى ملحمة ، وكانت ميتته مأساة ! وكما يكون بطل عبقرى الصفات فى خيال الفنان ، كان النقراشى عبقرى الصفات فى واقع الطبيعة . ولكن بطولته كانت نمطاً من بطولة الرسل : قوة فى الروح تقهر النفس ، وقوة فى الخلق تقهر الغريزة . ومن لوازم القوة الخلقية العزم والحزم والنظام والصرامة والصفات الأولى هى عناصر الشخصية الخاصة فى النقراشى الصديق والزوج والوالد ، والصفات الأخرى هى عناصر الشخصية العامة فى النقراشى المعلم والسياسى والحاكم . ومن أجل ذلك كان النقراشى هو الشهيد الوحيد الذى ترثيه بلسان الشعر فتؤثر ، وترثيه بلسان المنطق فتُقنع . كانت حياته العاملة فى سبيل وطنه وأمته ، الدامية فى طفولة ابنه وابنته ، إلياذة ، مجد ألَّف ختامها القدر من أنات هانىء وصفية وكتبها بدمه[١] ، كما ألف ختام الملحمة العلوية من صرخات على وفاطمة وكتبها بدم الحسين .

---

(١) هانىء وصفية ولدا النقراشى كانا طفلين حين قتل .

خاطـــرة

(٢١ نوفبر سنة ١٩٤٦)

التاريخ مادته عمل ابن آدم وقوله . وابن آدم حيوان كذاب لا يقول الحق على نفسه ، ولا ينقل الصدق عن غيره . والذين أولعوا بتسجيل أعماله وأقواله من كل لون وجنس ووطن وزمن هم سلالة خُرافة . وخرافة فيما زعموا رجل من أعراب جهينة اختطفته الجن فلبث فيهم زمنا رجع إلى قومه وأخذ يحدثهم أعجب الأحاديث مما رأى فكذبوه . ثم صار الناس يسمون كل حديث مستملح من الكذب حديث خرافة . والأقرب في نفسي أن يكون خرافة هذا رجلا رغّاء يعجبه أن يتحدث ويلذه أن يسمع الناس . فلما فرغ ما عنده من صَرف الحديث وزخرف الرواية أخذ يصوغ الأخبار ، وينسج الأقاصيص ، ويصنع الأساطير ، ويبتدع النوادر ، ويختلق العجائب ، وينسب ثمرات فنه إلى وادي عبقر وسكانه من الجن ليكون الحديث أعذب ، والخبر أغرب ، والتصديق أقرب . ومن طبيعة أكثر الناس تزيين الكلام والزيادة فيه ، فلا تجد إنسانا ينقل حادثا أو يروي حديثا إلا دخل فيه برأيه وذوقه ومنفعته وهواه ، فيغير ويزور ويموه وينمق ، لا فرق في ذلك بين جاهل وعالم ، ولا بين فرد وجماعة ؛ ولا بين شعب وحكومة

يقع الحادث اليوم بمرأى من الناس ومسمع ، فتحكيه الألسن وترويه الصحف فلا تجد لسانا يوافق لسانا ، ولا صحيفة تطابق صحيفة ! أو تقرأ صحف العاصمة في حادثة من حوادث المدن أو واقعة من وقائع الأقاليم ، أو أمر من أمور العالم ، فتجد له في كل جريدة رواية تناقض كل رواية ، وصيغة تعارض كل صيغة ، حتى ليبلغ الخلاف بينها حد التغاير ، فتراها مثلا يوم الأحد الماضي تجمع على أن الشرط

اكتشفوا فى شارع من شوارع القدس لغما من البارود ، ولكن جريدة (البلاغ) تنفرد بأن الذى كشفوه منجم من الرصاص !

ونجلس فى قهوة من القهوات فنسمع من الأفواه أصل خبر من الأخبار وقد نبتت له فروع ، ثم نسمعه فى القهوة ثانية فإذا الفروع قد نبتت بها أغصان ، ثم نسمعه فى القهوة ثالثة فإذا الأغصان قد نبتت لها أفنان ! ثم نسمعه فى قهوة رابعة فإذا الأفنان قد خرجت منها أزهار مختلفة الأشكال والألوان ، فلا ينقضى النهار حتى تمسى بذرة الخبر دوحة راسخة الجذور ، باسقة الذرى ، وارفة الظلال ؛ أو قصة بارعة الخيال ، رائعة العرض ، شائقة الحبة ، فيها للحزبية مغزى ، وللشيوعية مرمى ، وللفضولية مسلاة .

وتشهد قضية من القضايا المحكمة فتجد الجناية التى ترتكب فى سواء الطريق وفى وضح النهار ، من شهود النفى مقدار ما تجد من شهود الإثبات ، أولئك يفندون ، وهؤلاء يؤيدون ، والقاضى أمام هذه الأيمان الكاذبة والأقوال المتضاربة لا يملك للحق من الباطل إلا أن يفزع إلى توفيق الله فيخلص بين الصحيح والفاسد بعقلة ، ويوفق بين القانون والعدل باجتهاده .

وتحضر مجلس العدل أو مجلس الأمن فتسمع الحقائق تنكر الحقائق والوثائق تكذب الوثائق ، والكتب البيض والزرق والخضر والصفر فى دولة تقف من أمثالها فى دولة أخرى موقف الكاذب من الكاذب ، والثالب من الثالب ، يدفع كل منها الآخر بما حشد من شهود وجمع من أدلة وساق من وقائع !

هذه مصادر التاريخ اليوم والكتابة شائعة ، والتسجيل منتظم والعمران متصل والمواصلات سريعة ، والاستخبار صناعة مستقلة وفن قائم ، له وسائله التى تعين عليه : وشركاته التى تستبق فيه ، وأهله فرغوا له . فما ظنك بمصادره يوم كانت الأمية فاشية ، والجهالة غاشية ، والشقة بعيدة ، والأسباب

منقطعة ، والألسنة وحدها هى التى تنقل الأخبار من إنسان إلى إنسان ، ومن قبيلة إلى قبيلة ، ومن مدينة إلى مدينة ، ومن قطر إلى قطر ؟

لا ياسيدى ! ألحق أن التاريخ ثروة طائلة هائلة من كذب الإنسان ! فاقرأه كما تقرأ إلياذة هوميروس ، وإلياذة فرجيل ، وشهنامة الفردوسى ، ولا تلتمس الحق فى أحداث الأرض وأعمال الناس إلا فى الكتاب الذى يخرجه الله يوم القيامة لكل امرىء فيقرأ فيه ما قدمت يداه ، ثم يحاسبه أحكم الحاكمين على مقتضاه !

أدبنا في السماع

كانت الإذاعة المصرية ليلة أمس مفتوحة على آذان العالم كله . وكان الحفل مقاماً للسمر والترفيه في دار العلم ، فلم يشهده إلا أستاذ أو طالب أو رجل بين ذلك . وكان المغنى يرسل النغم حلو الإيقاع صافى الرنين ، فيشيع الطرب في النفوس ، ويبعث اللذة في المشاعر ، ولكنه كان قبل أن يقف وقفته الفنية لدى التقطيعة أو الترجيعة ، تنفجر حلوق السامعين بالآهات المدوية فتطغى عليه كما تطغى زمجرة العاصفة على سجعة الحمامة !

(آه) أو (عاه) هو الصوت الجماعى الذى تنشق عنه الحناجر الطروبة في مجلس الغناء فيكون عند انطلاقه أشبه بهزيم الرعد أو خوار الثور . ثم يكون عند ارتداده أشبه بتفجع المحزون أو توجع المريض . وتلك شعيرة من شعائر الطرب ينفرد بها المصريون من بين خلق الله في الشرق والغرب !

رغبت الكاتبة الفرنسية (فلنتين دسان بوا) أن تشهد حفلة من حفلات أم كلثوم . فلما خرجت من مسرح الأزبكية سئلت عن رأيها في الغناء العربى والموسيقى المصرية ، فقالت : والله لقد اختلط الأمر على فلم أدر أفى مسرح كنت أم في مستشفى ! فلو كنت في مسرح فلم كانت هذه الآهات ؟ ولو كنت في مستشفى فلم كانت هذه القهقهات ؟ ولو كان السامعون يضجون من فرط الإعجاب والسرور ، فلم كانوا يقذفون المغنية بالطرابيش لا بالزهور ؟ !

والحق أن مجلس الغناء عندنا نمط من المجالس عجيب ، في مجالس التثقيف أو التكريم أو التأمين يهيمن على غرائز الناس ضابط من الوقار المطبوع أو المصنوع فلا تكاد تميز فيها الجاهل من العالم ، ولا الجلف من المهذب ، ولا الأحمق

من الرزين ولكن مجالس اللهو تحدث في الأعصاب ضربا من النشوة ، يخف فيكون حماسة ، ويثقل فيكون عربدة . والطرب في مصر أكثره من الوزن الثقيل ! يستخف الطباع المرحة حتى يخرجها عن التكليف ، ويبعدها عن الحشمة ! لذلك صارت حفلاتها الغنائية كما ترى وتسمع : زفير وشهيق ، وصفير وتصفيق ، وحركات في القيام والقعود ، كحركات اليهود في برص العقود ، ثم تلويح بالأذرع ، وتنافس في الزياط ، وتراشق بالنكت ، حتى أصبح التهريج والضجيج سنتقفا في السماع فلا يجيد المغني الغناء إلا فيه ، ولا يحسن السامع الإصغاء إلا به ! ولقد ذهب محمد عبد الوهاب إلى العراق — وكنت يومئذ هناك — فلما وجدهم يسمعون في سكون ويتمتعون في وقار ، ظن أنهم لا يطربون ، ففتر نشاطه وتمثر فنه !

فاتقوا الله ياقوم في سمعتنا المدنية ، فلقد كنا نسمع المغني وحدنا بين أربعة جدران ، فأصبحنا اليوم بفضل الإذاعة نسمعه مع كل إنسان في كل مكان .

رؤيا مزعجة

(٤ أبريل سنة ١٩٤٩)

لم أكد آوى إلى فراشى البارحة حتى أنثالت على خاطرى صور أشتات من جملة ما سمعت وقرأت عن حال المشردين من عرب فلسطين الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، وجُرِّدوا من ما لهم بغير رحمة ، وقُضى فى مصيرهم بغير عدل . وكان مبعث هذه الصور حديث سمعته عصر الأمس من صديق عاد من فلسطين بعد ما رأى بعينيه أفظع مناظر البؤس ، وسمع بأذنيه أروع مآسى الحياة . وكنت وهو يتحدث أتمثل من خلال وصفه طرائد صهيون من ورّاث المجد وربائب النعيم يلوذون بمغاور الجبال وكهوف الاودية ، ويتبلغون بيابس النبت وآسن الماء ، ويتسترون بأخلاق الثياب ومزق الخيش ، وأطفالهم دِقاق الأشباح فوق ظهورهم أو بين أيديهم يتضاغون من الجوع ويتطرحون من الكلال ؛ ونساؤهم الشواحب العجاف يجررن أرجلهن الدامية على الحصى جراً فلا تكاد تتبعهن من فرط اللغوب ، فإذا ذكرن ما صنع بهن علوج إسرائيل ذرفن ما بقى فى المآقى ، ثم تطلعن لها فىَ إلى (صلاح الدين) الهاشمى يستصرخنه للمجد المغلوب ، والتراث المغصوب ، والعرض المسلوب ، فهبت وا أسفاه ريح (غربية[1]) تمدل بصرخاتهن عن القصر إلى القفر ، فلا يسمعهن وريث الرشيد ، ولا ينجدهن سليل المعتصم[2] !

---

(١) اشارة إلى تأثير انجلترا فى سياسة شرق الأردن .

(٢) فى ذكر المعتصم تلميح إلى حادثة عمورية .

أمست هذه الصور المروعة تتمثل فى ناظرى ، أو تتراءى فى خاطرى ، وصوارف العمل أو شواغل الناس تخفيها الساعة بعد الساعة ، حتى خلوت إليها على وسادى القلق ، فتوالت فى ظلال الغرفة مسرعة على عينى ، كما تتوالى صور متلاحقة على عين المشاهد ، فرأيت فى أطراف فلسطين وعلى حدود جاراتها المضيافة ثلاثة أرباع المليون من كرام العرب يعيشون فى المضارب والملاجىء عيش الحرمان ، يقتاتون السّوف[1] . ويكابدون الجوع والخوف ، وينظرون إلى رياضهم الجنيه تعيث فيها الذئاب ، وإلى حياضهم الروية تلغ فيها الكلاب ، فلا يملكون لأنفسهم إلا عبرات تتحدر وزفرات تتصعد ، ومجلس الأمن ووسيط هيئة الأمم ولجنة التوفيق ودول الديمقراطية يستطعمون الواغل لصاحب المأدبة فلا يُطعم ، ويستعطفون الدخيل على مالك الدار فلا يعطف !

وثَقل الأسى على أعصابى المضطربة فغلبنى النوم ولا أدرى بعد كم دقيقة أو ساعة من رقادى رأيت أن دخل على فى مكتبى صديقى المغفور له إسعاف النشاشيبى فى هيئة مبذوءة وثياب رثة: بدلة من الصوف المهلهل لا لون لها من البلى ولا معالم، وطربوش كلبدة الفلاح دارت عليه لفافة من بقايا قميص ممزق ، وحذاء غليظ من أحذية الجيش لا رباط له ولا جوارب . . . فقلت له أنا لا أصدق عينىّ ولا أملكهما ماذا صنع الدهر بالثرىّ السخى المترف المتنطس[2] يا إسعاف؟! فقال فى تسليم واستكانة : هو ما ترى ! رأيت بعينى حى (الشيخ جراح) يُستباح ويجتاح ، ودارى العربية تحتلها كتيبة يهودية ، ومكتبتى الحبيبة تنقل

---

(١) يقتاتون السوف : يعيشون بالأمانى . ومنه : « وكان السوف للفتيان قوتا » .

(٢) المتنطس : المتأنق فى الطهارة وفى الكلام وفى المطعم والملبس كل الأمور .

إلى الجامعة العبرية ، وضياعى الخصيبة فى يافا يحول ريعها إلى تل أبيب ! فلما رأيتنى أصبحت لا دار ولا أهل ولا ملك ولا مال ، هاجرت مع المهاجرين ، ولجأت إلى مصر مع اللاجئين . وقد كنت تقول لى وأنا أوثر « الرسالة » بجهدى الضئيل : لولا غناك ، لأعطيناك ، وهأنذا اليوم أصبحت فارغ الكف والقلب من المال والأمل ، لا فى الجيب ولا فى الغيب ! ثم بكى فبكيت . وسمع نشيجى بعض أهلى فأيقظونى ، فاستيقظت وأنا أحمد الله لصديقى أن مات ، قبل أن يقاسم وطنه وقومه هذه النكبات !

رحم الله صديقي المازني !

(١٢ سبتمبر سنة ١٩٤٩)

لقد كان رَجُل وَحْدَهِ فى طراز عيشه ونظام عمله ونمط تفكيره وأسلوب كلامه . والتفرد فى الحياة والعمل والفكر والعبارة معناه فى دنيا الأدب الشخصية الممتازة التى لا يغنى عن وجودها وجود ، ولا يَجزى عن جهدها جهود ، ولا يسهل من فقدها عِوض . فإذا أضيف إلى ذلك أن المازنى كان أحد الكتاب العشرة الذين يكتبون لغتهم عن علم ، ويفهمون أدبها عن فقه ، ويعالجون بيانها عن طبع ؛ وأن هؤلاء العشرة البررة متى خَلت أمكنتهم فى الأجل القريب أو البعيد فلن يخلفهم فى هذا الزمن الثائر الحائر العجلان من يحمل عنهم أمانة البيان ويبلغ بعدهم رسالة الأدب ، أدركنا فداحة الخطب التى نزل بالأمة العربية يوم توفى هذا الكاتب العظيم .

عرفت المرحوم المازنى فى خريف سنة ١٩١٤ يوم دخلنا المدرسة الإعدادية الثانوية معلمين ، وكان يومئذ فى مرح شبابه وميعة نشاطه يتوسط باحة الأدب ويطرق باب الشهرة ويحاول هو وصاحباه العقاد وشكرى أن يشقوا طريقهم إلى المجد فى أرض غليظة صلدة يقوم فى بدايتها عقبتان : صاحب (الشوقيات) بشعره الرائع ، وصاحب (النظرات) بنثره البليغ . ولكنهم كانوا أصحاب مِعول ومِسطرين : يهدمون بالنقد والثلب والتجريح ، ويبنون بالتجويد والتجديد والدرس ؛ فلم يفعلوا فعل ضعفاء الملكة اليوم ، يخفضون مستوى البلاغة ليصعد القمىء[1] ، ويقربون غاية الفن ليلحق البطىء !

---

(١) القمىء القصير .

وكان المازنى على هذه الثورة وهذا الطموح خافض الجناح لأنه قوى النفس ، راكد السطح لأنه عميق الغور ، فما كنت تراه يوماً ذاهباً بنفسه ولا متبجحاً بعلمه ولا مباهياً بعمله . ثم كان على ضآلة جسمه ووهن عظمه مهيب الجانب لذكاء قلبه ورجاحة عقله ، فلا يعبث فى درسه تلميذ ولا يجرؤ على كرامته معلم . ثم توثقت بينى وبينه أسباب المودة ، فزاملته فى التعليم ،وصادقته فى الأدب ، وزاملته فى الصحافة ، فلم أجرب عليه شهد الله لؤما فى زمالة ، ولا غشاً فى صداقة ، ولا سوءاً فى معاملة .

كان أدب المازنى أداة عيشه ووسيلة رزقه : لذلك كان يكره أن يعرضه لكيد الخصومة وعنت النقد . وكان سبيله إلى هذا أن يغضّ هو من قدر فنه ، وأن يقلل من نتاجه ، حتى يفوّت بذلك على خصمه لذة التجنى عليه فلا يجد ما يقوله إذا أراد أن يتنقصه بنقده أو حقده . وتصغيرك لشأنك فيه معنى التواضع ، ولكن تصغير غيرك لك فيه معنى الضعة . على أنه كان إذا أكره على الخصومة شديد العارضة حديد القلم يقرع صاحبه بالتهكم أكثر مما يقرعه بالحجة. ولو كان المازنى مكفول الرزق من طريق غير طريق الأدب لما قصر أكثر جهده على الصحافة . ومن مساوىء الصحافة أنها تفرض على الكاتب الموضوع وتحمله على السرعة . وموضوع المازنى القَصص وفنه الوصف . فلو أنه خلص لهذين البابين لأتى فيهما أعجب العجب .

* * *

هذه بعض صفات الصديق الراحل ذكرتها مجملة فى مقام الحزن على فقده والجزع لمصابه . أما سائر صفاته وتحليل ملكاته وترجمة حياته فلها فى تاريخ الأدب فصل طويل سأكتبه بعد قليل .

يظهر أن يوم الانتخاب قريب

(١٤ فبراير سنة ١٩٤٩)

يظهر أن الانتخاب قريب ! قالها الحاج على وشفتاه الغليظتان تنفرجان عن ابتسامة لا يتم بدونها معنى الجملة ، وعيناه الحادتان تتبعان مركبة كانت تدرج فى طريقها إلى القرية . فقال له المأذون وهو يربت على كتفه : صح نومك ! لقد أذاع الراديو وأعلنت الصحف حل مجلس النواب وتحديد يوم الانتخاب ؛ فالحكومة تتجهز ، والأحزاب تتحفز ، والمستنابون يغدون ويروحون ، من الدائرة إلى الحزب ، ومن الحزب إلى الدائرة ، والعرق يتصبب من الجباه ، والوعود تتناثر من الشفاه ، والنقود تشرئب من المحافظ . . فقاطعه الحاج على بقوله : حسبك ياشيخ إبراهيم ! إنك لتعلم أنى لا أسمع الإذاعة ولا أقرأ الصحف ولا أغشى المجالس ؛ ولولا مقدم الأستاذ لما تركت حقلى . إنما أعرف اقتراب يوم الانتخاب بظهور هذه المركبة . إن قدومها على القرية أشبه بقدوم بغلة العشر على الموعود . إنها تحمل إلينا مع الباشا التساهل فى الحساب ، والتسامح فى المتأخر والاستماع إلى كل شكوى ، والاستجابة لكل طلب ، والمجاملة فى كل حادث ، والمواساة فى كل خطب ؛ حتى إذا انقضى يوم الانتخاب ، ودخل الباشا مجلس النواب ، أشاح بوجهه ونأى بجانبه ، وسلط على وعوده الحلوة مطال « ناظره » وضلال « كاتبه » . فإذا لقيناه عبس وبسر ، وإذا سألناه دعّ وزجر ، وإذا استرحمناه (شخط ونطر) ؛ ثم لا نسمع بعد ذلك أنه قال كلمة فى المجلس ، أو أبدى رغبة إلى الحكومة ، أو أدى خدمة إلى الفلاح ، أو أسدى منة إلى الوطن ! فحل المجلس أنفع لنا من عقده ، وترشيح النائب أجدى علينا من نيابته .

فقلت له وما الذى يحملكم على انتخابه وقد علمتم بالتجربة أنه يرضيكم شهراً ويغضبكم دهراً ؟ فقال : يحملنا على إنتخابه أنه مالك ونحن مستأجرون ، وليس بين المالك والمستأجر قانون غير العقد تختمه على بياض ، وهو الذى يكتبه ويحتفظ به . فإذا غالبنا إرادتنا على إرادته ، وآثرنا مصلحة البلد على مصلحته ، اشتط فى أجرة الأرض ، وتعسف فى تسوية الحساب ، وتحكم فى اقتضاء الدين ، فلا يكون لنا غير الاحتكام : ولكن إلى من ؟ أو المهاجرة ، ولكن إلى أين ؟

فقلت له : ذلك أدعى إلى أن تنتخبوا غيره ممن يعلمون أموركم ، ويشعرون شعوركم ؛ حتى إذا تقدمت الحكومة باقتراح قانون يخفض الإيجار ، أو يرفع الأجر أو يحدد الملكية ، أو يزيد الضريبة ، كان مع الاقتراح لا عليه . ومتى سنت هذه القوانين ضمنت الحماية للمستأجر فلا يُظلم ، وكفلت الرعاية للأجير فلا يستغل . أما أن تعرفوا نائبكم هذه المعرفة ، ثم تنتخبوه على هذه الصفة ، فذلك مالا يسيغه عقل ولا تسوغه مصلحة .

فقال الحاج : ألحق أننا لا نعرف ما هو البرلمان ولا ماذا يصنع النواب فيه . . كل ما نعلمه أنها رجة تعتاد البلاد من حين إلى حين ، فينشط مأذونو القرى ومعلموها فى الدعوة إلى فلان أو فلان ، ثم تقوم المآدب والخطب هنا ، وتنشب المعارك والشتائم هناك ؛ ثم لا يكون الانتخاب آخر الأمر إلا بإرشاد المأمور ، أو إكراه المالك ، أو إيحاء العمدة ، أو إغراء المال !

فقلت فى نفسى : ذلك هو الواقع . ومتى عرفت الأمة أن لها السلطان ، وأن سلطانها معناه البرلمان ، علمت الناخب كيف ينتخب ، وأرشدت النائب كيف ينوب !

الشيوعية على المصطبة

(٢٧ مارس سنة ١٩٥٠)

من عادتي في المجلس ألا أتكلم إلا مضطرا ، كأن أحيا فأرد ، وكأن أسأل فأجيب . أما إذا خُليت لطبعي فإني أحبس لساني عن الكلام ، وأجعل أذني لكل متكلم . لذلك تركت إخوان المصطبة يخوضون في كل حديث ، ويعقبون على كل حادث : فمن حديث الأمير العظيم الذي يكره فلاحيه ومستأجريه على أن يتبرعوا بأقواتهم لأعمال الخير ثم يعلن التبرع باسمه على وجوه الصحف وهو لم يشارك فيه من ماله بقرش ، إلى حديث النائب المحترم الذي قطع العهود على نفسه لدائرته أيام الانتخاب أن يجعل لهم البحر طحينة ، والحياة كلها متاعا وزينة ، فلما وضعوه على كرسي مجلس النواب ظل موضوعا عليه كالجرة الفارغة لا تنضح حتى بالمش ، إلى حديث الشيوعية التي تعد الفقير بالغنى ، وتمنى الشقي بالسعادة ، وتزعم أنها تنصف الفلاح من أمثال هذا الأمير الطماع ، وتؤمن الناخب من أشباه هذا النائب الخداع . وحينذاك قال الشيخ مصباح للشيخ مفتاح وهو يحاوره في خير الشيوعية وشرها :

لعلك لم تسمع الكلمة التي أذاعها (الأستاذ) بالراديو منذ أيام ، في الشيوعية والاسلام . إنك لو سمعتها لكسمت أملك باليأس ورجاءك بالخيبة . إن الشيوعية لا تملك الناس أرضا ، ولا توسع عليهم رزقا ، ولا تهيىء لهم حرية . فبهت الشيخ مفتاح ونظر إلى نظرة المستفهم المشدوه . فقلت له : صدق الشيخ مصباح ! إن الشيوعية تأخذ لنفسها لا للناس ، وتدعو إلى باطلها لا إلى الحق . نها لا تسوى بين الخلق في الغنى والحرية ، وإنما تسوى بينهم في الفقر والعبودية . وتجعل الغني فقيرا بانتزاع ما يملك ، ولا تجعل الفقير غنيا بامتلاك ما يستأجر . تصادر الأرضين

لتكون خالصة لها من دون المواطنين ، ثم تستغلها بتسخير الأيدى العاملة فلا تعطى الزارع غير أجرته ، ولا تؤجره إلا على حسب قدرته . فهى تنزع منك يامفتاح نصف الفدان الذى تستثمره ، لتصبح كعلى رمضان الذى يستأجره . ذلك فضلا عن كفرها بالدين الذى رضيه لك الله ، وإباحتها للزوجة التى ربطها بك الشرع .

فقال الشيخ مفتاح وهو يكرش من وجهه ويزم بأنفه ويستعيذ بربه : كل شىء تغنى الحيلة فيه إلا نصف الفدان ! إن عقيدتى فى نفسى ، وإن نخوتى فى رأسى ، وليس فى العالم قوة تستطيع أن تعبث بهما إلا برضاى . أما الملك وهو الضمان والأمان والمتعة والغبطة والمنزلة والغاية ، فليس إلى الاحتفاظ به مع الشيوعية من سبيل . فقال الفتى محجوب وهو يضرب بيده على يد فأسه : إنك تعارض الشيوعية لأن لك نصف فدان ، فأما الأجير الذى لا يملك من دنيا كم غير هذه الفأس فكيف يعارضها وهو لا يتصور أنه ينقلب إلى حال أدنى من هذه الحال ؟ قالوا للقرد : إن سيمسخك . فقال : لعله يجعلنى غزالا !

فقال الشيخ مفتاح : وإذا أقطعتك الحكومة ستة قراريط ؟

فصاح محجوب وصاح معه جميع الجلوس : حينئذ نلعن الشيوعية فى كل صلاة ، ونحاربها بكل قوة . يا أخى ، مَلِّكونا تملكونا !

ليس بعد الدين وازع

(٢٢ مايو سنة ١٩٥٠)

كان كتاب المأساة من الإغريق وأتباعهم من أمثال كورنى وراسين وشكسبير لا يتخيرون أبطال مآسيهم إلا من أصحاب القصور . وحكمتهم فى ذلك أن وجيعة النفس لمصائب الملوك أقوى من وجيعتها لمصائب السوقة ؛ فالاعتبار بهم يكون أبلغ ، والتأثر لهم يكون أشد . والناس يومئذ لم يكونوا يظنون أن سلائل الآلهة هم كذلك أغراض لسهام القدر . فإذا رأوا أن المرء مهما يعظم قدره ويضخم أمره لا يعظم على النوائب ، ولا يكبر على الأحداث، خفت عليهم أحكام القضاء ، وساغت لديهم غصص الحياة .

والحق أن ما يصيب العامة كل يوم من فواجع العيش ومواجع القلب لا يقع من النفوس موقع ما يصيب الخاصة كل حين من بعض ذلك؛ لأن أولئك مظنة الخطأ والتبذل والاستهتار فالعجب أن يسلموا . وهؤلاء مظنة الصواب والتصون والحفاظ فالعجب أن يصابوا . ولعلك لا تعدم كل صباح أو مساء خبراً عن فتاة خرجت على أسرتها فأضلها الشيطان ، كما لا يعدم الرعاة كل ضحوة أو عشية خبراً عن نعجة شردت عن قطيعها فأكلها الذئب .

ولكن هذه الأخبار أصبحت من مألوف الآذان لكثرة ما فى سواد المجتمع من ضعاف البصيرة والعقيدة والإرادة . أما الذى لم يؤلف ولن يؤلف فهو خروج الفتاة على دينها لشهوة متغلبة أو نزوة متحكمة .

وهذه الظاهرة على ندرتها قلما تجدها فى الطبقتين الدنيا والوسطى . وكثر ما تجدها فى الطبقة العليا . فاذا عددت واحدة أو اثنتين من غوانى المدن تزوجتا

من غير المسلمين ، عددت سبع أميرات فى العراق وإيران ومصر قد تزوجن من مسيحيين وهن يعلمن أن دينهن لا يجيز هذا الزواج ولا يرتب عليه حقا من حقوق الأسرة . وعلة الكثرة هنا والقلة هناك ضعف الوازع الدينى فى نفوس هؤلاء ، وقوته فى نفوس أولئك .

واستشعار الخوف من الله طبيعة فى الشعب غرسها فيه افتقاره الدائم إليه ، واعتماده المطلق عليه ، ورجاؤه المتصل فيه . أما السراة فهم حريون لغناهم عنه بالسراوة والثراء ألا يخشوه وألا يرجوه إلا إذا حملوا منذ النشأة حملا على تقواه بالتربية الدينية والثقافة الروحية والأسوة الحسنة .

والسنن الإسلامية التى ربت عائشة وأسماء ، وسكينة ونفيسة ، وزبيدة وشجرة الدر ، لا تزال قادرة على أن تربى مثلهن إذا أقيم على قواعدها السماوية نظام البيت ومنهاج المدرسة وشريعة الوطن .

إن المسلم الحق قد ينزل عن طبقته فيشكر ، وقد يخرج من جنسيته فيعذر ، ولكنه أبدا لا يفسق عن أمر ربه وفى قلبه نور وفى ضميره حياة .

الصيف ضيعت اللبن!

(١٠ يولية سنة ١٩٥٠)

مثل أمريكا وانجلترا فى سياستهما للدول الصغيرة كمثل (الأشقياء) فى الريف و (الفتوات) فى المدن ، يجمعون حولهم الأتباع من فتيان القرى وصبيان الحارات ممن يفتنونهم بمظاهر القوة ، أو يخدعونهم بكوذاب المنى ؛ ثم يرمون بهم الأغراض التى يتوخونها ، فينطلقون انطلاق الأسهم الصم لا إرادة لها ولا رادّة عليها . فإذا أراد الأشقياء السطو على غنى من أغنياء القرية ، أوقرر الفتوات الإغارة على حى من أحياء المدينة ، أرسلوا هؤلاء الأتباع يرودون الطريق ، أو يجسون النبض ، أو يجرون (الشكل) ، ثم يكونون هم وقود المعركة . فإذا تم النصر أو تمت الهزيمة كانت النار دائماً لمخالب القطط ، والقسطل دائماً لأنياب القردة ! فإن اتفق مرة أن أبى أحد الأتباع أن يأتمر فى الشر أو يشارك فى الأذى ، لأن له رأيا يريد أن يقره ، أو قريباً يكره أن يضره ، أو ضميرا يحب أن يرضيه ، تغيروا عليه وتنمروا له وقالوا : خان الفتوة ، ونقض الميثاق ، وجحد النعمة ، فحق عليه أن يبتر من الناس أو ينفى من الأرض !

حال هذا التابع من هؤلاء الأشقياء الذين حسبوه يسمع ولا يقول ، ويخضع ولا يعارض ، وينفذ ولا يقضى ، أشبه بحال مصر من هاتين الدولتين الطاغيتين اللتين تزعمان أنهما تمثلان الديمقراطية والحرية ، وتحميان المدنية والإنسانية ! قالوا لنا تعالوا نكن إلبا على الشيوعية والإباحية والفوضى ، وردءاً للنظام والسلام والعدل ، فقلنا وهل يسعنا إلا أن نلبى ونحن أبناء الذين عقدوا فيما بينهم (حلف الفضول[1]) أن يقوموا للضعيف حتى يقوى ، والمظلوم حتى ينصف ،

---

(١) حلف الفضول : هو أن هاشما وزهرة وتيما القرشيين دخلوا على عبد الله بن جدعان فتحالفوا بينهم على دفع الظلم عن المظلوم وأخذ الحق من الظالم . سمى بذلك لأنهم تحالفوا على ألا يتركوا عند أحد فضلا يظلم به أحداً إلا أخذوه منه .

وللذليل حتى يعز ؛ وخلفاء الذين جعلهم الله أمة وسطاً يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات ؟ ولكن سرعان ما برح الخلفاء وشغف الرياء عن الرأسمالية والشيوعية تتنافسان فى سيادة العالم ، وتتخاصمان على أملاك الناس ، هذه باسم الحرية تسعى لتستعبد ، وتلك با الشيوعية تسعى لتملك !

قلنا لهم ياقوم نحن زملاؤكم فى مجلس الأمن ، وحلفاؤكم على نصرة الحق ، فأنصفوا النيل من السكونيين ، وفلسطين من الصهونيين ! فقال ترومان خليفة ولسن صاحب المبادىء الأربعة عشر : إن سياستنا الخارجية تعضد الإنجليز ، وإن سياستنا الداخلية تؤيد اليهود ، وإن الاعتداء على المصريين أو على العرب أضعف من أن يخل توازنا أو يبطل تعاوننا أو يعطل حركة . لماذا ؟ لأنهم لا يملكون القنبلة الذرية ، ولا ينافسون فى أمريكا فى الكيفية والكمية.

فلما نهض الدب الروسى ليلتقم كوريا الجنوبية من يد العم سام اضطرب ميزان العدل ، وتكدر جو السلام ، وقامت قيامة الدنيا ، ووجب أن يجتمع مجلس الأمن على وجه السرعة ليقضى على الدول الأعضاء أن يقدموا المعونة إلى كوريا الرأسمالية على كوريا الشيوعية منعاً للعدوان وقمعاً للظلم !

فلما سألوا مصر أن تعين ، وكان ظنهم بها أن تطيع وتستكين ، أجابتهم بعزة الفراعين وأنفة العرب : زعموا أن شيخا من أغنياء البادية خطب إمرأة فى الصيف فردته ردا قبيحا . فلما أقبل الشتاء ، وهو زمن القحط عند البدو ، أقبلت عليه تطلب منه لبنا ، فقال لها بلهجة المتهكم الشامت :

لا يا سيدتى الصيف ضعيت اللبن !

إسماعيل صدقي

(٣١ مايو سنة ١٩٥٠)

كان إسماعيل صدقي رحمه الله عظيما ما في ذلك خلاف بين خصومه وشيعته ، ولا بين أمم الناس وأمته . وكانت عظمته من العظمات التي توهب مع الفطرة وتولد مع النفس ، فليست من صنع الظروف ولا من عمل الحزبية ولا من أثر العصبية ولا من نتاج المال ولا من خداع المنصب .

نمت مع جسمه نمو العضو ، وسمت مع نفسه سمو الروح ، وترجمت عنها في جميع أطوار عمره ، وفي شتى ضروب عمله ، فحولة في التفكير ، وبطولة في الجهاد ، ورجولة في الحكم .

تميز صدقي باشا على نظرائه ببراعة الذهن وقوة الحجاج وسداد المنطق وشجاعة القلب ؛ فكان في الأدب كاتبا في العربية والفرنسية عميق التصور دقيق التصوير ، تقرأه وأنت خصمه فلا يسعك إلا أن تعجب له وتعجب به .

وكان في السياسة عمليا واقعياً لا يتأثر بالعواطف ولا يؤثر بالأماني ؛ إنما كان يقود الخاصة ويسوق العامة إلى الخطة التي ترسمها المنفعة ، وإلى الغاية التي يحددها الواقع .

وكان في الحكم عارما حازما يقظا جريئا يقود السفينة في العباب المضطرب والأفق المكفهر فلا يزعزع يديه القويتين عن سكانها وثوب إعصار ولا شبوب نار ولا مساورة حوت .

وكان في العمل دءوبا كسوبا يشارك في الاقتصاد القومي بالرأي الصائب

واليد المصرفة والجهد المنتج : فكان له فى كل مشروع شرع ، وفى كل شركة أعضاء[١] ، وفى كل جمعية إمامة .

وكان صدق فى تاريخ وطنه فصلا فيما لا تقرأ فيه غير الجد ؛ وفى نهضة قومه رائداً صادقاً لا تجد وراءه غير الخصب وكان من سبْقه فى الجهاد أن نفى مع الثلاثة[٢] فى مالطة . وكان من فضله فى السياسة أن قبل مع الاثنين[٣] تصريح ٢٨ فبراير ؛ وكان من توفيقه فى الحكم أن سن وحده قانون التسوية العقارية . وهذه هى الأركان الثلاثة التى قام عليها استقلال الدولة برفع الحماية ، وسلطان الأمة بوضع الدستور ، وعمران البلاد بحفظ الملكية وصيانة الثروة .

ثم كان صدق مثلا فذاً فى رجال العصر قل أن تجد له أشباهاً فيما غبر من الدهر الطويل . كان لا يشغل ذرعه[٤] بسفساف الأمور ولا بخسيس الأنصبة ولا بوضيع المطامع . وكان لا يحب الوقوف على الهامش ولا الدروج على الشاطىء ؛ إنما كان يسير قدُماً فى الصلب ، ويسبح دائماً فى اللجة . ثم كان عزيمة لا تنكل حتى فى ضراوة الخطب ، وحيوية لا تفتر حتى فى وقذة[٥] الداء ، وعبقرية لا تخبو حتى فى غشية الموت .

ذلك هو الرجل الحق الذى يجب أن يجعله كهولنا مثلا ويتخذه شبابنا قدوة .

---

(١) أعضى فى الشركة صار عضواً فيها وهو اشتقاق جديد .
(٢) سعد زغلول ، وعبد العزيز فهمى ، وحمد الباسل .
(٣) عبد الخالق ثروت ، وعدلى يكن .
(٤) أى لا يشغل همه ولا طاقته .
(٥) وقذة المرض : شدته المفضية إلى الموت .

أقاصيص

من مذكراتي اليومية :

قصة فتاة

يوم الاثنين ٧ مايو سنة ١٩٤٥

عرفت من بين الرسائل الكثيرة التي ألقيت إليّ صباح اليوم رسالة الآنسة (س) من غلافها الوردي الأنيق ، وخطها الأنثوي المنمنم ، فوضعتها ناحية ريثما أفرغ من بريد الرسالة . ثم عدت إليها فشققت كامها عن أربعة أسطر تقول فيها : إنها حضرت القاهرة منذ يومين ، وإنها ترجو أن تراني في الساعة الخامسة من مساء الخميس المقبل بمحلى (جروبى) الجديد ، وإنها ستضع مجلة (الرسالة) على المائدة التي ستجلس إليها ، لتكون دليلا عليها ، فإننا تعارفنا منذ عام بالكتابة نفساً لنفس ، ولكننا لم نتعارف حتى اليوم باللقاء وجهاً لوجه

كيف أفلتت هذه الفتاة الغريرة من ربقة التقاليد الصعيدية المحكمة فتركت عزبتها إلى المدينة ، وبيتها إلى الفندق ، وحديقتها إلى جروبى ؟ هل أقدمت على ما كانت تسوله لها نفسها الطموح من الانعتاق والانطلاق ، فخرجت مما كانت تسميه (قبراً) لتدخل فيما كانت تسميه (دنيا) ؟ سؤالان ألقيتهما على نفسي ورسالتها عالقة بيدي ، وحياتها ماثلة في ذهني ، فلم تدر نفسي ماذا تجيب . قد أستطيع بما نمت عليه رسائلها من أخبارها وأسرارها أن أخمن بعض الأسباب التي أقدمتها إلى القاهرة ، ولكن بين التخمين واليقين ثلاثة أيام ، فلأنتظر حتى ألقاها .

ألقى إليّ البريد أولى رسائلها من الصعيد الأوسط في أوائل أبريل سنة ١٩٤٤ حين سرى الروح الإلهي في همود الطبيعة فأيقظ الراقد وأنعش الخامد وأعلن

المستكن . كانت فى تلك الرسالة متهيبة متحفظة ، كالغريب الطارىء يقرع الباب بلطف ، ويدخل البيت فى استحياء ، حتى إذا وجد من أهل الدار بشاشة القبول وكرم المثوى علق العصا وخلع المعطف . وما كان لكاتب نصب نفسه للتوجيه والإرشاد أن يذود عن بابه المفتوح فتاة تلتمس نفساً من كربها وسنداً لضعفها وسبيلا لهداها .

لم تقل فى رسالتها القصيرة أكثر من أنها آنسة فى الخامسة عشرة فقدت فى السن الباكرة أبويها فكفلها أخوها . وأخوها على طباع أهل الصعيد شديد الحفاظ صارم النخوة لم يسمح لها بالمضى إلى غاية التعليم الثانوى فضمها إليه فى العزبة . والعزبة حديقة تتوسطها دار يسكنها الأخ وزوجه وابناه الصغيران ، ثم الدوار وبيوت الفلاحين يفصلها عن حمى المالك طريق واسع وسور مرتفع ، ثم حقول مترامية الأطراف يغشاها السكون وتلفها الوحشة . وزوجة أخيها امرأة ضيقة الفكر واسعة العمل حيية الطبع لا تحب الاجتماع ولا تحسن الحديث .

فهى لا تملك فى هذه البيئة وهذه الطبيعة إلا أن تزجى فراغها الثقيل بقراءة قصة أو كتابة رسالة أو رسم صورة أو نسج قطعة . ولكن وجهة آمالها وحديث أحلامها أن تكون يوماً ما أديبة . وقد قرأت لى (آلام فرتر) و (رفائيل) فراقها الأسلوب وسحرها الروح . وهى تطمح أن تبلغ من الفن الكتابى مبلغاً يهيئها لأن تعبر عن نفسها هذا التعبير ، وأن تكشف عن روحها هذا الكشف؛ وتطلب منى فى ابتهال وضراعة أن أجيب عما ترسل إلىّ من رسائل ، فأوجهها إلى ما تقرأ ، وأحاسبها على ما تكتب ، وأناقشها فيما تفكر ، وأملأ يومها الفارغ الطويل بتحرير الكتب إلىّ ، وانتظار الأجوبة منى . وذلك تزعم جزء من رسالة الأديب الذى اصطفاه الله ليجمّل بفنه قبح الحياة ، ويخفف بعلمه شقاء الناس .

إن الرد على ما يأتيك من الرسائل واجب ، وهو بالطبع على رسائل السيدات أوجب ؛ ولكن هناك – ولا أكذبك – دافعاً أقوى من الواجب ؛ هو تلك اللذة الطبيعية التي يجدها الرجل في الحديث إلى المرأة أو عن المرأة . لذلك لم أكد أقضي حاجة النفس من جمال تلك الرسالة ، بإجالة الفكر في الأسلوب ، وإطالة النظر إلى الخط ، حتى كتبت الجواب عنها إلى الفتاة بأسلوب أب يحاول أن يكون لابنته كما تريد ، ويجتهد في أن يفتح أمامها باب الأمل من جديد .

يوم الثلاثاء ٨ مايو سنة ١٩٤٥

شغلت بالي الآنسة (س) بقدومها المفاجيء وموعدها المضروب . فجهدت أن أتذكر ما أنسيت من تلك الوساوس التي كان يلقيها على صدرها الشيطان فتنفثها هي في رسائلها إليّ شُواظاً يضطرم ولا يحرق ، وسُعاراً يحتدم ولا يُذوى وهل أستطيع أن أتذكر أضغاث أحلام تذهب عند الصباح ، أو هواجس أوهام تهرب من العقل ؟ لقد كانت في رسائلها أشبه بالمحمومة تهيج بها الحرارة فتهذى ، أو يأخذها النعاس فتحلم . إذن أعود إلى أوراقي الخاصة لعلي أجد في ثناياها بعض تلك الرسائل فأعيد قراءتها لأستجلي ما غمض في ذهني منها ، ولأستعد لما أتوقع يوم اللقاء من الحديث عنها .

وجدت بتوفيق من حسن الحظ طائفة من هذه الكتب الوردية الورق ، المعطرة المداد ، المنمقة الخط ، فرتبتها على حسب تواريخها ثم أخذت أقرأها كتاباً بعد كتاب حتى فرغت منها ، وفي نفسي لهذه الفتاة صورة مكتملة الأعضاء ما كانت لتبرز في ذهني على هذا المثال لو بقيت على تصورها من كتبها المتفرقة ، كل عضو على انفراد ، وكل قسمة على حدة .

كان أسلوب رسائلها في طورها الأول أسلوب التلميذة الراغبة في العلم :

تشاور فيما تفعل ، وتسأل عما تجهل ، وتجادل فيما أجيب . ثم صار في طورها الثاني أسلوب الصديقة الطامعة في المعونة ، تشكو ضيقها لتلتمس الفرج ، وتصف وحشتها لتطلب الأنس ، وتذكر خطأها لتتلمس الصواب ، وترسم غايتها لتتبين الطريق ثم أصبح في طوره الثالث أسلوب العاشقة الظامئة إلى الغزل . تعطف كل حديث إلى الحب ، وتقصر كل نعيم على الحب ، وتحاول أن تعرف رأيي في الحب ، وتسألني أن أروى لها أبلغ ما قيل في الحب ، وتطلب مني أن أكتب رسالة غرام إلى آنسة مجهولة ، لتعرف كيف تهفو روح إلى روح ، وتنجذب نفس إلى نفس ، وينسكب قلب في قلب ، فأحاول في ردى عليها أن أعيد السكينة إلى قلبها ، وأن أصل بالموعظة الحسنة بينها وبين ربها ، ولكني كنت معها أشبه بالسائس يريد أن يكبح الفرس الجموح من غير شكيمة ، أو بالسائق يحاول أن يقف السيارة المنحدرة من غير فرملة . لقد انفجر في صدرها شريان العواطف الطاغية ، فهو لا ينفك يفور بالهوى الجياش وينفح بالشهوة الدافقة . وهيهات أن يحبسه رقوء[1] أو ضماد ! أعياني الانفجار فتركت العرق[2] العاند ينزف ، ووقفت منه موقف الحائر المشدوه أنظر إلى العواطف المسفوحة وهي تتمثل في ألوان قوس الغمام ، وتتشكل في صور من الأخيلة والأحلام ، ثم تتحول إلى قطع من الأسجاع والأنغام ، فأعجب أو أطرب أو أغضب ، ولكني لا أملك غير ذلك ، ولا أستطيع وا أسفاه أن أصدها عن هذه المهالك !

أخذت كتبها تنثال على بعجيب الأحاديث وغريب الحوادث فأقرأها ولا أجيب عنها : لقد برزت في رسائل هذا الطور عارية ، فلا حياء على الوجه ولا احتشام على الجسد . صرحت بأنها لم تكن صادقة حين كتبت إلىّ في أول

---

(١) الرقوء ما يوضع على الدم ليقطعه ويجففه ويسكنه والضماد خرقة يشد بها العضو المؤوف .

(٢) العرق العاند : الذي يسيل فلا يرقأ .

الأمر تطلب المعرفة أو تبغى النصيحة ، إنما لبست هذ البرقع الكاذب لتستطيع أن تدخل على فى وضح النهار من الباب العام ، حتى إذا حصل التعارف و بدأ التآلف حسرت برفع الرياء ووضعت وجه المرأة أمام عين الرجل وقالت له ! ها أنا ذى كما خلقنى الله ووجهنى القدر ! خلت حياتى من كل عمل ومن كل أمل فلا أفكر إلا فى الحب ، ولا أحلم إلا بالحبيب . كنت فى المدرسة الداخلية لا أسمع من أترابى غير أحاديث الهوى ، يؤلفنها من حوادثهن وخيالهن ، أو يسرقنها من أمهاتهن وأخواتهن ، أو يروينها عن جاراتهن وصديقاتهن . فصديقتى فلانة تقول لى إنها عرفت صاحبها من النافذة وراسلته مع الخادمة وقابلته فى سينما مترو ! وصديقتى علانة تروى لى أن صاحبها صديق أخيها ، عرفته فى غرفة الاستقبال ، وكلمته فى حديقة المنزل ، ثم واعدته فى حديقة الأسماك ! وصديقتى ترتانة تحكى لى أن صاحبها صاحب سيارة ـ والسيارة لو تعلمين فخ البنات ـ رآنى أول مرة وأنا عائدة وحدى إلى البيت ، فعز عليه أن أمشى ، وناشدنى الله أن أركب ، وتعاهدنا على الوداد المحض فى طريق (ألماظة) ! وكانت كل واحدة منهن تصف القبل الطاهرة ، والعناق البرىء ، والحديث الغزل ، والخلوة العفيفة ، والخروج المختلس ، والرجوع الخفى ، والعلل المكذوبة ، والمواعيد المضروبة ، بأسلوب يحرك الساكن و يظهر الباطن و يجرىء الهيوب ، وأنا أصغى إلى هذه الأحاديث بحواسى الخمس حتى إذا خلوت بنفسى ورقدت على سريرى استذكرت هذه الأحاديث ، واستحضرت تلك الصور ، فأشعر بقلبى يذوب ، وبجسمى ينحلّ ، و بنفسى تساقط حسرات على مجهول لا أعرفه ومطلوب لا أناله وفى أكثر أيام الآحاد كانت إحدى قريباتى تجىء إلى المدرسة فتستأذن لى فى الخروج وتذهب بى إلى دور السينما فأرى أحاديث رفيقاتى وأمانىّ نفسى مصورة على الشاشة بالألوان الفاتنة والأوضاع المغوية ، فيماع جلدى بماع الثلج ، و يذوب صبرى كما يذوب الشمع ، وأتمنى لو لم تكن معى قريبتى ،

أو كانت قريبتى فى سن رفيقتى ! ثم أستشعر الحزن الممض والهم المبرح كلما تذكرت أنى سأعود وحدى إلى الغرفة الموحشة والفراش القلق !

وأخيراً تركت حياة المدرسة وجو القاهرة ، إلى حياة العزبة وجو الريف . جئت هذه العزبة التى وصفتها لك من قبل وفى ذاكرتى أجناس من أحاديث الهوى ، وفى حقيبتى أكداس من قصص الحب . فاتخذت من قمرية الحديقة محراباً لكيوبيد[1] أؤدى صلواتى ، وأتقرب بنزواتى وصبواتى ، والروايات الماجنة تثير عواطفى ، والمجلات الخليعة تلهب مشاعرى ، والرغبات الجامحة تملأ فراغى ، وليس بجانبى أم ترشد ، ولا بين جوانبى عقيدة تهدى ، فأنا أعيش فى دنيا القصص أقاسم بطلاتها قطوف اللذة ، وأساقى أبطالها كؤوس الصبابة ؛ فإذا سئمت القراءة وأجمت[2] الذكرى سليت همى برؤية حمامة تلاطف حمامة ، أو قط يسافد قطة ، أو فلاح يداعب فلاحة ، حتى ضاق وسمى بما اختزن من ذكريات أمسى ورغبات يومى ، فأردت أن أجد لى متنفساً بالكتابة ، ولكن الكتابة لم ترد على[3] ، لأنها منى وعنى وإلىّ . أريد أن أكون موضوعاً لمقالة أو حديثاً لرسالة أو عروساً لقصة . ولا يمكن أن أكون شيئاً من ذلك إلا إذا عشقنى كاتب فالكاتب وحده هو الذى يستطيع أن يحب من بعيد ! يستطيع بفنه الخالق وخياله المبدع أن يعايش من يحب روحاً لروح ، فيقابله من غير لقية ، ويحادثه من غير رؤية ، ويرسل إليه الكتاب فيكون هو اليوم الموعود واللقاء المنتظر والحديث المشتهى والأمل المرجو . والوداع المتوقع ! ولقد اخترتك لتكون حبيبى النائى ، تصف منى ما وصفتَ من (حياة) و (ليلى) ، وتترجم عنى ما ترجمت عن (شرلوت) و (جوليا) . وليس فى منطق الحب أن أقول اخترت

(١) كيوبيد : إله الحب عند الرومان .
(٢) أجم الشيء : عافه وكرهه .
(٣) ما يرد عليك هذا : أى ما ينفعك .

فتختار ، أو أردت فتريد . إن سلطان الحب طاغ لا يخضع لاختيار ولا يخشع لإرادة . وكيف يتسنى لنا أن نتحابّ ونحن لا نتراءى ؟ لو كنت أملك رؤيتك لأمكن أن يأسرك جمالى ، أو لو كنت أحسن الكتابة لجاز أن يسحرك خيالى إنما هو الرجاء والحظ ، وهو القضاء والقدر .

هذه خلاصة أمينة لما قرأت من رسائلها فى هذا اليوم أسجله فى مذكراتى ، وما أسجل فيها إلا ما له أثر فى نفسى أو خطر فى حياتى .

الأربعاء ٩ مايو سنة ١٩٤٥

كلمتنى ضحى اليوم بالتليفون تذكرنى بموعدها عصر الغد بجروبى ؛ وتعتذر من هذا التذكير بأنها تخشى أن تكون استجابتى لمواعيدها فى القاهرة كإجابتى عن رسائلها من العزبة . ولو لم يكن فى مكانى وهى تتكلم بعض المتزمتين لقلت لها إن الأمر بين الحالين جِدُّ مختلف ؛ فإن إجابتى عن رسائلها قد أصبحت من فضول القول بعد أن صارحتنى بأنها تطلب الحب ولا تطلب المعرفة ، وتريد الغزل ولا تريد النصيحة ؛ ولكن استجابتى لموعدها أدب من آداب النفس المهذبة ، يزيد فى الحرص عليه شوقى إلى رؤية وجه يتجلى فى اليقظة بعد أن تمثل لى طويلا فى الحلم ، ثم أملى أن ينجح فى كبحها اللسان بعد أن فشل فى كبحها القلم . ولقد استخفنى — علم الله — صوتها الموسيقى فى السماعة فهممت أن أطلب منها تقديم الموعد يوماً ولكننى لم أفعل ، لأنى أكبر نفسى أن تخضع فى أية حال لهواها ، ولأنى أوثر أن أقرأ ما بقى من رسائلها قبل أن ألقاها .

حملتها على قطع الحديث بأجوبتى البطيئة المقتضبة ، لأن الجالسين إلىّ كانوا قد كفوا عن حديثهم وجملوا بالهم لحديثى . وما أدرى أكان ذلك منهم اتباعاً لأدب السلوك أم استطلاعاً لحديث امرأة . وضعت السماعة وعدت إلى زوّارى الأكرمين أناقلهم أحاديث الأدب وأراجيف السياسة ، حتى انفض المجلس وخلا

المكتب فنشرت بين يدىّ ما عثرت عليه ليلة الأمس من بقايا رسائلها الحمر ، وأخذت أصفحها ورقة ورقة فألقى المكرر أو السخيف ، وأبقى المفيد أو الطريف . ثم رَجعت النظر فيما استبقيت فلم أجد غير رسالتين اثنتين تستحقان التلخيص والتسجيل ، وتستأهلان التعليل والتحليل ، فأثبتهما ملخصتين فى صفحة هذا اليوم من مذكراتى ، لتكونا تكملة لصورتها وتغذية لتصوراتى .

قالت الآنسة فى رسالتها ما ترجمته : « مالك تبتعد عنى متراً كلما دنوت منك فتراً ؟ لقد أوصدتَ بابك دونى ثم تركتنى أطرقه وأطرقه حتى أصم أذنىّ الطرْق وأنت لا تجيب ! هل تجد فى ردك على رسائلى إحراجاً لك أو إزراء بك أو تبعة عليك ؟ إن كنت لا تحبنى — كما أعتقد — فهلا تظاهرت لى بالحب إشفاقاً على هذا القلب الذى يحترق ولا يجد بَرْده إلا فيك ، ويذوب ولا يرى مساكه إلا بك ! كان يقنعنى منك أن تحبنى بالكلام حتى لا تظل موجة حبى حائرة فى الفضاء لا تجد جهاز استقبال ولا أذن مستمع ! لقد تركتنى بسكوتك عنى أشبه بالمصوِّت فى المغارة لا يسمع غير الصدى أو المتقطع فى المفازة لا يجد غير السكون ! أُريد أن أعرف هذا المجهول وأستدنى ذلك البعيد . يخيل إلىّ أحياناً أنه يناديى فى زفيف الريح ، أو يقبِّلنى فى انعطاف الغصن ، أو يعانقنى فى لين الفراش ، فأرهف أذنى ، أو أعرض خدى ، أو أنصب صدرى ، فلا أُحس والهفتاه إلا الرهبة والعزلة والفراغ . دعنى أبحث عنه فى كل مكان وأتصوره فى كل إنسان ، مادمت لا ترسله إلىّ بالبريد .

دخلت الحظيرة ذات صباح فرأيت الحلابة تحلب إحدى الجواميس فطاب لى أن أرى هذا المنظر ، وقام بى أن أجرب هذا العمل ، فأخذت الوعاء من فوق ركبة الحلابة ، وقعدت القرفصاء تحت بطن الجاموسة ، وقبضت بيمناى على حلمة من حلمات الضرع وجذبتها إلى فشخب اللبن حاراً فى يدى . ولذّ لى

لسبب لا أدريه أن أمعن فى غمز الحلمة وعصر الضرع وحلب اللبن ، شخبا فى الإناء وشخباً فى الأرض ، وقد دب فى بدنى رعشة خفيفة ، وسرى فى دمى نشوة لطيفة ، وجرى فى نفسى إلى الرجل المشتهى نزعة قوية ! ولا أدرى ما الذى ربط فى ذهنى بين حلب اللبن وشهوة الحب ، ولا بين رؤية الجاموسة وذكرى الحبيب ! ولكن ذلك كان وإن جهلت كيف كان ! ولا يزال الشوق إلى هذه اللذة يعاودنى فأذهب إلى الحظيرة فى الصباح والمساء حتى غدوت أبرع من يحلب فى العزبة من الرجال والنساء .

ماذا تصنع الفتاة الوحِدَة يا (حبيبى) لتهدىء قلبها الثائر ، وترضى هواها الطموح ، وتملأ فراغها الموحش ! أخى لا يترك الدوار ولا يتكلم إلا فى الزرع والضرع ، وزوجه لاتفارق الدار ولاتتكلم إلا فى الطهو والغسل ، وأنت لاتدع الصمت ولا تتكلم إن تكلمت إلا فى الفضيلة والفضل ! أما الكلام الذى يمتزج بالنفس ويأتلف مع الشعور فلاأسمعه إلا فى هتاف حمامة لإلفها ، أو حمحمة فرس لسائسها ، أو غمغمة بقرة لولدها ، أو تحية ابن البستانى لى وهو ذاهب إلى الحديقة أو عائد منها . وابن البستانى فتى ريان الشباب ، وثيق التركيب ، على وجهه وسامة ، وفى عينيه ملاحة ، وعلى شفتة جاذبية . يجىء أباه فى أكثر الأيام ليعاونه فى أعمال الحديقة ، فكنت كلما رأيته تمنيت أن أديم النظر إليه وأطيل الحديث معه ؛ ولكن الفروق الاجتماعية التى بينى وبينه كانت تكسر من طرْفه وتعقل من لسانه فلا ينظر إلا خلسة ولا يتكلم إلا جمجمة . دعوته ذات مرة ليقطف لى رمانة لم تصل إليها يدى ولا تجْناتى ؛ فلما قطفها وقدمها إلى وقف ينتظر أمراً آخر ، فقلت له بعد أن جسست بعينى نوافذ الدار وتماشى الحديقة : تعالى نقطف باقة من الزهر ، ونجن سلة من الثمر ، فمشى الفتى بجانبى على استحياء وحذر ، فأردت أن أزيل احتشامه فسألته فى لهجة تسيل

أنوثة وعذوبة : أمتزوج أنت أم خاطب ؟ فقال والخجل يضرج محياه : خطبوا لى ياسيدتى ابنة الخولى ، وستزف إلىّ فى موسم القصب . فقلت له ضاحكة : إذن سيكون شهر العسل عظيما ! . فنظر الصعيدى إلى مبهوتا كأنه لم يدرك النكتة ولم يفهم الجملة ! فقلت له : وماذا تقول لفتاتك إذا خلوت بها ! فأجاب الفتى فى حرج ودهشة : وكيف أخلو بها قبل الزفاف يا سيدتى ؟ إنى أراها فى الحقل أو أقابلها فى الطريق أو ألمحها فى البيت ، فتغض هى من طرفها ، وأشيح أنا بوجهى ، لكيلا تتلاقى النظرتان فنأمن مقالة السوء ونضمن دوام الخطبة . فقلت له وأنا أعبر بصوتى الممطوط عن الرثاء والشفقة : مساكين ! إن الخطبة عند المتمدنين تدريب وتجريب ومتعة . تدريب على الزوجية بالفعل ، وتجريب للشخصية بالخبرة ، ومتعة النفس بالرقص والرياضة والرحلة . إذا كانت خطيبتك بخراء فكيف تعرفها بغير القبل ؟ وإذا كانت مُصنَّة فكيف تكشفها بغير العناق ؟ وإذا كانت مذياعه[1] فكيف تمتحنها بغير الائتمان (سر) ؟ سأمثل معك دور الخطيبة الحبيبة رحمة بك وحنانا عليك ، وأعلمك ماينبغى أن تعمل، وألقنك مايجب أن تقول . وفى ظل شجرة فيناء من شجر التفاح أخرجت منديلى الرقيق فمسحت به ملاغم[2] الفتى ؛ ثم جذبت بيدى جانبى رأسه ، ودسست شفتى فى زاوية فمه ثم وثّقت القبلة وعمّقتها وطوّلتها وعرّضتها ، وكان الشاب قد صدمته المفاجأة فتصلب أولا ثم استرخى ، وأردت أن أنزع فمى من فمه فاستمصى . ورفعت بصرى إلى أعلى الشجرة فرأيت أفعى (حواء) بجانب التفاحة تريد أن تسقطها إلى ، ففررت مذعورة إلى المنزل . وفى اليوم التالى عدت إلى التعليم وعاد إلى التعلم . وكان الفتى فى هذا اليوم على غير عادته نظيف الوجه جديد الثياب جرىء القلب . فأطلنا الدرس وشفينا النفس وشققنا الحديث

---

(١) مذياعة : لا تكتم السر .

(٢) الملاغم : الفم وما حوله مما يبلغه اللسان .

وتعاقبت الأيام على هذه الحال الراضية فسكت فى رأسى صوت كان لا يفتر عن الصراخ . وسكن فى نفسى وسواس كان لا ينى عن الحركة . وكدت أشغل بالفتى عنك ، وباللهو المتحقق عن الحب المتخيَّل ، لولا أن أخى وقف من زوجته على الحقيقة ، فضربني علقة دامية وحرمنى النزول إلى الحديقة .

يوم الخميس ١٠ مايو سنة ١٩٤٥

كانت الساعة خمساً بالتمام حين دخلت مَحَلَّى جروبى الجديد أبحث عن الآنسة (س) . وكانت العلامة التى سأتعرفها بها أجد نسخة من (الرسالة) على المائدة التى تجلس إليها . ولـكن ماذا أصنع والناس قد فروا من وهج الحر فى قلب المـكان فتـكوفوا حول الموائد فى حواشيه ومماشيه فلا يجد المار طريقه بين المقاعد إلا بصعوبة ، والربيع الزاهر المعطار قد إخلع من حلله وحُلاه على الأشخاص والأشياء ، فالجو عطر ، والمنظر سحر ، والأزياء وشى ، والنساء وُرود ، والرجال أشواك ، والأحاديث أغاريد ، فلا أستطيع لشيوع الجمال وعموم الحسن أن أعرف صورة من صورة ولا أن أميز زهرة من زهرة ؟

لو كنت حديد البصر لنفضتُ المـكان من بعد ، فعرفت على أى منضدة تنام (الرسالة) ، وفى أى كرسى تقعد الفتاة ؛ ولـكن البصر كليل والمساء مقبل فلا مناص من الجولان المتهم بالفضول ، ولا بد من النظر القريب من اللمس . على أننى توخيت المناضد المنفردة فجملت وجهى إليها ونظرى عليها ، فلم أخط غير قليل حتى رأيت منضدة صغيرة عليها يدان رقيقتان تقلبان (الرسالة) . فـكنت فى خروجى برؤيتها من ربكة المشى وحيرة النظر أشبه بالزورق العائم فى ظلام المحيط أبصر فى المرفأ ومض المنارة ، أو بالسائر التائه فى مجاهل الفقر سمع فى الواحة نبض الحياة .

أقبلت عليها فاستقبلتنى واقفة كما يستقبلن النساء الرجال فى الريف ، ومدت

يدها إليّ فتصافحنا باسمين ، وجلسنا متقابلين ، وكلانا يصعِّد النظر في الآخر ويصوِّبه ، ويوازن في نفسه بين ما تصوره في الخيال بذهنه ، وبين ما رآه في الحقيقة بعينه . أما هي فلم أدر ماذا كنْت في خاطرها من قبل ، وماذا أنا في ناظرها الآن . وربما حملني العُجب المضمر في كل نفس أن أسألها عن ذلك في مؤتنف الأحاديث ، وأما أنا فقد كنت موزَّع النفس والحس بين صورتين تختلفان في الذات كل الاختلاف ، وتتشابهان في المعنى بعض التشابه فتاةالعزبة في نفسي كزنبقة الروضة المطلولة ، بضة الجسم ، لدنة القوام ، مطهمة الوجه ، قد نضَّرت وجنتيها النعمة وغلَّظت شفتيها اللذة ، وسوّت خَلقها الطبيعة ؛ وفتاة (جروبي) في حِسى نُوارة من نوار القول أبطأ عن حقله الماء ، فهي رقيقة البدن ، مخروطة الوجه ، دعجاء العين ، فاترة اللحظ ، طويلة الأنف ، ظمياء الشفة ، حلوة الافترار ، هواها أكبر من جثمانها ، وقلبها أجرأ من لسانها . وخبرها أضخم من عِيانها ، ولكنها على الجملة وضيئة الطلعة ، مليحة القسمات ، لطيفة الروح ، تحمل الرجل بصباحة وجهها وصراحة قلبها على أن يأنس بها إذا حضرت ، وأن يفكر فيها إذا غابت .

قلت لها بعد التحيات المنوعة والترحيب المكرَّر والأسئلة المعتادة : لقد انقطعت رسائلك عني منذ شهر فلم أعرف الأسباب التي أقدمتك إلى القاهرة . وما أحسبني أعلم أن لك هنا أقارب تصلين رحمهم بالزيارة ، وتمتحنين كرمهم بالضيافة . فلعلك قدمت أخيك أو بعض أهلك لغرض من الأغراض الخاصة أرجو ألا يكون من بينها المرض . فقالت الفتاة وقد أرسلت نفسها على سجيتها بعد احتشام من اللقاء الأول لم يدم طويلا : ليس بجسمي والحمد لله ما أشكوه . ولنا في حي المنيرة منزل موروث تقيم فيه أختي الكبرى وزوجها وابنتاها ؛ فأنا نازلة عليها به ، ومطمئنة إلى حياتي فيه . وأما سبب قدومي فله حديث عرفت بعضه وغاب عنك بعضه ، ولو كنت مطلقة اليد لما انقطعت رسائلي عنك ،

ولا التبست أمورى عليك . ذكرت لك فى رسالتى الأخيرة — لو تتذكر — ما كان بينى وبين ابن البستانى ، وكيف استرقت زوجة أخى هذا السر من أفواه الخدم وأفشته إلى زوجها ، وما أعقب ذلك من الضرب المبرح ، والحجاب الكثيف ، والمراقبة الشديدة وكنت أظن أن لذلك العقاب حداً يقف عنده ووقتاً ينتهى فيه ؛ ولكن العذاب اشتد وامتد حتى ضاق مكانى فى البيت ، وساء مقامى فى الأسرة ؛ فأخى يعاملنى بقسوة ، وزوجته تكامنى بجفوة ، وخادماته القرويات ينظرن إلىّ بازدراء . ومما سوّد نهارى وأطال ليلى أن أخى صادر بريدى فحرمنى أن أقرأ ما أحب ، وأن أكتب إلى من أريد ، فأصبحت كسجينة الزنزانة محرومة من أعتبار النفس واستثمار الأنس واستحضار الوجود .

كان لابد للإناء أن يطفح ، وللجلد أن يهى ، وللصبر أن ينفد ، فوطنت نفسى على الفرار إلى القاهرة . ولكن كيف الفرار وليس فى يدى مال ولا فى قدرتى مشى ولا فى أسرتى مساعد ؟ الأمر سهل ! بين العزبة والقرية مسافة قصيرة وسكة معبدة ، وبين أخى وعمدتها صداقة وثيقة ومعاملة متصلة . وهو يعرفنى منذ أن كنت طفلة ، ويسأل عنى كلما زار الأسرة ؛ فإذا ذهبت إليه وطلبت منه باسم أخى بعض المال فما أظنه يمتنع أو يتلكأ أو يستريب ؛ على أن معى خواتمى وأساورى فأستطيع أن أستعين ببعضها إذا حبطت هذه الخطة . وفى تباشير الصبح قبل أن يتيقظ البيت ويسرح الفلاحون وضعت ألزم أشيائى وأخفها فى حقيبة صغيرة ، ثم تسمت إلى الطريق الذاهب إلى القرية . وكانت الأرض قد طلها الندى ، والنبات قد كلله الحباب ، والطبيعة الراقدة تحت جنح الليل قد أخذت تستفيق وتنتعش وتتحرك ، فالطير تصدح بأغاريد الصباح ، والشجر يتجه بالتحيات إلى الشمس : وآحادٌ من الفلاحين المبكرين ينقلون كالأشباح خُطاهم الوئيدة على ضفاف القنوات وحواشى الزروع ، وأنا

فى هذه الصحوة الجميلة أسير بين حقول القمح خائفة مسرعة ، أترقب كل أمر ، وأتأهب لكل طارىء ، فأعد لكل سؤال جواباً ، ولكل تصرف علة .

وستر الله علىّ حتى بلغت القرية وطرقت باب العمدة ، فتلقانى أهله بوجوه منطلقة وصدور رحبة ، ثم قدموا إلىّ الفطور فنلت منه ما ينال العجلان القلق . ثم دخلت على العمدة فى غرفته وقلت له : إن أخى غائب فى المدينة ، وقد أبرقت أختى إلىّ تنبئنى أن ابنتها فى نزاع الروح وأنها فى حاجة إلىّ ، فلا بد من سفرى فى قطار الصباح وليس معى نقود . فما كان جواب الرجل إلا أن قدم إلىّ عشرة جنيهات وأمر الحوذى أن يهيىء لى العربة .

دخلت القاهرة عشية يوم الأحد الماضى ، وكان حالى وأنا أسير فى زحمة الخارجين من المحطة حال الهارب من السجن ، يتوهم فى كل مكان جاسوساً يسمه ، وفى كل طريق شرطياً يتبعه . فلم تكد عينى تقع على سيارة أجرة بجانب افريز حتى دخلت فيها وقلت للسائق : المنيرة ، شارع كذا ، رقم كذا . وما هى إلا عشر دقائق حتى وقفت السيارة أمام البيت ، فصعدت الدرَج ، وغمزت الجرس ، فأسرعت أختى فى لهفة إلى باب الشقة وفتحته وهى ترتجف ، وعانقتنى وهى تنتحب ! وكان مبعث ذلك كله أن أخى أرسل برقية إلى زوج أختى يعلن إليه هربى ، ويلح عليه فى طلبى ، فساورت أختى الهموم ، وتنازعتها الظنون ، وعلات هذا الهرب بما أقاسيه فى العزبة من العدوان المستمر ، والحرمان المتصل ؛ لأن أخى لا يهتم بها فهى تسىء به الظن ، ولأن امرأته لا تخفّ على قلبها فهى تعتقد فيها الظلم ! وقويت أنا فى نفسها هذا التعليل بما افتريت من الأكاذيب واختلقت من المظالم . فكتبت أختى إلى أخى تسترضيه عنى وتسأله أن يأذن لى فى البقاء معها أياماً لتجلو عن جسمى هذا المرض ، وتكشف عن نفسى هذا الهم . ولكننى قطعت العزم على أن أموت هنا ولا أعيش هناك ، وأن أخسر رضا الناس أجمعين إذا كسبت رضاك .

يوم الجمعة ١١ مايو سنة ١٩٤٥

كان لحديث لقائنا الأول بقية ضاق عن تسجيلها الوقت في صفحة الأمس فأنا أسجلها ملخصة في صفحة اليوم .

قلت للآنسة (س) بعد أن قصت عليّ مغامرتها الحمقاء بخروجها من العزبة شريدة ، وسفرها إلى القاهرة فريدة : إن حكايتك في تحررك من أخيك أشبه بحكاية العنزة (بلانكيت) في تحررها من سيدها (سيجان) .

قالت وما خبر هذه العنزة ؟ قلت : خلاصة خبرها فيما زعم (ألفونس دوديه) أنها كانت عنزة جميلة الشكل خفيفة الظل ذات قرنين مفوّفين[1] ، وعينين كحلاوين ، وشعر أبيض ناصع ، وظلف أسود لامع ؛ وأنها كانت تعيش في حظيرة مولاها عيش الرافهين الأغرار ، تنزو وتلعب في حبلها الطويل ، وتأكل وتشرب في مذودها الحافل . وفي ذات يوم أطلت من النافذه فأبصرت الجبل يوشيه الزهر ، والسهل يغشيه النبات ، فقالت لنفسها . يالله ! ما أجمل الحياة هناك ! وما أسعد من ترتع في تلك المروج طليقة من هذا الحبل ! ما للمعز وللحظائر والقيود ؟ إنها بالحمير والبقر أخلق . ومنذ تلك الساعة غرضت[2] العنزة من المكان ، وبرمت بالقيد ، وعزفت عن الطعام ، حتى هزل بدنها وشح لبنها . وكان السيد سيجان كلما دخل عليها الحظيرة وجدها جاثمة على الأرض أمام الباب ، تنظر نظر المشوقة ، وتثغو ثغاء الولهى فأدرك آخر الأمر أن بها شيئا تخفيه . فسألها : ماذا بك يابلانكيت ؟ لعل حبلك قصير فأطيله ، أو علفك قليل فأزيده ! فقالت العنزة مغضبة في غير اكتراث : أرخ نفسك ياسيد سيجان ، فليس ما أشكوه قصر الحبل ولا قلة العلف .

---

(١) القرن المفوف : المخطط .

(٢) غرض منه : ضجر ومل .

— إذن ماذا تشكين ؟

— أشكو القيد .

— وماذا تريدين ؟

— أريد الجبل .

— الجبل ؟! ألم تسمعى أن هناك الذئب ؟

— بلى سمعت ، ولكن لى قرنين طويلين يخشاهما الأسد .

— ليس قرناك يامسكينة أطول من قرنى أختك (رينود) ، فقد صاولت الذئب بشجاعة طول الليل ، ولكنه أفطر عليها فى الصباح !

— يالامسكينة ! ولكن لا بأس . دعنى بربك أجرب حظى مع الذئب ياسيد سيجان .

فلما رأى سيجان أن عنزته لا يقنعها المنطق ولا يعظها التاريخ ، حبسها فى حجرة بالحظيرة ثم أغلق عليها الباب . ولكنه نسى أن يغلق النافذة ، ففرت منها إلى الجبل ، ورأى الجبل فى بلانكيت غير ما رأى فى سائر المعز من جمال اللون وحسن الشارة ، فلقيها لقاء جميلا ، وأمر أشجاره أن يظلان لها الطريق ، وأزهاره أن يعطرن لها الجو : ووجدت العنزة نفسها مرسلة من كل قيد ؛ فلا وتد ولا حبل ولا جدار ، فأخذت تمرح فى الخلاء الرحب ، وتسرح فى الكلأ الرطب ، وتوازن فى اشمئزاز بين ضيق الحظيرة وسعة المرج ، وبين تفاهة العلف ومراءة العشب ، فتحمد الله على ما رزقها من نعمة الحرية ومتعة العيش . فلما قضت حاجتها من الشبع والرى ، أخذت تثب فى الهواء ؛ وتركض على الأرض ، وتقفز فوق الصخور ؛ ثم تبلل شعرها بماء الغدير ، وترقد لتجففه بحر الشمس ، ثم تنهض فتصعّد فى شعاف الجبل حتى تقف على قمته ، فيخيل إليها من فرط

الصلف وسحر الغرور أنها حورية مرجه وملكة واديه ! وبينما هي ترسل النظر الساخر من ذروة الجبل إلى حظيرة سيجان أبصرت قطيعاً من الوعول ينال من شجر الكرْم فيحلب ريقها شرهاً إليه ، وما هي إلا وثبات حتى نزلت على القطيع ففسح لها المجال بأدب ، وقرب إليها المنال في لطف . ثم وقع بقلبها بعض الوعول فاختلت به ساعة أو ساعتين في ظلال الغاب . وجملة القول أنها قضت يوما من أيام الجنة لم تقضه قبلها عنز من عناز سيجان ، ولا نعجة من نعاج داود[1] .

ولكن الهواء برد والمساء أقبل ، فخشعت الأصوات ، وسكنت الحركات وانبعث من جانب الحظيرة بوق السيد سيجان يدعو الآبقة إلى الرجوع . حينئذ تذكرت الذئب وقد أنساها إياه قصف النهار ولهوه ، فاعتراها شيء من الحيرة والتردد ؛ ولكنها تذكرت كذلك الوتد والحبل فطت شفتيها وأصمت أذنيها وقررت البقاء . وانكفأت بلانكيت تبحث عن مرقد وثير في مغاور الجبل فرأت بين الأوراق أذنين مصرورتين[2] تحتها عينان تشمان الخطر ، وتقدحان الشرر ، فعلمت أنه الذئب ؟ وأرادت أن تمضي في سبيلها ، فضحك منها الذئب حتى بدت أنيابه العُصل[3] ، واندلع لسانه الغليظ ، فاستيقنت الموت وتذكرت ما سمعته عن مصرع العنزة رينود ؛ فهمت بالاستسلام ؛ ولكن بدالها أن تدافع لا لأنها تعتقد أن العنزة تقتل الذئب ، ولكن لأنها تربأ بكرامتها أن تكون أقل شجاعة من رينود ، والحق أن بلانكيت اضطرت الذئب إلى أن يستريح عشر مرات أثناء المعركة ، وفي كل استراحة كانت تملأ فمها بالعشب الندى ، وترقب طلعة الفجر في الأفق الحالك ، ثم تعود إلى الصراع ؛ حتى لاح الضوء الشاحب ، وصاح الديك المؤذن ، نخرت شهيدة الحرية بين يدى الذئب وهي تلفظ مع نفسها هذه الجملة :

---

(١) نعاج داود : كناية عن النساء .

(٢) صر الحيوان أذنه : سواها ونصبها للاستماع .

(٣) الناب الأعصل : الأعوج .

الحمد لله قد بلغت أمنيتى ، وإن لحقت بى منيتى !

* * *

قالت الفتاة : قصة طريفة ! ولـكنى أعدك مادمت عندك أن ألزم الحظيرة ولا أفك القيد ولا أخلع الزمام . فقلت لها : لا تنسى يا بنيتى أن حظيرتك عند أخيك لا عندى ، وأن حريتك فى قيده لا فى قيدى ، وأن زمامك بيده لا بيدى . وهيهات أن أكون لك إلا أباً يشفق أو أخاً يعين أو معلماً يرشد . فقالت وهى تنهنه عبرة تريد أن تقطرُ : ليـكن ! حسبى أن أراك وأن أسمعك ! لقد حاولت أن أغويك فلم أستطع ، فحاولت أنت أن ترشدنى فلعلك تستطيع . سأجعل فى يديك مقاليد أمرى ، وأودع بين جنبيك مكنون سرى . وسأتبين معالم الطريق فى ضوء مصباحك ، وأنشد سكينة القلب فى ظل جناحك . فقلت لها أعاننى الله وأعانك . ثم افترقنا ونفسى تغالب الضلال ونفسها تغالب الهدى ، وما تدرى نفسى ولا نفسها ماذا نـكسب غدا !

يوم الخميس ١٧ مايو سنة ١٩٤٥

كان لقاؤنا الثانى فى مطعم (الـكرسال) ظهر هذا اليوم ؛ وكنت قد واعدتها على هذا اللقاء ساعة انصرافنا من جروبى . وكانت هى شديدة الحرص على أن نلتقى كل يوم ، ولـكننى أقنعتها بأن نجعل بين اللقاء ين أسبوعاً لتعرف فيه خبيئة نفسها ودخيلة هواها ، لترد يوم ترد عن بينة ، وتصدر حين تصدر عن بصيرة . سبقتها إلى الموعد فى هذه المرة فتخيرت مائدتنا فى ركن من أركان المطعم الفخم ، ولم يكد يطمئن بى الجلوس حتى رأيتها مقبلة فى زينتها الـكاملة : فرأسها الفرتيتى الساحر قد خلص من يد الحلاق الساعة ، وفستانها الفيروزى الأنيق قد خرج من محل الخياط اليوم ، وشنطة يدها اللازوردية المعلقة على كتفها قد تدلت فى فراغ الخصر واستقرت على الجانب ، وشفتاها القرمزيتان قد انفرجتا

عن ثغرها الشتيت لتلقى التحية ثم تواصل الحديث. وكانت الجوقة حينئذ تعزف لحناً رقيقاً رفيقا ينسجم مع شحوب الضوء وهدوء المكان ونشوة الجلاس، ولكنها جعلت دَبْرَ أذنها[1] وفضلت أن تتكلم على أن تسمع. فأخذت تناقلني على الطعام شهي النوادر وطلي الأخبار حتى جرها الحديث إلى أنشودتها الغرامية المعتادة، فعطفتها برفق إلى حديث يوم الأحد الماضي وسألتها: لعلك في هذا الأسبوع قد وجدت النور الذي تفتقدين، والسلام الذي تنشدين!

فقالت وهي تُنفض رأسها إليّ: أي نور وأي سلام وقد شد الله عضد شيطاني بشياطين أُخر؟ لقد وجدت في بنت أختي وأترابها من الإغواء ما يضل العابدة بلفظة، ويفتن الراهبة في لحظة!

فقلت لها: إذن لابد من الرجوع إلى العزبة.

فقالت: أرجع إلى الوتد والحبل؟ لا ياسيد سيجان! دعني بربك أجرب حظي مع الذئب!

لم أكن بعد ذلك في نصيحتي لبلانكيت إلا كمن يرقم على ماء أو ينفخ في رماد ففوضت أمرها إلى الله ثم افترقنا على غير ميعاد.

يوم الأحد ٢٩ يولية سنة ١٩٤٥:

أخذت الفتاة منذ يوم الكرسال تطاردني بالتليفون ثم بالرسائل ثم بالرسل تريد أن نتلاقى في شرفة فندق من الفنادق الكبرى، أو في مقصف حديقة من الحدائق العامة، فكنت أجيبها بالمعاذير، أو أعللها بالمواعيد، أو أدافعها بالمطل، حتى الجأت آخر الأمر إلى الخديعة فادعت أنها ملت حياة المدينة،

---

(١) جعلت كلامه دبر أذني: لم أصغ إليه ولم أقبل عليه.

وحنت إلىّ حياة الريف ، وأنها تود أن تلقانى لقاء الوداع لأنهج لها الحياة التى تحياها فى العزبة ، وأنتقى لها الكتب التى تقرأها فى العزلة ، وأعين لها الغاية التى تتوخاها فى المستقبل . فقلت لنفسى المرتابة : ولم لا يجوز أن يكون الله قد كشف للفتاة عن بصيرتها ، وأراد للشاردة أن تعود إلى حظيرتها ؟ ثم واعدتها السادسة من مساء هذا اليوم فى شرفة الكنتننتال . فلما التقينا أخذت تبدىء فى العتاب وتعيد ، وتلوم على الصدود وتحتج ، وتعبر عن الشوق وتبالغ ، وأنا قبالتها هادىء النفس ، رزين الشعور ، أسمع عتابها ولا أعتذر ، وأقبل احتجاجها ولا أعترض ؛ حتى إذا قرت الفورة وسكنت الريح قلت لها وقد لاحظت أن لسانها قد طال وأن احتشامها قد قل : أرجو أن تكونى قد سئمت الجبل ولما يلقك الذئب يا بلانكيت !

فضحكت الفتاة بملء فمها ، ثم قالت : آوه ! أنا أسأم الجبل ؟! لقد وجدت فيه حرية نفسى ومتاع قلبى ؛ أما ذئابه فقد تألفتها حتى صارت كلابا ، وأما نموره فقد رُضتُها حتى عادت هررة .

— إذن ما هذا الذى تزعمين من أنك عزمت الرجوع إلى العزبة ؟

— ما أصنع ؟ جربت الصدق فى استدعائك فأخفق ، فقلت أجرب الكذب !

— أظنك تذكرين أنى عينت مكانك منى فى حديث سبق ، فوضعتك فى موضع البنت أو الأخت أو التلميذة . ولكنك عققت الأب ، وجحدت الأخ وعصيت المعلم ! فماذا عساى أن أملك لفتاة ركبت رأسها وظلمت نفسها وأنكرت حِجاها ؟

— تملك أن تكون لها الصديق الذى يضاعف سرورها ويحفظ سرها . وتملك أن تكون لها الفنان الذى يرضى شعورها ويفهم شعرها . إن لروحى

حا الجسدى من الرغائب والمتع ؛ وقد أجد مايلذ النفس والجسم فى ملاهى القاهرة وأفاكيه الناس ، ولكننى لا أجد مايلذ العقل والروح فى غير لقائك والحديث إليك .

لقد كنت وأنا فى العزبة كلما أحسست أن هواى يستبد ، وخطاى تتعثر ، وخطاياى تثقل ، كتبت إليك بما اعتزمت أو اجترمت ، فأشعر بما يشعر به المسلم الذى تاب إلى الله فغسل بتوبته حَوبته ، أو المسيحى الذى اعترف للقسيس فمحا باعترافه خطيئته .

كذلك وأنا هنا أحس بأثقال نفسى تبهظ قواى ، فأنا أريد أن أخفف منها بالاعتراف لك بها . وقديما قالوا : لا ذنب لمن أقر . والاعتراف يهدم الاقتراف .

ثم استمرت الفتاة تقول دون أن تنتظر تعقيبى على كلامها أو موافقتى على استرسالها :

ظفرت من أختى وزوجها بالحرية التى لا تحفل التهمة ولا تبالى المراقبة . ووجدت فى ابنة أختى وصواحبها النمط الذى تجمعه وحدة الهوى وتملكه شهوة المغامرة ، فالخروج من البيت غير مقيد بسبب ، والرجوع إليه غير محدد بزمن ، والبيت كالفندق يجتمع فيه أهله للأكل والنوم ثم لا يسأل أحد الآخر أين كنت ولا متى عدت !

خرجت أول ماخرجت مع زوزو ابنة أختى إلى معارض الأزياء ومجالى الزينة فى شارع فؤاد . وكنا ساعتئذ فى الضحى ، والشبان يملأون رصيفى الشارع كأنما كانت المدارس فى إضراب أو عطلة . فمشينا مشية العروس فى ثياب الربيع ووشيه ، نقف هنا ونميل هناك ، ونستحسن هذا ونستقبح ذاك ، وزوزو تلمح اللمحة أو تبتسم البسمة فتكون مغناطيسا يجذب القلب الحديد ويوهن الإرادة

الصلبة . ثم التفت فإذا وراءنا أفراد وأزواج من الأيفاع والشبان والكهول يوقعون خطاهم على ما نرسم ، ويرهفون آذانهم لما نقول فنبهت زوزو ، فقالت : أعلم ! ثم مالت بى إلى معرض (شملا) فاخذنا نقلب النظر فى معروضاته من وراء الزجاج ، حتى وقع فى أسماعنا صوت رقيق يدعونا إلى نزهة فى (كاديلاك) ، فتشاغلنا فكرر ، ثم تجاهلنا فألح ، ثم تصاممنا فجهر ، ثم تجهمنا فمزح ، ثم تضاحكنا فهجم ، ثم التفتنا ، فأشار إلى السيارة ، فسرنا بجانبه صامتتين شامختين كأنما كنا ننتظر سائقنا ليرجع بنا فى عربتنا إلى المنزل !

كان للفتى رفيق ينتظره فى مكان القيادة من السيارة ؛ فلما رآنا هش بوجهه ورحب بلسانه ثم فتح الباب . فركبنا نحن الأربعة إلى جزيرة الشاى ، فشربنا بالأكواب الصغيرة ، وأكلنا فى الصحون الكبيرة ؛ ثم ساعدنا المعدة على الهضم بجولة فى الحديقة خرجنا فيها قليلا عن المألوف من المزح والدعابة . حتى إذا فتر الحر وهبت نسمات الأصيل ، ذهبنا نستنشق أنفاس الصحراء من وراء (مينا هاوس) ، ثم عدنا فقضينا الهزيع الأول من الليل فى سينما (ديانا) ، ثم رجعنا فى الكاديلاك بعد العشاء إلى البيت ، فوجدنا الصالون قد أخذ زينته ممن حضرن من صواحب زوزو ، وكنّ يقضين ساعة انتظارنا فى العزف والقصف والرقص . أخذنا مجلسنا بينهن ، وأخذت كل واحدة منهن تنشر على الأخريات خوائن عيبها ودفائن صدرها ، فاستنتجت من جملة أحاديثهن وحوادثهن أنهن يتغامرن إما طلبا للزواج ، وإما رغبة فى المال ، وإما ابتغاء للهو ، وإما حبا للزهو فاللائى يطلبن الزواج يتعرضن للشباب أو الأعزاب ، يترصدنهم فى كل طريق ، ويتصيدنهم بأى وسيلة . واللائى يرغبن فى المال يتوخين الكهول والشيوخ ، فيبذلن لهم ظواهر اللذات أو بواطنها ابتغاء الهدايا من ثياب وزينة وعطر . واللائى يبتغين اللهو يخترن ذوى الوجوه الحسان والطباع الفكهة ، فيساقينهم كأسا بكأس ، ويبادلنهم متاعا بمتاع واللائى يحببن الزهو ينشدن أولى الجاه النعمة

حقيرا كبنهم فى العربات الفخمة ، ويجالسنهم فى العظمى . وهؤلاء جميعا قد ينجحن ، إلا طالبات الزواج فإنهن بالتجربة يخسرن حيث يرجون الربح ، وينقصن حيث يبتغين الكمال .

تركت زوزو تذهب إلى موعد الشابين فى عصر اليوم التالى ومضيت وحدى إلى مواطن الفتنة ومزالق الصبا لأشعر بعزة الاستقلال وأنعم بلذة المغامرة . فما كان أدهشنى حين علمت من نفسى أنى فتانة بالطبع ، خداعة بالفطرة ، ألحظ فيصبو الشيخ ، وأفترّ فيخف الحليم ، وأشير فيعنو المتكبر ، وأطلب فيسخو البخيل ؛ وأقلب فى كفىّ النفوس والقلوب فلا أجد نفسا تتأبه عن ضراعة ولا قلبا يتأبى على امرأة .

أولعت على الأخص بتجار الكلام من المحامين والصحفيين والممثلين لأنهم يحسنون الحديث، ويجيدون الكتابة ، ويجمّلون الواقع . وقد أغويت منهم حتى اليوم أربعة عشر رجلا بين شاب وكهل ، وغنى و فقير ، وكيّس وأحمق ! وسأقص عليك حديث كل منهم لتعلم كيف يجعل الله من الرخاوة سلطانا ومن الضعف قوة . فقلت لها وأنا أصفق للنادل وأتهيأ للقيام :

حسبى يا ابنتى ! لقد رأيت العيّنة وسمعت البيّنة . وما أحسبك تذكرين هذه المخازى لتندمى عليها وتتوبى منها ؛ إنما تذكرينها كما تذكر العاشقة ما جرعت من رحيق الحب لتلتذ ؛ وتجترّينها كما تجترّ (بلانكيت) ما أكلت من زهور المرج لتهضم . لايغرنك يامسكينة أنك لقيت أربعة عشر خروفا فى السهل وزيادة ؛ فإنك عما قليل ستلاقين ذئبا واحداً فى الجبل وكفى !

يوم السبت ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٤٥ :

ظلت الفتاة أسبوعين بعد لقائنا فى الكنتننتال تتردد فيهما على مكتبى ، فلا تجد الفرصة مواتية لتقول مثل ما كانت تقول ، ولا الجلسة خاصة لتسمع مثل

ما كانت تسمع . ثم انقطع عنى عِيانها وخبرها فجأة ، فلم أعد أراها فى المكتب ولا أسمعها فى التليفون ، ولا أقرأها فى البريد ؛ فملأت هذا الانقطاع بما يجوز من العلل فى مثل هذه الحال ، ولكنها لم تعدُ أن تكون ظنوناً لا يطمئن عليها البال :

هل عادت إلى القرية ؟ ولكن لماذا لم تودعنى قبل سفرها ؟ ولماذا لم تخبرنى بعودتها وهى تعلم أنى أسر بخبرها ؟

هل أصابها مرض ألزمها الفراش ؟ ولكنها مرضت قبل ذلك فلم يمنعها المرض أن تبعث إلىّ برسالتها مرة وبرسولتها أخرى .

قل قطعت بينها وبينى الأسباب ؟ ولكنها قدمت منى بالسبب الضعيف الذى لا يربط ، فلا ينفعها أن تقطعه ولا يضرها أن تصله . إذن ما عسى أن تكون العلة الصحيحة لانقطاع خبرها عن على هذ الشهر كله ؟

كنت أدير فى خاطرى هذا السؤال حين ألقى إلىّ البريد فى مساء هذا اليوم كتاباً ورقه كذلك الورق . وخطه كذلك الخط ؛ ولكن أسلوبه مختلف وإمضاءه مغاير ا من تكون (زوزو) هذه التى تكتب إلىّ بهذا الطول وتخاطبنى بهذه اللهجة ؟ عرفت بعدما قرأت أنها ابنة أختها ، وأنها تقص علىّ فى هذا الكتاب مأساة خالتها ، وما غاب عنى من عقدة هذه المأساة ونهايتها .

سألخص كتابها فى صفحة هذا اليوم من المذكرات وهو التاسع والعشرون من شهر سبتمبر لأرفه عن نفسى المحزونة بهذا الأسلوب الطريف ، ولأكمل به هذه القصه التى بدأت فى الربيع وانتهت فى الخريف !

قالت الآنسة زوزو ما معناه : أكتب إليك ياسيدى ولست غريبة عن بالك ، فإنك سمعت بى ولا شك من خالتى المسكينة (ص) وقد كنت رسولتها إليك فى ذات يوم لو تذكر . ولطالما حدثتنى عن أثرك فى نفسها فأشتهى أن أراك

وخوفتني من رأيك في مثلها فأستحي أن تراني ! ولولا أن في ذمتي عهداً لخالتي ورفيقتي أن أقص عليك عاقبة أمرها لما أبحت لنفسي أن أبكيك بذكر الأليمة وخاتمتها المحزنة .

لقد لقيها الذئب فعلا ياسيدي ! لقيها في أصيل يوم من أيام أغسطس الأخيرة ، وكان الحر فيه يزهق النفوس ويضيق الأنفاس ؛ فجلسنا أنا وهي في (سان سوسي) بميدان الجيزة نستروح نسيم النيل ونستنشي عبير الرياض . وكان الذئب يجلس إلى المنضدة التي تقابلنا في زي شاب وضيء الطلعة ظريف الهيئة ، فخالسنا النظر وخالسناه ، وأشار أن يجالسنا فجالسناه . وعرفنا من فحوى كلامه أنه مخبر في إحدى جرائد الصباح ، فزويت وجهي عنه لأنه لم يكن من الصنف الذي أتعاطاه . ولكنه كان حسن الحديث حاضر البديهة بارع النكتة لطيف الدعابة ، فاستخفت خالتي ظله وصغت إليه . وقضينا في مقاولة الطرائف والأسمار أربع ساعات كانت أربع سنوات في رفع الكلفة بينها وبينه . ثم عدنا مع الفتى في الترام إلى المنيرة ، وهنالك ودعناه وواعدنا . وباتت خالتي على هوى جديد لم نذق مثله منذ قدمت القاهرة ونازعت الندمان كؤوس الحب !

تجدد بعد ذلك الموعد ، وتعدد اللقاء ، وتأكد الود ، حتى أصبحت تخرج وحدها إليه ، فيقضيان أواخر النهار وأوائل الليل متنقلين في القاهرة بين مقاهيها وملاهيها ، وبين أرباضها ورياضها ، فيتساقيان اللهو ، ويتقاسمان الصفو ، والشاب يبذل لها من الوعود : مقدار ما تبذل له من النقود ؛ فيزعم أن أحد الأحزاب المعارضة سينشىء له صحيفة ، ويشتري للصحيفة مطبعة ؛ ويبني للمطبعة داراً ؛ وأن رئيس الحكومة قد بلغه ذلك ، فهو يساومه على قلمه الحوّل القلّب ؟ وعمّله الخرّاج الولّاج ، بمورد ذهبي يتفجر في بيته كل شهر من خزانة الداخلية وخزانة الحزب ، وهو على يقين جازم من أحد الموردين إن لم يكن من كليهما . ولذلك

أمر سماسرة البيوت أن يبحثوا له عن دارة فى المعادى ، ووكلاء السيارات أن يسجلوا اسمه على سيارة (بويك) ؟

ماذا تصنع خالتى وقد جمع الله لها كل أمانيها فى هذا الصحفى الشاب ؟ حب مكنون يملأ شعاب القلب ، ومنطق معسول يلائم هوى النفس ، ومستقبل مأمون يضمن رفاهية العيش ! أخلدت إليه بالثقة ، ورفّت عليه بالأنس ، وقبلت أن تزوره فى غرفته الخاصة على سطح من سطوح المنازل الحقيرة ! وهنالك رأت أن ثروة الشاب لاتزيد على بدلة نظيفة فوق جسمه ، ولسان ذهبى فى فمه ، وطمع أشعبى فى قلبه ! ولكن الهوى يعمى ويصم ، والشباب يغوى ويضل ، والشراب يغرى ويجرىء . فباتت لأول مرة فى بيت غير بيتها ، من دون إيذان لرفيقتها ولا استئذان من أختها !

وفى الصباح أفاقت المسكينة من سكرة الهوى، فأحست بمقرة الذنب ! فقالت له وهى تمزج الدم بالدمع : ما علاج هذا الأمر وأخى لايزال على حفاظ أهل الصعيد : يفرق بين الحرية والإباحة ؛ وبين المدنيـة والتبرج . فهو يسامح الا فى الشرف ، ويغضى إلا عن العرض ؟

فأجابها الفتى باسماً : العلاج الزواج . وكان قد علم من قبل أن لها مالا مدخراً وأرضاً مستغلة ؛ فالزواج له فرصة ، ولكنه لخالتى غصة . فقالت له : إن أسرتنا تشترط فى الزواج التكافؤ فى الطبقة والثروة ؛ وحالك على ما أرى لاتطمعك فى رضا أهلى . فقال لها الفتى فى إصرار وقوة : المهم أن نستر بالزواج جريمة العرض ؟ أما جريمة الفقر فجريرتها هينة ، وعقوبتها محتملة . وسنجابه أخاك بالأمر الواقع فيثور قليلا ثم يسكن ، ويغضب طويلا ثم يرضى .

وصارحت الأخت أختها بالحادث والحديث ، فباركت أمى الخطبة وأقرت الزواج . واتفقت الحماة والعروسان على ليلة العقد وحفلة الزفاف . وتسامع الناس

بالخطبة المفاجئة والقران الخفى ، فظنوا الظنون ، وتقولوا الأقاويل ، وأبرق بعضهم بهذه الشائعات إلى خالى فلم يبت إلا فى القاهرة .

تطلب منى المحال إذا طلبتَ أن أصف لك كيف دخل خالى الصالون فوجد المأذون وبيده الدفتر ، وأبى وبإزائه العريس ، وأمى وبقربها العروس ، والبواب وبجانبه الشاهد الآخر . وهؤلاء جميعاً شملهم السكون وغشاهم الوجوم فكأنهم يودعون مريضاً يحتضر أو يشيعون ميتاً بدفن . . . تصور أنت بخيالك هذا المنظر الأليم على أبشع ما يكون المجلس عبوساً وجهامة ، وفى أشنع ما يكون الجلوس خزياً وندامة .

سلم خالى ايماء باليد ثم جلس وعيناه تلتهبان من الحنق وشفتاه ترتجفان من الغضب ، والتفت إلى أمى وقال لها بصوت فيه روعة القضاء ورهبة القدر : متى كنا يلافلانة نزوج بناتنا فى مثل هذا المكان ، ومن مثل هذا الإنسان ، فى غيبة عن الأهل وخفية من الناس ! لقد سبقتمونا إلى (المدنية) ! فلم يعد رأينا متفقاً فى معنى الشرف ولا شعورنا متحداً فى إدراك الكرامة ! ثم لحظ العروس البائسة وقال لها بلهجة صارمة : إذهبى يافاجره فأعدى حقيبتك وسأنتظرك أمام البيت .

حاولت أمى أن تجيب لتبرر الموقف المريب ، وهمّ أبى أن يتكلم ليدفع الخطر الداهم ، وأراد المأذون أن يفتى لينقذ العقد المهدد؛ ولكن خالى أزلقهم[1] ببصره ، ثم خرج وهو يتسعر من الغيظ وينتفض من الغضب كأنه لم ير أحداً ولم يسمع كلاما . وقضى هو وأخته الليل فى أحد الفنادق ثم ركبا أول قطار إلى العزبة . والقوم هناك ياسيدى يرجمون بالظنون ! فبعضهم يظنون أنها سجينة

---

(١) أزلقه ببصره : نظر إليه نظر المتسخط .

القصر ، وأكثرهم يعتقدون أنها دفينة القبر . والأمر الذى لا مرية فيه أنها خرجت من دنيا الناس .

* * *

هذه قصة فتاتى ، وما أظنها تختلف كثيراً عن قصص أكثر الفتيات اليوم ! ذهبت غفر الله لها ضحية للتربية المهملة ، والرقابة المغفلة ، والتعليم الفاسد ، والقدوة السيئة ، والقصص الماجنة ، والصحف الخليعة ، والسينما المثيرة !

فهل يُضطر الذين لا يزالون لسوء حظهم يغارون ، إلى أن يعودوا فيسألوا الله العصمة من ولادة البنات ، أو يقولوا كما كان يقول الجاهليون : وأْدُ (١) البنات من المكرمات !

---

(١) وأد الرجل ابنته : دفنها حية خوف العار : وكان الوأد عادة بعض العرب فى الجاهلية فنهى الإسلام عن ذلك .

من ذكريات القرية

قصة حشاش

(٢٧ نوفبر سنة ١٩٥٠)

كان تدخين الحشيش فى أيامنا الخوالى مقصوراً على صعاليك الناس ، يجلبونه فى السر ، ويدخنونه فى الخفاء ، ويلوذ بعضهم ببعض زرائب القرى وخرائب المدن ، فراراً من النظرات الجارحة والغمزات المهينة ، لأنهم كانوا فى رأى المجتمع أقل قدراً وأذل نفساً من معاقرى الخمر ومتعاطى الدخان . فبينما كان الخيال المحايد يصور الكأس جمالا بين يد مترفة ووجه وضىء والسيكارة جلالا بين يد قوية وثغر جرىء كان يصور الجوزة قذارة بين يد خشنة وفم بذىء ! فلما عمم (البوليس) تداول الحشيش فى كل بيئة ، ويسر تناوله على كل طبقة ، بفضل مطاردته الدائبة لجالبيه ومهربيه ، ومصادرته المستمرة لبائعيه ومحرزيه ، أصبحت الكأس لاتلذ إلا معه ، والسيكارة لا (تكيف) إلا به . وأضحى ذلك الشىء الحقير القذر يصان فى حقيبة يد المرأة ، وفى حافظة نقود الرجل ، وفى محفظة كتب الطالب ، وفى درج مكتب الموظف ، ولا يسمى الرجل متمدناً ولا متقدماً إلا إذا أخذ منه وأعطى ، وأتحِف به وأتحف ! وأمسى الحشيش والحشاشون فى صدر المجتمع وفى عين الدولة ، لهم ذكر فى الصحف ، ومواد فى القانون ، وقلم فى البوليس ، ومحكمة فى القضاء ، ومهربون من حجاج البيت ، وموردون من رجال السياسة ، ومصدرون من إخوان العروبة ! ولا جرم أن هذا الطابل الذى

لايسكن نقره ، وذلك المزمار الذى لاينقطع زمره ، هما اللذان جذبا إلى الحشيش النظر ، وجعلا للحشاشين والمهربين هذا الخطر ! والمحظور منظور ، والممنوع متبوع ، والإعلان إعلام !

أين من حالهم اليوم حالهم بالأمس ؟ كنا لا نراهم إلا فى النادر ، ولا نسمع بهم إلا فى النكت والنوادر ومن وقع منهم فى الرؤية أو فى السماع كان موضع النكير والتحقير حتى يتوب أو يموت . إقرأ هذه القصة ثم وازن فى نفسك بين حال الحشيش حين كان وازعه الدين والخلق ، وحاله حين أصبح وازعه القانون والبوليس :

كانت قريتنا حين وعيتُ لاتفهم من الحشيش إلا العشب ولا من الحشائش إلا من يحش البرسيم . وكان ظرفاؤها ممن يغشون المدن يروون لأهلها الأضاحيك عن الحشاشين فى القاهرة فيحسبونهم صنفاً من الناس تميزوا بالنكت والحيل والمعارف ، حتى طرأ عليهم رجل فقير ضرير يلبس الطربوش التركى والعباءة الجوخ والجلباب الصوف ، ولكنه مقطوع الأسباب ، فلا هو سائل فيعيش على الإحسان ، ولا هو حافظ فيتكسب بالقرآن . إنما كان رجلا مهذب النفس حلو الحديث ، بارع النكتة ، يحسن الغناء ويجيد النقر على الدف ، فأحسنوا لقياه وأكرموا مثواه ، وأفرد له عمدة القرية حجرة خارج الدور جعل منها دكانه ومجلسه ومضجعه . وكان يختلف إلى هذه الحجرة فى كل مساء بعض الشيوخ ممن يحبون غريب السمر ، و بعض الشباب ممن يطلبون لهو الحديث . وكان عباس ، — وهو اسم ذلك الرجل — يتنقل بالجلوس من جد إلى هزل ، ومن غناء إلى عزف ، فيعجب ويطرب ، ولكن أمتع ما فيه كان الدعابة والنكتة ، كانت نكتة على طريقة (اشمعنى ؟) وكانت دعاباته تأتى من طريق

التورية : وكان يركب بهاتين الطريقتين أو بإحداهما ثلاثة من خلطائه وخلصائه : فقيها أعمى وطحاناً أعشى وفلاحاً أعور ، فلا يدرى أحد منهم كيف يدفع عن نفسه . كان هؤلاء الثلاثة يبقون إذا انصرف السمار ، فيغلق الفلاح الباب ، ويوقد الطحان النار ، ويهيىء الفقيه الجوزة ، ويُعدعباس القرص ، ثم يتعاقبون الغابة نفَسا بعد نفَس . وكان عباس قد أخبرهم منذ اطمأن إليهم أن هذا هو الحشيش الذى يفتق ذهن الغبى ، وينطق لسان الأبكم ، ويرهف حس البليد ، وأنه هو الحشاش الذى تحفظ نكته ، وتروى حيله ، وتطلب فتاواه . فلم يخامرهم شك فى قوله ، لأنه هو نفسه الدليل على صدقه . فأقبلوا على المدخنة القذرة يأخذونها للشهيق والزفير ، ويتركونها للسعال والشخير ، حتى أصبحوا مدمنين لا يطيقون صبراً عن الحشيش ، ولا يستطيعون بعداً عن عباس . وكان لابد للحشاشين الجدد أن يساجلوا فى (القافية) الحشاش القديم ، وإلا فما جدوى الحشيش عليهم إذن ؟ نجح الأعمى كل النجاح ، ووفق الأعشى بعض التوفيق ، وأخفق الأعور غاية الإخفاق ؛ لأن غباء ذهنه كان أكثف من أن يلطُف ، وغشاء حسه كان أصفق من أن يرق . ولكنه كان قوى الإيمان بالحشيش فلم يؤمن بالواقع . وأقبل المساء وغصت الحجرة كعادتها بالشبان والأحداث ، فلهوا بالحواديت ، ثم تساجلوا بالفوازير ، ثم تجاوبوا بالمواويل ثم أخذ عباس يرسل النكتة بعد النكتة فيقهقه لها الحضور ، ويرد عليه الفقيه والطحان فتتبلج لردهما الصدور ، وتنصب النكت على الفلاح انصباباً فيحاول أن يردها عن نفسه فيفغر فاه ، ويرعش رأسه ، ويهز يده ، ويحاول أن ينطق فتنشب فى حلقه الحروف ولا تخرج ، ويتردد فى صدره الصوت ولا ينطلق ، فيسخر منه الجلوس ويتناولونه بالعبث المؤلم فلا يسعه إلا الانصراف . وفى أثناء الطريق تواردت على خاطره شبهات فى قدرة الحشيش على حل العقدة من اللسان ، ولكنه

دفعها بما فعل فى الفقيه والطحان ، وعزم أن يضاعف المقدار . فلما رجع إلى (غرزة) العباس بعد انصراف الناس ، كرر الشد ، وعمق النفَس ، وطول النوبة . وفى آخر الليل استدعى رفاقه واختلس قطعة كبيرة من الحشيش ، وظل فى داره النهار كله يقتطع منها القطعة على قدر حبة الفول ، ويذيبها فى فنجان من القهوة السادة ثم يجرعها . فعل مرتين ثم أراد أن يفعل الثالثة فلم يستطع . لقد أخذته حال من الخدر الشديد فصار يأكل ولا يشبع ، ويشرب ولا يرتوى ، ويتكلم ولا يعى ويضحك ولا يكف . وكلما رأى أحداً من أهله أو من جيرته قال له بلهجة متلكئة متقطعة متكلفة :

إنت تمشى — اشمعنى ؟ زى الحمار ! آه آه آه !

إنت تاكل — اشمعنى ؟ زى الفول ! آه آه آه !

فينظر إليه السامع مشدوهاً ولا يضحك ، فيرفع (المسطول) الصوت ، ويعيد النكتة ، ويردد الضحكة ، ولكن المشدوه يظل واجماً لا ينطق ! وفى المساء تحامل الأعور على نفسه حتى بلغ مجلس اللهو ، ولم يكد يدخله حتى قال بلهجة المنزِّل المسطول : أنت يا عباس ! فأجابه عباس مبتهجاً ، اشمعنى ؟ فقال له : أعمى ! آه آه آه ! وانتظر هو ماذا يقول الناس ، وانتظر الناس ماذا يقول عباس ، فإذا الناس يصيخون ، وإذا عباس يصيح ! أهذه نكتة يا نصف أعمى ؟ ثم انفجر بالنكات الساخرة فى وجه الحشاش المخدوع حتى ألجأه إلى الخروج فخرج خزيان يهذى . وعاد إلى داره وهو يشعر أنه الليلة خير منه البارحة ، لأنه قال على كل حال شيئاً . وكان قد عرف من عباس أين يباع الحشيش فاشترى منه مقداراً كبيراً وأخذ يذيب منه فى القهوة ويشرب . وكل ساعة من ساعات النهار والليل كان يرتقب وحى الحشيش فلا ينزل ، وينتظر ذكاء الحشاش فلا يقبل ، فيضاعف المقدار ويزيد الوجبات ، حتى هزل جسمه ، وشحب

لونه ، واختل هضمه ، واعتل صدره ، واضطرب عصبه ، وساء خلقه ، واعتراه الهمود ، ولزمه الوسواس ، فصار لا يعمل فى غيط ولا فى بيت ، ولا يفكر فى زوج ولا فى ولد ، وإنما كان أكثر يومه نائماً ، فاذا أفاق هذى بالنكت الباردة والدعابات السخيفة . وفى غشية من غشيان المخدر باح بالسر المكنون فقال وهو يضرب بيده على صدره : أنا الحشاش الأصلى ، لأننى أشرب الحشيش بالفنجان ، وعباس وصاحباه حشاشون مقلدون ، لأنهم يكتفون منه بالدخان !

وتسامع الناس بالسر المفضوح فتحاموا الأعور حتى نفق من الخبال ، وقاطعوا الأعمى والأعشى والأعمش حتى هلكوا بالسلال !

صديق الكلاب

— ١ —

شرب عبد الواحد[1] وسقانى ثلاثة أقداح من الشاى العطر . ثم أطبق من حنجرته القوية جشاءة طويلة عريضة كخوار العجل ، ثم حضأ[2] النار بأنامله وشيع ضرمها فى بقية الفحم . ثم أشعل منها سيكارته العربية وأرسل فى رفق دخانها الرقيق الأدكن ، وبانت على معارف وجهه شهوة الكلام . وكان كلبى الصغير قد لاذ من قرس البرد بجانب الموقد ، فهو ينطوى وينتشر تبعاً لما يغلب على جو الغرفة من نفح النسيم أو لفح اللهب . فرأيته يطيل النظر إليه فى طرف ساكن ووجه ساهم . فقلت له مداعباً : لعلك ذكرت بالكلب حبيبتك وهى فى خبائها بين كلابها وشائها . فابتسم ابتسامة العذراء الخفرة وقال . الحمد لله ماذكرت على فقرى حياة البر[3] منذ هجرته ، ولكننى ذكرت رجلا كان فى بغداد يدعى (أبا الكلاب) . فسألته وما حديث أبى الكلاب هذا ياعبد الواحد ؟ فلمع فى عينيه البشر ، لأن سروره كان فى أن يتحدث وأسمع . وذهب به شىء من التيه ، لأن شعوره بأنه يعلم مالا أعلم يرفعه قليلا فوق قدره . لذلك تراه عند الحديث يجلس جلسة النظير ويلهج لهجة الأمير ويقرر تقرير العالم .

قصّ علىّ هذه الأقصوصة وهو منها على يقين جازم . وما كان أسرّنى وأسرّك لو استطعت أن أنقلها إليك بلغته الجميلة التى تأخذ من لحن بغداد ومن لحن البادية . على أننى سأحاول ما أمكننى القدرة أن أترجمها ترجمة صادقة

---

(١) عبد الواحد رجل بدوى كان يقوم على خدمتى وأنا ببغداد

(٢) حضأ النار : حركها لتشتعل (٣) يريد البادية .

تـكشف عن أثرها فى نفسه وقعها فى نفسى .

— ٢ —

كان فى بغداد منذ خمسين عاماً أسرة كريمة تعتز بنسب العرب من جهة الأب ، وتتصل بسبب الترك من جهة الأم . فهى مزاج معتدل من عقليتين متباينتين لايجمع بينهما غير الدين فى مثل هذه الحال يكون أوثق عقداً وأمتن أسباباً لقيامه مقام الجنسية الجامعة والعصبية القريبة . فالوالدان صالحان تقيان لايفهمان من العروبة إلا النبوة والقرآن ، ولا من التركية إلا الخلافة والسلطان ، ولا يعرفان عن دار السلام وفروق[1] إلا أنهما بلدان فى طريق واحد . والولدان جميلان باران يكـبرُ الذكر منهما الأنثى بخمس سنين ، وقد درجا معا من مهد الفضيلة ، ثم ترعرعا فى حنان الأبوين على كفاف من العيش يؤتيه متجر غير نافق .

لم يشغل عبد الواحد بالَه كثيراً بتفصيل حياة هذه الأسرة الصغيرة . فـكان كلامه عنها مرسلاً مجملاً لا يحلل طبيعة شخص ، ولا يحدد تاريخ حادث ، ولا يعين مكان منزل ؛ حتى أسماء الأب والابن والبنت لم يجد فى ذكرها ما يفيد الحديث !

فهو يحذف ما يزعه فضولا ويسير قُدُما إلى هيكل الموضوع وعقدة الحادث فيقول : إن الغلام كان عمره اثنى عشر ربيعاً حينما صحب خاله إلى الأستانة . والأستانة يومئذ كانت منتجع الخواطر ومهوى القلوب الطامحة إلى السطوة أو الثروة أو العلم . فهل كانت هجرته إلى دار الخلافة تثقيفاً لنفسه ، أو تخفيفاً عن أبيه ، أو مساعدة لخاله على تدبير متجره وماله ؟ كل ذلك كان يجهله راوى الحديث ،

---

(١) دار السلام : بغداد : وفروق : الأستانة .

فما يعلم إلا أنه شدا شيئاً من العلم فى إحدى مدارس القسطنطينية تحت عين وليه وعونه ؛ ثم اندفع فى غمار المدينة الصاخبة يداور ويلتمس المكاسب ؛ ثم أوغل فى مدن البلقان وشعاب الأناضول ، حيناً فى خدمة الجيش ، وحيناً فى طلب العيش ، حتى انقطع عِلْم ما بينه وبين أهله .

كان الغريب النازح يهاجم الأخطار فى كل فج ، ويصارع الأقدار فى كل لج . وكل همه أن يجمع من المال مايضمن له ولأسرته خفض العيش فى ظلال بغداد الجميلة . فلما ملأ الدهر يديه بما أمل كان وأسفاه ربيعه قد أدبر وربعه قد أقفر وحلمه قد تبدد ! فإن والديه البائسين قد ألح عليهما من بعده الحزن والضر والفقر حتى انطفأ سراجهما فى حولين متعاقبين بعد انقطاع خبره ببضع سنين . وأما البنية اليتيمة فقد حنا عليها بعض ذوى المروءات من أهل البيوتات فضمها إلى حرمه ، وواسى يتمها الحزين بعطفه وكرمه .

* * *

عاد المهاجر إلى وطنه يحمل فى جيبه المال وفى قلبه الأمل فما وطئت قدماه ثرى العراق الذهبى حتى ازدحمت الذكريات على خاطره ، ومرت الحوادث المزعجات أمام ناظره ولكن شعوره بلذة العودة إلى الأرض التى أبصر عليها الدنيا ، والسماء التى تقبّل منها الروح ، والهواء الذى رف عليه بالصبا ، والماء الذى نضح قلبه بالنعيم ، والأسرة الحنون التى براه إليها الشوق ، والمستقبل الباسم الذى ينتظره فى بغداد . كل أولئك قد شعب فؤاده وشفى كبده ومسح ما به .

عرف المحلة والدار بعد لأْيٍ [(١)] لطموس المعالم القديمة . ثم قرع الباب بيد مرتجفة ، فإذا المالك الجديد يخرج إليه ! فأقبل عليه المسكين لهفان ضارعاً يسأله: هنا كان مهبط نفسى فأين أبى؟ وهنا كان مسقط رأسى فأين أمى ؟ وهنا كان لى مهد وأخت وملعب وجيرة . فقل لى بربك ياسيدى أين تحمّل بكل هؤلاء القدر؟

(١) بعد مشقة .

وكان بين المسئول والسائل حوار قصير عرف منه البائس أن ريح المنون قد عصفت بأهله. فارتد إلى الفندق لا يملك دمعه ولا قلبه. ثم قضى حيناً من الدهر ذاهب القلب يكابد غصص الكرب، ويعالج مضض الهموم، حتى رأم الزمان والإيمان جروح صدره .

— ٣ —

وقع في نفس الوحيد الحزين أن يتزوج ليعيد إلى سجل الوجود اسم أسرته، فاقترحت عليه جارة له عجوز أن تخطب إليه فتاة يقولون إن بينها وبين بني فلان عاطفة رحم. ويؤكدون أنها تنزع إلى عرق كريم لطبعها المهذب وجمالها المحتشم. فاطمأن قلب الخاطب إلى رأي الخاطبة؛ واختلفت العجوز بينه وبين ولي الفتاة حتى تم الوفاق وسُمي الصداق وعينت ليلة الزفاف .

زفت العروس إلى زوجها، فبهره ما رأى من جمال، وما أحس من ظرف، وما سمع من أدب فافتر في وجهه السرور وحمد الله على حسن توفيقه. ثم انقضى شهر العسل على خير ما يجد زوج من زوجه. وفي ذات ليلة تجاذب الزوجان أطراف السمر وشققا بينهما الحديث حتى أفضى إلى علاقتها بوليها فلان (بك)، فأحب الزوج أن يعرف درجة القرابة بينهما. فغضت الفتاة من طرفها، وشاعت حمرة الخجل في وجهها، وقالت في صوت خافت متهافت من الخزي والخوف « الحقيقة أن ليس بيني وبين هذا الرجل قرابة! إنما هو نبيل محسن آواني وزباني بعد ما فجعني البين في أخي والموت في أبي، وأنا يومئذ في حدود الثانية عشرة. ثم تتابعت الأسئلة من الزوج، وتسارعت الأجوبة من الزوجة؛ وكان كلما انجاب عن خبايا الغيب حجاب امتقع لونه، واقشعر بدنه، واشتد وجيب قلبه. وكانت هي كلما رأت منه ذلك نسبته إلى انخداعه في أصلها فمضت تفصل المأساة وتصور الفاجعة بالكلام والدمع، عسى أن تعطف قلبه على مصابها

فلا يفكر فى طلاقها وعذابها . ولكنها لم تكد تلمس الحجاب الأخير حتى زوجها قد قفّ شعره وارتعدت أطرافه ، ثم انفجر صارخاً يقول : واو يلتاه ! لقد تزوجت أختى ! ثم خر مغشيا عليه . فلما ثاب إليه بعض رشده نظر إلى أخته فوجدها فاقدة الوعى ، فتركها وابتدر الباب وخرج مسرعا لايلوى على شىء ولا يلتفت إلى أحد !

— ٤ —

خرج طريد القدر من بيته خروج أوديب الملك[1] من قصره . ثم هام فى الطرق الضيقة المتشابكة يسأل الرائح والغادى عن مفتى بغداد . فلما أدخل عليه باح له بسر الخطيئة ، فهول عليه الشيخ التركى بعقابها ، وبالغ فى جرائرها وأعقابها ، ثم أفتاه بعد الاستشارة والاستخارة والرؤيا أن الله لايغفر هذا الجرم إلا إذا صدف عن متاع الحياة ، وخرج عن أثيل الملك ، واستتر بأخلاق الثياب ، وقضى بقية عمره فى جمع الخبز للكلاب الشوارد !

أذعن الخاطىء البرىء لحكم الفقيه الأحمق ونزل للزوجة الأخت عما يملك ، وارتدى طمراً من القطن الغليظ ، وجعل على عاتقه مخلاة ، ومضى يقرع كل بيت ، ويقصد كل مطعم ، فيجمع الفتات والخبز ثم يقف بالميدان فيقسمه بالسوية على من أجاب الدعوة من كلاب الحى !

لم يمض غير قليل حتى عرفه الناس وألفه الكلاب ، فصار يمشى فى الأزقة وخلفه منها قطيع ، وينام فى العراء وحوله من شِدَادها حرس مطيع . تحين الوجبة العامة فلا تجد كلباً طليقاً فى بغداد إلا أجاب نداءه ، وتناول من يديه المحمومتين غداءه . ولكن الوالى رأى على طول الزمن أن يدى أبى الكلاب

(١) فى الأساطير اليونانية أن أوديب الملك قضى عليه أن يقتل أباه ويتزوج أمه . فلما نفذ القضاء على غير علمه فقأ عينيه وخرج من طيبة هائماً تقوده ابنته إانتيغون .

على رعيته عافية وربيع ، فسمن هزيلها ، وكثر قليلها ، حتى اختنق بلهاثها النهار ، وصُم بنباحها الليل ، وأصاب الناس من عضاضها وأمراضها شر كبير ، فأقام في ظاهر المدينة حظيرة واسعة ، ثم أمر الشرطة فصادوا الضواري وألقوها فيها . فكان أبو الكلاب على عادته يجمع الطعام والعظام ثم يذهب إلى ضيوف الحظيرة فيطعمها ويسقيها . ثم يتهالك على الأرض من اللغوب فيرقد مكانه حتى الصباح .

وفي ضحوة يوم من الأيام أوْلم الوالي لأسراه وليمة السفاح لبني أمية ، فما نجا من حدها لاهث ولا نابح : وجاء أبو الكلاب فرأى أُلّافه الخلصاء على أديم الأرض صرعى ، لا يتماقن بعين ، ولا يبصبصن بذَنب ! فعظم على المسكين أن يرى مثال الصداقة يموت ، وشبح الجريمة يحيا ، فتساقط بجانب السور مهدود القوى ، صريع اليأس ، ولبث مكانه لا يأكل طعاماً ولا يذوق مناماً حتى لحق بربه

بصيرة

— ١ —

— ما أجمل هذا الصوت ! من أين مصدره ؟

— من صوب النهر يامولاى .

— إن حلاوته وإيقاعه لينبئان عن ظرف بارع وصِباً نضر .

لعلها قينةٌ فى زورق من زوارق المخنثين(١) ترفُّ على لهوهم الماجن بالغناء والحسن كالعادة .

— مل بنا إلى الشاطىء فلعلنا نرى مصداق مانسمع .

وكان الرجل الذى سأل وأمر طويلاً بدين الجسم أشقر اللحية على وجهه جلالة السلطان وعزة الملك . أما رفيقه الذى أجاب وأطاع فكان مساوياً له فى العمر ، ولكنه كان ربعة القوام رقيق البدن أزهر اللون ، تتوسم الظرف من ملامحه ، وتتبين الذكاء فى ألفاظه . وكانا يلبسان ملابس التجار ويمشيان مشية المستطلع بين القصور الناعمة القائمة على دجلة من كرخ بغداد فى أصيل يوم من أيام أبريل . وعلى ثلاث خطوات منهما كان يسير رجل وثيق التركيب عظيم البسطة يلحظ لحظات الصقر ويرعاهما بعين النمِر . وكانت دار السلام يومئذ فى أيام العروس(٢) منذ عهد الرشيد ، قد تجمعت فيها الدنيا ببهجتها وزينتها وفتنتها وثروتها ، فهى أشعة من الجمال والسحر ، وظلال من الرخاء والبشر .

---

(١) كان يطلق هذا الاسم فى بغداد على أهل الترف واللهو والفتوة (أولاد الذوات)

(٢) كان الناس يسمون عهد الرشيد لرخائه وجماله أيام العروس

ونسمات من الرّوح والعطر ، وأخيلة من الحب والشعر ، ومتُعٌ من نعيم التمدن الإسلامى القائم على لذة الروح والجسم ، وسعادة الدين والدنيـا ، وراحة النفس والناس .

* * *

واتجه الرجلان وتابعهما الصامت نحو الصوت فجرهما إلى بستان مشرف على النهر قد جلست على عريش من عرائشه الـكاسية بأشتات الرياحين والزهر جارية فى وفرة الجمال وزهرة العمر ترسل هذا اللحن الغزلى الشجى الضارع كأنما تهدهد به حباً لا يهجع ، وتناجى به حبيباً لا يسمع !

فدار بين أعظم الرجلين وبينها هذا الحوار الرقيق .

— لعلك تودين أن يكون لهذا الغناء الساحر سامع !

— لو كنت أوده لما عز علىّ أن أجده .

— وهل خلق الله مثل هذا الصوت ليتبدد فى الهواء ويضيع فى هذه الخلوة؟

— سل البلبل حين يبعث الشدو هل يبعثه إلى أذنك. وسل الشمس حين ترسل الضوء هل ترسله إلى عينك وسل الزهرة حين تبث العطر هل تبثه لأنفك؟

— تبارك الله ! براعة فى الغناء وبراعة فى الذكاء وبراعة فى الحسن ! ماذا تسمين ؟

— بهيرة .

ولمن تـكونين ؟

— لسيدى على بن وهب .

قالت ذلك بهيرة ثم حيت الرجل وصاحبيه وانطلقت بين أشجار البستان

كأنها عروس من عرائس المروج ازدهاها الربيع فطفرت من المرح راكضة راقصة

— لقد وقعت بقلبي هذه الجارية ياجعفر .

— إذا شاء أمير المؤمنين كانت فى ملكه من الغد .

— ٢ —

وفى غد ذلك اليوم انتقلت بهيرة بالشراء إلى قصر الرشيد بالرصافة ، وكان يموج بالحور والولدان موجان الفردوس ، حتى بلغ ما فيه من السرارى والقيان زهاء ألفى جارية من الروميات والكرجيات والجركسيات والعربيات والحبشيات يرفلن فى الأفواف الموشاة بالذهب والعصائب المرصعة بالدر ، والمناطق المنسوجة من العسجد ؛ ويخطرن بين دوائر الحرم مَوَائس من الدلال ، نشاوى من الحسن ، ينفحن بالفتون والحب كما تنفح الزهور العاشقة بالعطور المغرية فى ميعة الربيع . . .

أحلها مسرور الخصى مقصورتها الأنيقة بين مقاصير سحر وضياء وخنث[١] وأفاض عليها من الوشى والزينة والحلى ما جعلها قطعة من الفن والجمال الخيالى لاتبلغها قريحة شاعر ولا عبقرية مصور . وانغمرت بهيرة فى فيض الجمال والنور والترف واللذة ؛ ولكن هذا القصر الذى لاثانى له فى دنيا الناس لم يستطع بما فيه من النعيم الدافق والسرور المتصل واللهو المختلف الأشجار المحمولة من كل أرض والأطيار المجلوبة من كل سماء ، والأواوين المنجدة بالديباج والإبرسيم ، والبرك المزدانة بالتماثيل والدمى ، والسلطان الذى خضع له الدنيا ، والجلال الذى اعتزبه الدين ، لم يستطع بكل أولئك أن يمسح عن وجه بهيرة هذه الكآبة الغاشية

---

(١) هن الحظايا الثلاث اللاتى استأثرن بهوى الرشيد حتى قال فيهن :

إن شعراً وضياء وخنث   هن سحر وضياء وخنث
أخذت سحر ولا ذنب لها   ثلثى قلبى وترباها الثلث

ولا هذا السهوم الملح ؛ فقد كانت أشبه بالوردة المقطوفة على المائدة الغارقة فى السرور الطافحة باللذة . تذوى وتموت وكل ما حواليها يزدهى وينتعش . فهل كان قصر الخليفة أضيق من قصر التاجر ؟ أم كانت سيادة ابن وهب أندى على قلب بهيرة من سيادة الرشيد ؟ واقع الأمر أن هذه الحال لم تطرأ على بهيرة فى عيشها الجديد ، وإنما كانت تلازمها وهى فى ملك ابن وهب . وقد تذرع هذا بالطب والحيلة واللهو إلى أن يرفه عن جاريته المحبوبة فما كانت تزداد على عنايته بها ورعايته لها إلا هما على هم ، حتى استراب فى حبها إياه فحاول أن يصل إلى سرها ويعرف متجه هواها فما استطاع فلما ساومه النخاس عليها بالثمن الربيح نزل عنها غير آس ولا آسف .

كانت بهيرة قبل عامين قدوهبت قلبها الخالى المنتظر لسرىّ من سراة بغداد الظرفاء فشغله كله . تغلغل السر ، وشاع به شيوع السرور ، ثم تقلبت عليهما الأيام والأحداث وهما ثملان من رحيق الحب ، وادعان فى ظل الأمان ،حتى نزل بالفتى ما ينزل بالمترفين المتبطلين من كساد الحال وهجوم الفاقه . فباع كل ما يملك ثم عاش على الأمانى فترة من الدهر ورأى فى آخر الأمرأن من الإخلاص لحبيبته ألا يحمّلها وزر إسرافه وعواقب طيشه ، فباعها ، على الرغم من تشبثها به وإيثارها إياه ، على ابن وهب .

ودأب يزورها يوماً بعد يوم وهى فى قصر ابن وهب من وراء الحديقة ومن خلال السور وهى تنتظره فى العزيش الذى رآها فيه الخليفة يوم تنكره ، فيتساقيان كؤوس الهوى ، ويتناقلان حديث المنى ، ويتشاكيان حرقة الوجد . وينظران نظرات الأسى المرير إلى دجلة والشباب الأحباب يشرقون على وجهة إشراق البسمة العذبة على ثغر السعيد ، فيذكران كيف كان هذا النهر الخالد مسرحاً لصباهما اللاهى ، وشاهداً على حبهما الخالص ، كيف نظر إليهما الدهر (١)

(١) نظر الدهر إلى فلان : أضره أو أهلكه .

الخؤون فتقوض الربع الآهل ، وتفرق الشمل الجميع ، وآل الأمر بهما إلى أن يكون بين قلبيهما عاذل لا يُغفل وبين جسميهما حاجز لا يُقتحم.

كانت بهيرة وهى فى قصر ابن وهب تستطيع أن ترى سليمان وأن تتحدث إليه وأن تترك للأقدار الرحيمة إسعاف حبيبها البائس بالثروة المرجوة فيستردها إلى ملكه ؛ ولكنها انتقلت الآن من عش الحمام إلى غيل الأسد ! فمن ذا الذى يستطيع الدنو من قصر الخلافة ؟ لقد ضرب الدهر بينها وبين حبيبها إلى الأبد؛ فلا هو يستطيع إليها الدخول ولا هى تستطيع إليه الخروج ؛ فكأنه مات من دنياها وماتت من دنياه . وبيت الخلافة لأمثالها قصر فى الأول وقبر فى الآخر !

— ٣ —

على أن الهوى كالسكر لا يعرف المحال ولا يحس الخوف ولا يبصر العاقبة. فقد احتال سليمان حتى ظفر بثياب خادم من خدام جعفر بن يحى . فكان يدخل قصر الرشيد فى هذا الزى فلا يرتاب فيه الحراس ولا ينكره الخدم . وعرف مقصورة بهيرة فكان يتسلل إليها فى الظلام أو فى الغفلة ، فيقضى معها ساعة من النهار أو هزيعاً من الليل ينضحان فيه غرامهما المسعور بالحديث المعسول والقبل الندية .

وفى ذات ليلة طغى عليهما الحب وعصفت برأسيهما الصبابة فتولدت فيهما ناشئة من الأمل والعزم . قال سليمان وهو يثبت نظره المتوقد فى بهيرة الساجى.

— لقد أعددْت عدة الخلاص ومهدت لك سبيل الهرب .

— وماذا أعددت ياسليمان ؟

— أعددت لك هذا الثوب الغلامى ، فالبسيه واخرجى تحت الليل حين تخشع الأصوات وتهجع العيون ولا يدخل ولا يخرج الا رسل الأسرار بين

قصور السادة والقادة . وسأكون فى انتظارك لدى مشرع القصب من دجلة

فقالت بهيرة ودمعها الساجم يتقاطر على خديها تقاطر الطل :

ـــ أنسيت يا سليمان أنى ملك الخليفة فلا أخرج منه إلا بالبيع أو بالعتق ؟

ـــ لم أنس يا بهيرة ، ولكن الخلاص بغير ذلك محال .

ـــ وكيف يصفو لنا العيش يا سليمان وهو شقاء متصل بمعصية الله وخيانة الخليفة ؟

ـــ بربك يا بهيرة أخفتى هذا الصوت فى نفسك ، وفكرى قليلا فى بؤسى وبؤسك . ليس لى غيرك وليس لك غيرى . أما الخليفة فله ألفا جارية ، وله أضعافهن إذا شاء . والله يا بهيرة يغفر الذنوب جميعاً .

ـــ ألا تظن يا سليمان أن العذاب فى الحب عذب ، وأن الموت فى سبيله شهادة ، وأن هذه الساعة التى نتلقى فيها على غفلة من الرقيب بين الخوف والأمن و بين اليأس والرجاء ، أدنى إلى الحب الصحيح والسعادة الحق من العيش الغرير الناعم على مهاد الرذيلة ؟

أطيعى الهوى يا بهيرة واعصى العقل . فإن العشاق لا يعيشون بعقول الخليين، ولا يخضعون لقوانين المجتمع . وأسلس لسليمان الدمع والكلام فأوشك أن يحمل بهيرة على رأيه ولا أن قرع باب المقصورة قارع عنيف ، فاستطير قلب العاشقين من الرعب وأيقنا بالهلاك المحتم .

وفتح الباب ودخل مسرور قهرمان القصر وسيد الموالى وحاجب الرشيد ومعه نفر من الحراس . فأمر بالقبض على سليمان ، وكان قد سمع بآذان جواسيسه ما دار من الحديث بينه و بين بهيرة .

— ٤ —

سِيق العاشقان إلى مجلس الخليفة الخاص متهمين بانتهاك حرم الخلافة والمؤامرة على الفرار والخلوة الأثيمة . فسألهما عن جلية الخبر فأجاباه بصحته . واستفهم الشهود عن تفصيل الحديث فأدلوا به على نصه . وكان الخليفة مفتوناً ببهيرة لما جرّب عليها من الوفاء والذكاء والصدق فعفا عنها . ودفع بسليمان إلى مسرور ينفذ فيه حكمه .

فتقبل العاشق المنكود الحكم عليه قبول من راض نفسه على التسليم بالقضاء المحتوم والأمر الواقع . وذهب به الموالى إلى لقاء الموت ، ولبثت بهيرة فى حضرة الخليفة شاخصة لا تطرف ، واجمة لا تنطق ، كأنما أخرجها الجمود عن الحياة ، وفَصَلها الذهول عن الوعى ثم رأرأت[1] بعينها فى سكون ، وحركت لسانها ببطء ، وألقت بنفسها على قدمى الخليفة وهى تقول :

مولاى : إنى أعلم أن الجريمة إذا مست الشرف ضاق بها العفو وقصُرت عنها الشفاعة ؛ ولكنى أعلم كذلك أن حلمك لا يستحقه غضب ، وأن عفوك لا يتعاظمه ذنب ، فهب لى دم سليمان فقد جنى عليه حبى ، وسعى إلى عدمه وجودى . وهو يا مولاى برىء الساحة صادق النية سرى الخلق .

فقال لها الخليفة : إن هذه الجريمة تُنسى بوجهها الوقاح صورة . الرحمة . فاسأليني ما شئت إلا العفو ، فإنى لا أمنح إلا ما أملك .

فقالت بهيرة : إذن تعدنى يا مولاى ألا يُقتل حتى أراه .

فقال لها الخليفة : لك هذا الوعد .

---

(١) رأرأت : بعينها : قلبت حدقتهما وحددت النظر .

وأرسل وراء الجلاد يأمره أن يرد عليه سليمان قبل أن يمضى قضاءه فيه .

فلما خرج الرسول أدارت بهيرة بصرها فى السماء والفضاء والطبيعة ، ثم أرجعته وهو يفيض بالدمع والأسى ، ورددته فى نواحى البستان ، وفى جوانب المكان ، وفى مرايا الجدران ، وفى حلتها الذهبية ، وفى حليتها اللؤلؤية ، وفى وجه الخليفة ؛ ثم أدخلت إصبعيها فى محجريها فاقتلعت بهما عينيها !

فصاح بها الخليفة وقد أفزعه ما رأى :

— ويحك ماذا صنعت بنفسك ؟

— فديت بعينىَّ حبيبى يامولاى !

وكيف ذلك ياحمقاء ؟

ألست وعدتنى يامولاى ألا يُقتل حتى أراه ؟ فالآن لا أراه ولا يُقتل.

* * *

كان أثر هذا الحادث بالغاً فى نفس الخليفة ، فبسط على العاشقين جناح رحمته ، ومهد لهما الحياة السعيدة فى ظلال نعمته . وقنعت الفادية العمياء من دنياها بالعيش على نور الحب وفى كنف الحبيب !

من أقاصيص البادية :

مأساة شاعر

في اليمن الخضراء ، وفي صنعاء ذات الظل والماء ، نشأ (وضاح) أزهر اللون ، أصهب الشعر ، مليح القسمات ، رقيق الأديم . ثم ترعرع بين خمائل الأودية ومروج السهول وأزاهير الربى فازداد رواء وجهارة .

وإذا كان الجمل يكتسب لون الصحراء ، والسمك يستفيد مرونة الماء ، والطاووس يستعير أفواف الروض ؛ فان اليمانيين لم تصلهم بطبيعتهم ولا بيئتهم صلة . فهم سمر الوجوه ضئال الجسوم قصار القدود ، وأرضهم مشرقة الأجواء مونقة المناظر خصبة التربة . لذلك رابهم وضاح بقدر ماراعهم ، فقالوا إنه من أبناء الفرس الطارئين على اليمن في عهد ابن ذي يزن ، ولكن الحكم سفه هذا الرأي وقضى بعربيته .

لايعنيك ولايعنيني أن نكشف عن دخيلة هذا الشاب فنصف تاريخ أسرته وحقيقة ثروته وطبيعة عمله ، وإنما يعنينا من وضاح ذلك الفتى الطرير الذي أشقاه شعره وأبأسه شعوره وقتله جماله .

نريد أن ننقل عن لوح القدر هذه الصفحة الدامية التي كتبت لهذا البائس وجرت عليه في غير رفق ولا هوادة .

* * *

كان وضاح الجميل الشاعر كالبلبل يعرف في نفسه جمال الريش وجمال الصوت ، فهو لاينفك في حذر من الصائد وفي خوف من القانص . فكان يغشى المواسم والأسواق وهو مقنع منتقب خيفة الحاسد وحذر المرأة !

ولكن المرأة كانت تعترضه بكل سبيل ، وتترقبه فى كل مرصد ، وتتراءى له فى كل مكان ، تحت النخيل ، وفى الأسواق ، وعلى الماء ، وهو لا يزداد إلا تمنعاً وترفعاً ووحشة ؛ لأنه محبوب ومن طباع المحبوب الإدلال ، ولأنه مطلوب ومن غرائز المطلوب الهرب . ولم يجد مع ذلك فيمن رأى من النساء روحا جذابة ولا قوة غلابة ولا جمالا أبرع من جماله . على أن وضاحا خلق للحب وكتبت عليه فيه الشهادة ؟ فعيناه على غير علمه ترتادان الحبيب ، وقلبه من قلقه وانتظاره يضطرب فى حنايا صدره ، وعواطفه من اضطرامها وانبساطها تكاد تسيل . وكان يفر من ضوضاء صنعاء ومتاجرها وقوافلها إلى سكون البادية الرهيب ، وهدوء الطبيعة الموحش ، فيقضى سحابة نهاره جالسا فى روضة ، أو مستلقيا على غدير ، أو نائما فى مغارة : كأنه نبى من أنبياء بنى إسرائيل ينتظر الرسالة !

— ٢ —

ففى صباح يوم من أيام الربيع مشرق الأديم عنبرى النسيم منضور الخمائل استهوته الطبيعة فأخذ يضرب الأرض حتى طلع النهار ، وإذا هو على ماء من أمواه (الخصيب) من قرى اليمن . وفى الخصيب شد الجمال أطنابه وشاد الحب معبده . والعرب يقولون فى التحذير من فتنته : إذا بلغت أرض الخصيب فهرول !

فجلس وضاح ينضح ظمأه ويرفه عن نفسه إلى أن طاف به الكرى فنام.

تنبه وضاح ساعة الأصيل على صوت رخيم الحواشى ، متسق النبرات فى رنين الفضة . فنظر فرأى حورية من حوريات الحقول قد حسرت عن ساقها وغمست رجلا فى الغدير ووضعت رجلا على الحافة وهى منحنية على الماء تجمع ثوبها بيد وتملأ سقاءها بيد . فرجف قلبه وبرق بصره وندت منه حركة لفتتها فرفعت بصرها إليه فى سكون طرف وفتور لحظ . وكأنها همت بالنكوص

لولا أن رأت منه ما رأى منها . فلبثت جامدة لا تتحرك ، شاخصة لا تطرف ، بل أحست من نفسها الهفوان إليه حين تقابل النظران وتجاذب القلبان ومشى هو إليها مشية الحباب فى حياء وونا ورقة .

حياها فردت التحية ، واستنسبها فانتسبت كندية ، واستسماها فقالت (روضة)

ثم جرى بينه وبينها حديث الشباب الحيي المضطرب الحائر . . ويكاد يكون يكون واحداً على اختلاف الألسنة والأزمنة والأمكنة فلا نثبته . وكيف نثبت كلام الناظر للناظر ، وتدفق الخاطر فى الخاطر ، وعناق القلب للقلب ، وامتزاج النفس بالنفس ، ولحن اللسان للسان ؟

كانت روضة كما تشتهى كل فتاة أن تكون فهى كما صورها وضاح فى شعره : « وضيئة الطلعة ، مصقولة الجبين ، يزينه شعر أثيث أشقر كذنب الكميت . زجاء الحاجبين قد تقوسا على مثل عين الظبية : ساجية الطرف ، عبلة الذراعين ، لا ترى فيهما عظما يحس ، ولا عرقا يجس » .

وجد كل منهما فى الآخر مشابهة فى زهرة الوجه وصهبة الشعر وهجنة النسب بالدم الفارسى ، فتعارفا بلحظة ، وتفاهما بلفظة ، وتآلفا تآلف الأخدان كأنما كانا على موعد !

طوت شمس الطَّفَل الغاربة مطارفها العسجدية عن السهول والغياض فلم يبق منها إلا هلاهل على رءوس التلال وشعاف الجبال وأعراض النخيل ، وأخذ الرعاة يروحون بالقطعان إلى الحظائر ، وآن للراعية الحسناء كذلك أن تؤوب ! فقامت روضة متثاقلة ، وودعت الشاعر متخاذلة . وسارت وراء قطيعها تتهادى فى مرطها الملفوف ونطاقها المحبوك وخمارها الأسود كأنها إلاهة الرعاة أو تمثال الحسن !

تلاقيا مرة أخرى فى سرة الوادى المعشب وقد عملت فيه يد الطبيعة فأزرته

بهشيم النبت ، وطرزته بألوان الزهر ، وضمخته بعبير الخزامى ورياّ البشام وأرج الرند . فجلسا ساعة تحت دوحة يتساقطان عذب الحديث، ويتناشدان حلو الغزل . ثم نهضا يسيران صاعدين تارة فى مدرج السيل ، وهابطين تارة إلى قرارة السهل ، يجنيان الكمأة(١) ويلتقطان الجزع المفصل(٢) . فلما نفضت الشمس على الأفق الغربى تبر الأصيل تواعدا على اللقاء بعد أن شق عليها رداءه وشقت عليه برقعها استدامة للحب على عادة البدو فى تلك العهود .

— ٣ —

ظل العاشقان يلتقيان فى غفلة الزمان والإنسان كل يوم على خلاء ، حتى نم على هواهما شعر وضاح ، فتنبه الغافل وتحرش العاذل وتحذر الأهل فحالوا بينها وبين لقائه وتوعدوه .

فكان وضاح يأتى كل يوم على عادته فيجلس فى الأماكن التى اعتاداها ، ويرتاد الغياض التى ارتاداها ، ويستروح النعامى فلا يجد قراراً فى مكان ، ولا جمالا فى طبيعة ، ولا روحا فى أرج ، فيدنو من الخصيب يترصد غفلة القوم ويتنسم ريح روضة ويقول :

يهـــددونى كيما أخافهمُ هيهات ! أنى يهدد الأسد ؟

حتى لقى ذات مساء عبدها الذى كان يرعى عليها رائحا بالقطيع إلى مُراحه، فحمله رسالة إليها يطلب فيها أن توافيه على الكثيب متى غفت العين وهدأت القدم فوافته فى إحدى أترابها ، فجلسا على الحصباء يتشاكيان حرقة الجوى وتحكم الهوى وتعقب . وأخذت روضة تحكى لوضاح كيف استفاض الخبر وخاض فيه الناس ، وكيف حجبها إخوتها وراقبوها بعين لا تغفل ، وذكرت له والدمع يتقاطر من عينيها أنهم صمموا على رفض خِطبته ، وقرروا

(١) الكمأة : نبات يقال له شحم الأرض وهو جذر مستدير كالبطاطس لا ساق له ولا عرق يوجد فى الربيع تحت الأرض ويؤكل نيئاً ومطبوخاً .

(٢) الجزع بالفتح . الخرز اليمانى وهو الذى فيه سواد وبياض .

تزوجها من موسر كثيف الظل جافي الخلقة ، وحذرته أن يدنو من الحي فإن قومها يأتمرون به .

غلى جوف وضاح وعصفت في رأسه الحمية ، ونزت بقلبه الصبابة ،وعقد نيته على معالجة الأمر بالحزم ، ومواجهة الخطر بالصراحة ، وقرر زيارتها في دارها بعد هذا الحوار البديع الذي خلده وضاح في هذه القصيدة .

قالت ٠ ألا لا تلجن دارنا — إن أبانا رجـــل غائر
قلت : فإني طالب غرة — منه وسـيفي صارم باتر
قالت : فإن القصر من دوننا — قلت : فإني فوقـه ظاهر
قالت : فإن البحر من دوننا — قلت : فإني سابح ماهر
قالت : فحولي إخوة سبعة — قلت فإني غالب قاهر
قالت : فليث رابض دوننا — قلت : فإني أسـد عاقر
قالت : فإن الله من فوقنا — قلت : فربي راحم غافر
قالت : لقد أعييتنا حُجة — فأت إذا ما هجع السامر
واسقط علينا كسقوط الندى — ليـلة لاناه ولا زاجز

وفي الليلة التالية كان وضاح في طريقه إلى الخصيب . وكان إخوة روضة وعمومتها يرصدون سبيله ويطلبون لقاءه ، بعـــد أن علموا من الرقيب اجتماع الكثيب . وكانت الحبيبة على علم بخروج القوم وقدوم المحب المخاطر فطرقت مضجعها الهموم ، وتخالجت قلبها الوساوس ، وخذها عليه المقيم المقعد .

لم يطل انتظار الجماعة للفرد فتلاقوا وراء الوادي . ثم كان عتاب على الأشعار الجارحة ، وسباب على الشهرة الفاضحة ، وقتال انتهى بطعنة تلقاها المحب في موضع حبه . ثم خلا المكان إلا من جريح يئن وفرس يحمحم. وتحامل على نفسه وضاح فضمد جرحه وركب جواده وقفل راجعاً إلى أهله .

قضى المسكين شهرين على فراش الألم يتضور من ضربان[1] الجرح وهذيان الحمى وثوران الحب . ولكن الجرح كان قريب الغور فاندمل ، والحمى كانت عارضة فأقلعت[2] . والحب ؟ هذا هو المرض المخامر والداء العياء ، فليس له غير الله من آس ولا طبيب . لذلك نصحوا لوضاح أن يحج البيت فشد إليه رواحله . وسنلقاه هناك بعد قليل .

— ٤ —

أذن مؤذن الحج للمرة الثمانين بعد الهجرة ، فسالت فجاج الجزيرة بالقباب والهوادج ، وشرقت دروب الحجاز ومسالكه بالناس رجالا وعلى كل ضامر ، واكتظت بطاح مكة ورباعها بالحجيج من الشام والعراق واليمن ، ودوى الفضاء المشرق بأصوات التهليل والتلبية ؛ وروى الثرى المكروب من دماء البدن[3] والضحايا ، وتمطر الجو القائظ بأنفاس الحسان الغيد ، وفاضت أندية مكة النبيلة بالقصف والعزف والغزل ، وخرج الشعراء من بني الأنصار والمهاجرين في مطارف الخز وبرود الوشي على النجائب[4] المخضوبة ، يتعرضون للغواني المحرمات ويقطفون من فوق شفاههن اللعس ألفاظ الدعاء قبل أن ترفع إلى السماء !

وهناك على الربوة العالية ضُرب الفسطاط الرفيع العماد، وفرشت الطنافس ، ونصبت الأرائك ، وصفت النمارق، ونضدت الوسائد ، وقامت الجواري والولائد، وعلقت السدول والستائر ، وبرزت من خلالها زوجة الخليفة في زينتها وفتنتها ترسل النظر تارة إلى الأفق البعيد ، وتارة تتصفح به الوجوه المختلفة والأزياء المتعددة ، والناس يتحامون جانبها ويتهيبون ظلالها لهيبة الملك وشراسة الجند

---

(١) ضرب الجرح أو الضرس ضربانا : اشتد وجعه (٢) أقلعت الحمى : زالت .
(٣) البدن جمع بدنة وهي ناقة أو بقرة تنحر بمكة ،سميت بذلك لانهم كانوا يسمنونها
(٤) النجيبة الكريمة من النوق . والمخضوبة : ماخضبت بالحناء .

وجلال الخلاقة . حتى الشعراء من شباب الهاشميين وخلفاء ابن أبى ربيعة لم يجرؤوا أن يمدوا إلى جمالها الفاتن عيناً ولا لساناً ، لأن الخليفة كتب يتوعد الشعراء جميعاً إن ذكرها أحد منهم أو ذكر أحداً ممن تبعها . ولكن الملكة تريد على رغم الملك أن تكون من عرائس الشعر وأن تظهر فى ديوان الشاعر كما ظهرت فى ديوان الملك . والشعر فى الحجاز كان حينئذ المرآة ، يصف حالها ويعرض جمالها فتصل من طريقه إما إلى الزواج وإما إلى الشهرة . فتراءت الملكة للناس وسهلت للغزلين[1] الحجاب .

وكان وضاح يومئذ مشغولا عن الشعر والشعراء بنفسه ، فهو يطوف بالبيت ويتعلق بستور الكعبة ، ويسأل الله أن يشعب قلبه بالسلوة حتى إذا خرج الحجيج إلى عرفات ، وتطالت الرقاب ، وتطلعت العيون ، وأومأت الأصابع إلى موكب الملكة الحاشد ، جذبه جلال الحاجّة النبيلة وجمال وصيفاتها فدنا من فلكها فوجد كهنة الحب وشياطين الشعر يسايرون ركابها ويراقبون سناها فمشى بجانب الشاعر كثير . ووقعت عين الملكة عليه فراعها جماله وعلقتها حباله . فأشارت بطرف العين إلى جاريتها غاضرة فأثبتت معرفته .

فلما أفاض الناس من عرفات ، وانحدروا إلى مرمى الجمرات ، وقفت بجانبه فتاة فتانة ناهد ، وأسرت إليه وهو يرجم الشيطان أن الملكة تريد لقاءه فى مخيمها على (منى) .

اضطرب وضاح لهذه الإرادة وخشى عاقبة هذه الدعوة ، وتردد طويلا فى الذهاب إلى الموعد ، لأن هذا الحب الملكى أكبر من عواطفه ، ولأن قلبه الجريح لا يزال يقطر فى لفائفه ، ولأن خيال (روضة) يعتاده فى جميع مواقفه . ولكنه عربى والعربى طماع طماح مخاطر . فلماذا لا يبذ الشعراء ويكبت الأعداء بالسبق إلى جمال الملكة ومال الخليفة ؟

(١) الغزلون : المتغزلون بالنساء .

أمسى المساء ، وكان هلال ذى الحجة قد توارى بضوئه الشاحب خلف الجبل ، وأخذت الأضواء المنبعثة من بواقى المشاعل والمصابيح والكوانين تكافح ظلمة الغسق ، وألقى الناس أوراقهم[1] على الرمال مجهودين بعد نهار قائظ احمرت حواشيه من دماء القرابين ، وضرب الكرى على آذان العامة فلم يبق يقظانَ إلا ذوو الحس الرقيق ممن جرهم جمال الليل إلى جمال السمر ، وإلا نفسان شاعرتان بسط الحب عليهما جناحه وأزال ما بينهما من فروق ، ورفع ما يفصلهما من حواجز ، حتى التقى ابن آدم ببنت حواء وجهاً لوجه . وأقبلت الملكة على وضاح اليمن تناقله الحديث وتساجله الشعر ، وتنصب له شرك الفتنة فى مطاوى اللفظ ، وتسدد إلى قلبه سهم الغواية فى مرامى اللحظ . وحسبنا أن نروى من هذا الحديث المشقّق العذب هذا الحوار :

— وكيف حال روضة بعدك ياوضاح ؟

— على شر حال واأسفاه ! زوجوها من موسر مجذوم فأعداها بالجذام !

— وما حالك أنت من بعدها ؟

— أما قبل هذه الليلة فكنت لا أنتفع بنفسى ولا أشعر بوجودى

— ومنذ الليلة ؟

— منذ الليلة عرفت نعيم السماء بعد ما عرفت فى الخصيب نعيم الأرض

— إذن ستحبنى ؟

— نعم ولو خيرت ما اخترت

— وستنسب بى فى شعرك ؟

— نعم ولو كره الخليفة

---

(١) الأرواق : جماعة الجسم

— إذن اصحبني إلى دمشق فامدح الخليفة ، وسأرفدك لديه وأقوى أمرك عنده .

— ٥ —

وعلى نهر بردى وفى القصر المشيد زكت شجرة الحب حتى عرشت على كل حائط ، وسطعت فوحتها فى كل أنف ، وتهدلت أغصانها المزهرة على سرير الخليفة ، ودنت قطوفها المحرمة من فم المجنون وليلاه ، فأكلت منها حواء وجرت إلى الخطيئة آدم ! وآدم دائما هو الذى يكفر عن الخطيئة !

ظل وضاح ابن الطبيعة الطليقة سجينا فى قصر الخليفة لا يبصر سماء ولا أرضا ، ولا يرى غديرا ولا روضا ، ولا يسمع حركة ولا صوتا ، ولا يشعر بمجرى الحياة إلا حينما تخرجه الملكة من مخبئه ساعة يغفل الرقيب وتغفو العين المريبة ، فتطارحه أحاديث الغزل ، وتسقيه من سلاف الهوى عللا بعد نهل ، ثم ترده عند الخوف إلى مأمنه .

ومضت على تلك الحال حقبة من الدهر ورفت عليهما ظلال الأمن فيها ؛ ولكن وجه الجريمة وقاح لابد من سفوره ، وريحها زفر مهما تكتمه فلا مناص من ظهوره . والخطيئة لا يطهرها إلا عقوبة أو ضحية !

أهدى إلى الخليفة ذات يوم جوهر نفيس فراقه جسنه . وأحب أن يطرف به الملكة . فبعث به إليها مع خادم له ومعه كلمة رقيقة . فمضى الغلام بالتحفة إلى مجلس الملكة فلم يجدها . وعلم أنها فى بعض الغرف فدخلها عليها مفاجأة ، وكانت قد أحست بخطاه دون الباب فبادرت إلى إخفاء وضاح فأدخلته فى صندوق وأغلقته . وحينئذ دخل الغلام فرأى أواخر جسمه تغيب تحت الغطاء . فأدى إلى الملكة الرسالة ودفع إليها الجوهر ، ثم قال لها بلهجة الخبيث الماكر : ألا تهبين

لعبدك يامولاى حجرا من هذا الجوهر ؟ فأجابته الملكة بلهجة العزيز المتمعض: « كلا يا ابن اللخناء ولا كرامة ! »

ولعلها لو كانت تحسن قراءة الوجوه لحشت فمه بهذا الجوهر حتى لا ينطق؛ أو لعلها فهمت لحن قوله ولكن نفسها الملكية الأبية أنفت الخشوع لهذا العبد فآثرت نقمة زوجها على نعمة خادمه وهى مع ذلك قوية الثقة فى شفاعة الجمال ووساطة الحب ! ومهما تكن الدوافع إلى هذا الجواب فإن الخادم قدارتدإلى سيده بجليه الأمر. ولكن الأمر نزل من خليفة معاوية فى بال واسع . فأمر بالغلام فوجئت[1] عنقه . ثم لبس نعليه ودخل على زوجته وهى جالسة تمشط شعرها فى تلك الغرفة . فجلس على الصندوق وقد علم وصفه من الغلام، ثم قال بلهجته الهادئة الرزينة :

ما أحبُّ إليك هذا البيت من بيوتك ، فلم تختارينه يا أم البنين ؟

اختاره وأجلس فيه لأنه يجمع حوائجى كلها فأتناولها منه كما أريد من قرب

— ألا تهبين لى صندوقاً من هذه الصناديق !

— كلها لك يا أمير المؤمنين !

— ما أريدها كلها ؛ وإنما أريد واحداً منها .

— خذ أيها شئت .

— أريد هذا الذى أجلس عليه .

— خذ غيره ، فإن لى فيه أشياء أحتاج إليها .

— ماأريد غيره !

---

(١) وجاء عنقه : ضرب عنقه

— إذن خذه يا أمير المؤمنين .

فأشار إلى الخدم فحملوه إلى مجلسه . ثم أمر العبيد فحفروا تحت بساطه بئراً بلغوا بها الماء . ثم دعا بالصندوق أو الناووس وقال له :

« إنه بلغناشيء . فان كان حقاً فقد كفناك ودفناك ودفنا ذكرك وقطعنا أثرك إلى آخر الدهر . وإن كان باطلا فقد دفنا الخشب ، وما أهون ذلك ! » .

ثم قذف فى البئر ، وهيل التراب ، وسويت الأرض ، ورد البساط ، وأخذ الخليفة مجلسه ، وأستمر الفلك يدور دورانه الأبدى المنتظم .

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر !

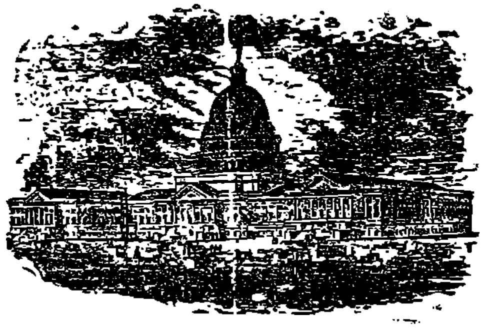

الفهرس

الموضوع	صفحة
مقالات	
بعد الاعتكاف	٥
تباشير الجامعة العربية	٩
أذكروا يازعماء العرب	١٢
أحمد ماهر المجاهد الشهيد	١٥
معروف الرصافى	١٩
الرصافى وأغا خان	٢٣
نهاية دكتاتورين	٢٨
وزير أديب	٣٣
نريد دار للترجمة يا معالى الوزير	٣٨
لا ... هذا الطريق لايؤدى	٤٢
أوروبا والإسلام	٤٧
حوار سياسى بين شيخ وشاب	٥١
جمال الدين الافغانى	٥٥
أعداؤنا الثلاثة	٦٠
حل حاسم لمشكلة الأزهر	٦٥
إصلاح الأزهر	٦٩
آفة الشرق هذا الغرب	٧٤
وعينا القومى ينضج	٧٩
من مخلفات الحرب هذا الطبلاوى أفندى	٨٣
لمن الملك اليوم؟	٨٨
من مذكراتى اليومية	٩٣
من ذكريات الطفولة	٩٩
المسلمون فى معترك الخطوب	١٠٢
بلاغة الرسول	١٠٥

الموضوع	الصفحة
محمد إسعاف النشاشيبى	١١٠
إدارة الصغير إدارة الكبير	١١٥
أول ما عرفت شوقى	١١٩
أسرة طيبة	١٢٤
أسرة منبوذة	١٣٢
الإسلام دين القوة	١٣٩
قروية فيلسوفة	١٤٣
أنطون الجميل	١٥٠
أحقاً مات على محمود طه ؟	١٦١
محمود حسن زناتى	١٦٥
على جبل النور	١٧٠
الوضع اللغوى وحق المحدثين فيه	١٧٥
الإسلام والمذاهب الهدامة	١٨٦
على طه بين المهد واللحد	١٩١
حياتى	١٩٥
أدب اللذة وأدب المجون	١٩٩
حاضر الأدب العربى	٢٠٦
فصول قصار	
قصة النمل الأبيض	٢١٦
خليفة نابليون	٢١٨
نهضة العرب مشكلة !	٢٢٠
الثغر يضحك	٢٢٢
رحم الله أودلف هتلر	٢٢٢
أولياء وأعداء	٢٢٦
فى ميدان عابدين	٢٢٨
الجامعة الإسلامية هي الغاية	٢٣٠

الموضوع	الصفحة
أحمد عرابى المفترى عليه	٢٣٢
نحن والظالم أمام القضاء	٢٣٤
القوة هى الحق !	٢٣٦
قولوا استعدوا ، ولا تقولوا اتحدوا	٢٣٨
الطابور الخامس فى حرب الكولرا	٢٤٠
يا أغنياءنا ! قولوا أسلمنا ولا تقولوا آمنا	٢٤٢
لا إله اليوم إلا الهوى	٢٤٤
صليبية من نوع جديد	٢٤٦
حسن ، مرقس ، كوهين	٢٤٨
من علامات الساعة	٢٥١
لله جيش مصر !	٢٥٣
أدبنا وهذه الحرب	٢٥٥
مالى لا أكتب ؟	٢٥٧
عاهل الجزيرة	٢٧٧
أحمد حسنين	٢٦١
يوم عظيم لسورية العظيمة	٢٦٣
مثل الشيخ	٢٦٥
صديقى توفيق الحكيم	٢٦٧
فكاهة لها مغزى	٢٦٩
مثل للمذبين من بنى آدم	٢٧١
النقراشى الفقيد الشهيد	٢٧٤
حج غير مبرور	٢٧٧
الرجل الذى فقدناه	٢٧٩
خاطرة	٢٨١
أدبنا فى السماع	٢٨٤
رؤيا مزعجة	٢٨٦
رحم الله صديقى المازنى !	٢٨٩
يظهر أن يوم الانتخاب قريب	٢٩١
الشيوعية على المصطبة	٢٩٣
ليس بعد الدين وازع	٢٩٥
الصيف ضيعت اللبن	٢٩٧
إسماعيل صدقى	٢٩٩
الأقاصيص	
قصة فتاة	٣٠٣
قصة حشاش	٣٣١
صديق الكلاب	٣٣٦
بهيرة	٣٤٢
مأساة شاعر	٣٥٠

أحمد حسن الزيات

وحي الرسالة

فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع

والقصص

المجلد الرابع والأخير – الطبعة الثانية

١٣٨٥ – ١٩٦٦

نال هذا الكتاب جائزة الدولة للأدب

دار نهضة مصر للطبع والنشر

الفجالة – القاهرة

مطبعة الرسالة
٩ شارع حمودة المقاول - عابدين

مقالات

كيف أعلن محمد حقوق الإنسان

(أول يناير سنة ١٩٥١)

في شهر ديسمبر من عام ١٩٤٩ ، وفي فورة من فورات النفاق الدولي ، أعلن الساسة في (هيئة الأمم المتحدة) حقوق الإنسان . ثم احتفلوا واحتفل معهم الناس بالذكرى الأولى لهذا الإعلان منذ عشرين يوماً ، فبشروا بالنعيم المقيم والخير العميم والسلام الدائم . ومن قبل هؤلاء الساسة (الإنسانيين) أعلن قادة الثورة الفرنسية هذه الحقوق عام ١٧٨٩ وصاغوها في سبع عشرة مادة جعلوها ديباجة لدستور سنة ١٧٩١ .

ومن السهل على الذهن الاجتماعي أن يعلل صيحة الثوار الفرنسيين بحقوق الإنسان بعد أن كابدوا ما كابدوا من استعباد النبلاء واستبداد القسس ، وأن يفسر احتضان هيئة الأمم المتحده لهذه الحقوق بعد أن رأت الحوت الشيوعي معترضاً في خِضَمِّ الحياة وقد فغر فاه الهائل المروع ليلتقم الديمقراطية الرأسمالية وما تسيطر عليه من أرزاق الناس وأسواق العالم بالاستعمار أو بالنفوذ . ولكن من الصعب على الذهن المنطقي أن يدرك ما يريده الأوربيون والأمريكيون من لفظ (الإنسان) الذي أعلنوا له هذه الحقوق وظاهروا عليه هذا العطف . أغلب الظن أنهم يريدون بإنسان هذه الحقوق ذلك الإنسان الأبيض المترف الذي تحدر من أصلاب اللاتين أو السكسون أو التوتون ؛ أما الإنسان الأحمر في أمريكا فهو في رأي أبناء العم سام ضرب مَهين من الخلق ، عليه كل واجب وليس له أي حق ؛ ولكن وجوده المعدوم في بلاد الديمقراطيين الأحرار لا يزال في رأي المسلمين أغلظ كذبة في دستور الديمقراطية بواشنطون ، وأكبر لعنة على

تمثال الحرية بنيويورك ! وأما الإنسان الأسمر والأسود فى أفريقيا ، أو الأخضر والأصفر فى آسيا ، فهو فى نظر الفرنسيين والإنجليز نوع من بهيمة الأنعام ، وجنس من المواد الخام ، يولد ليسخَّر ، ويروّض ليستثمر ، وينتج ليُستهلك . وهو موضوع الخصومة فى السلم ، ومادة الغنيمة فى الحرب ؛ ولكن حقه المهضوم بين أمم العلم والدستور لا يزال فى نظر المسلمين اتهاماً لصحة الثقافة فى جامعات فرنسا ، وإنكاراً لحقيقة العدل فى برلمان انجلترا ! ومن هذا التفسير المزور لمعنى الإنسان فى القديم والحديث اضطرب الأساس وفسد القياس واختلف التقدير . فلكل جنس وزنه ، ولكل لون قيمته ، ولكل دين حسابه . ومدار الوزن والتقويم والحساب على قدرة الإنسان وعجزه ، لا على إنسانيته وفضله . فالعلم والغنى والقوة سبيل السيادة ، والجهل والفقر والضعف سبيل العبودية . والسيادة حق ليس بإزائه واجب ، والعبودية واجب ليس بإزائه حق .

المسلمون وحدهم هم الذين يفهمون الإنسان بمعناه الصحيح لأنهم أتباع محمد . ومحمد وحده هو الذى أعلن حقوق الإنسان بهذا المعنى لأنه رسول الله . والله وحده هو الذى ألهم رسوله هذه الحقوق لأنه أرسله رحمة للعالمين كافة .

أرسله رحمة للذين استضعفوا فى الأرض لقلة المال كالمساكين ، أو لفقد العشير كالموالى ، أو لضعف النصير كالأرقاء ، أو لطبيعة الخلقة كالنساء ، فكفل الرزق للفقير بالزكاة ، وضمن العز للذليل بالعدل ، ويسر الحرية للرقيق بالعتق ، وأعطى الحق للمرأة بالمساواة .

والمستضعفون الذين رحمهم الله برسالة محمد لم يكونوا من جنس مبيَّن ولا من وطن معين ؛ إنما كانوا أمة من أشتات الخلق وأنحاء الأرض اجتمع فيها العربى والفارسى والرومى والتركى والهندى والصينى والبربرى والحبشى على شرع واحد هو الإسلام ، وتحت تاج واحد هو الخلافة . والإسلام الذى

يقول شارعه العظيم « ولقد كرمنا بنى آدم » لم يخص بالتكريم لوناً دون لون ، ولا طبقة دون طبقة . إنما ربأ ببنى آدم جميعاً أن يسجدوا لحجر أو شجر أو حيوان ، وأن يخضعوا مكرهين لجبروت كاهن أو سلطان .

كان اليهود يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه وسائر الناس سواء والعدم ! وكان الرومان يدعون أنهم حكام الأرض وما سواهم خدم ! وكان العرب يقولون إنهم أهل البيان وما عداهم عجم ! وكان الهنود يعتقدون أن الله خلق البراهمة من فمه والرجبوت من عضده والمنبوذين من رجله ولا يستوى الأمر بين رأس وكتف وقدم ! وكان النظام الاجتماعى كله قائماً على الامتياز بالجنس أو بالدين ، وعلى السيادة بالنسب أو بالمال ، حتى جاء محمد اليتيم الفقير الأمى بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ؛ فأعلن المساواة بقول الله عز اسمه : « إنما المؤمنون إخوة » « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وأكدها بقوله صلوات الله عليه : « الناس سواسية كأسنان المشط » « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، كلكم لآدم وآدم من تراب » .

ثم كان الرقيق والمرأة شيئين من الأشياء لا يملكان ولا يتصرفان ، فضيق الإسلام حدود الرق ، وجعل كفارة الذنوب على الصدقة والعتق ، وسوى بين الرجال والنساء فى الحق والواجب .

ثم أعلن حرية العقيدة بقول الله تعالى : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ » واحترم عقائد أهل الكتاب ، وضمن لهم حرية العبادة وأمان العيش وعدل القضاء ، وأمر الولاة أن يرعوهم ويعطفوا عليهم ، وأوصى المسلمين أن يبرُّوهم ويقسطوا إليهم . ثم أعلن الإسلام حرية

الفكر والرأى فلم يقبل إيمان المقلد ولا حكم المستبد . وأمر بالنظر فى ملكوت السموات والأرض ، ووسع صدره لأهل السياسة حتى تعددت الأحزاب ، ولأهل الجدل حتى كثرت الفِرق ، ولرجال الفقه حتى تنوعت المذاهب . وسمح لأهل الذمة وأصحاب النِّحل أن يدعوا إلى أديانهم ويدفعوا عنها فى المدارس والمجالس والبيَع ، ونهانا ألا نجادلهم إلا بالتى هى أحسن .

ثم احترم المِلكية وثبّت لها الأصول ، ونظم المواريث ورتب عليها التعامل. وهذه هى جُماع الحقوق الطبيعية التى كفلها الإسلام للإنسان على اختلاف ألوانه وأوطانه وألسنته . أعلنها محمد بن عبد الله منذ ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن ، والأمر يومئذ للجهالة ، والرأى للضلالة ، والحكم للطغيان ، فأنقذ بها الإنسانية من إسار المادية والعصبية والأثرة . ثم أكرمها ونعّمها وهداها الطريق المستقيم إلى نظام أكمل وعالم أفضل وحياة أسعد. ولكن الإنسانية وا أسفاه أضلت هذه السبيل ! أضلها أولئك المنافقون الذين يعلنون لها اليوم هذه الحقوق ، وهم يسرون فى أنفسهم تأكيد الامتيازات وتأييد الفروق .

ثوروا على الفقر قبل أن يثور

(١٥ يناير سنة ١٩٥١)

سادتي وزراء الشئون الاجتماعية والاقتصاد الوطني والتموين والتجارة والأوقاف ! نصيحة خالصة لوجه الله يدفعني الاشفاق عليكم أن أقدمها إليكم.

ثوروا على الفقر قبل أن يثور ، واستعدوا للدائرة قبل أن تدور ! إن زميلكم وزير المعارف يؤلب عليكم الأمة ! لقد صمم على أن يعلم الشعب . وتعليم الشعب معناه أن تزول الغشاوة عن عينه فيبصر ، وأن تنجلي الغشاوة عن قلبه فيفقه، وأن تذهب البلادة عن عصبه فيحس . ومتى يبصر الشعب ويفقه ويحس ، يدرك الاختلاف بين حال وحال ، ويميز الفرق بين طبقة وطبقة ، ويقرأ العدد الأخير من مجلة (آخر ساعة) مثلا فلا يكتفي منه بالصور تلهيه ، ولا بالأخبار تسليه؛ وإنما يوازن موازنة الواعي المفكر بين ما صورته من عيد رأس السنة الميلادية وما أقيم فيه من مآدب ومراقص فاضت بالنعيم ، وتلألأت بالجواهر ، وازدهت بالحلل ، والتحمت بالرقص ، وطفحت بالخمر ، وضجت بالجاز ، والتهبت بالقبل ، وعرضت على الأنظار الطامحة ألوفاً مؤلفة من الجنيهات المصرية تمثلت على الأجساد المترفة البضة حللا وفراء وعقوداً ومشابك وخواتم مما يجلبه الغنى الفاحش من كنوز أوربا ! يوازن بين هذا وبين ما صورت المجلة في العدد نفسه من بؤس الفلاح في قرية (مناوهلة) بالمنوفية وما يكابده من كرب العيش ، وغصص الفاقة ، ومض الأمراض ، وعنت الملاك ، وهبوط دنياه إلى دنيا البهيم ، فيأكل أجشب الطعام ولا يغتذى ، ويلبس أخشن الثياب ولا يستتر ، ويعمل أشق الأعمال ولا يكافأ ، وينتج أعظم الإنتاج ولا يشارك ، فتصدمه الموازنة لأنه

علم ، وتؤلمه النتيجة لأنه أحس . ويومئذ يسألكم يا أصحاب المعالى هذا السؤال :
« ماذا تصنعون على الكراسى التى وضعتكم عليها بيدى ، وكافأتكم على الحركة فيها بمالى ؟ »

ولعلكم تدركون يا أصحاب الجاه والسلطان ، أن الجواب عن سؤال الشعب غير الجواب عن سؤال البرلمان !

أعداؤنا الثلاثة يا أصحاب المعالى وهى الجهل والفقر والمرض لا تعرف هوادة ولا تقبل هدنة . فأما الجهل فالصراع بينه وبين وزير المعارف شديد . والعالم كله يرقب هذه المعركة الشعواء بعين الإعجاب والثقة ، والنصر ولا ريب مكفول لمن لا يقبل النكوص ولا يرضى الهزيمة . وأما الفقر والمرض فقد تركتموهما يعيثان فى القرى والمدن : يبذران الشقاء والوباء ، ويسخران من وعودكم التى تعلن ولا تنجز ، ومن مشروعاتكم التى توضع ولا تنفذ . وإذا أنجز منها وعد أو نفذ مشروع ، كان لمصلحة الأغنياء ومنفعة الأصحاء على حساب الفقراء والمرضى !

عبد العزيز فهمى

(١٢ مارس سنة ١٩٥١)

حمّ قضاء الله ومضى الرجل العظيم مستقبلاً وجه الخلود ! والرجولة والعظمة صفتان تجمعان ما أوتى عبد العزيز فهمى من مناقب مصدرها خُلقه ، ومواهب مظهرها عمله . كان رجلا بالمعنى الرفيع الذى يفهمه المهذب من لفظ الرجل . وكان عظيما بالمعنى الجميع الذى يدركه المثقف من كلمة العظيم . ولو ذهبت تحلل حياة أول القضاة فى سجل القضاء ، وثانى الزعماء فى سجل السياسة ، إلى عواملها الأولية ، لوجدتها فى الخلال ، الصدقَ والصراحة والإباء والشجاعة وهذه هى الرجولة ، وفى الأعمال ، العمقَ والشمول والاتقان والتفرد وهذه هى العظمة . وفقد رجل كهذا الرجل حياته تاريخ ، وعمله رسالة ، وخلقه قدوة ، وكفايته ثروة ، خسارة إنسانية لا خسارة قومية ، ومصاب أمة لا مصاب أسرة ، وفجيعة منفعة لا فجيعة عاطفة . فإذا جزع الشعب لموته هذا الجزع فإنما يجزع لركن هوى لا لغصن ذوى ، ولهاد مضى لا لصديق قضى . والجزع على العظماء لا يكون بالعبرات التى تطفىء ، وإنما يكون بالحسرات التى تحرق . والخطب الذى يبكى العيون ، أهون من الخطب الذى يدمى القلوب . ومن يقف أمام الحصن الذى ينسف ، أو الكنز الذى يخسف ، يجد فى نفسه الروع الذى يذهل ، لا الحزن الذى يُعوِل .

كان عبد العزيز فهمى جزءاً ضخماً من ثروة مصر العلمية . وهذه الثروة لا تزال من حيث الكيف ضئيلة . فإن العباقرة الذين هيأتهم إلى العلم الصحيح طبائعهم الحرة وملكاتهم الأصيلة لا يزالون بيننا آحاداً . وقلّ من هؤلاء الآحاد

من جمع إلى العلم سمو العالم ونزاهة المصلح كما جمعهما الفقيد . واجتماع هذه المزايا فيه لا يعلله معلل من نشأته وبيئته ودراسته . فإن هذه العوامل نفسها أو شبهها أثرت في غيره من أهل جيله ، ولكن مصر لم تظفر من بينهم بمثيله . هنالك أمر قد يكون مفتاح السر وطريق المجهول : ذلك أنه تلقى دراسته الأولى في الأزهر كما تلقاها فيه محمد عبده وسعد زغلول وابراهيم الهلباوى . وهؤلاء جميعاً قد تشابهوا في قوة الشخصية ونفوذ العقلية ، فدرسوا الفقه بعمق ، وعالجوا البيان بحذق ، وزاولوا المحاماة ببراعة ، وتولوا القضاء بجدارة ، ومارسوا السياسة بخبرة ، ولكنه انفرد من دونهم جميعاً بخصائص خلقية جعلت ذلك التشابه تغايراً في بعض نواحي الرجولة . كان رحمه الله لا ينافق ولا يمالق ، ولا يداهى ولا يداجى ، ولا يدلّس ولا يلبس ، ولا يقول إلا ما يصح في معتقده ، ولا يعتقد إلا ما يصح في رأيه . وهذه الصفات قد تجعل المصلح عظيما ، ولكنها لا تجعله زعيما . وأريد بالزعامة هنا زعامة العامة لا زعامة الخاصة ، فقد كان الفقيد زعيما في المحاماة ، وزعيما في القضاء ، وزعيما في التشريع ؛ وزعيما في الشورى . وفي كل هذه الأمور كان هو وسعد يتعاوران الأولية . فلما دخلا معاً ميدان السياسة ، دخلها هو بعقل القاضي ولسان المحامى . والقاضى أداته قانونه ونزاهته ، والمحامى آلته دليله وبلاغته . وإذا تجهزت للزعامة السياسية في أمم الشرق بالقانون والضمير والمنطق والصراحة والصدق ، هاجمك خصمك بالأباطيل الغاشية فيظهر عليك ، ووقف منك جمهورك على الحقائق العارية فينفر منك . لذلك كان حظ عبد العزيز من القضية المصرية على فصاحته في الخطابة وبلاغته في الكتابة ، حظ القائد الحكيم الذى توضع الخطط على رسمه ، لا حظ القائد الزعيم الذى تتوج (الأوامر) باسمه . وظل طول عمره السياسى راضياً بهذا الحظ حتى عجز آخر الأمر عن التوفيق بين هواه والعامة ، وبين خلقه والسياسة ، وبين ضميره والحكم ، فارتد إلى القضاء وقد آتاه الله

فيه الحكمة وفصل الخطاب ، فوضع المبادىء ، وقرر الأحكام ، وأضاف إلى الفقه المصرى مادة ضخمة من علمه وحكمه زادت فى ثروته ورفعت من قيمته .

ثم اختير بعد اعتزاله القضاء عضواً فى مجمع اللغة العربية ، فأخلى ذرعه للنظر فى علوم اللغة والأدب بعين الفقيه المجتهد والأديب الناقد ، حتى بلغ منها مبلغ الأعلام الذين وقفوا على تحصيلها العمر والجهد . وتقدم إلى المجمع بمشروع اقتباس الحروف اللاتينية للكتابة العربية ، مقروناً بالأسباب ، معززاً بالمزايا ، مؤيداً بالأسانيد ؛ ثم أعقبه بكتاب ألفه فى الرد على معارضيه ومنتقديه ، جمع إلى بلاغة الأسلوب قوة العرض ومتانة الحجة ، فكان آية على سمو طبقته فى الكتابة وبعد غايته فى الأدب . فلما أقعدته العلة رضوان الله عليه كانت غرفة مرضه ملتقى أقطاب الفقه والأدب والسياسة ، يستفيدون من علمه ، ويستزيدون من أدبه ، ويستضيئون بفكره . وهو فى كل ما يعرض عليه أو يتعرض له طلق البديهة ، محكم الرأى ، جيد الاستنباط ، حاضر الدليل .

كنت فيمن يزورونه الحين بعد الحين ، فكان فى كل زورة يكشف لى غير عامد عن سر من أسرار عبقريته . دفع إلى مرة بضع مقالات فى نقد شرح وضعه أستاذان جليلان لكتاب البخلاء ، وشرط على أن أنشره غفلا من الإمضاء . فلما ظهر النقد فى الرسالة كان حديث الأندية ومثار الظنون ، لأن الناس عجبوا أن يستتر الناقد وهو على هذه المكانة من ثقوب النظر ، وقوة التوجيه ، وصحة الاستدلال ، وعفة اللفظ . وأفضى إلى مرة أخرى بأنه يقرض الشعر منذ الحداثة ، إما منا قلة بينه وبين نفسه ، وإما مساجلة بينه وبين إخوانه . ثم أنشدنى مطارحة من جيد النظم جرت بينه وبين الأستاذ للفتى الجزائرى ، وقصيدة دالية من المطولات وصف فيها فساد الطباع فى الناس ، وسقوط الأخلاق فى المجتمع . فلما طلبت إليه أن يهديها إلى قراء الرسالة سوّف هرباً

من سقوط الأضواء ثانية عليه وهو مضطجع على أعراف المجد يسترفه من مكاره الواجب وتكاليف النبوغ . وما زال الناس يرددون هذه الأرجوزة القصيرة التي نظمها وكتبها على قبر زوجته وقد نعم بالعيش معها سنة واحدة ثم توفاها الله بحمى النفاس فلم يتصل بامرأة بعدها حتى لقيها :

يا وردة عاشت حياة الورد   عمراً قصيراً وثوت فى اللحد
لولا برىء غافل فى المهد   يرضيك أن أحيا ليحيا بعدى
لعجّلت بى زفرات الوجد

أما بعد فماذا ينشر الكاتب الموجز وماذا يطوى من حياة أقل مفاخرها موضوع كتاب ، وجملة مآثرها تاريخ عصر ؟

رحم الله المحامى المدره ، والقاضى المجتهد ، والوزير النزيه ، والدستورى الحر ، والفقيه الحجة ، والخطيب المفوه ، والكاتب البليغ ، والشاعر المجيد ، والناقد البصير ، والأديب المطلع ، وألهمنا على فقده جميل الصبر ، وعوضنا من بعده خير العوض !

ربيعك في نفسك

(٩ ابريل سنة ١٩٥١)

كنت كلما أقبل أبريل بالربيع تلقيته وفى نفسى بهجة الطفل ، وفى عينى وضاءة الجنة ، وفى قلبى صبوة العاشق ، وفى حسى نشوة الشاعر ، وعلى لسانى أغرودة البلبل . ثم أجدنى بعد همود الشتاء وعبوسه قد تجاوبت مع الطبيعة ؛ فأنضر مع الغصن ، وأتفتح مع الزهر ، وأتطلق مع النسيم ، وأمرح مع الطير ، وأزدان مع الروض ، وأقضى أواخر النهار على ضفاف النيل ، وأوائل الليل فى ملاهى القاهرة ، فأجد لكل شيء جمالا ، وفى كل عمل لذة ، وعلى كل منظر فتنة !

أما اليوم فإنه يقبل به على فلا ألقاه ، وإذا لقيته لا أراه ! ذلك لأن ستاراً من ظلام النفس يفصل بين عينى ونوره ، وحجاباً من كآبة العيش يحول بين قلبى وسروره .

فأنا أمشى فى شارع فؤاد — إن مشيت — فأرى حياة الربيع من حولى تتدفق باللهو ، وتتألق بالجمال ، وتتأنق بالزينة ، وأنا محمول على عبابها المضطرب ذاهل الوعى بارد الحس خامد الحركة ، كأننى جثة قتيل على سطح نهر ، تمور الأمواه تحتها بالحياة ، وتزدهى الشطئان حولها بالنضارة ، وهى تجرى إلى مصيرها المجهول لا تتصل بالكون ولا تشعر بالوجود !

وأنا أغشى مسرح اللهو — إن غشيت — فأرى الوجوه تهش ، والثغور تبسم ، والعيون تقول ، والقلوب تصغى ، وأنا جالس إلى المنضدة الرخامية لا أجد بينى وبينها فرقاً فى الجمود والبرود ! فمثلى كمثل الأصم الأصلخ فى المرقص

الصاخب : يرى أفواهاً تنفخ فى مزامير ، وعِصِيًّا تضرب على طبول ، وأجساداً تلتصق بأجساد ، وشفاهاً تنفرج عن ثغور ، ثم لا يسمع أنغام العازفين فيطرب ، ولا يدرى كلام الراقصين فينتعش !

لقد خبت وقدة القلب وعادت جمرته رماداً !

أذلك لتقدم السن ، أم ذلك لتأخر الصحة ؟ لا يا صديقى : لا تقدم السن يؤخر الربيع ، ولا تأخر الصحة يقدم الخريف . ما دامت فيك حياة ففيك شعور . والشعور إن يبلد يدرك الحس فى جمال الطبيعة ؛ وإن يرهف يدرك الروح فى حس الجمال . إنما هى الحياة العفنة التى نحياها اليوم فى مصر ! مستنقع من الماء الآسن ، تنعقد عليه أبخرة خانقة ، وتسطع منه روائح خبيثة ، وتطن فوقه حشرات سامة . فإذا لم يؤتك الله المشاعر السحرية التى تجعل الظلام نوراً ، والبخار بخورا ، والطنين شدواً ، والكدر صفواً ، عنَّاك أن تجد اللذة ، وأعياك أن تسيغ العيش !

لقد كنا من قبل نبصر الحياة بالقلب والقلب فنان ، ونحن الآن نبصرها بالعقل والعقل عالم !

قاسم أمين

بمناسبة ذكراه السنوية [1]

(٣٠ إبريل سنة ١٩٥١)

فى مثل هذا اليوم من عام ثمانية وتسعمائة وألف انتقل إلى دار البقاء المصلح العظيم قاسم أمين بعد أن قضى فى هذه الحياة أربعا وأربعين سنة يستعد للكمال النفسى الذى تهيأ له بفطرته ، ويدعو إلى الكمال الإنسانى الذى اتجه إليه بفكرته.

وكانت الفترة التى نشأ فيها بعد هزيمة المصريين وانتصار المحتلين أشبه شىء بالفترة التى تأخذ من أواخر الشتاء وأوائل الربيع ، فيها الخدر والبرد والجدب ، ولكن فيها أطرافا من الحس والدفء والخصوبة . فالشعب كان يعانى من عواقب الأزمان السود التى أتت عليه ، ومن رواسب الأجناس السوء التى عاثت فيه ، ألوانا من الجهل والذل والفوضى جعلته يستكين لعوامل الفساد فى الخلق والعقيدة والثقافة والمجتمع . فالحكم أهواء وشيع ، والدين أوهام وبدع ، والعلم قشور ومسخ ، والأدب تقليد وزخرف ، والرجال آلات للعمل والإنتاج ، والنساء إماء للخدمة والمتاع ، والسلطان المحتل يصرّف أمورنا على مشيئته ، والمال الأجنبى يستغل مواردنا لمنفعته . وكانت البراعم التى بكرت إليها حياة الربيع فتفتحت عن الشعور والوعى تتمثل فى الرواد الأولين : جمال الدين ، ومحمد عبده ، ومصطفى كامل ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين ، ولطفى السيد ، وعبد العزيز فهمى ، فشعروا أول الناس بالأدواء التى قعدت بالأمة عن النهوض ، فجاهد كل منهم وقاد فى الميدان الذى خلق له وظهر فيه :

---

(١) ألقيت فى احتفال الاتحاد النسائى بذكرى قاسم أمين .

ومما عمق فيهم هذا الشعور وقواه ، نبوغ أكثرهم فى القانون والأدب ، وتفوق بعضهم فى الدين والفلسفة ، وأخذهم بنصيب من ثقافة الغرب ، واتصالهم بأقطاب الفكر فى فرنسا وإنجلترا ، ووقوفهم على تلك الحملة المنكرة التى شنها أبالسة الاستعمار على مصر والعرب والإسلام ، فنهض جمال الدين لإرنست رينان ، ومحمد عبده لهانوتو ، وقاسم أمين لدوق داركور ، فدافعوا بالحجج الملزمة ما لفقوا من أباطيل وأنكروا من حقائق . فلما بلغوا المآخذ التى أخذها الخصوم علينا بالحق حملهم الإباء القومى على أن يأخذوا عليهم أشباهها فى مجتمعاتهم ومعتقداتهم ، كالمقابلة بين تعدد الزوجات هنا ، وتعدد الخليلات هناك . ولكن هذا الإباء القومى نفسه حملهم كذلك على النظر فى تطهير الشرق من هذه المآخذ ، بتصحيح الزائف ، وتقويم المعوج ، وتقييد المطلق ، فمضى كل زعيم يتحرى وجوه الإصلاح والتحرير ، فى الوطن ، أو فى الدين ، أو فى الفكر ، أو فى الأدب ، أو فى القضاء ، أو فى الرجل ، أو فى المرأة ، على حسب استعداده وطبيعة نفسه .

* * *

كانت رسالة قاسم إصلاح المجتمع فى نواحيه المختلفة . وما كان فى خلقه ولا فى طوقه أن تكون رسالته غير ذلك . كان حيي الوجه ؛ يحتشم إذا لاقى ، ويغضى إذا حدَّث ، ويعف إذا جادل . وكان عطوف القلب ؛ يدين بالصداقة ، ويتخلق بالرحمة ، ويواصل بالمودة . وكان رقيق الشعور ؛ يكلف بالأدب ، ويطرب للغناء ، ويعجب بالجمال ، وكان عصبى المزاج ؛ ينفعل انفعال الفنان ، وينبسط انبساط المؤمن ، وينقبض انقباض الناسك . وكان محبَّبا إليه العشرة ؛ يخالط كل طبقة ، ويسبر كل حالة ، ويرقب كل حادث . وكان واسع المعرفة والخبرة ؛ يتقصى طبائع الشعوب ، ويدرس أحوال الأمم ، ويتعرف دخائل

النفوس . وهذه هى جل الصفات التى يجب أن تكون فى المصلح الاجتماعى ليكون بينه وبين مجتمعه تجاوب فى الشعور والفكر .

عُنى قاسم رضوان الله عليه بإصلاح المجتمع المصرى وهو فى سن العشرين منذ قرأ كتاب داركور ورد عليه فى عام ١٨٩٤ ، فكتب فى جريدة المؤيد تسع عشرة مقالة أكثرها بعنوان (أسباب ونتائج)، وبعضها بعنوان (حكم ومواعظ)، عالج فيها أدواء المصريين فى الاقتصاد والوقف والتربية والتعليم والأسرة والوظيفة علاجا لا يزال المصلحون يصفونه ويكررونه ، لأنه جمع أكثر العناصر الفعالة فى حسم الداء وبرء المريض . وقلما نجد كاتبا يعرض اليوم لهذه المسائل ولا يقع على خطاه ، أو يوافق على ما ارتآه .

كان هذا المفكر العظيم يكتب عن إيمان وصدق . لا يكتب رغبة فى الكتابة ، ولا ينشر طمعاً فى الشهرة ؛ وإنما كان ينشر مقالته فى الصحف من غير إمضاء ، ويرسل فكرته فى الناس من غير ضوضاء ، ثم لا يعنيه إلا أن يراها تصيب الغرض الذى قصده ، وتحدث الأثر الذى أراده .

وكان صاحب رأى وعزيمة ، يقول ويفعل ، ويفكر ويدبر . فإذا قرأنا رأيه فى كتابين قيمين : تحرير المرأة ، والمرأة الجديدة ؛ فقد رأينا عزمه فى عملين عظيمين : الجمعية الخيرية الإسلامية ، والجامعة المصرية .

وكان ينفذ ببصره وفكره إلى طوايا المجتمع فيرى بقوة لحظه وحدة ذهنه دقائق وتفاصيل لا يدركها النظر العادى . ومزية الكاتب الموهوب أن يُرينا مالم نر ، ويفقهنا على ما لم نعلم ، ويصور لنا ما لم نتصور . وفى كلمات قاسم أمين المنشورة آيات من الحوار والتصوير مثل بهما طرفا من نقائص العصر تمثيلا دل على ملكة أصيلة فى الأدب ، وقريحة سخية فى الكتابة ، نقرأ له مثلا هذا الحوار القصير :

سئل ج . بك : ما رأيك فى كتاب تحرير المرأة ؟

فأجاب : ردىء !

— هل قرأته ؟

— لا !

— أما يجب أن تقرأه قبل أن تحكم عليه ؟

— ما قرأت ولا أقرأ كتاباً يخالف رأيى !

وتقرأ له هذه الصورة الناطقة لجنازة من جنائز العامة :

« هؤلاء الفقهاء الذين يجر بعضهم بعضاً ، وليس فيهم إلا الأعمى والأعرج والأعور ، يمشون بسرعة غير منتظمة ، لابسين ثياباً قذرة ، صائحين بأصوات مزعجة ، كلمات تخرج من حناجر مختلفة بنغمات شنيعة ! وهذا النعش المحمول الذى يتخبط فيه الميت ، و يلتفت تارة إلى جهة اليمين ، وتارة إلى جهة الشمال ؛ وهؤلاء النسوة اللاتى صبغن أيديهن ووجوههن ، وعفرن بالتراب رءوسهن ، يمشين وراء النعش مشيرات بالمناديل إليه إشارات مروعة مصحوبة بألفاظ مرتلة ! ما هذا كله ؟ مجمع مجانين ، أم نفر بهم مس من الشياطين ؟ ألعوبة أطفال ، أم معرض كرنفال ؟ »

نقرأ ذلك الحوار ، ثم نقرأ هذه الصورة ، فنعتقد أن لومدالله فى أجل قاسم لعالج عيوب المجتمع بالرواية كما فعل (موليير) ، أو بالصورة كما صنع (لابرو يير). والأدب العالى والأسلوب البليغ أخص صفات المصلح وأقوى أدوات الإصلاح — وحظ قاسم منهما كان موفوراً . وكما يتعهد الجندى سلاحه ، كان قاسم يتعهد اللغة والأدب ، فرأى فى أصالة الأسلوب ، واستعمال المترادف ، ومعضلة الكتابة العربية ، ومشكلة اللغة العامية ، وصعوبة الإعراب ، وفتح باب الاجتهاد

فى اللغة ، آراء لم تجر على بالنا إلا اليوم ! والصفحات الستون التى جمعت (كلمات قاسم أمين) الموجزة فى الأدب والاجتماع ، أمثلة خالدة من عمق التصور ودقة التصوير .

نعم ! عنى قاسم أمين بإصلاح المجتمع المصرى فى خلقه وعاداته ، ونظمه واقتصادياته ، وتربيته وتعليمه ، ولغته وأدبه ، ولكنه رأى أن علة العلل فى فساده هى حال المرأة . والمرأة قوام الأسرة ، والأسرة نواة الأمة . فإذا صلحت المرأة صلح الرجل ، وإذا صلح الرجل صلح المجتمع . والنساء نصف الشعب الذى يربى نصفه الآخر ، فإذا ظللن محجوبات جاهلات متعطلات ، ظل المجتمع ريضا[1] لفقدانه تثقيف الأمومة ، غليظا لحرمانه تلطيف الأنوثة . يعمل بيد واحدة لأن الأخرى شلاء ، ويمشى على قدم واحدة لأن الأخرى عرجاء . وكانت المرأة فى عهد قاسم شيئاً لا يذكر ، وإذا ذكر لا ينظر ! إنما كانت حبيسة المنزل ؛ تضرب عليها الحجب ، وتبث حولها العيون ، وتقضى من دونها الأمور ، وينظر إليها الزوج نظره إلى الفراش الملقى ، فلا يؤاكلها على مائدة ، ولا يجالسها فى بهو ، ولا يماشيها فى شارع ، ولا يشاورها فى شأن ، ولا يذكر اسمها إلا مكنيا عنه بالبيت أو الأولاد أو الجماعة وكان من جريرة ذلك عليها أن وهن جسمها لقلة العمل ، وساء خلقها لفقد الحرية ، وضعف تفكيرها لترك التدبير ، وغفل ضميرها لعدم المسئولية ، فلم تفكر إلا فى حللها وحليها ، ومدافعة الضرائر والجوارى عن نصيبها من زوجها . لقد كانت خارجة عن دنيا الناس ، «فلم يبق لها من الكون — كما قال قاسم فى كتابه (تحرير المرأة) — إلا ما استتر من زوايا المنازل . واختصت بالجهل والتحجب بأستار الظلمات ، واستعملها الرجل متاعاً للذة ، يلهو

(١) الريض على وزن سيد : المهر قبل يذال ويعلم السير ، يستعار للشباب المرسل على غرائزه قبل أن يهذب .

بها متى أراد ، ويقذف بها فى الطريق متى شاء . له الحرية ولها الرق . له العلم ولها الجهل . له العقل ولها البله . له الضياء والفضاء ولها الظلمة والسجن . وله الأمر والنهى وعليها الطاعة والصبر . له كل شيء فى الوجود ، وهى بعض ذلك الكل الذى استولى عليه » .

بذلك تأثر قاسم ، وفى ذلك جاهد قاسم ، فعرض القضية على وجوه المعقول والمنقول ، فلم يجد لاستعباد المرأة حجة إلا استبداد الرجل ، فجاءه من طريق الدين والمروءة والمصلحة وفى يديه كتاباه : تحرير المرأة ، والمرأة الجديدة ، يزيف بهما حجته ، ويخفف غروره : وكان لا بد لمن يخالف المألوف ويعارض الموروث ويصادم الواقع أن يلقى ما لقيه المرسلون والمصلحون من عنت الجدل ولدد الخصومة . ولكن محرر المرأة كان قوى الإيمان برأيه ، شديد الإخلاص فى سعيه ، فلم يهن لما أصابه فى سبيل الحق ولم يستكن . وإنما بذر البزرة فى وسط العواصف الهوج والسحب المرعدة ، ثم تركها فى ذمة الطبيعة والزمن . وضن الرجل العنيد على هذه البزرة بالغذاء والرى ، حتى أدركها غوث الله ، فانتشر التعليم ، وانتعشت الحرية ، واتصل الجيل الجديد بالمدنية ، فرأى فيما رأى أن المرأة فى المجتمع الأوربى هى روحه ونشاطه وجماله وصقاله ووحيه ، فاستشعر للمصرية الاحترام ، عن تقليد فى الأكثر ، وعن اعتقاد فى الأقل ؛ ولكنه وقف من قضيتها موقف المشاهد المحايد لا يُمرّ ولا يحلى . وكانت صفوة من كرائم السيدات قد تحررن ، بكرم النسب ، أو بسلطان المال ، أو بقوة العلم ، فأقبلن على بزرة قاسم يتعهدنها بالسقى حتى أزهرت ، وعلى شعلته يمددنها بالزيت حتى أسفرت . وفى ظل هذه الشجرة ، وعلى ضوء هذه الشعلة ، تألف (الاتحاد النسائى) ، فكان فى النهضة الحديثة قوة عاملة ظهر أثرها فى التشريع والتعليم والمواساة .

وقويت المرأة المصرية بتقدم المدنية وشيوع الثقافة ، فحلت قضيتها بنفسها على الرغم من معارضة الرجل .

كان الرجل يأنف أن يشارك امرأته أو يشاورها فى شأن من شؤون عمله أو منزله ؛ فأصبحت اليوم ولها من القوة ما تسيطر به عليه : فهى تدبر له العيش ، وتحدد له السلوك ، وتختار له الصديق ، وتنتقى له الثوب ، وهو لا يسعه إلا أن يلازم ويتابع ، فلا ينفرد إلا بإذنها ، ولا يغيب إلا بعلمها ، ولا يتقدم عليها فى ترتيب ، ولا يفصل من دونها فى خلاف ، ولا يتعدى فى مناقشة الميزانية المنزلية حدود الإيراد .

وكان الرجل يمنع امرأته من أن تخرج ، فأصبحت اليوم ولها من السلطان ما تمنعه به إذا شاءت من أن يدخل !

وكان الرجل يرفض أن تتعلم المرأة الكتابة مخافة أن تتصل عن طريقها بالخارج ، فأصبحت اليوم ولها من الثقافة ما تنافس به الرجل فى المحاماة والطب والأدب والصحافة .

وكان الرجل يأبى على زوجته أن تسفر عن وجهها فى الطريق ، فأصبحت اليوم ولها من الحرية ما تسفر به عن جسمها على الشاطىء .

وكان الرجل يكره أن تقرع المرأة باب الصالون على ضيوفه ، فأصبحت اليوم ولها من الجرأة ما تقتحم به سور البرلمان على نوابه !

وهكذا ترعرع غرس قاسم ، وأضاءت شعلة قاسم . ولكن دعوته أسرعت فى طريق وأبطأت فى طريق . أسرعت فى الحرية والسفور حتى كادت تخرج عن الحد ، وأبطأت فى تضييق الزواج وتقييد الطلاق حتى كادت تنقطع عن السير . والعجيب أن المطلبين اللذين نجحا كانا مثار الخلاف والسخط ، وأن المطلبين اللذين فشلا كانا موضع الوفاق والرضا . والعلة فى السرعة أو النجاح هنا ، وفى البطء أو الفشل هناك ، أن الحرية والسفور

أمرها بيد المرأة ، وأن تضييق الزواج وتقييد الطلاق أمرهما بيد الرجل !

سيداتى أعضاء الاتحاد النسائى !

إنكن تحتفلن اليوم بذكرى وفاة قاسم أمين . وإنه لوفاء منكن أن تمجدن ذكرى رجل قضى خمسا وعشرين سنة من عمره القصير ، يسعى لكن ، ويدافع عنكن ، ويحتمل الأذى فى سبيل أن يعترف الرجال بحقكن فى الحياة ومكانكن من الوجود . ولم ينصرف إلى جوار الله إلا بعد أن رسم لكن خطة الجهاد ، ووضع لكن دستور هذا الاتحاد . ولكن أجمل الوفاء أن تتبعن الطريق الذى نهجه ، وتنفذن الدستور الذى وضعه . كان قاسم يطلب لكن الحرية من غير شطط ، والسفور من غير تبرج ، والاختلاط من غير ريبة ، وممارسة الحقوق فى نطاق الواجب ، ومزاولة الأعمال فى حدود التخصص . وإن كتبه لتشهد على أنه لم يطلب لكن شيئا يناقض الدين ، أو يعارض الخلق ، أو يجافى التقليد . والسيدة زوجه ، وهى من أفهم الناس لدعوته ، وأعلمهم بنيته ، تقول فى حديث لها : « إن فتيات هذا الجيل قد أسأن فهم هذه الدعوة وتجاوزن مداها ؛ فإن قاسما لم يدع إلا إلى السفور الشرعى والاختلاط المقيد . وإنه ليحزننى أن يحمِّله الناس أوزار هذه الحال . وأعتقد أنه لو كان حيا لرأى فى تبرج الفتاة فسوقا عن دعوته وزيغا عن سبيله » .

فأنتن ياسيداتى خليقات أن تنقين مبادىء قاسم من شوائب الهوى والغى . وإنكن لتعلمن أن جوهر هذه المبادى قيام الأمر بين الزوجين على المودة والرحمة ، وبين المتعاملين على الصداقة والتعاون ، وبين المواطنين على الدين والخلق ؛ وأن التربية والتعليم والسياسة والحكم يجب أن تصدر عن هذا المبدأ وتتوافى عند هذه الغاية . والناس يقولون إن المرأة وهى معنى الوئام والحب فى الأمة ، أصبحت عاملا من عوامل التنافر والفرقة فى الأسرة . وإن أسباب

الطلاق بعد أن كانت تعزى إلى استبداد الزوج ، أصبحت تعزى فى الغالب إلى استهتار الزوجة . وقد زعم المحصون أن عدد المطلقات بلغ فى بعض السنين الأخيرة خمسة وسبعين ألفا خرجن من دار الزوجية لأسباب يسأل الرجل عن أكثرها فى بيئة العامة ، وتسأل المرأة عنها كلها فى بيئة الأوساط والخاصة . فعالجن يا سيداتى الزعيمات جموح الفتاة كما عالج زعيمكن العظيم عناد الفتى . واحملن المرأة الجديدة على أن تذكر الواجب حين تذكر الحق ، وأن تفكر فى السكون العام حين تفكر فى السكون الخاص . سدد الله خطاكن فى الطريق القويم ، وأكرم مثوى هذا المصلح العظيم فى دار النعيم !

الربيع في الشعر العربي

(٣٠ ابريل سنة ١٩٥١)

إن الذين قضوا يوم شم النسيم البهيج المرح على بساط الربيع ، يجتلون جمال الطبيعة المتبرجة فى الزهر والنهر ، ويستوعبون أسرار الحياة المنبثة فى السماء والأرض ، يسرهم أن يقرأوا تعبير الشعر عما شهدوه من جمال النيل ، وأحسوه من فتنة واديه ، ولم يستطيعوا الهتاف به ولا التعبير عنه . وما كان أحب إلى نفسى أن أهيىء لهم هذا السرور لو وجدت السبيل إليه ، فإنى قرأت ما نظم الشعراء المصريون قدماؤهم ومحدثوهم فى الربيع المصرى ، فلم أجد فيه على قلته وتبعيته صدقا فى الشعور ولا مطابقة للواقع . قرأت ما قال ابن وكيع التنيسى ، وابن سناء الملك ، وابن الساعاتى ، وابن نباتة ، والشاب الظريف ، وابن مطروح ، والبهاء زهير . من نوابغ المتقدمين ؛ ثم قرأت ما قال شيوخ الشعر وشبابه من صفوة المتأخرين ، فلم أجد إلا كلاما عاما يقال فى كل ربيع ، ووصفا مجملا يصدق على كل روضة ! تعبيرات محفوظة من لغة الشعر ، وتشبيهات منقولة من موروث البيان ، صاغها كل شاعر على حسب طاقته وآلته ، فجاءت وصفا لربيع مجهول لا حقيقة له فى الخارج ، ولا أثر له فى الذهن . أما الشعور النفسى الذى يدرك الشاعرَ الأصيلَ فى جو معين ومنظر محدود وزهرة خاصة ، فيصل به بين النفس والطبيعة ، وبين الفكر والصورة ، وبين الفن والواقع ، فذلك ما لا أثر له فيه. ولعلك إذا استثنيت من أشعار العرب فى الربيع ، شعر ابن الرومى فى العراق ، وشعر البحترى فى الشام ، وشعر ابن خفاجة فى الأندلس ، وجدت سائرها من

هذا النمط المصرى الذى تجد فيه الألفاظ المبهمة ، ولا تجد فيه المعانى الملهمة . فأشعارهم فى الربيع أشبه بأشعارهم فى الغزل ، أقلها نفسى صادق يصدر عن القلب وينقل عن الوجدان ، وأكثرها حسى كاذب يصدر عن الحافظة وينقل عن الكتاب . والمصريون أولى من غيرهم بالعذر إذا خلا شعرهم من وحى الربيع ؛ لأن الربيع الذى يزور الأرض فى أبريل ومايو ، لا يزور مصر إلا فى أكتوبر ونوفمبر . فالخريف فى مصر هو الربيع الحق فى نضرته وزينته وعطره . فأينما تدر بصرك فى حقول الذرة وقصب السكر والبرسيم ، لا تجد إلا رياضا شجراء من شراب وحب ، ومروجا فيحاء من زهور وكلأ . ثم ترى النيل فى أعقاب فيضانه كذوب التبر ينساب هادراً فى الترع والقنوات ، فيجعل من ضفاف الجداول ، وحفافى الطرق ، وحواشى الغيطان ، سلاسل زبرجدية من الريحان والعشب . لذلك افتن شعراء الريف فى وصف الخريف وأبدعوا . وأما ذلك الربيع الجغرافى الذى يقبل على مصر مع الرياح الخماسينية والعواصف الرملية والتقلبات الجوية فإنه أردأ فصول العالم . يطرد النسيم بالسَّموم ، ويخنق العطر بالغبار ، ويذبل الزهر باللهيب ، ويرمى الطير بالبكم ، ويفسد المزاج بالوخومة . ثم يكون حلوله بعد رحيل شتاء هادىء جميل ، فى هوائه الدفء ، وفى جوه الصحو ، وفى سمائه الإشراق ، وفى أيامه النشاط ، وفى لياليه الأنس . فإذا رأيت الريف فى الشتاء ، رأيت الأرض على مدى البصر قد غطاها بساط من السندس الأخضر تخف خضرته فى حقول القمح فتكون كالزمرد ، وتثقل فى حقول البرسيم فتكون كالفيروزج ؛ فلا يجد الشاعر المصرى وقد انتقل من رقة هذا الشتاء إلى قسوة ذلك الربيع ما يجده الشاعر الأوربى من الحياة والمرح والبهجة والنشوة والطلاقة حين ينتقل من شتائه المكفن بالثلوج إلى ربيعه المكسو بالورود .

للربيع فى الشعر الأوربى أرخم الأوتار وأعذب الألحان من موسيقى الشاعر ؛ لأن الشتاء فى أوربا عناء طويل وهم ثقيل : ظلام متكاثف يحجب السماء ، ومطر واكف يغمر الأرض ، وبرد قارس يهرأ الأجساد ، وغمام متراكم يسد الأفق ، فلا ترى شعاعة شمس ولا خفقة طائر ، وثلج متراكب يطمر الثرى فلا تجد عشبة فى مرج ولا زهرة فى حديقة . والناس هناك فى حنين دائم إلى الربيع ، لأنه فى دنياهم حياة بعد موت ، وابتهاج بعد كآبة . ولشعرائهم فيما يبشرهم بمقدمه رقائق من الشعر الشاعر ، تقرأها فى البشريات الأولى ، كشيوع الدفء فى النسيم ، ودبيب الحياة فى الشجر ، وعودة العصفور المهاجر إلى عشه ، وخرير الجدول الجامد بعد صمته . فإذا أقبل الربيع متعهم بما حرموه طويلا من جلوة الطبيعة فى الأفق المشرق ، والروض البهيج ، والجو الممطر ، والطير الصادحة ، والضواحى الأنيقة ، والغابات الوريفة ، والمتنزهات اللاعبة . والربيع الأوربى على الجملة تغيير فى النفس وتجديد فى الحياة . والتغيير والتجدد يلهمان القرائح الخلاقة شعرا يمتزج فيه الوجدان بالوجود ، ويتصل به الخيال بالحقيقة .

أما شعراؤنا المصريون فأى جديد يأتيهم به الربيع فى آفاقهم وفى أنفسهم ! إن الشمس والدفء والصحو والطير والزهر والزرع والماء من خصائص مصر الطبيعية ، لا تنفك عنها طيلة العام ، حتى ألفتها المشاعر والنفوس ، فلا تشتاقها لأنها لا تغيب ، ولا تحتاجها لأنها لا تنقطع . ومن هنا تشابهت الفصول الأربعة فى حس الشاعر ، فلا يكاد يرى اختلافا بينها إلا فى حيوية الشتاء وشاعرية الخريف . ولذلك لم يجد الشعراء ما يقولونه فى الربيع . فإذا قالوا مدفوعين بغريزة المحاكاة أو بشهوة المعارضة ، قالوا كلاما قد يكون منضد الألفاظ ، مجود التشابيه ، ملون الصور ؛ ولكن الفرق بينه وبين الشعر الصحيح ، يكون كالفرق بين الجماد والحى ، أو بين الدمية والمرأة .

ولقد نظرت فى شعرنا القديم والجديد فلم أر شاعراً قبل شوقى ولا بعده خص الربيع بقصيدتين من محكم الشعر وجيده ، إحداهما طويلة مستقلة ، أهداها إلى الكاتب القصصى (هول كين) ، والأخرى قصيدة تابعة جعلها صدراً لقصيدته التى نظمها فى المهرجان الذى أقيم لتكريمه ، يقول فى الأولى :

آزار أقبل قم بنا يا صاح حى الربيع حديقة الأرواح
واجمع ندامى الظرف تحت لوائه وانشر بساحته بساط الراح
صفو أتيح فخذ لنفسك قسطها فالصفو ليس على المدى بمتاح
واجلس بضاحكة الرياض مصفقا لتجاوب الأوتار والأقداح

إلى أن يقول :

ملك النبات فكل أرض داره تلقاه بالأعراس والأفراح
منشورة أعلامه من أحمر قان وأبيض فى الربى لماح
لبست لمقدمه الخمائل وشيها ومرحن فى كنف له وجناح
الورد فى سرر الغصون مفتح متقابل يثنى على الفتاح
ضاحى المواكب فى الرياض مميز دون الزهور بشوكة وسلاح
مر النسيم بصفحتيه مقبِّلا مر الشفاه على خدود ملاح
هتك الردى من حسنه وبهائه بالليل ما نسجت يد الإصباح
ينبيك مصرعه ، وكل زائل ، أن الحياة كغدوة ورواح
وشقائق النسرين فى أغصانها كالدر ركب فى صدور رماح
والياسمين لطيفه ونقيه كسريرة المتنزه المسماح
متألق خلل الغصون كأنه فى بُلجة الإصباح ضوء صباح

ثم يقول فى الأخرى :

مرحباً بالربيع فى ريعانه وبأنواره ، وطيب زمانه
زُفت الارض فى مواكب « آزا ر » ، وشب الزمان فى مهرجانه
نزل السهل ضاحك البشر ؛ يمشى فيه مشى الأمير فى بستانه
عاد حَلياً براحتيه ووشياً طول أنهاره ، وعرض جنانه
لف فى طيلسانه طرر الأر ض فطاب الأديم من طيلسانه
ساحر ، فتنة العيون ، مبين فصَّل الماء فى الربا بجمانه
عبقرى الخيال ، زاد على الطيــف ، وأربى عليه فى ألوانه
صبغة الله ؛ أين منها رفائيــل ، ومنقاشه وسحر بنانه ؟
رنَّم الروض جدولا ونسيما وتلا طيرَ أيكه غصن بانه
وشدت فى الربا الرياحين همساً كتغنى الطروب فى وجدانه
كل ريحانة بلحن ، كعرس ألفت للغنــاء شتى قيانه
نعم فى السماء والأرض شتى من معانى الربيع ، أو ألحانه

هذه وتلك أبيات من قصيدتى شوقى فى الربيع ؛ وهما مثالان من الشعر العالى الطبقة الرفيع النسق إذا وازناهما بالمأثور من الشعر المصرى فى هذا الباب وربما انقطع نظيرهما أو ندر فى الشعر العربى كله ! ولكننا إذا وازناهما بما قرأنا فى موضوعهما من الشعر الأوربى شالت كفتهما فى هذه الموازنة . فإن شوقى رحمه الله جرى على مذهب من سبقوه ، فلم يصف فيهما ربيعاً بعينه ، فى إقليم بعينه ، يصح أن يخلط به نفسه ، ويضيف إليه شعوره ، ويعرض ما يرى فيه من شجر وطير وعطر وفنون ، على ما يجد فى نفسه من حب وذكرى

ونشوة وصبابة ، فيأتلف المنظر والناظر ، ويتحد الشعور والشاعر ؛ إنما وصف شوق ربيعا عاماً كما تخيله لا كما رآه ، وكما تمثله لا كما أحسه ، فجاء الوصف معجماً مبهماً قد يعجب ويطرب بألفاظه ، ولكنه لا يؤثر ولا يعرب بمعانيه .
والقصيدتان على أى اعتبار مشاركة جميلة من الشعر المصرى للشعر العالمى فى تمجيد ذلك السر الذى يبثه الله كل عام فى الربيع ، فيعيد الحياة ، ويرجع الشباب ، ويجدد الأمل ، وينشر الجمال ، وينشأ عنه فى الدنيا هذا البعث العجيب !

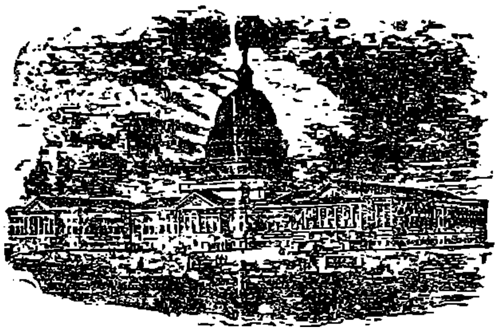

رحلات عزام

(١٤ مايو سنة ١٩٥١)

الرحلة سبيل من سبل المعرفة . وفى الأمثال : من يعش ير كثيرا ، ومن يمش ير أكثر . وفى الزمن القديم كانت الرحلة وحدها متصل الفكر بالفكر ، وملتقى المتعلم بالعلم ، ولا يزال لها فى الزمن الحديث على سرعة الاتصال بين أجناس الناس فى بقاع الأرض ، بالإذاعة والصحافة والنشر ، أثر ظاهر فى اكتساب العلوم وتقدم الثقافة . وهى فى تاريخ الإسلام بوجه أعم ، وفى تاريخ الأدب بوجه أخص عظيمة الخطر فى جمع اللغة ورواية الحديث ، قوية الأثر فى نشر الأدب وتوسيع الفقه . وكانت الرحلات الذاهبة الآيبة من العراق إلى مصر إلى الأندلس ، ومن هذه الأقطار جميعاً إلى الحجاز ، مورداً ثرّا لعلوم الدين وفنون الأدب ، جنَيْنا من ثماره طائفة كثيرة من عيون الكتب فى وصف البلاد ، وطبائع الشعوب ، وتراجم الرجال ، وغرائب العادات ، وعجائب الكائنات ، وطرائف الملَح .

على أن الله لم يؤت الرحالين أجمعين ما آتى البيرونى ، والبغدادى ، وابن جبير ، وابن بطوطة ، وأضرابهم من قوة الملاحظة ، وشهوة التطلع ، وحب التحدث ، ورغبة الإفادة . ولم يؤت الله هؤلاء جميعاً ما آتاه صديقنا الدكتور عبد الوهاب عزام ، من صحة العلم ، وسلامة الحكم ، ودقة الفهم ، وخفة الروح ، وعذوبة الفكاهة ، ولطف النادرة ، وجمال الأسلوب .

رحل الأستاذ إلى أكثر البلاد العربية والإسلامية فى عهدين مختلفين : عهد غلب فيه التأثر الأول والشعور البادر والنظر العجلان ، وقد وعته (الرحلات الأولى) ؛ وعهد غلب فيه الإدراك الكامل والاستيعاب الشامل والتحقيق

الدقيق ، وقد ضمنته (الرحلات الثانية) وهى التى نقدمها اليوم إلى القارىء بهذه الكلمة الوجيزة . وغاية الرحالة فى المهدين ومن الرحلتين هى التعريف بأمصار العروبة وأقطار الإسلام ، ليكون التعريف سبيلا إلى التعارف ، وعونا على التآلف ، وتمهيداً للوحدة .

وهذه الرحلات التى رحلها البحاثة الوصافة عزام إلى فلسطين ، ثم إلى الشام ، ثم إلى الهند ، ثم إلى الحجاز ونجد ، صور من البيان ، وطرف من الأدب ، ودقائق من العلم ، ورقائق من الفن ، ينقلك سحرها بحواسك ومخيلتك إلى تلك الأماكن الموصوفة ، فتشاهد المناظر ، وترى الأشياء ، وتسمع الأشخاص ، كأنك رحلت وحللت ؛ وصاحبت فى التنقل ، وساهمت فى المآدب ، وشاركت فى الحديث ، وإن الإشعاع الذى ينبثق من روح الكاتب على سطور الكتاب ليهدى روحك إلى روحه ، ويدل شعورك على شعوره ، فتتحد أنت وهو فى الزهو بماض مرموق كله ذكريات مجد وبطولة ، وتتجه أنت وهو إلى مستقبل مرموق كله آمال بعث ونهضة .

فما أجدر كل عربى أن يحج فى هذا الكتاب الأماكن التى أشرق منها نور الله ، والمواطن التى استقرت بها خلافة الأرض ، والمعاهد التى زكت فيها ثقافة الإنسان ! إنها مهبط دينه ومصعد دنياه ، وإنها متجه خاطره ومنتجع هواه !

أدبنا في الحديث

(٢١ مايو سنة ١٩٥١)

من الصفات المميزة للمصريين فى المجتمع الحديث ، أنهم إذا اجتمعوا قاعدين فى قهوة ، أو ماشين فى شارع ، لفتوا إليهم أنظار الناس بما يأتون من حركات ، وبما يحدثون من ضجيج . إذا تحدثوا ضوضأوا فى الحديث ، وإذا ضحكوا قهقهوا فى الضحك ، وإذا أشاروا أغلظوا فى الإشارة ! لا ينتظر السامع المتكلم حتى يفرغ من كلامه ، ولا يمهل المعارض المؤيد حتى يدلى بحجته . إنما هى الحنجرة الصلبة ، والنكتة المكشوفة ، والسخرية اللاذعة ، والمقاطعة المهينة . والأمر كله للصوت الجهير النكير ، وللضحكة المتفجرة المكركرة .

والجهر بالقول أخص خصائص العامية ؛ لأن المتحدث لا يرفع صوته فوق الأصوات إلا فى ضَوضى أو فوضى . وضوضى الحياة أو فوضاها لا تكون إلا فى المجتمع البدائى أو العامى ، حيث تغلظ العبارة ، وتخشن الإشارة ، ويختلط الحديث . والجاحظ يقول فى الأعراب : « إنما خشنت أصواتهم لمخاطبتهم الإبل » وأنت كذلك حرى أن تقول فى الرجل الذى يفتح حلقه كله عند الكلام ، إنما تعود ذلك لأنه لا يخاطب فى أسرته وبيئته إلا الذين يتكلمون ولا يسمعون ، أو الذين يسمعون ولا يصغون ، أو الذين تبلدت فيهم حاسة السمع ، فلا يدركون جمال الصوت الرخيم ، ولا يتذوقون لذة الحديث العذب . ولقد كان من تأديب الله للعرب الذين كانوا يفدون إلى الرسول فيؤذونه بما جبلوا عليه من رفع الصوت ، وجهر القول ، إذ قال لهم : يأيها الذين آمنو لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض . . . » ثم قال

عز قوله حكاية عن لقمان إذ قال لابنه : « واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » . وإذا عذرنا من يرفع صوته مضطرا بحكم عمله كالسماسرة الذين يشتغلون فى بورصة العقود ، والصناع الذين يعملون فى مطارق النحاس ، والتجار الذين يتصافقون فى سوق البهائم ، فكيف نعذر ذلك المطربش الجسيم الوسيم الرافه الذى تكلمه رأسا إلى رأس ، وفما إلى فم ، فيأبى إلا أن يمزق طبلتى أذنيك بصوته الجاجل الراعد !

الحق الذى يؤيده الحس أن الرجل كلما اكتمل عقله ، وتهذب طبعه ، ولطف شعوره ، كان أرغب عن الجلبة وأزهد فى العنف . فتراه إذا تكلم كسر من صوته ، وإذا ضحك أفتر عن ثغره ، وإذا استمع أرهف من سمعه ، وإذا تناول ألان من قوله ، وإذا مزح عف فى مزحه . وإن اليوم الذى نرى فيه المصرى يحضر المجالس ولا يصخب ، ويتناقل الحديث ولا يزبط ، ويسمع الغناء ولا يعربد ، ويجتاز الشارع ولا يهرج ، لهو اليوم الذى تكتمل فيه إنسانيته الحرة ، ويبدأ به تمدنه الصحيح !

متى يغضب الفلاح

(٢٣ يوليه سنة ١٩٥١)

الرضا والقناعة والصبر هى الصفات المميزة للفلاح المصرى . تأصلت فيه بالطبع والوراثة والبيئة والعقيدة ، فأثرت فى حياته ، وهيمنت على سلوكه وتصرفت بهواه !

يستبد بحكمه طاغية كالحاكم بأمر الله فيستكين . ويثب على عرشه خصى ككافور فيخضع . وتملك عليه إمرأة كشجرة الدر فيطيع ويسيطر على أمره الأجنبى فيرضى ويستأثر بخيره المستعمر فيقنع . ويحطمه بالذل صاحب الحكم فينقاد . ويسمع بالأحداث تتدفق على وطنه وتتواثب على قومه فلا ينبض فيه عرق ولا يغلى له جوف ! كأنما كل إمرىء فى الريف أمة وحده : شأنه يغنيه ورزقه يكفيه ، وكوخه يؤويه ، وكل ما خرج عن غيطه وبيته لا يعنيه !

تقرع سمعه الأحاديث النكر عن وزير من الوزراء نشأ على تلال القرية كما نشأ ، وذاق بؤس الحياة كما ذاق ؛ ثم رفعته الظروف المجيبة والصروف العجيبة إلى كرسى الحكم ، فتاه وتكبر ، ثم طغى وتجبر ، ثم سرق وغصب ثم جامل وحابى ، ثم تاجر ورابى ، ثم أمكن عشيرته من دماء الشعب وأموال الأمة ومرافق الدولة ، فاستحلوا ما حرم الله ، واستباحوا ما حظر القانون واستجازوا ما منع الخلق ، فيسمع كل ذلك بأذن من طين ، وأخرى من عجين كما يسمع الصوفى المعتكف أنباء الرياضة أو أخبار البورصة !

لا يغضب لمضرة عامة ، ولا يرضى لمنفعة بعيدة ؛ إنما يغضب أو يرضى تبعاً لما يلقى من الشر أو الخير فى أهله أو حقله أو بهيمته . يرضى عن الحكومة

ويصفها بالصلاح إذا أعفته من تـكاليف الخفر النظامى ، أو كافأته على حراسة النيل الطاغى ، أو خفضت له أجرة السفر على السكة الحديد ، أو وزعت عليه بعض الفدادين ، أو ارتفعت فى عهدها بالمصادفة أسعار المحاصيل . و يسخط على الحكومة ويرميها بالفساد إذا ظهرت الدودة فى حقول القطن ، أو فشا الطاعون فى حظائر الماشية ، أو نقص الماء فى قنوات الرى ، أو هبط سعر البيض فى سوق البندر!

ذلك لأن الفلاح ابن الأرض ، لا يكاد ينزع جسده من حضنها ، ولا يخرج يده من طينها ، ولا يفهم الحياة إلا مضافة إليها أو مقدرة بها ، ولا يمد بصره إلى أبعد من حدودها . والقائمون على أمره ، القابضون على زمامه ، لا يريدون أن ينبهوه إلى أن فوق هذه الأرض سماء فيها الروح ، وفيها الطموح ، وفيها الكرامة ، وفيها الأمل ، وفيها الرفعة ؛ وأن اللاصق بالأرض حيوان ، والعالق بالسماء ملك ، والإنسان خلق دون هذا وفوق ذاك .

فما دام الفلاح وهو سواد الشعب ممدوداً فى دود الأرض يزرع ليأكل ، ويحفر لينام ، ولا يهمه أن ظلم حكامه أو عدلوا ، وجد زعماؤه أو هزلوا ؛ وسواء عليه أخرج المحتلون أم بقوا ، وسعد مواطنوه أم شقوا ، فهيهات أن يكون لنا رأى عام وحكم صالح ودستور صحيح ووطن مستقل ! ومتى استنار ما أظلم من نفسه ، واستيقظ ما غفا من حسه ، أدرك أنه مصدر السلطة ومورد الثروة وعماد الأمة فلا يقبل أن يهمله حاكم ، أو يستغله ظالم ، أو يتغفله زعيم . ولكن ليت شعرى بأى طبل يسمع و بأى بوق يفيق ؟ !

الملك عبد الله

(٦ أغسطس سنة ١٩٥١)

على عتبة المسجد الأقصى الذى بارك الله حوله خر الملك عبد الله صريعاً ليديه ، فصرعت بمصرعه الأليم سياسة ، وتراجع أمل ، وتضعضع حلف ، وتغير تاريخ !

ذلك لأن الملك عبد الله كان قوة مؤثرة فى سياسة الشرق والغرب ، اكتسب هذه القوة بفعل الحوادث وحكم الظروف وموقفه المعبر الدال على اتجاه الإنجليز فى شؤون العرب . ولم يكن من الميسور أن يكتسبها لو لم يكن قوى الشخصية بعيد الهمة واسع المطامع ، لا يقنع بالتمنى ، ولا يكتفى باليسير ، ولا يدخل فى حسابه آراء غيره ولا آراب قومه .

دخل الأمير عبد الله بن الحسين التاريخ من الثغرة التى ثغرها الإنجليز بين الترك والعرب فى الحرب العالمية الأولى . وكان المغفور له والده الكريم قد فهم من لغة الإنجليز فى الوعد الذى واعدوه غير ما أرادوه ! فهم أن غنيمته من محاربته الأتراك معهم ستكون للأمة العربية والاستقلال والوحدة ، وكانوا هم يريدون بهذين اللفظين الانتداب والتجزئة ! فلما تقاسم بنو الحسين الميامين تيجان العرب فى الأقطار التى انبسط عليها النفوذ البريطانى من تراث الخلافة الصريعة كان ما أصاب الأمير عبد الله رقعة من أجادب الأرض فى شرق الأردن ، لم تتسع لهمته ولم تستجب لطموحه وظل فيها كما يظل الأسد فى القفص ، متململا من الحصر ، متبرماً بالضيق يتطلع من خلال القضبان إلى سواحل فلسطين ؛ ثم تمتد عينه الرغيبة إلى سهول سورية ؛ ثم يشرق

بفكره وقلبه إلى أرياف العراق ؛ ثم يرتد بذكرياته وحسراته إلى أباطح الحجاز ؛ ثم ينطوى على نفسه فى قصر رغدان ويصوغ ما تشهاه وما تمناه وما تذكره خططاً سياسية يسميها : « فلسطين الموحدة » أو « سورية الكبرى » أو « الهلال الخصيب » ، ويستعين على تنفيذ هذه الخطط وتحقيق هذه الأمانى بصفحات من جيش (جلوب) ، وصفحات من كتاب (الأمير)؟[1] ولكن الملك كان يفكر . والقدر كان يدبر ، (فحال الجريض دون القريض)، وانهار ما شاد الثائر الطموح من الأمل العريض !

عرفت أصحاب التيجان الهاشمية من بنى الحسين معرفة خبرة وصداقة . عرفت الملوك عليا وفيصلا وغازيا فى بغداد ، فرثيتهم رثاء الخبير ، وبكيتهم بكاء الصديق ؛ إلا الملك عبد الله فقد لقيته مرة واحدة فى القاهرة وهو أمير . لقيته أنا والأستاذ السراج فى أحد القصور من (جاردن سيتى) ، فلم يكد يفرغ من تكاليف اللقاء الجميل حتى أخذ يتلو عن ظهر قلب قول الله تعالى : «وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم . . . » إلى آخر الربع من سورة (فصلت) ، ثم انتهت الزيارة بانتهاء القراءة ، فلم أعرف عنه إلى أنه يحفظ ربعاً من القرآن !

من أجل ذلك لا أستطيع أن أتحدث عنه ولا أحكم عليه إلا من وراء ما يُرى وما يُسمع . والناس إنما يرون ويسمعون بعين المخلوق وأذنه . ولعل فيما أبصروا من أفعاله ، وسمعوا من أقواله ، مبرراً من طيب سريرته وصدق عقيدته . والتاريخ يحاسب المرء على عمله ، ولكن الله يحاسبه على نيته ؟

---

(١) الأمير كتاب مشهور لمكيافلى عالج فيه السياسة والحكم على المبدأ القائل : الغاية تبرر الوسيلة .

تغيّر ...!

(٣٠ أغسطس سنة ١٩٥١)

أخذت مصر فى عهدها الأخير تغير ما بنفسها ليغير الله ما بها كما قال عز قوله فى كتابه الخالد . . . وأصدق الأدلة على هذا التغير ما نراه من القلق على كل وجه ، وما نسمعه من السخط على كل لسان ، وما نقرأه من المعارضة فى كل صحيفة .

وليس ما نراه ونسمعه ونقرأه من كل أولئك صادراً عن تقليد كما كان يصدر ، ولا وارداً عن تحريض كما كان يرد . إنما هو أنفة المستذَل حين يحس ، وغضبة المستغل حين يعى . والقطيع من البقر أو من الغنم إنما يظل قطيعاً ما دام لا يعرف إلا العشب يخضمه والماء يجرعه والراعى يطيعه . فإذا ما أدرك يوما أن راعيه يأكل لحمه ويشرب لبنه ويستغل جهده وليس له من فضل عليه إلا أن برأسه حيلة هى أضيق من قواه ، وأن فى يده هراوة هى أضعف من قرونه ، لم يعد قطيعاً وإنما يصبح أمة .

يعلن الناس اليوم ما كانوا يتأثمون أن يسروه ؛ ويفعلون اليوم ما كانوا يحذون أن يقولوه ، ويدركون اليوم أنهم أصحاب الثروة وأرباب البلد ومصدر السلطان . فما فى خزائن الدولة من الأموال ملك لهم ، ومن فى دواوين الحكومة من الرجال أجراء عندهم ؛ وأن الكبراء الذين يهلكون ولا ينتجون ، ويأخذون ولا يعطون ، ويقولون ولا يفعلون ، ويحكمون ولا يعدلون ، إنما هم الكبائر التى توجب العقوبة ، والدلائل التى تعلن الكارثة ، تصديقا لقول

الله تعالى . « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » .

لو كانت الصحافة وحدها هى التى تنتقد وتعارض وتشتكى وتحتج لقلنا : جماعة من المثقفين المرهفين رأوا المنكر فنددوا به ، وأبصروا الخطر فنبهوا إليه؛ ولكن الواقع أن قراء الصحف وسامعيها من كل طبقة ومن كل حزب قد رأوا فيما تنشر من اعتراض أو امتعاض تعبيرا دقيقا عما يضطرب فى رءوسهم من فكر ، وتصويرا صادقا لما يعصف فى نفوسهم من ثورة . فلما أراد من أراد أن يخفت من صوت الصحافة بالكمائم ، ويضيق من خطوها باللجم ، انفجر فى وجهه الرأى العام من ذات نفسه ومن جميع نواحيه ، يدفع عن المنبر الحر الذى تتنزل عليه كلمته وتتجلى فيه إرادته .

ولو كان الذين انفجروا فى طريق (التشريعات الصحفية)[1] من المعارضين للحكم القائم ، لقلنا نزوة من نزوات المعارضة ، وشهوة من شهوات المنافسة ؛ ولكن الأمر الذى تعجب له وتعجب به أن الذين خاضوا وقادوا معركة الرأى الحر فى محنة الصحافة كانوا من شباب الوفد وكهوله ! وذلك يؤيد ويؤكد ما قلنا من أن مصر بأسرها تغير ما بنفسها ، وسيغير الله ولا ريب ما بها ، فتساس سياسة وطن لا سياسة إقطاع ، وتقاد قيادة أمة لا قيادة قطيع !

---

(١) التشريعات الصحفية قوانين كانت حكومة الوفد تريد أن تسنها لتقيد بها حرية الصحافة فقابلها بالمعارضة بعض الوفديين من نواب البرلمان وعلى رأسهم المرحوم الشاعر عزيز فهمى .

نماذج فنية من الأدب والنقد

(٣ يوليو سنة ١٩٥١)

قليلا ما أكتب عما يصدر من كتب الأدب ؛ لأن كثيرا من هذه الكتب لا يرضيني . وليس ما يرضيني من الكتاب الأدبي شيئاً وراء الإمكان أو فوق الطاقة ، إنما هو الفن ولا شيء غير الفن . والفن الكتابي على ما أرى أسلوب من الجمال المصنوع المطبوع ، عنصره الأول فكرة قوية أصيلة ، وعنصره الآخر صورة صادقة جميلة . فإذا فقد أحد هذين العنصرين أو فسد أو شاه كان الأسلوب أسلوب عالم تجد فيه الروح ولا تجد الصورة ، أو أسلوب مثال تجد فيه الصورة ولا تجد الروح . والعالم أو المثال رجل آخر غير الكاتب أو الشاعر العالم همه توضيح الغامض في الموضوع ، والمثال همه تحقيق الشبه في الشكل . أما الكاتب أو الشاعر فهو خالق مصور : يبدع الجسم في أجمل هيئة ، ويبث فيه الروح على أكمل حالة . ثم يهب لمخلوقه خصائص الحي فينمو ويتحرك ويعمل ، ولكن نموه يكون في خيالك ، وحركته تكون في نفسك ، وعمله يكون في ذهنك ، فيفيد ويقنع بأثر العقل في معناه ، ويعجب ويمتع بأثر الذوق في لفظه .

ذلك جوهر ما يرضيني من العمل الأدبي في أي موضوع أنشأه صاحبه وهذا الجوهر هو ما أفتقده الحين بعد الحين في نتاج العصر فأجده زائفاً في أكثره صحيحاً في أقله . وهذا الأقل إنما أجده فيما ينتج الخواص من شيوخ الأدب الذاهبين ؟ أما الشباب وأسفاه فإنهم ينتجون الأندر من هذا الأقل . والذين ينتجونه منهم نفر ميزهم الاستعداد ومحصهم الاجتهاد فشاخوا في الأدب على طراءة السن وضآلة النانج . وإن من أعيان هذا النفر صديقنا أنور

المعداوى ، وكتابه الذى عنونت باسمه هذه الكلمة ينطق عليه بالحق ، وينهض إلى بالدليل .

تخرج الأستاذ المعداوى فى كلية الآداب من جامعة فؤاد فكان شذوذاً من القاعدة التى تزعم أن التضلع من علوم اللغة ، والتبسط فى فنون الأدب ، وقف على خريجى الأزهر ودار العلوم .

ولعل هذا الشذوذ نفسه هو القاعدة السليمة التى تقول إن الكتابة ملكة يؤتيها الله من اصطفى من عباده فى أى سن ومن أى جنس وفى أى معهد .

أسلوب المعداوى كما تراه فى كتابه من الأساليب التى جاء فيها التأليف بين المعنى واللفظ جارياً على سنن الفن الصحيح . فالتفكير قوى عصبى حار ، والتعبير دقيق أنيق مهذب : وليس ما فى أسلوب المعداوى من العصبية والنارية آتياً من شبابه ؛ فإن الشباب المتقد يخبو ، والحس النير يظلم ، إذا لم يكن من ورائهما نار الطموح ونور النبوغ . إنما هى شعلة الفن فى روح الفنان ، تضىء وتدفىء ، وتصهر وتطهر . وقد تلذع وتحرق أحياناً فى نفس أنور ؛ ولكن الزمن وحده كفيل بتهدئة الثائر وتفتير الحار ، فيذهب الإحراق ويبقى الإشراق ، وينجاب الدخان ويخلص الضوء !

هبي يا رياح الخريف هبي !

(١٥ أكتوبر سنة ١٩٥١)

هبي يا رياح الخريف هبي ! هبي وحطمي هذه الأشجار الغلاظ التي تأكل خير الأرض ، وتحجب نور السماء ، وتقطع سبيل الناس ، ولا تحمل إلا شوكا من غير ثمر ، وخشباً من غير نفع ، وخضرة من غير جمال !

هبي يا رياح الخريف هبي ! . . هبي واهدمي هذه الأوكار القباح التي اتخذت أشكال القصور وانتحلت أسماء الأندية ، فباض فيها الشر باسم السياسة ، وفرخ فيها الفجور باسم الرياضة ، وأوت إليها أبابيل من البوم التي تعلن الخراب ، والخفافيش التي تمج الظلام ؛ والغربان التي تذيع الفرقة ، فلا نرى فيها ولا نسمع منها إلا خمرا تعربد ، وقمارا يصطرع ، وترفا يفسق ، وسرفا يدمر !

هبي يا رياح الخريف هبي ! . . هبي واكسحي هذا الغثاء العفن الذي زكم الطرق وسد المسالك مما فني من الجذوع ، وبلي من الفروع ، وذبل من الأوراق ، فأصبح شوها في الأعين وثقلا في الأرجل ؛ ثم لا يكون إلا أذى إذى عطنه وإلا قذى إذا أثاره الهواء ، وإلا لظى إذا مسته النار !

هبي يا رياح الخريف هبي ! هبي واقشعي هذا السحاب المتراكم الذي ارتفع ارتفاع الدخان ، وانتفش انتفاش العهن ، فحجب الشمس ، وحصر الأفق ، وأحر الأرض ، ثم لا نجد من ورائه مطرا يدفع الجدب ، ولا ظلا يمنع الحرور !

هبي يا رياح الخريف هبي ! . . هبي واقلعي ذلك النبات الدنيء الذي يتطفل على أشجار الوادي ، فيتغذى على أصولها ، ويتسلق على فروعها . حتى

إذا أدرك الهواء والضياء والرفعة ، التف بعساليجه وكلاليبه على أعاليها التفاف الأفعوان ، فيكظم أنفاسها فلا تبسم ، ويشل حركتها فلا تميس ، ثم يقول مشيراً بأطرافه الرخوة إلى كل عابر : انظر ! ألست أنا الأمير وهذا الشجر هو الفلاح ؟ وإذا لم يسخر الله لى الشجر فكيف أنمو ؟ وإذا لم يسخر الفلاح للأمير فكيف يسمو ؟

هبى يا رياح الخريف هبى ! . . هبى واعصفى بما ذكرت وما لم أذكر من زَبَد يقول إنه زُبْد ، وسراب يزعم أنه شراب ، وحطام مختلف من بقايا الشعوب والخطوب والعقائد والحضارات والأساطير يدعى أنه أمة !

ولكنك يا رياح الخريف تهبين كل عام بين وقدة الصيف وخبوة الشتاء فتكنسين ما تكنسين ، فإذا دارت الأرض دورتها الكبرى عاد كل شىء إلى حاله ، ورجع كل شخص إلى ضلاله ! فأية ريح إذن تستطيع أن تنسف ما نعانيه من فساد تأصل فى كل عمل ، وتغلغل فى كل أمر ، وتدخل فى كل حكم ؟ لعلها الريح التى أهلك الله بها عاداً الأولى فأهلك معها الطغيان والبهتان والكفر ؟

إنها الريح التى تصحبها الروح ، والرجفة التى يتلوها البعث ، والقِرَّة[1] التى يعقبها الربيع !

---

(١) القرة : شدة البرد .

نهاية مأساة[1]

(٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥١)

وأخيراً أدركت مصر الرسمية بعد خمس عشرة سنة من سنى المهانة والاستكانة أن (المعاهدة) و (الاتفاقية) اللتين تربطانها بإنجلترا فى الشمال والجنوب إنما هما كلمتان من لغة السياسة حمّلهما الاستعمار ما حمل الديمقراطية والحرية والإنسانية والسلام والعدل من معانى المخادعة والمصانعة والمراءاة فجعلها من أسماء الأضداد فى لغة الخلق!

نعم ، أدركت مصر الرسمية اليوم ذلك ووعته بعد أن كابدت ما كابدت من عناد المستعمرين فى الحق وصلابتهم فى الباطل ومداهاتهم فى الرأى ، فألغت معاهدة سنة ١٩٣٦ واتفاقتى سنة ١٨٩٩ . ولكن مصر الوطنية أدركت هدف انجلترا منذ نصبته فى ساحة عابدين سنة ١٨٨٢ وظالك تسدد إليه سهامها التى لا تطيش ، من كنائنها التى لا تفرغ ! وكان الرسميون يحاولون أن يستروا الضياء عن بصائر الوطنيين ليوهموهم أن هذه السهام صواريخ لهو وبهجة . وكان الوطنيون يجهدون أن يكشفوا الغطاء عن أبصار الرسميين ليفهموهم أن هذه الصواريخ قذائف دمار وهلكة ! وظل الأمر بين الجبهتين على هذه الحال سبعين سنة ، تفككت فيها العرى ، وتمزقت القوى، وتفرقت السبل ، وتباينت الوسائل ، وتعارضت الغايات . واتخذ المحتل من هذا الخلاف الطويل الوبيل حقلا مصريا بذر فيه الفرقة وجنى منه السيادة ! ولم تجمع القوتان الرسمية والوطنية على إحراج العدو وإخراجه إلا فى اليوم الثامن من هذا الشهر ! وهذا الإجماع وحده هو الذى سيقذف ببقايا (دنكرك)[1] فى عرض البحر . ولن تستطيع انجلترا ولو كان معها ظهراؤها الثلاثة أن تثبت أقدامها

---

(١) أشارة إلى الهزيمة النكراء التى منى بها الإنجليز فى دنكرك من الألمان فى الحرب العالمية الثانية .

الرخوة فى ثرى النيل ما دامت مصر قد أجمعت على تطهيره منها . وليس للضآلة والقلة دخل فى حساب النصر ، فإن عشرين مليونا من البراغيث العزل جديرة بأن تقض مضاجع الجيش المسلح ! فكيف إذا كنا عشرين مليونا من الأنفس المؤمنة الصابرة التى لا تعرف فى يوم الجهاد ، إلا إحدى الحسنيين : النصر أو الاستشهاد ؟

إنا نجود على وباء من الأوبئة بقرابة المليون من الأرواح العزيزة ، فهل نضن بمليونين منها على الخلاص من وباء طال حتى أذل ، وانتشر حتى أقل ، واستشرى حتى برى الأجساد ، وهد القوى ، وأوهن العزائم ، وقطع العلائق ، وأفقر الأيدى ؟

كان احتلال الإنجليز لوادى النيل مأساة بشرية من نوع عجيب فى الطول والفصول والإخراج والتمثيل ! كانت من نوع القراقوز المبكى ، أخرجها الإنجليز المحتلون من وراء الكواليس ، ومثلها المصريون الرسميون على المسرح !

كانت الخيوط بيد العميد أو السفير يقلبها كيف يشاء ، والدمى الخشبية المصرية على مرأى من الشهود تتحرك ولا تعى ، وتتكلم ولا تفهم !

لقد كان مأساة مروعة دامية ! شهد بدايتها توفيق فصفق لمخرجها بيديه ، وشهد نهايتها فاروق فركلهم بقدميه !

لم يبق بعد إضراب الممثلين وإنكار المتفرجين إلا أن نطرد الفرقة ونقوض الملعب !

ماذا بعد هذا ؟

(١٠ ديسمبر سنة ١٩٥١)

الأمر بيننا وبين الإنجليز يجل عن الكلام والكتابة . وما جدوى اللسان العربى فى السمع الأعجم ؟ وما غناء القلم الأجوف فى الفؤاد المصمت ؟ هذه دماؤنا تهرق ، وأرواحنا تزهق ، وأرزاقنا تنهب ، وشوكتنا تستلان ، وكرامتنا تمتهن ، وعزتنا تستذل ، وأرضنا تحتل ، فهل يدفع عنا بعض أولئك أن نخطب حتى يجف الريق ، وأن نكتب حتى ينفد المداد ، وأن نحتج حتى تنقطع الحجج ؟ إن الشعب الذى لا يقابل التعدى إلا بالاحتجاج ، ولا يعارض التحدى إلا بالشكوى ، ساقط من حساب هيئة الأمم المتحدة ، لاتقيم له وزنا ، ولا تقدر له قيمة .

إن الإنجليز فى تاريخهم المظلم المجرم لم يصيخوا إلى صوت الضمير ، ولم يحفلوا بشرف الوفاء ؛ إنما هم قوم نفعيون عمليون لا يقدمون غير المنفعة ولا يسلمون إلا بالواقع . فإذا وصفناهم بماميزهم به الله من نذالة النفس وسفالة الطبع وبلادة الحس ولؤم السياسة وخبث النية ، قالوا فى صفاقة الخنزير ودناءة الكلب : ليس هذا فى الموضوع ! أجيبوا عن العمل بالعمل ، وردوا على القوة بالقوة !

كنت فى غلواء الشبيبة حين غضبت مصر غضبتها الأولى على هؤلاء البرابرة الحمر سنة ١٩١٩ ؛ وكنت يومئذ مدرسا بالمدرسة الإعدادية الثانوية ؛ والإعدادية والحقوق كانتا أول المدارس التى أيقظت وعى الأمة ، وأوقدت نار الثورة ، وقادت كتائب الجهاد ، ومنهما تألفت اللجنة التنفيذية للطلبة . وكانت الحال التى وجدتها الحماية المفروضة تقتضى الكلام والكتابة . كان السلطان والحكم والجيش والشرطة والصحافة فى أيدى الإنجليز ، فلم يكن لنا من سبيل

بين الضغط والقهر والإرهاب إلا أن نجتمع فى المساجد والمعاهد نقول فى العلن ما لا ينشر ، ونكتب فى السر ما لا يقال . وكان نصيبى من الجهاد المقدس أن أحبر المنشورات السرية لمن يوزع ، وأن أحرر الخطب العلنية لمن يلقى . ثم زادنى الله نفساً فى أجلى فأنا أشهد اليوم غضبتنا الثانية تتسعر فى الشباب والشيب ، وتتنمر فى الشعب والحكومة ، وتتوغر فى المدن والريف ، فلم أجد حاجة إلى أن أقول ، ولا ضرورة إلى أن أكتب . وماذا يقول القائل والوعى يقظان والرأى جميع ؟ وماذا يكتب الكاتب والشعور محتدم والعزم راسخ ؟ كل يد تطلب السلاح ، وكل نفس ترجو التضحية ! حتى أنا وقد نيفت على الستين أصبحت أجد القلم فى يدى هناة لا تنفع ، والكلام على لسانى هراء لا يفيد . إنما أود — وماتغنى الودادة — لو أكتب بالسنان وأتكلم بالمدفع !

إن اللغة التى يفهمها طغام الاستعمار ، جعل الله حروفها من حديد وكلماتها من نار . فدعوا الشعب يا أولياء أمره ، يعبر للعدو عن غضبه بهذه اللغة . وإياكم أن تقيموا السدود فى وجه السيل ، أو تضعوا القيود فى رجلى الأسد ، أو تلقوا الماء فى فم البركان ! فإن غضب الشعوب كغضب الطبيعة ، إذا هاج لا يُقدع ، وإذا وقع لا يدفع .

لقد حملنا حتى فدحنا الحمل ، وصبرنا حتى مللنا الصبر ! والصبر فى بعض الأحيان عبادة كصبر أيوب ، ولكنه فى بعضها الآخر بلادة كصبر الحمار ؟

سبعون عاما!

(٢٤ ديسمبر سنة ١٩٥١)

نعم ، سبعون عاما طوالا ثقالا لبثناها تحت نير الاحتلال ، نحرث وهو يسوق ، ونزرع وهو يحصد !

ما كان أصبرنا على النار! وما كان أرضانا بالذل والصغار؟

كنا نصبر لأن قلتنا كانت لضعفها لا تستطيع . وكنا نرضى لأن كثرتنا كانت لجهلها لا تدرى . والضعف منذ كان سبيل المستأسد إلى الافتراس . والجهل منذ كان دليل المستعمر إلى الفريسة . وهل تنكر طبيعة الحيوان أن يلتقم الحوت الشبوط ، أو يلتهم الأفعوان الأرنب؟ أم تنكر مدنية الإنسان أن أن يستذل الأمريكان السود ، أو يستغل الإنجليز الهنود؟ تلك سنة الله فى الخلق ، لا يبدلها دين ولا يعدلها علم ولا يعطلها مدنية .

سبعون عاما طوالا ثقالا قضيناها تحت سلطان الدخيل الباغى! نعمل ولا نربد، وننتج ولا نستفيد! وكان مصدر سلطانه الطاغى أن له ظلا كثيفا يحجب النور ، وزفرا خبيثا يضعف الشعور ، وإشعاعا وبيئا يسمم الحياة . فلما أراد الله لظله الثقيل أن يخف ، ولزفره الوبيل أن يقل ، ولإشعاعه المميت أن يتراجع ، نفذ إلينا ضوء العلم فرأينا ، ورف علينا روح الأمل فتقوينا ، وأصبحنا نحن أبناء العرب الذين فتحوا الأرض ، وحفدة الفراعين الذين مدنوا الناس ، وجها لوجه أمام أبناء القراصين الذين لم يروعوا إلا التجار ، وحفدة الصيادين الذين لم يفزعوا إلا الأسماك ، نقارعهم بالحجة فى مجالس الرأى فنقرعهم ، ونصارعهم بالقوة على ضفاف القنال فنصرعهم . فإذا أقلقهم الخوف ، وأرهقهم الجزع ،

تخطفهم الموت ، سلطوا آلات الدمار على البيوت الآهلة ، وأطلقوا قذائف النار على الجموع الغافلة ؛ حتى إذا نهض لإغاثة الأهلين رجال الشرطة ، وعددهم لا يربى على المائتين ، وسلاحهم لا يزيد على البنادق ، زحف عليهم عشرة آلاف من آكلى البفتيك وشاربى الوسكى ، تتقدمهم مئات من الدبابات والمصفحات ، وتصحبهم آلاف من المدافع والرشاشات ، وتعلوهم أسراب من النفاثات والقاذفات ؛ ثم يعود الأبطال من المعركة (الشمواء) وقد امتقعت الوجوه الحمر ، وانقطعت القلوب السود ، تتقدمهم سيارات الصليب تنقل الجرحى ، وتصحبهم ناقلات الجيش تحمل القتلى ، وتعلوهم غبرات الخزى تغشى الجباه ! ويرجع رجال الشرطة إلى أقسامهم متهللين مختالين يقولون فى عجب ودهش وسخرية: أهؤلاء هم الذين جثموا على صدر الوادى سبعين عاما جثوم الكابوس المهلك لا يتحلحل ولا يريم ؟ وقد رأيناهم عن عيان ، وعلمناهم عن يقين ، ندرك الحكمة فى أنهم منعوا جيشنا السلاح والتدريب ، وحرموا شعبنا العلم والتهذيب ؛ فإنهم لا يسودون إلا فى الجهل ، ولا يستفيدون إلا من الضعف ، فإذا ابتلاهم الله بأمة مؤمنة صابرة قوية مستعدة ، تكشف سترهم ، وتفضح سرهم ، حاولوا عداوتها بالمعارضة ، ثم حاولوا صداقتها بالمفاوضة ثم هجموا عليها بالدهاء والرجاء والمصانعة . فإذا لم يغن عنهم كل أولئك سلموا لها بالأمر الواقع . فترضى العجوز الشوهاء أن تأكل من فضلات باكستان ، وأن تريق ماء وجهها الدامى فى سبيل حصة من زيت إيران !

الرسالة والدعوة

(٧ يناير سنة ١٩٥٢)

تستقبل الرسالة بهذا العدد عامها العشرين وهى تحمد الله على أن فسح لها فى العمر حتى رأت أكثر ما دعت إليه يتحقق .

رأت الوحدة بين أمم العرب فى الشعور والهوى والرأى والأمل والغرض قد تمت بفضل الصحافة والأدب . فهم يتآلفون فى القرب ، ويتعاطفون فى البعد ، ويتناصفون فى الخلاف ، ويتحالفون فى الكريهة ، ويشد بعضهم بعضا فى مجاهدة العادى ومجالدة الباغى . والوحدة بين دولهم توشك أن تبلغ التمام لولا مايعوقها الحين بعد الحين من وساوس يلقيها شيطان خادع من الإنجليز فى صدر إنسان مخدوع من العرب ! ووسوسة الشيطان ، لا تبقى مع الإيمان . وإيمان العرب بربهم وبأنفسهم قواه الوعى حتى غلب على إيمانهم بأصنام السياسة وطواغيت الحكم فهيهات بعد اليوم أن يستكينوا لزعيم منهم ، أو يستنيموا لخصيم مخاتل !

ثم رأت الرسالة فيما رأت تباشير الجامعة الإسلامية تلوح فى أفق باكستان ولن تلبث هذه التباشير أن تسفر فى آفاق الشرق المحمدى كله ، فيتصل نور بنور ، ويمتزج شعور بشعور ، وتتحد قوة بقوة . ولباكستان إذا تكاملت العربية خطر خطير فى مستقبل الأمة الإسلامية . إنها قبلة رجاء الإسلام كما أن مصر قبلة رجاء العروبة . وهى للمسلمين خير العوض من تركية الذاهبة !

وأجمل ما رأته الرسالة فى سنواتها القريبة انبعاث الإسلام الصحيح الخالص فى قلوب المثقفين من أهله . كان الإسلام منذ ضعف فى العالمين سلطانه

واستعجم على أشباه المسلمين قرآنه ، قد أصبح رسما محيلا فى قلوب بعض ، وصورة شوهاء فى أذهان بعض . فالخاصة قنعوا بمظهره ، ثم جعلوا شرعهم غير شرعه ، ودستورهم غير دستوره ، وقبلتهم غير قبلته . والعامة عبثوا بجوهره ، فقلبوه صوفية حمقاء خرقاء لا صلة بين شعوذتها وعباداته ، ولا نسبة بين سلبيتها ومعاملاته .

وكانت (الرسالة) منذ حملت أمانة الدعوة إلى السبيل التى عناها الرسول الأعظم بقوله : « تركتكم على الواضحة ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك » ما فتئت تذكر المسلمين بأنهم الأمة الوسط التى نزهها الله عن مادية اليهود وصوفية الهنود ورهبانية النصارى ، « وأن دينهم مصحف وسيف ، وشرعهم دين ودنيا ، وتاريخهم فتح وحضارة ، وحربهم جهاد وشهادة ، وزعامتهم خلافة وقيادة ، وحياتهم عمل وعبادة[1] » حتى أراد الله لدينه أن يستبين ولطريقه أن يتضح ولحبله أن يتجدد ، فتألفت جماعة من المسلمين على موثق الدعوة الكبرى ، وأخذوا يدعون إلى الله على بصيرة . فى إيمانهم المصحف للعقل . وفى شمائلهم السيف للهوى ؛ ويحاولون أن يبعثوا فى الهيكل الواهن المنحل روح الإسلام الفتية القوية التى نقلت البدو الجفاة الحفاة من بوادى الجزيرة وكانوا رعاة غنم ، إلى حواضر الدنيا ليكونوا قادة أمم .

هؤلاء المسلمون الذين يسمون أنفسهم رهبان الليل وفرسان النهار ، هم وحدهم الذين يمثلون فى هذا المجتمع الممسوخ عقيدة الإسلام الخالص ، وعقلية المسلم الحق .

إنهم لا يفهمون الدين على أنه صومعة منعزلة ، ولا الدنيا على أنها سوق منفصلة ؛ وإنما يفهمون أن المسجد منارة السوق ، وأن السوق عمارة المسجد .

---

(١) افتتاحية الرسالة لعدد ٥ يناير سنة ١٩٤٨ .

وكيف تفترق الروح عن الجسد إلا فى الموت ، وينقطع الهادى عن الركب إلا فى الضلال ، وينفصل الدين عن الدنيا إلا فى الكفر ؟ لذلك كان لهذه الجماعة فى الإرشاد لسان ، وفى الاقتصاد يد ، وفى الجهاد سلاح ، وفى السياسة رأى .

وهم لا يؤمنون بالحدود السياسية والجغرافية فى وطن الإسلام الأكبر ! إنما يبسطون تآخيهم على كل رقعة من الأرض يذكر فيها اسم الله . فلهم فى كل بلد من البلاد العربية اتباع ، وفى كل قطر من الأقطار الإسلامية أشياع . وبفضل هذه الروح القدسية المحمدية التى بثتها الجماعة فى العالم الإسلامى بالدعاية والقدوة ، دبت فيه الحرارة ، وغلا به النشاط ، واستولى عليه القلق وعصفت به الحمية ؛ فهو يثور على المستعمر ، ويتمرد على المستبد ، ويتنكر للمفسد . وما يقظة الوعى العام فى مصر والسودان ، وفى العراق وسورية ، وفى اليمن والحجاز ، وفى الجزائر ومراكش ، إلا شعاع من هذه الروح سيكون له بعد حين نبأ !

أما الجماعات الدينية أو الصوفية التى لا تفهم من الإسلام إلا أنه أوراد تتلى ، وأذكار تقام . ولحى تعفى ، وشوارب تحفى ، وعذبات ترسل ، فهى من الشوائب المخدرة السامة التى علقت بالإسلام حين صده الجهل والضعف عن سبيله ، فتراجع فيضه وسكن تياره ، والماء إذا ركد تأسن وفشت فيه الجراثيم . ودعوة هذه الجماعة عسية أن تزيل حواجز الباطل من وجه التيار ، وأن تنقى مشارع الحق من هذه الأكدار .

كذلك رأت الرسالة فى عامها المنصرم مظهراً من مظاهر الوعى الإسلامى تجلى فى ثلاثة أحداث جسام روعت الساسة وفزّعت الجيوش وشغلت المجالس : تأميم البترول فى إيران ، وإلغاء المعاهدة الإنجليزية فى مصر ، وقيام الدولة العربية الثامنة

فى ليبيا ! شىء جديد فى حياة العرب والمسلمين لم يكن لهم به فى التاريخ الحديث عهد !

من كان يظن أن إيران تصفع قذال الأسد ، وأن مصر تبصق فى وجهه ، وهما الدولتان اللتان خضعتا طويلا لنفوذه خضوع العبد لوليه ، أو القاصر لوصيه ؟ لقد مزقت الدولتان عرض (جون بول) يوم مزقت الأولى عقد الاستغلال ، ومزقت الأخرى عهد الاحتلال . ولم تمزقهما الدولتان بقوة الجيش وسلاحه ، وإنما مزقتاهما بإرادة الشعب وكفاحه ! إنه الروح الذى أرهب الموت ! وإنه الوعى الذى أذهب الغفلة !

هذه بسمة الأمل فى أول العام عبرت عنها بهذه الكلمة شكراً لله على تحقيقه ، وطلباً للمزيد من عونه وتوفيقه .

فدائيون وأنانيون

(٢٨ يناير سنة ١٩٥٢)

ما أشبه بنى آدم بنبات الأرض ! يتفق فى التربة والغذاء والجو ، ويختلف فى اللون والطعم والمزية . فى الحقل الواحد تجد الطيب والخبيث ، والحلو المر ، والنافع والضار ، والصلب والهش ، والمستقيم والمعوج ، والمنتج والعقيم . وهذا الاتفاق وذلك الاختلاف تجدهما فى بنى الإنسان على أوضح صورة . هانحن أولاء ، طينتنا من ثرى الوادى ، وغذاؤنا من خير النيل ، وهواؤنا من جو مصر ؛ ولكن فينا من يؤلم ولا يلذ كالعوسج ، ومن يروق ولا يثمر كالصفصاف ، ومن يضر ولا ينفع كالهالوك ، ومن يرتفع ولا يستحق كالعليق. أما المصطفون الأخيار فهم كالفواكه والرياحين قلة قليلة . . منا العيون التى تتجسس للعدو ، والأيدى التى تعمل مع العدو ، والألسن التى تدعو إلى العدو. ومنا الأوغاد الذين يقضون أيامهم اللاهية عكفا على الفحش ينفقون أموالهم التى استقطروها من الفلاح ودمه ، فى الخمر والقمر والنساء ، وأبناؤنا الشباب يقاتلون العدو وجها لوجـــه وهم جياع ! ومنا الأنذال الذين كسبوا المال وخسروا الشرف ، وشروا الجاه وباعوا الضمير ، فظلوا بيننا تماثيل للؤم والبلادة، يسمعون عن فظائع الفدائيين فى القنال ، وكأن القنال ليس من أرض الوطن ، وكأن الفدائيين ليسوا من شباب الأمة ! أما البررة الأطهار فهم صفوة الخير المغلوب بين هذا الشر الغالب ! هم أولئك الشباب الجامعيون الذين نذروا دماءهم الزكية لله ولمصر . يقتلون مستبسلين ، ويقتلون مستشهدين ، لا يبتغون عرض الحياة لأنهم يستقبلون وجه الموت ، ولا يطمعون فى جزاء الدنيا لأنهم يقنعون بثواب الآخرة .

هم أولئك الفدائيون المترفون الذين ربأوا بوطنهم أن يُحتل ، وبشعبهم أن يذل ، فزهدوا فى نعيم العيش ، ورغبوا عن سلام الأمن ، وعاشوا مع الفلاحين فى قرى القنال ، يطعمون أغلظ الطعام ، ويشربون أكدر الشراب ، و يفرشون أخشن الفرش ، ويستعيضون عن العطور والدهن بالشحم يطلون به أجسادهم المرهفة ليقيها برد الماء وقر الشتاء ، ثم يكمنون للعدو الباغى عراة فى قنوات الحقول وأخاديد الأرض ؛ حتى إذا شاء القدر أن يسخر من الإمبراطورية العجوز ، ساق قطيعاً من أغنامها الحمر إلى الجزرة الفدائية الجائعة ، فيلتقى الإيمان والكفر ، والشجاعة والجبن ، والفداء والأثرة ، وتغلب الفئة القليلة الفئة الكثيرة بإذن الله ، فيفزع (أرسكين)[1] ، ويجزع (تشرشل) ، وتسيل شوارع المدن ومسالك القرى بالدبابات والمصفحات والجنود ، ثم تكون عاقبة هذا الجيش العرمرم والعتاد الضخم هزيمة مخزية تشبه الصفعة على القفا العريض ، أو البصقة فى الوجه الصفيق !

هؤلاء المجاهدون الأبطال الذين زعزعوا باطل انجلترا وأيدوا حق مصر ، لا يرجون من قومهم غير السلاح ! فهل يستجيب أغنياؤنا الطاخون لهذا الرجاء؟ إنك لا تحيي الموتى ولا تسمع الصمّ الدعاء ؟

---

(١) قائد الجنود الإنجليزية فى القنال ، وتشرشل رئيس الحكومة الإنجليزية فى لندن .

رسالة وصورة

(٢٥ فبراير سنة ١٩٥٢)

يحلو لى أن أهرب أحيانا من زمنى الحاضر لإثقاله أو إملاله ، فارجع إلى ذكرياتى أجتر منها ما ألذ ، أو إلى مذكراتى أقرأ منها ما أحب :

وفى هذه الساعة التى أكتب فيها الرسالة شعرت بضيق فى الصدر والفكر ، فألقيت بالقلم وقلت لنفسى : دعى الكتابة اليوم وتعالى نتفرج من هذا الهم برجعة إلى دنيا الماضى فلعل فى أصدائها الباقية ما يؤنس هذه الوحشة . وتذكرت أن شهر يناير قد عودنى الجميل فيما مضى من عمرى ، فقد سجلت فيه أكثر ضحكات القلب ، وحسبى منها ميلاد ولدىّ : رجاء والرسالة .

فتحت مذكراتى عن صفحات هذا الشهر ، فوجدتنى قد كتبت فى يومه العاشر من عام ١٩٥٠ هذه السطور :

«ألقى البريد الجوى إلى فى صباح هذا اليوم غلافاً من العراق على ورقه طابع الذوق ، وعلى خطه سمة الظرف . فلما فضضته وجدت فيه رسالة وصورة . قرأت الرسالة والإمضاء ، ثم تأملت الصورة والإهداء ، فإذا هما لآنسة من أوانس بغداد المثقفات ، قد أولعت بالأدب وأغرمت بأهله . ثم عدت أقرأ ، وعدت أتأمل . وطال تردد البصر والفؤاد بين الصورة وهى رسالة الجسم الجميل ، وبين الرسالة وهى صورة الروح النبيل ، حتى غاب حسى فى سكرة من سكرات الأحلام ، تراءت لى فى خلالها أطياف من تعاجيب الهوى والشباب ، تتراقص نشوى فى أزقة (الوزيرية) و (رأس القرية) من مغانى بغداد العزيزة . وكلما عاد الحس أو كاد ، نظرت إلى الفم الحلو الذى يريد أن يبتسم ، وإلى الطرف الأحور الذى يهم بأن يقول ، وإلى الشعر المغدودن الفاحم الذى يسيل على الأذنين وأطرافه

الخدين فيجعل الوجه كله صورة من الفتنة ، فتعود إلىّ الغفوة ، وأعود ثانية إلى الحلم !

وأخيراً تخلصت قليلا من سحر الصورة لأرى صاحبتها الأديبة تقول أول ما تقول: « أعتذر إليك من الكتابة والإهداء على غير تعارف .. » ولم يخل اعتذارها الصريح من احتجاج ضمنى على العرف الذى يفرق فى مثل هذا الصنيع بين الرجل والمرأة . فلو أنها كانت فتى كما تقول لما وجدت فى الكتابة إلى مثلى ما يعتذر منه. ثم تحدثت طويلا عن صلتها بالرسالة وحرصها على أن تقرأ كل ما أكتب . وخصت بالذكر رثائى للشاعر المرحوم على محمود طه ، وخرجت من ذلك إلى الكلام عن شاعريته وعبقريته . ثم طلبت إلىّ آخر الأمر أن أخصص لتأبينه عدداً من (الرسالة) أكتب أكثره ! كل أولئك فى أسلوب رقيق دقيق يوحى أكثر مما يعبر ، ويمتع أكثر مما يقنع . ولم أكد أستوعب الرسالة بفكرى ، وأناقش موضوعها فى سرى ، حتى تناولت القلم وفتحت الألبوم وأجبت عن الرسالة برسالة ، ورددت على الصورة بصورة ! ولكن هيهات وا أسفاه ! لن تجيب رسالة عقل عن رسالة قلب ، ولن ترد صورة قبيحة على صورة (مليحة) .

ما أيسر السعادة على ابن آدم لو يدرى أو لو يريد ! إن كلمة من قلب مفتوح ، أو إن بسمة من شفة بريئة ، أو نظرة من عين حبيبة ، أو فقرة من رسالة شاعرة ، أو قسمة من صورة فاتنة ، لتستطيع أن تنير ما أظلم من قلبه ، وأن تفرج ما اشتد من كربه ! إن السعادة فتات وفترات ، فلا تكون فى واحد صحيح ، ولا تدوم فى زمن متصل !

تحية للشيخ الرئيس ابن سينا

بمناسبة الاحتفال بذكراه الألفية

(٢٤ مارس سنة ١٩٥٢)

فى هذا الأسبوع ، وفى بغداد عاصمة العلم القديمة ، يحتفل العالم الإسلامى بالذكرى الألفية لمولد الطبيب الرياضى العالم الفيلسوف أبى على الحسن ابن سينا واحد فنه فى الشرق والغرب ، ونادرة عصره فى الطب والحكمة ، وأحد العباقرة العالميين الذين رفعوا قواعد العلم، ونهجوا سبل المعرفة ، ووصلوا ما انقطع من تسلسل الفكر الإنسانى بين الفلسفة الإغريقية القديمة ، والفلسفة الأوربية الحديثة .

ولد أبو على سنة ٣٧٠ هـ فى قرية من قرى بخارى كان أبوه عاملا عليها للأمير نوح بن منصور السامانى . ثم توفى سنة ٤٢٨ بهمذان إحدى مدن إيران كان قد وفد إليها على الأمير علاء الدولة البويهى ، فكان ظمء حياته على هذه الأرض ثمانية وخمسين عاما قضى أكثرها فى الاضطراب والاغتراب والنفى والسجن والخوف والشهوة والمرض ، ومع كل أولئك استطاع أن يكون بحر العلم الزاخر فى وقته ، وبدر العلماء الزاهر فى جيله ، فقرأ كل كتاب وانتفع منه ، وحذق كل علم وزاد فيه ، وألف مائة سفر فى الطب والفلسفة والمنطق واللغة والموسيقى والرياضيات والطبيعيات والإلهيات والأساطير. وكان أول عالم ظهرت فى علمه الفلسفة الكلامية على أتم ما كانت من الدقة والسعة والوضوح . ثم كان هو والبيرونى الغاية التى لم يكن وراءها مذهب للفكر فى القرون الوسطى : هو بدقة نظامه وبراعة فهمه ، والبيرونى بقوة ملاحظته وسعة علمه .

رُبى ابن سينا منذ الخامسة من عمره تربية علمية منظمة ، فحفظ القرآن وثقف الأدب وشدا شيئا من الحساب والفقه . ثم سمع فى محاورة أبيه لأخيه وهما شيعيان كلاما فى النفس والعقل ، وإشارة إلى الفلسفة والهندسة ، فصبت نفسه إلى علم ذلك . وورد يومئذ بخارى أبو عبد الله الناتلى فأقرأه فى المنطق إيساغوجى ، وفى الرياضة المجسطى ، فكان الأستاذ يقف عند المبادىء والظواهر ، والتلميذ يغوص على المسائل فيستخرج الدقائق ، ويمحص الحقائق ، ويبصر المعلم بما لم يبصر . ثم رغب فى علم الطب فتلقى أصوله على أبى سهل المسيحى ، واستقصى فروعه وحده حتى انتهت إليه الزعامة فيه . كل ذلك وسنه على ما قال هو نفسه لم تتجاوز السادسة عشرة ، ثم أبرأ الأمير نوح بن منصور من مرض برَّح به ، فقربه إليه وأذن له فى الدخول إلى دار كتبه ، وكانت عامرة بنوادر الأسفار فى كل علم وفن ، فوعى ما فيها من كتب الطب والفلسفة وما بعد الطبيعة على ظهر قلبه . ثم أصابتها النار عمدا منه[1] أو خطأ من القدَر فلم تبق منها على ورقة فانفرد الشيخ بكنوزها المخبوءة فى صدره ، وكانت هذه النكبة العلمية من مزاياه على غيره !

ثم توفى أبوه وضعف شأن أميره فاضطربت به الأحوال ، وتدفقت عليه الأهوال ، فخرج وهو فى الثانية والعشرين من عمره إلى قصبة خوارزم فأقام بها يسيرا فى كنف أميرها على بن مأمون . ثم غادرها إلى جرجان فثقف بعض الناس ، وألف بعض الكتب . ثم انقلب إلى همذان فوزر لشمس الدولة بن بويه . فلما توفى هذا الأمير وخلفه ابنه تاج الدولة صرفه عن عمله ، ففرغ للبحث والتأليف ، وصنف فى هذه الفترة أعظم كتبه . ثم نشب الصراع بين أمير همذان وأمير أصبهان فاتهم بالدعاية إلى علاء الدولة . وطلبه تاج الدولة فاختبأ فى حانوت صيدلى حتى وقعت العيون عليه فسجنه فى إحدى القلاع . فأنشأ فى ذلك قصيدة منها هذا البيت :

(١) قيل إنه أحرقها لينفرد بعلم ما فيها .

دخـولى باليقين كما تراه وكل الشك فى أمر الخروج

وظل فى السجن أربعة أشهر حتى استطاع أن يفر متنكرا فى زى الصوفية إلى علاء الدولة بأصبهان فأقام فى حماه وادع النفس ، يؤلف ويختصر ، ويحاضر ويناظر ، ويعترض ويجيب . واتفق ذات ليلة أن جرى فى مجلس الأمير حديث فى اللغة شارك فيه ابن سينا ، وكان أبو منصور الجبان حاضرا ، فأنـكر عليه أن يتـكلم فى غير علمه ، فأنف الشيخ من هذا الإنـكار وعكف على دراسة اللغة ثلاث سنين حتى بلغ منها موضعاً جليلا أهله لأن يؤلف فيها كتابا سماه لسان العرب لم يؤلف مثله قبله أحد ! وهكذا انقضت تلك السنين الأربع والخمسون فى عمل لا يفتر ،وسعى لا ينى، وعذاب لا يرحم ، وصراع لا يهادن، وحظ لا يساعده وولوع بالنساء لا يهدأ ، ونزوع إلى الشراب لا يكف ، حتى وهن الجسم القوى ، ووهى العزم الشديد ، ونزلت بالنطاسى العظيم علة نـكل عنها تدبيره وطبه .

* * *

كان الشيخ الرئيس برد الله ثراه آية من آيات الله فى لقانة الذهن وأصالة العقل وقوة الحافظة ونفاذ الهمة : أكثر علمه من اجتهاده ، وأنجع طبه من تجاربه ، وأجل كتبه من حفظه . وكان على استبداد عقله بفـكره ، وطغيان علمه على فنه ، صاغى القلب للدين ، صافى النفس للشعر ، سامى الخيال للقصص . كان إذا أعيت عليه مسألة ذهب إلى المسجد فتوضأ وصلى وابتهل إلى الله أن يجلو عليه ما غمض ويفك له ما أشكل . ثم كان له فى الشعر العينية ومقطوعات أخرى من النمط الرفيع والنسق الفريد ، وفى الأساطير (سلامان) و (حى بن يقظان) و (الطير) وهى رموز لمعان سامية من الحـكمة العالية والروحية الجميلة . وكان فى الشيخ رحمه الله صوفية لا تجرى على منهاج المتصوفة : صوفية هؤلاء وجدانية تقوم على الزهد والتقشف ، وتقصد إلى تصفية القلب وتطهيره ؛ وصوفيته هو عقلية

تبيح النعيم واللهو وترمى إلى تقوية العقل وتنويره . وكان أعظم ما يميز الشيخ اليقين فيما يرى ، والثقة فيما يقول ، والإبانة فيما يكتب . كان لايشك إذا علم ، ولا يتردد إذا فهم ، ولا يتحسس إذا استبان . وتلك طبيعة العالم لا الفيلسوف ، والدارس لا الباحث ، والمتبع لا المبتدع ، والمؤلف لا المنشئ .

هذه أثارة من حياة حافلة ، وإشارة إلى مجد باذخ ، وعبارة من تاريخ ضخم . ذكرناها على هذا الإيجاز القاصر اكتفاء بما سيلقيه ذوو الاختصاص فى حفلات مهرجانه من البحوث المفصلة فى طبه ، والخطب المطولة فى فلسفته . وإنا لنحيي خاشعين من وراء الستر ذكرى الشيخ الرئيس ، ونسأل الله ضارعين أن ينعم روحه فى الخلد ، وأن يطيب ذكره فى الخلود .

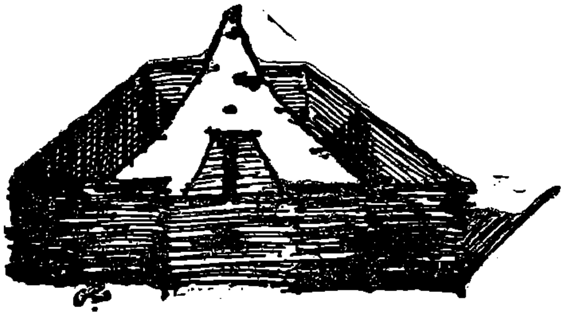

الكتلة الإسلامية

(٢٤ أبريل سنة ١٩٥٢)

كتب إلى كثير من قراء الرسالة يسألوننى عن رأيى فى الكتلة الإسلامية التى تدعو إليها باكستان و(الإخوان) ، ويستوحش من ناحيتها لبنان و(الشبان) ، فلم أجد جوابا عما يسألون خيراً من كلمة كتبتها منذ خمس سنين فى الرسالة جاء فيها :

إن الجامعة الإسلامية هى الغاية المحتومة التى ستتوافى عندها الأمم الإسلامية فى يوم قريب أو بعيد . ذلك لأنها النظام السياسى الذى وضعه الله بقوله : « إنما المؤمنون إخوة » : ثم شرع له الحج مؤتمراً سنوياليقوى ، وجعل له الخلافة رباطا أبدياً ليبقى . وهذا النظام الإلهى أجدر النظم بكرامة الإنسان لأنه يقوم على الإخاء فى الروح ، والمساواة فى الحق ، والتعاون على الخير ، فلا يفرق بين جنس وجنس ، ولا بين لون ولون ولا بين طبقة وطبقة .

وظلت الجامعة الإسلامية فى ظلال إمارة المؤمنين وإمارة الحجيج قوية شاملة حتى خلافة المتوكل . ثم وهى السمط فانفرط العقد ، واضطرب اللسان فتفرقت الكلمة . فلما تبوأ الترك عرش الخلافة استطاعوا أن يبرموا الخيط ، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينظموا فيه الحب . فبقى المسلمون عباديد لا يجمعهم نظام ولا تؤلف بينهم وحدة . ثم أدركت الشيخوخة دولة العثمانيين فى أواخر القرن التاسع عشر فتعاوت على جسدها المنحل ذئاب الغرب ، فلوح لهم عبد الحميد بالجامعة الإسلامية ذياداً عن ملكه فهروا هرير الكلاب المذعورة ، وصور لهم هذا الذعر أن الجامعة هى التعصب وسفك الدماء ، فصدقوا وهمهم وكذبوا الواقع . وكان الاستعمار قد توقح وفجر ، فنشأت العصبية الوطنية فى الأقطار الإسلامية لدرء

خطره أو تخفيف ضرره . والوطنية لا تعارض الجامعة ، ولكنها تفارقها في الطريق لتلاقيها عند الغاية .

إن أوربا التي مزقتها الأطماع وطحنتها الحروب سترحب اليوم بالجامعة الإسلامية ، لأنها هي وحدها التي تملك غرس الوئام في النفوس وإقرار السلام في العالم . إنها تقوم على الإيمان المحض ، وتنزل في خير مكان من الأرض ، وتشمل مئات الملايين من الناس ، وتهيمن على الموارد الأولى للاقتصاد ، وتدين بالآداب السماوية المثلى للاجتماع ، وتشرق أعمالها في الصفحات العظمى من التاريخ . فمن المحال أن تظل نهبا مقسما بين فرنسا الحمقاء ، وإنجلترا المتطفلة ، وهولندة الأنثى !

أما الشبهات التي تطير هنا وهناك حول الكتلة الإسلامية فقد طار أمثالها من قبل حول جامعة الدول العربية لأن (إيدن) أوحى بها ، وحول الدولة الباكستانية لأن (مونتباتن) سعى لها ، ثم جلا الزمن الشكوك ، ومحص الوعي الحقائق ، فذهب إيدن وبقيت جامعة العرب ، واختفى مونتباتن وسطعت دولة الإسلام .

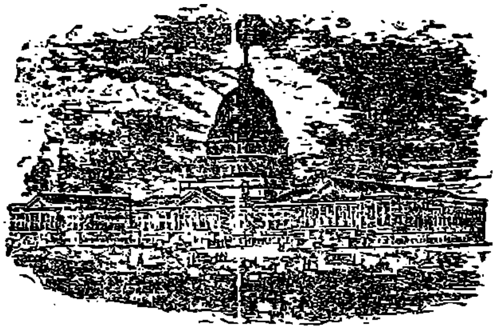

واحسرتاه على عزيز!

(١٢ مايو سنة ١٩٥٢)

أشهد لقد أصابني ما يصيب الحي من فجائع الموت ، فحزنت حزن المفجوع ، وبكيت بكاء الموجوع ؛ ولكن فجيعتين بعد فجيعتي في ولدي ، أشعرتاني لوعة من الحزن لم أجدها في فجيعة من قبل : فجيعة الأمس في علي طه ، وفجيعة اليوم في عزيز فهمي !

لا أستطيع أن أصف لك هذا اللون من الحزن على وجه الدقة ؛ لأنه نادر الحدوث في القلب فهو غريب ؛ ولأنه عميق الأثر في النفس فهو غامض . إنه ذهول يتخلله وعي ، وأسف تخالطه حسرة ، وحرقة يغالبها دمع ، وذكرى يساورها قنوط ، وسخط يكفكفه إيمان .

جاءني على غير انتظار ولا توقع أن زين الشباب عزيزاً أدركه الموت الأسود[1] وهو في طريقه إلى نصرة الحق وخدمة العدالة ، فأخذني أول الأمر وجوم كوجوم المبهوت ، فيه الدهش والشك والتبلد والحيرة . ثم تكرر النبأ الفاجع في صيغ شتى ، فانجلى البهت رويداً رويداً ، حتى تمثل لعيني الخطب الجلل على أبشع صوره وأفظع معانيه . تمثل لي مصاب نفسي في الخلق الرضي والطبع الحيي والفؤاد الذكي والإخاء المؤاسي والوفاء المضحِّي ، فجزعت جزع الإنسان يرى قوة من الخلال الكريمة تفنى ولا تخلف . وتمثل لي مصاب وطني في المحامي الوثيق الحجة ، والخطيب الحافل الذهن ، والنائب الشجاع القلب ، والشاعر السمح القريحة ، فجزعت جزع المواطن يرى ثروة من المواهب العظيمة تفقد ولا تعوض .

---

(١) الموت الأسود هو الموت خنقاً أو غرقاً .

جزعت للانسانية لأنى أكاد لا أعرف من هذا الناس إلا آحاداً من طراز عزيز قد برهنوا بالفعل على أن الإنسان الذى يسفل فيكون شراً من شيطان ، يستطيع أن يعلو فيكون خيراً من ملَك . وجزعت للوطنية لأن هذا البلد البائس الذى يكابد سوء الأخلاق فى داخله ، ويجاهد شر الدول فى خارجه ، يفتقر فى محنته إلى أمثال عزيز ليرفعوا قيمة الفضيلة فى التعامل ، ويعظموا قدر الكفاية فى العمل .

عرفت عزيز فهمى فى بغداد سنة ١٩٣٢ ، وكان قد قدمها فى رحلة جامعية . لم أعرف بالطبع جميع أعضاء الرحلة ، وإنما عرفت عزيزاً وحده ، لأنه بارز فى شخصيته ، متميز فى خلقه . لم أكد يعرفنى حتى ارتاح إلى بأنسه ، وأخذ يسمعنى من شعره ، ويحدثنى عن أمانيه . ثم توثقت بينى و بينه أسباب المودة فآثرنى بحبه ، وآزر (الرسالة) بأدبه . ثم أنفق فى سبيل العلم والمجد زهرة عمره ونضرة شبابه ، حتى أصبح أديباً له أسلوب ، وفقيهاً له رأى ، ومحامياً له حجة ، ونائباً له صولة ، وسياسياً له صوت ، واجتماعياً له رسالة . وفى لحظة من لحظات الشؤم تنبه فيها قدر ، وغفل سائق ، وطاشت سيارة[1] ، ذهب كله كما يذهب الحلم ، وتبدد هذا كله كما يتبدد الشعاع !

---

(١) إشارة إلى غرق السيارة به وهو مسافر إلى إحدى مدن الصعيد فى قضية .

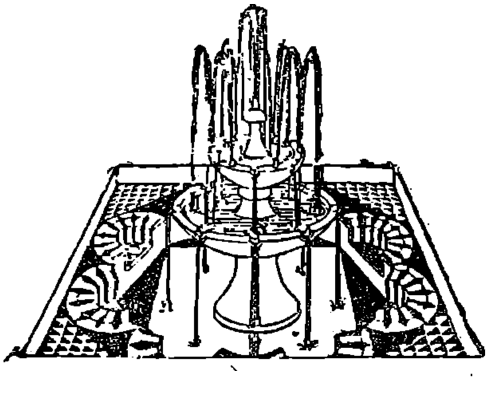

بعض الفقهاء !؟

(٢١ يولية سنة ١٩٥٢)

من مفاليك العامة جماعة انتسبوا إلى علماء الدين كما ينتسب الزؤان إلى الحنطة . نالوا شهادة العلم بالغش ، ولبسوا شارة الدين بالباطل ، وبلغوا مناصب الدنيا بالملق . ثم اندسوا فى المجتمع اندساس الإثم فى الضمير ، أو الداء فى البدن ، فكانوا فى الوحدة مظهر تفريق ، وفى النهضة مصدر تعويق ، وفى العقيدة مثار شبهة . ثم اتخذوا من دورهم معامل لتفريخ الأكاذيب ، ومن ندواتهم وسائل لترويج الشوائع ! يشيعون الفاحشة فى الذين آمنوا ، ويثيرون الريبة فى الذين عملوا ، ويقعدون من حركات الإصلاح مقاعد للتربص والتلصص ؛ فإذا دعاهم المصلح هبوا فى وجهه هبة الريح العاتية على المصباح الهادى . وإذا دعاهم المفسد نفحوا قلبه الوارى نفح النسيم الرخى للنار المشتعلة ! ذلك لأنهم لا يختلون فرائسهم إلا فى الظلام ، ولا يشوون ذبائحهم إلا فى الحريق . ينفرون من العبير كما تنفر الجعلان ، ويفرون من النور كما تفر الخفافيش ، ويموتون من الطهر كما تموت الجراثيم ، ويفزعون من الخير كما تفزع الشياطين ! أما الروح ، وأما الدين ، وأما الخلق ، وأما الأدب ، فهى ألفاظ شأنها فى صدورهم كشأنها فى المعجم : صفات لا تدل على موصوف ، وكلمات لا تزيد على أنها حروف !

المادة فى حياتهم الفارغة هى كل شىء . غلفوا بها قلوبهم حتى صدئت منهم النفوس ، وأفعموا بها أفواههم حتى نتنت منهم الأنفاس . ثم جعلوها قياساً لكل قضية ، وسبباً لكل حكم ، وأساساً لكل نقد ، وغرضاً من كل عهد ! فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون !

وقد تسول لهم النفس الغرور أن يلوثوا وجوه الصحف بما يكظ بطونهم من أخلاط الحقد على المصلحين والعاملين فيكشفوا عن سوءاتهم ثم يدعوها تزكم الأنوف بالنتن الوبيء ، وتؤذي الآذان بالصوت الكريه !

إن من أول وسائل الإصلاح للدين والدنيا أن يكسح هؤلاء من معاهد العلم ومقاعد التعليم كما تكسح الأوحال من الطريق ، فإن البانى لا يبنى وفى يده مسطرين وفى أيديهم معول . وإن الغارس لا يغرس وفى يده مشتل وفى أيديهم منجل . ولولا أبو جهل وابن سلول وشيعتهما من عدو الله لما قال الرسول الصادق الصابر الشجاع وهو يلوذ بأحد الجدر . اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس !

وأفظع الأمر أن أولئك كانوا يحاربون الله وهم يقولون : كذب ؛ وهؤلاء يحاربونه وهم يقولون : صدق ! إن الكفر خير من النفاق . وإن العداوة أفضل من الخديعة . وإن الصراحة على كل حال عظمة ، وإن المراءاة على أى وجه حقارة !

وأخيراً ظهر القائد المنتظر

(٤ أغسطس سنة ١٩٥٢)

كانت بلية مصر العظمى أن تزعمها نفر من المحامين صناعتهم الجدل وبضاعتهم الوعود ، ووسيلتهم الخطب ، وغايتهم المناصب . أكثرهم يقولون الحق ويفعلون الباطل ، ويذكرون الأمة ويريدون الغنيمة . وأقلهم يطالبون التحرير ، ويرغبون الإصلاح ؛ ولكن قُصاراهم أن يخطبوا ما أسعفهم الريق ، وأن يكتبوا ما واتاهم المداد ، وأن يتظاهروا ما أمكنتهم الفرص ، وأن يهتفوا ما أطاعتهم الحناجر ! ثم احترف الطامعون منهم الدفاع عن القضية الكبرى لأنها أوفر ربحاً وأيسر كلفة ، فكان من غرضهم أن تعرُض ، ومن مصلحتهم أن تطول ! ثم انقلب هؤلاء المحترفون صيادين في بحر زاخر بالخلاف والفساد والفوضى ، بعضهم يطمع في اللآلئ ، وبعضهم يقنع بالجيف . والشعب المظلوم المحروم يصارع الأمواج الرُّعن ، ويجابه الصخور الصم ، ويستغيث فلا يرى إلا الشباك الجارفة تفرق أشلاءه وتجمع أسلابه ! وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ويحسب كل عامة خاصة . نشّأته جدودنا العواثر تنشئة الوارث العابث المتبطل ، فلم ينل ما يناله الإنسان العادى من التربية والتعليم ، وإنما ثقفه الفراغ في الرأس والنفس والضمير ثقافة الفجار من أمراء بيته ، فصاد الطير وقاد السيارة ولعب الورق وأطلق المسدس !

كانت غاية همه أن يغنى وأن يطغى وأن يحكم . ولم تكن غايته من الغنى أن يخفف شدة الفاقة عن رعيته ، ولا من الطغيان أن يكفكف شِرّة الحزبية عن أمته ، ولا من الحكم أن يوجه سير النهضة في بلاده . إنما كانت غايته من هذه الرغائب الثلاث السرف والترف والفحشاء والمنكر والبغى !

تناصر هذا الملك اللاهي وأولئك الساسة المحترفون على إذلال هذه الأمة ففرقوا كلمتها ، وعوقوا نهضتها ، وبددوا ثروتها ، وسوأوا سمعتها ، ودفعوا بها إلى هوة من هُوى الفساد لا سبيل بها لنجاة ، ولا بصيص فيها لأمل . فلم يكن بد من أن يظهر في مصر مصطفى كامل ليعيد الروح إلى الجسد الميت ، ويرد السكون إلى النظام الفاسد ! وما جمال عبد الناصر إلا الرجل الذى ادخره الله لهذا اليوم لتنكشف به غمة ، وتحيا بفضله أمة ، ويتصالح على يده عهد ، ويبتدئ باسمه تاريخ ! وإن مصر التى حلمت به كثيراً فى ليلها الطويل ، وانتظرته طويلا فى سجنها المظلم ، لترجو منه أن يكون لها ما كان كال من تركيا : يطهر الحكم كما طهر الملك ، ويرفع الشعب كما رفع الجيش ، ويقيم الدولة والحكومة والأمة على أسس جديدة من الخلق الفاضل والعدل الشامل والخير المحض والعلم الصحيح والعمل المثمر لا يثبت عليها دجل ، ولا ينفق فيها غش ، ولا يتطرق إليها فساد .

لقد كان فرعون المطرود قادراً على أولئك كله لو أراد ؛ ولكن الله الذى يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ، لم يرد هذه النعمة إلا لعبد الناصر . فلتكن إرادة الله !

بلغنا العدد الألف !

(أول سبتمبر سنة ١٩٥٢)

نعم . بلغنا العدد الألف ! ومعنى ذاك انقضاء ألف أسبوع من عمر الرسالة الباقية ، أو عشرين عاما من عمر صاحبها الفانى ! وإن عشرين عاما يقضيها الكاتب المتأمل فى هذا المرصد الأدبى والاجتماعى يصوب مناظيره إلى كل سماء ، وينصب مخابيره فى كل أرض ، لتكشف له عن ظواهر فى الآفاق ، وعن بواطن فى الأنفس ، ما كان ليراها ، لا بعينه ولا بقلبه ، لو أنه جلس مجلس المشاهد المتفرج فى مسرح الحياة .

قضيت ثلث عمرى الأعلى والأغلى دائبا دءوب القمرين ، أعمل ليل نهار فى عالم عبقرى الأحلام والرؤى ، يزخر بالعقول النيرة ، والنفوس الخيرة ، والأخيلة الخصبة . أناجيهم بالروح ، وأخاطبهم بالقلم ، وأقابلهم فى البريد ، وأجعل لهم من صفحات الرسالة أجواء يسبحون فى أطباقها مع الملائكة ، ورياضا يهيمون على زهورها مع الفراش ، وحقولا يعسلون من رحيقها مع النحل ؛ حتى اجتمع لهم من أفانين الحق والخير والجمال عشرون مجلدا ضخما هى تاريخ نهضة وثورة أمة وتراث جيل .

* * *

فى ذات عشية من عشايا نوفمبر من عام ١٩٣٣ زرت أخى الدكتور طه حسين فى دارته بالزمالك ، وكنت منذ أربعة أشهر قد رجعت من العراق بعد ما أغلقت دار المعلمين العليا ببغداد ، وكان هو قد أنزل عن كرسيه فى كلية الآداب من جامعة فؤاد .

فقلت له بعد حديث شهى من أحاديث الذكرى والأمل :

ما رأيك فى أن نصدر معا مجلة أسبوعية للأدب الرفيع ؟

فضحك ضحكته التى تبتدىء بابتسامة عريضة ، ثم تنتهى بقهقهة طويلة ، وقال :

وهل تظنك واجدا لمجلة الأدب الرفيع قراء فى مجتمع ثقافة خاصته أوربية ، وعقلية عامته أمية ، والمذبذبون بين ذلك لا يقرأون — إذا قرأوا — إلا المقالة الخفيفة والقصة الخليعة والنكتة المضحكة ؟

فقلت له : لعل من بين هؤلاء وهؤلاء طبقة وسطا تطلب الجد فلا تجده ، وتشتهى النافع فلا تناله .

فقال وهو يهز رأسه ويمط شفتيه : حتى هذه الطبقة ، إن كانت ، ستقبل على الجد النافع أول الأمر لأنه تغيير وتنويع ، فإذا ما ألح عليها لا تلبث أن تسأمه وتزهد فيه . والمثل أمامك فى « السياسة الأسبوعية » .

فقلت له : ربما كان لإقبال القراء على « السياسة الأسبوعية » ولإدبارهم عنها سببان آخران غير التغيير والسأم . كانت هذه المجلة أول ما صدرت قوية غنية خصبة فأصبحت حاجة ؛ ثم اعتراها ما يعترى الكائن الحى من الوهن والانحلال فصارت فضلة .

فقال لى بعد نقاش طويل : أنت وشأنك ! أما شأنى فهو المقال الذى أكتبه ، والرأى الذى أراه .

وكان يظاهرنى على تفاؤلى أصدقائى الأدنون من لجنة التأليف والترجمة والنشر ، فكانوا بهذه المظاهرة نقطة الارتكاز ومبعث المدد .

وأخيراً تغلب العزم المصمم على التردد الحوار فصدرت الرسالة : صدرت قوية

بالروح ، غنية بالمادة ، فتية بالأمل ، فكانت ولله الحمد حدث العام وحديث الناس ! صادفت خلاء فشغلته ، وخللا فسدّته ، وعبثا فحاولت أن تصدّ عنه بإيقاظ النخوة فى الرءوس والكرامة فى النفوس والرجولة فى النشء . ثم حركت فى الملكات الموهوبة ساكن الشوق إلى الإنتاج فأبدعت ، وأهابت بالقوى الأدبية المتفرقة فتجمعت . ثم سفرت بين الأدباء فى كل قطر من أقطار العروبة ، فعرفت بعضا إلى بعض ، وأطلعت كلا على عمل كل ثم قادت كتائب الفكر والبيان فى ميادين الإصلاح الأدبى و الاجتماعى والسياسى على نهج واضح من الدين والخلق ، فكتب الله لها النصر فى معارك ، ووعدها الفوز فى معارك . ولو كانت الرسالة اليوم بسبيل أن تكشف عن قلبها ، وأن تتحدث بنعمة ربها ، لذكرت فيما تذكر بلاءها العظيم فى إنهاض الأدب ، وتوحيد العرب ، وتخريج طبقة من الأدباء ، وتثقيف أمة من القراء ، بله مجاهدتها السلطان الباغى والثراء الطاغى والفقر المهلك . ولكنها ترى ذلك من لغو الحديث مادام كتاب (وحى الرسالة) منشورا وأعداد المجلة محفوظة .

كانت نشأة (الرسالة) كنشأة (الوفد) من كل الوجوه . وكان تطورها كتطوره من بعض الوجوه . نشأت الرسالة كما نشأ الوفد إجابة لحال مقتضية وضرورة موجبة . لم تكن فى مصر حين صدرت الرسالة مجلة أدبية تعالج فنون الأدب العالى ، وتقدر نتاج الأديب الحق ، وتقضى حاجة القارىء الجاد . إنما كان الأدب السامى حينئذ خبىء الصدور وحبيس المكاتب . فلم تكد تخرج إلى الناس حتى احتشدت فيها القوى المدخرة ، وظهرت على صفحاتها الملكات المستترة ، فلم يبق فى العالم العربى صاحب نثر أو شعر إلا أشرق فيها عقله ، وانتشر مع انتشارها فضله .

كذلك لم يكن فى مصر يوم ظهر الوفد جماعة سياسية تواجه مشكلات

الحرب العالمية الأولى ، وتوجه خطوات الثورة المصرية الثانية . إنما كانت السياسة يومئذ أصداء خافتة لأصوات الماضى ، وآراء متهافتة من ترهات الحاضر . فلم يكد سعد زغلول يؤلف الوفد حتى انضم إليه عباقرة الرأى ودهاقين السياسة ، فلم يبق فى مصر صاحب قلم أو لسان أو منطق أو جاه إلا قصر جهده على الوفد ، وأضاف جهاده إلى جهاد سعد .

ثم سعى الشيطان بين الإخوة فتصدع الشمل وتفرق الهوى وتمزقت الوحدة فانشق على الرسالة كتاب ، واشتق منها صحف ، كما انشق على الوفد أقطاب ، واشتق منه شعب . فضعف الأصل ولم يقو الفرع ، واعتل المصدر ولم يصح المشتق ، وخسر المفرد ولم يربح الجمع . وأصبحت الرسالة رجلا واحدا يجتمع من حوله أشياع الفكرة ، كما أصبح الوفد رجلا واحدا يسير من خلفه أتباع المبدأ .

على أننا نطمع فى فضل الله أن يزيد الرسالة قوة فى عهد مصر الجديد .. وما تسأل الرسالة العون إلا من الله ؛ فقد عودها جل شأنه ألا تفزع إلا إليه فيما يحزب من أمر وما ينوب من مكروه .

ولعل السر فى بقائها إلى اليوم على ضعف وسيلتها وقلة حيلتها أنها عفت عن المال الحرام ، فلا تجد لها اسماً فى (المصروفات السرية) ، ولا فعلا فى المهاترات الحزبية ، ولا حرفا من الإعلانات اليهودية .

وإذا لم يكن للفضيلة نفاق فى عهد غرق فيه (القصر) فى الفحش والنكر والبغى والاغتصاب والاستبداد والقتل ، وارتطمت فيه (الحكومة) فى الاختلاس والغش والخيانة والرشوة والمحاباة والختل ، فإنا لنرجو أن يكون لها نصيب من التقدم والفوز فى عهد يتولى الأمر فيه فتية آمنوا بربهم وشعبهم فعملوا للصالح العام ، ومهدوا للنجاح الشامل .

كان ظهور الإسلام فتحاً لعالم جديد

(٣١ ديسمبر سنة ١٩٥٢)

نستطيع من غير أن نغضب المؤرخين أن نجعل ظهور الإسلام هو الفارق بين عالم قديم كان يقاسي لهاث الموت ، وعالم جديد كان يستهل استهلال الحياة ؛ وأن نطاق الوصف بالجاهلية على العالم القديم كله شرقيه وغربيه ، والوصف بالإسلامية على العالم الجديد كله مسيحيه ومحمديه .

ومما يعزز هذا التقسيم أن الله جل جلاله قد أرسل رسوله محمداً بالهدى إلى الناس كافة ، وكانت سنته من قبلُ أن يرسل من اصطفاه إلى البلد الذى فسد ، وإلى الشعب الذى شرد . فلما عمت الجهالة ، وشاعت الضلالة ، وأوفت الإنسانية ، واقتضت حكمة الخالق أن تكون الرسالة عامة والدعوة شاملة . ومن طبيعة الشريعة العامة أن تكون كاملة لا ينالها النقص ، متجددة لا يعتريها البلى ، صالحة لكل نفس ولكل أفق ، حتى يكونَ فيها لكل داء علاج ، ولكل قوم منهاج ، ولكل مشكلة حل . وتلك هى الخصائص المميزة للشريعة التى انقطع بعدها الوحى ، ولصاحبها الذى اختتمت به الرسل .

* * *

كانت الجاهلية العالمية التى سبقت الإسلامية العالمية ليلا موصول الظلام بالأزل ، مبسوط الهول على الأرض . ومن حقبة إلى حقبة كانت تضىء سماءه الداجية ومضات من عقل الإنسان فى طيبة وأثينا ، وأشعة من وحى الله فى سيناء وأورشليم . حتى إذا خبا نور العقل بحيوانية الرومان ، وخفت صوت الوحى بمادية اليهود ، أطبق الظلام فى كل سماء ، وغشى الضلال على كل أرض ،

وسرت قافلة الحياة غوّية تخبط فى مجاهل البيد ، يسوقها من الشرق الفرس ، ويقودها إلى الغرب الروم . ولم تكن الروم فى القرنين السادس والسابع للميلاد إلا دولة منحلة ألح عليها سرف الغنى وترف العيش وفساد العقيدة وتباين المذاهب ، حتى انتهى أمر دينها فى بيزنطة إلى خلاف مستحكم فى طبيعة المسيح ، وجدل متحكم فى صفات هذه الطبيعة . وآل أمر دنياها فى رومة إلى استغراق فى شهوات الحس ونزوات النفس كفكفت من سلطان العقل ، وطأطأت من إشراف الروح . وكان من هذا الدين المسيخ ومن هذه الدنيا الداعرة أن قام فى شطرى الأمبراطورية الغاربة نظام من الحكم السفيه الفاجر أرهق الأمة بالضرائب ، وأفسد الحكومة بالرشا ، ولوّث المجتمع بالرذائل ، وأشعر الناس مذلة الرق ، فعظموا القادة ، وقدسوا السادة ، وألهوا القياصرة ، حتى انحدر السيد والمسود والعابد والمعبود إلى هوة لاقرار لها إلا العدم .

كذلك لم تكن الفرس فى ذلك العصر نفسه إلا حطام دولة وغثاء جيل . منيت بما منيت به الروم من تحلل العقد ، وتعفن الأخلاق ، وسطوة الشهوات ، وتفاوت الطبقات ، وطغيان الملوك ، وبطلان الدين . وأربت عليها بنشوء المذاهب المعوجة فيها ، وغلبة الميول الشاذة عليها ، فمن (رمزية) زرادشت الذى مهد للمجوسية الحمقاء ، إلى (عدمية) مانى ، الذى حرم الزواج استعجالا للفناء ، إلى (وجودية) مزدك الذى جعل الناس شركة فى الأموال والنساء ، إلى حال من الاجتماع العفن والنظام البالى لا يعيش فيهما حر ولا يدوم عليهما مُلك .

وكان الناس من وراء هاتين الدولتين يعيشون على حال أسوأ من هذه الحال ، وفى درك أسفل من هذا الدرك . فالعرب واليهود قد وصفهم الكتاب العزيز بما لا بيان بعده . والهنود وأهل الصين كانوا من البوذية والبرهمية فى وثنية

إباحية لا حصر لأصنامها ، ولا حد لأوهامها ، ولا علاج لما ابتلاهم به من أدواء خلقية وأجتماعية بعضها يبيد عالماً بأسره . أما الشعوب الأوربية فى الشمال والغرب فكانت لا تزال خارج الوجود المتمدن لا تشعر بأحد ، ولا يشعر بها أحد :

* * *

على هذه الحال الأليمة والقيادة المضلة كانت قافلة الحياة تسرى . ! ظلام مخيم على الكون كله ! فيه التهاويل التى تفزع كل نفس ، والعراقيل التى تصدم كل قدم ، والشياطين التى توسوس هنا بالفتنة ، وتغرى هناك بالإثم ، وتعيث هنالك فى الدين ، وتستعين دائما بحواء على إغواء آدم ! وما كان الله — جل شأنه — ليكل ركب الخليقة إلى نفسه ، فيعمه فى هذا التيه وقد قضى عليه أن يقطع مراحل الدنيا ويبلغ غاية الأجل . لذلك أذن وهو الرءوف الرحيم لهذا الليل أن يصبح ، وشاء وهو الخبير العليم أن يكون إسفار صبحه من غار حراء !

هنالك تجلى الله لجبل النور فأشرق الحجاز كله . ونزل الرسول المصطفى من الغار ونور الله يسعى بين يديه ، وصوت الروح الأمين يتردد فى أذنيه ، فدعا إلى الإسلام البداة الرعاة الذين اختارهم الله لهداية خلقه ورعاية حقه ، ثم خرج بهم إلى القافلة البشرية وقد شردها الضلال ، وأضناها الكلال ، وأعوزها الهادى الذى يدل ، والحادى الذى يرفه . فرد الشارد ، وألف النافر ، وجمع الشتيت ، وطمأن السادرين اليائسين الهلكى بقول ربه : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » فمنهم من آمن ومنهم من كفر . وحينئذ بدأ المجاهدون فى سبيل الله معارك التطهير والتحرير ، فطهروا النفوس

من الرجس ، وحرروا العقول من الشرك ، وثلوا عرش قيصر ، وقوضوا إيوان كسرى ، وشادوا على أنقاضهما مأذنة بلال ومنبر محمد . ثم طبقوا فى البلاد المطهرة المحررة شريعة الله التى تكرم الإنسان وتعلن حقوقه وتمحو فروقه وترفع شأنه . ثم حملوا فى الشرق والغرب شعلة المعرفة بما تجمع لهم من وراثة ما مضى من الديانات والثقافات والحضارات ، وأقبسوها أقواما لم يروا قبلها النور فى ذهن ولا ضمير .

ورثوا ديانات إبراهيم وموسى وعيسى ، وثقافات اليونان والعبران والهنود ، وحضارات المصريين والرومانيين والفرس . ثم أخضعوا هذا الإرث الضخم لعبقرية الإسلام ومزية الجنس ، فانتفى منه الخبث ، وارتفع الخطأ ، وانجلى الغموض ، وكمل النقص ، وأصبح صالحا لتغذية العقول وتقوية القلوب وتنمية المدارك وتكوين مجتمع صحيح قوى حر ، لا يوجهه إلا الحق ، ولا يحكمه إلا الله .

ثم كان من فضل الله على الناس أن أظهر نوره فى مكان وسط بين قرنى الشمس ، ليمشو على ضوئه الضالون فى الشرق والغرب من المحيط إلى المحيط .

* * *

على أن نور الله لم يلبث أن غمر الشرق حتى بلاد الصين ، وطبق الغرب حتى بلاد الغال . ومن حرمه الله نعمة الانتفاع بهدايته وقيادته ، لم يحرمه فضل الاستمتاع بثقافته وحضارته . فالمسيحيون الأوربيون قد أخذوا ثقافة العرب عن طريق المغرب والأندلس فى فتوح الهلال ، وقبسوا حضارة المسلمين عن طريق مصر وفلسطين فى غزوات الصليب . ثم كان من أثر الفتح الإسلامى للقسطنطينية أن انتشر الدين المحمدى فى شرق أوربا ، وتفرق العلم المسيحى فى وسط القارة ، فكانت حركة (الإحياء) .

وما الإحياء إلا اختلاط الثقافة اللاتينية التي أطلقها محمد الفاتح من الأديرة والكنائس، بالثقافة اليونانية التي بعثها محمد المأمون في المساجد والمدارس . ومن هاتين الثقافتين وما خالطهما من علوم الإسلام وفنون المسلمين كانت هذه الثقافة الحديثة والحضارة القائمة .

* * *

لم تكن الفتوح الإسلامية إذن فتوح استعمار وجباية، وإنما كانت فتوح تحرير وهداية .

كانت فتوحا في الأرض للحرية والعمران، وفتوحا في العقيدة للتوحيد والإيمان، وفتوحا في الشريعة للحق والعقل، وفتوحا في السياسة للإحسان والعدل، وفتوحا في اللغة للأدب والبلاغة، وفتوحا في العلم للإحياء والتجديد، وفتوحا في الفن للابتكار والطرافة .

تجلد يا فاروق !

(٢٩ سبتمبر سنة ١٩٥٢)

لك الله يا مسكين ! لم تعد باشا بعد يوليو ، ولن تعود قارون بعد أكتوبر[1] !
ذهب اللقب وضاع (الطين) ، فلا رأس يشمخ ولا لُغد ينتفخ ! وخلا الدوار والإصطبل ، فلا ثور يخور ولا فرس يصهل ! وخوى القصر والديوان ، فلا حاجب يسعى ولا حاسب يحسب ! وخفت الصوت الراعد فلا (شخط ولا نطر) ، وخرس اللسان البذيء فلا نهر ولا قهر !

لم يبق لك من تراثك الفاحش الضخم ، إلا جسد بض ، وبطن شحيم ، ووجه جهم ، وذهن مغلق ، وحس مظلم ، وجهل مطبق ، وسمعة قبيحة ! وكانت هذه المزايا التي مازك الله بها مستورة بالطين[2] فما كان يراها أحد ؛ فلما كشفوا عنك غطاء الذهب ، واستردوا منك جلال اللقب ، بدوت في شرفة القصر عاريا من زينة الجسد والروح ، كما بدا فاروق في شاطيء (كابرى) عاريا من زينة الملك والإنسان !

أنا والله شامت بك يا قارون ! لطالما قرعتُ سمعك وسمع (الأمير) بزواجر النصح الخالص ، ولكنكما لم تكونا يومئذ تصدقان أن للناس ربا يمهل ولا يهمل ، وأن للعدل نورا يخبو ولا ينطفيء ، وأن للشعب وعيا يضعف ولا يموت ! وها هو ذا غضب الله يحل ، ونور العدالة يشرق ، ووعي الأمة يستيقظ ؛ فهل أغنى عنكم

---

(١) قارون كان من قوم موسى ، آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة وقد طغى وبغى . وهو مستعار لأحد كبار الإقطاعيين الذين جردتهم ثورة الجيش من الألقاب في يونيو سنة ١٩٥٢ وانتزع منهم قانون الإصلاح الزراعي أكبر أراضيهم بعد أكتوبر من هذه السنة .

(٢) الطين في لغة المصريين يطلق مجازا على الارض الزراعية .

النضار الذى كنزتموه ، والعقار الذى حزتموه ؟ لقد أخذتكم صيحة الجيش بالحق فآمنتم لأول مرة أن الناس عبيد الله ، وأن الوطن ملك الجميع ، وأن الملك أحد الناس .

أنا والله شامت بك وبأمثالك يا فاروق ! كان لكل منكم حاشية كحاشية فاروق ، وزبانية كزبانية جهنم ! حاشية تحبب إليكم الفسق ، وتهون عليكم الإثم ، وتوفر لديكم المتاع . وزبانية يعقدون لكم دم الفلاح ذهبا ، ويحولون إليكم عرق الأجير فضة . ثم لا يشيرون عليكم أن تعملوا لعبيدكم ما يعمل الفلاح لمواشيه : يغذى البقرة لتحلب ، و يقوى الثور ليحرث !

لقد أصبحتم بكفرانكم لنعم الله ناسا من أقل الناس ، تذوق ألسنتكم الحلو والمر ، وتحس نفوسكم العز والذل ، وترجون الدستور كما نرجو ، وتخشون القانون كما نخشى . وستنسون من طول ما يلح الغلاء وتفدح الأعباء ، أنكم كنتم من الطبقة التى أقامت نفسها بقوة المال وسطوة الحكم بين الله وبين عباده ، تملك الأمر والنهى ، وتعطى الحياة والموت ، وتضع يدها فى يد إبليس لتنقض ما أبرم الله ، وتفسد ما أصلح الدين .

كنت يا فاروق تكره العلم لأنك تحب الجهل ، وتوالى الظلم لأنك تعادى العدل ؛ فماذا تصنع اليوم وقد أصبحت محتاجا إلى العلم لتعمل ، ومفتقرا إلى العدل لتعيش ؟

إن فى مذكراتى وذكرياتى أفانين من مخازيك يا فاروق لو نشرتها على أعين الناس لأنكروا أنك منهم ، وأشفقوا أن تعيش فيهم ؛ ولكنى أتأدب بقول الرسول الكريم : أكرموا عزيز قول ذل ، وغنى قوم افتقر !

ثورة فيها ريح النبوة

(١٣ أكتوبر سنة ١٩٥٢)

كل نبوة كانت ثورة . ومن أخص ما ميز ثورات النبوات أنها كانت للسلام العام والصلاح المطلق . فلا تجد نبياً دعا إلى عرض الدنيا ، ولا رسولا سعى إلى سلطان الحكم . إنما كان الأنبياء والمرسلون جند الله ، يعملون بوحيه، ويهتدون بهديه . عقيدتهم الحق ، ودعوتهم الصدق ، وعدتهم الصبر ، ووجهتهم الخير ، وطريقتهم التضحية . فلما ختم الله رسالاتهم برسالة محمد كتب على نفسه الرحمة أن يرسل إلى الناس في كل حقبة مصلحاً يؤدبه بأدب الأنبياء ، ويجريه على منهاج الرسل ، ليجدد ما درس من عهده ، ويبين ما طمس من طريقه . وشأنه سبحانه في إعداد المصلحين كشأنه تعالى في إعداد النبيين ، يصنعهم على عينه ، ويطبعهم على دينه ! حتى إذا ضعف سلطان العقل ، واختل ميزان العدل ، وعميت على الناس وجوه الرشد ، أظهر هذا المصلح من بين رجال السيف في أكثر الحالات ، لأنهم بحكم تنشئتهم أصحاب فداء ومضاء ، وألاف نظام وعمل ، وأحلاف شرف ومجد . يطلبون الحياة بالموت ، ويرحضون[1] الرجس بالدم ، ويقرنون الرأي بالعزيمة . ولم تجتمع هذه الصفات لأحد قبل قادة هذه الثورة . وسر ذلك أنهم نشأوا في طبقة الفلاحين الكادحين فعرفوا كيف يكون الحرمان ؛ وعملوا تحت إمرة المستكبرين المستهترين فعلموا كيف يكون الطغيان ؛ وأضاءت قلوبهم النقية إشراقة من نور الله ، فرأوا من تحت الظلام الكثيف المخيف عرش مصر يرتطم في القذر ، وجيش مصر يضطرب في الفساد ، وشعب مصر يتمرغ في الذل ، فشبوا شبوب النار الهادئة ، تقتل المكروب

---

(١) رحض الثوب . غسله ومنه سمي المغتسل للرحاض .

ولا تحرق المريض ؛ وهبُّوا هبوب الريح اللينة تدفع الشراع ولا تغرق المركب. ثم عالجوا أمر هذه الأمة بعلاج الرسول الكريم ، فحطموا الأوثان كما حطم ، وكرموا الإنسان كما كرّم ، وأزالوا الفروق بين الناس كما أزال ، وأدالوا الفقير من الغنى كما أدال ، وقيدوا الحق بالواجب كما قيد ، وأيدوا الحجة بالسيف كما أيد . ثم أذاقوا الناس لأول مرة فى تاريخ مصر نعمة الحرية والكرامة والمساواة . ثم ظلوا كما كانوا قانعين متواضعين ، يظهرون فى الجامع من غير أبهة ، ويمشون فى الشوارع من غير حرس ، ويختلطون بالسواد من غير حرج . ثم لا يمدون أعينهم إلى نعيم ، ولا يبسطون أيديهم إلى ثراء . فهل يجوز بعد أولئك كله أن يعيدونا إلى ثرثرة الأحزاب وسمسرة النواب ومهزلة الزعامة ؟

* * *

لا يا قادة الثورة ! إن الله جعل فى أيديكم أمانة هذه الأمة فلا تلقوا بها إلى من خانوها من قبل ! إنكم تريدون (الاتحاد) وهم يريدون الفرقة . وإنكم تريدون (النظام) وهم يريدون الفوضى . وإنكم تريدون (العمل) وهم يريدون الكلام ! فهل يستوى الوفى والغادر ، أم هل يستوى البر والفاجر ؟

رسالة وجوابها

(٢٧ أكتوبر سنة ١٩٥٢)

كتب إليّ السيد محمود عبد السيد حمزة يقول :

« سلام الله عليك

قرأت لك (ثورة فيها ريح النبوة) والحق أنها ثورة مباركة أنعشت لمصر من الآمال ما أذواه العهد البغيض ؛ ولكنك يا سيدى اختتمتها بثورتك على الأحزاب والنواب ومهازل الزعامة .

ولما كان لرأيك قدره عندى فهل يا ترى أفهم من كلامك أنك تقر حكم الفرد وأنت الذى فتح باب رسالته على مصراعيه للرأى والمشورة ؟ لا تظلم الأحزاب يا سيدى ولا النواب ، فمنهم من يزكيهم الله . وإذا أخذنا عليهم بعض الأوزار فوزرهم فى عنق من وطد للفساد أركانه . إدع إلى الشورى ياسيدى ولا تيأس ؛ فقد ذهب الفساد وعهده ولم يبق إلا الإصلاح ؛ فلرأيك قيمة وقدره »

وجوابى عن رسالة السيد الفاضل ، أنى لا أومن بحكم على نظام معين . إنما أومن بأى حكم يقوم بنيانه على الشورى ، وينبسط سلطانه على العدل . وليس للشورى نظام واحد لا يجوز غيره ، ولا للعدالة منهج واحد لا يؤدى سواه . يجوز أن تصدُق الشورى على لسان بطانة أو وزارة أو ندوة ، كما يجوز أن تتحقق العدالة على يد إمام أو ملك أو رئيس . إن العبرة بالمعنى لا باللفظ ، وبالروح لا بالنص ، وبالفكرة لا بالصورة . كان على يستشير ، وكان معاوية يستشير ؛ ولكن ابن أبى طالب كان يستشير أهل الذكر من صحابة الرسول ، وابن أبى سفيان كان يستشير أهل المكر من بطانة الملك .

وكان عمر بن عبد العزيز يعدل ويظن لتقواه أنه يجور . وكان الحاكم بأمر الله يظلم ويظن لفجوره أنه يعدل .

إيتنا بمستبد كعمر أو بمستشير كالرشيد ، نلق إليه مقاليد الحكم ثم نعش في ظلال حكمه بنفسه ، أو حكمه بغيره ، كما يعيش البنون في كنف الأب ، أو المؤمنون في ظلال الله . أما أن ننقل النظام البرلماني الأوربي من ورق باللغة الافرنجية ، على ورق باللغة العربية ، ثم نطبقه على أمة ليس لها رأى عام ولا وعى تام ولا إرادة حرة ، فذلك عبث لا ينشأ عنه إلا ملك يقول أنا الدولة وهو كومة من القذر ، وبطانة تقول أنا القصر وهى مجموعة من الفحش ، ووزارة تقول أنا الحكومة وهى عصبة من السماسرة ، وأحزاب يقولون نحن الأمة وهم مناسر من اللصوص ، ونواب يقولون نحن الشعب وهم جماعة من المرتزقة . ثم يوهمون الناس بالقوة أو بالخديعة أن جملة هذه المخازى هى الدستور !

إن الدستور يا سيدى نظام فى ذاته صالح ؛ ولكنه فى مصر حق يراد به باطل ، أو انتخاب مزيف يؤدى إلى حكم مريح . والناس فى الشرق يعبدون ألفاظ الحرية والوطنية والدستور من غير فهم ، وفى الغرب يعبدون ألفاظ الديمقراطية والإنسانية والعدالة من غير إيمان . وعبادة الألفاظ كعبادة الأشخاص أولها جهالة وجمود ، وآخرها ضلالة وكفر !

لا ينجح الدستور يا سيدى إلا فى بلد يكون أهله جميعاً مؤمنين بالله أو مثقفين بالعلم !

نصيب قريتي من الثورة

(٢٠ نوفمبر سنة ١٩٥٢)

قريتى الصغيرة الفقيرة هى إحدى القرى الخمسين التابعة لمركز طلخا ؛ ومركز طلخا هو أوحد المراكز جميعاً فى خش النظام الإقطاعى وجوره . كل ما يملك فلاحه من أرضه أمتار ينام فوقها وهو حى ، وأشبار يرقد تحتها وهو ميت . أما ملاكه فهم آل طوسون ، وآل البدراوى ، ومحمد على ، ووحيد يسرى ، وسرسق ، ووزارة الأوقاف ! لذلك كانت جملة الأرض التى نزعها قانون الإصلاح الزراعى من كبار ملاكه ، ليوزعها على صغار زراعه ، اثنين وثلاثين ألف فدان فى السنة الأولى من سنى التوزيع الخمس ! وهذا الرقم الأولى الضخم يشعر ولا شك بالحياة الأليمة التى كان يحياها أولئك البائسون التعسون فى ظلال الأسرة العلوية الكريمة !

كانوا يعملون العام كله دائبين ليل نهار ، لا تختلف امرأة عن رجل ، ولا يتخلف صغير عن كبير ، ولا تفترق ماشية عن آلة . حتى إذا آتت الأرض الطيبة أكلها حصدوا القمح ، وضموا الرز ، وجمعوا القطن ، وقطعوا الذرة ، ذهب أولئك كله إلى المالك المرهوب ، إما عيناً فى مخازنه ، وإما نقداً فى خزائنه ! أستغفر الله ! لقد تدرك الرحمة أحياناً قلب الباشا أو الأمير ، فيترك للفلاح أو للأجير ، أرغفة من الذرة يتبلغ بها كل يوم ، وجلباباً من القطن يرتديه طول السنة ، وأرطالا من اللحم يتذوقها كل عيد ! أما نصيبه من ثمن قطنه ورزه ، فيقول له ناظر البدراوى : أخذناه لأن أباك أو جدك كان مديناً لنا فى الماضى ! ويقول له مفتش طوسون : حجزناه لأن إجارتك ربما تخسر فى المستقبل ؟ فإذا هم بأن يشكو ، حجز الناظر ماشيته عن الغيط ، ومحصوله عن البيت . وإذا جرؤ

على أن يحتج، أمر المفتش (مأمور البوليس) أن يعتقله أياما ليسلمه إلى جنوده فيصبِّحوه بالعصا ، ويمسّوه بالكرباج !

فى قرية من قرى هذا المركز البائس نشأت . وفى غمرة هذا البؤس الذى لا حد له ولا حيلة فيه رأيت الباشا كيف يطغى وينسى الله ، والمفتش كيف يبغى وينسى العدل ، والفلاح كيف يذل وينسى الحرية ، والأجير كيف يهون وينسى الحياة !

وفى كتابى (وحى الرسالة) فى مجلداته الأربعة وصفت مآسى هذه الأمة من الناس ، وهذه القرية من القرى ، وصفا كان مداده الدمع ، وكانت كلماته الأنين ! فإذا عرفت أمرهم على الوجه الذى عرفته ، وأدركت حالهم من الوصف الذى وصفته ، تبينت فى جلاء ويسر نصيبهم من نهضة الجيش . لقد كانوا أذلاء فعزوا ، وكانوا أجراء فملكوا . ثم كانوا أداة إنتاج لغيرهم فأصبحوا عامل استغلال لأنفسهم . وكانوا رعايا الباشا كالدواب فأصبحوا رعايا الدولة كالناس!

وجملة أمرهم أن الله انتقم لحرمانهم من الحارم ، وداول الأيام بينهم وبين الظالم ، فكانت البؤسى لمن بغى ، وكانت النعمى لمن صبر !

القرآن والدستور

(٨ ديسمبر سنة ١٩٥٢)

نشرت إحدى الصحف ذات يوم أن بعضاً من علماء الأزهر قد اجتمعوا ليستنبطوا مما شرع الله في الإسلام قوانين تحكم بها الدولة. فصادف هذا الخبر هوى فى نفوس قوم ونفورا فى نفوس آخرين. وهتف أتباع هؤلاء فى بعض الحفلات قائلين: القرآن دستورنا! ورد عليهم أتباع أولئك هاتفين: الدستور قرآننا! واستطار النبأ فى أجواء الأرض ففزع أصحاب الأموال فى أوربا، واستراب رجال الأعمال فى أمريكا، وقال مرضى الهوى أو الجهل منهم: نكسة الداء، ووثبة إلى الوراء! فلم يسع السياسيين إلا أن ينتفوا من هذا الخبر، ولا الأزهريين إلا أن يبرأوا من هذه التهمة!

أمر عجيب! إلى هذا الحد بلغ جهل الجهال بحكم القرآن فيصورونه هولة يفزعون بها الناس حتى أهله؟ إن كانوا من الذين يؤمنون بأنه من وحى الله فالله سبحانه لم ينسخه ولم ينسه، ولم يأت بخير منه أو مثله. وإن كانوا من الذين يزعمون أنه من وضع الإنسان فماذا يخشون منه وقد جربوه؟ لقد حكم الدنيا القديمة وهى همجية وفوضى، يتولاها الهوى، ويقودها الضلال، ويسوسها الجهل، فردها من الشرود المهلات، وأقامها على الطريق المؤدى، وأذاقها رخاء العيش المطمئن، وكفل لها من الحرية والعدالة والمساواة والكرامة ما كفل بعضه الدستور. وما الدستور؟ أليس هو فى حقيقته وجوهره معنى من معانى القرآن ينبثق عنه كما ينبثق الشعاع عن الشمس؟

أعطوا الدستور ذوى الرأى من الراسخين فى علوم الدين تجدوا قرآنا كأول

ما أنزل الله . وأعطوا القرآن أولى الرأى من المتضلعين من علوم القانون تجدوه دستوراً كآخر ما وضع الناس .

أما القرآن الذى تخشونه فليس قرآن الله ؛ إنما هو قرآن مسيخ فسره جهال الفقهاء على قدر ما فى عقولهم من قصور وزيغ ، وما فى نقولهم من خطأ وحشو ؛ فضيقوا اسعته ، وحددوا شموله ، وعوقوا تقدمه ، وزيفوا صحيحه ، وشابوا صريحه ، ووقفوا به عند عصر معين ، فلا يقبلون إلا قوله ، ولا يجيزون إلا فعله ، ولا يعلمون أن عموم الرسالة المحمدية يقتضى أن تساير الزمن وتجارى الطبيعة ، حتى لا ينقطع ما بينها وبين ركب الحياة .

وأما الدستور الذى تذكرونه ، فهو الدستور المهين العاجز الذى يرضى أن تقوم باسمه دكتاتورية حزب ، وأن يقضى على حكمه طغيان ملك . ثم لا يأنف أن يفسره عابث على هواه ، وأن يطبقه فاجر على مشيئته . فإذا لم يكن للدستور سند من روح الله يجعل الخروج عليه مروقا من الدين وفسوقا من الإيمان ؛ وإذا لم يكن للدستور حام من إرادة الشعب يعصمه من جور الحاكم وبغى السلطان ، كان ضرره أكبر من نفعه ، وعدمه خيراً من وجوده .

آمنوا بالقرآن تجدوا الدستور الحق ، وآمنوا بالدستور الحق تؤمنوا بالقرآن !

من عهد إلى عهد

(٥ يناير سنة ١٩٥٣)

بهذا العدد تدخل الرسالة في سنتها الحادية والعشرين فتدخل هي ومصر في عهد بادئ كله رجاء، بعد أن خرجت هي ومصر من عهد بائد كله شكوى.

كانت مصر في العام الماضي قد دب في حسها الوعي من طول ماوخزتها الأقلام وأرمضتها الآلام وقرعتها القوارع؛ فأدركت أن فوق عرشها ملكاً خليعاً جعل نصفه البهيمي للزنى والميسر والدعارة، ونصفه الآدمي للربا والنهب والتجارة؛ وأن على حكمها عصابة من مصاصي الدماء غايتهم السلطان والغنى، ووسيلتهم الطغيان والفساد؛ وأن على أرضها عدوا ثقيلا جثم على صدرها جثوم المقطم لا يخف ولا يتحلحل. يحتل مأواه بالقوة، ويأخذ قراه بالسيف، ويبسط ولايته على المضيف بالقهر، ويفرض حمايته على القنال بالقحة؛ فثار ثائر الشباب الجامعيين على الملك وبطانته فلطخوهم جهراً بالعار. وهاج هائج الأحرار المطهرين على الحكام فوصموهم صراحة بالخزى. وجاشت صدور الإخوان المسلمين على الإنجليز فآذنوهم فعلا بالحرب!

وكانت خيانة الأوغاد للجيش الباسل في الحرب الفلسطينية قد فعلت فعلها في نفوس قواده، فتقصصوا أثرها حتى وجدوا أقدامها القذرة تنسل من قصر عابدين، وتطوف سراً على أهلها في دواوين الوزارة وأواوين الإمارة ومواخير الفسق. ثم تمضي مقنعة بالجاه، محروسة بالنفوذ، محاطة بالتلصص، حتى تدخل على القوات المحاربة الغالبة بالهدنة الغادرة والأسلحة الفاسدة والأوامر الخادعة؛ فغلت صدور الضباط الشباب من الحمية والحفيظة، فأخذوا ذلك الملك الماجن من قفاه الغليظ وألقوه في البحر؛ وقبضوا على حاشيته الفاجرة

وطرحوهم فى السجن ، ولببوا الساسة المريبين وحجزوهم فى المعتقل ، وركلوا الموظفين المجرمين ورموهم فى الشارع !

ثم فتحوا أبواب الصلاح والإصلاح على عهد جديد مشرق النور خالص الطهر صادق العزيمة ، يرجون فيه ونرجو أن يقروا حياة مصر على الوضع الصحيح ، وأن يقيموا سياستها على النهج الواضح ، وأن يرفعوا بنيها إلى مقام الإنسان الحر المريد ، فيملكوا باسمه ، و ينزلوا على حكمه ، و يعيدوا أرض آبائه إليه ، و يردوا غلة أرضه عليه ، و يشعروه بأن له قولا يسمع ورأيا يطاع وحكما ينفذ .

والرسالة تدخل فى هذا العهد المبارك مع الداخلين ، بعد أن مهدت له عشرين سنة مع الماهدين . تدخل وهى راضية مغتبطة رضا من عمل فأثمر عمله ، واغتباط من أمل فتحقق أمله . لقد كانت فى ذلك العهد الفاسد تقف مع الهداة على الجادة تنظر و ينظرون بالأعين العبرى إلى القافلة المصرية وقد خدعها السبيل ، وأضلها الدليل ؛ فضلت ضلال القطيع لا راعى له ، وشردت شرود الهائم لا إدراك به ، فينادون ولا سميع ، ويأمرون ولا مطيع ، وينذرون ولا مستبصر ! وكان الوقت الذى أضيع فى الشرود ، والجهد الذى أنفق فى الهداية ، خليقين أن يلحقا القافلة بالركب العام ، و يدنيا الأمة من الغاية الجامعة .

ولكن الضال لا يهتدى حتى يعلم ، والجاهل لا يعلم حتى يعى . ولولا غفلة الساسة ما كان وعى الأمة . ولولا عبث فاروق ما كان جد الجيش .

ولم يكن فسوق الملك الخليع شرا كله ؛ فإن الله الذى يخرج الحى من الميت ، ويبنى السكون من الفساد ، ويخلق الترياق من السم ، قد جعل من سقوطه رفعة للشرق أدانيه وأقاصيه .

كانت سقطته عن العرش رجة فى جميع الأرض ؛ فتحت الأعين ، وجرأت القلوب ، وزلزلت الأوضاع ، فبرقت فى سورية بروق الأمل ، وانقشعت فى السودان غيوم الحذر ، ورعدت فى تونس ومراكش رعود الثورة .

* * *

كان الأدب فى العهد البائد صوراً متنافرة من القلق والملق والنفاق والتقية والجبن ؛ لأن الأديب لم يجد رعاية من الملك لأنه جاهل ، ولا عناية من الشعب لأنه غافل ؛ فاضطر إلى أن يهاوى أصحاب الحكم ليسلم ، و يصانع رجال السياسة ليغنم ، ويتملق دهماء الناس ليعيش . وكان الملك على جهله بالأدب وبعده عن الدين ، تنظم فى مدحه القصائد الغر ، وتحرر فى فضله الفتاوى البكر ، وتركب وزارة الأوقاف ونقابة الأشراف المركب الوعر لتجد لسليل الترك والفرنسيين نسبة مباشرة إلى الرسول العربى القرشى محمد بن عبد الله ! ولم يكن كل ذلك سبيل الزلفى إليه ولا النفوق لديه ، وإنما كان السبيل إليهما مهارة فى الصيد ، أو براعة فى القمار ، أو كفاية فى كسب المال ، أو لباقة فى جلب المرأة ، والناس على دين ملوكهم . والأدب يكون كما يكون الناس .

أما الأدب فى العهد البادىء فالمرجو أن يكون مستقلا كدولته ، حرا كأمته ، صريحاً كسياسته ، نقياً كطبيعته ، متسقاً كمجتمعه . والمظنون أن سيكون للعروبة أثر بالغ فى هذا العهد . وانتصار العروبة انتصار للأدب . فإن العروبة قوامها اللسانى اللغة والبيان ، وقوامها القلبى الحديث والقرآن ، فبازدهارها يزدهر ، وبانتشارها ينتشر ، وبخلودها يخلد .

أين المسلمون اليوم من الإسلام

(٢٣ يونيه سنة ١٩٥٢)

أصبح من المعلوم فى بدائه العقل الحر أن الدين الإسلامى هو الصورة الكاملة لشرائع الله ، والقوة المهذبة لقوانين الطبيعة . وضع فيه شارعه الأعظم وهو فاطر الأرض ، وواهب الحياة ، ومنزل الوحى ، أسس القواعد التى تكفل للعالم نظامه وسلامه ، وللمجتمع وحدته وقوته ، وللفرد سعادته وكرامته ، مهما يتطاول الأمد وتتغير الحال . ومَن غير الله جلت قدرته يفجِّر نور الهدى للأرض من غار مظلم موحش ، ويبجس نبع الحياة للناس من جبل مجدب وعر ؟ وهل كان لولا وحى الله فى غار حراء من جبل النور ، وفى مقدور أمى نشأ ربيب اليُتْم والعُدم فى قرية جاهلة من قرى الحجاز المقفر ، أن يعلن فى أوائل القرن السابع حقوق الإنسان وحرياته ، وهى الحقوق التى أعلنت بعضها فرنسا فى أواخر القرن الثامن عشر بعد الثورة ، وأعلنت بعضها أمريكا فى أواسط هذا القرن بعد الحرب !

وما كان لبشر سليم الفطرة أن يستريب فى أن الدين الذى أكمله الله لنبيه ، ورضيه لخلقه ، ونسبه إلى نفسه ، هو وحده مصدر الخير المحض ، ومظهر الكمال المطلق ، وسبيل الغاية التى يجد عندها ابن آدم المكدود المجهود نفَسًا من كربه ، وراحة من تعبه ، وسكينة من اضطرابه ؛ تلك الغاية التى كان يراها ، منذ هبط العاصى من الجنة ، حداً لشقائه ونهاية لألمه ، فكان يتشوف إليها من وراء الغيوب ، ومن خلال القرون ، فلا يراها ، لا فى الحروب التى شن ، ولا فى النظم التى سن ، ولا فى الشرائع التى اعتقد ، حتى أراد الله للاغب الضال أن يهتدى ويستريح ، فكان محمد هو المنار ، وكان الإسلام هو المرفأ !

إن من المبادىء التى ميزت الإسلام التوحيد وهو سبيل القوة ، والإخاء

وهو سبيل التعاون ، والمساواة وهى سبيل العدل ، والحرية وهى سبيل الكرامة ، والبر وهو سبيل المحبة ، والسلام وهو سبيل الرخاء . وكل هذه المبادىء معلومة من القرآن بالنصوص الصريحة ، فلا موضع فيها لتأويل أو تحميل أو تعسف . وهى كما ترى تضمن أفضل ما فى الديمقراطية ، وأعدل ما فى الاشتراكية ، وأجمل ما فى المدنية ؛ فهى حرية أن تصلح ما فسد من أمور الناس ، وأن تقيم ما اعوج من نظام الدنيا . وقد كانت كذلك يوم كان لحماتها دولة ، ولدعاتها صوت ، ولمعتقديها يقين . فلما دالت الدولة ، وخشع الصوت ، وأراب اليقين ، تمزق المسلمون قطعانا فى فدافد الأرض ، لا مرعى يجود ، ولا راع يذود ، ولا حظيرة تؤوى ثم كانوا بتخلفهم عن ركب الحياة حجة على الإسلام فى رأى السفهاء من مرضى الهوى أو الجهل ، فصموا عن دعائه ، وعموا عن ضيائه .

أين المسلمون اليوم من إسلام عمر وخالد فى الحجاز ، والرشيد والمأمون فى العراق ، والناصر والحكم فى الأندلس ، والعزيز والحاكم فى مصر ؟ ألم يبلغ هؤلاء بفتح الجيش وفتوح الدين وفتوح العلم وفتوح الخلق من السلطان والعمران ما لم تبلغه أمة من قبل ، فنزل على حكمهم الدهر ، ودخل فى ملكهم العالم ؟

إن الدين الذى رفع هؤلاء السادة والقادة إلى الذروة ، وضمن للخلافة فى عهودهم العزة والمنعة والقوة ، لا يزال هو الدين الذى لا يغيره الزمن ، ولا تجافيه الطبيعة ، ولا يعاديه العلم ، ولا تنسخه المذاهب ؛ وإنما الأمر فيه كما قال الرسول صلوات الله عليه : « مثل ما بعثنى به الله من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا ، كان منها طائفة طيبة قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله به الناس ، فشربوا منها وسقوا وزرعوا . وأصاب طائفة منها أخرى ؛ إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ »

والمسلمون اليوم هم هذه القيعان ، تحدرت إلى ما ركد فيها من سلاسل الوحى

عكارات المذاهب الطارئة ، ورواسب العقائد الخاطئة ، فكان منها ذلك الخلط العجيب الذى يعوق عن السعى ويمنع من النظر و يصد عن الفكر . ثم كان من أثره أن نرى اليوم مواطن العروبة والإسلام : مراكش والجزائر وتونس وليبيا ومصر وفلسطين وسورية والعراق و إيران وباكستان والصين وأندونيسيا وسائر جزر الهند الشرقية ، قد أصبحت نهباً مقسما بين دول الاستعمار يتنازعون فيه ، و يتقاتلون عليه ، وليس من أهلها من يقول فيسمع قوله ، أو من يفعل فيخشى فعله ، وإنما هم أشياء كثروة الأرض ، خسارة على المغلوب وربح للغالب .

لقد تغيرت عقائد الإسلام الحرة النقية فى نفوس الكثرة من المسلمين كما يتغير الشراب الخالص فى الإناء القذر ! انحلت الأخلاق فلا تماسك فى قول ولا فعل ، وتقاطعت القلوب فلا تتواصل فى دين ولا وطن ، واستأثرت النفوس فلا تعف فى صداقة ولا نسب ، واستبهمت المذاهب فلا تستبين بنجم ولا شمس ؛ وأصبحت غاية الدين فى رأيهم مظاهر من العبادة لا تخدع ، وظواهر من البدع لا تنفع ، وأقاويل من الوعظ لا تدل .

من يصدق أن المسلمين اليوم يفقهون القرآن حق الفقه ، وهو الكتاب المبين الذى يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويهديهم إلى صراط مستقيم ، و كل انتفاعهم منه أن يحملوه للحفظ كما تحمل التمائم ، وأن يقرءوه للبركة كما تقرأ الأوراد ، وأن ينشدوه للطرب كما تنشد الأغانى ؟

من يصدق أن المسلمين اليوم يقدُرون الرسول حق القدر ، وهو الذى قال فيه أصدق القائلين . « وإنك لعلى خلق عظيم » وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما » وكل ما يمدحونه به أن يرفع المؤذن عقيرته فى الأذان بالصلاة على « مليح الوجه » وأن يتغنى منشد سيرته المطهرة بحمرة خديه وسواد عينيه ، كأن الصباحة والوسامة والرواء هى كل ما يمتاز به محمد نبى

التوحيد والوحدة ، ورسول السلام والمحبة ، وداعى الحرية والكرامة ! لقد أنف عبد الملك بن مروان أن يمدحه ابن قيس الرقيات بقوله :

يأتلق التاج فوق مفرقه   على جبين كأنه الذهب

فقال له : وماذا من الفضل فى تألق التاج ونصاعة الجبين ؟ هلا مدحتنى بمثل ما مدحت به مصعب بن الزبير إذا تقول فيه :

إنما مصعب شهاب من الله   تجلت عن وجهه الظلماء

ملكه ملك عزة ليس فيه   جبروت منه ولا كبرياء

ثم حرمه عطاءه العمر كله . والفرق بين فضل الرسول وفضل الخليفة كالفرق بين الجبل والذرة ، أو بين الشمس والشرارة !

من يصدق أن المسلمين اليوم يؤمنون بالإسلام وفيهم من يؤمن بالشيوعية وأهلها يزعمون أنهم أعلم من الله بأحوال خلقه ، وأعدل منه فى تقسيم رزقه ، ثم يقولون بكل وسيلة من وسائل القول : كل شىء مشاع ، وكل أمر مباح ، وكل إرادة طليقة ! والمسلمون يسمعون هذه الأضاليل تبث فى الإذاعة ، وتنشر فى الكتب وتردد فى المجالس ، فيرهفون لها سمع الغبى ، وتدفعهم شهوة الإباحية إلى أن يشتروا الضلال بالهدى ، ويستبدلوا الخبيث بالطيب ، ويؤثروا أن يكونوا كالذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم .

والعلة فى كل أولئك هى الجهل التام والعلم الناقص . فلو أن المسلمين اعتقدوا ربهم اعتقاد المؤمن ، وفقهوا دينهم فقه المقتنع ، واتبعوا رسولهم اتباع المصدق ، لما أصبحوا فى الحال التى تنبأ بها الرسول صلوات الله عليه إذ قال : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها ، ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن » . فقال قائل : أومن قلة نحن يارسول الله يومئذ ؟ قال : لا ، إنكم حينئذ لكثير ؛ ولكنكم غثاء كغثاء

السيل ! فقال قائل : وما الوهن يارسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهة الموت » .

* * *

« ألم يأن للذين آمنو أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ؟ »

بلى ، والحمد لله قد أنى للمؤمنين أن يكشفوا عن العيون غشاوة الباطل ، ويجلوا عن القلوب صدأ الغفلة ، فيبصروا الطريق ويستبينوا الغاية . وإن فى يقظة الوعى الإسلامى التى بدت فى تعاطف المسلمين على البعد ، وتناصفهم فى القرب ، وتحالفهم على الأحداث ، لأشعة من تباشير الصباح ، قبلها الليل المظلم ، وبعدها النهار المشرق . ولعل الأزهر وحده هو الذى يملك أن يقوى هذا الوعى ويوجه هذا الشعور إذا عمر الصدور بالإيمان الخالص عن طريق التعليم فى المدارس ، والوعظ فى المساجد ، والنشر فى الصحف ، والحديث فى الإذاعة ، والنظر قبل ذلك كله فيما يقرأ المسلمون من كتب ، وفيما يقمش الموهون من بدع ؛ فإن تنقية الدين مما علق به ودس فيه تكشف للناس عن جوهره وتصلهم بروحه . والقتام يحجب الشمس ، والقذى يفسد الشراب . وإن الماء إذا راق ساغ ، وإذا ساغ روى .

مهرجان الحرية

(٢٦ يناير سنة ١٩٥٣)

تحتشد مصر اليوم في عاصمتها القاهرة لتحتفل بذكرى يوم الحرية بعد نصف عام ! ويوم الحرية أو يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ هو يوم مصر الأوحد في تاريخها العميق في الأتوقراطية ، منذ أن رُفع (مينا) إلى العرش ، إلى أن خلع (فاروق) من الملك .

كان الشعب المصري طيلة هذه القرون الاثنين والأربعين التي مرت على وجوده في هذه الأرض ، أشبه بقطيع من السوائم ، لا إرادة له في نفسه ، ولا قيادة له من جنسه ؛ وإنما كان يتولى قيادته رعاة طغاة ، سموا أنفسهم آلهة أو ملوكا أو ولاة . سخروه ليظلموه ، واستغلوه ليحرموه . ولم تعصمه هداية الدين من عبث خليفة كالحاكم ، ولا مدنية العلم من فجور ملك كفاروق ؛ حتى اجتمع على إذلاله واستغلاله في عهد الأخير ، مالم يجتمع عليه في دهره الطويل ، من سلطانه العواهر من نساء البلاط ، وطغيان الفجار من رجال الحكم ، وبغى المترفين والمسرفين من الأمراء والإقطاعيين رواد الخنا وعباد المنكر . فعصفت النخوة في رءوس الأحرار من قادة الجيش ، فهبوا هبوب العاصفة الخيرة المدركة : صواعقها الماحقة للقشور الطافحة بالرذيلة ، وللكراسي الغائصة في الوحل ؛ ورياحها العاتية للجذوع التي نخرها السوس ، وللفروع التي أذواها الخريف ؛ ورعودها القاصفة للآذان التي أصمها الهوى ، وللبصائر التي أعماها المال ؛ وبروقها الوامضة للقلوب التي أظلمت من اليأس ، وللنفوس التي زاغت عن الطريق ؛ وأمطارها المحيية للثرى الذي جف فلا ينبت ، وللشجر الذي ذوى فلا يثمر .

وهكذا عاشت مصر فى خير هذه العاصفة المدمرة المصلحة ستة أشهر اندفعت فيها إلى الإمام اندفاع القوة المضغوطة المكظومة تنفجر انفجار البارود فتمحق ، وتنطلق انطلاق السهم فتلاحق !

فإذا احتشدت مصر كلها بطبقاتها وطوائفها لهذا المهرجان فإنما تحتشد لتحتفل بتحررها من رق أغرق فى القدم حتى طمس فى نفوسها معانى الحرية والعزة والاستقلال والكرامة .

وشتان بين هذا المهرجان ومهرجانين أقيما من قبل : مهرجان يوم تزوج المخلوع بإرادة شعبه ، ومهرجان يوم تزوَّج بإرادة قلبه . كان هذان المهرجانان من صنع السيادة والقوة ، أنفقت فيهما مئات الألوف من أموال الأمة لتغرق القصور الملكية فى القصف واللذة ، وتمتلىء الخزائن الملكية بالذهب والماس ! وافترصت الحكومة (الملكية) هذه الفرصة لتنحنى أمام الطاغوت انحناءة العبودية حتى يمس أنفها الأرض ، فحشدت الشعب فى شوارع العاصمة ليهتف وهو جوعان ، ويرقص وهو عريان ؛ وتركته يهيم فى الطرق والميادين هيام القطط الجياع والكلاب الضالة ؛ لا يجد فى نفسه فرحة المدرسين ولا متعة المدعوين ولا بهجة العرس !

أما هذا المهرجان فمن صنع الطبيعة والأمة . أقامه الخارجون من ظلام الظلم ، والناجون من إسار الرق ، كما تقيم الطبيعة مهرجان الربيع لخروجها من ظلام الشتاء ونجاتها من همود الأرض . فكما يورق الشجر ويزهر ، وينضر الزهر ويفوح ، وتمرح الطير وتهزج ، ترى الشعب من ذات نفسه يبتهج ويفرح ، ولإطراب نفسه يغنى ويرقص ، ولإطراء نفسه ينشد ويهتف !

ذلك لأنه بات ذات ليلة ثم أصبح فإذا هو صاحب العرش وصاحب الجيش وصاحب الحكم وصاحب الثروة ! نام وهو لا شىء ، ثم استيقظ وهو كل شىء !

لقد استطاع فى هذه اللحظة القصيرة من عمره الأطول أن يضع هذا النير الثقيل عن كاهله الواهن بعد أن مكن له الرق المزمن بين اللحم والعصب !

كان قد ألف نير العبودية كما يألف الثور الذلول نير المحراث فلم يفكر فى الانعتاق منه ؛ إلا مرة واحدة حاول أن يفلت فيها من قيده فعجز . كان هذا النير فرعاً غليظاً من هذه الشجرة الملعونة درَّعه الإنجليز بالحديد والذهب ، فشق على عرابى الثائر الأول أن يحطمه ، ثم عظم وضخم بفضل الأفظاظ الغلاظ من أولى الأمر فى عهد الخليع الرقيع حتى رزحت الكواهل وخرت الأعناق ، وحسب الناس حتى المتفائلون أن الليل سرمد ، وأن الرق خلود ، فقروا على الضيم واستكانوا للهُوُن . وكادت مصر كلها تسقط بسقوط فاروق لولا أن نبه الله للخطر رهطاً اصطفاهم من رجال القيادة ، فنفخوا فى الصور فنهض الجيش وانبعثت الموتى . وقاد الشعب ضباط الجيش الأحرار فى معركة التحرير والتطهير والتعمير ، فحرروا الأمة من النير الباهظ ، وطهروا الوطن من الفساد الشامل ، وعمدوا إلى أوكار الأفاعى وأجحار الذئاب فقوضوها على الأذى والجريمة . ثم فتحوا أبواب الرزق المحتكر أو المغتصب فتدفق على أهله المحرومين منه المكدودين فيه . ثم لخصوا دين الله فى ثلاثة أمروا بها ، وهى العدل والإحسان والمؤاخاة ؛ وثلاثة نهوا عنها ، وهى الفحشاء والمنكر والبغى ؛ وثلاثة عملوا لها ، وهى الاتحاد والنظام والعمل . ثم جعلوها كلها مبادىء (لهيئة التحرير) التى أعلنوا ميلادها اليوم فى مهرجان الحرية و (ميدان التحرير) !

فمن حق الشعب إذن أن يقيم هذا المهرجان العظيم مزهواً بجهاده ، فخوراً بقواده ، معبراً بهتافه المرتفع ، وتصفيقه المدوى ، وحماسه المتقد ، وسروره الدافق ، عن اطمئنانه الواثق إلى حاضره المستقر ، وعن أمله الفسيح فى مستقبله المشرق .

الرسالة تحتجب !

(٢٣ فبراير سنة ١٩٥٣)

في الوقت الذي كانت (الرسالة) تنتظر فيه أن يحتفل أصدقاؤها وقراؤها وأولياء الثقافة والصحافة في وادي النيل ، وزعماء الأدب والعلم في أقطار الشرق بانقضاء عشرين سنة من عمرها المبارك المثمر ؛ وفي الوقت الذي أشرق فيه على مصر صباح الخير بثورة الجيش المظفر ، بعد ليل طال في الظلام ، وعرض في الضلال ، وعمق في الهول ، فاسفرّ وجه العيش ، وافترّ ثغر الأمل ، وشعر كل مصري في ظلال العهد الجديد أن وجوده إلى سمو ، وأن عمله إلى نمو ، وأن أمره إلى استقرار ؛ نعم في هذا الوقت الذي نشأ فيه لتوجيه الإرشاد وزارة ، ولتنمية الإنتاج مجلس ، ولتعميم الإصلاح خطة ، تسقط (الرسالة) في ميدان الجهاد الثقافي صريعة بعد أن انكسر في يدها آخر سلاح ، ونفد من مزودها آخر كسرة ؛ فكأنها جندي قاتل اليهود في فلسطين على عهد فاروق ، أو فدائي جاهد الإنجليز بالقناة في حكومة فاروق ! ولكن فاروقا دال ملكه وزال حكمه ، فبأي سبب من أسباب الفساد يؤتىَ المجاهد من جهة أمنه لا من جهة خوفه ، ويقتل بيد شيعته لا بيد عدوه ؟

تموت الرسالة اليوم في ضجة من أناشيد النصر في مصر ، وأهازيج الحرية في السودان ، فلا يفطن إلى نزعها هاتف ، ولا يصغي إلى أنينها منشد ! ومن قبل ذلك بشهر ماتت أختها (الثقافة) وكان الناس يومئذ في لهو قاصف من مهرجان التحرير ، فلم تبكها عين قارىء ، ولم يرثها قلب كاتب ! كأن عشرين سنة للرسالة ، وست عشرة سنة للثقافة قضتاها في خدمة الأدب والعلم والفن والإسلام والعروبة لم تهيىء لهما مكاناً في الوجود ، ولم تنشىء لهما أثراً في الخواطر ! وكأن

هاتين المجلتين اللتين أنشأتا فى أدب العصر مدرستين نشئ فيهما جيل ، وابتدأت بهما نهضة ، واجتمعت عليهما وحدة ، لم تكونا إلا ورقاً مما ينشر فى الطريق للاعلان ، يجىء به الموزع وتذهب به الريح !

وما أحب أن أحمل تبعة ما أصاب الرسالة والثقافة على زهادة الناشئين فى الأدب الجد ، ولا على فشل المعلمين فى تعليم القراءة ؛ فإنا اخترنا هذا النوع من الصحافة ونحن نعلم مايعترضه من عوائق ، وما يكتنفه من مكاره ، أقلها هذه الأمية المدرسية التى تقنع من الثقافة (بفك الخط) وقشور العلم ، فلا تهيىء المصاب بها إلا للقراءة السهلة الضحلة ، ليرى نكتة تملأ فمه بالضحك ، أو صورة تدغدغ جسده بالشهوة !

اخترنا هذا النوع من الصحافة المجاهدة المستشهدة ، ووقفنا بالرسالة على الأعراف بين آخر النقص وأول الكمال ، نأخذ بيد الأدنى ليصعد ، ونثبت قدم الأعلى ليستمسك ؛ ثم ندفع المرتفع صعدا فى السماء ليكون باستمداده أقرب إلى الحق المطلق والخير المحض والجمال الكامل .

وبحسبنا أن يصحبنا فى هذا الطريق من تهيئهم نظرهم السليمة لبلوغ الغاية منه ، وهم بحكم الندرة فى الكمال والكرم قلة . ومن السهل القريب أن تصلح القلة لتصلح الكثرة ، وأن ترفع الخاصة لترفع العامة . وليس وراء القلة مال يبتغى ولا جاه يرتجى ، وإنما سبيل المال والجاه لمن أرادها ، العامة يستميلها بالتهريج ، والسياسة يستغلها بالدجل ، والحكومة يستدرها بالملق . والعدة إلى ذلك يسيرة المنال : حنجرة صلبة تخطب ، ويراعة مداهنة تكتب ، ونية فاسدة تملى ! ولو أرادت (الرسالة) زهرة الحياة الدنيا لعرضت ضميرها للبيع وقلمها للايجار . ويومئذ تتحول أكداس الورق فى مطبعتها العجيبة من أوراق طبع إلى أوراق نقد !

ولكن الله الذى حبب فى سبيله إلى المجاهد الأول الاستشهاد وليس فى مزوده

إلا حفنة من سويق أو قبضة من تمر ، حبب إلى (الرسالة) الجهاد في الميدان الجدب الموحش ولا عدة لها إلا الصدق والصبر والزهد ، لتظفر بنصر المجاهد إذا فاز ، أو بأجر الشهيد إذا قُتل !

إنما التبعة في خذلان الرسالة والثقافة على الحكومة بوجه أعم ، وعلى وزارة التربية والتعليم بوجه أخص .

كانت الحكومات الحزبية لا رحمها الله تخاف ولا تختشى . كانت تبذل العون في صوره المختلفة للمجلات التي تعارض لتسكت ، وللصحف التي تؤيد لتقول . أما الصحف التي لا تملك لها نفعاً ولا ضراً في سبيل الحكم والغنم ، فكانت لا تلتفت إليها إلا كما تلتفت إلى الشعب المسكين : تأمره ليطيع ، أو تسخره ليعمل . وما كانت طاعته أو عمله في رأيها إلا واجباً مفروضاً لا شكر عليه ولا أجر له !

ومن عدلها الذي أخجل عدل عمر أنها أرسلت إلى الرسالة مأموز الضرائب الذي ترسله إلى الجرائد العظمى ، والمجلات السياسية الكبرى ؛ فلما رأى إيرادها ثلاثة أرقام وربحها رقماً أو صفراً ، أخذه الدهش ، وملكه العجب ، وقال بلهجة المستنكر : كيف يكون إيراد المصور وأخبار اليوم وروز اليوسف كذا متعددة ، ويكون إيراد الرسالة كذا واحدة ؟ ! لابد أن يكون السجل ناقصاً والدفاتر مزورة ! ورفض المأمور الذكى الدقيق الوثائق وعمد إلى التقدير الجزاف ، فصال وجال ، وتخيل ثم خال ، وفرض فيما فرض أن في كل عدد من أعداد المجلة خمسين إعلاناً على التقدير الأقل ، أجرتها في الأسبوع كذا ، وفي السنة كذا . فلما نبهته عيناه اللتان في رأسه إلى أن كل عدد لا يزيد ما فيه على إعلانين في الواقع ، أمرهما ألا تدخلا فيما لا يعنيهما ! ومضى بسلامة الله يكره القواعد الأربع على أن (تعمل له حسابا) كما فكر وقدر ، حتى بلغت جملة ما على الرسالة

لمصلحة الضرائب : (٢٤٨٥٥) جنيها في سبع سنوات ! وهالت أرقام هذا التقدير (لجنة التقدير) فخفضتها إلى (١٢٦٠٧) بالتقدير الجزاف أيضاً . ثم حجزت على المطبعة والدار ، وأمرتنا بتنفيذ هذا القرار ! ولما لجأنا إلى القضاء عوقه محاموها سنتين عن الفصل ، وما زالوا يعوقونه بالتأجيل العابث ، والمصلحة لا تكترث ولا تهتم ما دامت تطالب وتهدد ، والممول يسارع ويسدد !

ثم كانت الحكومة تبعث إلى الرسالة ببعض الفتات من إعلانات الوزارات في حدود الفائض من الصحف المؤيدة . فلما نقصت الموارد وضاقت الميزانية قصوا الأطراف الزوائد من (المصروفات) فكان منها على زعمهم نصيب المجلات الأدبية !

أما التبعة التي على وزارة التربية والتعليم خاصة فهي أثقل من أن يحملها ضمير مسئول . كانت هذه الوزارة ولا تزال تعين المدارس الحرة ، وتمون المكتبات العامة ، وتمول الفرق التمثيلية ، وتدير الجامعة الشعبية ، وتعنى بألوان الثقافة على الجملة . ولكنها — واعجبا — لم تدرك إلى اليوم أن المجلة الأدبية الجدية مدرسة متنقلة ، تدخل كل مكان في أي بيئة ، وتعلم كل إنسان في أي سن ، وتفعل ما لا تستطيع أن تفعله الوزارة نفسها من إحياء اللغة ، وإنهاض الأدب ، وتبسيط العلم ، وتعميم الثقافة ، وتوجيه الرأي ، وتأليف القلوب ، وتوحيد العرب ، والسفارة بين مصر وأقطار العروبة ، والتمكين لزعامتها الفكرية في بلاد الشرق . فلو أنها أدركت ذلك لأعانت المجلات الأدبية على أداء رسالتها ببعض ما تعين به معاهد التعليم ومسارح التمثيل ومراكز الثقافة ؛ ولكنها — وأسفا — لم تدرك منذ العام الماضي إلا أن اشتراكها في خمسمائة نسخة لمدارسها ومكتباتها من الرسالة والثقافة ، هو الذي أثقل كفة المصروفات في الميزانية التعليم فألغته لتعتدل الكفتان ! وبهذه القشة المباركة قصمت ظهر البعير !

كانت الرسالة منذ فحش غلاء الورق ، وفدحت نفقات الطبع ، تكفى نفسها أو تخسر قليلا . وكنا نواجه هذه الحال بالتعفف والتقشف والصبر فتنساغ مرارتها أو تخف . فلما شاءت الضرائب ألا تعقل ، وأرادت الحكومة ألا تعلن ، وقررت وزارة التربية والتعليم ألا تشترك ، أخذت الخسارة تنمو وتطارد حتى بلغت فى العام المنصرم ألفا ومائة وعشرين جنيها . فرأينا فى مطلع هذا العام أن نقوى الرسالة لتصمد ، وأن نعيد (الرواية) لتساعد ، فإذا بالخسارة تتسع ، وبالطاقة تضيق ، وبالأزمة تشتد ، وبالأمل يضعف ؛ فلم نجد بدا من الإذعان لمشيئة القدر !

لقد قلنا يوم بلغت الرسالة عددها الألف أو عامها العشرين : « إنا نطمع فى فضل الله أن تزيد الرسالة قوة فى عهد مصر الجديد . وما تسأل الرسالة العون إلا من الله ، فقد عودها جل شأنه ألا تفزع إلا إليه فيما يحزب من أمر وفيما ينوب من مكروه . ولعل السر فى بقائها إلى اليوم على ضعف وسيلتها وقلة حيلتها ، أنها عفت عن المال الحرام فلا تجد لها اسما فى (المصروفات السرية) ، ولا فعلا فى المهاترات الحزبية ، ولا حرفا من الإعلانات اليهودية .

« وإذا لم يكن للفضيلة رواج فى عهد غرق فيه (القصر) فى الفحش والمنكر والبغى والاغتصاب والاستبداد والقتل ، وارتطمت فيه (الحكومة) فى الاختلاس والغش والخيانة والرشوة والمحاباة والختل ، فإنا لنرجو أن يكون لها من السيادة والفوز نصيب فى عهد يتولى الأمر فيه بإذن الله جمال عبد الناصر وصحبه » .

ولكن القضاء غالب . والرجاء فى الله أولى ، ولكل أجل كتاب .. ولكل سافرة حجاب . ولكل بداية نهاية !

لماذا كانت وحدة الأدب العربي القصيدة

ووحدة الأدب الغربي القصة ؟

لايكاد النقد العربي يعرف من فنون القول غير الشعر . هو مادة تحليله وتمثيله ، وهو موضوع موازنته وتفضيله ، وهو المفهوم الأول من لفظ الأدب . فمن لم يكن من الأدباء شاعراً غض ذلك من أدبه ونقص من كفايته . وفي رأي البديع الهمذاني أن الجاحظ على تفوقه في الرسائل والمقالات والقصص قد انحط عن مقامه في الأدب اضعف شعره . والجاحظ نفسه وهو أمير الكتاب في عصره ، لم يرو في كتابه (البيان والتبيين) إلا الشعر وما شاكله من الخطب . وعلوم البلاغة الثلاثة إنما كان سداها ولحمتها الشعر ، فنماذجها مستمدة منه ، ومباحثها دائرة عليه . وقدامة بن جعفر يضع كتابه (نقد الشعر) ثم يرى أن النثر في عصره قد رسخت أصوله وتشاجنت فروعه وتنوعت ثماره ، فيضع كتابه (نقد النثر) ، ولكنه يتحدث في ثلاثة أرباعه عن الشعر . والنقاد المعاصرون ومؤرخو الأدب الحديث يرون أن النثر قد استبد بنتاج القرائح واستقل بثمار الفكر ، ولكنهم لايزالون يرون أن الأدب هو الشعر قبل أن يكون شيئاً آخر . فهم يتخذونه مقياسا للنهضة بين عصر وعصر ، ويجعلونه أساسا للمفاضلة بين أديب وأديب . وهم يقيمون عليه أميرا من مصر أو من غير مصر ، ويتتبعون تطوره في الوطن وفي المهجر . والشعر منذ أواخر القرن الخامس إلى أوائل القرن العشرين ظل محصورا في التعبير عن نفس الشاعر لا يتعداها إلى تحليل التاريخ في الملحمة ، أو تمثيل البيئة في الرواية ، فظلت وحدة التداول الأدبي في بلاد الشرق هي القصيدة .

نجد ذلك في الأدب العربي ولا تكاد تجد نظيره في الآداب الأخرى

فى أدب الإغريق تساوت كفتا النظم والنثر فى المحاورات والخطب والمسرحيات والملاحم . وفى أدب الرومان رجحت كفة النثر فى الخطابة والفقه والتشريع والسياسة . وفى أدب الفرنج خلص الشعر لتصوير المجتمع فى الملاهى والمآسى ، وأمعن النثر فى خلق دنيا من الأشخاص والحوادث ، فأصبحت وحدة التداول الأدبى فى بلاد الغرب هى القصة . فماذا نعلل سلطان الشعر وتأصله فى القصيدة هنا ، وسلطان النثر وتنوعه فى القصص هناك ؟

نعلل سلطان الشعر على العرب بأن اللغة العربية بحلاوة جرسها وعذوبة لفظها وتلاؤم صيغها وتركب جملها مقاطع قصيرة وأخرى طويلة كانت بطبيعتها لغة شعر . ومن هنا سهل على الصرفيين أن يضبطوا كلماتها بموازين لا تشذ ، وتسنى للعروضيين أن يقيدوا مقاطعها بتفاعيل لا تختلف . وهذه الخاصة الشعرية التى تميزت بها العربية إنما جاءتها من طبيعة العرب أنفسهم ، فقد آتاهم الله من سلامة الذوق ولطافة الحس وصفاء النفس ما ساعدهم على تهذيب لغتهم بالإعلال والإبدال والتسكين والحذف . ثم ساعدتهم هى فى دورها على أن يأتى كلامهم العالى كله منظوماً أو مسجوعاً أو مزدوجاً فى رجز يحمس أو قصيد يؤثر أو حكمة تبقى أو مثل يسير . وقد حرمتهم البداوة والانعزال بعد النظر وعمق التفكير وطول البحث ، فاكتفوا بالنظرة الخاطفة والفكرة العامة والإشارة الدالة ، يعبرون عنها بجمل مركزة توجه إلى الأذن فلابد لها من الموسيقى لتسوغ ، وإلى الحافظة فلابد لها من الإيجاز لتحفظ . ثم تقرأ هذا الكلام فلا تجد الضوء الذى يعم ، ولا الحرارة التى تدوم ، وإنما تجد فيه لمعات من الذهن الموهوب تومض كشرر الزند ثم لا تلبث أن تنطفىء .

ومن هذا النتاج الفنى المحفوظ اجتمع للعرب فى القرن السادس للميلاد جملة ضخمة من الأدب المنظوم ، عكف على حفظها الرواة ، وانقطع لدرسها الأدباء ،

وأثاب على جمعها الملوك ، وجعلها النحويون الحجة ، لصحة القواعد وبلاغة الأسلوب ، واعتدها البيانيون الطريقة التي تحتذى ، وسموا تسلسلها من عصر إلى عصر عمود الشعر .

ذلك إلى أن الخلفاء والأمراء ورثوا عن أوليهم حب الشعر وشهوة المديح ، فاحتفلوا له في المجالس ، وشجعوا عليه بالجوائز . ولم يجد الشعراء العيش ميسوراً بغيره ففرغوا له وعاشوا . ثم كان النثر الفني قد تأخر ظهوره إلى القرن الثاني الهجري حين نضجت العقول وأثمرت العلوم فمكن تأخره للشعر أن يستقل بمفهوم الأدب . وكان أول من حمل لواء النثر الفقهاء والمتكلمون فحددوا معاني الألفاظ ، وقيدوا إطلاق الكلام ، وعناهم من الأسلوب الدقة والوجازة والوضوح قبل أن يعنيهم منه الأناقة والطلاوة والرمز . ومتون العلوم وشروحها في جميع اللغات نماذج للأسلوب المبرأ من الحشو والفضول والإبهام . والقانون المدني الفرنسي آية الآيات في هذه الصفات حتى كان (بلزاك) شديد الإعجاب به ولوعاً بإدمان النظر فيه . ولقد صرّف العلماء النثر في تأليف الكتب وتحرير المقالات وتدبيج الرسائل ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يملأوا به الأسماع لتعذر النسخ وصعوبة النشر ، فانحصر النثر في مدارس العلماء والدعاة ، كما انحصر الشعر في مجالس الخلفاء والسراة . وظلت الصناعتان من هم الخاصة : أرباب السيف يستهلكونها المجد والشهرة ، وأرباب القلم ينتجونها للمال والحظوة . ولكن النظم كان أشير الصناعتين على الأفواه لحسن إيقاعه وسهولة حفظه وميل النفوس إليه بالطبع أو بالوراثة . ومما عاق النثر عن اللحاق به أن الكتاب خضعوا الهوى الباطن لموسيقى اللغة فسلكوا بالكتابة طريق الفن للفن ، فآثروا السجع ولم يؤثروا الترسل ، وجاروا الصنعة ولم يجاروا بالطبع ، وكتبوا المقامة ولم يكتبوا القصة ومن أجل ذلك ازدرى الأدباء فن القصص ورغبوا عنه استكباراً وأنفة .

وجرى علماء البيان والنقد على أن يخرجوه من دائرة الأدب ويجعلوه من عمل العامة حتى رد إليه اعتباره فى العصر الحديث .

ذلك تعليل سلطان الشعر على أدب العرب . أما تعليل سلطان القصص على أدب الفرنج فهو أن أدبهم بنى على أسس من أدب الإغريق . فالأدب الإغريقى للادب الفرنجى بمثابة الأدب الجاهلى للأدب العربى . وأظهر الخصائص فى أدب اليونان فن الحكاية بضروبه المختلفة من ملاحم ومسرحيات القصص ، لأنه أدب اجتماعى ديمقراطى يجمع بين الملوك والسوقة فى تمجيد الآلهة والأبطال وترفيه الشعب والعامة . وقد ورث الرومان عن اليونان هذه الخصائص وورثوها الأمم الأوربية فضلا عن اكتسابهم إياها بالتلقين والمحاكاة .

ولقد كان لوجود المسرح الوثنى عند الإغريق وتأسيس المسرح المسيحى على أنقاضه عند الفرنج أثر قوى فى توجيه الأدب الأوربى نحو القصص بنوعيه المنظوم والمنثور . ثم اتخذ الملوك والأمراء المسارح فى القصور ، وأقام الممثلون والشعراء أمثالها فى الساحات والدور ، واستتبع ذلك تعضيد الخواص لوضع الروايات ، وحرص العوام على شهود التمثيل . ثم اخترعت المطبعة وازدهرت الحضارة وانتشرت الثقافة وكان حب القصص قد صار فى الناس طبعاً من الطباع ، فافتن الأدباء فيه ، وكثر الناشرون له ، واحتفى النقاد به ، وأقبل القراء عليه ، فتنوعت أساليبه ، وتشعبت أغراضه ، وتعددت مذاهبه ، وطغى على فنون الأدب الأخرى حتى صار مظهر العبقرية ، ومقياس النبوغ ، ومجال التسابق ، وموضوع التفاضل ، وإطاراً تتجلى فيه صور الفكر ، وبوتقة تنصهر فيها مواد العلم ، ودنيا للفن يجد فيها القارىء من غرائب الواقع وأفانين الخيال ما فيه غذاء عقله وشفاء نفسه وبهجة قلبه وراحة ضميره .

تلك على الإجمال علل الخلاف بين أدبنا وأدبهم فى الطبيعة والنزعة . وفى يقينى أن تأثرنا المستمر بأدب الغرب ، وتخلف الشعر عن النثر فى ميدان الإنتاج . وتناقص الأمية فى جمهور الشعب ، ونضج العقلية العلمية فى أمم الشرق ، ستقضى على الخلاف بين الأدبين ، فيعتدل ميزان النقد ، ويعدل تاريخ الأدب ، وينفذ حكم الواقع ، ويعترف الناس بسلطان النثر على النظم ، وطغيان القصص على القصيد .

العربية جزء من حقيقة الإسلام

اللغة العربية جزء من حقيقة الإسلام ما في ذلك شك. كانت ترجمانا لوحي الله ولغة لكتابه ومعجزة لرسوله ولسانا لدعوته. ثم هذبها النبي بحديثه، ونشرها الدين بانتشاره، وخلدها القرآن بخلوده. فالقرآن لا يسمى قرآنا إلا فيها، والصلاة لا تكون صلاة إلا بها. والحكمة الالهية من ذلك ظاهرة؛ لأن الإسلام خاتم الأديان كلها، فلا بد أن تكون رسالته تامة لا يلحقها نقص الانسان ولا يسبقها تطور العالم. ولا بد أن تكون عامة لا يقصد بها قوم دون قوم، ولا يصلح عليها عصر دون عصر. والنتيجة المحتومة لهذا التمام وذلك العموم أن يجتمع الناس كافة في نظام سياسي واحد وضعه الله بقوله: «إنما المؤمنون إخوة»، ثم شرع له الحج مؤتمرا سنويا ليقوى، وجعل له الخلافة رباطا أبديا ليبقى، ثم اختار له العربية لتكون جمعة ما بين الألسن المختلفة، ووصلة ما بين القلوب المتباعدة. ودليل هذا الاختيار أن أنزل كتابه بها وتكفل أن يحفظها بحفظه، فقال تعالى: «أنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون». لذلك سارت العربية مع الفاتحين تُخضع إلى سلطانها كل لغة في كل بلد حتى أصبحت في عصر بني العباس وهو عصرها الذهبي لغة الدين والأدب والعلم والسياسه والإدارة والحضارة في أكثر الدنيا القديمة، وحتى أصبح المسلم ينتقل من قطر إلى قطر في عالمه الإسلامي كما ينتقل من بلد إلى بلد في وطنه الأصلي، لا يجد مشقة في التفاهم، ولا صعوبة في التعامل، ولا شدة في المعيشة.

فلما وهى النظام الجامع وانفرط العقد المتسق واختلف اللسان المتفق ذهب المسلمون أباديد لا ينظمهم ملك ولا تؤلف بينهم وحدة. ثم هب العرب

فنهضوا ، وعاد الإسلام فانبعث . وكان الاستعمار قد توقح وفجر ، فنشأت العصبيات الوطنية فى الممالك الاسلامية لدرء خطره أو تخفيف ضرره . وكان من ذلك أن قامت باكستان ، واستقلت أندونيسيا ، وتحررت سوريا ولبنان ومصر . وتعاطف أتباع محمد على البعد تعاطف الأخوة فى الغربة ، وتذكروا أن دينهم هو التوحيد : توحيد الله وتوحيد الكلمة وتوحيد الغاية وتوحيد القبلة وتوحيد اللغة ، فهفت قلوب إلى قلوب ، وسعى بعض إلى بعض ، وأوشكت الأمم الإسلامية الأربع عشرة أن تؤلف الجامعة الإسلامية ، وهى وحدها كما قلنا من قبل تملك غرس الوئام فى النفوس وإقرار السلام فى العالم ، لأنها تقوم على الإيمان المحض ، وتنزل فى خير مكان من الأرض ، وتشمل مئات الملايين من الناس ، وتهيمن على الموارد الأولى للاقتصاد ، وتدين بالآداب السماوية المثلى للاجتماع ، وتشرق أعمالها فى الصفحات العظمى من التاريخ . ولكن اتحادها على أى صورة من صور الاتحاد لا يتم إلا بالسر الذى أودعه الله جوهر الإسلام وهو التحاب فى ذاته والتعاون فى سبيله والتفاهم على حقه . وملاك ذلك كله اللغة .

واللغة وحدها رابطة وثيقة فلولا رباط الإنجليزية بين أمم (الكومنولث) لما استطاع أن يربط بينها التاج . . ولولا رباط العبرية بين شذاذ اليهود لما استطاع أن يجمع بينهم الدين . وإن الرجل الشرقى المسلم يتعلم الإنجليزية أو الفرنسية فيكون هواه ورأيه مع أهل هذه اللغة أو تلك . ولعله يألف الألمانى إذا كان يعرف الألمانية أكثر مما يألف التركى إذا كان يجهل التركية . وليس من المبالغة أن نقول إن اللغة أقوى الصلات الاجتماعية فى التأليف بين الإنسان والإنسان . أقوى فى ذلك من الدين والوطنية . فما يكون بين المسلم والقبطى من التآلف باتحاد اللغة لا يكون مثله بين الأندونيسى والإيرانى باتحاد العقيدة ، ولا بين العربى والكردى باتحاد الوطن .

والسبيل والقصد إلى تحقيق الجامعة المحمدية العظمى ، أو إعادة الدولة الإسلامية الكبرى ، هى أن تكون اللغة العربية لغة عامة لباكستان والصين وأندونيسيا وتركيا وإيران والأفغان ، تفرض هذه الدول تعليمها فى مدارسها الابتدائية والثانوية بجانب لغاتها الأصلية . وقد بدأت باكستان مشكورة فأدخلت العربية فى مواد الدراسة ، على أن يكون تعلمها اختياراً لا اضطراراً . وهى على كل حال خطوة مسددة وخطة موفقة . ولن يغض منها أن الطالب يختار بينها وبين لغة أخرى ، فإن للعربية ما للاسلام من قوة الانتشار الذاتى . فكما أن الإسلام ببساطته وطبيعته ووضوحه وجماله يسرى بنفسه فى النفوس مسرى النور فى الظلام والبرء فى السقام . فإن العربية بحلاوة جرسها وبلاغة أسلوبها وغنى أدبها وقداسة ماضيها تجرى على الالسنة مجرى الذكر على القلب أو الفكر فى الخاطر . وتاريخها مع القبطية فى مصر ، والرومية فى الشام ، والفارسية فى العراق ، والبربرية فى أفريقية ، معروف . ولا تظن أن سلطان العرب أو طغيان الفتوح هو الذى بسط لها هذا النفوذ ومكن لها فى هذه الشعوب ، فإن اللاتينية غزت المغرب والمشرق وكان من ورائها امبراطورية الرومان ، والتركية غزت الشرقين الأدنى والأوسط وكان من ورائها خلافة بنى عثمان ،ومع ذلك ظلتا على تطاول الدهر واستطالة القهر لساناً للادارة والجيش لا تتعداها إلى البيت والسوق ، فلم تغلبا حين طغت سطوتاهما على لغة من لغات الناس ، ولم تمكنا بعد أن دالت دولتاهما فى بقعه من بقاع الأرض .

على أن الراغبين فى تحقيق الوحدة الأسلامية والثقافية استجابة لإلحاح الضرورة واستحثاث الحال إن تركوا العربية لطبيعتها تنتشر بانتشار الوعى الدينى فى الشرق الإسلامى خشوا أن يطول الأمد وتبعد الشقة . فهم حريصون أن يضعوا لتعميم لسان الوحى ولغة القرآن سياسة ملزمة يتفق عليها أولياء المسلمين وينفذونها فى أممهم بإخلاص المؤمن وعزم المصلح .

ومما يثلج الصدور وينعش الآمال أن أصول هذه السياسة المرجوة قد وضحت في منهاج مؤتمر الشبيبة الإسلامية الذي انعقد في كراتشي في اليوم الثاني من شهر يناير الماضي وشهده أكثر من سبعين وفداً يمثلون أقطاراً مختلفة من آسيا وأفريقيا وأوربا . ونرجو أن تزداد هذه السياسة وضوحاً وبروزاً في منهاج المؤتمر الإسلامي الذي سيعقد بمكة في موسم الحج القادم . سيرى المسلمون كلما ائتمروا في بلد أو اجتمعوا في مكان أنهم متحدون في القبلة والوجهة والغاية ، ولكن ألسنتهم هي وحدها التي تختلف . . . وسيجدون في أنفسهم مس الغضاضة حين لا يجدون أداة يتفاهمون بها غير الإنجليزية أو الفرنسية ، واللغة التي تحمل كلمة الله وروح محمد وسر الإسلام كانت أولى أن تكون لسانا لهم . . وسيحفزهم ما رأوا وما وجدوا إلى أن يسدوا هذا النقص ويوفروا هذه الأداة ويرفعوا هذا الحاجز لتتصل الأفهام وتمتزج الأرواح ويشعر أبناء الأمة الوسط أنهم بوحدتهم وقوتهم وعزتهم وعقيدتهم خير أمة أخرجت للناس .

مذهبي في الحياة

لكل إنسان مذهب فى الحياة ، يبتدىء بأمله وينتهى بأجله . كل نفس من أنفاسه خطوة عليه ، وكل دور من عمره مرحلة فيه . والمذاهب تختلف باختلاف الناس فى الطينة والبيئة والوراثة والبيئة منها ما يؤدى ، ومنها مالا يؤدى . وربما يؤدى المعوج كما يؤدى المستقيم ؛ ولكن المؤدى إليه فى الحالين لا يكون متحداً لا فى طبيعته ولا فى نتيجته . وقد يعترى المذهب ما يعترى النفس من الغموض والانبهام ، فتلتبس الوجهة على السالك حتى لا يعرف قبيلا من دبير . وهنا ينفع الدليل . وخير الأدلاء من أشرف على غاية الطريق فاكتسب تجربة بسنه أو خبرة بعلمه .

لذلك كان من الخير للبادئين من الناشئين من الشباب أن يطيلوا النظر فى مذاهب المنتهين من الشيوخ ، فإن ذهاب الشباب مذهب الناجحين الناجين أجدى عليهم من اعتساف الطريق أو اختلاط الحيرة . ودونك مذهبي .

* * *

مذهبي فى الحياة يتميز بالاستقامة والوضوح . وبفضل هاتين الميزتين بلغت الغاية التى قصدتها منذ وعيت .

لم أبلغ عليه الثراء الضخم ولا الجاه العريض ، ولكني بلغت عليه العيش الرخى ، والبال الرضى ، والذكر الحسن . والسعادة الحق أقرب إلى الرضا والسكينة منها إلا المال والمنصب .

حرصت على أن يكون مذهبي مستقيماً ، حتى كانت العقبة الضخمة تعترض فأقف دونها طويلا ، أفتتها بمعولى الصغير حصاة حصاة إلى أن تذل وتزول .

ولو أنى انحرفت عنها كثيراً أو قليلا ذات اليمين أو ذات الشمال لخاصت منها . وبلغت الغاية فى أقل زمن وأيسر جهد . ولكنى كنت أستريح بطبيعتى إلى الحديث المأثور . « عليكم بالجادَّة ودعوا البُنَيات » . يريد الرسول الكريم بالجادة وسط الطريق وهو الاعتدال ، وبالبنيات الطرق الصغار التى تتشعب من الجادة وهى مظنة الزيغ والضلال والتعدى والهلكة .

* * *

وحرصت على أن يكون مذهبى واضحاً ، حتى كانت المشكلة الصعبة تعرض فيكون حلها يسيراً بشىء من النفاق وقليل من المصانعة ؛ ولكنى كنت أنفر من ذلك كله وأحاول أن أعالجها بالصدق والصبر والصراحة ، فتنحل بعد أن تترك فى النفس من الأثر ما يتركه الجرح فى الجسد من الندوب ؛ ولكن هذه الندوب ستظل على الزمن مثاراً للذة من لذات الروح تشيع فيها العزة والحرية والكرامة .

نهج لى هذا المذهب وألزمنى إياه طبع حر مسالم ؛ فأنا منذ حملت نصيبى من عبء الحياة أحاول أن أستقل فى عملى عن إرادة الغير ، وأستغنى بقدرتى عن معونة الناس ، فلم أضع يدى ولا عنقى فى أغلال الوظائف الحكومية ، ولم أصعد صعود العليق على أكتاف الطوال من ذوى السلطان والحكم ؛ وإنما اضطربت فى مجالى الحيوى طليقاً من كل قيد إلا قيـــد الخلق ، مستقلا عن كل عون إلا عون الله . بذلك سلمت نفسى من رذائل الوظيفة فلا جبن ولا رياء ولا ملق ، وبرئت حياتى من نقائص التبعية فلا خضوع وإلا إغضاء ولا ذلة .

من مذهبى أن أدع الخلق للخالق فلا أنتقد ولا أعترض ، ولا أمد عينى وراء الحجب ، ولا أرهف أذنى خلف الجدر ، ولا أدس أنفى بين الوجوه ، ولا أزحم بمنكبى من يمشى عن يمينى أو عن يسارى ما دام الطريق مفتوحا أمامى إلى

الوجه الذى أقصده . لذلك عشت لين الجانب سليم الصدر لا أدخل فى جدل ولا أشارك فى مراء ولا ألج فى منافسة . وكان من جدوى ذلك على أن الله وقانى عذاب الحسد ، وكفانى شر العداوة ، وجعل ما بينى وبين الناس قائماً على المجاملة والمساهلة والود .

ومن مذهبى أن أسقط الماضى من حساب الحاضر فور انقطاعه ، فلا أحزن على ما فاتنى فيه ، ولا آلم لما ساءنى منه . وتصيبنى الخسارة فلا أجزع ، إنما أطرحها من ربح الصحة والنجاح والأمن ؛ ثم أدبر أمرى على اعتبار أنها لم تكن . ويسوءنى الصديق فلا أبتئس ؛ إنما أحمل إساءته على حيوانيته وأثرته. فإذا عاد إلى الإحسان لا أعاتبه على ما كان ولا أذكره بما فعل. وأى نفع أرتجيه من تعكير ما راق وإشعال ما خمد ؟ إنى لا أصادق إلا من أحب. واللذة التى أجدها فى حب الإنسان ، تعوضنى من الألم الذى أجده فى لؤم الحيوان .

وللايثار جانب عظيم من مذهبى فى الحياة ؛ فأنا أوثر صاحبى على نفسى فى المجلس والحديث والهوى. وقد أوثره أحياناً بالمنفعة ،لأن شعورى بأن أدخل السرور عليه ، أو أجلب السعادة إليه ، أجل فى نفسى من شعورى بأن أتصدر فى الجلوس أو أنفرد بالكلام أو أتغلب فى الإرادة أو أختص بالفائدة .

ومن مذهبى أن أكره الظهور وأمقت الدعوى وأجتنب الفضول ؛ فأنا أعيش فى عزلة وأعمل فى صمت وأمشى فى قصد . وهذه الخلال قد تعوق عن الوصول فى عصر كهذا العصر، أعماله تظاهر، وأقواله هتاف ، ووسائله إعلان ، وغاياته شهوة ، ولكن الذين يندفعون إلى الأمام بهذه الدوافع لا يلبثون أن يفقدوا الأجنحة المصنوعة والمحركات المستعارة فيقفوا حتى يفوتهم أولئك الذين يسيرون هوناً على أقدامهم الطبيعية ، أو على مراكبهم الخاصة ، من

غير أن ينالهم خزى أو يمسهم لغوب. من أجل ذلك لم أدخل فى حزب ولم أقف على منصة ولم أظهر فى جريدة .

على أننى نلت شرف الجهاد الوطنى فى الثورتين المصريتين ، فكنت فى الأولى جندياً مجهولا أكتب المنشورات السرية للطلبة وأنا مدرس فى « المدرسة الإعدادية » ، وكنت فى الأخرى وطنياً معروفاً أوقظ الوعى القومى وألهب الشعور الوطنى وأنا محرر فى مجلة « الرسالة » ، ومع ذلك قلما عرفنى زعيم أو رآنى حاكم ومعرفة الزعيم أو رؤية الحاكم كانت يومئذ من أحاديث المنى وهواجس الأحلام ، ولكن أكثر الأمانى ضلال وأكثر الأحلام وهم .

ومن مذهبى أن أجعل الجمال سبيلا إلى الخير ودليلا على الحق ، فأنا أتوخاه فى اللباس والطعام والمسكن والأثاث . كما أتوخاه فى النفس والفن والطبيعة .

والمذهب طريق تذهب فيه . فإذا لم يكن له من الجمال شجر يحنو على جوانبه بالظل ، وزهر ينسم على أفيائه بالعطر ، وحادٍ يرفه على سالكيه بالنغم ، كانت الحياة بأساء من غير نعيم . وصحراء من غير واحة .

هذا مذهبى سننته على هدى الفطرة التى فطر نى الله عليها ، وسلكته منذ ابتدأت حياتى ، وسأسلكه إلى أن تنتهى . ولو كان فى الإمكان أن أورثه ولدى لسعدت به حياً وميتاً ، ورضيت عنه دنيا وأخرى !

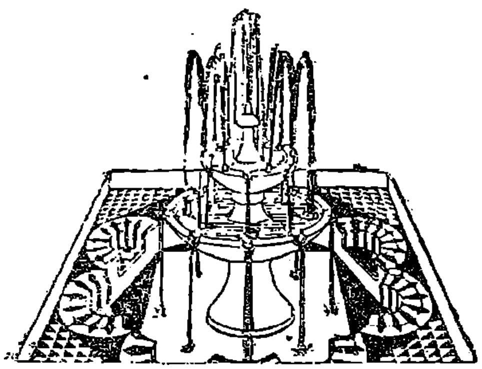

شباب وشيوخ، أو عامية وفصحى

ليس من طبعي أن أدخل في جدل ولا أن أشارك في مراء؛ فإن الجدل — وا أسفاه — لا يزال في أدبنا نوعا من المصارعة الحرة، وسيلة للمصارع فيها أن يصرع ولو بالكيد، وغايته منها أن يغلب ولو بالباطل .. وأنا أوثر أن تجري حياتي جريان الجدول الهادىء المنساب، لا يعترضه شلال فيهدر، ولا يصده صخر فيلتوي. لذلك كانت الخصومات الأدبية تنشب الحين بين الحين، في الرسالة وفي غير الرسالة، بين الكتاب فلا أشترك فيها بلسان ولا قلم.

ولكن من الخصومات ما يكون فيها معنى الشيوع، إذا تعلقت بقدس من الأقداس المشتركة كالوطن أو الدين أو اللغة، فتشعر أنك خصم فيها وإن لم تكن، وأنك مدفوع إليها وإن لم ترد.

ولقد شاء بعض الأدباء الشباب أن يجعلوا بينهم وبين الأدباء الشيوخ خصومة، فكانوا يثيرونها في الصحف كلما حلى في صدورهم ذلك. وكان موضوع الخصومة في كل مرة يقاسي الوهن عن ضعف السبب وانقطاع الحجة، فإن الخصومة بين الأبناء والآباء، أو بين التلاميذ والأساتذة، لا تسوغ في الطبع ولا تجوز في العرف .. إلا إذا دعت إليها دواع قوية من خيانة الوطن أو معصية الله أو مجافاة الحق. والأدباء الشيوخ كانوا وما زالوا المنارة للأمة في طريق الحياة: ترسل النور إلى الضال فيهتدي، وتبعث الأمل في اليائس فينشط، وتنفخ الروح في الواني فينهض. وهم الذين أيقظوا الوعي والحس خامد، وجاهدوا الاستعمار والشعب مستكين، وأعلنوا الإصلاح الفساد مستحكم.

والأدباء الشيوخ كانوا — وما زالوا — معقل الدين وموئل كتابه، يجددون

الدارس منه ، ويدفعون الشبهات عنه ، ويظهرون الإعجاز فيه . وهم الذين تسلموا شعلة الفكر العربي في أواخر القرن التاسع عشر من أدباء لم تهيئهم ثقافتهم ولا حضارتهم أن يمدوها بوقود من عصارة الذهن ، ولا بقبس من نور الوحي ، فأتاح الله لهم من مواتاة الملكات ومعاونة الظروف واكتمال الأداة ما مكنهم من اذكاء هذه الشعلة ، فأوقدوها بالزيت والكهرباء ، وجلوا نورها السماوي في مصابيح من فنون البلاغة والحكمة .

والشباب لا يستطيعون أن يقولوا صادقين ، أو جادين ، إن الشيوخ تخلفوا عن ركب الحياة . . فإنهم لا يزالون يعايشون الناس ويسايرون العلم ويتابعون القراءة ويوالون الإنتاج . وهم بحكم التجارب المثمرة والثقافة المحيطة والمران الطويل يشعرون أشد الشعور ويفهمون أعمق الفهم ويعبرون أصدق التعبير . وشيوخ الأدب في أوربا وأمريكا هم قادة الفكر وأقطاب البيان ومجازو (نوبل) وأعضاء المجامع وأساتذة الجامعات . ولا يجد الشباب في هذه الصدارة الطبيعية مسقطة لهم ولا غضاضة عليهم ، لأنهم سيخلفونهم على كل أولئك متى بذلوا الجهد الذي بذلوه ، وصعدوا الدرج الذي صعدوه . . فليس هناك إذن من الأسباب القوية أو الضعيفة ما ينشيء خصومة بين شيوخ كانوا شباباً ، وشباب سيكونون شيوخاً .

والحق الصريح أن الخصومة ليست بين الشباب والشيوخ ، وإنما هي بين العامية والفصحى . فالعامية تتخذ لسانها المهاجم من أولئك لأنهم دعاتها ، والفصحى تتخذ لسانها المدافع من هؤلاء لأنهم حماتها . وكراهة الشباب للفصحى لا ترجع إلى نقص فيها أو قصور منها ، وإنما ترجع إلى قلة العلم بها وسوء الفهم لها . وقلة العلم بها لا تعود إلى مطلبها الصعب أو أمرها المعضل . وإنما تعود إلى سوء الطريقة في تعليمها وضعف الرغبة في تعلمها . فلا المعلم صادق الجهاد فيما يعطي ، ولا المتعلم حسن الاستعداد لما يأخذ .

والنتيجة المحتومة لهذه الحال أن يصبح الغرض من دراسة اللغة هو اجتياز الامتحان بأية وسيلة ، فالكتب المطولة تختصر ، والمختصرة تختزل ، والباقي بعد ذلك في ذاكرة الطالب يكون رموزا لمعان غائمة عائمة لا هي واضحة ولا هي مستقرة . فإذا تخرج الناشيء بهذا الحظ المنكود من اللغة ، وكان في نفسه ميل إلى الأدب وفي طبعه استعداد للكتابة ، انصرف عن كنوز الأدب العربي لأن مفاتيحها ليست عنده ، وأقبل على روائع الأدب الغربي يحاكيها ويستوحيها .. حتى إذا امتلأ ذهنه وفاض شعوره وأراد أن ينتج شيئاً يفيد الناس، وجد في نفسه الملكة التي تخلق ، وفي حسه الصورة التي تمتع ، ولكنه لا يجد في لسانه اللغة التي تعبر، ولا في قلمه الأسلوب الذي يؤثر . فيضيق ويسخط ويثور ، ويزعم أن قواعد اللغة غصة لا تساغ ، وأن إعراب الكلمة عقبة لا تذلل . . ثم يتطرف فيدعو إلى إطلاق الحرية للكاتب فيكتب كما يشاء ، لا يتقيد بقاعدة من نحو ، ولا بقياس من صرف ، ولا بنظام من بلاغة .

ومعنى ذلك تغلب العامية لا لأنها أفضل ، ولكن لأنها أسهل : فإن تحصيلها لا يحتاج إلى كتاب ومعلم ومدرسة ، وإنما يحتاج إلى بواب وخادم وشارع ! ومعنى تغلب العامية فصل الأدب عن الدين ، وقطع الحاضر عن الماضي ، وعزل مصر عن العرب .

فلو أن أدباءنا الشباب فعلوا ما فعل أدباؤنا الشيوخ ، فاستبطنوا لغتهم . وتعمقوا أدبهم، لما كانت هذه الخصومة التي تتجدد كلما آلمهم النقد أو أغضبتهم المقارنة . وما أظن دراسة العربية تكلفهم من الجهد والزمن أكثر مما تكلفهم دراسة الفرنسية أو الإنجليزية ؛ ولكنهم في عصر السرعة يطلبون القريب ويتوخون السهل ويتخطفون العلم ويتعجلون الإنتاج ، ثم يحقدون على الشيوخ لأنهم يلزمونهم التأني ويجشمونهم الدرس ويقولون لهم إننا لا نعرف في تاريخ

الآداب القديمة والحديثة من يعد في لغته كاتباً أو شاعراً . وهو لا يعرف من قواعدها الأساسية ما يقيم لسانه وقلمه .

لماذا لا يشتكي نوابغ الشيوخ من صعوبة الإعراب وبلية اللحن ؟ او كانوا كلهم من خريجي الدراسة الأزهرية ، كالمنفلوطي وطه حسين وأحمد أمين وعزام والجارم ، لقلنا طبيعة منهاج وطريقة معهد ؛ ولكن أكثرهم من خريجي الدراسة العامة كشوقي وحافظ ومطران والعقاد والمازني وشكري والرافعي والسباعي وأحمد زكي وفريد أبو حديد ومحمد عوض ، ولا يختلف هؤلاء عن أولئك في فقه اللغة وصحة العبارة وقوة الأسلوب .

أنا من أنصار التوفيق بين الفصحى والعامية . ومذهبي في المجمع اللغوي امداد الفصحى بما تزخر به العامية من مصطلحات الحضارة ومستحدثات الحياة ومختارات التعبير ، حتى تضيق مسافة الخلف بين اللهجتين وينتهي بهما الأمر بفضل الصحافة والإذاعة والمدرسة إلى لغة واحدة ، فيها من الفصحى السلامة ، والجزالة والبلاغة والسمو ، وفيها من العامية الدقة والطبيعة والحيوية والوضوح .

أما أن تكون لغتنا كلغة الهمج لاتقوم على قواعد ولا تجري على أنظمة ؛ ولا تشعرنا بجمال ولا تحفزنا لكمال ، ولا تربطنا بماض ولا تصلنا بمستقبل ولا تجمعنا في وحدة .. فذلك مذهب لايقول به رجل وهو جاد ، ودعوة لايستجيب لها إنسان وهو عاقل !

إن الخلاف بين شباب الأدب وشيوخه لا يحسمه إلا أحد أمرين : أن يصعد الشباب إلى الفصحى ، أو يهبط الشيوخ إلى العامية .. وتغليب الصعود على الهبوط أمر توجبه الفطرة ويقتضيه الطموح ويستدعيه الكمال .

الفن بين الصعود والهبوط

يتحدث بعض السادة الأدباء في هذه الأيام عن مكان الفن من الحياة : أيظل في المصعد الأعلى من السماء ليرتفع إليه من يحبه ، أم ينزل إلى المهبط الأدنى من الأرض ليتناوله كل من يريده ! ولا أدري على وجه اليقين ماذا يريدون بصعود الفن وهبوطه ، إن كان القائلون بالصعود يريدون أن يترفع الفن عن حياة العامة فلا يتخذ من حوادثها قصصه وموضوعاته ، ولا ينتزع من مشاهدها صوره وتصوراته ، فقولهم باطل لأنهم يحصرون عبيره ونوره في ناحية من نواحي الحياة لا هي أجمل ولا هي أفضل . . وإن كان القائلون بالهبوط يريدون به أن يجرد الفن من قواعده وخصائصه وعبقرياته ليفهمه الغبي والبليد والساذج فقولهم كذلك باطل ؛ لأنهم يخرجونه من طبيعته وحقيقته ليكون عبثاً من العبث لا يوحي ولا يمتع ولا يرفع .

إن الفن في كل مكان هو الفن ما دام يعبر عن مشاعر النفس ومشاهد الطبيعة ووسائل العيش تعبيره الحي القوي الصادق الجميل بالكلمة أو بالصورة أو بالنغمة أو بالمثال . ولا فرق في ذلك بين أن يكون موضوعه علبة الجواهر في قصر ملك ، أو صينية البطاطس في دار سوقة . المهم أن يظهر في الصورة المختارة روح الفنان وشعور الإنسان وجمال الحقيقة .

كان كتاب الإغريق ومن تبعهم من كتاب الفرنج الاتباعيين (كلاسيك) يقصرون موضوع (المأساة) وأبطالها على حياة السراة والملوك ، ويرون أن جرائم هؤلاء ومصائبهم أفعل في النفس وأشغل للقلب من جرائم السوقة ومصائب العامة .

فلما ابتذلت أغنية الملوك وعلت كلمة الشعوب وغلب نظام الديمقراطية ، أصغر الناس الفجائع فى القصور وأكبروها فى الأكواخ . وجاء الابتداعيون (رومانتيك) فاستحدثوا « الدرامة » ونزلوا بها إلى سواد الشعب فصوروا حياته كما هى ومثلوا أبطاله كما هم . وغضب الاتباعيون لكرامة الفن فنشبت بين الفريقين حرب شعواء كانت معركتها الفصلة فى مسرح (الكوميدى فرنسيز) ليلة مثلت (هرنانى) لفكتور هوجو ، وهى درامة شعرية بطلها قاطع طريق . وكان الخلاف بين الاستقراطيين والديمقراطيين قائماً على الموضوع والطبقة لا على الوضع والتطبيق . أما الفن فى ذاته فقد ظل فى علوه ودنوه بارعاً رائعاً عند هؤلاء وأولئك .

وكان ابن الرومى شاعراً شعبياً يخالط الدهماء والغوغاء ، ويلابس الصناع والباعة ، فيهبط بشعره إلى أن يقول فى صانع الرقاق :

ما أنس لا أنس خبازاً مررت به ... يدحو الرقاقة مثل اللمح للبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة ... وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة ... فى لجة الماء يلقى فيه بالحجر

وإلى أن يقول فى صانع الزلابية :

ومستقر على كرسيه تعب ... روحى الفداء له من مُصب نصِب
رأيته سحَراً يقلى زلابية ... فى رقة القشر والتجويف كالقصب
كأنما زيته المقلى حين بدا ... كالكيمياء التى قالوا ولم تصب
يلقى العجين لجيناً من أنامله ... فيستحيل شبابيكا من الذهب

ثم يصعد بشعره إلى أن يقول فى وصف الشمس قبيل الغروب وهو وصف لا تجد له نظيراً فى الأدب العربى ولا فيما نعرف من الآداب الأخرى :

وقد رنقت شمس الأصيل ونفضت ... على الأفق الغربى ورسا مزعزعاً

وودعت الدنيا لتقضى نحبهـــا ... وشول باقى عمرها فتشعشعا

ولاحظت النوار وهى مريضة ... وقد وضعت خداً إلى الأرض أضرعا

كما لاحظت عوادَه عين مدنف ... ترجع من أوصابه ما توجعا

وظلت عيون النَّور تخضل بالندى ... كما أغرورقت عين الشجى لتدمعا

يراعينها صوراً إليهـــا روانيا ... ويلحظن ألحاظا من الشجو خشعا

وبين أغضاء الفراق عليهمـــا ... كأنهما خلا صفـــاء تودعا

وقد ضربت فى خضرة البعض صفرة
من الشمس فاخضر أخضراراً مشعشعا

وأذكى نسيم الروض ريعان ظله ... وغنى مغنى الطير فيه وسجعا

وغرد ربعى الذباب خـــلاله ... كما حثحث النشوان صنجا مشرعا

فكانت أرانين الذباب هنا كو ... على شدوات الطير ضربا موقعاً

فانت ترى أن الشاعر قد ارتفع بشعره إلى أسمى مجالى الطبيعة ثم انخفض به إلى أدنى مشاغل الناس ، ولكنه بقى فى الحالين فنانا صادق الحس بارع الوصف رائق الأسلوب . وقل مثل ذلك فى ابن المعتز الشاعر الخليفة وابن الحجاج أو أبى العبر الشاعر الصعلوك ؛ فإن المعتز كان يؤلف صوره من ترف الملك ، وابن الحجاج أو أبى العبر كان يؤلف صوره من مباذل السوق ، ولكن الفن كان عند الرجلين واحداً يختلف فى الخامة ولا يختلف فى الصنعة ، ويتفاوت فى الطبقة ولا يتفاوت فى القيمة . وهذا ما نفهمه من صعود الفن وهبوطه : ننزل به إلى الطبقة العاملة والحياة العامة فنجد له من الطفولة المعذبة ، والشيخوخة العاجزة ،

والزمانة المعدمة ، والكرم فى الأخلاق ، والشهامة فى البؤس ، والإيثار فى الخصاصة ، موقف قوية التأثير شديدة الروعة . فإذا وصفناها أو حللناها أحسها العامى أبلغ الإحساس ، وتأثر بها أشد التأثر ، وشعر فى الوقت نفسه بأن فى هذا الأدب الذى يصور نفسه ويصف دنياه قوة خفية ترفعه إلى أعلى وتدفعه إلى أبعد . أما أن نمسخ له صور الفن فنكتب له الأدب بقلم الحاج سيد ، ونعزف له الموسيقى بشبابة الراعى ، ونرسم له الجمل والمحمل بفرشة النقاش ، فذلك تقدم إلى الخلف ، وتطور إلى الأقبح !

إن رسالة الفنون الرفيعة أن تجمل الحياة وتهذب الحضارة وتسمو بالإنسان . وإذا كانت الفنون الآلية قد اخترعت لتخدم الجسد ، فإن الفنون الأدبية قد اصطنعت لتخدم الروح . فهى إذن ضرورية وحاجة ، لا كمالية ومتعة . ولا يتسنى لها أن تؤدى هذه الرسالة إلا إذا احتفظت بالجزء الألهى الذى يقرب الأدب من الدين وربط الأرض بالسماء ، ويصل الفنان بالملك . ذلك الجزء الألهى الذى يتحقق فى الإلهام هو الذى يجعل من الإنسان نبياً أو مصلحا أو أديباً على حسب ما تقتضيه الحال ، وهو ما نسميه بالاستعداد . وقديماً قال الشعراء إنهم يتصلون بالملأ الأعلى عن طريق الجن ، كما يتصل الأنبياء به عن طريق الملائكة . وهذا الاتصال الروحى أو الألهام الذهنى أو الاستعداد الفنى متى أوتيه إنسان سما بملكاته على الناس فلا يفكر تفكيرهم ولا يشعر شعورهم ولا يعبر تعبيرهم . ولو أردناه على أن يتدلى إليهم ويندمج فيهم لنفر نفور الجنس الغريب ، وتميز تميز الكائن المستقل . ومن هنا سار المثل اللاتينى القائل : « كل الشعراء ارستقراطيون » .

ولعمرى كيف يستطيع الفنان أن يرفع النفوس إلى مراقى الكمال إذا لم

يترفع هو عن حقارة الحياه الدنيا ، ويصور للناس المثل العليا من الجمال والفضيلة فيرتفع الشعب إلى سمائه ، بدل أن يسف هو إلى حضيضه ودهمائه .

فلنطمئن إذن على أن الدعوة إلى ابتذال الفن لن تجد لها سميعاً ، وإذا وجدته فلن يكون إلا من الأدعياء الذين لا تساعدهم كفايتهم ولا ثقافتهم على السمو إلى الفن فيحاولون أن ينزلوه إليهم . وهو إن نزل لا يكون فنا ؛ وإنما يكون زبدًا لا يلبث أن يذهب ، وظاهرة لا تمكث إلا ريثما تغيب !

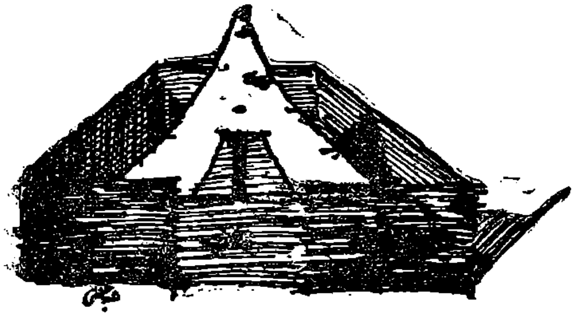

بعض الأسماء ينزل من السماء

كنا نشقق بيننا الحديث فى مجلس مشمس من مجالس الشتاء وفينا رجل من طبيعة ابن الرومى يعتمد فى جل موره على الفأل والطِيَرة. فاللفظ يسمعه، أو الشىء يراه أو الرجل يلقاه، يبعث فى نفسه التفاؤل أو التشاؤم على حسب ما يدل عليه معنى اللفظ أو مدلول الشىء أو اسم الرجل من حسن أو قبح ومن خير أو شر. فإذا عزم أمراً أو نوى سفراً أرهفَ أذنيه لأول كلمة من أول قادم. فإذا بشرته أقدم، وإذا نفرته أحجم. جرنا الحديث إلى ذكر ما أصاب مصر فى الثلاثين سنة الأخيرة من نهضتها بقيادة سعد زغلول، وكبوتها بسياسة مصطفى النحاس، ووثبتها بثورة جمال عبد الناصر، وأخذ كل منا يحلل الأسباب ويعلل النتائج بما يجرى فى علمه ويصح فى منطقه. ولكن صاحبنا لم يقنعه شىء مما تفلسف به المتحدثون فقال بلهجة المؤمن الجازم: إن ما أصاب مصر من القوة والنكسة والصحة فى عهود هؤلاء الرجال الثلاثة على التعاقب أقضية وأقدار جُعلت عليها أسماؤهم عناوين ودلائل. وليس من المصادفة المحض أن تصاغ أعلامهم من السعد والنحس والجمال أو النصر، وإنما صيغت كذلك لأمر يريده الله. والأسماء تنزل من السماء. ولكل اسم من مسماه نصيب. فقال له أحدنا: وما تفهم من اطلاق اسم فاروق — وهو لقب الخليفة التقى العبقرى العادل عمر — على ذلك الحيوان الشهوان الذى لوث بشروره وفجوره عرش مصر حقبة كريهة من الدهر..؟ فقال: أفهم أن الله كما فرق بإسلام ابن الخطاب بين ضعف المسلمين وقوتهم، فرق باستسلام ابن فؤاد بين ذلة المصريين وعزتهم.

وإن كنتم فى ريب مما أقول فإنى أقص عليكم قصة أسرة من أسر (الغربية) مرت بأدوار مصر الثلاثة: من غنى واسع إلى فقر مدقع، ومن فقر

مدقع إلى ثراء فاحش . وكان عميدها فى الدور الأول اسمه (مرزوق) . وكان عميدها فى الدور الثانى اسمه (شحاته) وكان عميدها فى الدور الثالث اسمه (سعيد). أنا لا أحدثكم عن أسرة طواها الزمن فى غيابة الماضى، فالحديث عنها خبر يحتمل الصدق والكذب ، وإنما أحدثكم عن أسرة لا تزال تتمتع فى الوجود الحاضر بكثرة المال وعزة الحياة فالحديث عنها عيان يشهد به الحس وتؤيده سجلات الإصلاح الزراعى .

كان الشيخ مرزوق من حفظة القرآن فى صباه ، فأراد أبوه الفلاح الفقير أن يفقهه فى الدين فبعث به إلى الجامع الأحمدى بطنطا ، فلبث فيه يطلب العلم ثلاث سنين رفعته إلى طبقة المتعلمين . ثم توفى أبوه ولم يترك له عقارا ولا مالا، فرجع إلى أهله وجعل يتكسب بالقرآن ويعمل فى الأرض ويتجر فى الماشية ويشترك فى أمور شتى من نشاط القرية . وكانت الأعوام الثلاثة التى قضاها فى المجاورة قد قوت فيه ملكة التدبير والتقتير فبسط الله له الرزق . ووفر عليه النعمة . ولكن الشيخ كان طماعاً لايقنعه الكفاف ، وطماحاً لايرضيه الوسط ، فسعى باللباقة واستعان بالوساطة حتى وصل أسبابه بدائرة إحدى الأميرات السابقات ،وكانت أراضيها تقع فى جوار قريته فاستخدمته ناظراً ؛ ثم تقدمت به كياسته فجعلته مفتشاً ؛ ثم سمت به كفايته فعينته وكيلا . وحينئذ تدفقت عليه ينابيع المال ، بالحرام والحلال ، فاقتنى فى عشر سنوات مائة فدان . وظلت هذه الفدادين المائة تلد كما تلد الكلاب والقطط ، لقاحها من بركة الشيخ، ونتاجها من أرض الأميرة ، حتى بلغت مساحة أراضيه ألفاً وثلثمائة فدان من أجود الأرض، فتمت بذلك نعمته ولكنها لم تكمل . كانت زوجته ولوداً ولكنها كانت تلد للموت فلم ينج الزوجان من عذاب الثكل سنة واحدة . وطال تردد مرزوق ومبروكة على عيادات الأطباء وأضرحة الأولياء فلم يبلغا مما أرادا شيئاً . وظلت المنايا تتخطف الأطفال فى أسنان متقاربة حتى أشارت على مبروكة إحدى

صواحبها أن تنذر ما فى بطنها لله . فإذا وضعته سمته (شحاتة) ولفته فى البالى من الخرق وأرقدته على الرث من الفراش، ثم تجمع باسمه قدراً من المال عن طريق السؤال فتشترى به ما يلبس من الثياب وما يحمل من الأحجبة حتى يبلغ الرابعة من عمره . ومن غرائب الاتفاق أن شحاتة عاش وترعرع حتى جاوز حد الصغر . ولكنه نشأ كما ينشأ الابن الوحيد المشتهى مدللا مرفهاً ، يدعو فيجاب، ويأمر فيطاع ، ويطلب فيعطى . ثم أخلد إلى اللهو وانصرف إلى العبث فلم يهتم بعلم ولا دين ، ولم يحفل بنظام ولا خلق . وخلا له الجو بوفاة أبيه فانطلق فى سبيل الغى لا يصده عقل ولا يزعه ضمير. ثم عاش فى القاهرة عيش السفهاء الخلعاء يحيى ليله فى اللهو والتبذل ، ويميت نهاره فى النوم والتبطل . وغابت مزارعه الواسعة عن باله فما كان يذكرها إلا يوم يقبض ثمن القطن . وكان من أثر ذلك أن ضعفت الأرض وقل المحصول ونقص الإيراد ، فسد هذا النقص بالاقتراض وانفتح أمامه طريق الربا إلى الخراب المحتوم . وكان قد صاهر فى حياة أبيه أسرة قاهرية محافظة ، فحاولت زوجه الصالحة أن تصده عن الضلال وترده إلى الهدى فلم توفق . فتركته لنفسه وأقبلت على تربية ابنها سعيد وبنتها هناء على النحو الذى نشأت هى عليه من رعاية الدين وحب الخير وإيثار الجد . واتخذت من حياة زوجها عبرة نفعتها فى تنشئة سعيد . كانت تضرب له الأمثال بما خسره أبوه الغوى الجاهل من سمعته وصحته وثروته . وتقول له إن أباه لو أحيا ضميره بالدين وقوى عقله بالعلم لما سقط وأسقطنا فى هذه الهوة المهلكة . وكان سعد نفسه وهو فى المدرسة الإبراهيمية يرى من أفعال أبيه ما يحزن، ويسمع من أخباره ما يخجل. فكره هذا النمط من العيش وعكف على الدرس أملا فى أن تهيء له الشهادة العالية الأسباب لإصلاح ما فسد وتعويض ما فقد. ولا أريد أن أطيل عليكم بذكر التفاصيل فقد ظفر سعيد بدبلوم الزراعة وفضل جهاد العيش فى الميدان الحر . وكان شحاتة قد أصيب بالشلل

النصفى فقعد عن متابعة الشيطان بالرغم منه . وكان البنك العقارى قد انتهى من إجراءات نزع الملكية ، فشهر الأرض للمزايدة فلم يتقدم لشرائها أحد فرست على البنك نفسه . وخرج سعيد إلى زحمة الحياة على هذه الحال الأليمة : أبوه مفلس فلا فى الجيب ولا فى الغيب . وملكه منزوع منه فلا بيت ولا غيط . ولكن رجاءه فى ربه وثقته بنفسه أبعدا عن عينيه شبح اليأس . وكان قد بقى لهم من ثمن الأرض بعد قضاء الدين قدر يسير من المال فاستعان به على إعداد العدة للحياة الجديدة . واستأجر العزبة المفقودة من البنك وشرع يستغلها بعلمه وعمله . وأدركته عناية الله فأصدر المغفور له (صدقى باشا) قانون التسوية العقارية وسدد بمقتضاه الديون التى كانت على المصريين للبنوك من خزانة الدولة ، ووضع يده على الأراضى الزراعية التى نزعت ملكيتها ، ووكل أمرها إلى إدارة أنشأها فى وزارة المالية وسماها (صيانة الثروة العقارية) فأعادتها إلى أصحابها الأولين وقسطت عليهم أثمانها أقساطاً طويلة الأمد . فاستبشر سعيد وأشرقت نفسه بنور الأمل ، وجعل همه وعزمه للأرض الطيبة فآتته من كل الثمرات . وكان سعيد ميمون الطالع يضع يده فى الموات فيحيا ، وفى الخسارة فتربح ، وفى المكارة فتصفو . وارتفعت أسعار الغلات الزراعية فى الحرب الأخيرة وما بعدها فامتلأت مخازنه وعمرت خزانته . فوفى لمصلحة الأملاك ما عليه من الدين وأخذ يشترى منها مزارع مما تملك فى شمال الدلتا وشرقها حتى بلغت جملة أطيانه ثلاثة آلاف فدان .

لا أنكر أن العامل الأقوى فى إثرائه السريع كان اتصاله بأكبر الأحزاب وانتخابه عضواً فى مجلس النواب . وعضوية البرلمان فى تلك العهود السود كانت كما تعلمون مورداً من موارد الثراء لا ينضب معينه . ولا ينقطع رفده . ولكن هذا أيضاً كان من حسن الفأل وسعادة الحظ . وما كان ذلك

التوفيق كله إلا لأن اسمه (سعيد) واسم جده (مرزوق) . أما أبوه فقد كان عثرة الأمل وكبوة الحظ فى حياة هذه الأسرة لأن اسمه (شحاته) .

وأراد صديقنا الطيب أن يصل هذه القصة بقصص أخرى من نوعها ليؤيد بها رأيه فقلنا له :

حسبك ! صدقنا وآمنا . وإذا كان هذا التفاؤل باسم واحد يجلب هذا الخير كله ؛ فإن التفاؤل بجملة من الأسماء تحمل معانى الجمال والنصر ، والصلاح والسلامة ، والنور والسيادة ، والعمران والحكمة ، والدين والحياة ، أخلق بأن يجعل عهد الثورة المباركة عهد تقدم مطرد ورخاء متصل واستقرار مكين .

قصة مريض

قال لى صديق من الريف زار القاهرة فى هذا الأسبوع لشأن من شؤونه :

لا يزال الفساد الذى خلفه عهد الطغيان فى الطباع والأوضاع غاشياً على كل ديوان ، فاشياً فى كل مصلحة ؛ كأن الثورة التى صرعت الجبروت الفاجر فى فاروق ، وقهرت البغى الجائر فى الحكم ، ورفعت الظلم الفاحش فى الأقطاع ، وهزمت الاستعمار المسلح فى القنال ، لم تستطع أن تجتث أصول الفساد من نفوس أولئك الذين يتولون أمور الناس فى الحكومة فيصرّفونها بالهوى ، أو يضيعونها بالترك ؛ فإنك لا تجد عملا يُمضى فى وزارة ، ولا حاجة تقضى فى إدارة ، إلا إذا كان وراءها دافع من سطوة أو رشوة أو شفاعة .

فقلت له : ذلك لأن الإصلاح المعنوى أبعد شقة وأعظم مشقة من الإصلاح المادى . فالثوب القذر تغسله فينظف بعد ساعات ، والجسد المعتل تعالجه فيصح بعد أسبوع ، والبستان المؤوف تنقيه فيطهر بعد شهر ، ولكن الشعب الفاسد تصلحه فلا يصلح إلا فى قرن !

لا يكفيك فى إصلاح النفوس أن تعظ أو تزجر أو تعاقب مادام الهوى غالباً على العقل ، والفسوق ظاهراً على الإيمان . وتغليب العقل وتقوية الإيمان سبيلها التنشئة الصالحة . فالأم تهيأ ، والأسرة تنظم ، والبيئة ترقى ، والمدرسة تصلح ، ثم يترك للوراثة أن تحسن النسل وتهذب النفس عقباً بعد عقب وجيلا بعد جيل .

فقال صديقى : نعم ، ذلك ما يصدقه العيان ويؤيده الواقع ، فإن الثورة

فى سنتين قد بعثت الحيـاة فى الأرض والنشاط فى الناس ، فالإنتاج يزيد ، والعمران يتسع، والعلم ينتشر، والفقر ينقبض، والوطن يتحرر، والأمر يتسق، والأمن يستتب ؛ ولـكن أخلاق الموظفين والتجار والصناع والزراع والعمال لم تتأثر بأخلاق الثورة فى كثير ولا قليل . فقلت له مكملا: وعلة ذلك أن الثورة تستطيع أن تقول للفقر أنبت فينبت ، وللعقيم أنتج فينتج ، وللخراب اعمر فيعمر ، وللشارع انشق فينشق ، وللنظام استقر فيستقر ، على حين أنها لا تستطيع أن تقول للمعوج استقم فيستقيم ، ولا للفاسد اصلح فيصلح ، ولـكن قل لى ما الذى أجرى على لسانك هذا الحديث ، وقد كنت أتوقع أن تحدثنى عن أعمالك فى القاهرة أو عن أحوالك فى القرية ؟ فقال وقد افترت شفتاه عن ابتسامة حزينة : إن ما رأيته هنا وسمعته هناك هو الذى حرك لسانى بهذا الحديث . وما أريد أن أحدثك عما قاسيت من المطال والإهمال والعنت فى كل دار من دور الحـكومة دخلتها لاستعجال عمل أبطأ تنفيذه ، أو إيقاظ ورق طال نومه ، فإن ذلك لم يعد لجريانه مجرى العادة والإلف موضع غرابة ولا موضوع حديث ؛ إنما أحدثك عن دور حكومية أخرى يقولون إنها مساقط للبر ومهابط للرحمة ويسمونها بالمستشفيات ويقتطعون لها جزءاً ضخما من أموال الدولة لتـكون كما زعموا للفقراء ملاذاً من المرض ومجازاً إلى الصحة . ومن هذا الحديث الذى سأسوقه إليك تتبين مكان هذا الزعم من الصدق أو الـكذب .

أنت تعرف ولاشك إبراهيم رضوان المزارع فى أرضك، ذلك الفتى الوسيم الذى لا يفرغ فمه من الـكلام ولاجوفه من الطعام ولاقلبه من المسرة ، أصيب منذ أشهر بقرحة فى المعدة وقروح فى المثانة ، فاختلف إلى عيادات الأطباء ومستشفيات الصحة ينشد فيها سكون الألم وخشوع الداء فلم يرجع منها بطائل . فقيل له دعك من أطباء الريف ومستشفياته وسافر على بركة الله إلى القاهرة

فزر آل البيت وادخل (القصر) تجمع بين طب الروح وطب الجسد . فآمن إبراهيم بهذا القول وذهب فى الغد إلى سوق الثلاثاء بالمنصورة فباع ابن الجاموسة بعشرة جنيهات . ثم نزل فى مســاء الأربعاء ضيفاً على أحد أقاربه فى حى (أبى الريش) من القاهرة .

وفى الصباح غدا مع قريبه الطباخ إلى المستشفى الكبير فقطع تذكرة ودخل بها فى غمار المرضى وانتظم فى الصف ، حتى جاءه الدور فوقف أمام الطبيب الشاب ، فسأله متبرماً عما يشكو ، ثم وصف له (المزيج الأبيض) من غير فحص ، وانصرف عنه إلى غيره بدون اكتراث . فرفع إبراهيم صوته يلتمس العلاج الداخلى فذهب التماسه فى الضجيج وغاب شخصه فى الزحام . فرجع إلى منزل قريبه يجر ساقيه من الإعياء ، ويمسك خاصرتيه من الألم واعتراه فى ذلك المساء قيء دموى وعسر فى البول فقلق أقرباؤه عليه ، وسمع أحـد الجيران بأن المستشفى رفض قبوله فيه فتطوع بالنصح لقريبه أن يعطى (تومرجيا) يعرفه جنيها وهو زعيم بأن يدخله (القصر) فى أى ساعة من أى يوم .

ودخل إبراهيم المستشفى بفضل الجنيه فوجد سريراً يستلقى عليه وأطباء يعنون به وممرضات يطفن من حوله . وفحصه (حكيمباشى) على حد قوله ، فقرر أن يحلل دمه وبوله ، وأن تصور معدته ومثانته . واستغرقت هذه الأعمـال التمهيدية ثلاثة وعشرين يوماً كان المريض فى أثنائها يعالج بالصبر ويمرض بالدعاء ويواسى بالأمل حتى تبلغت به العلة ونفر منه النوم . وأخيراً ظهرت نتائج التحليل والتصوير ، فتبين الداء وتعين الموضع وتقرر العلاج فاستبشر المريض واخضر ما ذوى من أمله . ثم أصبح فإذا سريره محط الاهتمام للأطباء الشباب ، فواحد يخرج وآخر يدخل ، وهذا يفحص بالسماعة ، وذاك يجس باليد ، وهؤلاء يحققون بالمنظار ، حتى بلغ عدد الأطباء الذين فحصوه فى يوم واحد خمسة وثلاثين !

قال لى ابراهيم : فلما رأيت هذه الدقة فى الكشف ، وهذه الكثرة من الأطباء ، سبق إلى وهمى أنهم أخطأوا التقدير فحسبونى جليل الشأن عظيم الخطر ، فهم يخصوننى بهذه العناية . . ولكن المظهر الذى يروننى عليه ،والعنبر الذى أنزلونى به ، والزوار الذين يزورننى فيه ، كل أولئك كان ينبههم إلى خطأ هذا الحسبان لأول وهلة وبأدنى نظر. إذن لم يبق إلا أن يكون دائى دوياً لا يعرف كنهه ولا يرجى برؤه . فهم يديمون النظر ويكررون الفحص ويجيلون الرأى والمشورة . ورجّح هذا الظن فى نفسى أن الممرضات لم يعطيننى دواء غير المسكن ولاغذاء غير المألوف . . على أننى حمدت الله أن هيأ لى فرصة الاستشفاء فى مصح حشد له أمهر الأطباء ، وجلب إليه ، أندر الأدوية ، ووضع فيه أدق الأجهزة ، وتحلى به عطف الدولة على أمثالى من المرضى الذين يعجزهم أن يجدوا الطبيب الحاذق والدواء الناجع والمضجع المطمئن .

ولكن الأيام توالت ثقالا طوالا على هذه الحال . أطباء كثيرون لا يفرغ لهم فحص ولا يظهر لهم علاج . وممرضات كثيرات لا ينقطع لهن أمر ولا تحصل منهن خدمة . والقيء البنى فى خلال ذلك يعاود ، والألم يشتد ، والبول يعسر ، والهضم يسوء ، والهزال يزيد ، والنتن فى الفراش تزكم ريحه الأنوف ، والوسخ على الجسد يدير زفره الرءوس . والأقرباء والأصدقاء يزورون ومعهم اللحم والفاكهة والحلوى فتصادره الممرضة لحسابها إشفاقاً على المريض أن تثقل على معدته موزة أو برتقالة ! والنقود أوشكت أن تنفد من جيبى ، لأن الخادم أو الخادمة لا يلبى طلباً ولا يقضى حاجة إلا بأجر ! فرابنى الأمر وتخالجتنى الظنون ، فمات ذات يوم على جارى فى السرير وهو شيخ كان فى عمره الذاهب من القراء ذوى الصوت والصيت ، وسألته أفى ملجأ نحن نأكل وننام ، أم فى مستشفى نستطب ونتداوى؟ إن كنا فى ملجأ فلم هؤلاء الأطباء ! وإن كنا فى مستشفى فأين الطب والدواء ؟

فقال جارى وقد فششت بهذا السؤال جوفه المنفوخ بالغيظ ، فأخذ يستريح إلى مكنون صدره . لسنا والله فى هذا ولا ذاك . إن الملجأ رحمة وهنا القسوة . وإنه فى المستشفى صحة وهنا المرض . والظاهر أنك تحسب الشباب الذين يزعجوننا كل ساعة بالجس والنقر أطباء ! لا يا رفيقى ، إنهم طلبة الطب يتخذوننا نماذج يطبقون عليها العلم ويتعلمون فيها الفحص . والطبيب المسئول واحد . وهو الذى يصف الدواء وينظم الغذاء ويراقب العلة . وإذا لم يأتنا الممرضات بالأدوية التى يقتضيها العلاج فوزر ذلك لا يقع عليه ، إنما يقع على أولئك الذين يدسونها فى جيوبهم خلسة ثم يزعمون أنها صرفت المرضى !

وكان الشيخ أمين يريد أن يسمى الأشخاص ويذكر الوقائع لولا أن دخل الطبيب والطلاب فابتلع لسانه وقر فى فراشه .

نظرت فى أمرى على ضوء ما سمعت من الشيخ فتبين لى أن الشفاء صار خيالا باليأس بعد أن كان حقيقة بالأمل ، وأن الصحة فى (القصر) أصبحت أسوأ مما كانت فى القرية ؛ وأن الطبيب الخامل مع العناية خير من الطبيب النابه مع الإهمال ؛ وأن الزوجة الجاهلة مع الرقة أنفع من الممرضة الخبيرة مع الغلظة ؛ وأن العلاج بالأجر أرخص من العلاج بالمجان . فقررت أن أعود إلى قريتى وزوجتى وطبيبى . وعدت وليس عندى من قوة الجسم إلا ما أبلغ عليه القرية ولا معى من ثمن العجل إلا ما أركب به القطار !

وعاد ابراهيم بعد ثلاثة أشهر قضاها فى أضخم مستشفى بين يدى أعظم طبيب ! !

فلما فحصه طبيبه الريفى الأول قرر أن قرحة المعدة قد اتسعت وعمقت حتى ليخشى أن تمتد إلى شريان ، وأن قروح المثانة قد سعت وانتشرت حتى ليخشى

أن تتحول إلى سرطان ! ولم يشأ الرحيم الرحمن أن يطيل العذاب على هذا المسكين فانفجر الدم فجأة فى جوفه وتدفق من حلقه ولم ينقطع نزفه حتى انقطعت حياته .

فقلت لصديقى وأنا أترحم على إبراهيم وأتألم لمصير عائلته من بعده :

لقد نُقل إلى كثير من هذه المآسى وما ينبغى أن نيأس ، فإن عين الثورة لا بد أن تقع على أبطالها فى يوم قريب .

حيرة ...

تعالى يا قارئى العزيز نتشاور إن كنت كأكثر الشيوخ عليل الجسم ، أو نتحاور إن كنت كأكثر الشباب صحيح البدن : هل ترى من الخير للمريض إذا ترادفت عليه الأوجاع فشكا علتين فأكثر أن يذهب لعلاج كل منها إلى الطبيب الذى تخصص فيها ، فقرأ أكثر ما كتب عنها ؛ وفحص أكثر من أصيب بها ، وجرب أكثر ما وصف لها ، فيذهب مثلا فى علل الصدور إلى سامى ، وفى علل القلب إلى قناوى ، وفى علل المعدة إلى عرفة ، وفى علل الأعصاب إلى جنينة ، وفى علل الروماتزم إلى سلامة ، وفى علل الغدد إلى غليونجى ، أم ترى من الخير أن يستوصف لهذه العلل جميعاً طبيباً باطنياً واحداً كجعفر أو ياسين أو عفت فيصالح بين الأدواء ، ويوفق بين الأدوية ، حتى لا يطغى داء على داء ، ولا يتعارض دواء مع دواء .

أنا من أنصار التخصص لأنه النظام الذى يلائم طبيعة العصر ويوائم حقيقة العلم ، ولا يرضينى من الطبيب اليوم أن يكون كما كان ابن سينا طبيباً فى كل فروع الطب ، حكيما فى كل فنون الحكمة ، عالما بكل ضروب العلم ؛ فإن العلم وإن ضاق أوسع من أن يحيط به عالم ، والعمر وان اتسع أضيق من أن يكمل فيه علم . والذى يأخذ من كل شىء بطرف هو الأديب ، لا العالم ولا الطبيب ، لذلك كان لى عند كل طبيب متخصص ملف ، وكان عندى لكل مرض معين تذكرة . ومع ذلك فإن جسمى — والحمد لله على كل حال — يذوب ولا يثوب ، وصحتى تتأخر ولا تتقدم ! ستقول لى وعلى لسانك لهجة الانكار : (لعلك قصرت فى تعاطى الدواء ، أو خرجت على نظام الأكل ، أو خالفت من أمر الطبيب) فأقول لك وعلى لسانى يمين الله : إنى لم أغفل عن

الدواء يوما ، ولم أشذ عن النظام أبداً ، وإنما كنت أطوع لكل طبيب واتبع لكل نظام من « رءوف بك » .

وللسيد رؤوف مع السادة المتخصصين قصة طريفة قرأتها أو سمعتها منذ بعيد . وسأقصها عليك وأن لم يبق فى ذاكرتى منها إلا الهيكل .

كان رءوف بك من أبناء الذوات . وكان له كهؤلاء المترفين حظيرة للسيارات من كل طراز ، واصطبل للخيل من كل سلالة ، ومطبخ لا تنطفىء مواقده فى نهار ولا ليل ؛ ولكنه كان كسولا لا يمشى ولا يركب ولا يرتاض وكانت هوايته المفضلة أن يدمن الأكل إدمان النعاج ، فهو يستيقظ ليأكل ، ويأكل لينام ، حتى تراكم اللحم عليه ، وتراكم الشحم فيه . وبلغ وزنه الصافى مائتين وسبعين رطلا ! ثم تنبه من طول ما تداعب الرفاق على بدانته إلى أن الاستقراطية تستوجب الهندام المحكم على القد الرشيق ، وأن الرقص يتطلب البطن الضامر والخصر الهضيم ، ففزع إلى ابن ذوات من أصحابه هوايته أن يعرف جميع الأطباء المتخصصين بأسمائهم وعناوينهم ، لا لأنه مسقام متنوع العلل ، ولكن لأنه ارستقراطى ، ولكل ارستقراطى هواية ما ، فهذا هوايته أن يقتنى الثعابين أو القطط ، وذاك هوايته أن يجمع الطوابع أو الإمضاءات ، وذلك هوايته أن يحفظ طرز السيارات أو أنواع الخمور . وكل ارستقراطى يستعين بأخيه فيما تخصص .

قال رءوف لصاحبه : أريد أن (أخس) فدلنى من فضلك على الطبيب المختص .

فقال له صاحبه وهو يربت بحنان على كتفه الضخم : عظيم ! اذهب إلى الدكتور طاهر فى شارع عماد الدين رقم كذا تر معه ما يرضيك .

ذهب رءوف إلى ذلك الدكتور ففصحه ، ثم سن له نظاما علاجيا أظهر مافيه

أن يمشى كل يوم ساعتين فى الصباح وساعتين فى المساء . وكان العلاج شافياً ، فقد نقص وزنه فى ستة أسابيع خمسة وعشرين رطلا ؛ غير أنه أحس فى آخر المدة أن قدميه أخذتا تضعفان حتى عجزتا عن حمله ، فلجأ إلى صاحبه الخبير يشكو إليه وجعه الجديد ، فدله على الدكتور عزت ، وهو متخصص فى علاج هذا النوع من الأمراض بحمامات قدمية يجعلها من الطين الحر المخفف بالماء . وظل رءوف ثلاثة أشهر يضع قدميه فى هذا الوحل كل يوم حتى زال الوجع وذهبت العلة وعادت إلى القدمين قدرتهما الأولى على حمل الجسد الشحيم . وذهب رءوف إلى صاحبه يشكره ويحمد إليه الله الذى شفى قدميه من هذا الداء الثقيل الذى ربطه بالسرير تسعين يوما ، ولولا أن به ألما فى حلقه لما كان لديه ما يشكوه .

لقد أصابه من طول غمس قدميه فى الطين الرقيق ألم فى الحنجرة ، ورأى صديقه الطبيب ذلك فقال له : لا بأس ! إن زيارة واحدة للدكتور شوقى المتخصص فى أمراض الأنف والأذن والحنجرة كفيلة بأن تمسح ما بك .

وفحص الدكتور شوقى بدقته المثالية حنجرة رءوف فرأى أن أكثر أمراض الحلق إنما تنشأ من ضعف الدورة الدموية فى الحلقوم . فقرر أن يقويها بجلسات كهربائية . واستمر المسكين يكابد هذا العلاج الممل بصبر المؤمن وتفويض المتوكل شهرين كاملين سكن فيهما الألم وزالت البحة . ولكنه كان وا أسفاه من أسرة تتوارث علة عصبية خاصة ساعدتها الكهرباء على ظهورها فيه . فاعترته نوبات شديدة كاد بعضها يهجم به على الخطر . وأخذت تعتاده هذه النوبات المزعجة حتى زاره صديقه فقال له متعجباً : ما الذى يحبسك عن العلاج ؟ أراض أنت عن هذه الحال ؟ هلم يا أخى إلى الدكتور وديع المختص فى الأمراض العصبية تنفرج عنك هذه الأزمات فى أسرع مما تظن .

ورآه الدكتور وديع فوصف له عقار (البرومور) ، والبرومور كما يقول علماء

الأقر باذين ليس بينه وبين المعدة وفاق : هو يضعفها ويتلفها ، وهى لا تتحمله ولا تقبله · لذلك أصبح رءوف بعد شهر من العلاج ممعودا يشكو عسر الهضم وفقد الشهية وفساد الجوف ،والممعود لا بد أن يذهب من تلقاء نفسه إلى الدكتور فوزى المتخصص فى أمراض المعدة من جامعة (برلين) . ولا تجد أكولا من عشاق الطعام الدسم المتبَّل لا يعرف عيادته ·

استلقى رءوف على ظهره فوق سرير الفحص وأسلم بطنه المتفخ إلى يدى الطبيب فجعل يجس وينقر ويتسمع ويسأل ، ثم كتب له تذكرة مما يشرب ويستحلب ويبلع ويحقن . وأوصاه أن يقلل من أكل اللحوم ومن شرب السوائل ، وأن يجعل قوام غذائه النشويات المهروسة كعجائن البطاطس والفاصوليا والبسلة ، وأن يلزم هذا العلاج شهراً ، فكانت النتيجة الحسنة لهذا النظام الدوائى الغذائى أن عادت لمعدته قوتها الطاحنة الأولى · أما النتيجة السيئة فكانت امتلاء بدنه بالشحم ، وانتفاخ بطنه من السمن ، حتى زاد وزنه على ثلاثة قناطير . وذلك من إفراطه فى التهام النشويات المعجونة ليعوض بها ما حرمه من سائر المواد . فعاد رءوف يفكر فى تخليص جسمه من ثقل ما تراكم عليه ، فلجأ إلى صديقه الناصح يستفيد من خبرته مرة أخرى فيما فكر فيه . ولم يكد يفضى إليه بما شغل باله من فحش سمنه ورهل بدنه حتى قال له : اطمئن يا رءوف ! سأذهب بك إلى متخصص آخر يجعلك فى زمن قريب أشبه بلوريل ولا بهاردى[1] . فقال له : أخشى إذا أنا إذا عدت إلى الطبيب أن يعودهو إلى العلاج بالمشى الطويل فتثقل قدماى ، ثم تلتهب حنجرتى ، ثم تضطرب أعصابى ، ثم تفسد معدتى ، ثم يزيد وزنى !

فقال له الصديق : لا تخش أن يتكرر ما وقع ، فان الطبيب الذى ستذهب

---

(١) ممثلان هزليان أمريكانيان أحدهما نحيل وهو لوريل ، والآخر سمين وهو هاردى.

اليوم متخصص فى علاج السمن بالركوب لا بالمشى ، يعالجه بركوب الخيل . ولا تظنه كالمتخصصين الآخرين يكتفى بأن يقول لك : خذ أى فرس من الاصطبل واركبه شوطا أو شوطين فى طريق الأهرام أو فى طريق ألماظة ، لا لا ، إنه يكتب لك تذكرة فى اثنتى عشرة صفحة من القطع الكبير يدون فيها النظام الذى يجب أن تتبعه . يبدأ بشكل اللباس الذى ترتديه ، وبوصف الحصان الذى تنتقيه . ثم يحدد لك ساعة الخروج ومدة الركوب ومسافة الشوط. ثم يذكر على وجه الدقة متى تنتقل من السير إلى الهملجة ، ومن الهملجة إلى العدو، ومن العدو إلى الحُضر . وكل ذلك فى شرح بين وتفصيل محكم .

وذهب رءوف مع صديقه إلى عيادة الدكتور إلهامى ورجع من عنده بتلك التذكرة .

وفى صباح اليوم التالى دخل غرفة الثياب فاختار اللباس المناسب، وانتقل إلى اصطبل الخيل فانتقى الحصان المطلوب وأخذ يزاول التمرين على الوجوه التى رسمتها التذكرة . ولم يمض على رَكبته الأولى ثلاثة أيام حتى كان وزنه قد نقص أربعة وثلاثين رطلا ! . . نتيجة مدهشة ، وعلاج ناجع ، ونجاح عظيم ! !

ولكن أتدرى كيف نقص وزنه هذا النقص الكبير فى هذا الزمن القصير ؟

لم يكد رءوف ينطلق بالجواد حتى سقط من صهوته سقطة شديدة كان من جرائها أن بتر الجراح ساقه وهى تزن أربعة وثلاثين رطلا بالتمام والكمال ، والحمد لله على كل حال ! !

أحمد أمين الأديب

رحم الله صديقى أحمد أمين ! لقد كان فى أعقاب عمره دنيا من العلم والأدب ، فى هيكل بال من العضل والعصب ! ومن الصعب على نفسى وقد صادقته أربعين سنة متتابعة أن أقول فى الدعاء له : (رحم) ولا أقول (حيا) ، وأن أستعمل فى الإخبار عنه (كان) ولا أستعمل (هو) ، وعسى أن يكون من بعض عزائنا عنه أننا مازلنا نعيش معه فى كتبه ، ونتصل بروحه فى أدبه . ولعلك لاتجد تلازما بين شيئين أشد مما هو بين أحمد أمين وما يكتب . فقد كان إذا ألف كتاباً أو أنشأ مقالا أو ترجم فصلا ظل باقيا وراء كلماته وخلال سطوره ، يعرض عليك الصور ويقرر لك الآراء بطلعته الباسمة فى غير افترار ، ولهجته الحازمة فى غير أمر ، وعقله القوى فى غير صلف ، وطبعه الحي فى غير ضعف ، وأسلوبه الهادىء فى غير فتور ، فلا تدرى أتقرأ أم تسمع ، وكتاب فى يدك أم رجل معك .

نشأ أحمد أمين نشأة أزهرية . وأعنى بهذه النشأة ما يلازمها من نمط خاص فى الحياة والتربية والدراسة والوجهة . ومن غريب هذه النشأة أنها تساعد على الهبوط كما تساعد على الصعود . فمتخرجو الأزهر فى عهده القديم كانوا إما قادة للشعب وإما حميلة عليه . لأن حرية التعليم فيه كانت تهيىء كل نفس لما خلقت له . فهذا تعده ليكون قارئا فى ضريح أو إماما فى جامع . وذاك تعده ليكون مستشاراً فى محكمة أو أستاذاً فى جامعة . وأحمد أمين كان كمحمد عبده وسعد زغلول قد زوده الأزهر بخير مافيه من صبر على الدرس واتكاء على النفس واستقصاء لأطراف البحث . ثم دفعه إلى الحياة دفعاً فاستكمل ثقافته فى مدرسة القضاء الشرعى . ثم اشتغل بالتعليم . ثم تولى الحكم بين الناس فى المحاكم

الشرعية ثم ثقف على نفسه اللغة الإنجليزية . ثم تبوأ كرسيه فى الجامعة المصرية وفى مجمع اللغة العربية . ثم احتل بمؤلفاته مكان الزعامة العلمية .

لست بصدد الحديث عن نواحى العبقرية فى حياة الفقيد وملكاته ومؤلفاته . وإنما هى كلمة موجزة فى طبيعة أدبه أكتبها فى يوم ذكراه تحية وفاء ألقيها على روحه ، وطاقة زهر أضعها على قبره .

كان أحمد أمين متضلعاً فى علوم الدين واللغة كأكثر النابغين من المتخرجين فى الأزهر . ولكنه كان من الأزهريين القلائل الذين أوتوا دقة النظر وحرية الفكر وسعة الأفق . فكان فى الدين صاحب اجتهاد وفى اللغة صاحب رأى .

كان يرى أن الدين دستور للدنيا فلا بد أن يتطور مع العلم وأن يتقدم مع الحضارة . وكان يرى أن اللغة أداة للفهم فلا بد أن تطوّع لألسنة الناس وأن تجدد على طول الزمن . وكان رأيه فى الأدب قائماً على رأيه فى الدين ورأيه فى اللغة .

فالأدب تفكير مستمر يتأثر بالفكر العام ويؤثر فيه ؛ والأدب تعبير متجدد يصور المجتمع الحاضر ويترجم عنه ، فطبيعته المرونة لا الجمود ، وغايته الحق لا الجمال ، وعدته الانطلاق لا الفن . ذلك لأنه كان من الكتاب العقليين الذين يزاولون الكتابة عن علم لا عن سليقة ، ويتخذون الأدب وسيلة لا غاية .

كان همه من الكتابة أن يقرر ويقنع لا أن يؤثر ويُمتع . ولعل منشأ ذلك فيه أن عقله أخصب من خياله ، وأن علمه أكبر من فنه ، وأن حبه للحرية والصراحة كان يحبب إليه إرسال النفس على سجيتها من غير تقييدها بأسلوب معين ، وعرض الفكرة على حقيقتها من غير تمويهها بوشى خاص . ومع ذلك

كان لأسلوبه طابعه المميز وجاذبيته القوية . تقرأه فلا تروعك منه الصور البيانية الأخاذة ولا الأصوات الموسيقية الخلابة ؛ إنما تروعك منه المعانى المبتكرة الطريفة ، والآراء الصريحة الجريئة ، والشخصية القوية المهيمنة . فأنت منه بإزاء عالم يبحث لينتج ، أو مصلح يصف ليعالج ، لا بإزاء مصور يلون ليعجب ، أو موسيقار يلحن ليطرب .

على أنه كان يتوخى الجمال أحياناً فى الأسلوب بحكم الأثر الذى تركته فيه درايته للقرآن والحديث ، وروايته للشعر والنثر ، ودراسته للبيان والنقد . فيجمع بين حسن الفكرة وجمال الصورة ، ويلائم بين رزانة المعنى ورصانة اللفظ . وربما كان ذلك أظهر مايكون فى كتابه « حياتى » : فإن فى تصويره البيت والسقا والمحدث والكتاب والأزهر ، وفى وصفه لأبويه وإخوته وصديقيه عبد الحكيم محمد وعلى فوزى ، وأستاذيه عاطف بركات ومس بور ، انماذج من البيان المطبوع الذى يشرق بنور العقل ، وينبض بروح العاطفة ، ويزهو بألوان الفن .

ذلك أحمد أمين الأديب بالمعنى الأخص للأدب . أما أحمد أمين الأديب بمعنى الأدب الأعم فقد كان أعظم شأناً وأبلغ أثراً وأرفع مكانة . وحسبه أنه حلل الحياة العقلية للعرب والمسلمين فى كتبه : فجر الإسلام وضحاه وظهره تحليلا لم يتهيأ مثله لأحد من قبله . وستظل هذه الكتب الخالدة شاهدة على الجهد الذى لم يكل ، والعقل الذى لم يضل ، والبصيرة التى نفذت إلى الحق من حجب صفيقة ، واهتدت إليه فى مسالك متشعبة .

لقد كان أحمد أمين ناجحاً فى حياتيه العلمية والعملية . وكان نجاحه فيهما نجاحاً للجد وفوزاً للفضيلة . لأنه لم يعتمد فى شهرته العلمية على الإعلان والتهويش ، ولا فى مناصبه الحكومية على الاستخذاء والملق ؛ وإنما كان يجرى

فى عمله على الإخلاص ، وفى معاملاته على الحق ، وفى علاقاته على الشرف بالمقدار الذى يطيقه الإنسان الخاضع بحكم طبيعته لآثار الوراثة والبيئة والظروف .

وما كانت حياته الحافلة إلا مثلا للحياة العاملة فى غير ضجيج ، الناصبة فى غير ملل ، المثمرة فى غير غرور ولا دعوى . فكانت أشبه شىء بالنبع السلسال العذب ، يسيل حلو الخرير تحت شواجن الأدغال وفوق مطمئن الأرض ، فيروى العطاش ، ويمرع السهول ، فى غير هدير ولا صخب .

جعل الله روحه للخلد كما جعل ذكراه للخلود ، وعوض الأدب والعرب والإسلام من فقده خير العوض .

أما آن لهذا الحيوان أن يعقل

سمى نفسه إنساناً من الأنس ، وسمى غيره وحشاً من الوحشة . ومعنى الأنس الاطمئنان والألفة ، ومعنى الوحشة النفور والعزلة . وليس معنى جنوح ابن آدم للأنس أنه لطيف ، ولكن معناه أنه ضعيف . ومن طبيعة الحيوان الضعيف أن يعيش مجتمعاً بأفراد جنسه ليعالج بالتعاون ضعفه كما تفعل النحل والنمل ، ولكنه — واحسرتا عليه — لم يستطع بعقله وعلمه وفهمه وقوانينه وأنظمته ومدنيته أن يقيم مجتمعه على السلام والوئام والإخاء والتعاون ، كما فعلت هاتان الأمتان بالغريزة وحدها ، فلا نعلم أن أمة النحل أو أمة النمل تفرقت شيعاً وقبائل ، لتتخاصم على الأرض ، أو تتقاتل على القوت ، أو تتنازع على السلطة ؛ وإنما نعلم أن هذا الإنسان الذى يزعم أنه قطب الوجود ، وسيد الكون ، وخليفة الله ، لا يزال يعيش كما كان يعيش منذ ملايين السنين ، هواه إلهه ، وشهوته شرعه ، وغريزته دليله ، وقوته عدته . أما ذكاؤه الذى تميز به نوعه ، فقد سخره فى تسليح يديه بالحديد والنار والدمار ، لا ليقهر كواسر الطير فى الجو وضوارى الوحش فى البر ؛ ولكن ليقهر إخوته لأبيه آدم ليستأثر دونهم برغيف أو يستعلى عليهم بموضع .. ولو كان يجرى على منهاج الوحش يقتتل حين يدافع ، ويفترس حين يجوع ، لقلنا حب البقاء طبيعة كل حى ؛ ولكنه يقتتل وهو آمن ليحتكر ويحكم ، ويفترس وهو شبعان ليدخر ويسود .

بدأ العالم منذ أيام سنته الخامسة والخمسين من القرن العشرين ، وقد بلغ الإنسان بالعلم ما بلغه آلهة الإغريق بالخيال من استخدام قوى الطبيعة واستغلال

عناصر المادة ، فاخترع من الآلات وصنع من المعجزات ما يجعل العيش نعيما والأرض جنة لو كان يعالج أموره بالعقل ، ويصرف شؤونه بالحكمة ؛ ولكنه ابتلى من دون سائر الحيوان بأن يكون له (مستقبل) ينظر فيه ويعمل له ويخاف منه ، وخوفه من هذا (المستقبل) المجهول حمله على الاستئثار والادخار والشح ، والطمع هو جماع هذه الخصال جميعا . فكل امرىء يطمع فى نصيب غيره ويدفع عن نصيبه . ومن هذا الهجوم الدائب والدفاع المستمر نشبت معركة الحياة بين الفرد والفرد ، وبين الأسرة والأسرة ، وبين الأمة والأمة ، بالقول أو بالفعل ، وفى السر أو فى الجهر . وكان الظن بالإنسان وقد بلغ ما بلغ من الرقى أن يحكم العقل فيما شجر بين أفراده على قسمة الدنيا وغلة الأرض . ولكن العقل فشل والهوى تحكم حتى انتهى الحال بالعالم المتمدن إلى كتلتين عدوتين تتباريان فى تدمير هذا الكوكب على أهله . وفى سبيل هذه المباراة حولت كل منهما أموال دولتها ورجال أمتها إلى الإعداد الجهنمى لإقامة القيامة قبل أجلها الموقوت !

وفى مستهل السنة الميلادية التى يرتل المسيحيون فى ذكرى مولد صاحبها ذلك القنوت الشعرى الجميل : « المجد لله فى الأعالى ، وعلى الأرض السلام ، وفى الناس المسرة » يقول (أيزنهاور) فى رسالته السنوية للكنجرس: إن البرنامج العسكرى للولايات المتحدة يستهلك ثلثى الميزانية العامة للدولة ، وأن أربعة ملايين من الأمريكيين يعملون فى الجيش وفى قوة الدفاع . ويطلب المزيد من العتاد والاستعداد لينتهى الشيوعيون عما هم فيه وينجو العالم من فناء ذرى محقق . فيجيبه من الطرف الآخر ضابط روسى فى جريدة (برافدا) الرسمية يقول : إن لدى روسيا من الأسلحة الذرية ما يمحو أمريكا من الوجود.

إذا فكرت فى العدوان على الاتحاد السوفييتى ! وتثور فى رأس القائد الإنجليزى أرسكين نزوة الاستعمار الكافر فيقرر الهجوم بخمسة وعشرين ألفاً من الجنود على الوطنيين فى (كينيا) ليبيدهم جميعاً ويفرغ من أمرهم سريعاً ! . .

وتأبى فرنسا أن تتخلف عن انجلترا فى تقريب القرابين الآدمية لآلهة الاستعمار فى ذكرى مولد المسيح راعى السلام وحامل الآلام ورسول الرحمة فتنشط فى التنكيل بالمجاهدين الفدائيين فى مراكش والجزائر !

فإذا كان العقل كما يقول اللغويون قد سمى عقلا لأنه يعقل صاحبه عن الشر فإن أكثر الناس لم يعقلوا حتى اليوم ! لأنهم لو عقلوا لأدركوا أن مشكلات العيش الاقتصادية مهما تتعقد وتعضل لا يستعصى حلها على النية الحسنة، والنفس الخيرة ، والمنطق السليم ؛ وأن هذه الملايين من الرءوس المفكرة والأيدى العاملة التى تنتج للحرب لو أنتجت للسلم لوفرت للعالم كله الغذاء والكساء، كما وفر الله الماء والهواء ؛ وأن هذه القناطير المقنطرة من الذهب التى تنفق على الثكنات العسكرية والمصانع الحربية لو أنها أنفقت على محاربة الفقر العام لما بقى على ظهر الأرض فقير . وتنازع القوت هو المشكلة الأزلية للحياة . والفقر هو النكبة الأبدية على النظام . والجوع هو السبب القريب أو البعيد لكل ثورة فى تاريخ الأمم ولكل جريمة فى حياة الأفراد .

على أن دول الغرب المصابة بحمى الحرب قد ورد على مسامعها مع التهنئات بالسنة الجديدة ، والتهديدات بالأسلحة المبيدة ، ثلاثة أصوات أخرى جهيرة بالحق رخيمة بالسلام تبشر بالحب وتنفر من العدوان ، انبعث أولها من روما وهو صوت البابا ، وانبعث ثانيها من مصر وهو صوت جمال عبد الناصر ،

وانبعث ثالثها من الهند وهو صوت البنديت نهرو . وصف البابا فى إذاعته ليلة عيد الميلاد ماتعانيه الكتلتان المتنازعتان من الخوف المقلق والاضطراب المزعج، بالحرب الباردة ، لأن الناس لا ينعمون فيها بحياة الأمن ولا بحرارة الأمل ، ودعا إلى التعاون السلمى بين الشرق والغرب .

وعلل جمال عبدالناصر فى حديثه إلى مراسل صحيفة (بوربا) اليوغسلافية فساد الحال بين المعسكرين المسيطرين على سياسة العالم بسوء التفاهم وفقد الثقة ، فلو أنس كل منهما بناحية الآخر ، وسفر بينهما العقل الثاقب والفهم البصير لانقطعت أسباب هذه الجفوة . . وأكد أن العرب مصممون على تقوية الجامعة العربية لتحقق مايرجونه من قيام اتحاد فيدرالى بينهم يضمن لهم السلامة ويبسط عليهم السلام .

ودعا البنديت نهرو فى حديث له إلى تحقيق أحلام الفلاسفة بقيام حكومة من العلماء تقيم السياسة على قواعد المنطق ، وترفع المجتمع على أسس الحق ، وتطبق على فوضى هذا العالم نظام (المدينة الفاضلة) .

فإذا أضفنا ماتوحيه هذه الأصوات السماوية من المعانى الروحية السلمية . إلى اتفاق الرأى فى القارتين الشرقيتين آسيا وإفريقيا على عقد مؤتمر من أقطاب الرأى فيهما يوحد الخطط المؤدية ، ويعين الأهداف المشتركة ، لتتعاونا على المعروف ، وتتناصرا على المنكر ، وتتساعدا على نشر السلام العام ، غمرنا شعور من التفاؤل بأن الله سيتدارك عباده بلطفه ، فيضىء قلوبهم بنور العقل ، ويهيىء نفوسهم لقبول العدل ، ويجمع الشرق والغرب على المبادىء التى شرعها فكفروا بها ، ليضعوا لهذه الدنيا المتدابرة المتناحرة سياسة جديدة تجعل أرض الله مضطرباً لكل كادح ، وخير الأرض مشاعاً لكل مستغل . . ويومئذ يكون الفصل

بين عالم عاش فيـه الحيوان بغرائزه الوحشية ، وعالم يعيش فيـه الإنسان بطبائعه المدنية . يعدل بين جنسه وغير جنسه ، ويحب لغيره ما يحب لنفسه ، ويطمس فى ذهنه حدود البيت والأسرة ، ومعالم الوطن والأمة ، ليصبح الناس كلهم أسرته ، والدنيا بأسرها وطنه . ويومئذ يستطيع الإنسان أن يتبجح بعزة العقل والعلم ، ويقول لقافلته الضاربة فى مجاهل الأبد وهى لا تملك مشاعرها من القلق والفرق :

لقد زال الطمع فزالت العداوة ، ومات الفقر فماتت الحرب !

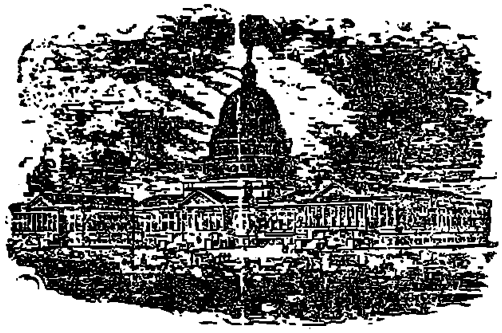

من ذكريات الصيف

— ١ —

فى بغداد :

حديث اليوم بعضه ذكريات ، وبعضه مطالعات ، وكله من وحى هذا الصيف ! والصيف زمن النضج والإثمار ، وفصل الخير والبركة ؛ ولكنه بالطبيعة ثقيل الأنفاس على أكثر البلاد العربية لركود ريحه وجفاف جوه واشتداد قيظه . ولذلك كان له فى الأدب العربى فصل حار يشكو الكتاب والشعراء من سموم أيامه وحرور لياليه . ولو كنت بسبيل الحديث عنه فى الأدب لذكرت لك طرفاً من ذلك . على أنى سأذكر طرفاً مما كابدته أنا نفسى من عذابه فى سنة من السنين . تلك كانت سنة ١٩٣٠ وهى أول سنىّ الثلاث فى بغداد . وكنت قبل أن أرحل إلى العراق أعلم أن مناخه قارى يبرد فى الشتاء حتى يجمد الماء ، ويقيظ فى الصيف حتى يذوب الحجر . وكان قد عاق بذاكرتى قول المقريزى فى خططه : « إن محاسن مصر أن أهلها لا يحتاجون فى حر الصيف إلى الدخول فى جوف الأرض كما يعانيه أهل بغداد » وقرأت لبعض كتاب العراق رسالة يصف فيها حره بقوله : « حر لا يطيب معه عيش ، ولا ينفع فيه ثلج ولا خيش . فهو كقلب المهجور ، أو كالتنور المسجور » فاجتمع فى ذهنى من هذا ومن غيره صورة بشعة لهذا النوع من الحر ، ولكنها كانت صورة مبهمة المقدار مجهولة الحال . فلما ذقته كان فى الواقع أبشع منه فى الخيال ، وفى الحس أفظع منه فى المعنى . ولعلنى بعد أن عرفته أدركت كل الإدراك معانى بعض الجمل وحقائق بعض الصور فى مثل قول الشاعر :

فى زمان يشوى الوجوه بحرٍّ ... ويذيب الجسوم لو كن صخرا

لا تطير النسور فيه إذا ما وقفت شمسه وقارب ظهرا
ويود الغصن النضير به لو أنه من لحائه يتعرى

السنة فى العراق فصلان : شتاء وصيف . وليس بين الفصلين المتعاقبين إلا استراحة قصيرة لا تزيد على شهر . فالحر يبدأ من أواخر مارس ، ثم يتدرج حتى يبلغ الأوج فى أشهر يونيو ويوليو وأغسطس . ثم تنكسر حدته بعد ذلك . هذا فى العام ، أما فى اليوم فيطلع الحر بطلوع الشمس ثم يصعد بصعودها ، حتى إذا أقبل الضحى بلغت الحرارة خمسين درجة مئوية فى الظل ، وانقلب البيت فرناً من غير وقود ، والهواء لهباً من غير دخان : وحينئذ تحس كأن روحاً نارية تمتد إلى وجهك فتحرقه ، و إلى نفسك فتزهقه ، و إلى صدرك فتضيقه . فإذا كنت فى الطريق لذت بجدار تحته ظل ، أو بقهوة فيها مروحة . و إذا كنت فى دارك تجردت من أكثر ثيابك وألقيت بنفسك فى السرداب فظللت فيه إلى أن تغرب الشمس . والسرداب فى بيوت بغداد حجرة فى أسفل الدار تنخفض عن صحنها مترين أو أكثر ، وليس فيها فتحة غير الباب . وفى جدارها القائم على الدهليز شباك مربع يبلغ ارتفاعه ثلثى الجدار وقد سدّ بما يشبه مرتبة السرير قد حشيت بأغصان الصفصاف المورقة يرشونها بالماء الحين بعد الحين فترطب الهواء ، وتحركه المروحة الكهربائية فينسم على الجالسين بالطراوة . ودور بغداد مبنية من طابقين ؛ فالطابق الأسفل للصيف ، والطابق الأعلى للشتاء . وهذا الطابق الشتوى لا ينفك يرسل فى النهار والليل حرارة كوهج النار فلا يدخله فى الصيف أحد . إنما يمرون به سراعاً فى الليل وهم صاعدون إلى سطح الدار ليناموا أهنأ النوم تحت السماء . و إذا كانت أيام الصيف فى بغداد لفحات من سعير جهنم ، فإن لياليها نفحات من نعيم الفردوس . وخير ما يعوض الأجساد من ذوبانها المستمر فى عرقها الدائم ثلاث

العشايا الجميلة التى يقضيها البغداديون على ضفاف دجلة . فهم يخرجون إليه كل مساء عائلات وجماعات وأفراداً ومعهم الخدم والفرش والطعام والشراب والفاكهة فيركب بعضهم فى زوارق النزهة ، ويجلس بعضهم فى جزائر النهر . وهؤلاء وهؤلاء يغنون ويرقصون ويقصفون ، فيمسى دجلة بمائه وشطئانه وجزره مقصفا ممدوداً بين الرصافة والكرخ يضج بالمتاع واللذة ، ويفيض بالأنس واللهو ، ويمتع بالأدب والسمر ؛ وتلك عادة اجتماعية توارثها البغداديون عن أسلافهم منذ أيام العروس فى عهد الرشيد والأمين ، ولا يزال لها فى تاريخ الأدب أثر قوى ، وفى قصص ألف ليلة وليلة صدى رائع . وحسبى أن أذكر لك على سبيل الترفيه يوماً من أيام بغداد وليلة من ليالى دجلة قضيتها مع صديقى المرحوم السيد عبد العزيز الثعالبى الزعيم التونسى المعروف ، وكان يومئذ لاجئاً بعاصمة العراق من اضطهاد فرنسا أم الحرية . دعانى الزعيم ذات نهار من أنهار يوليو إلى الغداء ، فتحاملت على نفسى وذهبت إليه فى الظهيرة فوجدته فى الحجرة السفلى من داره متهالكا على فراشه وقد تعرى جسده البدين البطين إلا من إزار كإزار الحمام . فقلت له مداعباً : أمحرم يا أستاذ فى غير وقت الحج ؟ فقال على البديهة وهو يضحك ضحكته العريضة العذبة : وكيف لا أحرم وهذه شمس بغداد ترمى الجمرات ؟ فعجبت من جمال توريته وحضور ذهنه على الرغم مما كان يقاسى من لهات الحر وتفصُّد العرق . وتخففت من بعض ثيابى ثم جلست أناقله الحديث ونعجب كيف ازدهرت حضارة العباسيين فى هذا القيظ الطويل ، واستبحر عمرانهم فى هذا الخمود الملازم . وكان الرجل قد وضع على مسافة متر منه مروحة كهربائية كبيرة وتركها ترسل على جسده العارى الضخم هباتها القوية من الهواء الحار فكانت لاتنفس عن صدره ولا تخفف من كربه ، فيقوم إلى الحمام فينقع جسمه فى الماء ثم يعود ليعود إليه الخناق واللهاث والحر والعرق . واشتدت الحال فعجزت عن الكلام وعجز هو عن الإصغاء

وظللنا نتردد بين غرفة الحمام وحجرة الطعام حتى سكنت فورة الحر فاقترحت عليه أن نقضى هذه الأمسية على دجلة . وكان ثالثنا صديقاً من أدباء بغداد فهيأ لنا العشاء والزورق . وجدف بنا الملاح حتى توسط النهر فوقع فى أسماعنا من جهة الكرخ غناء وعزف . فقال أحدنا للنوتى اتبع طريق هذا الزورق اللاهى . فقال الملاح بلهجة الغاضب الأنوف : ولماذا نتبع نحن ولا يتبعون هم ؟ هؤلاء يهود ، ولو شئتم لأتيتكم بالمغنى والعازف . فدهش المصرى والتونسى ولم يدهش العراقى .

وحاذى المركب المركب فإذا جماعة من شباب اليهود لايقلون عن العشرة قد انتظموا صفين على جانبى الزورق ، وفى الوسط مائدة مستطيلة عليها الطعام والشراب والزهر ، وفى الصدر مغنية حسناء تضرب على العود ، وكهل سمين ينقر على القانون ، وشاب أنيق يعزف على الكمان فلما رأونا خشعت الأصوات وشخصت الأعين . ونادى ملاحنا بلهجته العراقية الآمرة : تعال يابنت ! تعال ياولد . وانتظرت أن أرى الغضب أو الاحتجاج أو التردد ، فلم أر إلا القوم يخلون للجوقة الطريق واجفين ، ويساعدونها على الانتقال واقفين . ولو كنا جرينا مع النوتى على مذهبه ، لنقل كل ما كان فى مركبهم إلى مركبه . ثم سار زورقنا وهم يتبعون ، وأخذ يغنى ويعزف وهم يسمعون .

وكان أعجب وأطرب مارأينا فى تلك الليلة ذلة عشرة من اليهود أمام عزة واحد من العرب . وكان عدد اليهود يومئذ فى بغداد وحدها يربى على سبعين ألفاً فى أيديهم التجارة وعندهم المال فكيف استشعروا الذلة والمسكنة مع هذا العدد الضخم وهذا الثراء الواسع ؟

لقد عللت ذلك يومئذ بأن بنى إسرائيل منذ فرق شملهم بختنصر ،

وبت حبلهم أدريان قد أخذت تضعف فيهم غريزة الدفاع عن النفس حتى ماتت فى مدى خمسة وعشرين قرناً لم يدافعوا عن حياتهم فيها إلا بخداع الثعلب وملق الكلب وتلون الحرباء. علات ذلك بذلك ولم يدر بخلدى أن اليهودى سيتشجع فى يوم من الأيام فيحمل سلاحاً ويشهد حرباً ويحرز نصراً ويحتل مدينة. نعم لم يدر بخلدى أن اليهودى الذى لم يدخل فى عنف وإن هان، ولم يجرؤ على ظلم وإن قل، يخرج من البرصة إلى الثكنة، ومن الدكان إلى الميدان، ومن الصرافة إلى السياسة، فيستغل مادية الأمريكان وخديعة الإنجليز وشيوعية الروس ليكون له فى فلسطين دولة وجيش، وفى هيئة الأمم مقعد وصوت. لم يخطر ببالى يومئذ أن ذلك سيكون؛ ولكنه واسفاه كان! كان بتخاذل العرب لا بقوة اليهود، وبدسائس الاستعمار لا بوسائل الحق. ولو كان فى الدنيا حق لما كان لفلسطين قضية. ولو كان فى الناس عدل لما اصطلحت على ظلمها الشيوعية والرأسمالية. ولو كان فى الأمر اختيار لما تركت سيوفنا من بنى يهوذا بقية.

دت أخرج عن موضوع الحديث؛ ولكن الأسى يبعث الأسى، والذكرى تثير الذكرى. والحديث شجون والأحداث عبر. وكان فى النية أن أتم الحديث بذكرى الوسائل الصناعية التى كان يتخذها أهل الترف من خلفاء بغداد وسراة العراق فيردون الجحيم نعيما واللفحة اللاذعة نسمة رطبة؛ ولكنها صفحة من تاريخ التمدن الإسلامى أرجو أن أجلو بعض سطورها فيما يلى من هذا الحديث.

— ٢ —

كيف كان العراقيون يتقون الحر ؟

حدثتك بطرف من ذكرياتي عن صيف بغداد ، ووعدتك أن أتم الحديث بذكر الوسائل التي كان الناس في العراق يتقون بها هذا الحر قبل أن تكتشف الكهرباء و يكيف الهواء و يصنع الثلج . والناس منذ عايشوا الطبيعة قد حاولوا أن يدرأوا عن أنفسهم غوائل الجو بشتى الحيل ، فاتقوا البرد والأمطار والعواصف باللجوء إلى المغائر والأكواخ والبيوت وتيسر لهم ذلك ، لأن البرد القارس والمطر الواكف والريح العاتية تقف عند باب السكن فلا تقتحمه على من فيه ؛ ولكن الحر تعسر عليهم اتقاؤه ، لأنه يهاجمهم في الظل وفي الليل وفي داخل المسكن . وغاية ما استطاعوه أن خففوا عنهم شدته بوسائل دلت عليها الطبيعة وهدت إليها التجربة كاتخاذ الملابس من الكتان والقطن ، واختيار الأبيض من الجلابيب والعمائم ، ورش الأرض بالماء ، وتحريك الهواء بالترويح ، وتبريد الجسد بالاستحمام . وقد قيل لأعرابي من بدو العراق : كيف تصنعون في البادية إذا اشتد القيظ وانتعل كل شيء ظله (يريد وقت الظهيرة حين تكون الشمس في كبد السماء) فقال الأعرابي ووجهه يتهلل بالرضا والغبطة : « وهل العيش إلا ذاك ؟ يمشي أحدنا ميلا فيتصبب عرقاً ، ثم ينصب عصاه و يلقي عليها كساءه ويجلس في ظله يكتال الريح فكأنه في إيوان كسرى » على أن هذه الوسائل البدائية لم تلبث أن ارتقت بارتقاء الحضارة وازدادت بازدياد الترف . يحدثنا الطبري وياقوت أن الأكاسرة كان من عادتهم إذا اشتدت وقدة الحر أن يؤتى لهم بأطباق من غصون الصفصاف الذي نسميه شعر البنت فتجعل ركاماً حول الحجرة ، ثم يؤتى بقطع الثلج الكبار من قمم الجبال فتوضع ما بين أضعافها . وكانت هذه عادة الأمويين بالشام أيضاً .

ولكن الناس فى عهد الخليفة المنصور اتخذوا الخيش الغليظ للتبريد فكانوا يغطون به جدران الحجرات طبقة فوق طبقة ولا يزالون يبلونه بالماء ، فيبرد ما يلامسه من الهواء بفعل البخر . وكان المترفون يغشّون هذا الخيش بظهارة من النسيج الدبيقى المصبوغ بماء الورد والكافور والصندل كان يجلب إليهم من مصر . ثم اتخذوا بعد ذلك بيوت الخيش وهى قباب ينصبونها على شكل خيام المعسكرات اليوم يجرى من فوقها الماء من قنوات صغيرة تبلها على الدوام فيبرد هواؤها أشد البرد حتى ضربوا ببرودتها المثل فقالوا طبعه أو شعره أبرد من قبة الخيش ، حكى ذلك المقدسى فى كتابه (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم). وكانوا يتخذون مع الخيش المراوح الكبيرة المعلقة . قال الغزولى فى كتابه (مطالع البدور) : « وكان يستعمل فى البيوت صيفاً مروحة تشبه شراع السفينة تعلق فى سقف البيت و يشد بها حبل يديرها ، وهى تبل بالماء وترش بماء الورد . فإذا أراد الرجل أن ينام وقت القائلة جذبها من حبلها فتذهب بطول البيت وتجىء فيهب منها نسيم بارد طيب » .

ثم تأثرت هندسة العمارة بطبيعة هذه الحرارة فى القرن الثالث للهجرة فبنيت القصور والدور فى سامرا عاصمة العباسيين فى عهد المعتصم وبنيه على طراز يقول الأستاذ (آدم متز) فى كتابه تاريخ الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع إنه منقول عن آسيا الوسطى . وذلك أنهم كانوا يبنون الحجرات والأبهاء والمجالس فى الطابق الأرضى سراديب أنيقة الوضع جميلة الزخرف حسنة التهوية بديعة الإضاءة . ثم يديرونها فى شكل مربع على فناء سماوى رحب تتوسطه بركة أو نافورة أو بستان . ولقد زرت وأنا فى العراق أطلال سامرا أو سر من رأى وشاهدت آثار قصر الجعفرى الذى بناه الخليفة المتوكل على هذا الطراز وشق فى فنائه بركته المشهورة التى يقول فى وصفها شاعره البحترى :

تنصب فيها وفود الماء معجلة   كالخيل خارجة من حبل مجريها

كأنما الفضـــة البيضاء سائلة ... من السبائك تجرى فى مجاريها
إذا علتها الصبا أبدت لها حبُـكا ... مثل الجواشن مصقولا حواشيها
فحاجب الشمس أحيانا يضاحكها ... وريِّق الغيث أحيانا يباكيها
إذا النجوم تراءت فى جوانبها ... ليلا حسبت سماء ركبت فيها

وهذا الوصف الدقيق الرقيق يدل على عظم البركة وفخامة القصر .

وفى القرن الخامس للهجرة يقول الرحالة الفارسى ناصر خسرو : إن من خصائص مدينة أرّجان أن فيها من الأبنية تحت الأرض مثل ما فوقها . ومصداق هذا الخبر ما تراه اليوم فى مدينة النجف بالعراق ؛ فإن موقعها على طرف الصحراء وموضعها من شرف الأرض جعلاها أقسى البلاد حراً وأيبسها طبيعة ، فبنى أهلها السراديب طوابق كطوابق الدار ثم عمقوها حتى نزلوا بها خمسة وثلاثين متراً فى جوف الأرض ، ثم اتخذوا على مائها الجوفى مجلساً رحباً تلوذ به الأسرة من حر الهواء ، فتجد به فى قيظ الصيف برد الشتاء . وقد نزلت فى زيارتى للنجف سرداباً من هذه السراديب العجيبة فى مدرسة السيد كاظم اليزدى فوجدت فيه من بديع الصنع ما لا تصدقه الأذن إلا إذا رأته العين . أما مرفهات الصيف عند المترفين من الخلفاء والكبراء والقادة فحسبى أن ألخص لكم صفحة من صفحات هذا الترف المسرف سجلها ابن أبى أصيبعة فى كتابه عيون الأنباء فى طبقات الأطباء عند كلامه عن العالم النصرانى بختيشوع بن جبريل طبيب المتوكل وقد كان يذهب فى عيشه مذهب الملوك . وهو أول من احتال لتكييف الهواء فى الصيف والشتاء ؛ فقد حدث متحدث أنه دخل على هذا الطبيب فى يوم شديد الحر وهو فى مجلس مغشى بطاقات من الخيش بعضها فوق بعض ؛ وفى وسط هذا المجلس قبة مجللة بالكتان الناعم ، مظهرّة بالدبيقى المصبّغ ، وكان يلبس رداء من الخز فوقه جبة من الصوف ، فعجب

من زيه . فلما دخل معه فى القبة ناله من البرد أمر عظيم ، فضحك وأمر له برداء وجبة . ثم قال لغلامه اكشف جوانب القبة فكشفها فإذا أبواب مفتوحة من جوانب الإيوان على مواضع مكبوسة بالثلج . وغلمان يروحون بالمراوح على ذلك الثلج فيخرج منه ذلك البرد الذى لحقه . ثم دعا بطعامه فأتى بمائدة عليها من الألوان كل غريب . وأغرب ما كان عليها فراريج مشوية قانية الحمرة، وجاء الطباخ فنفضها كلها فانتفضت . فلما سأله عنها قال له هذه فراريج تعلف اللوز المقشر وتسقى ماء الرمان .

ودخل عليه هذا المتحدث نفسه فى يوم قارس البرد وهو جالس فى إيوان على بستان أنيق الوشى مسكى العبير ، وعلى الإيوان ظهارات من فراء السمور وأكسية الحرير وجلود اليمن وابود المغرب وقد ارتدى غلالة رقيقة ، وبين يديه موقد من الفضة مذهب محرق ، وغلام يحرق فيه البخور المندى . فلما دخل معه الإيوان وجـــد من الحر أمراً عظيما ، فضحك وأمر له بغلالة كغلالته وكشف عن جوانب الإيوان فإذا مواضع لها شبابيك من خشب بعد شبابيك من حديد ، وكوانين فيها فحم الغضا وغلمان ينفخون ذلك الفحم بالأكوار كما يصنع الحدادون . ثم دعا بطعامه فأحضروا له ما جرت به العادة من الشهى الطيب وعلى المائدة فراريج ناصعة البياض فظنها غير نضيجة . وجاء الطباخ فنفضها فانتفضت . فلما سأله عنها قال له هذه فراريج تعلف الجوز وتسقى اللبن وهى تلائم البرد كما تلائم تلك الحر . وبقية هذه الصفحة رواية أخرى عن مأدبة أدبها بختيشوع هذا للخليفة المتوكل فى يوم قائظ جمع له فيهما لم يخطر على بال من فنون الترف والسرف والعلم ؛ فبرّد الحرارة وطرد الذباب من الجو وأدنى متاع الجنة من الضيف . وهذا النمط من العيش الرافه الراغد إنما كان مقصوراً على أولى النعمة من رجال الدولة ودهاقين المال ؛ أما طبقات المجتمع الأخرى فقد راضتها الطبيعة على مكاره الحر حتى ألفوا رمضاء الصحراء

كما ألف الإسكيمو ثلوج القطب . والطبقة التى ميزها الملك الموروث والحكم الفاسد والثراء الفاحش هى الآفة التى تقوض بناء الشعب والعاهة التى تقتل سلامة الأمة . وإن ما قرأناه من بذخ بختيشوع وأمثاله من أهل الترف ، ليذكرنا بما سمعناه عن بذخ يوسف كمال وأشباهه من أهل البطالة . والفرق بين ذلك الطبيب العالم وهذا الأمير الظالم هو الفرق بين الإنسان والوحش ، أو بين الملاك والشيطان ؛ فقد كان أمير نجع حمادى يعيش فى جحيم الصعيد كما يعيش هو وسائر الإقطاعيين فى نعيم سويسرا . كان يسخر مئات الألوف من الفلاحين ليعقدوا له من دمائهم الذهب ومن دموعهم السرور ومن شقائهم السعادة. ثم يولم الولائم الفاخرة الفاجرة للأقارب من أسرته وللأجانب من ندمائه، ويأمر عماله وفلاحيه أن يصطفوا صفين عن يمين وشمال فإذا مر بينهم هو وضيوفه ركعوا جميعاً . وكان يحشد لهذه الولائم كل متعة ، ويجمع فيها كل منكر ، ثم يضن على الفقراء بالفتات والفضلات فيلقيها فى نهر النيل للسمك . واستدرج الله هؤلاء الفاسقين ، وأملى لهم ، ثم استجاب لدعوات المظلومين المحرومين فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ! فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين .

وكان ما كان من مُلك ومن مَلك　　　ثم انقضى وكأن القوم ما كانوا

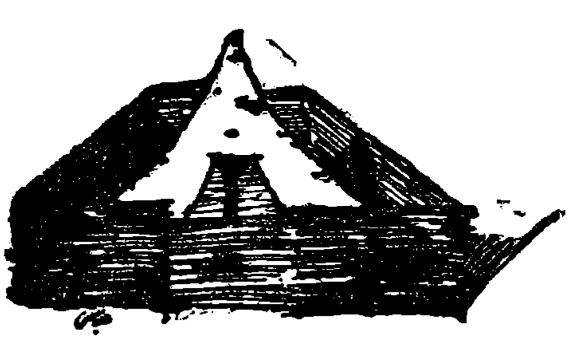

— ٣ —

في باريس :

من مزايا الصيف على سائر الفصول أن الله جعله فصل الخيرات والثمرات في أكثر بقاع الأرض ، وزمن الثورات والحريات في أكثر دول العالم . فإذا نضج فيه غذاء الأجساد من الحب والفاكهة لسر من أسرار الطبيعة ، فقد ينضج فيه غذاء الأرواح من الحرية والاستقلال لسر من أسرار النفس . فشهر يوليو بالذات وهو قلب الصيف كان ميقاتا لتمرد الحرية على قيودها وسجونها في أكثر الأمم . تخلصت في اليوم الرابع منه الولايات المتحدة من ربقة الاستعمار وذلة الاستغلال وسيادة الانجليز سنة ١٨٧٦ . وتحررت في اليوم الرابع عشر منه فرنسا من طغيان الملوك واستبداد القسس واستعباد الأشراف سنة ١٨٧٩ . وتطهرت في اليوم الثالث والعشرين منه مصر من فحش الملك وفجور الحكم وبغي الإقطاع سنة ١٩٥٢ . وليس من قصدي في هذا الحديث أن أتقصى حركات التحرير القومي في الصيف فإن شرح ذلك يطول ؛ إنما أريد أن أحدثكم بطرف من ذكرياتي عن عيد فرنسا القومي الذي احتفل به الفرنسيون منذ أسبوعين ، وعن عيد مصر القومي الذي احتفل به المصريون منذ أسبوع . وبين هذين العيدين مشابه كثيرة في الأسباب والنتائج والآثار تربط بينهما في الذهن كما ربطت بينهما في الزمن . فإذا كانت الثورة الفرنسية قد هدمت الباستيل وهو رمز للسلطان الجائر تمثل في قلعة حصينة من حجر وحديد وظلام ، فإن الثورة المصرية قد هدمت فاروقا وهو رمز للطغيان الفاجر تمثل في كتلة ضخمة من لحم وشحم وعظام . وإذا كان من نتائج تحطيم الباستيل أن أعلنت حقوق الإنسان في أمم الغرب ، فإن من نتائج تحطيم فاروق أن أعلنت حرية الشعوب في دول الشرق .

والفرق بين الثورتين أن ثورة الشعب الفرنسى قد أكلت بنيها وأنكرت مبادئها وجعلت الحرية استعباداً للشعوب، والأخوة استكباراً فى الناس، والمساواة استعماراً فى الأرض ، وأن ثورة الجيش المصرى لم تنكر إنسانيتها ولم تكفر بدينها فجعلت الحرب سلاماً والثورة نظاماً والبناء خطة والوحدة غاية والتضحية مبدأ والإصلاح عقيدة .

كنت فى باريس سنة ١٩٢٥ أؤدى الامتحان النهائى فى الحقوق وكان الجسم يومئـــذ ريان بدم الشباب ، والشباب ظمآن إلى ورد الحرية . وكانت مصر وحدها هى التى تحركت للنهوض ، أما سائر العالم العربى فكان فى غفلة كالبله أو فى سبات كالموت . ففى صباح اليوم الثانى عشر من شهر يوليو فى تلك السنة استيقظت باريس على دنيا عجيبة الألوان والصور ، غريبة الأزياء والشكول ، تموج بالمواكب والجموع ، وتضج بالأغانى والأناشيد، وتعج بالرقص والموسيقى؛ وفوق كل باب وكل شرفة علم الجمهورية يخفق ، وفى كل بيت وكل قلب سرور الغبطة يفيض ، وعلى كل تمثال وكل ضريح أكاليل الزهر تفوح . ثم ظلت المتاجر والمصانع والمعاهد والدواوين مغلقة الأبواب معطلة الحركة ، وانقلبت الشوارع والميادين مراقص شعبية عامة ؛ فأمام كل قهوة وصدر كل مفرق ووسط كل ساحة قام مسرح صغير من الخشب المكسو بالقماش الأحمر ، تحيط به سلاسل حمر وزرق وبيض من مصابيح الورق اليابانية ، وقد جلست عليه فرقة من موسيقى الجاز تعزف ألحان الرقص المختلفة ، والناس من حولها يرقصون أزواجا وأفواجا من غير معرفة ولا كلفة . فالرجل يدعو إلى الرقص أى امرأة فلا ترفض ، والمرأة تنتقل من ذراع إلى ذراع ولا تكل ، والموسيقى تخرج من لحن إلى لحن ولا تفتر . وكان أكثر الشباب قد أكلتهم الحرب العظمى فقل عدد الرجال عن عدد النساء ، ولم يستطع الكهول من كل طبقة ، ولا الأجانب من كل جنس ، أن يوفروا ذراعاً لكل راقصة . فوقف

كثير من الغيد الأوانس على حلبات الرقص الهائجة يستعطفن الراقصين بالنظرات الواعدة والبسمات المغرية ، فإذا ظفرت إحداهن بأحدهم لا تدعه حتى يتمزق جوربها و يتفتق حذاؤها أو يغرقا معا فى سيل جارف من مظاهرة تهتف بالوطن والعيد ، أو موكب يشدو بالحب والحياة . فإذا أقبل الليل لم يكن هو الليل الذى نعرفه ، و إنما هو نهار من نوع آخر تسطع فى سمائه شموس من الكهرباء ، وتساقط فى جوه شهب من الصواريخ ؛ فالعمائر والمتاجر والساحات غرقى فى ضوء باهر تشعشعه ألوان العلم الثلاثة ، وتشعه عقود المصابيح المشكلة . وحينئذ فترت حرارة الرقص وانصرف الناس إلى المسارح والملاهى وقد فتحت أبوابها للشعب بالمجان . ثم قام فى ميدان الجمهورية الفسيح معرض زاخر باللعب واللهو يغص بالفلاحين ومن فى حكمهم من ذوى الأيدى الخشنة فباتوا يقصفون ويمرحون حتى غارت نجوم السماء وانطفأت مصابيح الأرض . واستمرت باريس على هذه الحال من صباح اليوم الثانى عشر من شهر يوليو إلى صباح اليوم الخامس عشر . ثلاثة أيام وثلاث ليال لم تغمض لها فيها جفن ، ولم ينقطع لها لهو ، ولم تفتر لها عن الرقص ذراع ولا قدم .

وفى بكرة اليوم الرابع عشر احتفلت الحكومة بيوم الباستيل فى ميدان (الإنوال) وعرضت الجيش فى ميدان (لون شان) . وكنت قد أرسلت نفسى على هواها فى هذا الفيضان الجائش بالوطنية والحرية والحماسة وأنا على عهد قريب بثورتنا سنة ١٩١٩ فكنت أهتف وأصفق وأنشد وفى ذهنى سعد زعيم الأمة الذى نفاه الانجليز فثارت لنفيه مصر وقطعت المواصلات ، كما كان الفرنسى يهتف و يصفق و ينشد وفى ذهنه (نيكر) صديق الشعب الذى نفاه لويس السادس عشر فثارت لنفيه فرنسا وحطمت الباستيل . كان شعورى وأنا أسير نشوان فى زحمة الراقصين وغمرة المتظاهرين شعور الجندى فى المعركة يمّحى فى وجدانه الشعور بذاته والتفكير فى حياته ولا يبالى فى سبيل وطنه أن يُقتل أو يَقتل . وكان

وكان معى صديقة فرنسية من طالبات الحقوق لها عقل راجح ورأى حر فقلت لها وأنا أشير إلى يتامى العيد من ضحايا الاستعمار الفرنسى فى أفريقيا وآسيا : أليس هؤلاء من أفراد الإنسان الذى أعلنت ثورتكم حقوقه ؟ أليس لهم أوطان تسعها الحرية ، وإنسانية تشملها الأخوة ، وحقوق تكفلها المساواة؟ فقالت الآنسة بلهجة الصريح وهيئة الجاد : ومن الذى قال إن فرنسا تريد بالإنسان كل بنى آدم ؟ أيكون أخى هذا الحيوان الذى تشير إليه بلونه القاتم وفمه الغليظ وأنفه الأفطس؟ أم يكون مثلى هذا المخلوق الذى ينظر إليك بعقله البدائى وحسه البليد وجهله المطبق ؟ إن معنى ذلك لو صح ألا يكون لنا عبيد فى السنغال والكونغو ، ولا أتباع فى الهند والصين . لا ياصديقى ! إن الباريسيين الجياع الذين أشعلوا الثقاب الأول للثورة فى حى القديس أنطوان وهم يتزاحمون بالمناكب الواهنة الهزيلة على أبواب المخابز المغلقة صائحين : الخبز ! الخبز ! ثم عضهم الحرمان والطغيان فانقلبوا صائحين : إلى الباستيل ! إلى الباستيل ! لم يكونوا يفكرون فى كل محروم وكل مظلوم ، إنما كانوا يفكرون فى أفواههم الجافة وأجوافهم الخاوية . وإن زعماء الثورة الذين أقاموا دستورها على الحرية والأخوة والمساواة لم يقرروا هذه المبادىء إلا لشعبهم الذى أذله الملوك وظلمه الكهنة وحرمه الأشراف . والقول بأن الثورة الفرنسية كانت رسالة إنسانية تضليل من المؤرخين وخداع من الساسة . صحيح أن الثورة الفرنسية أفادت الإنسانية من طريق العدوى ، فإن تحطيم الباستيل كان تحطيما لثلاثين عرشاً كان أصحابها يحكمون أوربا حكم السيد المطلق ؛ ولكن تحرير الغرب لم يستتبع تحرير الشرق ، لأن القوة هى القاضى بين الإنسان والإنسان فى كل زمان ومكان .

وفى اليوم الخامس عشر من يوليو وهو اليوم الأخير من أيام المهرجان افتتح المغفور له يوسف بن الحسن سلطان مراكش جامع باريس ومعهده ومستشفاه وحمامه ومطعمه وقهوته فى احتفال عظيم شهده رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة

وصفوة من رجالات فرنسا والشرق . وكنت فيمن شهد هذا الاحتفال ورأى ما كان به من الملق ، وسمع ما قيل فيه من الكذب . ولقيت بعده سى قدور ابن غبريط الذى توفاه الله فى باريس منذ شهر . وكان هو المندوب الرسمى للسلطان والقيم الدينى على الجامع . وجرى بيننا حديث لا أزال أذكر من شجونه ما يشجى . قلت له وزميلتى تسمع : كيف يبتهج العرب بعيد الحرية وهم عبيد ، ويفتخرون بمجد فرنسا وهم أذلة ؟ فلم يدعنى الرجل أتم كلامى وإنما قاطعنى محتداً بقوله : لا ياسيدى ، ليس الفرنسيون بأكثر فرنسية منا . نحن نتمتع فى ظلال الجمهورية بالإخاء الصحيح والرخاء الشامل ، وإن الجنود الجزائريين فى الجيش والشرطة ؛ والعمال المراكشيين والتونسيين فى المصانع والمزارع ، يعاملون بما يعامل به الفرنسى القح . أدام الله نعمة فرنسا على شعوب العرب ، ونفع بعلومها وحضارتها أمم الإسلام . فوجمت أنا وابتسمت هى .

وأخذت أوازن فى نفسى بين كلام الفرنسية الصريحة وكلام العربى الصميم فأيقنت أن بلية العرب والإسلام ، هى سماسرة الاستعمار من أمثال هذا الإمام. وفى كل برصة من برص الاستعمار وا أسفاه سمسار من زعماء الشرق يعقد الصفقات لنفسه على حساب وطنه .

وقد مات ابن غبريط ولا أدرى على أى رأى لقى الله بعد ما رأى بعينه فواجع فرنسا فى مراكش ومآسيها فى تونس . والله يغفر الذنوب جميعاً ؛ ولكن ممالأة العدو فى الوطن كبيرة لا يكفر عنها إلا النار ، ولا يطهر منها توبة ولا استغفار .

استقبال شهر رمضان

(أذيعت فى أول رمضان من محطة الإذاعة المصرية)

فى صباح يوم الأثنين الماضى استقبل المصريون ربيع الأجساد فى شم النسيم ، وفى مساء يوم الأثنين هذه الليلة يستقبل المسلمون ربيع الأرواح فى شهر رمضان . و إذا كان ربيع الأجساد فى الحدائق زهوراً وخموراً ومتعة ، فإن ربيع الأرواح فى المساجد صيام وقيام ونسك .

ربيع الأجساد فى أبريل كان انطلاقاً من كل قيد ، واستغراقاً فى كل لذة ، امتدت فيه العيون إلى كل جميل ، وهفت النفوس فيه إلى كل شهى ، أما ربيع الأرواح فى رمضان فهو صيام للجوارح عن الأذى ، وفطام للمشاعر عن الهوى ، يستقبله الناس بعد أحد عشر شهراً قضوها فى صراع المادة وجهاد العيش تكدر فيها القلب وتبلد الحس وتلوث الضمير فيجلو صدورهم بالذكر ، ويطهر نفوسهم بالعبادة ، ويزود قلوبهم من مذخور الخير بما يقويها على احتمال الفتن والمحن فى دنيا الآمال والآلام بقية العام كله . لذلك كان رمضان فى الشرع الإلهى طهوراً من رجس العام ، وهدنة فى حرب القوت ، وروحاً فى مادية الحياة .

رمضان هو التمرين الرياضى السنوى للنفس ، يشترك فيه المسلمون فى جميع أقطار الأرض ، يصومون فى وقت واحد ، ويفطرون فى وقت واحد ، وينصرفون عن اللذات الحسية والنفسية ليتجهوا بالتأمل والتعبد والخشوع إلى الله ، فيغضوا أبصارهم عن المنكر ، ويكفوا ألسنتهم عن الفحش ،

ويصُموا آذانهم عن اللغو ، ويغلوا أيديهم عن الأذى ، ويصدوا أهواءهم عن السوء ، وتلك هى العناصر الجوهرية لعقيدة الصوم .

إذا لم يكن فى السمع منى تصاون … وفى بصرى غض وفى منطقى صمت

فحظى من صومى هو الجوع والصدى … وإن قلت إنى صمت يوماً فما صُمت

وهذه القيود والحدود التى تضمنها معنى الصوم هى المجاهدة التى تعود الإنسان ضبط النفس وقوة الإرادة . وضعف الإرادة إنما يقوى برياضة النفس على الحرمان المؤلم ، كما يقوى الجسم برياضة البدن على الجهد العنيف ، وكما يقوى العقل برياضة الذهن على التفكير العميق . والرياضة الروحية هى حكمة الصيام فى الأديان كلها « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » وتقوى الله ومجاهدة النفس هما الغاية من هذه الحكمة وقد اجتمعتا فى قوله تعالى : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » فالخوف من الله هو التقوى ، ونهى النفس عن الهوى هو المجاهدة . أما قول من قال إن حكمة الصوم هى أن يذوق الغنى عذاب الجوع ليشفق على الجائع ويرأف بالفقير ، فقول سطحى توحى به النظرة العابرة والفكرة السريعة فإن إجاعة الأغنياء ليشعروا بآلام الفقراء قد تكون معنى من معانى الصوم ؛ ولكن حكمة الله من صوم رمضان أسمى وأجل وأبعد .

وإن للجوع أثراً شديداً فى تصفية النفوس وتلطيف الطباع ، لأن كدر النفس يكون فى الأكثر من كدر الجسد . وقد قالوا : إن البطنة تذهب الفطنة ، لذلك اتخذ كثير من أئمة الدين ورجال التصوف الجوع سبيلا إلى تهذيب النفس وتقوية العقل وإذكاء الروح . قال الإمام على رضى الله عنه

يصف العارف بالله : « قد أحيا عقله وأمات نفسه ، حتى دق جليله ورق غليظه » يريد بجليله بدنه الضخم و بغليظه طبعه الكثيف . وقال إبراهيم ابن أدهم · لن ينال الرجل درجة الصالحين حتى يغلق عن نفسه باب النعمة ، و يفتح عليها باب الشدة . وقال يحيى بن معاذ : الجوع للمريدين رياضة ، وللتائبين تجربة ، وللزاهدين سياسة ، وللعارفين تكرمة » .

ولكن بعض الصوفيين غالوا فى تعذيب الجسم لتهذيب الروح فكان منهم من لا يأكل فى أربعين يوماً إلا أكلة واحدة ، وهذا أشبه بما يفعل اليوم زهاد الهنود . والإسلام يسر لا عسر ، والفضيلة هى الطريق الوسط . وقد قال الرسول صلوات الله عليه لرجل أكثر الصيام والقيام حتى غارت عيناه : إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق . إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى .

على أن هؤلاء الصوامين القوامين قد انقرضوا فلم يعد يستقبل رمضان منهم أحد . إنما يستقبله اليوم أقوام بَعد عهدهم عن الإسلام الصحيح فعادوا أشبه بذلك الأعرابى الذى أسلم فى أول الإسلام ثم قدم على ابن عم له فى بعض المدن قبل أن يذوق حلاوة الإيمان ويفهم حقائق الدين فأدركه شهر رمضان . فقيل له يا أبا عمرو : لقد أتاك شهر رمضان . فقال وما شهر رمضان ؟ قالوا الإمساك عن الطعام . فقال : أبالليل أم بالنهار ؟ قالوا لا ، بل بالنهار : قال : أفيرضون بدلا من هذا الشهر ؟ قالوا لا . قال فإن لم أصم فعلوا ماذا ؟ قالوا تضرب وتحبس . فصام يوماً ثم لم يستطع ، فتحول عنهم وجعل يقول :

يقول بنو عمى وقد زرت مصرهم   تهيأ أبا عمرو لشهر صيام

فقلت لهم هاتوا جرابى ومزودى   سلام عليكم فامكثوا بسلام

فبادرت أرضاً ليس فيها مسيطر   على ولا مناع أكل طعام

نعم ، يستقبل رمضان أكثر الناس بعقلية هـذا الأعرابى فيستقبلونه لا باعتباره ركناً من أركان الدين الخمسة يقيم الدين من أقامه ويهدمه من هدمه ، ولا باعتباره طهوراً للنفس ونوراً للقلب وجلاء المشاعر ؛ ولـكنهم يستقبلونه باعتباره تقليداً من التقاليد الموروثة وعيداً من الأعياد المقررة ، فيتمتعون فيه بنعيم العيش ، و يتفننون فى الطعام والشراب ، و يتأنقون فى الثياب والزينة ، و يتدفقون فى الأنس واللهو ، و يسرفون على بطونهم بالأكل حتى تمرض ، وعلى جيوبهم بالبذل حتى تفرغ ، و ينفقون على هذا الشهر وحده ما يكاد يقرب من نفقة العام كله . وفى الإفراط فى اللهو والأكل والنوم ، تضيع حكمة الإسلام من الصوم .

على أن رمضان العظيم الـكريم السمح إذا زال من بعض المسلمين جوهره ، فلا يزال فى أكثر بلاد الإسلام مظهره . ومظهر رمضان جميل رائع ، ترونه فى كل شارع وفى كل بيت ، وتحسونه فى كل شىء وفى كل شخص . خير يتدفق فى البيوت ، و بشر يتهلل فى الوجوه ، وذكر يتعالى فى المساجد ، ونور يتألق فى المآذن ، وسمر ينتقل فى الأندية ، ونفحات من ريح الجنة تهب فترطب القلوب الجافه وتلين الأكباد القاسية . ثم تجدون الحوانيت سامرة و إن لم تبع ، والمصانع ساهرة وإن لم تنتج ، والأبهاء والمقاهى عاطرة بحديث الأصدقاء حتى أول السحر . ولرمضان تقاليد يرعاها الصائمون والمفطرون على حد سواء ، فالسكير يهجر الـكأس ، والمقامر يترك الورق ، والشرير يؤجل الشر ، والمجرم ينسى الجريمة . وكل هؤلاء يتشبهون بأهل الصلاح فيمسكون السبحة ويتقون الشبهة ويصنعون المعروف . فإذا استقبلنا رمضان الليلة بالترحيب والبشر فإنما نستقبل فيه عيداً دينياً وقومياً يؤكد أسباب القرب بين الله وعباده، ويوثق عرى

الحب بين الشعب وأفراده . وإذا كان فى دنيا الإسلام من يستقبل رمضان بالوجه العابس والشفة المقلوبة والصدر الضيق فذلك هو المسلم المزيف . هو المسلم الكاذب الذى يستقبل فى رمضان فطاماً لشهواته ولجاماً لغرائزه . فينظر إليه نظرة مادية إقتصادية فيرميه بما يرميه به الأوربيون والأمريكان من قلة الإنتاج وكثرة الاستهلاك وشل الحركة وإضعاف الصحة ، وينسى أن شعائر التلمود القاسية وعقائد التوراة الصلبة لم تعق أشتات اليهود عن المغامرة والتقدم. وشتان بين نظام لإقليم ونظام لدنيا ، وبين شرع لأمة وشرع لعالم ! هذا المسلم الكاذب هو الذى سترونه منذ صباح الغد معرضاً عن رمضان فى استهتار ، متحدياً لأمر الله فى استكبار ، فيستبيح النظرة الآثمة والكلمة البذيئة والأكلة الدسمة والسيجار الغليظ .

وهذا الرجل وأمثاله ممن لا يرعون للدين حرمة ولا للتقاليد ذمة ولا لأنفسهم كرامة هم فى نظام المجتمعات نشوز وفى قوانين الأمم شذوذ .

هذه تحية صادقة لشهر رمضان المبارك قالها مؤمن وسمعها مؤمنون ، ولا يدرى إلا الله ماذا تدخر مدنية المال ومادية العلم لهذه الروحية التى تتجلى فى الصوم ، ولهذه الخيرية التى تتمثل فى الصائم .

وقى الله رمضان شر العلم الجاهل والدين الكاذب والتقليد الأعمى والتمدن المشوه ، وجدد الله عليكم به الأعوام المقبلة وأنتم ناعمون فى ظلال الأمن ممتعون بنعمة العافية .

أقاصيص

جلاد الشيطان

- ١ -

كان أهل القرية يسمونه (البحبوح) لأنه كان غيثا من الكرم يصيب الأيادى المكدودة ، ونسيما من المرح ينعش الأجسام المجهودة ، وشعاعا من البهجة يغمر النفوس المظلمة . كان ابتسامه الدائم يفيض على وجهه البرنزى إشراقا من الروح العذب يجعله أقرب إلى البياض المشبوب . وكانت نكتته على طرف لسانه يرسلها فى المناسبة الجميلة فتتفجر الضحك من الصدور الكظيمة ، حتى وصفوه بأنه يضحك حجارة القبر !

كان جميل الهندام ، يلبس الجلباب الأنيق المحكم على صِدار من الشاهى أو الجوخ قد زرّ لفقيه صفٌ منضود من الأزرار الحريرية ؛ ويضع على رأسه طاقية من القماش الأبيض المخرم قد أمالها قليلا إلى الجهة اليمنى من رأسه . ويجعل فى يديه المطرزتين بالوشم الأزرق خاتما من الفضة البيضاء والعقيق الأحمر . أما قدماه فكانتا حافيتين فى الغيط ، ناعلتين فى القرية . وهو على أية حال كان مثال الظرف للشباب ، ونموذج الفتوة فى البلد .

كان المهدى — وهذا هو اسمه — ممشوق القوام ، مجدول العضل ، جرىء الصدر ، شهم الفؤاد ، لا يتأخر عن الصف الأول فى كل ما يصيب القرية من أمراض ومآتم ومعارك ، فكان رابع ثلاثة من أقرانه اشتركوا فى زعامة القوة ، وانفرد كل منهم بموهبة من المواهب النادرة تجعله رجل وحده . فالمهدى يجيد الزمر فى الأرغول ؛ وأحمد يتقن غناء المواويل الحمر ؛ وحسن يحذق النقر

على (الدربكة) ؛ وعلى يدير حفلات الأنس وغزوات الليل . وتقسموا على هذه المزايا هوى الشبان وإعجاب الشوابّ ؛ فكان لكل منهم حزب من الجنسين يتعصب له ويهتف به وينقاد إليه ، فى غير وقاحة تسقط حياء الفتيات ، ولا خصومة تكدر صفاء الفتيان .

كانوا يدخنون الحشيش لا لأنه حكم من أحكام (الكيف) ومرض من أمراض العادة ، ولكن لأنه كان فى زمنهم من صبوات الشباب ونزوات الفتوة . وكانوا هم وأتباعهم يسرقون القطن ليلاً من حقوله ، لا لأن السرقة فيهم أثر من لؤم الفطرة ، بل لأن قوى الشباب الجياشة كانت تحتدم فى رءوسهم وتصطدم فى نفوسهم فلا يجدون لها متنفسا ولا مفيضاً إلا هذه الغزوات الليلية يتحدَّون فيها يقظة الحراس وسطوة الحكومة .

كانت المزرعة البعيدة من مزارع (الأمير طوسون) تمسى وهى بيضاء تتألق بلوز القطن المتفتح كما تتألق السماء الصافية بالكواكب الزهر ، ثم تصبح وهى سوداء كأنها الأرض بعد الجراد أو الدار بعد الحريق . فيرغى (التفتيش) ويزبد ، ويبرق (المركز) ويرعد ، ودار المهدى تغنى وترقص ، وقد أولمت (للجدعان) الذين قضوا ليلهم فى العمل الجرىء وليمة سخية لايقدم فيها غير الحلاوة الطحينية على الصوانى وفى الأناجر ؛ ثم يخرجون بعد المأدبة إلى ضفاف الترعة الجارية فينامون على بساط النجيل ، تحت الصفصاف الظليل ، يغمهم عبير الفليَّة والسِّعد ، وينفحهم نسيم أكتوبر المنعش وقد خلص من حرور الصيف إلى فتور الخريف . ثم يستيقظون على أنغام الناى الحنون يرسلها المهدى فى الفضاء الصافى فتمتزج بأغانى القرويات الجميلات وهن يقطفن فى أحجارهن لوزات القطن العزيز .

كان الناى أو الأرغول للمهدى كاللسان للشاعر أو الحنجرة للبلبل ، ينفخ

فيه روحه ، ويصور به عواطفه ، ويرسل منه رسائله ، ويفعل به ما يفعله كوبيدون بسهمه . فهو فى النهار الروح الطروب الهائم فى هبات النسيم ، يرفه عن اللاغبين فى استراحة الطنبور ، أو ظهيرة الحراث ، أو وحشة الساقية ؛ وفى الليل رسول الطرب المتبوع فى حفلات الأعراس ، يجتمع هو ورفاقه الثلاثة فى دار العريس فيجتمع عليهم نساء البلد ورجالها وأطفالها يتمتعون بنغمات المهدى ، ورقصات على ، ونقرات حسن ، ومواويل أحمد .

وكان الفتيات الناهدات يتكدسن فى دهليز الدار يتوسمن الوجوه الراغبة أو الخاطبة بعيونهم العسلية الحالمة ، وكنا نندسُّ بينهن ونحن صغار فنسمع من بين شفاههن اللُّمس ذلك الإعجاب المتردد الهامس بأولئك الذين يدخلون السرور فى كل قلب ، ويبعثون الإعجاب فى كل نفس ، ويقذفون الرعب فى كل مكان خارج القرية . وكان المهدى على الأخص غرض الأنظار المسددة ، وموضوع الأحاديث المرددة ، وبغية كل فتاة منهن أن يكون خاطبها الموعود ورجلها المنتظر .

لم يكن المهدى قارئاً ولا كاتبا ؛ ولكنه كان خيراً من القارىء والكاتب . كان يحسب قطنه قبل أن يضرِّ به الوزان ، ويكعب أرضه قبل أن يقيسها المساح . وكان يحل الألغاز ويقسم الميراث ويعلم من الشئون العامة ما لا يعلمه الشيخ عبد الجبار معلم القرية . جمع فى بيته مكتبة صغيرة من سيرة أبو زيد الهلالى وقصة عنترة بن شداد وكتاب فى المواويل وآخر فى الفوازير والنكت ؛ ثم كان يلتمس المتقدمين من صبيان الكتّاب ، أو المبصرين من فقهاء البلد ، فيقرأون له ولرفاقه فى هذه الكتب حتى حفظ الأشعار والأخبار عن ظهر قلب . وأذكر — وما أجمل ما أذكر — أنى كنت أحبَّ قرائه إلى نفسه . ولولاه لما امتلأ ذهنى الصغير بمعانى الشعر وأساطير العرب وأناشيد البطولة .

— ٢ —

نزحت إلى القاهرة في طلب العلم . ثم كنت في الصيف أعود إلى القرية فأنسجم في حياتها ، واختلط ببنيها وبناتها ، فأغسل دمي بهوائها الطهر ، وأجلو شعوري بجوها المستنير ، وأهدهد أحلام مستقبلي في مهد الطفولة .

ففي ذات صيف لاحظت أن بالمهدي مَسحةً من هزال لا يعللها مرض . ورأيت أنه قليل الدعابة كثير الوجوم ، يطرق إطراق المهموم ويذهل ذهول الشاعر ، وأعجبُ أمره أنه آثر الأرغول على الناي ، ومال عن سِير الحرب إلى أقاصيص الحب ، وهجر مجالس الفتوة ، وحافظ على الصلوات الخمس في أوقاتها وراء الإمام . فسألته ذات يوم وقد جاءني بعد انصراف الناس يسألني عن الكتاب الذي يجد فيه أشعار الشيخ حسن جابر منشد قصة المولد :

— مالك يا مهدي تغيرت بعض التغير ؟ أبك علة ؟ ألك حاجة ؟

فأجابني وقد استراح إلى موضوع الحديث كأنما أصاب به نفساً من كربه :

— علتي (ريّا) ، وحاجتي هي !

— ريا ؟ أتحبها ؟

— أموت فيها !

— ولم لا تخطبها إلى أهلها ؟

— يقول أبوها إنني أسرق غيطان الناس وأتعاطى الحرام ولا أصلي .

— وماذا ترى أن تفعل ؟

— لا شيء . سيتركها خاطبوها إليّ ، وسيغير أبوها بالطبع رأيه فيّ .

* * *

أنا أعرف ريّا ! وهل في قريتي الصغيرة من أجهله حتى أجهل ريا ؟

كانت وحيدة أبيها الحاج حسين ، فطبعها على الدلال ، ونشأها على الدعة ووسع لها فى الثياب والزينة ، وأعفاها من أكثر عمل الغيط والبيت ، فشبت على أخلاق المترفين عزوفة النفس مرهفة الحس واهنة الأعصاب رقيقة البدن ؛ ولكنها كانت على الغاية من ملاحة الشكل وصفاء البشرة وعذوبة الروح وسحر الملامح . وأبلغ آيات الجمال فيها عينان ساجيتان وأهداب وطف ينبعث منها فى القلوب ما لا تستطيع اللغة أن تسميه ولا العلم أن يصفه . فإذا خرجت ساعة الأصيل فى أترابها الجميلات يحملن الجرار إلى النهر أو من النهر ، ميزتها فى مقدمة السرب بقدها المشوق اللدن ، ومشيتها المختالة الموزونة ، وخلخالها الفضى اللامع من خلال ذيلها الهفهاف ، وجرتها المائلة فى أناقة إلى يمين رأسها كأنها طاقية المهدى ، فلا يسعك إلا أن تصدق ما يقولون من أن أباها يضن بها على الفلاح الذى يبتذل جمالها فى إدارة الطنبور وخدمة الماشية ...

* * *

ـــ وكيف تلقاها يا مهدى ورأى أبيها فيك هذا الرأى ؟

ـــ ألقاها كل يوم وهى تسقى الجاموسة من الترعة ، تتركها تبترد فى الماء ثم نجلس إلى تحت شجرة التوت فنتساقط أعذب الأحاديث من غرام وشكوى ، وأصحبها وهى ذاهبة على حمارها الأسود الفاره ، تحمل الغداء إلى أبيها فى غيطه البعيد ، حتى إذا قاربناه جلست على حوض الساقية أتعقبها بنظرى حتى ترجع فأعود معها إلى القرية . وفى بعض الأيام يذهب أبوها إلى السوق فأقضى معها ومع أمها ذلك اليوم السعيد ، لا يكل النظر المثبت فى النظر ، ولا يفتر الحديث المتصل بالحديث ، ولا نشعر بالمكان الذى يحصر ، ولا بالزمان الذى يمر ، ولا بالموعد الذى يقترب .

وربما ظلت النهار كله مع أبيها فى المزرعة تضع بذور القطن فى الارض ،

أو تنثر حب الذرة وراء المحراث . أو تنقى غلات الرز فى وسط الماء ، فلا أستطيع أن أراها ، فأحاول أن أخفف بُرَحاء الشوق عن قلبى العميد بالنظر إلى حمارها وهو يتمرّغ فى الحارة ، أو إلى كلبها وهو رابض على عتبة البيت ، أو إلى عِجلتها وهى تمشى متئدة أمام أمها إلى الترعة .

أرجو ألا تضحك ! إن حب ريا قد صور لى الأشخاص والأشياء على غير الصورة التى تراها ؛ فأنا حقيقة أرى حمارها أجمل الحمير ، وكلبها أظرف الكلاب ، وجاموستها ألطف الجاموس ! إن فى كل أولئك شيئا منها لا أعرفه . ولو كنت تعلمت لعرفت . !

لقد أحببت غير ريا ، ولكنه كان حباً غير هذا الحب ، لم يتعد السطح ولم ينفذ إلى ما وراء الاحساس فلم يتغير فىّ عادة ولا صفة . أما حبها فقد خلقنى خلقة أخرى ، حتى لألتمس المهدى القديم فى إهابى فلا أجده : أصبحت لا أميل إلى غزو الليل ، ولا أرغب فى لهو النهار ، ولا أفكر فى غير الخير . وفى بعض الساعات والخلوات أشعر أن فى رأسى عالما عجيب الألوان غريب الصور تموج فيه الزهور وتطوف به العرائس ، فأستغرق فيه استغراق الطفل فى « صندوق الدنيا » ، وأحس سيلا من المعانى ينهمر على لسانى فأحاول الكلام فلا يعبر ، وأجرب الغناء فلا يجدى ، وأجد الأشعار التى حفظتها من عنترة وأبو زيد لا تصور ما فى خيالى ولا تنقل ما فى خاطرى . ولذلك جئت أسألك عن الكتاب الذى أجد فيه أشعار الشيخ حسن جابر المغنى فإنها أقرب إلى ما أريد .

***

لا تظن يا سيدى أنى أزور لك كلام المهدى على عادة الكتاب لطّرد الحديث على أسلوب واحد . الحق أن المهدى كان بذكائه وعقله كاتبا لا ينقصه إلا القلم ، وبخياله وحسه شاعراً لا يعوزه إلا القيثار . هذه هى معانيه لم أنقص

منها ولم أزد عليها ، ولو كنت أذكر اليوم ألفاظه لما ترددت فى تسجيلها .

انصرف المهدى عنى وغاب فلم أعد ألقاه عندى ولا أراه عند غيرى . فسألت عنه ذات يوم رفيقه أحمد صاحب الصوت الأبيض والموال الأحمر ، فقال وهو يبتسم فى خبث ويشير فى يأس :

— أوه ! إنه لا يكاد يفارق ريا ولا أهل ريا :

يعمل مع أبيها فى الغيط ، ويكاد يعمل مع أمها فى المنزل . وهو الذى يسقى الجاموسة ويعلف الحمار ويرعى شؤون الأسرة .

— إذن قبل أبوها أن يزوجها منه ؟

— نعم ، قبل بعد أن تحقق أنه ترك الحرام وعزف عن اللهو وعكف على العبادة وأخذ عهداً على السيد القصبي . وهم الآن يرصدون الأهبة لحفلة العقد ، ويعدون العدة لزفة الزواج .

— ٣ —

بيع القطن ومسحت على الجيوب الفارغة يد قارون . ومست الشبان الأعزاب مواسُّ الهوى فذهب كل منهم يسمى لأهله البنت التى ضفر لها (الضفائر) ، واشترى لها (الغوايش) ، وأهدى إليها (الحلاوة) ؛ وأخذ الشيخ عبد الوهاب مأذون القرية ينتقل من دار إلى دار وتحت إبطه دفتره العريض وفى حزامه دواته النحاس ، يعقد العقد ويأخذ المنديل ويشرب السكر ويسمع طلقة البندقية التى تعلن عقد الزواج للفتيات المنتظرات حين يقول للعريس : « بارك الله لك فيها » . وأقبل الزمار الصيِّت (أبو سعد) بطبوله ومزاميره ومهرجيه ، فلبث فى القرية الساكنة أسبوعين جعلها فيهما صورة صغيرة من (مولد السيد) . وتساءل الوافدون على الأفراح : أين المهدى ؟ لم يظهر فى زفة من الزفات ، ولم

يسهر فى سامر من السوامر ! وكان العرف الجارى أنه هو الذى يقاول (الطبل)، ويهندم العريس ، وينظم الزفة ، ويقترح الأدوار على (أبو سعد) ، ويرسم لموكب الزفاف لزائط مكان الوقوف وزمان الحركة . ولقد تحدثت المصاطب منذ شهر بن أن زفاف ريا إلى المهدى سيكون افتتاح الموسم ، وأن شعراء (الربابة) ومنشدى المواويل ، ولاعبى البرجاس ، وضاربى (الحطب) سيتقاطرون على البلد يؤدون إلى المهدى بعض ما أولاهم فى سالف العهد من أياد وصنائع .

— هل عندك يا على خبر عن المهدى ؟ هل هو مريض ؟

— هو فى أمان الله ، ولكن ريا هى المريضة .

— منذ كم ؟

— منذ شهر

— وماذا تشكو ؟

— يقولون إنها (معذورة) ، فهى لا تتكلم ، ولا تبتسم ، ولا تشتهى الطعام ، ولا تذوق الكرى ، وقد عُدتها بالأمس فوجدتها مسبوتة على الحصير ، زائغة البصر ، ساهمة الوجه ، ترفع يداً وتضع أخرى . ثم تبكى من غير سبب ؛ وتنتفض من غير حمى ، ويدركها الذهول حيناً فتغمض عينيها ولا تتحرك . وكانت أمها على رأسها تروّح عليها ، والمهدى بجانبها يذب عنها ، وأبوها أمام الحجرة يدخن فى تفكير وحزن ، فسألت أمها :

— كيف حال ريا اليوم ؟

— كما ترى . ولقد ذهبت اليوم ومعى منديلها إلى الشيخ فرج ؛ فقاس الأثر وفتح الكتاب ، ثم قال إنها ألقت ماء بالليل أمام الفرن ولم تبسمل ،

فوقع على أطفال من الجن فركبها أبوهم . ولقد كتب لها حجاباً كبيراً حملناه إليها فحملته ، ورسم بالحبر أشكالاً فى طبق ثم محاها بالماء وسقيناها إياه فشربته ؛ ولكن ريا لا تزال ذابلة ذاهلة ، لا يطمئن بها فراش ، ولا يسكن لها عصب !

— ولماذا لا تطلبون لها الشيخ عبد الجبار ؟

— لقد فكرنا فى ذلك . وسيذهب المهدى بعد صلاة العشاء يدعوه :

* * *

والشيخ عبد الجبار هذا ضرير فى حدود السبعين نحيل البدن لاصب الجلد ، ولكنه ممسورا لجسم متين العصب . كان شيخ (الفقهاء) ومعلم الصبيان فى القرية . وقد تنفس به العمر حتى ربى جيلين من رجالها ؛ فكان يتمتع لذلك بنفوذ واسع واحترام عظيم . وكان وافر اللب شديد الدهاء رزين الطبع، ثم أكسبته مزاولة التعليم على الأسلوب القديم سلاطة اللسان وخشونة اليد وقساوة القلب ، فقلما تخرّج من كتابه متخرج دون أن تصاحبه عاهة فى بدنه . لقد كان يضرب الصبى بالجريدة حتى يفقد الوعى . ثم يتركه لأنه تعب لا لأنه أشفق . وكان إذا تهدد أو توعد ظهر غضبه المتسعر فى مقلتيه الجاحظتين على رغم انطفائهما ؛ فلم أر أعمى يؤثر بعينيه غيره . وكانوا يسمونه (جلاد الشيطان) لأن الجن الذين يركبون الجيلات كانوا يرتعدون خوفا من طلعته . وليس الجن وحدهم هم الذين كانوا يرهبونه ؛ فقد كنا وكان الصبيان إذا مر الشيخ عبدالجبار فى زعبوطه الأسود ، يده على كتف قائده ، ورأسه الدقيق غائب فى عمامته الضخمة ، وخده الشاحب مصعّر للناس ، وأذنه المنصوبة مرهفة للغط الطريق ، وقفنا صامتين راهبين كأن جنازة تمر !

— ٤ —

لقد كنت وا أسفا من شهود هذا الحادث الفاجع ، فأنا أقصه عليك كما حدث . لا يزال على طول العهد حياً فى ذاكرتى رهيباً فى نفسى كأنه وقع أمس ، والحوادث اليسيرة تجد خلودها فى أعماق الحافظة الصغيرة ، فكيف بالحادث الجلَل ؟

جاء المهدى بالشيخ عبدالجبار بعد صلاة العشاء إلى ريا . وأقبل أهل الحارة ومن سمع من رجال القرية إلى البيت الحزين القلق يساهمون فى الرجاء والدعاء والأسف . فملأُوا الحجرة وشغلوا الدهليز وسالوا خارج العتبة. وكانت ريّا ساهمة كأنها صورة الحلم المنىء . فلما دخل الشيخ عليها حلقت بعينيها ثم صرخت صرخة شديدة . فدمدم النساء آسفات وقال بعضهن لبعض : عرف جلاده ففزع ! ليت ذلك كان من زمان !

جلس عبد الجبار عند قدمى ريا ، وجلس بجانبه عريف الكتاب ومعه حزمة من جريد النخل المشذب المصقول مما يستعمله فى تأديب الغِلاظ الشِّداد من « أولاد المكتب » ، ودواة من الخزف الأخضر ، وقلم من القصب الأبيض ، وخرقة بالية معقودة على شىء . ثم أخذ يسألها سؤال العارف :

— ماذا بك يا ريا ؟

— لا شىء يا سيدنا

فلما رأى سيدنا الصوت طبيعياً والجواب عادياً قال لنفسه وهو يُسمع الناس :

— هيه ! لقد هرب . ولا بد من استحضاره .

ثم فك العقدة عما فى الخرقة فإذا هو فتات من اللبان والجاوى . ودعا العريف بموقد النار فوضع فيه البَخور فملأ أرَجه الحجرة . حينئذ أخذ الشيخ يتلو العزائم بصوت يشبه الدمدمة فلا يكاد يتبين منه حرف . ثم كان يتحمس

عند بعض المقاطع فيشتد ويحتد ويذكر بعض الأسماء الغريبة ، حتى هيج دخانُ البخور وهمهمة الشيخ وازدحام الحجرة أعصاب المريضة المسكينة فاختلجت أطرافها اختلاجاً أحسه الأعمى : فأمسك عن التلاوة وأمر برفع الموقد وأشار إلى عريفه أن يبدأ العمل .

تقدم العريف المجرب وتناول يدها اليمنى وكتب على ظفر إبهامها كلمة أملاها عليه الشيخ همساً . ثم كتب كلمة أخرى على ظفر السبابة ، ثم على أظفار الوسطى والبنصر والخنصر . وفعل باليد اليسرى مافعل باليد اليمنى . ثم تناول القدمين متعاقبتين فكتب على أظفارهما العشرة ماأملاه الفقيه عليه : ثم أعلن بعد ذلك جلاد الشيطان أنه حبس العفريت في جسمها فلا يستطيع أن يخرج . وانقلبت سحنة الشيخ فجأة ، فاربد وجهه ، وجحظت عيناه ، وغلى دمه ،وصاح في غلامه :

— جاد ! هات (الفلقة) !

وجاء جاد بالفلقة فوضعها في قدمى ريا مكان الخلخال الفضى اللامع ، ثم شدها وأمسك من طرف وأمسك شاب آخر من طرف . واستلَّ الأعمى جريدة من الحزمة وبرك على ركبتيه وبصق في يده ، ثم أنحى على المريضة المنهوكة ضرباً دراكا يهدم جسم الجان بله الإنسان !

كانت ريا تصرخ صراخاً عالياً متوالياً من الضرب الموجع ، والقوم صامتون وفي سرهم الشماتة بالشيطان الذى يلتمس الرحمة فلا يجد ، ويحاول الفرار فلا يستطيع .

تحطمت الجريدة الأولى فوقف عبد الجبار وأقبل بوجهه الضامر على ريا الضارعة وقال في تهديد وحنق :

— هيه ! قل لى ما اسمك ؟

— ؟

— أمؤمن أنت أم كافر ؟

— ؟

— قل لى من أى القبائل والفصائل أنت ؟

— ؟

— أتعاهدنى على تركها وأنا أسامحك وأطلقك ؟

— ؟

كان الأعمى يلقى هذه الأسئلة المتحدية على العفريت الأسير فى جسم ريا ، وريا تئن أنيناً متصلاً فى استرخاء وخفوت وضراعة ، والقوم حولها ينتظرون إجابة الشيطان وأبصارهم شاخصة وأنفاسهم معلقة ، والألسنة خارج الحجرة تتناقل صمته الغريب فى همس وعجب ، والشيخ عبد الجبار يحدّق بعينيه البيضاء فى عين المصباح الخافت ويقول : ياسلام ! مارأيت أعند من هـذا الملعون ! ياجاد ! هات الجريدة الثانية !

وشد الفلقة جادٌ من جديد ، وبرك الشيخ الجبار على ركبتيه من جديد ، ثم شرع يدق القدمين النحيلتين دقاً عنيفاً بالجريدة الثقيلة ! وهبت قوى الفتاة المذخورة تدافع الألم الممض بالصراخ الدامع والاستغاثة المبتهلة :

— أنا فى عرض النبى ! أنقذينى ياأماه ! أغثنى يامهـدى : أنا أموت ! ليس على شىء ! آه !

لم يجد هذا الهتاف المؤلم سمعاً من أحد ؛ لأنهم يعتقدون بإخلاص أن المارد العنيد يخدعهم عن نفسه ، وأن ريا الحقيقية النائمة فى غلاف من العفريت لاتدرى ولا تحس . وكلّت يد الجبار من الضرب فحل محله شاب قوى .

وتحطمت الجريدة الثانية والثالثة ، وجلاد الشيطان يعيد الأسئلة بين فترة وفترة فلا يسمع إلا الجواب الطبيعي أو الأنين المتألم .

وزاد عجب الناس من عناد الجنى الكافر : واشتد سخط المهدى على هذا الرجيم الذى غلبه على حبيبته ، فتناول الجريدة الرابعة ووقف بجانب الأعمى وقد كان يهمهم ويدمدم ، وأخذ يلهب قدمى حبيبته المعبودتين بالعصا المضرمة المبرومة ! وريا . . أوه ! لا تسلني حينئذ عن حال ريا . إن فى بعض مظاهر النفس ودلالات الملامح مايقف أمامه البيان الإنسانى أبكم لاينطق وعيياً لايبين . وماذا عسى اللفظ العصى الجامد أن يصور لك حال ريا وقد فتحت عينيها الداميتين فوجدت المهدى — ملجأ فزعها ومرقأ دمعها — يصب على جسمها الناحل هذا العذاب ؟

لم تعد ريا تصرخ ولا تستغيث ، وإنما كانت تنتفض للضربة والضربة انتفاضة الملسوع . ثم ترسل مدامعها الغزار فى صمت ، وتقلص شفتيها الرقيقتين فى مضض : ووقعت عين المهدى على هذا الوجه الشهيد المحتضر فاسترخت يده وارتمى على الأرض مستخرطاً فى البكاء . فانتهز عبد الجبار هذا الضارب الخرع وتناول الجريدة وصاح :

— جاد ! أعد نظرك فى الأظافر فلعل بعضها قد امحت عنه الكتابة فيهرب .

ففحص العريف أطراف البنان المرسلة وأصابع القدمين الممزقة ، ثم قال فى اطمئنان الواثق بعمله .

— الكتابة سليمة ياسيدنا .

حينئذ أخذ الجبار يفكر فى عذاب آخر ، ولكنه أراد أن ينذر به الجنى قبل تنفيذه . فزحف حتى بلغ رأس المريضة ، ثم ألصق فمه بأذنها وأخذ

يسارّ الجنى . ولـكن ماباله ارتبك ؟ إنه ولاريب لاحظ كما لاحظ القوم أن ريا تَنسم نسما لايـكاد لضعفه يدرك ، وأن العفريت مهما عـُذب لايخمد هذا الخمود . فأحس الخطر وتوقع الـكارثة . وأراد الخبيث أن (ينقذ الموقف) كما يعبرون فقال :

لقد وعدنى العفريت أن يشاور نفسه ! فدعوه الآن هادئا يفـكر حتى يصبح الصـباح !

* * *

وفى الصباح ذهب عبد الجبار وادعاً يفتح الـكتّاب ، وذهب أبوريا هالعاً يفتح القبر !

ومنذ ذلك اليوم المشئوم مات المهدى الذى عَرفته فى أول القصة ، وعاش فى جسمه المهدود مخلوق آخر لاهو شخص ولاهو شىء !

سيدنا الشيخ حسن

كان سيدنا الشيخ حسن رجلاً مربوع القامة إلى الطول، ممتلىء الجسم إلى السمن، آدمَ اللون في اصفرار، مستدير الوجه في غلظ، قصير العنق في اكتناز، عريض الجبهة في بروز، ضيق العين في كلال، مرسل الشارب، مسبل اللحية، قد شاع فيها مشيب السنة الخمسين.

وهذه هي الصفات الخلقية التي تذب إلى ناظريك أول ماتراه. فإذا رجعت فيه البصر رأيت في وسط جبينه سمة ظاهرة في شكل الزبيبة من أثر السجود، وفي أعلى ذقنه ندبة غائرة كطعنة المسمار من مشاجرة. وليس بين طول السجود وحب المشاجرة تناقض في خلق الشيخ، فقد كان رقيق القلب مرهف الشعور، يهتاج لأدنى باعث، ويبكي لأقل حادث، ويتأثر لأي خبر. فهو شديد الرضا إلى حد الاستكانة، سريع الغضب إلى درجة البطش. ورضاه وغضبه لايخرجان عن حميته لدينه أو عصبيته لرأيه؛ فالصوفي الذي ينسب إلى الأولياء ماللأنبياء من الخوارق يحرك قلبه ويثير إعجابه حتى ليقبل رجله. و (الشاعر) الذي يغلِّب (أبو سعدة الزناتي) على (أبوزيد الهلالي) يهيج نفسه ويضرم غيظه حتى ليضرب وجهه. يلبس العمامة الضخمة على رأسه الصغير الأصلع فتنطبق على فوديه، وتستقر على أذنيه، وتُلقي على محياه الأسمر إشراقا حائلا من التقى والهيبة. ويرتدي الزعبوط الخشن الفضفاض على جسمه الرهل الرجراج، فإذا مشى رفع ذيله على عاتقه الأيسر فيكشف لعينيك عن جانب من سراويله البيضاء يضرب عليها من خطوة إلى خطوة رأس تكتها السوداء الغليظة. وهو يمشي مطرق الرأس

متكفىء الخطو كأنما يهبط فى حَدُور من الأرض . واضطراب لحمه مع وثاقة تركيبه دليل على أن هذا الرهل عارض من عوارض الجلوس والراحة .

ليس فى حاجة إلى هذا الدليل من عرفه فى ريق شبابه ، فقد قضى عمره الأول ضارباً فى الأرض بقدميه وذراعيه حتى سخرته الحكومة فيمن سخرت لحفر قناة الاسماعيلية وترعة المحمودية. فلما عاد من الهجرة والسخرة شرع يحفظ القرآن على أبيه ليخلفه على خدمة (الزاوية) وهى مسجد القرية الصغيرة. وكان حفظه القرآن على الكبر غميزة يصيبه منها منافسوه من (الفقهاء) ، فيقولون فى خبث الحاسد : إن كلام الله لا يرتسم على لوحة الذهن إلا فى الصغر . ويجهد هو أن يفوّت عليهم مايقصدونه من هذا الغمز فلا يفتر عن استظهاره واستذكاره حتى حمله على ظهر قلبه ، وأداه عن طرف لسانه .

وتوفى أبوه فأصبح خادم (الزاوية) ، وقارىء البيوت ومعلم الكتاب ، ولحاد الموتى ؛ فكان نهاره كله سعياً متصلاً وحركة دائبة . ينفلت من صلاة الفجر فيدور دورته الرتيبة على الدور يقرأ فى كل منها ماتيسر من كتاب الله . ثم يسأل وهو ماش يتدهدى بين الأزقة عن تاريخ اليوم فى التقاويم العربية والأفرنجية والقبطية فيجيب ، ويستفتى عن اليوم المشئوم والميمون فيفتى ، ويطلب منه أن يحسب النجم لهذا أو ذاك فيحسب . ثم تناديه إحدى عجائز البيوت ليبنى لها الفرن فيلبى ، ويدعوه أحد الفلاحين ليكيل له القمح فى الجرن فيذهب . ثم يختم دورته اليومية عند الضحى العالى ، ويعود إلى الكتاب فيعلق عمامته وزعبوطه على الوتد ، ثم يقعد على شقة من الحصير ، عن يمينه (الجريدة) ، وعن يساره القلة ، وأمامه حزمة من الخوص المبلول ، وفى يديه ضفيرة يدخل فيها الخوصة بعد الخوصة وأصابعه الكزماء[1] تلوى بها من كل جانب . ثم يستمع إلى أحد الصبيان وهو متربع على الأرض قدامه ، يرتجف

---

(١) الكزماء . هى القصيرة الغليظة .

من الخوف ويتلو عليه ما حفظ من لوحه . فإذا فرغ سيدنا من استماع قراءة الحافظ ، وعرك أذن الناسى ، وضرب رجل المقصر ، ذهب إلى الزاوية فملأ ميضأتها ومغطسها بالدلو ، ونظف حُصُرَها ومماشيها بالمكنسة . ثم يصلى بالناس الظهر ، ويعود فيتغدى ، ثم يعطى الصبيان حصة العصر ، ويصرف بعضهم إلى أهليهم ، ويرسل البعض الآخر يجمع الحطب من التلول ، أو يجلب السريس من الحقول ، أو يبل له حزم الخوص فى المستنقع . ثم يستبقى فريقاً لتشقيق السعف لجدل الضفيرة ، وفتل الحبال من الليف لخياطة المقاطف . فأما ذوو الخطوط الجميلة فهؤلاء يملى عليهم ما طُلب منه من التمائم والأحجبة : فذا يكتب (السبع آيات المنجيات) ؛ وهذا يكتب (السبعة عهود) ، وذاك ينقل من (الديربى) جدول التأليف بين الزوجين ، وذلك يكتب على خوصة نخلة شرقية تميمة للسعال ، أو على بيضة دجاجة سبتية عزيمة للحمى . وينصرف أولئك جميعاً ويبقى أبرعهم فى القراءة فينقلب أستاذاً (لسيدنا) يحفِّظه قصيدة البردة للأبوصيرى شطرة شطرة ، أو على حد تعبيره هو : (شجمة شجمة) . وهنا تظهر قسوة الإرادة الفتية على الذاكرة الشيخة ؛ فسيدنا يريد أن يحفظ البردة كلها لأنها تُنشد أمام الجنائز كأنها كتاب الموتى ، وهو حريص على أن يتزعم فريق المنشدين فى الجنازة ، يذكِّر الناسين أوائل الأبيات ، ويرسم للبادئين طرائق النغم ، حتى يعتاض بهذه الزعامة عن زعامة القراء ، فإن فيهم من يفوقه فى حفظ القرآن وتجويده . ولكن ما العمل وأنا لا أفهم ما أقرأ ، وهو لا يعلم ما يحفظ ؟ لا حيلة إلا أن ينقشها فى صفحة حافظته على الصورة التى ألِفناها من رسم الكلمات ولا أذكر كيف قرأ مطلع هذه القصيدة :

أمِن تذكُّرِ جيرانٍ بذى سَلَمِ ... مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

وإنما أذكر أنه كان على غير هذا الضبط الذى تقرأه أنت الآن ، وربما

كان أقرب إلى الضبط الذى قرأه عليه أحد أنصاف الأميين من إخوانه المسيحيين إذ قال : أَمْ تِذْ كُرْ جُبْرَانْ بِذِّى سَلَمْ

وما كان أصعب عليه رحمه الله من نطقه : (اكففا همتا) فى قول الأبوصيرى :

فما لعينيك إن قلت اكففا همتا وما لقلبك إن قلت استفق يهم

فانه كان يلفظها على أنها كلمة واحدة ؛ وهى بهذا الاعتبار تلتوى على لسانه وتعدُ عن ذاكرته .

* * *

كانت لى الحظوة عند (سيدنا) من دون أولاد الكتاب ، لأنى كنت أسمِّع له البردة ، وأكتب له الحجاب الغالى ، وأرسم الخاتم الدقيق على رُكَب التلاميذ عصر الخميس حتى لا يستحموا فى النهر يوم الجمعة . وكانت لى الدالة على (امرأة سيدنا) ، لأنى كنت سريعاً إلى قضاء حاجها من بيت الأسرة . فكنت أعفى من الأعمال الشاقة ، كهرس سنابل القمح بالمطاحن ، ودق كَرَب النخل بالمطارق [١] ، وجر حُزم الجريد من البستان ؛ وأجاب إلى كل ما أسال . ولا أزال أذكر أن العريف قرر ذات حين أن يأتى (الأولاد) بأغديتهم فى الصباح حتى لا يخرجوا من الكتاب فى الظهر . وأغدية التلاميذ تختلف طبعاً باختلاف البيوت فى الغنى والفقر ؛ فكان العريف الماكر يركم الطعام بعضه فوق بعض فيجعل طيبه أسفل ورديئه أعلى ؛ ثم يجمع الصبيان حول هذا الركام ويأمرهم أن يبدأوا الأكل من فوق ، فيأكلوا كارهين ، حتى إذا أوشكت أناملهم الصغيرة أن تهبط إلى الطبقات الخصيبة أعلن انتهاء

(١) الكرب . رءوس الجريد الغلاظ التى تقطع معها (تحف) .

الغداء ، وحمل آخر النهار كل ذلك إلى أهله ! فكان أكثر (الأولاد) يقاسون الجوع ولا يستطيع أحد منهم أن يجأر بالشكوى ، إلا أنا ، فلم أكد أعرّض (لسيدتنا) بفوضى هذا النظام حتى حملت (سيدنا) على غل يد العريف وإلغاء حكمه .

على أن هذه الحظوة وتلك الدالة لم تستطيعا أن تحببا إلىّ الكتاب ، ولا أن تخففا عن نفسى شدة كربه . فقد كنت كسائر الأطفال أكره الكتّاب كراهتى للموت ،وأخاف من الفقيه مخافتى من الهولة . وكان أسعد أيامنا نحن أولاد الكتاب يوم يموت فى القرية ميت ! فإذا سمعنا فى الصباح الباكر صراخ النعى على بعض السطوح طفرنا من السرور وسكرنا من الطرب ، لأن هذا الميت سينقذنا طول النهار من طلعة الفقيه . فقد كان الشيخ حسن هو الذى يبنى قبره ، وهو الذى يغسله ويكفنه ، ثم يلحده ويلقنه ، وفيما بين ذلك يشارك الجزار فى ذبيحته ، ويرأس المنشدين فى جنازته : فإذا لم يكن فى القرية ميت يشغله تجهيزه ، ولا فى بعض الدور فرن يؤخره بناؤه ، فرغ لنا بنظرته القاسية وجريدته الجاسية وصيحته المنكرة ؛ فهو طول النهار متمكن فى جلسته وهيئته اللتين وصفتهما من قبل ، ونحن قعود على أرض المنظرة ، بعضنا ينقل من المصحف ، وبعضنا يحفظ فى اللوح ، وأحدنا ينود[1] أمامه ، يسمّع الدرس القديم ، أو يصحح الدرس الجديد ؛ فإذا عثر ولج به العثار أنحى على فخذه بالجريدة المبرومة ، ثم يأمرنا أن نجهر بالقراءة حتى يضيع فى صياحنا بكاء المضروب ! ويتطاير غضب سيدنا إلى نواحى المنظرة فتنخلع قلوبنا من الرعب ، ويتداخل بعضنا فى بعض كما تتداخل الخراف فى الحظيرة إذا ما سمعت هيعة الذئب[2] .

على أن سيدنا كان فى غير ساعة الدرس طيب القلب رقيق الكبد لا ينفك

(١) ناد القارىء إذا هز رأسه وكتفيه على نحو ما يفعل قراء القرآن .
(٢) الهيعة : صوت العدو المهاجم .

في صلواته يدعو الله أن يجعل أولاده من حملة القرآن وطلبة العلم .

* * *

كان أظهر ما في حياة سيدنا الشيخ حسن غرامه بالزاوية ، فهو لا يفكر إلا فيها ، ولا يعمل إلا لها ، ولا يسأل إلا عنها . هي ميراثه عن أبيه ، ويرجو أن تكون ميراثه لبنيه . أمنيته لنفسه أن يدفن في الزاوية ، ودعوته لابنه أن يكون خطيب الزاوية ، ورجاؤه في الله أن يعطف عليها وزارة الأوقاف ، أو يرقق لها قلوب الناس فيرفعوا ما خر من سقفها ، ويقيموا ما تقوض من بناها ؛ ولكن وزارة الأوقاف مشغولة عن الزاوية ، وأهل القرية مكتفون بالمسجد الكبير ، فمن الذي يدنيه من مناله ويسعفه بآماله ؟ لا أحد إلا إيمانه بالله وثقته بنفسه . ألم يكن في صدر أيامه بنّاء ؟ إذن لا يعوزه إلا الآجُرُّ والحجارة ، وهذا مطلب مع العزيمة المؤمنة ممكن التحقيق سهل الملتمس . فكان كلما دخل داراً يقرأ فيها (الراتب) نفضها بنظره الحسير ، فإذا رأى آجرّة مهجورة أو طوبة مكسورة حملها في كمه الواسع إلى الزاوية . وكان يمشي في الطريق ونظره إلى الأرض ، فإذا رأى حجراً أو بعض حجر لقطه وحمله إلى الزاوية . وكان يرجو بهذه الطريقة أن يتجمع له مع الزمن والاستمرار أكوام من الآجر ، لولا أن الحوادث العوابث حالت بينه وبين ما يرجو . كانت الكلاب الراقدة فوق التلول ، أو الرابضة على العتبات ، أو الراصدة في الأزقة والحارات ، كلما رأته ينحني على (الطوبة) يلتقطها ، ظنت أنه يريد أن يرميها بها ، فبعضها يهجم عليه ، وبعضها يولي عنه . ويدعو نباح هذا الكلب وهرير ذاك سائر الكلاب ، فيضطر (سيدنا) أن يقذفها بما معه من الحجارة ، فتحمى المعركة ، ويتفاقم الأمر ، ولا ينحسم إلا بتدخل أهل الحي . وعرفته الكلاب ، فكان إذا مشى هرّته ولو لم يكن في يده حجر . فهو في طريقه إلى الدور أو إلى الزاوية أو إلى الكتاب ، تراه متبوعاً بسرب منها

تنبحه وتهم به ، حتى أكرهته آخر الأمر أن يدع جمع الطوب وأن يحمل المراوح .

* * *

وسمع الشيخ بعض النائمين فى الزاوية بين عمدها المتصدعة ، وفوق حصرها البالية ، يتحدثون ذات يوم بأن المنشاوى باشا ينفق الأموال فى وجوه المعروف ، ويحبس الأطيان على أعمال البر ؛ فهو يقيم المستشفيات والملاجىء ، وينشىء المدارس والمساجد ، ويفيض من ثرائه الغمر على البيوت الجديبة فتهتز وتورق . ففكر سيدنا ملياً وهو يضع قنديل الزيت فى مشكاته المحطمة ، ثم رجع إلى بيته ساهماً حالماً كأنما يشغل باله شأن خطير .

ورآه المبكرون من رجال القرية ونسائها يأخذ طريق السوق بعد صلاة الفجر ، نعلاه تحت إبطه ، وزاده فوق ظهره ، وعصا غليظة فى يده . فسأله بعضهم :

— إلى أين يا سيدنا فى هذا الوقت ؟

— إلى المنصورة فى شأن من شؤون الزاوية .

— ألم تجد حماراً ؟

— بلى ، ولكننى فضلت أن أحمل نفسى مخافة أن يضيع الحمار .

ولكن مضى اليوم واليومان والأيام وسيدنا لا يظهر فى مكان من أمكنة القرية ، فإلى أين ذهب ؟ كان يطوى المراحل ماشياً حافياً إلى (القرشية) بلد المحسن الكبير المنشاوى باشا ؛ وكان بين قرية الشيخ وبلد الباشا مائة كيلو من الأمتار .

ها هو ذا يهدج [1] فى الطرق الشوكاء والمسالك الحصبة والمرافق الوحلة دامى القدم مرتهك المفاصل طاوى الحشا ، يبيت ليله فى القرية التى تقابله فى المساء ، لا ينزل على العمدة ولا على الشيخ ، وإنما ينزل على خادم المسجد

(١) هدج الرجل : مشى مشية الشيوخ .

أو فقيه الكتاب أو مأذون القرية ممن يتوسم الخير فيه ويرجو المؤاساة عنده.

وبعد عشرة أيام كاملة من السير المجهد واللغوب المضنى ، ورد مناهل الباشا فى القرشية فوجدها تموج بذوى العاهات والحاجات من طلاب الرزق ، بين صحفى يقدم وصل (الاشتراك) ، وشاعر يطلب جائزة القصيدة ، ورئيس مدرسة يبتغى نصيباً من الإعانة ، ومديرة ملجأ ترتجى حصة فى الوقف ، وطوائف مختلفات من المحتالين والعيارين والمشعوذين وأرباب الطرق ، كل يستندى كف المحسن الكبير الذى يوزع ثروته تفصيلا قبل أن يخرجه الموت عنها جملة .

دخل المسافر المجهود فى غمار الناس وهو أشعث أغبر ، فاقتحمته العيون ، وتدافعته الأيدى . وظن الحجاب والخدام أنه طالب طعام ، ولم يدروا أنه ركب المخاطر وتجشم الأهوال ليطلب من الباشا بناء الزاوية ، فدفعوه إلى رواق فسيح كعنابر الجند تكدست فيه العجزة والمساكين على حال من البؤس لا توصف . واحتج سيدنا على هذا النمط الغريب من الإكرام ، وقال ثم قال ، فلم ترتفع إليه عين ، ولم تستمع إليه أذن . وقضى على هذه الحال الأليمة بضعة أيام لم يفتر فيها لسانه عن الاحتجاج واللجاج فى مقابلة الباشا ، والناس من حوله يضحكون منه ويعبثون به ، حتى تسلل فى غفلة الأعين ذات صباح إلى دوار الباشا فوجده جالساً فى ردهة (السلاملك) ؛ فلم يكد يراه حتى هرول إليه قبل أن تقع عليه عيون الخدم وهو يغمغم بالدعوات ويتوسل بالنظرات و يبتهل باليدين . فارتاع الباشا الشيخ ، وصاح بالخدم أن يطردوا هذا الجرىء ، فانقضوا عليه واعتقلوه ثم أخرجوه وهو يصيح :

الزاوية يا باشا ! الزاوية ! ربنا يطول عمرك !

* * *

وفى ذات أمسية قمراء من أماسى القرية الجميلة ، بينما كان الصبيان يلعبون

فى الجرن ، والشبان يسمرون على المصاطب ، والشيوخ يتعبدون فى الزاوية ، إذا بالناظرين إلى سكة السوق يرون الشيخ عائداً وخفاه تحت إبطه وليس على ظهره زاد ، فقالوا :

— أين كانت هذه الغيبة الطويلة ياسيدنا ؟

... ؟

— مالك تتهالك على نفسك ؟ هل أدخلوك فى المستشفى الأميرى ؟

— أمرُ الله ! قَدَر الله ! قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنـا .

وأصبح الصباح فأقبل الزائرون يسلمون على سيدنا فوجدوه طريح الفراش ، عينه رمداء ، وجسده مردوع ، وقوته منسرقة ، فحاولوا أن يعلموا منه سبب هذا الغياب ومصدر هذا السقم فلم يسمعوا إلا قوله : أمر الله ! قدر الله !

وتبلغت العلة بالرجل الصالح . فلم يمض على أوبته شهر حتى خلا مكانه من الزاوية العزيزة والقرية الحبيبة .

وسكت الكتاب فلم يضج ، وهدأت الكلاب فلم تنبح ، وقرت الحجارة فلم تنزعج ، وعوض الله سيدنا البار من بيته فى الأرض ، جنته فى السماء .

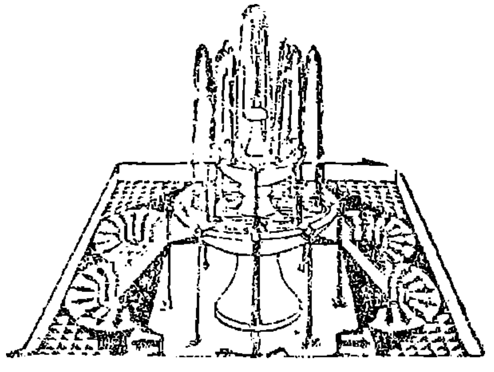

الغرام الأول

ذهبت منذ قريب إلى القرية في شأن من شئون الأسرة . وللقرية في رمضان سحر يغلب على القوى الحاسة فتغرق في فيض من الشعور الرضى الرخى المبهم ، فلا تدرى أهو حلاوة الذكرى الخاطرة ، أم نشوة الطبيعة الشاعرة ، أم لذة الأنس الخاص ، أم جمال الإيمان المشترك . وأحب شيء إلى نفسى هناك أن أخرج أنا وصديقى العمدة إلى ملاعب الطفولة ومسارح الصبا ، فأستنشى عبير الذكريات الجميلة ، وأستوحى آثار الذاهبين الأعزة . مشينا على العادة ننقل الخطو الرفيق على أسطار مشرقة من أديم الثرى الحبيب ؛ فهنا نتذكر مجلساً من مجالس الآباء ، وهناك نتمثل ملعباً من ملاعب الإخوة ، وثمت نتخطر موقفاً من مواقف الأحبة ؛ حتى انتهينا إلى مكان ظليل جميل فى ظاهر القرية ، فجلسنا فيه نقول كان وكان ، ونتمتع بملء العين والصدر والنفس من صفاء الجو ورخاء النسيم وإشعاع البيئة . وفى فترة من فترات الصمت العميق الحالم أرسل صديقى نظرة إلى مورد الماشية من الترعة ثم رده على وفى عينه الساجية جميع معانى التعجب ، وعلى شفته الباسمة كل أدوات الاستفهام . فنظرت حيث نظر فإذا امرأة فى أخريات الشباب تورد بقرتها الماء ، وقد أسدلت على وجهها الكامد طرحتها السوداء ، فلم أثبت معرفتها ، وعهدى بالقرية بعيد فلم أعد أميز المرأة بلبستها ومشيتها وبهيمتها كما كنت أفعل .

ارتد بصرى إلى خائباً لا يملك تفسير ما فى نظرة الصديق من عجب ، وما فى ابتسامته من خبث ، فسألته : ماذا ؟

قال : أما عرفتها ؟

فقلت : من هى ؟

قال : فلانة !

فقلت : فلانة ؟ !

قال : نعم فلانة ! ولا أدرى كيف أحببت هذه المرأة وأنت رجل منذ نشأت شاعر القلب ، وهى على ما أرى من ضمور الجسم وجفاء الخلقة ! ماذا فتنك منها وإنك لتراها ...

فقلت له : بالله ربك لا تزد ! لا أريد أن تصفها ولا أحب أن أراها . دع لى صورة الفتاة التى عرفتها وأحببتها . إنها لا تزال فى طوايا القلب طاهرة كالطفولة ، ناضرة كالصبا ، ساحرة كالشبيبة . أما هذه التى ترى فليس بينى وبينها عهد ولا سبب . قم بنا عن هذا المكان وسأريك من هذه الصورة الجميلة خطوطاً تبعثك على أن تتخيل أكثر مما تسمع ، وتتمتع أكثر مما تفهم .

* * *

كان ذلك فى ربيعى السابع عشر والدنيا غير الدنيا ، والناس غير الناس ؛ فالدور يفيض منها الخير ، والمجالس يشيع فيها الوقار ، والأخلاق تغلب عليها السذاجة ، والأمور بين أهل القرية تجرى على نظام سماوى من التسامح والتعاون والألفة والعفة والاحترام والاحتشام والبر . وكان سلطان الأب على الأسرة أشبه بسلطانه عليها فى الجاهلية الأولى ؛ فهو مجمع رأيها فى القول ، ومرجع أمرها فى العمل . لا يُثنَى له يد فى شأن ، ولا يُرد عليه قول فى حكم . لذلك نشأنا على الهيبة فلا نقترب من مجلس ، وعلى الحياء فلا نشارك فى حديث ، وعلى الطاعة فلا نعارض فى أمر ، وعلى الحشمة فلا نتبذل فى عاطفة . فتستطيع

أنت من وصف تلك الحال أن تدرك طبيعة الحب الذى يُولد فى هذه البيئة وبين هذه النشأة .

كنت أقضى عطلة الدراسة كل صيف فى القرية . فلا أكاد أنطلق من قيود الحياة فى القاهرة حتى أعود إلى أحضان الطبيعة الرءوم : أتوخى أفياء الشجر كالطير ، وأحوّم بين الحقول كالفراش ، وأروى مشاعرى الظامئة من الجمال الحلال فى السماء والماء والهواء وصور الناس ووجوه الأرض . فإذا أينع القطن وحان جنيه حلا لى أن أخرج وراء الجانيات الجميلات بعلة أن أراقب عملهن وأسجل أسماءهن ؛ ولكن الباعث الصحيح على مكابدة القيظ واحتمال العناء كان شغفى بالجانب الشعرى من هذه المشغلة . فقد كان خروج الفتيات من أزقة القرية أسراباً إلى الطريق الضاحك المطلول عليهن صباحة الصبح وإشراق العافية ؛ ووقوفهن صفاً على رءوس الخطوط فى أعلى الحقل يحيين بأصواتهن الرخيمة الشادية شجيرات القطن وقد انعقدت على أوراقها أكاليل الحباب وسال على أطرافها رُضاب الندى ؛ ومشيهن الوئيد فى أخاديد الأرض منحنيات على الفروع الموقرة بالثمر الغالى يقطفنه فى لباقة ويضممنه فى خفة وهن يتفكهن بالنكات ويتروحن بالأغانى ويتساررن بالمنى ؛ ثم عودتهن فى طفول الشمس يمرحن كالغزلان ويصدحن كالعصافير فيخلعن على كآبة النهار المحتضَر وضاءة الصباح الوليد ؛ كل أولئك كان يرهف شعورى بالجمال فأسمو على حداثتى وجهالتى إلى أفق الإلهام والشعر .

وكان من بين هؤلاء الفتيات النواهد أربع لهن عليهن السلطان الغالب والإرادة المطاعة ، لامتيازهن بالحسن الرائع أو الصوت العذب أو الدلال العابث . ولهذه المزايا نفسها نشأت بينى وبينهن ألفة ، فكن يتخلفن عن السِّرب يضحن وجوههن ويصلحن هندامهن حتى تنهض الجمال رائحة بأكياس القطن

فنعود جميعاً صامتين إلا كلمة حيية أو ضحكة ندية تقع فى الأذن أو فى القلب حيناً على حين .

وكانت فلانة هذه إحدى هؤلاء الصواحب الأربع . وكانت يومئذ فى عمر البدر تمتاز منهن بحلاوة الصوت ولطافة الروح وقوة الجاذبية. وكان منبع الجاذبية فيها عينين حوراوين تشعان الفتنة من خلال أهدابهما الوُطْف ، وفماً رقيق الشفتين نضيد الثنايا جميل الافترار ، وصوتاً لطيف الغنّة حلو النبرات فضيّ الرنين ، ونفساً رزينة الطبع رقيقة الشعور هادئة الشعاع؛ فلا تملك وأنت مأخوذ بسحر هذه الصفات أن تفكر فيما فقدته من براعة التكوين وصفاء البشرة وغضارة البدن . وكانت هى من دونهن شديدة الخفر طويلة السكوت خافضة الصوت ؛ تغمغم إذا تكلمت ، وتطرق إذا تبسمت ، وتنظر إذا نظرت خُلسة أو عن عُرْض ، فأغرانى هذا النفور الغزالى بها ، فكنت أسلط عليها رفيقاتها فيداعبنها باليد ،أو يعابثنها باللسان، فتنظر أو تضحك أو تصيح ؛ فأحس فى دعج عينيها ، وبريق ثناياها ، وحلاوة جرسها ، شيئاً خفياً قوياً لا أجهله لأنه ملء الشعور ، ولا أعلمه لأنه فوق المعرفة .

كنت أقعد تحت الظلة عند مفارش القطن المجموع فتأتى الفتيات فرادى وثُنَى فيضعن ما يثقل حجورهن من القطن ، ثم يثرثرن طويلاً وينصرفن طافرات أو هازجات ، إلا فلانة هذه ، فقد كانت تأتى وحدها فتحل نطاقها على طرف المفرش ، ثم تفرط حجرها وهى خاشعة الطرف باسمة ، فأحاول استنطاقها فترتاع وتنقلب إلى خطها مضرّجة الوجه لا تنبس ولا تلتفت . وفى ذات مرة طلبت منها جرة الماء فجاءت بها على استحياء وهى تحاول أن تغض من وجهها وتكسر من طرفها فلا تستطيع . ووقفت أمامى عيناً لعين ، وروحاً لروح . وجهدت أنا كذلك أن أقول لها كلمة فذهل الخاطر وتعطل اللسان ،

وظل كلانا ينظر إلى الآخر ولا يراه ، ويلتمس الطريق إليه ولا يجده ! ولكن سبباً من أسباب القدر كان قد وصل القلب بالقلب ، فامتزجت النفس بالنفس ، وفهم الشعور عن الشعور . وأدركنا معاً أن بيننا سراً ليس بيننا و بين الناس ، جعلها فى نظرى غير من أرى من الصبايا ، وجعلنى فى نظرها غير من تعرف من الصِّبية . ومنذ ذلك اليوم أصبحت تحوم حولى حوَمان الروح حول جسدها الهامد . تعلم أنه لها ، ولكنها لا تملك أن تبعث الحياة فيه .

* * *

ومضت أيام الجنى السعيدة ، وقرّت الكواعب الحسان فى البيوت ، وأقفرت الغيطان فلا تعج بالشباب ، وصمتت الطرقات فلا تهزج بالأغاريد . وأصبح لقاء الأوانس الأربع ، أو الآنسة المرادة من هذا الجمع إن أردت الصدق ، عسيراً على مثلى ممن لا تساعدهم تربيتهم المدنية على أن يغشوا دور الأهلين فى كل وقت ، ويلابسوا طبقات الفلاحين من غير سبب . ولكننى أصبحت على غير ما أمسيت ! ففراغ بالى قد امتلأ ، وأفق خيالى قد امتد ، وسر حالى قد استعلن . وظللت اليوم كله لا أجد فى قلبى غير هواها الملح يعصف به عصف الريح بالشجرة المتهدلة ، ولا أبصر فى عينى إلا جفنيها الكحيلين يُسبلان فى سكون على ألحاظها الفاترة ، ولا أسمع فى أذنى غير أغنيتها مع صاحباتها فى آخر يوم من أيام الجنى ساعة أقبلت على الحقل فى ضحوة النهار كعادتى ، ومطلعها :

يا بــدر لما جيتْ كانتْ ضلامْ نوَّرتْ

تلمست العلل والحيل لأراها فى بيتها أو ألقاها فى غيطها ، فأخطأنى التوفيق لهذا الحياء الغالب على طبعى ؛ فكنت أمر ببابها ، أو أسير فى طريقها ، فأجدها أحياناً على عتبة الدار داخلة أو خارجة ، أو لحماحية على حمارها القصير الأبيض راكبة

على حمل من البرسيم ، فنتخالس النظر ، ونتسارق الابتسام ، ثم يذهب كل منا لوجهه .

لم أكن أعرف على وجه اليقين شعورها بهذا الفراق بعد أيام جمع القطن ، ولكننى علمت من بعدُ أنها كانت تبتغى الوسيلة إلى اللقاء الحر حتى اهتدت إلى هذه الحيلة :

كانت فى بيتنا صيدلية صغيرة من العقاقير الضرورية الواقية أو المسعفة . وكان أهم ما فى هذه الصيدلية لتر دائم من قطرة الزنك نجعله لمن يشاء من أهل القرية . فكنت ترى « المنظرة » فيما بين المغرب والعشاء أشبه بالعيادة الناجحة . وكان الذى يتولى هذا العمل الخيرى أنا أو أحد إخوتى فبينما أنا ذات ليلة جالس وحدى على مصطبة الدار إذا بى أراها مقبلة تتهادى فى الظلام ، وقد عصبت عينها اليمنى بمنديل أسود ! فنهضت إليها عجلان فى حال تنم على دهشة المفاجأة وربكة الموقف وقلت لها :

— أهلاً وسهلاً ! سلامةْ عينِك يا نور !

— فقالت نور ويدها ترتجف فى يدى ، وصوتها يتهدج فى أذنى .

— الله يسلمك ! عاوزه أحط أطْرَهْ

— فدخلت بها المنظرة وأجلستها بجانبى على الكنبة ، ورفعت هى العصابة عن عينها فإذا جفناها ملتهبان قليلا . فسألتها عن سبب هذا الالتهاب فقالت إنها حكتهما عامدة بالتوتيا الخضراء فالتهبتا .

فقلت لها وقد فطنت إلى ما رمت إليه :

— ولماذا ؟

— كدَهْ !

— كده ليه ؟

— أهو كده !

فضحكتُ وضحكتْ ، ثم أملتُ رأسها الصغير على ركبتى ، ووضعت كفى على وجنتيها ، وأنا ملى على خديها ، وطفقت أنظر من هذا القرب إلى هذا الجمال الذى شغفنى وشغلنى . فهذه هى العين التى ترسل السحر حيث ترسل النظر . وهذا هو الثغر الذى يفترّ عن المفاتن كما يفترعن الدرر . وهذا كله هو الحيا الذى يشرق فى قلبى الناشىء إشراق الأمل ، ويتحدث فى نفسى الغضة حديث الصبابة . وأردت أن أحجز تيار الهوى عن الوضع الذى نحن فيه فلأّت القطارة وهممت أن أفتح عينيها فنهضت مذعورة وهى تستضحك وتقول :

لا . لا . عينى سليمة ، مافيش لزوم .

حينئذ لم يبق بينى و بين نور إلا شىء له دلائل وليس له لغة . هى تعلم أنى أحبها وأنا أعلم أنها تحبنى ، ولكننا لا نجد لهذا العلم الضرورى اسماً يدل عليه ، ولا كلاماً يعبر عنه . لأننا معشر القرويين — كما تعلم — نعرف الحب بمعناه وننكره بلفظه . فنحن نفرَق منه كما نفرق من ألفاظ الفضيحة والنقيصة والعهر ، ولا نفهم من كلمة الحب إلا انفتاح العين والقلب لواحد من الناس فى غيبة الأسرة . ذلك إلى أن الحياء الطبيعى يعقد اللسان عن شكاية برحائه وحكاية همه ، فكيف بالتصريح به ؟

كانت هذه الساعة التى جلستها إلىّ ظاهرة من أغرب ظواهر النفس . صبيان فى حميا الشباب ومرح الفتوة يتحرق كلاهما شوقاً إلى صاحبه ، فتدنيهما الفرصة المرقوبة ، وتجمعهما الطبيعة المؤلفة ، على غفلة الأعين وهمود الآذان ، فلا تنبسط يد ، ولا ينزلق لسان ، ولا تجمح شهوة ، ولا يكون بينهما الا حديث

عامٌ لا يلبث أن ينقطع لأنه زورٌ على القلب وكذبٌ على الخاطر ؛ ثم يفترقان وفى صدر كل منهما سعير من الوجد يذيب الحشا ويرمض الجوانح ! !

دأبت نور على هذا اللقاء بهذه العلة أسبوعا من الدهر كان شبعا وريًّا لهذه العاطفة المكبوتة فنمت نمو الجبار فى صدرٍ واهن ضيق . ثم خشيتْ فضول الرقباء من طول الاستشفاء فأمرت عينها أن تبرأ ! وانسدل بيني وبينها الستار فلم أعد أراها .

* * *

تذرعت إلى صداقة أخيها بوحدة السن والهوى حتى تمكنت بيننا الألفة . وأنتجت هذه الصداقة نتيجتها المقصودة فكنت أقضى أماسيّ فى بيته ، بين أمه وزوجه وأخته . نجلس جميعاً على فرن القاعة الدافىء نلعب الورق ونشقق الحديث ، ولكن ماحولنا وما بيننا من الأشخاص والأشياء كان إطاراً وكانت هى الصورة . فالعين لا تقع إلا عليها ، والقلب لا يتجه إلا إليها ، حتى فطنت لحالنا الأم ، واضطربت بحديثنا الألسنة . وعزا الخليُّون هذه العاطفة إلى طيش الحداثة ، واستبعدوا أن ينتهى هذا العبث إلى شىء من الجد لاختلاف التربية وتباين الطبقة ؛ ولكن هوى نورَ قد غطى على قواى المدركة فتركنى أضطرب فى دائرة ضربها علىّ فلا أحاول الخروج من حصارها الكثيف ، ولا أقصد إلا الغاية الحتمية للحب العفيف . ذلك أن الحب انجذاب وامتلاك واستئثار ومتعة . وهو يسلك إلى هذه الأطوار ما أمكن من المسالك . فإذا تعددت أمامه المنافذ انسرب من هنا وانسكب من هناك ، حتى ينتشر ويتبدد ؛ وذلك هو الحب فى المدينة . أما إذا انحصر فى حدود من الخلق المتين والتنشئة القويمة هدر هدير الأسير المغلوب ، واضطرب اضطراب الحنق المكروب ، ثم لا يجد له متنفساً إلا الفرجة

الوحيدة المشروعة ؛ وهذا هو الحب فى القرية . لذلك قطعت العزم على أن أفضى بذات صدرى إلى أمها قبل رحيلى إلى القاهرة . فلما كلمتها ورجوتها فى ضراعة وتوسل أن تذود الخطّاب عن نور ريثما أعود ، فجأها هذا الرجاء فشخص بصرها وانفغر فوها ، وظلت على هذه الحال برهة لا تطرف ولا تجيب . وأخيراً قالت فى لهجة الحائر المشدوه :

وهل يرضى أبوك ؟

فقلت لها : وماذا عليك ؟ إنى أعرف من يستطيع إقناعه . ولكن أم نور نفسها لم تقتنع ، وكرهت مع ذلك أن تكسع باليأس أمل هذا العاشق الصغير ، فقالت لى بلهجة الأم العطوف : سافر يابنى مطمئناً فهى لك !

* * *

وذهبت إلى نور فى الحقل القريب أودعها وداع الراحل فى الغد ، فوجدتها بين البقرة وعجولها الصغار توزع بينهن العلف ، كما وجد فرتر شرلوت بين أطفالها الستة توزع عليهم الخبز ! فجلست على حزمة من البرسيم ، وجلست هى إزائى على أديم الأرض . ومرت برهة من الصمت الحزين قبل أن أقول لها إننى عاهدت أمها على أمر ستعلم نبأه منها إذا سألتها . وإننى سأسافر فى الغد إلى القاهرة ، وسأعود فى الصيف إلى القرية ، فيجتمع الشمل ويرجع الأنس ويتحقق الرجاء . فتبين الأسى فى وجه نور ، حاولت أن تتكلم فأعياها الكلام . فأطرقت برأسها ، وتحاملت على نفسها ، ولكن وجهها احتقن احتقان المختنق فانفجرت بالبكاء حتى سُمع نشيجها من بعيد . فكانت هذه هى المرة الأولى التى قالت فيها نور بلسان الطبيعة القوى الصريح : إنى أحبك !

وسعى الدهر بينى وبينها ، فوسّع مسافة الخلف بين طريقى وطريقها ؛

وقطعتنى القاهرة عن القرية فأصبحت لاأزورها إلا لماما . واستحدثت فى نياط القلب أسباب جديدة ؛ وتزوجت نور من ذلك الشقى الذى تعرف ، فألح على براءتها بالشر ، وأنحى على سعادتها بالفقر ، حتى أصارها إلى ما ترى !

وكم ياصديقى فى أجادب الدنيا وصحارى الحياة من أزاهير لوحتها السموم وصوحتها الهواجر ، ولو أنها غرست فى أطايب الأرض لكانت زينة العيش وبهجة النفس ومتعة النظر !

في سبيل الأرض الطيبة

لم يكد المصلون يفرغون من صلاة العشاء فى مسجد القرية حتى ابتدروا الباب يريدون الخروج . لم ينتظروا ختام الصلاة المفروضة مع الأمام ، ولا أداء الصلاة المسنونة بعد الختام ، وإنما خرجوا وعلى وجوههم اهتمام وفى حركاتهم نشاط . لقد كان موعد النشرة الإخبارية الثالثة التى تذاع فى منتصف الساعة التاسعة قد قرب . والفلاحون منذ سنت حكومة الثورة قانون الإصلاح الزراعى ، حِراص على أن يجتمعوا كل ليلة فى ساحة العمدة يستمعون إلى الإذاعة المصرية وهى تذيع أخبار هذا القانون ، من تفصيل مجمل ، أو تفسير غامض ، أو تعديل نص ، أو تنفيذ قرار . فإذا فرغ مذيع المحطة من خبره ، أو مندوب الحكومة من حديثه ، لم يجدوا فى أنفسهم ما كانوا يجدون قبل اليوم من الرغبة الشديدة فى الاستماع إلى قصائد أم كلثوم ، أو إلى أغانى عبد الوهاب ؛ وإنما وجدوا مكانها رغبة لا يملكون عن قضائها صبرا ، ولا يدركون فى غيرها لذة : تلك هى الرغبة فى التعقيب على أخبار القانون السعيد الذى سيملأ القرى غنى كما ملأها الإقطاع فقرا ، وفى التعليق على خطب الزعيم الجديد الذى سيملأ البلاد عدلا كما ملأها فاروق جورا . ولكنهم كانوا بحكم أميتهم يتفاوتون فى فهم ما يذيعه الراديو باللغة الفصحى ، فالقلة القليلة وهم المتعلمون وأنصافهم يفهمون كله ، والكثرة الكاثرة وهم الأميون وأشباههم يفهمون بعضه . لذلك كانوا إذا ما أسكتوا الراديو يمدون أعناقهم إلى المصطبة الطويلة التى يجلس عليها كبار القوم ، وينشرون

آذانهم إلى ما يقول الشيخ محمود بلغة العامة ، ترجمة عما قال المذيع بلغة الخاصة . حتى إذا فرغ الشيخ من التلخيص ، وأعانه الشيوخ الآخرون على الشرح ، انثالت الأسئلة على المصطبة ، وانهالت الأجوبة على الساحة ، وأخذت الناس حال من الحماسة تكاد تخرجهم من جلودهم الغليظة ، وتغلبهم على عقولهم الرزينة . هذا يزهوه الشموخ الحادث فيعلن الاحتقار لمالك الأرض . وذاك يملكه الحقد القديم فيسر الانتقام من ناظر الزراعة . وهؤلاء يرجون أن يقع ما يملكون فى الأحواض الخصبة . وأولئك يخشون أن يقل ما يأخذون عن الفدادين الخمسة . ثم ينصرفون جميعا إلى دورهم مثنى أو ثلاث أو رباع ، وهم يملكون ما تبادلوا من الأحاديث ، ويتمثلون ما تخيلوا من المنى ، ويرسلون أعينهم فى ضياء القمر الزاهر إلى الحقول الكاسية بسيقان الرز وأعواد الذرة ، فتملكهم هزة الطرب فيصيحون وهم يرقصون ويصفقون : أحقاً ستصبح هذه الأراضى لنا ؟

— ٢ —

وفى تلك الليلة التى رأيناهم فيها ينصرفون سراعا من بيت الله إلى بيت العمدة ، كان الراديو يذيع أن اللجنة العليا لتنفيذ قانون الإصلاح الزراعى قد استولت على ما فوق المائتى فدان من أراضى الملك الخليع المخلوع وآل بيته ومن اشتهر سيرتهم فى الترف والسرف والطغيان والجور . وكان من بين هؤلاء مالك الأرض التى خلق الله أجسادهم وأرواحهم منها ، وأعاد أجدادهم وآباءهم بعد الحياة فيها ، وجعلها لهم ولأبنائهم مستودع الذكريات والتراث ، ومستقر الحياة والرزق ، ومستراد الهوى والأمل ، قبل أن يغتصبها أبناء (قولة[1]) فيما اغتصبوا ببضعة قرون . فلما انتقل المذيع إلى أحداث الحروب فى (كوريا) ، وأنباء الثورة فى (كينيا) ، أقفلوا الراديو وأقبلوا

(١) أسرة محمد على .

بأبصارهم وأسماعهم على أهل المصطبة . ولم تكد العيون تتلاقى حتى سرى منها إلى القلوب سيال من الشعور المتقد المتحد حرك الألسنة بالهتاف ، وشغل الأيدى بالتصفيق ، وأخرج الشباب عن طورهم فأخذوا يتبادلون اللكمات والركلات على عادتهم حين يستخفهم الفرح . أما الكهول فظلوا فى مقاعدهم هادئين هانئين يتمتعون بما أشعرهم هذا النبأ العظيم من برد السرور وحلاوة الغبطة ؛ لأن انقضاء أكثر العمر فى عبودية المالك وذلة الفقر طبع نفوسهم على التسليم بالواقع والرضا بالمكروه ؛ فحالهم أشبه بحال السجناء حين يتلقون أمر الإفراج ، أو الأرقاء حين يسمعون صيغة العتق ، لا يرقصون ولا يميطون ؛ وإنما يقابلون الأمر ببشاشة المطمئن وابتسامة الشاكر .

ذهب أكثر الشباب إلى الحقول القريبة ينفسون فيها بالمرح الصاخب عن الفرح المكظوم ، ويتلذذون بمرأى الأرض وهى ملك كما كانوا يتألمون بمرآها وهى سخرة . وبقى أقلهم أمام المصطبة مع الكهول ، يتذكرون ما كانوا عليه ، ويتفكرون فيما صاروا إليه . وكان الحاج إبراهيم خولى التفتيش القديم يتصدر المصطبة فى غياب العمدة ؛ لأنه أكبر القوم سنا ، وأكثرهم بالزراعة علما ، وأطولهم لموظفى الدائرة صحبة . وكان قد هدف إلى الثمانين من عمره ، ولكنه لا يزال سليم البدن صحيح العقل ذكى الفهم طلى الحديث مهيب الطلعة . تحسب وجهه الأسمر بين كلبوشه الأدكن العالى ولحيته الشهباء المرسلة ، وجه درويش من دراويش الفرس بدت عليه سمات الصلاح ومخايل السكينة . وكان منذ علاه المشيب وخفت عنه أعباء العمل قد قسم يومه بين المسجد والمجلس ؛ فلسانه لا يفتر عن الذكر أو الحديث ، ويده لا تفارق السبحة أو المغزل . وكان أحب الأحاديث إلى نفسه ما اتصل

بالقرية ومن عاش فيها من الأخيار والصالحين ، أو بالأرض ومن تعاقب عليها من الملاك والموظفين . فحافظته سجل واع لما وقع فى البلدة من أحداث وما طرأ عليها من تغير فى خلال قرن من الزمان ، إن لم يكن فيه شاهد عيان فقد كان راوى خبر . لذلك تراه إذا تشقق السمر ونشاجن الحديث يعقب على كل نادرة بنادرة ، ويعلق على كل حكاية بحكاية .

— ٣ —

كان الحاج إبراهيم يخوض مع الخائضين فى حديث التمليك والتوزيع حين سمع محمداً حفيد المهدى البحبوح[1] يظهر الغبطة ويحمد الله على أن سيكون له فى ثرى قريته الحبيبة فدانان أو أكثر . فالتفت إليه الحاج يقول وعلى وجهه مسحة الأسى ، وفى صوته رنة الأسف : ليت جدك يا محمد كان حياً اليوم فيسمع بأذنيه الراديو وهو ينقل إلينا هذه البشرى ، ويرى بعينيه الحكومة وهى توزع علينا هذه الأرض ! إذن لمات ميتة السعيد الذى صبر فنال ، وسعى فأدرك ، واستغنى فشكر !

فقال له الشيخ محمود : ولماذا تخص المرحوم المهدى بهذا التمنى وأهل البلد كانوا جميعا فى مثل حاله ؟

فقال الحاج للشيخ وقد وقف مغزله وترزن فى لهجته وأقبل عليه بوجهه : لأن المهدى يا أستاذ مات شهيداً فى هذه الأرض الطيبة .

فقال الذين لم يعاصروا المهدى ويريدون أن يعلموا أمره ، والذين عاصروه ويحبون أن يستعيدوا ذكره : قص علينا يا حاج ماذا كان من حديث البحبوح واستشهاده فى هذه الأرض ؟

فقال الخولى القديم وهو ينزع الصوف المندوف من يمناه ، ويضع المغزل كله فى يسراه :

(١) مر بعض حديثه فى أقصوصة (جلاد الشيطان) .

كانت هذه الأراضى كلها لنا منذ أنشأنا الله منها ، وجعل حظنا من الرزق فيها ، حتى اغتصبها محمد على فيما اغتصب ، ثم ردها إلينا سعيد صديق الفلاح فيما رد . فلما تولى الخديو إسماعيل وفسق فى البلاد فسوقه الفاجر ، وأسرف فى أموال الدولة إسرافه الفاحش ، وركبه الدين الفادح ، وأعجزه الافتراض المسعف ، وأعوزه المورد الفياض ، كان يفرض الضرائب الباهظة على الأراضى خصيبها وجديبها ، ويكلف عماله فى الأقاليم أن يجبوها مرارا فى السنة الواحـدة . وكانوا إذا لم تف غلات الأرض بمطالب الخديو المرهقة ساموا أصحابها سوء العذاب ، فجلدوا بالسوط ، وحبسوا فى الدوار ، وهجموا على الحظـيرة والدار ، فلا يعصم ملاك الأرض من كل أولئك إلا الفرار منهـا أو النزول عنهـا . وأجدادنا رحمهم الله قد فضلوا أن ينزلوا عن أراضيهم للحكومة على أن يخرجوا من ديارهم ، وهى كما تعلمون ملاعب الصبا ، ومسارح الشبيبة ، ومجالى الأحبة ، ومدافن الأهل . وكان يوم استيلاء الحـكام عليها يوم فرح فى القرية دوت فيه الطبول ، وصدحت المزامير ، وجلجلت الزغاريد ، وأصبح الناس بعده آمنين لا تفزعهم جباة ولا تروعهم جنود . وجعل إسماعيل هذه القرية وست قرى أخرى بمركز طلخا قطيعة لشريف باشا ورثها عنه ابنه على شريف . فلما توفى الوارث اقتسمها أولاده بينهم فـكانت قريتنا من نصيب ابنه عز الدين . وكانت الأرض فى عهد شريف وذريته تزرع (وسية) يدير الموظفون الأرناءود شؤونها بالـكرباج ، ويعمل الفلاحون فيها (تملية) بالأجر . وكانت أجـــرة العامل سبعة مليمات فى اليوم ، وفدانا من الأرض يستغله أهله فى السنة . ثم تنقلت ملـكية القرية وأهلها من آل شريف إلى أجناس شتى من الملاك ، فيهم التركى واليونانى والمصرى ، حتى انتهى بعضها إلى وحيد يسرى ، وبعضها إلى البدراوى

فأنتم ترون أننا فقدنا السلطان على أرضنا وأمرنا قرابة قرن من الزمان نسينا فيه طعم الملكية ولذة الحرية وعزة الاستقلال . فأصبحنا كلما رأينا المالكين يبيعوننا بيع البهم ، ويشترونا اشتراء العبد ، ويستغلوننا استغلال الآلة ، وكلما سمعنا أن الفلاحين مثلنا فى المراكز الأخرى لهم أرض يملكونها ، وثروة يدبرونها ، وغلة يخزنونها فى دورهم ، ويتصرفون فيها بأنفسهم ؛ أقول كلما رأينا ذلك وسمعنا هذا استشعرنا الذلة ، وأحسسنا الحرمان ، وأدركنا أننا بعداء عن الشعب ونحن منه ، وغرباء عن الوطن ونحن فيه . وكان المهدى عليه رحمة الله أشدنا ألما من هذه الحال ، وأكثرنا هما بهذا الأمر ، لأنه كان عبداً من عباد الأرض المخلصين ، يكاد لا يرفع يديه منها ، ولا يمل الجولان فيها ، ولا يسأم الحديث عنها يعرف أحواضها قطعة قطعة ، ويميز قطعها سهما سهما ، ولا يخفى عليه من قويها وضعيفها شىء فى غيط ولا ساحل .

وكنا إذا فك المالك الأرض ليعيد توزيعها على المستأجرين تركنا له أمر القسمة ، فيوازن الحوض بالحوض ، ويقارن القطعة بالقطعة ، ويعادل الفدان بالفدان ، ويقضى فى ذلك الشهر أو الشهرين ، ينتقل من مصطبة إلى مصطبة ، ويتقلب من جرن إلى جرن ، لا يجف له ريق ، ولا يخفت له صوت ، حتى يستولى كل مستأجر على أرضه .

كانت أمنية المهدى على الله أن يملك قطعة من ثرى النيل يقصر عليها جهده وخبرته ، ويقوت منها ماشيته وأسرته ، ويطفىء بها شوقه الملح إلى أن يكون إنسانا له كرامة ، ومالكا له نفوذ ، وزارعا له رأى .

ولم يقنع المهدى بوساوس الأطماع وأحاديث المنى ، وإنما كان يبتغى الوسائل إلى تصديق أحلامه وتحقيق أمانيه . كان يسأل كل طارىء

على البلدة عن ثمن الأراضى فى جهته ، وعن مقدار المعجل والمؤجل من هذا الثمن ، فكانت الأجوبة كلها تتفق على أن ما عنده من المال لا يبلغه بعض ما فى نفسه . وماذا كان عنده ؟ إسورة من الذهب لامرأته ثمنها عشرة جنيهات ، وعجلة من بنات جاموسته ثمنها عشرة أخرى . أما النقد فمن أين يأتيه وكيف يستقر عنده ؟ لم يدخل بيته قطن فيبيعه ، ولم يفضل من أجرته شىء فيدخره . وإنما القطن وأكثر محصول الحقل لمالك أرضه ؛ وأجرته والقروش التى تمر على يده من أثمان البيض أو السمن لنفقة بيته ، والدين الذى عليه لتاجر القماش من جلاليب العيد يوفيه من ثمن كيلات من القمح يقتطعها من قوت أولاده .

إذن لم يبق له من وسيلة لشراء الأرض إلا معجزة من الله تدركه ، أو كنز من المال يصيبه .

وكان المهدى ينتظر هذه المعجزة فى ليلة القدر من شهر رمضان ، ومن بغلة العشر فى شهر المحرم ، ولكنه وا أسفاه بعد طول الانتظار ودوام الترقب لم تنفتح له (الطاقة) فى السماء ، ولم تفكر فيه (البغلة) فى الأرض ؟

* * *

وفى عصر يوم من أيام الربيع — والربيع فصل الآمال والوعود — عاد البحبوح من المنصورة يطفح وجهه بشرا ويفيض صدره بهجة ، ولم يكد ينزل عن حماره حتى دعا إليه عشيرته وجيرته . فلما اجتمعوا لديه قال لهم بصوت البشير إذا حمل الخبر ، وبلهجة الرائد إذا حمد النجعة : إنى سمعت اليوم فى المنصورة أفندية يقولون إن الحكومة قررت أن

تبيع الفلاحين (وادى الريان)[(١)] بثمن مقسط على آجال بعيدة ، ولهم عليها أن تدبر الماء ، وتبنى الدور ، وتعطى البذور ، وتقرض المال ، وتهب الماشية .

فصاح القوم أجمعون بلسان واحد · وأين وادى الريان هذا يا مهدى ؟

فقال : سألتهم هذا السؤال فأجابوا إنه فى جهة للفيوم :

وهنا سكت الحاج إبراهيم ليقول لصاحب المصطبة فى شىء من الإنكار :

أين الشاى يا شيخ عبد العزيز ؟

فقال شيخ البلد وهو يسعى إلى داره ليهيىء الشراب المطلوب :

إى والله يا حاج ! إنك تستحق أكثر من الشاى على هذا الحديث .

ومرت برهة تبادل فيها الجلوس السجائر وعقبوا على بعض نواحى الحديث ، حتى جاء الخفير يحمل النقيع الأسود فى قدر كبيرة . فارتشف القوم أقداحه فى التذاذ ونهم . ثم عادوا يرهفون المسامع للقاص الوقور ويقولون له : هيه ، هيه ، يا حاج ؟

— ٤ —

وعاد الحاج يقول :

بات أهل القرية تلك الليلة ولا حديث لهم إلا خبر المهدى ووادى الريان . وكان كل رجل فى كل منزل يدير الرأى فى هذا الأمر فيما بينه وبين أهله : كيف يتركون بيئة عرفوها ومعيشة ألفوها إلى بلد بعيـــد

---

(١) كان مصدر هذه الشائعة الكاذبة ما نشرته الصحف يومئذ من التقرير الذى قدمته لجنة للمهندسين الدوليين سنة ١٨٩٤ إلى الحكومة المصرية ، عن استخدام وادى الريان فى خزن ماء النيل زمن الفيضان بترعة تمتد من النهر إلى الوادى ، حتى إذا غاض النيل وأدرك فرعيه الجفاف أطلقوا فيه ذلك الماء المخزون فيساعده على أن يروى مليون فدان من الأرض .

ليس لهم فيه قريب ولا عندهم به علم ؟ وكيف ينصرفون عن حياة معلومة مستقرة فرارا من عسر قد يهون ، إلى حياة مجهولة قلقة طمعا في يسر قد لا يكون ؟

ومن الذى قدر الأرزاق وقسم الحظوظ ؟ أليس هو الله جل شأنه ؟ ورب هنا هو رب هناك . وإذا كان الرزاق الكريم قد شاء أن يبدلنا غنى من فاقة ، وملكا من إجارة ، فإنه قادر أن يهيىء الأسباب إلى ذلك من غير حاجة إلى احتيال ، أو ضرورة إلى هجرة .

ومن العجيب أن القوم كانوا فى هذه الاعتراضات لسانا واحدا كأنما لقنهم إياها ملقن واحد !

والواقع أن فى صدر كل مصرى شيطانا يلقى فى أمنيته كلما تمنى ألا يفترق عن أسرته ، وألا يبتعد عن قريته ، وألا يغترب عن وطنه . فالفلاح يرضى فى بلدته المعيشة الضنك ولا يلتمس العيش الرغيد فى إقليم مجاور . والتاجر يقنع فى مدينته بالربح اليسير ولا يطمح فى مديريته إلى الثراء الضخم . والموظف يحزنه أن ينقل إلى عمل بعيد عن قريته إذا كان فى الريف ، أو عن مسكنه إذا كان فى الحضر . والساكن يشق عليه أن ينتقل من بيت متهدم فى حى قذر طالت سكناه فيه ، إلى بيت جديد فى حى نظيف استجدت صلته به .

فإذا تسايرت أهواء القوم على رفض النزوح إلى صحراء الفيوم كان ذلك استجابة لهذا الشيطان الذى صدنا عن حواضر السودان وهى حبيبة ، وصرفنا عن بوادى النيل وهى قريبة !

كانت الوساوس تنتقل من فم إلى فم ، ومن دار إلى دار ، حتى تصل إلى أذنى المهدى فى منزله بطرف القرية ، فكان يفندها مستعيناً بما سمع

من آيات الله ، وبما حفظ من أمثال الماضين . وبما روى من أشعار الهلاليين . ولكن القوم لم يلقوا أسماعهم إليه وفضلوا أن يتريثوا حتى يذهب غيرهم إلى هناك ، فيروضوا الأمور ، ويذللوا الصعاب ، ويحتملوا مكاره البدء .

ولم يرد المهدى أن يُسمع غير سميع ولاأن يقنع غير مستعد ، فآثر السكوت وصمم فى نفسه على أن يكون هو (أبو زيد الهلالى) بطل (الريادة) .

* * *

والحق أن المهدى كان لا يختلف عن بطل الهلاليين إلا فى السواد والفروسية ؛ أما فى صفات الرجولة الأخرى فقد كان يشابهه أو يقاربه . كان أسمر اللون فى ملاحة وجه ؛ وكان شجاع القلب فى سماحة خلق ؛ وكان خشن المراس فى دماثة طبع ؛ وكان على الجملة أشبه بفرسان قصة عنترة الذين تسمعون بهم ، يجمع بين قسوة الجوارح ورقة المشاعر . فهو من جهة يشارك عند الضرورة فى السطو بالليل ، ويبالغ يوم الخصومة فى الحقد على العدو ، ويجيد الضرب بالنبوت والخبط بالفأس ؛ وهو من جهة أخرى يعشق الطرب ، ويهوى الغناء ، ويحسن النقر على الطبلة والزمر بالأرغول والصفير بالناى . ومن أجل ذلك كان موضع الإعجاب من الرجال فى المركز ، ومهوى أفئدة النساء فى القرية .

ولعل الزهو الذى كان يملأه من احترام الفتيان له ، وافتتان الحسان به ، كان بعد طبيعته الطموح الحافز الثانى الذى كان يدفعه إلى العمل ليغنى ، ويغريه بالغنى ليملك ، ويطمعه فى الملك ليكون أعلى مكانة فى أعين الناس ، وأجل كرامة فى رأى نفسه .

ولقد سنحت له الفرصة فى الهجرة إلى وادى الريان لبلوغ غايته ونيل مراده فكيف يدعها ؟ وهل يليق بأهل الفتوة أن يستكينوا لمخاوف تخلقها الأوهام ، ووساوس تبعثها الظنون ؟ إن أرض الله واسعة فلم يرضى

(١) الريادة قصة من قصص بنى هلال الكثيرة تدور على ريادة أبو زيد ويونس ومرعى لأرض تونس تمهيداً لتجمة الهلاليين .

بالضيق ؟ وإن رزق الله كثير فلم يقنع بالقلة ؟ وإن البؤس الذى يعيش هو وقومه فيه قد بلغ الحد الذى لا سوء بعده ، فكل تحول عنه لابد أن يكون إلى أحسن .

وماذا يضره إذا انتجع هذا المكان المجهول ، فإن أصابه الخير اطمأن به ، وإن أخطأه التوفيق انقلب إلى أهله ؟

— ٥ —

كنا فى أواخر شهر مايو والفلاحون قد أوشكوا أن يفرغوا من حصاد القمح ، فلم يبق فى حقوله الجرد إلا جماعات مبعثرة هنا وهناك قد أخرها سعة الأرض أو ضيق ذات اليد . وكان المهدى قد حصد أول الناس ؛ ولكنه كان مديناً بزمال فى الحصد لبعض جيرانه ، وأراد أن يوفيهم هذا الدين قبل أن تحول الأحداث دون الوفاء به ، فخرج مع الحصادين فى الهزيع الأول من الليل ، فى يده منجله ، وعلى كتفه رداؤه . وكان قبل أن يخرج من داره قد لبس أحسن ثيابه ، وقبل يد أمه ، وعانق إخوته ، وودع زوجته وابنته ، ثم أمر أخاه الأصغر أن ينتظره بالحمار والخرج فى مدخل سكة السوق بعد صلاة الفجر .

لقد كان مجلس العائلة قد قرر أن يرحل المهدى وحده إلى وادى الريان ، فيملك الأرض ، ويختار البيت ، ويتسلم الجاموسة ؛ ثم يرسل إليهم فيلحقون به .

وبات المهدى ليلته الأخيرة فى القرية يحصد ، ويغنى ، ويغازل ، و(ليلاه) من ورائه تلم الحصيد وتكومه أكواماً صغيرة ؛ ثم تلمس عمداً كعبه الخشن بيدها الناعمة من حين إلى حين ، تريد أن تنبهه إلى وجودها من خلفه . ولكن المهدى كان مصروف الفكر عمن حوله . كان يتغنى لسامع بعيد ، ويتغزل بحبيب مجهول ، ويتفكر فى دنيا جديدة ، وينظر من آنة إلى أخرى فى نجوم الشرق يبحث بينها عن نجمة الصباح .

وأخيراً هتكت يد الفجر أستاره الوردية ، فانبثق النور ، وهللت الديكة ، ولعلع صوت (أبوعامر) على سطح المسجد الصغير يقول الله أكبر ! الله أكبر !

فترك المهدى منجله ورداءه إلى ليلى وذهب ليتوضأ ويؤدى ركعتى الصبح

وبعد قليل كان على حماره فى الطريق إلى طاخا ، تحته خرجه ، ووراءه أخوه . فلما بلغ المحطة كان قطار الساعة السادسة على وشك القدوم ، فاشترى تذكرة إلى الفيوم ، ثم اتخذ مقعده بين الركاب . ولم يكد يستقر فيه حتى استغرق فى نوم عميق ما كان يوقظه منه إلا صوت مأمور القطار يطلب منه التذكرة من محطة إلى محطة . وفى طنطا نبهوه أن ينتقل إلى قطار القاهرة فانتقل . وكان قد أحس الجوع فأدخل يده فى الخرج وأخرجها بقرصة من الفطير وقطعة من الجبن فأفطر . ثم تحلل به التعب والسهر فوضع رأسه على رأس المسند ونام .

ولما وقف القطار فى محطة القاهرة نزل جميع المسافرين ولم يبق فى العربة غيره . فسأل أحد الحمالين : أهذه هى الفيوم ؟ فأجابه : هذه هى القاهرة . فإذا كنت تقصد الفيوم فاسأل عن رصيف الوجه القبلى وامكث هناك حتى يقف عليه قطار الصعيد فاركب فيه .

حمل المهدى خرجه ونزل من العربة ، ومضى يسأل الناس عن رصيف الصعيد ، فبعضهم يمشى ولا يجيب ، وبعضهم يشير ولا يتكلم ، حتى وجد رجلا يحمل زكيبة وكريكا ، فسأله فقال له : تعال معى . فمشى معه المهدى واضعاً بين عينيه غرضه ، فلا ينظر ذات اليمين ولا ذات الشمال ، ولا يذكر أنه الآن يتنفس هواء القاهرة التى يسمع أن فيها آل البيت وحديقة الحيوان وأهرام الفراعنة ، حتى دخل هو ورفيقه فى زحمة المسافرين الصاعدين ، فحط كل منهما حمله وقعد بجانبه حتى جاء القطار .

— ٦ —

دخل المهدى مدينة الفيوم فى الليل وليس له بها معرفة ، ولا له فيها صديق . فمشى يعتسف الأزقة والشوارع لا يعرف مكاناً يأوى إليه ، ولا يقصد إنساناً يسأل عنه ، حتى دُفع إلى بحر يوسف ، وهو النهر الذى يخترق المدينة ، واتخذ سبيله فى الشارع الواقع على شاطئه الأيمن حتى بلغ ساحة فسيحة تظللها الأشجار ، ويكثر فيها التجار ، ويتطارح فى جنباتها العمال والباعة يسترفهون من الإعياء ، ويستروحون طراوة المساء ، ويناقل بعضهم بعضاً أحاديث الناس وأخبار المدينة .

ألقى المسافر الغريب خرجه بجانب سور الترعة الآخذة من البحر فى شرقى الساحة ، واطلع قبل أن يقعد فرأى ساقية عظيمة تدور فترفع الماء من غير بقرة ولا مكينة . فعجب كل العجب ، وحاول أن يعرف سرها فلم يستطع . فاستبشر بذلك ، وأيقن أن سواقى وادى الريان كلها من هذا الطراز . وتمنى أن تكون النوارج والحاريث كذلك ؛ فإن فى هذا الطراز اقتصاداً فى جهد البهيمة يكثر الشحم ويدر اللبن . ثم وجد فى نفسه الحاجة إلى الطعام فأخرج من الخرج فطيراً وجبناً وأكل حتى شبع . ثم أشعل سيكارة وأخذ يفكر فى الغد المجهول ويقول لنفسه :

ليت شعرى إذا أسفرت هذه الريادة عن صدق ذلك الخبر ، أتلحق بى أسرتى وحدها ، أم تهاجر معها قريتى كلها ؟ وإذا بقى أهل القرية هناك وظللت أنا وأسرتى هنا ، فما لذة الأرض الملك إذا لم يرها الصديق فيفرح أو العدو فيحزن ؟

وهل يبلغ المرء من الهوان والضعة أن يفضل العيش فى بلدته وهو عبد على العيش فى غيرها وهو سيد ؟

صحيح أن قيراطاً فى أرض بلدك ، خير من فدان فى بلد غيرك ؛ ولكن

كيف السبيل إلى امتلاك هذا القيراط وأرضنا بين (باشا) يستحيل عليه أن يكف عن الشراء ، و (أمير) يستحيل عليه أن يفكر فى البيع ؟

على أننى متى أرجع إلى القرية زائراً ورآنى الناس أمشى فى الحذاء المفصل، وأخب فى الصوف الفاخر ، وأتلفع بالحرير الأصيل ، وأتعامل بأوراق النقد ذوات المأذنة ، لايلبثوا أن يقطعوا عزمهم على الهجرة .

وأشرق الأمل فى صدر البحبوح وتشوفت نفسه إلى تحقيقه . وتحقيقه لايبدأ قبل الصباح ، وبينه وبين الصباح هذا الليل الثقيل الطويل ، فرأى أن يقصره بالنوم . فاستلقى على الأرض ، وخرجه تحت رأسه ، ولفاعته حول عنقه ، وهراوته فى يده ، ثم نام ملء عينيه .

وفى مطلع الفجر استيقظ على عادته ، فوجد الشوارع ساكتة والمنازل ساكنة والحوانيت مغلقة . فقام إلى الترعة فتوضأ ثم عاد فصلى وأفطر . وانتظر حتى هبت الفيوم من الرقاد ، ودبت فى مسالكها الحياة ، ثم دنا من رجل وقور توسم فى وجهه الخير وسأله :

كيف الوصول إلى وادى الريان ياسيدى ؟ فأجاب الرجل مبهوتاً وهو يفكر :

وما وادى الريان هذا ؟ ليس فى إقليم الفيوم كله مدينة ولا قرية بهذا الإسم . لعلك تقصد بركة قارون ؟

فقال له المهدى مستفهماً : ومابركة قارون هذه ؟ لم يرد فى الخبر الذى سمعته فى المنصورة مكان بهذا الإسم . أريد وادى الريان الذى توزع الحكومة أرضه على الفلاحين ، وقد قالوا إنه فى مديرية الفيوم . فقال له الرجل آسفاً : سل غيرى ياأخى فربما كان يعلم .

ولم يسترب البحبوح فى شىء إلا فى علم الرجل . فتركه ومضى منحدراً مع بحر يوسف يسأل الهابط والصاعد عن وادى الريان فلم يجد علمه عند أحد ، حتى بلغ قرية (الغديين) فجلس ليستريح ويتغدى .

وكان يختار لسؤاله المتكرر ذوى العمائم واللبد والطواقى من أهل طبقته لأنه عليهم أجرأ وبهم آنس . فلما لم يجد عندهم الجواب المقنع بدا له أن يستفهم أحد الأفندية . وقادته المصادفة إلى موظف مثقف سأله فأجاب :

وماشأنك بوادى الريان ؟ فقال : علمت أن به أرضاً للحكومة تريد أن تبيعها الفلاحين بثمن قليل . فقال له الرجل وملامح وجهه تترجم عن عجبه :

إن وادى الريان يقع فى الجنوب الغربى من الفيوم وهو واد منخفض مجدب لاينبت به زرع ، ولايعيش فيه حى ، ولايسافر إليه أحد . وكل ما أعلمه من أمره أن وزارة الأشغال تريد أن تجعله خزاناً للنيل ، تملأه منه وهو يفيض ، ثم تفرغه فيه وهو يغيض ، فيظل ماء النهر طامياً طول السنة فبهت المهدى وشخص ببصره وأقام لايطرف . ثم انصرف عن الأفندى دون أن يعقب على جوابه ورجلاه لاتكادان تحملانه من هول الصدمة . ومشى متساقطاً من الهم حتى بلغ جداراً فجلس فى ظله وأخذ يحدث نفسه بصوت يكاد يسمعه السائر ، يقول :

ياخيبة المسعى ويإضيعة الأمل ! ماذا أقول لقومى وقد وعدتهم الوعود ، ومنيتهم المنى ، وجعلت لهم البر عسلا والبحر طحينة ؟

هل أعود ثانية إلى المالك يبيع فى ويشترى ، وإلى الناظر يفتات على ويفترى ! أينقطع الرجاء الأخير فى أن أملك قطعة من الأرض الطيبة التى استأثرت بحبى ، ونزلت فى أوسع مكان من قلبى ؟

ولكن لماذا أيأس من الأمر لدى أول سؤال ؟

لم لا يكون هذا الأفندى من الذين يلذهم أن يجيبوا عن كل سؤال بأى كلام ، فيفتوا من غير علم ، ويشيروا من غير خبرة ؟

وبعث فيه هذا الشك روحاً من النشاط فحمل خرجه وسار ينتقل من قرية إلى قرية ، ويسأل رجلا بعد رجل ، وكلهم كانوا يجيبونه إجابة الشيخ الذى سأله فى الفيوم ، أو إجابة الأفندى الذى سأله فى الفدعين . فلم يبق لديه شك فى أن خبر المنصورة كان أفيكة أفاك وفرية مفترى .

وتعاقبت على خاطره الحقائق والأحلام ، فتارة كان يرى العودة إلى قريته ليستأنف حياة الشقاء ، وتارة كان يرى التجوال فى هذه البلاد الكثيرة الأطيان القليلة السكان ، طلباً للغنى وطمعاً فى الملك ؛ حتى إذا اغتنى أو امتلك رجع إليهم بالمال أو أقدمهم عليه للملك .

وكان الخرج قد خلا من الزاد ، والكيس قد صفر من النقود ، فاضطر المهدى إلى أن يؤجر نفسه يوماً بعد يوم لأعمال الفلاحة ليعيش .

واتفق ذات يوم أن كان عمله عند رجل من الفلاحين واسع الخبرة بالزراعة ، طويل التجربة للزراع ، فأعجبه من المهدى متانة عضله وقوة جلده ، وضربة فأسه ، وقبضة محراثه ، فعرض عليه أن يشتغل عنده مشاهرة بثلاثة جنيهات غير المطعم والملبس والمسكن . فقبل البجبوح العرض إلى أن يستبين له الأمر ، وينكشف أمامه المستقبل

— ٧ —

دخل المهدى دار حمدان كما دخل موسى دار شعيب . كان حمدان رجلا كبير السن ، رقيق البدن ، حسن الحال ، يملك اثنى عشر فداناً من أجود الأرض يعتمد فى زرعها على الناس ؛ لأنه كان أباً لثلاث بنات ، تزوجت كبراهن ووسطاهن وبقيت الصغرى تطرد الوحشة عن البيت ، وتشيع البهجة فى الغيط .

ولم يكن حمدان يعمل بيده ، وإنما كان يكترى العمال ويقف وراءهم ، يرشدهم إلى مايريد ، ويكرههم على مايحب . أما فكيهة ابنته فقد كان عملها أن تذهب إلى أبيها بالغداء أو الماء أو الشاى ، وأن ترجع إلى أمها بالخضر أو الفاكهة أو العلف . وكانت فى ذهابها أو إيابها محط الأنظار ومطمح القلوب . وفتاة كفكيهة تحوم عليها نفوس الشباب لثروة أبيها ، فكيف إذا كانت مع ذلك وسيمة الوجه ، خفيفة الظل ، رقاقة البشرة ؟ كان الخطاب يتهافتون عليها تهافت الذباب على العسل ؛ ولكن أباها كان يرفض أو يسوف ، لأن نيته كانت أن يزوجها من فتى كريم مستقيم ينزله منه منزلة الابن ، فيساكنه فى البيت ، ويعاونه فى الغيط ، ويعاضده فى القرية . ولكن علوان أحد الخطاب كان طماحا ملحاحا لم ييئسه من خطبته تسويف حمدان ولا إعراض فكيهة . كان يبتغى الوسيلة إلى حب البنية بالهدايا فى كل مناسبة ، ويلتمس السبل إلى رضا الأب بالمساعدة فى كل عمل : ولكن فكيهة لم تجد فى علوان الزوج الذى تحبه ، وحمدان لم ير فيه الصهر الذى يرضاه .

ومضت الأيام على هذه الحال حتى دخل المهدى عضوا جديدا فى هذه العائلة الصغيرة وكان من طبيعة المهدى كما علمتم أو سمعتم الجد فى العمل والصدق فى النية والإخلاص فى العشرة. فدبر أمور الزراعة تدبير ابن الأرض الذى يجد لذته فى خدمتها ، وسعادته بين تربتها . فوقع ذلك من نفس حمدان موقع المسرة والغبطة . واستبشر أن يكون المهدى هو الابن الذى ينتظره والصهر الذى يرجوه . وسرى إعجاب المالك بأجيره إلى زوجته وابنته ، فبالغت الزوجة فى العناية به ، ورغبت البنت فى التودد إليه . ورخص الوالدان لفكيهة أن تقوم على شؤونه الخاصة ، فتغسل ثيابه ، وتنظف فراشه ، وتهيىء طعامه ، وترفه عنه بالحديث إذا ماراح متعبا من أعمال اليوم .

وكان المهدى لايزال مشغول البال بأمسه الخائب ويومه القلق وغده المبهم، فلم يفطن إلى ماينعم به فى هذه العائلة الرقيقة من رعاية الأب وعناية الأم ووداده البنت . ولكنه لم يكد يقطع عزمه على انتجاع هذا الإقليم سعيا وراء الغنى حتى تنبه فجأة إلى أن بجانبه أجمل فتاة تنشد الزوج ، وأن تحت يديه أخصب أرض تطلب الفلاح،وأن أمام عينيه أكرم زوجين يخطوان إلى الموت خطى سريعة .

فقال فى نفسه وهو يرد فنجان الشاى فارغا إلى فكيهة : أليست هذه هى الفرصة التى طالما ارتقبتها بعين لا تغفل ، وانتظرتها بصبر لاينفد ؟ زوجة جميلة تكون أختا لزوجتى ، ودار وسيعة تكون مأوى لأمى وإخوتى ، وأرض خصيبة تكون عما قريب نواة لملكى وثروتى !

ولم لايكون الحظ السعيد هو الذى ألقى إلى خبر وادى الريان فى المنصورة لأنتقل من بؤس محض إلى نعيم خالص ؟

وتفتح قلب المهدى للحب ، واشتد شعوره بالجمال ، فرأى فى فكيهة منية نفسه وقرة عينه وبهجة فؤاده . ووجد فى الفيوم مالم يجده فى إقليم آخر من تبرج الطبيعة فى مروجه الفيح ، وأوديته الخضر ، وحدائقه الغُنّ ، فتحركت فيه غريزة الفنان فتغنى بالمواويل الحمر ، واستعان على ترجمة عواطفه المشبوبة بأنغام الناى . وتمكنت الألفة بينه وبين شباب القرية فكانوا يخالصونه الود. ويقاسمونه الأنس ، ويتمنون لو يتزوج من فكيهة لتستقر به النوى عندهم ، ويطيب له العيش فيهم .

وتوثقت بينه وبين فكيهة عرى الحب ، فكان لايسمع إلا معها ، ولا يتحدث إلا عنها ، ولايفكر إلا فيها ، حتى أجمع الناس على أنه الخطيب المختار والحبيب المفضل .

وبارك الشيخ حمدان وزوجه وأهله هذه الخطبة : وافتخرت فكيهة على

أترابها بهذا الخاطب ، واغتبطت القرية جمعاء بهذا المواطن ؛ فلم يبق فى القوم من ينظر إلى هذا القران نظرة الحقد إلا علوان .

كان علوان الشقى يطمع فى أن تصبح فكيهة زوجه ، ويتوقع أن تصير فدادينها ملكه ، ويؤمن إيمان المغرور بأنه كان أقرب الخطاب إلى الظفر بفكيهة قبل أن يجىء هذا المنافس الغريب فيقلب أمله يأسا ونعيمه بؤسا وفوزه خيبة . كان يرى أنه الفتى الأول فى القرية ، لأنه كان مرهوب العداوة لشدة بطشه ، مرغوب الصداقة لكثرة لهوه . ولكن هذا البحبوح المرهوب المرغوب جاء فغض من قدره ، وطأطأ من تعاليه . ثم أصبح بعد خطبته لفكيهة العقبة التى تصده عن غايته ، والهوة التى تحجزه عن سعادته ، لذلك صمم على أن يزيل من طريقه كل حائل يحول من دون مرامه ، وطوى صدره على أمر .

— ٨ —

قال الحاج إبراهيم وقد تغرغرت عينه وتهدج صوته :

وانقطعت عنا أخبار المهدى ستة أشهر فلم نعرف له مكانا ولم نتلق منه رسالة :

وفى عصر يوم من أيام الخريف — والخريف فصل الهمود والزوابع — عاد خفير الأحوال من المركز ومعه إشارة من المأمور إلى العمدة يقول فيها : « أخطرنا بوليس الفيوم أن رجلا يدعى المهدى البحبوح من بلدكم قد أطلق عليه الرصاص وقد نقل إلى المستشفى الأميرى بين الحياة والموت » .

وما هى إلا دقائق معدودات حتى شاع النبأ فى القرية فاستولى عليها حال من الجزع لا يتصورها إلا من رآها . ولم نضع الوقت فى عتاب

القدر . فسافرنا إلى الفيوم ، ودخلنا على البائس الصريع فوجدناه لا يتقار على الفراش من مض الألم ومن حوله جماعة من الرجال والنساء يبكون .

فدنا منه العمدة ونحن وقوف نغالب الدمع ونكتم العويل ، وكشف عن وجهه الغطاء . فلما رآه المهدى ورآنا ، هم بالنهوض فردته المرضة . وانصرف الآخرون وجلسنا فى مقاعدهم على جانبى سريره . وكان حضورنا قد قوى من روحه وزاد فى تجلده ، فحيا عواده ، وسأل أخاه عن أمه وابنته . ثم سأله العمدة عما جرى له من يوم فارقنا إلى يوم لقيناه . فقص علينا ما سمعتوه الليلة على فترات كان يقطع بينها شدة الوجع أو غيبوبة الحمى .

وفى المساء عاود الجريح نزف الرئة فانقطع أمل الجراح من نجاته . وشاء الله أن تنجح عملية الموت وأن تخفق عملية الحياة ، فعدنا بجثة الشهيد إلى الأرض التى خلق منها وعاش فيها . فاستقبلته القرية كلها بالنحيب والعويل ، وحزنت عليه حزنا لم تجد العزاء عنه حقبة طويلة .

ثم أمسك الحاج عن الكلام بعد أن عبر بشفتيه وكفيه عن معنى سبقه إليه الشاعر القائل :

وارحمتا للغريب بالبلد النازح ماذا بنفسه صنعا

فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعا

رجلان وامرأة

- ١ -

أما أحد الرجلين فأديب معلم . بلغ الثلاثين أو أربى عليها بقليل ؛ فهو فى كال بنيته وعقله . كان على شيء من وسامة الوجه وجمال الهيئة ، وعلى أشياء من سهولة الخلق ، ولطف الروح، وبراعة الظرف ، وعذوبة المنطق . ولعل أظهر مايميزه حياؤه المفرط وصمته الطويل ؛ فأكثر مايجيب عن أكثر مايسمع ابتسامة حيية . فإذا نطق رمى بالكلمة أو الكلمتين فى خفوت وحذر ، فتذهبان فى ضجة الحديث كما تذهب النسمة اللينة فى الدغل الشاجن ، أو القطرة العذبة فى الموج الصاخب ، فيزداد امتعاضاً وانقباضاً ووحشة ..

ومن الغريب أن حياءه كان يغرى به النساء ؛ لأنه كان حياء من نوع غريب ، لاينم عن ذلة أو ضعة أو جبن ؛ وإنما ينم عن حشمة فيها عزة ، وعن رقة فيها ترفع ،وعن طيبة فيها شجاعة . فكان النساء يفهمن هذا الحياء على غير معناه : يحسبنه استخفافاً وراءه كبر ، أو انصرافاً تحته سر . والمرأة يهين دلالها الكبر فتريد قهره ، ويثير فضولها السر فتحاول كشفه . لذلك كانت بفاعته وشبيبته موجات من حبهن الجرىء ، تتعاقب عاتية على قلبه البرىء ، فتفنى فناء الصوت فى قفرة ، أو ترتد ارتداد السهم عن صخرة . فإذا بسطت الألفة من انقباضه ، وأزالت الصداقة من احتشامه ، وجدته محدثاً عذب الحديث ، مفناً كهاً حلو الفكاهة ، يصل مابين قلبه وقلب سامعه بكلام رقيق الحواشى ، وصوت رخيم النغم . وهو إلى ذلك شاعر يحس الحياة بقوة ، فنان يفهم الجمال بعمق ، إنسان يأخذ الصداقة بإخلاص . ومن أجل ذلك كثرت خلواته ، لأنه فضلا عن حيائه لايجد اللذة إلا فى التأمل ، ولا السعادة إلا فى العمل ،

ومن أجل ذلك أيضاً قلت صداقاته ، لأنه لايحب إلا عن نبل ، ولا يصادق إلا عن حب .

* * *

وأما الآخر فطبيب ناشىء لايزال فى ربيعه الخامس والعشرين . جميل الصورة ، أزهر اللون ، ممشوق القوام ، يروعك منه أول مايروعك شعره الفاحم المتموج ، وثغره الباسم النضيد ، ووجهه السوى القسيم ، وسمته الهادىء الوديع ؛ ولكنه لايزيد على تمثال أتقن المثال صنعه وسوى خَلقه . ليس فيه روح يفيض الحياة فى جسمه ، ولا قلب يدفق الشعور فى دمه ، ولا لسان يبث البيان فى حديثه . إنما يتحرك وكأنه لايحس ، وينفعل وكأنه لايدرك ، ويتكلم وكأنه لايفكر .

ومن وجوه الشبه بينه و بين التمثال أيضاً فقد الإرادة . فأنت تحطه فينحط وتنقله فينتقل ، وتقوده فينقاد . لايمتنع ولا يعترض ولا يحرن . وهو ذكى بالقدر الذى يبعده عن الغباء ؛ أبى بالقدر الذى يدنيه من التساهل ؛ ضعيف إشعاع الروح فلا هو ثقيل الظل ولا خفيفه ، قليل إشراق النفس فلا هو غليظ الطبع ولا ظريفه . وهو بعد ذلك كله طيب القلب فلا شر ولا ضر ؛ سليم الصدر فلا حسد ولا حقد ؛ زهيد العين فلا طموح ولا طمع ؛ صارم الجد فلا لهو ولا عبث ؛ صافى المودة فلا جفاء ولا غدر .

* * *

وأما المرأة ففتاة فى سن العشرين ، أدركت شيئاً من الثقافة ثم توفرت على التطريز والموسيقى فنالت منهما قسطاً لابأس به .

جميلة ؛ ولكن حظها من الجمال جعله الله فى وجهها وروحها . أما سائر جسمها فلا يقيد البصر ولا يحرك القلب . ومع ذلك تستطيع أن تقول إنها فتانة : فتانة

ببشرتها الخمرية الرقاقة ؛ فتانة بعينيها الحوراوين اللتين خلقتا لتسحرا لا لتنظرا ؛ فتانة بخديها الأسيلين اللذين يقف عليهما البصر الحالم ساعة لا يرتد ولا يطرف ؛ فتانة بشفتيها الرقيقتين المنفرجتين دائماً عن ثغر قل أن تجد له مثيلا حتى فيما يتخيل الشاعر ويصور المصور ؛ فتانة بحديثها الصادر عن قلبها النابض بالعواطف ، ووجدانها الجائش بالأحاسيس ، وذهنها الزاخر بالمعانى ؛ فتانة بدلالها الطفلى الذى يتمثل فى حديثها الغزل ؛ فيتشكل على فمها كل شكل ، ويتلون فى صوتها كل لون . وهى شحنة قوية من الشهوات والصبوات والميول ، لا تحتملها أعصابها ولا تسعها قواها . فهى دائماً تطالب . وهى أبداً لا تكتفى . هوايتها أن تحب ، ولذتها أن تغامر ، وسعادتها أن تذوق ، وديدنها أن تغير . أجمل ما فى حياتها موعد مضروب ، وموعود منتظر ، وساعة أو ساعتان فى مطعم أو ملهى أو حديقة أو فيهن جميعاً . تعيش يوماً بيوم ؛ فلا تذكر الأمس ولا تفكر فى الغد . ويومها كله زينة تتخذ ، وجولة فى محلات الأزياء تجال ، وصديقة تستقبل ، وزيارة ترد ، وحفلة تقام ، وسهرة تقضى ؛ وفيما بين ذلك عود تحتضنه ، وغناء توقعه عليه .

— ٢ —

تعارف الرجلان على شاطىء (جليم) من رمل الإسكندرية عام ١٩٢٣ . عرّف أحدهما بالآخر صديق مشترك . ولم يكد الصديقان يتعارفان حتى تآلفا ، وجد كل واحد منهما فى أخيه ما يرضيه : هنا تمثال من الحسن يلذ الفنان أن يراه . وهناك شدو من شعر القلب يلذ الإنسان أن يسمعه . وبين الصديقين فضلا عن ذلك مشابه فى رقة القلب وحياء الطبع وسلامة النية والتزايل من الناس . فكانا يجدان فى لقائهما وحديثهما من المتاع والأنس ما لا يجدانه فى ملهى من ملاهى المصيف ، ولا فى مجلس من مجالس السمر . لذلك جددا

اللقاء وأطالا الاجتماع حتى توثقت بينهما الصلة وتمكنت الألفة ، فصار كل منهما الآخر حاجة نفسه ومصدر أنسه . ثم انتهى التصييف فعاد الصديقان إلى القاهرة فى يومين متعاقبين كل واحد مع أسرته . وعاد لقاؤهما فى مجامع القاهرة ، على النحو الذى كان فى ملاهى الإسكندرية .

كان أمين الصديق الأصغر يزور كل يوم حافظاً الصديق الأكبر ، فيقضيان الأماسى معاً فى سينما أو فى قهوة . وكان أمين كلما أقبل إلى صديقه كل مساء يقول : جئت من بيت عمى . وتغديت على مائدة عمى . وأخذت بريدى من صندوق عمى . فسأله حافظ ذات مرة : أتسكن مع عمك ؟ فإنى لا أراك تتحدث إلا عن بيته ، ولا تتكلم إلا من تليفونه .

فأجابه : إنى أسكن مع أبى ، ولكنى أعيش مع عمى .

فقال حافظ : ما عهدت أحداً يفضل عمه على أبيه ، ولا زوجة عمه على أمه .

فقال أمين وهو يضحك : لا أفضل عمىّ على أبوىّ ، وإنما أفضل مخطوبتى عليهم جميعاً ، وهى ابنة عمى . وقد أحببتها حباً ملأ شغاف قلبى ، وشغلنى عن كل الناس إلا عنك . فأنا أقضى معها وقت فراغى ولا أكاد أتركها إلا إليك . وهى تعرفك بالسماع . وكثيراً ما تحدثنا عنك . وأخوها تلميذ لك فلا يبرح لاهجاً بذكرك . وأقرب الأيام هذا اليوم ، فقد سألتنى أن أستزيرك . ويسرنى أن تنعم لها بما طلبت .

فقال له حافظ : ولم لا تؤجل زيارتى إياكم إلى أن تكون فى بيت الزوجية ؟

فقال أمين : أوه ! إن بيننا وبين الزفاف سنة طويلة . ويصعب علىّ أن أقسم وقتى بينها وبينك ؛ ولكنك إذا عرفتها وعرفتك ، ضمنت ألا أفترق عنها ولا عنك .

* * *

وفى عصر يوم من أيام الخميس ركب الصديقان الترام إلى منزل العم . وكان الشارع الذى نزلا فى بعض محطاته شارع الجيزة ، فسارا فيه . وكانت أواخر الصيف قد اتصلت بأوائل الخريف فى جو سبتمبر ، فكسرت من حره ، وعدلت من نسيمه ؛ كالصهباء تشعشعها بالماء فتكون منها النشوة ولا يكون فيها الحميا[1] . وكان شجر الدردار المنضد على جانب الطريق لا يزال ممسكا بأوراقه العريضة ، فلم تسقطها بعد رياح أكتوبر . وكان النيل بوجهه المتورد يتراءى من بين الشجر ومن خلال القصور جميلا جليلا ، فيغرى السائر بالوقوف ليتملى ويتأمل . فقال الأديب للطبيب : مل بنا إلى الشاطىء نستمتع قليلا بجمال النهر ؛ فإنى — كسائر القاهريين — أكاد أنسى أن النيل يجرى فى القاهرة ؛ لأننا لا نراه إلا عابرين مسرعين على جسوره ، أو سائرين ذاهلين على شواطئه .

فقال الطبيب للأديب وكأنه لا يشعر بما شعر ولا يفكر فيما قال : هذا هو بيت عمى . وها هى ذى (عقيلة) واقفة فى الشرفة تنظر وتنتظر . فاطلع الأديب فرأى فتاة قصداً فى النساء ، لا هى قصيرة ولا طويلة ، ولا هى سمينة ولا نحيلة . ترتدى حلة من قطعتين : بلُوزة حمراء فى لون القرمز ، وجُونلَّة بيضاء فى لون الزنبق . وبجانبها كلب صغير أبيض يطل من فرجة بين قضبان الدربزين . فلما رأتهما ابتسمت وارتدت إلى الداخل لتلقاهما لدى الباب .

تعارفا فى الصالة . ثم تقدمتهما إلى الصالون . وأقبل الخادم بأقداح الشاى وأطباق الحلوى . وبدأ الحديث . ولكنهم لم يتجاذبوا أطرافه ؛ لأن الحديث لم يكن له إلا طرف واحد أمسكت به عقيلة طول الوقت . وظل الزائران يستمعان ويوافقان ؛ لأن حافظاً عقَل لسانه الحياء ؛ ولأن أميناً قطع كلامه العِى . ثم هم الصديقان بالانصراف ، فودعتهما عقيلة لدى المصعد وهى تقول لحافظ

(١) الصهباء : الخمر . والحميا شدتها وسورتها .

بلهجة الإصرار والتوكيد : أرجو أن تزورنا في أى يوم ومن غير دعوة . ولكن حافظاً لم يستطع أن يحقق هذا الرجاء الأول ؛ لأنه سافر إلى باريس في رحلة تستغرق العام كله .

— ٣ —

تتابعت الرسائل من الأديب الكاتب إلى الطبيب الخاطب تحمل أجمل الأحاديث وأرقها عن مفاتن باريس ومتاحفها وحدائقها ومسارحها وملاهيها وعن كل جميل فيها . وكانت الأجوبة عن هذه الرسائل تتوالى كذلك حاملة صدى تلك الأحاديث وأثرها في نفس أمين ، ورجاءه إلى صديقه أن يكثر منها ويطيل فيها . وكان حافظ قد فطن إلى أن الروح التى تشيع فى هذه الرسائل ليست روح أمين . روح من ؟ لا يدرى ! وإنما يعتقد على أى حال أن هناك (سيرانو) بجانب (كرستيان)[1] . فاحتفل لرسائله أشد الاحتفال ، وجعلها أشبه باليوميات يسجل فيها مشاهد اليوم وخواطر الساعة ، وما يتعاقب على نفسه الشاعرة من رضا وسخط ، وانبساط وانقباض ، وإعجاب وإنكار ، وميل ونفور . ولبى رغبة صديقه فأسهب بعض الإسهاب فى وصف من لاقى من أوانس (البلفار) وغوانى (مونمارتر) .

وألقى إليه البريد ذات يوم رسائل مصر ففض أول ما فض غلاف أمين لأنه يعرفه بخطه ، فإذا بداخله رسالتان : رسالة طويلة بإمضاء أمين ، ورسالة

---

(١) إشارة إلى موقف سيرانو دى برجراك الشاعر الفارس ، من منافسه كرستيان دى نوفلايت الضابط الجميل ، فى المسرحية التى كتبها (إدمون روستان) الروائى الفرنسى سنة ١٨٩٧ فقد كان سيرانو يعشق الحسناء روكسان وهى لا تعلم . فلما علم أنها تحب كرستيان كتم حبه وقنع بموقف الصديق بين الحبيبين . وكان كريستيان على جماله عييا لا يكاد يبين ، وكانت ركسان كبنات عصرها تهوى البلاغة وتعشق الكلام الجميل . فتطوع سيرانو أن يكتب لمنافسه رسائل غرامه فى السر ، ويلقنه مناجاة حبيبته فى الظلام . وكان يبث فى تلك الرسائل وتلك المناجيات عواطفه الخاصة وأشواقه المكظومة . وظل هذا الأمر مكتوما خمس عشرة سنة حتى قتل كرستيان فى إحدى الوقائع ، وجرح سيرانو فى بعض المبارزات ، فأفضى العاشق لركسان بالسر وهو يموت فى زيارته الأخيرة لها بالدير .

صغيرة بإمضاء عقيلة . فتناول رسالة الآنسة وأخذ يقلب فيها النظر : في إمضائها المائل ، وخطها المنمق ، وورقها الفاخر ، وشكلها الأنيق ، ولونها المورد . ثم عاد يقرأ :

« عزيزى صديق ابن عمى .

ولى العذر إذا لم أقل صديقى ، فإنك أغفلت ذكرى فى رسائلك التى أقرأها كلمة كلمة . وأحتفظ بها رسالة رسالة . ولا أدعى أن من حقى عليك أن تسلم على ، فإن زيارة واحدة لا تنشىء بين الزائر والمزور صداقة . ولكنى حسبت أن صداقتك لأمين وهى من السعة والعمق بحيث تشمل خطيبته على الأقل . على أنى أعرفك منذ زمن طويل مما قرأت لك وسمعت عنك . وهب أن المعرفة بيننا كانت قديمة وثيقة ثم نسيت أن تحيينا على البعد ، فإننا نعذرك كل العذر ، لأن من فى باريس لا يذكر من فى القاهرة ، ومن يصبح بين غوانى (مونبرناس) ويمسى بين حسان (سان جرمان) ، لا يجد وقتاً للتفكير فى ساكنى شارع الجيزة أو قاطنى حىّ المنيرة . أرجو ألا تحمل كلامى على محمل العتاب ، فليس لى أن أعتب عليك . أحمله إن شئت على محمل الاستجداء فإنى أجد فى قراءة رسائلك لذة لا أجدها فى متعة أخرى ! فإذا كتبت إلى كما تكتب إلى أمين ، تصبح الرسالة رسالتين ، والسعادة سعادتين . وما أظنك تبخل على إنسان بلذة لا تؤلمك ، وبمنفعة لا تضرك .

بنت عم صديقك

عقيلة

فلما فرغ حافظ من قراءة هذه الرسالة بدءاً وعوداً ، قرأ رسالة أمين فوجده يرجو ويلح فى الرجاء أن يكتب إلى عقيلة ولو على حساب الكتابة إليه . ويفضل أن يحدثها عن مباهج النهار وملاهى الليل ، وعما يتصل بالمرأة الباريسية

من معروف ومنكر . فلم يسع صديق الخطيبين إلا أن يلبي مبتغاهما في الحدود التي يحددها حياؤه ويفرضها أدبه . ولكنه كان يحرص كل الحرص على أن يدرج الرسالتين في غلاف واحد .

لا أريد أن أعوق القارىء عن حوادث القصة برواية ما كتب إليها وما كتبت إليه . فإن ذلك وإن لذ وأمتع لا يضيف إلى الموضوع إلا مرامي تختبىء وراء السطور تكشف للذهن اللماح طرف النقاب عن وجه المستقبل . فلنعد مع حافظ من باريس — بعد أن قضى حاجته منها — إلى الإسكندرية في أواخر أغسطس ليجد في استقباله على الميناء أمينا وعقيلة .

وكان عم أمين أو أبو عقيلة يصطاف على عادته من كل عام في شاطىء (جليم) فاقترحا على حافظ أن ينزل في فندق (سمر بلاس) ليكونوا جميعاً في حي واحد . ولم يريدا أن يتركاه لنفسه تلك الليلة ، فصحباه إلى غرفته ، وشاركاه في عشائه ، ولازماه في سهرته . وكان مدار الحديث في هذه الأمسية ، وما تلاها من أماسي ، على ما رأى حافظ وما سمع في مدينة النور من عجائب الحضارة وغرائب الناس . كان الخطيبان يريدان أن يسمعا ذلك من فمه بعد أن قرآه بقلمه . وكانت عقيلة تسأل وحافظ يجيب وأمين يسمع . وكانت الرسائل التي تبادلها الأصدقاء الثلاثة في ثمانية وأربعين أسبوعاً قد أزالت من بينهم الكلفة ، وأطلعت كل واحد منهم على دخيلة الآخر ، فكانت عقيلة تطمئن إلى الصديق كما تطمئن إلى الخطيب ، فتتبسط في الكلام وتتساهل في الدعابة : وتحول التيار الكهربي حيث تشاء برفع الكبس من هنا ووضعه هناك ، فترى أن أثره في الخشب غير أثره في المعدن ، وأن فعله في نفس أمين غير فعله في نفس حافظ ، فتقبل بنفسها وحسها على الأديب أكثر مما تقبل بوجهها وقولها على الطبيب . وكان أمين يجد في تمكن الألفة بين خطيبته وصديقه رضا قلبه وغبطة نفسه ،

لأنه يرى فى تودد عقيلة إلى حافظ إعجاباً منها بصحة رأيه فى انتخابه للصديق ، وفى تحبب حافظ إلى عقيلة ثناء منه على حسن ذوقه فى اختياره للزوجة . ولم تكن ملاطفة حافظ لحبيبة صديقه عرضاً من أعراض رغبة ناشئة ، ولا أثراً من آثار عاطفة حبيسة ، وإنما كان رجلا قريب عهد بالحياة الباريسية التى تجعل التلطف بالمرأة والتظرف لها أدباً مرعياً من آداب السلوك . وهو بطبعه رقيق الحاشية ، يلاين ولا يخاشن ، ويتبسم ولا يتجهم . أما عقيلة فكانت تنشد شيئاً فوجدته فيه . كانت تريد أن تسمع من يقول لها : أنت جميلة ! وإن فيك ما ليس فى أترابك من عذوبة الروح وصفاء الحس وقوة الجاذبية . وكانت تحب أن ترى أثر فتنتها فى عين تنظر بإعجاب ، وشفة تفتر عن دهش ، ولسان يهتف فى خشوع . وكانت تود لو يكون بجانبها من إذا أعجبت بمنظر من مناظر الطبيعة ساهم فى هذا الإعجاب ؛ وإذا تحدثت فى موقف من مواقف السينما شارك فى هذا الحديث ، وإذا شعرت بعاطفة من عواطف القلب استجاب إلى هذا الشعور .

فلما قرأت لحافظ وهو فى باريس ، وتحدثت إليه وهو فى الاسكندرية ، وتقلبت معه على شواطىء (الرمل) ، استقرت نفسها بعد طموح بعيد ، وسكن طرفها بعد نظر طويل ، وقطعت نفسها عن أهلها وصواحبها واكتفت به . يرتادان الشواطىء والحدائق طول النهار ، ويترددان إلى المسارح والملاهى أكثر الليل ، وأمين يرافقهما إلى كل مكان ، ويوافقهما على كل اقتراح ؛ فكان الثلاثة أشبه بالأقانيم المسيحية الثلاثة : متحدين فى الروح ، متعددين فى الجسد . فحافظ هو الأب وأمين هو الابن ، وعقيلة هى روح القدس !

— ٤ —

أقبل سبتمبر وهو الشهر الذى يعود فيه الموظفون من الإجازة ليستأنفوا كارهين العمل فى الدواوين . ويعود فيه الطلاب والتلاميذ من العطلة ليستعدوا خائفين

لامتحان الدور الثانى أو ليقدموا طلباتهم إلى الجامعات أو إلى المدارس، ويعود فيه أعيان الفلاحين من المصيف ليتأهبوا راجين لجمع القطن وضم الرز وبذر البرسيم ، خفت أكثر الأكشاك ، وفترت حركة الشواطىء ، وخفت زحمة الكورنيش، وهدأت حياة البحر ، فلم يبق على شواطىء الرمل إلا المترفون الذين لا تحفزهم ضرورات العمل إلى السفر، والإسكندريون الذين يبدأون على عادتهم الاصطياف فى هذا الشهر .

وعادت أسرة عقيلة مع العائدين ، فاستبدلت حالة بحالة ، وتحولت من حياة إلى حياة . عاد الأب إلى أعمال المكتب ، والأم إلى شؤون البيت، والأولاد إلى واجبات المدرسة ، وعقيلة إلى الإبرة والكتاب ، وإلى الزيارة والاستقبال، وإلى العود والغناء . وسرعان ما اطمأن كل إلى عمله الأول ، واستقر على وضعه المألوف، إلا عقيلة لم تجد فى بيت الجيزة ما كانت تجده قبلا من رخاء البال، ولم تذق فى شارع فؤاد ما كانت تذوقه قديما من حلاوة الأنس. سمج فى عينها كل إنسان ، وتفه فى ذوقها كل شىء ، وثقل على سمعها كل حديث . وأدركت أن علة هذا التغير إنما هو فقدها الثالوث على الحال التى كان عليها فى الإسكندرية . ولكن كيف يتسنى لها فى غير المصيف أن تمرح طول النهار ، وأن تلهو أكثر الليل ؟ نعم تستطيع ذلك إلى حد ما مع أمين ، لأنه ابن عمها فهو أخوها فى الحاضر ؛ ولأنه خطيبها فهو زوجها فى المستقبل. ولكن الأمر بينها وبين حافظ جد مختلف: لا تصله بها صلة من قرابة ، ولا تصله بأبيها صلة من صداقة . وصلته بأمين وإن كانت وثيقة لا ترفع الحجب حتى ترى بجانبه فى كل ملهى ، ولا تدفع الحواجز حتى تذهب فى صحبته إلى كل مكان . والولاية عليها لا تزال لأبيها . والتقاليد الإسلامية لا تنفك متبعة فى الأسر الوسطى . أما التفكير فى أن تقنع بلقائه مرة أو مرتين أو ثلاثا فى الأسبوع فذلك ما لم يخطر ببالها ولو بتداعى المعانى وتوالى

الفروض . لقد أصبح وجوده فى حياتها جزءاً من وجودها هى فى الحياة . فلا تتصور أن تعيش من غيره ، ولا تهنأ بطيب العيش مع غيره . وإذن فلا سبيل إلا أن تدخل على أبيها وهو يتمزز فنجان الشاى مع أمها فى ساعة صفو وتقول:

بابا ! إنك تعلم أن اللغة الفرنسية من ألزم العناصر لثقافة الفتاة العصرية ، وأن القدر الذى ثقفته منها فى المدرسة لايكفى للحديث فى مجتمع راق، ولا للقراءة فى كتاب قيم . وأرى إذا سمحت أن أعود إلى تعلمها بعزم أقوى وعلى منهج أتم فإنى تعرضت مراراً للخجل الشديد أمام صديقاتى المتخرجات فى (الميردى ديو) حين يحادثننى بها فأتلعثم أو أخطىء أو أتوقف .

فقال أبوها ، وكان قليلا مايرد لها طلبا : لا بأس يابنيتى ! اصنعى ماتحبين . وقالت أمها ، وكانت كثيراً ما تمكنها من بغيتها : إن المدموازيل هيلين التى كانت تعلمك الموسيقى تستطيع أن تعلمك الفرنسية فاطلبيها وكلميها .

فقالت عقيلة وقد سرتها موافقة أبويها : عفواً ياماما ! إنى أريد أن أتوسع فى نحو هذه اللغة وصرفها ، وأتضلع من بيانها وأدبها . والمدموازيل هيلين لاتعرف من الفرنسية إلا الحديث الدارج والكلام المألوف . وإن لابن عمى صديقاً توفر حظه من هـذه اللغة . وقد قال أمين حين حدثته فى هذا الأمر إنه يضمن أن يعطينى كل يوم درساً من غير تحديد وقت ولا تقدير أجر .

قالت ذلك وهى لم تتحدث إلى أمين عنه ، ولم تعرف رأى حافظ فيه ؛ لأنها تعلم أن أميناً طوع لها فيما تحب ، وأن حافظاً لايتشدد على أمين فيما يريد ، وكان رأيها فى الصديقين صحيحاً ، فابتدأت الدروس بعد يومين اثنين فى المكتب المنعزل من بيت عقيلة ، وفى الساعة الخامسة من مساء كل يوم .

— ٥ —

بدأت الدروس طبيعية فى الأسبوع الأول كما تكون بين معلم يحب أن يعلم ، وتلميذة تريد أن تتعلم ؛ لأن الأب كان يدخل عليهما فيسلم ويشكر ، والأخ كان يلم بهما فيسمع ويستفيد ، والخطيب كان يجلس إليهما فيشارك أو ينتظر . وخشيت عقيلة أن يستمر الأمر على هذه الحال ، فرغبت أن يكون الدرس فى الصباح حين يكون الأب فى ديوانه ، والأخ فى مدرسته ، والخطيب فى مكتبه ، فحققوا لها هذه الرغبة وقد ساعد على تحقيقها أن المعلم كان لحسن الحظ أو لسوئه فارغا من العمل فى الساعات الثلاث الأولى من اليوم المدرسى أكثر الأسبوع .

وفى السكون الشامل والخلوة الصحيحة مضت الدروس فنية جدية أول الأمر ، ثم ظهرت النية وبرح الخفاء فتحولت إلى حديث صرف أقله بالفرنسية وأكثره بالعربية ، يتشقق بعضه من بعض ، فيتناول أخبار الأسر ومغامرات الأوانس ورغبات العرائس ونزعات العصر ! فيحاول المعلم أن يحجز سيله الدافق بحمل التلميذة على أن تتحدث بالفرنسية ؛ ولكن الفرنسية لا تواتيها فتعود إلى العربية ، لأن هواها أن تتكلم لا أن تتعلم . وكانت تدرس فى ثنايا الحديث بعض المعانى الخاصة فيتجاهلها المعلم ويصرفها بلباقته إلى المعانى العامة ، فتعود هى اليها وتلح عليها كما تلح النحلة الشرهة على رحيق الزهرة كلما ذبها أحد عنه .

وبرم المعلم بهذه الدروس التى يتلقاها ولا يلقيها ، فقرر فى نفسه أن يصارح التلميذة فى اليوم التالى بأنها تخسر الوقت ولا تكسب المعرفة ، وأن من الخير اذا كان همها الحديث أن تكتفى بما يجرى منه بين ثلاثتهم فى مساء كل خميس ويوم كل جمعة .

وكان اليوم التالى يوم اثنين ، فلم يكد يحييها ويجلس حتى قالت له وهى تنظر بفتور ، وتبسم فى دلال : « اسمع يا أستاذ ! إن درسى اليوم سآخذه فى الطريق ؛ فإن لى عند الخياط فستاناً أريد أن أقيسه ، وعند المصور صورة أحب أن أراها . ولا تريد أمى أن أخرج وحدى ، فما رأيك ؟ » .

فقال لها حافظ : « ومتى كان لأحد عندك رأى ؟ هلمى ! فما الدرس على المكتب بخير منه فى الطريق مادام الأمر لايتعدى « الدردشة » . وكانت قد ارتدت من قبل ثوب الخروج فنهضت ونهض على أثرها . فذهبا إلى الخياط فى شارع قصر النيل ، ومرا على المصور فى شارع عبد العزيز . ثم اقترحت عقيلة على حافظ أن يجلسا قليلا فى محل معين من محلات الحلوى تفضله على غيره لنظافته وهدوئه . فلما دخلاه انتبذت ناحية فى ركن خال من أركان المحل فجلسا فيه . ولو جلسا إلى أى مائدة من الموائد لما حرك السكونَ من حولهما أحد ؛ لأن خلو المحلات العامة فى مثل هذه الساعة من النهار أمر مألوف . والخلوة فى هذا المحل على الأخص مضمونة فى كل وقت لانزوائه عن ضجة الناس فى شارع البواكى .

وكانت النُّدُل فى هذا المحلّى من الفتيات الحسان فى زيهن التقليدى الأسود . والفتيات بالطبع يحترمن اختلاء الرجل بالمرأة ، فلا نظرة فضول ولا علامة تعجب . أما الزوجان اللذان كانا يجلسان فى الركن المقابل فكانا منهمكين فى حديث غزلى حاد صرفهما عن الدنيا كلها لاعن المحلى وحده . إذن ليس هناك مايدعو عقيلة إلى التحفظ فى الجلوس ، أو يحملها على التورية فى الحديث . فوضعت الشوكة فى طبق

الحلوى ، وفتحت حقيبة يدها فمسحت شفتيها بالمنديل الأبيض ، ومرت عليهما بالإصبع الأحمر ، ثم أثبتت عينيها فى عينى معلمها وعادت إلى حديثها تقول : : « لنعد إلى موضوع الدرس الذى بدأته فى الطريق . أنا أوافقك على أنى أجعل الدرس وسيلة للحديث . وماذا فى هذا مما تنكره ؟ ولم لايكون الحديث المرسل وسيلة إلى الدرس ؟ أليست فيه جملة تصوب أو فكرة تصحح أو مشكلة تحل ؟ على أنك أذكى من أن أموه الحق عليك وأكتم ذات نفسى عنك . أنا منذ رأيتك استلطفتك . فلما قرأتك أحببتك ، ولما خالطتك عشقتك . وجدت فيك كل ما أبتغيه من رجل ، ووقعت منك على كل ما أرتجيه فى حبيب . فذوقك وذوقى متحدان ، وشعورك وشعورى متجاوبان ، وحظك وحظى متشابهان . فلك زوجة لاتفهمك ، ولى خطيب لايفهمنى . وفيك حساسية تتعبك ، وفى حساسية تتعبنى . ولا أخفى عليك ، فقد كان لى نزوات مع الشبان كنت أبغى من ورائها نشدان من أحب ، ووجدان من أخطب . ولكنى علمت بعد طول الجولان والدوران أن القرين الصالح لايكون فى الأماكن التى أزورها ، ولا فى الدورات التى أدورها . فقنعت بابن عمى ، وهو كما تعلم يملأ العين ولا يملأ القلب ، ويرضى العقل ولا يرضى الذوق . وخير مافيه خلق صريح ، وضمير نقى ، ولسان عف ، وثقة بمن يحب لا تجوز عليها ريبة ولا تنال منها وشاية . فأنا لا أحبه ولا أبغضه ، ولا أقبله ولا أرفضه . ولكنى منذ عرفتك ضاقت نفسى بهذه القناعة ، وعادت مرة أخرى تتطلع إلى حياة النور والشعور والحب ، فوقفت عندك وحامت عليك . ولا أدرى وقد فتحت لك قلبى ، وصارحتك بحبى ، أتستجيب إلى أم تنبو على ؟

قالت ذلك ووضعت على المائدة مرفقيها ، وأسندت ذقنها بكفيها

ثم حدقت فى وجه حافظ وسكتت تنتظر مايقول . وكان حافظ يستمع إليها وهو ساهم واجم مطرق . لايقاطع ولا يراجع ولايعترض . فلما فرغت من حديثها رفع إليها طرفه وقال : يظهر ياعقيلة أنك ذكرت نفسك ونسيت غيرك . نسيت أنك مخطوبة وبنت عم ، وأنى متزوج وصديق (أمين) . فهمت عقيلة بأن تجيب لولا أن قال لها حافظ : اسمعى إلى كما سمعت إليك ، ولا تراجعينى قبل أن أفرغ . إن أمينا صديقى وصفيى ، ومن حقه على أن أحفظ ذمته وأرعى حرمته . ولقد لابسته طويلا فما ذممت عهده ولا اتهمت وده ثم إنى عرفتك لأنى عرفته ، وصادقتك لأنى صادقته . وما دخلت بينك وبينه إلا لأوثق الألفة بين قلبك النافر وقلبه المطمئن ، فقد شكا إلى كثيراً طول إعراضك عنه وسوء رأيك فيه . وما أراك تكرهين منه إلا حسن نيته وخلوص طويته واستقامة خلقه . وهل يضير الرجل ألا يكون فكه الطبع وهو صاحب جد ، وألا يكون لبق الحديث وهو صاحب عمل ؟ إن الفتاة التى تعرف معنى الزوجية وتدرك سر الأمومة لاتجعل من بيتها ناديا ولا مرقصا ولا حانة ، ولا تطلب من زوجها أن يكون شاعراً يطارحها الغزل ، ولا سميراً يناقلها الحديث ، ولا نديما يقارعها الكأس. وإنما تجعل من بيتها عشاً يفيض بالحنان والحب، وحرما يشيع الراحة والسكينة؛ وتطلب من زوجها أن يكون عاملا يكسبها الثروة ، وفاضلا ينيلها الشرف ، ومخلصاً يذيقها السعادة . وأمين جدير بأن يكون هذا الرجل ، إذا كنت أنت جديرة بأن تهيئى له ذلك البيت .

ثم سمعتك تذكرين الحب وتفسرين به تلك العاطفة التى تجدينها فى قلبك لى ، وأنا أيضاً لا أكذبك قد شعرت بأن نبتة من هذه الفصيلة الحمقاء قد نبتت فى قلبى لك ؛ ولكننى أحاول جاهدا أن أمنع عنها الغذاء والرى حتى

تموت . لا أقبل أن أكون قطيعة قلبين أرجو أن أؤكد بينهما الصلة ، ولا أن أكون شقاء صديق أريد أن أوفر له السعادة . وماذا يقول الناس عنى ؟ ألا يقولون : صدق المثل : « أرسلته لى خاطبا فتزوج ! وماذا يقول الناس عنك ؟ ألا يقولون : لعوب تخرج من قلب لتدخل فى قلب ، كما تخرج من ثوب لتدخل فى ثوب !

عالجى المشكلة ياصديقتى بالروية والحزم . واعملى على أن تظل العلاقة التى بينك وبينى علاقة صديق بصديق ، أو علاقة تلميذة بمعلم . وستجدين فى الحب الذى يخلصه لك أمين ، وفى الصداقة التى يختصها بك حافظ ، متعة الروح وسكينة القلب وبهجة العيش .

فقالت عقيلة : هل أفصحت عن كل ما فى نفسك ؟

فقال لها : بالقدر الذى يعادل ما قلت .

فقالت : أما كلامك فإذا قسناه بقياس العقل والمنطق فلا اعتراض عليه ولا معارضة فيه . وأما إذا قسناه بقياس القلب والشعور انقطعت حجته ووهى دليله . . إن الحب لا يخضع لمبادئ ولا يستكين لقيود . ومن يرد أن يطبق قواعد الأخلاق على الحب ، كان كمن يريد أن يطبق مواد القانون على الجنون . فأنا أحبك وكفى . وفى سبيل هذا الحب لا أتردد فى قطع كل صلة ، وإبعاد كل قرابة ، وإنكار كل عرف .

فقال لها : وما ثمرة هذا الحب إذا لم يفض إلى زواج ؟

فقالت أنا أريد هذا الزواج . فإذا لم ترده أنت فلتكن ثمرة الحب كما تكون . عاهدنى بشرفك أن تظل دائما معى كما يكون الزوج مع زوجته ، أو الحبيب مع حبيبته . ولا أبالى بعد ذلك أن تكون علاقتى بك عقدا عند مأذون أو عهدا عند شيطان ! وأعاهدك بشرفى أن أظل لأمين الخطيبة

الوفية و لزوجة المطيعة . ثم رفعت يدها اليمنى وحركت سبابتها فى الهواء منذرة وقالت : « إنى أريدك ياحافظ بأى ثمن ! فإذا بدا لك يوما أن تقف دون إرادتى تركت لك الوجود كله ! »

فقال حافظ وهو يتكلف الابتسام ويتصنع الهدوء :

« عبث طفولة ونزوة شباب ! ومازلت قوى الرجاء فى أن تراجعى نفسك وتشاورى عقلك فيما قلتُ وقلتِ » .

وكان عقربا الساعة قد اجتمعا عند الساعة الثانية عشرة ، فقالت وهى تنظر فى ساعة يدها وتشير إلى العقربين المجتمعين : « يجب أن نظل هكذا وعقرب الثوانى بعيدا » ثم نهضت ونهض حافظ وركبا سيارة لبثا فيها صامتين مفكرين حتى بلغت بهما البيت فودعها ثم رجع :

— ٦ —

لم يشأ حافظ أن يغير من نظامه ولا أن يخرج عن عادته ؛ فقد رأى من الحكمة أن يعالج الأمر باللين ، ويستعين على الداء بالمسكن ، حتى ينكشف الأمر . فذهب إلى عقيلة فى موعد الدرس فوجدها مضطربة البال ، كاسفة الوجه ، محمرة العين ، لاتستقر على حال من القلق . كانت تخشى ألا يجيء ؛ لأن هيئته فى السيارة ولهجته عند الوداع لم تبعثا فى نفسها الطمأنينة . فلم تكد تخلو إليه فى المكتب حتى أقبلت عليه والدمع يترقرق فى عينيها ، وأمسكت كتفيه بيديها وهزتهما هزا رفيقا وقالت له : لك الله ياحافظ ! لقد أسهرت جفنى حتى الصباح . كان شيطانى يوسوس فى صدرى بأنك لا تجيء !

ثم أدنت صدرها من صدره كأنما تريد أن تعانقه . فردها بيديه ردا لينا ؛ ثم أجلسها على الكنبة وجلس بجانبها يريد أن يسكن من روعها . ولكنها

انفجرت بالبكاء وألقت بنفسها عليه . فارتبك حافظ وحاول أن ينحيها عنه لينهض مخافة أن يدخل عليهما المكتب داخل سمع البكاء . ولكنها ضغطت بساعديها على ركبته وأنحت على يده وذراعه بالتقبيل واللثم وهى تقول فى نحيب وضراعة : لاتفارقنى ياحافظ ! قل لى إنك لى ! أنت أول من أحببت فلا تفجعنى فى حبيبى الأول ! ليس مابى عبث طفولة ولا نزوة شباب كما قلت ؛ إنه هو الحب الذى طالما سمعت به وقرأت عنه . عذبت كثيرا من الشبان عن عبث ولهو فانتقم الله لهم منى . عدنى بأن تكون لى على أى حال . وإذا كان أمين هو العقبة فإنى سأفسخ خطبته ، وأنكر قرابته » .

ودخلت الخادمة تحمل القهوة وعقيلة على هذا الوضع ، فتظاهرت بالإغماء وأخذ حافظ يربت خدها ويدلك يدها . وطلب من الخادمة شيئا من روح النشادر أو ماء الكولنيا فذهبت مسرعة . وجاءت الأم لهفى تحمل المنبهات ، فأضجعت ابنتها على صدرها الرءوم وهى تقول لحافظ : « توقعت أن تصبح عقيلة مريضة ؛ فقد باتت ليلها تتململ وتتقلب ، وتخرج من الغرفة إلى الشرفة ؛ ثم تدخل من الشرفة إلى الغرفة ! »

ثم بدا من عقيلة مادل على أنها أفاقت ؛ فنقلتها أمها إلى الفراش . وانتهى الدرس وانصرف المعلم .

* * *

خرج حافظ كالهائم لايدرى كيف يسير ولا أين يتجه . لم يكن يحسب أن الحب قد برح بعقيلة إلى هذا الحد وفى هذه السرعة . وعزا هذا الطغيان الغرامى العاتى إلى تأبيه عليها وتحفظه معها وتجافيه عنها . فإن الفتاة العاطفية المدللة التى تعودت أن ينزل على حكمها الأهل ، وتجرى على هواها القلوب ، لاتطيق أن ينصرف عنها وجه ، أو يمتنع عليها طلب ، أو يطيش لها سهم .

ولكنه لا يستطيع أن يفعل غير مافعل . الأمر بينها وبينه واضح : أما أن يتزوجها فتكون كارثة على صديقه ، وإما أن يخادنها فتكون نكبة على ضميره ! فأما الحالة الثالثة وهى الصداقة البريئة فقد ردتها بعنف ورفضتها بعناد . على أنه قدر فى نفسه أنها إذا يئست من الزواج والخادنة رجعت بالطمع إلى المصادقة . واليأس وإن كرب الصدر وصدع الفؤاد ينتهى بعد زمن قصير أو طويل إلى الراحة .

وكان قد رجع إلى منزله، فجلس على مكتبه وأخذ يكتب إليها هذه الرسالة :

عزيزتى عقيلة :

لقد كان من فوق احتمالى أن أراك تبكين هذا البكاء الحار بين يدى فى هذا الصباح بعد أن علمت من أمك ما كابدت من الأرق والقلق طول الليل. لا أدرى كيف تطور الأمر بيننا هذا التطور الذى يكدر الصفو ، ويفرق الشمل ، ويمزق هذا الثالوث الذى جمعه الود وألفه الإخلاص ليس لك يد فيما كان . إنما هو القدر الذى يصيب بالحب كما يصيب بالحمى ، ويضل بالهوى كما يضل بالعمى . ولقد شبهتنا فى حديثك بالأمس نحن الثلاثة بعقرب الساعات وعقرب الدقائق وعقرب الثوانى فى تمام الساعة الثانية عشرة . يجتمع اثنان فى هدوء ، ويفترق الثالث فى اضطراب . وقد كنت أنا قد شبهتنا من قبل بالأقانيم الثلاثة التى يتكون منها واحد فى رأى المسيحية، وهى الأب والابن وروح القدس. وأستطيع بعد أن ماسمعت منك ماسمعت فى محل الحلوى وفى مكتب الدرس أن أشبهنا أيضا بثلاثة (جيتة) ، وهم فرتر وكستنر وشرلوت . ومن العجيب أن الثلاثات الثلاث تتشابه فى أن واحدا منها لابد أن يصاب فى نفسه ، ليضمن السلامة لغيره ؛ فعقرب الثوانى كتب عليه أن يدور منعزلا فى مداره الخاص لينتظم عمل الساعة . والابن صلب على قول النصارى ليكفر عن خطيئة آدم . وفرتر انتحر على رواية جيتة ليوفر السعادة لحبيبته ولصديقه . وأنا ياعقيلة لا أريد ولا أنت

تريدين أن يموت واحد منا . أريد وأود لو تريدين أن يعيش ثلاثتنا فى ظلال الصداقة الخالصة وادعين هانئين لا يدخل بيننا شيطان ، ولا يشوب حبنا ريبة . ولعل من الخير أن نقطع الدرس من الغد لنستأنفه حين يثوب الهدوء وتؤوب العافية . أما زيارتى إياك فلن تنقطع . سأزورك مع أمين فى كل ليلتين ما أسعفتنى الفرصة وأمكنتنى الحال . وسأكون لك ولخطيبك على الأبد المحب الوفى والصديق الأمين . (حافظ)

ثم غلف الرسالة وبعث بها مع خادمه إلى منزل عقيلة .

وفى صباح اليوم التالى زاره فى بيته أمين وأخبره وهو جزع مضطرب أن حالة ابنة عمه سيئة ، فقد قضت ليلة أمس الأول على غير عادتها ساهرة تتردد بين الغرفة والشرفة ، تقرأ ساعة وتفكر أخرى ، فأصابها برد شديد بلغ الرئة وقد تركتها بين يدى الطبيب وحرارتها تسع وثلاثون ، لأصحبك إليها فقد طلبتك .

جزع حافظ لهذا الخبر وأشفق على عقيلة من عقبى هذا الداء . وأسرع فارتدى ثيابه ثم انطلق مع صديقه إلى منزل عمه .

كانت عقيلة حين دخل عليها الصديقان مستلقية على ظهرها فى الفراش وعلى جبينها كيس الثلج ، ومن حولها أمها وبعض سيدات الجيرة . فلما رأتهما أشارت إلى أمها أن تخلى لهما مكاناً بجانب السرير . فانصرف السيدات وجلس الرجلان حيث أرادت المريضة .

والتفتت عقيلة إلى حافظ بقدر ما سمح لها كيس الثلج — وكانت عيناها وخداها يتوهجان من وقدة الحمى — وأخذت يده فى يدها وقالت : قرأت رسالتك مراراً على رغم ما بى . ثم دسستها تحت الوسادة ليقرأها أمين . وإنى أشكرك ما أفضته على صداقتى لك من نبل ، وما أسديته إلى علاقتى بأمين

من فضل . وأحمد الله على أن اختارنى من بين ثلاثتنا لأكون فداء لما قد ينال صحبتكما من فرقة ، و يصيب مودتكما من فتور . وأنا بهذه التضحية مغتبطة وعنها راضية . لقد أذقتمانى فى هذه الفترة القصيرة من عمرى ألذ ما فى هذه الحياة المرة من حب وغبطة .

كانت لذتى فى أن أمرح وألهو فهيأتما لى هذه اللذة . وكانت سعادتى فى أن أحِب وأحَب فوفرتما لى هذه السعادة . فإذا قضى الله أن أفارقكما اليوم كما يحدثنى بذلك قلبى ، فلن أقول فى وحشة القبر إنى لم أنعم بالأنس ، ولا فى ظلمة العدم أنى لم أسعد بالوجود . وحسبى ياحافظ أن أحيا فى ذاكرتك وذاكرة أمين . ستجدانى ثالثتكما فى كل مكان تقصدانه ، وفى كل حفل تشهدانه . وستحس ياحافظ حين تأكل أو تشرب تلك اليد العابثة التى كانت تغفلك عن طعامك فتنهبه ، أو عن شرابك فتشربه . . .

وغلبها البكاء فسالت مدامعها الحرار الغزار على صدغها الملتهب . ولم يملك الصديقان عينيهما فانتحبا انتحاب الطفل . وتجلد حافظ فغيّض من دمعه وقال لها وهو يمسح ظهر كفها بباطن كفه : لا بأس عليك ياعقيلة ! إنك بخير . وستعافين بعد أيام فيلتئم الشمل ويستمر الدرس وتعود البهجة !

ولكن عقيلة وا أسفاه كانت أصدق تعبيراً عن مشيئة القدر ؛ ففارقتهما بعد أيام وخلفتهما للحسرة التى لا تهدأ ، وللعبرة التى لا ترقأ . لا يجدان العزاء فى تسلية ولا متعة ، ولا يجتمعان إلا على ضريحها صباح كل جمعة .

أَحَادِيث

الأدب والثورة

- ١ -

علاقة الأدب بالثورة

كل نفس فى هذه الحقبة من الزمان ثائرة ! فلا فرد من الأفراد راض عن حظه من الدنيا ، ولا أمة من الأمم قانعة بنصيبها من الأرض ؛ إنما أصاب الناس ذلك القلق الروحى الذى يرفع إلى فوق ، ويدفع إلى أمام ، ويبعث فى الخاضع التمرد ، وفى القانع الطموح ، وفى الغافل الوعى ، وفى الضعيف التكتل ، وفى المستعبَد التحرر ، وفى القوى التنافس .

والقلق الروحى هو أخص خصائص الإنسان الراقى ، لا تجده فى البدائيين ولا فى المستعبدين ولا فى المتبطلين ولا فى الذين يعيشون يوماً بيوم ولا ساعة بساعة . لا تجده فى الموظف الذى قنع بوظيفته فلا يطمح ، ولا فى المتعلم الذى اكتفى بشهادته فلا يبحث ، ولا فى المستكين الذى رضى بمهانته فلا يغامر ، ولا فى الصانع الذى وقف عند القديم فى صناعته فلا يجدد ، ولا فى الفلاح الذى ظل على الموروث فى زراعته فلا يبتكر . وأثر القلق الروحى الشعور بالنقص والتطلع إلى الكمال . أثره النفور من الضعف والنزوع إلى القوة . أثره تغيير ما بالنفوس المراد من قول الله عزت حكمته : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وأقوى العوامل أثرا فى تغيير ما بالأنفس ما يصوره الأدب من أحلام ويثيره من آمال ويسنه من مناهج ويرسمه من غايات ويقيمه من مُثل ، بوسائله المختلفة من كتابة وخطابة وصحافة وإذاعة وتمثيل .

ولولا خلال سنها الشعر مادرى   بناة المعالى كيف تبنى المكارم

فكل ثورة سياسية أو نهضة اجتماعية إنما يمدها و يعدها ثورة فكرية تظهر أولا على ألسنة الشعراء وأقلام العلماء لقوة الحس فيهم ، وصفاء النفس منهم ؛ ثم ينتقل تأثرهم إلى سائر الناس بالخطابة والكتابة فتكون الثورة أو النهضة.

مَن الذين مهدوا للثورة الفرنسية ؟ ديدرو ومونتسكيو وروسو . ومَن الذين مهدوا للثورة الروسية ؟ تولستوى وجوركى وتورجنيف . ومَن الذين مهدوا للثورة العرابية ؟ جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وسامى البارودى وعبد الله نديم . ومَن الذين مهدوا لثورة الضباط المصريين الأحرار ؟ مهد لها تلك الصرخات والزفرات التى انبعثت فى أجواء البغى والفساد منظومة فى قصائد ، أو مصورة فى مقالات ، أو محللة فى قصص ، أو ممثلة على مسرح . وما كان الضباط الأحرار لينفعلوا بها ويستجيبوا لها لولا ما ركب فى نفوسهم من حس الأدب وموهبة البلاغة . والأدب البليغ من لوازم القوة لا ينفك عنها إلا فى الندرة . والمراد بالقوة قوة الروح لا قوة العضل ، فإن قوة العضل مظهرها قوة الحركة ، أما قوة الروح فمظهرها قوة الكلمة . فكلما قويت الروحية فى المرء قويت فكرته . وكلما بلغت الإنسانية فيه بلغ بيانه . أولئك على والحجاج وطارق ؛ وأولئك الاسكندر وقيصر ونابليون ؛ وأولئك كمال وموسولينى وهتلر ؛ كلهم كانوا مثلا عالية فى شجاعة القلب واللسان ، ومضاء السيف والقلم . أجادوا القول فى الخطبة ؛ كما أجادوا الفعل فى المعركة ، وحذقوا السياسة فى السلم ، كما حذقوا القيادة فى الحرب . فلا تدرى أتجعلهم فيمن جرى على أيديهم أدب الموت ، أم تجعلهم فيمن جرى على ألسنتهم أدب الحياة . وما قواد الثورة اليوم إلا تطبيق لهذه القاعدة وتصديق لهذا الرأى .

لقد بهروا العالم ببراعة السياسة وحسن الإدارة وإحكام الخطة ، كما بهروه بصدق البيان وبلاغة اللسان وقوة الحجة . وما مَرس هؤلاء بالحكم ولا تخصصوا فى القضاء ولا تفرغوا للأدب ، ولكنها البطولة الحق تقوم على قوة الرأس وقوة النفس وقوة اليد وقوة الروح . والرجل القوى يغلب عليه من الصفات والألقاب ما تغلبه طبيعة عمله ؛ فهو قائد أو سياسى أو مصلح أو كاتب أو شاعر على حسب ما تتجه إليه قواه . فخالد ونابليون ، ومعاوية وبسمرك ، والجاحظ وفلتير ، والمتنبى وهوجو ، لا يختلفون فى عبقرية الرجولة وإن اختلفوا فى دلالة اللقب .

والنبوغ فى هؤلاء جميعاً لا يكاد يختلف فى قيمته ودرجته ، وإنما يتفاوت فى شهرته ونفوذه .

فالأدب والثورة إذن متلازمان تلازم الفكر والعمل ، أو تلازم الرأى والعزيمة . فمن يزعم أن الأدب لم يثر مع الثائرين كان متجنياً على الحق متحديا الواقع . لقد ثار الأدب وحده حين سكتت على الأذى كل نفس ، وأغمضت على القذى كل عين ؛ وحين تناصر ذلك الملك الخليع اللاهى والساسة المحترفون على إذلال هذه الأمة ففرقوا كلمتها وعوقوا نهضتها ، وبددوا ثروتها وسوأوا سمعتها ، ودفعوا بها إلى هوة من هوى الشر والفساد لا سبيل بها لنجاة ، ولا بصيص فيها لأمل . ثم سكنت ثورة الأدب بعض السكون حين تيقظ الوعى وعم السخط وانتشر القلق وثار الجيش ونهض الشعب . وواجب الأدب كان قبل الثورة أن ينبه ، وسيكون واجبه بعدها أن يوجه . وسيؤدى رجال السيف ما عليهم من الدين لرجال القلم ، فيعاونونهم على أداء التوجيه المرشد كما أعانهم هؤلاء على التنبيه الموقظ . وسيعنى قادة الثورة المباركة بروح هذا الشعب كما يعنون بمادته . وسييسرون له غذاء عقله كما ييسرون له غذاء جسمه . وستجد صحافة الأدب الرعاية لتبقى ، وسينال شباب الأدب التشجيع لينتج . وسيظفر مجمع اللغة العربية بالمال لينشر انتاجه الضخم . وستنشأ فى القاهرة دار لترجمة العلوم والآداب والفنون فنعيد للناس عهد بيت الحكمة فى عصر المأمون ، ودار الحكمة فى عصر الحاكم . وستظل مصر مشرقا لنور الإسلام ، ومبعثاً لنهضة العروبة ، ومقراً لزعامة الأدب ، وصلة العلم بين الغرب والشرق ، وبرزخ الحضارة بين القديم والحديث . تلك أمانى مجملة سقتها مساق الوعود المنجزة ، اعتقادا بأن الإصلاح فى هذا العهد السعيد سيشمل كل جانب ويحقق كل أمل .

— ٢ —

كيف مهد الأدب للثورة

حضارة الإنسان منذ وعى ثورة مستمرة ، إذا خمدت فى مكان أو هدأت فى آخر ، فإنها تظل مشبوبة فى أكثر بقاع الأرض ، بين القوة والضعف ، وبين الكمال والنقص ، وبين الجدة والقدم ، وبين الحياة والطبيعة . ففى ظهور كل دين ثورة ، وفى قيام كل دولة ثورة ، وفى نشوء كل مذهب ثورة ، وفى طموح كل نفس ثورة . ومظهر هذه الثورات جميعاً فى شتى نواحيها ، وفى مختلف دواعيها هو الأدب . فحيثما نجد الأدب نجد الوعى كثيراً أو قليلا على قدره . وحيثما نجد الوعى نجد التقدم سريعاً أو بطيئاً على حسبه .

وفى ثلاثة أرباع القرن الماضى كان الأدب العربى خامدا لا روح فيه ، وكان الشعب المصرى تبعاً لذلك غافلا لا وعى له . كان فى عهد محمد على طماح « قولة » الذى جلس بالخديعة على عرش صلاح الدين فى قلعة القاهرة أشبه بالدواب تساق بالكرباج فتسير ، وتسخر للانتاج فتذعن ، وتجازى بالحرمان فترضى . ذلك لأن هذا الجندى التركى الأمى الحاكم كان قد قطع ما بين قلبها والدين ، وما بين نفسها والأدب ، وما بين عقلها والعلم . ولم يكن همه إلا إعداد الجيش ليملك ، وإلا جباية المال ليسود . وظل الشعب فى بلادة الحيوان الصابر حتى تفتحت فى الربع الأخير من ذلك القرن بواكير الوعى فى أذهان النابغين من رجال الدين فى الأزهر ، والعائدين من طلاب العلم فى فرنسا . فشعروا أول الناس بالأغشية التى تحجب الأبصار ، وبالعلل التى تخدر المشاعر ، فأشعلوا بعض الضوء فى الظلام الحالك ، وأرسلوا بعض الصوت فى السبات العميق . وكان من أثر ما كتب رفاعة الطهطاوى ، وعلى مبارك ، وعبد الله فكرى ، وجمال الدين ، ومحمد عبده ، وعبد الله النديم ، تلك الهزة النفسية التى أدركت بعض قادة الجيش فنهضوا يحاولون تحطيم ذلك النير الثقيل الذى بهظ كواهل

الشعب فرزح تحته ولم ينهض . ولكن ذلك النير أو الناف كان فرعا غليظا من تلك الشجرة العلوية الملعونة صفحه الانجليز بالحديد والذهب فلم يستطع عرابى تحطيم توفيق .

خمدت إذن ثورة الجيش الأولى لأن الوعى الشعبى كان من الضعف بحيث لا ينهض فضلا عن أن يثور . وظلت ثورة الأدب متقدة تبدد الظلام وتوقظ النيام وتهيء العدة . فاستمر محمد عبده وهو فى منفاه يكتب فى مجلة « ثمرات الفنون » ببيروت ، ثم فى مجلة « العروة الوثقى » بباريس ، فصولا يعالج فيها تأخر المسلمين وأسبابه بالمنطق القوى والأسلوب البليغ . واستأنف عبد الله النديم جهاده الأدبى فى مجلته « الأستاذ » بأسلوبه العصبى اللاذع .

ثم امتدت ألسنة المستعمرين والمبشرين بالطعن فى مصر والشرق والإسلام فنهض جمال الدين لأرنست رينان ، ومحمد عبده لهانوتو ، وقاسم أمين لدوق دار كور ، فدافعوا بالحجج الملزمة مالفقوا من أباطيل وما شوهوا من حقائق . ثم حملتهم تلك الحملة الإستعمارية على النظر فى تطهير الشرق من هذه المآخذ بتصحيح الزائف ، وتقويم المعوج ؛ فمضى كل مصلح يتحرى وجوه الاصلاح والتحرير ، فى الوطن ، أو فى الفكر ، أو فى الأدب ، أو فى القضاء ، أو فى التعليم ، على حسب استعداد عقله وطبيعة نفسه . وكانت الأهرام والمؤيد ميدانا لهذه الثورة الأدبية على فساد الأخلاق وسوء العادات وانتشار الأمية وشيوع الجهالة وخمود الحواس ، فظهر فى تلك الحقبة كتاب « الإسلام والنصرانية » للامام ، وكتابا « تحرير المرأة » « وأسباب ونتائج » لقاسم . . ثم نقل أحمد فتحى زغلول فى سنة ١٨٩٩ كتاب « سر تقدم الإنجليز السكسونيين » للكاتب الاجتماعى الفرنسى « إدمون ديمولان » فصادف هذا الكتاب القيم حاجة فى نفوس الأدباء فقرأوه ودرسوه ووازنوا بين مثله الأعلى ومثلنا الأدنى فى التربية

والأخلاق والثقافة والحضارة والنظام ، فتمردت العقول على الجمود ، وهفت النفوس إلى الرقى ، وتحركت الهمم للاصلاح ، وهبت طائفة من الكتاب الثائرين يبحثون مشكلات الأمة ويطبون لأدواء المجتمع ، فظهر فى سنة ١٩٠٢ كتاب « حاضر المصريين وسر تأخرهم » لمحمد عمر ، عالج فى أقسامه الثلاثة رذائل الأغنياء ومعايب الأوساط ونقائص الفقراء بلسان صادق وبيان صريح . وفى سنة ١٩٠٧ أنشأ محمد المويلحى كتابه البليغ « حديث عيسى بن هشام » وصف فيه الأخلاق المصرية والمفاسد الاجتماعية أبلغ الوصف وأصدقه . وعلى منواله نسج حافظ إبراهيم فى كتابه « ليالى سطيح » ثم نشر مصطفى لطفى المنفلوطى نظراته الاجتماعية تباعا فى المؤيد تصف الآلام وتمثل العيوب . وكان مصطفى كامل فى تلك الفترة نفسها يرفع « اللواء » ويلهب الشعور الوطنى بخطبه ، ويكافح النفوذ الأجنبى بمقالاته . وانضوى إلى لوائه الشاعر حافظ إبراهيم فنظم فى قصائده الغر أمانى البلاد ، وضرب على أوتار القلوب أناشيد الجهاد . ثم انطوى بالموت لواء مصطفى ، وخفت بالمرض صوت حافظ ، فاعتلى سعد المنبر ، وحمل شوقى القيثار . ومثل مصطفى وسعد كل خطيب ، ومثل حافظ وشوقى كل شاعر . ومن هذه الروح الألهية المنبثة فى الخطب والمقالات والقصائد والكتب انبعثت الحياة فى الجذوع الميتة ، وتدفقت الحساسية فى الأجساد الهامدة ، وتألف من الآراء الخاصة رأى عام ، وتكون من الطوائف المتفرقة شعب مجتمع . والمستذل يأنف حين يحس ، والمستغل يغضب حين يعى ، والقطيع من البقر أو الغنم إنما يظل قطيعا مادام لا يعرف إلا العشب يأكله وإلا الراعى يطيعه ؛ فإذا ما أدرك يوما أن راعيه يأكل لحمه ويشرب لبنه ويستغل جهده ، وليس له عليه من فضل إلا أن برأسه حيلة هى أضيق من قواه ، وأن فى يده عصا هى أضعف من قوته ، لم يعد قطيعا وإنما يصبح أمة . .

والأمة المصرية شعرت أخيرا بفضل ماوخزتها الأقلام ونبهتها الآلام أن لها وطنا يجب أن يستقل، وأن لها عليه سلطانا يجب أن يسود، وأن لها عدوا ثقيلا يجثم منذ سبع وثلاثين سنة على صدرها، يستبد بأمرها، ويستقل بخيرها، فتعمل ولا تريد، وتنتج ولا تستفيد، ثارت فى وجه المحتل ثورتها الثانية سنة ١٩١٩. وكادت تظفر بحقها الطبيعى فى الحرية والاستقلال، لولا أن ابتلاها الله بزعماء من طلاب المال والحكم فأضلوها السبيل، وأوردوها السراب، وعوقوها عن الغاية. وكان الوعى الأدبى والوعى القومى قد قاربا الإدراك والنضج، فنشبت فى العشرين سنة الأخيرة معركة شعواء بين المادية والروحية، بين الأنانية والغيرية، بين الاحتلال الباطل والاستقلال الحق، بين الطغيان الفاجر والدستور الذليل، بين الثراء الفاحش والفقر المدقع، بين الترف المسرف والحرمان المهلك. وكان الملك والحاشية والاقطاعيون والسياسيون والإنجليز فى جانب، والدين والأدب والأخلاق والقيم والمثل فى جانب. والغلبة إنما تكون أولا وظاهرا للشيطان لتحكم الغرائز وتسلط الشهوات، فطغى الفساد وتوقح البغى وحسب الناس أن الليل سرمد وأن الذل خلود، «حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين». نعم جاء نصر الله فاصطفى لإعلانه رهطا من رجال الجيش؛ لأن رجال الجيش يتميزون على رجال السياسة بأن صناعتهم الدفاع، ووسيلتهم القوة، وطبيعتهم النظام، وخلقهم الطاعة، وعيشهم التقشف، ومبدأهم التضحية. نعم جاء نصر الله فبات الشعب ذات ليلة من ليالى يوليو وهو مظلوم محروم؛ ثم أصبح فإذا هو صاحب العرش وصاحب الجيش وصاحب الحكم وصاحب الثروة. نام وهو لاشىء، ثم استيقظ وهو كل شىء! وكان الأدب هو المهيء لذلك كله. كان الحس فى خمود الشعب لأنه غذاء القلب. وكان الهدى فى ضلال الشعب لأنه شعاع الروح.

كان الأدب فى الربع الأخير من القرن الماضى ناشئا ضعيفا فثار الجيش وحده مع عرابى . وكان فى الربع الاول من القرن الحاضر بالغا فتيا فثار الشعب وحده مع سعد . ثم كان فى الربع الثانى منه قويا جارفا فثار الجيش والشعب جميعا مع أبطاله الأحرار .

ياقومنا إذا كان من إعداد الجيش للجهاد أن تكون له موسيقى ، فإن من إعداد الشعب للحياة أن يكون له أدب . وإذا كانت مهمة الموسيقى أن تنشط وتنعش ، فإن مهمة الأدب الحر أن يسوس ويقود .

— ٣ —

نهضة العرب وثورتهم فى القرن السادس

لا يمكن أن تكون ثورة إلا إذا سبقتها نهضة . ولا يمكن أن تكون نهضة إلا إذا بشرت بها دعوة . والدعوة إما بعثة نبي أو رسالة مصلح وليس للنبيين من عُدة إلا أدب الوحى ، ولا للمصلحين من أداة إلا وحى الأدب . فالنهضة والثورة تتفقان فى المصدر وتختلفان فى المظهر : النهضة انتباهة ، والثورة انتفاضة . النهضة علاج يوقظ الوعى الغافى ويقوى الجسم الضعيف ، والثورة جراحة تستأصل الداء وتقى المريض النكسة . النهضة نهر فياض يتنفس بالحياة ويفيض بالخصب ويهيىء البلاد للعمران ، والثورة سيل جارف يحطم الحواجز ويقتلع الصخور ويهيىء الأرض للربيع . النهضة دعوة باللسان مادام هناك عقل مستعد ، والثورة جهاد بالسيف متى تغلب على العقل هوى مستبد . والنهضة والثورة قوامهما كما قلت واحد هو الأدب . يكون للنهضة غذاء يحيى ونوراً يهدى ، كما يكون للثورة وقوداً يشعل وناراً تطهر . فإذا زالت العقبات واستقرت الأمور وسكنت الثورة انفرد الأدب بالنهضة يفعمها بروحه حتى لاتضوى ، وينضحها بنداه حتى لا تجف . وضراوة النهضة وجفافها معناهما المادية . والمادية هى علة الشقاء للانسان الحديث . أصيبت بها المدنية الأوربية حين وقعت الجفوة بينها وبين الدين ، وانقطعت الصلة بينها وبين القلب ، فتباعدت القربى ، وتشعبت الحاجات ، وتنافست الأطماع ، وتكاشفت الأحقاد ، واضطرب الناس فى سبيل الكدح ، وألهبتهم حوافز النهم ، حتى عجزوا بخلقتهم وطبيعتهم عن مسايرة الحضارة الخالية من الروح والضمير والحب ، فسموا بالطائرات وعلوا بالآلات ونظروا بالتلسكوب وسمعوا بالميكروفون — وضاقت عليهم الأرض برحبها فضربوا فى الآفاق واختصموا على بلاد

المستضعفين وحكموا بينهم السلاح ، فكانت هذه المدنية المادية أشبه بسعير الآخرة ، تنضج الجلود ولا تزهق الأرواح ليستمر الاضطراب ويتجدد العذاب ويدوم للطبيعة الخداعة هذا الثوب البراق بفضل هذا الإنسان الأحمق الذى يعمل ولا يعرف لماذا ؛ ويسرع ولا يدرى إلى أين !

لانستطيع إذن أن نفصل بين نهضتنا والأدب ، ولا بين حضارتنا والدين ، اتعاظا بالفشل المروع الذى نكبت به الحضارة الغربية ، وإيمانا بأن لنا نحن العرب رسالة روحية اصطفانا الله لأدائها جيلا بعد جيل ، ليبقى الإتصال بين السماء والأرض ، ويدوم المدد بين الله والإنسان .

سنظل مؤمنين مصدقين بما قال الله تعالى فينا « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » .

وسنعتقد دائماً أن روح العروبة هو الأدب . وحّدها بعد شتات فى القرن السادس ، ثم أحياها بعد ممات فى القرن العشرين .

وفى هذين القرنين سجل التاريخ للعرب نهضتين عظيمتين مهدت الأولى للإسلام وكانت فتحا لعالم جديد ؛ ومهدت الأخرى للسلام وستكون فاتحة لعالم أفضل .

كانت النهضة الأولى موطنها الحجاز ومبعثها مكة . ذلك لأن مكة كانت فى النصف الثانى من القرن السادس الميلاد محطا للقوافل التجارية الآتية من الجنوب تحمل البضائع من الهند واليمن فيبتاعها المكيون ويصرفونها فى أسواق الشام ومصر . وكانت طرق مكة الموصلة آمنة لحرمة البيت ومكانة قريش ، فكان تجارهم يخرجون بقوافلهم الموقرة آمنين ، فينزلون الأسواق ويهبطون المدن

فيستفيدون بسطة فى العلم وقوة فى الفهم وثروة فى المـال وخبرة بالحياة .

وكانوا بحكم إيلافهم رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى حوران ، أشد العرب اختلاطاً بالحبشة فى الجنوب ، وبالفرس فى الشرق ، وبالروم فى الشمال . ثم كانوا على أثارة من العلم بالـكتب المنزلة : باليهودية فى يثرب وما جاورها من أرض خيبر وتيماء ، وبالنصرانية فى الشام ونجران والحيرة .

ذلك إلى أن مكة كانت فى الجاهلية كما هى فى الإسـلام موضع البيت الحرم ومكان الحج المفروض فتفد إليها قبائل العرب من أقطار شبه الجزيرة يقضون المناسك ويتبادلون المنافع . وبفضل هذا الاجتماع الدينى العام كانت تقوم سوق عكاظ السنوية فى شهر ذى القعدة على مسافة قريبة من مكة ، فيجتمع فيها الحجيج وهم فى حمى الأشهر الحرم ، وهى المدنة العامة المقدسة ، فيبيعون ويشترون . ثم تدعوهم طبيعة الاجتماع إلى المقارضة بالقول والمفاوضة فى الرأى والمبادهة بالشعر والمباهاة بالفصاحة . وكان الشعراء من أمثال النابغة والأعشى ، والخطباء من أمثال عمرو بن كلثوم وقيس بن زهير ، والكهان من أمثال قس بن ساعدة وأمية بن أبى الصلت ، يقومون فى هذه السوق مقامات مشهورة للمدح والفخر والوعظ . تحرض بعض النفوس على الشر ، وتوجه بعض النفوس إلى الخير ، وتسن للفتوة العربية خلال المجد ومناهج الحمد ، وتذيع فيها تذيع وحدة الخلق والعادة واللغة والغاية .

كان أثر عكاظ فى نهضة العرب أشبه بأثر الجمناز فى نهضة الأغريق . كان الإغريق يقيمون الجمناز للألعاب الرياضية فى مدينة أولمبيا كل أربع سنين كلما حجوا معبد (جو بتير) كبير الآلهة . وكانوا يحرمون القتال على أنفسهم مدة الحج واللعب على نحو ما كان يفعل العرب فى الأشهر الحرم . ثم أصبح هذا

الملعب الرياضي ميداناً لرجال الفكر والشعر والخطابة والتمثيل كان له الأثر البالغ في ازدهار الأدب الأغريقي على الجملة .

على أن عكاظاً كان أثره في نهضة العرب والأدب أقوى ومداه أبعد ، فقد كان الرواة ينصرفون منه إلى أحيائهم وقراهم وعلى ألسنتهم ما حفظوا من شعر ، وما سمعوا من قصص ، وما اكتسبوا من علم ، وما شهدوا من وقائع ، فينشرونه بين الناس في السوامر والأندية فيتفتح الوعي وتنشأ المعرفة .

وهكذا اجتمعت الأسباب الطبيعية لنهضة عرب الشمال قبل الإسلام من احتشادهم في هذه الأسواق ، واجتماعهم لأداء الحج ، واختلاطهم بأول الحضارات والديانات من الأمم المجاورة ، واحتفالهم بقرض الشعر وتأثرهم به ، وطموحهم إلى المجد وسعيهم له ، حتى كان من ثمار تلك النهضة أولئك الأبطال الأعلام الذين قبلوا الإسلام وفهموه وفقهوه ونصروه ونشروه وقاموا على أمره كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعمرو وخالد وسعد . وليس أدل على نضج العقلية العربية في ذلك الحين من هؤلاء . وكلهم من أقطاب الفكر والرأي والخطابة

ولسلطان الأدب على النفوس في هذه النهضة كانت معجزة الإسلام الوحيدة هي البلاغة ، وسلاحه القاطع هو التحدي . ثم كانت من معارك الدعوة النبوية العظمى معركة الشعر . نشبت بين حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة من شعراء الإسلام ، وبين عبد الله بن الزبعرى وأبي سفيان وعمرو بن العاص من شعراء الشرك . فلما اصطدمت الدعوة بالعناد ، ووضع المشركون في طريقها السيف ، أمر الرسول بالجهاد فكانت الثورة وكان الفتح وكان السلام . واستمر الأدب يؤازر الثورة كما آزر النهضة ، فكان يشجع القلوب بالشعر ، ويحمس الجنود بالقصص ، ويربض الأمور بالخطابة ، حتى ظهر الإسلام على الدين كله ، وتم نوره في الشرق كله .

هذا إجمال القول فى النهضة العربية فى القرن السادس ، مهد لها الأدب ، ومهدت هى للإسلام ، وأتم الإسلام الألفة بين القلوب والوحدة بين القبائل ، ثم أشعل الثورة على الوثنية والأرستقراطية والفساد حتى طهر الأرض وحرر الناس ومدن العالم .

أما نهضة العرب الأخرى فى القرن العشرين وأثر الأدب فيها فهى موضوع الحديث التالى .

— ٤ —

نهضة العرب وثورتهم في القرن العشرين

حدثتكم عن أثر الأدب في نهضة العرب في القرن السادس . ثم وعدتكم أن أتحدث عن أثر الأدب في نهضة العرب في القرن العشرين . وليس للأمة العربية في تاريخها الطويل الحافل غير هاتين النهضتين : نهضة كانت بالدين انطلاقا من الجهل ، ونهضة كانت بالعلم انبعاثا من الموت . وكان الأدب في كلتا النهضتين كما قررنا وكررنا هو الباعث الأول . كان في الأولى ومضة المنارة التي تذهب الضلال ، وكان في الأخرى نفخة الصور التي تسبق البعث . فكيف كان العرب بعد أن تقدموا وقدموا الدنيا ، وكيف صاروا بعد أن تأخروا وأخروا الدين ؟

كان العرب في القرن الرابع للهجرة قد بلغوا من السلطان والعمران ما لم تبلغه من قبلهم أمة . كانت لهم في عصر واحد ثلاث خلافات تشع الحرارة والنور في القارات الثلاث : خلافة العباسيين ذات العلم الأسود ببغداد في آسيا ، وخلافة الفاطميين ذات العلم الأبيض بالقاهرة في أفريقيا ، وخلافة الأمويين ذات العلم الأخضر بقرطبة في أوربا . وكان العالم القديم كله من شرقه إلى غربه يعيش في ظلال هذا الملك العظيم خاضعا للعرب الحاكمين خضوع الجيش للقائد أو القافلة للدليل . فلما أخلد العرب إلى الترف ، وفقدوا بالانقسام والخصام واللهو قوة الاتحاد ، وقوة السلطان ، وقوة الدين ، وقوة العلم ، أصبحت ديارهم وآثارهم نهبا مقسما بين المغول والترك والفرس والجركس والأسبان . وفعل التتار في العراق ، والصليبيون في الشام ، والفرنج في الأندلس ، ما تفعله الزلازل والبراكين بالعمران المزدهر . ثم انحصر العالم العربي في أواخر القرن الثامن عشر للميلاد في العراق وسورية وبلاد العرب ومصر والسودان والمغرب . وآل السلطان والحكم فيه إلى الدولة

العثمانية سنة ١٥١٦ فحكمته بالعسف والقهر ، وأذلته بالجهل والفقر ، وفرقت بين أجزائه بالعزل والقطيعة ، وطردت اللغة العربية من الدواوين حتى من محاكم الشريعة ، واستعملت التركية في التعليم حتى في دروس النحو ! ثم انقطع ما بين العرب والدين الصحيح والأدب الحر فاعتراهم ما يشبه الخدر في الحواس فلم يشعروا بالوجود ولم يحفلوا بالحياة ، حتى غشى الأرض ما غشى من طغيان عبد الحميد ، وقاست العروبة ما قاست من اضطهاد الأتراك ، فأخذ تاريخ المجد العربي يثور في رؤوس بعض الزعماء والقادة ، ومأثور الأدب العربي يحيا في نفوس بعض الشعراء والكتاب . وانبعثت من وراء الرقابة الشديدة والجاسوسية اليقظة أصوات الأدباء تهيب في خفوت وحذر بالراقدين أن يهبوا ، وبالقاعدين أن ينهضوا . وسمع الناس أول ما سمعوا صرخات العرب المسيحيين لسوء سياسة الترك فيهم ، وقسوة الحكام عليهم ، كفتح الله مراش ، ورزق الله حسون ، وأديب اسحق ، وإبراهيم اليازجي صاحب البائية المشهورة التي نظمها في سنة ١٨٩٦ م ومطلعها .

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب ... فقد طمى السيل حتى غاصت الركب
كم تُظلمون ولستم تشتكون وكم ... تَستغضبون ولا يبدو لكم غضب
ألستُم من سطوا في الأرض واقتحموا ... شرقا وغربا وعزوا أينما ذهبوا
فما لكم ويحكم أصبحتُم همــلا ... ووجه عزكم بالهون منتقب
لا دولة لكُم يشتد أزركم ... بها ولا ناصر للخطب ينتدب
أقداركم في عيون الترك نازلة ... وحقكم بين أيدي الترك مغتصب

والقصيدة كلها على هذا النسق من استنهاض العزائم لاسترجاع المجد الذاهب ، واسترداد الحق المغصوب . وهي مثل لما كانت تنشره الصحف وترويه المجالس في مهاجر الأحرار بمصر وأوربا وأمريكا . وكانت هذه الصيحات المذكرة

المنذرة تجد تشجيعاً من مدحت باشا والى تركية على العراق ثم على سورية ، لأنه كان يطمع فى أن يستقل بالشام كما استقل محمد على بمصر . فقويت حركة الإصلاح واتسعت دائرة المعارضة ، واشترك فيها المسيحيون والمسلمون على سواء . ونهض يومئذ المصلح الحلبي العظيم الشيخ عبد الرحمن الكواكبي المتوفى سنة ١٩٠٢ فألف كتابيه القيمين : « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » دعا فى الأول إلى تحرير المجتمع العربى من العادات الضارة والاعتقادات الفاسدة . ودعا فى الآخر إلى خلافة عربية يكون مقرها جزيرة العرب . فكان لهذين الكتابين أثر قوى فى انعاش الفكرة العربية قطع الترك على المؤلف من جرائهما كل سبيل وشردوه فى كل أفق .

ثم تجاوبت بأناشيد الذكرى والألم والأمل صيادح الشعر على ضفاف دجلة وبردى والأردن . فيقول الرصافى من قصيدة عنوانها : « تنبيه النيام » :

عجبت لقـــوم يخضعون لدولة يسومهم فى الموبقات عميدها
وأعجب من ذا أنهم يرهبونهـــا وأموالها منهم ومنهم جنودها

ويقول الزهاوى من قصيدة نظمها فى سنة ١٨٩٧ :

لقد عبثت بالشعب أطماع ظالم يحمّله من جوره ما يحمـــل
فياويح قوم فوضوا أمر نفسهم إلى ملك عن فعله ليس يُسأل

ويقول عبد الحميد الرافعى فى طرابلس من قصيدة مطلعها :

ما تصلح الدنيا ولا ناسهـــا ما لم يبل الأقوام أجناسهـــا
هبوا بنى العرب إلام الكرى وقد دها الآمال دهاسهـــا
طلبتم الإصـــلاح من عصبة توتّر بالإفساد أقواسهـــا
ألستم نســـل القروم الألى تنتعل الهـامات أفراسهـــا

فكم تقيمون على ذلة ... وروضة الصبر ذوى آسها
فجردوا العزم الذى طالما ... شق صدورا طال وسواسها

ويقول سليمان الفاروقى فى فلسطين :

بنى انهضوا واحيوا حياة عزيزة ... حياة تعيد المجد للعرب ثانيا
ألا نهضة شرقية عربية ... تزلزل أقواما وتوهى رواسيا ؟
ألا رجل ذو مرة فيلمكم ... ويرأب صدعا فيكم بات واهيا ؟
يقوم فلا يرتد أو يبلغ المدى ... ويقضى ولكن يبعث السيف قاضيا

ثم انضم إلى أدباء العرب الثائرين على طغيان السلطان أحرار الأدباء من الأتراك أنفسهم من أمثال رضا توفيق وولى الدين يكن ، فكان من أولئك كله وقود جزل للثورة التى أشعلتها فى تركيا « جمعية الاتحاد والترقى » وكان أن أعلن فى نورها الدستور العثمانى فى سنة ١٩٠٨ ، ثم كان أن سقط فى نارها عبد الحميد فى سنة ١٩٠٩ .

وظن العرب أنهم سينعمون فى ظلال الدستور بالحرية والمساواة ولكن الظن كذب والأمل خاب ، وعاد الشعراء يقولون مع الفاروقى :

كنا نعلل بالدستور أنفسنا ... بفارغ الصبر ذاك اليوم نرتقب
حتى إذا جاء لم يحدث لنا حدثا ... ولا استجيب لنا فى مطلب طلب

واشتدت الخصومة بين العصبيتين العربية والتركية ، واحتدمت ثورة الأدب ثانية فى المجلات والصحف ، وترددت أصداؤها فى المحافل والأندية ، وتجمعت القوى المتفرقة فتألفت الجمعيات السياسية فى العواصم المختلفة كجمعية المنتدى العربى وجمعية العهد فى الآستانة ، والجمعية القحطانية والجامعة العربية فى مصر ، والجمعية الإصلاحية فى بيروت . وكلها كانت تعتمد فى الدعاية على الأدب فى شتى

ضروبه وجميع مظاهره ، حتى شبت الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ وكانت تركية خصما فيها لانجلترا وفرنسا وهما الدولتان الطامعتان منذ زمن طويل فى إقتطاع الشرق العربى وابتلاعه من تركة الرجل المريض كما كانوا يسمون الدولة العلية . وأراد الله جل شأنه أن يهىء الأمور لتحرير الأمة التى اختارها لإظهار دينه وإعلاء حقه ، فأسرف الأتراك فى البغى وأمعنوا فى الجور وحكموا بالإعدام ظالمين على صفوة من أقطاب الأدب والسياسة ، شنقوهم سنة ١٩١٥ فى ساحات بيروت ودمشق ، فكان استشهادهم المروع مناحة للأدب فى كل قطر . واستغل الاستعمار الراصد هذه النكبة ، فتقدمت انجلترا إلى الحسين بن على شريف مكة فى سنة ١٩١٦ بالوعد أن تجمع له الأقطار العربية كلها تحت تاجه ، فكانت ثورة الحجاز ، وكان انخذال الترك ، وكان استقلال العرب .

كذب الإنجليز وعدهم وصدق الله وعده ، وانتهى أمرهم إلى الانتداب والأمر لله وحده .

ذلك ما اتسع له القول فى جهاد الأدب لأنهاض العرب فى هذا القرن . أما جهاده فى جمع كلمتهم وتحقيق وحدتهم فهو موضوع الحديث التالى .

— ٥ —

فضل الأدب على وحدة العرب

علة العلل في شقاء العرب وبلاء الشرق هي انجلترا ما في ذلك شك . وليس من موضوع هذه الأحاديث أن أشرح هذه العلة ولا أن أصف ما جرته علينا من انحلال وتأخر ، ومن تخاذل وتواكل ، ومن انقسام وفرقة . وحسبي أن أشير إلى وعدين اثنين من وعود الاستعمار الكثيرة قطعهما الشرف البريطاني على نفسه فكان نكبة على الشرق الأوسط كله : وعد كاذب وعده (مكمهون) للعرب سنة ١٩١٥ وكان من نتائج كذبه مهزلة الانتداب ، ووعد صادق وعده (بلفور) لليهود سنة ١٩١٧ فكان من نتائج صدقه مأساة فلسطين . رأت انجلترا وهي تصلى نار الحرب العالمية الأولى أن تستفيد من تمرد العرب على طغيان الترك فوعدت شريف مكة الحسين بن على إذا ناصر العرب الحلفاء أن تتوجه ملكا على دولة عربية موحدة تجمع الحجاز وسورية ولبنان وفلسطين والعراق . وكانت فكرة الجامعة بعد إعلان الدستور العثماني وما أعقبه من سفه الاتحاديين منتجع الخواطر ومهوى القلوب في كل قطر من أقطار العروبة . فصدق زعماء العرب الطيبون هذا الوعد ، وحملوا نصيبهم من أوزار الحرب ، وأخرجوا الجيوش التركية من بلادهم بالسيف . وانتصر الحلفاء ، وتبوأ قائد الثورة العربية فيصل ابن الحسين عرش الأمويين في دمشق . وفي الثالث والعشرين من شهر أكتوبر لسنة ١٩١٨ احتفل العرب برفع علمهم المربع الألوان في الساحة التي قتل فيها شهداؤهم . وكان الأدب في هذا المهرجان وفي جميع البلدان هتاف بالنصر وفرح بالاستقلال وابتهاج بما من الله عليه من تحقيق أحلامه وتصديق أمانيه . وتجاوبت في الصحف وعلى المنابر شدوات الشعراء وسجعات الخطباء تحيي المجد العائد وتبارك العهد الجديد . نختار شيئا منها على سبيل المثال .

قال فؤاد الخطيب من قصيدة مطلعها :

حى الشريف وحى البيت والحرما ... وانهض فمثلك يرعى الحق والذمما
يا آل جنكيز إن تثقل مظالمكم ... على الشعوب فقد كانت لهم نعما
فالظلم أيقظ منهم كل ذى سِنة ... ما كان ينهض لولا أنه ظُلما
فمن يكن من أباة الضيم فى صمم ... فليسمع اليوم صوتا يحسم الصمما
فقد تكلم صوت الثار مرتفعا ... من الحجاز يشق البيد والأكما
يا ابن النبى وأنت اليوم ناصره ... قد عاد متصلا ما كان منفصما
والتف حولك أبطال غطارفة ... شم الأنوف يرون الموت مغتنما
إيه بنى العرب الأحرار إن لكم ... فجرا أطل على الأكوان مبتسما
من ذلك البيت من تلك البطاح على ... ذاك الطريق مشت أجدادكم قدما
لستم بنيهم ولستم من سلالتهم ... إن لم يكن سعيكم من سعيهم أمما
إلى الشآم إلى أرض العراق إلى ... أقصى الجزيرة شدوا واحملوا العلما

وقال خير الدين الزركلى من قصيدة يبكى فيها الشهداء ويذكر الثأر لهم :

نعت لغة العُرب من أحكموا ... لسان قريش وتبيانها
وناحت على من بنوا عزها ... وأعلوا بها أثلوا شانها
أبى السيف إلا انتقاما لهم ... وخاف على الضيم خسرانها
أثار بنى هاشم فى الحجاز ... وأنطق فى القبر حسانها
كتائب هبت تلبى الدعاء ... وتطوى القفار وكثبانها
برمح يرن وعضب يئن ... ينبه فى الشرق وسنانها
هو الثأر أدركه الثائرون ... وأشجى فروقا وسلطانها

وقال العاملى صاحب الحماسيات من قصيدة :

أجل بزغت فى الشرق شمس الحقائق ... برغم العدى والمزعجات الطوارق
غداة انتضى العضب المهند فيصل ... بكل كمى رابط الجأش صادق
لعمرك ما العرب الكرام يهولهم ... صليل المواضى أو دوى البنادق
ولا راعهم ماجُرعوا من مرائر ... وقد نصبت قدما حبال المشانق

وقال الزهاوى من قصيدته (النائحة) :

وجاءت خيول العرب تعدو وراءها ... بعقربة للانجليز خيــول
هنالك أهل الشام صاحوا وكبروا ... وكبر أعلام بهـا وسهول
وكان لأخذ الثأر قد سار ضيغم ... له فى مغار العابثين شبول
أغر كريم الأصل من فرع هاشم ... فطاب له فرع وطاب أصول

وقال رشيد أيوب من شعراء المهجر :

من أقاصى الروم نهديك السلام ... مع نسيم السحر
صاحب السيف الصقيل المستهاب ... فى دياجى المحن
أنت من قوم لهم تعنو الرقاب ... من قديم الزمن
خضتها حربا على الباغى تدور ... بكماة أسد
وتركت الترك أصحاب الفجور ... عبرة للأبد
فأدر يا أيها الساقى الكؤوس ... حان وقت الطرب
واسقنا من خمرة تجلو النفوس ... من ظلام الكرب

واصغ للبلبل إن لاح الصباح   صاح فوق القضب
فانتعش للعز فى تلك البطاح   دولة للعــــــرب

ولم يشارك الأدب المصرى فى هذه الفرحة العامة ، لأنه كان مصروفا يومئذ إلى مجاهدة المحتلين بعد الهدنة : يؤيد موقف الزعماء منهم ، ويمهد للثورة عليهم ؛ ولأن الأدباء كان هواهم مع الخلافة مراعاة لشعور الكثرة المسلمة ، ومهاواة للأسرة التركية الحاكمة ؛ ولأن المصريين فوق ذلك كانوا يعلمون أن لأعدائهم الإنجليز يداً فى ثورة الحجاز وغرضاً من نصرة الحسين ، فلم يدخل أدبنا فى ثورة الأدب العام إلا بعد أن ضاعت الخلافة وتبلورت النهضة وتوحد العدو واتفقت الغاية .

على أن العرب لم يلبثوا أن عرفوا بعد انقضاء عام واحد على قيام دولتهم بالشام أن وعد الإنجليز مكذوب ، وأن عهد الحلفاء منقوض ، وأن الغدر بهم مبيَّت . . فقد قررت عصبة الأمم ، أو جماعة الذئاب ، أن الأقطار التى انفصلت عن تركيا لما تبلغ الرشد فلا بد أن تقوم عليها وصاية من الدول الكبرى ، فانتدبت انجلترا لفلسطين والعراق ، واختيرت فرنسا للبنان وسورية . وبذلك القرار خرج العرب من ظلم معلوم إلى ظلام مجهول ، ومن استبدادِ فوضى إلى استعباد منظم ، ومن سلطان دولة ضعيفة إلى سيطرة دول قوية . هنالك عصفت النخوة فى نفوس الأدباء وفى رءوس القادة فقطرت الأقلام سما فى هجاء الحلفاء ، وسالت النفوس دما فى واقعة « ميسلون » . ولكن قدر الله غالب ، والمعتمد على غير الله مغلوب ، فانتقم الصليبيون من العرب ، وانتصر القائد جورو على الملك فيصل ؛ وتبددت فكرة الجامعة العربية فى صراحة الواقع ، كما يتبدد الحلم الجميل فى حقيقة اليقظة . وهب الشعراء يتفجعون على مسعى أخفق وأمل خاب وملك ما قام حتى تقوض . من ذلك قول الزركلى :

أبكى ديارا خلفت للجمال أبهى مثـــــال
أبكى تراث العز والعز غال صعب المنـــــال
أبكى نفوساقعدت بالرجال عن النضـــــال
أبكى جلال الملك كيف استحال إلى خيـــــال

ثم نزل صقر قريش فيصل عن عرش بنى أمية فى دمشق ، ليعتلى عرش بنى العباس فى بغداد . فودعه الشعر محزونا على بردى ، ليستقبله مسرورا على دجلة . فالزهاوى يقول مثلا :

إنا محيوك فاسلم أيها الملك ومصطفوك لعرش شاءه الفلك
عرش العراق ضمان للعراق وفى تأييده الشعب والأحزاب تشترك

وكان العرب قد خرجوا من الحكم التركى الأسود ضعفاء فقراء جهلاء فلم يستطيعوا أن يدافعوا الاستعمار الأوربى عن استقلالهم ووحدتهم ، فقُسمت فلسطين ، ومزقت سورية ، واحتل العراق ، وأصبحت الأمة العربية كلها من جبل طارق إلى خليج فارس حقول استغلال ومناطق نفوذ بين دولتى الإستعمار فرنسا وانجلترا . واقتضت هذه التجزئة أن تنقطع بين العرب الأسباب ، وأن يشق على الإخوة التواصل ، فلم يعد لهم من قوة ولا جمعة إلا الأدب يتعارفون به ويستمدون منه ويجتمعون عليه . ورأى قادة الفكر وصاغة الشعر أن العروبة التى كانوا يرجون لها أن تعود كما كانت شعلة وهاجة فى العالم قد تقطعت بقرار الدول أقباسا كشموع الأطفال لا تقوى على نسم الريح ولا تظهر فى حلك الليل ، فنقلوا جنودهم وجهودهم من صراع الطورانية الجاهلة فى بغى الأتراك الاتحاديين ، إلى كفاح الآرية الجائعة فى جشع السكسونيين واللاتينيين .

فهل استطاع الأدب أن يعقد ما تفكك من العرى ، وأن يجمع ما تفرق من الكلمة ، وأن ينعش ماذوى من الأمل ، وأن يهيىء النفوس للثورة على هذه الحال ؟ ذلك ما سنحاول الجواب عنه فيما يلى .

— ٦ —

كيف تسنى للأدب أن يجمع الشمل ويمهد للثورة

قلت إن الدول المستعمرة الغادرة ، بما أخلفت من وعدها للحسين ، وبما نقضت من عهدها للعرب ، قد وضعت أيديها بعد الحرب العالمية الأولى على ما بقى فى أيدينا من تراث محمد باسم الوصاية أو الحماية أو الانتداب ، فأصبحت مراكش والجزائر وتونس وسورية ولبنان فى يد فرنسا ، ومصر والسودان وفلسطين والعراق والبحرين والكويت وعمان وعدن فى يد انجلترا ، وليبيا بولاياتها الثلاث فى يد إيطاليا . وهذا الملك العربى العظيم كان قد آل إلى الخلافة العثمانية بعد أن سقطت الخلافات العربية الثلاث فى العراق وفى مصر وفى الأندلس ، فما زالت هذه الدول تنقص من أطرافه ولاية بعد ولاية وقطراً بعد قطر حتى أتت عليه كله بمعاهدة لوزان سنة ١٩٣٢ ، فلم يعد لأبناء العروبة بعد هذا التمزق والتفرق من وسيلة يتعارفون بها ، ولا من سبيل يتواصلون عليها غير الأدب . كانت الكتب المصرية والمجلات المصرية تجتاز الحدود المزعومة على الرغم من رقابة المحتل وإرادة المستعمر ، فتدخل المدارس فى كل قطر ، وتقتحم البيوت فى كل مدينة ، حاملة إلى الإخوة الأشتات نبضات الروح العام وومضات المجد المشترك . والأدب صلة الأول بالآخر ، ورباط الماضى بالحاضر ، وتراث الأجداد للأحفاد . وهو أرواح آبائنا وعقول أدبائنا تتدفق فى دمائنا وأعصابنا فتملأنا حياة وقوة وفخراً وأملا وعملا وحرية وعزة .

عرف كل عربى عن طريق الكلمة المكتوبة أن له من وراء الآفاق المحجوبة إخوة يقاسمونه المحنة ويبادلونه العطف ، فقويت نفسه وانتعشت آماله .

وكانت الثورة المصرية الثانية قد زلزلت أقدام المحتل الغاصب وهزت أركان الشرق الأوسط ، فحركت أبناؤها العراق فهب يقول ما قاله زعماء مصر

ويفعل ما فعله أبناء مصر ، ويطلب من الإنجليز المحتلين أن يكشفوا عن بصره الغطاء ليرى ، وأن يرفعوا عن فمه الكمامة لينطق ، وأن يعقدوا مؤتمراً يمثل الشعب العراقى ليقرر نظام الحكم ويختار رئيس الدولة ، فأبى الإنجليز عليه ذلك ، ونفوا من نفوا ، واعتقلوا من اعتقلوا . فثار العراقيون عليهم ثورة الأباة الأعزة بعد أن أفتاهم أئمتهم بالجهاد المسلح ، وغذاهم أدباؤهم بالشعر المثير .

من ذلك قول السيد باقر الشبيبى :

بنى يعرب لا تأمنوا للعدى مكراً　　خذوا حذركم منهم فقد أخذوا الحذرا
يريدون فيكم بالوعود مكيدة　　ويبغون إن حانت بكم فرصة غدرا
فلا يخدعنكم لينهم وتذكروا　　أضاليلهم فى الهند والكذب فى مصرا
ومن مات دون الحق والحق واضح　　إذا لم ينل فخراً فقد ربح العذرا

وقول خيرى الهنداوى من قصيدة يخاطب فيها وطنه :

أنت أذنبت أم بنوك أم　　الظلام شاءوا أن يغصبوك الحقوقا
بيتوا أمرهم ببابل وجاءوك　　جميعا يتلو فريق فريقا
حاولوا لا أبا لهم أن يكون　　الشرق كالعبد مستضاما رقيقا
فنهضنا كالأسد فى أوجه القوم　　لنجتث بغيهم والفسوقا

وانبث الشعراء والخطباء فى الفرات وقراه يؤلبون القبائل ، ويحمسون الكتائب ، حتى رأى الإنجليز أن الثورة جد وأن مقاومتها هزيمة فأذعنوا كعادتهم لسلطان القوة ، واستجابوا على رغمهم لمطالب الأمة ، ووطأوا عرش العراق للملك فيصل فاعتلاه فى أغسطس من سنة ١٩٢١ . واستقر الأمر بعض الاستقرار ؛ ولكن الأدب لم يستقر ، وإنما ظل متبرما بهذا الاحتلال ملحافى طلب

الاستقلال ساخطا على الذين يمكنون للمحتل بالسياسة المذبذبة والقيادة المستسلمة ، يحضرني من ذلك قول الرصافي من قصيدة .

من أين يرجى للعراق تقدم وسبيل ممتلكيه غير سبيله
لاخير في وطن يكون السيف عند جبانه ، والمال عند بخيله
والرأي عند طريده والعلم عند غريبه ، والحكم عند دخيله

وقوله من قصيدة أخرى : يخاطب فيها المرحوم أمين الريحاني .

وإذا تسأل عما هو في بغداد كائن
فهو حكم مشرق الضرع غربي الملابن
وطني الأسم لكن إنجليزي الشناشن
قد ملكنا كل شيء نحن في الظاهر لكن
نحن في الباطن لا نملك تحريكا لساكن

ثم كان هذا النجاح الجزئي الذي ظفرت به الثورة المصرية والثورة العراقية قد شجع سورية على أن تطلب من فرنسا ما تطلبه كل أمة تعرف أن لها وطنا لا يملك أحد غيرها أن يصرف أمره و يقرر مصيره . ولكن الفرنسيين الذين يتبجحون بأنهم أول من ثاروا ليعلنوا حقوق الإنسان أبوا أن يعترفوا للسوريين بأنهم ناس كسائر الناس لهم وطن لا يشركون به ، واستقلال لا يساومون عليه ، وسلطان لا ينزلون عنه فكان من ذلك أن شبت الثورة السورية سنة ١٩٢٥ ولم ينطفيء لظاها إلا بسقوط الانتداب وقيام الجمهورية في سنة ١٩٣٢ .

وكان من الشعراء الذين حملوا الوقود لهذه الثورة شوقي وحافظ في مصر ، والرصافي والزهاوي في العراق ، والغلاييني والحوماني في لبنان ، وطوقان وفتى الجبل في فلسطين ، والشاعر القروي وأبو الفضل الوليد في المهجر .

وهكذا نجح الأدب فى إضرام النار على دول الاستعمار حتى صار لكل قطر من أهله دولة ، ولكل دولة مع أخواتها هدف . والهدف فى هذه المرة كان السعى لجمع ما تبدد من الشمل ، وتوحيد ما تشتت من القوة ، حتى تكون الوحدة التى تحقق الاستقلال وتضمن السيادة .

والوحدة والجماعة هما لباب العقيدة الإسلامية ؛ فالوحدة هى الأساس الذى حمل ، والجماعة هى الصرح الذى قام . كانت الوحدة هى الأساس لأنها توحيد لله وتوحيد للأمة وتوحيد للكلمة وتوحيد للسلطة وتوحيد للقبلة . وكانت الجماعة هى الصرح لأنها جمعة القلوب التى ألف بينها الله ، وجملة الشعوب التى رفع شأنها محمد .

ثم قامت سياسة الإسلام على استدامة القوة بالمحافظة على الوحدة والحرص على الجماعة . فالفرد الذى يكفر بوحدة العقيدة والأمة يقتل . والطائفة التى تبغى على جماعة المسلمين تقاتل . والصلاة إنما يعظم أمرها ويضاعف أجرها إذا أديت فى جماعة . وهذه الجماعة تتكرر خمس مرات فى كل يوم ، ثم تكبر فى صلاة الجمعة كل أسبوع ، ثم تعظم فى صلاة العيدين كل عام ، ثم تضخم فى أداء الحج مرة فى كل عمر . فالوحدة إذن عمل توجبه العقيدة وتقتضيه الطبيعة . ولقد كان للصحافة الأدبية المصرية أعظم الفضل فى تهيئة النفوس لها بالتعريف والتأليف والنصح . كانت تدعو إلى الجامعة العربية لأن التكتل هو الدواء الذى عالجت به الطبيعة ضعف النمل والنحل وكل حيوان كتب عليه أن يعيش فى جماعة . وكانت سياسة الاستعمار تدعو إلى الإقليمية ، لأن التجزؤ يسهل عليه ابتلاع العالم العربى قطعة قطعة . وكان الوطن القومى فى الخمس عشرة سنة الأخيرة قد نضج وقوى فاستجاب للأدب الداعى إلى الوحدة . وتجلت هذه الاستجابة فى المجمع اللغوى ، وفى التعاون الثقافى ، وفى مؤتمر الأطباء ، وفى مؤتمر المحامين

وفى مؤتمر السيدات ، وفى مهرجان أبى العلاء ، وفى بعوث الأقطار العربية فى معاهد مصر العامية ، وفى الدعوات والرحلات ، وفى الكتب والمجلات .

ثم استرخت قيود الاستعمار وأغلاله من جراء الحرب العالمية الثانية ، فقصرت يد فرنسا ، ولانت يد إنجلترا ، وامتدت يد أمريكا ، وهددت يد روسيا . وكان من أثر هذه الظروف المساعدة أن استقلت سورية ولبنان ، وأوشكت أن تستقل مصر والعراق ، ونهضت لتستقل مراكش وتونس . وازداد التضامن والتعاون بين أمم العروبة فأسست حكوماتها جامعة الدول العربية .

وجامعة الدول العربية كانت غاية لوسيلة أدق وأشق ، وستكون بإذن الله وسيلة لجامعة أتم وأعم . وإذا كانت دسائس الاحتلال توهن من قوتها اليوم ، فإن عزائم الاستقلال ستوثق عقدتها غداً .

نسأل الله أن يرفع للشرق رأسه المفكر وهو العرب ، وأن يحفظ للعرب قلبه النابض وهو مصر .

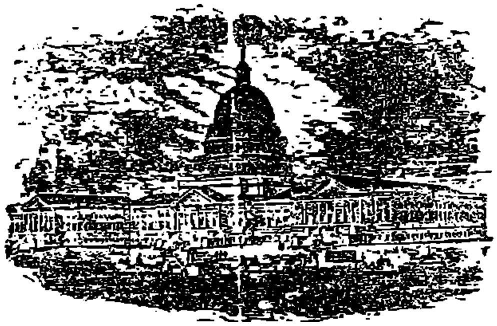

— ٧ —

أهو جوع الروح أم جوع الجسد ؟

كتب إلى مستمع كريم يقول ما معناه : تبين لى من أحاديثك عن الأدب والثورة أن الأدب هو الدافع القوى إلى كل ثورة ، لأن الأدباء بما فطروا عليه من قوة الحس وصفاء النفس يشعرون قبل غيرهم بالنقص ، ويطمحون أكثر من غيرهم إلى الكمال ، وهذا صحيح . ولكن من الصحيح أيضاً أن الجوع أو الخوف منه هو العامل الفعال فى شبوب الثورات القومية ، فكيف نوفق بين هذين الرأيين ؟

وأنا لا أجادل السائل الفاضل فى صحة العامل المادى فى الثورة ، كما أنه لم يجادلنى فى صحة العامل الأدبى فيها ، وأرى أن التوفيق بين القولين سهل . نعم إن بعضاً من فلاسفة التاريخ والاجتماع يحاولون أن يفسروا الحروب والثورات تفسيراً اقتصادياً فيرجعوها جميعاً إلى الجوع أو إلى الخوف منه .. فأما الجوع فهو كافر بالأخلاق والقيم والعواطف والقوانين والأنظمة ، وأما الخوف منه فهو علة ما يصيب الأفراد من الأثرة والشح ، وما يحمل الدول على الاستعمار والتنافس . .

ولقد جرؤ بعض المستشرقين المعاصرين من الروس فزعموا أن دعوة الإسلام كانت ثورة على رأسمالية قريش . وهذا الرأى وأمثاله إنما نشأ من الخلط بين الحيوانية والإنسانية فى بنى آدم ؛ فالإنسان باعتباره حيواناً تتحكم فيه غريزتان : غريزة حفظ الحياة ممثلة فى القوت ، وغريزة حفظ النوع ممثلة فى المرأة . وأسباب الخصومة بين الأفراد والجماعات إنما هى النزاع المستمر على هاتين الوسيلتين . كانت المرأة فى بدء الخليقة هى حواء ، وكان القوت فى حياة الجنة هو الشجرة ،

وكانت الأثرة والطمع والحسد هى إبليس ، وكانت الضحية لهؤلاء جميعاً هى سعادة آدم .

مضى هؤلاء الثلاثة يعملون فى دنيا الأرض ما يشاء القدر ، يخلقون التنافس لتنشط عناصر الحياة ، ويوجدون الخلاف لتتفق عوامل الموت ، حتى قال ابن أبى الحديد شارح نهج البلاغة : « لم تسل السيوف إلا لوجه أصبح من وجه ، ولقمة أسوغ من لقمة » .

على أن اللقمة كانت أشد الثلاثة إيقاداً لنار الخصومة ؛ لأن الفرد أو الشعب يصاب فى حريته فيصبر ، ويؤذى فى كرامته فيستكين ، ويفتن عن عقيدته فيرضى ؛ ولكنه إذا حرم الرغيف انقلب ضارياً كالوحش ، جارفاً كالبركان . وكان الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه يذكر عثمان وعلياً وطلحة والزبير فيقول : « والله ما اقتتلوا إلا على الثريد الأعفر » ويريد بالثريد الأعفر الخبز المفتوت فى مرق اللحم الدسم . وإذا تقصينا أسباب الصراع بين أمم الشرق وأمم الغرب ، أو بين الرأسمالية والاشتراكية ، لا نجد إلا السبب الذى قاله كثير بن شهاب لغلامه وقد طلب منه الطعام يوماً فقال له : ما عندى إلا خبز وبقل : « ويحك ! وهل اقتتلت فارس والروم إلا على الخبز والبقل ؟ » وكل ذلك حق لا نزاع فيه إذا اعتبرنا ابن آدم حيواناً ليس غير ، له معدة وليس له قلب ، وله شهوة وليس له عقل . أما إذا اعتبرناه إنساناً فإنه ينزل من خلق الله فى المنزل الوسط بين البهيم والملاك ، فيكون بماديته مرتبطاً بالأرض ، وبروحيته متصلا بالسماء . وبهاتين الطبيعتين فيه يشارك الحيوان فى رغائب جسده فيثور أو يهدأ تبعاً لما يجد فى حسه ، ويشارك الملاك فى رغائب روحه فيسخط أو يرضى تبعاً لما يجد فى نفسه . وكلما بعد همه وارتفع هواه ربأ بنفسه عن مواطن الذل ، وسما بعزمه إلى معالى الأمور ، فيطمح إلى أبعد من المال ، ويسعى لأكثر

من القوت ، ويغضب لما هو أشد من الفقر ، ويثور لما هو أعظم من الجوع = يطمح إلى العلا ، ويسعى للمجد ، ويغضب للكرامة ، ويثور للحرية والإنسان يظل حيواناً ما دام يكفيه من العيش قضاء شهوته . والرقيق يظل عبداً ما دام يغنيه طعام سيده عن حريته .

ولا خير فيمن كان غاية همه من العيش أن يلقى لبوساً ومطعما

وقد عبر الملك الشاعر الثائر امرؤ القيس عن المطمع الأسمى للنفس الرفيعة ، والمثل الأعلى للحياة الكريمة فقال :

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفانى ولم أطلب قليل من المال

ولكنما أسعى لمجد مؤثل وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

نعم ، لو كان امرؤ القيس قد قنع من حياته بالنصيب الأخس لكفاه سرح من الإبل أو قطيع من المعز ، ولكنه ركب ما ركب من غمرات الهول ، وكابد ما كابد من ويلات الحرب ، ليدرك مجداً غاب ، ويرجع ملكا ذهب .

فالثورة إما أن يبعثها الحس الحيوانى فى الناس وإذن تبدأ بها العامة ، وإما أن يبعثها المعنى الإنسانى فيهم وإذن تبدأ بها الخاصة . وسواء أبدأت بها العامة أم بدأت بها الخاصة ، فإنها تنتهى فى الغالب إلى أن تكون ثورة الفريقين جميعاً . وإن لنا فى ثورتنا الثانية على الاحتلال والاستعباد ، وفى ثورتنا الثالثة على الطغيان والفساد ، أصدق الشواهد على ذلك .

ثارت عامة الشعب على الإنجليز فى سنة ١٩١٩ لأنهم استغلوهم وقتلوهم . سخروا قوات شبابهم وأقوات دوابهم ليمونوا بها الجيوش فى الحرب ، وغصبوا حميرهم وخيولهم وبغالهم ليحملوا عليها عتاد الحرب فهلك من هلك من الأنفس ، وضاع ما ضاع من الأموال ، فتنبه من كانوا غافلين من الفلاحين إلى أن هؤلاء الدخلاء الذين سلبوهم رزقهم وثروتهم ، هم الذين سلبوهم وطنهم وحريتهم ،

فصرحوا لهم بالشر ، وتفجروا عليهم بالغضب ، فقطعوا المواصلات فى الطرق والأنهر ، وقاتلوا الإنجليز فى المدن والقرى .

ثم تلاقت فى هذه الثورة قوة الأدب من أعلى وقوة المادة من أسفل ، فظفرنا بإلغاء الحماية وإعلان الدستور .

ثم ثار الجيش فى سنة ١٩٥٢ على طغيان الملك وفساد الحكم وجور الغنى ، وتبعهم الشعب ، لا لأنه أصيب فى شبانه وأقواته ومواشيه ، ولكن لأن وعيه كان قد نضج ، ورشده كان قد اكتمل ، ومثله كان قد علا ، فرأى أنه أمة من الناس يصدق عليه قول الله تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ثم جرى فى خواطر خاصته معنى الحديث المحمدى المأثور : « كيفما تكونوا يول عليكم » . فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . أنحن من الفجر والفحش والضلال والانحلال والعفن بحيث يتولى أمورنا ملك داعر كهذا الملك ، وحاشية فاجرة كهذه الحاشية ، وحكومة فاسدة كهذه الحكومة ؟ ولكن الأجوبة التى انبعثت همساً من أفواه العامة إلى آذان الخاصة أفهمت الشباب الأحرار من قادة الجيش أن الوطن سليم وإنما المرض فى زعمائه ، وأن الشعب صالح وإنما الفساد فى كبرائه ، فخافوا على مصيره قول الله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » فثاروا على هذه الحال وأخذوا ذاك الملك الخليع وألقوه فى البحر ، وقبضوا على الحاشية الماجنة وطرحوهم فى السجن ، وانتقوا الساسة المريبين فحجزوهم فى المعتقل ، وفرزوا الموظفين الغادرين ورموهم فى الشارع . ثم فتحوا أبواب الصلاح والإصلاح على عهد جديد فيه العزة للوطن ، والكرامة للمواطن ، والعدالة لكل مظلوم ، والرعاية لكل عامل ، والعناية بكل ضعيف ، حتى شعر كل مصرى بأنه ارتفع

إلى مقام الإنسان الكريم الحر ، فأرضه له وحكامه منه وسعيه لنفسه وزمامه بيده .

فالثورتان كما يلاحظ المؤرخ الاجتماعى اختلفتا فى الأسباب المباشرة والوسائل المؤدية والأيدى البادئة على حسب اختلافهما فى البواعث المادية والأدبية ، وفى آثار تلك البواعث فى نفوس العامة والخاصة ، ولكنهما اتفقتا فى النتائج القريبة ، والغايات البعيدة ، والفكرة الجامعة ، على حسب اتفاقهما فى الخير العام والوطن المشترك والغرض الواحد . فإذا قلنا إن ثورتنا بعد الحرب العالمية الأولى كانت لعوامل اقتصادية ساعدتها عوامل أدبية لا نجاوز الحق: وإذا قلنا إن ثورتنا بعد الحرب العالمية الثانية كانت لعوامل أدبية ساعدتها عوامل اقتصادية لا نخالف الواقع . وما يصدق على ثورتينا يصدق على كل ثورة . ومادام ابن آدم خاضعاً فى بعض حالاته لمطالب الجسد وفى بعضها الآخر لمطالب الروح ، فلابد أن تكون بواعث الثورة فيه إما جسدية كالجوع ، وإما روحية كالعبودية . ولم تجدوا ولن تجدوا شراً على الإنسانية من هذين الشرين ، ولا أبعث على العداوة والحرب من هاتين البليتين .

حياتنا الفكرية بعد الثورة

— ١ —

كيف كانت حياتنا الفكرية قبل الثورة

حدثتكم في عام الجلاء الذي انتهى عن أثر الفكر في الثورة ؛ وسأحدثكم في عام الرخاء الذي بدأ عن أثر الثورة في الفكر . وليس الأثر كما تعلمون من طبيعة واحدة . أثر الفكر في الثورة طبيعي مباشر ، كأثر الماء في الإنبات وأثر النار في الإنضاج وأثر النور في الهداية . وأثر الثورة في الفكر تبعي غير مباشر ، كأثر تقسيم الوحدة الصناعية أو تثليث الدورة الزراعية في الرخاء العام . فالشأن في فكر المصلح أو الأديب أن ينبه الغافل إلى أنه حي ، ويشعر الجاهل بأنه إنسان . فإذا أدرك الأفراد يوماً أن لهم حرية تقيد وكرامة تهان وحقوقا تغصب أبوا الانقياد وثار الشعب . والشأن في ثورة الأمة أو الجماعة أن تثور على طغيان ملك أو فساد حكم أو استعلاء طبقة أو عدوان فقر . فهي تعنى أول ما تعنى بإزالة ما ترك الاستبداد والفساد والترف والفاقة في سياسة الدولة وفي حياة الأمة من التخلف والتعسف والتفاوت والبؤس ، ولذلك بدأت الثورة المصرية بعلاج المسائل السياسية والاقتصادية والاجتماعية في وقت واحد . فأقامت نظام الحكم على الأساس الشعبي الثابت ، وعالجت معضلة السودان بالعلاج الناجع الحاسم ، وحلت مشكلة الاحتلال بالجلاء المطلق الناجز ، وكفكفت عادية الأحزاب بالأمر القوي الحازم ، وقوضت صرح الإقطاع بتحديد الملكية العادل ، ثم رفعت قواعد العمل المثمر ، ووسعت دوائر الإنتاج الضخم ، ويسرت الأداة والحياة للعامل والفلاح لأنهما عماد الثروة ، ووفرت العتاد والاستعداد للجيش والشرطة لأنهما عدة الوطن .

كل ذلك وطأته الثورة ورأت أنه أحق بالتقديم وأولى بالتحقيق لأنه النتيجة المحتومة لها والغاية المقصودة منها ، ولأنه النظام الذى سيتسق عليه كل نظام ، والإصلاح الذى سيشتق منه كل إصلاح .

ولقد تساءل رجال الفكر فى الأمة من علماء وأدباء وفنانين : ما نصيب الفكر من هذه الثورة ؟ وأين يقع مكانه من مجلس الإنتاج ؟ ومتى يحين زمانه فى عهد الإنشاء ؟ وكيف يكون حاله فى اطراد هذه النهضة ؟ أيمكن أن يعيش الشعب من غير روح ، وأن يسير الجيش من غير موسيقى ، وأن يثمر العمل من غير علم ، وأن تسمو النفس من غير أدب ، وأن تجمل الحياة من غير فن ، وأن يتقدم الناس من غير مثل ولا غاية ؟

ليس من المعقول أن يغفل القادة شئون الفكر ورجال الفكر ، ولكن سياسة البناء والإنشاء التى بدأت بها الثورة تجعل بطبيعتها الماديات ضرورة وحاجة ، وتجعل أكثر المعنويات كمالا ومتعة . فإذا قام البناء وتم على الوضع الذى تريده نظرت بعد ذلك فى الروح الذى يسكنه ، وفى العقل الذى يدبره ، وفى الذوق الذى يزينه ، وفى الحب الذى يبقيه . وها هى ذى قد أخذت توجه عنايتها إلى التربية والتعليم ، وتبسط رعايتها على الصحافة والمحاماة . وستمد هذه الرعاية وتلك العناية إلى كل عمل من أعمال الفكر وإلى كل فن من فنون الثقافة . وليس من شك فى أن حياتنا الفكرية بعد الثورة ستنهض تبعاً لنهوض حيواتنا الأخرى . ولكن نهوضها إذا ترك لهذه التبعية وحدها سيكون متعثراً بطيئا لا يتفق ولا يتسق مع هذه النهضة الثورية العامة . فلا مناص إذن من أن يضع القادة والمتخصصون لإنهاض الفكر المصرى سياسة محددة الخطة ، معينة الغاية ، لتستطيع أن تجدد العقلية العربية وتؤهلها للتوجيه الروحى والأدبى والعلمى والفنى والاجتماعى الذى يوافق مبادىء الثورة ويطابق حقيقة الإسلام ويلائم طبيعة الشرق ، ولا يتعارض فى الوقت نفسه مع المذاهب السليمة التى تجرى عليها

حضارة الغرب . هذه السياسة الفكرية تحتاج فى درسها ووضعها إلى الآراء التى أنضجها الزمن ومحصها العلم وسددتها التجارب وأفادتها الأخطاء . وعندنا ولله الحمد ثروة مدخرة منها فى رءوس النابغين فى كل فرع من فروع المعرفة . والمهم أن يجد أولو الأمر الطريقة المثلى للانتفاع بهذه الآراء ووضع ما صح منها موضع التنفيذ العاجل لتتساير قوى الأمة كلها فى سبيل واحدة على نظام واحد .

ولم يكن الركود والجمود والفساد والفوضى مقصورة فى العهد القديم على النواحى التى ثار عليها الجيش ؛ ولكنها كانت فى الواقع شائعة فى جميع النواحى وعلى الأخص فى ناحية المدرسة ، فإن المفروض فى المدرسة أن تكون مربى للنشء ومصدراً للثقافة ومنشأ للفكر ، ولكن المدرسة المصرية لا تزال على الوضع الذى أنشأها عليه كاهن الاستعمار الإنجليزى « دنلوب » : تعلم ولا تربى ، وتحفظ ولا تفقه ، وتهيء للشهادة لا للثقافة ، وتخرج للوظيفة لا للحياة .

ولقد حاول المعلمون الذين نشئوا على هذا الأسلوب أن يعدلوا المنهج ويغيروا الطريقة ويرسموا السياسة ، ولكنهم ظلوا أكثر من ثلث قرن يجربون ويفشلون ويبنون ثم يهدمون ، وتتوالى الوزارات ويتعاقب الموظفون فينقض الخلف ما أقامه السلف ، ويخطىء هذا ما استصوبه ذاك ، حتى أصبحت المدارس حقولا للتجارب نجد فيها الخطأ والاضطراب ، ولا نجد الاستقرار ولا الصواب . وكان غرس هذه الحقول التى كابدت هذه الآفات وقاست تلك المتناقضات هو هذا الجيل الذى أنقذته الثورة .

كان هذا الجيل ثمرة من ثمرات الاحتلال نشأه المستعمر أو أذنابه على الرضا بالدون ، فاستكان للذل ، واستنام للظلم ، وتلقى رسالة العلم والدين فلم يعرف كيف يبلغها ، وحمل أمانة الأدب والفن فلم يدر كيف يؤديها . وتولى أمر الإرشاد والتوجيه فى الصحافة والتمثيل فالتبست عليه الوجهة والتوت فى لسانه

اللغة ، واستعصى على قلمه البيان ، فانصرف عن الفصحى إلى العامية ، وتحول من الفن إلى التهريج ، وآثر الثقافة الضحلة على الدراسة العميقة ، واستحب القراءة اللذيذة على القراءة المفيدة . ولولا أن الله يصطفى من كل جيل قوماً يعلمهم الكتاب والحكمة ، ويلهمهم الأدب والفن ، لينفعوا وطنهم بما عُلموا ، ويمتعوا قومهم بما أُلهموا ، لكان حالنا أسوأ من هذه الحال وحاضرنا شراً من هذا الحاضر .

لقد كان من آثار ذلك العهد القديم العقيم أن تمكنت الأمية فى العامة ، وتفشت العامية فى الخاصة . وإذا كانت الأمية كل الجهل فإن العامية بعض العلم ، وبعض العلم كـكل الجهل لا يستقيم عليهما فكر ولا ينتظم بهما عمل .

ومن آفات الحياة الفكرية فى مصر تعدد الثقافات ، فهى شرقية وغربية ؛ والشرقية قديمة وحديثة ودينية ومدنية ، والغربية فرنسية وانجليزية وألمانية وأمريكية . ولكل ثقافة من هذه الثقافات مذاهب وعقائد وتقاليد وأساليب تختلف عن الأخرى . والتعليم الأساسى عندنا ليس من القوة بحيث يجعل من هذه الثقافات المتعددة ثقافة مصرية واحدة ، فيها أثرنا البارز وعليها طابعنا المميز . فإذا أضفنا إلى تعدد الثقافات بتعدد المناهج ، وتنوع العقليات بتنوع الأجناس ، تبينا العلة فى أننا لا نتحد فى مطلب ، ولا نتفق فى شعور ، ولا نجمع على رأى . ومنذ أكثر من نصف قرن قال الإمام الشيخ محمد عبده : اتفق المصريون على ألا يتفقوا .

ومن الحقائق المقررة أن هذا الاختلاف الذى شتت الوحدة وبدد الجهود كان من أقوى العوامل فيما أصاب مصر من تخاذلها فى الشدة ، وتواكلها فى الرخاء ، وضعفها أمام المستعمر والحاكم ، وتخلفها فى طريق الإنشاء والبناء .

والرجاء المعقود بأولى العزم من رجال الثورة أن ينظروا فى حياتنا الفكرية باعتبارها رواسب مما خلفته عهود الظلم والظلام فى نفوس هذا الشعب . ولعلهم أدركوا وهم يعالجون أمورنا العامة بالعلاج الصواب والفهم المحقق أن اختلاف العقلية كان سبب اختلاف الحكامة فيما يجب الاتفاق عليه ولا يجوز الافتراق فيه . « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وإن نفوسنا ستتغير ، وإن عقولنا ستتجدد ، وإن نهضتنا ستبلغ الكمال لا محالة . إن البناء على غير أساس لا يقوم ، وإن الإصلاح بغير إيمان لا يدوم .

هذا إجمال ما كانت عليه الحال فى حياتنا الفكرية . وسأحاول فى الحديث المقبل أن أجمل وصف العلاج لهذه الحال .

— ٢ —

المدرســـة

إذا كانت أصول الحياة المادية تنبت فى الحقل والمصنع ، وأصول الحياة الخلقية تولد فى البيت والبيئة . فإن أصول الحياة الفكرية تنشأ من المدرسة والكتاب . وإذا حرصت الثورة على أن توفر للحقل والمصنع وسائل الإنتاج ، وأن تهيىء للبيت والبيئة عدد التنشئة ، فإنها ستحرص كل الحرص على أن تمهد المدرسة والكتاب سبل التثقيف . ذلك لأن الجهل هو علة العلل فى اضطراب الأسرة وانحطاط البيئة وفساد المجتمع وضعف الرأى العام ، فإذا وفقت الثورة بالفعل فى أن تمحو الأمية وتنسخ الجهالة خف عنها عبء الإصلاح باعتماد كل امرىء على نفسه فى تدبير عيشه من طريق الكفاية فلا يكون فقر ، وفى علاج بدنه من طريق الوقاية فلا يكون مرض ، وفى تهذيب خلقه من طريق الدراية فلا يكون شر . والمدرسة لم تستطع بعد قرن وربع قرن أن تنفى الأمية فى مصر إلا عن نحو ثلاثين فى المائة من الذكور وعشر فى المائة من الإناث. وإذا كانت الوزارة التى سماها الاحتلال الانجليزى وزارة المعارف قد أخفقت فى تأدية رسالتها هذا الاخفاق ، فإن الوزارة التى سمتها الثورة المصرية وزارة التربية والتعليم ستجعل من إخفاقها نجاحا ومن أخطائها عبرة . وهى الآن بسبيل أن تتخذ من التعليم الالزامى حلا حاسما لمشكلة الأمية المزمنة . ولكن ماذا تستطيع الثورة أن تصنع لهؤلاء السبعين فى المائة من الزراع والصناع والعمال والباعة ممن فاتهم فرصة التعليم فى الصغر حتى جاوزوا سن الدراسة وهم سواد الأمة وعماد الدولة وعدة الإنتاج ؟ تستطيع ولا ريب أن تدفع عنهم معرة الجهل بادخال عنصر

الجد فى مدارس محو الأمية ؛ فقد كانت فيما مضى اسما لا معنى له وعبثا لا جدوى منه وادعاء لا دليل عليه . فإذا عمم هذا النظام فى المدن والقرى ، وأخذ القائمون على تنفيذه بالمراقبة والمحاسبة ، وحُشد له العامة عن طريق الإغراء المادى والإكراه غير المباشر ، كأن تفرض للمنتهين والمتفوقين جوائز مالية ، وأن يشرط على طلاب الرخص والعمل الألمام بالقراءة والكتابة ! وإذا تولت وزارة الدفاع تعليم الجنود فى جميع الأسلحة مبادىء المعرفة ، وحملت الحكومة الشركات على أن تجعل الترقية وقفا على العمال القارئين ، رجونا بذلك أن تموت الأمية وأن يحيا الوعى .

كذلك فشلت المدرسة القديمة فى تخريج القارىء الذى يقرأ عن فهم ، والكاتب الذى يكتب عن علم ، والمفكر الذى يفكر عن أصالة ، لأن المنهج المقرر طويل متشعب ، والزمن المقدر قصير موزع ، والفصل المحدد مزدحم مهوش ، والمدرسون مضطرون إلى الإلمام دون التعمق ، والتلاميذ مدفوعون إلى الاختصار دون التوسع . فهم يقنعون من العلم بالقدر الذى ينقلهم من سنة إلى سنة أو من شهادة إلى شهادة . فإذا ما تخرجوا تبخر من رءوسهم ما حفظوه وعادوا كما بدأهم الله أميين لا يقرأون — إذا قرأوا — إلا السهل ، ولا يطلبون هذا السهل إلا فى قصة عامية تخدر الشعور ، أو فى مجلة فكاهية تنبه الغريزة . لذلك كثر التخريج وقل النبوغ ، واتسع التعليم وضاق العلم . وإذا كان فى النية — كما علمت — أن تنشىء وزارة التربية والتعليم مجلسا للإنتاج الفكرى على غرار مجلس الإنتاج الاقتصادى ينظر فى عيوب التعليم الموروثة فيعدل المنهج على النحو الذى يؤدى إلى تخريج المتعلم والعالم والمتأدب والأديب والفنى والفنان ، ويعد المعلم على الطراز الذى يربى الشباب على حب

العلم وإدمان القراءة وطلب الكمال ، ويؤلف الكتاب على الوضع الذى يساعد على تعمق الأصول وتقصى الفروع وتقريب البعيد ، رجونا أن تنهيأ لنا حياة فكرية أرقى ونهضة علمية أوسع . أما تعدد الثقافة وما يجره من تنوع العقلية فعلاجه أن يجرى التعليم الابتدائى والثانوى على منهاج واحد فى المدارس الأجنبية والوطنية ، وفى المعاهد الدينية والمدنية . ثم يختلف فى التعليم العالى بعد أن تكون عقليات النشء قد تكونت على نمط متماثل وإدراك متقارب .

ولعل التعليم الأزهرى هو الذى يفرق بين عقليات الشباب على مدى أوسع من مدى غيره ، لأنه يسلك بالناشىء وهو فى سن الحداثة مسلكا يختلف عن مسلك التعليم المدنى فى المنهج والطريقة والكتاب . وقد اقترحت منذ سنين علاجا لهذه الحال ، أن يلغى التعليم الابتدائى من جميع المعاهد الدينية ليلقى بمقاليده إلى وزارة التربية ، تلزمه وتقسمه وتممه على الوجه الذى تراه . وذلك بدء الوحدة الثقافية بين أبناء الأمة . ثم تجعل المعاهد الدينية فى القاهرة والأقاليم مدارس يدخلها حاملو الشهادة الابتدائية العامة ، وتعلم فيها اللغات والرياضيات والآداب والعلوم على منهج وزارة التربية . وفى أول السنة الثالثة منها يتجه الطلاب اتجاهين على حسب مرادهم واستعدادهم : إما اتجاها إلى الدين وعلومه وإما اتجاها إلى اللغة وعلومها . فإذا انقضت السنوات الدراسية الخمس تقدم طلاب الشعبتين إلى امتحان الشهادة الثانوية مع سائر اخوانهم من جميع المدارس ، يمتحنون معهم فيما يتفقون فيه ، وينفردون انفراد شعب التوجيهية فيما اختصوا به .

ولقد كان من جراء هذا التعليم السطحى الناقص المختلف أن اتجه تفكيرنا اتجاهات متعارضة لا تتساوق ولا تتقابل ، بعضها إلى اليمين ، وبعضها إلى

اليسار ، وأكثرها إلى الخلف . والتقدم على مثل هذه الحال متعذر أو بطيء .
وهذا التعليم نفسه كان العلة فيما كنا عليه قبل الثورة من الضلال والحيرة حين تفرقت السبل وتعدد الأدلاء ، وسار بعضهم وراء السلطان ، وبعضهم وراء الشيطان ، فتنازعوا الزعامة وتجاذبوا الأزمَّة ، فأخرجنا هذا من مذهب إلى مذهب ، وصرفنا ذاك من مطلب إلى مطلب . حتى إذا انكشفت عن عيوننا الغفلة وجدنا أنفسنا بعد الجهد الجاهد ندور حول الموقف الذى بدأنا السير منه ! ذلك لأننا عُنينا بالتعليم قبل التربية ، وبتعليم الابن قبل تعليم البنت ، فكان من أثر هذا الوضع المقلوب أن نبغ فينا رجال لا يقلون فى ضروب الثقافة عن أمثالهم فى الغرب ؛ ولكن خلو المدرسة من المربى القادر الذى يعلم ، وافتقار البيت إلى الأم المثقفة التى تربى ، أضاعا فى المتعلمين ثمرة العلم والنبوغ ، ففاتتهم الكفاية عند التطبيق ، وخانتهم الشجاعة عند العمل ، وفارقهم الضمير عند الواجب . وإن فى إصلاح المدرسة المرجو ، وفى تعديل المنهج المنتظر ، وفى توحيد الثقافة المقترح ، وفى إنشاء مجلس الانتاج الفكرى المعد ، لعلاجاً أدبياً شافياً لأدواء الماضى ، ونظاماً تربوياً صالحاً لبناء مجتمع يكون فيه الدين قائماً والضمير حاكماً والعمل عقيدة والإحسان طبيعة والواجب مرعياً والمسؤولية مفروضة . وحينئذ ينتظم وضعنا الشاذ ، ويتسق وجودنا النافر ، وتموت من الهزال مطايا الرجعية الذميمة .

— ٣ —

اللغـــة

كان حديثى الماضى عن المدرسة فى العهد القديم وسوء أثرها فى حياتنا الفكرية والأدبية ، وعما نرجوه لها فى هذا العهد الجديد السعيد من إصلاح عاجل شامل ينتظم المنهاج والكتاب والمعلم . أما حديثى اليوم فعن اللغة وصلتها بالفكر وخطرها فى النهضة وأثرها فى الوحدة ، فإن الكلام من حولها يكثر ، والرأى فى أمرها يختلف . وما كان لكثرة الكلام عنها داع ولا لاختلاف الرأى فيها موضع ، لولا أن فوضى الأدب فى مصر قد جعلت من اللغة العربية وأدبها مسألة تريد الجواب ومشكلة تطلب الحل . ولهذه المسألة أو المشكلة أصلان .. الاستعمار والجهل .. أما الاستعمار فلأنه رأى أن الرابطة بين المسلمين على اختلاف الأقطار وتباعد الديار هى الدين واللغة . وما دامت أمة محمد روحا واحدا بالإسلام ، ولسانا واحدا بالعربية ، فإن استغلالها موقوت وإن طال ، وإن استقلالها آت وإن تأخر .

لذلك سعت فرنسا سعيها الدائب فى الجزائر ، لفتنة البربر عن دينهم بإصدار الظهير المعروف ، وقطع العرب عن لغتهم بطردها من المدارس والدواوين ؛ ولكن دين الله كان أقوى من ظهير فرنسا ، ولغة المصحف كانت أبقى من لغة السيف .

واكتفت إنجلترا على عادتها من الدهاء والكياسة بمحاربة الفصحى فدعت إلى العامية بلسان موظفيها ومبشريها ومستشرقيها ، لأن اللغات العامية تختلف فى البلاد العربية اختلافا شديدا يكاد يجعل كل لهجة منها لغة مستقلة . وإذا انهزمت أمامها اللغة المشتركة وهى الفصحى استحال

التفاهم وضعفت العقيدة وانقطعت الصلة وتفرقت الوحدة وتبددت القوة واستطاع المستعمر أن يبتلعها قطعة قطعة ، ولكن هذه الدعوة فشلت بضعف الاستعمار فى الشرق وقوة الوعى فى العرب .

وأما الجهل وهو الأصل الآخر لمشكلة اللغة العربية فقد خلف الاستعمار فى هذه الدعوة المجرمة .

والمراد بالجهل جهل أبناء العربية بها ، وعزوفهم عن علومها وأدبها . وهو جناية المدرسة القديمة ، فقد فشلت كما قلت فى تخريج القارىء الذى يقرأ عن فهم ، والكاتب الذى يكتب عن علم ، والمفكر الذى يفكر عن أصالة . وليس أدل على هذا الفشل من أن الطالب يتعلم النحو عشر سنين دأبا ، ثم لا يستطيع بعد ذلك أن يعبر عن فكره تعبيرا صحيحاً لا بلسانه ولا بقلمه . فإذا دفعه استعداده الأدبى إلى الكتابة آثر العامية على الفصحى ، ودعا إلى التحلل من القواعد والقيود ليجعل الفوضى نظاما والخطأ مذهباً والعجز شركة . وعلة هذا الفشل هى النحو نفسه ، فإن فيه من التناقض والشذوذ وتعدد الأوجه وتباين المذاهب ما ينفر الطلاب منه .

والذين صبغوه بهذه الصبغة هم الرواة الذين رادوا البوادى وشافهوا الأعراب ، ودونوا كل ماسمعوه ، فاجتمع لهم بذلك المترادفات والاضداد وتعدد الجموع والصيغ للفظ . واختلاف النطق للكلمة . وكان النحاة مضطرين إلى أن يعطوا قواعدهم لتشمل هذه اللحون وتستوعب تلك اللهجات ، فأغرقوا القواعد فى الشاذ ، وأفسدوا الأحكام بالاستثناء ، حتى ندر أن تستقيم لهم قاعدة أو يطرد عندهم قياس . وزاد فى هذه البلبلة أن أعاجم النحاة أسرفوا فى التعليلات والتقديرات حتى جعلوا النحو

والصرف ضربا من الرياضة الذهنية والقضايا الجدلية التى لايصلها باللغة سبب ، ولا يقوم عليها فن ولا أدب . فإذا كان القائمون على اللغة العربيــة بوزارة التربية والتعليم ينظرون فى النحو والصرف على أنهما قواعد للغة واحدة ولهجة واحدة ، فيقتصر منهــا على القواعد الثابتة التى تحفظ هــذه اللغة وتقوّم تلك اللهجة ، على شرط ألا تجرد علوم العربية من خصائص القوة والخصوبة والبراعة ، وألا تُجعل بالاختصار أشبه بالهيكل العظمى ، فيه الخفة والبساطة والشكل ، وليس فيه العضل والعصب والروح . وإذا كانوا يعيدون النظر فى علوم البلاغة بعــد أن اختلفت مذاهب القول ، وتعددت أغراض الــكتابة ، واستحدثت المقالة والقصة والرواية ، فيصلح منها الفاسد ، ويكمل الناقص ، ويفصل المجمل ، لتتسع لأغراض الحياة ومقتضيات الحضارة ومطالب العصر ، وإذا يسرت الحــكومة لمجمع اللغة العربية الوسائل لنشر ما وضع من مصطلحات لتوسيع اللغة ، وتنفيذ ما اتخذ من قرارات لتيسير النحو ، رجونا أن تسفر جهود الثورة عن إصلاح لغوى كامل شامل يحبب اللغة إلى الطلاب ، ويسهل الــكتابة على الــكتاب ، وينفى عن الشباب معرة الجهل بلغتهم وأدبهم فلا يدعون إلى اللغة العامية ، ولا يتمردون على الآداب العربية . وليس من شك فى أن قادة الثورة الذين يتزعمون اليوم نهضة العروبة ووحدة الإسلام سيولون هذا الإصلاح اللغوى مايستحقه من الجد والجهد والعناية ؛ لأنهم يعلمون علم اليقين أن اللغــة الفصحى هى عمــاد الثقافة الإسلامية ورباط الجامعة العربية ، وأن أدبها هو التراث الروحى المشترك الذى يثور فى دمائنا لننهض ، ويصرخ فى آذاننا لنتحد ، ويشتد فى حدائنا لنلحق . .

وفى اعتقادى أن أصل الأصول فى الإصــلاح اللغوى أن تصلح

الطريقة التي تعلم بها اللغة فإنها لاتزال تعلم باعتبارها ألفاظا مفردة وقواعد مجردة لاتتصل بالعقل ولا بالنفس ولا بالحياة . وكان الطريق الأمثل أن تعلم على أنها الوسيط الذي تتمثل فيه الأفكار والآراء ، فنحن لانفكر إلا بلفظ ، ولا نلفظ إلا بفكر . والتلميذ منذ الحداثة يسمع الفكر باللغة ويقرؤه باللغة ويبرزه باللغة . فالتلازم بينهما شديد والتفاعل بينهما ظاهر وهذا هو الفرق بين لغة نتكلمها منذ الصغر ، ولغة نتعلمها في الكبر . فالعربي إذا تعلم الفرنسية مثلا وأراد أن يعبر بها فكر أولا بلغته الأصيلة ، ثم ترجم فكره إلى اللغه الدخيلة .

وهذا يوجب على المعلمين أن يصلوا فكر الناشىء بالفصحى في جميع أطوار عمره المدرسي ، فيسمع بها دروسه في كل مايتعلم ، ويؤدي بها أفكاره في كل مايكتب . ثم ينشأ للطفل أدب قائم بذاته يتألف من الحكايات والأساطير المنتزعة من أدب الشعب ، تيسر عليه اللغة وتحبب إليه القراءة وتضيق في ذهنه الفرق بين لغة الكتابة ولغة الحديث . ثم يستعان على تقويم لسانه وتقوية ملكته بالأناشيد القصيرة الموقعة ، والمسرحيات البسيطة المنوعة . فإذا بلغ طور المراهقة وكان قد نشأ في هذا الجو الجميل من القصص والشعر والغناء والتمثيل ، طلب المزيد من ذلك في دروس الأدب ، فتحلل له أبلغ الروائع ليذوق ، وتشرح له أجمل النماذج ليحفظ ، وتختار له أمتع الكتب ليقرأ ، حتى إذا تخرج وجد القراءة قد أصبحت من عادته فلا يكف عن الاطلاع ، والكتابة قد صارت من طبائعه فلا يضيق بالإنتاج . وبذلك يكون تعليم اللغة على هذا الوجه قد أحدث آثاره الثلاثة : أثره العقلي بربط الفكر باللغة ، وأثره النفسي ببعث اللذة من تذوق الأدب ، وأثره العملي في

خلق القدرة على القراءة والكتابة . وإذا استطاع الشاب بعد المدرسة أن يقرأ فيفهم ويكتب فيحسن ويفكر فيصيب استطاع أن يجد السبيل إلى كل علم والدليل إلى كل غاية .

أما تعليم الفصحى بالعامية وتحفيظ القواعد ليقرأ بها الطالب كتاب المطالعة دون أى كتاب ، ويكتب بها موضوع الإنشاء دون أى موضوع ، وتدريس الأدب على أنه سجل ولادات ووفيات ، وديوان حوادث وروايات ، فذلك هو الذى كره الدارسين فى اللغة ، وزهد الناشئين فى الأدب ، وصرف أدباء الشباب إلى الآداب الأوربية . فالمتفرنسون مثلا يحفظون هوجو ولا يحفظون المتنبى ، ويدرسون فلتير ولا يدرسون الجاحظ ، ويقرأون لا مرتين ولا يقرأون البديع . ومن هنا نشأت هذه التبعية المعيبة التى فرضت على أدبنا لآداب الغرب . فأساليب الكتابة اليوم هى أساليب الكتابة فى الغرب ، ومذاهب الأدب عندنا هى مذاهب الأدب فى الغرب ، حتى الرمزية بنت الأفق الغائم والنفس المعقدة واللسان المغمغم ، يريدون أن تتبناها العربية بنت الصحراء المكشوفة والشمس المشرقة والطبع الصريح ، وحتى الوجودية وليدة الخلق المنحل والذوق المنحرف والغريزة الحرة ، يحاولون أن تتقبلها العربية لغة الرسالة الآلهية التى كرمت الإنسان وفضلته على سائر الحيوان بحدود من الدين والخلق لا يتعداها وهو عاقل ، ولا يتحداها وهو مؤمن .

إن الثورة التى هزمت الفساد وقهرت الاستبداد وحررت الوطن جديرة بأن تكفل الإصلاح للتعليم ، والاستقلال للأدب ، والحرية للفكر ، والحماية للفصحى ، لتسير الأمة صحيحة الجسد والروح ، قوية الذات والمعنى ، متحدة الرأى والهوى ، إلى ما نرجوه لها من سلطان وعمران وعزة .

— ٤ —

التأليف والترجمة

مظاهر الحياة الفكرية فى مصر هى التأليف والترجمة ، والصحافة والإذاعة ، والتمثيل والسينما . وسألم بكل منها المامة تكشف عما لنا فيها من صلاح ، وعما لها علينا من إصلاح . وليس من شك فى أن أقوى المظاهر الفكرية فى حياة الأمة العقلية هو تأليف الكتاب . لأن التأليف يستلزم الروية والدرس ، ويستهدف البقاء والخلود . وعمل المؤلف العالم أشبه الأشياء بعمل النحل : تنتقل بين الرياض والحقول فترشف الرحيق من كل زهرة وثمرة ، ثم تخرجه شرابا مختلف الألوان فيه غذاء للجسم وشفاء للنفس . . . والكتاب المؤلف مقياس دقيق لحال الأمة من العلم والثقافة : فهو بتحقيقه وعمقه وتقصيه وأصالته يدل على علم المؤلف . وهو بموضوعه ووزنه وطبيعته ومقدار انتشاره يدل على ثقافة القارىء . فإذا اتخذنا هذا المقياس العام لنكشف به الحياة الفكرية التى نحياها اليوم ساءنا الكشف وطامنت من كبر يائنا النتيجة .

ذلك لأن الإحصاء الرسمى يشهد بأن ما نشر فى سنة ١٩٥٣ من الكتب فى الآدب والعلوم والطب والهندسة والاجتماع والتاريخ والدين والتصوف والتربية وعلم النفس والفلسفة والمنطق والقانون والسياسة والحرب والفنون والصناعات والزراعة واللغة والإقتصاد والمعارف العامة لا يتجاوز عدده أربعمائة وثلاثة عشر كتابا ، ثلاثة أرباعها فى الأدب والدين والتصوف والقانون والتاريخ والاقتصاد والاجتماع ، والربع الباقى فى المواد الأخرى . ومن هذا العدد التوافه التى لا تحسب ، والمختصرات التى لا تغنى ، والقصص التى لا تعيش . فإذا نخلناه سقط أكثره من العيون فلا يبقى إلا نحو المئة . ومن هذه المئة المختارة ما ألف من قبل وأعيد طبعه فى تلك السنة . ومنها ما ألف للتلاميذ

والطلاب على نحو معين ومنهج مقرر . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الناشر يطبع من الكتاب ألفين أو ثلاثة ، وأن هذا المطبوع لا ينفد إلا في عامين أو ثلاثة ، وأن المؤلف يؤلف لخمسين مليونا من العرب في مصر وفي الأقطار الأخرى ، أدركنا انخفاض المستوى لحياتنا الفكرية إلى درك لا يطمئن عليه المصلح ، وقلة الغذاء للعقل كقلة الغذاء للجسم لها أثرها السيء في فتور النشاط وقلة النتاج وبطء التقدم . والعلة في ضعف التأليف وقلته هي القارىء العربي وحده ، فإن الصلة التي بين المؤلف والقارىء هي الصلة التي بين المنتج والمستهلك ، يحددها أو يوهنها قانون العرض والطلب . فالقراء بمقتضى أحوالهم من القلة والكثرة والسطحية والعمق والزهد والرغبة ، يؤثرون في إنتاج المؤلفين تأثيرا يتناول الكم والكيف . فإذا كان القارىء من العلم والفهم بحيث يطلب الكتاب الوزين والموضوع الجد والأسلوب البارع ، أمكنه المؤلف من طلبه وأدناه من مناله باستنفاد الجهد واستقصاء الوسائل . وإذا كان منهما بحيث يفضل اللذيذ على المفيد والسهل على الصعب والمختصر على المطول ، تقاصر المؤلف وتصاغر حتى ينزل إلى مكانه ويصل يده بمبتغاه . فإن المؤلف يريد أن يعيش فهو لا يؤلف إلا ما يقوت ، وإن الناشر يريد أن يربح فهو لا ينشر إلا ما يروج . وما دام التأليف متروكا أمره لحاجة المؤلف المتساهل ورضا القارىء الجاهل وهوى الناشر المنتفع ، فإن المكتبة العربية لن تظفر بما يكمل نقصها من جديد العلم وطريف الثقافة . إذن لا مناص من تدخل الإدارة العامة للثقافة في وزارة التربية والتعليم وفي الأمانة العامة للجامعة العربية . وتدخلهما في شأن الكتاب من التنقيب عنه والمكافأة عليه والدعوة إليه أقوى الأركان التي تقومان عليها . ولقد كان لهما في عهود الوعود والأضاليل بعض النشاط ، ولكنه ما لبث أن خمد . فبدأوا كتبا ثم وقفوا بها دون النهاية ، واقترحوا أمورا ثم اكتفوا منها بالدعاية .

والرجاء فى قادة هذا العهد أن يهيئوا الأسباب لظهور الكتاب القيم ، فيشجعوا القادرين على وضعه ، ويساعدوا الناشرين على طبعه ، ويرفعوا القيود الجمركية عن تصديره ، ثم يعدوا العدة لتأليف دائرة المعارف العربية ، فإن من المآخذ التى يضيق عنها العذر أن تكون لكل أمة من الأمم الكبيرة والصغيرة موسوعات لأشتات العلوم ولا يكون لمصر موسوعة واحدة ، ولقد حاول البستانى ووجدى عليهما رحمة الله أن يصنف كل منهما دائرة معارف يدرأ بها معرة العجز عن علماء العرب فمات الأول قبل أن يتم ، وأتم الآخر قبل أن يموت . ولكن دائرة المعارف بحكم تأليفها وطبيعة موضوعها واعتبار الغرض منها ووجوب الثقة بها تقتضى التضلع والتخصص والإحاطة . فلا يمكن أن يستقل بعملها فرد .

على أن الأمة وهى فى طور الانبعاث والنهوض تكون أحوج إلى الترجمة منها إلى التأليف . كذلك فعل العرب فى عصر الرشيد ، وكذلك فعل الفرنج فى عصر الإحياء والتجديد . والناظر فى سجل الإحصاء الرسمى لما ترجم فى عام ١٩٥٣ من الكتب الأجنبية فى شتى العلوم والفنون يجده أربعة وخمسين كتابا أكثرها سيء الترجمة قليل القيمة . وهذا على علاته لا يجدد أدبا ولا يزيد علما ولا يوسع ثقافة . والواقع الذى لا نزاع فيه أن أدبنا لا يزال ناقص الخلق بطيء الشباب لأنه أنكر قديمه وجهل جديد الناس ، فلم يغذه ماض ولم ينمه حاضر . ولقد كان أدبنا القديم فى حدود مراميه اللسان العام لخوالج النفس الإنسانية فى أكثر بقاع الأرض ، فلم تكن هناك فكرة تجول فى ذهن كاتب ، ولا صورة تتمثل فى خاطر شاعر ، إلا وجدت فى هذا المحيط صدفة تستقر فيها . فلما تحولت عن مذاهبه الأنهار ، وجفت على جوانبه الروافد ، عاد كالبحيرة المحدودة لا يمدها إلا قطرات المطر ودفعات السيل حينا بعد حين . فالقارىء

العربي الحديث لا يجد فيما أثر مده ولا أكثر ما استجد فيه غذاء عقله ولارضاء شعوره ، لأن المأثور منه ناقص لانقطاعه عن سير المدنية ، والجديد منه ناقص لخلوه من الآداب الأجنبية . والغريب المخجل أن المرء يقرأ أي نابغة من نوابغ العالم في أي لغة من لغات التمدن إلا في اللغة العربية ! حتى التركي مثلا يستطيع أن يقرأ في لغته هوجو كله وشكسبير كله وجيته كله ، ولكن العربي لا يجد في لغته لهؤلاء العباقرة العالميين إلا بضعة كتب اختارها المترجم على ذوقه ونشرها على حسابه . فإذا أردنا لأدبنا أن يتسع في حاضره كما اتسع في ماضيه فليس لنا اليوم غير سبيل الأمس : نرفده بآداب الأمم الأوربية ، ونصله بتيار الأفكار الحديثة ؛ فإن لكل أمة مزايا ولكل بيئة خصائص . ولن يكون أدبنا عالميا ما لم يلقح بآداب العالم . والمحاكاة والاحتذاء من أقوى العوامل أثرا في الأدب . وما قلناه في الأدب نقوله أيضاً في العلم والفن . فإن ما في العربية منهما لا يعدو في الغالب أن يكون ملخصات مجهولة النسب ومقتبسات قليلة الغناء إذا نفعت أحدا فإنما تنفع طلاب المدارس .. أما الشعب الظامىء إلى المعرفة فلا يجد بين يديه من أمهات الكتب العلمية والفنية ما ينقع غليله و يسد عوزه :

إن العلوم اليوم أوربية وأمريكية ما في ذلك شك . وإن الفروق التي باعدت بين الشرق والغرب في مدلول الإنسانية الراقية إنما يجمعها كلها لفظ العلم . وهذا العلم الذي سخر السموات والأرض للانسان الضعيف ، وذلل القطعان الملايين للراعي الفرد ، سيبقى غريباً عنا مالم ننقله إلى ملكنا بالتعريب ونعممه في شعبنا بالنشر . ولا يمكن أن يصلنا به او يدنينا منه كثرة المدارس ولا وفرة الطلاب ، فإن من المحال أن ننقل الأمة كلها إلى العلم عن طريق المدرسة ، ولكن من الممكن أن ننقل العلم كله إلى الأمة عن طريق الترجمة .

فالترجمة إذن هى الوسيلة الأولى لدفع القصور عن اللغة ، وسد النقص فى الأدب، وكشف الظلام عن الأمة . وإذا نقلنا إلى العربية نتائج القرائح لأقطاب العلوم والفنون والآداب من الأوربيين والأمريكيين أصبح هؤلاء العالميون جزءا من كياننا الأدبى وركنا فى بنائنا العلمى نعتز به ونستمد منه ونفتن فيه ونزيد عليه . لذلك أقترح على بناة مجتمعنا الجديد أن ينشئوا دارا للترجمة يكون لها من جلال القدر واستقلال الأمر ما لإحدى الجامعات ؛ ثم يختار لها مائتان على الأقل من المترجمين النابغين فى لغتهم وفى اللغات الأوربية الثلاث ينقلون الروائع الأجنبية نقلا كاملا صحيحا ، فلا يدعون علما من أعلام الأدب والعلم والفن والفلسفة إلا نقلوا مؤلفاته ونشروها على حسب ترتيبها فى طبعاتها الأصلية . فإذا ما فرغوا من ترجمة الموجود فرغوا لترجمة المستجد ، فلا يكون بين ظهور الكتاب فى أوربا وأمريكا وظهوره فى مصر إلا ريثما يترجم هنا ويطبع .

وإن ما ينفق فى سبيل هذا العمل العظيم من المال قليل مهما يكثر فى جانب ما يؤتيه من تطعيم الأدب وتعريب العلم وتعميم الثقافة وتدعيم النهضة . وفى تحقيق منفعة واحدة من هؤلاء تخليد لذكرى من قام بهذا العمل أو شارك فيه أو أعان عليه ، فما بالكم إذا حقق هذه المنافع جميعا ؟ .

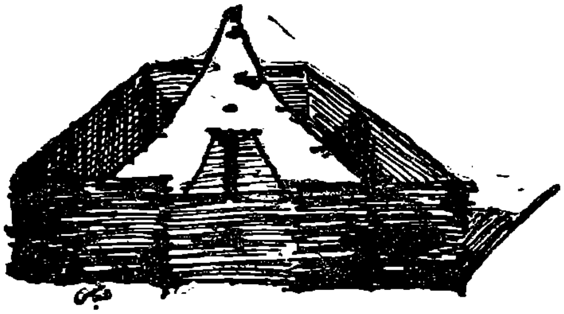

— ٥ —

واجب الفكر على الثورة

تبين من هذه الأحاديث أن حياتنا الفكرية كانت كسائر الحيوات الأخرى قبيل الثورة واقفة لا تسير، فإن سارت فإلى غير اتجاه، وإن اتجهت فإلى غير غاية. وعللت ذلك الركود أو الشرود بقعود الحكومة عن تغذية الفكر، وفشل المدرسة في محو الأمية، وقصور التعليم عن نشر الثقافة. ورجوت أن تنشط هذه الحياة بعد الثورة تأثرا بالنشاط الشامل، واستجابة للنهضة العامة. فإذا أبطأ هذا النشاط الفكرى قليلا فذلك لأن الثورة وإن قامت على المعنويات لا يظهر أثرها الأول إلا في الماديات، فلا بد أن تبدأ بإصلاح أداة الحكم، وتقوية وسائل الإنتاج، وتنمية موارد الرزق، ثم تفرغ بعد ذلك لإنعاش العقل بالعلم، وإذكاء الروح بالأدب، وإنهاض الشعب بالثقافة.

وهناك سبب طبيعى آخر للركود المؤقت الذى يعترى الأفكار عند حدوث الثورة، هو أن الثورة تغير مفاجىء للنظام الذى تحكم به الدولة، وللوضع الذى يقوم عليه المجتمع، وللطريق الذى تسير فيه الأمة. فإذا ما فجئت الناس وهم يعملون لحياتهم على ما ألفوا كان لابد للسائر أن يقف انتظارا لتوجيه القيادة، وللمفكر أن ينتظر استبانة لخطة الإصلاح، وهذه هى فترة الركود. كذلك كان الحال في جميع الثورات الكبرى التى قلبت وجهة العالم وغيرت وجه التاريخ. فالدعوة الإسلامية مثلا وهى أعظم ثورة فى تاريخ الإنسان قد نشأ عنها خمود مؤقت فى الحياة الفكرية التى كان يحياها العرب فى الجاهلية؛ لأن الإسلام قلب العقلية العربية قلبا، وشن على الحياة الجاهلية حربا، ورسم للعرب مثلا أعلى يخالف ما ألفوه ويناقض ما عرفوه. وهذا التغير فى العقلية يستلزم حتما تغير ما يصدر عنها من فكر وتصور وقول؛ فالشاعر الذى كان

يستلهم شيطانه قصائد الفخر والهجاء ، والخطيب الذي كان يستقطر من لسانه سموم العداوة والبغضاء ، والفارس الذي كان يرتع ليله ونهاره في الدماء والأشلاء ، والرئيس الذي كان يعيش على امتياز الرؤساء ، والغني الذي كان يتجر ويثرى بدماء الفقراء ، وقف هؤلاء جميعاً صامتين منصتين لدعوة الإسلام ، لا يقولون ولا يفعلون إلا ما يأمر به الله أو يقره الرسول . فلما سكنت فورة الفتوح وفعل الإسلام فعله وأحدث التطهير أثره شغلت الدعوة الفكر فسمت الروح ونضج العقل واتسع الفهم وتقدم العلم وظهر أثر ذلك جلياً في أقضية عمر وأحكام علي وفتاوى ابن عباس وآراء ابن مسعود وآداب بني أمية . وكان ذلك كله نواة للعلوم الشرعية والفنون الأدبية والحضارة الإسلامية التي طبقت الأرض ومهدت لرقي الإنسان الحديث .

على هذه السنة الطبيعية سارت الثورة المصرية فبدأت بالتحرير والتطهير والإصلاح ، ثم ثنت بالتحضير والتعمير والإنتاج . وها هي ذي تتجه اليوم إلى التربية والتعليم والتثقيف اتجاهاً ثورياً لا يعرف التردد ولا التلكؤ ولا الهوادة . فهي تبحث المناهج وتفحص الكتب وتنشىء المدارس وتصلح الأنظمة وتعد المعلمين وتعمل لإقرار الحياة الفكرية على قواعد ثابتة وأصول منتجة . ثم رأت أن تتصل مباشرة بالفكر العام تغذيه وتهديه وتعاونه ، فاعتزمت نقل الروائع الفكرية العالمية من أدب وعلم وفن وفلسفة . وفكرت في إنشاء مجلس أعلى للعلوم والآداب والفنون ، يرسم الخطة ويوجه النهضة ويعالج العلة التي سببت ضعف الأدب وقللت من انتشاره . وسيرى هذا المجلس حين يخلق أن محنة الأدب والفكر بوجه عام أن الأدباء والمفكرين ينتج بعضهم لبعض ، فهم الذين يكتبون ، وهم الذين يقرأون . أما الخاصة فلجهالتهم لا يفهمون الأدب ،

والعامة لأميتهم لا يعرفون الكتاب . وإذا حرم الأدب تشجيع الخاصة لا يزدهر ، وإذا لم ينل إقبال العامة لا ينتشر ، وإذا لم يكن ضرورة لهؤلاء وأولئك لا يتنوع . وعلاج ذلك أن يشتمل برنامج المجلس الأعلى للانتاج الفكرى على المكافآت والجوائز تعويضاً للأدب من تعضيد الجمهور . والجوائز فوق ذلك تحفز القرائح للعمل ، وتضمن الإجادة بالتنافس ، وترفع المستوى بانتخاب الأجود . وبضعة آلاف من الجنيهات تنفق الخزانة العامة أضعافها فى تمهيد طريق أو تشييد دار تخلق فى الأمة أدباء عالميين ، وتجمع لها من الأدب الصحيح والعلم النافع ثروة .

بقى أن نقول إن السادة الكتاب يختلفون فى أى أنواع المعرفة نبدأ الترجمة . أنبدأ بالروائع الأدبية ، لأن أدبنا ناقص لم يكتمل ، وفننا مضطرب لم يستقر ، وذوقنا منحرف لم يستقم ؛ وفى تطعيم أدبنا بالآداب العالمية التى أخصبها العلم وهذبها الفن ونوعها التطور وصقلتها الحضارة تقوية لأدبنا فى التصور وتجديد لأسلوبنا فى التصوير وإرهاف لحسنا فى الإدراك . وأقل ما نستفيده من ذلك مشاركة أدبنا العالم المتمدين فى فهمه للحياة وشعوره بالجمال وطموحه إلى الأفضل. والأدب للانسان كالأجنحة للملاك ينقله من كثافة المادة فى الأرض إلى لطافة الروح فى السماء ؟ أم نبدأ بترجمة الروائع العلمية ، لأن الفروق التى باعدت بين الشرق والغرب فى مدلول الإنسانية الراقية يجمعها كلها لفظ العلم ، ولأن أعداءنا الثلاثة وهى الجهل والفقر والمرض لا يدفعها عنا ديوان شعر ولا مجموعة قصص ولا كتاب فلسفة ، وإنما يدفعها عنا العلم الذى يعرفنا كيف نستخدم الآلة ونستغل الأرض ونحفظ الجسد ؟

وأنا حين اقترحت فى (الرسالة) ثم فى الإذاعة إنشاء دار للترجمة تنقل الروائع العالمية إلى اللغة العربية لم أفضل نوعاً على نوع ، ولم أقدم إنتاجا على إنتاج ، وإنما طلبت أن تنقل المعارف الأجنبية نقلا كاملا صحيحاً فلا يترك علم من أعلام الأدب والعلم والفن والفلسفة والاجتماع إلا نقلت كتبه

ونشرت على حسب ترتيبها وتبويبها فى طبعاتها الأصلية . فإذا فرغ المترجمون من نقل الموجود فرغوا لنقل المستجد ، فلا يكون بين ظهور الكتاب فى أوربا وأمريكا وبين ظهوره فى مصر إلا ريثما يترجم ويطبع . طلبت ذلك وأنا موقن بأن العمل سيسير فى كل أولئك جميعا ، لأنى لم أطلب ذلك من حكومة تجرى على النهج القديم من مسايرة الروتين ومشاورة اللجان ومماطلة الحوافز حتى يتراخى الزمن ويفتر العزم وينتهى كل شيء إلى لا شيء . إنما طلبته من ثورة تصنع المعجزات ، ولا تعرف معنى للعقبات والصعوبات . وإن العزيمة التى تشق شارعا فى أيام ، وتبنى مدينة فى أشهر ، وتنشئ مديرية فى عام ، لا يشق عليها أن تؤسس مكتبة عالمية فى خمسة أعوام . وخير الطرق وأقربها إلى إرضاء العلميين الذين يؤثرون العقل ، والأدبيين الذين يؤثرون الروح ، أن يقوم بهذا العمل الخطير فريقان : فريق يتعاون على روائع الإنتاج الأدبى الذى سبر أغوار النفس وكشف أسرار الحياة فيترجم ويراجع ويحقق ، وفريق يتوفر على روائع الإنتاج العلمى الذى أحدث ثورة فى الفكر وأضاف ثروة إلى العلم ، فينقل ويفسر ويعلق . والثورة من وراء الفريقين تضمن التنظيم المثمر والتنفيذ السريع . وليس لهذا العمل غاية يقف عند بلوغها ، ولا مدة ينقضى بانقضائها ، وإنما هو عمل الدهر وتراث الأعقاب يستمر باستمرار التأليف ، ويتجدد بتجدد العلم ، وما لا يترجم اليوم يترجم غدا . والمهم دخول الثورة فى الفكرة ، واتخاذ الأهبة للعمل . والمشروع فى الواقع متى ينفذ يكن فاتحة عهد عظيم يعم نفعه مصر والعرب والشرق بل العالم بأسره ؛ لأن ثمرات المطابع كثمرات المصانع سلع عالمية ينتجها الجهد الإنسانى المشترك. فمن الخير للانسانية والمدنية أن تتبادلها الأمم فى مختلف أقطار الأرض ، لتقرب بين الناس فى طرق التفكير والتعبير ، وفى طبائع الأذواق والأخلاق ، وفى وسائل التعبير والإنشاء . وبهذا التقريب يحسن التفاهم . وحسن التفاهم بين أفراد الخليقة كحسن التفاهم بين أفراد الأسرة ، سبيل إلى التواصى بعمل الخير والتعاون على حفظ السلام .

— ٦ —

الصحافة والإذاعة

كان الفكر في العصور المواضي لا يجد متنفسا ولا مفيضا إلا في الكتاب والمجلس . أما هو في هذا العصر فقد وجد فيهما ، وفي أنهار الصحف ، وعلى أمواج الأثير ، وفي دور التمثيل والعرض ، من وسائل الشيوع والذيوع ما لا غاية بعده .

وأقوى هذه الوسائل وأعمها الإذاعة ، وعلى الأخص في الأمم الأمية ! لأنها تنقل الفكر إلى الذهن عن طريق السمع ، فيستوي لديها الأمي والقارىء ، والعامي والمثقف ، والضرير والمبصر ، والبعيد والقريب ، والبادي والحاضر ، والمنقطع من العمران والمتصل به . والصحافة تلي الإذاعة في ذلك ولا تجاريها ؛ لأن انتقال الفكر عن طريقها مقيد بإحسان القراءة . والقراءة في الأمم الجاهلة لا تتهيأ لأكثر الناس . لذلك كان رواج الصحافة رهنا برواج الثقافة . فكلما انتشرت المدارس انتشرت الصحف ؛ فهي في العاصمة أذيع منها في الأقاليم ، وفي المدن أروج منها في القرى . فحالها أشبه بحال الكتاب يروج مع العلم ويكسد مع الجهل ، وليست كذلك الإذاعة . ومن هنا كانت الدعاية والهداية والتثقيف والترفيه عن طريقها أتم وأعم وأقوى وأقرب .

والإذاعة والصحافة تتفقان بعد ذلك في أنهما مدارس جوالة تلاحق طلابها بالكتب والمحاضرات والمختبرات في كل مكان وفي كل زمان وفي كل سن وفي كل طبقة . فتغريهم بالمعرفة عن طريق التسلية ، وتدعوهم إلى الجد من باب التلهية ، وتوجههم بالإيحاء إلى رأي جميع وغاية مشتركة .

وللإذاعة المقام الأول في السياسة الدولية اليوم . ولقوة أثرها وجلالة خطرها

جعلوا أمرها فى أيدى الحكومات ، تصطنعها فى السلم النافعة والضارة ، وتستخدمها فى الحرب الباردة والحارة ، وتتخذ منها أداة فعالة لتوجيه الرأى الشعبى فى الداخل ، وتبصير الرأى العالمى فى الخارج . فضلا عما لها من عظيم الفضل على عامة الشعب فى تهذيب نفوسهم بالأدب والفن ، وتثقيف عقولهم بالعلم والحكمة ، وتفريج كروبهم بالغناء والموسيقى . فاذا كانت الصحافة مملكة ذات جلالة ، فان الإذاعة جمهورية ذات سلطان .

واقد كانت إذاعتنا فى عهد الفساد أفسد شىء فيه . فلما أدركتها عناية الثورة جعلت منها إذاعة عالمية لها صوتها المرفوع ورأيها المسموع فى السياسة والثقافة والاجتماع . والذى يعنينا من تطور الإذاعة المصرية هو مايتصل بشؤون الفكر والثقافة . ومايتصل بهما فى برامج الإذاعة غزير خصب منتج متنوع . وإن أولاها بالذكر تلك الأحاديث القيمة فى الدين والأدب والعلم والفن والاجتماع ؛ وتلك الأركان المختلفة المثقفة لطوائف المجتمع وطبقاته فى البيت والحقل والمصنع والثكنة والملعب ؛ ثم هذه التمثيليات المختارة فى إحياء المجد وإيقاظ الوعى ونقد العيوب . ذلك إلى استعمال اللغة الفصحى فى الأكثر الأغلب مما تذيعه . ولذلك الأثر البالغ فى رياضة الآذان والأذهان على إساغتها وإدراك بلاغتها ، فضلا عما يستتبعه من توجيه الفكر العربى العام إلى غاية مشتركة ووحدة جامعة . وليتها تقتصد قليلا فى الغناء والموسيقى ، لتنفق كثيرا فى الإرشاد والتثقيف . فان الأمة المتخلفة التى نهضت لتلحق تحتاج إلى الدليل الذى يكشف لها الطريق بالعلم ، أكثر مما تحتاج إلى الحادى الذى يرفه عنها بالنغم . والذين حرموا المعرفة بسبب الفقر كالذين حرموا الثروة بسبب العجز ، يجدون لذة فى الحصول على ما حرموه . والعلم جزء من حقيقة الإنسان ففقده نقص ؛ ولكن اللهو عرض من أعراضه فوجوده كمال .

ذلك عن الإذاعة . أما الصحافة المصرية فمن الحق أن نقول إن تقدمها سبق

تقدم الفكر ، وإن نهوضها مهد لنهوض الأمة . كانت الحس الواعي في الجمود العام ، والنور الهادي في الظلام الحالك . وكانت الصحف هي النوافذ المفتوحة على حضارة الغرب وعلومه فاطلعنا منها على أسرار الكون وآثار المدنية، ونفذت إلينا منها أشعة المعرفة ونسمات الحرية . وظلت منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر أوسع دائرة للتثقيف والتوجيه ، تنير أذهان العامة ،وتهذب أفكار الخاصة، وتسجل أحداث الزمن ، وتجمع مادة التاريخ .حتى قامت الثورة الثانية وحكم الدستور ، وتألفت الأحزاب ، وشغلت السياسة حياة الناس،فعظم شأن الصحافة بتعدد الصحف وتنوع المجلات ، واشتدت بينها المنافسة في جمال الإخراج ووفرة الإنتاج وسرعة التوزيع . ولكن هذه المنافسة كلفتها من النفقة مالا يوفيه الدخل لو اقتصرت على توجيه الخاصة ، فاضطرت إلى توسيع انتشارها باجتذاب العامة إليها عن طريق الخفة والتسلية والإغراب ، فانصرفت عن الرأي المرشد إلى الخبر المثير ، وعن الفكرة الموجهة إلى الصورة المغرية ، واكتفت من حديث الأدب والعلم والفن بنتف من الأخبار تنشرها في زاوية من الصحيفة وقد كانت فيما مضى تخصص لكل منها صفحة كاملة .

لا أنكر أن صحافتنا تنهج سبل الصحافيين الأوربية والأمريكية في تفضيل مايثير على ماينير ، وتقديم مايمتع على ماينفع ؛ ولكن الحال هنا تختلف عن الحال هناك . . المجتمع العربي مريض . والمريض يحتاج إلى الطبيب لا إلى النديم ، ويستفيد من الدواء لا من الحلوى .

وأعود فأقول إن العلة في كساد الكتب العلمية ،واحتجاب المجلات الأدبية ، وهزال الصحف السياسية ، هي القارىء الذي لايقبل على القراءة ولايميل إلى الجد : وإن العلة في قلة الإقبال على القراءة وضعف الميل إلى الجد هي فشل المدرسة في تعليم اللغة وتدريس الأدب .

ولقد كانت الصحف فى الجيل الماضى أيام كانت تعنى بالأدب الصحيح . وتحتفل للأسلوب البليغ المصدر الأول لثقافة النشء الأدبية . كان الطالب يستثقل قواعد اللغة لجفافها وصعوبتها ، فينصرف عنها ويقبل على قراءة الصحف فتقوى فيه ملكة الكتابة بكثرة الاطلاع على النماذج الرفيعة من البيان المشرق ، حتى إذا جاء يوم الامتحان قصر جهده على موضوع الإنشاء فيحسن كتابته ثم يضيف إلى جانبه جزءاً من جواب وشيئاً من إعراب وقليل من أدب فينجح ! .

أما اليوم فلا المدرسة تفقهه فى اللغة ، ولا الصحافة تغريه بالأدب ، فلا عجب إذا أصاب حياتنا الفكرية هذا الركود ، وتخلفت ثقافتنا الأدبية هذا التخلف .

إن الصحف فى انجلترا مثلا تصدر فى اليوم الواحد خمس مرات . والقارىء الذى قرأ الطبعة الأولى فى الصباح الباكر يقرأ ما يتلوها من طبعات دون أن تغريه الصحيفة بغرائب خيالية أو بجوائز مالية . وما دمنا لا نرى القراءة ضرورية للروح . كما نرى التغذية ضرورية للبدن ، فهيهات أن تزدهر ثقافة ، أو تنتشر صحيفة ، أو يتنوع أدب ، أو يتخرج أديب ! .

— ٧ —

التمثيل والسينما

التمثيل والسينما أضعف المظاهر تمثيلا للفكر المصرى وأقلها تأثيراً فى تهذيب العقل وتوجيه الرأى وتعميم الثقافة . ذلك لأنهما يتوخيان الربح من أقرب الطرق وأيسر الوسائل ، فيتملقان غرائز الجمهور ويبغيان مرضات العامة .

والمتصدر للاصلاح فى أى ناحية من نواحى المجتمع ، وبأى وسيلة من وسائل الإرشاد ، واجبه أن يرفع الهابط إلى فوق ، ويدفع المتخلف إلى أمام . أما أن يهبط هو إلى قرار الفساد ليزين للناس العيش فيه والاغتباط به ، فذلك هو الطبيب الذى يعالج مريضه بالمسكر لا بالدواء ، أو المعلم الذى يثقف تلميذه بالحكاية لا بالدرس . واللهو الفارغ تستسهله النفس وتفضله . وإذا استرسل المرء فيه خمدت نفسه بترك الفكر كما يخمد جسمه بترك العمل .

كان التمثيل منذ ابتنى اسماعيل دار الأبرا أجنبياً أرستقراطياً لا يشهده إلا الأمراء والحكام . فلما بنى اسكندر فرح مسرحه فى شارع عبد العزيز بالقاهرة وضم إليه الشيخ سلامة حجازى أصبح وطنياً شعبياً يشهده الجمهور . وكان التمثيل يومئذ قاعدته الغناء والمجون، وطريقته الأسلوب المسجوع الملحون. وأول خطوة خطاها هذا الفن فى سبيل الكمال كانت بفضل الفرقة التى ألفها جورج أبيض وضم إليها صفوة الممثلين الذين خرجهم الزمن وأرشدتهم التجارب. كانت هذه الفرقة والفرق التى سارت على هداها تختار المسرحيات العظمى ، وتستعمل اللغة الفصحى ، وتستهدف الغرض الأسمى ، وتحاول أن ترفع الجمهور إلى المستوى الرفيع للفن ببلاغة الأسلوب وبراعة الأداء . وكان المطمح الأول لهؤلاء الرواد الأولين أن يقيموا فن التمثيل فى مصر على قواعد ثابتة . وفى سبيل هذا المطمح

كانوا يجاهدون ويضحون حتى نالوا أكثر ما أرادوا ، وتخرج على أيديهم هؤلاء الأعلام الذين يرجع إليهم الفضل فى بقاء المسرح إلى اليوم .

فلما دهى التمثيل مادهاه من منافسة السينما له وإعراض الجمهور عنه ، اضطر أربابه إلى استمالة العامة بالتهريج والإضحاك ، فمثلوا المهازل الخليعة ، واستعملوا اللغة العامية . وإسفاف المسرح إلى مستوى العامة فى التفكير والتعبير يحرمه شرف المشاركة فى الجهاد الفكرى لتوفير العلم والخير لهذه النهضة . والسبيل إلى وقاية المسرح من الإسفاف والتبذل أن تبسط الحكومة حمايتها عليه ، فتضمن لأعيان الممثلين تكاليف العيش ليقصروا جهودهم على ترقيته كما فعلت بإنشائها الفرقة القومية . وكان الأمل أن تظل هذه الفرقة فى مكانها الأعلى من الفن ليرتفع إليها من يحب الكمال ويؤثر الجد ، ولا يهمها أن يزدحم الجمهور على شباكها أو لا يزدحم مادام الغرض منها إصلاح الأذواق لا تحصيل الأرزاق . والشعب كلما سمت عواطفه ورقت مشاعره طلب اللذة العقلية فى البيان والفن . ولكن القائمين على شئون هذه الفرقة ملوا الانتظار ، وتعجلوا الربح ، وحنوا إلى دوى التصفيق ، فأعادوا النظر فى الأمر . وكأنهم بحثوا عن الأسباب فى انهزام المسرح أمام الشاشة والصالة فوجدوها كلها مجموعة فى اللغة الفصحى والأسلوب الصحيح ! ومن هنا نشأت مشكلة اللغة التى نكتب بها المسرحية : أهى لغة الخاصة أم لغة العامة أم هى لغة بين بين . والرأى الذى نعارضه هو رأى المتطرفين الداعين إلى العامية على إطلاقه. وكل ما يمكنهم أن يقولوه تبريرا لدعوتهم أن شرط الامكانية فى الفن المسرحى يوجب أن تكون العامية لغة للمسرح ، لأنها لغة الأشخاص التى سايرتهم فى كل سن ولابستهم فى كل حال . فعبرت عن خلجات نفوسهم ونبضات قلوبهم ، وحملت خلاصة تجاربهم وثمرات قرائحهم من لطيف الكنايات ، وطريف الأمثال ، وبليغ الحكم ؛ ولأنها مرآة لبيئتهم انعكست عليها صور حياتهم ومظاهر اجتماعهم ؛ ولأنها أكمل دلالة وأسهل إبانة عن التصورات الجديدة التى

تخرج من أعماق النفس أو تدخل فى ثنايا الحوار . وهذا كلام لو قالوه ظاهر الوجاهة ، ولكنا نسأل : متى طبق شرط الإمكانية بنصه على اللغة والأسلوب؟ إن الناس فى كل زمان ومكان لا يتكلمون فى الواقع كما يجعلونهم يتكلمون على المسرح ؛ وهذه هى جميع المآسى ومعظم الملاهى مكتوبة بالشعر العالى أو النثر البليغ . فهل كان أشخاصها فى الحقيقة يتحاورون بالشعر ويتجادلون بالمجاز ؟ وهل كانت لغة راسين وشكسبير وهوجو وجيته وأضرابهم من عباقرة الفن هى لغة الشعب الذى كانوا يمثلونه أو يمثلون له ؟ وإذا جاز لهم أن يجعلوا الفرنسيين والإنجليز فى المسرحيات المترجمة يتكلمون على المسرح المصرى بلسان عربى فلم لا يجوز لنا كذلك أن نجعل خاصة المصريين بل عامتهم أيضاً يتكلمون بلهجة عربية صحيحة وهى أقرب إلى هؤلاء منها إلى أولئك ؟ إن الفن الحقيقى أبدى خالد . ومن المحال أن تخلده لغة جيل واحد ولهجة قطر واحد ؛ لأن العامية تتغير من جيل إلى جيل ، وتختلف فى قطر عنها فى قطر . ونحن لا نريد أدباً مصرياً فحسب ، وإنما نريد أدباً عربياً يمثل حضارة مصر وثقافة مصر وينقلهما إلى الأقطار النائية والأجيال الآتية .

على أن أحداً من الناس لم يقل إن المسرح لابد أن يعرض الحقيقة جرداء عارية ، بل المعروف أن من واجبه أن يحسنها بالخيال ويزينها بالكذب . وفى ذلك التحسين وهذا التزيين سحره وجاذبيته . والمشاهد ذاهب إليه وفى نفسه أنه سيخدع . وهو راض بهذه الخديعة مادام فيها لذته وفائدته . ومن قواعد المسرح أن الصدق يتوخى فيما يؤثر فى الذهن والنفس من الأفكار والعواطف . أما ما يؤثر فى السمع والبصر من الأوضاع والزخرف فلا بأس فيه من الكذب . فشكل الأسلوب من النظم أو النثر ، والعامى أو الفصيح كشكل المسرح من المناظر والستائر والأضواء والأصباغ ، تعرف الآذان

والعيون أنه صناعي مختلق ، ولكن الأذهان والنفوس لا بد أن تتأثر بما يقع في الإمكان من الأخلاق والعادات والمواقف .

إن المسرح مهبط البيان وطريق النفوس إلى الجمال والخير والحق ، فليس من غايته اللهو والمتاع ، وإنما يعمد إليها تخفيفاً لثقل الحكمة على النفوس كما يساغ الدواء الشديد المرارة بالشراب الحلو . فإذا لم يخرج المشاهد من المسرح وهو أوفر علما وأحسن حالا منه قبل أن يدخل ، فقد أخطأ المسرح غرضه وضل طريقه .

هذا إجمال القول في التمثيل من حيث اتصاله باللغة والفكر والإصلاح ، وهو نفسه ما نقوله في الفن السينمائي من حيث اتصاله بهذه الأغراض . ونزيد عليه أن السينما في مصر لا تزال تتعثر في سيرها البطيء ، وأن عدة النهوض وأداة النجاح من قصة وتمثيل وتصوير وإخراج لم تكتمل لأكثر القائمين عليها بعد . وإن إنتاجها الذي يظهر مع هذا النقص جيده مسروق ورديئه مبتكر . وإن إسرافها في التبذل والعامية قد صرف عنها المثقفين والخاصة ، وأن إحجام الموهوبين في الفن القصصي عن إمدادها بالأصيل الجميل منه أضعف أثرها في حياة الفكر . ولعل في الرعاية التي توليها إياها حكومة الثورة ما يشجعها على النهوض ويساعدها على التقدم ، فقد أعلنت وزارة الإرشاد القومي عن مسابقة بين الأفلام في هذا العام ، وجعلت جوائزها ثلاثة وعشرين ألف جنيه ، وأوصت اللجنة المؤلفة في وزارة التجارة والصناعة للنهوض بالسينما أن تؤسس الحكومة بنكا لهذه الصناعة يجمع المال لتشجيعها وتمويلها ، وأن تنشيء وزارة الإرشاد معهدا يتخرج فيه الفنيون القادرون على ترقيتها وتكميلها . وهذا لون من ألوان العلاج ناجع ، وعمل من أعمال الثورة مجيد .

— ٨ —

الثورة تطور إلى أحسن

كان الأدب وهو أقوى مظاهر حياتنا الفكرية وأشدها حساسية أول ما يهتز للعاصفة التي أسقطت الأوراق الذابلة وحطمت الجذوع النخرة .

اهتز الأدب للثورة للصلة الطبيعية بين الرأى والعزم ، أو بين الفكر والعبارة ، كان يفكر لها فأصبح يعبر عنها ، وكان يؤثر فيها فأصبح يتأثر بها . فكل ثورة من ثورات السياسة تحدد مرحلة من مراحل الأدب تتميز من سوالفها بسمات يحدثها الانقلاب في التفكير والتعبير والغرض . ولكن الانقلاب الأدبي لا يمكن أن يأتى فجأة كما يأتى الانقلاب السياسى فجأة . لا بد له من زمن يقصر أو يطول ، تتفاعل فيه النزعات وتتطور الرغبات وتتبين المقاصد ، وإلا كان انقلابا مفتعلا لا يلبث نشاطه أن يخمد وأثره أن يزول . فالسادة الذين فجئوا الناس في صباح الثورة بالتمرد على الأصول المقررة للغة ، وعلى القيم المقدسة للفن ، لم يكونوا جازين مع النهضة ولا معبرين عن معنى الثورة . إن الثورة نهوض إلى أعلى وتطور إلى أحسن ، والتقدم الذى يلائمها فى حياة الفكر هو أن تتحرر الأفكار وتتجدد الألفاظ وترق الأساليب وتسمو الأغراض وتتنوع المذاهب ويعتمد الأدب على الصدق فيكون مرآة لنفس الكاتب كما يكون الكاتب مرآة لنفس الشعب .

أما أن نتمرد على القواعد اللغوية فندعو إلى التحرر من كل قيد لتكون الفوضى ، والتخلص من كل ضابط لتكون البلبلة ، فتلك هى البدائية اللغوية التى لا تدرك لبلادتها وغلظها سحر اللفظ ولا جمال العبارة .

وأما أن نتمرد على القيم الأدبية فندعو إلى أن يغفل الأدب رغائب الروح ويقبل على مطالب الجسد ، فتشكو صغر الرغيف وتندب غلاء اللحم وتبكى

قلة الخضر ، فتلك هى الحيوانية المادية التى خلقت لها الزراعة والصناعة والعلوم ، ولم تخلق لها الفلسفة ولا الآداب ولا الفنون .

إن للروح غذاء يزكيه ويقويه ، كما أن للجسد غذاء يحفظه وينميه . والغذاءان ضروريان لحياة الإنسان لا يستغنى بأحدهما عن الآخر . والأدب كما قلت من قبل للانسان كالجناحين للملك : يرفعه من كثافة الجسد فى الأرض إلى لطافة الروح فى السماء . والدنيا فيها المسجد والسوق والمدرسة والمصنع ، والحديقة والمطعم ، والمقَسّ والورشة ، وكل جهة من الجهات المعنوية ، تعدّل الجهة التى تقابلها من الجهات الحسية . فلماذا نكره الأدب على أن يتقلب فى الجهات الدنيا لا فى الجهات العليا ، وأن يعيش ابن آدم فى حيوانيته لا فى إنسانيته ؟ والأدب بطبعه أرستقراطى كابليس يقول أنا من نار والجسد من طين . والنار ضوء وحرارة ، والطين ظلام وبرودة .

قال لى أحد هؤلاء السادة — وهو رئيس تحرير لإحدى الجرائد الكبرى — نريد أن نكتب كما نتكلم . فقلت له لا ترسل القول على إطلاقه . لا كل كتابة ولا كل كلام . كتابة الكاتب الصحفى كلام مكتوب ، وكلام الخطيب الأديب كتابة مقروءة . والبلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال . والأسلوب يختلف باختلاف الذهن والثقافة والنوع والغرض والحال . وهو يختلف فى الكاتب نفسه باختلاف الفن الذى يعالجه والموضوع الذى يكتبه والشخص الذى يتكلم بلسانه أو يتكلم عنه . فأسلوب القصة غير أسلوب المقالة ، وأسلوب التأثير غير أسلوب الإقناع ، وأسلوب الصحفى غير أسلوب الأديب ، وأسلوب العالم غير أسلوب العامل . وكل أسلوب بليغ فى بابه ، مقبول عند أصحابه .

ولكن الأساليب مهما تختلف باختلاف الأفراد ، وتتنوع بتنوع الأغراض ، فإنها تتسم جميعاً بالصحة أولا ، وبالبلاغة بعد ذلك .

أما أن نقول كما قال بعض الناس من قبل إنا نتكلم ليفهم الحاضر، ونكتب ليفهم الغائب، فلماذا لا نكتب كما نتكلم؟ لماذا نفضل أن يقال: إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا، على أن يقال كبرت سنى وشاب رأسى؛ فذلك إنكار لحس الجمال فى الإنسان وهو أسمى خصائصه. والرجل الذى لا يدرك الجمال الفنى فى قول الله تعالى: «إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا» لا يستطيع أن يدرك الفرق بين صوت البلبل وصوت الحمار، ولا بين رسم المصور ونبش الدجاجة. والغض من شأن الجمال التعبيرى بدعة من بدع هذا العصر الذى اعتلت به الأذواق واختلت فيه المقاييس. وليس لأكثر البدع مسوغ من الفطر السليمة والفكر الصالحة، وإنما هى نزوات فى بعض الرءوس تصدر عن شذوذ فى الفكر أو فساد فى البدن أو عجز عن الكمال. وإلا فكيف يعلل إنكارهم تجميل الأسلوب وهم لا يبرحون كسائر الناس يطلبون الجمال فى شتى ضروبه ومختلف صوره؟ لماذا يثورون على تنسيق الكلام بدعوى أن الغرض منه الفهم والعلم ولا يثورون على تزيين الطعام وتجميل الهندام وتزويق المسكن والغرض الأصيل منها الوقاء والغذاء؟ لماذا لا يقفون موقف الحيوان عند حدود الضرورة من مآرب العيش ومطالب الجسد فلا يتفننوا فى تلاؤم الأجزاء فى اللباس، ولا يتأنقوا فى تنضيد الألوان على المائدة، ولا يتنافسوا فى تنجيد الأثاث فى البيت؟ وإذا كان أحدهم لا يحب أن يلبس الثوب المرقع، ولا أن يسكن الكوخ البالى، ولا أن يتزوج المرأة الدميمة، ولا أن يسلك الطريق الوعر، ولا أن يركب المركب الخشن؛ فلماذا يكره أن يسمع الكلمات العذبة والجمل المنسقة والأصوات المؤتلفة، وجميع جوارح البدن وحواسه كما قال صاحب الصناعتين تسكن إلى ما يوافقه، وتنفر عما يضاده ويخالفه. والعين تألف الحسن وتقذى بالقبيح، والأنف يرتاح للطيب وينفر للنتن، والفم يتلذذ بالحلو ويمج المر، والسمع يتشوق للصوت الرائع وينزوى عن الجهير الهائل. واليد تنعم باللين وتتأذى بالخشن، والفهم يأنس من الكلام المعروف ويصغى إلى الصواب ويهرب

عن الجمال و ينقبض عن الجافى الغليظ . ولا يقبل الكلام المضطرب إلا الفهم المضطرب والذوق الفاسد » والإنسان كما قال طاغور فنان فى الكثير الغالب من أمور دنياه . وجمال العبارة وجلال الأسلوب من الصفات المشتركة فى الناس تتفق فى الوجود والمظهر وتختلف فى الطاقة والقدرة . والعامة يستعملون الوزن والسجع والجناس متى جاشت فى صدورهم عاطفة أو جرت على ألسنتهم حكمة. فواويلهم موزونة ، وأمثالهم وحكمهم وضوابطهم مسجوعة . وكلما سمت الطبقة واتسعت الثقافة وصدق الشعور وصفا الذوق وأرهفت الأذن سما الأسلوب من الجميل إلى الأجمل ، ومن الجليل إلى الأجل ، حتى يبلغ الأوج عند كلام الله . واتفاق الطبائع فى توخى الكلام الجميل قد أثر فى تكوين اللغة ونشأة الأدب فجعلهما بالطبع قائمين على حلاوة الجرس وعذوبة النغم . فإذا سلمت فى المنشىء الفطرة وواتته الموهبة وساعده الاطلاع وكان قد تضلع من علوم اللسان وأحاط بأسرار اللغة صدر عنه الكلام رقيقاً من غير قصد ، أنيقا من غير كلفة . والسمو إلى هذه المكانة من الفن الموهوب والمكسوب مُنية كل لسان ينطلق وبغية كل أذن تعى . فإذا كان من حملة القلم من يقدح فيه و ينفر منه كان ذلك من باب الكذب على النفس مرده إلى أسباب يعرف بعضها ذلك الثعلب الفاضل الذى :

رام عنقودا فلما أبصر العنقود طاله
قال هذا حامض لما رأى ألا ينـــاله

من أدب الأمثال

- ١ -

نشأة الأمثال وأنواعها

الأمثال حكمة الدهور وصدى التجارب وخلاصة الفلسفة وثمرة البلاغة. تجرى على الألسنة الموهوبة فى خلال حديث ، أو فى أعقاب حادث ، فتتناقلها الأفواه وتتوارثها الأجيال لوجازتها وحسن صياغتها وصدق مغزاها . حتى إذا وقع من الأمر ما يشبه الحال التى ورد فيها المثل تمثل به القائل ليكون كالبرهان يؤيد قوله ويؤكده ، أو كالبيان يوضح معناه ويقرره . ومن الأمثلة القريبة التى تبين لكم كيف ينشأ المثل ويسير ، تلك الجملة التى قالها أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد لمن سأله عن رأيه فى معاهدة سنة ١٩٣٦ فقال : « لقد أصبحت غير ذات موضوع » .

هذه الجملة لقوتها ووجازتها ، ولجدتها وطرافتها ، لم تلبث أن سارت مثلا فى الناس ترددها الألسنة والأقلام فى كل حال تشبه حال تلك المعاهدة فى زوالها بزوال علتها ، وانقضائها بانقضاء غرضها .

والمثل فن إنسانى من فنون القول لا يتميز به زمان على زمان ، ولا تختص به أمة دون أمة . ولم يسر شىء كما سار ، ولم يعم كما عم ، حتى قالوا : أسير من مثل . والشاعر يقول :

ما أنت إلا مثل سائر يعرفه الجاهل والخابر

وللمثل ميزة على سائر فنون القول فى تقريب المعنى من فهم المخاطب وتقريره فى ذهن السامع . ولذلك كان من الأساليب المختارة فى الكتب المنزلة والأحاديث المرسلة والمواعظ العامة . وقد ضرب الله الأمثال فى مواضع كثيرة من كتابه فقال

تعالى : وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ، وضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء وهو كَلٌّ على مولاه ، أينما يوجهه لا يأت بخير . هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ؟ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ... ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار .

ومن أمثال الرسول صلوات الله عليه قوله : ضرب الله مثلا صراطا مستقيما ، وعلى جنبي الصراط أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى رأس الصراط داع يقول : ادخلوا الصراط ولا تعوّجوا . فالصراط الإسلام ، والستور حدود الله ، والداعى القرآن .

وقوله : « إن مثل ما بعثنى الله من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا ، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله به الناس فشربوا وسقوا وزرعوا . وأصاب طائفة منها أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت عشبا » .

وللمثل فى الأدب العربى يطلق على ما يراد من كلمتى (Fable) و (Proverbe) فى الآداب الأوربية ؛ ولذلك تنقسم الأمثال إلى قسمين : أمثال واقعية وأمثال فرضية . فالواقعية ما انتزعت من واقع الحياة وأعمال الناس كقولهم : رجع بخفى حنين . وأصله أن إسكافا من أهل الحيرة يسمى حنينا ساومه أعرابى على خفين يشتريهما منه ، فاختلفا حتى أغضبه الأعرابى ، فأراد حنين أن يكيده له . فلما انقضت السوق أخذ أحد الخفين وألقاه فى الطريق الذى يعود منه الأعرابى إلى أهله ، ثم ألقى الآخر بموضع آخر من الطريق وكمن عنده ، فلما مر الأعرابى بالخف الأول قال فى نفسه : ما أشبه هذا الخف بخف حنين ، لو كان معه صاحبه لأخذته . فلما مر

بالآخر ندم على تركه الأول . وأناخ بعيره وعاد فى الطريق يبحث عنه . فخرج حنين من مكمنه وأخذ الجمل بما حمل ، ورجع الأعرابى إلى أهله بخفيه .

والأمثال الفرضية ماافترض الناس وقوعها على ألسنة الحيوان أو النبات أو الجماد ، كقول الامام على رضى الله عنه حين رأى تخاذل الصحابة واختلاف من اختلف فيه وخروج من خرج عليه : انما أكلت يوم أكل الثور الأبيض . يريد أنه خذل يوم خذل عثمان . وأصل المثل أن أسدا وثورا أسود وثورا أحمر عقدوا فى بعض الأجمات معاهدة صداقة . فقال الأسد ذات يوم للثورين الأحمر والأسود: ان هذا الأبيض يكشفنا للناس بلونه . فاذا تركتمانى آكله أمنا الظهور واتقينا الفضيحة . فأذنا له فى أكله . ثم قال للأحمر : هذا الأسود يخالف لونى ولونك. ولو بقى لظفك من يراك أسدا مثلى ، فدعنى آكله . فسكت عنه فأكله . ثم قال للثور الأحمر : لم يبق إلا أنا وأنت وأريد أن آكلك . فقال له الثور: إن كنت فاعلا ولابد فدعنى أصعد هذه الهضبة وأصيح ثلاث صيحات . فقال له افعل ماتريد . فصعد الهضبة وصاح ثلاث مرات يقول : « ألا إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض ! » .

والأغراض من الأمثال الواقعية لاتكاد تعد ولاتحد ، لأنها لفتات من الذهن وفلتات من اللسان تقال عفو الساعة وفيض الخاطر فى شتى المناسبات فتعلق بالأذهان لاشتمالها على حكمة أو ملحة ، أو لدلالتها على طبع أو خلق . وهى ماعدا الأدبى منها صورة للطباع ومرآة المجتمع . فمن الأمثال الأدبية قولهم: إنك لاتجنى من الشوك العنب . رب كلمة تقول لصاحبها دعنى . رب عجلة تهب ريثا. ورب فروقة يدعى ليثا . ورب غيث لم يكن غيثا . من سلك الجدد أمن العثار . يداك منك ولو كانت شلاء .

ومن الأمثال الاجتماعية التى تكشف عن عقلية القائل وطبيعة بيئته قول

عامر بن الطفيل عند موته : « أغدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية ؟! » وذلك أنه أصيب بالطاعون تحت ذقنه وهو منصرف من عند الرسول صلوات الله عليه ، فلجأ إلى بيت امرأة من سلول وهى قبيلة من أضعف القبائل فأكرمته ومرضته . ولكنه حين حضره الموت غلبت عليه الأرستقراطية القبيحة فلم يحزن على مال ولا ولد ولا جاه ، وإنما حزن على أن مات هذه الميتة القذرة فى بيت هذه المرأة الوضيعة !

كذلك المثل الذى سار عن ذلك الأعرابى القاسى الذى حكم على الجانى على نفسه بعقوبة القدر من غير عاطفة ترقق العقل ولا رحمة تلطف العدل . فقد قالوا إن رجلا أراد أن يعبر نهرا وهو لا يحسن السباحة فنفخ قربته وربطها وعام عليها . فلما توسط النهر فك الرباط وخرجت الريح وأوشك الرجل أن يغرق . فاستغاث بأعرابى على الشاطىء ، فتركه يغرق وقال له : يداك أوكتا وفوك نفخ. يعنى أنه هو الذى نفخ القربة بفمه وربط فمها بيده فجنى على نفسه ولم يجن أحد عليه .

وقد يسير المثل الواقعى لما تضمنه من فكاهة لا مغزى لها . كقول القائل : ذكرنى فوك حمارى أهلى . فقد ورد أن شابا غزلا ضل لأهله حماران فخرج يبحث عنهما ، فمر بامرأة منتقبة ، فراقه ما رأى من جمالها فى النقاب ، وما سمع من رقتها فى الحديث ، فجلس إليها ونسى الحمارين . فلما سفرت عن وجهها رأى فمها قبيحا فانصرف وهو يقول : ذكرنى فوك حمارى أهلى .

— ٢ —

فلسفة الأمثال ومغازيها

إن بين الأمثال الواقعية والأمثال العرضية فروقاً فى الأسلوب والدلالة والغرض ؛ ولكن أبين هذه الفروق وأبعدها أن الأمثال الواقعية قلما تسير إلا فى الأمة التى نشأت فيها ، كقولهم : وافق شن طبقة . فإن هذين الزوجين المتوافقين كانا من العرب ، فلم يضرب بتوافقهما المثل إلا فى أقطار العروبة .

ومن الأمثال الواقعية النادرة التى شاعت فى غير أمتها وبيئتها قول يوليوس قيصر لأقرب الناس إليه وأعزهم عليه وقد ائتمر به مع المؤتمرين ليقتلوه : «وأنت أيضاً يابروتوس ؟ » . وقول لويس الخامس عشر حين أخذته الصيحة من اعتراض النواب واحتجاج القسس وتوجيه الفلاسفة وهو عاكف على لذاته غارق فى شهواته : « وبعدى الطوفان ! »(1) .

ولكن الأمثال الفرضية عالمية تتناقلها الأفواه من قبيل إلى قبيل ، وتتوارثها الأعقاب من جيل إلى جيل . والغرض المقصود منها تقويم الأخلاق بالحكمة ، ورياضة النفوس بالموعظة ، عن طريق التعريض والرمز . وهذه الأمثال وليدة الشرق ؛ لأنه كان موضع الحكم المطلق والاستبداد العنيف ، انبعث من صدور الضعفاء المستعبدين صدى خافتاً لاحتجاج مكظوم صامت لم يجدوا له متنفساً ولا طريقاً إلى آذان الأقوياء المستبدين إلا هذه الكنايات والرموز يسترون وراءها مايريدون من نصيحة وعظة . وربما عرض الأمر الذى ينكل عنه عقل الطاغية فيحتاج إلى المشورة فيلجمهم عنها الخوف والهيبة فيلجأون إلى هذه الأمثال يضربونها فيدركون بها مايريدون من غير تعرض

---

(١) قال : « كل شىء سيبقى على حاله مابقيت . وليتقذ خلفى نفسه بما ورطته فيه ، وبعدى الطوفان » .

السخط ولا مواجهة لخطر . وفى مقدمة (كليلة ودمنة) تفصيل لما وقع بين دبشليم الملك وبيدبا الفيلسوف وهو يؤيد هذه الفكرة .

وقد ذكر صاحب التذكرة أن الطاعون فشا سنة بدمشق ، فهمّ عبد الملك ابن مروان بالفرار منها . فدخل عليه بعض الفضلاء وقال . بلغنى يا أمير المؤمنين أن ثعلبا صادق أسدا على أن يجيره من السباع ، فكان أبداً بين يديه . فظهر فى يوم من الأيام عُقاب فى الجو فخافه الثعلب ووثب على ظهر الأسد ، فانقض عليه العقاب واختطفه . فصاح الثعلب : يا أبا الحارث ! العهد ، العهد ! فقال الأسد: إنما عاهدتك على أن أحفظك من أهل الأرض . أما أهل السماء فلا قبل لى بهم .

فلما سمع عبد الملك هذا المثل قال : والله لقد وعظتنى . ثم أبى أن يفارق المدينة . وربما احتالوا ببراعة المثل ولطف مدخله لنيل مأرب أو دفع بلية ، كما فعل نصر ابن منيع ، وكان خارجيا ثار على المأمون ، فسير إليه جيشاً تمكن منه وقاده إلى الخليفة فأمر بقتله . فقال نصر · يا أمير المؤمنين ، اسمع منى قبل أن تقتلنى مثلا . فقال قل . فقال .

زعموا بأن الصقر صادف مرة عصفور بر ساقه التقدير
فتكلم العصفور تحت جناحه والصقر منقض عليه يطير
إنى لمثلك لا أتمم لقمة ولئن شويت فإننى لحقير
فتهاون الصقر المدل بصيده كرما وأفلت ذلك العصفور

فعفا المأمون عنه وأطلقه .

نشأت الأمثال الفرضية أو الرمزية فى الهند ، ثم انتشرت منها فى الصين ، ثم انتقلت إلى فارس ، ثم إلى بلاد العرب ، ثم إلى بلاد الإغريق . وأقدم ما عرف منها مثل فى التوراة ذكر فى الفصل التاسع من سفر القضاة وهو مثل الأشجار التى أرادت أن تنصب عليها ملكا . ثم أمثال لقمان الحكيم العربى ، وأمثال إيزوب الرومى ، وأمثال بيدبا الهندى ، ولا فونتين الفرنسى . وأشهر

من كتب فيها من أدباء العرب ابن المقفع مترجم كليلة ودمنة ، وسهل بن هرون صاحب كتاب « ثعلة وعفرة » ، وابن الهبارية ناظم الصادح والباغم ، وابن عربشاه صاحب (فاكهة الخلفاء) .

وقد عالج الأمثال بعض الأدباء فى العصر الحديث فوفقوا فيها ، كرزق الله حسون فى كتابه (النفثات) ، وأحمد شوقى فى ديوانه (الشوقيات) ، ومحمد عثمان جلال فى كتابه (العيون اليواقظ ، فى الأمثال والمواعظ) ولكن معظم ما أتوا به منقول عن لافونتين الفرنسى .

وهذه الأمثال تجرى بين حيوانين ، كالمثل الذى ضربه هوميروس الشاعر اليونانى لإيرخس وقد افتخر عليه بكثرة شعره وسرعة عمله ، وعيره بطء عمله وقلة شعره ، فقال : بلغنا أن خنزيرة بأنطاكية عيرت لبؤة بطول زمن الحمل وقلة الولد وافتخرت عليها بضد ذلك . فقالت اللبؤة : صدقت .

إنى ألد الولد بعد الولد ، ولكنه أسد ! .

وقد تجرى بين جمادين كقولهم : قال الخشب للمسمار : لقد فلقتنى ! فقال له المسمار : لو سمعت الدق الذى فوق رأسى لعذرتنى .

وقد تجرى بين جماد وحيوان كمثل الفخ والطائر الذى سارق الرياء . فقد رووا أن رجلا من بنى إسرائيل نصب فخا . فجاءت عصفورة ونزلت عليه ، فقالت للفخ :

مالى أراك منحنياً ؟

فقال : لكثرة صلاتى انحنيت .

قالت : فمالى أراك بادية عظامك ؟

فقال : لكثرة صيامى بدت عظامى .

قالت : فمالى أرى هذا الصوف عليك ؟

فقال : لزهادتى فى الدنيا لبست الصوف .

قالت . فما هذه العصا عندك ؟

فقال : أتوكأ عليها وأقضى بها حوائجى .

قالت : فما هذه الحبة فى يدك ؟

فقال : هى قربان : إن مر بى مسكين ناولته إياها .

قالت : فإنى مسكينة .

فقال : خذيها .

فدنت منه وقبضت على الحبة فإذا الفخ فى عنقها ! فجعلت تقول وهى تضطرب : لا غرنى ناسك مُراء بعدك أبدا ! .

وقد تجرى بين إنسان وحيوان كالذى قالوا إن رجلا صاد قبّرة . فقالت له ماذا تريد أن تصنع بى ؟ فقال أذبحك وآكلك . قالت : والله ما أشفى من نهم ولاأغنى من جوع . ولـكنى أعلمك ثلاث خصال هى خير لك من أكلى . أما الواحده فأعلـمكها وأنا فى يدك . والثانية إذا صرت على هذه الشجرة . والثالثة إذا صرت على الجبل . فقال : هاتى . قالت : لا تتحسر على مافاتك . فخلى عنها . فلما صارت فوق الشجرة قال : هاتى الثانية . قالت : لا تصدق بما لا يكون أنه يكون . ثم طارت فصارت فوق الجبل فقالت : ياشقى ! لو ذبحتنى لأخرجت من حوصلتى جوهرة زنتها عشرون مثقالا . فعض الرجل على شفتيه وتحسر، ثم قال : هاتى الثالثة ! فقالت له : أنت قد نسيت الاثنتين فـكيف أعلمك الثالثة؟ ألم أقل لك : لا تتحسر على مافاتك ، فقد تحسرت علىّ إذ فتّك . وقلت لك لا تصدق بما لا يكون أنه يكون . فصدقت أن فى حوصلتى جوهرة زنتها عشرون مثقالا وأنا وعظمى ولحمى وريشى لا نبلغ بعض ذلك !

وقد يساق المثل الرمزى مساق التشبيه لتقرير حال أو تصوير واقع ، كقول أحد الحـكماء . مثل الدنيا والمغرور بها مثل رجل ألجأه الخوف إلى بئر تدلى فيها

وتعلق بغصن نابت على شفيرها . ونظر إلى أسفل البئر فاذا ثعبان ضخم فاغر فاه نحوه . فرفع بصره إلى الغصن الذى تعلق به فاذا فى أصله فأران أبيض وأسود يقرضان الغصن دائبين . فبينما هو مغتم لنفسه مهتم بنجاته إذ وجد قريبا منه جحر نحل قد وضعت فيه شيئا من عسل ، فتطاعم منه فشغلته حلاوته عن الفكر فى أمره ، والتماس النجاة لنفسه ، ولم يذكر أن الفأرين دائبان فى قرض الغصن الذى يتعلق به ، وأنهما متى فرغا منه أوقعاه فى فم الثعبان ولم يزل لاهيا غافلا حتى هلك .

أراد الحكيم بالبئر الدنيا ، وبالغصن الحياة ، وبالفأرين الليل والنهار ، وبالثعبان الموت ، وبالعسل الأمل واللهو والمتاع .

— ٣ —

من أمثال الرسول فى الحرية والجماعة

من أحاديث سيد البلغاء محمد رسول الله صلوات الله عليه قوله :

« إن قوما ركبوا سفينة فاقتسموا . فصار لكل رجل منهم موضع . فنقر أحدهم موضعه بفأس . فقالوا له : ما تصنع ؟ قال هو مكانى أصنع فيه ما أشاء . فإن أخذوا على يده نجا ونجوا ، وإن تركوه هلك وهلكوا » .

أسمعتم ما قال نبى الوحدة ورسول الجماعة يا زعماء العرب ؟ لكأنى بالرسول الأعظم كان ينظر إلى الغيب من ستر رقيق فرأى بألمعية ذهنه وإشراق نفسه أمته تمزقها الأهواء وتفرقها المطامع فضرب لها هذا المثل ، وأراد بالسفينة الوطن العربى العام تقسمه الإخوة والبنون فى عهود الضعف والانحلال فصار لكل منهم وطن ودولة . ولكن هذه الأوطان المتعددة تجمعها دنيا واحدة كما تجمع السفينة مواضع الركاب . فكل وطن وإن استقل بنفسه مرتبط فى قوام حياته بغيره . فهو حرى ألا يوبق بحريته الوطن الجامع ، وألا يفسد بسياسته الصالح المشترك . فإذا نزغ أحدهم من شياطين الاستعمار نزغ فأراد أن يخرق السفينة من موضعه وجب على سائر الراكبين أن يأخذوا على يده ويقفوه عند حده ، وإلا هلك وهلكوا . وإنكم لتعلمون علم اليقين يا رجال العرب من الذى خرق السفينة وهدد راكبيها بالغرق ، كما تعلمون علم اليقين من الذى حاول أن يضرب على يد هذا الخارق وهو يقول له ما قال الله تعالى على لسان فتى موسى : أخرقتها لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئا إمرا . ولا يزال الخرق يتسع ، والسفينة تضطرب ، والركاب يصرخون ، والناس على الشواطىء القريبة والبعيدة ينظرون ويسمعون ، فمنهم العدو الذى يرسل الفؤوس ويثير الأعاصير ليتم الغرق . ومنهم الصديق الذى يرسل الأدعية ويبتغى الوسائل لتكون النجاة . وكان المأمول من أمة العرب بعد أن كابدت فى دهرها الطويل

ما كابدت من ذل الانقسام وفشل الفرقة أن تتعظ بالخطوب وتستفيد من الأخطاء وأن تذكر أن العصبية هى داؤها الموروث وعدوها الكاشح ، وأن سياسة الإسلام الأولى كانت التأليف بين القلوب ، والمساواة بين الأجناس ، والتوحيد بين الأشتات ، حتى من الله على رسوله بقوله : لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم .

على أن العصبية التى أفسدت كيان العرب وأوهنت بناء الإسلام لم تمت إلا فترة قصيرة فى حيـــاة الرسول . فلما استعز الله به انبعثت فى (السقيفة) بين المهاجرين والأنصار تقول منا أمير ومنكم أمير . ثم سلطها الشيطان على الخلافة فانقسم العرب شيعا : وأغراها بالدين فانشعب المسلمون فرقا ، تتقاطع بالضلال وتتعادى فى الباطل وترى كل فرقة أنها هى وحدها الناجية . ولو كان تحزب العرب وتشعب المسلمين لمبادىء تصلح الدنيا وتعز الدين لكان ذلك أخلق بهم وأولى منهم ، ولكنهم اختلفوا تعصبا للجنس والنفس أو اتباعا لهوى الأجنبى توسلا لبلوغ الحكم أو إخضاع الخصم أو مرضات الدخيل . ولو ذهبنا نستقرى عوامل الشقاق والانشقاق بين العرب فى جميع الأطوار والأقطار لما عدونا ما ركب فى طباعهم من حب الظهور ورغبة التفرد ورذيلة الحسد . وكان أخشى ما يخشاه الزعيم الأعظم على أمته الخلاف والفرقة لتأصل هذين الداءين فى طباع البدو ، فقد اضطرهم جدب الصحراء إلى أن يأكل بعضهم بعضا بالإغارة والغزو فجر ذلك عليهم فساد القلوب ودوام الحروب وذهاب الأمن وتشعث الألفة. فلما ظهر الإسلام كان أول ما دعا إليه التوحيد فى الله وفى العقيدة وفى الكلمة وفى اللغة وفى القبلة وفى الحكم وفى التشريع وفى الغاية . ثم حض على لزوم الجماعة ودوام الألفة فسن الجماعة فى الصلاة وفرض الاجتماع فى الحج . وأرسل الرسول فى ذلك الأحاديث وضرب له الأمثال فقال : يد الله مع الجماعة . المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا . المؤمن آلف مألوف . ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف .

ولكن الداء كما قلت مخامر ، والطبع غلاب ، فضت العصبية المهلكة تفرق الكلمة وتحلل العقدة وتصد العقول عن إدراك الصالح ، وتحجب العيون عن رؤية الخطر ، حتى لنجد العرب اليوم يهد قوامهم هذا الداء فيتدابرون ويتناكرون ولا يعالجون ضعفهم بما عالجت به الطبيعة ضعف النمل والنحل من التكتل والتعاون والتضامن ، وإنما غرتهم الأمانى فاتخذوا عدو الله وعدوهم أولياء وحلفاء ، وغلبت عليهم الأثرة فتخاذلوا فى الشدة وتحاسدوا فى الرخاء . والشعوب العربية من ضعف الإيمان ورهبة السلطان لا يستطيعون أن يقولوا للقائد الذى ضل وللدليل الذى جار : من ههنا الطريق .

ومن أحاديث الرسول فى هذا المعنى قوله : إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية ، والقاصية هى النعجة التى استهواها بعض العشب على جانب الطريق فتلهت به حتى انفردت عن القطيع وغابت عن أعين الرعاة . فلما دهمها الذئب لم تجد بجانبها راعيا يذود ولا كلبا يحمى فأكلها . ولو أنها بقيت مع القطيع تأكل ما يأكل وتشرب ما يشرب وتسير حيث يسير ، لما كتب لها القدر من دون أخواتها هذا المصير .

وقد تنبأ الرسول صلوات الله عليه بمصير أمته إذا تفرقت بها السبل وتقطعت بينها الأسباب فقال : يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن .

فقال قائل : أو من قلة نحن يا رسول الله يومئذ ؟ فقال لا . انكم يومئذ لكثير . ولكنكم غثاء كغثاء السيل :

والمراد من التشبيه بالغثاء انحلال من غير تماسك ، وشتات من غير وحدة ، وكثرة من غير قوة ، وصورة من غير روح .

تلك يا زعماء العرب سياسة الرسول وهداية دينه . فهل آن لكم أن تتذكروها وتتدبروها فتعملوا للوحدة وتعودوا إلى الجماعة ؟ إن فى يقظة الوعى العربى ، وإن فى نهضة العالم الإسلامى التى بدت فى تعاطف الإخوة على البعد ، وتناصفهم فى القرب ، وتحالفهم على الأحداث المغيرة ، وتمردهم على الأحلاف المريبة ، لأشعة من تباشير الصباح قبلها الليل المظلم ، وبعدها النهار المشرق .

— ٤ —

بعض الأمثال فى بعض الشعوب

(اسرائيل كان عدو الاسلام فى يثرب ،
وهو عدو العروبة فى فلسطين) .

لكل شعب من الشعوب خصال من المدح أو الذم رسخت فى أصوله بحكم الفطرة ، وانتشرت فى فروعه بفعل الوراثة ، فتناقلتها الأجيال وسارت بها الأمثال وتندرت بها المجالس . فكما تضرب الأمثال بالسكسونيين فى البرود والصبر والأناة ، تضرب باللاتينيين فى الحمية والحدة والتهور . وكما تضرب الأمثال بالعرب فى الشجاعة والفصاحة والكرم ، تضرب باليهود فى الأنانية والعصبية والحرص . وقد جعلت حديث الليلة سرداً لبعض الأمثال التى أرسلت فى شعب إسرائيل ، فإن الحديث عنه لا يزال فى الشرق والغرب يحز الآذان ويخدش الأذهان كل يوم . وأبدأ بالمثل الذى ضرب به الله فى كتابه الكريم وهو قوله تعالى : « مثل الذين حُملوا التوارة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا . بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله » أرسل الله موسى بالتوراة إلى بنى إسرائيل وكلفهم العمل بما فيها فلم يعملوا ، فكان مثلهم مثل الحمار الذى يحمل فوق ظهره الكتب القيمة ولا ينتفع بها لجهله وفساد عقله .

ومن أمثال العرب فى حب اليهود للمال قول أبى حيان فى رجل لطيف الحس : هو أعشق للجمال ، من اليهود للمال . ومنه قول حافظ ابراهيم يصف غادته اليابانية :

كنت أهوى فى زمانى غادة وهب الله لهـــا ما وهبا
ذات وجه مزج الحسن به صفرة تنسى اليهـــود الذهبا

وعشق بنى إسرائيل للمال وجمعهم له وحرصهم عليه وبخلهم به طبع فى أصل الخلقة نشأ فى أغلب الظن من طول ما مدوا أعينهم إلى ذهب الفراعنة وهم فى مصر . يتبين ذلك من قول يوسف عليه السلام لفرعون وقد أصبح أثيرا

عنده كريماً عليه : « اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم » فطلب يوسف ابن إسرائيل الولاية على بيت المال ولم يطلب الولاية على غيره . كذلك تتبين غريزة حبهم للمال مما فعلوه يوم خرجوا من مصر مع موسى ، فقد استولوا بالخديعة والحيلة على مقدار ضخم من حلي المصريين . أخذ كل منهم ما أخذ من صديقه أو جاره على سبيل الاستعارة وهو يضمر الفرار به فلما دخلوا صحراء سينا وذهب موسى إلى ميقات ربه على جبل الطور عمدوا إلى ما سرقوا من الحلي فأذابوه في النار وصاغوه عجلا ظلوا عاكفين على عبادته حتى يومهم هذا . ولقد قال لهم المسيح عليه السلام . « لا تعبدوا إلهين : الله والمال » فلم يكترثوا لقوله ومضوا يخلصون الدين للذهب و يصدقون الجهاد في سبيله . فشعائرهم الصياغة والصرافة والسمسرة وأعمال البنوك ، وقرابينهم أكل السحت وإشاعة الربا واستحلال المنكر وتخريب البيوت ، وأحبارهم المقدسون قارون ويهوذا وشيلوك .

فقارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ، وآتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة . وهو الذي قالوا فيه مثلهم المعروف : قارون ولا هرون . يريدون أن صاحب المال أحب إليهم من صاحب النبوة .

ويهوذا كان من حواريي عيسى فأضله حب المال فخانه بثلاثين فضة بعد أن قبّله وهو منصرف تلك القبلة المعروفة بقبلة يهوذا .

وشيلوك هو المرابي الذي أبدع تصويره شكسبير في مسرحيته (تاجر البندقية) فسيره مثلا في الطمع والقسوة والحقد .

ومن طريف ما يتداعب به الناس على حب اليهود للمال أن حاخاما كان عائدا من الكنيس مساء السبت فأبصر على جانب الطريق قطعة من النقود الذهبية ، فوقف أمامها جامدا كأنما سمرت قدماه في الأرض ! ماذا يعمل ؟ أيلتقطها ودينه يحرم عليه أن يقبض مالا أو يعمل عملا يوم السبت ، أم يتركها وطبيعته تأبى عليه أن يترك قطعة من قلبه وشعلة من روحه ؟ وأخيراً اهتدى إلى

حل يوفق بين عقيدته وطبيعته ، فخلع رداءه وطرحه على القطعة الذهبية ونام فوقه حتى طلع الفجر ؟

على أنهم بهذا المال المعبود استطاعوا أن يشتروا انجلترا ، وأن يحكموا أمريكا ، وأن يغتصبوا فلسطين مشرق الهدى والسلام ، ومهبط الوحي والإلهام ومجتلى عين موسى ، ومسرح قلب عيسى ومسرى روح محمد ، وقبلة الإسلام الأولى ، وقلب العروبة النابض ، ووطن مليون ونصف من العرب ؟

ومن تلك الأمثال قول العرب : أذل من يهودى بيثرب . وذلك أن يهود المدينة كانوا قد عاهدوا الرسول على الأمان والضمان ، ولكنهم نقضوا العهد وظاهروا العدو وائتمروا بالرسول ليقتلوه . فحاربهم المسلمون حتى أجلوهم عن يثرب إلى الشام وخيبر . فكان اليهودى من غير بنى النضير إذ دخل يثرب دخلها ذليل النفس وضيع المكانة .

ومن أمثال الأندلسيين فيهم قولهم : أضل من اليهودى التائه . واليهودى التائه رمز على شعب إسرائيل بعد أن مزقهم الله فى الآفاق وضرب عليهم الذلة والمسكنة

وأصل المثل أن المسيح عليه السلام مر بدار أحد اليهود وهو منهوك القوة من ثقل ما يحمل ، مكروب النفس من شدة ما يعانى ، فأراد أن يستريح قليلا فى ظل الدار فدفعه اليهودى عن ظلها بقسوة وشدة . فقال له المسيح وهو يخاطب فى شخصه كل اليهود : « ستظل تائها فى الأرض حتى أعود » . فهل عاد المسيح فى ثياب (جون بول) أو (العم سام) أم كذبت نبوءة السيد ؟ إن لعنة الله ودعوة المسيح لا تزالان تحرقان قدمى إسرائيل . فهو لا تثبت له قدم فى أرض ، ولا تطمئن له نفس فى وطن . وكان من أثر ضلاله البعيد فى الأرض أن اكتسب أخلاق النور ؛ فهو يلص ليعيش ، ويخدع ليغلب ، ويتوحش ليأمن ، ويتعصب ليدافع ، حتى انقطعت بينه وبين الناس علائق النوع فأصبح خلقا آخر لا يألف

ولا يؤلف . فمحاولة إسكانه مع غير أهله وفى غير أرضه تكذيب لكلمة الله وتزوير على قانون الطبيعة .

لم أجد فيما علمت من الأمثال مثلا سار بخصلة من خصال المدح فى شعب الله (المختار) لا المختار ، إلا مثلا واحداً ضرب به العرب فى الوفاء بالسموءل فقالوا : «أوفى من السموءل» . والسموءل بالعربية أو صموئيل بالعبرية شاعر يهودى كان له حصن بتيماء سماه الأبلق الفرد . وكان امرؤ القيس الملك الشاعر قد جمع جيشاً من بعض القبائل ليثأر لأبيه من بنى أسد . ولكن المنذر بن ماء السماء عالنه بالحرب لموجدة كانت فى نفسه على قومه . وأمده كسرى أنو شروان بجيش من الأساورة ، فتفرقت جموع امرىء القيس خوفاً من المنذر ، وسار هو فى القبائل يطلب النصر حتى سدت عليه وجوهه . فلجأ إلى السموءل بن عاديا فاستودعه دروعه وطلب منه كتاب توصية إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ملك الشام ليوصله إلى قيصر الروم وهو يومئذ جستنيان زوج تيودورا . فلما بلغ امرؤ القيس القسطنطينية أكرم القيصر وفادته وطمع أن يكون قوة له فى العرب يربض له الأمور ويضعف نفوذ الأكاسرة . ولكن الموت أدركه فى أنقرة وهو عائد إلى وطنه . فلما أتى المنذر خبر موته ذهب إلى السموءل يطلب منه أن يدفع إليه ودائع امرىء القيس لأنها من مغانمه ، فأبى أن يردها السموءل إلا لأهله . ورأى الشر من الملك فاعتصم بحصنه . وأحكم المنذر عليه الحصار . واتفق أن تخلف ابن السموءل عن دخول الحصن قبل أن يغلق فأسره المنذر ونادى أباه من وراء السور أن يدفع إليه الدروع وإلا ذبح ابنه . فاستمهله السموءل ليلته ، ثم بات موزع الرأى بين العاطفة والواجب ، مضطرب النفس بين الثكل والعار . فلما أصبح أطل على المنذر وقال . لا سبيل إلى دفع الدروع فاصنع بأسيرك ما أنت صانع . فذبح ابنه وهو ينظر إليه .

لقد كان من الجائز ألا نقبل هذا الشذوذ فى طبيعة إسرائيل ونحمل الأمر على أن الدروع حلت فى عين السموءل فاستأثر بها وفاء لنفسه لا وفاء لامرىء القيس ، معتمدين على أن معاملة إسرائيل للعرب كانت سلسلة من الشقاق والنفاق والغدر ، لولا أن الأعشى وهو قريب عهد بالحادث قد نوه به وقال :

كن كالسموءل إذ طاف الهمام به | فى جحفل كسواد الليل جرار
بالأبلق الفرد من تيماء منزله | حصن حصين وجار غير غدار
فقال غدر وثكل أنت بينهما | فاختر فما فيهما حظ لمختار
فشك غير طويل ثم قال له | اذبح أسيرك إنى مانع جارى

على أن السموءل إن يكن يهودى الأصل فهو عربى النشأة بدوى الطبع . وقصيدته اللامية الخالدة فى الفخر تباعد ما بينه وبين إسرائيل ، وتمثل الشمائل العربية فى نفسه أصدق تمثيل . فلنسقط إذن من الحساب مثل الوفاء ، ولنكتف الليلة بهذا القدر فإن مساوىء صهيون لها ابتداء وليس لها انتهاء .

جمهورية من نوع جديد

(١٨ يونية سنة ١٩٥٣)

تاريخ الإنسان حافل بالثورات والانقلابات ، ولكنها كانت في الأكثر الأغلب غزوات جنس لجنس ، أو نزوات طبقة على طبقة . تقوم إما استئثارا بخير أرض ، وإما استبدادا بحكم شعب . أما مبادىء العدل الاجتماعي والخير الاشتراكي والإخاء الإنساني ، فقد كانت تذكر — إذا ذكرت — على سبيل النفاق الذي يحجب الضمير الفاسد ، ويستر النية السوء . كانت على أفئدة الغزاة وألسنة الساسة أشبه بالغطاء الذهب على الناب العضوض ، أو بالصبغ الأرجواني على الظفر الحاد !

لم تقم ثورة ولا جمهورية كما قامت ثورة مصر وجمهورية مصر . قامتا على أساس من الحق الطبيعي الصريح والرأي الذاتي الحر ؛ ولم تقوما على شهوة تطلب السيطرة ، ولا على قوة تبغي الاستعمار . قامتا على السلام لا على الحرب ، ونشأتا في النظام لا في الفوضى ، ونبتتا بالعمل لا بالمنى ، وسقيتا بالعرق لا بالدم ، وأثمرتا للمنفعة العامة لا للمصلحة الخاصة ، واعتمدتا على الاشتراكية المسلمة لا على الرأسمالية المشركة ، ونبعتا من إرادة الشعب الأصيلة لا من مشيئة القوة الدخيلة ، وبرهنتا بالفعل للشعوب المستضعفة المستذلة أن أغلال العبودية وأثقال الطغيان مهما تهد من بنيانها على تتابع القرون ، وتضعف من إيمانها بتوالي الخطوب ، لا بد أن تشعر يوما من الأيام أن لها قوة تأتي العجب إذا أرادت ، وأن لها إرادة تحقق المستحيل إذا وعت ، وأن لها وعيا ما دام لها عقل ، وأن لها عقلا لا يطفىء نوره إلا الجهل ، ولا يميت شعوره إلا الرق ، وهيهات أن يجعل الله الليل سرمدا على العيون فلا تبصر ! إنما هو ليل يعقبه صباح ، ونوم تتلوه يقظة . ولقد طال الليل على مصر حتى نسيت النور ، وثقل عليها النوم حتى جهلت الحياة . طال ليلها في الاستعباد

خمسة وعشرين قرنا لم يتول فيها أمرها وخيرها أحد من بنيها ، وإنما كانت طوال هذه القرون نهبا للغزاة والفاتحين من كل جنس ومن كل لون ومن كل أرض.

بدأ هذا الليل الطويل باستيلاء الفرس على ملك مصر سنة ٥٢٧ قبل الميلاد ، ولم ينته إلا بقيام هذه الجمهورية سنة ١٩٥٣ بعده : ألفان وأربعمائة وثمانون سنة مضت على سقوط الدولة المصرية الأولى ، تعاقب على عرشها المغصوب فى خلالها الفرس واليونان والرومان والعرب والكرد والزنج والجركس والترك والأرناءود والفرنسيون والإنجليز ! وكانت مصر فى كل عهد من تلك العهود ضيعة يستغلها الحاكم الأجنبي لنفسه ولجنسه . وكان المصرى فى كل دولة من تلك الدول عبدا للمالك يسخر بأمره ، ويخضع لحكمه ، حتى تأصلت فيه صفات العبودية من الرضا والقناعة والاستكانة والصبر ، يستبد بحكمه طاغية كالحاكم بأمر الله فيستكين ، ويغلب على عرشه خصى ككافور فيخضع ؛ وتملك عليه إمرأة كشجرة الدر فيطيع ؛ ويسيطر على أمره الأجنبي فيرضى ؛ ويستأثر بخيره المستعمر فيقنع ؛ ويخلعه بالقتل صاحب الحكم فينقاد ؛ ويسمع بالأحداث تتدفق على وطنه وتتواثب على قومه فلا ينبض فيه عرق ، ولا يغلى له جوف ! كأنما كل امرىء فى مصر — وبخاصة فى الريف - أمة وحده . شأنه يعنيه ، ورزقه يكفيه ، وكوخه يأويه ، وكل ماخرج عن بيته وغيطه لا يعنيه ! وعلى ذلك عاش الفلاح المصرى هذا الدهر الداهر عبدا للأرض لا يعرف أن فوقها سماء فيها الروح والرؤية ، وأن وراءها حدودا فيها الطموح والأمل. ولم يكن من المعقول فى منطق المستعمر ولا فى شريعة الغاصب أن ينبه من يستذله ويستغله إلى أنه إنسان : فمن حقه أن يحيا الحياة الكريمة الحرة ، وإلى أنه صاحب هذا الوطن وعماد ثروته وحصن دفاعه ، فمن حقه أن يتمتع بالأمن فى ظله ؛ لأن مالك القطيع لا يستطيع أن يستأثر بلحمه ولبنه وصوفه ونتاجه إلا إذا ظل جاهلا ما فى مجموعه من قوة ، وغافلا عما فى قرونه من سلاح .

وهكذا ظللنا خمسة وعشرين قرنا من قيام قمبيز الفارسى ، إلى سقوط فاروق

الأبانى ونحن خاضعون للحاكم الغريب الواغل ، نمسك الفأس وهو يمسك الكرباج ، ونأكل التراب وهو يأكل الذهب ، حتى أراد الله أن تنبعث نخوة الفراعين والعرب فى نفوس فتية من شباب هذا الوادى نشأوا من صميم أهله ، ودرجوا فى حقول قراه ، فانتفضوا إنتفاضة العزة ، وثاروا ثورة الكرامة . ثم نفخوا فى الصور ، فنهض الجيش ، وانبعث الموتى ، وحكم الفلاحون مصر ، وآن لفرعون الذى قال : « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون » أن يطمئن فى تابوته إلى أن ملكه قد عاد إلى بنيه من جديد ، بعد هذا الدهر الطويل الثقيل الذى عاشوه عيش العبيد !

قامت الثورة منذ ثلاث سنوات لاستخلاص الوطن لبنيه بطرد الدخيل وإجلاء المحتل ، وقامت الجمهورية منذ سنتين لإقرار الحكم فى أيدى المواطنين الصالحين بتمكين الشعب الكادح من التشريع لنفسه والقيام على شؤونه . وأخذ الأحرار يحيون فى النفوس التى ألح عليها الاستعباد معانى الاستقلال والاستعلاء ، وأقبل قائد الثورة على كل مواطن يقول له ارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الانحناء » . وشعر المصرى لأول مرة فى تاريخه أن أرضه له ، وأن حكامه منه ، وأن ماينتجه يدخل فى يده ، وأن ماينفقه يعود إلى بلده . وقد كان من قبل ذلك يزرع وصاحب الأرض يحصد ، ويصنع وصاحب المال يبيع ، ويدفع وصاحب الحكم يتمتع ، ويشقى وصاحب العرش ينعم !

كان تاريخ مصر كله سلسلة متصلة الحلقات من المجاعات والطواعين والغرق والشرق والاضطهاد والاضطراب والسخرة . وكان الشعب مع أولئك كله يؤدى الضرائب ويدفع (الفردة) وهو معدم ، ويفلح الأرض ويقاتل العدو وهو مريض . فلما أشرق صباح العهد الجديد بإعلان الجمهورية أصبح هذا التاريخ فى يد الشعب نفسه ، يوجهه إلى القصد الذى يريد ، ويجريه على الوجه الذى يحب .

لقد أصبح الملك والأمر للشعب . هو الذى يدبر ماء النيل ويعالج جديب الأرض ليدفع عن نفسه الفقر . وهو الذى ينشىء المدارس وينشر الثقافة ليدفع عن قلبه الجهل . وهو الذى يقيم المستشفيات ويعمم الوقاية ليدفع عن جسده المرض . وهو الذى يعد القوة ويهيىء العدة ليدفع عن وطنه العدو . وهو الذى يطلب منه قادته اليوم أن يختار النظام الذى يحكم به ، والدستور الذى يسير عليه .

لقد أصبح إذن صاحب العرش وصاحب الجيش وصاحب الحكم وصاحب الثروة ، فمن حقه أن يحتفل بعيد الجمهورية هذا اليوم ، مزهواً بجهاده ، فخوراً بقواده ، معبراً بهتافه المرتفع وتصفيقه المدوى وحماسه المتقد وسروره الدافق عن اطمئنانه الواثق إلى حاضره المستقر ، وعن أمله الفسيح فى مستقبله المشرق .

يوم الجلاء

(٢٧ يوليو سنة ١٩٥٤)

ما أعظم هذا اليوم من تاريخ مصر ؟ وأى يوم أعظم من يوم الجلاء ؟ جلاء المحتل عن أراضى الوطن ، وجلاء الذل عن نفوس الشعب . ولكل أمة من الأمم الحية الناهضة يوم كهذا اليوم ، يشرق فى ماضيها إشراق العيد ، ويومض فى مستقبلها وميض الأمل . وهو أجل من آجال الله إذا جاء لا يؤخر . إنما يسبقه ليل طويل بالألم ، مظلم باليأس ، مرعد بالهول ، مطلول بالدم . أوائله خطوب وأواخره ضحايا ؟ ولقد كان ليل مصر الباسلة من أطول هذه الليالى وأهولها . كان طوله اثنين وسبعين سنة ثقالا قضيناها تحت نير الاحتلال الإنجليزى الباهظ ، نحرث وهو يسوق ، ونزرع وهو يحصد ، وننتج وهو يستفيد ، ونعمل وهو يوجه !

كان لنا عرش ولم يكن لنا مُلك . وكانت لنا حكومة ولم يكن لنا حكم . وكان لنا وطن ولم يكن لنا أرض ؟ كان الملك الفعلى لانجلترا ، والحكم النافذ للعميد ، والأرض الطُيبة للدخيل .

وكان الذين مكنوا للاحتلال ووسعوا من نفوذه وأطالوا من عمره خلفاء الخائن (توفيق) ومن وزر لهم أو اعتز بهم من طلاب الحكم ومحترفى السياسة . وأكثرهم دخيل لم يجر فى عروقه الدم المصرى الكريم ، فلما أذن الله لهذا الليل الطويل أن ينجلى ، ولهذا الاحتلال الثقيل أن يزول ، جعل حكم مصر فى أيدى نفر من أبنائها لم يولدوا فى مهود النعيم ، ولم يصابوا بأمراض الغنى ، وإنما نشأوا فى قرى الريف فذاقوا الألم ، وشبوا فى مدن الحضر فعرفوا

النقص ، وانتظموا فى كتائب الجيش فـكشفوا الداء . ثم تجلت فيهم عبقرية الجنس فثاروا ثورتهم المباركة على الطغيان الفاحش فـكان يوم الحرية ، ونهضوا نهضتهم الحازمة للاحتلال الظالم فـكان يوم الجلاء .

أما يوم الحرية ، أو اليوم الثالث والعشرون من شهر يوليو سنة ١٩٥٢ فـكان خاتمة لاثنين وأربعين قرنا من العبودية ، ابتدأت برفع (مينا) على العرش، وانتهت بخلع (فاروق) من الملك . كان الشعب المصرى طيلة هذه القرون أشبه بقطيع من الدواب لا إرادة له فى نفسه ، ولا قيادة له من جنسه؛ وإنما كان يتولى قيادة رعاة طغاة سموا أنفسهم آلهة أو ملوكا أو ولاة ، سخروه ليظلموه ، واستغلوه ليحرموه ، ولم تعصمه هداية الدين من عبث خليفة كالحاكم ، ولا مدنية العلم من فجور ملك كفاروق .

أما يوم الجلاء ، أو اليوم السابع والعشرون من شهر يوليو سنة ١٩٥٤ فـكان خاتمة لأثنين وسبعين عاما من الذل ، جثم فيها الاحتلال الثقيل على صدر الوادى من جنوبه إلى شماله جثوم الـكابوس المهلك ، فحجب الضياء ومنع الهواء وشل الحركة . وحاولت مصر أن تزحزحه بسلاح الحق وسلطان الحجة فلم تظفر إلا بالوعود الخالبة والأقوال الـكاذبة . ثم استعان على قهرنا بالضعف والجهل ، فمنع جيشنا السلاح والتدريب ، وحرم شعبنا العلم والتهذيب ، وقطع ركبنا عن قافلة الحياة فأخرنا فى المسافة والمدة .

إن معركة القنال رد حاسم على معركة التل الـكبير . وإن انتصار جمال عبد الناصر فى السياسة انتقام عادل لهزيمة أحمد عرابى فى الحرب . وإن الجيش الذى أخرج الإنجليز من مصر بقوته ، قد غسل العار عن ذكرى الجيش الذى أدخلهم فيها بضعفه ؟ .

فاليوم ، وليس قبل اليوم ، نستطيع أن نقول بملء الفم إن جهادنا ختم بالنصر ، وإن نصرنا كلل بالفخر ، وإن فخرنا فخر من سعى فأدرك وجاهد ففاز وغالب فغلب . لم يعد على رأس دولتنا طاغية غريب الدم ، ولا على رأس حكومتنا سياسي خسيس الهوى ، ولا على أرض وطننا دخيل فاسد النية . وذلك هو الاستقلال الكامل الذى تسمو به النفوس ، وتنهض فيه العزائم ، وتطيب معه الحياة .

إن أول من ذكر الجلاء بصدق ، وأراد معناه بحق ، وجاهد فى سبيله بإخلاص ، هو الزعيم الشعبي الأول مصطفى كامل . فقد اضطرمت فى جسده الناحل روح الله فثار ثورة الجبارين ؛ وثبت ثبات الرسل ، وقام فى وحدة النبي وإيمان الشهيد يجاهد الشرك بالوطن والكفران بالأمة ، ويقارع المحتلين بالحجج الثائرة . والمحتلون يومئذ كانوا علة العلل ودولة الدول ، ثم عاش كأصغرنا ، وسعى كأقدرنا ، ومات كأفقرنا . فكان مثالا للوطنية التى لا تتاجر ، وللوطنى الذى لا يداجى ، وللزعيم الذى لا يخون .

ثم خلفه على تكاليف الدعوة زميله محمد فريد ، فحبس على أمته ثروته ورضى بالجوع ، ورصد لها قوته وصبر على المرض ، واستمر يدعو إلى الجلاء حتى اشتد عليه أذى المحتلين وكيد المنافقين فهاجر ناجيا بحريته وفكرته . ثم كابد فى سبيل وطنه الفقر والمرض والغربة حتى أدركه الموت وليس فيه إلا فم يهتف بالحرية وإلا قلب يخفق لمصر .

لذلك كان من النبل أن يذكر رئيس الحكومة وبطل الحرية والاستقلال هذين الشهيدين فى يوم الجلاء ويحيى ذكراهم فيمن حيا ؛ فان الجهاد فى سبيل الوطن غاية لكل جيل فى طريقها خطوة ، وبناية لكل عامل فى إقامتها حجر .

والخطوة اللاحقة لا ترد الخطوة السابقة ، والحجر الأعلى لا ينقض الحجر الأسفل .

أما الآخرون من بعد (سعد) فقد اتخذوا طلب الجلاء حرفة ، وجعلوا الدفاع عن الدستور وسيلة . لذلك كثر الكلام ، وقل العمل ، وتشعبت المسالك ، وبعدت الغاية .

إن هذه الثورة المباركة الخصبة نصر من الله ونور من الحق . صنعت لمصر فى عامين ما لم تصنعه الحكومات المتعاقبة فى نصف قرن . ذلك لأن الجيش من طبعه أن يعمل ولا يقول ، ويعزم ولا يتردد ، ويقدم ولا ينكص . وإن السياسة الجدية العملية التى يضعها قادة الثورة من غير لجان ، وينفذونها من غير إعلان ، لسخرية أليمة من تلك الخطب الطوال التى كان يلقيها رئيس الحكومة باسم رئيس الدولة فى افتتاح كل دورة من دورات البرلمان فيجعجع بها جعجعة الرحا التى تطحن القرون ، تسمعك ما يصدع ، ثم لا تريك ما يفيد .

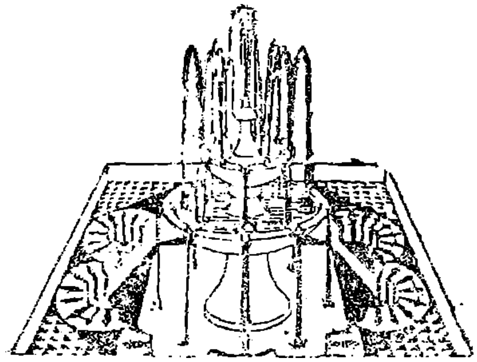

محمد إقبال

تحية لشاعر الإسلام فى يوم ذكراه

فى مثل هذا اليوم من عام ١٩٣٨ ابتسم إقبال للموت تلك الابتسامة التى جملها علامة الموت فى آخر بيت قاله ، ثم توارى بالمغيب كما تتوارى الشمس بالحجاب بعد أن قبس العالم الإسلامى حرارة ستجدد له الحياة ، ونوراً سيضىء له الطريق . وما كان إقبال إلا بضعة من طبيعة الهند المؤمنة ، نفخ فيها الإسلام من روحه فخلصت خلوص الحق ، وسطعت سطوع الهدى ، وصفت صفاء الفطرة . ثم تبلورت فيها برهمية الهند الموروثة ، ومحمدية العرب المكسوبة ، فكان منهما فلسفة شعرية فريدة ، لا هى عدمية مترددة شاكية كفلسفة أبى العلاء ، ولا هى وجودية ملحدة قاسية كفلسفة نتشه ؛ وإنما هى الإسلامية الموحِّدة المؤلفة السمحة كما أوحاها الله بروحيتها النابعة من القلب الشاعر بآلام الأرض ، وماديتها الصادرة من العقل المتصل بإلهام السماء .

فهم إقبال الإسلام على حقيقته التى أنزلها الله . وعلى رسالته التى بلغها الرسول ، وعلى سياسته التى نفذها الصحابة . فهمه على أنه عمارة الدارين بالعمل الصالح ، وسعادة الحياتين بالإيمان الحق ، وقوة المشرقين بالوحدة الشاملة . فدعا إلى استقلال الذات فى الفرد عن طريق الإيمان والعبادة فى ديوانه (أسرار خودى) ، وإلى يقظة الوعى الإسلامى فى المجتمع عن طريق الثورة والجهاد فى كتابه (بالك درا) أو صلصلة الناقوس ، إلى توثيق الأخوة الإسلامية فى الشرق عن طريق التوحيد والتعاون فى ديوانه (بيام مشرق) أو رسالة الشرق .

ثم كان هذا الرجل المختار الذى نبت جسده فى رياض (كشمير) ، وانبثق روحه من ضياء (مكة) ، وتألف شعره من ألحان (شيراز) ، لساناً لدين الله فى دنيا العجم . يفسر القرآن بالحكمة ، ويصور الايمان بالشعر ، وينشىء الفرد على الاستقلال والعزة ، ويؤسس المجتمع على التقوى والمحبة ، ويدعو إلى حضارة شرقية قوامها الله والروح ، وينفر من حضارة غربية عمادها الانسان والمادة ، ويشيد بماضى الاسلام الذى حرر الرؤوس وطهر النفوس وأصلح الأرض . ويندب حاضر المسلمين الذى مزق التراث المحمدى كل ممزق ؛ ويشنع على طغاة الاستعمار الذين سخرهم الشيطان لافساد الكون فسخروا العلم لاستغلال الطبيعة ، وسخروا الطبيعة لاستعباد الناس . وهم الذين عناهم إقبال بقوله فى بيت شعر من شعره معناه : « خلقت يارب من النار إبليساً واحداً ، وخلقت من الطين مليون إبليس ! » . ثم يقطع الشعر حسرات على دين أحاله الجهل والضعف فى نفوس أهله إلى شعائر من غير شعور ومناسك من غير نُسك . ويعى على المصلين ألا تنهاهم الصلوات عن الفحشاء والمنكر ، وعلى المزكين ألا تطهرهم الزكوات عن الأثرة والشح . ويقول لأولئك الألوف الذين يذهبون كل عام إلى الحجاز وهم لا يدركون سر الحج ولا معنى الجماعة فى بيت من شعره الثائر الساخر :

« أما يسال أحد أولئك العائدين من حج البيت المحرم ! ألم يجدوا هناك ما يهدونه إلينا غير قارورة من ماء زمزم ؟ ! . »

فإذا كان حسان شاعر الرسول فإن إقبالا كان شاعر الرسالة . وإذا كان لحسان من ينازعه شرف الدفاع عن محمد فلم يكن لاقبال من ينازعه شرف الدفاع عن المحمدية . وشتان بين من يمجد الداعى الأكبر عن عصبية ومن

بمجد الدعوة الكبرى عن عقيدة . وإذا كان فى شعراء الصوفية من عطر مجالس الذكر بفضائل الإسلام وشمائل النبوة كجلال الدين الرومى ، فليس فيهم من بلغ مبلغ إقبال فى فقه الشريعة وعلم الحقيقة ، والتأمل الفلسفى فى كتاب الله ، والنظر العلمى فى كلام الرسول ، والجمع بين قديم الشرق وجديد الغرب فى قوة تمييز وسلامة فهم وصحة حكم .

عرفت إقبالا عن طريق فكرته وعلمه ، لا عن طريق لغته وفنه . والحكم على العالم الفيلسوف بما ينقل من علمه وفكره جائز ؛ ولكن الحكم على الشاعر الفنان بما ينقل من شعره وفنه مستحيل . وما علمناه من آراء إقبال فى الإسلام والمسلمين مجرداً من وحى اللغة وسحر الأسلوب وحلية الفن وإشعاع الروح يحله محل الزعيم المصلح ، فكيف إذا قرأناه علماً فى فن ، وشعوراً فى شعر ، وواقعاً فى خيال ، وحقيقة فى مجاز ، وفكرة فى صورة ؟!

على أننا تذوقنا شيئاً من فن إقبال فى فن صديقه عزام بالقدر الذى تعطيه الصورة الشمسية من الصورة الطبيعية . فقد تلاقى الرجلان فى ديوانى (رسالة المشرق) و (ضرب الكليم) فكان تلاقيهما المبارك الموفق رفداً للأدب العربى خصّب عليه روضه ، ونضّر به عوده . والمرجو أن تنقل نفحات إقبال كلها إلى لغة القرآن ، فإنها لآياته المحكمة المفصلة بمثابة التفسير الملهم .

ولقد انتقل شاعر الخلود إلى دار الخلود وفى نفسه أن يقرأه العرب كما يقرأه العجم . فمن الوفاء لذكراه أن نحقق له هذه الأمنية . ومن البر بالعروبة أن ترفدها هذه العبقرية . ومن فضل الله على إقبال أن حقق له أكثر أمانيه .

فها هى ذى باكستان كما أراد يلتئم شملها ، وتجتمع قواها ، فتنهض فإذا هى معقد رجاء الإسلام ومهوى فؤاد العروبة .

وها هى ذى أمة القرآن كما تمنى يشرق صبحها من جديد فتستيقظ وتعى ، وتتآلف وتتعاطف ، ثم تتقارب وتتحد ، ثم تهب فى كل مكان فتثور على المستعمر ، وتتمرد على الطغيان ، وتنبو على القيد ، و تملك قيادها رجال السيف ، وتولى أمورها أهل العمل ، وتريد أن تكون فى السياسة الدولية كتلة ثالثة يستقر بها النظام ، ويطمئن لها السلام ، ويصلح عليها الأمر .

رحم الله محمد إقبال رحمة الصالحين المصلحين ، وأثابه ثواب العاملين المخلصين ، وأتاح له من يواصل دعوته لتدوم . ومن ينشر فكرته لتعم .

أصول الفن الخطابي

خلاصة حديث ألقي على أعضاء لجنة الخطابة في بعض المعاهد

الخطابة كالشعر من أقدم الآثار الأدبية عهداً لاعتماد الانسان منذ خلق على أن يدفع عن نفسه وقومه بلسانه، كما يدفع عنهم بسيفه وسنانه. ولكنها أجل من الشعر خطرا وأقوى أثراً لذهابها في الدفاع مذهب التأثير والاقناع. فهي أداة السياسة والقيادة، ولسان الزعماء والسادة، لا يتعاطاها إلا حكيم أو زعيم أو أمير. وهي في كل دعوة لسانها الناطق وصوتها المرفوع، وفي كل ثورة وقودها الجزل ولهبها المشبوب، وفي كل نهضة روحها الحافز وقوتها الدافعة. لم يقم حكم ولا ملك إلا عليها، ولم يؤيد سلطان ويدفع طغيان إلا بها. كانت سلاح الحرية في أثينا، ولسان الديمقراطية في روما، وفصل الخطاب يوم السقيفة، وعماد الملك الأموى في زلازل الثورات وعواصف الفتن، ومعلنة حقوق الانسان في فرنسا. وهي اليوم على الاخص ضرورة من ضروريات الاجتماع لا يستغنى عنها حاكم ولا نائب ولا كاتب ولا محام ولا معلم ولا ممثل ولا واعظ ولا طبيب، حتى الدكتاتورية التي تقوم على السيف والارهاب لا تدخل على النفوس إلا عن طريق الخطابة. وكل إنسان ظاهر الشخصية لابد أن تقفه الظروف يوماً موقف الخطيب فيستقبل أو يودع أو يكرم أو يؤبن أو يهنىء أو يشكر. فمن نقص التربية وسوء التعليم إذن ألا يؤخذ النشء بها وألا يراضوا على ثقافتها وأدبها، فان وقت الدراسة هو أنسب الاوقات للمرانة عليها لحسن استعداد النفس وإمكان الدرس وصلاح البيئة ووجود المرشد. فواجبكم أن تذكروا دائماً أن رياضة اللسان ورياضة العقل ورياضة الجسم هي أصول الثقافة الحديثة. وسبيلكم أن تمرنوا أنفسكم عليها بالإنشاء

والالقاء والمناظرة ، وسبيلنا أن نعضدكم ونرشدكم ونذيرلكم جوانب الطريق لتصلوا سراعاً إلى الغاية المرجوة .

ماقصدت بهذه الكلمة العجلى أن أفيض القول فى فضل الخطابة وضرورتها، وان أذكر ماقاله العرب وغير العرب فى أثرها ومكانتها ، فان ذلك يكاد يجرى فى العقول مجرى البداهة . إنما أردت أن ألم ببعض الالمام بقواعدها الأولية لتكون لكم دستوراً تسيرون عليه فى قصدكم ، وترجعون اليه فى بحثكم ونقدكم .

عرفوا الخطابة بأنها فن من فنون الكلام يقصد به التأثير فى الجمهور عن طريق السمع والبصر معا . فما يدخل أثره من طريق السمع هو الأسلوب والالقاء والصوت ، وما يدخل أثره من طريق البصر هو الوقفة والهيئة والحركة والملامح . وتلك المؤثرات هى قوام هذا الفن وملاكه . وسأقول كلمة وجيزة فى كل ركن من هذه الاركان بقدر ماينكشف عن سر الجمال والفن فيه :

فالأسلوب الخطابى كالأسلوب الكتابى فى أصوله وقواعده . فكلاهما قائم على إيجاد الافكار على نور العلم، وتنسيقها على أصول المنطق ، ثم أدائها على مقتضى البلاغة . وكلاهما يختلف باختلاف الحال والغرض . ولكن للسمع أسلوبا يمتاز من أسلوب القراءة بتخير الالفاظ المنسقة ، والجمل المنمقة ، والصور البيانية، والاخيلة الشعرية ، والأساليب السهلة الطلية ، والاعتماد على العاطفة والشعور لا على العلم والمنطق ، والافتنان فى تنويع الاسلوب والقصد فيه .

أما تمييز الالفاظ المنسقة والجمل المنمقة والصور البلاغية فلأن كلام الخطيب لا يصل إلى الاذهان إلا من طريق الآذان . وللاذن ذوق فى الجمال لا بد من مراعاته ومرضاته .

وأما استعمال الأخيلة الشعرية فلانها تستهوى المشاعر وتسترق الخواطر وتملك على العقول مذاهب التفكير فلا تستطيع نقداً ولا نقضاً ولامعارضة ؛ وإنما تظل تحت سلطان الخطيب عاطلة ذاهلة حتى ينزلها على

حكمه ، أو يسيرها على نهجه ورسمه .

وأما توخي الأساليب السهلة فلأن عقلية الجمهور السامع غير عقلية الفرد القارىء. فالقارىء لا يؤوده عمق الفكرة ولا صعوبة العبارة لأنه يتذوق ما يقرأ بعقله ، فيقف ويتأمل ويعيد ويوازن ويستنتج ويحكم . وقد يترك الكتاب ليعود إليه مرة أخرى ، ولكن السامع سائر مع الخطيب مدفوع بتياره لا يملك التخلف عنه ولا الإفلات منه . فإذا كانت الفكرة أسمى من علمه ، والعبارة أقوى من فهمه، انقطعت الصلة بينهما وفقدت الخطابة من التأثير بمقدار ما فقد السامع من التتبع والتأثر. وليس معنى السهولة أن يتبذل الخطيب فيستعمل ألفاظ السوقة ومعاني العامة ، فإن الفن جميل نبيل يرفع الجمهور إلى سمائه ، دون أن ينحط إلى حقارته وغبائه. وأما الاعتماد على العاطفة والشعور دون العلم والمنطق ؛ فلأن العقول في الجماعات تضطرب وتتبدد فلا يقيدها المنطق ، ولا يقنعها الدليل . فإذا اشتملت الخطبة على حقائق العلم ودقائق الفلسفة دون أن يكون لها من العواطف روح وحرارة وحركة بعثت السآمة في النفوس والبلادة في الطباع فيستولى على الجمهور فتور كالجمود وسكون كالموت .

قال بوسويه : إن الأهواء والعواطف هي الخطيب في الجماهير .

وقال ميرابو : سر البلاغة الخطابية أن يكون الخطيب ملتهبا بالعواطف .

وقال أعرابي لبعض الوعاظ وقد سمع موعظته فلم تقع من قلبه بموضع : يا هذا إن بقلبك شراً أو بقلبي .

وأما الافتنان في تنويع الأسلوب فلأن النفوس تسأم النغمة الواحدة واللذة المتكررة والصور المتشابهة والأسلوب المسوق على نمط واحد . فلا بد إذن للخطيب أن ينوع خطبته ويغير لهجته ، فيسجع في مواضع التأثير ، ويترسل في مواضع الإقناع ، ويعمد إلى التشبيه في تقرير الحقيقة ، وإلى المجاز في تصوير

الخيال ، ويرسل الفكاهة الحلوة من حين إلى حين ليدفع سأم النفوس ويجدد نشاط السامع ، ويتعرف نفسية جمهوره فيجعل لكل مقام مقالا ، ولكل فهم منالا ، فيفصل ويجدد ويؤكد ويوجز ويطنب ، وكل أولئك في جمال قصد وحسن ذوق وقوة بصيرة . ولا تؤتى الخطابة إلا من طريق التطويل والحشو . روى الجاحظ أن ابن السماك جعل يتكلم وجارية له تسمع . فلما انصرف إليها سألها كيف سمعت كلامى ؟ قالت : ماأحسنه لولا أنك تكثر ترداده . قال أردده حتى يفهمه من لا يفهمه . قالت : إلى أن يفهمه من لا يفهمه يكون قد سئمه من فهمه .

والعرب أميل إلى الإيجاز فى الخطب لتكون أعلق بالصدور وأذيع فى المحافل ، فلم يطل منهم إلا الأفذاذ النوابغ ، كسحبان بن وائل ، فقد قيل إنه خطب أمام معاوية من الظهر إلى صلاة العصر . وسمعت المرحوم سعد زغلول يخطب أربع ساعات متواليات فى أربعين ألفاً من الناس فما توقف ولا كرر ولا استراح .

هذه مجمل الصفات التى يجب أن تراعوها فى صوغ الخطبة . أما ما يجب فى الإلقاء فالوضوح والطلاقة وتمثيل المعانى والعواطف بتغيير اللهجة وتنويع الصوت ، فيهدأ الخطيب ويثور ، ويبطىء ويسرع ، ويغضب ويعجب ، ويسأل ويجيب ؛ وكل ذلك مع اتقاء اللحن فى إعراب الكلام ، والمكنة فى إخراج الحروف ، وسلامة المنطق من العى والحبسة واللثغة واللجلجة والفأفأة والتلعثم ، وما يتبع ذلك من كثرة التنحنح والسعال وشرب الماء والالتجاء إلى جمل الاستعانة كتكرير أيها السادة مثلا .

ولحسن الإلقاء أثر عظيم فى نجاح الخطبة ؛ فقد يكون أسلوبها نازلا عن مقام البلاغة فيرفعه الخطيب القادر بفصاحة منطقه وأناقة لهجته وجهارة صوته ، فيلذ السامع ويلهيه بجمال إلقائه عن قبح إنشائه .

وأما الصوت فهو طريق الفكرة إلى الأذن ، فلابد أن يكون جهيراً حلو النغمة صافي الرنين خالص النبرات . ويجب على الخطيب أن يعنى به ويقف على قوة ارتفاعه ومدى اتساعه حتى لا يكلفه فوق طاقته فيصحل ويتهدج . ويحسن مع ذلك أن يبدأ به في انخفاض وتأن ، ثم يرفعه رويدا رويدا حتى يبلغ به أقصى قوته . ثم يردده بين الصعود والهبوط مغيراً في نبراته ونغماته ووقفاته تبعاً للمعنى الذي يؤديه ، محاذرا أن يرسله إلى فوق أو يرمى به ذات اليمين أو ذات الشمال فيتبدد أكثره ويضعف أثره .

تلك هي المؤثرات السمعية . وأما المؤثرات البصرية فأولها الوقفة، وشرطها أن يكون الخطيب فيها معتدل القامة مشرف الصدر إلى الأمام مقدما إحدى رجليه ليتم توازنه وينتظم تنفسه ويستقيم صوته . ويحسن أن يقف قبل بدء الكلام وقفة المنتظر حتى يملك شعوره ويعرف جمهوره ويذهب أثر الخطيب السابق أن كان هناك من سبقه . وثانيها الهيئة من وضاءة الطلعة واعتدال القوام وحسن الهندام وجمال البزة . وهذه صفات كالية قد يغني عنها جمال الأسلوب وحسن الإلقاء . وثالثها الحركة وهي مساعدة الكلمات والنبرات بالإشارات ، وهي طبيعية في الناس منشأها ضعف العبارة وعجز اللغة عن تأدية ما يجول في النفس من خواطر ومشاعر . لذلك تجدون حركات الجسم وملامح الوجه تشتد وتحتد كلما أصاب الإنسان عي أو لكنة . ومن ثم كانت الشعوب ذوات الخيال القوي والإحساس الشديد أكثر الأمم حركة وأشدها لهجة . وأشد ما تكون الحركات قوة وظهوراً حين تثور النفس وتضطرم العواطف فتنفجر من اللسان والجوارح والملامح . ولذلك كانت الحركات عنصرا من عناصر العمل الروائي وجزءا من أجزاء الفن الخطابي لشدة انفعالاتهما وكثرة مفاجآتهما وازدحامهما عادة بالمواقف الثائرة أو الساخرة . ولكن الخطيب الموفق هو الذي يضعها في محالها ويقصد في استعمالها فلا يبالغ ولا يتكلف ولا يكذب . .
وشرط الإشارة ألا تخفي الوجه وأن تتفق مع المعنى ، فتبطيء وتهدأ ، وتسرع

وتثور تبعاً له ، وألا تسبق الكلام ، وألا تأتى بعده ، وأن تكون باليد اليمنى إذا كانت الرجل اليمنى هى السابقة ، وباليسرى إذا كان الحال على العكس .

ثم الملامح والغرض منها أن تشارك حركات اليد ونبرات الصوت، فإن العيون مرايا القلوب . وأسرار الوجه تكشف عن أسرار الضمير . والخطيب يستطيع أن يعبر بعضلات الوجه وتغضن الجبين عن اللذة والألم ، والرضا والسخط ، والنفور والميل ، والسرور والحزن ؛ وبالعيون عن العواطف المختلفة فيفتحها عند الغيظ والدهش والإعجاب والخوف ، ويطبقها عند التواضع والمسكنة ، ويديرها يمنة ويسرة عند الجزع والاشمئزاز والرثاء ، ويرفعها إلى السماء فى الألم الشديد والدعاء . ويخفضها إلى الأرض فى التفكير والحيرة والخشوع والحياء والعار واليأس !

ثم نعود فنقول إن الخطابة كالشعر استعداد وطبع . ولابد للاستعداد والطبع من رياضة وثقافة . فالخطيب إذا لم يكثر المرانة جمد لسانه ، وإذا لم يدمن القراءة نضب معينه وضعف بيانه .

وأخص ما يدل على استعداد الخطيب طلاقة اللسان وقوة الحس وحضور الذهن ورباطة الجأش . والصفتان الأخيرتان ضروريتان للخطيب السياسى والخطيب القضائى ، لأن معارضة الخصوم ومقاطعة الزملاء ومفاجأة الحوادث تحرج الصدر وتثير الغضب وتهاجم الالب . فاذا لم يكن الخطيب مالكا لعواطفه عليما بمواقفه تبدد ذهنه والتاث عليه أمره فلا يعرف قبيلا من دبير . قد يعارضك وأنت تخطب نائب ، أو يقاطعك مستمع ، أو يفجأك بالحجة محام أو قاض ، فماذا تصنع إذا لم يكن ذهنك سريعاً وخاطرك مطيعاً وجوابك حاضراً ! لقد كان جان جاك روسو يقول عن نفسه : لم أستطع طول عمرى أن آتى بالجواب الموفق إلا بعد ربع ساعة من الوقت الملائم . فماذا يكون حال روسو وأمثاله فى البرلمان أو فى المحكمة حين تقتضى المعارضة أو المفاجأة رداً حاسماً سريعاً ؟ انظروا مثلا إلى حضور ذهن

أبى جعفر المنصور ، فقد خطب يوما فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس اتقوا الله . . فقام إليه رجل من عرض الناس فقال : أذكرك الذى ذكرتنا به . فأجابه المنصور على الفور : سمعا سمعا لمن ذكرنا بالله ، وأعوذ بالله أن أذكرك به وأنساه ، فتأخذنى العزة بالاثم ، لقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين . وأما أنت فوالله ما الله أردت بهذا ، ولكن ليقال قام فقال فعوقب فصبر . وأهون بها لو كانت ! !

وأنا أنذركم أيها الناس أختها ، فإن الموعظة علينا نزلت ، وفينا أنبتت . ثم رجع إلى موضعه من الخطبة .

وانظروا إلى بديهة (لامرتين) العجيبة وقد اشتد الجدل بينه وبين الجمهور الغاضب الصاخب فى يوم عصيب تزاحمت فيه مناكب الخطباء ، وصرح الشر باسمه بين الشعب والزعماء ، فصعد المنبر ولم يخلص إليه من شدة الدفع والجذب والزحام إلا بعد لأى وجهد . فلما رأى نفسه أمام الثائرين وجها لوجه قال : أبناء أمتى لماذا دعوتمونى ؟

أصوات : لنعرف بأى حق تحكمون الشعب ، ونعلم أأنتم أهل غلول وخيانة ، أم وطنيون خليقون بهذه الثورة .

لامرتين : بأى حق نحكمه ؟! بحق الدم المسفوك ، والنار التى تلتهم معاهدنا ، والشعب الذى يعوزه الرئيس ، والأمة التى لا قائد لها ولا نظام ، وربما جاء الغد وليس لها قوت ! بحق الإخلاص والشجاعة ، بحق أولئك الذين يسبقون إلى التضحية جاعلين ضمائرهم هدفاً للشبهات ، ورءوسهم غرضاً للمشانق ، ودماءهم عرضة للانتقام ! أتحسدوننا على هذا الحق ؟ إنه لكم كما هو لنا ، ولانجادلكم فيه . كلكم أهل للتطوع فى هذه السبيل ، ولا ندعى من الحقوق إلا ما يمنحه الضمير الذى يسيطر علينا والخطر الذى يحيق بكم . . .

أصوات : — لا لا ! بلى بلى ! لا حق لكم فى تولى الحكم . لستم من الشعب ! لم تخرجوا من وراء المتاريس .

أصوات أخرى : — لالا ! بل هم الذين احتجوا على الفساد ودافعوا عن الشعب . لقد قلبنا الملكية فليقل لنا لامرتين أيريد أن يعطينا الجمهورية ؟ .

لامرتين : — الجمهورية ! ! ومن نطق بهذا الاسم ؟

— كلنا ، كلنا .

لامرتين : — الجمهورية ! وهل تعرفون ما تطلبون ؟ أتعرفون ما هو الحكم الجمهورى ؟

— قل لنا ! قل لنا ؟

لامرتين : — الجمهورية هى حكم العقل ، فهل تشعرون أنكم أهل لأن تحكموا عقولكم ؟

— نعم نعم !

لامرتين : — الجمهورية هى حكم للعدل ، فهل تشعرون أنكم تعدلون ولو فى الحكم على أنفسكم .

— نعم نعم !

وسار لامرتين فى خطبته على هذا النمط العجيب من الذكاء النادر والجواب الحاضر والأخذ بكظم الجمهور والاستيلاء على شعوره ورأيه من غير تحضير سابق ولا تلكؤ ظنين .

وازنوا بين ما سمعتم وبين ما حدث لفكتور هوجو فى جلسة برلمانية كانت تدور على تعديل قانون الانتخاب . وكان هوجو يكتب خطبه بلغة عالية ويستظهرها ثم يلقيها عن ظهر قلبه . فإذا قوطع أثناء أدائها أرتج عليه أو أجابه بالهذر . وقف ذلك اليوم يخطب بعد ما احتشد للكلام وأعده ، فلم يكد

يسترسل فى خطبته حتى قاطعه أهل اليمين بالسخرية والتنادر ، فقال هوجو :

أيها السادة : إن هذه المقاطعات المدبرة المنظمة . . .

فقاطعه صوت من اليمين : — كل ما فى الأمر أننا نضحك !

صوت آخر — ذاك يهوش عليك خطبتك المحفوظة .

هوجو — إن الغرض من هذه المقاطعات تشتيت ذهن الخطيب .

صوت — قل حافظته ! حافظته !

هوجو — يريدون أن يسلبوا الخطيب حرية الفكر . . .

صوت — حرية الحفظ ! حرية الحفظ !

فوقف هوجو أمام الساخرين لا يحير جواباً . ولما قال فى خطبته التى هاجم بها قانون النفى :

« تأتى الثورة فجأة فيصير الأذكياء أقزاماً » أجابه نائب معارض :

« ويصير الأغبياء جبابرة » فلم يسعفه خاطره بالرد فأرسل إلى الرئيس نظرات الاستغاثة .

ولتلك البديهة المتخلفة فشل هوجو فى ميدان الخطابة ، وكان تأثير خطبه فى القارىء أشد منه فى السامع . فأنتم ترون أن الخطيب السياسى والخطيب القضائى إذا لم تؤتهما العارضة الشديدة والرد الحاسم والحلم الرزين والجأش الرابط كان نجاحهما منيع الدرك ، لأن الخطب السياسية والقضائية كما قلت مثار الخصومة والجدل ، وموضع التأثير والحجة ، ولهذين النوعين وضعت القواعد ، وعليهما دارت مسائل هذا الفن ، وفيهما اشتهر الأفذاذ من رجاله . وهنالك نوع ثالث يليهما فى القوة والبلاغة والأثر وهو الخطب الحربية ؛ غير أنها أوجز لفظاً وأحكم نظماً وأحوج إلى استفزاز العواطف كخطبة طارق بن زياد فى فتح الأندلس مثلا .

وقد تغنى فى هذا النوع الجملة القصيرة المحكمة عن الخطبة الطويلة المرسلة، كقول نابليون وقد دارت رحى الحرب بين جنوده وجنود مصر على مقربة من الأهرام: أيها الجنود اثبتوا فإن أربعين قرناً تنظر إليكم من فوق الأهرام. وكقول أحد القواد فى حرب الفاندى: أيها الجنود: إذا أنا أقدمت فاتبعونى، وإن أحجمت فاقتلونى، وإن مت فاثأرونى».

بقيت الخطب الدينية والخطب العلمية. أما الأولى فدارها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتثقيف العقل بالحكمة والموعظة الحسنة. واستمدادها من النصوص الشرعية والعلوم الكونية والفضائل النفسية. وماأظن أحداً منكم يهيىء نفسه لها فلندعها إلى أهلها. وأما الأخرى وأعنى بها المحاضرات فهى أقوم حجة وأضوأ محجة وأهدأ بياناً وأسهل أسلوباً؛ لأنها تقصد إلى التعليم لا إلى التأثير، وإلى الإقناع لا إلى الإمتاع، فلاتثير رغباً ولارهباً ولاغضباً ولارحمة. تعتمد على البحث العلمى والدليل المنطقى والتحليل النفسى، فهى درس عام تبسط فيه الحقائق مفصلة محللة جلية لايبددها استطراد، ولايفسدها نقص، ولاتبهمها إحالة. فالمحاضر القدير يدرس موضوعه من جميع جهاته، ويبحث عنه فى كل مظانه، ثم يلم أطرافه ويجمع متفرقه ويدنى قصيه، ثم يؤديه بأسلوب جذاب يثير الشوق ويدفع السأم؛ فإن البلاغة صفة لازمة للمتكلم تلازمه فى كل موضع وتتفجر من قلبه وذهنه فى كل موضوع.

هذه جملة يسيرة من أصول الفن الخطابى لابد منها للناشىء البادىء. وقد عرضتها عليكم عرضا فى مبدأ الطريق لتجعلوا منها دليلا تتبعونه وناصحاً تستشيرونه. ومرجع الأمر كله إلى الاستعداد والاجتهاد، فثابروا وصابروا أنفسكم بالمطالعة والمران، وأشعروا قلوبكم الرغبة فى هذا الفن فإن الرغبة فى الشىء تسهل الصعب وتخفف المؤونة وتوفق بين الوسيلة والغاية.

أسأل الله أن يوفق أعمالكم ويحقق آمالكم ويسدد خطاكم فى مدارج الفلاح.

عبرة الصوم في وداع رمضان

المسلمون فى توديع رمضان جد مختلفين ، فمنهم المتقون والقرويون والذين لم تقس قلوبهم على جفاف المادية وكلب العيش ، وهؤلاء يودعونه وعلى وجوههم غشاوة من الأسى على بركات تريد أن تنقضى ، وخيرات توشك أن تنقطع ، كأنما يعتقدون أن باب السماء فى غيره مغلق . وأن وجه الأرض من بعد يومه جديب ! فإذا بدأ الربع الأخير من رمضان ظهر الحزن عليه صادقا فى الوجوه ناطقا على الأفواه ؛ إذ يتمثلونه محتضراً يقاسى غصص الموت فيتفجع عليه الصائمون فى البيوت ، والمصلون فى المساجد ، والمؤذنون فوق المآذن ، والمسحرون على الأبواب ، وكلهم يقولون سراً وجهراً : لا أوحش الله منك ياشهر البر والذكر والفكر والرجاء .

ومنهم الخلعاء والمجان والذين فى قلوبهم مرض وفى إيمانهم ضعف ، وهؤلاء يودعون فى رمضان قيداً ثقيلا غلّهم عن شهوات الجسد ونزوات النفس ، فهم يفرحون لوداعه فرح السجين إذا أطلق والمحروم إذا نال . ومن هؤلاء أكثر الشعراء . وتبرمهم على رمضان معروف ، وابتهاجهم بشوال مأثور . ولعل أقدم شعر سمعناه فى التبرم بشهر الصوم قول الفرزدق على قرب عهده بعصر النبوة :

إذا ما انقضى عشرون يوما تحركت　　أراجيف بالشهر الذى أنا صائمه

وطارت رقاع بالمواعيد بيننا　　لكى يلتقى مظلوم قوم وظالمه

فإن شال شوال نشل فى أكفنا　　كؤوسا تمادى العقل حين تسالمه

ولأبى نواس وأمثاله فى هذا الباب حماقات نذكر منها على سبيل الفكاهة قوله :

منع الصوم العقارا　　وذوى اللهو فغارا

وبقينا في سجون الصـــــوم للهـم أسارى
غير أنا سـنداري فيه من ليس يدارَى
نشرب الليل إلى الصبح صغاراً وكباراً
نتغنى ما اشتهينـــا ه من الشعر جهاراً
فاسقني حتى تراني أحسب الديك حماراً

والخليفة ابن المعتز الذي يقول عن نفسه :

ونهاها الصيام عن سفه الـكأ س فردت على السقاة المداما

يقول في استقبال العيد :

أهلا بفطر قد أتاك هلاله فالآن فاغد إلى المدام وبكّر

وكتب على بن جبلة إلى أبي دلف يستهديه نبيذاً في يوم عيد الفطر فوجه إليه ما كفاه ومائتي دينار فقال فيه :

وأبيض عجلي رأيت غمامه وأسيافه تقضى على الحدثان
رددت إليه ذمتي فأجارها وأغنى يدى عن غيره ولسانى
شربت ورويت النديم بماله وأدركت ثأر الراح من رمضان

ومن الشعراء من كان يحب رمضان لشرابه وطعامه ، لا لصيامه وقيامه .
قال أبو الحسين الجزار المصري في الـكنافة وقد امتنعت عليه .

ومالى أرى وجه الـكنافة مغضبا ولولا رضاها لم أرد رمضانهـــا
عجبت لها من رقة كيف أظهرت علىّ جفا قد صد عنى جفانهـــا
ترى اتهمتنى بالقطايف فاغتدت تصد اعتقاداً أن قلبى خانها
وقد قاطعتنى ماسمعت كلامها لأن لسانى لم يخالط لسانهـــا

لا أحب أن أوغل فى حديث هؤلاء المجان فإنهم ليسوا من رمضان ولا من أهله . وأعود إلى حديثكم أيها الصائمون القائمون الذين ودعتموه بالحسرات وشيعتموه بالدموع فأسألكم : هل أنتم يوم ودعتموه خير منكم يوم استقبلتموه ؟ هل تشعرون بعد أن أديتم فريضة هذا الركن القوى من أركان الإسلام أن نفوسكم أصبحت أطهر ، وأن أخلاقكم صارت أكرم ، وأن أهواءكم غدت أرفع ؟ وهل تحسون أثر أولئك كله فى دنياكم الخاصة والعامة ، فأنتم اليوم أشد قربا من الله ، وأوثق صلة بالناس ، وأطيب نفسا بالحياة ؟

إسألوا أنفسكم هذه الأسئلة ثم أجيبوا عنها ، وأنا معتقد أن أجوبتكم ستكون بالإيجاب ، وإلا لما حزنتم على انقضاء رمضان وأسفتم على انقطاع الخير فيه ، فإن المرء لايحزن إلا على عزيز ، ولا يأسف إلا على نافع . فلماذا إذن لاتجعلون سائر الشهور كشهر رمضان ؟ لماذا لا تستمرون فى الصيام عن ظاهر الإثم وباطنه ، فتغلوا أيديكم عن الأذى ، وتصونوا ألسنتكم عن الكذب ، وتطهروا قلوبكم من الرجس ، وتنزهوا مكاسبكم عن الحرام ، وتبرئوا أعمالكم من الغش وقد جربتم ذلك فى رمضان فنفعت التجربة وحسنت العاقبة ؟

لماذا لاتضيقون الكلفة فى القهوة لتوسعوا النفقة فى البيت ، وتقتصدون قليلا فى الأنس بالأصدقاء لتوفروا كثيراً من الأنس بالأسرة ، وقد فعلتم ذلك فى رمضان فاعتدلت الحال وطابت المعيشة ؟

هذا السكير الذى استطاع أن يهجر الخمر ثلاثين يوما وثلاثين ليلة ، فزكا قلبه ، وامتلأ جيبه ، وصح بدنه ، لماذا لايواصل العيش بعد رمضان على هذا المنهاج وقد علم بالاختبار أن هـــذا الهجر قد نفعه ولم يضره ، وتيسر له ولم يتعسر عليه ؟

وهذا المدخن الذى ترك التدخين ثلاثين يوما فأراح صدره وسكن أعصابه

وقوى شهوته ، لماذا لا يستمر صائما عنه ليله ونهاره ، وقد رأى أن فى طاقته الاستغناء عنه والحياة بدونه ؟

وهذا القوى الذى كان وهو صائم يمر باللغو كريما ، فيقابل الذنب بالمغفرة ، والسيئة بالحسنة والقطيعة بالصلة ، فوصل السلام بين قلبه والأمن ، وقرب الوئام بين نفسه والسعادة ، لماذا لا يحرص على هذا الخلق وهو مفطر بعد ماجنى من خيره فى أربعة أسابيع مالم يجنه من غيره فى العام كله ؟

وهذا التاجر الذى راضه الصوم على أن يقف نفسه عند حدود الله فى التجارة ، فلم يطفف الكيل ، ولم يُخسر الميزان ، ولم يقارف الاحتكار ، ولم يغش البضاعة ، ولم يرفع السعر ، ثم تحقق من جدوى ذلك عليه فى رضا ربه وراحة ضميره ومصلحة وطنه ، لماذا لا يلزم نفسه ذلك فى كل وقت بعد أن استمرأ طعم الحلال وأدرك لذة الحق ؟

وهذا الغنى الذى ذاق فى رمضان ألم الجوع ، وكابد مشقة الحرمان ، ثم استطاع بالصدقة أن يخفف عناء الفقر عن فقير ، ويدفع شر الحاجة عن محتاج ، لماذا لا يشعر دائما أن الجوع بعد رمضان باق ، وأن العوز فى أكثر الناس قائم وأن للسائل والمحروم حقا لا يتقيد أداؤه بيوم ، ولا يتخصص قضاؤه بصوم ؟

إن رمضان شهر رياضة وموسم استشفاء . نروض فيه أنفسنا على الخير لتمرن عليه ، ونعالجها به من الشر لتبرأ منه . وليس الغرض من هذه الرياضة وهذا الاستشفاء أن يحدثا أثرهما الطيب فى حياة المرء فى شهر بعينه ، فإن ذلك يخالف حكمة الشارع من الصوم ، ويناقض منطق الأشياء فى الواقع . والمريض الذى يطلب العافية فى مدينة من مدن المياه الطبية لا يطلبها للمدة التى يقضيها فى المصحة ، وإنما يطلبها لتكون عمادا قويا لما وهن من جسمه ، وزادا صحيا لما بقى من عمره . وما أبعد المسلم عن الاسلام إذا كان يعتقد أن الصلاة لا تنهاه عن

الفحشاء والمنكر إلا وهو فى المسجد ، وأن الصوم لا يعصمه من اللغو والأذى إلا وهو فى رمضان ، وأن الزكاة لا توجهه إلى المعروف والخير إلا وهو فى العيد .

أما أنتم معاشر الذين خرجوا من رمضان بزاد من التقوى للقلب والروح ، وذخيرة من الخير للوطن والأمة ، وعدة من الصبر للجهاد والعمل ، فإنكم أحرى فى هذه الليلة — ليلة العيد — أن تهنأوا بحزنكم فى توديع شهر الصوم ، وبفرحكم فى استقبال يوم الفطر ، فان الحزن على رمضان تقوى وبر ، لأنه حزن على خير مضى وأنس فات ؛ وأن الفرح بالعيد عبادة وشكر ، لأنه فرح يبشرى نزول الوحى وذكرى يوم بدر .

الفهرس

صفحة

مقالات

كيف أعلن محمد حقوق الإنسان ٥

ثوروا على الفقر قبل أن يثور ٩

عبد العزيز فهمى ١١

ربيعك فى نفسك ١٥

قاسم أمين ١٧

الربيع فى الشعر المصرى ٢٦

رحلات عزام ٣٢

أدبنا فى الحديث ٣٤

متى يغضب الفلاح ! ٣٦

الملك عبد الله ٣٨

تفسير ! ٤٠

نماذج فنية من الأدب والنقد ٤٢

هبى يا رياح الخريف هبى ! ٤٤

نهاية مأساة ٤٦

ماذا بعد هذا ؟ ٤٨

سبعون عاما ! ٥٠

الرسالة والدعوة ٥٢

فدائيون وأنانيون ٥٦

رسالة وصورة ٥٨

صفحة

تحية للشيخ الرئيس ابن سينا ٦٠

الكتلة الإسلامية ٦٤

واحسرتاه على عزيز ! ٦٦

بعض الفقهاء ! ٦٨

وأخيراً ظهر القائد المنتظر ٧٠

بلغنا العدد الألف ٧٢

كان ظهور الإسلام فتحاً لعالم جديد ٧٦

تجلد يا قارون ! ٨١

ثورة فيها ريح النبوة ٨٣

رسالة وجوابها ٨٥

نصيب قريتى من الثورة ٨٧

القرآن والدستور ٨٩

من عهد إلى عهد ٩١

أين المسلمون اليوم من الإسلام؟ ٩٤

مهرجان الحرية ! ٩٩

الرسالة تحتجب ! ١٠٢

لماذا كانت وحدة الأدب العربى ١٠٧

القصيدة، ووحدة الأدب العربى القصة

العربية جزء من حقيقة الإسلام ١١٢

مذهبى فى الحياة ١١٦

شباب وشيوخ أو عامية وفصحى ١٢٠

	صفحة
الفن بين الصعود والهبوط	١٢٤
بعض الأسماء ينزل من السماء	١٢٩
قصة مريض	١٣٤
حـــيرة !	١٤٠
أحمد أمين الأديب	١٤٥
أما آن لهذا الحيوان أن يعقل؟	١٤٩
من ذكريات الصيف فى بغداد	١٥٤
كيف كان العراقيون يتقون الحر؟	١٥٩
من ذكريات الصيف فى باريس	١٦٤
استقبال شهر رمضان	١٦٩
أقاصيص	
جلاد الشيطان	١٧٦
سيدنا الشيخ حسن	١٩٠
الغرام الأول	١٩٩
فى سبيل الأرض الطيبة	٢٠٩
رجلان وامرأة	٢٢٩
أحاديث	
الأدب والثورة	٢٥٢
علاقة الأدب بالثورة	٢٥٢
كيف مهد الأدب للثورة	٢٥٥
نهضة العرب وثورتهم فى القرن السادس للميلاد	٢٦٠
نهضة العرب وثورتهم فى القرن العشرين	٢٦٥

	صفحة
فضل الأدب على وحدة العرب	٢٧٠
كيف تسنى للأدب أن يجمع الشمل ويمهد للثورة	٢٧٥
أهوجوع الروح أم جوع الجسد!	٢٨٠
حياتنا الفكرية بعد الثورة	٢٨٥
كيف كانت حياتنا الفكرية قبل الثورة	٢٨٥
المدرســـة	٢٩٠
اللغـــة	٢٩٤
التأليف والترجمة	٢٩٩
حق الفكر على الثورة	٣٠٤
الصحافة والإذاعة	٣٠٨
التمثيل والسينما	٣١٢
الثورة تطور إلى أحسن	٣١٦
من أدب الأمثال	٣٢٠
نشأة الأمثال وأنواعها	٣٢٠
فلسفة الأمثال ومغازيها	٣٢٤
من أمثال الرسول فى الحرية والجماعة	٣٢٩
بعض الأمثال فى بعض الشعوب	٣٣٢
جمهورية من نوع جديد	٣٣٧
يوم الجلاء	٣٤١
محمد إقبال	٣٤٥
أصول الفن الخطابى	٣٤٩
عبرة الصوم فى وداع رمضان	٣٥٩
الفهرس	٣٦٤

مؤلفات للكاتب

١ — وحى الرسالة : المجلد الأول

٢ — وحى الرسالة : « الثانى

٣ — وحى الرسالة : « الثالث

٤ — وحى الرسالة : « الرابع

﴿ كل مجلد من هذه المجلدات الأربعة مستقل بذاته ﴾

٥ — فى ضوء الرسالة

٦ — تاريخ الأدب العربى

٧ — فى أصول الأدب

٨ — دفاع عن البلاغة

٩ — آلام فرتر

١٠ — رفائيل

١١ — من الأدب الفرنسى — قصائد وأقاصيص

١٢ — مجموعات مجلة الرسالة فى عشرين سنة